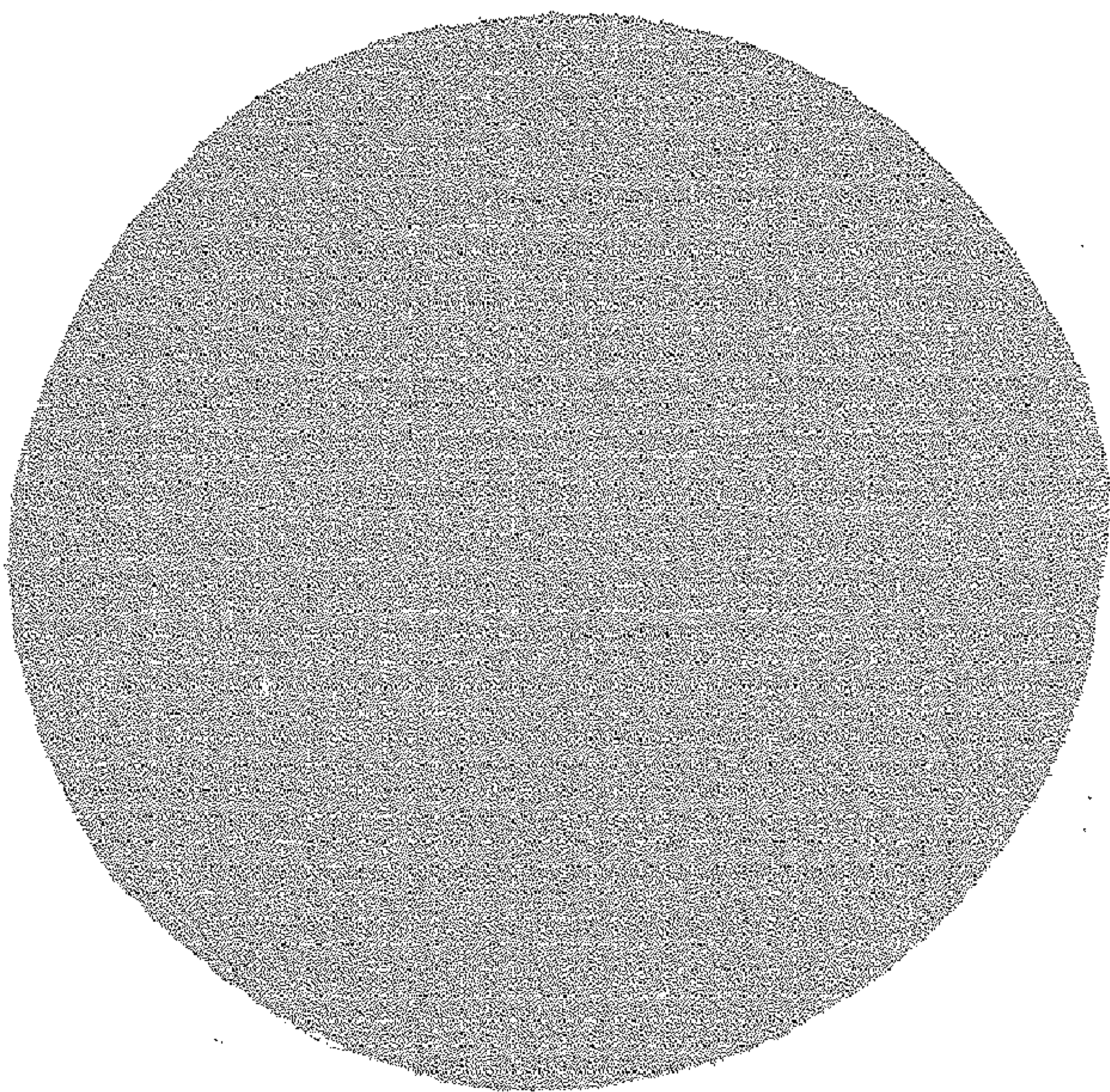
شؤون فلسطينية

٦٥ نيسان (ابريل) ١٩٧٧




شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٦٥ — نيسان (ابريل) ١٩٧٧

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ؛ راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص٠ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ١/٢ ٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ١/٢ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الأقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة
جمانه الحسيني

المحتويات

المجلس الوطني الفلسطيني
الدورة الثالثة عشرة -
"دورة الشهيد كمال جنبلاط" :

الاعلان السياسي

ان المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الثالثة عشرة ، « دورة الشهيد كمال جنبلاط » ، انطلاقا من الميثاق الوطني الفلسطيني وقرارات المجالس الوطنية السابقة ، ومن الحرص على الانتصارات والمكتسبات السياسية التي حققتها م٠ت٠ف على الصعيدين العربي والدولي خلال الفترة التي تلت دورته الثانية عشرة وبعد دراسة ومناقشة اخر تطورات قضية فلسطين ومختلف اوجه نشاطات الثورة الفلسطينية بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية داخليا وعربيا ودوليا ، وكذلك الوضعين العربي والدولي وتأكيدا على دعم مسيرة النضال الوطني الفلسطيني وتحقيق اهدافه في جميع الميادين والمحافل العربية والدولية ، فان المجلس الوطني الفلسطيني يؤكد ما يلي :

اولا : يؤكد المجلس الوطني الفلسطيني ان قضية فلسطين هي جوهر الصراع العربي ـ الصهيوني واساسه ، وان قرار مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ يتجاهل الشعب الفلسطيني وحقوقه الثابتة في وطنه ، ولذلك فان المجلس الوطني يؤكد رفضه لهذا القرار ورفض التعامل على اساسه عربيا ودوليا ٠

ثانيا : يؤكد المجلس الوطني الفلسطيني موقف م٠ت٠ف من تصميمها على مواصلة الكفاح وما يترافق معه من اشكال النضال السياسي والجماهيري ، لتحقيق الحقوق الوطنية غير القابلة للتصرف للشعب العربي الفلسطيني ٠

ثالثا : يؤكد المجلس الوطني الفلسطيني ان النضال في الاراضي المحتلة بكافة اشكاله العسكرية والسياسية والجماهيرية يشكل الحلقة المركزية في برامجه النضالية ، وعلى هذا الاساس تناضل م٠ت٠ف من اجل تصعيد الكفاح المسلح في الاراضي المحتلة ، وتصعيد كافة اشكال النضال الاخرى المترافقة معه وتقديم جميع اشكال الدعم المادي والمعنوي لجماهير شعبنا في الارض المحتلة ، من اجل تصعيد هذا الكفاح ودعم صمودها لدحر الاحتلال وتصفيته ٠

رابعا : يؤكد المجلس الوطني الفلسطيني موقف م٠ت٠ف برفض جميع

اشكال التسويات الاستسلامية الاميركية وكافة المشاريع التصفوية ، ويؤكد تصميم م٠ت٠ف على التصدي لافشال اي تسوية تتم على حساب حقوق شعبنا الوطنية والثابتة ، ويطالب الامة العربية بتحمل مسؤولياتها القومية وحشد جميع طاقاتها لمواجهة هذه المخططات الامبريالية الصهيونية ٠

خامسا : يؤكد المجلس الوطني الفلسطيني على اهمية وضرورة الوحدة الوطنية عسكريا وسياسيا بين جميع فصائل الثورة الفلسطينية في اطار م٠ت٠ف ، لكونها شرطا اساسيا من شروط الانتصار ، ولذلك يتوجب ترسيخ الوحدة الوطنية على مختلف المستويات وجميع الاصعدة على قاعدة الالتزام بهذه القرارات ووضع البرامج الكفيلة بتنفيذ ذلك ٠

سادسا : يؤكد المجلس الوطني الفلسطيني حرصه على حق الثورة الفلسطينية بالتواجد على ارض لبنان الشقيق في اطار اتفاقية القاهرة وملاحقها المبرمة بين م٠ت٠ف والسلطات اللبنانية ، كما يؤكد تمسكه بتنفيذها نصا وروحا ، بما فيها الحفاظ على سلاح الثورة وامن المخيمات . ويرفض اي تفسير لهذه الاتفاقية وملاحقها من جانب واحد مع حرصه على سيادة لبنان وامنه ٠

سابعا : يحيي المجلس الوطني الفلسطيني الشعب اللبناني الشقيق البطل ويؤكد حرص م٠ت٠ف على وحدة ترابه وشعبه وامنه واستقلاله وسيادته وعروبته ، ويؤكد اعتزازه بمساندة هذا الشعب الشقيق البطل لـ م٠ت٠ف التي تناضل من اجل استرداد شعبنا لحقوقه الوطنية في وطنه وحقه في العودة اليه ، ويؤكد بشدة على ضرورة تعميق وترسيخ التلاحم بين جميع القوى الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية ٠

ثامنا : يؤكد المجلس الوطني الفلسطيني على ضرورة تقوية الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية وتعميق التلاحم مع جميع القوى الوطنية العربية المشاركة في جميع اقطار الوطن العربي ، كذلك ضرورة تصعيد النضال العربي المشترك ، والارتقاء بصيغة دعم الثورة الفلسطينية لمواجهة مخططات الامبريالية والصهيونية ٠

تاسعا : يقرر المجلس الوطني الفلسطيني تعزيز النضال والتضامن العربي على قاعدة النضال ضد الامبريالية والصهيونية والعمل على تحرير كافة الاراضي العربية المحتلة ، والالتزام بدعم الثورة لاسترداد الحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني دون صلح او اعتراف ٠

عاشرا : يؤكد المجلس الوطني حق م٠ت٠ف في ممارسة مسؤولياتها النضالية على المستوى العربي والقومي وعبر اية ارض عربية في سبيل تحرير الارض المحتلة ٠

حادي عشر : يقرر المجلس الوطني الفلسطيني مواصلة النضال من اجل استعادة الحقوق الوطنية لشعبنا وفي مقدمتها حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته الوطنية المستقلة فوق ترابه الوطني ٠

ثاني عشر : يؤكد المجلس الوطني الفلسطيني على اهمية تعزيز التعاون والتضامن مع البلدان الاشتراكية والدول غير المنحازة والدول الاسلامية والدول الافريقية ومع جميع حركات التحرر الوطنية في العالم ٠

ثالث عشر : يحيي المجلس الوطني الفلسطيني مواقف ونضالات جميع الدول والقوى الديمقراطية التي وقفت ضد الصهيونية بصفتها شكلا من اشكال العنصرية وضد ممارساتها العدوانية ٠

رابع عشر : يؤكد المجلس الوطني الفلسطيني على اهمية العلاقة والتنسيق مع القوى اليهودية الديمقراطية والتقدمية في داخل الوطن المحتل وخارجه التي تناضل ضد الصهيونية كعقيدة وممارسة ويدعو جميع الدول والقوى المحبة للحرية والعدل والسلام في العالم الى قطع جميع اشكال المساعدة والتعاون مع النظام الصهيوني العنصري ورفض الاتصال به وبأدواته ٠

خامس عشر : ان المجلس الوطني الفلسطيني ، آخذا بعين الاعتبار الانجازات التي تمت على الساحتين العربية والدولية منذ انتهاء الدورة الثانية عشرة للمجلس ، وبعد استعراض التقرير السياسي المقدم من اللجنة التنفيذية يرى ما يلي :

أ ـ يؤكد حرصه على حق م٠ت٠ف للاشتراك بشكل مستقل ومتكافيء في جميع المؤتمرات والمحافل والمساعي الدولية المعنية بقضية فلسطين وبالصراع العربي الصهيوني ، بغرض تحقيق حقوقنا الوطنية غير القابلة للتصرف ، وهي الحقوق التي اقرتها الجمعية العامة للامم المتحدة منذ سنة ٧٤ وخاصة القرار ٣٢٣٦ ٠

ب ـ يعلن المجلس الوطني الفلسطيني ان اي تسوية او اتفاق يمس حقوق شعبنا الفلسطيني في غيابه باطلة من اساسها ٠

عاشت الثورة الفلسطينية
عاشت الوحدة الوطنية الفلسطينية بين فصائل الثورة
المجد والخلود لشهدائنا الابرار
وثورة حتى النصر ٠

المجلس الوطني الفلسطيني
الدورة الثالثة عشرة
دورة الشهيد كمال جنبلاط
٢٠ـ٣ـ١٩٧٧

استشهاد كمال جنبلاط ضريبة الانتماء الى المستقبل

جوزيف سماحة

« ان هؤلاء البؤساء والمشردين ، هؤلاء الذين ليس على صدرهم قميص هم الذين سيحررون العالم » · (كمال جنبلاط)

سيبقى كمال جنبلاط الذي سقط شهيدا يوم الاربعاء ١٦ اذار لغزا يحار الكثيرون في تفسيره · واشد الناس حيرة هم بالطبع اولئك الذين يقيمون تعارضا بين سقوطه شهيدا في خضم معركة الدفاع عن الثورة الفلسطينية والتطلعات الوطنية الديمقراطية لشعب لبنان وبين انتمائه الاجتماعي الذي كان يفترض ان يشده الى حيث يرتع « امراء السياسة اللبنانية » في موقع التصادم مع الجماهير الشعبية اللبنانية والقضايا القومية والاجتماعية للجماهير العربية ·

لقد كان كمال جنبلاط من طينة اخرى ·

طينة من يعرف ان اللعب بنار القضية الفلسطينية يكلف غاليا وان وضع « الصيغة اللبنانية » على المحك ، بما هي صيغة طائفية ــ انعزالية امر لا يمكن ان يمر مرور الكرام في هذا الزمن العربي الرديء ·

لا نزعم ، في هذه العجالة ، تقديم كشف حساب بالنضالات التي خاضها وقادها زعيم الحركة الوطنية اللبنانية ، صديق الثورة الفلسطينية ، على امتداد ثلاثين عاما ·· تلك مسألة قد يأتي مجالها لاحقا ·

ولا نزعم ايضا تقديم تفسير علمي واسع ودقيق للاسباب التي جعلت كمال جنبلاط زعيما للحركة الوطنية اللبنانية ، وقائدا لمسيرتها ، بكل ما لكلمة قائد من معنى ·

حسبنا ان نكرم الرجل باعادة الاعتبار للعناوين العامة والاساسية التي تختصر المعاني العميقة الكامنة وراء انحياز ابن « دار المختارة » الى « الفقراء والمشردين الذين ليس على صدرهم قميص » ·

لقد قاد كمال جنبلاط نضالات الجماهير اللبنانية منذ نهاية الاربعينات ، ايام تأسيس الحزب التقدمي الاشتراكي ، حتى لحظة استشهاده ···

وكانت قضايا الديمقراطية والحريات والمطالب العمالية والفلاحية من البنـود الاساسية الحاضرة دائما في برامج حزب كمال جنبلاط وفي التحركات السياسيـة والشعبية التي قادهـا ٠٠

وكانت القضايا الوطنية ، قضايا الدفاع عن عروبة لبنان والتصدي لمحـاولات ربطه بالاحلاف الاستعمارية ، واقامة الصلة بينه وبين حركة التحرر العربية ،ونقل القضية القومية الى داخله ، والوقوف الى جانب الثورة الفلسطينية منذ اللحظـة الاولى ٠٠ كانت هذه القضايا محاور سياسة الحزب التقدمي الاشتراكي وسياسة كمال جنبلاط منذ عشرات السنين ٠

وفي معرض الاستعراض السريع للقضايـا التي انتصر لهـا كمال جنبلاط ، وللفترات التي قاد خلالها النضال الوطني والديمقراطي لا بد من وقفة خاصة عند السنتين الاخيرتين، سنتي العدوان على الثورة الفلسطينية وعروبةلبنان ووحدته٠

طيلة السنتين الماضيتين كان كمال جنبلاط القائد الوطني اللبناني والعربـي الذي شكل محطة الاستقطاب الرئيسية للقوى الداعمة للثورة والمؤيدة لها ،وعنصر التصليب الاساسي للجبهة اللبنانية المعادية للانعزالية ، وعامل اللحمة الرئيسـي داخل الصف الوطني العريض الذي هب مدافعا عن الثورة الفلسطينية وعن عروبة لبنان ووحدتـه ٠

وهنا ايضا ادهش كمال جنبلاط الكثيرين ٠٠ خاصة اولئك الذين كانواينتظرون منه ان يساوم وان يقدم على مهادنات لا مبرر لها ٠٠ وبلغ من حدة اندفاعـه ، ان تحول الى مدافع عن الثورة الفلسطينية في المتراس الامامي بشكل سمح للبعض ان يعلن نفسه وسيطا بين كمال جنبلاط وبين قوى عربية ما اختلف معها كمـال جنبلاط الا حول الثورة الفلسطينية نفسها ٠

دفاعا عن الثورة الفلسطينية غـامر كمال جنبلاط بكل شيء ٠

وليس سرا القول ان العروض انهالت عليه طيلة السنتين الماضيين مقترحـة عليه ان يقايض دعمه للثورة الفلسطينية بما يشاء من وزن سياسي لكنه كـان يرفضها كلها ، صامدا عند الموقف السياسي الصلب القائل بان اي توازنسياسي لبناني لا يؤدي الى دعـم كفاح الشعب الفلسطيني هو توازن لا طمع في الحصول عليه٠٠كماان اية حماية لهذا الكفاح لا يمكن ان تتم ، عمليا ، بغير تحقيق توازن سياسي تحتل فيه الحركة الوطنية اللبنانية وزنا راجحـا ٠

ان الاسئلة التي اثارها كمال جنبلاط على امتداد حياته السياسية كثيرة ٠ولعل السؤال الابرز هو كيفية نجاحه في ان يستمر ثابتا في طليعة الحركة الوطنية ،سباقا الى طرح الشعارات التقدمية ، عاملا على التعبئة حولها ، مسترخصا كل شيء ، حتى حياته ، في سبيلها ٠

في الجواب على هذا السؤال لا تكفي الاشارة الى المزايا الشخصية للرجل · وهي كثيرة ·

صحيح انه كان حاد الذكاء ، واسع الثقافة ، شديد الحساسية امام المنعطفات السياسية ·· وصحيح انه تمرس باللعبة السياسية المحلية فاتقنها واستفاد من موقعه وممارسته ليكتشف ، بحس تجريبي مرهف التناقضات السياسية في لبنان ·· وصحيح ايضا ان ثقافته الواسعة اتاحت له ان « يجرد » ممارسته السياسية في نظرية سياسية نجدها مدونة في العديد من كتاباته ، وفي العديد من المطالب الاصلاحية التي تحولت الى مطالب للحركة الوطنية ، وصحيح اخيرا ان تشبعه بمفاهيم الفروسية والوطنية والنبل تلعب دورا في رسم سياسته ·· لكن الاصح من كل ذلك انه كان يقف ، بصورة موضوعية ، في موقع يساعده . الى حد بعيد ، في ان يقوم بما قام به ·

اولا ــ كان جنبلاط زعيما يمثل على الدوام حالة تصادم مع البنى السياسية للنظام القائم ، نظام الطائفية السياسية · فالنظام الحالي يقنن حجم جنبلاط ويحوله الى زعيم لواحدة من الطوائف غير الحاكمة بصورة مباشرة ، وان كانت من الطوائف التي لعبت دورا حاسما في تاريخ لبنان ·

وبما ان كمال جنبلاط كان زعيما لتيار وطني عريض يفيض عن الطائفة الدرزية، ويأخذ بحكم اتصاله بالقوى الوطنية الاخرى ، احجاما وابعادا غير طائفية ، فأنه كان يرفض على الدوام ان تعود قوانين السياسة اللبنانية لتمسخ هذا التيار الوطني العريض وتعامل قائده معاملة زعيم طائفة وحسب ·

لقد كان كمال جنبلاط حريصا على صفته كزعيم درزي ، وحريصا على قيادة طائفته نحو معترك العمل الوطني ، ولكنه كان احرص ما يكون على الا يعامل بصفته هذه فحسب ·

وكم من العروض انهالت عليه مطالبة اياه بان يكون زعيم طائفة ، وسليل بيت عريق فحسب لكنه كان يرفضها مصرا على ان يكون بالاضافة الى ذلك زعيم حركة تغيير تاريخية ، لا طائفية ، تصطدم ببنى النظام القائم، وتضعها على محك البحث واعادة النظر ·

وليس غريبا الا يجد احد كتاب جريدة « العمل » الكتائبية ما يقوله غداة استشهاد القائد الوطني سوى ان كمال جنبلاط كان اكبر من « الصيغة » وان ثمة املا ضئيلا بالعودة اليها بعد غيابه ·

لم يكن كمال جنبلاط مصطدما « بالصيغة » بما هي نظام محكوم بالطائفية السياسية فحسب بل كان مصطدما بها باعتبارها صيغة انعزالية تقوم اساسا على عزل لبنان عن محيطه العربي وسد النوافذ التي يمكنها ان تسرب اليه رياح

التغيير العاصفة بالوطن العربي ، فتدفعه الى المشاركة الايجابية والملموسة في القضايا القومية العربية ·

والمعروف ان الوجه الاخر لهذه النظرية هو ان لبنان بلد ـ ملجأ تجد فيه الاقليات الطائفية ملاذا في هربها من اضطهاد الاكثرية وطغيانها · وعلى هذا الاساس فان المفترض بالطائفة الدرزية ، وهي طائفة ريفية بالكامل في لبنان ، ومن اقدم سكان الجبل اللبناني ، المفترض فيها ان تكون متعلقة بالعزلة اللبنانية ومتمسكة بنظرية لبنان ـ الملجأ ، وعازفة بالتالي عن المشاركة النشطة والفعالة في القضايا القومية العربية ·

لكن الذي حصل مع كمال جنبلاط هو انه حمل تكذيبا مباشرا وصريحا لهذه النظرية الانعزالية · مثبتا ان دروز جبل لبنان لا يسعهم ان يلبسوا الثوب الذي تفصله لهم الايديولوجيا الانعزالية « اللبنانية » ·

ونجدنا هنا مضطرين ، مرة اخرى ، الى الاشارة الى جريدة العمل الكتائبية حيث ركزت ، غداة استشهاد جنبلاط ، وفي افتتاحيات متتالية على ضرورة الانتهاء من هذا الدور «الشاذ» الذي لعبه الدروز في لبنان زاعمة ان قاعدة السلوك الدرزية، التي شذ عنها كمال جنبلاط ، هي حماية الانعزال اللبناني ·

ولا يخفى على احد كم هي خبيثة ، وتافهة ، هذه المحاولة التي تسعى لان تنقل عدوى الانعزالية الى الغير ، مستفيدة من غياب القائد الوطني ، مستهترة بكل التراث الوطني الذي راكمته الطائفة الدرزية منذ القدم ·

ثانيا ـ ان الزعامة الجنبلاطية في الجبل اللبناني ، التي تضرب جذورها عميقة في تاريخه ، والمنخرطة جديا في صلب العلاقات الاجتماعية داخله ، ان هذه الزعامة شكلت في التاريخ اللبناني الحديث واحدة من افضل الضمانات لعروبة لبنان . وواحدا من اهم المرتكزات للنضال ضد النزعة الانعزالية ·

ان هذا الموقع الخاص ، في الجبل اللبناني ، كان يتيح لكمال جنبلاط دون غيره القدرة على الجمع بين الدعوة العربية الصريحة وبين تأكيد الانطلاق من قاعدة لا غبار على لبنانيتها ·

واذا كان يسهل اتهام غير جنبلاط بالنقص في « اللبنانية » امام كل دعوة عربية فانه كان يستحيل سوق التهمة الى كمال جنبلاط « سليل العائلة التي حكمت الجبل» وزعيم احدى اولى الطوائف فيه ·

وعندما كانت الانعزالية اللبنانية تنتقل من طور الحلم بحكم لبنان كله وحجزه في قفص الانعزال الى طور الانكفاء وراء مشروع تقسيمي كان كمال جنبلاط ينتصب في وجهها مرة اخرى ، على رأس الحركة الوطنية ·

لقد كان كمال جنبلاط عقبة سياسية ـ جغرافية في وجه التقسيم ٠

ونظرة سريعة الى الخرائط المنشورة للبنان « الجديد » في صيغته اللامركزية او الكونفدرالية (مشروع امين ناجي (الكتائب) او موسى برنس (حزب « الوطنيين الاحرار » ، او غير ذلك) تؤكد لنا ان تطبيق النظرية الانعزالية الكامنة وراء المطالبة باللامركزية : ايجاد اكبر قدر ممكن من التجانس الثقافي والحضاري والديني والجغرافي في كل محافظة او كانتون ٠٠ ان هذا التطبيق يصطدم بالزعامة الجنبلاطية الوطنية في قلب الجبل ٠

فالجبل ، من مرجعيون الى زغرتا ، هو « الكانتون المسيحي ، الماروني » ، او حتى « الوطن القومي المسيحي » وشرط استقامة هذا الطرح داخليا هو ضرب الزعامة الجنبلاطية لنصف هذا الجبل الممتد من عاليه حتى اقاصي الشوف (بالاضافة الى جملة شروط عربية ودولية اخرى) ٠ على امل ان يؤدي هذا الضرب الى اخضاع الجبل سياسيا وعسكريا للمنظمات المارونية المسلحة ٠

ثالثا ـ ان الزعامة الجنبلاطية الوطنية في الجبل ، موئل التعايش اللبناني ،هي زعامة قدمت على الدوام ، وخاصة خلال الاحداث الاخيرة ، خير الادلة على بطلان الدعوة الانعزالية باستحالة التعايش في لبنان ٠

من لا يذكر كيف ان كمال جنبلاط رفض تجريد حتى الانعزاليين في الجبل من سلاحهم ٠ ومن لا يذكر ان كمال جنبلاط كان يهب شخصيا للتحرك لدى اي حادث طائفي ، ومن لا يذكر ان كمال جنبلاط منع حدوث اية ردة فعل عندما اغتيلت شقيقته في عين الرمانة ، ومن لا يذكر اخيرا ان عشرات الالاف من المسيحيين بقوا في الشوف من غير اية مضايقة ، بمن فيهم انصار كميل شمعون ، في حين كانت القوات الانعزالية ـ الطائفية تقوم بشكل منهجي ومنظم بتدبير المجازر الطائفية متعقبة اثار كل فلسطيني او مسلم او حتى ارثوذكسي بعض الاحيان ٠

لقد كان الجبل في ظل الزعامة الجنبلاطية الوطنية دليلا على ان التعايش ممكن اذا ما حوصرت الجرثومة الانعزالية ٠٠ ولذلك كان رأس كمال جنبلاط مطلوبا في وقت يصر البعض على استحالة التعايش ويجعلون من هذه الاستحالة التي لم يعمل لخلقها احد قدر ما عملوا هم مدخلا الى اطروحات التقسيم واللامركزية والكونفدرالية ٠

اذا اضفنا الى كل ما تقدم كون الجمهور المؤيد لكمال جنبلاط هو جمهور مؤلف في اكثريته الساحقة من الفئات الوسطى والمفقرة مما يوجب بالتالي حمل تطلعات ومطالب شعبية ، اذا اضفنا ذلك خرجنا بصورة واضحة الى حد ما عن العناوين الاساسية الكامنة وراء الدور السياسي الخاص والمميز الذي لعبه كمال جنبلاط على امتداد الثلاثين سنة الماضية ٠

واذ ذاك يصبح التساؤل عن اغتيال كمال جنبلاط موضوعا في اطاره الصحيح ٠

ان هذا الاغتيال مكافأة اخيرة له على الموقف الصلب الذي لم يتراجع عنه اطلاقا تأييدا للقضية الفلسطينية وثورتها ودفاعا عن وحدة لبنان وعروبته ٠

ان هذا الاغتيال يأتي في وقت تتجمع نذر حملة امبريالية اميركية جديدة على المنطقة العربية بهدف اركاعها وتمهيد الطريق امام تعايش عربي ـ اسرائيلي لا يأخذ بعين الاعتبار لا مصالح الشعوب العربية ولا المطالب الوطنية للشعب الفلسطيني ٠

ان هذا الاغتيال يأتي في وقت يتفجر فيه الوضع في الجنوب بطريقة يتضح منها التعاون الوثيق بين العدو الاسرائيلي وبعض القوى « اللبنانية » ٠٠ ولا تخفي هذه القوى غاياتها من تفجير الوضع واستمرار الضغط العسكري : توجيه ضربات قاصمة ، بواسطة الاداة العربية ، للمقاومة الفلسطينية والقوات الوطنية اللبنانية، واعطاء جواز مرور لكيان انعزالي خاص على هذه البقعة من الارض العربية ٠

ان هذا الاغتيال يأتي في وقت تحتاج فيه الاطراف المتعاونة مع اسرائيل الى توفير افضل الشروط لخوض معركة اسقاط الجبل كله سياسيا ٠ ويمكن ان نؤكد ان هذه الاطراف فجعت بردود الفعل المحدودة التي اعقبت الجريمة وهي التي كانت تتوقع ردود فعل واسعة تسمح لها بان تجهز على ما تبقى من تأكيدات في ان التعايش ما زال ممكنا ٠٠ ان اغتيال كمال جنبلاط كان يفترض فيه ان يؤدي هذه الوظائف مجتمعة ، ولا شك ان معركة ستدور يحاول خلالها البعض الدفع بالاتجاهات التي حددنا معالمها ، في وجه مقاومة ستكون عنيفة بالطبع ٠

قلنا ، منذ البداية ، ان احدا لا يطمح ، بهذه السرعة ، الى تقديم تعريف واف بكمال جنبلاط للرجل ، والمناضل ، ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي ، ورئيس المجلس المركزي للاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية في لبنان، والامين العام للجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية ، والمثقف والمؤلف والمشارك في العشرات من المؤسسات الدولية التي ترفع رايات التضامن بين الشعوب والعداء للاستعمار والتخلف ٠

ان عملا من هذا النوع يحتاج الى جهد آخر وهو جهد لا بد من القيام به عاجلا او اجلا ٠

ان الطموح هو الوصول الى المام سريع بالرجل ٠ القائد ٠ يكون مدخلا للالمام بالخسارة التي منينا بها ، لبنانيين وفلسطينيين وعربا ، من جراء استشهاده ٠

والعزاء هو ان تستطيع الحركة الوطنية اللبنانية ، مستلهمة معاني شهادة القائد ، القيام بمسؤولياتها فتتجاوز جراحها لتكمل معركة العروبة في لبنان انطلاقا من حيث استشهد كمال جنبلاط ٠

اللامركزية المطروحة في لبنان : ادارية ام سياسية ؟

الدكتور محمد المجذوب

خضعت الادارة اللبنانية ، منذ اوائل القرن السادس عشر وحتى عام ١٩٥٩ ، لمركزية حصرية شديدة كانت موضع انتقاد وتذمر . وفي بداية العهد الشهابي ، عينت الحكومة لجنة مركزية للاصلاح الاداري كان من اهم اعمالها تحقيق شيء من اللاحصرية (التي اختلط مفهومها بمفهوم اللامركزية) في بعض المجالات . وتجلى ذلك في انشاء العديد من الهيئات والمصالح المستقلة، وتعزيز فروع الوزارات (من مستوى مديرية او مصلحة او دائرة) في مختلف المحافظات ، ومنح المحافظ والقائمقام امر البت بالكثير من الامور التي كانت قبلا من اختصاص الادارة المركزية .

وعلى الرغم من اهمية هذه الاصلاحات على الصعيد الاداري ، فانها لم ترو غليل المطالبين بالنظام اللامركزي . وفي عهد الرئيس شارل حلو ، كثر الحديث عن اللامركزية دون التقدم خطوة واحدة اضافية على طريق الاصلاح الاداري الذي باشره العهد السابق .

ومع مطلع عهد الرئيس سليمان فرنجية استبشر الكثيرون خيرا ، وراحوا ينادون بوجوب التخفيف من وطأة المركزية عن طريق توسيع صلاحيات السلطات المحلية وتعزيز استقلال المؤسسات والمصالح المستقلة . وعقد ، لهذا الغرض ، اجتماع في وزارة الاعلام حضره كبار المسؤولين الاداريين . واسفر عن رفض مبدأ اللامركزية واعتباره مشروعا من شأنه اضعاف السلطة المركزية .

وعندما استشرى الفساد الاداري اضطرت الحكومة ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٢ ، الى عقد مجمع بعبدا واتخاذ بعض المقررات التي تضمنت في بندها التاسع وعدا « بتوسيع صلاحيات البلديات والهيئات المحلية من اجل تعزيز الحكم المحلي » ، وفي بندها العاشر وعدا « بتوسيع صلاحيات المحافظ والقائمقام والوحدات الاقليمية ، تحقيقا لمبدأ اللاحصرية الادارية » .

وبقيت المقررات والوعود حبرا على ورق ، وكاد امل المواطنين في تحقيق الاصلاحات المنشودة والموعودة يتبدد لولا تشكيل حكومة الرئيس تقي

الدين الصلح في عام ١٩٧٣ ، واحداث وزارة دولة لشؤون الاصلاح الاداري عهد بها للنائب الدكتور علي الخليل · ومع ان هذه الوزارة قد درست بعمق اوضاع الادارة العامة في لبنان ، وحددت بوضوح المشكلات التي تعانيها ، ووضعت برنامج عمل محدد لمعالجتها ، واستطاعت في فترة وجيزة ان ترفع بعض المشاريع الاصلاحية الجريئة الى مجلس الوزراء ، فانها لم تتطرق الى موضوع اللامركزية (١) ·

وبعد اندلاع الاحداث الدامية في لبنان اثيرت مسالة اللامركزية وطرحت على الراي العام كمخرج من الازمة · وفي شباط (فبراير) ١٩٧٦ ، صدرت الوثيقة المسماة بالدستورية ونصت ، في احد بنودها ،على « تعزيز اللامركزية في العمل الاداري » ، دون اي تحديد لمضمون هذه اللامركزية ودون اية اشارة الى كيفية تطبيقها ·

ومع بداية عهد الرئيس سركيس تعالت من جديد اصداء اللامركزية · الا ان اثارة موضوعها في الظروف العصيبة الراهنة قد اتسمت ، هذه المرة ، بطابع لم نعهده من قبل في كل الجدل الذي دار حولها ·

ولكي نفهم الخلفيات والاسباب الكامنة وراء طرح اللامركزية في هذا الظرف بالذات ينبغي لنا ، قبل ذلك ، ان نقول كلمة موجزة في كل من النظامين المركزي واللامركزي · وبذلك نقسم بحثنا الى ثلاثة اقسام ·

★ ★ ★

القسم الاول : المركزية

المركزية واللامركزية ، في القانون الاداري ، وجهان من وجوه التنظيم الاداري · والدولة قد تتبنى هذا او ذاك · وقد تعمل ، في احيان كثيرة ، بالنظامين معا · والمركزية ، من حيث الوجود والتطبيق ، سابقة للامركزية ، فهي التي رافقت نشأة الدول في العصر الحديث · ولكن ما هي المركزية الادارية ؟ وعلى اي اساس تقوم ؟ وهل لها صور واشكال ؟ وما هي الميزات التي تتصف بها ؟

اولا ـ المركزية الادارية ، في مفهومها الاداري العام المبسط ، تعني توحيد الادارة في الدولة ، وحصر السلطة بالحكومة التي تتولاها بواسطة ادارتها المركزية (المتمثلة برئيس الدولة والوزراء) وبواسطة ممثليها في الاقاليم او الملحقات (اي الحكام الاداريين) ، وجعل صلاحيات البت النهائي بكل نشاط اداري من اختصاص السلطة المركزية · وكل ذلك دون مشاركة ما من هيئات اخرى ·

وفي النظام المركزي يرتبط الحكام الاداريون (المحافظون ، مثلا) بالادارة المركزية بتنظيم تسلسلي يجعل من السلطة المركزية مصدر الاوامر والتعليمات ومرجع الحسم او البت بمعظم الاعمال الادارية ·

ثانيا ـ وتقوم المركزية على اساسين مهمين :

١ ـ تركيز السلطة في يد الحكومة المركزية ، اي استئثار الحكومة المركزية في العاصمة بكل السلطات التي تشملها الوظيفة الادارية في الدولة · وعمل الحكومة لا يقتصر على جزء معين من اقليم الدولة ، وانما يشمل الدولة بكاملها، فيشرف الوزراء في العاصمة على جميع الادارات والمرافق العامة ، سواء اكانت وطنية ام محلية · ولا مكان ، في مثل هذا النظام ، لمجالس اقليمية او بلدية منتخبة تتولى الاشراف على المرافق المحلية · واذا كان هناك موظفون محليون فهم عمال السلطة المركزية ·

٢ ـ خضوع موظفي الحكومة المركزية لنظام التسلسل الاداري والسلطة الرئاسية · فالوظائف في كل وزارة او مصلحة درجات · وكل موظف يخضع للموظف الذي يعلوه درجة · وفي قمة الهرم الاداري يتربع الوزير ·

والسلطة الرئاسية تتناول شخص المرؤوس وعمله · فللرئيس الحق في ان يخصص المرؤوس للقيام بعمل معين ، كما ان له الحق في ان ينقله ، او يرقيه ، او ينزل به بعض العقوبات التي ينص عليها القانون · وبالنسبة الى عمل المرؤوس ، فان للرئيس عليه سلطة سابقة (وهي سلطة التوصية او سلطة اصدار الاوامر والتعليمات) ، وسلطة لاحقة ، هي سلطة المراقبة (كحق الموافقة على اعمال المرؤوس ، او حق تعديلها ، او ابطالها ، او استبدال غيرها بها ، دون ان يكون للمرؤوس حق الاعتراض على اعمال رئيسه) ·غير ان السلطة الرئاسية ليست مطلقة ، فهناك حالات معينة يخول المشترع فيها المرؤوس اتخاذ قرارات دون تدخل من رئيسه (٢) ، كما ان هناك حالات يسمح فيها القانون للموظف (اذا كانت اوامر رئيسه وتعليماته مخالفة للقانون بصورة صريحة واضحة) بالامتناع عن تنفيذها ، الا اذا اكدها الرئيس خطيا (٣) ·

ثالثا ـ وللمركزية الادارية صورتان :

١ ـ الحصرية ، او التركيز الاداري ·وفي هذا النظام تتركز الصلاحيات كلها في ايدي السلطة المركزية دون ان يكون لممثليها ، في العاصمة او الاقاليم ، اية سلطة خاصة في تصريف الامور ·

٢ ـ **اللاحصرية** ، او عدم التركيز الاداري ٠ وفي هذا النظام تقوم السلطة المركزية بتوسيع صلاحيات ممثليها المحليين بغية تخفيف الاعباء عن كاهل الادارة المركزية ٠ فهي قد تخول الحكام الاداريين (كالمحافظ والقائمقام) صلاحيات اوسع ، كأن تمنحهم حق اتخاذ بعض القرارات ، او تعيين بعض فئات من الموظفين ، او اعطاء بعض الرخص في مناطقهم الادارية ٠ وقد تمنحهم صلاحية البت النهائي ببعض الامور دون الرجوع الى الوزير المختص ٠ وقد تفوضهم ممارسة الوصاية الادارية على السلطات المحلية بدلا منها ٠

فاللاحصرية تعني ، اذن ، توسيع صلاحيات ممثلي السلطة المركزية في المناطق الادارية مع بقائهم تابعين لها ومعينين من قبلها ٠ ولكن ممارسة هذه الصلاحيات لا تعني الاستقلال عن السلطة المركزية ٠ ان ممارستها تتم دائما تحت اشراف الوزير المختص او الرئيس الاداري ٠

وظاهرة اللاحصرية تتجسد اساسا في عملية تفويض الاختصاص التي تزايدت اهميتها في الاونة الاخيرة ٠ فالقانون المصري ، مثلا ، المتعلق بالحكم المحلي، والصادر في عام ١٩٧١ ، ينص على ان « لرئيس مجلس الوزراء ان يفوض احد الوزراء مباشرة بعض اختصاصاته » ، وعلى ان « للمحافظ ان يفوض بعض سلطاته واختصاصاته الى مساعد المحافظ ، او سكرتير المجلس التنفيذي للمحافظة ، والى رؤساء المدن والاحياء والقرى » ٠

رابعا ـ وللمركزية الادارية حسنات يمكن تلخيصها بالنقاط التالية :

١ ـ تقوية السلطة الحكومية وتعزيز نفوذها ٠ ولهذا فان الدولة ، عند نشاتها، تشعر بضرورة اللجوء الى المركزية المتطرفة المكثفة ٠ ولهذا ، كذلك ، فان الحكم المطلق يرى في اعتماد المركزية الشديدة ضمانا لاستمرار وجوده وتامين مصالحه ٠

٢ ـ تامين الخدمات بالعدل والمساواة لكل المواطنين والاقاليم في الدولة ، لان وحدة الميزانية والمالية تسهل على الحكومة المركزية مهمة السهر على كل المرافق العامة ، وتساعدها على توزيع كل الخدمات العامة وتنظيمها بشكل عادل وموحد ٠ ثم ان الدولة ، بما تملكه من امكانات فنية ومادية ضخمة ، تستطيع القيام بالمرافق القومية الكبرى التي تعجز عنها الوحدات الاقليمية ٠

٣ ـ استقرار الانظمة الادارية ، وضمان وحدتها وتجانسها وتناسقها في كل ادارات الدولة ومرافقها ٠

٤ ـ الاقتصاد في النفقات العامة ، وتلافي عمليات التكرار والازدواجية ، والاعتماد في تسيير الدوائر العامة على الفنيين الاختصاصيين المعينين ، لا

على الرجال الشعبيين المنتخبين الذين تنقصهم ، في اغلب الاحيان ، الخبرة والمؤهلات ٠

غير ان المركزية الادارية ، التي كانت ضرورية في مرحلة نشوء الدول الحديثة ، لم تعد مقبولة اليوم ، ولا سيما بعد انتشار الانظمة الديموقراطية، واستتباب الاستقرار السياسي في هذه الدول ٠ لقد تكاثرت واجبات الدولة وتعددت اعمالها الادارية حتى ناءت بها ادارتها المركزية ، واضحى من الواجب والمصلحة معالجة الخلل بالاصلاح لكيلا تتفاقم النقمة وتنقلب الى ثورة تطيح بالدولة نفسها ٠ ولهذا فضلت معظم الدول التخلي عن النهج الاداري القائم على المركزية والسير في طريق اللامركزية ٠

القسم الثاني : اللامركزية

ما هي اللامركزية الادارية ؟ وما هي الاسس التي ترتكز اليها ؟ وما هي انواعها ؟ ولماذا يعتبرها البعض من ضرورات النظام الديموقراطي ؟ وكيف يتم تحديد الوحدات الادارية او الاقليمية في دولة ما ؟ وهل اللامركزية هي النظام السائد في معظم الدول الحديثة ؟ وما الفرق بين اللامركزية الادارية واللامركزية السياسية ؟ وهل من صلة بين اللامركزية الادارية واللاحصرية ؟

اولا ـ اللامركزية الادارية هي طريقة من طرق الادارة تقضي بتوزيع الوظيفة الادارية بين الحكومة وهيئات عامة اخرى (محلية او مرفقية) تباشر اختصاصاتها تحت اشراف السلطة المركزية ورقابتها ٠ ومن ابرز مظاهر اللامركزية الادارية في دولة ما قيام سكان مدينة معينة بانتخاب هيئاتها الادارية المحلية دون تدخل السلطة المركزية في الانتخاب ٠

واللامركزية الادارية ، بوجهيها الاقليمي والمرفقي ، تخضع لمبدأ عام يتلخص بتمتع الادارة ، او المؤسسة اللامركزية ، بالشخصية المعنوية والاستقلال المالي والاداري ، مع الخضوع لوصاية وزارة او ادارة مركزية معينة ٠

والانظمة السياسية المستبدة ، من عسكرية او فاشية او اوتوقراطية ، تميل الى اعتماد النظام المركزي المطلق ، في حين ان الانظمة الديموقراطية التي تحترم الحريات والارادات الشعبية تفضل اعتماد اللامركزية ٠ بل ان البعض يذهب بعيدا في هذه المقارنة فيعتبر اللامركزية سمة للنظام الاداري في الدول التي تعتمد النظام الديموقراطي في الحكم ٠

ثانيا ـ وتقوم اللامركزية الادارية على اسس اربعة مهمة :

١ ـ **التسليم بوجود مصالح محلية متميزة من المصالح الوطنية** ٠ فهناك احيانا مصالح محلية لا تتعارض مع المصلحة الوطنية ، ولكنها تستلزم اساليب

مختلفة في معالجتها • ويستحسن ، في هذه الحالة ، تــرك الاهتمام بهـــا والاشراف عليها للمواطنين المحليين الذين يستفيدون منهـــا بشكــل مباشر • والمشترع هو الذي يحدد ، عــادة ، هذه المصالح ويعــهد بها الى هيئـــات او اجهزة محلية •

٢ ـ **السماح بقيام هيئات او اجهزة محلية تؤمن هذه المصالح •**

٣ ـ **الاعتراف لتلك الهيئات بالشخصية المعنوية والاستقلال المالي والاداري •**

وقد يتضمن الدستور ، احيانا ، مبادىء او توجيهـــات عــامة حول هـــذا الاستقلال • والفقهاء على خلاف حول كيفية تحقيق هذا الاستقلال ، غــيــر ان غالبيتهم ترى ان الاستقلال لا يكون حقيقيا وكاملا الا باختيار اعضاء الهيئـات اللامركزية عــن طريق انتخابات شعبية محلية • فالسلطات المحلية يجـــب ان تختار من بين الناخبين المقيدين في المدينة او الاقليم التابــع للسلطة المحلية ، ومن قبل هؤلاء الناخبين • واذا كان يحق للسلطة المركزية ، في بعض الحــالات او لبعض الاسباب المعينة والمنصوص عــليها ، ان تحــل محــل السلطة المحليــة ، فانه لا يحــق لهــا عــند ذلك ان تقوم بتعيين سلطة سواها • كل ما تستطيــع ان تفعــله ، في هذه الحالة ، هو دعــوة الناخبين الى الاقتراع ضمن مهلــة محددة لاختيار هيئة محلية جديدة •

وللاعتراف بالشخصية المعنوية للهيئات المحلية نتائج قانونية ، اهمها : التمتع بالوجود القانوني المستقل ، والجهاز الاداري الخاص ، والذمة المالية الخاصة ، وحق التعاقد والتقاضي ، واهلية اكتساب الحقوق وتحمل المسؤوليات الناتجــة عن اعمال موظفيها •

٤ ـ **احتفاظ السلطة المركزية بحق مراقبة الهيئات المحلية** ، فاستقلال هـــذه الهيئات ليس مطلقا • ان السلطة اللامركزية ، اي المحلية ، تبقى خاضعة لرقابة السلطة المركزية او لرقابة ممثليها المحليين ، وهو ما يعــرف بالوصايـــة او الرقابة الادارية • غير ان هذه الرقابة ينبغــي ان تكون محدودة لئلا يقضي على اللامركزية •

واذا كانت السلطة المركزية تمارس رقابتها على ادارتها وموظفيها عــن طريق الرقابة التسلسلية ، فانها تمارسها على السلطات او الهيئات المحلية عن طريق الرقابة الادارية التي تتجلى في :

ـ حق التصديق المسبق (فلا يصبح قرار الهيئة المحلية نافذا الا بعـــد ان تصدق عــليه سلطة الوصاية) •

ـ وحق وقف تنفيذ قرار السلطة المحلية او حــق تعديله •

ـ وحق سلطة الوصاية في الحلول محل السلطة المحلية ٠

ثالثا ـ واللامركزية الادارية نوعـان : ـ

١ ـ **اللامركزية الاقليمية او المحلية** ٠ وتسمى كذلك الادارة المحلية او الحكم المحلي ٠ وهي تقضي بمنح الاقاليم في الدولة الشخصية المعنويـــة وسلطة الاشراف على المرافق المحلية ٠ ويشترط لقيام هذه اللامركزيـــة : ان يكـون للمجموعة المحلية شؤون خاصة بها ، وان تدير هذه المجموعة شؤونها بنفسها ، وان لا تخضع اجهزتها لرقابة صارمة من قبـل السلطة المركزية (٤) ٠

٢ ـ **واللامركزية المرفقية** ، او المصلحية ، او التقنية ٠ وهـــي لا مركزيـــة المصالح ، او اللامركزية في المصالح ٠ وغايتها انشاء مؤسسات عامة ، وطنية كانت ام اقليمية ، ومنحها الشخصية المعـنوية وقدرا من الاستقـــلال الاداري والمالي ، مما يسمح لها بادارة شؤونها بنفسها دون تدخـل السلطة المركزية ، ولكن ضمن اطار الرقابة الادارية ٠ وابرز صورة لهذا النوع من اللامركزيـــة في النظام اللبناني هي المؤسسات العامة والمصالح المستقلة آلتي أرسى قواعدها المرسوم الاشتراعي رقم ١٥٠ ، الصادر في ١٩٥٩/٦/١٢ ٠ وعلى سبيل المثال نذكر : الجامعة اللبنانية ، والمجلس الوطني للبحوث العلمية ، والمصلحة الوطنية لنهر الليطاني ، ومصلحـــة كهرباء لبنان ٠

وتعتبر اللامركزية المرفقية شكلا من اشكال التنظيم الاداري ٠ وانشاؤهـــا يحتاج الى نص قانوني ٠ وهي تتمتع بالشخصية المعنوية ، وتستهدف تحقيـق الصالح العـام ، وتباشر اعـمالها تحت مراقبة الاجهزة المركزية ٠

رابعا ـ واللامركزية تنطوي على محاسن عديدة ٠ ولهذا يعتبرها البعـض من ضرورات الانظمة الديموقراطية ٠ وذلك لعـدة اسباب :

١ ـ لان واجبات الدولة وخدماتها قد تعـددت وتعقدت وتشعبت حتى اصبـح من العسير على الحكومة المركزية ان تقوم وحدها بكل الاعباء وتنجز كل المهام٠ ان الوزير اليوم لا يستطيـع وحده ان يعـنى بكل شؤون وزارتـه كما كـــان لويس الرابع عشر ، فـي الماضي ، يعـنى وحـده بامور دولته ويدعـي انه هو الدولة ٠ ان حكام عصرنا قد اصبحوا ، كما كان الفيلسوف اوغست كونـت يريدهم ان يكونوا : اختصاصيي عموميات ٠

٢ ـ لان اللامركزية تكفل قدرا كبيـــرا من العـدالة في توزيع النفقـــات والمشروعات العـامة على مختلف المناطق في الدولة ٠

٣ ـ لان الديموقراطية السياسية لا تتحقق ان لم تصاحبها ديموقراطيـــة ادارية تتجسد باللامركزية الادارية ٠ فاللامركزية تتجاوب وتتلاءم مع المفهـوم الحديث للديموقراطية ، وتتيح للمواطنين فرصة الاسهام فـــي ادارة شؤونهـم

الخاصة المحلية والتمرس بالعمل الاداري والسياسي ، مما يؤدي الى اعدادهم وتهيئتهم لمعالجة الشؤون الوطنية العامة وتحمل المسؤوليات الجسام ٠

وتعتبر اللامركزية عاملا « له اثره البعيد في اذكاء الحيوية الوطنية ، لان المركزية تقتل الحياة العامة بسبب الحيوية التي تحيط بالعناصر المركزية والبرود الذي يقابلها في اطراف الدولة ، في حين ان الناس في اللامركزية يتخلصون من عبء تلك السلطة المركزية التي كانت لا تقبل النقاش في مقرراتها ولا الجدل في اعمالها ويرون في العناصر اللامركزية مجالا حيويا يتفتق فيه نشاط الافراد في كافة اقسام الدولة ، ويكون العمل الاداري المحلي مدرسة للعمل السياسي العام ٠ واذا كان يعاب على الانتخاب في النهج اللامركزي انه قد ياتي الى توجيه العمل الاداري باشخاص لا يتمتعون بالكفاءات المطلوبة ، فان اصلاح نهج الانتخاب هو الذي يجب ان يعمد اليه ، وليس استبعاد النهج اللامركزي » (٥) ٠

٤ ـ لان اللامركزية تخفف الاعباء عن كاهل الادارة المركزية ، وتختصر النفقات ، وتساعد على تبسيط المعاملات الادارية ، وتكفل حسن سير المرافق العامة في المناطق ٠

وبعض الفقهاء الفرنسيين يتندرون بحادثة تصور لنا النتائج المضحكة التي تتمخض عنها ، احيانا ، المركزية الشديدة : ان رئيس الجمهورية الفرنسية ، بمرسوم صادر في ١٩٣٣/١/١٥ ، رخص لاحدهم باقامة قن (للدجاج) ، طوله ثلاثة امتار ، بمحاذاة طريق السكة الحديدية ٠ واستوجب استصدار المرسوم تقديم التماس من صاحب العلاقة ، ورفع ملاحظات من شبكة السكة ، واجراء تحقيق في الامر ، ومعرفة راي المحافظ ، والحصول على اقتراحات مصلحة المراقبة في السكة ، وطلب تقرير من وزارة الاشغال العامة ٠ وكل ذلك من اجل قن طوله ثلاثة امتار ! (٦) ٠

٥ ـ لان المواطنين في المناطق اوالاقاليم يعتبرون ادرى الناس بمصالحهم وحاجاتهم ، واكثرهم معرفة بشؤون مناطقهم ، واشدهم حرصا عليها واهتماما بها ٠ وهم يرغبون في ادارة شؤونهم بانفسهم عن طريق انتخاب الهيئات المولجة بادارة هذه الشؤون ٠

والتيار المطالب باللامركزية الادارية شبيه بالتيار المنادي بتطبيق الديموقراطية السياسية واتاحة الفرصة امام المواطنين كي يحكموا انفسهم بانفسهم بواسطة نوابهم ٠ وهناك طرفة تصور رغبة المواطنين في ادارة شؤونهم المحلية بانفسهم، ففي عام ١٩٠٦ ، لخص احد المفكرين الفرنسيين انطباعاته عن حركة فلاحي القوقاز بقوله : « انهم يطالبون بالاهتمام بشؤونهم الخاصة وبتعيين رؤسائهم ٠

ويريدون ، اذا ما سرقهم احـد ، ان يكون السارق منهم » (٧) ·

٦ ـ لان التجارب والاحداث برهنت على ان اللامركزية اقوى على مواجهـة الازمات الداخلية والخارجية من اي نظام مركزي ·

وعلى الرغـم من كل هذه الحسنات والميزات فقد تعرضت اللامركزية للانتقاد· لقد اخذ عليها بانها تفتت او تضعـف السلطة التنفيذية المركزية في الدولـة ، وتباعد بين هذه السلطة وبين مختلف الاقاليم ، وتهدد الوحـدة السياسيـة والقانونية للدولة بالخـطر ، وتشجع مختلف الوحدات اللامركزية على التناحر والتنابذ ، وتغـري هذه الوحـدات برعـاية مصالحـها الخاصـة واهمـال المصلحة العـامة ·

ولكن هذه المآخذ تتلاشى اذا اعتبرنا ان الهيئات المحلية او المصالح المستقلـة لا ينبغـي لها ان تتمتع باستقلال مطلق · ان القانون (واحيـانا الدستور) يضع ، عـادة ، حـدودا لاستقلالها · ولعـل الرقابة او الوصاية الادارية التي تمارسها السلطة المركزية هي الاداة او الوسيلة القادرة على تحقيق التلاحـم والتعاون بين هذه السلطة والهيئات اللامركزية · ثم ان اللامركزية لا يمكن أن تشمل كل الوظائف والمرافق في الدولة ، فهناك شؤون وطنية عـامة ، كالخارجية والدفاع والاقتصاد والتربية ، يجب ان تبقى دوما من اختصاص السلطـة المركزية · وهذه المرافق لا يمكن ان تدار بغير النظام المركـزي والا تفككت أوصال الدولة وتحولت الى عدة دويلات ·

خامسا ـ ومن المسائل المهمة التي تطالعنا لدى دراستنا للامركزية الادارية مسالة تحديد التقسيمات الادارية · وهذه المسالة تنطوي على عدة مشكلات ، اهمها :

١ ـ مشكلة تحديد الوحدات الادارية التي تتكون منها الدولة ·

٢ ـ مشكلة تحديد مستويات هذه الوحدات (هـل تتكون هذه الوحـدات من مستوى واحد ، مثل البلديات او الكومونات في يوغوسلافيا ، ام من عـدة مستويات ، مثـل الوحدات في مصر وبريطانيا ؟) ·

٣ ـ مشكلة تحديد الوضع الانسب للعـلاقات بين الوحدات · هل يكون ذلك افقيا (اي مساواة بين الوحدات) ، ام هرميا (اي خضوع الوحدة الدنيـا للوحدة العـليا) ؟

وسبب قيام هذه المشكلات يعـود الى تعدد العوامل المؤثرة وتداخلها : فهناك عوامل معينة تؤثر في مسالة عدد الوحدات الادارية ، منها عـدد السكـان والاوضاع الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية · وهناك عوامل اخرى تؤثر في

مسالة عدد مستويات الوحدات الادارية ، وفي نوع العلاقات التي تربط فيما بينها ، وفي مدى الاختصاصات التي تمارسها . ويأتي نوع النظام السياسي للدولة في طليعة هذه العوامل .

ويمكن تلخيص الاعتبارات التي يسترشد بها ، عند معالجة مسالة الوحدات الادارية في النظام اللامركزي ، بما يلي :

١ ـ المصالح المشتركة التي تمثل روابط قوية بين مواطني الوحدة المحلية .

٢ ـ الروابط الاجتماعية ، كروابط البيئة او الجوار او القرابة ، التي تشد المواطنين بعضهم الى بعض .

٣ ـ العدد المناسب من السكان الذي يسمح بتوفير الكفايات المطلوبة للخدمة المحلية والقدرة المالية لاداء هذه الخدمات .

٤ ـ القدر المناسب من الثروات الطبيعية او الصناعات المحلية ، الذي يسمح بتوفير الواردات اللازمة لسد النفقات .

وهذه الاعتبارات او العوامل تتفاوت ، من حيث الحجم والاهمية والتأثير ، بتفاوت نوع الخدمات التي يطلب تقديمها ، فالحجم السكاني الانسب لتقديم خدمة الانارة يختلف ، من وجهة النظر الاقتصادية ، عن الحجم الانسب لتقديم خدمات التعليم او اقامة المكتبات العامة (٨) .

ونلاحظ ان غالبية دول العالم تأخذ بفكرة تكوين المجالس المحلية من مستويين اثنين او ثلاثة مستويات ، ففي فرنسا مثلا وحدتان للادارة المحلية (المحافظات والبلديات) ، بالاضافة الى اقاليم ما وراء البحار . وهناك اتجاه عالمي نحو تخفيض عدد مستويات الحكم المحلي الى اثنين فقط . والمؤتمر العربي الاول لخبراء الادارة المحلية الذي عقد في القاهرة ، في نيسان (ابريل) ١٩٧١ ، قد اوصى بتبني هذا الاتجاه .

وتقوم العلاقة بين الوحدات الادارية في بعض الدول على اساس هرمي بحيث تخضع الوحدة الادنى لاشراف الوحدة الاعلى ، في حين ان دولا اخرى تتبع اسلوب المساواة بين الوحدات ، فلا تمارس اي منها اشرافا على الاخرى . وهذا هو الاسلوب المتبع في النظام البريطاني (٩) .

سادسا ـ ومعظم دول العالم ، شرقية كانت ام غربية ، بسيطة كانت ام مركبة، متقدمة كانت ام نامية ، تعمل اليوم بنظام اللامركزية الادارية . وكانت بريطانيا (لاسباب تاريخية خاصة) الدولة الاولى في العالم التي طبقت اللامركزية . واللامركزية الاقليمية فيها تتمثل بالمقاطعات ، والمدن الكبرى ، والمدن البلدية ، والمراكز الحضرية والريفية ، والابرشيات .

واخذت فرنسا بهذا النظام منذ القرن الماضي • ودستورها الحالي يكرس فصله الحادي عشر للحديث عن المجموعات او الوحدات الاقليمية في فرنسا • وتنص المادة ٧٢ منه على ان هذه الوحدات تتكون من البلديات والمحافظات واقاليم ما وراء البحار ، وعلى انه لا يجوز انشاء وحدات اقليمية اخرى الا بقانون • وتدير هذه الوحدات شؤونها الخاصة بواسطة مجالس منتخبة •

اما في مصر ، فقد نصت المادة ١٦١ من دستورها الراهن (الصادر في ١٩٧١/٩/١١) على وجوب تقسيم جمهورية مصر العربية الى ثلاث وحدات ادارية على الاقل ، هي المحافظات والمدن والقرى ، وعلى وجوب تمتع كل منها بالشخصية المعنوية •

سابعا ـ وفي دراستنا للامركزية الادارية يجب ان ننتبه الى الفروق التي تفصل بينها وبين اللامركزية السياسية من جهة ، وبينها وبين اللاحصرية من جهة ثانية •

فاللامركزية الادارية تتحرك او تتهادى بين قطبين متباعدين : اداري وسياسي• فكلما اتسعت صلاحيات ممثلي السلطة المركزية في الاقاليم اقتربنا من القطب الاداري ، اي من اللاحصرية • وكلما توزعت مظاهر السيادة في الدولة بين عدة سلطات اتجهنا شطر القطب السياسي ، اي شطر اللامركزية السياسية او النظام الفدرالي •

ولتوضيح الفكرة نقول ان اللامركزية الادارية لا تنال من الوحدة السياسية للدولة لانها ، في الواقع ، ليست سوى نظام اداري صالح للتطبيق في اية دولة من الدول ، سواء اكانت بسيطة ام مركبة • وبامكان الدولة ان تعمل بالمركزية واللامركزية في آن واحد ، فتخضع بعض المرافق او المصالح ، مثلا ، للامركزية ، وتترك الشؤون الاخرى ، الاقليمية او المرفقية ، لسلطتها المركزية •

اما اللامركزية السياسية فنظام بعيد كل البعد عن الشان الاداري • انها نظام سياسي لا نجد له اثرا الا في الدول المركبة التي تتكون من عدة ولايات تتوزع مظاهر السيادة فيها بين الحكومة المركزية (الفدرالية) والحكومات الاقليمية (او الولايات) • ويتجلى ذلك في وجود سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية ، خاصة بكل ولاية ، الى جانب السلطات الثلاث الاتحادية التي تمارس اختصاصاتها على اقليم الدولة الاتحادية بكامله •

ومع ذلك فليس من السهل تحديد المعيار الواضح الذي يميز بسهولة بين اللامركزية والفدرالية • ان بعض الفقهاء الفرنسيين اهتموا بهذه المسالة عندما انتشرت الدعوة الى اعتماد اللامركزية في فرنسا • ويمكننا تلخيص افكارهم بما يلي :

١ ـ وجد Duguit ان اللامركزية لا تطال الا صلاحيات الادارة ٠ اما الفدرالية فتمتد الى صلاحيات الحكومة ٠ولاحظ ان كلا من اللامركزية والفدرالية يفترض توزيعا في الصلاحيات بين السلطة المركزية والسلطات المحلية ٠ ولهذا فان معيار التفرقة بينهما يكمن في السلطة المختصة بتعديل هذا التوزيع في الصلاحيات ٠ فاذا كانت الدولة تعمل بنظام اللامركزية امكنها ، من طرف واحد ، تضييق الصلاحيات التي تتمتع بها السلطات المحلية ٠ اما اذا كانت تخضع لنظام الفدرالية فان تضييق صلاحيات كل ولاية لا يمكن ان يتم الا بموافقة هذه الولاية ٠

٢ ـ وتبنى Carré de Malberg وجهة النظر التي عرضها Duguit واضاف اليها ملاحظتين :

١ ـ في الدولة الفدرالية ، تضع كل ولاية لنفسها دستورها الخاص ، في حين ان الوحدات او المصالح اللامركزية ، في الدولة ذات النظام اللامركزي ، تنظم بموجب قانون صادر عن السلطة المركزية في الدولة ٠

ب ـ في الدولة الفدرالية ، يمكن ان يكون للولاية جيش خاص بها ، في حين انه يحظر وجود قوة عسكرية مستقلة في الوحدات اللامركزية ٠

٣ ـ واقترح Le Fur معيارا اوضح ٠ قال في كتابه المشهور عن « الدولة الفدرالية » : الولايات في الدولة الفدرالية تتميز من المجموعات الاخرى ، التي لا تتمتع بالسيادة ، بانها مدعوة الى الاسهام في تكوين ارادة الدولة » (وفي ذلك اشارة الى المجالس العليا ، او مجالس الولايات ، في الدول الفدرالية حيث تتمتع الولايات بتمثيل متساو ، بصرف النظر عن عدد السكان في كل منها) (١٠) ٠

والحقيقة ان الفرق بين اللامركزية الادارية واللامركزية السياسية هو فرق في الطبيعة وليس في الدرجة ٠ ففي الدول الفدرالية يرسم الدستور حدود استقلال السلطات الثلاث في كل ولاية ، بينما تقوم السلطة التشريعية في الدولة البسيطة بتعيين اختصاصات الهيئات والمصالح اللامركزية ٠ ان اللامركزية الادارية او الادارة المحلية « تتناول الجانب الاداري فقط وتعالج الامور العمرانية والحضارية التي تقوم بها ، عادة ، السلطة الادارية ٠اما الفدرالية السياسية فانها تتعدى النطاق الاداري الى القضاء والتشريع ، وهي تفرض ، حكما ، استقلالا في الدساتير المحلية والهيئات المشرعة والتنظيمات القضائية » (١١) ٠

ثامنا ـ وعندما ننتقل الى المقارنة بين اللامركزية الادارية واللاحصرية نجد

ان التمييز بينهما ليس بالامر العسير • ان الاختلاف بينهمـــا تام وبين • فاللاحصرية لا تخرج عن كونها صورة من صور المركزية الأدارية • وفي هــذا النظام تتنازل السلطة المركزية لبعض ممثليها المحليين عــن شيء من سلطتهــا التقريرية ، مما يمنحــهم نوعــا من الاستقلال في تصريف بعض الشؤون الادارية ويعفيهم من واجب الرجوع الى الرئيس او الوزير المختص • ولكن استقلالهــم هذا هو ، في الواقع ، استقلال عارض ومؤقت ، لان السلطة المركزية تستطيع ، ان شاءت ومتى شاءت ، وضع حــد له • اما استقلال الهيئات المحلية المنتخبة فاصيل لانه نابع من نص دستوري او قانوني •

وعلى سبيل المثــال نذكر ان المرسوم الاشتراعــي رقم ١١١ ، الصادر فــي ١٩٥٩/٦/١٢ ، والمتعلق بتنظيم الادارات العامة ، وقانون البلديات الصادر في ١٩٦٣/٥/٢٩ ، قد اوجدا ، في لبنان ، شيئا من اللاحصرية عــندمــا نصا على توسيع صلاحيات الحكام الاداريين • لقد منح القائمقام حق الترخيص بانشاء بعض المحلات المصنفة ، وحق تعيين نواطير الحقول والجمعيات النقابية للمياه ، وتعيين لجان الري الخاصة ، وتوقيع شهادة عــمل ، واعطاء دفاتر الاستخدام، وتوقيع امر السفر لجميع الموظفين التابعين لمنطقته : ومنح المحافظ حق منــح الاجازات الادارية والصحية ، وفرض العقوبات التأديبية ، والترخيص بانشاء بعض انواع المصانع والمحلات • واناط قانون البلديات ممارسة سلطة الوصاية، حسب اهمية القرارات ، بكل من القائمقام والمحافظ ووزير الداخلية •

فالفرق الاساسي بين اللامركزية واللاحصرية يكمن ، اذن ، في ان صلاحيات التقرير ، في النظام اللاحصري ، تمنح لموظفين يبقون تابعين للسلطة المركزية ، في حين ان صلاحيات التقرير التي تملكها المصالح والوحدات اللامركزية ، فــي النظام اللامركزي ، تستمد من النصوص الدستورية او القانونية •

وتعزيز اللاحصرية قد يقود الى اللامركزية الادارية • اما تقوية اللامركزية الادارية فقد تكون مقدمة للامركزية السياسيـــة ، او للانفصـــال السياسي ، وخصوصا اذا كانت العوامل الطائفية ، او الحوافز الاقليمية ، او البواعــث العنصرية هي الدافع ، في الاساس ، الى العــمل باللامركزية • ان اللامركزية تتحول ، اذا ما تسيست وتجاوزت الاطار الاداري ، الى نظام فدرالي • وقــد تؤدي كذلك الى انفصال سياسي كلي ، فالولايات المتحدة العثمانية التي كانت تعرف باسم بلاد الروم ، او الروملي (وهي رومانيــــا وبلغاريا واليونان والصرب) حصلت في البداية على لامركزية ادارية ، ولكنهـــا استطاعــت ان تستغلها وتطورها الى لامركزية سياسية ثم الى استقلال تام عــن الامبراطورية العثمانية • « وهــذا هــو السر في المعارضة التي كانت الحكومة العثمانيـــة تبديها لمطالب احرار البلاد العربية بمنحها استقلالا ذاتيا ، او لامركزية اداريــة

على الاقل ، لانها كانت تخشى ان يساعد هذا النظام على تقوية الشعور القومي فيها وانتشار روح التحرر والسعي للاستقلال » (١٢) ٠

★★★

تلك لمحة موجزة عن المركزية واللامركزية ٠ ونود ، قبل الانتقال الى القسم الاخير من البحث ، ان نبدي بعض الملاحظات :

الملاحظة الاولى هي انه اصبح من الصعب على الدولة الحديثة الاكتفاء بتطبيق احد النظامين فقط ٠ انها تاخذ اليوم بالنظامين معا وتمزج بينهما مزجا يلائم ظروفها واوضاعها التاريخية والاجتماعية والسياسية ، فتطبق كلا منهما على قطاع معين ، او تحدد لكل منهما نطاقه الذي يعمل فيه ٠ وقد تاخذ باحد النظامين او بكليهما لفترة معينة من الزمن ولتحقيق هدف معين ، حتى اذا ما تحقق هذا الهدف اعادت النظر في امرهما ٠ فالظروف التاريخية التي تمر بها الدولة ، والاخطار التي تحدق بها ، والمشكلات السياسية والاجتماعية التي تتعرض لها ، والتطورات التي تطرأ عليها ، تحتم عليها ، في كثير من الاحيان ، ومن اجل مجابهة الاخطار او مواكبة التغيرات ، ان تختار هذا النظام او ذاك ، او كليهما ٠

واذا كنا نعتبر كلا من النظامين وسيلة الى غاية ، وليس غاية في حد ذاته ، فمن الطبيعي ان تعمد الدولة ، من وقت الى آخر ، الى تغيير الوسيلة للوصول الى الغاية المنشودة ٠ ولعل التغير الذي اصاب النظام الاداري الفرنسي اكبر مثال على ذلك ٠ فقد خضعت فرنسا ، في العهد الاقطاعي ، لنظام اللامركزية ٠ وعندما قويت الملكية فيها على حساب الاقطاع ، في القرن الخامس عشر ، اعتمدت المركزية المطلقة وحصرت جميع السلطات في يد الملك ٠ وبعد نجاح الثورة ، وخصوصا في عهد نابليون ، ابقت فرنسا على النظام المركزي المطلق بغية تحقيق وحدتها ٠ وحينما استقرت الاوضاع السياسية فيها ، ولم تعد وحدتها موضع شك وخلاف ، انصرفت الى معالجة ادارتها العامة وراحت تتخلى تدريجيا عن المركزية لصالح اللامركزية ٠

والملاحظة الثانية هي ان بعض المفكرين ينادون باتباع نهج اداري وسط تخضع فيه الدوائر العامة لهيئات مركزية ولا مركزية معا دون ان يكون لاحداها تفوق على الاخرى في ميدانها الخاص ٠ وبذلك يشترك النظامان في العمل الاداري اشتراكا فعالا يقوم على التعادل والتعاون ، فالسلطات اللامركزية تكون حرة في اتخاذ القرارات وتنفيذها ، ويكون للسلطة المركزية ، مقابل ذلك ، صلاحية الموافقة فقط ٠ ولعل الفقيه الفرنسي Eisenmann (١٣) كان اول الداعين الى النهج الاداري الوسط حيث تتعادل السلطة المركزية مع السلطات

اللامركزية ، وحيث تكون السلطات اللامركزية حرة في تقرير اعمالها الادارية، فاذا ما وافقت عـليها السلطة المركزية اصبحت قابلة للتنفيذ ٠

والملاحظة الثالثة هي ان المركزية (وكذلك اللامركزية) قد تكون ادارية ، وقد تكون سياسية ٠ فاذا كانت سياسية اخضعـت مختلف الاقاليم في الدولة لسلطة سياسية موحدة ، ولم يعترف باي استقلال ذاتي لهذه الاقاليم ٠ وهناك دلائـل متعددة تشير الى ان التطـور السياسي في عـدد لا يستهان به من الدول يتجـه شطر تعزيز المركزية السياسية على حساب اللامركزية السياسية ٠ وتقويـة السلطة الاتحادية في الدول الفدرالية (في الولايات المتحدة وسويسرا والهنـد ، مثـلا) خير شاهـد عـلى ذلك ٠ واذا صح هذا الاتجاه كانت الدعـوة الـى اللامركزية السياسية في لبنان خـطوة الى الوراء ، او محاولة للوقوف ضـد تيار تاريخي متجه نحو المركزية السياسية ٠

والملاحظة الاخيرة هي ان الجدل القائم في لبنان حول اللامركزية يقتصر على اللامركزية الاقليمية ولا يمتـد الى اللامركزية المرفقية ٠ والبلديات في لبنان هي الهيئات اللامركزية الوحيدة في اطار التنظيم الاداري ، فقانون ١٩٦٣/٥/٢٩ يعتبر البلدية « ادارة ذات صفة عامة وشخصية معنوية تتمتع بالاستقلال الاداري والمالي ٠٠٠ » ، ويجيز للمجلس البلدي القيام بكل عـمل له طابع المنفعة العامة، كانشاء المساكن الشعبية ، والمدارس ، والمكتبات العامة ٠٠٠

وبعد هذه الملاحظات نصل الى السؤال المهم المتعلق بحقيقـة اللامركزيـة المطروحة على الساحة اللبنانية ٠



القسم الثالث : اللامركزية المطروحة في لبنان

اذا كانت الاطراف اللبنانية المختلفة تتحدث عن اللامركزية ، فهذا لا يعـني ان الجميع من انصارها ومتفقون على مضمونها ٠ واذا كان اليمين اللبنانـي هو الذي رفع رايتها في الاونة الاخيرة ، فهذا لا يعـني ان اللامركزية بشكلها الاداري والتنظيمي هي رائده ومقصده ٠ واذا كان البعـض يخشى ان يطول الجدل حول مضمون اللامركزية ويتحول الى قنبلة موقوتة قابلة للانفجار عـند ابسط احتكاك ، فان اقطاب العـهد الجديد قد حسموا الامر واعـلنوا موقفهـم الصريح من هذه المسألة ٠

اولا ـ اللامركزية هي اليوم حديث الساعـة في لبنان ٠ وهي موضع جـدل وخلاف بين بعض الاوساط السياسية والفكرية ٠ والحديث عنها يتسم ، فـي كثير من الاحيان ، بالغموض او السطحية او المناورة ٠ ولعـل البعض يتعمد تغليفها بالغموض لاخفاء الاغراض الحقيقية الكامنة وراء المناداة بها ٠

واذا كانت هناك فئة ترى ان لبنان ، في ظروفه الراهنة ، بحاجة الى لامركزية ادارية ، وتعتقد بان هذه اللامركزية يمكن ان تكون المنقذ من الضلال والضياع، والحامي من الاخطار التي تشكلها فكرة « التعددية في المجتمع اللبناني » (١٤)، فهناك فئات اخرى :

- ترفض اللامركزية ، حتى ولو كانت ادارية (١٥) ٠

- وترى « ان اي نوع من اللامركزية ، في الوقت الحاضر ، هو عمل تقسيمي » (١٦) ٠

- وتؤكد « ان طرح اللامركزية بعد الانفراجات النسبية التي حصلت في سماء لبنان ، وفي ظل الاجواء الملبدة بالحذر وعدم الاطمئنان ، من شانه اثارة المخاوف وتعميق جذور الفرقة وبقاء الاوضاع العامة والخاصة سائبة ينقصها فرض هيبة السلطة ويعوزها سلطان القانون » (١٧) ٠

- وتجزم « بان اي تحول نحو اللامركزية بعد الحرب يعتبر نتيجة للحرب ، وبالتالي سيكون اعمق من حجمه الذي يريده اللبنانيون » (١٨) ٠

- وتردد انه « لا يمكن القبول باللامركزية (على الاقل حاليا) لانه لم تترسخ لدى المواطنين اللبنانيين الروح الديموقراطية الحقة التي تسمو فوق الاعتبارات الطائفية والعنصرية والتي تمكنهم من تحقيق ادارة ذاتية ضمن اللامركزية من خلال اعتبارات وطنية سليمة » (١٩) ٠

- وتنصح « بان نبتعد ، ولو في الوقت الحاضر فقط ، عن طرح اي شعار للامركزية ، وان يكتفي بتوسيع صلاحيات المحافظين ورؤساء الوحدات في المحافظات وبوضع خطة انمائية اجتماعية واقتصادية لكل منطقة حسب حاجة كل منها » (٢٠) ، او تنصح « بالعودة ، ولو لمدة ست سنوات مثلا ، الى الصيغة المركزية المكثفة اكثر من السابق » (٢١) ٠

ثانيا - واليمين اللبناني هو الذي طرح بالحاح ، قبيل عودة الهدوء الى الربوع اللبنانية ، فكرة اللامركزية ٠ وقد اضطر الى طرحها والتركيز عليها بسبب فشل كل المحاولات والجهود التي بذلها من اجل الحفاظ على امتيازاته ، او من اجل نقل التجربة السويسرية (العمل بنظام الكانتونات) الى لبنان ، او من اجل انتزاع موافقة اهل الحل والعقد على اي مشروع فوري للتقسيم٠

واللامركزية التي طرحها كمخرج من الازمة اللبنانية لا تختلف في شيء عن النظام الفدرالي ٠ ومما لا شك فيه ان اليمين يدرك الفرق بين اللامركزية الادارية واللامركزية السياسية ، ويعلم ان الموافقة على اللامركزية السياسية تعني القبول بتغيير الهيكل الوحدوي للدولة اللبنانية ٠ فاللامركزية السياسية

تطبق في الدولة المركبة ، وكل مطالبة بادخـالها الى رحاب دولة بسيطة موحدة لا يمكن ان تفسر الا بانهـا دعـوة صريحـة الى احـداث تبديل جذري فـي البنية الوحدوية للدولة ٠

وبما ان كل دعـوة عـلنية الى اللامركزية السياسية كان من شانها ، فـي الاشهر الاخيرة من عـام ١٩٧٦ ، ان تسيء الى مخططات المنادين بها وتؤلب الراي العام عليهم ، فان اهل اليمين لم يجدوا من المناسب ان يفصحوا عـن نياتهم ويجهروا بها ٠ لقد فضلوا ، كعـادتهم ، ان يتبعـوا اسلوبا لا يخـلو من ذكاء ومرونة لبلوغ اغراضهم ٠

١ ـ ففي البداية اكتفوا بترداد كلمة « اللامركزية » بغرض التغطية والتمويه٠ لقد اقتصروا على التلويح بها وتعمدوا استعـمال الكلمة مجردة من اي وصف، مع تركيز خاص عـلى فكرة الدولة الموحـدة ارضا وشعبا ٠ وكانوا يهدفون ، من وراء ذلك ، الى اظهار محاسن اللامركزية ، وتهيئة الاجواء والنفـوس لتقبلها والاقبال عليها ، وجعلها بالتالي شعارا ومطلبا للمرحلة التي تلي فتـرة انتهاء الاقتتال ٠ ففي شهر آب (اغسطس) الماضي ، دعـا الشيخ بيار الجميل، رئيس حزب الكتائب ، في احد تصريحاته اليومية ، الى نوع من اللامركزية يتيح للمسيحيين « ان يكونوا احرارا في مناطقهم ٠٠٠ فلا تفرض عـليهم تربية معينة لاولادهم او تاريخ معين للبنانهم ، او تراث يسحق تراثهـم ٠٠٠ » (٢٢) ٠ واعلن بعـده ، ابنه بشير ، رئيس المجلس الحربي للكتائب ، « رفض التقسيـم رفضا باتا » ، ووصم كل من يبحث معـه في موضوع التقسيم بالخيانة ، وصرح « بان نظام اللامركزية سيوفر المشاكل والمتاعب ويلزم كل منطقة بان تدير شؤونها وتعنى بتقدمها في اطار دولة موحـدة ارضا وشعبا ٠٠٠ » (٢٣) ٠

٢ ـ وفي هذه الاثناء اخذت منشورات اليمين اللبناني تزخر باقوال المتطرفين حول استحالة التعايش بين اللبنانيين ، وتكون لبنان من عجينتين حضاريتيـن (٢٤) ٠ وكانت اوساط اليمين تذيع ، حينا بعد حين ، ما اسمته « بالاعتبارات » التي تحول دون استمـرار التعايش المشترك بين المسلمين والمسيحيين ٠ ويمكننا تلخيص هذه « الاعتبارات » بما يلي :

ـ ان في لبنان حضارتين ، اسلامية ومسيحية ، والخلافات بينهما تتجلى فـي المعتقد والتاريخ ٠ فالاسلام يفرض على المؤمنين به حاكما مسلمـا وحكمـا اسلاميا ٠ وفي حكم اسلامي لا يبـدو التعايش مع العلمانية ممكنا ، لان المسلم ينتمي الى دينه ، لا الى ارض وحدود وميثـاق اجتماعـي ٠

ـ ان القومية العربية ليست الا مرادفـا للاسلام ، فاذا كانت وحدة تاريـخ

وثقافة ولغـة ، فهـذا التاريخ اسلامي ، وكذلك اللغـة والثقافة ٠ الاسلام اذن هو العروبة ، والعروبة هي الاسلام ٠

– ان المارونية لا يمكن ان تنصهر مع العروبة او الاسلام ٠

– ان الاحزاب اليسارية ، ومعـها المسلمون على تعاطف دائم مع الفلسطينيين ضد الفريق اللبناني الآخر ٠ والوحدة الوطنية في هـذا المجال نوع من « الكذب الرسمي » ، لانها اتاحت حق النقض لفريق طائفي معـين ، فتعـطل الاختيـار السياسي على صعـيد السلطة المركزية الواحدة ٠

– ان المشكلة الفلسطينية دافع آخر الى الصيغـة البديلة (٢٥) ٠

٣ – وعـندما ترسخت فكرة اللامركزية في الاذهان واصبح الحديث عـنهـا معزوفة شبه يومية ، انتقل اهل اليمين الى مرحلة متقدمة سمحوا فيها لانفسهـم بايراد اوصاف معينة للامركزية التي يشتهون ٠ ففي تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، اعـلن بشير الجميل ، اكثر من مرة ، بان « صيغـة اللامركزيـة الادارية والسياسية تبدو الحـل المرحلي الوحيد لاعـادة بناء هيكلية الدولة بعد الحرب » (٢٦) ٠

٤ – وانتقلوا بعـد ذلك الى مرحلة اخـرى راحوا فيها يحـددون تصورهـم للبنان الجديد ويشيرون من طرف خفي الى تفضيلهم للنظام الفدرالي ٠ فقد قال النائب طوني سليمان فرنجية مرة : « اتصور لبنان الجديد موزعا الى محافظات اصغر بكثير من المحافظات الحالية ،وكل محافظة تتمتع بحكم ذاتي نسبي »(٢٧)٠

٥ – وقبيل غروب شمس العام المنصرم اتحف اليمين اللبناني المواطنين بنتائج استفتاء ، مدعـيا ان بعـض الافراد الذين ينتمون اليه ويطلقون على انفسهـم اسم « جبهة المواطن اللبناني » نظموه لمعـرفة راي اللبنانيين ، من مختلـف الطوائف والمشارب والمناطق ، في لبنان الجديد ٠ وورد في هذه النتائـج ان اكثر من ٩٥٪ من اللبنانيين يرغبون في تغيير صيغـة عام ١٩٤٣ (الميثـاق الوطني)، منهم ٨٠٪ يريدون تغيير الصيغـة لصالح اللامركزية السياسيـة ٠ وعرفت « الجبهة » المذكورة اللامركزية السياسية بانها « شكل مركب للدولـة يقضي بتخفيف الحكم المركزي لصالح الحكم المحلـي في المناطق ، اي باعـطاء المحافظات او المناطق اكبر قدر ممكن من الاستقلالية ، سواء لجهة صلاحيـات التقرير والتنفيذ ام لجهة اختيار السلطات المحلية عـن طريق الانتخاب ٠٠٠ ولا يجب الخلط بين اللامركزية السياسية واللامركزية الادارية ، فاللامركزية الادارية تتعلق بتنظيم ادارات الدولة ، كأن توسع صلاحيات المحافظ او مجلس البلدية ، وهذا لا يشكل صيغـة جديدة للبنان » (٢٨) ٠

٦ – وفي نفس الفترة الزمنية تقريبا . كان المحامي موسى برنس (عضـو

المكتب السياسي لحزب الوطنيين الاحرار) يذيع خريطة مشروعـــه الفدرالي ، تحت عنوان «المناطقية » ، ويقسم فيه لبنان الى ثلاث مناطق (أي ولايات) تتمتع كل منها بالاستقلال الذاتي ، وبدستورها الخاص ٠

وبذلك يكون اليمين قد ودع العـام الراحـل باثارة ضجة كبـــرى حول اللامركزية ، وبالافصاح ، بعد طول انتظار ، عـن نوع اللامركزية الذي يريد ٠

★★★

ومع اطلالة العام الحالي ، غـدا الحديث عـن اللامركزية السياسية امـــرا عاديا ويوميا ، لا حرج فيه ولا حـذر ٠ ففي اليوم الاول منه ، صدرت الصحف تحمل تصريحا لكميل شمعـون ، رئيس الوطنيين الاحـرار ، يدعـو فيه الـى اللامركزية السياسية عبر النظام الفدرالي ٠ قال : « ان اللامركزية هي النتيجة التي توصلنا اليها خـلال محادثاتنا مع النواب ٠٠٠ فمن اجل راحة الجميع ، ومنع الاحتكاك والعـودة الى اسباب الصدام وتعريض حياة المواطنين للاخطار، يجدر بكل منطقة ان تكون مستقلة استقلالا ذاتيا ، وقابلة للعيش بامكاناتهـــا وحدها ، وتتحمـل ميزانيتها ومشاريعـها ٠ وفوق ذلك تقوم السلطة الفدرالية بمعاونة المناطق المحتاجة ومساعدتها ودعمهـــا بـــما يحـــقق استقرارهـــا وازدهارها ٠٠٠ » (٢٩) ٠

وفي نفس اليوم بادر رئيس حزب الكتائب الى تأييد الرئيس شمعون والتأكيد على تمسكه بمشروع اللامركزية ، وابلغ بعض النواب ، بعـد اجتماع عـقده مع المدير العـام لقوى الامن الداخـلي ، انه لا بد من تطبيق نـــوع معيـــن من اللامركزية ، وان الكتائب طالبت بها قبـل وقوع الحرب باكثر من خمس سنوات، وانه عندما كان وزيرا للداخلية اقترح برنامجا لتعاون البلديات الصغيرة ، وان اللامركزية اذا طبقت ستكون مرحلةهادئة لا بد منهالتبديل الشعور بالانقسامالنفسي بين اللبنانيين (٣٠) ٠ومع انه لميقرن كلمة اللامركزية باي وصف ، فاناللامركزية بمضمونها السياسي لم تكن ، بالاستناد الى سلسلة تصريحاته السابقة ، بعيدة عـن تفكيره ٠

وقيل للرئيس شار حلو بانه « ابو فكرة الكانتونات في لبنان » ، فاجاب بان الفكرة منتشرة لدى عدد من مفكري «المنطقة الشرقية» ، وبانه لا يؤيد ما يذهب اليه البعض في «المنطقة الغربية» من حيث ان الوحدة لا يمكن ان تتم الا بالمركزية الضيقة ٠ واكد انه « مبدئيا ، ومرحليا ، من انصار اللامركزية ، بانتظـار ان تتوطد الوحدة المطلوبة » (٣١) ٠

وفي كانون الثاني (يناير) الماضي ، عقد اليمين عدة اجتماعات او خلوات مهمة انتهت باصدار بيانات تتضمن دعوة صريحة الى اعتماد « لامركزية ادارية واسعة » ، او «لا مركزية ذات صلاحيات واسعة » ، او «لامركزية سياسية وادارية مطلقة » · وحاول في احداها تجنب الحديث عن اللامركزية والتركيز على « تعددية المجتمع اللبناني » ·

١ ــ فمجلس اقاليم الجنوب في حزب الكتائب عقد حلقته الدراسية الاولى واصدر مقررات وتوصيات جاء في بندها السادس ان هذا المجلس « يدعو الدولة ··· الى تحقيق لامركزية ادارية واسعة في الجنوب ، انطلاقا من الوضع الجغرافي والسكاني ··· » (٣٢) · والحديث هنا عن « اللامركزية الادارية الواسعة » ياتي ، بعد كل التوضيحات التي ادلى بها اقطاب الحزب ، ليؤكد المضمون السياسي للامركزية ·

٢ ــ والقيادة الموحدة لـ « القوات اللبنانية » عقدت خلوة دراسية استثنائية في بلدة فقرا ، اذاعت على اثرها بيانا جاء في بنده الاول ما يلي : « في شان دولة لبنان الحديث ، قررت القوات اللبنانية التحرك من اجل تحقيق نظام اللامركزية ذات الصلاحيات الواسعة ، هذا النظام الذي يضمن اتحاد الامة اللبنانية ارضا ومجموعات انسانية وحضارية » (٣٣) · فاستعمال كلمة « اتحاد » ، وتعبير « مجموعات حضارية » ، امر ذو مغزى ودلالة ، فالاتحاد نظام واضح المعالم في القانون الدستوري ، والتذرع بوجود مجموعات حضارية كان دائما الحجة التي تثار قبل ولوج عتبة الفدرالية ·

٣ ــ ولم تتورع « الجبهة اللبنانية » ، لدى زيارة وفد منها لدمشق ، في ١٨/١/١٩٧٧ ، واجتماعه بالرئيس حافظ الاسد ، عن ترويج خبر مفاده ان ثمة اتفاقا تم بين الرئيس الاسد واعضاء الوفد « على درس موضوع اللامركزية بمزيد من الدقة واجراء استفتاء لمعرفة راي اللبنانيين فيه » (٣٤) · ولعل الجبهة كانت تهدف ، من اذاعة الخبر ، الى اقناع اتباعها بان الرئيس السوري لا يمانع في اعتماد اللامركزية حسب المضمون الذي ستحدده الجبهة لها في خلوتها القريبة ،والى ايهام اللبنانيين بان موضوع اللامركزية السياسية اصبح امرا مفروغا منه ، لا تراجع عنه ولا مساومة فيه ·

٤ ــ وبعد ثلاثة ايام من ترويج الخبر ، عقدت الجبهة خلوة في دير سيدة البير · ومع ان الخلوة كانت سرية فقد استطاعت الصحافة ان تطلع على اهم اوراق العمل التي قدمت الى المجتمعين ، ومنها مثلا ورقة العمل التي اعدتها لجنة بحوث مؤتمر الكسليك ، وتضمنت في جزئها الثاني الحلول المقترحة للازمة اللبنانية · وتتلخص الحلول بالدعوة الى اعتماد اللامركزية السياسية والادارية المطلقة (٣٥) ·

واستطاعت الصحافة كذلك ان تزودنا ، عن طريق التصريحات التي حصلت عليها ، بمعلومات قيمة عن موقف بعض الكتل التي شاركت في الخلوة ٠ فقد عالج النائب طوني فرنجية ، وهو عضو احدى الكتل المشاركة ، موضوع اللامركزية في تصريح له ، فقال : « اننا نؤيد اللامركزية الادارية والسياسية في اطار الحل السياسي المنشود ، ونعلق عليها املا كبيرا » (٣٦) ٠

وفي نفس الوقت الذي كان فيه رئيس الحكومة اللبنانية يعلن معارضة حكومته للامركزية السياسية ، كانت الجبهة تنهي خلوتها ، في ١٩٧٧/١/٢٣ ، ببيان يتجنب الحديث عن اللامركزية ويستبدله بالتركيز على التعددية ٠ لقد جاء فيه ان الجبهة قررت :

« اعتماد تعددية المجتمع اللبناني ، بتراثاتها وحضاراتها الاصيلة ، اساسا في البنيان السياسي الجديد للبنان الموحد ٠٠٠ بحيث ترعى كل مجموعة حضارية فيه جميع شؤونها ، وبخاصة ما تعلق منها بالحرية ، وبالشؤون الثقافية والتربوية والمالية والامنية والعدالة الاجتماعية وعلاقاتها الثقافية والروحية مع الخارج وفقا لخياراتها الخاصة » (٣٧) ٠

وهذه الفقرة من البيان تسترعي الانتباه وتثير العجب ، لانها تحتوي على نغمة غريبة غير مألوفة ٠ فهي تعتبر لبنان مجتمعا تعدديا من حيث التراث والحضارة ، وهذا ادعاء لم يطلق من قبل بهذا الشكل الرسمي ٠ وهي تقر للمجموعات الحضارية في لبنان بحق رعاية جميع شؤونها ، وهذا مطلب لم يخطر من قبل ببال احد ٠

ونظرة تأملية بسيطة الى هذه الصيغة تقنعنا بان الجبهة ذهبت بعيدا في اندفاعها نحو اللامركزية السياسية ، فتخطت كل الحدود ، ولم تعد تلتزم بالمضمون الذي حدده اقطابها للامركزية ٠ ان الصيغة المطروحة ليست اتحادية (فدرالية) ، وانما هي تعاهدية (كونفدرالية) ٠ انها لا تطالب بتحويل لبنان من دولة بسيطة الى دولة فدرالية ، بل ترمي الى تقسيم لبنان الى اكثر من دولة وربط هذه الدول بميثاق تعاهدي ٠

وبعبارة اوضح : ان الصيغة المطروحة هي صيغة تفتيت لوحدة لبنان ٠انها صيغة لا يمكن ان تتحقق الا بتجزئة لبنان الى عدة دول ذات سيادة يجمع بينها نظام عارض واه لا يقوى على الصمود امام الاعاصير والنزوات ، يعرف دستوريا باسم الكونفدرالية ٠ والفرق شاسع بين النظام الفدرالي والنظام الكونفدرالي ٠ فالاول يتكون من دولة واحدة ذات سيادة ، وان كانت مركبة من عدة ولايات يتمتع كل منها بالاستقلال الداخلي ٠ اما النظام الثاني فيتكون

من عـدة دول ذات سيادة لا يجمع بينها الا معـاهدة دولية تنص على التعـاون لتحقيق غرض معين مشترك ٠

ان الدولة الفدرالية تسمح للولايات فيها (التي قد تضم ، عند نشاتهـا ، مجموعات حضارية مختلفة) برعاية بعض شؤونها الثقافية والتربوية والمالية ، ولكنها لا تسمح لها مطلقا بان يكون لها جيش مستقل ، واسلوب خاص فـي تطبيق الحرية ، وطريقة خاصة في تحقيق العدالة الاجتماعية ، واستقلال تام فـي رعاية علاقاتها الثقافية والروحية مع الخارج ٠ ان العلاقات مع الخـارج ، سياسية كانت ام ثقافية ، تبقى ، في الدولة الفدرالية ، من اختصاص الحكومة المركزية ٠ ولهذا فان مطلب الجبهة باطلاق حرية المجموعـات الحضاريـة اللبنانية في اختيار علاقاتها الثقافية والروحية مع الخارج ، ورعاية جميـع شؤونها وفقا لخياراتها الخاصة ، يتجاوز حدود كل الانظمة والقوانين والاعراف التي تطبقها الدول الفدرالية ٠

وخيل الى البعض ، بعـد اذاعـة بيان « الخـلوة » ، ان ما ورد فيه يمثـل وجهة نظر « الصقور » في الجبهة ، وان هناك فئات او شخصيات مشاركة ترفض الالتزام بكل ما تضمنه البيان ٠ غير ان مختلف التصريحات والمواقف التي ظهرت فيما بعد جاءت لتثبت العكس وتبرهن على وجود اجماع شامل على كل الافكـار الواردة في البيان ٠ وقد اتضح ذلك عندما سألت صحيفة « السفير » بعض النواب عن موقفهم من اللامركزية وتحديدهم لها ، فاعتبر السادة طوني فرنجية ، وامين الجميل ، والدكتور عبد الله الراسي (والثلاثة من اعضاء الجبهة والمشاركيـن في خلوتها) ان المقررات الصادرة عن الخلوة تتضمن الجواب عن السؤال (٣٨)٠

ثالثا ــ واذا ما تساءلنا ، بعد استعراضنا لموقف اليمين من اللامركزية ، عـن مواقف الاطراف الاخرى ، فماذا نجد ؟

ليس هناك ، في الواقع ، مقابل اليمين اللبناني الموحـد والمجسد بالجبهـة اللبنانية ، يسار او تكتل آخر موحد يمثل بقية اللبنانيين ٠ غير ان ذلك لم يمنـع مختلف الاحزاب والجمعيات والشخصيات من الادلاء برأيها حـول موضـوع الساعة ٠ ونستطيع ان نؤكد ، دون خطأ او شطط ، ان غالبيتها العظمى قدادركت اخطار اللامركزية السياسية فرفضتها ، واستوعبت معنى اللامركزية الاداريـة والحاجة اليها فرحبت بها ٠

وليس بمقدورنا سرد كل ما صدر عن الاطراف الاخرى من تصريحات ٠ انهـا كثيرة ومتشابهة ٠ ويمكننا ، لاسباب لا تغرب عن فطنة اللبيب ، ان نستشهـد باراء بعض الشخصيـات ٠

١ ــ قال الرئيس رشيد كرامي لوفد من المحررين : « ٠٠٠ انني مع اللامركزية

الادارية التي تهدف الى تقريب الادارة من المواطن من اجـــل تسهيل خدمـة مصالحه ، ولكن اذا كانت اللامركزية هي من أجل التقسيم او بعض انواعه ، فأنا ارفضها لانني مع وحدة هذا الوطن ترابا وشعبا » (٣٩) · وقال في حديث ادلى به لصحيفة « الدستور » الاردنية انه يعارض اللامركزية السياسية لانها الطريـق الى التقسيم (٤٠) ·

٢ ـ وقال الرئيس صائب سلام ، بعد زيارة قام بها للشيخ بيار الجميل فـي بلدة بكفيا : « انا مع اللامركزية الادارية ، وضد كل مـــا يشتم منه انـــه للتقسيم » (٤١) ·

٣ ـ وسئل السيد رياض طه ، نقيب الصحافة ، بعد اجتماعه باركان حـزب الكتائب ، عما اذا كان البحث قد تطرق الى مسألة اللامركزية ، فأجاب : « لـم أشأ ان اناقش موضوع اللامركزية ، لان لي فيه رأيا خاصا يتلخص بعبارة : كلمة حق يراد بها باطل · فاذا كان المقصود باللامركزية تخفيف قبضة السلطة فـي العاصمة وجعل المناطق اللبنانية قادرة على الوصول الى السلطـة وحاجاتها ، فهذه من المطالب المزمنة في لبنان ولا ينكرها احد · امـــا اذا كان المقصـــود باللامركزية ما يجاهر به بعض المتطرفين المتعصبين ، فانها ستكون مقدمة للتقسيم، وهذا ما لا يمكن ان يرضى به اي مخلص للبنان » (٤٢) ·

رابعا ـ واخيرا ، ما هو موقف الحكومة اللبنانية من موضوع اللامركزية ؟ لقد كان موقفها ، منذ البداية ، واضحا وصريحا · وآراء رئيس الدولة ، ورئيس الحكومة ، ووزير الخارجية ، تشهد بذلـــك ·

١ ـ صحيح ان رئيس الجمهورية لم يدل (وليس ، في الحقيقة ، مضطرا الى الادلاء) برأي مباشر في اللامركزية ، او في اي موضوع مطـــروح على بساط البحث والجدل ، ولكن تصريحاته واحاديثه مع زواره تدور دائما حول « وحـدة الدولة كسبيل لتحقيق وحدة لبنان شعبا وارضا » · واكد الكثيرون ان الرئيس سركيس « يرفض اللامركزية اذا كانت سبيلا الى التجزئة والتقسيم واذا كانـت تقوم على اساس سياسي وطائفي ، الا انه مع اللامركزية الادارية التي تسهـــل شؤون الناس ومصالحها وتختصر سير المعاملات ··· » (٤٣) ·

٢ ـ وقبل مرور شهر على تسلم الدكتور سليم الحص مقاليد رئاسة الحكومة، اعلن في حديث متلفز ان الحكومة مع اللامركزية الادارية الى اقصى حد ، وضـد اللامركزية السياسية لانها ضرب من ضروب التقسيم (٤٤) · وسئل بعد يومين عما اذا كان ، بحديثه ، يعبر عن رأيه الشخصي ، فاكد « ان هذا هو موقـــف الحكومة ، وقد جاء ذلك في البيان الوزاري » (٤٥) ·

٣ ـ وادلى الاستاذ فؤاد بطرس ، وزير الخارجية والدفاع ، بتصريح لاحدى

الصحف علق فيه على الجدل القائم ، حول الصيغة الجديدة للبنان ، بين المنادين باعتماد لا مركزية ادارية فحسب وبين الداعين الى لامركزية سياسية ، فقال : « لقد قلت انني كمواطن اطمح الى لبنان موحد · وسأسعى جهدي الى تحقيق هذه الغاية ، وهي غاية لا تتنافى مع ما يسمونه اللامركزية الادارية او ما يشبهها » (٤٦) ·

ولم يبق لنا ، في ختام بحثنا ، الا ان نبدي الملاحظات التالية :

١ ـ ان اللامركزية الادارية نظام لا غبار عليه ، ولكن الظرف الذي طرحت فيه ، واسلوب التحدي الذي رافق كل حديث عنها ، وانكباب المسؤولين على امور كثيرة اخرى يعتبرونها اهم واجدى ، وعدم حماسة الشعب المثخن بالجراح لهذا النظام او لغيره ··· ان كل ذلك سيجعل من اللامركزية ، لمدة قد تطول وقد تقصر ، موضوعا قابلا للجدل والمناقشة ·

٢ ـ ان المسؤولين ، الذين اعترفوا بحسنات اللامركزية الادارية ، لن يعمدوا في وقت قريب الى تكريس الجهود للاهتمام بهذا الموضوع ، فالوضع الراهن للبلد لا يسمح بذلك ولا يشجع عليه ، واللامركزية ، كما قال رئيس الحكومة ، «عملية شاقة وطويلة لانها تحتاج الى اجهزة واسعة من الموظفين في كل منطقة ومحافظة في لبنان » (٤٧) ·

٣ ـ ان نجاح اللامركزية في بلد ما مرتبط ، الى حد كبير ، بمدى انتشار المؤسسات والتنظيمات الديموقراطية في هذا البلد · ويؤلمنا ان نعترف بان لبنان يفتقر الى هذه العناصر ·

بيروت في ١ـ٣ـ١٩٧٧

الحواشي :

١ ـ راجع الكراس الذي نشرته الوزارة المذكورة بعنوان : **منجزات الاصلاح الاداري** ·

٢ ـ د· سليمان الطماوي : **الوجيز في القانون الاداري** · دار الفكر العربي· القاهرة ١٩٧٣ · ص ٥٣ ـ ٥٤ ·

٣ ـ راجع ، مثلا ، الفقرة الثانية من المادة ١٤ من المرسوم الاشتراعي رقم ١١٢، الصادر عام ١٩٥٩ ، في لبنان ·

٤ ـ د· جان باز : **الوسيط في القانون الاداري اللبناني** · بيروت ١٩٧١· ص٥٢·

٥ ـ د· مصطفى البارودي : **الوجيز في الحقوق الادارية** · الطبعة الرابعة · دمشق ١٩٥٨ · ص ١٠٧ ·

٦ ـ M. waline, Droit administratif Paris 1950 , P. 182 .

٧ ـ نفس المرجع السابق ·

٨ ـ راجع كراس : **وحدات الادارة المحلية** ، الصادر عن مركز البحوث الادارية ، التابع للمنظمة العربية للعلوم الادارية · القاهرة ١٩٧١ · رقم ٩٩ ·

٩ ـ نفس المرجع السابق ·

١٠ ـ waline ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ ·

١١ ــ عزت الايوبي : **مبادىء في نظم الادارة المحلية** · دار الطلبة العرب · ص ١٠ ·

١٢ ــ شفيق حاتم : **محاضرات في القانون الاداري** ، للسنة الثانية من الحقوق · بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٣٦ ·

١٣ ــ راجع ما كتبه في هذا الموضوع في المجلة الفرنسية :

Revue du droit public et de la science politique , 1947 .

١٤ ــ راجع ما قاله الدكتور محمد علي مكي عن « التعددية » ، في مجلة الاسبوع العربي ، عدد ١٩٧٧/٢/٩ ، ص ٢١ ·

١٥ ــ من حديث للامام موسى الصدر لصحيفة الانوار ، في ١٩٧٦/١٢/٢٧ ·

١٦ ــ من حديث للامام الصدر لمجلة الحوادث ، في ١٩٧٦/١٢/٢٤ ، ص ١٧ ·

١٧ ــ من تصريح للنائب ناظم القادري، رئيس اللجنة البرلمانية للادارة والعدل ، لصحيفة السفير ، في ١٩٧٧/٢/١٧ ·

١٨ ــ من تصريح للامام الصدر للسفير ، في ١٩٧٧/١/١٨ ·

١٩ ــ راجع مقال المحامي واصف الحركة في مجلة الحوادث ، في ١٩٧٧/٢/١٨ ، ص ٣٩ ·

٢٠ ــ من التصريح المذكور للنائب ناظم القادري ·

٢١ ــ من التصريح المذكور للامام الصدر ، في ١٩٧٧/١/١٨ ·

٢٢ ــ صحف بيروت في ١٩٧٦/٨/١٣·

٢٣ ــ من تصريح له في النهار ، في ١٩٧٦/١١/٢٤ ·

٢٤ ــ قال رئيس حزب الكتائب في ١٩٧٦/٨/١٣ « ان المشكلة في جوهرها تكمن في تصور البعض ان لبنان من عجينة حضارية واحدة ، بينما هو في الواقع يتألف من عجينتين » ·

٢٥ ــ نقلا عن السفير ، في ١٩٧٦/١١/٢٠ ·

٢٦ ــ السفير ، في ١٩٧٦/١١/٢٨ ·

٢٧ ــ الانوار ، في ١٩٧٦/١٢/٢٠ ·

٢٨ ــ الانوار ، في ١٩٧٦/١٢/٢٣ ·

٢٩ ــ صحف بيروت ، في ١٩٧٧/١/١·

٣٠ ــ الحوادث ، في ١٩٧٧/١/٧ ، ص ١٠ ·

٣١ ــ نفس العددمن الحوادث، ص١٦·

٣٢ ــ النهار ، في ١٩٧٧/١/١٧ ·

٣٣ ــ النهار ، في ١٩٧٧/١/١٨ ·

٣٤ ــ النهار ، في ١٩٧٧/١/١٩ ·

٣٥ ــ النهار ، في ١٩٧٧/١/٢١ ·

٣٦ ــ النهار ، في ١٩٧٧/١/٢٣ ·

٣٧ ــ النهار ، في ١٩٧٧/١/٢٤ ·

٣٨ ــ السفير ، في ١٩٧٧/٢/٢٠ ·

٣٩ ــ السفير ، في ١٩٧٦/١١/٢٧ ·

٤٠ ــ الانوار ، في ١٩٧٦/١٢/٢١ ·

٤١ ــ النهار ، في ١٩٧٧/٢/١١ ·

٤٢ ــ النهار ، في ١٩٧٦/١١/٢٥ ·

٤٣ ــ النهار ، في ١٩٧٦/١١/٢٥ ·

٤٤ ــ الصحف الصادرة في ١٩٧٧/١/٢٣ ·

٤٥ ــ السفير ، في ١٩٧٧/١/٢٥ ·

٤٦ ــ النهار ، في ١٩٧٧/١/٢٨ ·

٤٧ ــ من تصريح له لمجلة « ذي ميدل ايست » البريطانية · نقلا عن السفير ، في ١٩٧٧/٢/٢٠ ·

الازمة اللبنانية وصياغة المستقبل

شفيق الحوت

رغم صمت المدافع وتوقف القتال ، فان الازمة في لبنان لم تنته • وسيبقى ملفها مفتوحا والخوف من عودة انفجارها قائما ، الى ان ينتهي جميع اطرافها من تحليل اسبابها ، وتقييم ما نتج وما كان يمكن ان ينتج عنها ، ثم اختيار الموقف المبدئي والنهائي من هذا كله ، مع تحديد اسلوب السعي لتثبيت هذا الموقف وتحقيق مضامينه •

عبر هذه المنهجية السياسية الجادة فقط ، وبعد الحوار الديمقراطي المسؤول بين كافة الاطراف المعنية ، يمكن وأد الازمة وطي ملفها وتجنيب لبنان والمنطقة المجاورة من تكرار السقوط في مثلها •

واذا كان لبنان هو المسرح الذي تفجرت فيه عناصر هذه الازمة ، فان اكثر من قطر عربي مرشح لمثل هذه التجربة المريرة ، ان لم نفد جميعنا من استخراج العبر والدروس الكفيلة بهدايتنا لصياغة الحلول المبدئية والنهائية القادرة على الصمود والاستمرار في وجه جميع التحديات •

مهم جدا ان يجمع الكل في لبنان على الاعتراف بسقوط الصيغة الماضية التي كانت تحكم حياتهم العامة ، ولكن الاهم ان يجمع هؤلاء على الصيغة المستقبلية•

× × الصيغة القادرة على تجاوز الموروث من مشاكلنا ، بكل ما افرزته من رواسب وعقد ، تجسدت بممارسات قبلية وطائفية غاية في البشاعة والتخلف •

× × الصيغة القادرة على الصمود امام الراهن من مشاكلنا ، بكل ما طرحته من قضايا تتعلق بهوية الوطن والمواطن ، وقضية الانتماء القومي وتحديد العدو من الصديق وما يترتب على هذا التحديد من مواقف نهائية وثابتة •

× × واخيرا الصيغة القادرة على مجابهة القادم من مشاكل ، وفي مقدمتها مشكلة العصر ، في التنسيق بين ضرورات التنمية والتقدم وطموحات الفرد في توفير حياة اجتماعية تنتفي فيها هذه الحدة الرهيبة في الفوارق الطبقية •

ولما كان القصد من هذا الحديث هو المحاولة المتواضعة في الاسهام في عملية

التحليل والتقييم لهذه الازمة التي قاسينا جميعا من اهوالها والآمها ، فان اصح ما يمكن ان نستهل به بحثنا هذا ، هو الاقرار المسبق بان هذه الازمة كانت لبنانية الوجه ، عربية المضمون ، دولية الابعاد ·

هي ازمة مركبة معقدة وتحمل كل سمات المخاض العسير للانسلاخ من حقبة ودخول حقبة ·

ازمة تحول وتكوين ·

ازمة حضارية تناولت جميع مقومات الحياة العامة من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية · ازمة كان « حاضرنا » فيها ساحة صراع وصدام بين الامس والغد ومجمل رموز كل منهما ·

× × لم تكن « الارض » هي سبب الصراع او محوره ، وان بدت احيانا كذلك ، وانما ما هو فوق هذه « الارض » من قيم ومفاهيم ورواسب وتطلعات ·

× × ولم تكن « الهوية القطرية » هي الصراع او محوره ، وان بدت كذلك احيانا وانما التوجه الفكري المنسوب لاصحاب هذه « الهوية » ·

الفلسطيني ، مثلا ، كان مقبولا عندما كان لاجئا مسالما وبدا عاملة رخيصة وقانعا بواجباته زاهدا في حقوقه ، ولكنه عندما اصبح مناضلا سياسيا ومقاتلا ثوريا ، لم يعد مقبولا بل مرفوضا ، ومعه كذلك « اللبناني » الذي سانده وايده ورأى في تحوله من لاجيء الى مناضل اشارة ايجابية على طريق التطور وتحرير الوطن والانسان ·

و« السوري » بقي مرفوضا وعرضة للتهديد والقمع لاعتبارات عقائدية وما كان ليتغير الموقف منه لولا التغير في موازين القوى واتساع رقعة الخطر وبروز البعد الدولي في الازمة ·

× × ولم يكن « الانتماء الطائفي » هو سبب الصراع او محوره ، وان بدا كذلك في معظم الاحيان · فالكل يعرف انه كان بين اطراف الصراع الالاف من ابناء المذاهب المتعددة ، ومنهم من كانوا قادة ومسؤولين ·

ولكن على الرغم من ذلك كله ، فانه لا يمكننا ان نتجاهل حقيقة هامة تجلت في قدرة البعض ، هنا وهناك بين اطراف الصراع ، على استغلال الرواسب القبلية والطائفية والقطرية الشوفينية وتحريكها بكل ما فيها من احقاد دفينة لاستقطاب جماهير الشعب من البسطاء وتعبئتهم للقتال والصراع ·

وان كنا قد اقررنا لهذا البعض من القادة التقليديين قدرتهم على استثمار رواسب الماضي وعقده ، فاننا في الوقت نفسه نسجل للفكر السياسي الحديث

قدرته على تطويق هذه المحاولات وحصرها في نطاقات محـدودة ٠

وما من لبناني ، بل ما من مقيم على ارض لبنان ، الا وعـاش لحظات من التعاسة التي لا توصف ، عـندمـا وجـد نفسه عاجزا عـن الجهر بهويتـــه الحقيقية الكاملة ، مذهبا وانتماء وجنسية وفكرا ٠ وازدادت تعاسة البعض اكثر واكثر عـندما اكتنفه الغموض والشك حول حقيقته هذه ، ووجد نفسه يطـــرح من جديد عـلى نفسه ، السؤال المصيري :

× × من انـــا ؟ ومن نحـن ؟

× × هل انا مسيحي ام مسلم ؟ماروني ام ارثوذكسي ام كاثوليكي ٠٠ سني ام شيعي ام درزي ؟

× × هل انا لبناني ؟ وان كنت كذلك ، فهل جنوبي ام شمالي ، من الجبـل ام من السهل ٠٠ بل من الناس من وصل الى التفريق بين لبناني مـــن شارع الحمرا واخر من شارع صبرا وثالث من حي الصنائع وهكذا !!!

وعـلى ضوء ذلك كله ، او في ظلال ظلمة هذا كله :

× × هل انا عربي وجزء من هذه المنطقة وهذا الوطن الكبيـــر ، ام ان لا علاقة لي بالعـرب والعروبة رغم امتداد الجغرافيا والتاريخ في وطني وفـــي نفسي ؟! وان كنت عربيا فماذا يحكم علاقتي بالسوري والفلسطيني والمصري والعراقي ؟ الخ ٠٠

اننا لكي نرد عـلى هذه التساؤلات دون ان نخـطيء في تحليل واقعـنـــا ، وبالتالي لا نجرم في صياغة مستقبلنا ، علينا جميعا ان نعيـد قراءة تاريخنا ٠

ولا يهم من اين نبدأ هذه القراءة ، ولكن كيف نبدأها ٠

فالتاريخ ليس مجرد تسجيل تقريري لحوادث الماضي ، وليس مجرد تراكـــم لاحداث توالت عبر السنين بالصدفة او العفوية ٠ التاريخ هو تسجيل لحـركة الانسان والمجتمع على طريق النمو والتطور وتحقيق الافضل ٠ هو مسيـــرة الصراع الذي لا ينتهي بين واقع الانسان والمجتمع وبين طموحات هذا الانسان ومجتمعـه ٠

واذا اتفقنا على هذا التفسير للتاريخ ، فاننا عـندما نعـيد قراءة تاريخنـــا عـلى هذا الضوء ، سنكتشف مجموعـة من الحقائق الثابتة التي حكمـــت حركته باستمـرار ، لم تتغير ولم تتبـدل ، رغـم كل ما زخـر به هـذا التاريخ من احـداث وتغييرات ٠

● والحقيقة الاولى ان تاريخ هذه المنطقة من الوطن العربي ، والتي عرفـت

عبره باسماء متعـددة ، وتشمـل اليوم ما يعـرف بسوريا ولبنان وفلسطيـن والاردن والعراق ، كان عـلى الدوام تاريخا مشتركا وسجلا لتفاعـل مستمـر بين سكان هذه المنطقة · ويستحيل على المؤرخ ، مهما حاول ، ان يمر بحقبـة من حقبات هذا التاريخ ليجدهـا خـلوا من عـملية التفاعـل هذه · حقيقـة استمرت من التاريخ القديم ، فالمتوسط ، حتى الحديث ·

والعبرة من هذه الحقيقة هي دحض هذا الوهـم القائـل بقدرة اي شعـب من شعوب هذه المنطقة ، او اي قبيلة من قبائلها ، او اي طائفة من طوائفهـا ، على « عـزل » مسيرتها الحياتية عـن المجرى العـام لمسيرة المنطقة كلهـا · وكل اسوار العـزلة التي قرأنا عـنها في ديار هـذه المنطقة لم تستطع في النهاية ان تصمد امام رياح التغيير الثقافي والحضاري التي كانت تهب من المنطقـة ، ليعـود التفاعـل من جديد تاثرا بالوافد وتاثيرا به ·

● والحقيقة الثانية في تاريخ هذه المنطقة ، هي رفض سكان هذه المنطقة لكل موجات الغزو الاجنبي الذي تعرضت لـه · وكلنا يعلم ان موقع هذه المنطقـة على خريطة العـالم ، جعـلها منذ القدم عرضة لاطماع الغـير مـن الشرق والغرب على السواء · الفرس والروم في قديم الزمان مرورا بالتتر والمغـول ثم الترك والاوروبيون وغيرهم ، ممن غزوا وحكموا ولكنهم اخيرا نزحوا ليبقى سكان هذه المنطقة في ديارهم يمارسون دورهم السرمدي في الدفاع عن حياتهم ثم في تطويرها ودفعـها للامام · والتجربة الراهنة في عصرنا هذا تتجسد في صراع اهل المنطقة ضد اخـر غـزوات الاجنبي ، اي الغـزوة الصهيونية والتي لـن يكون مصيرها الا كمثل ما سبقها من غزوات·

والعبرة من هذه الحقيقة واضحـة بينة ·

● والحقيقة الثالثة في تاريخ هذه المنطقة ، والتي يوجد خلاف من حولها ، تتعـلق بمرحلة مميزة من هـذا التاريخ ، تلك المرحلة التي بدأت بظهـور الاسلام · فهناك في لبنان ، وغـيره من بعـض اقطار هـذه المنطقة ، من يرى في الفتح الاسلامي غـزوة كغيرها من الغـزوات التي قام بها الفرس او الروم ، وان العروبة التي ينادي بهـا البعـض الاخـر ليست الا اسما حركيا او سياسيا « للاسلام » فاين الحقيقة في هذا الكلام ؟

× × ×

ان جوهر الخلاف القائم حول هذه « الحقيقة » والذي تفجر صراعا مسلحا في لبنان ، لا ينبع في اصله من عـدم الاتفاق حول القراءة الموضوعـية والفهم المشترك لتاريخنا الواحد ، بقدر ما يصدر عـن الخلاف حول العبرة المستخرجة من هذه القراءة والتي يجب ان تحكم توجهاتنا لصياغـة حياتنا المستقبليـة ·

ويعـود ذلك لاسباب تتعـلق في الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عانى منها مسيحيو هذه المنطقة في ظلال عـهود كان الحاكم المسؤول فيهـا « مسلما ويحكم باسم الاسلام والمسلمين » ، ولا سيما في اخـر عـهود الخلافة الاسلامية ، العـهد العثماني البغيض ·

× × فالكل متفق عـلى ان العقيدة شيء والممارسة التي تتم في ظلالهـا شيء اخـر · و« النظام » في الاسلام و« الاسلام» شيء اخـر · وما من مكابر يستطيع ان يقنع اي مسلم معاصر بان « النظام » في عـهد الخلفاء الراشدين، كان صورة طبق الاصل عـنه في عـهد الامويين او العباسيين او الفاطميين او العثمانيين · ولربما عانى بعض المسلمين في عهود بعض الحكام والخلفـاء اكثر مما عانى منه غـير المسلمين ، ويكفينا للتدليل عـلى ذلك ما حـدث لآل بيت الرسول نفسه وحفيديه الحسن والحسين ·

× × والكل متفق على ان الاسلام ، وان كان عربي اللسان بقرآنه ، وحديث رسوله ولغـة القوم الذين حملوا لواءه ، فلقد كان دينا سماويا للعالمين كـل العالمين · والعرب فـي الاسـلام ليسـوا « شعبـا مختـارا » ولا فضـل لاي منهم عـلى اعجمي الا في التقوى · « والامة » في الاسلام هي «المسلمون» وليسوا « العـرب »، وهذا لبس كثيرا ما وقع في سوء تفسيره بعض المستشرقين لان العربية كانت لغـة الكتاب التي كان يخـاطب فيها الرسول اتباعـه ·

بعبارة اخـرى ، ان الاسلام كالنصرانية هو رسالة سماوية جاءت هدايـة للناس وتحذرهم من الشر وتبشرهم بالخير ·

وبالتالي فليس كل العـرب مسلمين ، كما انه ليس كل المسلمين عربا ، بـل ان اغلبيتهم من غـير العـرب ، تماما كما ان اغلبية النصارى اوروبيون ولا يربطهم بالسيد المسيح لا رابطة اللغـة ولا رابطة الاصل ·

اليهود فقط ، او بعضهم ، هم وحدهم الذين يصرون عـلى ان ديانتهـم هي قوميتهم ، الامر الذي جعلهم «نشازا» في هذا العـالم ، ونعـاني نحن في هذه المنطقة بالذات من آثار هذا النشاز ·

× × والكل متفق ، وتاكيدا لما سبق ، ان الاسلام كالنصرانية ، لم يقـف حائلا دون نشوء القوميات في اواسط القرن الماضي وبداية هذا القرن ·وشهدت الخلافة العثمانية الاسلامية التمرد العربي عـليها وتحالف المسلمين والمسيحيين العرب ضدها · ولقد وصل هذا التمرد حد اعلان الثورة العربية بقيادة امير مكة وملك الحجاز الشريف حسين ، وتحالفه مع الانكليز ضدها ·

في هذه الفترة من التاريخ ، كنا في هذه المنطقة ، كغيرنا في كل بلاد العالم، نبحث عن الرابطة الاقوى والارسخ لمواجهة تحديات تلك الفترة ولتلبية مطالـب

الناس انئذ • وجاءت الرابطة القومية لتاخذ موقعها بديلا عن كل ما سبقها من روابط قبلية ومذهبية عانى الكل منها •

وتحت هذه الراية تبدلت تحالفات وتغيرت صداقات ، وحاربت دول مسيحية مع تركيا دولا مسيحية اخرى ، وامدت دول مسيحية يد العون لمسلمين ضد دول اسلامية •• تغيرت الخرائط ، وتغيرت المصالح ، واصبحت « القومية » لا المذهب الديني هي اللواء التي يجتمع الناس من حولها •

ولا بد لنا عند هذه النقطة بالذات من وقفة خاصة ، لانها هي بالذات النقطة المنعطف في تاريخ هذه المنطقة بالنسبة لقضيتين اثنتين ، ظننا فيما مضى انهما قد حسمتا ، وكشفت ازمتنا في لبنان انهما لا تزالان معلقتين وعرضة لعبث المغرضين •

ـ القضية الاولى تتعلق بالرفض المشترك « للنظام » العثماني وممارساته التي قاسى منها المسيحيون والمسلمون ، مما ادى لاندلاع الثورة ضد الحاكم « المسلم » في تركيا والتحالف مع الحاكم « المسيحي » في اوروبا •

ـ والقضية الثانية تتعلق بالرابط الذي جمع بين المسلمين والمسيحيين ، وهو الرابط القومي اي رابط العروبة •

ومن يعد قراءة تاريخ هذه الفترة بالذات لا يستطيع الا ان يزهو فخرا في هذه الوحدة القومية التي تجلت في استشهاد هذا العدد الوفير من خيرة ابناء العرب ـ مسلمين ومسيحيين ـ حتى اننا لا نجد مدينة هامة في هذه المنطقة تخلو من ساحة لتمجيد ذكرى هؤلاء الشهداء •

ولنعترف بجرأة وصراحة ان الموقف القومي العربي من الدولة العثمانية المسلمة كان اصعب واشق على المسلم العربي منه على المسيحي العربي •

واذا فرضت علينا الامانة تسجيل هذه الحقيقة الموضوعية باعتبارها تسجيلا لانتصار الوعي القومي على الرواسب المذهبية ، فلا يجوز ان يفوتنا ان نسجل بنفس الامانة الدور القومي الرائع الذي قام به المسيحيون في بعثهم للقومية العربية وحفاظهم على تراثها ولغتها وادابها •

تاريخ هذه الفترة يجب ان تعاد قراءته • ويجب ان تعمم فصولها على اجيالنا الراهنة ليكتشفوا ان ما يبدو مستحيلا في ايامنا المتقدمة هذه، كان حقيقة قائمة قبل اكثر من نصف قرن •

انها الفترة الذهبية ، التي سعد بها الانسان في هذه المنطقة عندما استراحت نفسه الى كل الاجوبة المصيرية التي عاد ولده او حفيده يتعذب امامها هذه

الايام : من انـا ؟ ومن نحـن ؟ الخ ٠٠

ولا يزال بيننا من شهـود تلك المرحلة رجال ـ مد اللـه في اعمارهم ـ ممـن يحدثوننا عـن تلك الفترة بكل الزهـو والاعتزاز ، يوم كان يلتقي الرجال مـن كل صوب وحـدب ، من جبـل لبنان وساحـل فلسطين وصحارى سوريا والعراق وراء الهدف الواحد وتحت راية واحـدة هي راية العروبة ، رايـة الحريـة والوحدة ٠ الراية البديلة لراية القبلية الضيقة او الطائفية المتعصبة ٠

ولكنها ـ للاسف ـ كانت فتـرة قصيرة العمر ، كعمـر البـرق في البهيـم ، يلمع ويضيء وسرعان ما يمضي ٠ لم يكن ذلك من حكم القضـاء ، او القدر ، ولا لان رواسب الماضي كانت اقوى من الرابطة الجديدة ، بل لان « الحليف »الذي ناصرناه ضد الحاكم العثماني المستبد ، لم يكن سوى الصورة المتجددة لنـوع جديد من الطغيان والاستبداد ٠

ان الاستعمار الاوروبي الذي ورث العثمانيين في هذه المنطقة ، كان امكر من ان يترك لاهل البلاد حرية تقرير المصير واقامة دولتهم « العربية » الواحـدة المستقلة ٠

وقبل ان تجف دماء شهدائنا الابرار الذين ساهمـوا في صنع هذا النصـر الاوروبي املا في الخلاص من النير التركي ، كان اقطاب الاستعمار قد تناسـوا كل وعودهم ونكثوا كل عـهودهم ، فعـكفوا على خريطة هذه المنطقة كالقراصنة يقطعـون في اوصالها وفق مصالحـهم واطماعـهم ٠

وكانت اتفاقية « سايكس ـ بيكو » الشهيرة التي قسمت المنطقة الى دويلات وولايات منهـا ما اخضع للانكليز ومنها ما اخضع للفرنسيين ٠

ليس هذا وحسب ، بل ان الاستعـمار الاوروبي ، ولا سيما البريطاني منه ، ومن خلال نظرة مستقبلية لمصالحـه ، وخشية مما يمكن ان تتطور اليه الحال مع الايام والسنين ، وتامينا لاستمرار السيطرة عـلى هذه المنطقة ، بذر فـي قلبها الجرثومة السرطانية التي تحولت ـ وفق ما رسموا وخططوا ـ الى دولة تعرف اليوم باسرائيل ، اكبر قاعـدة للامبريالية الحديثة ـ وريثة الاستعـمار القديم ـ في العـالم كله ، وصاحبة ابشع نظرية عنصرية متخلفة ٠

ولتبرير جريمتهم ، وتقسيمهم للوطن الواحد ، كان لا بـد للمستعمريـن الاوروبيين من اللجوء الى سياسة « فرق تسد » من خـلال توظيـف رواسب الماضي بعد بعثها ونفخ روح الحياة فيها من جديد ٠ واي رواسب يسهـل اثارتها ـ في مجتمع متخلف آنئذ ـ اكثر من رواسب القبلية والمذهبية ٠

حتى ضمن مناطق النفوذ الواحد لم يكتف البريطانيون ولا الفرنسيون ببقائهـا

وحدات متماسكة ٠

ففصل الانكليز شرق الاردن عن فلسطين ، وفصلوا الاثنتين عن العراق ٠ وجعلوا لكل واحدة منها وضعا سياسيا يختلف عن الثانية تكريسا للفوارق والتفاوت في نمو كل منها ٠

اما الفرنسيون ، فلقد اختاروا اللعبة الاكثر قذارة فاعتمدوا الطائفية لتحقيق اهدافهم وتفتيت ما استولت عليه ايديهم في سوريا ولبنان ٠

ولعل بعض ابناء هذه الجيل ، ممن استبعدوا ـ رغم كل المؤشرات ـ امكانية تقسيم لبنان اثناء ازمته الاخيرة ، لم يقرأوا وبالتالي لم يعرفوا ان سوريا ولبنان شهدتا في العشرينات من هذا القرن ما هو شر وامر من ذلك٠ ففي القطر السوري حاول الفرنسيون اقامة دويلات طائفية بل اقاموها بالفعل ولولا الارادة الوطنية القومية في سوريا لكنا اليوم نسمع عن دولة حلب ودولة جبل الدروز ودولة دمشق ودولة العلويين ٠

اذن لقد افلح المستعمر الاوروبي في ان يمرر سياسته في تجزئة المنطقة وتقسيمها ، وان يقيم لهذه السياسة منابرها ومؤسساتها والمستفيدين منها ٠ غير ان ذلك لم يخمد جذوة النضال القومي في سبيل الحرية والوحدة ٠

ولما مضى الانكليز والفرنسيون ، كما مضى الذين من قبلهم ، وكما سيمضي الذين من بعدهم ، تركوا لنا من ورائهم الكثير من المشاكل والقضايا التي جعلت استقلالاتنا الوطنية مهزوزة ودائمة العرضة للانتكاس ٠ وتركوا لنا ـ وهذا اخطر ما تركوا ـ تلك الجرثومة السرطانية التي سرعان ما تحولت الى « كيان طائفي » عرف باسم دولة اسرائيل وقامت على انقاض ارض وشعب فلسطين٠ اما لبنان فلقد انتهى الى ما انتهى اليه نتيجة مساومة لفظية بارعة عرفت بميثاق ١٩٤٣ وملخصها ارتضاء « المسلم اللبناني » برفض الوحدة العربية مقابل ارتضاء « المسيحي اللبناني » برفض استمرار الوصاية الفرنسية ٠ وتحولت شرق الاردن من امارة الى مملكة بعد تزويدها بما يلزم من « شعب » فلسطين مع ضفته الغربية ٠ وقنع العراق بملك من آل البيت يقتنع به شيعة العراق وسنته واكراده تربطه مع بريطانيا معاهدة شبيهة بما يقال عن معاهدات بريطانيا مع دول الخليج ، اي انها باقية ما بقي التراب وحتى يشيب الغراب ! انها تركة رهيبة اشبه بالقنابل الموقوتة ، منها ما انفجر ، ومنها ما ينتظر ٠
وكلنا عاش هذه الانفجارات ولا يدري الواحد منا ان كانت قد انتهت ٠

فقام في سوريا اكثر من انقلاب ، وقام في الاردن اكثر من محاولة ، ووصلت نيران التفجر الى مصر فقامت ثورة يوليو التي فجرت بدورها ، او سارعت

علـى الاقل ، بتفجير الثورة في العـراق ، في الجزائر ، في اليمن ، فـــي السودان وفي ليبيا ٠٠٠

وشهدت هذه المرحلة التفجيرية وثوب عـنصر جديد مؤثر وفاعـل وهو دور مصر في سياسة المنطقة ٠ فبدخولها ساحـة الصراع وهو بحد ذاته امر غايـة في الاهمية والخـطورة ، دخـل معـها الى الساحة كل ذلك الجزء من الوطن العربي الذي كان يتمنى الاستعمار ، ولا يزال يسعـى لابقائـه معـزولا عــن المنطقة التي نحـن بصدد تحليل تاريخـها وواقعـها ٠

وليست هي المرة الاولى التي تدخـل فيها مصـر ساحـة هـذا الصــراع ، فلقد دخلته مرارا فـي تاريخـها القديم كما دخلتـه غازية ايام محمد الكبير ٠ غـير ان دخـول مصر هذه المرة يختلف عـن سابقاته ٠ لقد دخلت الساحـة تحت راية القومية العربية متخلية عـن رايتها الاقليمية المصرية وكل ما ترمـز اليه هذه الراية من قيم ومفاهيم ٠

ليس هذا وحسب ، وانما دخلت كذلك تحت راية الاشتراكية ٠ اي انها فـي هذا الدخـول لم تتحـد فقط تلك الحـدود التـي كانت تفصل بين اقليم واقليم، ولكنها في نفس الوقت تحدت نوعـا اخـر من الحدود ، تلك التي تفصل بين طبقة واخـرى داخـل المجتمع الواحد ٠

وبقدر ما كان طبيعـيا ان تستجيب جماهير الشعـب في هذه المنطقة للثـورة القومية التي قادها عبد الناصر ، بقدر ما كان طبيعـيا كذلك ان تقف القـوى والافكار التقليدية لمجابهتها والتصدي لها ٠

وشهدت الخمسينات ، منذ تأميم القنال عـام ١٩٥٦ حتى عـام الانفصـال عـام ١٩٦١ بين اقليمي « الجمهورية العربية المتحدة » من الحوادث والتحالفات والمؤامرات ما يكاد يبدو انه نتاج مئة سنة من الصراع وليس عشر سنوات او اقـل ٠

ولم تعـد الراية « القومية » وحدها هي ما يقلق بال الاوساط المحافظة وورثة دويلات سايكس – بيكو ، فلقد ضاعـفت راية « الاشتراكية » هذا القلق وعمقته٠

ومنذ ذلك الحين ، دخل المنطقة بقـوة ووضوح عنصر صراع جديد ، هـو العنصر الطبقي ، واصبح الموقف من هـذا الصراع هو المعـيار الذي تصنـف بموجبه الانظمة العربية ، وتقوم عـلى اساسه المحـاور والتحالفات ٠ وهذا هو السبب الذي جعـل النظام اللبناني آنئذ ، تحت رئاسة كميل شمعـون ، يرى في « الوحدة » المصرية السورية عـدوا لـه ، فـي الوقت الذي وجد فـي « الوحدة» الاردنية العراقية ، حليفا ، والعكس بالعكس ٠

وتمر الاحداث مسرعة ، فلم تصمد اي من الوحدتين · فالاولى ــ بين الاردن والعراق ــ تمزقت تحت راية التقدمية ، وتمزقت الثانية تحت راية الرجعية وبدا للمراقب السطحي بان المسرحية قد انتهت بعد ان عاد لخشبة المسرح نفس الديكور ونفس الادوار · الادوار الاقليمية الراية · وفاته ان يلحظ ما تركته المشاهد في نفوس المتفرجين ــ المواطنين ــ وما كان يدور وراء كواليس المسرح من همسات ومفاجات ·

ويتوالى مرور الاحداث ، ونقفز عن تفاصيلها ، لنصل الى نكسة ١٩٦٧ التي بدت لكل القوى والافكار المحافظة في المنطقة ولكل من هي امتداد له في خارج المنطقة كانها النكسة القاضية ، وان الثورة على الحدود الاقليمية ، بما في ذلك حدود اسرائيل بعد ان اصبحت جزءا من تاريخنا المشترك ، وعلى الحدود الطبقية قد انتهت الى الابد ·

ولكن الارادة القومية التي تبنتها سواعد الجماهير الكادحة كانت اقوى من النكسة ، فاعادت عبد الناصر بعد ثلاثة ايام من هزيمته الى موقع القائد وكأنه المنتصر وليس المهزوم · وبدأ الصراع من جديد ·

ومن قلب المأساة الحزيرانية واحشاء الهزيمة ، ولدهشة كل الذين لا يفهمون حركة الصراع في التاريخ ، نهضت الثورة الفلسطينية كالمارد ، ظاهرة نبيلة اخرى من ظواهر العناد والصمود في حياتنا السياسية ، لتتصدى للماساة ، ولتتحدى الهزيمة ولتقول «لا» لكل اثارهما ·

وبالتضامن مع مصر وسوريا ، وبدعم كل جماهير الامة العربية لها استطاعت هذه الثورة ان تحقق للقضية العربية من الانجازات ما اعاد بعثها من جديد على المستويين القومي والدولي ، حتى باتت قضية فلسطين ، قضية العالم الثانية التي تقلقه وتشغل باله بعد قضية فيتنام ·

ومات عبد الناصر ، اهم حدث قومي في تاريخ العرب الحديث · مات وهو يدافع عن الظاهرة التي وصفها هو بانها انبل ظاهرة في تاريخ العرب ، وبانها وجدت لتبقى · وكان ذلك اخر انجازات الرجل العظيم ، اذ نجت الثورة من ازمتها في الاردن رغم قسوة ما اصابها ، وانطلقت مرة ثانية، وباقوى مما كانت عليه . من فوق روابي وسفوح جبل الشيخ وجبال الجليل الاعلى جنوب لبنان ·

وبعد ثلاثة سنوات من رحيل عبد الناصر ، بدت كالسنوات العجاف ، اطلت على العالم ، ومرة اخرى لدهشة الذين لا يفهمون حركة الصراع في التاريخ، حرب تشرين المجيدة لتتوج الارادة القومية بنصر جديد ضد الهزيمة الحزيرانية واثارها ·

ومن هذا النصر ، انطلقت الثـورة الفلسطينية لتكثف نضالها السياسـي ، مستفيدة من كل الظروف وبوعـي منها عـلى كل ما طرأ من متغيرات ، لتعـزز مكانتها الدولية ولتوسع دائرة الاعتراف بشرعـيتها وشرعية اهدافها ٠واصبحت هذه الثـورة ، بعـد انتصار الشعـب في الفيتنام ، حركة التحرير الوطني رقـم واحد في العـالم كله ٠ وكانت اول حركة تحرير وطني تدخـل الامم المتحـدة بصفة عضو مراقب ٠

وامام هذه الموجة العـارمة من الانتصار ، كان لا بـد للعـدو الصهيوني ، بدعم من حليفته الكبرى ـ الولايات المتحدة ـ مـن القيام بهجمة مضادة لتفريغ هذا الانتصار من مضامينه ، تمهيـدا لتصفية الثـورة او لجم طموحاتها وتقليل حجمها على اقل تعديل ٠

ولما كان التواجد الفلسطيني الثـوري المكثف قائما في الساحـة اللبنانية ، كان من الطبيعـي ان تكون هـذه الساحـة هي مسرح الهجمة المضادة وميدان صراعـها ٠

وبالتالي ، وهذا متوقع من عـدو متقدم الامكانيات والقدرات ، ان يستفيد وهو يضع خطته لضرب الثـورة من جميع الظروف والملابسات التي تحيط بالحيـاة العـامة للبنان واللبنانيين ٠

ولنعترف بان هـذا العـدو ، وقد كان المستفيد الوحيد من الازمة الدمويـة في لبنان انه لم يترك ثغـرة واحـدة تاريخية او جغرافية ، نفسية او اجتماعية ، سياسية او ايديولوجية ، طائفية ام قومية ، الا ونفذ منها لتحقيق هدفه ٠

ليس الوجود الفلسطيني الثوري بمعـناه المادي الملموس فقط هو ما استهدف العـدو ضربه ، بل استهدف كذلك ضرب كل الشعـارات والاثـار المعنوية التـي اوجدتها الثورة الفلسطينية ، عـن قصد او غـير قصد منها ٠

كان هدف العدو الستراتيجي هو اغتيال كل « العصافير » التي انطلقت تغني خارج الاسراب التقليدية والاجواء المحافظة ٠ وكان لا بد له من ان اجل تحقيق ذلك من ضرب الساحة من الداخـل عـن طريق تصعيد التناقضات القائمة فيهـا الـى مستوى الصدام المسلح ٠

فحرك النزعة القطرية بين الفلسطيني واللبناني ،
وحرك النزعة القبلية والطائفية بين اللبناني واللبناني ،

وحرك التناقض الاجتماعي وحرض اليمين على اليسار ،

وابرز الخلافات التنظيمية داخل الساحة الفلسطينية نفسها ،

وضرب التحالف المصيري بين الثورة الفلسطينية والنظام السوري ،

واتجه بعد ذلك ، تساعده الدوائر الاستعمارية ، في حملة اعلامية ضارية لتسعير الازمة قوميا ودوليا ، وتعطي كلمرجع ما يحلو له من وجوه هذا الصراع اما لتحييده او لدفعه للمشاركة في المعركة الدائرة ٠

فقالوا « ليمين » العرب والعالم : هذه حرب طبقية شنها اليسار ضد النظام الحر ٠

وقالوا « لعلمانيي » العرب والعالم : هذه حرب طائفية تسقط دعوى الثورة الفلسطينية في قدرتها على تحقيق حلمها باقامة « العلمانية » في فلسطين ٠

وقالوا هذا كله للبنانيين لكي لا يبقى واحد منهم خارج ساحة الصراع ٠

وكان ما كان ٠٠٠ وسقطنا جميعنا في المصيدة ٠ وبعد حرب دامت زهاء عامين يتلفت اليوم كل طرف من اطرافها حوله يبحث عبثا عن غالب او مغلوب ٠٠٠ باستثناء اسرائيل بالطبع باعتبارها الغالب الوحيد ٠

وكان ما كان ٠٠٠ وعدنا جميعا نسأل انفسنا : وماذا بعد ؟ والى اين ؟ ومن انا ، ومن نحن ؟ الى اخر الاسئلة المصيرية التي اشرنا اليها في بداية هذا البحث ، والتي قدمنا للرد عليها بضرورة اعادة قراءة تاريخنا لكي لا نخطيء في تحليل ما جرى ، ولكي لا نجرم في صياغة مستقبلنا ٠

والان ، وقد اعدنا قراءة هذا التاريخ ، ولوبهذا الشكل العاجل والمقتضب، فاني لا اتطلع للرد على هذه الاسئلة ، وهي اليوم مدار نقاش وجدل الجميع، ولكني اطمح بتسجيل مجموعة من الملاحظات القائمة على ما استخرجته من عبر ودروس ، من شانها – في رايي – ان تساهم في توضيح الطريق لمن يبحث عن طريق للحل النهائي والمبدأي والقادر على التصدي لحل الموروث والراهن والقادم من مشاكلنا ، لا في لبنان وحسب وانما في المنطقة ككل ٠

× × اول هذه الملاحظات ، ان ندرك مدى وعمق العلاقات التي تربط بين سكان واقطار هذه المنطقة ، مما يفرض علينا ان نميز بحزم ووضوح الفرق بين « الاستقلال » و« العزلة »٠ ففي اطار المصلحة القومية العليا للمنطقة اي المصلحة العربية ، يمكن لاي قطر واي شعب ان يستقل برايه واجتهاده وفهمه ومجابهته لظروف الحياة المتغيرة ، ولكن ليس باستطاعته ولا من مصلحته ان « يعزل » نفسه عن هموم المنطقة وطموحاتها ، عن امالها والآمها ٠ فالمنطقة ككل مشاكلها التي لا يمكن التصدي لها قطريا ودون حد ادنى من التضامن القومي ٠

والخطر الاسرائيلي احد هذه المشاكل وفي طليعتها ، ومن خداع النفس ان تتصور اي مجموعة او شعب او طائفة ان باستطاعتها الانفراد بالتصدي

لهذا الخطر ، او ان باستطاعتها ان تنفرد « بتامين » ذاتها وحدها منه ٠

× × وثاني هذه الملاحظات ، واستطرادا من الاولى ، فان اي صيغة كيانية لاي قطر من اقطار هذه المنطقة تنحـدر بمستواها عن الصيغـة الوطنية ، تهدد المنطقة ككل بالتفتت والتجزئة ٠ ومن الواضح ان هذا ما لن تسمح بحدوثـه شعوب هذه المنطقة وانظمتها ، بما فـي ذلك اكثر الانظمة محافظة وتقليدية ٠ انها ردة للوراء وحـلم من احـلام العـدو الصهيوني باعتبار اسرائيل الدولـة الوحيدة في المنطقة ، بل وفـي العـالم التي تقوم عـلى اساس المذهبية القومية٠

ولا حاجة بنا للقول والتنبيه بان من شان مثـل هـذه التحركات المذهبية ان ترتد باشد المخاطر عـلى الاقليات التي يدعي البعض ان هـذه هي صيغة انقاذها ٠

× × وثالث هذه الملاحظات ، انه اذا كانت « الوطنية » صيغـة متقدمـة عـلى القبلية والطائفية ، فان «القومية» صيغـة متقدمة عـلى « الوطنية »ولسنا في هذا الصدد بمختلفين عـن غـيرنا في هذه الدنيا كلها ٠ اننا نحيا مرحلة من تاريخ البشرية تنحى فيهـا معظم الشعوب صوب الوحـدة ٠ ان لم يكن لاي سبب فلأن الوحدة هي السبيل الوحيد لمجابهة تحديات العصر في عهد الدولتين الجبارتين ٠ ففي اوروبا وحدة وفي افريقيا وحدة ، وفي العالم الثالث وحـدة، فلم لا يكون بين العرب وحدتهم ، وهم الذين يجمعهم من حولها ويدفعهم اليـها، غير مصلحتهم المشتركة ، الكثير من الاسباب والروابط ٠

× × ورابع هذه الملاحظات ان « الوحدة » لا تعني بالضرورة ، الرايـة الواحدة والدستور الواحد والحاكم الواحد ٠٠ اي الدولـة الواحدة ٠ فبعـد تجاربنا في هذا الميدان ، وبعـد تجارب غـيرنا ، لن نعـجز عن اكتشاف الصيغة الممكنة والمقبولة والكفيلة بالحفاظ عـلى ما يصر البعض الحفاظ عليه من عادات وتقاليد وقوانين ٠ واول شروط هذه الوحدة ان تكون طوعيـة وباجمـاع رأي القطر الراغـب في دخـولها ٠

لا اكراه في الوحدة ، ولكن لا اكراه في رفضها كفكرة طموحة وهدف يـرى بعض المواطنين المصلحة في تحقيقها ٠

× × وخامس هذه الملاحظات ان القومية العربية ، حتى تتجسد « بوحـدة قومية » لا تزال مطالبة بالمزيد من تحديد مضامينها بالنسبـة لمجموعـة مـن القضايا ، كقضية الدين ، وقضية الاقليات ، وغـير ذلك من القضايا التي يشكل الغموض فيها ثغرات تؤخـذ عـليها ، فتتهم طورا بانها والاسلام شيء واحـد ، او انها حركة عنصرية تقوم عـلى العـرق والحسب والنسب وغـير ذلك مـن مقومات « القومية البورجوازية » التي شهدتها اوروبا ٠

وفي هذا المجال بالذات ، ليس غير المسلمين فقط ، ولا غير العرب فقط من سكان هذه المنطقة ، هم الذين يريدون مثل هذه الايضاحات والمضامين وانما معهم ، وربما قبلهم ، غلاة المؤمنين بالفكرة القومية والداعين لتحقيقها والحالمين بيوم يصبح فيه للعرب دولة واحدة ٠

× × وسادس هذه الملاحظات ان لا مفر لنا من الديمقراطية الحقيقية ٠فنحن في هذه المنطقة ، رغم تخلفنا الاقتصادي والثقافي الراهن ، لنا في التاريخ جذور عميقة يوم كانت بلادنا مهد الحضارة ومنارة الدنيا ٠وان كان يرى البعض اننا ننعم بحضارتين اسلامية ومسيحية فقط فهم مخطئون ٠ انا ننعم بما هو اعمق من النصرانية والاسلام ، ولعل هذا هو السر في ان كل اديان السماء نبعت من هذه الديار ٠ كما ان بلادنا بحكم موقعها كانت محطة التقت ، ولا تزال تلتقي فيها كل الثقافات والحضارات ٠ منها ما هضمناه واصبح طابعنا عليه ، ومنها ما نتفاعل معه رفضا وقبولا ٠ ولكي نستعيد دورنا ونحقق امالنا في التقدم فلا مناص لنا ولا مفر من اجواء الديمقراطية والحرية ٠ فلا يصادر رأي ولا يحجر على فكر ولا يرجم انسان من اجل فكرة ٠

ولنتأكد جميعنا ، وعلى ضوء تجارب الامس القريب والبعيد ، ان ما يفرض بالقوة فانما باق بقاء هذه القوة ٠ فان زالت زال ما فرضته وكأن شيئا لم يكن ٠ وكما ان النفاق والرياء والتلاعب في الالفاظ ليس هو البديل عن المعادلة العلمية الصحيحة ٠

× × وسابع هذه الملاحظات انه من المحال ان نقفز عن بعض جوانب الصراع في هذه الحياة ونردها دوما على الغير باعتبارها « مستوردة » او ليست من طبيعتنا ولا من تقاليدنا الى غير ذلك من خداع الذات ٠ فالصراع الطبقي مثلا ليس من اختراع ماركس ، واليسار واليمين ليس بضاعة تشحن الينا من الاتحاد السوفياتي او الصين ٠ ماركس اكتشف ذلك بعد ان شاهد تطور المجتمعات ودخولها عصر الصناعة وقيام طبقة العمال الى اخره ٠٠ واقترح حلا وثبته لينين في الاتحاد السوفياتي ٠ وان كان هذا الحل لا يلزم احدا بتبنيه الا ان ذلك لا يعني اننا كغيرنا ـ لا نعاني من هذا الصراع ولا يعفينا عن ايجاد ما يناسبنا من سبل لحله ٠

مثل هذا النوع من الصراع لا يلغى بقرار ، ولا بتهمة توجه الى هذا الفريق او ذاك ٠ تلك وسيلة فاشية كان سالازار وفرانكو اخر رموزها ومضيا بعد عقود من الحكم البوليسي ليخلفا من ورائهما اعنف واقوى يسار في اوروبا ٠

× × وثامن هذه الملاحظات ان « الوطن » ليس خريطة نعلمها لاطفالنا ، وليست الدولة صورة لرئيس البلاد تعلق في الدوائر الرسمية ، لتغير بعد كذا

سنة ، لتحل محلها صورة رئيس جديد ٠

«الوطن» هو كل معاني الحب والعطاء والحماية للمنتمي اليه ٠ الوطن والمواطن هما «كل» في اثنين برباط ازلي لا حياة لاي منهما دون الثاني ٠ واي علاقة لا تحمل هذا المعنى تهدد الوطن والمواطن على حد سواء ، واذا ما تناقضت هذه العلاقة ــ كما حدث ولا يزال يحدث عندنا ــ انتفت كل علاقة وزال الوطن والمواطن ٠

ومن هنا فبناء الوطن ، يعني بناء المواطن ، وبناء المواطن يعني الاتفاق على مفهوم المواطنية حقوقا وواجبات ٠

× × وتاسع هذه الملاحظات انه لا بد لنا ، ونحن نحلل واقعنا ونصوغ مستقبلنا ، ان نقرر اين تكمن مصلحتنا : هل في التقوقع حول رواسب الماضي وذكرياته وتطوير مشاعر الحس بالاضطهاد والخوف ، ام في الاعتبار من هذه الرواسب للانطلاق نحو حياة جديدة كلها الامل والثقة ؟

ان المشاعر السلبية اسهل على الانسان من المشاعر الايجابية ، ولكنها لا تبني انسانا جديدا ، وانما تكرر نسخة عن الذي سبقه والذي سبق الذي سبقه٠ ان المشاعر السلبية تبقينا تراكما كميا لا ينتمي لحركة الحياة وتقدمها ٠ وليس لبس البنطلون المستورد من باريس او الباروكة المستوردة من ايطاليا من دلالات التقدم الحضاري ٠ ولنعترف بشجاعة اننا في لبنان ــ وهو البلد الذي كان يتباهى على غيره في المنطقة بمظاهره الحضارية ، قد اثبت ان الانسان فيه لا يختلف كثيرا عن الانسان في اكثر بلاد العرب تخلفا ٠

الايجابية وحدها : الحب بدل الحقد ، والثقة بدل الخوف ، والانتشار بدل التقوقع ، هي السبيل لبناء الانسان الجديد القادر دوما على دفع وطنه في مسارات التقدم والنمو ٠ وكل ذلك يبدأ في المدرسة ، في المدرسة الوطنية ، لا مدرسة القبلية ولا مدرسة الطائفة ولا مدرسة الاجنبي ٠

× × وعاشر هذه الملاحظات واخرها ، ان الاوطان الراسخة كالافكار الراسخة لا تقوم بين عشية وضحاها ٠ المهم ان نضع قدمنا على الطريق الموصل للوطن الذي ننشد والمواطن الذي نريد ٠ والطريق طويلة ومليئة بالتحديات والمعوقات ٠ وليس من طريق مختصر ٠

× × ×

وبعد ٠٠٠ علينا ونحن نفكر للغد ، ان نتأمل ونتخيل هذا الغد ، الذي سنكون نحن جيله المخضرم او المنصرم ٠ نحن نبني لابنائنا ، لاجيال قادمة ،

ودون اي استفزاز للمنهمكين اليوم في وضع الصيغ والتصورات ، ومعظمهم ممن فشلوا في وضع الصيغة الماضية ، بل كانوا هم اول من صب عليها اللعنات ٠٠ اني اتساءل : اين عنصر الشباب بينكم ؟ الشباب الذي يعتبر غدنا هو يومهم ٠٠ اين هم واين دورهم فيما تصيغون ؟

ان الاعتراف بالشباب ، بالجيل الجديد وباشراكه الفعلي في تقرير مصيره هي اول اشارة خضراء على اننا نسير في الطريق السليم ٠ ومن غير هذا الاعتراف ومن غير هذه المشاركة ، فمعنى ذلك ان الملف سيبقى مفتوحا وان الازمة لا تزال تحت الرماد ٠

عرب الجليل والنضال الفلسطيني

د. الياس شوفاني

يختلف عرب الجليل في وضعهم السياسي العام عن بقية اجزاء الشعب الفلسطيني ، سواء في المناطق المحتلة ، الضفة الغربية وقطاع غزة ، او خارجها في مواطن الشتات ، وتبعا لاختلاف هذا الوضع يتميز موقعهم النضالي على صعيد المواجهة المصيرية بين الشعب الفلسطيني والاستيطان الصهيوني · فهم لم يتشردوا ، وبالتالي ليست العودة هي هاجسهم الاول · وهم ، وان كانوا عمليا كذلك ، فانهم رسميا ليسوا تحت الاحتلال ، وبالتالي فليس همهم الاول هو رفع الاحتلال بانسحاب قواته · وعرب الجليل ، على الاقل شكليا ، « مواطنون » في الكيان السياسي الذي لا يزال يشكل العدو القومي · وهو لا يمارس عليهم القمع القومي فحسب ، وانما يتعداه الى النواحي الاقتصادية والاجتماعية من حياتهم· وكما ان عرب الجليل ، حيث هم ، يعايشون تناقضا بين انتمائهم القومي وانتسابهم السياسي ، هكذا يتصرف الكيان الصهيوني ازاءهم بازدواجية لا تخلو من عنصرية · ولكن لا تكافؤ بين الطرفين ، اذ ان احدهما هو الحاكم ، بينما الآخر هو المحكوم ، والاول ، بطبيعة الحال ، في موقع القوة والقدرة على التقرير وتحديد العلاقات ·

وعرب الجليل يعيشون مفارقات غريبة ، ليس اقلها انهم « عرب اسرائيليون »، وكأنما فرض عليهم ان يتقولبوا في هذا الاناء غير محدد الشكل · والواقع انهم قد طوروا لانفسهم ، بفعل الظروف المحيطة بهم ، نمط حياة فريد · وهم لم يستكينوا الى الاوضاع الناجمة عن الانقلاب السياسي في وطنهم ، كما انهم لم يقودوا الثورة عليها · وبين هذين الحدين تأرجح سلوكهم ازاء الكيان الصهيوني المستحدث على ارضهم ، من قبول مشوب بالتردد والحذر لشرعية هذا الاستحداث ، الى خروج عليها مشوب بالقلق والخوف احيانا · وهم ، مع انهم قد يطمئنون الى اكثريتهم العددية في مناطق تجمعاتهم . والى كونهم الفئة السائدة في تلك الجيوب ، والى انتمائهم القومي للاكثرية الساحقة عبر الحدود القريبة ، يبقون اقلية داخل الكيان ، بعيدين عن الهيمنة حتى في مناطقهم · وامامنا تجمعات عربية على ارض كانت حتى الامس القريب عربية ، شهدت عملية تحقيق ما كانت تخشاه منذ بروز الصهيونية كقوة سياسية : انتزاع القدرة على تقرير

العلاقة بين الناس والارض من اليد العربية وايداعها الكيان الصهيوني المعتدي· كما خبرت ما ترتب على ذلك من ارتباك وضياع ، في غياب قيادة سياسية تأخذ بيدها وتجتاز بها المحنة · وبفعل ذلك الغياب واثر ممارسات سلطات الاحتلال، كادت صلة هذه البقية بشعبها ان تنقطع ، مما انعكس في تقلص حجمها على الساحة الفلسطينية ، وانحسار اثرها في النضال الثوري للفلسطيني ·

وبالمقابل دأب العدو على تدجين هؤلاء العرب وفرض شرعيته عليهم ، دون استيعابهم في مؤسساته ، ولا طردهم من البلد بشكل مباشر · وكأنما كان يريد اثبات ان له هو ايضا « فلسطينيوه » · وفي سياسة التدجين تلك تدخل عملية استلاب العرب من ارضهم وقلبهم الى قوة عمل رخيصة في خدمة اقتصاده الاستيطاني · وهذا ما تسميه مصادره احيانا « دمج العرب في حياة الدولة الاقتصادية » · وفي هذا الاطار اعطى الهستدروت ، خلافا لسياسته التقليدية في مقاطعة العمل العربي ، حق العضوية فيه للعمال العرب · ولكن ذلك يجري في حين لا يسمح لهؤلاء العمال بحرية الانتقال واختيار مكان السكن · وهكذا اخذت اماكن تجمعاتهم طابع البانتوستانات ، يتركونها في الصباح ويأوون اليها في المساء ، وانقلبت القرى العربية الى ما يشبه « ثكنات النوم » · (الكتاب الاسود عن يوم الارض ، ص ١٨) · وعلى حد قول بعض زعماء الكيان الصهيوني ، فانه لا يريد من العرب هناك ان يعتنقوا الصهيونية ، بل يبقوا « مواطنين صالحين في دولة اسرائيل »· ولكن اسرائيل كيان صهيوني ، باليهود ومنهم واليهم · وهي تسعى الى تهويد كل شيء فيها ـ الارض والسوق والعمل، ما خلا « مواطنيها » العرب · وتجري عملية التهويد تلك في ظل هيمنة الفكر الصهيوني الاشكنازي ، مما يزيد في اغتراب هؤلاء العرب عن الكيان · وبالامكان القول بانه قد خلقت فيه « مسألة عربية » ، هي مسألة حوالي نصف مليون فلسطيني ، معظمهم في الجليل ·

ومسألة عرب الجليل تكمن في كونهم يعيشون في كيان سياسي لا مجال لهم للذوبان فيه · وهي مسألة لا تحل الا بانسلاخهم عنه ، اي بالتحرر منه ، او بتحريره هو من عنصريته ليتسنى لهم تحقيق ذاتهم فيه · والانسلاخ عنه يضعهم امام احد خيارين : فاما النزوح عنه واللجوء ، واما انتزاع حق تقرير المصير · والخيار الاول لا يعدو الاستجارة من الرمضاء بالنار · واما الثاني ، فعلى جاذبيته ، يبقى بمثابة اهون الشرين ، وليس اول الحسنين · فمصير الشعب الفلسطيني واحد ، ويجب ان يبقى تقريره موحداً ·

وعلى اي حال ، فالواضح ان الكيان الصهيوني لن يسلم بحق تقرير المصير لعرب الجليل · وهذا ما ينعكس في سياسة تهويد الجليل التي ينتهجها في المدة الاخيرة بمزيد من الاصرار · واكيد ان لذلك علاقة باحداث لبنان ، وما يمكن ان تتمخض عنه ، في ضوء الانجازات السياسية التي حققتها منظمة التحرير ، وعلى

خلفية كون الجليل قسما من الدولة العربية في مشروع التقسيم من عام ١٩٤٧ ، وفي واقع كون الجليل ، بعد ثلاثين سنة من الاحتلال ، لا يزال عربيا ، بقلبه وقالبه · رغم محاولات التهويد عن طريق الاستيطان · فالواضح من المعطيات الديمغرافية ان المشروع الصهيوني قد فشل في تحقيق اهدافه في الجليل · وليس ادل على ذلك من الحلول التي طرحها كينيغ ـ حاكم المنطقة الشمالية في الكيان ـ في وثيقته المشهورة · (راجع شؤون فلسطينية ، عدد ٦٠) · ففي تلك الوثيقة يتلخص الحل من وجهة النظر الصهيونية في تفريغ الجليل من سكانه العرب ، اذا لم يكن بالامكان شحنه بالمستوطنين اليهود · وفي مواجهة سياسة التهويد تلك ، والتي تعني عمليا نقل ملكية الاراضي العربية الى ايدي الشركات اليهودية ودائرة اراضي اسرائيل الرسمية لتنفيذ مشاريع استيطانية عليها ، تحرك عرب الجليل في العام الماضي ، وكان اضرابهم الدموي في ٣٠ـ٣ـ١٩٧٦ · (راجع شؤون فلسطينية ، عدد ٥٩) وقد لخصت « اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي العربية في اسرائيل » ذلك التحرك ، الذي تتوج في « يوم الارض » ، بقولها : « يوم الارض ، هو يوم قاس طويل ، من تاريخ قاس طويل ··· هو يوم من تسعة وعشرين عاما ، خاضت خلالها الجماهير العربية في بلادنا معارك شرسة وتعرضت لاعتداءات دامية ، وقدمت تضحيات غالية ، من اجل مجرد البقاء الكريم على ارض الآباء والاجداد » · (الكتاب الاسود عن يوم الارض ، ص ١٠) ·

ولكن الاضراب الدموي ، وما استتبعه من نضال في سبيل الدفاع عن الارض ، والذي كان « تعبيرا عن المطالبة باحترام الكيان القومي للعرب في اسرائيل والاعتراف بحقوقهم القومية واليومية ، وعلى رأسهما وقف مصادرة الاراضي » (المصدر نفسه ص ١١) لم يثن سلطات الاحتلال عن متابعة سياسة التهويد · فالعدو يعتبر الجليل جزءا لا يتجزأ من كيانه السياسي ، وهو من اجل الحفاظ على امن المستوطنين فيه يدعي حيوية الاحتفاظ بهضبة الجولان ، وكذلك فهو يغطي تحركاته في الجنوب اللبناني بنفس الذريعة · والواضح انه اذا كان لا يسلم بقيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية ، حفاظا على امن حدوده ، فانه بالتأكيد لن يتنازل عن الجليل ليقوم فيه كيان سياسي عربي مستقل · واذا كان العدو لا يسمح حتى لاهالي قريتين صغيرتين في الجليل ، بالعودة اليهما ، وهم لاجئون داخل الكيان ، بحجة ان ذلك يعتبر « تراجعا صهيونيا » ، وانه « تقويض للاستيطان الصهيوني ··· يفتح الثغرة الاولى لتداعي البناء كله » (المصدر نفسه ، ص ١٣) · فالاكيد انه لن يسلم بحق تقرير المصير لعرب الجليل ـ قبل ان يهزم ـ اي قبل التحرير · من هنا فاحراز عرب الجليل لذلك الحق هو في الواقع رديف للتحرير ، الذي يبقى عمليا مسألة قومية · وهم يعون ذلك ، ولعله يفسر جنوحهم الى التأكيد على انتمائهم القومي اكثر من ابراز هويتهم الاقليمية · ففي ظل الاحتلال الصهيوني ، يبقى هؤلاء عربا قبل كونهم فلسطينيين ·

وعرب الجليل لم يرفعوا شعار التحرير بعد ، كما ان النداءات التي صدرت

عنهم مطالبة بحق تقرير المصير بقيت خافتة • فهم لم يطرحوا بعد ، بصورة جدية ، مسألة موقفهم من الكيان الصهيوني • وكذلك فأنهم لم يشاركوا في الثورة الفلسطينية بشكل يتناسب وحجمهم في الساحة ، ومع ذلك فالعمل الفدائي ينال اعجابهم اكثر مما تحظى به المؤسسات الفلسطينية التقليدية • وهم لا يولون التسوية السياسية الاهتمام الذي يوليه اياها عرب الضفة والقطاع ، ناهيك عن سواهم • فكأنما المسألة لا تعنيهم كثيرا •ولكن لعرب الجليل تراث نضالي كبير ضد الاستيطان الصهيوني قبل قيام كيانه ، ولهم معه صراع دؤوب منذ ذلك الحين • وقد تمحور هذا الصراع حول الحفاظ على العلاقة بالارض ، ليس كوسيلة انتاج فحسب، وانما كوطن قومي ايضا •

ونضال عرب الجليل ضد سياسة التهويد ، تأثر الى حد كبير بالصورة التي برزت فيها موازين القوى في المنطقة • فكان يزداد حدة كلما تصاعد المد القومي واتخذ اشكالا اكثر تحديا ، وينحسر ويتقلص كلما بدا ان الكفة تميل في صالح العدو • وقد بلغ هذا النضال اقصى درجات تراجعه في الستينات ، حيث كان وجهه الغالب الدفاع من خلال شرعية المغتصب ، والطعن في قانونية الاستيلاء على الاراضي استنادا الى القوانين التي استصدرتها سلطاته • وقد تغير هذا النمط من النضال في السبعينات ، وخاصة بعد حرب تشرين ، حين انقلبت صورة موازين القوى في المنطقة ، وبدا وكأن كل تحجيم لسطوة العدو قد صب في كفة القوى القومية العربية ، ومن ضمنها الثورة الفلسطينية ، التي حققت انجازات سياسية كبيرة منذ الحرب ، والى حد كبير بسببها • وقد ترك كل ذلك اثره في نضال عرب الجليل ، والذي بلغ ذروته في انتفاضة يوم الارض•

ولما كان نضال عرب الجليل متأثرا الى هذا الحد بمجريات الامور على الساحة العربية ، فانه لن يأخذ شكله الاصيل الا اذا اتسقت اهدافه مع ما يطرح على تلك الساحة من شعارات • وهو بطبيعة الحال ، لا يستطيع تحت الاحتلال ان يبلغ مداه ، الا اذا ارتبط بشكل عضوي مع كفاح الثورة الفلسطينية على طريق التحرير • وواضح انه في الظروف الراهنة لا يتم مثل هذا الارتباط الا عن طريق الجنوب اللبناني ، الذي يكمله جغرافيا وبشريا واقتصاديا • وقد وعى العدو هذه الحقيقة ، وراح منذ بداية تواجد الثورة في الجنوب يقيم الاسيجة ويحصن الحدود ليحول دون تلاحم شطري الجليل ، اللبناني والفلسطيني ، في نضال قومي مشترك ، متجاوزا الحزام الضيق من الاستيطان الصهيوني الفاصل بينهما • ولكنه عاد وهجر تلك السياسة اثناء الازمة اللبنانية ، وفتح في تلك الاسيجة بوابات ، راح يتغلغل منها مكونا جيوبا ، يحاول القفز منها على الجنوب كله ، وكأنه بذلك يستبق مد جسور الثورة من الجنوب الى الجليل •

وتحرك العدو في الجنوب يضفي عليه طابعا متميزا في هذه المرحلة ، فهو

يتحين الفرصة للاشتباك معــه ، ولو في قطاع واحد من تلك الجبهات التي اسبغت عليها مساعي التسوية « نعمة » فك الارتباط · والاشتباك ، بحد ذاته ، خلافا لفك الارتباط ، هو احد المقومات الاساسية للعمل الثوري ضد الاستيطان · ولكن لمثل هذا الاشتباك في الجنوب ، وازاء الجليل ، شروطا يجب ان تتوفر ليكون له حظ في النجاح والوصول الى اهدافه · والاستيطان بطبيعته العنصرية انعزالـــي يميل الى الانكفاء على ذاته ، ويفضل « فك الارتباط » مع اهالي البلاد الاصليين· وما كلامه عن مد الجسور واقامة العلاقات الا ضرب من اللغط السياسي · ولو صدق ذلك لما بقيت الاسوار الفاصلة بين المستوطنين وغيرهم داخل الكيان ، بل لما بقيت الحواجز بين الطوائف اليهودية ذات الاصول الاثنية المتباينة · وبالمقابل فخط النضال الثوري ضد الاستيطان هو الاشتباك به ـ سياسيا وعسكريا · من هنا اهمية تحرك العدو في الجنوب ، حيث فتح هو بنفسه ثغرة في الاسوار التي احاط بها نفسه ·

وانعزالية العدو العنصرية تبرز في مقولات التيار السياسي داخـلـه الـــذي ينادي بضرورة الحفاظ على الطابع اليهودي لكيانه والتخلص من غير اليهود فيه · ويدخل في هذا التيار جناح ليبرالي يدعو الى التنازل عن المناطق المحتلة مقابل السلام ، واخر يميني متطرف يدعو الى الحفاظ على تلك المناطق مع قناعة بأن سياسته فيها ستضطر سكانها الى الهجرة · وهذا التيار لا يزال يتمســـك بالمنطلقات الصهيونية التقليدية · وبالمقابل ، وخاصة منذ الستينات ، نمـــت داخل الكيان طبقة من الراسماليين المحليين ، مرتبطة اصلاً بالمجمع العسكـــري الصناعي ،تدفع باتجاه قلب اسرائيل الى نوع من الدولة الاستعمارية في المنطقة، شيء ما على غرار جنوب افريقيا او روديسيا · وهذه الطبقة ذات وزن سياسي فعال ، وهي تعمل على ابتلاع المناطق المحتلة وتسخير اقتصادها لمصالحهـــا الراسمالية ، واستغلال طاقة العمل الموجودة فيها · وهي لا تريد التنازل عـــن المناطق ، وكذلك فهي تشجع تحركا مماثلا في الشمال ، من شأنه ان يقلب الجنوب الى ضفة غربية اخرى · وبهذا فهي تتناقض مع التيار الصهيوني الانعزالي · وقد برز هذا التناقض في تحرك العدو في الجنوب والمواقف الداخلية منـــه · ومسالة شراء موسم التبغ كانت دليلا واضحا على توجهاته ·

وعلى اي حال ، فان مثل هذا الاشتباك ، اذا قيض له ان ينشب ، فسيكون على ارض الجنوب وبمحاذاة الجليل وازاءه · ولذا فلا بد للخط السياسي الـــذي يحكمه من ان يكون متطابقا مع مصالح القاعدة الشعبية في هاتين المنطقتين ، والا تبرمت به الجماهير واعرضت منه ، مما سينعكس سلبيا على افاق ذلك الاشتباك وامكانات نجاحه · وطبيعي انه بالاضافة الى الجماهير الوطنية فـــي هاتين المنطقتين ، ستشارك في هذا الاشتباك قوى من خارجهما ، لها اهـــداف سياسية ، لا تنبع بالضرورة من واقعهما الآني · فما هو القاسم المشترك الـــذي

سيجمع هذه القوى في نضال مشترك ،يكون مردوده عليها موازيا ، ولو الى حد ما ، لتبعاته منها ؟ واذا كان لهذا النضال ثمن ستدفعه جماهير الساحة التي يدور عليها ، والطلائع الثورية التي ستنضم اليها ، فما هو المقابل الذي ستحصل عليه هذه الاطراف ؟

في تقديرنا ، اخذا بالاعتبار التوجه السياسي العام في المنطقة ، ان القاسم المشترك الذي قد يشكل قاعدة لمثل هذا الاشتباك الثوري على ساحتي الجنوب والجليل يتمحور حول مسألة الارض والعلاقة بها والبقاء عليها · وغني عن البيان ان جماهير الجليل قد ولجت باب الصدام مع الكيان الصهيوني على تلك المسألة ، وان الواجب القومي يدعو الى تصعيده ليأخذ شكله الاصيل وحجمه الحقيقي · ولا بد من دعم نضال جماهير الجليل لكي تستطيع المضي قدما في المسار الذي بدأته · واوضح مثال على ذلك ، رغم هجرة الجنوبيين ان اغلبيتهم تتمسك بارضها ، ولا تريد الجلاء عنها ، وان العدو ، رغم ادعاءاته بالعكس يمارس عمليا سياسة تهجير ، وقد اعانته على تغطية اهدافه في الجنوب بعض افرازات الحرب في لبنان ، والجنوبيون الذين استقبلوا اخوانهم الجليليين في عام ١٩٤٨ ، يعون جيدا مطامع العدو في ارضهم ومياههم ، وكذلك امكان ان يلاقوا هم انفسهم ذات المصير ؛ ولكن الجنوب فقير ، مما قد يجعله معرضا لاغراءات العمالة في الاقتصاد الصهيوني ، او اكثر استجابة لحوافز النزوح ، اذا لم تعالج المشاكل المزمنة التي يعاني منها فلاحوه · (راجع القسم المتعلق بالجنوب) ·

والكيان الصهيوني يعاني ازمة ديمغرافية ، لان مشروعه الاساسي في « جمع الشتات » لم يتحقق · فاليهود لا يتوافدون عليه باعدادهم من مواطنهم · وهذه الازمة تقلق قادته مثلما يقض مضاجعها التنامي العددي لعرب المناطق المحتلة · وهو في هذه المرحلة من تطوره السياسي والاقتصادي منقسم على نفسه ازاء الحلول المطروحة لهذه الازمة · فمن ناحية يريد المتمسكون بالمنطلقات الصهيونية الاصلية تقليص نسبة غير اليهود فيه قدر الامكان · ومن الناحية الاخرى يريد الرأسماليون الجدد فيه الاحتفاظ بالمناطق وسكانها كمجال حيوي لتحقيق تطلعاتهم في بناء الرأسمالية الاسرائيلية الجديدة · وهكذا فبقاء العرب على ارضهم ، والنضال من اجل حقوقهم القومية واليومية يفجر التناقض ، ليس بينهم وبين المستوطنين فحسب ، وانما بين اطراف الاستيطان ذاتها · وعلى هذه الارضية نما حزب راكاح بين عرب الجليل ، حيث وضع اصبعه على الحلقة المركزية في ازمة الكيان الصهيوني ازاء العرب الواقعين تحت احتلاله · ولكن هؤلاء العرب ، بقيادة راكاح لا يزالون يناضلون في اطار شرعية الكيان ، ولا بديل عن الثورة الفلسطينية لقيادة نضالهم خروجا على تلك الشرعية · والمفتاح هو مسألة الارض · وما يصح على الجليل ، يصح على الجنوب ، وهذا يتطلب وضع سياسة جنوبية جليلية تحكم العمل في هاتين الساحتين ·

الجليل في يوم الارض (٢)

مطالب محددة واحتمالات مفتوحة

صبري جريس

يشهد الجليل ، منذ نحو سنة ، مرحلة جديدة من الصراع الذي يخوضه سكانه العرب ضد سياسة الاضطهاد الاسرائيلية · ويعتبر « يوم الارض » ـ ٣٠ آذار (مارس) ١٩٧٦ ـ بداية هذه المرحلة الجديدة · وكان عرب الجليل قد دعوا في ذلك اليوم الى اضراب عام ، احتجاجا على قرار كانت الحكومة الاسرائيلية قد اصدرته في حينه ، وسمحت بموجبه لمؤسسات الاستيطان الصهيونية بالاستيلاء على نحو ٢٠ ألف دونم من الاراضي ، التي بقيت بحوزة العرب في تلك المنطقة ، لتوسيع رقعة المستوطنات اليهودية القائمة هناك او لاقامة مستوطنات جديدة عليها · وقد تضامن عرب منطقة المثلث ، الواقعة بمحاذاة مثلث جنين ـ نابلس ـ طولكرم في وسط فلسطين ، حيث يقطن نحو ١٥٠ الف عربي ـ ويشكلون التجمع السكاني العربي الثاني ، من حيث كبره ، داخل اسرائيل ـ مع أخوتهم عرب الجليل ، واشتركوا في المظاهرات التي جرت يومها ، ثم تبعهم عرب المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ · وكان من نتيجة ذلك انتفاضة عربية شعبية واسعة ضد سياسة الاحتلال والاضطهاد ومصادرة الاراضي والاستيطان الصهيوني · واشتركت في هذه الانتفاضة اعداد كبيرة ، من كافة فئات الشعب الفلسطيني ، في اكثر من منطقة ، وقتل عدد من العرب الذين اشتركوا في المظاهرات الصاخبة ، واعتقل العشرات من المشتركين في « اعمال الشغب » و « المحرضين على الفتنة »·

ان لنضال عرب الجليل ، رغم كونه جزءا من النضال الفلسطيني بأسره ، ولا يجوز بالتالي التعامل معه على حدة ، خصوصية تميزه عن النضال الذي يخوضه العرب الفلسطينيون ، داخل الوطن المحتل او خارجه · ولعل اوضاع منطقة الجليل ، الجغرافية والسكانية والسياسية ، هي السبب الرئيسي لتلك الخصوصية ـ وهذا ما يفسر بالتالي طبيعة الصراع الذي يدور على ارضها ، بين سكانها العرب والسلطات الاسرائيلية · وللتوضيح ، نقصد بالجليل هنا تلك المنطقة منه، الواقعة في شمال غرب فلسطين على البحر المتوسط ، وتمتد من خط يصل بين مدينتي الناصرة وعكا في الجنوب لتصل حتى الحدود الفلسطينية ـ اللبنانية في الشمال · وتضم هذه المنطقة مدينة الناصرة ، ونحو ٥٠ قرية عربية أخرى ، بقي

معظم سكانها العرب فيها بعد حرب ١٩٤٨ · وقد تكاثر اولئك السكان ، منذ ذلك الوقت ، بصورة ملحوظة ـ فاصبحوا يشكلون « خطرا سكانيا » عربيا بالنسبة للسيطرة الاسرائيلية ـ اليهودية على المنطقة ·

تنبهت السلطات الاسرائيلية باكرا لهذا « الخطر السكاني » العربي ، فباشرت في سنة ١٩٥٧ ، بعد انسحابها من سيناء ، اثر فشل الغزوة الامبريالية الانكليزية ـ الفرنسية ـ الاسرائيلية ، ضد مصر يومها ، في تنفيذ واحد من المشاريع الصهيونية العنصرية الكلاسيكية ، اطلقت عليه اسم « مشروع تهويد الجليل » (ثم غيرت الاسم الى « مشروع تطوير الجليل ») · وكان الهدف من هذا المشروع هو زيادة عدد السكان اليهود في الجليل ، الذي يكاد يتعادل فيه عدد اليهود والعرب ، خصوصا وان اكثر من نصف السكان العرب في اسرائيل يعيشون هناك (٢٥٠ الف عربي مقابل ٢٨٠ الف يهودي تقريبا) ، رغم ان نسبة العرب بين سكان اسرائيل عامة لا تتعدى ١١ـ١٤٪ · ومما يزيد في حراجة الوضع ، بالنسبة لسلطات اسرائيل ، ان بعض مناطق الجليل تضم سكانا عربا يزيد عددهم بنحو ضعفين على عدد السكان اليهود ، خصوصا في قضاء عكا (١٥٠ الف عربي مقابل ٨٠ الف يهودي تقريبا) ، وهنا تتركز معظم الاراضي المصادرة حديثا · وقضاء عكا هذا تابع ايضا ، بحسب مشروع تقسيم فلسطين لسنة ١٩٤٧ ، للدولة العربية الفلسطينية ، وهو محاذ للحدود اللبنانية ، ولهذا تخشى بعض الدوائر الاسرائيلية ان يقتطع يوما ما من اسرائيل وينتقل الى حكم العرب ، على اساس الاكثرية العربية التي تسكنه · وبالاضافة الى ذلك ، كانت الاكثرية العربية في الجليل قد « انبتت » ، مع مرور الوقت ، ولا تزال « تنبت » ، عددا من «المحرضين» العرب المعادين لاسرائيل ، والكثيرون من ابنائه قاموا ، ولا يزالوا يقومون ، « باعمال تخل بالامن » · وكان رد سلطات اسرائيل على هذا الوضع ، الاتجاه الى كسر شوكة الاكثرية العربية التي تسكن المنطقة ، بواسطة مصادرة اراضيهم واقامة المستوطنات اليهودية عليها ، وتشجيعهم على الانتقال الى المدن ذات الاكثرية اليهودية ، آملة ان يذوبوا هناك ·

وخلال الفترة التي تلت اقرار مشروع تهويد الجليل في دوائر الاستيطان الصهيونية ، اي في نهاية الخمسينات واوائل الستينات ، قامت اسرائيل بمصادرة اراض عربية اخرى ، بالاضافة الى الاراضي التي كانت قد صادرتها بعد اقامتها مباشرة ، خلال ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ، واقامت مستوطنات يهودية عدة في مناطق استراتيجية في المنطقة ، خطط لها لتصبح مدنا كبيرة · وكانت احدى هذه المدن « الناصرة العليا » ، التي اقيمت بمحاذاة مدينة الناصرة ، كبرى المدن العربية في اسرائيل ، في محاولة « لخنقها » ، وثانيتها كرميئيل ، في وسط تجمع كثيف من القرى العربية ، في مركز الجليل ، وثالثتها معلوت ، على الحدود الفلسطينية ـ

اللبنانية ٠ الا ان عرب الجليل ، من جهتهم ، لم يسكتوا على هـذه الاجراءات ، فأبدوا معارضة شديدة وخاضوا نضالا مريرا ، دفاعا عن أرضهم ، كلل بالنجاح، اذ قبل منتصف الستينات كان مشروع تهويد الجليل يلفظ انفاسه الاخيرة ، وبقي العرب في قراهم ومدنهم ــ اكثرية في المنطقة ٠ ولعله من المفيد الاشارة هنا الـى ان هذا كله قد تم خلال فترة عصيبة ، وصل الاضطهـاد الاسرائيلي فيها ضـد عرب الداخل الى قمته ، في الوقت الذي كان فيه العرب خارج اسرائيل ، مـن فلسطينيين وغيرهم ، يعتبرونهم « جواسيس » و «متهودين » ، ويرفضون الاشارة الى نضالهم (ان كانوا قد سمعوا به !) ، او دعمهم ــ حتى بالبيانات ٠

وافشال مشروع تهويد الجليل لم يكن الانجاز الوحيد ، الذي حققه العرب في اسرائيل حتى ذلك الوقت ، اذ ان الظروف السياسية الاسرائيلية الداخليةخدمتهم ايضا ٠ فبعد استقالة بن ــ غوريون من منصبي رئيس حكومة اسرائيل ووزيـر دفاعها ، سنة ١٩٦٣ ، وتعيين ليفي اشكول بدلا منه ، ثارت بيـن الرجليـن ومؤيديهما خلافات حادة ــ لا مجال لذكرها هنا ــ اسفرت ، في نهاية الامر ، عن ابعاد انصار بن ــ غوريون عن كل المراكز الحساسة ، التي كانوا يحتلونها فـي الجهاز الاسرائيلي الحاكم ٠ وكان من بين المجالات التي امتد الخلاف اليها بين الجماعتين ، السياسة الاسرائيلية الرسمية تجاه العرب في الداخل ، وتقرر ــ بعد صراع شديد . استمر وقتا غير قصير ــ تغيير السياسة البن ــ غوريونية المتصلبة تجاه العرب ، والكف عن مصادرة اراضيهم والغاء جهاز الحكم العسكري ،الذي كان رمز اضطهادهم ، والاتجاه بدلا من ذلك الى « استيعابهم في حياة المجتمـع الاسرائيلي » ، وحل كافة مشاكلهم المعيشية ، من خلال اتباع سياسة « ليبرالية» تجاههم ٠ وجاءت حرب ١٩٦٧ ، لتخضع للحكم الاسرائيلي نحو مليون عربـي فلسطيني آخر في الضفة الغربية وقطاع غزة ، فكان الجواب ــ بالنسبة للعرب في الداخل ــ امعانا في السياسة « الليبرالية » تجاههم ، فأسرائيل لم تكن مستعدة لاثارة المشاكل معهم ، اذ تكفيها مشاكل سكان المناطق المحتلة حديثا ، وتعقيدات الاوضاع السياسية التي نشأت في المنطقة بعد تلك الحرب ٠

ولكن هذه السياسة « الليبرالية » عادت وتغيرت ٠٠٠ بعد حرب تشرين ، رغم ان الامر يبدو غريبا لاول وهلة ٠ لقد هزت حرب تشرين ، كما هو معروف ، اكثر من اساس من اسس الاستراتيجية الاسرائيلية، واحدثت تصدعا في بعض نظريات امن اسرائيل ، التي دأب الصهيونيون فترة طويلة على بلورتها ٠ كذلك اسفـرت تلك الحرب عن عملية اعادة نظر شبه شاملة ، من قبل مختلف الدوائر والفئـات الاسرائيلية ، في معظم مواقف اسرائيل وسياستها ، واحيانا حتى في اسس النظام الاسرائيلي ، لم تصل الى نهايتها حتى الآن ٠ ولكن على الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من ان عملية اعادة النظر هذه لن تنتهي ، كما يبدو ، الا عندما تستقـر الاوضاع في الشرق الاوسط ــ ان استقرت ــ هناك بعض النتائج « الاوليـة » ،

بالنسبة للفلسطينيين على الاقل ــ وهي ليست « مشجعة » · وتدل هذه النتائج ، استنادا الى استقراء مواقف كبار الزعماء الاسرائيليين ، كما تتضح من اقوالهم وتصريحاتهم في مقابلاتهم ومقالاتهم ، والى نشاط زعماء بعض مراكز القوى الفعالة داخل النظام الاسرائيلي ، الى انه كلما ازداد الضغط على اسرائيل ورأت انه لا مفر امامها من الانسحاب من الاراضي المصرية والسورية ، او من اجزاء منها ، يتصلب ــ في مقابل ذلك ــ موقفها من الفلسطينيين ، وتسعى الى تقوية قبضتها على الاراضي الفلسطينية المحتلة ، سابقا ولاحقا ، وعلى سكانها العرب الفلسطينيين · وان كان هذا الموقف يغطى بعبارات مطاطة ، تظهر كأنها تعني سياسة « معتدلة » ، مثل الحديث عن « خلق حياة مشتركة » بين العرب واليهود في المناطق المحتلة ــ وهذه ، مثلا ، عبارة الهدف منها تجنب استعمال كلمة «الضم» البشعة وغير المقبولة عالميا ــ فمن الواضح ان « الليونة » التي تنتهجها اسرائيل في موقفها من بعض الانظمة العربية ، مقابل « التصلب » تجاه الفلسطينيين والتأكيد على « صعوبة فهمهم» ، لا تهدف الا الى استعداء تلك الانظمة على الفلسطينيين ، وايهامها بان موقفا «معتدلا» من جهتها ــ على حساب الفلسطينيين ــ ستكون له « فوائده » ·

بالاضافة الى هذه العوامل الخارجية ، هناك ايضا اسباب سياسية داخلية دفعت سلطات اسرائيل ــ وباعتقادنا رغما عنها الى حد ما ــ للعودة الى سياسة مصادرة الاراضي في الجليل ، رغم الحساسية البالغة التي اثارتها ، وتثيرها ، اجراءات المصادرة بين العرب هناك ، ورغم اطلاع السلطات الاسرائيلية على ذلك جيدا · فحكومة رابين ، التي جاءت الى الحكم بعد سقوط مئير سنة ١٩٧٤، كنتيجة لحرب تشرين ــ قبل استقالتها مؤخرا ، وتعيين موعد لانتخابات جديدة خلال شهر ايار (مايو) القادم ــ كانت تحكم وهي واقفة على كف عفريت ، اذ كانت تستند الى تأييد اكثرية ضئيلة في الكنيست ، وتكاد تنهكها الصراعات داخل الاحزاب والفئات المشتركة فيها · ولذلك كانت تجد نفسها ، في احيان كثيرة مضطرة الى اتخاذ اجراءات او مواقف متناقضة لارضاء هذه الفئة او تلك · وكان من نتيجة هذا الوضع من جهة ، وتصاعد المد اليميني داخل النظام الصهيوني ــ وهو تطور بدأ منذ فترة غير قصيرة ، ويحاول قادته معالجة «تردد» الحكومة في اتخاذ اجراءات سياسية او عسكرية « حازمة » تجاه العرب والفلسطينيين ــ من جهة اخرى ، ان بدأت بعض الفئات المتطرفة بنشاط مركز يهدف الى اجبار الحكومة على اتباع سياسة توسعية واضحة ، تحت ضغط الامر الواقع · وتمثل هذا النشاط ، بشكل خاص ، في الغزوات الاستيطانية التي يقوم بها جماعة « غوش ايمونيم » وغيرها من الفئات المتطرفة الى الضفة الغربية ، لاقامة المستوطنات اليهودية عنوة هناك ، كخطوة على طريق تؤدي الى اجبار الحكومة الاسرائيلية على ضم المنطقة الى اسرائيل ، في نهاية الامر · واثار

نشاط « غوش ايمونيم » هذا نقاشا وخلافا واسعين ، بين مختلف الفئات الاسرائيلية ، خصوصا بعد ان اتضح ان بعض الوزراء الاسرائيليين يؤيدونه ويحرضون زعماء الجماعة على الاستمرار في خططهم ··· لارباك الحكومة التي يشتركون فيها ، او « لتوريطها » · وبسبب ذلك ، احتدم الخلاف بين « صقور » اسرائيل « وحمائمها » ، اذ ايد « الصقور » هذا النشاط بشدة ، بينما عارضه « الحمائم » بشدة اكبر ، مشيرين الى ان « الوطني » الاسرائيلي ، الذي يريد ان يعمل « في خدمة بلده » ، عليه ان يتجه الى الاستيطان في الجليل ، « الخالي من السكان » ـ اليهود طبعا · ثم ان الجليل « اسرائيلي » ، والضفة ليست كذلك ، فلماذا لا يوجه الاستيطان الى هناك ، الى الشمال ؟ وبسرعة ، اتفقت الفئتان على ضرورة « توطين » الجليل ، فيما كان الحمائم يعتقدون انهم استطاعوا توجيه الزخم الاستيطاني الى « داخل اسرائيل » وتجنب الاعمال المربكة في الضفة الغربية ، حتى تحين ساعة البت في مصيرها ، بينما شعر « الصقور » بالغبطة، لانهم استطاعوا حمل الحكومة على اتخاذ قرار بتكثيف الوجود اليهودي في الجليل دون ان يتعهدوا بايقاف غزواتهم الاستيطانية في الضفة الغربية ·

ولكن رغم هذا الاتفاق في وجهات النظر بين كافة الاطراف ، لم يكن من السهل تنفيذه ، اذ لا توجد في الجليل اراض خالية للاستيطان عليها ـ ولا بد اذن ، لتنفيذ ذلك ، من مصادرة جزء من الاراضي التي بقيت في حوزة العرب · ولكن سلطات اسرائيل ترددت ، لفترة غير قصيرة ، في تنفيذ اجراءات مصادرة جديدة، بسبب الحساسية التي تثيرها مثل تلك الاجراءات بين العرب ، وتحسبا لردود الفعل التي قد تترتب عليها · فقد امتنع ، اولا ، مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية عن اصدار توصية لمصادرة اية قطعة من الاراضي العربية في الجليل ، وطالب باحالة الموضوع الى لجنة حكومية مسؤولة ، احالته بدورها الى لجنة وزارية ، منحت موافقتها · ولكن رغم هذه الموافقة ، امتنع وزير المالية ، الذي يملك حق المصادرة قانونيا ، عن التواقيع على الاجراءات الخاصة بذلك ، وطالب ببحث الامر في احدى جلسات الحكومة بكامل هيئتها · واخيرا جمعت الحكومة باقي جرأتها ، وصادقت على خطط المصادرة ـ ووقع الصدام · فعرب الجليل كانوا ، كما اشرنا ، قد قاموا باكثر من « انتفاضة » في الماضي ، عندما لم يكن احد يشعر « بوجودهم » ، خصوصا خارج اسرائيل ، واحبطوا اكثر من مخطط مصادرة ، في وقت وصل فيه الاضطهاد الاسرائيلي ، الموجه ضدهم ، الى قمة عنفوانه · وان كان هذا ما حدث في الماضي ، في ظل ظروف عصيبة ، فكيف الآن وقد تغيرت الظروف السياسية ، واصبح هناك منظمة تحرير فلسطينية وفدائيون وكفاح مسلح ، والعالم كله يتحدث عن القضية الفلسطينية · وجاء رد الفعل المناسب : اعلان المعارضة ، اقامة لجان الدفاع عن الارض ، تنسيق النشاط بين كافة الفئات والدعوة الى الاضراب العام في « يوم الارض » ، ثم الصدام مع

السلطة • ومثل هذا كله ـ مرة اخرى ـ حدث في الماضي ، وفي اكثر من مناسبة• ولكن الجديد في هذه المظاهرات كان مدى عنفها واتساعها ، ثم لجوء شرطة اسرائيل الى اطلاق النار على المتظاهرين وقتل بعضهم ، لتتحول المظاهرات الى انتفاضة عارمة ، وتنتقل الى التجمع العربي الآخر في وسط اسرائيل ، في منطقة المثلث (وهناك ، على كل حال ، لم تبق في حوزة العرب اراض تجدر مصادرتها) التي اعلنت تضامنها مع الجليل ، في انتفاضة مماثلة ، وان تم ذلك على نطاق ضيق •

ومع انتشار انباء هذه الانتفاضة ، تلقفها الفلسطينيون في المهجر بشغف ، فعقدت اجتماعات التأييد ـ وهذا ، على كل حال ، اضعف الايمان ـ وصدرت البيانات ، وانطلقت المسيرات ووزعت الكراريس وعلقت الملصقات وتغنى الشعراء ـ وحبرت المقالات ، وكلها تشيد بالانتفاضة وتهلل لها وتمجدها ، وظهر كأن المهجر في عرس دائم • وحتى هنا يبدو كل شيء « طبيعيا » ، الا ان ظواهر اخرى ، غير طبيعية ، رافقت هذه الاحتفالات ، ولا تزال تشتد وتنتشر ، يوما بعد آخر ، ونقصد تلك التعليقات والتحاليل التي تضخم من شأن الانتفاضة ، وتحملها اكثر مما تستطيع حمله ، وتبتعد تدريجيا عن الواقع ، لتصل الى تقييم مريح ومغر لاوضاع النضال الفلسطيني ، فتدخلفي متاهات استعراض العضلات ثم المديح الذاتي ، وتخرج من هناك مطالبة ـ استنادا الى ذلك ـ باتباع اساليب وانتهاج سياسات غريبة ، قد تؤدي الى الوقوع في مطبات خطيرة •

لقد برعت ، على سبيل المثال ، اجهزة الاعلام الفلسطينية ، على اختلاف اتجاهاتها ، في مواكبة تلك الانتفاضة بكليشيهاتها النارية المعهودة ، على غرار: « الارض الفلسطينية تنفجر تحت اقدام الغزاة » ، « ثورة جماهيرنا مستمرة » ، « ابطالنا يواكبون ثورة جماهيرنا بعمليات عسكرية جريئة » ، « ابرزت الانتفاضة القدرة ••• على قيادة جماهيرنا في الارض المحتلة » ، « تناسق العمليات العسكرية مع الانتفاضة يجسد مسيرة شعبنا النضالية » • كما رأينا بعضهم يعمل جاهدا « لاثبات » ان هدف الانتفاضة كان ••• « اسقاط التسوية الاستسلامية»، بل ربما اضاف آخرون ان الهدف كان ايضا « دحر الاستيطان الصهيوني » و « وتحرير فلسطين ، كل فلسطين ، من النهر الى البحر » ثم اقامة « الدولة الديموقراطية » • ولكن ليس من الصعب الادراك ان تلك الكليشيهات وهذه الاقاويل كانت في غير محلها • فابطالنا ، مثلا ، لم يواكبوا ثورة جماهيرنا باية عملية عسكرية جريئة ، اذ لم نسمع عن وقوع اية عملية عسكرية ، جريئة او غير جريئة في الجليل ، ابان الانتفاضة او بعدها • ولم يكن هناك اي تناسق بين الانتفاضة في الجليل والعمليات العسكرية التي وقعت في مناطق اخرى من فلسطين • كذلك لم تبرز الانتفاضة اية قدرة ، لدى اي جهاز فلسطيني مهجري،

على « قيادة جماهيرنا » في الجليل ، اذ ان عرب الجليل ومؤسساتهم وابنائهم هم الذين نظموا حملة الاحتجاج ، التي تحولت الى انتفاضة ، من خلال تجربة طويلة ومريرة في صراعهم ضد زحف الاستيطان الصهيوني على اراضيهم · وانطلاقا من هذا الواقع لا يجوز تحميل تلك الانتفاضة ما لا تستطيع تحمله ، اذ ان هدف منظميها ، الاول الرئيسي ، كان الدفاع عن اراضيهم وتعبيرا عن التصاقهم بها ـ وبعملهم هذا يؤدون ، على كل حال ، خدمة جليلة للنضال الفلسطيني بأسره ـ وما عدا ذلك من ادعاءات لا اساس موضوعيا له ·

ومن ناحية اخرى ، لا يجوز ايضا تعليق آمال كبرى على حدوث انتفاضات مماثلة في المستقبل ـ الا اذا اعد لها خلال فترة غير قصيرة ، وهذه عملية شاقة ومعقدة · ويمكننا ان نفترض ايضا ان اسرائيل ستعمل ، من جهتها ، على منع وقوع مثل هذه الانتفاضات في المستقبل ـ وليس بالقمع فقط · فقد فاق عنف الانتفاضة في الجليل ما كان متوقعا ، ليس من قبل السلطات فقط ، وانما من قبل حزب راكاح ، الذي دعا الى مظاهرات سلمية ـ كعادته في الماضي ـ ولم يكن يخطر له ،او لاي من المتحالفين معه من العناصر القومية ، ان المظاهرات قد تصل الى ذلك المدى من العنف الذي وصلت اليه · ولا شك ان هذه التطورات فاجأت كلا من الحكومة من جهة وراكاح وانصاره من جهة اخرى · واذا كانت الحكومة الاسرائيلية قد اخطأت ووقعت في الفخ عندما استعملت العنف السافر ، فدفعت المتظاهرين العرب الى اتخاذ موقف اعنف ، لا يمكننا ان نفترض انها ستقع في المستقبل في اخطاء مماثلة · وعلينا ان نضع في حساباتنا ان الحكومة الاسرائيلية ستتجه الى تصحيح الخطأ الذي وقعت فيه ، بشكل يدفع العرب داخل اسرائيل الى السكوت على الاقل ـ وهذا ، على كل حال ، ما درجت عليه في الماضي ، في حالات مماثلة ـ اذ ان سكوتهم ضرورة اسرائيلية استراتيجية ، لا تكتيكية ، فالتحدي الموجه لاسرائيل الآن في المحافل الدولية والعربية يدور حول المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، ومصيرها · وللتفرغ لمواجهة هذا التحدي ينبغي كسب هدوء العرب داخل اسرائيل وسكوتهم ، وان كانت التضحيات في سبيل ذلك كثيرة · ولا شك ان عرب الجليل ، الذين تمرسوا في العيش تحت حكم الاحتلال الصهيوني نحو ٣٠ سنة ، يدركون جيدا حدود اللعبة الدولية وابعادها ،ويقدرون القوة العربية والفلسطينية حق قدرها ، ويعلمون ان مصير منطقتهم ليس موضع بحث الآن ـ وسيتصرفون على ضوء قناعتهم النابعة من هذا الواقع ·

وان كان هناك من عبرة في انتفاضة عرب الجليل ، في « يوم الارض » ، وما تبعه من تشددهم في المطالبة بحقوقهم ، ، فأنها تكمن في قدرة جزء من العرب الفلسطينيين ، يعيش ضمن واقع وظروف خاصة به ، على تركيز نضاله في مطالب محدودة ، لا تتعارض مع المسيرة الفلسطينية ، وتترك احتمالات المستقبل مفتوحة ·

الجليل في يوم الارض (٣)

الجليل - الجنوب : المشروع الثوري الجذري في مواجهة المشروع الصهيوني - الانعزالي

محمود سويد

انه قدر الجليل والجنوب ، ان تلتقي فوق ارضهما المصالح الحقيقية للشعبين اللبناني والفلسطيني ، والمطامح القومية المشروعة لنضالهما ، فيشكلان معا مشروعا **ثوريا** ، لا يستطيع الا ان يكون **جذريا** ، ولا خيار له سوى ذلك ٠ وهو هو ، قدر الجليل والجنوب، ان يصطدم المشروع الثوري الجذري، فوق ارضهما، بالمشروع الصهيوني ــ الانعزالي ، الذي لا يستطيع الا ان يكون **عنصريا طائفيا**، ولا خيار له سوى ذلك ٠

١ ــ صمود الجليل ونضاله :

منذ ١٩٤٨ ، والجليل يخوض معركة كر وفر مع الدولة اليهودية وايديولوجيتها الصهيونية العنصرية ٠ واذا كان الجليل ، في نضاله العريق والطويل ، يصعد مع المد الفلسطيني ــ العربي ، وينجسر بانحساره ، فان لهذا الانحسار خطا احمر لا يتجاوزه ، حتى ولو ظل اهل الجليل واقفين وحدهم ، يذودون عنه ، ويموتون من اجله : الارض ــ بما هي وطن ، لا صك ملكية ٠

حمل عرب الجليل السلاح ، في مرحلة صعود المقاومة الفلسطينية ، وشاركوا في نشاطاتها ، كخلايا منظمة ، واستضافت السجون الاسرائيلية ، خلال السنوات الماضية مئات من شبان الجليل ، بسبب هذه النشاطات ٠ وعندما كانت الحرب العربية تشهر ضد الحركة الثورية المسلحة للشعب الفلسطيني ، خصوصا في الاردن ، ثم في لبنان ، كان نضال عرب الجليل ، يتراجع الى حدود الارض ، ليحتضنها ، رمزا للوطن الباقي ابدا ، وليدافع عن عروبتها ٠ وكأنما ، في زمن الانحسار ، عندما يصدر العرب الى الوطن المحتل ، الهزيمة والتراجع ، تتفتح جروح القهر القومي ، والاضطهاد العنصري ، وتصبح اكثر ايلاما ، فيلوذ الشعب المقهور بالارض ، يحتمي بها من اليأس الزاحف ، وتختصر الارض اذاك، كل معاني الانتماء الى العروبة وفلسطين ٠

٢ ـ الجنوب ـ ارض الثورة :

كان احتضان الجنوب اللبناني للثورة الفلسطينية امرا طبيعيا ، ففيه تتجسد ممارسات نظام الامتيازات الطائفية والطبقية ، وتبرز باقبح اشكالهـا ٠ وقـــد التقى في الجنوب القهر الوطني (نظام الامتيازات الـــذي حرم الجنوبي مـــن الشعور بالانتماء الى وطن) بالقهر القومي (الكيان الصهيوني المجاور) والقهر الاجتماعي ـ السياسي (الاقطاع والاهمـــال) ، وبدا الجنوب جسماً مريضـا ، ينخره القهر بمختلف اشكاله ، وينتظر الثورة ، ليذوب فيها ، وينطلق معها وبها الى تحقيــق الاهداف الواحدة ، على كل الصعـد ٠

من خلال الوجه القومي للثورة (فلسطين) ظـــن الجنوبي ان بامكانــه ان يرفع عن ظهره اثقال القهر الاخرى : ظن ان الثورة هي حليفـــه ضد نظــــام الامتيازات ، والطريق الى الوطن الديمقراطي العلماني ٠ وانها الحليف ضـــد الاقطاع وما يمثله من قهر اجتماعـــي وسياسي ، والطريق الى الانعتاق والتقدم٠

ولكن الحقيقـة لم تكن جميلة كالحلم ٠ فهـل حمـــــل الجنوبي الثــــورة الفلسطينية من المضامين ، اكثر مما تقدر ان تحتمل ؟

الثورة ملاحقة من انظمة عربية لا تطيق اي نموذج يتجاوزها ، ليطرح على الشعوب ، شيئا آخر ، بديــلا ٠٠٠

وهي ، اخيرا لا آخرا ، تتعامل مع جمهور جنوبي متخلف ، تقوده حركــــة وطنية ، يعكس بعض اطرافها ، ايديولوجيات (عفو الكلمة) الانظمـة العربية المختلفة ، ويعكس البعض الآخر ، في فكره ومواقفه ، حتى حين قريب من الزمن، الخط العالمي الشهير : الطريق السلمي الى ٠٠٠

ومع ذلــــك،

فقد كانت اسرائيل تتوجس خوفا مما يجري في الجنوب : تجربة السلاح ٠ ولعلها كانت اكثر قلقا ، مما قد يتطور اليه الوضع في الجنــــوب والجليل : ان يصبح السلاح في متناول كل الجماهير اللبنانية والفلسطينية ٠

ولم يكن النظام اللبناني وحليفـه الاقطاع في الجنوب ، اقل قلقا من اسرائيل٠ وعند هذا المنعطف تبلور لقاء المصالح ٠

وعندما فجرت (بضم الفاء) الحرب اللبنانية ، كانت المقاومة الفلسطينيـــــة وحدها تشهر السلاح في وجه اسرائيل ، وكانت جبهة الجنوب وحدها مشتعلـــة بالنار ، بين كل الجبهات العربية ٠ وكان هذا يعني ان كل جهد العـدو منصـب على اخماد هذه الجذوة ٠

٣ ـ المشروع الصهيوني ـ الانعزالي يشق طريقه :

منذ انفجار الصراع في لبنان ، كان واضحا ان المارونية السياسية ، وضعت الاطراف الاخرى امام خيار واحد : اما ان تتكفل الانظمة العربية بحماية امتيازات هيمنتها على الحكم في لبنان ، وتقديم ضمانات ديمومتها ، واما انتتجه نحو اية جهة اخرى ، تؤمن لها الهدف نفسه ٠

وكانت اسرائيل تنتظر الفرصة ، لتقفز الى الدور الذي طالما انتظرته ، والذي راودها حلما ذهبيا ، ومارسته عمليا في اكثر من مجال : محاولة اقامة كيانات طائفية وعنصرية في المنطقة العربية (مساعدة الحركة الانفصالية في جنوبي السودان ، وتكرار المحاولة مع الاكراد في شمالي العراق) ٠ وكان لبنان ،الاقرب الاولى بالمعروف ، في الذهن منذ زمن بعيد ٠

عمليا ، فكر بن غوريون ، وموشيه شاريت ، عام ١٩٥٤ ، لمناسبة حدوث اضطرابات في سوريا ، بعمل شيء في لبنان : « ربما كان الوقت الحاضر فرصة مؤاتية للعمل لاقامة دولة مسيحية في جارتنا ، ولن يتم ذلك دون مبادرتنا ومساندتنا الفعالة » (بن غوريون ـ دافار ٢٩ـ١٠ـ١٩٧١) ٠ ولكن موشيه شاريت ، رئيس الحكومة ، وزير الخارجية آنذاك ، طلب التريث ، لان الامر يمكن تحقيقه « في اعقاب اية عاصفة من الاضطرابات تمر على وجه الشرق الاوسط ، تسبب تغييرات جذرية ، وتلقي بالنماذج القائمة الى داخل فرن ملتهب، وتخرج منه تبلورات مختلفة » ٠ ويتابع شاريت : « سأوافق تماما على تقديم المساعدة الفعالة لكل غليان في اوساط الطائفة المارونية ، بهدف زيادة القوة والانفصال ٠٠٠ واضرام جمرة نزعة الاستقلال المسيحية التي ستعقب الغليان ، والحرص على عدم اطفائها » (المصدر نفسه) ٠

والواقع ان المارونية السياسية ، حاولت استخدام الاداة العربية من اجل تحقيق اهدافها في لبنان ، فهي ليست غافلة عن مصالحها ، لتنشد عداء العرب في اكثر اوقاتهم ثراء ، وفي الوقت الذي تريد اسرائيل صلحا كاملا معهم (الطموح والهدف الاسرائيلي ـ الانعزالي هنا واحد : استغلال الثروة العربية ونهبها) ٠

وفي اطار عدم المساومة على المبادىء الاساسية ٠ ولما كان مؤتمرا القمة في الرياض والقاهرة ، شكلا مرتكز الافتراق بين اهداف الانظمة العربية واهداف اسرائيل في لبنان ، فقد ظهر واضحا ان « الجبهة اللبنانية » ممثلة المارونية السياسية ، حققت بعد المؤتمرين المذكورين ، النقلة التاريخية : دفع التحالف الاسرائيلي ـ الانعزالي الى الامام ، واخراجه من السر الى العلن ٠ فاسرائيل تدعم الآن اهداف هذه الجبهة ، تحت سمع العالم كله وبصره ،

وليس مـــا يجـــري فـــي الجنوب ، سوى الوجــــه العلني والصارخ لهـــذا الدعـــم ·

والحقيقة ان اسرائيل كانت دائما تشعر باهمية الصلة الجغرافية « بلبنـــان الماروني » وبضرورة قيام هذه الصلة ، لتتمكن من تقديم الدعم الفعلي والمـــادي للمشروع الماروني في لبنان · وتقوم في الجنوب الآن ، محاولة دائبة لخلق هـــذه الصلة الجغرافية الثابتة والدائمة ، على الرغم من محاولات البعـــض تبسيـــط الامر ، وتصويره على انه مجرد اقامة حزام امن حول اسرائيل · هذا ، فضلا عن الاهداف المهمة الاخرى ، لمد الجسر الجديد (بالاضافة الى جسور الاردن) : الليطاني حدود امن اسرائيل في الشمال · الجنوب مصدر يد عاملة رخيصـــة ، وسوق لتصريف الانتاج والبضاعة · حرية الانتقال والتنقل وجسر الى الداخل اللبناني ، استخدام انتاج الجنـــــوب لسد حـــاجات الاستهـــلاك والتصديـــر الاسرائيليين الخ ···

لقد اكدت « الجبهة اللبنانية » في كل وثائقها ، واخرها واهمها طبعا ، وثيقة خلوة سيدة البير ، اهدافها ، وتصميمها على تحقيق هذه الاهداف (حل المسألة الشرقية للاقلية المسيحية ــ في اقامة وطن لها في لبنان) ان لم يكن كلها في هـــذه الحقبة ، فطرحها على المدى التاريخي ، والابقاء على شعلتها متقدة ، وعلـــى النضال من اجل تحقيقها مستمرا ·

وعلى الرغم من موجة التفاؤل العارمة ، التي غمر بها الصديق منير شفيق ، بعض صفحات العدد الماضي من « شؤون فلسطينية » ، فاننا نرى ان المشـــروع الصهيوني ــ الانعزالي التاريخي ، يشق طريقه الآن في الجنوب ، مستفيدا مـــن انحسار المد الثوري ، وتراجع الثورة الفلسطينية الى حدود « البقاء على قيـــد الحياة » ، وتبعثر الحركة الجماهيرية ، وتشتت صفوفهـــا ·

ويبدو ان التراجع العربي ، بالمقابل ، لا يزال قادرا على البـــذل والعطاء ، واخر ما قدمه في هذا المضمار ، القبول بقوات دولية على الحدود الجنوبية ، على امل ان يحد ذلك من طغيان التعاون الاسرائيلي ــ الانعزالي ، ويجنب الطـــرف العربي الاحراج والانكشاف · هذا ، طبعا ، بعد ان اقترب السادات ، في احـــد اقتراحاته الاخيرة ، مـــن مشروع المملكة المتحدة ، ذات الاقليميـــن الفلسطيني والاردني ، في اطار ما يعتبره تعبيدا لطريق جنيف ·

وغني عن القول ، ان التراجع العربي يؤمن للفريق الانعزالي سهولة الاختيار، ويضيق رقعة الخلاف في موضوع التعاطي مع اسرائيل ·

لقد اعلن بشير الجميل ، قائد القوات الانعزالية ، ان تحرير كل لبنان سيتم انطلاقا من الجنوب ، وان قواته تعد العدة لذلـــك (السفير ١٦ــ١ــ١٩٧٧) · واعلن كميل شمعون انه يتعاون مع الشيطان من اجل تحقيق اهدافه (النهـــار

٢٦ـ١٠ـ١٩٧٦) ، وان القتال سيستمر حتى يتحرر كل لبنان من الفلسطينيين واليساريين ، وان المرحلة الثالثة والاخيرة من الازمة اللبنانية ستنتهي في شهر آذار ١٩٧٧ (السفير ١٥ـ٧ـ١٩٧٦) ٠

وهذه هي الفاشية ، الانفصالية (عن العرب) تستانف ، بعد مؤتمري الرياض والقاهرة ، القتال من اجل مشروعها ، انطلاقا من الجنوب ، وبالتحالف المكشوف مع اسرائيل ٠ (اعلن في اجتماع عقد في القليعة تشكيل جيش الدفاع عن الجنوب٠ وذكر المجتمعون ان هدفهم تحرير الجنوب ، والاستعانة بالشيطان لتطهيره ـ السفير ٢٢ـ١٠ـ١٩٧٦) ٠

فهل ينطوي ذلك كله ـ اسرائيليا ـ على وجهة سلمية (مقابلة للوجهة العربية) ؟

وهل هناك من امل بحل سلمي للمسالة اللبنانية ـ هي الاخرى ايضا ؟

البير ميمي :
موضوعية التاريخ والوهم الصهيوني

د. فيصل دراج

قبل ان نبدأ في عرض موضوعات البير ميمي نود ان نؤكد أمرين :

أ ــ ان وضوح الرؤيا السياسية والنضالية لا يعتمد على معرفة الذات فقط بل يتطلب معرفة الآخر الذي هو موضوع الصدام والمواجهة . فالحديث عن فلسطين في خصوصيتها التاريخية يستدعي حديثا موازيا عن الصهيونية ، وعملية النضال تستدعي وحدة ديالكتيكية لا يمكن تجزئتها ، فهناك اسرائيل وفلسطين من ناحية، والصهيونية وحركة التحرير الفلسطينية من ناحية ثانية .

يوجد بين الذات (حركة التحرر الفلسطينية) والموضوع (الصهيونية) علاقة مستمرة لا تتقدم الا بواسطة معرفة الموضوع ، بل ان الذات لا تستطيع ان تعي نفسها الا من خلال وعيها ومعرفتها للاخر . فكل نضال هو علاقة بين طرفين ، وكل طرف يتقدم بقدر امكاناته في معرفة الآخر واعداد نفسه وتحريكها انطلاقا من هذه المعرفة .

ب ــ ان الصهيوني لا يدافع فقط عن اوهام او مجموعة اكاذيب ابتكرها وخلقها من اجل الوصول الى مصالح معينة ، بل يدافع عن قناعات يقاتل من اجلها ويموت . نحن نعتبر اقواله جملة اكاذيب وتضليل لكنه هو يعتقد انه يدافع عن الحقيقة والعدالة والكمال . فالايدولوجيا الصهيونية مضللة موضوعيا تكتسب التاريخ وتعالجه من خلال معطياتها هي لا معطيات التاريخ ، لكن ذلك لا يعني ابدا ان الصهيوني كاذب واع ، فقناعاته راسخة ومتينة ولا تقل ابدا عن قناعة الفلسطيني بعدالة قضيته . فما هو كاذب بالنسبة لنا معيار الصدق بالنسبة له، ومنطلقاتنا الوطنية لا يراها اكثر من حملة تلفيقات قادها عقل معين كاره « للسامية » . ومفهوم العدالة دائما مجرد ونسبي يتقدم ويتراجع ويراوح تبعا لموازين القوى المسيطرة . فالصهيوني مناضل عقائدي ويجب اعتباره كذلك . والا فلماذا نصارعه منذ اكثر من نصف قرن !!

البير ميمي : يهودي عربي، عاش في تونس حتى مطلع شبابه، ناضل في صفوف القوى الموالية للشيوعية ضد الاحتلال الفرنسي لتونس ، أو كما يقول « بقلمه تارة

ويجسمه تارة اخرى » · ارتحل بعد ذلك الى فرنسا حيث أنهى دراسته الجامعية، ثم جاء موقف الاحزاب الشيوعية من اسرائيل في بداية الخمسينيات ليبعده نهائيا عن الفكر الشيوعي ويلقي به في بؤرة الفكر الصهيوني ، فأصبح صهيونيا يساريا على حد قوله ودار في مدار جان بول سارتر وألبير كامو ، وداعيا نشطا للصهيونية باعتبارها اداة تاريخية لتحرر الانسان اليهودي المضطهد تاريخيا · قام بجملة ابحاث او ان صح القول بابحاث مسهبة عن مقولة « الانسان المضطهد» والتي تضم اليهودي والبروليتاري والمرأة .والانسان الاسود والمستعمر ، بل انه يقول ان دراسة شروط اضطهاد اليهودي هي التي قادته لدراسة كل اشكال الاضطهاد في العالم وفي التاريخ · كتب في جملة مواضيع · في الرواية «آجار » و « العقرب » و « الصحراء » · في مقولة الانسان المضطهد « صورة المستعمر » الذي كتب مقدمته سارتر ، و « صورة اليهودي » و « تحرير اليهودي »و « الانسان المقموع » و « عرب ويهود » · كما كتب « انطولوجيا الادب الغربي » و « الانسان الفرنسي والعنصرية » و « عودة الارض » · وآخر كتبه « الارض الداخلية » · يعمل ألبير ميمي استاذا في جامعة باريس ومستشارا ثقافيا لدى ماسبيرو والمطبوعات الجامعية الفرنسية P.U.F. ويعتبر اكثر كتاب الحركة الصهيونية غزارة وشهرة ، ولا يقتصر نشاطه على فرنسا بل يشمل كل بلدان اوربا الغربية· وترجمت كتبه الى لغات عدة ·

يتملك ألبير ميمي تاريخ اليهود وادبهم و « تاريخ اللاسامية » ويتسم بمعرفة واسعة للتاريخ العربي والادب العربي · لذلك يعتبره الصهاينة اكثر منظريهم قدرة على الاقناع ومعرفة « للوقائع » ·

وسنرى الآن جملة اطروحات أ· ميمي ضمن اطار بحثنا المحكوم بالصراع الفلسطيني ـ العربي / الاسرائيلي ـ الصهيوني وهي ما هو : اليهودي ، اليهودي العربي ، الصهيوني ، اليساري الصهيوني ، وان كان منطق ميمي يرى في اليساري رديفا للصهيوني او يعتبر الصهيوني الحقيقي يساريا بالضرورة ·

اليهودي : ينطلق ميمي من تجربته كيهودي ، كفرد عاش مضطهدا · ثم يعكس تجربته على « الشعب اليهودي » مستبطنا في الوقت نفسه تجربة هذا « الشعب »· اي يعبر عن ما يسميه كارل يونج « بالوعي الجمعي » · يبدأ من حياته الخاصة والتي يراها تعبيرا نمطيا عن حياة اليهودي النمطي ، فهو كمضطهد يعيش الاضطهاد العام لليهودي ، اذ ان كل يهودي مضطهد بالضرورة ، اي انه بالتعبير عن تجربته يعبر عن التجربة الجمعية لليهود ، يستعيد التاريخ كيهودي ، يراه من خلال ذاته وعالمه الخاص فيتراجع التاريخ وقوانينه الموضوعية ولا يتبقى منه الا فراغ زماني يدور فيه اليهودي واللايهودي · بحيث يمكن الحديث عن اسطورة اليهودي واسطورة اللايهودي في اضطهاده لليهودي وميثولوجيا الشرط

اليهودي في التاريخ · ان اضطهاد اللايهودي لليهودي دفع بالاخير الى وضع اجتماعي ونفسي معين ، فأصبح له سمات خاصة ومعايشة خاصة ، لنر ما هي قسمات الوجود اليهودي والتي يشرحها أ· ميمي عبر اكثر من الف صفحة · **التعاسة في ان تكون يهوديا** : الوجود اليهودي تعاسة ، والتاريخ جعل من التعاسة ظلا ملازما لليهودي · فكل يهودي تعيس حياته المعاشة بشكل مباشر ، بسبب شكل العلاقات الاجتماعية التي تحدد هويته وحياته ، فتاريخ اليهود ليس الا تاريخ اضطهاد اليهود ، تاريخا تنعدم فيه العقلانية والسوائية ، يتلاشى منه ما هو عادي ، ما هو انساني ، ولا يبقى الا الاضطهاد ، فاليهودي لا يعيش التاريخ الا مضطهدا ، موقع ينصب عليه اضطهاد المجتمع في مأزقه التاريخي ، فهو لا يعيش كذات ، كانسان له قسمات وحقوق بل اداة تنفيس لكراهية المجتمع بحيث يصبح دوره تحمل اضطهاد الآخرين كلما انطلقت فيهم حواس العنف والعدوانية · **فالدور الوظيفي لليهودي في التاريخ هو تحمل الاضطهاد** · لذلك لم يعش اليهودي تاريخه القومي الا نادرا ، ولم يفعل في التاريخ كذات حرة ، فهو عنصر بشري منفعل يتكون ويتشكل تبعا لقانون الاضطهاد الفاعل ، فالشهيد والمصلوب والذبيح والمضطهد يكمن في اعماق كل يهودي ان لم يكن قد تحول الى عادة وقانون نفسي وبنيان يعمر كل انسان يهودي ، يتحمل الاضطهاد ونادرا ما يتمرد واذا تمرد زاد اضطهاده · **فالشرط التاريخي للوجود اليهودي هو شرط بؤسه التاريخي** : اضطهاد وبؤس وتمرد بائس :

يقول الروائي فاسرمان : « عندما يكون اليهودي خاليا من الهموم عليه ان يخلقها » ·

وباسترناك يتكلم عن « اليهودي المنجرف دائما بهمومه » · اما اينشتاين فيتحدث عن « قلق الفرد اليهودي » والفيلسوف جانكليفتش ينوه الى « شعور الغربة عند اليهودي والذي هو تجربة يومية » والمؤرخ جول ايزاك يشير الى « عذابات اليهودي المستمرة » ·

يعيش اليهودي دائما في رعب بارد وترقب ممض وحذر قارض ، ماضيه يسيطر على حاضره ، واذا كان الماضي مرادفا للبؤس فعلى الحاضر ان يكون ذلك حتى لو بدا مطمئنا، اعطى التاريخ اذن **بنيانا يهوديا متميزا** يحمل التعاسة فيه كمعطى ضروري وعادي · فاليهودي اما ان يعيش ذعرا موضوعيا قائما او يعيش ذعرا مرتقبا ، ينوس بين المعاش والمرتقب وغياب الاضطهاد واقع غريب عن وضع اليهودي وتاريخه · هرتزل عاش قضية دريفوس واينشتاين اللاسامية الالمانية وأ· ميمي جحيم الحرب الكونية الثانية ·

ولد هذا التاريخ المتميز واقع الخوف ، فاليهودي يخاف من العالم ، ويخاف من نفسه كيهودي ، فيهوديته تشد اليه كل اشكال الاضطهاد ، لذلك فهو يدين

نفسه وحياته الخاصة ، يقبل واقعه كانسان عليه ان يقبل الاضطهاد ، ويصيغ حياته كي تتماشى مع بؤس الواقع على اعتبار ان البؤس واقع عادي خاص بكل يهودي . فتميز اليهودي هو تميز اضطهاده .

لا يخضع اليهودي للتحديد بل الى ما فوق التحديد ، اي لا يعامل كانسان ، لا يحدده الآخرون كانسان ، بل كيهودي . ومعنى ذلك ان سلوك الآخرين ومواقفهم منه لا تساير القانون الانساني ، فاليهودي مطرود بالضرورة من دائرة الانسان ومحاصر في دائرة اليهودي وعليه ان يعي ثلاثة حقائق تشكل خصوصية الوعي اليهودي :

أ ـ تعاسة اليهودي اكيدة ومطلقة .
ب ـ لا يمكنه الا ان يكتشفها ويعيشها .
ج ـ لا يمكنه ان يتجنبها او يصححها .

يرسم أ. ميمي بذلك كلية البؤس لدى اليهودي ، وديالكتيك الاضطهاد والتعاسة والبؤس الذي لازم اليهودي خلال تاريخه .

القلق اليهودي : يدفع الخوف من الامس واليوم والغد اليهودي الى قلق متواتر ومستمر ، شأنه شأن كل انسان مباح ينسحق تحت الايدي الغليظة كلما ارادت ذلك ، فالقلق يسير في دمه وعروقه وجزء من طبيعته . واذا اراد اليهودي ان يتوازن فعليه ان يحلم ، لا يستطيع التوازن في الواقع لذلك يبحث عنه في اللاواقع في الحلم ، تصعيد وارتقاء قسري بين لعبة الحلم والواقع ، فيقذف نفسه في المستقبل بانتظار التجاوز الممكن الذي سينقله من وضع اليهودي الى وضع الانسان . لذلك فقد شكل قيام اسرائيل الشرط الضروري لتوازن اليهودي على المستوى النفسي ، فاسرائيل ليست مجرد الشكل السياسي لحركة تحرر وطني بل هي ايضا الرافعة القادرة على اعادة اليهودي الى توازنه المطلوب والمجسدة لقدرة اليهودي على تجاوز شرطه كمضطهد . لم يكن حلم اليهودي سكونيا بلا دلالة ، ضائعا ، انه كل ينقذف باستمرار نحو المستقبل من حيث هو يوتوبيا الخلاص المنتظر . **واسرائيل هي تركيب الحلم واليهودي والاضطهاد .**

يتحرك ويمور ابدا من كان شعور الخوف ملازما ومحايثا له ، تصبح الحركة المستمرة رد فعل بسيط لتخفيف التوتر ،والقلق يعطي اليهودي حركته المستمرة بمعناها الواسع ، لا يتخذ وضعا سكونيا ابدا كما لاحظ آرثر كستلر ، فالحركة ملازمة لليهودي حتى في حياته اليومية البسيطة ، بحيث يمكن التكلم عن التأسل Atavisme اي ان اضطراب اليهودي وقلقه المستمرين في التاريخ استحالا الى صفة بيولوجية ـ اجتماعية متوارثة ، فاليهودي يرث الاضطهاد والقلق والحركة المستمرة كشاهد مباشر ويومي على القلق والخوف .

اليهودي متهم بشكل مسبق في كل زمان ومكان ، متهم بلا تهمة ، يعامله الآخرين ويعامل نفسه كمتهمويتصرف كذلك متسما بالدونية والاسترضاء ولاهثا وراء نفي التهمة مستحيلا الى سلوك وكيان مشوهين · يتساوى في ذلك اليهودي التونسي واليهودي الفرنسي ، الاوربي واللااوربي ، وليس الاتهام والاتهام الذاتي صفتين ميتافيزيقتين بل يعاشان اجتماعيا ويوميا · فالقلق والخوف هما القاسم المشترك الاعظم لحياة اليهود ، كل اليهود · يعيش اليهودي من وزر ذلك وحدة داخلية ، عزلة ، لا يفهم هذا الوضع الا من يعيشه ، لا يفهم اليهودي وكونية اضطهاده الا اليهودي ، فالفرنسي يعتقد ان اللاسامية لا وجود لها في بريطانيا ، والبريطاني يظن انها غائبة في فرنسا ، مع انها في الحقيقة قائمة في فرنسا وبريطانيا سواء اعترف بذلك ام لا ·

اللاسامية كونية ومتعددة الاشكال : لا سامية الفقراء ، ولا سامية الاغنياء ، لاسامية المضطهدين والمضطهدين، لا سامية شعبية ورسمية وشبه رسمية ،واخرى تتواجد عند التجار والمتعلمين والفنانين · فكل شعب وطبقة وزمرة اجتماعية لها لا ساميتها الخاصة بها ، وهي بذلك لا تتشرط بموقف طبقي ولا بشروط اقتصادية بل هي ارث تاريخي كوني · وليس الحديث عن الديمقراطية القائمة او المحتملة الا وهما يتواجد لدى السذج واصحاب الارادات الطيبة · فهناك كنيسة مثالية بالقوة (بمعنى ارسطو ومجتمع بروليتاري قادم حيث يتلاشى الاضطهاد،أي أن الكنيسة التي تنادي منطقيا بالعدالة والتاخي لا وجود لها فعلا وبقيت مجرد فكرة أو حلم · شأنها شأن المجتمع الذي بشر به كارل ماركس ، لكن ذلك مجرد حلم جميل يجتره العقل الانساني حتى يظنه قائما او قادما لكنه بعيد كل البعد عن التحقق ·

اضطهاد اليهود ظاهرة تاريخية منذ ايام ابرهيم وذبح الاطفال في مصر حتى مجازر النازيين مرورا باختناق اليهودي في جيتو البلدان الاوربية ، انه قانون دوري ، هناك دورية وتناوبية اضطهاد اليهودي ، وليست المائة سنة الاخيرة الا تدليلا على ذلك ، ففي عام ١٨٨١ ادى مصرع القيصر اسكندر في روسيا الى موجة اضطهاد وترحيل ، وفي عام ١٩٠٣ جرت مذابح كيشنيف التي هجرت ١٥٠٠٠ يهودي الى فرنسا ، كما ادى اضطهاد اليهود في تركيا الشابة ١٩٠٨ ــ ١٩٢٤ الى خروج ١٥٠٠٠ يهودي ولجوئهم الى اوربا · يضاف الى ذلك اضطهاد النازية لليهود الالمان والتشيكيين والبولونيين ···

ان شخصية الانسان اليهودي قد تشكلت خلال هذه التجربة التاريخية والجغرافية ، الحكومية والشعبية ، اليومية والتاريخية ، العلمانية ، الدينية ، المدنية ، والعسكرية · فهناك عصاب قديم سكن الشخصية اليهودية ، يتوالد ويتنامى ليجعل من اليهود كيانا يدور حول ذاته ويهوديته ·

موضوعية المشكلة : تتواجد اللاسامية في كل مكان ، والحديث عنها ليس مجرد وهم او تصور ذاتي لانسان ذاهل ، قائمة بكل شجريتها وتفرعها ، فجة تارة ، مهذبة او نائمة تارة اخرى ، مباشرة او لا مباشرة ، لكن ذلك لا يغير شيئا ، فهي جزء عضوي من العادات الجماعية ، من الثقافة الجماهيرية ، صخرة متماسكة تشرخ وجه اليهودي بحيث لا يحلم احد بتحطيم صخرة اللاسامية • ان ذلك يؤدي الى حقيقة موضوعية ـ يهودية : عندما ينسى اليهودي اللاسامية ينسى نفسه كيهودي ، فهو لا يتعرف الا كموضوع اضطهاد ، كموقع للاسامية ، فاليهودي واللاسامية وحدة متماسكة كلاهما يعرف الآخر ويشير اليه • بل يمكن القول ان اصدقاء اليهود انفسهم يحملون لاسامية رقيقة تتجلى بالسلوك والكلمات والاقوال ، تشي بصاحبها وان لم يرد ذلك • معنى ذلك ان الكل الاجتماعي يشكل جوا كارها ونافيا لليهودي ، وان كل انسان شاء ام ابى يشارك في عملية اضطهاد اليهود بفعله او بصمته • واللاسامي قائم مشخص يحدده علماء النفس كما يلي : شخصية خاصة قاسية ضيقة الافق محكومة بعقدة الخوف ، انه موجود والمجتمع يسمح له بالوجود وبممارسة لاساميته والتي هي ليست ظاهرة خاصة بل نتاجا طبيعيا وافرازا لواقع ملموس • فاللاسامي هو لاسامي مجتمع ما ، وعنفه وكراهيته واتهاماته ليست الا الارادة القاتلة لمجتمع اللايهودي • **اللاسامية مرض اجتماعي** •

التفرقة : تعني اللاسامية والاضطهاد المنبثق عنها اغتراب اليهودي عن الآخرين ، له عالمه المظلم ووحدته ، لا يفهمه احد ولا يستطيع اجبار الغير على فهمه ، فالتواصل بين اليهودي واللايهودي مستحيل ، هناك فرق بينه وبين الآخرين لانه ليس كالآخرين • الكنيسة تضطهده والدولة والشارع • انه مكروه وكاره ، موقف بموقف ، عند ذلك يصبح اليهودي موضوع نفي واتهام وتمييز وتفريق ، **اليهودي شيء خاص** • ان تكون يهوديا هو ان تنفصل عن نفسك وعن الآخرين ، ان تعتبر نفسك مفترقا عنهم ، لك حياة موسومة بالشك والقلق والاختلاف مع / عن الآخرين • يعيش اليهودي ضمن معادلة انا والآخر ، اليهودي واللايهودي ، له جزيرته الخاصة ، الجيتو الذاتي • لكن الفرق بين اليهودي وسواه ليس عملية ساكنة جامدة ، فهي تنمو وتغتني باستمرار ، عملية مستمرة يكتشفها اليهودي ويكتشف ذاته من المهد الى النهاية ، يكتشف ذلك في الشارع والمدرسة والمعمل من خلال آلاف اصابع الاتهام والرفض الممتدة اليه في عالم كافكاوي الصفات : لا معقولية الاتهام والمحاكمة • لكن الاختلاف والافتراق مردودان اجتماعيان لمجتمع اللايهودي • يقول بوليكاروف المؤرخ اليهودي :

« يرتبط اضطهاد اليهودي في المجتمع الغربي بالقيم العليا لهذا المجتمع ، والاضطهاد يقع باسم هذه القيم عينها ، لذلك فان لوم المضطهد ومحاسبته باسم المسيحية لا تعني حسب قول فرنسوا موریاك الا اتهام هذا المجتمع وقيمه » •

الفـــرق :

يفترق اليهودي عن غيره مهمـــا كان وضعـــــه الاجتماعي ـ الاقتصادي ، فالرأسمالي اليهودي يفترق عن الرأسمالي اللا يهودي ، والمتعلم اليهودي عـــن نظيره وكذلك البروليتاري، فالمكروه في الرأسمالي اليهودي ليس وضعه الاقتصادي بل يهوديته وكذلك حال المتعلم والعامل· يضطهد اليهودي في الرأسمالي واليهودي في البروليتاري ، لانه لا يرى اولا واخيرا الا كيهودي · يتراجع الانسان اليهودي بمميزاته الفردية وممارساته الاجتماعية ولا يبقى منه الا يهوديته اي موقع وسبب اضطهاده · يصبح تعريف **اليهودي اذن هو الانسان المختلف عن غيره والمتعارف على انه كذلك** ، والاختلاف والتفارق والحالة هذه يستدعي سوء الظن وعدم الثقة ويجعل منه اداة تقبل واقعها البائس على انه شيء عادي ، لا يخوض صراعـــا وان خاضه كانت نتيجته الحتمية هي الفشل · يقودنا هذا الى الية اضطهـــاد اليهودي المستمرة · فالمجتمع يخلق الفرق بين اليهودي وسواه فيصبح كذلك ، لكن المجتمع لا يلبث ان يكره اليهودي من جديد لانه مفترق عن الآخرين ، يكره الفرق بينه وبين غيره فيزداد اضطهاده له · فعملية الاضطهاد وتطورها يفرض شكلها المستمر اللا يهودي ويعيشها اليهودي دون ان يستطيع حيالها شيئا · لكن اللا يهودي يرى في هذا الفرق تبريرا لاضطهاده ، فالاضطهاد هو احتجاج ضـــد وضع اليهودي المتميز الذي خلقه المجتمع وكرهه فيما بعد ·

حتى يعيش اليهودي واقعه بشكل عادي ـ بدون اضطهاد ـ يعمل على محو الفرق وتقريب المسافة بين نفسه وغيره ، اي ينفي ذاته كيهـودي وينزلق فـــي كوزموبولتية قسرية ومغتصبة من اجل ارضاء الآخر ، ينفي ذاته وواقعه ويجمّل الآخر ، مؤكدا بذلك شخصية المضطهد وماحيا نفسه كمضطهد · لكن حتى هـــذا الفعل لا ينقذ اليهودي فيعود الى نفسه من جديد باحثا عن الحل ·

بما ان اليهودي اصبح اخيرا مفترقا عن غيره فله الحق في الاحتفاظ بهـــذا الفرق والنضال من أجل الحفاظ عليه لانه يشكل جوهر هويته التاريخيـــة · ولا يمكن ان يصبح اليهودي حرا الا عندما يرى في تفارقه عن الآخرين امرا موضوعيا، عندها يناضل من اجل الحق في الفرق · **فتحرر اليهودي هو حقه في ان يكـــون يهوديا اي متميزا عن سواه** ، ورفض مفهوم الفرق يعني استمرار اضطهـــاد اليهودي وسلبه صفته التاريخية المميزة له عن غيره · فوعي اليهودي والانسان بشكل عام هو وعيه ككيان مفترق · فالفرق اساس الوجود ·

الاتهام : اللا سامية نفي لليهودي ، لكن اليهودي في تفارقه عن الآخرين يثبت نفسه ، فهو ليس مجرد نفي بل اثبات في الوقت نفسه ، ولو كان محض نفي لمـــا استمرت اللا سامية واخذت اشكالا جهنمية · ان اتهام اليهود واضطهادهــــم دفع به الى عزلة ووضع بعيد عن المجتمع ، التقوقع حول الذات ، الا ان اللاسامي

يرى في عزلة اليهودي امرا طوعيا لا نتاجا لحصار المجتمع للانسان اليهـــودي فيزداد اضطهاده معتبرا ان اليهودي يتمايز ويبتعد عن غيره بشكل ارادي ٠

اذا رجعنا الى آلية الاتهام استطعنا رؤية الصورة البيولوجية والاقتصاديـة التي الصقت باليهودي خلال تعاقب الزمن ٠ فلكي يبرر الاضطهاد نفسه كان عليه ان يخلق صورة خاصة لليهودي جديرة بالاضطهاد ومسوغة له ٠ معنى ذلك ان صورة اليهودي الشائعة في الكتب والشارع مجرد محـــض اختلاق وجزء مــن ميثولوجيا اليهودي ٠ ولم يبدأ هذا الاخير بالنظر الى انفه المعقوف الا عندمـــا نبهته اللا سامية لذلك وخلقت له صورة متميزة بيولوجيا واقتصاديا ٠

يرى اللا سامي في اليهودي كيانا بيولوجيا متميزا بأنفه المعقوف وفمه اللحمي الواسع ووجهه اللامتسق ٠ يقول هنري ميلر « انني بشع كيهودي » وعندمـــا يريد اناتول فرانس وصف انف بطله يقول « له انف يهودي » ٠ وان هذه الصورة محض خلق للوعي المجمعي الكاره لليهود ،فليس في اليهودي ما يميزه بيولوجيا في رأي جوليان هكسلي وكل ادعاء مغاير لذلك يعبر عـــن موقف اجتماعي مـــن اليهود : فليست بيولوجيا اليهودي هي التي تصنـــع اليهودي ، ولا قسماتـــه السيمائية هي التي تحدده وتخصصه وتكشفه ، لكن الفكرة المنتشرة عن اليهودي هي التي تفترض وتفرض فكرة معينة عن بيولوجيا اليهودي ٠

اذا عـدنـا الى صـــورة اليهـودي الاقتصاديـة لوجدناهـا كما يـلـــي : اليهودي جشع ، بخيـل ، يكره العمل الجماعي ، ويعطي كل ذاته من اجل الربح والمال ٠ لكن الواقع يكذب ذلك فهناك رأسماليون يهـــود وبروليتاريون كذلك ، والرأسمالي اليهودي لا يختلف اطلاقا عن نظيره الانجليزي او البرتغالي ٠ معنى ذلك ان صورة اليهودي الاقتصادية ليست اقل ضلالا من صورته البيولوجيـــة المدعاة ٠ مما لا شك فيه ان الانسان اليهودي قد استفاد من تفسخ وانهيـــار المجتمع الاقطاعي وظهور مجتمع آخر اكثر ديناميكية وليبرالية وحركة ٠ فالقانون المسيطر في المجتمع الرأسمالي ، قانون البيع والشراء ترك مجالا واسعا لمبادرة الانسان اليهودي وحركته الاجتماعية ٠ اذا اضفنا الى ذلك لاسامية المجتمـــع لوجدنا ان المتنفس الوحيد والطبيعي لليهودي هو المجال الاقتصادي حيث يغيب عنصر الدين والعرق ولا يبقى الا العرض والطلب ٠ هناك اذن ضرورة اجتماعية ـ حياتية تدفع باليهودي الى مجال معين من العمل ، وهذا يدحض الادعـــاءات القائلة بأن هناك تطابقا بين الروح اليهودية وروح الرأسمالية ، كما يدحض فكرة اخرى عن « الشعب اليهودي » وهي الشعب ـ الطبقة ، حيث يتربع اليهودي على سرير ذهبي بينما يموت الشعب جوعا ٠ ان كل ما يمكن ان يقال في هذا المجـال هو ان شروط حياة اليهودي ولدت ميلا باتجاه بلورة وظيفة اقتصادية محـددة

لليهود دفعتهم نحو وضع متوسط اقتصاديا ، الطبقة الوسطى لا اكثر ٠ فثلثي اليهود في رأي روبلن يعملون في مجال اقتصادي واحد والثلث الاخير في مجالات متعددة ٠ ويخضع اختيار اليهودي لمهنته الى وضعه القلق تاريخيا ، فهناك كما نعلم موجات الهجرة اليهودية المستمرة ، من المانيا الى أمريكا ، ثم من اوربا الوسطى الى اوربا الغربية ، من بلدان اوربا الشرقية الى مناطق مختلفة ، من شمال افريقيا الى فرنسا ٠ وهذا المهاجر المستمر لا يحمل اكثر من قوته ومهارته، ويمكن ان يعمل تاجرا او موظفا او عاملا ، لكنه ينحى دائما باتجاه الحصول على عمل حر او مهنة مستقلة تبعده عن اضطهاد الآخرين ٠ معنى ذلك ان الوضع الاقتصادي لا يشكل المحدد الاول والاخير لصورة اليهودي بل يشكل احد العوامل في صياغة شخصية اليهودي ووضعه ٠

اليهودي العربي : يعتقد بعض الاوربيين ان اليهودي في البلدان العربية، وحتى قيام اسرائيل ، عاش فردوسا عز له نظير ، سحر الشرق وشمسه ، لكن الواقع يقمع الخيال ويعيد تركيب الامور ، فهو لم يكن اقل بؤسا من غيره وان لم يكن له جحيمه الخاص العربي الصفات ، محاصر في وسط اجتماعي يمقته يعتبر اضطهاده فضيلة ٠ لقد كان وضع اليهودي في البلدان العربية هشا ، سريع الكسر ، مهددا باستمرار وعرضة للقمع والتنكيل في المناسبات وغير المناسبات ، يعتبر أقل من الانسان واقل من الانسان العربي بالضرورة ، فهو يهودي بين مسلمين ، اي لا مكان له الا اذا قبل سلوك وقانون وأعراف المسلم ٠ لم يكن طموح اليهودي بين العرب اكثر من السلام والحفاظ على حياته لكن ذلك لم يكن متيسرا وحياة اليهودي لم تكن اكثر من مأساة مستمرة بين العرب وبسبب العرب ٠

انطلاقا من هذا علينا ـ اي أ٠ ميمي ـ تبديد بعض الاساطير المنتشرة في الغرب عن يهودي البلدان العربية والتي تشكلت للاسباب التالية :

١ ـ الدعاية التي قام بها العرب بعد قيام اسرائيل والتي تقول ان يهود البلاد العربية قد عاشوا بوئام كامل مع العرب ، وانهم لم يحلموا ابدا ببناء دولة خاصة بهم ، وان مأساة الشرق الاوسط تعود الى اليهود الاوربيين ٠ مثل هذا الموقف يخالف الحقيقة ٠ فاليهود العرب لم يثقوا يوما بالمسلمين وحلموا باستمرار بارض اسرائيل اكثر من اخوانهم البولونيين او الروس ٠

٢ ـ لموقف اليسار الاوربي من العالم العربي ٠ فاليسار الاوربي لم ينتبه لعلاقة العرب باليهود العرب ، واكتفى بالنظر الى العرب كشعب مستعمر يناضل من اجل حريته ٠ يضاف الى ذلك موقفه المعادي للصهيونية لانها لا « تعجب » الاتحاد السوفييتي ٠

٣ـ جهل المؤرخين الاوروبيين‌بما فيهم اليهود بوضع اليهود في البلدان العربية٠ فاضطهاد اليهود لا يعني غالبا الا المذابح النازية ، بينما الحقيقة تقول ان مذابح اليهود في البلدان العربية تفوق مذابحهم في المانيا وروسيـا وبولونيا مجتمعة ٠ وهي ان لم تأخذ شكلا فاقعا فقد اخذت شكل مذابح صغيرة متصلة ٠

٤ ـ سذاجة بعض اليهود المعاصرين الحالمين بتعايش سلمي قريب مع جيرانهم العرب ، هذه السذاجة تدفعهم الى تشويـــــه صورة الماضي ورؤيته ناصعا ٠ فالتاريخ العربي ـ اليهودي في رأيهم كان عامرا بالمحبة والتفاهم ٠

٥ ـ يرتبط العامل الاخير بسيكولوجيا اليهودي العربي الذي ترك وطنه مجبرا، فهو يحلم باستمرار بالشرق وجماله ، وهذا الحلم يدفعه لتجميل صورة الماضـي واقصاء وجهه البشع الحقيقي ٠ ان تاريخ اليهود العرب لم يكتب ويسجل بكـــل دقائقه بسبب عدم وجود مؤرخين يهود عرب ٠ ونبش هذا التاريخ كاف لاظهــار عذابات اليهود في اتون المجتمع الاسلامي ٠

قد يرد العرب على هذا المنطق بالتذكير بمذابح دير ياسين وغيرها ، ان جواب اليهودي جاهز وسليم فقد تعرض الى مائة دير ياسين في البلاد العربية ٠ ان ذلك يعني ان وجود اسرائيل لم يأت فقط نتيجة لاضطهاد اليهود في البلدان الاوروبية والراسمالية وانما جاء ايضا تجسيدا لتطلعات اليهود العرب الذيـــن كانــوا يتطلعون بشوق الى بلد يهودي والى دولة يهودية مستقلة ٠

يقول العرب انهم مستعدون لقبول اليهود العرب ومنحهم الشروط الضرورية للعيش بسلام وكرامة ، وهم اي العرب لا يرفعون صوتهم وسوطهم الا ضد اليهود الذين قدموا من خارج البلاد العربية ٠ ان مثل هذا الموقف يمكن دحضه واغراقه بسهولة حتى بمنطق حسابي بسيط ٠ فاليهود القادمون من البلاد العربية يشكلون نصف سكان اسرائيل ـ مليون وثلاث مائة الف ـ فاذا اضيف الى ذلك ابنـــاء اليهود الغربيين الذين ولدوا في البلاد يرتفع عدد السكان الاصليين ، اي الذيــن نموا وولدوا في « العالم العربي » الى ٧٥٪ من مجموع السكان ٠ وهذا يعنـــي منطقيا ان اليهود يعيشون في ارضهم وبلادهم كسكان شرعيين لا كغزاة ٠ لكــن شرح قيام دولة اسرائيل لا يستقي شرعيته وموضوعيته من هذا الحساب الساذج بل من واقع آخر اكثر شمولية وعقلانية ٠ فاسرائيل هي المحصلة الشرعيـــة والضرورية لاضطهاد اليهود على المستوى الكوني ، العالم كله بما ذلك العالـــم العربي ٠

واخيرا للوصول الى تعريف دقيق لليهودي يمكن ان نقول ان اليهودي هـــو ذلك الذي يعيش وجوده كوجود مضطهد وينتمي الى ثقافة معينة جعلتها خصوصية الوجود اليهودي في التاريخ ثقافة مغتربة ٠

الصهيوني : تشوه شروط الاضطهاد اليهودي وتجعل تكامله الاجتماعي مستحيلا ومشوها ، فاذا رفض الاضطهاد وحافظ على هويته بقي غريبا مهجورا على ضفاف المجتمع وان قبل الاندماج ودفع نفسه اراديا في هذا الاتجاه بقي مشوها ومغتربا ايضا ، لانه في الحالتين لا يعبر عن ارادة حرة · وآلية الاضطهاد المستمرة لا تسمح له بأي تفتح سليم · والنتيجة المنطقية لذلك هو بقاء اليهود جزيرة معزولة في محيط المجتمع اللا سامي حيث يتكلس اليهودي وثقافته او تأخذ ثقافته وشخصيته طريقهما الى الاضمحلال والتلاشي بآلات عملية قمعية · لكن لا الحالة الاولى ولا الحالة الثانية جعلت اليهودي متوازنا ، فقد بقي يدور في دوامة مستمرة ، واستطاع في حالة الاندماج او غيابه المحافظة على يهوديته ، بل ابتكر وسائل لا متناهية للحفاظ على هذه اليهودية ، ودفع في عملية اثبات الذات هذه الكثير حتى وصل الى وضع تاريخي يستطيع فيه ان يغير من طبيعة العلاقة بين اليهودي واللا يهودي · فقد اثبت التاريخ ان اليهود مضطهدين كشعب ولهم تميزهم الخاص الذي يخولهم البحث عن سبيل مشروع من اجل تحرير ذاتهم ، فهم مضطهدون كشعب ولا يمكن تحريرهم الا كشعب ايضا ، كما استطاع البحث المستمر عن الحرية والتحرر ان يدفع السيماء القومية للشعب اليهودي نحو التفتح والنهوض ·

دفع القرن العشرين الكثير من الشعوب الى التحرر واعطى امما جديدة · والشعب اليهودي يندرج في صف الشعوب المتحررة حديثا ، تحرر ذو بعدين وسمتين تخصان قدر الانسان المعاصر · فاليهودي يدخل في مقولة الانسان المضطهد بشكله العام ، في مقولة البروليتاري والاسود والمستعمر والمرأة ، لذلك فان تحرره يترابط مع التيار العام للانسان المضطهد الذي استطاع خلال نضاله الطويل ان يدفع بالشروط التاريخية باتجاه تحرره واثبات ذاته · يضاف الى ذلك ان القرن العشرين اعطى مجموعة من الامم الجديدة في آسيا وافريقيا ،والتي خلقت شخصيتها القومية خلال نضالها ضد المستعمر والمضطهد · واسرائيل هي التعبير السياسي عن نمو وتأكد الشخصية القومية اليهودية وهي لا تعبر عن مواطني اسرائيل فقط بل تشكل جزءا عضويا من قدر كل يهودي في هذا العالم · انها الرمز القومي لليهودي والموضع الذي يتجه اليه عندما يشعر بالخطر ، الملاذ الذي يحمل اليه الراحة ويعطيه التوازن النفسي والقدرة على اثبات ذاته كانسان ·

ضمن هذا الاطار التاريخي ـ الانساني يمكن تعريف الصهيوني بما يلي :

الصهيوني هو ذلك الانسان اليهودي او اللا يهودي الذي عاين الشرط اليهودي كشرط مضطهد ، كوجود مقموع ، والذي يرى ان قيام الدولة اليهودية امر شرعي بغية ايقاف الاضطهاد واعطاء اليهود كغيرهم من الشعوب بعدا

تحرريا ، كي يمسكوا قدرهم بيدهم ويستحيلوا الى وجود عادي ٠

فالصهيونية هي اذن موقف انساني عام ــ ومعنى ذلك ان اي يهودي مهما كانت درجة اندماجه الاجتماعي صهيوني بالضرورة الا اذا كان مناهضا لقضية الانسان وتحرره ــ وتشكل في الوقت ذاته التعبير السياسي لثقافة وشعب وقومية في طريق النهوض ٠ وتبعا لذلك تكون اسرائيل النتيجة الاولية لتحرر اليهود ، شانها شأن الحركات التحررية الاخرى سواء في البلاد العربية او آسيا او افريقيا ، والقاعدة الاولى لبناء شخصية اليهودي المتكاملة واثباته كأي انسان آخر ٠

اليساري الصهيوني : لما كان اليساري مدافعا عن قضية الانسان المضطهد ، فالصهيوني اذن لا يشذ عن هذه القاعدة بل يؤكدها ٠ قد ينطلق هنا مباشرة سؤال عن الشرط الفلسطيني كشرط مضطهد ٠ هذا صحيح ، لكن الوطن العربي واسع وقادر على ايوائهم ، واذا عدنا من جديد الى المحاكمة الحسابية نجد ان ٧٥٪ من سكان اسرائيل شرقيون ، يضاف لى ذلك ٠٠٠ ٣٠٠ يهودي تركوا المغرب والبلدان العربية الاخرى واستقروا في اوربا او اماكن اخرى ٠

يتمحور الموضوع هنا حول المشكلة القومية ، فاسرائيل لها حق البقاء كقومية والفلسطينيون لهم حقوق ايضا ، لكن صعوبة الحل وعدم وضوحه الآن تنجم عن الموقف الفلسطيني الذي لم يستطع حتى الآن التعبير عن موقفه بشكل عقلاني متزن ٠ فصيغة الدولة الديمقراطية العلمانية لا تعني موضوعيا الا مسح اسرائيل وتحطيمها ، فهي مرفوضة تماما ٠ لذلك فعلى الفلسطينيين ان يضعوا برنامجا واضحا محددا يصلح ليكون قاعدة للحوار والعمل ٠

لا ينطلق اليساري من العدم بل من الممكن واللاممكن تاريخيا ، يرى الواقع وامكانياته فيعانيه ليعمل حسب منطقه ، فاسرائيل وجود ملموس مشروع يستلزم تخلي الفلسطيني عن رومانسيته الثورية وفكره الصوفي والعودة الى الواقع وقبوله ٠ ودور اليساري ابراز هذه الحقيقة بكل تجلياتها لدفع الامور فعلا الى الامام للمساهمة في بناء السلام ، وتدعيم وجود اسرائيل التي جعلها العرب اليهودي الجديد في الشرق الاوسط ، كما ينبغي التذكير بان الصهيونية حركة اجتماعية وثقافية وقومية ايجابية ذات بعد اشتراكي يتجاوز كل ادعياء الاشتراكية العرب ٠

فالصراع اذن قومي في جوهره ، ويجب معالجته على انه كذلك بحيث يضمن الحقوق القومية لطرفي النزاع ٠ لكن اليسار التقليدي عاجز عن فهم قومية الصراع لجملة اسباب ، اهمها افتقاره الى مفهوم واقعي للقومية ، ونظريته اي الماركسية عاجزة عن تقديم هذا المفهوم لارجاعها كل الظواهر الى الصراع

الطبقي فقط ، يضاف الى ذلك الـدور الرسمي السوفيتي المناهض للصهيونيـة واسرائيل بالاضافة الى التقاليد اللا سامية في الاتحاد السوفيتي واثرها علـى مفهوم الشيوعيين للقضية · كل ذلك يكبح اليساري ويلجمه عن فهم موضوعي للنزاع · ان اليساري الصهيوني يمثل تصحيحا للتقاليد اليسارية الحقيقيـة ولا يشـذ عنهـا ·

x x x

التضليل والتاريخ : لا ينطلق ٠ا· ميمي في كل اطروحاته السابقة من التاريخ لبناء حقيقة موضوعية تستند في مصداقيتها الى التاريخ نفسه بل يستخدم هـذا التاريخ لبناء حقيقة خاصة به ولتبرير موقف سياسي ـ نظري جاهز بشكل مسبق فالتاريخ عنده حقل خاص لبناء اللا حقيقة او لاعداد حقيقة صهيونية ، وهـو بذلك يقوم بقراءة انتقائية ـ وظيفية للتاريخ · انتقائية لانها لا ترى التاريخ في موضوعيته وتناقضه وحركته المستمرة الكونية بل كاطار لانتقاء حقائق معينـة وتجاهل اخرى ، **اي انه يقوم بمونتاج للتاريخ لاعطاء فلم حدد موضوعه مسبقا**، يأخذ ما يدعم الحقيقة الصهيونية وينسى ما يحطم هذه الحقيقة وبالتالي فانـه ينتج اللا حقيقة التاريخية · فاذا عدنا الى القراءة الوظيفية لرأينا انها تـهدف الى تبرير وتسويغ الصهيونية نظرية وممارسة · وهذا يعني ان فهم التاريـخ بالطريقة الصهيونية يعتمد على مفهوم ذاتي ـ مثالي له يستلهم الايدولوجيـا الصهيونية لا معطيات التاريخ كحقيقة لا يمكن نقضها · فهناك قراءة للتاريـخ على ضوء الحاضر ومتطلباته ، فيصبح التاريخي في خدمة الحاضر وتختـزل ابعاده وسيرورته ليوائم ويطابق الحاضر الـذي هـو صهيوني بالضرورة · ان ٠ا· ميمي كغيره من ابطال المدرسة المثالية الصهيونية يحاول بناء مفهوم الامـة اليهودية او الامة الصهيونية من معطيات غائبة مما يدفعه الى اختراعها واخضاع التاريخ لمتطلباتها ، وهو بذلك يقتفي آثار سيمون دوبنوف ، فالتاريخ ليس كـلا عضويا معقدا بل تاريخ العذابات والاضطهاد والخلق الثقافي المستمر للشعـب اليهودي، رغم انه لا يمكن اطلاقا ارجاع تاريخ شعب الى تاريخ آلامه الا بواسطة لا عقلانية مسرفة ، اضف الى ذلك ان التكلم عن الآلام ككيان صوفي اسطوري يقتضي علميا دراسة الشروط التاريخية المشخصة التي ارتبطت بها تلك الآلام·

اول نتائج هذا المنطلق المثالي واكثرها مباشرة هي مقولة اليهودي العـام ، فالبير ميمي ، يحذف التمايز التاريخي والطبقي والاجتماعي ولا يبقى الا اليهودي العام كمطلق ارسطو ، فاليهودي لا يتعرف الا باضطهاده مجافيا بذلك الحقائق التاريخية · اضف الى ذلك انه ينزع اليهودي المضطهد من الجماعات البشرية المضطهدة ، فاليهودي لم يكن اكثر اضطهادا من غيره ، والتاريخ كله بصراعاتـه الطبقية او كغلاف للصراع الطبقي تم من خلال العلاقة التي تواجدت خلال الجسم

التاريخي كله بين المضهد والمضطهد ، ولا ضرورة لتمييز اليهودي عن سواه الا لدى منطق عنصري لاهوتي ، فاليهودي الروسي لم يكن اكثر اضطهادا من البروليتاري او الموجيك ، واليهودي الالماني لم يختلف مصيره عن الشيوعي الالماني ٠

ان الفكرة الموضوعية القائلة بان اليهود مثلهم مثل الفئات المضطهدة الاخرى سواء في الآلام وفي النضال لم تكن ترضي المنظرين الصهاينة بأية حال من الاحوال، فاندفعوا وراء مقولاتهم اللاهوتية عن « روح الامة اليهودية » و « الامة اليهودية العالمية » (احذروا الصهيونية ٠ ايفانوف ٠ ص ١١٦) ٠

اليهودي العام لا وجود له تاريخيا ، وهو كأي انسان آخر يستوي في الميزان الطبقي ، فهناك يهودي مضطهد وآخر مضطهد ، انه لا يدخل في الفضاء الاجتماعي الا كموقف طبقي لذلك فان اليهود الروس الاغنياء كما بين جان اليشتاين كانوا في مأمن مستمر ابان الحملات اللاسامية في روسيا القيصرية ، وقد وجدوا في كنف الطبقات الغنية المسيطرة حماية ورعاية مستمرتين ـ « اليهود في الاتحاد السوفيتي ٠ ج٠ اليشتاين ٠ Presse nouvelle » ٠

نرجع الآن الى موقف غير صحيح لالبير ميمي : اليهودي قضى تاريخه مضطهدا ولم يؤكد نفسه كانسان الا في ولادة اسرائيل ٠ تنفي الحقيقة التاريخية هذه الاطروحة المثالية والمغرضة ٠ لنقرأ رودنسون :

« كان اليهود ينظمون ويديرون انفسهم كيهود ، ويقدمون انفسهم للمجتمع كجماعة تعيش مع سواها من الجماعات الاخرى ، وكانوا يميلون الى البقاء كيهود ما دام ليس هناك سلطة قوية ترغمهم على التخلي عن هذا الميل ، وكان حجم التجمعات يتغير من خلال علاقته بجميع انواع العوامل ٠ ولم يحدث مطلقا ان جرت ممارسة ضغط شديد ودائم في جميع البلدان وفي آن واحد ، حيث يوجد يهود « اي في جميع انحاء العالم » بقصد اقتلاع جذور هذه التجمعات التي كانت تحتويها من اساسها ـ المفهوم المادي للمسألة القومية ـ مقدمة رودنسون ـ ص ١٤٦ الطبعة العربية ـ » ٠

ويقول في مكان آخر :

« وكانت الممالك الاغريقية والامبراطورية الرومانية دولا قوية ووحدوية وتتجلى بعض ملامحها في مظاهر الامم المعاصرة ، وكانت هذه الدول لا تفترض ايدولوجيا واحدة على رعاياها تاركة المجال لتعدد الاتجاهات والعقائد ، وتكتفي فقط بطلب حد ادنى من الولاء ولم تفكر قط بازالة العنصر اليهودي ص ١٤٧ » ٠

ويقول ايضا :

« واقتدى الرومانيون فيما بعد بالاغريقيين وفضلوا القبول بخصوصيات

اليهود وعاملوهم باحترام كبير ... ص ١٤٧ » .

اما ابراهام ليون فيقول :

« لقد كان اليهود في الهند يشكلون نوعـا من فرقة ـ كاست ـ ويحافظون على وجودهم حتى في عالم بدون فرق ص ١٤٤ » .

فاذا رجعنا الى الكاتب الامريكي أ. ليلينتال نجد ما يلي :

« لقد اصر حاخامات اليهود وربابنتهم على الانفصال في شؤون السياسـة والدين ، حتى ان القوانين الاساسية الناظمة لحياة الجيتو والتي اقرت فيالبرتغال جاءت بناء على طلب يهود البرتغال انفسهم » .

يدفع منطق أ. ميمي الى الغاء الدور الاقتصادي المتميز لليهود ، وذلك ناتج بالضرورة عن مقولة اليهودي العام . وبينما يـــرى ان اللا يهودي يكره في الرأسمالي اليهودي يهوديته لا رأسماله ، فان الحقيقة التاريخية تظهر ان رجـل الشارع كان يكره في اليهودي رأسماله وقربه المستمر من الطبقات المسيطرة ، ان ميمي يحاول نقض التحليل الماركسي للمسألة اليهودية مما يدفعـه الى قلـب المفاهيم السليمة والبحث عن مفاهيم هجينة . يقـول يوري ايفانوف : « كانت الجاليات اليهودية في كل من انجلترا وفرنسا والمانيا وكثير غيرها من الـدول الاوربية تحظى بعطف ورعاية الاسر المالكة . وكان الملوك يهتمون بوجودهـا وبنشاطها لان الضرائب التي كانت تجبى منالجالية كانت تجد طريقها مباشرة الى خزينة الملك . ويذكر « تاريخ القرون الوسطى » ان مقدار الضرائب التـي كانت تجبى من اليهود في بلدان الشمال يؤلف وسطيا ١/١٢ من مجموع الدخـل الملكي كله . كما ان الاضطهاد الديني الذي كان يلاقيهاليهود في القرون الوسطى كان في اساسه نتيجة لعوامل اقتصادية بحتة ص ٤٠ » .

ويقول فون فورتنباغ :

« كان الكثيرون منهم ـ اي اليهود ـ يضمنون ويديرون املاك الاقطاعييـن ويستثمرون الحانات . وكان كل شيء بين ايديهم ، فهم يقرضون الاموال للاسياد والفلاحين ويبتاعون البضائع من ليبزغ ـ ابراهام ليون ص ـ ٩١ ـ » .

اذا عدنا الى موضوعة اليهودي العربي ، نجـد ان ميمي يحاول تسويـق البضاعة الصهيونية كاسرا عنق التاريخ باستمرار .ربما كان هناك فعلا اضطهاد لليهود لكن ذلك كان مرتبطا باستمرار بالانحطاط الاجتماعي والسياسي العـام لفترة معينة يضطهد فيها اليهودي واللا يهودي . ويظهر التاريخ ان وضع اليهود في البلدان العربية لم يكن تعيسا وكثيرا ما وجد كل الشروط الملائمة لتفتحـه كتاجر وكعالم وكمواطن ، واذا كان اليهودي قد تعرض للاضطهاد في هذا القرن

فان ذلك كان رد فعل مشروع للانسان العربي ازاء هجمة المشروع الصهيوني ، رد فعل مشروط ايضا لمستوى ايدولوجي وتاريخي معين ٠

يقول رودنسون :

« ان اهمية « اليشوف » تضاءلت ـ وبالدرجة الاولى تحت تأثير عملية الاندماج مع سائر السكان في فلسطين ـ وتحول هؤلاء الى جماعة تعيش جنبا الى جنب مع بقايا الجماعات غير اليهودية ص ١٤٤ » ويقول في مكان آخر :

« ولم يحاول العرب المسلمون ، خلال القرن السابع للميلاد فرض الاسلام على سكان البلاد التي احتلوها « وكان المسيحيون اليهود يشكلون فيها الاكثرية » بل اكتفوا باخضاعهم لسلطتهم السياسية المستقاة من الاسلام الذي كان يمثل الايدولوجيا الرسمية ص ١٥٦ ـ المفهوم المادي للمسألة اليهودية » ٠ ويعود رودنسون في اكثر من موضع للتأكيد علىحياة اليهود العاديةفي المجتمع الاسلامي٠

ان أ٠ ميمي لا يقرأ التاريخ العربي ـ اليهودي الا على ضوء الفكر الصهيوني، وعلى ضوء النصف الاول من هذا القرن حيث تراجع اليهودي وظهرت الصهيونية كحركة كولونيالية مرتبطة بالاستعمار الذي كان يجثم فوق صدر المنطقة ٠

تندرج جميع مقولات ميمي في منطقه اللا تاريخي ، يتكلم عن القومية اليهودية وعندما يجد بعدها التاريخي غائبا يصنعه ويماثلها بحركات قومية موضوعية في آسيا وافريقيا ، يتم كل ذلك في الاطار الذهني المبرر القافز عن الموضوعية والتاريخ ٠ فمرتكزات القومية تختلف جذريا عن مقومات الصهيونية ٠ فالقوميات الافريقية والآسيوية وعت نفسها خلال النضال ، وعي يستند على تاريخ ومقومات مشخصة ٠ اما القومية الاوربية فهي نتيجة التطور الرأسمالي الذي يعكس ارادة البرجوازية الاوربية في خلق قاعدة قومية للانتاج وخلق السوق والقضاء على بقايا الاقطاع ٠ وفي تلك الفترة بالذات كانت البرجوازية اليهودية قابلة للاندماج وبعيدة عن المشروع الصهيوني ، الا ان تفسخ النظام الرأسمالي ووصوله الى مرحلته الامبريالية هو الذي دفع بالصهيونية الى الامام ودفع باطروحات القومية الصهيونية ٠ **واذا كانت الحركة القوميةالاوربية نتيجة مرحلة الرأسمالية الصاعدة ، فان الصهيونية هي ثمرة عصر الامبريالية وانحطاط الراسمالية ،** واذا كان تبلور القوميات الآسيوية ـ الافريقية مرتبطا بمحاربة الاستعمار فان الصهيونية وقوميتها ارتبطت به وتشكلت خلال مسيرته لمحاربة حركات التحرر ٠ وكانت ولا تزال تقوم بهذا الغرض وترعاه ٠

ان تميز وتخصص اليهودي فيرأي ميمي يدفعه الى تمييز اليساري الصهيوني، فهو كيساري ليس كالآخرين بل متميز عنهم ، اي انه عنصري حتى في يساريته ، لذلك يرى بوضوح كل ما يتعلق باسرائيل والصهيونية فاذا وصل الى القضية

الفلسطينية غشي بصـره والقـى بتحليـل مبتـور غامض « حـــقوق الشعـب الفلسطيني » او « حقوق الاقليات القومية ومنهـــا الشعب الفلسطينـي » • ويندفع في تميزه هذا كعنصري صهيوني الى نفي الانسان الفلسطيني واليسـار العالمي والنظرية الماركسية ، ويبقى كما تريده الصهيونية وحيدا متوحدا يـدور في جوهره واناه التي اصبحت جزءا من مسيرة الذيـن يضطهدون الانسان فـي هـذا العالم •

مؤلفات البير ميمي

Récits :

LA STATUE DE SEL, récit, préface de Albert Camus. Gallimard, 1953

AGAR, roman. Buchet-Chastel, 1955.

LE SCORPION, roman. Gallimard, 1969.

LE DÉSERT, roman (*à paraître*).

Essais :

PORTRAIT DU COLONISÉ
précédé du PORTRAIT DU COLONISATEUR , préface de Jean-Paul Sartre, Corrêa, 1957 (*épuisé :* voir livres de poche).

PORTRAIT D'UN JUIF. Gallimard, 1963.

LA LIBÉRATION DU JUIF (Portrait d'un Juif, II). Gallimard, 1966.

L'HOMME DOMINÉ. Gallimard, 1968.

JUIFS ET ARABES. Gallimard, 1974.

Et divers ouvrages, dont :

ANTHOLOGIE DES LITTERATURES MAGHRÉBINES. Éd. Présence africaine (sous la direction de A. M.)

T. I : LES ÉCRIVAINS MAGHRÉBINES D'EXPRESSION FRANÇAISE.

T. II : LES ÉCRIVAINS FRANÇAIS DU MAGHREB.

LES FRANÇAIS ET LE RACISME (Enquête. en collaboration.) Éd. Payot.

LES JUIFS EN FRANCE (Enquête, en collaboration.) *A paraître.*

En livres de poche :

LA STATUE DU SEL, coll. Folio, Gallimard.

PORTRAIT DU COLONISÉ, Petite Bibliothèque Payot.

PORTRAIT D'UN JUIF, coll. Idées, Gallimard.

LA LIBÉRATION DU JUIF. Petite Bibliothèque Payot.

L'HOMME DOMINÉ, Petite Bibliothèque Payot

JUIFS ET ARABES, coll. Idées, Gallimard.

ميـزان القوى بين الولايات المتحـدة والاتحاد السوفيـاتي

المقدم الهيـثم الايوبي

يعتبر ميزان القوى نقطة الارتكاز في العـلاقات بين الدول المتنازعة او المتحالفة ، وهو القاعدة المادية التي تنبثق عنها السياسات والتحالفات والتوترات وحالات الاسترخاء في منطقة معينة ، خلال حقبة محددة من الزمن · ولا يمكـن فهم المناخ السياسي العام ، وتقييم المواقف السياسية لهذه الدولة او تلـك (ازاء خصومها او حلفائها) الا من خلال ميزان القوى الفعلي القائم ، وميزان القوى الذي يمكن تحقيقه عند الضرورة ، لان مواقف الدول في السلم والحرب تبقى انعكاسا لحجم القوة الذاتية وميزان القوى الموضوعي ·

واذا كان الحديث عن ميزان القوى بين الدول يعني فهم المناخ السياسي ـ العسكري المحلي في منطقة معينة ، فان الحديث عن ميزان القوى الاميركي ـ السوفياتي يعني فهم هذا المناخ في العالم بأسره ، واستشفاف مستقبل السلـم العالمي ، وتحديد احتمالات اندلاع الحرب الشاملة او المحدودة او المحلية ، واحتمالات استقرار سياسة الوفاق او انقلابها والعودة الى الحرب الباردة ·

ويرجع هذا الامتياز الذي يتمتع بـه ميزان القوى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي الى المكانة التي احتلتها الدولتـان منذ نهايـة الحـرب العالمية الثانية ، ووجودهما في موقع القيادة بالنسبة للمعسكرين الشـرقي والغربي ، وانقسام العالم الى كتلتين فاعلتين متنافستين سياسيـا واقتصاديـا وايديولوجيا ، بالاضافة الى كتلة ثالثة تحمل لواء عدم الانحياز وتملك طاقات ضخمة ولكنها لا تمثل جسما متماسكا الى الحد الذي يجعل فاعليته متناسبة مع حجمه ·

ومن المؤكد ان وصول الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي الى لعب دور القطب ، في عالم ثنائي القطبين ، لم يتم الا بفضل القوة البشرية والاقتصادية التي تتمتع بها هاتان الدولتان ، والتقدم التكنولوجي الذي حققتاه (بسبيلين مختلفين) ، الامر الذي جعل الهوة التي تفصل واشنطن وموسكو عن حلفائهما ، في مجالات الدخل والطاقة الانتاجية الصناعية والقـوة المسلحة التقليديـة والنووية ، كبيرة بشكل يتعذر على الحلفاء تجاوزه او التفكير بتجاوزه في المدى المنظور ، وجعل ميزان القوى داخل حلفي شمالي الاطلسي ووارسو يميـل لصالح القطبين الكبيرين اللذين اخذا زمام القيادة والمبادرة ، انسجاما مـع

المبدأ الذي يحكم الاحلاف منذ اقدم العصور ، والذي يقول : « من يملك القوة الاكبر يملك حق القيادة واتخاذ القرار » ٠

المنحى العام لتطور القوة العسكرية في الدولتين الاعظم

يتم تطور القوات المسلحة في الدولتين الاعظم بشكلين متباينين ، نظرا لتباين الاستراتيجية والعقيدة العسكرية في كل منهما ٠ وسنلاحظ خلال الدراسة المسائل التي يركز عليها الطرفان لتنمية قدراتهما العسكرية النووية والتقليدية ٠ ورغم هذا التباين فان هناك سمات مشتركة للتطور تتمثل بما يلي :

● تناقص عديد القوات المسلحة : فلقد كانت القوات السوفياتية تضم في العام ١٩٥٥ حوالي خمسة ملايين رجل ، وكان الاميركيون يملكون حوالي ثلاثة ملايين ٠ ثم قام الطرفان بتخفيض متبادل عدة مرات ٠ ورغم ازدياد عديد القوات الاميركية في النصف الثاني من الستينات الى حوالي ٣ر٥ ملايين رجل بسبب الحرب في فيتنام ، فان التخفيض الذي بدأ في مطلع السبعينات جعل القوات الاميركية تضم الان حوالي مليونين و١٣٠ الف رجل ، مقابل ثلاثة ملايين و٥٧٥ الف جندي سوفياتي ٠

● تزايد مصروفات الدفاع : كان من المفروض ان يرافق تخفيض عديد القوات انخفاض في مصروفات الدفاع ٠ ولكن الامور جرت بشكل مغاير لذلك٠ وتزايدت المصروفات بشكل مستمر ٠ فاذا اخذنا فترة ١٩٧٣ ـ ١٩٧٥ مثلا ، وجدنا ان القوات المسلحة السوفياتية شهدت ازديادا طارئا خفيفا (١٥٠ الف رجل) في حين ارتفعت مصروفات الدفاع من ٩٠ الى ١٢٤ مليار دولار ٠ ولقد انخفض عديد القوات الاميركية في الفترة ذاتها حوالي ١٢٠ الف رجـل ، ومع هذا ارتفعت مصروفات الدفاع من ٧٨ر٥ الى ٨٩ مليار دولار ٠ ويرجع هذا التزايد المطرد في المصروفات الى المبالغ الكبيرة التي تخصص للبحث وتطوير الاسلحة ، وتزويد القوات بمعدات معقدة غالية الثمن ، وزيادة عـدد الاسلحة والمعدات والاليات في القطعات وتكريس مبالغ كبيرة للتسليح النووي ، الامر الذي جعل القوات الاميركية والسوفياتية تزداد قوة ومرونة وقدرة على الردع والعمل رغم تناقص عديدها ٠

● تطوير وتدعيم انظمة الدفاع والهجوم النووية : تتبنى الدولتان الاعظم مبدأ واحدا ، وهو ان تدعيم القوة الضاربة النووية يفقد معناه اذا لم يرافقـه تدعيم مماثل لانظمة الدفاع ضد الضربات النووية ، على اعتبار ان هـذه الانظمة تسمح بتخفيف آثار الضربة النووية المعادية الاولى ، وتحافظ على القوة الضاربة كليا او جزئيا ، وتسمح لها بتسديد الضربة الانتقامية الثانية ٠ وعلى هذا الاساس سار بناء انظمة الدفاع النووي في البلدين بشكل متواز مع بناء

انظمة الهجوم النووي · واذا كانت انظمة الدفاع تعتمد على شبكات الرصد والانذار المتطورة البرية والجوية ، والصواريخ المضادة للصواريخ ، والاقمار الاصطناعية ، فان انظمة الهجوم تعتمد على الصواريخ النووية (ارض ـ ارض، وجو ـ ارض ، وسطح ـ ارض) ذات الرأس الواحد ومتعددة الرؤوس ، والغواصات النووية ، وقاذفات القنابل الاستراتيجية ·

● زيادة الاعتماد علـى الصواريخ وانخفاض اهمية القاذفات : تركز الدولتان بشكل واضح على زيادة المخزون من الصواريخ الباليستيكية عابرة القارات ، ومضاعفة عدد الغواصات النووية ، مع تخفيض عـدد القاذفات الاستراتيجية · ففي الفترة ١٩٦٣ ـ ١٩٧٦ ، ارتفـع عـدد الصواريـخ الباليستيكية عابرة القارات في الولايات المتحدة من ٤٢٤ الى ١٠٥٤ صاروخا، وفي الاتحاد السوفياتي من ٩٠ الى ١٥٢٧ · وارتفع عدد الصواريخ النووية المنطلقة من الغواصات الاميركية من ٢٢٤ الى ٦٥٦ ، والسوفياتية من ١٠٧ الى ٨٤٥ ، بينما انخفض عدد القاذفات الاستراتيجية الاميركية من ٦٣٠ الى ٣٨٧ ، والسوفياتية من ١٩٠ الى ١٣٥ · وتسير زيادة عدد الصواريخ بشكل متواز مع زيادة عدد الرؤوس النووية التي يحملها كل صاروخ ، وزيادة القوة الانفجارية لمجمل الرؤوس النووية ·

● تزايد المصروفات السنوية للفرد في القوات المسلحة : لقد ادى تطوير الاسلحة ، والاعتماد على التكنولوجيا الحديثة ، ومكننة القوات وزيادة وسائطها النارية وانخفاض عديد رجالها ، الى تزايد المصروفات السنوية للفرد بشكل مطرد في اميركا والاتحـاد السوفياتي · ففي فترة ١٩٧٣ ـ ١٩٧٥ زادت مصروفات الفرد السنوية من ٣٧٢ الى ٤١٧ دولارا في القوات الاميركية ، ومن ٣٦٠ الى ٤٩٠ دولارا في القوات السوفياتية · ومن المتوقع ان تكون نسبة الزيادة في فترة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٧ اكبر من ذلك ·

الميزان العسكري بالقوات التقليدية

يملك الاتحاد السوفياتي قوة تقليدية برية لم يشهد التاريخ لها مثيلا · وهي متفوقة بشكل لا جدال فيه على القوة التقليدية البرية الاميركية · ويرجع اهتمام السوفيات ببناء قواتهم البرية الى ان الاتحاد السوفياتي دولة قارية منفتحة على جزء محدود من شواطىء البحار الدافئة ، وتقع في موقع مركزي بين خصمين كبيرين : حلف شمالي الاطلسي في الغرب والصين الشعبية في الشرق· ولقد كانت قواتها البرية ضخمة في الخمسينات ، عندما لم يكن النزاع الصيني ـ السوفياتي قد بدأ بعد · وكانت الغاية من خلق القوة البرية التقليدية المتفوقة انذاك امتلاك اداة فعالة قادرة على التهديد باجتياح اوروبا الغربية بسرعة في

حال قيام الولايات المتحدة بتهديد الاراضي السوفياتية نوويا ، الامر الـذي يسمح للجيش السوفياتي باستخدام اوروبا كرهينة من جهة ، والانتشار بين المدن الاوروبية التي تكون درعا يحميه من الضربات النووية التي يتعذر على الاميركيين تسديدها الى البلدان الغربية بسبب الردع المعنوي ٠

وكان من المفروض ان يخفض السوفيات قواتهم البرية التقليدية عندما تحقق التوازن النووي ، واصبح الرعب النووي درعا كافيا لحمايتهم ٠ ولكن اعادة تسليح المانيا الغربية ، وتصاعد قوة حلف شمالي الاطلسي ، وظهور الخطـر الصيني على حدودهم الشرقية ، جعلهم يتابعون الاهتمام بقواتهم البرية التقليدية المعدة للقتال على الخطوط الداخلية على جبهتين تبعد احداهما عن الاخرى حوالي ٩ آلاف كيلومتر ٠

اما الولايات المتحدة ، فهي على العكس دولة بحرية وليس لها حدود مـع اي دولة معادية ٠ ولذا كان اهتمامها بقواتها البرية في الخمسينات محدودا ، خاصة وانها كانت تملك التفوق النووي وتعتمد عليه لردع السوفيات والصينيين ٠ وكانت قواتها البرية التقليدية مخصصة لدعم القوة الدفاعية الاوروبية المغطاة بمظلة نووية اميركية ، واكمال طوق الحصار حول الاتحاد السوفياتي والصين ، وشن الحروب المحلية المحدودة في المناطق التي يزداد فيها النفوذ الشيوعي بشكل غير مقبول ٠

وعندما زال التفوق النووي الاميركي ، وتحقق توازن الرعب ، وساد بالتالي الشلل النووي ، وجد الاميركيون قواتهم البرية التقليدية متخلفة عـن قوات السوفيات ، واصبح من واجبهم العمل على محورين : ١ ــ تطوير اسلحتهم النووية لاستعادة التفوق في هذا المجال ، ٢ ــ تسريع بناء القوة البرية التقليدية لسد ثغرة عمرها ١٠ سنوات ٠ ولكن ضخامة الهوة ، والتورط العسكري في فيتنام وما رافقه من خسائر ، جعلت نتيجة السباق الاميركي ــ السوفياتي في المجال البري التقليدي لصالح السوفيات ٠

وتقول المصادر الدولية المختصة باحصاء القوات المسلحة في العالم ، ان القوات البرية السوفياتية تضم مليونا و٨٢٥ الف رجل مؤطرين داخل ٥٠ ــ ٦٨ فرقة دبابات ، و١١١ ــ ١٢٩ فرقة مشاة ميكانيكية ، و١٦ فرقة مدفعية ، و٧ ــ ٨ فرق محمولة جوا ، في حين ان القوات البرية الاميركية بالاضافة الى مشاة البحرية ، تضم ٩٨٢ الف رجل مؤطرين داخل ٤ فرق دبابات ، و٨ فرق مشاة ميكانيكية ، و٥ فرق مشاة ، و٤ فرق مدفعية ، وفرقتين محمولتين جوا ٠ ويبدو التفوق السوفياتي هنا واضحا ٠ ولكن اختلاف عدد الاسلحة والمعدات فـي التشكيلات الاميركية والسوفياتية المتماثلة يجعل مقارنة عدد الفرق غير دقيقة ٠

وهذا ما يدفعنا الى تقديم الجدول التالي الذي يظهر المقارنـــة بيـن اسلحة الطرفين (١٩٧٦ ـ ١٩٧٧) ٠

القوات البرية ومشاة البحرية الاميركية

السلاح	العدد	ملاحظات
دبابة متوسطة	١١٦٥٠	مسلحة بالصواريخ م/د
دبابة خفيفة	١٦٠٠	مسلحة بالصواريخ م/د
عربة مدرعة	٢١٠٠٠	
مدافع مختلفة العيارات	٣٥٠٠	اكثر من نصفها ذاتي الحركة
هاونات مختلفة العيارات	٥٩٠٠	
صواريخ ارض ـ جو	٩٠٠	نايك هركول ، شابرال
صواريخ تكتيكية	غير محدد	لانس ، بيرشنغ ، هونست جون

القوات البرية ومشاة البحرية السوفياتية

السلاح	العدد	ملاحظات
دبابة متوسطة	٣١٠٠٠	منها ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ (ت ـ ٧٢)
دبابة خفيفة	١٠٥٠٠	كلها برمائية
عربة مدرعة	٣٧٥٠٠	
مدافع مختلفة العيارات	١٧٥٠٠	قسم منها ذاتي الحركة
هاونات مختلفة العيارات	٨٥٠٠	
صواريخ ارض ـ جو	غير محدد	سام ٢/٤/٦/٨/٩
صواريخ تكتيكية	١٠٠٠	فروغ وسكود ٠

ويدل هذا الجدول على ان السوفيات متفوقون في الدبابات المتوسطة (وهي دبابة القتال الرئيسية) بنسبة ٣ الى واحد تقريبا ، وفي الدبابات الخفيفة والمدفعية بنسبة ٥ الى واحد ، وفي العربات المدرعة والهاونات بنسبة ١٫٥ الى واحد ٠ ورغم عدم توفر المعلومات الدقيقة عن عدد الصواريخ السوفياتية ارض ـ جو ، وعدد الصواريخ الاميركية التكتيكية ارض ـ ارض ، فان من المعتقد ان السوفيات متفوقون في المجال الاول بشكل ساحق (يقول الغربيون ان لدى السوفيات ١٢٠٠٠ صاروخ ارض ـ جو ، ولكن هذا الرقم غير دقيق) ، في حين يتفوق الاميركيون نسبيا في المجال الثاني ٠

والتفوق السوفياتي الاهم في القوات البرية هو التفوق بالدبابات ٠ فهـو يعطي السوفيات القدرة على تقديم دعم كبير لحلفائهم المحليين في الحـروب المحلية المحدودة ، ويسمح لموسكو بحشد اعداد كبيرة من الدبابات في دول حلف وارسو ، مقابل العدد المحدود الذي تستطيع واشنطن حشده في دول حلف شمالي الاطلسي ٠

ومن الجدير بالذكر ان للاتحاد السوفياتي في دول حلف وارسو ٩٠٠٠ دبابة قسم منها داخل فرق المشاة الميكانيكية (١٥ فرقة) ، والقسم الاخر داخل فرق الدبابات (١٦ فرقة) الموزعة في المانيــا الشــرقية وهنغاريا وبولونيــا وتشيكوسلوفاكيا بالاضافة الى ٤٧٥٠ دبابة متمركزة داخل الاراضي السوفياتية ولكنها تابعة لحلف وارسو ، وتدخل ضمن اطار قيادته ٠ في حين ان الولايات المتحدة لم تستطع دعم حلف شمالي الاطلسي بأكثر من ٢٥٠٠ دبابة (٢١٠٠ دبابة منها في المانيا الغربية) ٠ وهذا ما اخل بميزان القوى المدرعة بين حلــف وارسو الذي غدا يملك ٢٦٥٠٠ دبابة مقابل ١١٠٠٠ دبابة فقط في حلف شمالي الاطلسي ٠

ولا يعتمد التفوق السوفياتي المدرع على الكمية فحسب ، ولكنه يعتمد على التفوق النوعي ايضا ٠ فالدبابة السوفياتية « ت ـ ٥٤/٥٥ » افضل بالتاكيد من الدبابة الاميركية « م ـ ٤٨ » ، وتتقارب الدبابتان « ت ـ ٦٢ » و « م ـ ٦٠ »

من ناحية المستوى العام · ولكن لدى السوفيات دبابة « ت ــ ٧٢ » التي لا يملك الاميركيون والغربيون عامة دبابة تماثلها في النوعية ، الامر الذي يخلق خلــلا اضافيا في ميزان القوى المدرعة · ومن المنتظر ان يستمر هذا الخلل طويلا لسببين : اولهما ان معدل انتاج الدبابات في الاتحاد السوفياتي يعادل ٢٠٠٠ دبابة سنويا مقابل ١٠٠٠ دبابة ينتجها الاميركيون · والثاني هو ان الاميركيين لن يحصلوا على دبابة معادلة للدبابة « ت ــ ٧٢ » الا مي اواخر السبعينات · وعندما سيبدأ انتاج الدبابة الالمانية « ليوبارد ــ ٢ » او الدبابة الاميركية « اكس· م ــ ١ » (وكلتاهما من مستوى « ت ــ ٧٢ ») ، يكون السوفيات قد وضعوا في الخدمة دبابة جديدة اكثر تطورا ·

ويأتي التفوق السوفياتي في مجال المدفعية من المذهب العسكري السوفياتي ، الذي يعتمد على دعم القوات البرية برمايات مدفعية كثيفة ، في حين يعتمد الاميركيون ، كما سنرى ، على الدعم الجوي التكتيكي · ومن المؤكد ان مكننة المدفعية الاميركية (٥٠٪ منها ذاتي الحركة) يعطيها مرونة كبيرة ، ويجعلها اكثر فاعلية · ولكن هذا كله لا يكفي لتعديل ميزان القوى (واحد الى خمسة) نظرا لان قسما من المدافع السوفياتية ذاتي الحركة ايضا ، ولان عيارات المدافع ودباباتها ومعدلات رميها لدى الطرفين شبه متماثلة ·

ويكمن التفوق الواضح الاخير في مجال القوات المحمولة جوا · ولهذا التفوق (اربعة الى واحد) بعد تكتيكي وآخر استراتيجي (او عملياتي علــى الاقل) · ويستطيع السوفيات بفضله نقل قوات كبيرة (فرق مسلحة بمدافع ذاتية الحركة ودبابات محمولة جوا) الى مسارح العمليات المجاورة بسرعة · واذا كانت الولايات المتحدة تعتمد كدولة بحرية على الاسطول ومشاة البحرية للتدخل بقوة وسرعة في كل بقعة من بقاع العالم ، فان الاتحاد السوفياتي يعتمد كدولة قارية على القوات المحمولة جوا لتأمين الوجود العسكري المناسب في المكان والزمان المناسبين ·

اما في المجال الجوي ، فان حساب ميزان القوى يبدو اشد تعقيدا ، رغم تساوي عدد الطائرات المقاتلة لدى الطرفين (٤٥٠٠ طائرة في كل طــرف) · ويأتي التعقيد من تباين نوعية الطائرات بسبب تباين المفاهيم الخاصة باستخدام القوات الجوية في معركة الاسلحة المشتركة · ولتوضيح هذه المسالة لا بد لنا من التحدث عن مفاهيم استخدام القوات الجوية باختصار شديد ، حتى لو ادى ذلك الى الخروج مؤقتا عن موضوع المقال ·

يعتبر السوفيات ان الدعم التكتيكي للقوات البرية يتم بواسطة طائرات الدعم الارضي والوية المدفعية ، شريطة خلق مظلة فوق مسرح المعركة ، تشترك فيها المقاتلات والصواريخ ارض - جو وانظمة الدفاع الجوي لاعطاء طائرات الدعم الارضي حرية عمل كبيرة ، وحماية القوات البرية ومرابض المدفعية والصواريخ ارض - ارض من القصف الجوي المعادي · ويرون ان الدعم العملياتي يمكن ان يتم بقاذفات متوسطة ذات سرعة أعلى من سرعة الصوت وقدرة كبيرة على المناورة والتشويش الالكتروني ، الامر الذي يجعلها مؤهلة للتوغل في عمق اجواء العدو مع تأمين حمايتها بالمقاتلات · وعلى هذا الاساس طور السوفيات طيرانهم بحيث اصبح يضم اساسا : القاذفات المتوسطة والمقاتلات وطائرات الدعم الارضي ، كما زادوا نسبة المدفعية والصواريخ ارض - ارض في تشكيلاتهم المقاتلة ·

ويحل الاميركيون المسألة بشكل آخر ، فهم يرون ان الدعم التكتيكي للقوات البرية ينبغي ان يتم اساسا من الجو ، وان المظلة الجوية التي تعمل تحتها طائرات الدعم الارضي تتألف أساسا من المقاتلات - القاذفة متعددة الاغراض ، القادرة على المشاركة في القصف عند اللزوم ، والتخلص من حمولاتها الحربية والقيام بالقتال الجوي عندما يتطلب الوضع ذلك · ويرون ان الدعم العملياتي يمكن ان يتم بالمقاتلات - القاذفة المؤهلة لاختراق عمق اجواء العدو للقصف ، والقادرة في الوقت ذاته على الدفاع عن نفسها بنفسها · ولتحقيق الحد الاقصى من الفاعلية ومجابهة الصواريخ ارض - جو ، وتدمير المدفعية والصواريخ ارض - ارض لحرمان القوات البرية من نيران الدعم ، صنعت اميركا القذائف جو - ارض المتطورة الموجهة · وعلى هذا الاساس طور الاميركيون طيرانهم بحيث اصبح يضم اساسا : المقاتلات - القاذفة وطائرات الدعم الارضي ، وحسنوا صواريخهم جو - جو وجو - ارض ·

من هذين المفهومين المتباينين لاستخدام الطيران تكتيكيا وعملياتيا ، ومن هذين الاتجاهين المختلفين في تطور بناء الطائرات ، ظهر التباين القائم بين سلاحي الجو الاميركي والسوفياتي ، في نوعية الطائرات وحمولاتها الحربية ومداها القتالي ··· الخ · مع تماثل تشكيلات الدفاع الاستراتيجي والقصف الاستراتيجي ، نظرا لتقارب المفاهيم في هذين المجالين ·

ان تكنولوجيا الصناعة الجوية في البلدين متقاربة الى حد بعيد ، ولكن استخدام هذه التكنولوجيا محكوم بعقيدتين عسكريتين مختلفتين · وهذا ما يجعل مجمل الحمولة الحربية للطائرات الاميركية اكبر من مجمل الحمولة

الحربية للطائرات السوفياتية، في حين ان القدرة على الاعتراض لدى السوفيات اكبر · واذا كانت ضخامة الحمولة الحربية لدى الاميركيين تؤمن دعما جويا كبيرا للقوات البرية ، فان القدرة العالية على الاعتراض لدى السوفيات تؤمن ، بالتعاون من انظمة الدفاع ضد الطائرات ، حماية المدفعية والصواريخ ارض ـ ارض التي تقدم الدعم البري للقوات البرية · وعلى هذا الاساس يتشابك حساب ميزان القوى الجوية مع حساب ميزان القوى البرية ويؤثر عليه ، كما يتشابك مع حساب ميزان الدفاع ضد الطائرات · ويبدو ان ادخال كل هذه العوامل في الاعتبار يؤدي الى توازن نسبي في حجم نار الدعم المقدمة للقوات البريـــة السوفياتية والاميركية على المستويين التكتيكي والعملياتي · وهذا هو المهم عند حساب القوى ، وليس عدد الطائرات او المدافع او الصواريخ ·

ويبدو الاختلال واضحا لصالــح الاميركيين في ميزان القوى البحريـــة التقليدية · ويرجــع ذلـــك الى ان الولايات المتحدة دولة بحريـــة تعتمد في استراتيجيتها على التواجد او امكانية التواجد في كل مكان من العالم ، بفضـل اسطول بحري قوي ، يضم قوة بحرية ـ جوية متفوقة على اي قوة مماثلة في العالم ، كما تضم ١٩٦ الف رجل مزودين بـ ٤٣٠ دبابة و٩٥٠ دفعا و٣٨٦ طائرة · ومن الجدير بالذكر هنا ان مشاة البحرية الاميركية يلعبون الدور الذي تلعبه القوات السوفياتية المحمولة جوا ، ويقومون بمهمة قوة التدخل الجاهـزة للعمل في كل زمان ومكان ·

ويركز السوفيات في بناء قوتهم البحرية على الغواصات وسفن السطـح الصغيرة المحملة بالصواريخ · ولقد توجهوا في الآونة الاخيرة الى بنـــاء الطرادات حاملة طائرات الهليكوبتر المضادة للغواصات ، في الوقت الذي يعتمد به الاميركيون على الغواصات وسفن السطح الكبيرة نسبيا وحاملات الطائرات بالاضافة الى سفن السطح الصغيرة الصاروخية والمضادة للغواصات ·

ويدلنا الجدول التالي على ان السوفيات متفوقون في مجال الغواصات علـى الاميركيين ولهذا علاقة بميزان القوى النووية · امــا عــدد سفن السطح السوفياتية ، فهو اكبر من عدد سفن السطح الاميركية ، ولكن هذا لا يعني ان هناك تفوقا سوفياتيا بسفن السطح ، لان السوفيات يعتمدون ، كما ذكرنا ، على سفن السطح الصغيرة · وبالمقابل فان هناك تفوقا اميركيا في حاملات الطائرات وطائرات البحرية ومشاة البحرية وسفن التجسس · وهذا ما يجعل البحرية الاميركية اقوى من البحرية السوفياتية ، واكثر مرونة وقدرة على التدخل ، واكثر كفاءة في القتال في اعالي المحيطات ·

الولايات المتحدة ٥٢٤٠٠٠ رجل

السلاح	العدد	النوع ـ الطراز
غواصة هجومية	٧٥	٦٥ نووية و١٠ ديزل
غواصة	ـ	
حاملة طائرات	١٣	٢ نووية و٨ عادية و٣ فئة « ميدواي »
سفن سطح رئيسية	١٧٦	من مختلف الانواع
طائرات	١٢٠٠	من مختلف الانواع
مشاة بحرية	١٩٦٠٠٠	معهم ٤٣٠ دبابة و٩٥٠ مدفعا و٢٨٦ طائرة

الاتحاد السوفياتي ٤٥٠٠٠٠ رجل

السلاح	العدد	النوع ـ الطراز
غواصة هجومية	١٦٢	٤٠ نووية و١٢٢ ديزل
غواصة	٦٥	٤٤ نووية و ٢١ ديزل
حاملة هليكوبتر	٣	١ من فئة « كييف » و٢ من فئة « موسكفا » ٠
سفن سطح رئيسية	٢١٤	من مختلف الانواع
طائرات	٦٤٥	من مختلف الانواع
مشاة بحرية	١٤٥٠٠	معهم ١٥٠ دبابة و٢٠٠ ـ ٣٠٠ مدفع

الميزان العسكري بالقوات النووية

يحتل ميزان القوى النووي اهمية خاصة بالنسبة الى الدولتين الاعظم ، فهو الذي يحدد ميزان القوى الحقيقي الذي يمكن ان يتجاهل ميزان القوى التقليدي٠ ولحساب ميزان القوى النووي لا بد من الاخذ بالاعتبار عاملين هما : ١ ـ حجم ونوعية القوة النووية الضاربة ، ٢ ـ مرونة هذه القوة وقدرتها على البقاء بعد الضربة الاولى ٠ واذا كانت القوة الهجومية تحسب على اساس عدد الرؤوس النووية ودقة اصابتها وقوة انفجارها ، فان القدرة على البقاء مرتبطة بالرصد والانذار المبكرين ، وكفاءة منظومة الاسلحة المضادة للصواريخ والطائرات الاستراتيجية ، والانتشار ، وتحصين صوامع الصواريخ عابرة القارات ، وحركية الغواصات النووية ، ووجود قاذفات استراتيجية محلقة في الجو باستمرار ، وكفاءة اجهزة القيادة والسيطرة وقدرتها على العمل بعد تلقي الضربة النووية الاولى ٠ ومهما كانت القوة الهجومية الاستراتيجية كبيرة، فانها تفقد معناها اذا لم تكن مؤهلة للبقاء (نسبيا) بعد الضربة الاولى ، لان العدو يستطيع في هذه الحالة تحقيق الحسم عن طريق الضربة المفاجئة ، دون ان يخشى التعرض للضربة الانتقامية ، علما بأن الخوف من الضربة الانتقامية هو العنصر الرادع الذي يمنع احد الطرفين من البدء بالضربة الاولى ٠

وتملك الدولتان الاعظم جهازا متطورا للرصد والانذار، يعتمد على الرادارات الارضية وطائرات الانذار المبكر ومحطات الانذار المبكر البحرية وسلسلة الاقمار الاصطناعية ٠ وفيهما مراكز سيطرة ارضية محصنة ومزودة بالعقول الالكترونية ، بالاضافة الى مراكز سيطرة جوية تتمثل بطائرات ضخمة مزودة بأجهزة الاتصال والحساب اللازمة لادارة الحرب النووية ، اذا ما تعرضت مراكز السيطرة الارضية للدمار ٠ وفي الدولتين انظمة دفاع متطورة ضد الصواريخ وضد الطائرات ، ولديهما غواصات محملة بالصواريخ النووية ٠ واذا كان الاميركيون يملكون قاذفات قنابل استراتيجية محملة بالقنابل النووية

ومحلقة باستمرار في الجو (طائرات القيادة الجوية الاستراتيجية « ساك ») فان السوفيات يعوضون هذا النقص بزيادة عدد الغواصات النووية · ويمكننا على هذا الاساس ، اعتبار القدرة على البقاء في البلدين واحدة ·

ولقد اصيب الخبراء الاميركيون بقلق كبير في منتصف العام ١٩٧٥ ، عندما وجدوا على الصور الملتقطة بالاقمار الاصطناعية ما يشير الى ان السوفيات يقومون ببناء منشآت ضخمة لم تستطع وكالة المخابرات المركزية تحديد ماهيتها او الغرض منها · ويعتقد الاميركيون اليوم ان هذه المنشآت عبارة عن مراكز سيطرة حصينة تقع على عمق ١٠٠ متر تحت سطح الارض ، وملاجىء للدفاع المدني ضد الاخطار النووية ، ومستودعات لخزن كميات كبيرة من المؤمن ، ومصانع صغيرة لمتابعة انتاج المعدات الحساسة الهامة خلال الحرب النووية · وهم يرون ان بناء هذه المنشآت وزيادة اهتمام السوفيات ببعثرة المدن والمراكز الصناعية الكبرى ، ومضاعفة عدد وحدات الدفاع المدني (٧٥ الف رجل) عبارة عن مؤشرات تدل على ان السوفيات يحاولون رفع مستوى القدرة على البقاء ·

وليس هناك تقييم دقيق معلن يحدد ميزان مستوى القدرة على البقاء بين الاميركيين والسوفيات · ولكن هناك تقييمات سرية يحتفظ بها كل طرف لنفسه · ويمكننا ان نستنتج ــ عن طريق المحاكمة المنطقية ــ ان كل طرف يعتقد بأن لدى الطرف الاخر قدرة على البقاء تجعله مؤهلاً لتسديد الضربة الانتقامية بعد تلقي الضربة الاولى · ويأتي هذا الاستنتاج من الخوف المتبادل الذي يؤثر على الطرفين ، ويردعهما ، ويدفعهما للبحث عن الوفاق والسعي لعقد اتفاقية جديدة لتحديد الاسلحة الاستراتيجية (سولت ــ ٢) ، كبديل عن اتفاقية (سولت ــ ١) المعقودة في العام ١٩٧٢ · كما انه يأتي من الفكرة القائلة بأنه لو وصل احد الطرفين الى قناعة مطلقة بقدرته على البقاء وانعدام هذه القدرة عند خصمه ، لاستغل هذا الوضع ، ولقام بعملية ابتزاز تعيد الى الاذهان الابتزاز النازي لاوروبا في النصف الثاني من الثلاثينات ، وابتزاز الاميركيين للسوفيات في السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية ، وكان احتكار السلاح الذري فيها بيد واشنطن ·

اما على صعيد القوة الضاربة النووية ، فان لدى الطرفين الرؤوس النووية والوسائط اللازمة لحملها الى الهدف · وتتمثل هذه الوسائط بالصواريخ عابرة القارات ، والصواريخ الجوالة المجنحة ، والصواريخ التي تنطلق من الغواصات ، والقاذفات النووية بعيدة ومتوسطة المدى · بالاضافة الى وسائط نقل القنابل الذرية التكتيكية (المدافع الذرية، وبعض طائرات القتال، والصواريخ التكتيكية ارض ــ ارض) · وفي اواخر العام ١٩٧٦ كان ميزان وسائط حمل الذخائر النووية التكتيكية متعادلا الى حد بعيد في اوروبا ، حيث تتجابه اكبر

مجموعتين من الاسلحة النووية التكتيكية ٠ وكانت الوسائط النووية الاستراتيجية ذات الطابع الهجومي كما هو مبين في الجدول التالي :

النـــوع	الولايات المتحدة	الاتحاد السوفياتي
صواريخ عابرة للقارات	١٠٥٤	١٥٢٧
صواريخ نووية تنطلق من الغواصات	٦٥٦	٨٤٥
قاذفات نووية بعيدة المدى	٣٨٧	١٣٥
قاذفات نووية متوسطة المدى	٦٦	٦٠٠

ولكن الاميركيين كانوا يملكون ـ حتى منتصف العام ١٩٧٦ ـ تفوقا فـي مجالين هما : عدد الرؤوس النووية ، ووزن الحمولة الحربية للمدى الاقصى ، في حين كان السوفيات يملكون تفوقا في معادل القوة الانفجارية لمجمل الرؤوس النووية ٠

● ففي مجال الرؤوس النووية كان الاميركيون يملكون ٨٥٣٠ رأسا نوويا مقابل ٣٢٥٠ رأسا لدى السوفيات ٠ وهذا يعني ان عدد الاهداف السوفياتية التي يمكن ضربها اكبر من عدد الاهداف الاميركية ٠ ولكن هذا التفوق آخـذ بالزوال منذ ان بدأ السوفيات يطورون جيلا جديدا من الصواريخ عابرة القارات ذات الرؤوس المتعددة ٠ وتقدر وكالة المخابرات المركزية الاميركية ان ميزانية الصواريخ السوفياتية عابرة القارات تعادل سبعة امثال الميزانية الاميركيـــة المماثلة ، وان من المنتظر ان يضع السوفيات في الخدمة في ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ جيلا جديدا من الصواريخ متعددة الرؤوس ٠ واكثر ما يشغل بال الاميركيين ان السوفيات لجأوا الى تطوير اسلحة لا تشملها اتفاقية فلاديفوستوك ، إلتي حددت عدد الصواريخ عابرة القارات وقاذفات القنابل بـ ٢٤٠٠ وحدة لكل بلد ٠ وتتضمن الاسلحة غير المشمولة بالاتفاقية الصواريخ متوسطة المدى التي يملك السوفيات منها ٦٠٠ صاروخ ، يمكن ان تهدد دول حلف شمالي الاطلسي ، خاصة وان الاميركيين لا يملكون حتى الان عددا كافيا من الصواريخ الهجومية متوسطة المدى ٠

وبحصول السوفيات على الصاروخ الجوي المجنح « اســـس ـ اســـس ـ ٢٠ » سطح ـ سطح ، اصبح بوسعهم تكريس صواريخهم عابرة القارات لضـــرب الاهداف الاميركية ، وتكريس الصواريخ متوسطة المدى لضرب اهـــــداف اوروبية او صينية ٠

ويمكن حساب وزن الحمولة الحربية للمدى الاقصى من حساب وزن الصاروخ الاستراتيجي بعد ان يبدأ تحليقه الباليستيكي ، وحساب وزن الحمولة الحربية للطائرات على مدى يفوق ٦٠٠٠ كيلومتر ٠ ولا يعطي هذا العامل صورة عن

القوة التدميرية لمجمل الاسلحة الهجومية الاستراتيجية ، ولكنه يعطي تصورا عاما لقدرة الحمل التي يملكها مجمل هذه الاسلحة · وهي تعادل :

ـ بالنسبة الى الطائرات في ظروف الطيران المثلى : اميركا ٢٢ر٨ مليون رطل · الاتحاد السوفياتي ٤ر٧ ملايين رطل ·

ـ بالنسبة للصواريخ عابرة القارات وصواريخ الغواصات : اميركا ٣ر٣ مليون رطل · الاتحاد السوفياتي ٨ر٢ ملايين رطل ·

ونلاحظ هنا ان السوفيات متفوقون في هذا المجال بالنسبة للصواريخ · وان الاميركيين متقدمون بالنسبة للطائرات · ولكن تقدم السوفيات يبقى اكثر ثباتا نظرا لان للصعوبات التي تلاقي اعتراض الصواريخ اكبر من الصعوبات التي تلاقي اعتراض الطائرات ·

● ويعدل السوفيات نقص عدد الرؤوس النووية بضخامة القوة التدميرية · واذا كانت زيادة عدد الرؤوس النووية لدى اميركا تنسجم مع اتساع رقعة الاتحاد السوفياتي وتبعثر مراكزه البشرية والصناعية ، فان زيادة القدرة التدميرية لدى السوفيات (ما يعادل انفجار ٢٧٣٥ مليون طن مقابل ١٩٣٠ مليونا في اميركا) تنسجم مع تكاثف التجمعات البشرية والصناعية الحساسة في الولايات المتحدة · ولهذا الامر علاقة بمسألة القدرة على البقاء ، وله بالتالي علاقة بالردع النووي المتبادل ·

★★★

ان مجمل ميزان القوى التقليدية يدل على ان السوفيات متفوقون في مجال القوات البرية وخاصة في الدبابات،وان السلاحين الجوي الاميركي والسوفياتي يتقدمان بسرعة متماثلة وعلى خطين غير متوازيين ، وان مقارنتهما بشكل مجرد مسألة غير صحيحة ، وان المقارنة الصحيحة يجب ان تشمل الطيران والمدفعية وانظمة الدفاع ضد الطائرات معا · ولقد رأينا ان التعادل في هذا المجال قائم (نظريا) ، اذ لم تندلع حتى الان اي حرب يجرب فيها الطرفان وسائطهما وتكتيكاتهما بواسطة جنودهما وليس بواسطة جنود دول اخرى ، لمعرفة القيمة العملية للتعادل المحسوب نظرياً · وتبقى البحرية الاميركية التقليدية متفوقة على البحرية السوفياتية المماثلة ·

ولكن هذا الميزان التقليدي المائل قاريا لجانب السوفيات ، والمائل محيطيا لجانب الاميركيين ، لا يفيد الا بالنسبة للحروب المحلية المحدودة ، وهو يفقد جزءاً كبيرا من معناه عند النظر اليه بمنظار المجابهة بين المعسكرين الشرقي والغربي ، لان من المتعذر اليوم تصور وقوع مثل هذه المجابهة في منطقة حساسة

من العالم (المانيا مثلا) ، دون ان ندخل في الحساب احتمالات التصعيد الى حرب نووية محدودة ، يمكن ان تتحول بسرعة الى حرب نووية شاملة يتحاشى الطرفان وقوعها ·

ورغم حيوية ميزان القوى التقليدية بين الدولتين الاعظم بالنسبة الى دول العالم الثالث التي تشكل مسارح الحروب المحلية المحدودة ، وتحصل على اسلحتها من ترسانات الدول الصناعية المتقدمة ، فان من الضروري ان تأخذ هذه الدول بالحسبان ان ميزان القوى التقليدية ذو قيمة محدودة بالنسبة الى سياسات العمالقة ، لانه يبقى محكوما بالميزان النووي المتوازن بين الشرق والغرب ، والرعب النووي الذي يدفع موسكو وواشنطن للبحث عن وسيلة لايقاف السباق النووي ، عن طريق اتفاقية جديدة لا يحدد فيها عدد القاذفات الاستراتيجية والصواريخ عابرة القارات فحسب ، بل يحدد فيها ايضا عدد الرؤوس النووية ، وقيمة القوة التفجيرية الشاملة ، وعدد الصواريخ الجوالة المجنحة والقاذفات النووية متوسطة المدى ، وكل ما يمكن ان يؤثر على الميزان الاستراتيجي · مع تأجيل البحث في الاسلحة التكتيكية التي تبقى محدودة الاهمية في ظل ميزان استراتيجي مستقر ·

هذا هو التوجه العام للسياستين السوفياتية والاميركية · وهو توجه قديم بدأ في عهدي نيكسون وفورد ، ولكنه سيأخذ بعدا اكبر في عهد كارتر الذي سيتابع الخطوات التي جرت في موسكو وفلاديفوستوك وهلسنكي ، رغم معارضة صقور المجموعة « الاقتصادية ـ العسكرية » التي ترى ان التوصل الى اتفاق لتحديد الاسلحة النووية يعني انخفاض مصروفات الدفاع ، وتناقص الارباح التي تجنيها شركات صناعة الاسلحة والطائرات والصواريخ والمعدات الالكترونية ·

ويبدو ان القادة السوفيات جادون في البحث عن صيغة تؤمن توقف سباق التسلح الاستراتيجي · وليس امامهم معارضة داخلية تعيق جهودهم · والادارة الاميركية جادة ايضا ، فهي بحاجة لمثل هذه الصيغة حتى تخفض مصروفاتها العسكرية ، وتكرس جزءاً اكبر من الميزانية الاميركية لحل معضلات اجتماعية واقتصادية متفاقمة · ولكن هذه الادارة لا تملك الحرية الداخلية الكاملة ، فهي تصطدم بالبنتاغون وبتجار الاسلحة وكبار الصناعيين الحربيين · ولقد بدأت الحرب الباردة بين كارتر ومعارضيه منذ ان اعلن الرئيس الاميركي عن رغبته فى تخفيض ميزانية الدفاع لعام ١٩٧٨ ، والسير بخطى حثيثة على سبيل تحديد الاسلحة النووية وتحديد التجارب النووية · وقد تتحول هذه الحرب الباردة الى صدام تحدد نتيجته ما اذا كان العالم سيسير نحو مزيد من الانفراج الدولي ام نحو مزيد من التوتر في العلاقات الدولية ، وما ينجم عن ذلك من صراعات

محدودة محلية في المناطق الساخنة من العالم ، وفـــي طليعتهـــا الشـــرق الاوسط ·

ويقف السوفيات من الصراع الاميركي موقف المراقب الحذر · فهم مستعدون لمتابعة المسيرة اذا انتصرت ادارة كارتر ، ولكنهم لا يسقطون من حسابهـــم ضرورة الاستعداد لمتابعة تدعيم قوتهم النووية الاستراتيجية اذا ما سقطت سياسة كارتر ، وتوقف توجهه نحو « الانفراج » الدولي ·

البحرية الاسرائيلية قبل وبعد حرب ١٩٧٣

محمود عزمي

ترجع النشأة الاولى للسلاح البحري الاسرائيلي الى المجموعات الخاصة من رجال عصابات « الهاجاناه » و « الارغون » و « شتيرن » التي كانت تشارك في الرحلات البحرية السرية التي جرت من اوروبا الى فلسطين في السنوات ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ ، وتم خلالها تهريب كميات من الاسلحة والذخائر ونحو ١٠٠ الف مهاجر يهودي ، معظمهم من المعتقلين السابقين في المعتقلات النازية خلال الحرب العالمية الثانية ٠ وقد شاركت في عمليات الهجرة غير الشرعية (أي التي تمت دون موافقة سلطات الانتداب البريطاني) ٦٥ سفينة معظمها كان مستأجرا ، ولكن بعضها كان مملوكا للعصابات الصهيونية المذكورة (مثل السفينة « نورث لاند » الاميركية الصنع التي سبق أن خدمت في الحرب العالمية الثانية في حرس السواحل الاميركي واشترتها شركة « بانامانيان » عام ١٩٤٧ لحساب « الهاجاناه » ، التي اطلقت عليها اسم « الدولة اليهودية » وحدث بينها وبين احدى المدمرات البريطانية صدام اثناء احدى عمليات تسللها الى شواطيء فلسطين لا نزال مهاجرين جدد ، وقد انضمت بعد ذلك الى السلاح البحري الاسرائيلي تحت اسم « InsEilat » وسلحت بمدفع واحد وشاركت في حرب ١٩٤٨ (١)) ٠ وقد ترتبت على العمليات السرية السابقة لنشأة الدولة الاسرائيلية توفر بعض الخبرات الملاحية والعناصر البشرية مع قليل من السفن ، التي استثمرت في تشكيل السلاح البحري عام ١٩٤٨ ، الذي ضم بعض زوارق وسفن الدورية وزوارق الطوربيد ، ومن ثم كان له دورا محدودا للغاية في العمليات الحربية التي جرت في حرب ١٩٤٨ ، خاصة وأن اقوى تسليح للفرقاطات « Freighters » القديمة التي تزود بها كانت بعض المدافع العتيقة الطراز عيار ٦٥ مم ٠ وكانت اهم العمليات التي قام بها السلاح البحري في هذه الحرب هو محاولة فرض حصار محدود على مرفأ « غزة » خلال عمليتي « الضربات العشر » و « حورف » اللتين جرتا ضد الجيش المصري في شهور تشرين الاول (اكتوبر) وكانون الاول والثاني (ديسمبر ويناير) ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ، واستطاع خلالها زورق طوربيد اسرائيلي أن يغرق سفينة حربية صغيرة كانت تدعى « الامير فاروق » قرب شواطيء

«غزه» ، كما قام السلاح المذكور بانزال بعض مجموعات « الكوماندوس » على شواطيء سيناء الشمالية حيث قاموا بنسف اجزاء من الخط الحديدي بين العريش » و « رفح » اثناء عملية « حورف » في اواخر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ . وعموما كان حجم ونوعية العمليات البحرية طوال حرب ١٩٤٨ محدودا للغاية بالنسبة لكلا الطرفين ، وان كانت البحرية المصرية (وهي البحرية العربية الوحيدة التي كان لها نشاط في الحرب المذكورة) قد قامت بنشاطات اكثر فاعلية من البحرية الاسرائيلية بحكم امتلاكها اصلا لنواة سلاح بحري اكبر واكثر تدريبا وتنظيما ، فقصفت الفرقاطات التابعة لها مرافيء « قيصرية » و « نهاريا » اكثر من مرة .

واقد كان ضعف الاسلحة البحرية المتوفرة لكل من الدول العربية من جهة واسرائيل من جهة اخرى ، هو السبب الرئيسي لضعف العمليات البحرية حجم ونوعا وشبه انعدام تأثيرها على مجرى العمليات الحربية البرية والجوية التي جرت في الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى، وذلك رغم الاهمية الحيوية الاستراتيجية للبحر الابيض المتوسط كمجال للعمليات البحرية بالنسبة للطرفين ، فالمبادرة الهجومية العربية في ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ كانت تتطلب ضرورة فرض حصار بحري على شواطيء فلسطين لمنع وصول أي تعزيزات جديدة من الرجال والسلاح والعتاد والوقود الى الدولة الصهيونية الوليدة ، أو على الاقل عرقلة وصول هذه التعزيزات . وللسبب نفسه كانت الدولة الصهيونية في حاجة لسلاح بحري قادر على تأمين حركة الملاحة الى مرافئها الرئيسية «تل ابيب » و« يافا » و« حيفا » و« عكا » لضمان وصول حاجاتها من السلاح والعتاد والمركبات والوقود بالكميات الكافية لصمودها في وجه الهجوم الاستراتيجي العربي الجاري على عدة جبهات ثم انتزاع المبادرة وتوسيع الارض المحتلة في فلسطين . ولكن اشراف الدول الامبريالية على مصادر تسليح الدول العربية وتحكمها شبه المطلق فيها ، حال دون توفر كميات ونوعيات التسليح اللازم لها في تصديها للدولة الاسرائيلية ، وخاصة في مجالات الاسلحة البحرية والجوية (والمدرعات ايضا بدرجة اقل نسبيا) ، وبدون توفر اسلحة بحرية فعالة تضم قوة من المدمرات والغواصات تحميها قوة جوية فعالة كان من المستحيل على دول المواجهة العربية أن تفرض الحصار البحري على اسرائيل خلال حرب ١٩٤٨ ، ومن ثم لم تكن هناك ضرورة ملحة على اسرائيل لكي تنشيء سلاحا بحريا فعالا عند قيام الدولة وطوال حرب ١٩٤٨ ومحاولة تأمين متطلبات مثل هذا السلاح من السفن والرجال من الدول الامبريالية المساندة لها .

البحرية الاسرائيلية في حربي ٥٦ و٦٧ :

وفي السنوات الفاصلة بين حربي ١٩٤٨ و ١٩٥٦ شهدت البحرية الاسرائيلية

نموا ملحوظا في قوتها سواء من حيث الكم أو النوع ، خصوصا أن زودتها بريطانيا بالمدمرتين « ايلات » و« يافا » ، اذ كان الوزن القياسي لكل منهما يبلغ ١٧١٠ اطنان (و٢٥٥٥ طنا بحمولة كاملة) ، وكل منهما مسلحة باربعة مدافع عيار ١١٥ مم و ٦ مدافع م / ط عيار ٤٠ مم و ٤ قاذفات لقنابل الاعماق المضادة للغواصات · ويتألف طاقم الواحدة من ٢٥٠ بحارا وضابطا · وكانت هاتان المدمرتان تعتبران قطع حديثة قوية وضخمة بالقياس للفرقاطات القديمة المسلحة بمدفع أو مدفعين عيار ٦٥ مم المتخلفة من الحرب العالمية الاولى ، أو بالقياس لمحطمة الجليد القديمة « نورث لاند » المبنية عام ١٩٢٧ والتي لم تكن سرعتها تزيد عن ٧ عقد بحرية في الساعة ، التي كانت تستخدمها البحرية الاسرائيلية خلال عام ١٩٤٨ ·

والتطور الجديد الآخر الذي اصابته البحرية الاسرائيلية خلال الفترة المذكورة ، من حيث اتساع المهام نسبيا ، هو وجود قوة صغيرة من الزوارق وسفن الانزال في ميناء « ايلات » على خليج العقبة (الذي استولت عليه اسرائيل في اوائل عام ١٩٤٩ بالتواطوء مع الجنرال غلوب قائد الجيش الاردني آنذاك) ، ولكن هذه القوة ظلت حبيسة الميناء المذكور منذ ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٥ حين شددت مصر الحصار على مضائق « تيران » عند مدخل خليج العقبة وعززت حاميتها في « شرم الشيخ » ووضعت بطارية من المدفعية الساحلية في « راس نصراني » الواقعة الى الشمال قليلا من « شرم الشيخ »· بحيث تتحكم تماما في الملاحة من « ايلات » الى البحر الاحمر · وعشية حرب ١٩٥٦ كانت البحرية الاسرائيلية تتالف اساسا من مدمرتين و٩ زوارق طوربيد وسفينتي انزال فضلا عن بعض زوارق الدورية والفرقاطات القديمة ، وكان معنى ذلك تدني شديد في القوة الضاربة البحرية ، وضعف شديد في امكانات توفير حراسة فعالة للسواحل الاسرائيلية نظرا لعدم قدرة تشغيل اكثر من مدمرة واحدة في الدورية الدائمة · ولكن هذا الوضع لم يكن يثير القلق لدى رئاسة الاركان الاسرائيلية التي بنت استراتيجيتها العامة ، اي نظريتها الامنية ، على اساس مبدأ « الحرب القصيرة » ، وأن « حصارا بحريا طويلا هو احتمال غير متوقع ومن ثم فأن قوة بحرية كبيرة ليست مطلوبة ، لانه وفقا لافتراض « الحرب القصيرة » فأن اي حصار بحري قد يفرضه العرب سوف يتم رفعه ان عاجلا أو آجلا بواسطة التدخل الدبلوماسي للقوى الكبرى ، او بواسطة الحاق الهزيمة بهم في ميدان العمليات البرية » (٢) · ولذلك عمدت اسرائيل الى تخزين قدر كاف من المؤن والوقود والاسلحة والذخائر يجعلها قادرة على تحمل مثل هذا الحصار البحري القصير الامد · هذا بالاضافة الى اعتمادها على قوتها الجوية ، الجاري تطويرها بمعدلات كبيرة تفوق كثيرا معدلات نمو القوة البحرية ، في تأمين سواحلها ضد هجمات البحرية العربية المحتملة ، خاصة النهارية منها · ولكن في النتيجة الاخيرة

كان معنى ضعف البحرية الاسرائيلية على هذا النحو انه لن يصبح امام اسرائيل في حالة اي تهديد بحري عربي مهما كان صغيرا أو محدودا سوى خيار الحرب الشاملة ، في حالة اذا لم تسفر ضغوط القوى الدولية الدبلوماسية عن نتيجة عملية · وفي هذه الاثناء ، أي عشية حرب ١٩٥٦ ، كانت البحرية المصرية قد بدأت تدخل مرحلة جديدة من تطورها الكمي والنوعي · اذ كانت قد حصلت بمقتضى صفقة الاسلحة السوفييتية عام ١٩٥٥ على مدمرتين حديثتين من طراز « سكوري » ، التي كانت مدافعها من عيار ١٣٠ مم ذات مدى يفوق مدى مدافع المدمرات الاسرائيلية عيار ١١٥ مم (كانت الواحدة وزنها القياسي ٢٦٠٠ طن وبحمولة كاملة ٣٥٠٠ طن ومسلحة باربعة مدافع ١٣٠ مم ومدفعين م/ط ٧٦ مم و٧ اخرى عيار ٣٧ مم فضلا عن ١٠ انابيب طوربيد عيار ٥٣٣ مم وقاذفات قنابل اعماق) وتتفوق عليها في بقية التسليح والحمولة والسرعة ومدى العمل ، كما حصلت على نحو ٣٠ زورق طوربيد ، وذلك بالاضافة لما كان لديها من مدمرتين بريطانية الصنع و٧ فرقاطات و« كورفيت » ، وكانت قد حصلت ايضا على ٣ غواصات سوفييتية ما زال اطقمها تحت التدريب · ولذلك لم يكن من الممكن للبحرية الاسرائيلية ان تواجه البحرية المصرية في حرب ١٩٥٦ بدون التدخل البريطاني ـ الفرنسي ، خاصة وأن الطيران الاسرائيلي لم يكن قد وصل بعد الى درجة التفوق الكمي والنوعي القادر على تأمين السيطرة الجوية في وجه الطيران المصري ، الذي كان قد بدأ يحصل على الاعداد الاولى من طائرات « الميغ ١٥ » و« الميغ ١٧ » وقاذفات القنابل « اليوشين ٢٨ » · ولذلك لم يكن للبحرية الاسرائيلية أي دور في العمليات الحربية في البحر الابيض المتوسط قبل التدخل البريطاني ـ الفرنسي في حرب ١٩٥٦ ، وهو التدخل الذي حال دون استفادة مصر من تفوقها البحري نظرا لقيام الاسطولين البريطاني والفرنسي بحماية شواطيء اسرائيل ومهاجمة القطع البحرية المصرية في البحرين الابيض والاحمر ، حتى قبل الاعلان الرسمي عن التدخل في الحرب ، بدليل ان المدمرة المصرية « ابراهيم الاول » (البريطانية الصنع) التي قصفت ميناء « حيفا » في الساعة ٣ر٣٥ ليلة ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٦ بنحو ٢٢٠ قذيفة من مدافعها عيار ٤ر٤ بوصة من مسافة ٨ كلم تقريبا ، فوجئت بالمدمرة الفرنسية «كريشانت» تتجول في المياه القريبة من « حيفا » واعترضتها مطلقة عليها ٤٦ قذيفة مجبرة اياها على الانسحاب بسرعة نحو « بور سعيد » ، (٣) واثر ذلك شاركت المدمرتان « ايلات » و « يافا » في عملية مطاردة المدمرة « ابراهيم الاول » دون ان تمكننا من اصابتها باضرار تذكر · وفي فجر اليوم التالي هاجمت المدمرة طائرتان من طراز « اوراغان » واصابتاها بقذائف صاروخية دمرت معدات القيادة والاجهزة الكهربائية فتعطلت رافعات الذخيرة عن العمل ، وقرر قائد المدمرة اغراقها ، الا ان الصمامات التي حاول فتحها كانت صدئة لذلك لم تمتليء

المدمرة بالماء لتعذر فتح الصمامات ، ومن ثم استولت السفن الحربية الاسرائيلية عليها واسرت طاقمها · ولم يستطع الطيران المصري ان يوفر الحماية الجوية للمدمرة وكان هذا هو السبب الرئيسي في اصابة وتعطل المدمرة ثم وقوعها في الاسر · وباستثناء هذه العملية لم تشارك البحرية الاسرائيلية في اي عمليات اخرى خلال حرب ١٩٥٦ ، حتى ان القصف البحري الذي تم لدفاعات « رفح » لمدة نصف ساعة في ليلة اول تشرين الثاني (نوفمبر) تمهيدا لهجوم « مجموعة العمليات ٧٧ » عليها ، تولاه الطراد الفرنسي « جورج لييج » وعدد من المدمرات الفرنسية المساعدة له ، ولم تسهم فيه على اي نحو كل من المدمرتين الاسرائيليتين « ايلات » و « يافا » ، وكان ذلك مخططا له من قبل نشوب الحرب بين القيادتين الفرنسية والاسرائيلية ، ولم يكن لاشتراك المدمرتين في مطاردة المدمرة « ابراهيم الاول » اي دخلفي امتناعهما عن الاشتراك في القصفالبحري المشار اليه ·

وفي العشر سنوات التالية لحرب ١٩٥٦ لم يطرأ تغيير كبير على حجم ونوعية البحرية الاسرائيلية، باستثناء حصولها على ٣ غواصات بريطانية الصنع وزيادة عدد زوارق الطوربيد الى ٢٤ زورقا ، وذلك لان متطلبات اعداد القوة العسكرية الاسرائيلية القادرة على وضع نظرية الامن في صورتها الهجومية الاكثر تطورا (القائمة في الاساس على مبدأ الهجوم المضاد المسبق الخاطف) في التطبيق فرضت اعطاء الاولوية في التسليح للطيران يليه سلاح المدرعات باعتباره الجناح الثاني لثنائي « الطائرة ـ الدبابة » المنفذ لتكتيكات حرب الحركة السريعة ثم المظليين والمشاة الميكانيكية والمدفعية والهندسة ، اما سلاح البحرية فكان ترتيبه في نهاية سلم الاولويات التي وضعتها رئاسة الاركان في سياسة التسليح وانفاق المبالغ المخصصة لها في ميزانية الدفاع · وذلك على الرغم من زيادة قوة البحرية المصرية خلال الفترة المذكورة زيادة ملحوظة كما ونوعا ، اذ اصبحت تضم ٦ مدمرات و ٦ فرقاطات و « كورفيت » و ٩ غواصات و ٤٣ زورق طوربيد، بالاضافة لدخول عنصر جديد تماما في تسليحها قلب ميزان القوى البحرية تماما بين العرب واسرائيل وقتئذ وهو زوارق الصواريخ الموجهة التي بلغت في عام ١٩٦٥ نحو ٦ زوارق من طراز « كومار » الذي يحمل صاروخين و ٤ زوارق من طراز « اوسا » الذي يحمل اربعة صواريخ ، اي قوة نارية اجمالية قدرها ٢٨ صاروخا قادرة على اغراق كافة قطع البحرية الاسرائيلية من مدى يقع خارج اي اسلحة لديها ، اذ كان مداها يتراوح بين ٣٥ و ٤٥ كلم · والواقع ان دخول زوارق « كومار » الخدمة في البحرية المصرية عام ١٩٦٢ ثم زوارق « اوسا » عام ١٩٦٦ قد شكل مفاجأة كبرى لقيادة البحرية الاسرائيلية ، ذلك لان النوع الاول من الزوارق كان قد ظهر في البحرية السوفييتية (التي كانت اول بحرية تستخدم مثل هذا الزوارق) حوالي عام ١٩٥٩ فقط ، ومن ثم كانت البحرية المصرية هي اول بحرية في العالم خارج الاتحاد السوفييتي ودول اوروبا الشرقيةتستخدم

مثل هذه الزوارق ، وقد عبر الاميرال « بنيامين تيليم » قائد البحرية الاسرائيلية اثناء حرب ١٩٧٣ ، في تقرير له عن « الدروس البحرية لحرب يوم الغفران » القاه في ندوة اكتوبر الاسرائيلية التي عقدت في جامعة تل ابيب عام ١٩٧٥ ، فقال « لقد ادركنا في البحرية الاسرائيلية بسرعة ، اننا لا نواجه تغيرا كبيرا في ميزان القوى فحسب ، بل اننا اصبحنا نواجه فجأة مرحلة جديدة من التطور التاريخي البحري ليست معروفة لدينا في النظرية والفكر ، الامر الذي شكل لنا مفاجأة لدى ادراكنا له » (٤) ٠

ولذلك بدأت البحرية الاسرائيلية على الفور تدرس هذا التطور الخطير في اساليب القتال البحري وكيفية الرد عليه بسرعة ، ومن ثم بدأت بالتعاون مع المانيا الغربية في تصميم صاروخ « غابرئيل » الموجه بالرادار وبالوسائل البصرية العادية على ارتفاعات منخفضة فوق سطح البحر وبسرعة ٦ر٠ ماك لمسافة تبلغ ٢٢ كلم ويحمل رأسا حربيا شديد الانفجار زنته ١٨٠ كلغ ، وعلى اساس انه سيوجه اساسا ضد المدمرات المصرية من طراز « سكوري » (كان الصاروخ السوفييتي « ستيكس » المسلحة به زوارق « كومار » و « اوسا » له رأس حربي زنته ٤٠٠ كلغ ويستطيع ان يصيب سفنا حمولتها اكثر من ١٠ آلاف طن باضرار جسيمة وهو مزود بنظام توجيه ذاتي دقيق للغاية ويمكنه اصابة الزوارق الصغيرة بدقة ايضا) ٠ كما طلبت في عام ١٩٦٥ من احواض بناء السفن في « شربور » بفرنسا بناء ٦ زوارق صواريخ بموجب تصاميم وضعها ليرسن فيرفت « بريمن » في المانيا الغربية ، ذلك لان الاخيرة رأت بناء الزوارق في فرنسا لتتجنب مزيدا من المشاكل مع الدول العربية الناجمة عن تزويدها اسرائيل بصفقة الاسلحة الضخمة عامي ٦٤ ــ ٦٥. ثم طلبت البحرية الاسرائيلية عام ١٩٦٦ بناء ٦ زوارق اخرى ٠ وكانت هذه الزوارق التي حملت التسمية الاسرائيلية « ساعر » يبلغ الوزن القياسي للواحد منها ٢٢٠ طنا وبحمولة كاملة ٢٥٠ طنا ، واطوالها ٤٥ × ٧ × ٨ر١ مترا ، وهي مزودة باربعة محركات ديزل قوة دفعها ١٤ الف حصان ، وسرعتها القصوى ٤٢ عقدة ، ومدى عملها يصل الى ٢٥٠٠ ميل بسرعة ١٥ عقدة و ١٠٠٠ ميل بسرعة ٣٠ عقدة ، والمجموعة الاولى منهامسلحة بثمانية صواريخ « غابرئيل » و ٣ مدافع م/ط عيار ٤٠ مم وقاذفي طوربيد عيار ٥٣٣ مم . والمجموعة الثانية مسلحة بستة صواريخ ومدفع م/ط عيار ٧٦ مم . ويتألف طاقمها من ٣٥ــ٤٠ رجلا (٥) ٠

وعندما نشبت حرب ١٩٦٧ كانت البحرية الاسرائيلية لم تفرغ بعد من مهمة بناء وتسليح الزوارق الجديدة والتدريب عليها واستيعاب التقنية والتكتيكات الجديدة المترتبة على هذا التطور الثوري الجديد في التسليح والقتال البحري ، ولم يكن الصاروخ « غابرئيل » قد استكمل عملية تصميمه وتعميمه للاستخدام العملي ، لذلك لم تشهد هذه الحرب عمليات بحرية اسرائيلية تذكر باستثناء

محاولات اغارة وحدات ضفادع بشرية فاشلة ضد ميناثي الاسكندرية وبورسعيد، وقيام قوة مؤلفة من ٣ زوارق طوربيد في خليج العقبة بمهاجمة المواقع الدفاعية المصرية في « رأس نصراني » يوم ٦٧/٦/٧ بعد اخلائها من المدافعين نتيجة لصدور الامر بالانسحاب العام من سيناء ، ثم انزلت الزوارق بعض البحارة للتأكد من خلو المواقع المصرية من الجنود تمهيدا لهبوط طائرات النقل بعد ذلك في مطار « شرم الشيخ » الى الجنوب من «رأس نصراني» بكيلومترات قليلة وهي تحمل قوة من المظليين للاستيلاء على المنطقة بأسرها بعد اشتباكات قصيرة مع بقايا القوات المصرية الموجودة هناك ٠

تأثير عملية اغراق المدمرة « ايلات » :

وعقب حرب ٦٧ زادت الاعباء الدفاعية الملقاة على عاتق البحرية الاسرائيلية، فقد زاد طول الشواطىء التي يجب عليها حراستها في البحر الابيض المتوسط ، نتيجة للاستيلاء على قطاع غزة وسيناء ، واصبح نحوا من ٤١٨ كلم ٠ كما بلغ طول هذه الشواطىء في منطقة البحر الاحمر على امتداد خليجي العقبة والسويس نحو ٦٤٣ ، وحيث توجد اهداف حيوية مثل مضائق « تيران » وآبار النفط في الشاطىء الشرقي لخليج السويس ، خاصة عند « ابو رديس » و « سدر » ٠ كما ادى سقوط الضفة الغربية للاردن الى وجوب حماية نحو ١٠٠ كلم من الشاطىء الغربي للبحر الميت بدوريات من الزوارق الخفيفة تحسبا لهجمات محتملة للفدائيين الفلسطينيين من قواعدهم في الاردن ٠ لكن البحرية الاسرائيلية لم تكن تملك القطع اللازمة لحماية كل هذه الشواطىء ، سواء بالنسبة لعمليات المراقبة او عمليات اعتراض القطع البحرية العربية ٠ ولذلك زودت ببعض الطائرات المروحية وطائرات الهيلوكبتر المسلحة للقيام باعمال الدوريات البحرية ومشاركة طائرات السلاح الجوي في التصدي للقطع البحرية العربية ومطاردتها ٠ ورغم ثقل هذه المهام بالنسبة الى القوة المحدودة للبحرية الاسرائيلية ، فقد بقيت في المرتبة شبه الاخيرة بالنسبة الى اولويات التسليح بالنسبة لرئاسة الاركان الاسرائيلية ، التي باتت منتشية بنصرها الخاطف الذي حققته قواتها البرية والجوية ضد الجيوش العربية الثلاثة في سيناء والجولان والضفة الغربية ، ومطمئنة الى القوة الرادعة للسلاح الجوي القادر على التخفيف كثيرا عن السلاح البحري ومهامه الصعبة ، ومن ثم سارت عملية تجهيز قوة زوارق الصواريخ الجديدة بهدوء ودون الشعور بحاجة ملحة للاسراع بها ، الى ان اغرقت المدمرة « ايلات » يوم ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٧ اثناء قيامها باعمال الدورية قرب بور سعيد بواسطة ثلاثة صواريخ « ستيكس » اطلقت عليها من زورقي صواريخ مصريين من طراز « كومار » (كانت البحرية المصرية لديها وقتئذ ١٩ زورقا من طرازي « كومار » و « اوسا » ، وقد شل الصاروخ الاول المدمرة عن الحركة واغرقها الصاروخ الثاني ، وفقد من طاقم المدمرة ٤٧ من بحارتها وجرح

٥٤ من البحارة الآخرين الذين تم انقاذهم ٠ ودفعت هذه الكارثة التي حلت بالبحرية الاسرائيلية الى اتخاذ قرار بابطال استخدام المدمرات كسلاح رئيسي فيها والسعي السريع للحصول على زوارق الصواريخ الفرنسية الصنع وتطوير بحوث الصاروخ « غابرئيل » والمعدات الالكترونية المكملة لتسليح الزوارق ،فضلا عن وضع التكتيكات القتالية الجديدة اللازمة لها ، بعد ان اكدت « ايلات » حقيقة بدء مرحلة تاريخية جديدة في الحرب البحرية على المستوى العالمي ٠ وقد حلت كارثة ثانية بالبحرية الاسرائيلية بعد ذلك بوقت قصير ، اذ غرقت الغواصة « داكار » يوم ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ في شرق البحر الابيض المتوسط في ظروف غامضة اثناء عودتها من المياه البريطانية حيث كانت تجري اصلاحات شاملة ، وغرق معها طاقمها المؤلف من ٦٩ ضابطا وبحارا ٠

ونتيجة لالحاح اسرائيل على مصانع بناء الزوارق الفرنسية سرعة بناء الزوارق المطلوبة منذ عام ١٩٦٥ ، وصل الى « حيفا » اول زورق منها في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٧ ، اي بعد غرق « ايلات » بنحو شهرين واطلق عليه اسم « مفتاح » ، ولكنه كان مجرد زورق غير مسلح على اي نحو بعد ٠ ومضت خمس سنوات قبل ان يتم تسليح هذه الزوارق على النحو الذي ظهرت بعد ذلك في حرب١٩٧٣٠وفي عام ١٩٦٨ بدأت البحرية الاسرائيلية في وضع تصميم جديد لزوارق بعيدة المدى تصلح للعمل في البحر الاحمر ، وهي التي عرفت باسم « رشاف » ، وبدأ بناء الزورق الاول في احواض « حيفا » عام ١٩٧٠ وانتهى العمل فيه ثم انزل الى البحر في ١٩ شباط (فبراير) ١٩٧٣ ليبدأ الخدمة العملية بعد تسليحه في نيسان (ابريل) من العام نفسه ، ثم انزل الزورق الثاني منهذا الطراز واسمه « كيشت » في ٢٣ آب (اغسطس) من العام نفسه ٠ وتبلغ الحمولة الكاملة لهذا النوع من الزوارق ٤١٥ طنا واطوالها ١٠ر٥٨ × ٦٢ر٧ × ٤٥ر٢ مترا ، وهي مزودة باربعة محركات ديزل قوتها ١١الف حصان ، وسرعتها القصوى ٣٢ عقدة ، ومدى عملها ١٢٥٠ ميلا بسرعة ٣٠عقدة في الساعة ، وهي مسلحة بسبعة صواريخ « غابرئيل » ومدفعين ٧٦ مم ورشاشين ١٢ر٧ مم و ٤ قنابل اعماق ٠ ولكن المشكلة الرئيسية التي واجهت القيادة البحرية الاسرائيلية وهي بصدد صياغة تكتيكات استخدام زوارقها الصاروخية تمثلت في قصر مدى صواريخ « غابرئيل » بالنسبة لصواريخ « ستيكس » العربية ، اذ كان اقصى مدى لها ٢٢ كلم على حين ان الاخيرة يصل مداها الى ٤٥ كلم ، ومعنى ذلك انه كان على الزوارق الاسرائيلية ان تقطع اكثر من ٢٠كلم وهي تحت مرمى الزوارق العربية قبل أن تستطيع ان تطلق صواريخها ٠ وبناء على هذا تضمن التكتيك البحري الاسرائيلي على اسس ثلاثة ، الاول هو ضرورة اكتشاف وتحديد مواقع الزوارق العربية في مرحلة مبكرة قدر الامكان قبل بدء الاشتباك ، والثاني الاقتراب بسرعة من المدى الفعال الممكن اصابة الزوارق المعادية منه على ان يتم في هذه المرحلة الدقيقة والحرجة للغاية القيام باكبر قدر

ممكن من المناورة وتجنب الاصابة بصواريخ « ستيكس » ، وفي المرحلة الثالثة يتم اطلاق الصواريخ من المدى الفعال مع الاستمرار في الاقتراب من الهدف واطلاق مزيد من الصواريخ ثم استخدام المدافع ٧٦ مم الآلية اذا امكن في نهاية الاشتباك ، وكانت المرحلة الثانية هي عصب او جوهر العمليات الهجومية ،وضمان نجاحها كان يتطلب ضرورة تجهيز الزوارق بمعدات الكترونية قادرة على التشويش المضاد ضد الصواريخ واجهزة الرادار الموجودة لدى الزوارق العربية، مع ضرورة التمكن من اطلاق نار فعالة ضد الصواريخ المعادية في الوقت ذاته واجراء المناورات بمهارة والزورق يسير منطلقا باقصى سرعة تحت النار المعادية (٦) · ويبدو انه تم تجهيز الزوارق الاسرائيلية بمعدات الكترونية متطورة وذات حجم مناسب لحجم الزوارق الصغير نسبيا ، بفضل التعاون الوثيق القائم بين اسرائيل والولايات المتحدة الاميركية وغيرها من الدول الامبريالية التي تقدم المساعدات والمعونة التقنية لها بطريق مباشر او غير مباشر، وهو الشيء الذي لم يتسرب تفاصيله العملية والتقنية بصورة علنية حتى الآن · هذا بالاضافة الى الجهود الاسرائيلية الذاتية المستندة على درجة كبيرة من التطور العلمي والتقني الذي احرزته اسرائيل ، والذي حفزتها عليه في مجال الزوارق الصاروخية رغبتها الشديدة في استيعاب درس « ايلات » المؤلم والاستفادة منه في تطوير قوتها البحرية الضاربة ·

هذا وكانت البحرية الاسرائيلية قد حصلت على ٧ زوارق فقط من الاثني عشر زورقا التي تعاقدت على بنائها في « شربور»عندما فرضت فرنسا حظرا عاما على تصدير السلاح الى الدول المتورطة في صراع الشرق الاوسط ، ولذلك دبرت مخابراتها بالتواطؤ مع بعض المسؤولين الفرنسيين عملية سرقة الزوارق الخمسة المتبقية في احواض « شربور » بنورماندي على الساحل الفرنسي المطل على الاطلسي في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٩ ، ووصلت الزوارق الى « حيفا » بعد رحلة بحرية استغرقت ٦ ايام ·

دور البحرية في حرب ١٩٧٣ وما بعدها :

وعند نشوب حرب ٦ تشرين الاول (اكتوبر) كان لدى البحرية الاسرائيلية ١٤ زورق صواريخ ، ١٢ من فئة « ساعر » واثنين من فئة « رشاف » اجمالي قوتها النارية ٩٨ صاروخا ، وغواصتان و ٩ زوارق طوربيد و ٢٠ زورق دورية و ١٠ سفن انزال صغيرة · على حين كان لدى البحرية المصرية ٥ مدمرات و ٤ سفن حراسة (فرقاطات وكورفيت) و ١٢ غواصة و ١٩ زورق صواريخ (١٢ منها طراز « اوسا » و ٧ طراز « كومار ») اجمالي قوتها النارية ٦٢ صاروخا، و ٣٦ زورق طوربيد و ١٢ زورق دورية مسلحة بقواذف صواريخ مدفعية « كاتيوشا » ، و ٨ كاسحات الغام و ١٤ سفينة انزال صغيرة · وكان لدى البحرية السورية ٨ زوارق صواريخ (٦ « كومار » و ٢ « اوسا ») اجمالي

قوتها النارية ٢٠ صاروخا ، و ١٧ زورق طوربيد و ٣ زوارق دورية و ٤ كاسحات الغـــام ٠

اي ان البحرية الاسرائيلية كانت تتمتع بتفوق محدود في اجمالي القوة النارية لزوارق الصواريخ من حيث عددها مقابل تخلفها في مدى النيران المؤثرة ٠ وقـد عمدت البحرية الاسرائيلية الى اخذ المبادرة الهجومية في ليلة٦ ــ ٧تشرين الاول (اكتوبر) فأرسلت قوة تضم ٥ زوارق صواريخ (فئة ساعر على الارجح) الى الشواطىء السورية قرب « اللاذقية » حيث اشتبكت في حوالي الساعـة ٣٠ر١٠ مساء مع زورق طوربيد بنيران مدافعها بواسطة زورق واحد على حين هاجمت بقية الزوارق قوة من زوارق الصواريخ السورية كانت على مبعدة ٤٠ كلم من القوة الاسرائيلية وقد اطلقت الزوارق السورية صواريخها من مسافة ٥ر٣٧ كلم تقريبا واطلقت الزوارق الاسرائيلية صواريخها من مسافة ٢٠ كلم ٠ وتزعـــم المصادر البحرية الاسرائيلية ان زوارقها استطاعت ان تتجنب الاصابة بالصواريخ السورية وانها تمكنت من اصابة ٣ زوارق سورية فضلا عن زورق الطوربيـــد وكاسحة الغام (٧) ٠ وفي ليلتي ١١ــ١٢ و ١٢ــ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) هاجمت مجموعة من الزوارق الاسرائيلية بالتعاون مع طائرات الهليكوبتر المسلحـــــة بالصواريخ مينائي « اللاذقية » و « طرطوس » وقصفت مستودعات الوقـــود الموجودة بهما ، وكذلك حدث في ميناء « بانياس » ٠ وفي يومي ١٤ و ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) نشبت معركتان بحريتان بين الزوارق السوريـــة تساندهـــا المدفعية والزوارق الاسرائيلية لم تعرف نتائجهما على وجه الدقة بعد ، اذ قالت البلاغات السورية انه تم اغراق ٤ زوارق اسرائيلية ولم تشر المصادر الاسرائيلية الى نتائج هذه المعارك ، وانما زعمت ان السفن السورية عموما لزمت مرافئهـا بعد المعركة التي جرت ليلة ٦ــ٧ المشار اليها آنفا ٠ أما على الجبهة المصرية فقد قامت قوة من ٦ زوارق اسرائيلية ليلة ٨ــ٩ تشرين الاول (اكتوبر) بدوريـــة هجومية في المنطقة الواقعة بين « دمياط » وبحيرة « البرلس » في شمال الدلتـا حيث اشتبكت مع قوة من زوارق الصواريخ المصريـــة اطلقت على الزوارق الاسرائيلية ١٢ صاروخا دفعة واحدة في الساعة ¼١٢ مساء من مسافة ٤٣ كلم تقريبا ، على حين اطلقت الزوارق الاسرائيلية صواريخها بعد ذلـك بنحو ٢٠ دقيقة من مسافة ٢٠ كلم ، وتقول المصادر الاسرائيلية انها اغرقـت ٤ زوارق مصرية من طراز « اوسا » في هذه المعركة ، على حين تقول المصادر المصريـة انها اغرقت ٤ زوارق اسرائيلية ٠ وفي ليلة ١٥ــ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) دارت معركة اخرى قرب شاطىء « ابو قير » الواقعة على بعد كيلو مترات قليلة الـى الشرق من الاسكندرية بين مجموعة من الزوارق المصرية الكامنة خلف جزيـــرة « دسوقي » بمساندة صواريخ ساحلية ارض ــ بحر من طراز « سامليت » مـع اربع زوارق صواريخ اسرائيلية كانت تحاول مهاجمة مرسى « ابو قير » ، وتقول

المصادر المصرية انها اغرقت ثلاثة زوارق اسرائيلية في هذه المعركة منها زورق اغرقته الطائرات بعد ان عثرت عليه مصابا امام « رشيد » فجر اليوم التالي ،كما حصلت عناصر الاستطلاع البحري المصري اثر المعركة على صاروخ « غابرئيل» بكاملة في الزورق المذكور ، وتم فحصه فنيا حيث تبين انه تجميع لاجزاء فرنسية وايطالية فضلا عن بعض الاضافات الاسرائيلية البسيطة · واذا ما جمعناحصيلة الخسائر العربية في زوارق الصواريخ التي ذكرتها المصادر الاسرائيلية سنجد انها ٧ زوارق (٤ مصرية و ٣ سورية) ، كما تبلغ جملة الخسائر الاسرائيلية وفقا للمصادر العربية ١١ زورقا (٧ بالمياه المصرية و ٤ في المياه السورية) ، وهو رقم مبالغ فيه ، لان الاخذ به يعني ان البحرية الاسرائيلية خرجت من حرب ٧٣ لديها ٣ زوارق صواريخ فقط ، على حين ان تقرير ميزان القوى الصادر عن معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني الصادر عنسنة ٧٤ـ٧٥ يفيد بأن البحرية الاسرائيلية كان لديها في نهاية عام ١٩٧٤ ، ١٦ زورقا للصواريخ (٨) ، ولا يعقل ان تستطيع البحرية المذكورة تصنيع ١٢ زورقا جديدا في احواض « حيفا » خلال عام واحد ، كما انه لم يرد في اي مصدر معلومات عالمي ما يفيد شراء اسرائيل لزوارق من الخارج خلال عام ١٩٧٤ ·

هذا وقد قامت وحدات من المغاوير التابعين للبحرية الاسرائيلية اثناء هذه الحرب بعدة محاولات اغارة على اهداف بحرية مصرية في « رأس غارب » و « الادبية » في خليج السويس وعلى ميناء « بورسعيد » في البحر الابيض المتوسط الا انها لم تحقق نتائج ملموسة· ولم تستطع البحرية الاسرائيلية ان تفعل شيئا حيال الحصار البحري المصري الذي فرض على مضيق « باب المندب » وترتب عليه وقف الملاحة الاسرائيلية في البحر الاحمر حتى رفعته مصر في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ ، وكذلك لم تستطع ان تفعل شيئا تجاه حصار الغواصات المصرية للملاحة الاسرائيلية في شرق البحر الابيض المتوسط ، والذي ادى الى تخفيض متوسط حركة الملاحة في موانيء اسرائيل من ٢٠٠ سفينة شهريا الى ٢٣ سفينة فقط خلال الفترة من ٦/١٠/٧٣ حتى ٣٠/١٠/١٩٧٣ ·

وعموما فقد اتاح التفوق الجوي الاسرائيلي ، خارج اطار الدفاع الجوي العربي ، قدرة كبيرة لزوارق الصواريخ الاسرائيلية على الحركة الهجومية السريعة في البحر الابيض المتوسط ، رغم ان معظم العمليات كانت تجري تحت جنح الظلام ، وذلك لان الحماية الجوية كانت تكفل لها سبيل مواصلة الانسحاب خلال النهار دون ان تخشى كثيرا من مطاردة الطيران او البحرية العربيين لها · كما ان طائرات الهليكوبتر الاسرائيلية القادرة على العمل بفاعلية في الليل قدمت دعما فعالا للزوارق في عملياتها سواء في الاستطلاع والانذار المبكر او في مشاغلة الزوارق العربية بنيران صواريخها ورشاشاتها · وفي النتيجة اعتبرت حرب ٧٣ اول حرب تسجل دورا ملحوظا للبحرية الاسرائيلية ·

ويمكن القول ان كارثة « ايلات » عام ٦٧ كانت تشكل الحافز الرئيسي وراء تطوير قدرات وتكتيكات البحرية الاسرائيلية عام ٧٣ ، على عكس الحال بالنسبة للطيران والمدرعات الاسرائيليين اللذين قادهما غرور نجاحات ٦٧ الى هزائم وخسائر فادحة عام ١٩٧٣ · وأيا كانت حقيقة النتائج التكتيكية لعمليات زوارق الصواريخ الاسرائيلية فان التفوق الاستراتيجي للبحرية المصرية ظل مسيطرا على الموقف العام سواء بالنسبة للخنق الاستراتيجي التام في البحر الاحمر او الجزئي في البحر الابيض المتوسط ، او بالنسبة لتأمين الملاحة في الموانىء المصرية حيث دخلت ميناء الاسكندرية مثلا يوم ٧٣/١٠/٣ ١٠ سفن على حين دخلتها يوم ٧٣/١٠/١٧ ٢١ سفينة ·

وعقب انتهاء حرب ٧٣ عملت البحرية الاسرائيلية على زيادة قوتها من زوارق الصواريخ ، خاصة من فئة « رشاف » التي نقلت منها زورقين الى البحر الاحمر عبر رحلة بحرية طويلة حول افريقيا تمت في نيسان (ابريل) ١٩٧٤ ، ولذلك اصبحت هذه القوة تضم ١٨ زورقا على الاقل حاليا (٩) وفي الوقت نفسه بدأت في اوائل عام ١٩٧٦ في تسليح زوارق الدورية « دبور » الصغيرة بصواريخ « غابرئيل » (وفقا لما ذكرته مجلن « افياشين اند مارين»في عدد ٢٤ عام٧٦)(١٠) وهي بسبيل استلام ٣ غواصات بريطانية الصنع من طراز « فيكرز » حمولة ٥٠٠ طن ويقوم بحارة هذه الغواصات بالتدريب عليها في بريطانيا حاليا · كما حصلت البحرية الاسرائيلية مؤخرا على نحو ١٠٠ صاروخ مضاد للسفن من طراز « هاربون» الاميركي الذي يمكن استخدامه من الطائرات او السفن او الغواصات، ولذلك فمن المحتمل ان تسلح به الغواصات الاسرائيلية الجديدة « فيكرز » · وفي الوقت نفسه زاد عدد طائرات الهليكوبتر المسلحة المعدة للعمل مع البحرية ضد الغواصات او السفن والزوارق ، كما يجري تطوير نوع جديد من صواريخ غابرئيل يصل مداه الى ٤٠ كلم · والمشكلة الاستراتيجية الرئيسية التي تشغل البحرية الاسرائيلية هي كيفية مواجهة احتمالات استخدام العرب للخنق الاستراتيجي في المستقبل، خاصة في البحر الاحمر الذي يعد من الناحية الجغرافية بحيرة عربية يمكن فيها تحقيق السيطرة البحرية والجوية العربيتين ، وبالذات في الجزء الجنوبي حيث يوجد مضيق « باب المندب » على مبعدة نحو ٢٣٠٠ كلم من قاعدة « ايلات » البحرية في خليج العقبة ، خاصة بعد ان سقطت او اهتزت بشدة على الاقل مقولة الحرب القصيرة ، وحول هذه المسالة قال العميد احتياط « شلومواريئيل » القائد السابق للبحرية في مقال نشرته صحيفة « معاريف » في ١٩٧٤/٤/٢٦ « لا مبرر للاسهاب في الحديث عن ضرورة المحافظة على حرية الملاحة في منطقة البحر الاحمر ، التي يمر فيها خط النفط من الخليج الفارسي الى ايلات ، والتي يتوقف عليها تصدير المعادن والاسمدة وتجارتنا مع الشرق الاقصى واستراليا وشرقي افريقيا ··· وتنطوي التطورات المتوقعة في منطقة البحر الاحمر ، بغد استئناف الملاحة في قناة السويس ، على مخاطر تصادم معمصالحنا

الحيوية ، ومحاولات زيادة عزلتنا في هذه المنطقة ··· ونحن نملك القدرة التقنية والبشرية كي نكون عنصرا بحريا مسيطرا في منطقة البحر الاحمر الحيوية، ونأمل ان تكون سفينتا الصواريخ « رشاف » و « كيشيت » المحاولة الاولى نحو مثـــل هذا التطور ·· ان هذا البحر ، الذي كان في الماضي نقطة ضعف لاسرائيل ، يمكن ان يتحول الى مجال مبادرة اسرائيلية وقت الحرب ، ولخلق تهديد لمؤخرة مصر وطرق ملاحتها · ان سيطرة مصر على قناة السويس تضع في يدها مفتاحا واحدا فقط في هذا الممر المائي ··· اما المفتاح الثاني والاهم فبالامكان ان يوجد في يد اسرائيل ، اذا عرفت كيف تطور التفوق البحري في منطقة البحر الاحمر وتحافظ عليـــــه » ·

وبطبيعة الحال ستشكل زوارق « رشاف » الصاروخية بعيدة المدى عمادالقوة البحرية الاسرائيلية التي ستعمل في البحرين الاحمر والابيض المتوسط من اجل انهاء او تخفيف اي حصار بحري عربي يفرض مستقبلا على اسرائيل ، وذلـــك بالتعاون مع الغواصات الحديثة المسلحة بالصواريخ وتحت الحماية الجويـــة لطائرات السلاح الجوي ، التي يمكن تزويدها بالوقود في الجو بواسطة طائرات صهاريج الوقود من طراز « بوينغ ستراتوكروزر » ، ومن خلال الحصول علـــى تسهيلات بحرية من « اثيوبيا » تسمـــح للزوارق الحصول على وقـــود ومـؤن واصلاحات عاجلة في مرافىء « ارتريا » ومن ثم تكون قدرتها اكثر فاعلية فـــي التصدي للسفن الحربية العربية عند « باب المندب » ولكن ليس مـــن المحتم ان تنحصر محاولات البحرية الاسرائيلية في الرد على عمليات « الخنق الاستراتيجي» العربية على الشكل المباشر في « باب المندب » او جنوب البحر الاحمر مثلا ،وانما قد يتخذ الرد شكل الرد غير المباشر عن طريق توجيه ضربات فعالة ضد اهداف اقتصادية او عسكرية حيوية في مصر او السودان او سوريا ، وربما السعوديـــة واليمن في حالة ثبوت تعاونهما عسكريا مع مصر والسودان في البحـــر الاحمر ، وذلك بهدف رفع ثمن الحصار البحري الى حد كبير تجعل الدول العربية تفاضل بين مزاياه واضراره ، مثلما حدث خلال حرب الاستنزاف المصرية عام ١٩٧٠ حين عمل الطيران الاسرائيلي من خلال ضربات العمق والقصف المكثف المستمر على الجبهة على رفع ثمن عمليات الاستنزاف الى حد باهظ ·

ولكن قدرة البحرية الاسرائيلية رغم ذلك كله ستظل محدودة في العمل بالعمق الاستراتيجي العربي ، خاصة في البحر الاحمر ، وستظل مقرونـــــة في الاســاس وبصفة عامة بقدرة السلاح الجوي الاسرائيلي على توفير الحماية للـــــزوارق والغواصات ، خاصة في البحر الابيض المتوسط · وبالمثل ستكون قدرة البحرية العربية في التعرض للتهديد البحري الاسرائيلي وممارسة نشاطات هجوميـــــة مباشرة في كل من البحرين الابيض المتوسط والاحمر على مدى توفر الحمايـــة والدعم الجوي لعملياتها ، وهو الدعم الكفيل بتحقيق الاستفادة الكاملة من ميزة

التفوق البحري الذي تتمتع به البحرية المصرية ، التي تعد قـــوة اكثر توازنـــا وفاعلية من البحرية الاسرائيلية ، خاصة اذا ما تم لها تطوير تسليح مدمراتها وغواصاتها بالصواريخ « سطح ـ سطح » و « سطح ـ جو » وتطوير معداتهـــا الالكترونية ، ووسائل الاستطلاع الجوي والبحري العاملة معها ٠ الا اننا يجـب ان نضع في الاعتبار ان البحرية الاسرائيلية ستعمل على استيعاب درس « بـاب المندب » ودرس حصار الغواصات المصرية في شرق البحر الابيض المتوسط ، كما عملت على استيعاب الدرس التكتيكي لاغراق « ايلات » ، وان خطورة عملياتهـا ستتزايد مستقبلا ، خاصة اذا ما اكملت الولايات المتحـدة الاميركية عتادهـــا المساعد من طائرات الدورية البحرية بعيدة المدى وسفن الامداد للعمل في اعالـي البحار واذا ما وافقت على امدادها بحاملة طائرات الهليكوبتر التي طالبت بها بعد حرب ١٩٧٣ ٠

الهوامش

١ ـ Telem . Benyamin , Naval Lessons of The Yom Kippur War , Military Aspects of the Israeli - Arab Conflict , Tel Aviv , 1975 . P. 229.

٢ ـ Luttwak . Edward / Horowitz . Dan , The Israeli Army , Allen Lane, London. 1975 p. 133.

٣ ـ Love Kennett. Suez The Twice-Fought War, Longman, London. 1970, P. 513.

٤ ـ Telem. Benyamin, Op. cit, P. 231

٥ ـ عبد الله ٠ هشام ، اسلحة الجيش الاسرائيلي ، مركز الابحاث الفلسطيني بيروت ، ١٩٧٤ ، صفحة ٨٥ـ٨٧ ٠

٦ ـ Telem. Benyamin, Op. Cit. P. 232

٧ ـ Ibid P. 234

٨ ـ The Military Balance 1974 - 75 P. 34

٩ The military Balance 1976 - 77 P. 34.

١٠ Aviation And Marine International. March 1976 , P . 15

الموت الجانبي
(قراءة راشد حسين في مجموعاته الثلاث)

الياس خوري

من الصعب بالنسبة لي الكتابة عن راشد حسين • في نيويورك ، بين حزن قديم وموت يقترب مات راشد حسين الذي لا نعرفه بشكل كاف • لنكتشف على حافة موته وجها آخر للموت الفلسطيني ، وللمنفى القسري الذي لم يكن راشد حسين قادرا على تجاوزه • فنحن الذين اكتشفنا مع الهزيمة ايقاع البندقية في يد الفقراء • وعشنا مع ايقاع القتال ، ايقاع شعر يحاول ان يرسم وجه الفدائي على صفحة الكلمات • لا نستطيع ان نفهم بالضبط تلك العلاقة بين الحزن القديم والموت الذي يقترب • ولا نستطيع ان نفهم كيف يقف هذا الشاعر الفلسطيني وسط بحر الكلمات الذي يجف • يملأ كأسه من دمه ويبحث عن موت بعيد في المنفى • ثم حين يموت تفتح له الارض ذراعيها وكأنه الابن الذي وجد • تغفر له خطاياه لانها ليست خطايا ، بل مجموعة من الاحزان الذي لم يكن زمن السجن الفلسطيني قادرا على تجاوزها •

لا نستطيع ان نفهم راشد حسين بشكل كاف • فنحن الذين كنا خارج الارض المحتلة لحظة اشتعال امل الولادات مع وجه عبد الناصر ، ومع الوحدة والثورات والاحلام • كنا نقرأ السياب والبياتي ، ونتابع الصراع بين « شعر » و « الاداب» نقف ادبيا على عتبة تحولات اعتقدناها تاريخية وحاسمة • وفي تلك اللحظة كان راشد حسين سيد المنابر في الارض المحتلة • حامل الامل العربي في لغة الشعر• كان ساحرا ، ليس بشعره فقط بل بكل ما كتب • كان في « المرصاد » و « الفجر » صوت الاوجاع العربية والتمرد العربي • وفي شعره ، تقع نقطة تقاطع الموت مع البداية • وكان صوته ايقاعا حادا يطرق جدران السجن •

★ صدرت للشاعر راشد حسين ثلاث مجموعات شعرية

مع الفجر ، مطبعة الحكيم • الناصرة ، ١٩٥٧ •

صواريخ ، مطبعة الحكيم • الناصرة ، ١٩٥٨ •

انا الارض لا تحرميني المطر ، منشورات فلسطين الثورة • نيسان ١٩٧٦ •

وهناك الكثير من قصائده المنشورة في الصحف والمجلات ولم تجمع حتى الان •

نقرأ راشد حسين حين يموت او دون ان يموت ، ونقول : هذه هي بدايات الشعر الفلسطيني ٠نبحث عنصوت درويش والقاسم داخل لغة اول شعراء الارض المحتلة ٠ نكتشف اشياء قليلة ٠ فنحن نعلم ان تاريخ الشعر ليس مستقيما ٠ونعلم ان راشد حسين لم يترك بصماته على احد ٠فهو شاعر متواضع ٠ لم يكن من المستحيل تجاوزه ، حين يتم تجاوز المرحلة ٠ لا نجد في شعره جذور الشجرة الفلسطينية ٠ فهو لم يكن صاحب وجهة شعرية حتى يترك بصماته على الشعر الفلسطيني ٠ رغم ان جميع الشعراء الفلسطينيين فتنوا كغيرهم من ابناء الارض المحتلة بصوت هذا الشاعر ٠ وربما قلدوه ٠ ورغم انهم ، في لحظة حزن ، قد يقولون ان بصماته لا تزال على كلماتهم ٠ لكن بصمات راشد حسين ليست في الواقع على كلمات احد غيره ٠ فهو شاعر متواضع ٠ لا نقرأه كي نقرأ تطور الشعر العربي في فلسطين ٠ ولا نقرأه فقط لانه مات٠٠ فالموت ليس جوازا حقيقيا الى القراءة ، نقرأه كي ندرس مرحلة كاملة ٠ مرحلة المنفى الذي بدون امل ٠ مرحلة البحث عن الامل ٠ المرحلة الوسيطة بين البندقية التي نزعت والبندقيةالتي يحاولون نزعها اليوم ٠

راشد حسين هو لحظة انتقالية في الوعي الشعري ٠ واللحظة الانتقالية هي لحظة مليئة بالالم ٠ ويزداد المها ، لان الذي يعيشها لا يعيها ضرورة ٠٠ فوعي لحظة الانتقال هو جزء من عملية الانتقال نفسها ٠ وهو بالتالي ، مليء بآلام الولادة٠ ولكن غالبا ما تكون لحظات الانتقال مخبأة داخل احتمالات الصراع او يكون الوعي عاجزا ضمن شروطه الموضوعية عن اكتشافها ٠ هنا يحصل التمزق الهائل وتستحيل الاختيارات الحقيقية ٠ وفي الارض المحتلة ، حين حملت الكلمة العربية راشد حسين من قريته الصغيرة الى قلوب الناس ، لم يكن الوعي في لحظات تكدس الهزائم فوق بعضها قادرا على الاستشراق الا في حدود ضيقة ٠ لذلك اختلط الرفض بالاحتجاج ٠ وعلا فعليا صوت الاحتجاج ٠ ووجد العرب انفسهم مشدودين الى وجه عبد الناصر في البحر العربي ٠وملزمين بوعي «ديمقراطي اصلاحي » مستحيل في الداخل ٠ ولم تكن الخيارات واضحة كي تكون ممكنة ٠

هل هذا هو الذي يجعل الموت الفلسطيني في نيويورك موتا جانبيا ٠ ام اننا لا نزال نعيش انتقالا آخر ٠ لا نكتشف ارضا ثابتة وسط بحار الدماء التي يفرض علينا خوضها كل يوم ٠ اما وعينا لهذا الانتقال فهو اكثر حدة ٠ ففي «الخارج» العربي لا يوجد انتقال فلسطيني خاص ٠ لذلك ، وعلى فوهة البندقية ، يرسم الفقراء في ازمنة الترجرج الانتقالية محاولاتهم للخروج الى البداية ٠ وداخل الانتقال الدموي ، تكتشف الكلمة انها ليست صدى٠ وتكتشف الثورة انها لا يمكن ان تكون صدى ٠ بينالانتقالين مسافة ٠ وراشد حسين ، وبدايات الكلمة العربية

في الارض المحتلة هو الذي رسم هذه المسافة بكلمات كتبها مع آخرين • لذلـــك يتحول موته من حدث الى رمز • ومن لحظة ادبية الى لحظة سياسية •

نادرا ما تختلط الامور والمستويات كما اختلطت الكلمة بالواقع الاجتماعي في الارض المحتلة • لحظة التحول الانتقالية في الخمسينات والستينات • وهذا حدث خاص • جزء من خصوصية واقع اغلق بالقوة ، فتحول كل ما فيه ليصب في كل ما فيه • اختلطت المستويات لان الواقع بسط الى درجة الموت ، والموت هو ابسط الاشياء لكنه اكثرها تعقيدا في الوعي • والوعي ، امام القتل ومحاولات القتـــل يمزج الزراعة بالاسطورة واللغة بشفاء الامراض • لذلك لا نستطيع ونحن نبحث في شعر هذه المرحلة ان نتكلم عن الشعر • بينما في « الخارج » العربي ، حيـــن كان صوت السياب هو العلامة ، كانت الحركة الشعرية تحقق محاولة انتقـــال نوعية • ولم تكن المستويات ممزوجة ببعضها الى حد عدم القدرة على التمييز • لذلك حين نتكلم عن الشعر في الارض المحتلة ولا نتكلم عنه ، فنحن ننطلق مـــن فرضية خاصة لزمن خاص ولوعي خاص • فهي مرحلة انتقالية ، ليس علـــى مستوى الشعر ، لانها فينا لم تقدم شيئا يبرر خصوصيتها ، ولكن على مستوى معنى الشعر • حيث يصبح الشعر لحظة وعي • وحيث تعود اللغة هي الام التي تحتضن اولادها ، حين ينزعونهم عن الرحم الذي يريدون العودة اليه •

ماذا يقول الشعر في قصيدة راشد حسين ؟

الشعر هو اللغة • واللغة هي الماضي ، والماضي هو المستقبل • بهذه البساطة وهذا التعقيد ، يصبح الماضي اساس المستقبل • هذا هو الخيار الاول الممكـــن والمستحيل • في مواجهة عدو مليء بنزعة الاضطهاد ، محشو بالرأسمالية الغربية التي سيكون احد ادواتها وضحاياها مرة اخرى • كان الاضطهاد القومي ، الاضطهاد الحقيقي المتوحش هو وسيلته الوحيدة للدخول فيمأزق الامبريالية الذي لا بد منه • فاستعار الارض قناعا ، وحاول ان يحيل القناع الى وجه ثابت • هجر الفلاحين الى حيث لا يستطيعون • وسحق اللغة الى درجة ان جسدها وحده كان مجبرا على التحرك • وفي ذلك الزمن ، كان الواقع العربي مستنقعا يسبح فيـــه الاقطاعيون والمرتزقة • ولم تكن الارض المحتلة بالعنف الخارجي ، محتلة بهـذا العنف وحده • بل كان يحتلها العجز عن المقاومة • سحقت المقاومة بين ايـــدي قيادات محكومة بالعجز والجبن • لذلك اصبحت فلسطين سجنا حقيقيا • وداخل السجن تصبح الذكريات هي الامل • الماضي هو الامل الوحيد الممكن • لكنالماضي في الواقع الجديد كان لغة• واللغة جسد حي يختلط باحزان الفلاحين وبحصادهم الذي يسرق • لذلك كانت املا • داخل حيطان اللغة والتراث يلجأ الشعب • ثـــم تنفجر اللغة والتراث ثورة حقيقية • اليس هذا هو درس الجزائر في تاريخنـــا الحديث •

الشعر هو اللغة · لغة التحدي · انه بداية الوصول الى المستقبل · لذلك يصبح الشعر مجرد وعاء عوض ان يكون الشكل المتحرك ، يصبح وعاء ثابتا وتضيق حركته · لكن دوره الاجتماعي والسياسي يتسع · هنا يسمح الوعي الاصلاحي الممكن للشعر بتجاوز وعيه الاجتماعي · وتتسع اللغة ، ويتسع ايقاعها ·

والشعر هو كثافة الواقع العربي في الخارج · فاللغة ، الوعاء ، تصبح في لحظات التحول قادرة على الامتداد · تأخذ الواقع العربي في حركته الى ايقاعها وتمتد من عبد الناصر الى الجزائر · ومن الثورة الى احتمالات الثورة ، هل كان مجرد صدفة ان ترتفع اللغة السياسية في شعر راشد حسين وحنا ابو حنا في آفاق الثورة الجزائرية عندما كانت مصر تؤمم قناة السويس وتقيم مع سوريا اول وحدة عربية في تاريخنا الحديث ؟ وهل كان صدفة ان يترافق هذا الصوت مع ولادة ونمو منظمة « الارض » داخل فلسطين المحتلة ؟ وهل كان انهيار « الجبهة العربية في اسرائيل » التي ولدت في ١٤ تموز ١٩٥٨ ، مع انهيار التحالف بين الشيوعيين وعبد الناصر مجرد صدفة ؟ مجموعة الصدف تتحول من صدفة الى ظاهرة · ومن ظاهرة الى مجموعة علاقات · اللغة تنتقل من دورها السابق ، حين ينتقل الواقع من المستنقع الى الاحتمالات · عندها يبدأ الواقع يكتشف ان الماضي ليس المستقبل · وان الثورة وحدها هي المستقبل · يومها، يبحث الشاعر عن المضامين الثورية · لا يبحث عن الشعر · يبحث عن لغة تواصل سياسية · فيرتفع الايقاع الصاخب المباشر · وتلتهب الحناجر والأكف · ويبدأ الواقع مسيرته الى تجاوز نفسه ·

والشعر هو تكثيف للماضي والحاضر والمستقبل الثقافي في لحظة واحدة · لم يكن البحث في الشعر ممكنا · وربما لم تكن القصيدة ممكنة · زمن الشعر هو أزمنة تداخل ثقافية · لا وجود لزمن شعري خاص · الشعر ، يحاول ان يلخص كل شيء دفعة واحدة · من بشار بن برد الى ابراهيم طوقان · الشعر اذن ليس اكثر من محاولة امتداد · انه وظيفة اجتماعية بالمعنى الدقيق والمباشر للكلمة · لذلك لا نستطيع ان نتوقف لندرس العلاقات داخل القصيدة ، القصيدة حالة جماعية ولا تستطيع ان تكون بناء ·

يقف الشاعر داخل الارض المحتلة مختنقا بالمهمة التي فرضها على نفسه ، او التي فرضت عليه · يستعير في امتداده الى الواقع العربي لغة هذا الواقع واشكاله · لا يتوقف ليبحث عن لغته · فهو لا يملك لغة الا بوصفها قضية · والقضية هي مجموعة مهمات · والمهمات تحتاج الى ادوات جاهزة او شبه جاهزة · ولم يكن الوعي الثقافي يستطيع تجاوز المأزق البرجوازي في تلك العلاقة الانشطارية بين رفض الغرب الاستعماري وتحويله الى نموذج · ولم يكن هذا

الوعي قادرا على استعارة اشكاله من واقعه المتحرك · فالوعي كان مجرد حلم· والواقع كان يبحث عن لغته في لحم الفلاحين الذي تمزقه البنادق · ولم يكن جدل الواقع قادرا على صياغة لغته ، لا داخل الارض المحتلة ولا خارجها · ولـــن يصيغها الا داخل الثورة نفسها · يقف الشاعر داخل الارض المحتلة وحيدا · يلجأ الى سقف الشعر العربي · لا يستطيع في شروط انتاجه الادبي اكتشاف وجه آخر للشعر ، كما لا يستطيع التوقف عند التيارات الفنية لينتمي الى احداها · كل لحظة لها لغتها · وكل حالة لها مدرستها ، حتى وان علا الصوت « الرومانسي» كما يقدمه شعرنا العربي ، على بقية الاصوات · لكن طوقان حاضر الى جانـب ابو شبكة · والرحباني الى جانب الاخطل الصغير · وحتى وصف البياتي المتدرج على واو العطف يمكن ان يكون حاضرا ·

تقول القصيدة انها في مأزق · لكن الشعر لا يتوقف كثيرا امام هذا المأزق وربما لا يلتفت اليه · ولن يلتفت اليه الا في مرحلة لاحقة حين تتغير بعض عناصر الشروط الموضوعية · القصيدة في مأزق والشعر لا يتوقف · يعلو ، ويصبح المنبر علامة· يعلو ، وتصبح الكتابة لحظة جماعية · يعلو ، ويرتفع راشد حسين الى القلوب، يحمل في كلماته مهمات كبيرة ، وتقوده مهماته الى المأزق ·

شعر راشد حسين يقول ·ألقول بمعنى الفعل غير المباشر · الوقوف امـــام الحالة داخل لحظة تشبه الذهول ، ثم محاولة تلخيص هذه الحالة · التقاط الوعي المكسر بالهزائم وصياغته غلى ابواب الاحتجاج · الشعر قول ، واللغة مجموعة من لحظات الوقوف امام الجسد المسجون في محاولة للتعبير بالوسائل الممكنة او المتوفرة داخل السجن · يمزج الشعر بين الخيمة والقرية ، فهما اطار السجن · وراشد حسين هو شاعر الخيمة · ربما كان اول من التقط عذاب المخيم داخـــل عينين مفتوحتين حتى الاعياء بذهول ما يجري · وكان النحيب اشارة الخيمة ·

« وترى نجوم الليل مثل معسكرات اللاجئيـــــن
وكهيئة الغوث الحزينة يخطـر القمـــــر الحزين
بحمولة من جبنــــــــة صفراء او بعض الطحين
هذي هديتـــه ·· هديتهـــا لقومي البائسين »

الصورة التشبيهية المباشرة التي لا تستطيع سوى اقامة التوازيات والتقـاط بعض التفاصيل ، تنساب داخل ايقاع الرباعيات ، وتحاول عوض التوقف عنـد لحظة واحدة لاكتشاف علاقاتها ، ان تقول كل شيء دفعة واحـدة · المعسكر ، هيئة الغوث ، الجبنة الصفراء ، الطحين ، البؤس · وماذا بعد · يأتي الحزن الرومانسي ليقود الامور من الواقع الى اشاراته · من اللحظة الراهنة الى كل شيء · وعوض ان يقودنا الشاعر الى داخل المخيم ، يقودنا الى الايقاع الذي يفرض عليه صيغة شعره · والايقاع ، يقودنا الى ما يشبه الحزن الرومانسي ·

الذي هو حزن يكسره حنين ورأفة ومحبة وفرح مأساوي بالحزن · راشد حسين هو شاعر الخيمة ، لكنه لا يتوقف عندها ، يقوده شعره الى مزج الخيمة بالقرية وداخل هذا المزيج سوف يعلو الصدى ·

« هل تهزأ الحسناء مـن قريتي — ومن جمال الحب في قفرهـــا
تثير في استهزائهـــا ثورتـــي — ولم يزل قلبي فـــي جذورهـا
تحب اشعـــاري ورناتهـــا — وتكـره الوحـي لاوتارهـــا
يا حلوة لـم ترض عـن قريتي — احببت ما انكرت مـن امرها »

لكن هذا الامتداد الى الصدى ، يحمل ضوابطه الداخلية ·

« القرية العزلاء يا ابن العم تقرئـك الســلام
وبيوتها الوسنى تحيي بنت عمتها الخيـــام »

بين هذين الحدين : الصدى ، ومحاولة نقل الواقع بأسره الى الصدى ، تقع القرية ويبنى المخيم داخل الشعر ، ذهول كامل وفجيعة لا تجد الكلمات الحقيقية فتبحث عن اطار للحقيقي الذي تستطيع كتابته · هكذا يسقط الشاعر الفلسطيني الى لغته · لم يعد أمامه وسيلة تعبير او وسيلة حياة سوى الهرب من الخيمة الى الذكريات ، ومن القرية الى اللغة · وفي هذا الهرب ترتفع النبرة الجماعية ·وهنا، تقع بداية امكانيات التجاوز ·

غير ان راشد حسين ، استطاع في قصائده المتأخرة ان ينقل هذا الوجـــــع الرومانسي الى نبرة حادة · الى لغة مريرة ، تقف على عتبة الاحزان ، ترتجف، لكنها تثق بالمستقبل ·

« كن زوجها احببتهـا قبلـــك — واظـل ادخل قلبهـا قبلـــك
ستكون شاري عطرهـا وانـــا — سأشمه يـــا سيـدي قبلـــك
انا دائمـا ساكـــون بينكمـــا — متأسف ··· لكنني قبلـــك »

هذا الحزن الرومانسي قابل للتحول ، وقادر على التقاط مفاصل في تناقضات الواقع · ان تدرج الالتقاط او محاوره المختلفة ينطلق اساسا من لحظتيـــن متداخلتين : لحظة اشتداد القمع ونمو اشكال المقاومة الجماهيرية ، ولحظة نمو البحر العربي ونمو قدرته على التغيير · فحين تبقى اللغة على مشارف الاحتجاج، تبقى داخل سورها الرومانسي ، وصفية في الغالب ، ترفع من داخـل الوصف سؤالا واحدا يأتي في صيغة غير مباشرة ··والسؤال يتركز حول الموت ، وحول عـدم القدرة على احتمال مجانيته ·

« الله اصبح غائبـــا يـا سيـــدي
صادر اذن حتـــى بســاط المسجـــد
انا لو عصرت رغيـــف خبزك في يدي
لرأيت منه دمي يسيـــل على يـــدي »

داخل محاولة صياغة الاسئلة ، ينقل الشعر حيزا من الواقع بنبرة الفلاحين الذين يفقدون كل شيء ٠ هنا تبدأ النبرة الاحتجاجية ٠ يبدأ الواقع بطرح اسئلته٠ لكن الاجوبة لا تأتي من داخل السؤال او من تناقضاته وحدها ٠ انها بحاجة الى البحر العربي والى ايقاع ثوراته ٠ تأتي الجزائر وقد تحولت الى رمز فلسطيني٠ وتأتي لغة التحدي داخل الرمز ٠ فالجزائر او السويس او غيرهما ٠ ليست فقط حنينا رومانسيا الى ما يوحد الانسان خارج سجنه بعلاقاته ٠ بل هي رمز داخلي، ومحاولة قول ما لا يمكن قوله الا عبر « الخارج » ٠ وما لا يمكن ايصاله حـدود الانفجار الا مع « الخارج » العربي المزدحم بالتحولات الوطنية ٠

« ستفهم الصخر ان لم تفهم البشر   ان الشـــعوب اذا هبت ستنتصر
دم الجزائر صــــور الفجـر كعبته   وناره فوق صـدر البغي تستعر »

وفي مرحلة لاحقة ، عندما تتوحد فلسطين في السجن ، وينفجر المخيم الـــى الداخل في الثورة الفلسطينية ، سوف تصبح اللهجة اكثر وضوحا ٠ في البداية ، كان الحقد الوطني هو حقد الارض ٠ « حبال الدوالي » ستشنق بائع الاراضي، اذا لم يشنقه الشعب ٠ والى جانب صراخ الانتماء الاسيوي سوف يرتفع صراخ انتماء فعلي ومحدد ٠ ففي تلك القصيدة الخاصة التي اسمها «دروس في الاعراب» تبدأ اللغة في التبلور دراميا ٠ لكن راشد حسين يبحث عن النتائج ٠ انه يريـــد ان يصل بسرعة الى النقطة التي لم يكن من الممكن الوصول اليها عندما كـــان شاعر مرحلـــة ٠

« عدنان : فاعـل
السجن : مفعول به
وحدتنا الصرف والنحو وانحلال القواعد
وتحولنا نضال » ٠

ثم يقف ليلخص تجربته ، او ليلخص الجانب الذي لم يكن من الممكن تلخيصه في الماضي ٠ يعود الى المعطيات البالغة البساطة ٠ معطيات تشبه تلك التي كانت تقوم عليها القصيدة في الماضي٠لكنه اليوم ، يستطيع الاستنتاج ويستطيع التحدي بنبرة واثقـــة ٠

« تولد الثورة في عينين من دون وطن
تولد الثورة فلاحا بلا ارض

وبـــوليسا لارض
كل ما فيها انسجن » ٠

داخل النص الشعري ، هناك كثافة من الهموم ، ومحاولة للتعبير البسيـــط والمباشر عنها ٠٠ هناك الاوجاع الآتية من الواقع ٠ ومن افقه المغلق ٠ الشعــر هو افق ممكن ٠ والبحث يتركز حول اكتشاف نقطة ثابتة ، او نقطة قادرة علــى الايحاء بالثبات وسط رمال الواقع المتحرك ٠ وسط الاجتياح وهو يلبس ثيـــاب قوانين لا تهدف الى استغلال الفلاح كما كانت العادة ٠ ولا الى ترسيخ احتلال عسكري كما جرى بعد الحرب العالمية الاولى ٠ ولا الى ضرب انتفاضات الشعب وطموحه الاستقلالي كما جرى بعد عام ١٩٣٦ ٠ بل تهدف ، بكل بساطة الى اخذ كل شيء ٠ الارض والحصاد فتطرد الانسان من جلده لذلك كانت اللغة ٠ ولذلك استطاع الشعر ان يلعب دور النقطة الثابتة ٠

قد يقودنا هذا الافتراض الى نتائج أخرى ٠ فما دامت الهجمة بهذه الشراسة، تصبح ادوات الدفاع اكثر بساطة ٠ الدين ـ القرآن والعادات القديمة ٠ فلمــاذا هذه اللهجة الرومانسية اذن ؟ ولماذا الشعر ؟

لكن المسألة اكثر تعقيدا ٠ ففلسطين كغيرها من بلادنا في المشـــرق العربي ، شاركت في ولادة قيم ومفاهيم ما سمي بعد ذلك بعصر النهضة وهي لا تستطيــع العودة الى الوراء بشكل مطلق الا اذا عزلت نهائيا عن البحر العربي ٠ وكيــف يمكن عزلها والمخيمات كانت وقود اكثرية الانتفاضات في المشرق ٠ واذا لم تعزل فانها تبحث عن ثبات ما ٠ عن التلقي داخل هذا الثبات ، حتى تأتي اللحظـــة التي ينكسر فيها جدار السجن ٠ يومها ، حين تقذف بنفسها الى المستقبـــل تكسر او تحاول كسر ثوابت محيطها والا عادت الى السجن ٠ هذا هو الاختيار الوحيد الممكن في سبيل مواجهة الموت ٠

كان شعر راشد حسين في تلك المرحلة هو هذه العلامة ٠ الثبات ضمن استيعاب ما اصبح ثابتا داخل الشعر العربي ٠ فتعلو نبرته الرومانسية ، وتصبح القصيدة بين يديه حقلا من الالام الحقيقية ، ومجموعة من العلاقات البسيطة والصــور البسيطة والمبنى البسيط ٠

هو لا يهتم باللغة الا بمعناها السياسي ٠ فحتى لغته كانت لغة عادية ٠ لكن هناك نقطة اساسية تشكل الفرق بين رومانسيته والرومانسية العربية ٠ فاذا كانت الثانية اكثر التصاقا بهموم ثقافية ٠ ولا يمكن دراستها خارج سياق تحـــولات الشعر من خلال التأثر بالتيارات الادبية الحديثة ٠ رغم انها تعبر من ضمن مــا تعبر عنه ، عن حاجة اجتماعية ربما كان اساسها انشطار الدين داخل العلاقـــة الرأسمالية الاستعمارية في المدن ٠ فان رومانسية راشد حسين ورومانسية شعر

الارض المحتلة هي رومانسية الالم · انها ملتصقة باوجاع الديـــن وبوحدته لا بانشطاره · توحد المخيم بالقرية ولا تفصلهما · تحاول ان تشكل قبضة في وجه محاولات الابادة · لكنها تعي مأزقها · انها تهتم فقط بالتعبير عن شـــيء ما · باحتلال الثقافة عبر استيعاب الالم الجماعي · وهي قادرة على ذلك · لكـــن نفسها قصير بالضرورة · فالمهمة لا يمكن حملها الى ما لا نهاية · وحين تنكسر القصيدة في عدم قدرتها على حمل التناقض الموضوعي ، يولد المأزق · فالمـأزق ليس داخليا في بنية القصيدة · انه في دورها وسط حيز ضيق من الخيارات ·

من الصعب بالنسبة لي الكتابة عن راشد حسين · فالذين لم يعيشوا قصائده وامجاده في نهاية الخمسينات ، لا يستطيعون ان يفهموا كيف ينكسر الرجـــال كالقصب · المواطن ، المثقف ، الشاعر ، المناضل ، يشطر بعنف · انتماء عربـي يبحث عنه وانتماء « اسرائيلي » يفرض عليه بالقوة · يتحايل الانتماء العربي « باسرائيليته » كي يبقى عربيا · لكنه لا يستطيع · هكذا نفهم كيف كانت النبرة الاحتجاجية تأتي في جريدة « المرصاد » التي يملكها حزب المابـــام الصهيوني ، يومها ، لم يكن راشد حسين محررا عاديا لجريدة اسبوعية · كان صوت العروبة في اقصى توتر لحظات تحايلها · وكان شاعرا · هكذا ، وكالمفاجأة ، وجد الشعر شاعره · وكالمفاجأة جاء راشد حسين من قريته « مصمص » الى المدينة ليصبح في كل ذاكرة · وكانت نبرته القومية وكلمات الاحتجاج التي يكتبها تلخيصالواقع السجن العربي · لكن هذا لا يمكن ان يدوم · فمع الانقسام الشيوعي الناصري في «الخارج» ، ينتقل الانقسام الى الداخل · ويكون قلم راشد حسين اداة هجوم· يومها كان الحزب الشيوعي اختيارا ممكنا ومتقدما · ثم لم يعد المابام يستطيـع تحمل قلم شاعر معاد للصهيونية · ترك راشد حسين عمله ليجد نفسه عامـل بناء في تل ابيب · ثم يمضي بزوجته الاسرائيلية ـ الاميركية التي دمجها بارضه واحزانها واحبها « قبل زوجها » الى نيويورك · وفي نيويورك لم يعد الانتمـــاء ممكنا · يصل الانشطار الى ذروته · يغرق الشاعر في موته ، ويغرق في مـــوت الشعر ، ورغم محاولات العودة الى الوطن العربي الا انه يكتشف ان الاوان قد فات · فيغرق في الكأس المليئة بدمه الذي يشبه الخمرة · يكتب شعرا ، لكنالشعر يسقط في الكأس ويمتزج بالدم · يترنح الشاعر الجميل وحيـدا ويسقط مثـــل شاعـر يسقط ·

بين المنبر والقبر مسافة قصيرة · لكن الذاكرة التي طبع راشد حسين كلماته عليها تستفيق ويتقدم الشاعر الى الارض دون انفصام ويعانق وجوده ·

لم تكن المرحلة تحتمل · لا تستطيع ان تكون عربيا قبل ان تكتشف العروبة طريقها الى نفسها · ولا يمكنك ان تصبح « اسرائيليا » حتى ولو ترجمت «بياليك»

لانك لا تستطيع · هكذا ينشطر الشاعر وينشطر الشعر ولا يتوحد الا داخـــل الموت ، حين لا يستطيع كسر انشطاره ·

بعد الهزيمة · وحين بدأت المقاومة تنمو · وبدأ الفقراء ينحدرون الى موتهـم الجميل وهم يوحدون الوطن ببنادقهم · كانـــت اصوات الشعر الفلسطينـــي القادم من الارض المحتلة تعلو · وبدأت تأخذ حجما جماهيريا خاصا · واكثر ما كنا نحبه في هذا الشعر هو نبرته الواقعية واصراره على ترديد كلمة المقاومة، وكأنه لا يكتب للشروط السياسية التي في الداخل ، بل يعبر عن الذين يحملــون البندقية · ولم نكن نعلم ، ان الكلمة نفسها كتبها كنفاني وهو يقيم هذا الشعـر ويصفه ويقدمه لاول مرة · هكذا استطاع الشعر وهو يتلمس دم الفدائييـــن ان يصبح له صوته الخاص · واستطاعت الشجرة ان تنمو · وانكسر السجن حين بدأ الفدائيون يدخلونه بأسلحتهم واحلامهم وموتهم ·

الشعر ، ليس امتدادا للمرحلة السابقة · انه دخول في الشعر · ولـم يكن ، هذا ممكنا اذا لم تدخل الجماهير الثورة · فعلى غابة البنادق ترتفع ثقافتنا وهي تبحث عن صوتها وصورتها في بحث حقيقي عن لغة الشعر · هنا فقط ، تستطيع المستويات ان تنفصل ، لان الوحدة تحققت على ارض الواقع ·

هكذا يأخذ الموت الجانبي معناه بوصفه لحظة بحث عن الثورة · وهكـذا لا تعود الثقافة ممكنة خارج غابة الرجال والبنادق · فمحاولة انتزاع البندقيـــة الفلسطينية ليست مسألة سياسية فقط · انها في جوهرها مسألة انتماء شامل · والبندقية لن تسقط · والا فقد هذا الموت جماله · والفقراء يعرفون معنى جمـال المـــوت ·

للزورق نهر ، للغصن الفائر شجرة

علي الخليلي

— ١ —

كزّتْ ، فاختبلَ الميقاتُ
وزجّتْ في النفسِ تباريح الوَمْض
تخاطفَت الأهدابُ ، الارض ٠
ضمّتْ في النار ، النارَ ٠
فمنْ اغوى مطرقةً بالذكْر ،
ومن عتّق صيحتها ٠

حبلَتْ بالنرجس والموت :
هو الطللُ البستانُ القفرُ الفردوسُ المتنُ الافاقُ
السحر الوضّاحُ ٠ هو الحزن الذوق الشرب الريّ السُكْر ،
طنينُ النحل ،
هديلُ حمامتها
هي بالبابْ
دقتْ ٠

نهضتْ وهي رميم
لم يبق فضاء الا اكتسَحتْ
لم تبق طريق الا سَلكتْ
فاستعدتْ حتى العُشّاقَ ، وفرّتْ قبل الذبح ٠
بلى ، ذُبحتْ !

في الريح ، هي الوحْمى
تتسع الدائرةُ وتبرقُ عينٌ في العتمةِ
تخترق الزُلْفى ٠
هذا خَفرَ الشجرة ام زفرةُ ازميل ٠
نامي حتى يستيقظ آخر ميت ،
او مُرّي ، مري زلزالاً تحت الألياف ٠

اطيافْ
ونشيد حماسْ
آه ، ونعاسْ
في الخندق · لكن النحلة لم تَهلكْ ·
لم تهلك ،
وهديل حمامتها ،
ديمتها
تأخذ ريق البحر ، وتسكبُ في البحرِ
وتستلقي فوق الأعشابْ

هي بالبابْ
غنّت ، رقصتْ ، كزّت فاختبلَ الميقاتُ ·
وليس الشمس رغيفاً / ليس الارض رغيفا / ليس الحلم عشوشا / فاختبئي ،
اختبئي قبل الذبحْ ·
كان الملح
يعمّس اعينهم ، يسالهم عنها
هي بالباب
دقتْ ·
فاشتعل الراسُ ،
راوا خبزاً ينضج في الشمسِ / وخبزاً في الأرض المنهوبةِ
والحلمِ المنهوبْ ·

ـ ٢ ـ

هرّت الريحُ · قال ادخلي · دَخَلتْ ذرةً هَرَستها
الجفون · تقاسم من بعضه بعضها · كلّه كلّها · سفنٌ
لن تؤوب · احتمالات موت · وكانت وراءهما
الأرض واجفةً · والميازيب فارغةً ···
كلما سامرا بلدأ قيل مؤتفكات تباد
بلادٌ ، بلادٌ ، بلادٌ ، بلادُ
ت ب ا د
وقد أبقَ المدنفون جوانحهم راجفة

ايها الراحلون الى القمح ، يا ايها الكاذبون !
لماذا خدعتم حبيبي ؟
ايها الراحلون الى الموت ، ماذا حملتم ؟

سرقتم ترابي المعلّق تحت الجفون
سرقتم ترابي / سرقتم شبابي
لماذا ـ لماذا ·
ـ مشّطْ شَعْر حبيبتك = هيّا ! مشّط بركةَ دَمك ·
ـ وانتِ حبة المطر
اكبر من براءتي ،
اكبر من حبي ·
ـ ولَعٌ ، ولع ، ولع
تغتسل الاشجار المكسورةُ في النهر
تغتسل المرأةُ في النهر
تغتسل المدنُ المنهارة ·

في المنفى ، يقف القمح على شرفات الفندق لا تحصده النظرات ولا يلمسه الأطفال ، فينتشرون على صدري اربًا اربًا / في المنفى ، يتكاسل موت القمح · يتكاسل حتى ·· آهٍ ، آهْ / في المنفى غزلانٌ صحراء مرضعةٌ رمل النفط وفولاذ الدبابات ، فتنكفىء المدن المدن الى البحر تجفف عين البحر ، فتمرق ناعبةٌ من خوف وتسافر فيها الصحراء ، تهج الى الخمارين · تموت تموت ، وشاهدة لم تنهضْ شاهدةٌ لم ترسم في الغيم العابر · شاهدةٌوسخامُ القنديل يقول ، وسيقانُ القمح تقول · اقول اغرورقَ حلمي ·اسفنجٌ وجرادٌ ···

جياع يخوضون معمعةَ النهرِ ، والنهر يجري ·
جياع يلوبون في الريح ، والريح لا تمنع الموت
قال سأودع نسلي حشاها ، واني اخاف مغبّتها ·
ضحكَتْ ريحهم · ثم زاوجها صَرْصَرٌ ·
نفشوا عِهْنهم ، رانقضى عمرٌ في الفَهَاهةِ ،
رانكشفوا ،
انكشفوا ،
انكشفوا
يا جبال المعادن / يا بلغة العيش / يا شَفَق الزيت / والنهر يجري ·
جياعٌ تكابد اوزارها امْ تميدٌ ؟
وتهدمهم ام تشيدُ ؟

ـ في المنفى ، يتمدد يكسر كل زجاجات الماء القدسيةِ
كم انتِ حميمة !
يا حدّ عرائي كم انتِ حميمة !

منفى حُمّى عسْف / ماء رهراه ضَحل نزْف / عَسَس بالباب / جرس / فرَس / جسد مطويٌّ منشورٌ / وهج محظور / قرصنـــــة / دولاب / عنـــب خشخاش فَضْح / قاع وسط سطح / لون كون عري قَصْد طوفان / دمـــــع متّان / اتّون انسان ٠

هبّت في الطحلب امراس / همَّت تحت البرق الامواس / نضج الاحساس / القِلْع الرئة الانفاس / حتف نُسف / لا حد لا بُعْد / ضجت اجساد الاقنان / غصون المشمش مثقلة / ومشانقُ اعراس ٠

أوّاه ، يا اوابد الكلامِ ، يا اوابد الكلامِ !

ـ حقل البنّ ، الجسدُ ، وشائجُ ارضٍ لم تُزرع ٠
ـ إزرعْ !
ـ كان الجسد مناخا بذْئياً
كان الليلُ لباسا همجيًا
وسلاحا حجريًا
ـ غامرْ !
للزورق نهر ،
للغصنِ الفائرِ شجرة ٠

ـ ٣ ـ

يلقاها نسر يمتحن الفطرةَ فيها ،
يشرب من ماء عذبٍ ٠
يا عسلاً ، لبنًا ، في السفحِ
تجيء وتختطف الفَرَح :
هنا شجن الاوطانْ
هنا كنعان الضارب في الطرقات الجبليةِ
والسابلةُ المعجونة بالخوفِ ٠
التاثتْ أحلامُ ، واهتزّ الميزانْ
هنا شجنُ الاوطانْ
هنا عمالُ المحجرِ والمنجم والحقلِ فوانيسُ الغلةّ ، وديان يشخبُ فيها الدمُ
يا بصراً ينشالُ وشاحا قزحيًا
ونشيدا أمميّا
وبخار دم القربان
هنا شجنُ الاوطان

مزاميرُ ، مهاميزُ الفرس ، المزْنة ، يا هُدْب المقلةِ في التعب ، لِسان الاخرس في العيّ ، بكارة ما سوف يكون
شمس وغصونْ
يا قلبك ! شمس وغصونْ ·

ارسم وجهكِ ، اخطىءُ ، واحاولُ ·
وجهكِ ام غيْم الغد ؟
ام ماء لامس وَجْدَ الابدانْ ؟
ارسم وجهكِ ، واقول وجدتكِ ·
من ذا ينقر بابي ، يمحوني ؟
واقول وجدتك ·
من يكتمل حدائق لم يَمَسَسْها الرعبُ
خيال ، ماء ، ماء ··؟!
واحلم بالرحلة · من يقرأ سِفْري · واحاولُ ·
أرسم ، ارسم موسيقا ،
أرسم انفاسا ، عرَقا ، واصابعَ ، اشياءَ
تشتاق وتنْهكُ في الكدْح اليوميِّ ،
احاولْ ،
وجهك ام وجَعَي يا قهر الحيلةِ
يا ثوبَ العريانِ
وخبز الجيعانِ
اقول وجدتكِ
من ذا يرصدني ، يحصدني ؟!
نارُك مائدتي ، والسفرُ طويلٌ
وجهك ام زوادة هذا الفلاح ·
واخطىء في اسم التفاح
ورسم التفاح
دوائرُ في الذهْنِ ، دوائر في الافُق،لماذا ايها الغائبة ، يصيح الحطّـــابُ هرمتُ ، تصيح السروةُ هل تقطع رأسي ، ويصيح النهر ، تصيح النحلة هــذا بَدَني حلْوٌ امنحك الشهْدَ والواني ، موتي ، عرسي · هذا الليل · احـــاول ، هذا ·· ثلج ودَم ، اعشاش تحترقٌ ، وارغفة تورقٌ ثم تذوبُ ، واطفال وبنادقُ وعصافيرُ ، جداولُ ، اجساد تنهض من قبر جمْعي ·
من ذا ينقر بابا لم تره عينان
لم تلمسه يدان ·

واحاول · اخطىء · اتعثر في العُتْمِ ،
فمن ينقر قلبي ؟!

وجهك هذا ام مدنٌ مدنٌ تنثالُ ،
تناوشني خلف الاستار ·
والقي سرجي ·
عمرٌ مرّ ·
ساقرأ شعرا شعبيا · واغنّي ،
واقول وجدتك ·
يا باب المدن اللواعة ، يا وَلَهَ القيثارْ
ضلّتْ في السَفرِ ، الانهارْ
واقول وجدتكِ ·

ـ ٤ ـ

تعبر السفنُ ، الضحكَ المرّ ، عاصفةً في نسيج اللحوم الطريةِ ، تقضمُ ذاك النسيجَ البهيّ ، وتصفرُ ، تصفر حتى تهالكَ جمهرةُ الامّهاتِ قبالة افرانهـــــنّ الصغيرة في الجزرِ العربيةِ ·
يفرط البحر رقعتَه ،
تملك السفنُ ، الضحِك المرّ عاصفة في العشوشِ وتفترس الطيّبات ·

كان البحرُ الاحمر يفصل بدنًا عن بدنٍ
كان البحر الاحمر شقّا مهترئًا
قالت افريقيا انا عشٌ مهدوم
قالت آسيا انا فأس خشبية
قال الاقنانُ سلامٌ للقدماءِ الطينِ الاهرامِ الاختامِ السفن الغرباءِ / ســـلامٌ للعالم مثل الخرزة في فم افعى · في فم امريكا / وسلام للموتْ ·

هل كانت يابسةُ العالم للماءً حذاء تمشي فيه وتركض ، تبحث عن قدمـــاء الشرقِ ·
هل العالم قرطٌ خلخالٌ دبوسٌ
فلماذا السفن الرجراجة كالاكفال الشرقية تسرقنا انفارا ، انفارا
فلتسقطْ شعرة معاوية !
تسقط ، تسقط !
لا ندخل في مُوقدة خِلْسةْ ،
لا نخرج من موقدة خلسةْ ،
والقارات انتصبَتْ اشجارا ، اشجارا !

كان خط الاستواء
يعبر الارضَ خجولا باهتا ·
كان الجسدْ
نكهة ضائعةً
مسْرَجةْ
أحرقتها الرمالْ ·

وفتّقت الارضُ رمّانها ·
اشعلتْ خمرة الليل سكّانها
فهي ـ ذوقٌ وشربٌ وريٌ وسكرُ ـ
وعذّب جيّاشها مستقرٌ
فكرّوا
وكرّوا
وكرّوا ·

ها وجهُ فلسطينَ يطالع في الردْم منارات الرحلة يا رمحًا يخرج من عَنَت الميقات المستقبل يا طقسَ العالم · يطأ السفاحون لبانتك الاولى تتكسرُ في الصدر نصالٌ ونصالٌ ·

من يمنع عنهم رقعة ارض ريانةْ
من يفلق رمانةْ
جمرًا ، جمرًا
من يتشبث بلحاء الشجر المكسورْ
من يلصق ريش العصفورْ ·
سنقص عليكم نبأ · سنكلم ثلج النار وليل المصباح ·
نصون رضاكم ·
نطنبُ نوجز نكتظّ نفجّر صلصالا خرزا زردا وسباتا ونشق الكسوةَ عن رقعة ارض ريانةْ
نفلق رمانةْ
نتشبث نغلي ونثورْ ·
يطأ السفاحون لبانتك الاولى تتخثرُ في الصدر كسورٌ وكسورْ
يا روضا تعبا جلدا انصارا انصارا انصارا
يطأ السفاحون لبانتك الاولى في ارض بورْ ·

ـ ٥ ـ

مخيلةٌ في الغابةِ / المدنية التي تغزّ كالدبابيس تحتمي بموتها / مستنقعٌ

تهزهُ حوافرُ الحديد ، والحفاةُ / يخترقُ الرصاصُ وجَهَك الفتيَّ تصرخُ الازمنةُ:
الرفاقُ واصلوا المسيرَ من ثقوبِ كل جمجمةْ
تدفّق العطاءُ
انتَ ، انت تستمدُّ وقفةَ الفتى فتولدُ الازمنةَ / التراب غَمْرٌ ، والدماء
جمهراتُ النسْغِ ، والفضاءُ
طيّع لكل طائر جميلْ
تجيءُ اذ تجيءُ للمستقبل الجميلْ ٠

خط شفاف يضطربُ قليلا ، يهدأُ خلف زجاج النافذةِ العينِ الاصفادِ الجبل
الاشجارِ ٠ كتاباتُ الكشافينِ على الاخشابْ ، تدندنُ اسماءَ الغيابْ
خارطة فحمية
لطخٌ دم وسوادٍ وبياض
ورعاة ٠٠٠
مخيلةٌ في الغاب
تفترسُ التربةَ والاطفالَ وتفترس خيالَ الشاعرْ

قال ادخلُ ملجأ أمي وابحثُ عن شهداء
وآخذهم في رغيفي
وفي الذاكرة ٠
يا بنيّ ! ملامحهم صافيةْ
واكفهُم خشنةْ ٠
والسنتُهم حلوة النبراتْ ٠
عيونُهم ؟ ذكرياتُهم ؟ والوطنْ ؟
قال ، قال ، قال ٠
انا لا انفخُ في قصبةْ ٠
انا انفخُ في الكور ٠ انا النار انا الصُلبْ انا الحدّادْ
فلتطلعْ يا لوز !

أصادفُ رمزاً فاهرعُ : هذا دليلي !
وانهبُ ارضا فاهرع :هذا دليلي !
واسرع في الخَفْق ،
اني بلوتُهمُ واحداً واحداً
فانتبه ايها الماءُ ، يا ماءُ ، يا ماءُ !

الجُزر الصغيرةْ

غلّفها الضباب ، اسرعتْ الي · انني احبُها
حملتها عشرين عاما · كَبِرَتْ · خمسين عاما · كبرت ·
فاستيقظَ الماءُ ،
الصبايا يغتسلن ، واهْ
اشلاءٌ في الماء
اشلاءٌ اشلاءٌ
ترنّحتُ فيكَ ، تشبثتُ ، قاومتُ موتي ،
صعدتُ على زبَد الوقت · اكْسَدَني الجوُّ · صحت انتبهْ ايها الماء ، يا ماء ، يا ماءُ !
الصواريخ دارتْ
وقالت مقابرهم ليس تُحصى
وقالت ، واه ··
فالعالم خَرَزة
في فم افعى ، في فم امريكا في بيت المال ·
تنمو ادمغةُ السفاحين فيسقط قلبي بين عيون التعساء ·
في الجبْنة سمٌّ في القهوة سمٌّ في اي مِهادٍ في الشارع صاروخ كان يهرِّجُ · هرجَ مزقّني يا قتلاي اتحدوا · اهدمُ ما يُبنى · ابْني ما يُهدم · اجمعُ مــا لا يحصى · اختصرْ اصابع قتلاي بحجم الارض واختصرٌ الارض ·
يا انقاضَ الشرق وتاريخَ الرق ابا نواس الزق حقولَ القنّب والدخـــان ، وزريابُ يموت

تتبرجين في خَلَدي ، فتحترقين حاقدَةَ السكوتِ ، تكلّمي !
سقطتْ ذراعي فوق ظلّك فوق انقاض البيوت · تبعثرتْ اسماؤهم · ودَمٌ يجف على بلاطِ الليلِ ، فتنةُ الخيالُ ، دم يجف على قميصي ·· او قميصك يا خيالُ !

كانت الرمّانةُ الحمراءُ تغلي في يد · كان الدلاءُ فارغاً · ناديتَ ما ناديتَ · بيت تحت جُنْح الاسْر · ناديتَ البحار · كانت الزرقة تغوي كل شيء · كانــت الزرقةُ ثوبا ناشفا ·
قدّرتَ موتاً · يا مدينةْ ! يا مدينةْ !
كان زينُ العابدين
ولدا يمشي على الخزِّ له ما شاء اذا جاع ثمانون من الخُدام تحت السمــع والطاعةِ · لكن المدينةْ
خرقة مهترئةْ
وعيون صدئةْ

والشبابيكُ الحزينةْ
تكشفُ السرَّ وزينُ العابدين
ولدٌ يلعبُ في الشارع ما شاءَ له ، يمرقُ من تحت الشبابيك ومن جِلْدِ المدينةْ
عَنَق ينضجُ كالتمْرِ ، له ما شاء . لكن المدينة طعنة تكشف اسرارَ القبائل .
يا قبائلْ !
يا قبائلْ !
فتجاهلتَ الحريقْ
وتسلمتَ رسالاتٍ واسمالاً من السجن
قراتَ الكرة الاولى . قراتَ الخطوة الاولى .
تعبتْ .
وتنفستَ دخانا .
وتدثرتَ دخانا .
وتجشمت الطريقْ
حجرًا
حجرًا ، دون رفيقْ .
وسقطتْ !

ـ حان عامُ المجاعة فارتاع في قَفَصي الفُ قلب .
ـ بلادي ، بلادي بلادي
ـ تعلمتُ ان اسْرُجَ الماءَ ،
ـ ان اختفي في الاشارةْ .
ـ تعلمتُ زيف البشارةْ .

في وقت غلاَبْ
عَسَسَ بالنابْ
عسس بالجلد المشويّ
فينتشر الأملاق
وشُذاذ الآفاق
وقلبي يكتب بالفحم على الحيطان
وبالدم ، بالدم ، بالدم .
خط شفاف يضطربُ قليلا يهدأ ، صوتٌ حجم افُقٌ / ايتها الايدي الموصولةُ تحت الذبح بشوق اصابعها جوع اصابعها / ايتها الاعناقُ الموصولة فـــوق النطع بماء ماقيها / ايتها الاحشاء اللائي لم تهجرْ دفءَ التجويفْ ايتهـــا الاعشابُ اللائي لم تتقيأ في الحرب جلودَ القتلى قتلى قتلى قتلى / ان المـاءَ بعيدٌ ...

بعيد ، بعيد ايها الحبيب ،
كأن في فؤادي رصاص ذوبوهُ ، واثقلوا يدي بأمراس ، وحمّلوا
صباي قناطيرَ العذابْ ·
كأنني اذوبُ وافنى ثم يشتعل الخرابْ ·
كأنني بعيدٌ بعيد ايها الحبيبِ ولحم قلبي كالحديقةِ ، مرةً ، ومرةً ·· تراب !
فاندفعي !
اندفعي !
كانت هياكلهم تصولُ ، تهب نحو البحرِ · كانت رغوةُ الابدان طاغيةً ، وكان
شاهدا :
واليمامةُ تعرف صيادها فيشفُّ الغناءَ
شاهدا :
والحروب تهادنها سِنَةً
ثم تأخذ من عمرهِ ما تشاءُ ·

ـ ٦ ـ

جاء الفتى
اسندَ الرأسَ في الرمل ·
لاحقه الخنجرُ الخنجرُ الخنجرُ / النصلُ في الجمجمةْ ·
صرخ الطفلُ · ما صرخ الطفلُ ·
تصرخ انثى وراء التلال ، وتشحنُ افراحها ·
يولد الآن جيل يحاربُ · فلتفرحي !
هكذا يبدأ الاحتمالْ
خنجرٌ في الجبينْ
صرخة من عروق امرأةْ ·
رجلٌ اخضر ،
كومة من ظلال ·
هكذا مثلُ رائحةِ البلبلِ العشِ رائحةُ الطفلِ رائحةُ الجرح ملءَ الجبين ·

من سنة مضتْ ، اشاعت الرياحُ اسمه ·
لم نلتفتْ اليه
آه يا خضره !
قبل قطرةٌ من الدماء كانَ ، قطرةُ بحجم الثَمرة
لم تختلج عصفورة او شجرة
ضحك بيننا · بكى ، والله يا خضره !
وسيَّج الحارةَ بالذره ··

لم تشرب العيونُ صوته ٠
وقيل كانت المدنيه
تغرق كالسفينة
فتكتب الاصابع المقطعه
وتبدأ الحربُ معه !

ـ ٧ ـ

اخلط اوجاعيَ بالماءِ ٠
طيور وطيور وطيور واحبكِ ٠
اهرول الى شجرة البلوط فالآفاقُ موتٌ ٠ وارى الماء ، احبك ، وغابةُ من النخيل دُحْرِجَتْ ٠ وغابة من الطيور والقبور والبشرْ ٠
اغوص فيك ، ليس صدفة ٠ ينسكب الرصاصُ ، ليس صدفة ٠ تختلج الجيادُ ليس ليس ريحا عابرة ٠
عطشان يا عطشان !
خلعتُ قامتي اليك والغيومُ بيننا وسائدُ النعاس ، ام وسائد الرمال ، ام دمٌ ، دمٌ ، دمٌ ٠
يأخذها الماءُ ويهربُ ٠ الوجوه بيننا ٠ تهبطُ قبل الليل ؟
انني احبها ٠

يخرج الوَطَن الشجريُّ الى النور ،
او يخرج النورُ ،
قلنا هو القَبَس الخارجُ ٠
هو الفرح الدارج
وقلنا هو الصِدْق ان يَبْذل الفقراءُ دماءَهم في المعارك :
نموت وتحيا البراعمُ
نمضي وتأتي المواسمُ
قلنا جميل هو الوطن الشجري ، هو النورُ يمتزجانْ فيخرج من كل حي حبيبانِ يعتنقانْ ٠

ـ ٨ ـ

كيفَ سميتها وانتهيتْ ؟
وكيفَ
وكيفَ
وكيفْ

المتاريسُ جزء تدلى · تدليتَ
من ينتمون لهذا الجسدْ
يضحكون قليلا قليلا · يموتونَ ·
عالمها يبدأ : الفرق بين الجهاتِ وبين المداراتِ ، كيف تغاضيتَ ·
يجرؤ فقرك ان يقف · التسمياتُ جوار جهاتٌ ، مداراتُ فلك ، قفقفةٌ في الصقيع :
اشتَهتْ خبزنا ، واشتهينا الردى
والصدى ـ الصدى ـ الصدى
عالقٌ بيننا ، ذابل بيننا
والعقاربُ ·
كيف اخفيتَ بستانها بين المعاطف والزعفرانْ ·
سألنا جداولها ، خَجِلَتْ ان تبوحَ ·
شربنا مرارةَ كتمانها ·
وانتظرنا ·
احتمتْ ، لوَّثتَها المناكب ·

المتاريسُ جزء تدلّى · تدلَّيتَ
من ينتمون لهذا الجسدْ
يبدأون خصوبتهم باكرا ، ينهضون ·
وبستانها بَعد لم تلمحوه ، تخبِّئه ليلةٌ قادمةْ ·

***

١ / ١٢ / ٧٦ ـ ٢٣ / ١ / ١٩٧٧

تقرير

الوضع العسكري في جنوب لبنان

خليل بركات

بدأ الجنوب يكتسب اهمية خاصة في الصراع العربي ـ الاسرائيلي بعد تصفية العمل الفدائي في الاردن عامي ١٩٧٠ و١٩٧١ ، بحيث اصبح المنفذ الرئيسي لتحرك الثورة الفلسطينية الى داخل الاراضي المحتلة ٠ ولذلك عمدت الدوائر الصهيونية الى تركيز جهودها ، بالتعاون مع الامبريالية ، على الساحة اللبنانية ، من اجل اقفال الجنوب ، النافذة الاخيرة في وجه الثورة الفلسطينية ٠

وقد تركزت هذه الجهود في البدء على القيام بغارات برية وجوية بالاضافة الى القصف المدفعي على القرى الجنوبية ، الحدودية منها بوجه خاص ٠ وكانت « اسرائيل » تبغي من وراء عملها هذا خلق هوة بين السكان والثورة الفلسطينية ، مع التركيز الاعلامي على نظرية مفادها : ان اعمال «اسرائيل» هذه ناتجة عن وجود الفدائيين في الجنوب وقيامهم بعمليات بالقرب من القرى الحدودية ٠ وان ايقاف هذه الاعمال يتطلب تعاون السكان مع « اسرائيل » لمنع الفدائيين من التواجد في المنطقة ، وبالتالي منعهم من القيام بعمليات عسكرية ٠

ولما ادركت « اسرائيل » ان سياستها لم تضعف الثورة الفلسطينية ، لجأت الى توسيع نطاق عدوانها لتشمل المدن والمخيمات في كل المناطق اللبنانية ، واخذت تعتمد اكثر من ذي قبل على العمليات الخاصة في مكافحة الثورة الفلسطينية ، وشكلت جهازا خاصا من الاستخبارات لهذا الغرض ، له صلة مباشرة برئيس الوزراء الاسرائيلي ، وكان ذلك تعبيرا عن القلق الذي بات ينتاب الصهاينة من الثورة ، خاصة بعد ان لجأ الفدائيون الى القيام بعمليات ناجحة في المستعمرات الحدودية (الخالصة ، المطلة ، ابل القمح) وفي قلب تل ابيب والتي كان اخرها عملية سافوي في مطلع شهر اذار ١٩٧٥ ٠

ومن جهة اخرى بدأت اسرائيل تؤيدها في ذلك الدوائر الاميركية ، عملية التحضير لجولة كبرى ضد الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية التي تساندها ٠وكان من الطبيعي ان تكون القوى الانعزالية الاداة المحلية لتنفيذ المؤامرة ٠

الوضع العسكري في الجنوب حتى بدء تحرك القوى الانعزالية

بعد عدة اسابيع على اندلاع الاحداث في ١٣ نيسان ١٩٧٥ بدأ الجيش اللبناني بتخفيف تواجده في الجنوب ، فاخلى عددا من مواقعه (صف الهواء ، وادى السد ٠٠ الخ) ، وذلك ضمن سياسة تركيز قوته حول بيروت وفي مناطق القتال الاخرى ، بحيث تكون هذه القوات مضمونة الولاء ومسيطرا عليها من قبل قيادة الجيش ، ويسهل بالتالي استخدامها عند الضرورة ٠ اما الآليات التي بقيت في الجنوب فكانت من النوع القديم ، بالاضافة الى بعض الدبابات غير الصالحة للحركة ، بحيث يستفاد فقط من

مدافعها • ولذلك وضعت في مرابض ثابتة • وتم نقل مستودعات الذخيرة الكائنة بالقرب من « ابو الاسود » الى اماكن خارج الجنوب في الشهور الاولى للازمة •

وترجع هذه السياسة ، بصورة عامة الى عدم اهتمام السلطة اللبنانية القديمة بالدفاع عن الجنوب وحماية الارض والشعب في وجه العدو الصهيوني الطامع في ارض الجنوب ومياهه ، وعدم الاهتمام بالجانب الدفاعي منذ العام ١٩٤٩ ، رافقه عدم اهتمام بالجوانب الاقتصادية والصحية والتعليمية ، الامر الذي نجم عنه هجرة ما يوازي ٥٠٪ من ابناء الجنوب نحو العاصمة ، حيث شكلوا مع غيرهم من ابناء المناطق الفقيرة ما سمي فيما بعد « حزام البؤس » • وبالاضافة الى هذا العامل المرتبط بنظرة السلطة اللبنانية الى « اسرائيل » ، وبالتالي بنظرتها الى الجنوب ، فان عاملا آخر كان يحكم نظرة السلطة ويجعلها تعمد الى سحب ما امكن من القطعات العسكرية والجنود من الجنوب • ويتمثل هذا العامل في الخوف من تطويق هذه المواقع وسقوطها والسيطرة على عتادها وآلياتها من قبل الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية في المنطقة • خاصة وان الثقل الرئيسي للثورة الفلسطينية كان في الجنوب ، بالاضافة الى وجود مخيمات كبيرة لشعب فلسطين في هذه المنطقة • ومن جهة اخرى فان التيار الوطني في الجنوب تيار عريض نسبيا ومساند للثورة الفلسطينية • ولقد كانت احداث ايار ١٩٧٣ درسا افادت قيادة الجيش منه • ففي ايار ١٩٧٣ حاولت قيادة الجيش سحب آلياتها من منطقة بنت جبيل وثكنة صور باتجاه بيروت ، ولكنها واجهت قطع الطريق عليها ومنعها من التحرك • كذلك تم تطويق ثكنة صيدا بحيث شلت فعاليتها ، وكانت طريق بنت جبيل – صور – صيدا في قبضة الثورة الفلسطينية • ولهذا كانت قيادة الجيش مدركة جيدا لصعوبة وضعها في الجنوب ، خاصة وان قوة الثورة الفلسطينية قد زادت عما كانت عليه في ايار ١٩٧٣ ، ان من حيث عدد الرجال ام من حيث نوعية السلاح ، بالاضافة الى ان القوى الوطنية التي باتت اقوى مما كانت عليه في الماضي ، قد حملت سلاحها ومارست دورا قتاليا الى جانب الثورة الفلسطينية ، وهذا ما لم يكن قائما في العام ١٩٧٣ •

ولقد انهار الوضع العسكري للسلطة في الجنوب بامتداد ظاهرة جيش لبنان العربي، الى هناك في اوائل آذار ١٩٧٦ وانضمام جميع الثكنات والمواقع في المنطقة الى جيش لبنان العربي ، باستثناء القليعة التي انسحب اليها جنود انعزاليون مع اربع ملالات وسيارتي جيب من ثكنة مرجعيون ، وبذلك اصبح الجنوب تحت السيطرة الوطنية باستثناء جيب القليعة الذي شكل فيما بعد بؤرة تحالف انعزالي – صهيوني كان له اثره السلبي على الاوضاع في قسم لا بأس به من الشريط الحدودي •

وعلى الرغم من سيطرة جيش لبنان العربي على ثكنات الجنوب جميعها ، فان هذه الثكنات لم تحتفظ بقوتها السابقة ، بل سادها الضعف الى حد كبير ، نتيجة بقاء معظم الجنود والضباط في منازلهم ، والتحاق قسم من الانعزاليين بالثكنات الانعزالية، الامر الذي اضطر قيادة جيش لبنان العربي الى الاعلان عن فتح دورات عديدة للتطوع وملء الفراغ الناتج عن ترك معظم العسكريين القدامى للجيش •

ومن المؤسف ان الفوضى والتساهل في مسألة الانضباط ، خاصة في الاشهر السبعة الاولى ، حكمت العلاقات داخل جيش لبنان العربي ، وكانت سببا رئيسيا في ضعف هذا الجيش وقلة عدده وفاعليته ، كما ان تعبئة الجيش النفسية في ظل قيادته القديمة كانت

تعبئة انعـزالية ، وبالتالي فان عـملية الوعـي السياسي والوطني كانت محدودة جدا في اوساط افراد الجيش ، الامر الذي يفسر بقاء الاكثرية الساحقة من الجنود والضباط فـي منازلهم · ومع هـذا فقد استجاب عـدد من هؤلاء لهذه الانتفاضة التي كان لها اثرهـا التاريخـي في تفكيك جهاز كان يعـول عـليه لخدمة المخـطط ، ويرجع ذلك الى ان المجازر الطائفية التي ارتكبت امام اعين الجنود ومشاركتهم فيها احيانا بامر من القيادة ، وتحيز القيادة الفاضح الى جانب الانعـزاليين ، ولـدت ردة فعـل عفوية تجسدت في بـروز ظاهرة جيش لبنان العربي وانضمام الجنود اليها · ولكن هذا الانضمام لم ياخـذ طابـع الاستمرار للاسباب التي سبق الاشارة اليها ·

وبعـد ان حسم الصراع في الجنوب ، واصبح منطقة يسيطر عـليها الطرف الوطني ، كان لا بـد من الافادة من القوات المتواجدة هناك ونقلها الى مناطق القتال الاخـرى فـي بيروت والجبل ، وذلك من اجـل الاسراع في عـملية حسم الصراع عـلـى الساحـة اللبنانية ، وارغـام القوى الانعـزالية عـلى التخلي عـن مشروعـها ، والقبول بانهـاء القتال واحداث اصلاحات سياسية واجتماعية في بنية النظام اللبناني · وعـلى هـذا الاساس حـرك جيش لبنان العربـي بعض قواته من الجنوب نحـو بيروت ، كما عـمدت الثـورة الفلسطينية والحركة الوطنية الى نقل قسم لا يستهـان به من قواتهمـا الـى الجبل ومنطقة جزين ·

مخـطط تحرك القوى الانعـزالية لانشاء الحاجز الامني

لم يكن باستطاعـة القوى الانعـزالية في الجنوب التحـرك بالاستناد الى امكاناتهـا الذاتية · فهي محصورة في عدد مـن القرى المسيحية وسط بحر منـاوىء لهـا · واذا عـلمنا ان هـذه القرى ليست متصلة ببعضها ، تبين لنا استحـالة ان تشكل وحدها قوة كافية للدفاع عن نفسها في وجـه اية محاولة للهجوم عليهـا من الخـارج · فعلمـا الشعـب تقع فـي الطرف الجنوبي الغربي من الحـدود بالقرب من الناقورة · امـا رميش ودبـل وعـين ابـل فتشكل مثلثا متكاملا تقع فـي وسطه قرية حانين ، ويبعـد عـن عـلما الشعـب حوالي ٢٥ كلم ويقع بالقرب من بلدة بنت جبيل ، بينما تقـع بلدتا القليعة وبرج الملوك في الجنوب الشرقي من الحـدود بالقرب من مرجعـيون ، وتبعـدان عـن مثلث رميش ـ دبـل ـ عـين ابـل حوالـي ٣٥ كلم · ولذا كان لا بـد لاي تحـرك انعزالي ان يستند بالضرورة الى الدعـم والمساندة من « اسرائيل » القادرة عـلى القيام بهـذا الدور بسهولة نظرا لقـرب القرى المذكورة من الشريط الحدودي ·

وكان نقل المعـركة من قبـل الانعـزاليين الى الجنوب ، منذ حزيران ١٩٧٦ يستهدف الوصول الى عـدة اغراض :

١ ـ دفع الزعامات التقليدية للتحـرك ضد الثـورة الفلسطينية والقوى الوطنية ·

٢ ـ المراهنة عـلى قيام تحـرك شعبـي جنوبي مناوىء ايضا ، الامر الذي يظهـر الجنوب بمظهر المنتفض ضد الثـورة الفلسطينية وغـير الراغـب في تواجدها على ارضه·

٣ ـ فتح جبهة جديدة في الجنوب تسهم فـي تشتيت قوى المقاومة والحركة الوطنيـة وتخلق بلبلة في صفوفها تؤدي الى اضعـاف معنوياتها ·

وبالفعـل نشط فـي تلك المرحلـة انصار الاقطاع الديني والسياسي في محاولة لدفـع الجماهير الى التحرك بحجة الحفاظ عـلى الجنوب ، وعـدم تعريض ابنائه لـلاذى

والهجرة · وهم الذين تكبدوا الخسائر اكثر من غيرهم في مناطق الشياح ، والليلكي ،وبرج حمود ، والنبعة ، والمسلخ ، والكرنتينا ، وتل الزعتر ، بسبب « الفلسطينيين » ومن معهم من الاحزاب · وتطابق ذلك مع سياسة « اسرائيل » الراغبة في اقامة حاجز امني على حدودها الشمالية ، لتشكل من قرى الحدود حلقات رئيسية تحصر بينها القرى الاسلامية الاخرى ، وتحول دون نشاط المقاومة الفلسطينية ، وتمنع بالتالي عمليا تنفيذ اتفاقية القاهرة ·

ومن جهة اخرى فقد كانت « اسرائيل » تطمح من خلال مساندة وحماية الانعزاليين في هذه القرى شد المسيحيين فيها الى التعامل معها مستقبلا ، وتوثيق علاقتها بهم من اجل خدمة اغراضها السياسية والعسكرية في الجنوب ·

ويبدو ان الانعزاليين كانوا يخططون لربط الحاجز الامني من القرى الحدودية بالمناطق التي يسيطرون عليها في الداخل عن طريق قرية « العيشية » التي كان مقررا ان تكون صلة الوصل بين القليعة وجزين · ولكن هذا الجانب من المخطط ضرب عندما استطاعت الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية تصفية القوى الانعزالية في « العيشية »، وسيطرت على البلدة في تشرين الاول ١٩٧٦ ·

القرى والطرقات التي سيطر عليها الانعزاليون حتى اواخر تشرين الاول ١٩٧٦

سيطر الانعزاليون منذ حزيران ١٩٧٦ على القرى المسيحية : علما الشعب ، دبل ، رميش ، وعين أبل ، القليعة ، برج الملوك ، بفضل المساعدة الاسرائيلية التي قدمت لهم · ثم انتقلوا بعد ذلك الى محاولة السيطرة على عدد من القرى الاخرى · فحاصروا قرية حانين الواقعة في منتصف مثلث دبل – رميش – عين ابل ، وقطعوا عنها كل الاتصالات والامدادات الصحية والتموينية منذ اواخر آب ١٩٧٦ ، ثم بدأوا باستفزازها حتى كان الهجوم عليها واسقاطها فجر يوم ١٧/١٠/٧٦ ، بعد معركة غير متكافئة استمرت عدة ساعات ، ودارت بين شباب القرية وبين الانعزاليين المزودين بالآليات الاسرائيلية ·

وبعد سقوط حانين ، تعامل الانعزاليون مع قرى عيتا الشعب ورامية ويارين على اساس انها ساقطة في ايديهم ، دون حاجة للدخول اليها ، مع ما يجره هذا الدخول من استفزاز للمشاعر في المنطقة ، يخدم في النهاية التيار الوطني ، خاصة وان الاعمال الوحشية التي قام بها الانعزاليون في حانين قد أضرت بمخططهم ، وادت الى اخلاء البلدة من جميع سكانها ، وكشفت عن الحقد الطائفي الذي يعمر صدر الانعزاليين ، ونبهت القرى الاخرى الى اخطار التعامل معهم ·

والجدير بالذكر ان قرى عيتا الشعب ورامية ويارين تقع على الشريط الحدودي بين علما الشعب من الجهة الجنوبية الغربية ، ومثلث دبل – رميش – عين ابل من الجهة الجنوبية الشرقية بحيث لا يمكن الدخول اليها الا بواسطة احد هذين المدخلين المسيطر عليهما من قبل الانعزاليين ·

بعد ذلك بدأ الانعزاليون في هذا المحور باعمال استفزازية لبلدة بنت جبيل المتاخمة لعين ابل ، ولقرى عيناتا والطيري ورشاف ، الامر الذي ادى الى توتر الوضع في المنطقة وتحولها الى مسرح للاشتباكات والقصف المتبادل·

اما على محور مرجعيون ، فقد جعل الانعزاليون نصب اعينهم السيطرة على بلدة مرجعيون نظرا لاهميتها الاستراتيجية بالنسبة الى مخططهم ، واعتبرت القليعة مركزا لتجمعهم في المنطقة . والحقيقة ان سقوط مرجعيون في ايديهم لم يكن نتيجة معركة ، وانما كان بفعل مؤامرة داخل ثكنة مرجعيون كان من نتائجها ان سلمت الثكنة الى الانعزاليين ، واصبحت بالتالي مرجعيون في ايديهم .

وبذلك اصبح الانعزاليون يسيطرون في هذا المحور على الطريق الرئيسي الذي يربط النبطية بمرجعيون بالقرب من مرجعيون ، والطريق المؤدي الى دبين وبلاط (مع العلم بان دبين متصلة سكنيا بمرجعيون) والطريق المؤدي الى بلدة الخيام . وكانت الغاية من هذه السيطرة حصار منطقة العرقوب ، وتضييق الخناق على الثورة الفلسطينية في اهم منطقة استراتيجية لها .

وفي هذا المحور ، ايضا ، حاول الانعزاليون السيطرة على كفركلا الحدودية والمجاورة لبرج الملوك والقليعة ، وارسلوا عدة انذارات الى الشباب الوطني فيها ، لتسليم اسلحتهم والخروج من البلدة ، ولما لم يستجب الوطنيون لهذه الانذارات اكتفى الانعزاليون بالسيطرة على مدخل البلدة بالنيران .

وفي محور « بنت جبيل » ... وقع طريق الشريط الحدودي من عين ابل وحتى علما الشعب تحت السيطرة الانعزالية - الاسرائيلية ، كما تمت السيطرة على مدخل صف الهوا بالنيران الانعزالية من جهة عين ابل ، الامر الذي جعل بالامكان قطع الطريق على بنت جبيل وعيناتا وعيترون ومارون الراس ، واصبح بوسع الانعزاليين محاصرة هذه القرى تموينيا ، خاصة وان ارسال التموين اليها عن طريق عديسة - ميس الجبل - عيترون ، كان يصطدم بقدرة اسرائيل على التحكم في خط المواصلات نظرا لكونه في متناول يدها على الشريط الحدودي . وسيطر الانعزاليون ، ايضا ، على طريق رشاف عند اول البلدة .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان بامكان الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية التقليل من اهمية السيطرة الانعزالية على هذه الطريق ، وذلك بشق طريق يربط كونين بعيناتا (١٥٠٠ م) ويسمح بالاستغناء عن طريق صف الهوا . كما كان بالامكان شق طريق (١٥٠٠ م) الى داخل بلدة رشاف ، متفرع عن الطريق العام للبلدة ، بحيث يمر عبر منطقة غير مرئيه من جهة دبل . ولكن شق هذين الطريقين لم يتم ، وبقيت القوات الانعزالية مسيطرة بالنيران على محاور الحركة .

والحقيقة ان عملية التحضير لفتح جبهة قتالية في الجنوب من قبل الانعزاليين ،والتي استمرت اكثر من ثلاثة اشهر لم تلق الاهتمام المطلوب من الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية وجيش لبنان العربي . علما بان ما جرى اثناء تلك الفترة لم يكن سرا من الاسرار ، وانما كان امرا معروفا لكل مراقب في المنطقة ، ويرجع ذلك الى ان المعسكر الوطني كان مشدودا بكل اهتمامه وقواه نحو معركة الجبل ونحو جزين . والامر الوحيد الذي استرعى الانتباه اكثر من غيره ، كان الجانب الصحي ، فمن اجل قطع الطريق على العدو ، تحركت الثورة الفلسطينية لدعم كل المؤسسات الصحية العاملة في الجنوب ، والتي كانت قد اوقفت معظم نشاطاتها بسبب الافتقار الى الدواء وبفضل هذه المبادرة التي قامت بها الثورة الفلسطينية شكلت «اللجنة الصحية العليا في الجنوب»

ممثلة لكل المؤسسات الصحية ، بحيث اعيد فتح معظم المستوصفات المغلقة · ولقد اخذت هذه اللجنة على عاتقها أيضا ، توفير الامكانات الصحية للقرى التي يسيطر عليها الانعزاليون ، وذلك من اجل عدم اعطائهم حجة للتعامل مع « اسرائيل » · هذا مع العلم بأن الثورة الفلسطينية كانت تشدد على اهمية القيام بمثل هذا الدور من قبل اللجنة ·

الوضع النفسي ـ الاجتماعي الذي سهل السيطرة الانعزالية :

بدأ المخطط الانعزالي ـ الصهيوني لفتح جبهة جديدة في الجنوب بانتهاج « سياسة السياج المفتوح » ·وقد ظهرت هذه السياسة بصورة علنية في شهر ايار ١٩٧٦ عن طريق رميش والقليعة كنافذتين لبدء التعامل معهما ، واستندت هذه السياسة الى الازمة الحادة التي عاشها الجنوب في تلك المرحلة في الامور التموينية والصحية والمائية والمعيشية ، بالاضافة الى ازمة عدم شراء محصول التبغ لعام ١٩٧٥ · وسط هذا الجو لبست «اسرائيل» لباس الانسانية المزيف ، وراحت تقدم العديد من الخدمات وتبيع السلع التموينية من المواطنين ، كل ذلك من اجل انتزاع الروح العدائية من نفوسهم تجاهها ، واقناعهم بان الاذى الذي لحق بهم في السابق على يديها كان بسبب التواجد والتحرك الفدائي في مناطقهم · واعطت هذه السياسة نتائجها بالنسبة الى القرى المسيحية على الشريط الحدودي ، وشكلت ارضا خصبة لتحرك القوى الانعزالية فيها فيما بعد ، حيث كانت المرحلة الثانية بتقديم السلاح والعتاد مرفقا بالضمانات الامنية الى هذه القرى ·

ومن جهة اخرى ، استغلت «اسرائيل» حالة الخوف التي انتابت بعض الاوساط المسيحية في هذه القرى وظهرت بمظهر الحامي للمسيحيين في وجه اية محاولة اعتداء يتعرضون لها · والحقيقة ان هذا الخوف لم يكن له ما يبرره على الاطلاق ، ذلك ان الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية كانتا تحرصان دائما ، على اشعار سكان هذه القرى بالحماية والامن ، لالتزامهما بالمبادىء الوطنية ، ولانهما تدركان ان اسلوب الاثارة الطائفية يخدم اسرائيل والقوى الانعزالية ويضر الثورة والحركة الوطنية · وخير دليل على ذلك هو انه لم تحصل طيلة الاحداث اية ردة فعل طائفية في الجنوب بحق المسيحيين كرد على المجازر الطائفية التي ارتكبها الانعزاليون بحق ابناء الجنوب في بيروت والضواحي ·

ان هذه المخاوف غذتها الدعايات الاسرائيلية والقوى الانعزالية التي كانت تريد الافادة منها لخلق الاجواء الملائمة للتحرك ، وبالتالي دفع المواطنين في هذه القرى الى القبول بمبدأ التعامل مع « اسرائيل »· كذلك استغل الانعزاليون في رميش اولا ،ثم في بقية القرى المسيحية التي يسيطرون عليها ، قرار قطع رواتب العسكريين فيها من قبل قيادة جيش لبنان العربي ، بحيث استخدم هذا القرار مادة للتحريض الطائفي ، ومبررا للتعاون مع «اسرائيل» ، وما لبث العسكريون في رميش ان شكلوا لجنة كلفت بادارة شؤونهم وشؤون البلدة وخولت الاتصال بالخارج · ومنذ ذلك الحين بدأ العسكريون باقامة الحواجز والحراسات داخل البلدة ، وكان ذلك في منتصف شهر تموز ١٩٧٦ ·

وعندما تراجعت قيادة جيش لبنان العربي عن قرارها ، بعد مراجعات اشتركت فيها قيادة الثورة الفلسطينية ، واعلنت استعدادها لدفع رواتب هؤلاء العسكريين ، برز

مطلب جديد لم يكن مطروحا من قبل ، وهو ان حل مشكلتهم وايقاف تعاونهم مع «اسرائيل» مرتبط بحل مشكلة « انصار الجيش » في البلدة ، (١) اي دفع رواتب هؤلاء ايضا · والواقع ان صيغة « انصار الجيش » التي كانت معتمدة في السابق من قبل قيادة جيش «الشرعية» قد الغيت بقرار من قيادة جيش لبنان العربي ، بسبب ان هذه الصيغة ينضوي تحت لوائها المنتفعون والازلام والعناصر المشبوهة والحاقدة على القوى الوطنية والثورة الفلسطينية · ولما لم يستجب جيش لبنان العربي الى المطلب الجديد ، الذي اعتبر بمثابة الابتزاز الذي يحمل بصورة صريحة اصرارا على التعامل مع العدو ، انقطع الاتصال مع عسكريي رميش ، وانتقلت رميش بصورة نهائية لتصبح «قليعة» اخرى ، اعتبارا من مطلع شهر آب ١٩٧٦ ·

الدعم الذي حصل عليه الانعزاليون لتحقيق هذه السيطرة :

تمثل الدعم الذي حصل عليه الانعزاليون من « اسرائيل » من الناحية العسكرية بوجهين اثنين : اولهما تسهيل مرور المقاتلين الانعزاليين القادمين من جونيه الى هذه القرى · والثاني الامداد بالاسلحة الخفيفة والمتوسطة وبعض المدافع والذخائر والاعتدة الاخرى ، وتزويدهم بالملالات (العربات المدرعة) بالاضافة الى الاسناد المدفعي من خلف الشريط الحدودي ·

وفيما يتعلق بالوجه الاول من الدعم ، فقد كان من المتعذر على الانعزاليين سلوك اي طريق آخر يصلهم بهذه القرى باستثناء الطريق البحري من جونيه الى داخل الارض المحتلة ، ومن ثم الانتقال الى القليعة او رميش ، ولذلك كان لا بد من نقل قسم من قواتهم عبر هذه الطريقة ، وذلك لتأمين الحد الادنى من المقاتلين القادرين على تحريك الوضع عسكريا في هذه القرى ، وبالتالي فرض الامر الواقع عليها ، واسكات كل الاصوات التي تعارض وتتخوف من نقل المعركة الى المنطقة ، مع ما يجره ذلك من اذى يلحق بالافراد والممتلكات ، وتخريب للعلاقات الايجابية التي كانت سائدة مع ابناء المنطقة ·(٢)

وعلى هذا الاساس ، التحق بقرية القليعة كل العسكريين من ابنائها الذين كانوا في المناطق الاخرى لتعزيز وضع العسكريين الذين انسحبوا من ثكنة مرجعيون اليها ، معارضين استلامها من قبل جيش لبنان العربي في اوائل آذار ١٩٧٦ ·

اما بالنسبة لمحور بنت جبيل ، وهو الاضعف ، بامكاناته الذاتية ، فقد وصلت الى بلدة دبل في منتصف شهر اب ١٩٧٦ ست سيارات مدنية تعج بالمسلحين قادمة من رميش عبر الحدود ، وذلك على شكل مظاهرة عسكرية ، اطلقت فيها النار بغزارة داخل البلدة احتفاء بوصولهم سالمين · وبعدها مباشرة وصلت الى عين ابل مجموعات مسلحة نزلت في مدرسة الراهبات ، حيث اتخذت من المدرسة مقرا لها ، وباشرت بعد ايام من وصولها بفتح دورة للتدريب العسكري ، وبدات منذ ذلك الحين المظاهر المسلحة تبرز للعيان متمثلة باقامة الكمائن والحراسات والحواجز احيانا على الطريق العام الذي يعتبر طريقا رئيسيا يصل بالناقورة ·

واستمر هذا الاستعداد في تصاعد مستمر ، رافقه تصاعد في التوتر ، ينذر بقرب الانفجار في هذه المنطقة ·· ففي بلدة عين ابل ، فرض على جميع الشبان ، ومن هم قادرون صحيا على حمل السلاح ، المساهمة في الدوريات والحراسات

والاستنفارات ، واثير في البلدة جو من الارهاب ، اضطر معظم الشباب الوطنيين فيها الى التسلل من البلدة بعد ان غدا الخروج مقيدا وخاضعا لاذونات من القيادة العسكرية . وكان الكمين الذي اعده الانعزاليون في هذه البلدة يوم ٣٠ اب ١٩٧٦ لاربعة من شباب فتح ثلاثة منهم من ابناء الجنوب ، كانوا في سيارة مدنية قادمين من عيتا الشعب باتجاه بنتجبيل ، الشرارة الاولى للاحداث في هذه المنطقة ، وقد ادى هذا الحادث الى اول اشتباك استشهد فيه الشباب الاربعة ، وقتل من جانب الانعزاليين ثلاثة وجرح آخرون .

وتؤكد الارقام الوجه الثاني من الدعم الاسرائيلي للانعزاليين ، فمن المعروف انه كان لدى انعزاليي القليعة اربع ملالات ، واذا بهذا العدد يزيد عند قيامهم باي تحرك ليصل في بعض الاحيان الى اثنتي عشرة ملالة . اما في محور بنت جبيل فلم يكن لدى الانعزاليين اية ملالة او سيارة عسكرية ، لانه لم يكن في عين ابل او دبل او رميش مراكز عسكرية تابعة للجيش تسمح للانعزاليين بالقول انهم سيطروا عليها واستولوا على اسلحتها . حتى ان العسكريين في رميش قبعوا في منازلهم منذ سيطرة جيش لبنان العربي على ثكنات الجنوب دون ان ياخذوا معهم حتى سلاحهم الفردي ، وفجاة اصبح لدى الانعزاليين في هذا المحور عدد من الملالات يزيد على عشرة ، موزعة في عين ابل ودبل ورميش والملاحظ ان الملالات الموجودة بحوزتهم لا يستخدمها الجيش اللبناني ، وانما هي من نوع مستخدم في الجيوش العربية ذات التسليح السوفياتي ، هي على ما يبدو من الاليات الصالحة للاستعمال التي استولت عليها «اسرائيل» في حرب حزيران ١٩٦٧، وتستعملها هي ايضا في تحركاتها العسكرية على الحدود .

وامام وضوح المساندة والدعم من قبل « اسرائيل » للانعزاليين ، بحيث لم يعد هناك حاجة لدليل ، اضطر كميل شمعون الى الاجابة على سؤال صحفي حول حقيقة موضوع تسلح الانعزاليين من قبل «اسرائيل» بالقول : « انهم مستعدون لشراء السلاح من الشيطان » (٣) دون ان يسمي «اسرائيل» بالاسم . وهو ، ايضا ، ما دفع سعيد عقل الى الاعتراف صراحة بان اسرائيل « سوف تستمر في مد الانعزاليين بالسلاح » (٤) .

ومن جهة اخرى ، فان « اسرائيل » قدمت ، ايضا ، دعما من نوع آخر الى الانعزاليين في هذه القرى ، والذي بدونه لا يمكن الاستمرار بالتحرك ، حتى ولو توفرت الامكانيات العسكرية . فمستشفيات «اسرائيل» هي بتصرف الانعزاليين من اجل نقل الجرحى واجراء العمليات الجراحية ، وكذلك الامر بشان التموين والوقود وغيرها من مستلزمات الاستمرار في القتال . ومن المؤكد ان هذا الدعم بكل اشكاله هو الذي سمح للانعزاليين بنقل المعركة الى الجنوب ، في ظل ضمانات الحماية عند الضرورة ، وهو الامر الذي ردده اكثر من مصدر اسرائيلي بالحديث عن « مساعدة المسيحيين لانشاء دولة خاصة بهم » ومد يد المساعدة الى القرى المسيحية اذا طلب سكانها ذلك .

تطور الاوضاع بعد مؤتمري القمة في الرياض والقاهرة :

عند استفحال نشاط الانعزاليين بدأ الاهتمام بصورة جدية في حصر هذه النشاط ومنع انتشاره ، وبرز ذلك بصورة خاصة بعد انسحاب المقاومة من الجبل ودخول قوات الردع العربية بموجب قرارات مؤتمري القمة في الرياض والقاهرة في تشرين الاول ١٩٧٦ . وتمثل هذا الاهتمام بارسال قوات من الثورة الفلسطينية الى الجنوب ، كما ان

جيش لبنان العربي عزز وجوده في المنطقة ، ايضا ، بالحاق كتيبة من الجنود الذين انهوا دورتهم التدريبية حديثا ٠

وكان لهذا الحشد اثره الكبير في رفع معنويات الجماهير في المنطقة ، مما جعل اسرائيل تطلق التهديدات اليومية في محاولة منها لرفع معنويات الانعزاليين في القرى التي يسيطرون عليها ، الى جانب استخدام هذه التهديدات كوسيلة ضغط سياسية على مجريات الاحداث في لبنان بما يخدم مصالحها ومصالح الفئات الحليفة لها ٠

ومن جهة اخرى ، فقد كانت الفرصة مناسبة للمعسكر الوطني بعد مؤتمر القمة في القاهرة وصدور قرار وقف اطلاق النار ، ليوجه ضربة للقوى الانعزالية في بلدة العيشية ، التي كانت تستعد لطعن المعسكر الوطني في منطقة الريحان من الخلف ، وتشكيل حلقة اتصال بين القليعة وجزين وبقية المناطق التي يسيطر عليها الانعزاليون ٠

الا ان هذا التحول في الموقف لصالح المعسكر الوطني في الجنوب لم يستمر كما كان منتظرا ٠٠ اذ بدأت الامور تأخذ منحى خطيرا على طول الشريط الحدودي منذ مطلع كانون الثاني ١٩٧٧ ، لمصلحة المخطط الصهيوني ـ الانعزالي ٠ ويبدو ان هذا التحالف تخوف من أن يؤدي تركيز قوة الثورة الفلسطينية وجيش لبنان العربي في الجنوب ، الى انهيار كامل في معنويات الانعزاليين في القرى التي يسيطرون عليها ، مقابل تحسن الموقف المعنوي لمقاتلي المعسكر الوطني ، بالاضافة الى التحسن الذي طرأ على معنويات الجماهير في القرى ، فراح يعتمد سياسة تعرضية لمنع هذه التحولات واكمال المخطط الهادف الى السيطرة على طول الشريط الحدودي لتحقيق اغراض سياسية وعسكرية تخدم «اسرائيل» وتسهم في تطويق الثورة الفلسطينية في المنطقة وتشل فعاليتها العسكرية ٠

وهكذا ، بدات القرى القريبة من الحدود تشهد تصعيدا عسكريا من جانب الانعزاليين، يرافقه قصف كثيف من المدفعية الاسرائيلية ٠ وجاءت عملية التصعيد هذه بعد دخول قوات الردع لمنطقة النبطية وتصريح بشير الجميل قائد « القوات الانعزالية » الذي جاء فيه : ان هذه القوات سوف تبدأ من الجنوب تحرير ما تبقى من « الاراضي اللبنانية المحتلة » ٠ اذ بعد مرور اكثر من اسبوع على هذا التصريح ، قامت القوات الانعزالية في محور مرجعيون باحتلال قرية عديسة الحدودية ، التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات عن قرية القليعة وذلك بالتقدم اليها عبر الطريق الحدودي المسيطر عليه من قبل «اسرائيل» ٠ وكان ذلك بتاريخ ١٩٧٧/١/٢٣ ٠

والجدير بالذكر ، ان موقع قرية « عديسة » الجغرافي يجعلها تحت السيطرة النارية للقوات الاسرائيلية المتمركزة على مرتفع يبعد حوالي اربعمائة متر عن ساحة البلدة ، ولذلك لم تتواجد فيها قوات تابعة للثورة الفلسطينية او جيش لبنان العربي او الحركة الوطنية ، الامر الذي مكن القوات الانعزالية من السيطرة على هذه القرية دون قتال ، فاصبحت متحكمة بمحور هام للطرق يؤدي من جهة الغرب الى قرية الطيبة ، ومن الجهة الجنوبية الغربية الى قرى « رب ثلاثين » و«مركب» و«حولا» وحتى «ميس الجبل » و«بليدا » ، وبذلك اصبحت قرية الطيبة تشكل خطا اماميا في مواجهة التحالف الانعزالي ـ الصهيوني ٠

وبتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٩٧٧ ٠ احتلت القوات الانعزالية « تلة لوبية » الكائنة

عند اول الطريق الفرعي المؤدي الى قريتي دير ميماس وكفركلا ، دون قتال ايضا ، بعد انسحاب جيش لبنان العربي منها · وبذلك اصبحت كفركلا ودير ميماس مطوقة من جميع الجهات باستثناء الجهة الغربية الجبلية ، التي استخدمها المسلحون الوطنيون في كفركلا كممر للانسحاب بناء على اوامر صدرت اليهم فور احتلال الانعزاليين «لتلة لوبية » ، وبذلك سقطت هاتان القريتان في ايدي القوات الانعزالية ·

لقد احدث احتلال عديسة ومن بعدها « تلة لوبية » حالة من القلق الشديد وضعف في المعنويات لدى جماهير المنطقة · ولكن هذا لا يبرر اوامر الانسحاب التي صدرت الى المسلحين الوطنيين من ابناء « كفركلا» فور سقوط « تلة لوبية » ، لان مصير هذه التلة ، على الرغم من اهميتها بالنسبة الى قريتي دير ميماس وكفركلا ، مرتبط بقلعة الشقيف ـ ارنون المشرفة عليها ، وهذا يعني انه بمجرد ان تبدا مدفعية الشقيف ـ ارنون صب قذائفها على التلة ، يجد الانعزاليون انفسهم مضطرين الى الانسحاب منها (وهذا ما حصل بالضبط خلال فترة لا تتجاوز الاربع والعشرين ساعة على معرفة الثورة الفلسطينية باحتلال الانعزاليين للتلة ، حيث اعيد احتلالها من قبل المعسكر الوطني) ولقد كان من الممكن الاحتفاظ بالقريتين بعد دعمهما ببعض القوى والوسائط ، خاصة وان الاحتفاظ بكفركلا كمخفر امامي للوطنيين له اهميته من الناحية المعنوية ، بالنظر الى التراث الوطني والنضالي الذي تتمتع به هذه القرية ·

وبتاريخ ١٧ شباط ١٩٧٧ شن الانعزاليون هجوما على بلدة الخيام ، مدعما بالآليات شارك فيه الملازم بافيتش الذي كان يتولى مسؤولية عسكرية في ثكنة الخيام بالاضافة الى عدد من ابناء البلدة المرتبطين بالاقطاع ، اسفر عن سيطرة الانعزاليين وحلفائهم على البلدة دون قتال فعلي ·

وكان قد سبق الهجوم توتر استمر عدة ايام بين الوطنيين من جهة وازلام الاقطاع من جهة اخرى ، وانقسام داخل الثكنة سيطر الوطنيون على اثره على البلدة سيطرة تامة، وهرب الملازم بافيتش ومن معه نحو القليعة ·

والجدير بالذكر ان الملازم بافيتش سبق له ان شارك في المؤامرة ـ الهجوم على ثكنة مرجعيون الى جانب الانعزاليين في تشرين الاول ١٩٧٦ ، ومن ثم تولى مسؤولية عسكرية في ثكنة الخيام تحت امرة النقيب جلبوط بعد ان اعلنت الثكنة ومعها البلدة «حيادها» والتزامها « بالشرعية » ، وذلك بموجب « اتفاق » بين ابناء الخيام « تجنيبا للبلدة الخراب والدمار »· ونص الاتفاق في حينه على عدم دخول قوات الثورة الفلسطينية الى البلدة كي لا يشكل ذلك ذريعة « للانعزاليين بالتضييق عليها ومهاجمتها » ·

وبسقوط الخيام ، بات من المنتظر ان يشدد التحالف الانعزالي ـ الصهيوني الضغط على قرية ابل السقي وذلك بقصد اكمال الخطة الهادفة الى تطويق الثورة الفلسطينية في العرقوب والغاء اتفاقية القاهرة كليا ·

اما في محور بنت جبيل ، فقد اشتد التوتر ايضا ، وشمل القصف الاسرائيلي قرى الطيري وكونين وعيناتا وبيت ياحون وياطر ورشاف بالاضافة الى بلدة بنت جبيل · كما شهد هذا المحور نزوحا كبيرا من هذه القرى بسبب كثافة القصف المدفعي ·

ميزان القوى الحالي ٠

على الرغم من التمدد الانعزالي الخطير بمحاذاة الشريط الحدودي ، فان ميزان القوى الحالي في الجنوب بالقياس الى امكانيات الانعزاليين الذاتية وما لديهم من سلاح، يميل لمصلحة المعسكر الوطني ، **شرط ان يمتلك هذا المعسكر سياسة قتالية واضحة تسمح له باستخدام اقصى ما لديه من امكانيات في مواجهة الخصم ٠** فقوة الانعزاليين في محور مرجعيون لا تتعدى الستمائة مسلح ، بينهم حوالي اربعمائة مقاتل ، اما في محور بنت جبيل فلا يتعدى عدد المسلحين الانعزاليين الاربعمائة ، ويملك الانعزاليون في محور بنت جبيل حوالي عشر ناقلات جنود (جميعها سوفياتية الصنع) بالاضافة الى عدة مدافع هاون ٨١ مم و٢٠ مم ، وعدد من الرشاشات الثقيلة والمتوسطة ، موزعة على الكمائن والحواجز وعلى متن ناقلات الجنود ٠

اما الاليات والمدرعات التي اصبحت في حوزة الانعزاليين في محور مرجعيون ، منذ سقوط ثكنة مرجعيون في ايديهم ، فهي حوالي ١٢ ملالة وبضعة دبابات ومصفحات، وبضعة مدافع هاون ومدافع م/د ٠ هذا الى جانب الاسناد المدفعي الاسرائيلي ٠

اما في الجانب الوطني ، فبعد الانهيار الذي حصل داخل جيش لبنان العربي ، فان قوة الثورة الفلسطينية اصبحت تشكل العمود الفقري في هذا الجانب ، فهي تملك قوة تقدر بعدة الاف من الرجال المزودين بالاسلحة الخفيفة والمتوسطة والصواريخ ومدافع الهاون المتعددة الاحجام وعدد من المدافع الميدانية ومدافع م/د ٠ وتستطيع الاعتماد على مقاتلي الحركة الوطنية وبعض وحدات جيش لبنان العربي التي لا تزال موجودة في اقضية صور وبنت جبيل ٠

ان التمدد الانعزالي المدعوم من قبل «اسرائيل» وصل في اواخر كانون الثاني ١٩٧٧ الى مرحلة خطيرة من الناحية العسكرية ، فاذا استطاع الانعزاليون السيطرة على بلدة بنت جبيل ، فان ذلك يعني وقوع الشريط الحدودي بكامله من علما الشعب حتى الخيام تحت سيطرة التحالف الصهيوني ـ الانعزالي ٠ ولا يسمح ميزان القوى للانعزاليين باحتلال بنت جبيل او السيطرة عليها ٠ ولكن الافادة من ميزان القوى تتطلب قرارا سياسيا يمكن تجسيده بمخطط ذي شقين : احدهما سياسي ويتمثل بالتحرك الايجابي على جميع الاصعدة ، بغية احداث ضغوطات على الانعزاليين لحملهم على ايقاف التعاون مع « اسرائيل » والكف عن التصعيد ، والثاني عسكري ويعتمد على الدفاع التعرضي الذي لا يمنع الانعزاليين من التمدد فحسب ، بل يمارس ضدهم أيضا اعمالا تعرضية مستمرة ، تستهدف خلق حالة من الارباك بين صفوفهم ، واضعاف معنوياتهم ، الامر الذي يجبرهم على ايقاف التصعيد العسكري ريثما يستطيع الرئيس سركيس اتخاذ التدابير اللازمة لاعادة الاوضاع على الحدود الى الشكل الذي يضمن تنفيذ بنود اتفاقية القاهرة الخاصة بنشاط المقاومة في الجنوب ٠

٢٥ـ٢ـ١٩٧٧

الهوامش

١ ـ عدد « انصار الجيش » في رميش حوالي ١٣٠ عنصرا ٠
٢ ـ في بلدة عين ابل كانت اوساط واسعة من ابناء البلدة تعارض في جرها الى اتون الصراع ٠
٣ ـ جريدة السفير ٢٦/١٠/١٩٧٦ ٠
٤ ـ نشرة لبنان الصادرة بتاريخ ٨/٩/١٩٧٦ ٠

مناقشات

نقد البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين

هاشم علي محسن

تمهيد :

صدرت في السادس والعشرين من شباط الماضي ، وثيقة نظرية ، باسم (البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين) ، وتولى نايف حواتمة طرحها بمؤتمر صحفي نشرت الصحف البيروتية وقائعه ٠

وقد وصف امين عام الجبهة الديمقراطية « برنامجه » بانه (اول برنامج سياسي شامل محدد وملموس في تاريخ الثورة الفلسطينية المعاصرة) (١) ٠ ونقلت جريدة النهار على لسان حواتمة قوله : ان « برنامجه » (يعطي اجوبة محددة عن المهمات الراهنة للثورة ويحدد الحلقة المركزية في النضال المرحلي حتى يصبح ممكنا في كل منطقة من مناطق وجود شعبنا الفلسطيني حشد القوى لتوجيه الطاقات في اتجاه الحلقة المركزية (٠٠٠) للمرة الاولى في تاريخ الثورة الفلسطينية المعاصرة نجد انفسنا امام برنامج سياسي مترابط يسلح شعبنا بامكانات انجاز وحدة وطنية فلسطينية راسخة ووطيدة (٠٠٠) ان هذا البرنامج سيمكن شعبنا وكل الاطارات المسؤولة في صفوف الثورة من التسلح بسلاح فكري وسياسي وتنظيمي محدد ودقيق يجعل نضالنا يصب باستمرار في الاتجاه الرئيسي من دون الانزلاق في معارك هامشية ومن دون حالات التردد واحيانا الضياع التي نجدها امام قضايا ملموسة) (٢) ٠

اما جريدة السفير فتقول : (واشار حواتمة الى ان الثورة الفلسطينية تحملت طيلة السنوات الماضية مسؤولياتها تحت راية الخط الاستراتيجي العام لانجاز التحرر الوطني الفلسطيني ٠ « الا ان هذا الخط الاستراتيجي لم يستخلص ولم يعط اجوبة محددة على المهام المباشرة للثورة ، وتحديد الحلقة المركزية للنضال المرحلي حتى يمكن لكل تواجد فلسطيني حشد قواه باتجاه تحقيقها ») ٠ (٣)

وتستطرد جريدة السفير قائلة : (وتحدث حواتمة عن اوضاع الفلسطينيين في الاراضي المحتلة عام ١٩٤٨ والمحتلة عام ١٩٦٧ ، وبقية البلدان ، وقال : « لكل منطقة من هذه المناطق مهامها الراهنة والمباشرة التي تلتقي مع الخط الاستراتيجي العام » واضاف : « ان هذا البرنامج السياسي سيمكن كل مناضل ومقاتل في صفوف شعبنا ، والاطارات المسؤولة في الثورة ، من التسلح ببرنامج فكري وسياسي وتنظيمي يجعل نضالنا يصب باستمرار في المجرى الرئيسي دون تردد او انزلاق في معارك جانبية ») (٤ ـ ٥) ٠

ان مناقشتنا للبرنامج السياسي الذي قدمه السيد حواتمة ستحاول كشف الاخطاء العديدة التي صورها البرنامج السياسي وكانها حقائق مسلم بها ٠ بيد اننا قبل ان نخوض

في خضم مناقشة هذه الوثيقة النظرية التي تصدر من بين صفوف المقاومة الفلسطينيــة، نرى من الضروري ، افتتاح هذه المناقشة ، بالوقوف امام ما سجله البرنامج السياسي من تصحيح لبعض الاخطاء الفكرية العديدة التي تملأ ادبيات الجبهة الديمقراطية وتطبع سائر منطلقاتها النظرية ، التي كانت وما تزال مشدودة الى التراث الفكــري البورجــوازي الموروث من حركة القوميين العرب ، والذي يطبع ببصماته سائر مفاهيم الجبهة الديمقراطية ومنطلقاتها الفكرية ! • فقبلا كانت الجبهة الديمقراطية تقف على طرفي نقيض مع موقــف الماركسية ــ اللينينية وسائر الشيوعيين على صعيد العالم كله ، بالنسبة للعديد من القضايا والمفاهيم الفكرية • اذ كانت تقول عن بروليتاريا بلداننا بانها « بروليتاريا رثة » ، وتتهم الحركة الوطنية الفلسطينية ، بمهادنة الانتداب البريطاني في فلسطين وعدم النضال ضده ، وتصف عصرنا الراهن بانه « عصر الاستعمار والامبريالية » ، وتقول عن بروليتاريا البلدان الرأسمالية المتقدمة بانها « شريكة البورجوازية في اقتسام غنائم النهب الاستعماري » ، نضلا عن الخلط الذي لا اول له ولا آخر عن الثورة الوطنية الديمقراطية في بلداننا ••• اما اليوم فقد صحح البرنامج السياسي بعض هذه المفاهيم ، ورغم ان عملية التصحيح هذه لم تتم وفق الاسلوب اللينيني ، فانها تمثل خطوة الى امام • بيد أن الاهم من تصحيــح بعض الخطأ في البديهيات النظرية ، ان يمثل البرنامج نفسه خطوة الى الامام ، ذلك ان «البرنامج السياسي » هو دائما بمثابة راية ترفع امام انظار الجميع ، وعلى اساسها ينظـر العالم الخارجي الى الحزب • ولذا ينبغي في مطلق الاحوال الا يكون البرنامج خطــوة الى الوراء • » (٦) ، فهل يمثل البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية خطوة الى امام ؟

ان صفحات « شؤون فلسطينية » لا تتسع لتفاصيل نقدنا « للبرنامج » ومآخذنا عليه • لذا فاننا سنترك لكتابنا « الجواب » ، تولي امر الخوض في التفاصيـل ، لكي نكتفي الآن بالوقوف امام بعض الموضوعات التي لم يتناولها الاخوان الذين نقدوا « البرنامج » على صفحات « شؤون فلسطينية » •

ايهما التي افتتحت عصر بزوغ الاشتراكية :

الحرب العالمية ، ام ثورة اكتوبر الاشتراكية المعظمى ؟

■ يقول البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية :

(وأدت الحرب ــ العالمية الاولى ــ الى دخول النظام الرأسمالي عصرا من الانحطاط والتفسخ المتسارع على نطاق دولي ، وافتتحت عصر بزوغ فجر الاشتراكية والنهوضــ المطرد لنضال الشعوب المناهض للامبريالية • فقد اسفرت الحرب عن انتصار الثـــورة الاشتراكية في روسيا القيصرية) (٧) •

اولا ــ يفهم من هذا الكلام ، ان الحرب العالمية الاولى ، هي التي ادت الى دخول النظام الرأسمالي عصر الانحطاط والتفسخ المتسارع على نطاق دولي ، وهي اي الحرب التـــي افتتحت عصر بزوغ فجر الاشتراكية والنهوض المطرد لنضال الشعوب ضد الامبريالية ، وهي أي الحرب التي اسفرت عن انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا « القيصرية » !

ثانيا ــ قبل أن نبدأ بمناقشة كلام البرنامج وتصحيح اخطائه علينا ان نلفت الانتبــاه الى أن ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى بدأت في عهد كيرنسكي اي في روسيا البورجوازية وليس في روسيا « القيصرية » ، اي الاتوقراطية كما يدعي البرنامج السياسي •

ثالثا ـ اذا صح اعتبار الحرب هي التي ادخلت النظام الرأسمالي العالمي عصر الانحطاط والتفسخ المتسارع ، رغم ان هذا الاعتبار يحتاج الى ايضاح · ذلك ان الحرب كانت نتيجة من نتائج ذلك الانحطاط والتفسخ ، الذي بلغ درجة من التفاقم اصبحت البورجوازية معها ترى أن الحرب انجع وسيلة لحسم تفاقم ازمتها · بيد ان تلك الحرب التي توخت البورجوازية ان تنقذها من ازمتها ، قد زادت طين انحطاطها وتفسخها بلة ، زيادة اصبحت معها الحرب سببا من الاسباب التي كرست انحطاط النظام الرأسمالي وتفسخه ·· نقول اذا صح مثل هذا الاعتبار ، فلا يصح اعتبار الحرب هي التي (افتتحت عصر بزوغ فجر الاشتراكية وهي التي اسفرت عن انتصار الثورة الاشتراكية ···) ، ذلك ان الحرب العالمية لم تفتتح (عصر بزوغ فجر الاشتراكية) وانما ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى هي التي افتتحت هذا العصر ، ليس لان الحرب قامت عام ١٩١٤ ، بينما بزغ فجر الاشتراكية في عام ١٩١٧ ، بل لان الحرب العالمية الاولى هي حرب الطبقة البورجوازية التي ليس بوسعها ان تفتتح عصر الاشتراكية !

صحيح ان الحرب قد انضجت ظرفا ثوريا ملائما لبزوغ فجر الاشتراكية ، بيد ان هذا الظرف لم يكن محصورا بـ « روسيا القيصرية » وحدها ، وانما كان شاملا العالم كله ، ومع ذلك فان فجر الاشتراكية لم يبزغ في غير « روسيا القيصرية » ، الامر الذي جعل روسيا تتميز عن غيرها من بلدان العالم ، تمييزا يتضح معه ان كلام البرنامج يفتقر للدقة العلمية والموضوعية ، اذ لو كانت الحرب هي التي افتتحت (عصر بزوغ فجر الاشتراكية) ، لكان يجب ان تحدث الثورة الاشتراكية في البلدان الرأسمالية الاكثر تقدما ونضجا رأسماليا من روسيا « القيصرية » ! فلماذا حدثت في روسيا دون غيرها ، يا ترى ؟

ان الاجابة على هذا السؤال ، تؤكد على ان توفر الظرف الثوري لا يؤدي بالضرورة الى حدوث ثورة ، ما لم يقترن هذا الظرف بتوفر العامل الذاتي الثوري اي الحزب الثوري ايضا · ولذلك لاحظنا انه رغم ان الوضع الثوري الذي نجم عن نشوب الحرب العالمية كان وضعا عالميا ، فان الثورة حدثت في روسيا وحدها فقط · اما سبب ذلك فيرجع الى وجود الحزب الشيوعي البولشفي الثوري فيها ، ولكون هذا الحزب كان يلتزم نهجا ثوريا منذ نشوئه · وقد اشار قائده للمهمة المباشرة الملقاة على عاتق البروليتاريا الروسية ، وحددها بتحطيم اقوى حصن للرجعية الاوروبية والاسيوية معا ، اي ان لينين حدد مهمة البروليتاريا الروسية بأن تأخذ على عاتقها القيام بالثورة الديمقراطية بدلا من الطبقة البورجوازية العاجزة ، لكي تتمكن البروليتاريا من توفير الاساس المادي والتكنيكي للاشتراكية · ومنذ ذلك الحين ، اي منذ اوائل عام ١٩٠٢ ، والحزب يعمل جاهدا من اجل بلوغ هدفه واداء مهمته المحددة · وعندما نضج الوضع الثوري ابان الحرب العالمية الاولى بادر الى انجاز المهمة ، واستلم السلطة معلنا بزوغ فجر الاشتراكية وعصر انتقال البشرية من الرأسمالية الى الاشتراكية ·

لقد نشأ وضع ثوري عام ١٩٠٥ في روسيا ، نفسها وهتف لينين للثورة وللبروليتاريا الروسية الثائرة من اعماقه ، وانشد قائلا : (بفروغ صبر وبرجاء تتطلع الان البروليتاريا في العالم بأسره الى البروليتاريا في روسيا من اقصاها الى اقصاها · فاسقاط القيصرية في روسيا الذي بدأته طبقتنا العاملة ببطولة سيكون نقطة انعطاف في تاريخ جميع العمال في جميع الامم ، وجميع الدول ، وفي جميع ارجاء الكرة الارضية · وعلى كل اشتراكي ـ ديمقراطي ، على كل عامل مدرك ان يتذكر مبلغ عظمة مهام النضال الشعبي

العام الملقاة الان على كاهله · وعليه الا ينسى انه يمثل كذلك حاجات ومصالح الشعب كله ضد عدو الشعب كله · أن المثل الذي ضربه الابطال بروليتاريو بطرسبورغ ماثل اليوم امام انظار الجميع ·

عاشت الثورة !

عاشت البروليتاريا الثائرة !) (٨)

ومع هذا الحماس ، وتوفر الوضع الثوري فان الثورة لم تحدث لماذا ؟
لان الحزب في عام ١٩٠٥ لم يستكمل بعد قدراته الذاتية التي تؤهله لانجاز مهمة استلام السلطة · كان هناك وضع ثوري · وكان هناك حماس للثورة ولكن لم يكن هناك بعد الحزب القادر على استغلال الوضع الثوري ، وترجمة الحماس الى ممارسة عملية يبزغ معها وبفضلها فجر عصر الاشتراكية !

(وقد نشأت في وطننا العربي اوضاع ثورية في فترات عديدة منذ اواخر الاربعينات ، بل منذ اواخر الثلاثينيات حتى الآن ، ولعل اقربها تلك التي اعقبت هزيمة ٥ حزيران ١٩٦٧ ، والاوضاع التي نشأت في فترة ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ في الاردن ، حيث تجلت ازمة الانظمة العاجزة في ذروة تفاقمها ، لقد سادت في تلك الفترات اوضاع ثورية ، بيد ان الثورة لم تحدث · لماذا ؟ لان الثورة لا تنشأ عن كل وضع ثوري ، انما تنشأ فقط اذا انضم الى جميع التغيرات الموضوعية المذكورة آنفا تغير ذاتي ، واعني به قدرة الطبقة العاملة الثورية على القيام بأعمال جماهيرية قوية بحيث انها تحطم « او تصدع » الحكم القديم الذي لن « يسقط » ابدا حتى في فترة الازمات ان لم « يعمل على اسقاطه ») (٩) ·

واذن ، فان الطبقة العاملة الروسية بقيادة حزبها البولشفي هي التي « افتتحت عصر بزوغ فجر الاشتراكية » ، وليست الحرب البورجوازية التي لا يمكن ان تكون فاعلا لافتتاح عصر جديد كعصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ·

ان برنامج الجبهة الديمقراطية يروج اوهاما ، ومعلوم ان (ترويج وهم من الاوهام على نطاق واسع ليس مفيدا ، بل انه ضار) (١٠) ·

رابعا ــ هناك وجهة نظر مغرضة تروجها بعض فصائل البورجوازية الصغيرة ، في اوروبا خاصة ترويجا يستهدف التقليل ان لم نقل الحط من شأن الطبقة العاملة وقدرتها على احداث ثورتها وافتتاح عصرها · تقول وجهة النظر هذه ، ان الثورة الاشتراكية ما كان يمكن ان تتحقق لولا نشوب الحرب العالمية الاولى ، وان اتساع وطن الثورة الاشتراكية فيما بعد وقيام المعسكر الاشتراكي ما كان يمكن ان يتحقق لولا الحرب الثانية ايضا · اي ، ان اصحاب هذه الآراء المنتشرة في اوروبا ، يصورون الثورة الاشتراكية، باعتبارها نتيجة من نتائج الحرب ، وليست حدثا تاريخيا حتميا مرتبطا بتطور الظروف الموضوعية والذاتية ونضجها للتغيير نتيجة بلوغ التناقض بين ضرورة اطراد نمو وتطور القوى المنتجة وبين تخلف علاقات الانتاج الرأسمالية السائدة ، الامر الذي يتطلب احلال النظام الاجتماعي الاشتراكي محل النظام الاجتماعي الرأسمالي الذي بات متخلفا وعاجزا عن تلبية مستلزمات اطراد التطور وتوفير حاجاته · وباختصار فان اصحاب هذه الآراء يصرون على ان هذا العصر ما يزال عصر الاستعمار والامبريالية ، وان الظروف لم تنضج بعد لحدوث الثورة الاشتراكية ولولا الحربين العالميتين الاولى والثانية ، ما كان يمكن أن تقوم الثورة الاشتراكية ، ولا كان بالتالي من الممكن ان يقوم المعسكر الاشتراكي،

ولكن قيام الثورة الاشتراكية في كوبا وانتصار الثورة الفيتنامية والكمبودية ، مثل صفعة قوية لاصحاب هذه الآراء المغرضة ، التي تروجها البورجوازية المتسترة وراء يافطات ماركسية في اوروبا ، والتي تنكر ان هذا العصر هو عصر الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ، وتصر على انه عصر الامبريالية !

ان مطالعة البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لا توحي بأن « اللجنة المركزية » للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، تهدف من وراء هذه الصياغة ان تكون بوقا عربيا لترديد مثل هذه الافكار المغرضة ، ولكنه من المؤكد ان ادعاءات البرنامج السياسي ، هي امتداد لتلك الافكار التي طرحها نايف حواتمة في تقرير آب ١٩٦٨ ، وعلى صفحات مجلتي الطليعة القاهرية والحرية البيروتية ، والتي تتناقض مع ايديولوجية الطبقة العاملة الماركسية ــ اللينينية التي تقول الجبهة الديمقراطية انها تلتزمها ·

اننا لسنا بصدد استعراض آراء وافكار حواتمة المشار اليهما آنفا · فهذا الموضوع سيهتم به كتابنا « الجواب » الذي هو الآن تحت الطبع · ولكننا سنقف قليلا على سبيل الاستشهاد ، امام بعض تلك الآراء لكي نقارنها مع نظرة « البرنامج السياسي » وآراءه التي تشكل تراجعا عن بعض اخطاء الجبهة الديمقراطية عامة وامينها العام على وجه الخصوص ،فماذا يقول « البرنامج السياسي » وماذا يقول السيد حواتمة ؟ :

يقول « البرنامج السياسي » :

(تلعب البورجوازية الصغيرة بشرائحها المختلفة دورا حيويا وفعالا في النضال الوطني ضد الاحتلال والرجعية الهاشمية · وهي تشكل الاغلبية النشطة لقاعدة التحالف الوطني · وفي ظل قيادة طبقية حازمة تستطيع هذه الطبقة ان تكون احدى القوى المحركة الرئيسية والفاعلة للثورة الوطنية الديمقراطية · الا انها تمكنها من احتلال موقع الطليعة الطبقية للثورة وقيادتها نحو النصر · وتسود في صفوفها ميول المغامرة والتطرف والتراجع اليائس والذعور والاحتجاج القصير النفس ضد واقع الاضطهاد والتشرد · ونتيجة موقعها الوسطي الرجراج بين سائر الطبقات ، فهي تعجز عن تكوين رؤية سليمة لنسبة القوى الطبقية تبني على اساسها برنامجا نضاليا صائبا يمكنها من تعبئة جماهيرية واسعة تحت قيادتها · وهي تستعيض عن هذه الرؤية بالشعارات اللفظية المتطرفة او التبشير باليأس ووضع الثورة والشعب في طريق مسدود ، وبمحاولة احلال قواها الذاتية بديلا عن التعبئة الواسعة للجماهير ·

ان الطبقة العاملة بتحالفها الديمقراطي الثوري مع فقراء الفلاحين واللاجئين المعدمين وسائر الكادحين هي الطبقة الوحيدة المؤهلة لقيادة الثورة الوطنية نحو نصر حاسم « التشديد مني » ضد الاعداء · ان الافق التاريخي المفتوح لتطور الطبقة العاملة ، والثقل الاجتماعي المتزايد الذي تحتله بين صفوف الشعب ، داخل الارض المحتلة بشكل خاص ، ومزايا الانضباط والتماسك والوحدة الداخلية التي تتحلى بها ، ومصلحتها الجذرية في التحرر والاستقلال والعودة وانجاز كامل مهام الثورة الوطنية الديمقراطية ، وقدرتها على وعي مصالح مجموع الشعب والتقدير السليم لنسبة القوى بينه وبين أعدائه ، ان مجموع هذه الصفات تجعلها اكثر طبقات الشعب ثورية وقدرة على توفير طليعة طبقية حازمة تقود الثورة الوطنية الديمقراطية دون تردد نحو نهايتها الظافرة · ان النضال من اجل تنظيم الطبقة العاملة وتعزيز ثقلها السياسي وتمكينها من اداء دورها الموضوعي

الاستراتيجي كطليعة للثورة الوطنية هو شرط رئيسي من شروط انتصار الثـــورة) ٠
(البرنامج السياسي ص ٤٠ ، ٤١) ٠

١ ـ ان اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية ، على ما يبدو لا تعي ان تعبير « الثورة الوطنية الديمقراطية » يدمج تعبيرينهما الثورة الوطنية اي الثورة السياسية ضد العدو القومي والثورة الديمقراطية اي الثورة الاقتصادية ضد العدو الطبقي ٠ اي ان تعبيـــر « الثورة الوطنية الديمقراطية » يعني الثورتين في آن معا ٠ وان الطبقة العاملة مؤهلة لقيادة الثورتين في آن سوية وايصالهما الى نهاياتهما الحاسمة ، الامر الذي يجعل تعبير « الثورة الوطنية » لوحده لا يفي بالغرض المشار اليه ٠ من هنا يبدو خطأ صيغة « البرنامج السياسي » :

(٠٠٠ المؤهلة لقيادة الثورة الوطنية نحو نصر حاسم ٠٠٠ الخ)

و (٠٠٠ كطليعة للثورة الوطنية هو شرط رئيسي ٠٠٠ الخ) انها صيغة ناقصة ،وخطاها انها تقصر دور الطبقة العاملة على الثورة السياسية دون الثورة الاقتصادية ٠

٢ ـ كما يبدو ايضا ، ان اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لا تـــدرك ان عجـــز البورجوازية الصغيرة عن قيادة « الثورة الوطنية الديمقراطية » ، لا يرجع الى افتقارهـــا الى مزايا الانضباط والوحدة الداخلية والتماسك ٠٠٠ الخ وانما يرجع اساسا الى افتقارها لاسلوب انتاج خاص بها وايديولوجية غير الايديولوجية البورجوازية ٠ كما ان اهلية الطبقة العاملة للثورة الوطنية الديمقراطية ، تتأتى من امتلاكها للايديولوجية العلمية اي الماركسية اللينينية ولاسلوب الانتاج الاشتراكي ، وبما ان ثورة بلداننا الوطنية الديمقراطية لا يمكن استكمال انجاز مهماتها وفق طريق التطور الراسمالي بسبب عجز اسلـــوب الانتـــاج الراسمالي وتخلف الايديولوجية البورجوازية ، فان الطبقة العاملة تصبح ، بحكم الواقـــع الموضوعي ، هي الطبقة الوحيدة من بين جميع الطبقات الثورية ، المؤهلةلقيادة الثورة الوطنية الديمقراطية نحو نهاياتها الحاسمة التي تنقلها الى الاشتراكية ٠

٣ ـ اذا تجاوزنا هذه الملاحظات السريعة ، فاننا سنلاحظ ان « البرنامج السياسي » مثل تصحيحا لبعض افكار الجبهة الديمقراطية وامينها العام ٠ فقبلا كان حواتمة يقول كلاما مغايرا تماما لما يقوله « البرنامج السياسي » ٠ ففي مقابلته مع مجلة الطليعة القاهرية يستعرض حواتمة مواقف الطبقات في مجتمعاتنا العربية ، استعراضا يقول معه ان (الطبقة البورجوازية الصغيرة التي ترى في نفسها طاقات وطنية وثقافية وسياسية اكثر عصرية من البورجوازية الكمبرادورية تجد ان الاقطاع والبورجوازية الكمبرادورية والاستعمار قد وقفوا في وجه هذه الطبقة وحصولها على الامتيازات التي ترضيها طبقيا وثقافيا وسياسيا ٠

من هنا احتلت هذه الطبقة موقعا ثوريا ، قياسا الى موقع الطبقة البورجوازية الصغيرة في البلدان الاوروبية التي سرعان ما التحقت مع الطبقة البورجوازية الكبيرة ، بينما هنا مارست دورا وطنيا في البلدان المتخلفة لان هناك تناقضا جديا قائما بينها وبين الاقطاع والكمبرادور والاستعمار) (١١) ٠

هذه الصورة الكبيرة لمكانة وموقع ودور البورجوازية الصغيرة ، تملأ مخيلة حواتمة لدرجة لا يعود معها قادرا على رؤية اي دور ايجابي وثوري للطبقة العاملة ولحلفائها الفلاحين ٠ يقول حواتمة :

ان (الطبقة العاملة في البلدان المتخلفة من طبيعة اصطلح عليها بالتعبير الماركسي « بروليتاريا رثة » ، واغرقها في ايديولوجية الطبقات السائدة ، كمـــا ابقى الطبقة الفلاحية غارقة في الثقافة الاقطاعية الرجعية ، والعلاقات الاجتماعية الاقطاعية) (١٢) ٠

حواتمة ينسب الى الماركسية ما هي براء منه ، ذلـــك ان الماركسية تعني بتعبير « البروليتاريا الرثة » ، اللصوص والسماسرة والشحادين والمومسات ، اي مجموع الفئات التي تلعب دورا تخريبيا في المجتمع والتي يتحتم على الطبقة العاملة عندما تستلم السلطة ان تقوم اخلاقها وتؤهلها للعمل المنتج ٠

ان السؤال هو لماذا يصور حواتمة الطبقة العاملة والفلاحين بهذه الصورة ٠

ان الاجابة على هذا السؤال ستتضح عندما نطالع كلام حواتمة التالي :

(طالما ان الطبقة العاملة هذه خصائصها وطبقة الفلاحين الفقراء ايضا هذه خصائصها، فمن اين نأتي بقيادة ثورية ؟ او كيف يمكن ان تكون الطبقة العاملة في موضع القيادة الثورية بهذه الخصائص الذاتية ؟) (١٣) ٠

هنا بيت القصيد ، اذ طالما ان الطبقة العاملة « بروليتاريا رثة » ، فانها لا تصلـــح للقيادة ! ان مجرد طرح السؤال يكشف خلفية عدم الايمان بالطبقة العاملة وبدورها التاريخي وبطبيعتها الثورية ، لانه ليس معقولا ان يكون حواتمة لا يعرف انه يطمس حقيقة وجود الطبقة العاملة ودورها النضالي الثوري المشهود في كل اقطار الوطن العربي٠ ولكنه اراد ان يبرر الاجابة على سؤاله : « من اين نأتي بقيادة ثورية ؟ » ، تبريرا يقول معه ان القيادة الثورية تتمثل بطليعة منظمة وبرنامج سياسي : « لا بد من طليعة منظمة تلتزم بهذا البرنامج وبهذه الرؤية الايديولوجية والطبقية ٠ » (١٤)

لاحظ تعبيره (لا بد من طليعة منظمة ٠٠٠) ، اي لا بد من وكيل ينوب عن العمال « الرثاث » وعن الفلاحين المغرقين بجهلهم وثقافة سادتهم الرجعية ٠٠٠ لا بد من وكيل ووصي يقوم نيابة بقيادة الثورة ٠ واذا حاولنا ان نستعير تعابير « اللجنة المركزية » للجبهة الديمقراطية نفسها ، لتوجب علينا ان نقول : لا بد من « نواة ماركسية ــ لينينية » اي « لجنة مركزية لجبهة ديمقراطية » تكون بمثابة « هيئة تحضيرية » لبناء الحزب الثوري الذي يأخذ على عاتقه تقويم الاعوجاج لدى الطبقة العاملة وتحسين سلوكها واعادة ترتيبها لكي تكف عن اللصوصية والسمسرة والشعوذة والتسول والزنى ، اي تكف عن كونها « بروليتاريا رثة » ٠ !

اذا كانت البورجوازية الصغيرة هي الطبقة الثورية الوطنية ، بينما الطبقة العاملة « بروليتاريا رثة » وكان الفلاحون غارقين في الثقافة الاقطاعية الرجعية ، فان الطليعة المنظمة التي يوكل حواتمة قيادة الثورة لها لا بد ان تكون من بين ابناء البورجوازية الصغيرة ، باعتبارها الطبقة الوطنية الاكثر ثورية من كل الطبقات !

ان هذه الافكار التي هي امتداد ، ربما لم يكن واعيا ، للافكار المغرضة التي اشرنا اليها ، تطبع ببصماتها بعض موضوعات « البرنامج السياسي » وبعض افكاره ٠

خامسا ــ ينسب « البرنامج السياسي » اطراد نهوض نضـــال الشعوب المناهض للامبريالية الى الحرب العالمية ٠ كما فعل بالنسبة لبزوغ عصر فجر الاشتراكية وانتصار الثورة الاشتراكية في « روسيا القيصرية » !

لا ريب في ان الحرب العالمية ، قد لعبت دورا هاما جدا في « ايقاظ » الشعوب وتوعيتها · ولكن « اطراد » نهوض نضال الشعوب ضد الامبريالية لا يعود الى الحرب ، وانما يرجع الى ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى والى الاممية الثالثة ، التي شقت لشعوب المستعمرات والتابعات طريقا للخلاص وجسدت امام انظارها نموذجه الاجتماعي على صعيد الواقع الملموس · فقد اعطت اللينينية دليلا نظريا عن امكانية تحول الثورة الوطنية الديمقراطية الى ثورة اشتراكية بدون المرور بمرحلة التطور الراسمالي ، واعطت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، تجربة عملية ملموسة يمكن ان تسير هذه الشعوب على هداها ، وفقا لمنهج التطبيق الخلاق للمبادىء والقواعد العامة للماركسية ـ اللينينية والنتائج المستخلصة من التجارب العملية للثورة الاشتراكية ·

اذا كان الفضل في « يقظة » الشعوب يعود للحرب ، فان الفضل في « اطراد » نهوض نضالها ضد الامبريالية يرجع الى ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى والى الاممية الثالثة ·

ان الحرب ، قد ايقظت شعوب المستعمرات والتابعات ، بحكم حاجة الامبرياليين الى هذه اليقظة ، التي يتطلبها خوض الحرب · ولكن هذه الشعوب التي دخلت التاريخ واصبحت تفهم معنى الحياة وان بحدود ، وتعلمت استخدام السلاح ، بفضل مشاركتها في الحرب الامبريالية ، ما كان بوسعها ان تشق طريقها المناهض للامبريالية لولا الحملة النضالية الدؤوبة المثابرة التي شنتها الاممية الثالثة ، ولولا التجربة الثورية الملموسة التي جسدتها ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى · صحيح ان هذه الشعوب قد نهضت تقاوم السيطرة الامبريالية ، بيد ان مقاومتها كانت تدور في حلقة التطور الرأسمالي المغلوقة ، الامر الذي كان من شأنه ان يرتد بنضال هذه الشعوب القهقرى ويحول دون اطراد نهوضه · في حين ان افق التطور الذي شقته ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، والجهود المثابرة التي بذلتها الاممية الثالثة ، قد فتحتا امام شعوبنا افاقا واسعة لاطراد نضالنا وانتصار ارادتنا وثورتنا على الامبريالية وعملائها ·

ان الحرب لعبت دورا كبيرا في ايقاظ الشعوب ، بيد ان ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، قد لعبت الدور الاكبر والاهم في اطراد يقظة الشعوب ونهوض نضالها · والفرق الواضح بين اليقظة واطرادها ، هو الذي تجاهله « البرنامج » ربما عن غير وعي ، تجاهلا لم يفقد معه « البرنامج » عمليته وموضوعيته ، فحسب ، وانما طمس دور ثورة اكتوبر الاشتراكية والجهد المثابر والمثمر الذي بذلته الاممية الثالثة !

التراجع عن الخطأ فضيلة ،

ولكن وفق ، اي مقياس ،

وعلى اي اساس ؟

يقول « البرنامج السياسي » : (··· واشتد نضال الطبقات العاملة الاوروبية ضد بورجوازيتها الامبريالية ، واكتسب اشكالا انتفاضية متصاعدة ··) (١٥) ·

كلام « البرنامج السياسي » هذا ، يشكل تراجعا عن خطأ كانت الجبهة الديمقراطية متورطة فيه · فقبلا كانت تقول ان بروليتاريا البلدان الرأسمالية المتقدمة ، طبقة مستفيدة من خيرات البلدان المستعمرة وتتقاسم الغنيمة مع البورجوازية ، الامر الذي جعل حركتها السياسية اصلاحية وجعلها اي البروليتاريا طبقة مترهلة ومتخمة شان البرجوازية بالخيرات المنهوبة من بلدان اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية · هذه النعوت والخصائص

المختلفة والملصقة بالطبقة العاملة في البلدان الراسمالية المتقدمة عامـــة ، والبلدان الرأسمالية الاوروبية على وجه الخصوص ، ترد في تقرير آب ١٩٦٨ الذي قدمه حواتمة الى المؤتمر الاول للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والذي صدر فيما بعد بكراس تحت عنوان (حول ازمة حركة المقاومة الفلسطينية) ، وقدم له حواتمة واحاطوه بضجة اعلامية ووصفوه بصفات لا تقل عن الصفات التي يصفون بها « برنامجهم السياسي » اليوم :

(فقد تمكنت برجوازية البلدان الرأسمالية من تخفيف حدة الصراع الطبقي في بلدانها ، اذ اصبحت الطبقات المستغلة ـ بفتح الغين ـ في مجتمعاتها مستفيدة من ظاهرة الاستعمار والامبريالية ، حيث تتقاسم مع برجوازية بلدانها المستغلة ـ بكسر الغين ـ فتات المائدة البورجوازية المتخمة بفضل سياسة الاستعمار واخضاع السوق العالمية عامة وسوق البلدان المتخلفة في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية خاصة لسياسة ومصالح البرجوازية الرأسمالية العالمية · ومن هنا يمكن اعطاء التحليل الملموس لتحول الحركة الاشتراكية في البلدان الرأسمالية الاستعمارية الى حركة اصلاحية ، تتمتع بالرفاه على حساب شعوب البلدان المتخلفة) · (١٦)

ان هذا الكلام وارد في تقرير آب ١٩٦٨ ، الذي قدمه حواتمة الى المؤتمر ، والـذي كانت موضوعاته وافكاره العامة تكرارا لموضوعات وافكار تقرير اللجنة التنفيذية لحركة القوميين العرب ، الصادر عن اجتماع تموز ١٩٦٤ ، بكراس تحت عنوان (الثورة العربية امام تقرير المصير) ، مع مزيد من التفصيل النظري ··· ان هذا الكلام يتناقض مع كلام « البرنامج السياسي » الامر الذي يشكل تراجعا عن الخطأ !

ان التراجع عن الخطأ فضيلة ، كما يقولون ، ولكن هذه الفضيلة تتضاءل قيمتها الحقيقية في حال عدم تحول التراجع الى عملية تصحيح جريئة وشاملة ·

ان التراجع عن الخطأ شيء ، وتصحيح الخطأ شيء اخر · ذلك ان الاول لا يعني بالضرورة محو اثار الخطأ كلها ، وانما قد يعني التوقف عن ممارسة الخطأ نفسه ، ربما مؤقتا ، بينما يهتم الثاني ، اي تصحيح الخطأ ، ليس بالتراجع عن الخطأ والتوقف عن ممارسته ، فحسب ، بل وبمحو الاثـار السلبيـة التـي تركتهـا ممارسـة الخطأ والوقوع به ، عن طريق الاعتراف العلني بهذا الخطأ وكشفه والتنديد به وتحمل التبعات المترتبة عليه ·

ان التراجع عن الخطأ ، قد يتم بقفزة الى الوراء او الى الامام ، لا تصحح الخطأ بقدر ما تمثل عملية هروب من تحمل تبعاته ، خشية ان يقال ما يقال عن المخطئين · لذلك فان النهج اللينيني يلزم معتنقيه المؤمنين به اتباع اسلوب الاعتراف بالخطأ علنا وعلى رؤوس الاشهاد ، لكي تتم عملية كشف تام للخطأ وازالة لآثاره اينما وقعت · وبفضل عملية التصحيح الجذري هذه يقطع الطريق امام احتمال الوقوع بذات الخطأ ثانية ·

من الواضح انه لا يصح علميا وموضوعيا ان توضع الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية الى جانب الطبقة البرجوازية الامبريالية · كما انه لا يصح ايضا القول ان الطبقة العاملة تتقاسم الغنيمة والخيرات المنهوبة من المستعمرات مع الامبريالية ·

لا شك في ان الطبقة العاملة ومجموع جماهير شعوب البلدان الامبريالية قد اصابها شيء من الفائدة من ظاهرة الاستعمار ، اذ ارتفعت مستويات الحياة المعيشية في البلدان الرأسمالية المتقدمة واستطاعت البورجوازية ان ترشي فئات من العمال لتخلق انتهازية

نقابية عملت على تحويل حركة الطبقة العاملة النقابية الى حركة اقتصادية انتهازية ، وصحيح ايضا بأن احزاب الاممية الثانية قد اصبحت احزابا اصلاحية انتهازية ، بيد ان هذا كله لا يجعل من القول الذي يضع الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية في مستوى واحد مع البورجوازية الامبريالية ، قولا صحيحا · على ما يبدو ان الجبهة الديمقراطية كانت تعتبر حالة الفقر والتخلف الايديولوجي والسياسي ، هي المقياس الوحيد للثورية ! فهي تقول : انه (··· للخروج بحركة وطنية بروليتارية فلاحية فقيرة طبقيا وايديولوجيا وسياسيا) لا بد من (السير بحركة الصراع والجدل الى نهاياتها ···) (١٧) ·

لاحظ انهم يريدونها ، حركة فقيرة طبقيا وايديولوجيا وسياسيا ، لكي تنسجم مع فقر برنامجهم وتفكيرهم !

ان الذي يتخذ من الفقر الطبقي والايديولوجي والسياسي ، مقياسا للثورية لا بد ان يحكم على الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية الغنية طبقيا وايديولوجيا وسياسيا ، بعدم الثورية !

يعترف « البرنامج السياسي » بأن (عصر انتصار الاشتراكية وانهيار النظام الرأسمالي ـ الامبريالي العالمي) قد انبثق في عام ١٩١٧ !

نقول يعترف « البرنامج السياسي » ، لان الجبهة الديمقراطية وامينها العام كانت تنكر حقيقة عصرنا وتصر على انه (عصر الاستعمار والامبريالية) · (١٨)

لقد سجل « البرنامج السياسي » تراجعا عن الخطأ · ولا شك في ان التراجع عن الخطأ ، امر حسن ولكن الماركسي ـ اللينيني مطالب بأن لا يكتفي بالتراجع فقط ، وانما يتحتم عليه ان يعترف بالخطأ علنا وعلى رؤوس الاشهاد ، وان يوضح الدوافع والاسباب التي ادت للوقوع بالخطأ ، ايضاحا تتكرس معه عملية الاعتراف بالخطأ وتتجسم امام الانظار ، لكي تكون درسا وعبرة رادعة مانعة له ولسائر العاملين في ميدان الكفاح الوطني التقدمي الثوري · وبهذه الطريقة يربي نفسه وجماهيره على الصدق والصراحة والتحلي بمناقبية البروليتاريا واخلاقيتها ، التي تتناقض مع الاخلاقية البورجوازية المبنية على الكذب والنفاق · هذا هو الاسلوب اللينيني ، ومن يخشى اتباعه والتمسك به ليس بماركسي وليس بلينيني ·

لا شك في ان تحديد طبيعة العصر على انه (عصر الاستعمار والامبريالية) خطأ وقعت فيه الجبهة الديمقراطية وامينها العام · بيد ان الفداحة لا تكمن في اقتراف الخطأ فقط ، وانما في الخلفية الفكرية التي ادت الى الوقوع به ، لذا فان الاهم من التراجع عن الخطأ ، هو تحرر الجبهة الديمقراطية وامينها العام من هذه الخلفية التي هي تراث فكري بورجوازي صغير موروث من مفاهيم حركة القوميين العرب وشراذم اليسار الاوروبي ، ما تزال بصماته تطبع فكر الجبهة وسلوكها السياسي !

يقول لينين :

(ينبغي الشروع على الفور بالتعلم من الاخطاء المقترفة ، بتعلم كيفية تنظيم النضال تنظيما افضل · ولا ينبغي لنا ان نخفي اخطاءنا امام العدو · ومن يخشى هذا ليس ثوريا · وبالعكس ، اذا قلنا للعمال صراحة : « اجل ، لقد ارتكبنا اخطاء » ، فان

هذا يعني ان الاخطاء لن تتكرر في المستقبل) · (١٩)

هذا هو الاسلوب اللينيني في التعامل مع الاخطاء ، فهل اتبعته الجبهة الديمقراطية وامينها العام ؟

ان الجواب على هذا السؤال كان سلبيا ، مع الاسف ، ذلك ان الجبهة الديمقراطية اقترفت اخطاءها العديدة ، وتراجعت عن بعضها في (برنامجها السياسي) ولكنها لم تعترف علنا ولم تقل لنا لماذا ، كانت الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية ، شريكة للبرجوازية الامبريالية في ادبياتها السابقة ، بينما تبدو هذه الطبقة مناضلة مناهضة للبرجوازية الامبريالية في « برنامجها السياسي » الذي صدر الان · كما انها لم تشرح لنا حيثيات اصرارها السابق على ان عصرنا هو « عصر الاستعمار والامبريالية » ، ولم توضح لنا المقياس الذي اعتمدته في تحديد طبيعة العصر على انـــه عصر انتصار الاشتراكية ·

لا شك في ان هناك مقياسا لينينيا لتحديد طبيعة العصر · والجبهة الديمقراطية ، مطالبة ، قبل ان تدعي انها تمثل اليسار الفلسطيني ، بأن تلتزم الاسلوب اللينيني وتتبعه ·

خطا صغير لكن دلالته كبيرة !

قبل ان نحاول تصحيح الاخطاء الكبيرة التي وقعت بها « اللجنة المركزية » للجبهة الديمقراطية ، علينا ان نجلب الانتباه الى خطأ صغير له علاقة بموضوع بحثنا ·

يقول البرنامج السياسي في اول سطر من سطوره :

(مع مطلع القرن العشرين دخلت الرأسمالية العالمية مرحلتها العليا والاخيرة : مرحلة الامبريالية ، والاحتكار الدولي وتصدير رأس المال المالي ·· الخ) (٢٠ ــ ٢١) ·

ويقول لينين :

(من الممكن ، بالنسبة لاوروبا ، ان يحدد على وجه الدقة تقريبا زمن حلول الرأسمالية الحديثة نهائيا محل القديمة ، انه بالضبط ، بدء القرن العشرين ·) (٢٢) ·

لاحظ الفرق بين التعبيرين :

البرنامج السياسي يقول : (مع مطلع القرن العشرين دخلت ··· الخ) ·

ولينين يقول : (··· زمن حلول الرأسمالية الحديثة نهائيا محل القديمة ، انه بالضبط بدء القرن العشرين) ·

من التعبير الاول يفهم ان تحول الرأسمالية القديمة ، رأسمالية المزاحمة الحرة ، الى رأسمالية حديثة ، الى امبريالية ، قد بدأ « مع مطلع القرن العشرين » ، لان « المدخل » وهو مصدر الفعل « دخل » يعني موضع الدخول الى الشيء ، كقولك مدخل الدار ، اي الممر الى الدار · فاذا اخذنا الفعل « دخل » ، والاسم « مع » الذي يعني ، الاجتماع والمصاحبة ، فاننا سنفهم من التعبير الاول ، اي تعبير البرنامج السياسي ، ان دخول الرأسمالية مرحلة الامبريالية قد ترافق مع مطلع القرن العشرين ·

اما التعبير الثاني ، اي قول لينين ، فنفهم منه ان « مطلع القرن العشرين » مثـل نهاية عملية تحول الرأسمالية الى امبريالية ، وليس بدايتها ·

ان مرحلة تحول الراسمالية الى امبريالية ، قد بدات قبل مطلع القرن العشرين باكثر من ربع قرن،وقد استكملت عملية تحولها الى امبريالية نهائيا في اواخر القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين · وقد حدد لينين مراحل تطور الاحتكارات والنتائج الاساسيـة لتاريخها على الشكل التالي :

(١ ـ سنوات العقدين السابع والثامن من القرن الماضي هـي قمة ، ذروة تطور المزاحمة الحرة · لم تكن الاحتكارات الا حالات جنينية بالكد تلاحظ · ٢ ـ بعد ازمة سنه ١٨٧٣ اتت مرحلة تطورت فيها الكارتلات بصورة واسعة ، ولكنها ظلت مع ذلك حالات نادرة · لم تكن وطيدة بعد · انها ما تزال ظاهرة عرضية · ٣ ـ نهضة اواخر القرن التاسع عشر وازمة سنوات ١٩٠٠ ـ ١٩٠٣ : تصبح الكارتلات اساسا من اسس الحياة الاقتصادية باكملها · صارت الراسمالية استعمارا « امبريالية ») (٢٣) ·

لاحظ ان الكارتلات اصبحت منذ اواخر القرن التاسع اساسا من اسس الحياة الاقتصادية باكملها · ومعلوم ان الكارتلات ، تمثل اساس التمركز وابرز مظهر من مظاهر الاحتكار ، وبما ان (الاحتكار هو اخر كلمة لـ « احدث مراحل التطور الراسمالي ») (٢٤) ، وبما انه اي الاحتكار اعمق اساس اقتصادي للامبريالية على حد تعبير لينين ، فـان صيـرورة الكارتلات اساسا من اسس الحياة الاقتصادية باكملها في اواخر القرن التاسع عشـر ومطلع القرن العشرين ، تعني ان الراسمالية قد استكملت دخولها لمرحلتهـا « العليـا والاخيرة » ، نهائيا في بدء القرن العشرين · ويتضح ذلك بجلاء ، عندما نعلم ان تقسيـم العالم الى مستعمرات بين الدول الامبريالية قد انتهى على تخوم القرنين التاسع عشـر والعشرين (٢٥) ·

مما تقدم يتضح ان هناك خطأ في تعبير البرنامج السياسي ، وان لقيـادة الجبهـة الديمقراطية غرض من وراء هذه الصياغة التي توحي للقارىء وتوهمه بأن الرأسماليـة قد بدات دخول مرحلتها العليا والاخيرة اي الامبريالية مع مطلع القرن العشرين ·

اننا لا نقصد من تصحيح هذا الخطأ وتصويبه ان يتاكد القارىء العربـي مـن ان الامبريالية وهي الراسمالية في مرحلة الاحتكار ، قد بلغت درجة الترهل والتعفن منـذ اواخر القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين ، وبما انها اي الامبريالية من الناحية السياسية ، هي نزوع الى العنف والرجعية ، فانها تبين لنا ان الرأسمالية قد فقدت قدرتها على العطاء واصبحت متخلفة وعاجزة عن تلبية متطلبات صنع الحياة الجديدة التي نتوق اليها ، وان حالة العجز التي تعانيها الرأسمالية ترجع الى ما يزيد على ثلاثة اربـاع القرن · وقد زاد من عجزها وكرسه ، التغيير الجديد الذي طرأ على طبيعة عصرنا الراهن، الذي هو عصر الانتقال الى الاشتراكية ·· اننا لا نقصد ، بكل تاكيد ، من تصحيحنـا لهذا الخطأ ، ان نوضح حكاية الرأسمالية للقارىء العربي · ذلك ان امر عجز الرأسمالية عن تحقيق آمال ومطامح جماهيرنا ، معروف ولا يحتاج الى توضيح · وانما توخينا مـن وراء كشف هذا الخطأ الصغير ذي الدلالة الكبيرة ، امرا آخر يعتبر بالنسبة لموضوع بحثنا على درجة من الاهمية !

ان الذين يفهمون ان العدد (٦٤) هو ، ليس مجرد مجموع لـ (٦٤) واحدا ، وانما هو ايضا يمثل مربع العدد (٨) وانه يساوي ضعف العدد (٣٢) ، والقوة الثالثة للعدد (٤) والقوة السادسة للعدد (٢) ··· نقول ان هؤلاء سيتفقون معنا على ان هذا الخطأ الصغير

له دلالة كبيرة ، وستتضح دلالته والمقصود منه عندما نتناول تعريف البرنامج السياسي للحركة الصهيونية !

فما هو هذا التعريف ، وما هي علاقته بهذا الخطأ الصغير ذي الدلالة الكبيرة ؟

هل كانت الحركة الصهيونية عادلة وتقدمية ؟

قد يبدو هذا السؤال مثيرا للاستغراب ، نظرا لكون نشأة الحركة الصهيونية معروفة ، كأوضح ما تكون المعرفة ، لدرجة لا يجادل فيها اثنان من غير الصهاينة وحلفاء الحركة الصهيونية التي يصف لينين فكرتها بأنها تتسم بطابع رجعي جلي (٢٦) · ولكن هذا الاستغراب يتبدد عندما نطالع تعريف « البرنامج السياسي » للحركة الصهيونية ، ونتأمل مضامينه :

يقول البرنامج السياسي :

(في ظل التحول الامبريالي للرأسمالية العالمية ، وجدت الحركة الصهيونية التي نشأت في القرن التاسع عشر ، كتعبير سياسي قومي زائف عن طموح البرجوازية المتوسطة والصغيرة اليهودية ، الحرفية والصيرفية · وحتى تتفادى الاندماج في المجتمعات الرأسمالية القومية الناهضة التي كانت تهدد باسقاطها الى مصاف البروليتاريا ··· وجدت فرصتها الجدية الاولى لتحويل احلامها الطوباوية الرجعية الى وقائع استيطانية على ارض فلسطين · فلقد توافقت هذه المخططات الاستيطانية للمرة الاولى مع مصالح الرأسمال اليهودي الكبير وحاجته الى اكتساب مواقع وضمانات أفضل في المنافسة على احتلال مواطن قدم للاستثمار والتصدير الى المستعمرات · كما توافقت أيضا مع حاجات الدول الاستعمارية ، وبشكل خاص بريطانيا ، الى بناء قواعد استراتيجية ثابتة تمكن من صيانة مشروعاتها الاستعمارية في المنطقة) (٢٧) ·

لنتأمل في هذا التعريف للحركة الصهيونية ، ولنتذكر مناقشتنا لاول سطر من سطور « البرنامج السياسي » تحت عنوان « خطأ صغير ، لكن دلالته كبيرة » ، ولنحاول معرفة ما يرمز اليه هذا الخطأ ، ولنكشف مضامينه الحقيقية المقصودة والمحاطة بغموض تعمدت الجهة التي صاغت « البرنامج السياسي » تكثيفه لغرض في نفسها · من تلك المناقشة لاحظنا ان الجهة التي صاغت « البرنامج السياسي » قد حرصت على الايحاء بأن عملية دخول الرأسمالية لمرحلتها الامبريالية قد « صاحبت » مطلع القرن العشرين ، و «ترافقت » معه، وان هذا القصد واضح من استعمال الفعل « دخل » والاسم « مع » الذي يعني « الاجتماع والمصاحبة » ، رغم انها تعلم ان عملية تحول الرأسمالية الى امبريالية قد استغرقت معظم زمن الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وقد انتهت هذه العملية ، اي تحول الرأسمالية الى امبريالية ، في اواخر القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين كما اوضح لينين ··· لنتأمل في تعريف الجبهة الديمقراطية هذا جيدا ولنرى مدى مطابقته للوقائع التاريخية الدامغة ! :

اولا ـ البرنامج وتاريخ نشأة الحركة الصهيونية ·

يتضح من التعريف ان الحركة الصهيونية ، كانت موجودة قبل بدء عملية تحول الرأسمالية الى امبريالية ، ولكنها « وجدت فرصتها الجدية الاولى » في ظل عملية التحول الامبريالي للرأسمالية · ومما يعزز قصد « التعريف » هذا ، قول البرنامج السياسي : ان

الحركة الصهيونية « ... نشأت في القرن التاسع عشر ... الخ » ، مع انها نشأت في اواخره ، وعقدت مؤتمرها الاول عام ١٨٩٧ ، اي في وقت انتهاء عملية التحول الامبريالي للراسمالية .

اذا استثنينا الصهاينة وحلفاءهم والمتعاطفين معهم ، فان جميع المعنيين بتسجيل تاريخ الحركة الصهيونية ، يربطون بين نشأتها وبين عملية التحول الامبريالي للراسمالية . ويؤكدون على انها احدى الاتجاهات الرجعية للامبريالية ، وان دعاة الصهيونية استغلوا ما تعرض له اليهود من مذابح في كل من روسيا وبولونيا ورومانيا خلال الثمانينات من القرن التاسع عشر ، اي خلال بدء عملية تحول الرأسمالية الى امبريالية ، وراحوا يوجهون المهاجرين الى فلسطين ، توجيها مقرونا بفكرة العودة الى « الوطن » والخلاص من اضطهاد اعداء السامية ، وان دعوتهم هذه قد استكملت نضجها وتحولت الى قوة تستحوذ على عقول اليهود في نهاية القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين اي أن الحركة الصهيونية المعاصرة بدأت مع بداية تحول الرأسمالية الى امبريالية ونضجت باستكمال الرأسمالية لعملية تحولها الامبريالي . ولكي يخفي الصهاينة الارتباط الوثيق بين نشأة حركتهم ، وبين تحول الرأسمالية الى امبريالية ، راحوا يستغلون تشبث « الاسباط اليهودية » بفكرة « وطن شعب الله المختار » ، استغلالا ادعوا معه ان حركتهم قديمة قدم الديانة اليهودية !

ان **البينة الاولى** التي تؤكد حداثة نشأة الحركة الصهيونية باعتبارها اتجاها سياسيا امبرياليا يربط فكرة الهجرة بفكر اقامة « الوطن اليهودي » ،تتجلى في كون « الاسباط » هي التي كانت تحمل لواء التبشير بالعودة الى فلسطين ، وليست الحركة الصهيونية التي نشأت كنتيجة لشعور ارباب الديانة اليهودية والرأسماليين اليهود بعجز « نظام الاسباط » وعدم قدرته على ضبط عملية خضوع اليهود ، وان التطورات الاجتماعية قد بدأت تجتذب الجماهير اليهودية الكادحة وتدمجها مع جماهير العمال لتشارك في النضال ضد الاستغلال الرأسمالي الذي كان الرأسماليون اليهود يشكلون قطبه الاساسي بحكم مزاولتهم لـ « الربا » واشتغالهم في الميدان المالي : التجاري والمصرفي ، منذ القدم . لذلك بدأ الفكر اليهودي يبحث جديا عن وسيلة تحقق فكرة التعاون الطبقي بين الكادح اليهودي والراسمالي اليهودي ، فكانت الحركة الصهيونية هي الوسيلة المختلقة التي اوكلت لها مهمة القيام بما لم تعد « الاسباط » قادرة على القيام به . وقد نجحت في شق صفوف الحركة العمالية العالمية بالعمل على اضعاف الوعي الطبقي لدى الشغيلة اليهود ، واقناعهم بأن الرأسمالي اليهودي أقرب اليهم روحا وهدفا من العامل الروسي او الالماني ، ومجابهة اليهود بالشعوب كلها ، واثارة الشكوك وتسعير الكراهية ازاء غير اليهود ! ولو كانت الحركة الصهيونية المعاصرة موجودة قبل « الوقائع الاستيطانية في فلسطين » ، اي قبل اواخر القرن التاسع عشر ،كما يدعي « البرنامج » لكانت هي التي « حملت لواء التبشير بالعودة الى فلسطين ، ولقامت بتنظيم رحيل المهاجرين الاوائل واعدت الترتيبات التنظيمية اللازمة للهجرة الاولى منذ بدايتها .

اما **البينة الثانية** ، التي تؤكد على ان الحركة الصهيونية ، اي الحركة السياسية ـ الامبريالية ، التي حققت عملية اغتصاب فلسطين وقيام دولة اسرائيل ، بدأت في اواخر القرن التاسع عشر ، فتتجلى في كون العامل الاول والاساسي الذي لعب دوره في هجرة الاعداد الكبيرة من اليهود ، هو المذابح التي تعرضوا لها في كل من روسيا القيصرية وبولونيا ورومانيا في العقد التاسع من القرن الماضي ، وليست الحركة الصهيونية التي

لما تزل مجرد فكرة حديثة هامشية في ذلك الوقت ، وليس كما يدعي التعريف انها كانت « تعبيرا سياسيا » قوميا عن طموح البرجوازية المتوسطة والصغيرة اليهودية ، الحرفية والصيرفية » ٠

وتتضح البينة الثالثة ، من كون الغالبية الساحقة من المهاجرين اليهود خلال العقد التاسع من القرن الماضي ، قد توجهوا الى امريكا الشمالية ٠ اما فلسطين فلم يهاجر اليها سوى عدد قليل جدا ، الامر الذي يؤكد على ان الهجرة كانت بدافع الخوف وليس بدافع الرغبة في العودة الى فلسطين ، مما يشير الى ضآلة ، ان لم نقل الى انعدام المؤثر السياسي في توجيه المهاجرين ٠

اما البينة الرابعة ، فيوضحها طابع العفوية وعدم التنظيم الذي طبع الهجرة الاولى (١٨٨١ ـ ١٩٠٤) ، في بدايتها ٠ اذ لم تكن الهجرة الى فلسطين منظمة ولا مطبوعة بطابع سياسي ، وانما كانت عفوية ، ولكنها اي الهجرة بدأت تخضع للتنظيم والتوجيه السياسي في اواخر العقد التاسع من القرن الماضي واوائل القرن الحالي ، حيث اتسمت بالتنظيم والاعداد ، الامر الذي تطلب تأسيس الكارتل الصهيوني العالمي عام ١٨٩٨ ، لكي يتولى عملية اغتصاب فلسطين ٠

اما البينة الخامسة ، فتتجلى في موقف المثقفين اليهود الروس ونشاطهم الثقافي في مجالي الادب والصحافة باللغتين الروسية والعبرية ، الهادف الى رفع مستوى وعي الجماهير اليهودية بتدريسها اللغة الروسية بغية تحريرها من هيمنة غلاة « الغيتو » اليهودي ودمجها في حياة المجتمع الروسي ٠ هذا الاتجاه الثقافي المكثف الذي نشط بين اوساط اليهود ، كان مقدرا له ان يدق اسفينا في « نظام الاسباط » البالي ، وربما كان يؤدي الى انهاء ما سمي بالمسألة اليهودية ، لولا وقوع المذابح اليهودية وطغيان فكرة الهجرة باعتبارها الحل الوحيد الضامن للنجاة من الموت الذي بات يحدق باليهود في اكثر مناطق تواجدهم كثافة ٠ ومعلوم ان بروز فكرة دمج اليهود مع شعوب الاوطان التي يعيشون فيها ،ما كان لها ان تجد القبول الذي حظيت به لو كانت الحركة الصهيونية موجودة آنذاك باعتبارها « تعبيرا سياسيا قوميا عن طموح البرجوازية المتوسطة والصغيرة اليهودية ، الحرفية والصيرفية » ، كما يدعي البرنامج في تعريفه للحركة الصهيونية ٠

انه لامر مؤسف حقا ، ان نضطر لاتباع اسلوب جمع البينات بغية دحض آراء منظمة فدائية فلسطينية بخطأ رأيها وعدم سلامة نهجها ، بدلا من ان يصرف مثل هذا الجهد لمقارعة الصهيونية وحلفائها والمتعاطفين معها ٠ وعلى كل حال فاننا نأمل ان تتولى الجبهة الديمقراطية نفسها مهمة استكمال سرد مثل هذه « البينات » لنؤكد على ان تحديد الفترة الزمنية التي نشأت فيها الحركة الصهيونية امر مهم جدا ، وبوسعنا ان نؤكد ونكرر التاكيد على اهميته ، لماذا ؟ لان نشأة الحركة الصهيونية في اواخر القرن التاسع عشر قد توافقت وترافقت مع بدء عملية التحول الامبريالي للرأسمالية ٠ ولا نظن ان هناك كاتبا او مؤرخا تقدميا لايؤكد على ان الحركة الصهيونية ، هي احدى التعبيرات السياسية للامبريالية ، وهي منذ نشأتها كانت وما تزال في صلب الامبريالية بحكم كونها احدى المؤسسات الرأسمالية الامبريالية الاساسية الكبرى التي لعبت اضخم الادوار في صيانة الامبريالية وخدمة اهدافها ٠ بينما يفصل « البرنامج السياسي » بين نشأة الحركة الصهيونية وبين انتهاء عملية تحول الراسمالية الى امبريالية ، بل انه ، وبطريقة غير

مباشرة ، يطمس نهائيا وجود اية علاقة بين نشاة الصهيونية والامبريالية · ففي حين تبدو فيمنشاة الامبريالية في مطلع القرن العشرين ، فان نشاة الصهيونية تبدو سابقة حتى لفترة بدء تحول الراسمالية الى امبريالية ! · وهذه الغربة تبدو واضحة من ادعاء « البرنامج السياسي » بأن الحركة الصهيونية ، وجدت فرصتها الجدية الاولى لتحويل احلامها الى « وقائع استيطانية على ارض فلسطين » ، وبما ان هذه «الوقائع الاستيطانية» التي يشير اليها البرنامج السياسي قد بدأت مع قيام جمعية الاليانس الاسرائيلية التي انشاها البارون ادمون روتشيلد في عام ١٨٧٠ ، والتي قامت (ببناء اول معهد زراعي قرب يافا ـ نيتر) · ونشطت هذه الجمعية في مدارسها الخاصة بين الجاليات اليهودية في العالم لتعليم الاطفال اللغة العبرية · وكانت اهم اعمال هذه المؤسسة الاستعمارية في فلسطين ، شراء الاراضي فيها واسكا نالمهاجرين القادمين من اوروبا الشرقية في مستعمرات زراعية · (٢٨)

··· بما ان هذه الوقائع سابقة حتى لزمن الهجرة الاولى ، فان نشاة الحركة الصهيونية لا بد أن تكون سابقة لبدء عملية تحول الراسمالية الى امبريالية ·

هناك كتاب اسمه (احذروا الصهيونية) للكاتب السوفياتي ايفانوف ، لا اظن ان احدا من قادة المقاومة الفلسطينية ، فضلا عن سائر المعنيين بالقضية الفلسطينية لم يطالعه · يقول هذا الكاتب ·

(نشأت الصهيونية وتكونت كايديولوجية ومنظمة في اواخر القرن التاسع عشر ، في عهد المعارك الطبقية الضارية للبروليتاريا العالمية ، في مرحلة انتهاء عملية تحول الرأسمالية الى امبريالية) (٢٩) ·

لاحظ ان ايفانوف يربط بين نشاة الصهيونية وتكونها كايديولوجية ومنظمة ، وبين انتهاء عملية تحول الرأسمالية الى امبريالية ، ربطا يؤكد على ان الحالتين كلتاهما تحققتا في اواخر القرن التاسع عشر ، بيد ان الصهيونية المنظمة قد بدأت « نشاطها بالتلفيق والتزوير واتضح ان تاريخ منشئها الخاص لا يروقها · فراحت الدوائر الصهيونية وانصارها يروجون بنشاط « للاستهلاك الخارجي » خرافة تقول ان الصهيونية « التي تسعى لانشاء الدولة اليهودية » قديمة قدم العالم اذ ان « اليهود عللوا انفسهم خلال آلاف السنين بحلم العودة الى فلسطين » · والجدير بالذكر ان هذه الخرافة لا تزال تولى في ايامنا اهتماما معينا (٣٠) · يحاول اظهار اليهود بمظهر يخرجهم عن نطاق الزمان والمكان ، (وخارج اية علاقة بالمصير التاريخي لهذا او ذاك من اسباطهم) (٣١) ·

ان المقارنة بين كلام ايفانوف وبين كلام « البرنامج السياسي » تظهر تباينا بخصوص تحديد فترة نشاة الحركة الصهيونية · وان هذا التباين الواضح ، يطرح استفهاما وجيها حول صاحب المصلحة في تزييف الوقائع التاريخية المتعلقة بنشاة الحركة الصهيونية ·

ثانيا ـ تناقض بين « التعريفين » !

فيما تقدم من البحث ، تعرضنا لعملية تزييف الوقائع التاريخية الضارة بحقوق الشعب الفلسطيني ومصلحته العادلة ، واوضحنا ان هذه العملية قد طمست الترابط الوثيق بين نشاة الحركة الصهيونية وعملية تمركز الاحتكارات الرأسمالية الكبرى في الكارتلات والسنديكات والتروستات العالمية ، واخفت الحقيقة القائلة ان المنظمة الصهيونية العالمية التي انبثقت عن مؤتمر آب ١٨٩٧ ، قد باشرت في ترجمة قرارات المؤتمر الصهيوني العالمي

الاول ، مباشرة تجسدت في قيام الشركة المساهمة الصهيونية العالمية ، اي التروست الاستعماري اليهودي العالمي • ونعود الآن للموضوع ، لكي نقارن بين « تعريف » البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية وبين تعريف آخر لكاتب شيوعي تجاهلته الجبهة •

لقد احاط الكاتب السوفياتي يوري ايفانوف بنشأة الحركة الصهيونية والم بطبيعتها وتطوراتها منذ نشوئها حتى الآن ، احاطة والماما ساعداه على صياغة تعريف شامل وواضح للصهيونية • ندرج نصه فيما يلي كي يقوم القارىء بمقارنة بين تعريف الجبهة الديمقراطية للصهيونية وبين تعريف الكاتب السوفياتي :

ان الصهيونية المعاصرة هي ايديولوجية ، ومنظومة متشعبة من المنظمات وممارسة سياسية للبرجوازية اليهودية الكبيرة التي اندمجت بالاوساط الاحتكارية في الولايات المتحدة الاميريكية والدول الامبريالية الاخرى • والمحتوى الرئيسي للصهيونية هو الشوفينية النزاعة الى الحرب ، والعداء للشيوعية (٣٢) •

لاحظ الفرق الكبير والاختلاف الشاسع بين تعريف فايفانوف وبين تعريف « اللجنة المركزية » للجبهة الديمقراطية •

يقول ايفانوف :

(وعلى ضوء اقوال ن • سوكولوف الصريحة يتضح جيدا ان الصهيونية لم تنشأ كحركة، واكثر من ذلك كحركة شعبية ، وانما كمؤسسة رأسمالية ، وكان الشركاء في هذا الاتحاد هم رجال الاعمال الكبار في بلدان عديدة والجوالين التجاريين ـ الزعماء الصهاينة وتكونت الصهيونية تنظيميا كمؤسسة استعمارية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاوساط الامبريالية ، يدرس حاجاتها اتحاد الصهاينة العالمي) •

وقد اتاح مثل هذا الوضع الامكانية لـ « البارون » ادمون روتشيلد لكي يصرح قبل الحرب العالمية الاولى بمدة قصيرة : (ما كان الصهاينة استطاعوا ان يتقدموا خطوة واحدة من دوني ، وما كان لاعمالي من دون الصهاينة قيمة) • (٣٣)

بقي علينا ان نعرف ان سوكولوف هذا الذي يستشهد باقواله ايفانوف هو واحد من ابرز رجالات الحركة الصهيونية • ومع ذلك تصر الجبهة الديمقراطية على ان الحركة الصهيونية هي تعبير قومي عن البورجوازية المتوسطة والصغيرة اليهودية ومحاولة دفاع بوجه خطر الراسمالية الكبيرة التي تهدد باسقاطها الى مصاف البروليتاريا !

(ان المركز التنظيمي والفكر الرئيسي للصهيونية ، الذي يمتلك رساميل مالية معادلة لرساميل اكبر التجمعات الاحتكارية في العالم ، هو ، حتى يومنا هذا ، المركز المؤسس عام ١٨٩٧ ، والذي يدعى « المنظمة الصهيونية العالمية » المبنية على اساس عنصري والمستقرة في الولايات المتحدة الامريكية ، وهذه المنظمة تمارس اشرافها على التجمعات الصهيونية في اكثر من ٦٠ بلدا وتوجه نشاطها ، وان توجيهاتها تحدد طبيعة العمل في اكثر من ٦٧ بلدا من بلدان المؤتمر اليهودي العالمي ـ الفرع النشيط للمنظمة الصهيونية العالمية • ويتفرع من هاتين المنظمتين الكبيرتين العديد من الجمعيات ، والنوادي ، واللجان المؤقتة والدائمة ، والاتحادات ، والتجمعات •) (٣٤)

لا نظن ان اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية وامينها العام على وجه الخصوص ، يجهلون أن الحركة الصهيونية ، هي مشروع امبريالي عكست مصلحة موضوعية لدى

حكام جميع الدول الاوروبية الكبرى بدون استثناء ، كما يؤكد ايفانوف ، وحاجتهم الى ما يساعدهم على توطيد جميع القوى التي تحارب الحركة البروليتارية الاممية والتضامن الطبقي ونضال جميع الشغيلة ٠ وان الصهيونية نشأت كمحاوكة حسية في التروست الاستعماري اليهودي والمنظمة الصهيونية العالمية ، من جانب البورجوازية اليهودية التي هي جزء من الامبريالية ، لاعادة سيطرة زعماء الاسباط اليهود (الطبقات البورجوازية حاليا) ، الضائعة على جماهير السكان اليهود ، وكبح « التقدم الاكيد ـ كما اشار لينين ـ لاندماجهم بالسكان المحيطين بهم » ، وتأمين الاحتياطات السياسية والمادية ، في نطاق كل بلد وعلى النطاق العالمي التي يمكن استخدامها لاغراض الحليف الرئيسي والشريك المخلص للصهيونية ، اي الدولة الامبريالية الاكثر جبروتا في هذه المرحلة التاريخية اي الولايات المتحدة الامريكية ٠

ثالثا ـ نظام الاسباط والحركة القومية ٠

ان الصهاينة عندما ينكرون ارتباط نشأة حركتهم بنشأة « الامبريالية » فانهم يهدفون الى اظهار حركتهم على انها حركة قومية لـ « الشعب » اليهودي ٠ ومعلوم ان الوقائع التاريخية ، بقدر ما تكذب ادعاءهم بارجاع نشأة حركتهم الى عصور سابقة ، فانها تؤكد على ان الحركة الصهيونية ، باعتبارها تعبيرا سياسيا انبثقت في اواخر القرن الماضي وتجسدت رسميا في آب عام ١٨٩٧ ، حيث عقدت مؤتمرها التأسيسي الاول ٠

لا شك في ان هناك العديد من الجمعيات والحركات اليهودية التي وجدت في القرن التاسع عشر وفي قرون سابقة ، بيد ان تلك الجمعيات التي كانت واجهات للديانة اليهودية التي عرفت بنظام « الاسباط » المغرق في تزمته ورجعيته والشديد في هيمنته على مختلف نواحي حياة التجمعات اليهودية في العالم ، اذ كان يمسك بنواحي الدين والتعليم والمحاكم الخاصة بالطائفة اليهودية ٠٠٠ ان تلك الجمعيات والحركات رغم تبشيرها بفكرة « وطن شعب الله المختار » ، فانها لا تمثل حركة قومية بالمعنى السياسي للحركات القومية المعاصرة التي كانت تعبيرا سياسيا عن الطبقات البورجوازية الاوروبية والتي ارتبطت بوحدة اللغة والارض والاقتصاد والخصائص النفسية للشعوب الاوروبية ٠

ان الحركة القومية بكونها تعبيرا سياسيا عن وجود الامة المرتكزة الى وحدة اللغة والارض والاقتصاد والخصائص النفسية ، شيء يختلف كلية عن النظام الذي فرضته الديانة اليهودية والذي عرف بنظام « الاسباط » ٠ لذلك فان « تعريف » البرنامج السياسي للحركة الصهيونية يلتقي مع ادعاء الصهاينة المتعلق بقدم حركتهم وعدم علاقة نشاتها بنشاة الامبريالية !

رابعا ـ البرنامج والنظرة الطبقية لليهود !

ان البرنامج السياسي ، حين يتجاهل اهمية تحديد الفترة الزمنية لنشأة الحركة الصهيونية ، وحين ينسبها الى القرن الماضي بشكل مطلق ، وحين يعرفها بانها تعبير سياسي قومي عن طموح البورجوازية المتوسطة والصغيرة ، ويفصلها عن البورجوازية اليهودية الاحتكارية ٠٠٠ ان البرنامج السياسي حين يفعل هذا كله ، انما ينطلق من اعتبار اليهود المنتشرين في بلدان عديدة من الاوطان القومية في العالم ، طبقات اجتماعية يهودية قائمة بذاتها ومفصولة عن مجتمعاتها !

ان البرنامج السياسي ، بنظرته هذه ، لا يعارض المفهوم المادي الديالكتيكي للتطور

الاجتماعي فحسب ، وانما هو يلتقي بصورة من الصور ، مع ادعاء الحركة الصهيونية التي تصور كل معتنقي الديانة اليهودية ، المنتشرين في مختلف انحاء العالم ، عائشين خارج نطاق الزمان والمكان ، عيشا اكتسبوا معه ، حصانة ضد مؤثرات الصراع الطبقي واحكام قوانينه الموضوعية لدرجة يظهرون معها منفصولين عن الواقع الذي يعيشونه ومرتبطين فقط باحلام العودة الى فلسطين · فـ « الصهيونية قديمة كقدم سبي الشعب اليهودي من ايام هدم نبوخذ نصر للهيكل » ، اي ان نشأة الحركة الصهيونية ترجع الى ما يقرب من ستة قرون قبل الميلاد !

ان البرنامج السياسي ، ينطلق من اعتبار القرن التاسع عشر ، هو القرن الذي تجلت خلاله الظاهرة القومية في بلدان اوروبا الرأسمالية ، وانطلاقا من نظرته هذه راح يفسر نجاح الديانة اليهودية ببقاء بعض اليهود اسرى خزعبلاتها اللاهوتية ، تفسيرا اعتبر الصهيونية حركة قومية للبورجوازية المتوسطة والصغيرة اليهودية ، تفاديا لدمجها في المجتمعات الراسمالية القومية الناهضة وردا على محاولات اسقاطها الى مصاف البروليتاريا المسحوقة ·

ان الحركة القومية ، اية حركة قومية ، لا بد ان تعبر عن مصالح طبقية ، لطبقة او طبقات ، وليس لفئة من فئات طبقة معينة ، سواء كانت بورجوازية متوسطة او صغيرة · وبما ان اليهودي مثله مثل اي انسان آخر خاضع لا محالة لمؤثرات الواقع الموضوعي الذي يعيشه ، فان احاسيسه ومشاعره الوطنية والطبقية ، تتولد خلال عملية انعكاس هذا الواقع ، تولدا يتبلور معه وعيه لانتمائه الوطني والطبقي ، مما يعرض مشاعره الدينية اليهودية للتكيف والملاءمة او للاهتزاز والاضمحلال والتلاشي في حال تعارضها مع مشاعره الوطنية والطبقية · وقد اتضحت هذه الحقيقة امام انظار الفئة البورجوازية اليهودية الاحتكارية التي تفرض سيطرتها من خلال نظام الاسباط ، الذي بدات مرتكزاته تنهار مع انهيار ظروف نشوئه ·

خامسا ـ غايات توخى « التعريف » تحقيقها

ان السؤال الذي يطرح نفسه بعد توضيح عملية التزوير لوقائع التاريخ المعروفة ، هو لماذا تلجأ « اللجنة المركزية » للجبهة الديمقراطية ، لهذه العملية وما هو غرضها من هذا الجهد كله ؟

اذا ادركنا ان البرنامج السياسي قد اعد ليشكل اساسا نظريا للتسوية السياسية المطروحة والمبنية على اساس الاعتراف باسرائيل والتنازل للحركة الصهيونية عن فلسطين المغتصبة ··· اذا ادركنا مضمون البرنامج السياسي هذا ، فاننا سندرك ان الجهة التي صاغت البرنامج قد توخت تحقيق ثلاث غايات ترتبط بشكل مباشر بموضوع التسوية السياسية المطروحة للقضية الفلسطينية ، وهذه الغايات هي :

الغاية الاولى : اظهار الحركة الصهيونية بمظهر قومي عادل ·

ان الملمين بالجدل العنيف الذي نشب بين لينين وكاوتسكي حول « تعريف » الامبريالية، وكيف ان معارضة لينين لكاوتسكي كانت منصبة على كون الاخير هدف من تعريفه الى طرح صيغة من شانها ان تنحرف بنضال الطبقة العاملة نحو التعاون مع البورجوازية الامبريالية والتخلي عن قضية الثورة البروليتارية العالمية · وان ذلك الخلاف عكس اتجاهين متناقضين « الاممية الثانية والاممية الثالثة » · · ان الملمين بتلك المعركة ـ

الفكرية ـ السياسية ـ الطبقية ، سيدركون ان « تعريف » شيء ما يشكل الجوهر والاساس للاتجاه والتوجه نحو الهدف المنشود انطلاقا من نقطة البدء التي يحددها « التعريف » !

ومن يطالع بامعان وتأمل « تعريف « اللجنة المركزية » للجبهة الديمقراطية ، سيدرك بدون عناء ان « البرنامج » بحذافيره قد صيغ لكي يكرس نزعة « التعريف » ويخدم مضمونه ·

ان هذا الاستنتاج الذي نستخلصه من مقارنة الوقائع التاريخية مع نصوص البرنامج السياسي ، لا يتأكد بدليل وحيد او ببينة يتيمة · فلو اعدنا مطالعة تعريف البرنامج السياسي ، وتأملنا بدقة وامعان ، لتبين لنا ان الحركة الصهيونية تبدو من خلال هذا التعريف ، حركة دفاع عن الوجود تقوم به البورجوازية المتوسطة والصغيرة اليهودية الحرفية والصيرفية ، ازاء محاولات الراسمال الكبير لسحقها واسقاطها الى مصاف البروليتاريا · ومعلوم ان دفاع المظلوم عن وجوده عمل مشروع وعادل وتقدمي ·

ان الفرق كبير على ما اظن ، بين ان تكون الحركة الصهيونية احدى ادوات الامبريالية ووسيلة من وسائل الاحتكارات الراسمالية العالمية ، وبين ان تكون نزعة قومية للبرجوازية المتوسطة والصغيرة · اساس ظهورها يعود الى خوف هذه الفئات الطبقية البورجوازية الكادحة من ان تتعرض للسحق والتحول الى بروليتاريا ·

ان الحركة الصهيونية ، تبدو من خلال تعريف البرنامج السياسي ، حركة قومية مظلومة تواجه تهديدا من حركات قومية ناهضة كبرى ، باسقاطها وسحقها ، وانها ، اي الحركة الصهيونية ، لم تكن لها علاقة مباشرة مع الراسمال اليهودي الكبير قبل صيرورة مخططات الحركة الصهيونية ، وقائع استيطانية على ارض فلسطين · اذ توافقت هذه المخططات الاستيطانية للمرة الاولى مع مصالح الراسمال اليهودي الكبير وحاجته الى اكتساب مواقع وضمانات افضل في المنافسة على احتلال مواطيء قدم للاستثمار والتصدير الى المستعمرات · كما توافقت ايضا مع حاجات الدول الاستعمارية ، وبشكل خاص بريطانيا ، الى بناء قواعد استراتيجية ثابتة تمكن من صيانة مشروعاتها الاستعمارية في المنطقة ·

لاحظ قول البرنامج : توافقت مصالح الرأسمال اليهودي الكبير ومصالح الدول الامبريالية الكبرى مع الرأسمال اليهودي الكبير ومصالح الدول الامبريالية الكبرى مع مخططات الحركة الصهيونية ، « للمرة الاولى » حين بدأت الصهيونية تترجم مخططاتها الى وقائع استيطانية على ارض فلسطين ، اما قبل ذلك التاريخ فان الصهيونية لا تعدو عن كونها حركة قومية لفئات طبقية بورجوازية متوسطة وصغيرة تناضل ضد سحقها واسقاطها الى مصاف البروليتاريا !

يقول ايفانوف :

« لقد سبق ان اشار ف ٠ ا ٠ لينين اكثر من مرة ببصيرته المعهودة ، في مرحلة قيام المنظمة الصهيونية العالمية ، الى ان الصهيونية تشكل تيارا رجعيا للبرجوازية اليهودية · » (٣٥)

وقد بذل الصهاينة جهودا متواصلة من اجل تفنيد تحديد لينين لمضمون الصهيونية ، بيد ان الوقائع التي هي اشياء عنيدة قد جاءت مؤكدة تقدير لينين وتحديده للحركة الصهيونية التي هي منظومة رجعية فاشية من الاراء والمنظمات تخدم الامبريالية ، اي انها ظاهرة طبقية ، تحظى بدعم اجماعي من قبل القوى الامبريالية ·

يقول ايفانوف : « ان اخفاء الجوهر الطبقي الحقيقي للصهيونية ومطامعها الحقيقية ومخططاتها ، ومحو التاريخ الحقيقي لولادتها واسباب ظهورها الى النور من الذاكرة واقناع السكان اليهود في بلدان العالم بأن الصهيونية هي ما تمنوه طوال حياتهم ، ولكن دون ان يعوا ذلك تماما . هذه هي الاهداف التي ترمي اليها الاسطورة المنتشرة حتى يومنا هذا حول ما يسمى بقدم الصهيونية . » (٣٦)

اذا كان الامر على مثل هذه الشاكلة ، فان « اللجنة المركزية » للجبهة الديمقراطية مطالبة بالاعتراف بهذا الخطأ الفادح الذي اقترفته ، والمبادرة الى اعادة النظر بتعريفها للحركة الصهيونية ، والا فانها ستؤكد اتهامها بتزييف وقائع التاريخ بغية « اظهار الحركة الصهيونية بمظهر قومي وعادل » .

الغاية الثانية : خلق تيار فكري وسياسي مسالم .

ان سعي اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لان توجد منافذ وجسورا للتسوية يتطلب اول ما يتطلب خلق تيار فكري وسياسي .

ان « البرنامج السياسي » ، اذن ، يستهدف خلق مشاعر « معتدلة » و « متنورة » باوساط « اليسار الفلسطيني » تسهيلا لـ « الحوار والتفاهم » مع الحركة الصهيونية ، لكي تكون الجبهة الديمقراطية احدى القوى السياسية السائرة نحو « جنيف » بغية الاعتراف باسرائيل وانهاء حالة الحرب معها ، ولست بمستبعد ذلك اليوم الذي ستقف فيه « اللجنة المركزية » للجبهة الديمقراطية مدافعة عن « الجناح التقدمي » الممثل « للبرجوازية المتوسطة والصغيرة الحرفية والصيرفية اليهودية في الحركة الصهيونية » ، تعزيزا لمسيرتها نحو « السلام والوئام » المنتظر !

ان البرامج السياسية لا تستوحى من جو الهزيمة ولا تصاغ بالاستناد الى واقع التراجع والانحسار الذي تعيشه حركة التحرر الوطني العربية التي تشكل المقاومة الفلسطينية جزءا منها . ذلك ان البرنامج يوضع لكي يشكل دليلا نظريا لتوجيه الكفاح الثوري وقيادته نحو اهدافه الكبرى ، « لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية » ، ولن يلعب البرنامج مثل هذا الدور ، ما لم يعبر عن طموح الجماهير الشعبية صاحبة المصلحة في التغيير الجذري ، ويجسد رغبتها وارادتها وتصميمها على تخطي واقعها المتخلف وصنع واقع افضل . وبتعبير موجز ان البرنامج السياسي بقدر ما يهتم بتصوير ما هو كائن وما ينبغي ان يكون ، فانه يهتم بتصوير طبيعة النضال ووسيلته واسلوبه انطلاقا مما هو كائن ووصولا لما يجب ان يكون ، ولذلك فان البرنامج لا يكون وثيقة لتبرير الواقع المراد تغييره ، بل انه وثيقة ادانة لهذا الواقع المتخلف وبرهان علمي على ضرورة تغييره وتحقيق البديل الذي تنشده الجماهير الشعبية.

الحواشي :

(١) جريدة السفير البيروتية العدد ٩٦١ في ٢٧ /شباط/١٩٧٦ . وراجع جريدة النهار البيروتية العدد ١٢٧٦١ في ٢٧ /شباط/١٩٧٦ .

(٢) جريدة النهار : المرجع السابق .

(٣) جريدة السفير : المرجع السابق .

(٤ــ٥) جريدة السفير : المرجع السابق.

(٦) فريدريك انجلز : رسالة الى بيبل ــ المختارات ص ٧٨ .

(٧) البرنامج السياسي للجبهة

الديمقراطية ص ١٥ ٠

(٨) لينين : بداية الثورة في روسيا م١ جـ ٢ ص ٨ ٠

(٩) الحرب الرابعة والمقياس العلمي لتحديد طابع الحرب ، ص ١٠٧٠

(١٠) لينين : خطوة الى الامام خطوتان الى الوراء ـ م١ جـ ١ ص ٤٢٧ ٠

(١١) مجلة الطليعة القاهرية العدد ١١ عام ١٩٦٩ ص ٩٢ : حوار بين الجبهة الديمقراطية والطليعة ٠

(١٢) المرجع السابق ٠

(١٣) حواتمة : المرجع السابق ٠

(١٤) حواتمة : المرجع السابق ٠

(١٥) البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية ص ٥ ٠

(١٦) حواتمة : حول ازمة حركة المقاومة الفلسطينية ص ٦٢ ٠

(١٧) حواتمة : المرجع السابق ٠

(١٨) المصدر السابق ، وراجع مختلف ادبيات الجبهة الديمقراطية التي صدرت في تلك الفترة وخاصة كتاب حواتمة (ازمة الثورة في الجنوب اليمني) و(حركة المقاومة الفلسطينية في واقعها الراهن) ومجلة الطليعة القاهرية العدد ١١ لعام ١٩٦٩ ، ومجلة الحرية ٠

(١٩) لينين : خطاب دفاعا عن تاكتيك الاممية الشيوعية ـ م ٣ جـ ٢ ص ٢٩٩ ٠

(٢٠ـ٢١) البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ص ٣ ٠

(٢٢) لينين : الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية ـ م ١ جـ ٢ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ ٠

(٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥) لينين : المرجع السابق ص ٣١٠ ، ٣٢٠ ، ٣٨١ على التوالي ٠

(٢٦) يوري ايفانوف : احذروا الصهيونية ص ١٥٧ ٠

(٢٧) البرنامج السياسي ص ٤ ، ٥ ٠

(٢٨) هاني الهندي ـ حول الصهيونية واسرائيل ـ ص ٣٦ ٠

(٢٩ ، ٣٠ ، ٣١) ايفانوف : المرجع السابق ص ١٠ ، ١١ على التوالي ٠

(٣٢) ايفانوف : المرجع السابق ص ٤ ٠

(٣٣) ايفانوف : المرجع السابق ص٣٦٠

(٣٤) ايفانوف : المرجع السابق ص ١٢٤٠

(٣٥ ، ٣٦) ايفانوف : المرجع السابق ص ٣، ٣٨ على التوالي ٠

اسرائيليات

الاحزاب الاسرائيلية تستعد للانتخابات

تشهد اسرائيل خلال هذه الفترة ،نشاطا حزبيا مكثفا ، استعدادا للانتخابات التي تقرر اجراؤها في ١٧ ايار المقبل · وبهذه المناسبة عقدت جميع الاحزاب الاسرائيلية تقريبا مؤتمراتها من اجل وضع برامجها الانتخابية واختيار مرشحيها للانتخابات المقبلة · ويلاحظ ان المواقف السياسية المختلفة من المناطق المحتلة والتسوية السياسية وحل المشكلة الفلسطينية هي الطاغية على البرامج الحزبية ، رغم ما تبديه هذه الاحزاب من اهتمام بالوضع الداخلي وما يعتريه من مشاكل اجتماعية واقتصادية · ويمكن ادراج هذا النشاط الحزبي خلال الفترة الاخيرة ، ضمن العناوين التالية :

١) اعادة انتخاب يتسحاق رابين ،زعيما لحزب العمل ، ومرشح الحزب لرئاسة الحكومة المقبلة ، وذلك في المؤتمر العام الذي عقده الحزب في اواخر الشهر الماضي · ونشر الحزب في نهاية مباحثات المؤتمر ، البرنامج السياسي الذيسيخوض الانتخابات على اساسه ، ويتضمن موقفه من مسألة التسوية والمناطق المحتلةوالمشكلة الفلسطينية ·

٢ ـ تراجع حزب مبام عن مطلبه القديم الذي شغله طوال العام الماضي ، بشأن الاستمرار في المعراخ او الانفصال عن حزب العمل وخوض الانتخابات بقائمة منفصلة ·

٣) مؤتمر حركة حيروت التي يتزعمها مناحيم بيغن ، وانتخاب عيزر وايزمان رئيسا لدائرة الانتخابات في كتلة ليكود· ثم استمرار التحالف بين حركة حيروت وحزب الاحرار ، بعد انسحاب المركز الحر من ليكود ·

٤) مؤتمر الاحرار المستقلين ، وتخلي الوزير موشيه كول عن رئاسة قائمة الحزب للانتخابات، وانسحاب عضو الكنيستهيلل زايدل من الحزب ، وانضمامه الى حزب الاحرار في كتلة ليكود ·

٥) استمرار تعزيز « الحركةالديمقراطية للتغيير » التي يتزعمها يغئال يدين ، بالمؤيدين والمنضمين من اعضاء كنيست وكبار الموظفين ، الامر الذي بات يشكل خطرا جديا بالنسبة لحزب العمل والحركات الاخرى · كذلك ظهور حركة اريئيل شارون الذي انسحب من ليكود واسس حركة خاصة به دعيت « شالوم تسيون» ، وقد فشلت حتى الآن المساعي التي بذلت من اجل توحيد حركته هذه مع حركة يدين ·

٦) دمج الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكح) مع جماعة الفهود السود ، وخوض الانتخابات في قائمة واحدة ، مما يعزز من مواقع راكح بين اليهودالشرقيين، بعد ان ضمن تأييد نسبة عالية من عرب اسرائيل ·

رابين مرشح حزب العمل لرئاسة الحكومة المقبلة

افتتح مؤتمر حزب العمل في٢٢ ـ ٢ـ٧٧ بحضور عدد من ممثلي الاشتراكية الدولية

بينهم برونو كرايسكي مستشار النمسا ، وفيلي برانت مستشار المانيا الغربيـــة السابق ، واولوف بالم رئيس وزراءالسويد السابق· وقد قام المؤتمر بمهمتيناساسيتين خلال مباحثاته التي استمرت نحـــــو اسبوع ، انتخاب مرشح الحزب لرئاسـة الحكومة المقبلة · ووضع البرنامجالسياسي الذي سيخوض الحزب الانتخابات المقبلة على اساسه · وقد اسفرت المهمة الاولـى عن فوز يتسحاق رابين رئيس الـــوزراء الحالي على منافسه شمعون بيريس وزيـر الدفاع ، وذلك بفارق بسيط في الاصوات (من اصل ٢٨٦٥ ممن لهم حق الاقتراع في المؤتمر صوت الى جانب رابـين ١٤٤٥ ، وصوت الى جانب بيريس ١٤٠٤وامتنع ١٦ شخصا عن التصويت) · ويبدو ان وقوف رئيسة الحكومة السابقة غولدا مائير الى جانب رابين قد ساعده على الفوز ، نظرا لما تتمتع به مائير من نفوذ بين فئة كبيـرة من اعضاء حزب العمل· (رأ ، ٢٣-٢-٧٧) كذلك فان حزب مبام ، الشريك الائتلافـي في المعراخ كان يرغب في فوز رابين ،وربما كان هذا هو العامل الاساسي في موافقته على البقاء في المعراخ ·

مع انتخاب رابين انتهت مرحلة التنافس القوية بينه وبين بيريس ، التي استمرت فترة من الوقت وكادت تقضي على وحـدة الحزب · وربما اعتقد الكثيرون بـــان الامور ستعود الى مجاريها داخل الحزب، بحيث يخوض الانتخابات موحدا ، الا انه « انتهى فصل وبدأ فصل جديد يبدو انه لن يكون اقل توترا من سابقه وربما العكس· فأن الفصل الاول الذي كان حول التنافس والذي استنفد معظم وقت الحزب،وقدانتهى وخلف وراءه صراعا داخليا سيستمر مدة طويلة ، سواء كان صراعـا شخصيا او جماعيا · فقد اظهر هـذا المؤتمر بمـا لا شك فيه ان الحزب بعيد عن الاتحاد التام· وان كل من تابع عن كثب التطورات التي وقعت في الحزب بعد بدء المنافسة يجـد ان الشقاق بين بعض الرجال البارزين لم يعد بالامكان انهاؤه ··· وربما تطغـــى الانتخابات القادمة على الخلافاتفي الوقت الحاضر وتستر التفككفي صفوف الحزب· فقد حصل كل من رابين وبيريس علىنصف الاصوات تقريبا وظهر من ذلك ان الحزب ليس موحدا وان صوتا واحدا كان يؤثر على سير الانتخابات ··· وهكذا فـــان رابين لم يجد في فوزه انتصارا بلخسارة، وبيريس لم يجد في خسارته هزيمة بـــل انتصارا ··· وبناء عليه فان كل من قـال بعد انتهاءالمؤتمر ان كل شيء سيسير على ما يرام ، يتعامى عن الحقيقة الفعليـة »·

ويبدو ان العداء الكبير والقديـم بيــن احدوت هعفودا وبين رافي وقســم مــن مباي ، قد ازداد تأزما بعد هذه الانتخابات داخل الحزب « وان هذا العداء لا يعطي الاحترام المتبادل ولا يعطي الثقة ، بـــل العكس » (شريـــــط الاسبـوع - رأ ، ٢٦-٢-٧٧) · ويبدو الآن ان الخلاف المقبل بين بيريس ورابين سيكون حول قائمـــة المرشحين لانتخابات الكنيست · فقد بدأ بيريس يطالب رابين بحصته من كل شيء ، وعلى جميع مستويات الحزب والحكومـــة والكنيست ، وقد اجتمع الاثنان بحضور الامين العام لحزب العمل مئير زارميلبحث هذا الموضوع ، « ويبدو ان وزير الدفـاع سيضع شروطه لاستمرار الحياة الطبيعية في الحزب ، في ميزان القوى الحالـــي · ويظهر ان بيريس يتمتع بدعم كبير مـــن مؤيديه ، وان رابين يواجه ضغطا شديـدا من معسكر بيريس ، اذ يطالبونه بتقسيـم كل شيء بالتساوي بالنسبــة الى وزراء حزب العمل في الحكومة وفي لائحـــة المرشحين للكنيست وفي الدوائر الرسمية وكل مؤسسة اخرى · ويطالب معسكـر بيريس بعوزي بارعام ، كأمين عـــام للحزب في المرحلة المقبلة ، وبتعيين ابـا ايبان ويتسحاق نافـــون وزيرين فـــي الحكومة المقبلة (رأ ، ٢٨-٢-٧٧) ·

بالاضافة الى هذه الخلافات داخـــل الحزب حول المرشح لرئاسة الحكومة،والتي

حسمت لصالح رابين · فقد ظهرت خلال المؤتمر خلافات اخرى حول البرنامج السياسي للحزب ، قدم موشي دايان وزير الدفاع السابق تحفظاته على البرنامج السياسي ، حيث اقترح العودة الى الصيغة القديمة التي اقرها الحزب في الماضي والمتعلقة بالمناطق المحتلة · واقترح حذف الفقرة التي تتحدث عن المناطق التي يتوفر استعداد للتسوية فيها ، من البرنامج المقترح ، كذلك اقترح « عدم المساومة »على المناطق التي ستقام فيها المستوطنات الجديدة ،» وادعى دايان انه يشم من البرنامج المقترح على المؤتمر ، ان المقصود هو مشروع الون مع ادخال تعديل طفيف عليه لا يشمل حتى الخليل » (رأا ، ٢٤-٢-٧٧) · وقد تركز النقاش داخل المؤتمر حول الاستيطان وتحفظات دايان بهذا الشأن، وبعد طرح الموضوع للتصويت صوتت الاكثرية ضد التحفظات (٦٥٩صوتا ضدها مقابل ٦٠٦ معها) · وبذلك يكون دايان قد هزم مرتين في المؤتمر ، اولهما في تأييده لبيريس ، وثانيهما في عدم قبول ارائه بشأن الاستيطان · وكان دايان قد اعرب عن رأيه في مصير المناطق المحتلة في مقابلة اجرتها معه صحيفةدافار (٣١-٢-٧٧) حيث اعلن انه يعارض اي انسحاب من الضفة بدون اخذ موافقة الشعب في انتخابات خاصة ، وانه لن يؤيد اية حكومة تنفذ هذا الامر ، كائنا من كان رئيسها ·

وعرض دايان موقفه السياسي على النحو التالي : «ان العرب ينتهجون موقفا انذاريا فيطالبون بأنسحاب شامل ، ودولة فلسطينية وما شابه ، ان المفتاح لجوابنا ، يجب ان يكون ، حسب رأيي انتهاج موقف انذاري مضاد بحيث نعلن ، ان القدس هي عاصمة اسرائيل ، واننا سنبقى في شرم الشيخ، ولن نخرج من اليهودية والسامرة ، ولن نتنازل عن هضبة الجولان الخ · ويجب ان نقول للعرب اننا سنتخذ هذا الموقف حتى اذا لم تضعوا السلام ، وحتى اذا لم تقدم الولايات المتحدة المساعدة · هذا موقف مقابل موقف · هذا هو الموقف السياسي الذي يجب علينا انتهاجه مقابل الموقف العربي - وذلك بدون ان نقرر سلفا كيف سنتصرف ، حتى بالنسبة الى اليهودية والسامرة · علينا ان نجري المفاوضات ونذهب الى جنيف مع مفهومنا وبدون شروط مسبقة · وحسب تقديري ، لن يكون هناك اي اقتراح بالنسبة لليهودية والسامرة يستحسن بنا ان نقبله ···

« ان البديل الحقيقي هو حسب تقديري ان الامور يجب ان تبقى كما هي اليوم · اي عدم ضم اليهودية والسامرة وقطاع غزة · ان جيش الدفاع الاسرائيلي موجود في المناطق من اجل الدفاع عن دولة اسرائيل ولا يتدخل في حياة العرب · بينما تستمر علاقات هؤلاء مع العالم العربي ، ويحق لليهود الاستيطان في المناطق ، ولكن ليس بواسطة طرد العرب وانما في الاماكن التي يمكن استملاكها · وهنا يجب ان نحاول التقليل من تدخلنا في حياة العرب ·

« اي يكون هناك دولتان (يقصد الاردن واسرائيل) وبينهما منطقة يسودها وضع غريب ، غير منطقي ، ولكن الافضل بين البدائل الاخرى التي سمعتها حتى الآن»· ويمضي دايان في حديثه حول الضفة الغربية بقوله : « حسب رأيي ، يجب ان يتم التوصل ، بالنسبة لليهودية والسامرة وقطاع غزة ، الى تقسيم وظيفي، وليس اقليميا · ولكن يجب ان نبدأ المفاوضات بدون شروط مسبقة ··· ان من يتحدث عن الانسحاب الشامل من هذه المناطق، عليه ان يعلم ان معنى هذا الانسحاب هو اخلاء مشارف رفح ، الامر الذي سيؤدي الى خلق اتصال بين قطاع غزة والعرب الموجودين به وبين مصر ، وايضا بين القطاع وبين الاردن · وبهذه الطريقة سنسحب كل المستوطنات من غور الاردن، وستمر الحدود قرب قلقيلية وكفار سابا ·

كذلك سنسحب جميع الجنود من علىامتداد الاردن ٠٠٠» (المصدر نفسه) ٠

ان رأي دايان هذا يمثل راي فئة كبيرة داخل حزب العمل ، وربما اثر هـــذا الموقف ، رغم عدم تبني الحزب له ، على التصديق على البرنامج السياسي الاخير، الذي اقره حزب العمل في نهايـة المؤتمر ، وبموجبه سيخوض الانتخابـــات ، ان البرنامج الجديد لا يختلف في شيء عـن برنامج النقاط الاربع عشرة الذي اقـــره الحزب ، برئاسة غولدا مائير ، سنة ١٩٧٣ سوى في تلك الفقرة التي تتحدث عـــن استعداد اسرائيل ، للانسحاب من مناطق معينة ، في حال تحقيق تسوية مع العرب٠ أما بالنسبة للموضوع الفلسطيني فـــان الحزب ما زال مصرا على موقفه القديـم بشأن التفاوض مع الاردن فقط حولالقضية الفلسطينية ، وليس مع اية جهة اخـــرى خاصة منظمة التحرير الفلسطينية ٠

وكانت اللجنة السياسية لحزب العمـل قد اجتمعت في الاسبوع الاول من شهـــر كانون الثاني الماضي ، حيث تبنت فينهاية مباحثاتها موقفين اساسيين : الاول ، ان اسرائيل لن توافق على دولة ثالثة بيـن البحر المتوسط ونهر الاردن، والثاني، انه في اطار سلام حقيقي مع الاردن سيكـــون هناك استعداد من جانب اسرائيل لتسوية اقليمية حتى في القطاع الاردني ايضـــا (هارتس ، ٩ـ١ـ٧٧) ٠ وهذا ما انعكس في مقررات المؤتمر ، في الفقرة الجديـــدة التي تتحدث عن امكانية الانسحاب مـــن بعض المناطق ضمن التسوية ٠ واعلـــن شمعون بيريس وزير الدفاع في مباحثات اللجنة السياسية عن موقفـه ، بقوله ان المبادىءالاربعة عشر مقبولة لديه ، ولا يرى اية حاجة لتبديلها ٠ واشار بيريس الـــى الخطر الكامن في تحديد الاهداف ورسـم الخرائط ايضا ، بينما يكون التنفيذ علـــى مراحل ٠ ان هذا حسب رأيه سيـــؤدي باسرائيل الى مواجهة شديدة معاصدقائها وخاصة مع الولايات المتحدة ٠ وحـــذر بيريس من ان تصبح اسرائيل اسيـــرة الخداعات « ان الضمان الامني لا يكفـــي لامننا » ، واصر على الحاجة الى حدود قابلة للدفاع عنها ،مؤكدا انه ليست هنـــاك اية امكانية للدفاع عن قطاع بعرض ١٤كم (العودة الى حدود ١٩٦٧) ٠ واعلن وزير الدفاع كذلكانه ينبغي الحفاظ علىديناميكية الاستيطان لانه « ليس هناك فراغ ٠ فاذا لم نستوطن فالعرب سيستوطنون » وختم بيريس حديثه بتأييده لاسلوب الخطوةخطوة لان العرب حسب رأيه « لن يقبلوابالخارطة التي ستقترحها اسرائيل ، ونحن لسنـــا مستعدين للقبول باقل مـــن السلام ٠ ان الخطوة خطوة ستخلق جوا جديدا فـــي الشرق الاوسط » (المصدر نفسه)٠

حزب مبام يقرر البقاء في المعراخ

بعد فوز رابيـــن ، ونشر البرنامـــج السياسي الجديد لحزب العمل ، قرر حزب مبام التراجع عن مطلبه القديم بشـــأن الانفصال عن حزب العمل ، وخـــوض الانتخابات بقائمة منفصلة ٠ وكانتاللجنة السياسية لحزب مبام قد قدمت في اواخـر السنة الماضية تقريرا الى رئيس الحكومة والى سكرتير عام حزب العمل ، حولشروط الحزب للبقاء في المعراخ ، وهي اولا : الاستعداد لتسوية بعيدة المدى على جميع الجبهات ، خاصة الضفة الغربية ٠ ثانيا: تجميد انشاء المستوطنات الدائمة فيالمناطق باستثناء المستوطنات الامنية في هضبـــة الجولان ومشارف رفح ، ثم تحويل الموارد الاستيطانية الى الجليل٠ ثالثا: الاستعداد لاشراك اي جهة فلسطينية في مؤتمر جنيف تعرب عن استعدادها للاعـتراف بسيادة اسرائيل ٠ كذلك قدمت اللجنة السياسيـة توصية الى مؤتمر الحزب بشأن خـــوض الانتخابات بقائمة منفصلة ، وذلك اذا لـم يحدث تحول جذري في مواقف حزب العمل يمكن من تحقيق اتفاق مشترك بين شريكـــي المعراخ ، حول المواضيع السياسيـــة

والاقتصادية والاجتماعية · وكان صاحب هذا الاقتراح سكرتير مبام منيـر تالي ، حيث حصل على اغلبية ٤٣ صوتا مقابل ٣٢ صوتا ايدوا اقتراحا مضادا تقدم به زعيم الحزب يعكوف حزان ،ويقضيبالبقاء في المعراخ حتى مؤتمر حزب العمل وتعيين المرشح لرئاسة الحكومة ، ويحدد اقتـراح تالي الذي ايده الوزير فيكتور شيمطوف، وسكرتير هكيبوتس هارتسي نتان بيلد ، ومعظم اعضاء الكنيست من مبام ، ثلاثـة شروط لاستمرار المعراخ · اولا قرار متفق عليه داخل حزب العمل بشأن الاستعـداد لقبول تسوية اقليمية على جميع الجبهات، خاصة الضفة الغربية ، وذلك من اجـل تحقيق سلام في حدود آمنة ، معترف بها ومتفق عليها · ثانيا ، انتخاب مرشـح لرئاسة الحكومة بحيث يدأب على تحقيـق هذه السياسة من خلال التماثل معهـا · ثالثا : استعداد حزب العمل للاتفاق مـع مبام حول مقترحاتهفي المواضيعالاقتصادية والاجتماعية ، والسياسية تجاه الاقليـة العربية ، وتشغيل مؤسسات المعراخ (دافار ١٧ـ١ـ٧٧) · وتجدر الاشارة الى ان حزب مبام كان من انصار رابين في الانتخابات التي جرت لاختيار مرشح حزب العمـل لرئاسة الحكومة ، وربما كان فوز رابين عاملا مهما في تراجع مبام عن مطلبـه في الانسحاب من المعراخ ، وهذا ما قرره فعـلا ·

بيغن : « الانتخابات المقبلة ستقرر مستقبل ارض اسرائيل »

افتتح مؤتمر حركة حروت اليمينية فـي ٢ـ١ـ٧٧ في القدس حيث جرى خلال المؤتمر انتخاب مركز جديد ، من مهاته انتخـاب المرشحين للكنيست · ويتالف المركزالجديد من ٥٨٥ عضوا مقابل ٤٧٠ عضوا فـي المركز القديم · وستتوفر للمركز الجديد قوة اكبر باعتباره سيقـوم بانتخـاب المرشحين للكنيست بانتخابات شخصيـة سرية ومباشرة ، وكل عضو في الحركةيحق له ترشيح نفسه لهذا المنصب · وقد دخل الى المركز الجديد عمليا ، ٥٠٪ من اعضاء مندوبي المؤتمر (١٠٠٨) · وتعتبر زيادة اعضاء المركز حلا وسطا بين المجموعـات المختلفة التي رغبت في الحفاظ على قوتها داخله ، وبين جهود القيادة في دمج وجوه جديدة في المركز ، امثـال البروفيسور يوسف روم مدير كلية الطيران في كليـة التخنيون ، وشموئيل كاتس ، عضو قيادة منظمة اتسل الارهابية سابقا ، وقد اعتبـر بعد حرب ١٩٦٧ من واضعي اسس حركـة ارض اسرائيل الكاملة ·

وعرض زعيم حركة حروت مناحيم بيغن في افتتاح المؤتمر سياسة كتلة ليكود فزعم انه اذا دعيت كتلته لتاليف حكومة (فـي حال فوزها في الانتخابات) فسيكـون اهتمامه الاول منع الحرب ، « ان حكومة كهذه من شانها ان تردع العدوان ،وتحافظ على امن اسرائيل تحرز تقدما نحو السلام» (هارتس ، ٣ ـ ١ ٧٧) · واكن بيغناهمية زيادة تعاظم جيش اسرائيل ، معلـنا ان الليكود سيحرص على تأمين الامـدادات العسكرية والانتاج الذاتي لآلات الحرب · واضاف بيغن ان حكومة الليكود ستتخـذ مبادرة للسلام ليس بواسطة الجمعيـة العمومية للامم المتحدة ، « مع الاكثريـة المعادية داخلها»·واقترح ان تطلب اسرائيل « من دولة صديقة ، لها علاقات ديبلوماسية منتظمة مع اسرائيل وجاراتها ، بنقـل مقترحاتنا الى الدول العربية بشأن البدء بالمفاوضات حول توقيع معاهدة سلام · بحيث تكون هذه مفاوضات مباشرةوبدون شروط مسبقة ، وغير مقيدة بصيغة حـل وجدت من الخارج » ·واقترح بيغنالدعوة الى مؤتمر سلام يعقد اما في عواصـم الدول المعنية على التوالي ، او في مكـان حيادي مثل جنيف ، وحذر من الخطـر الكامن وراء اقامة دولة فلسطينية ، معلنا « ان كل من هو على استعداد لتسليـم مناطق من اليهوديـة والسامرة الى « حكم اجنبي » فانه يضع حجر الاساس لدولـة

فلسطينية · واعرب عن دهشته لتلك المنافسة القائمة بين اعضاء كنيست وشخصيات وادباء ورجال فكر حول من سيسلم للعدو منطقة اوسع » (المصدر نفسه) ·

واعلن بيغن كذلك في خطاب اخر امام المؤتمر ان الانتخابات المقبلة « ستعين مستقبل ارض اسرائيل » ، وعارض بعنف محاولات عرض المعراخ كداع للسلام ، والليكود كداع للحرب · « اننا لم نقترح ابدا ولن نقترح شن حرب ، ولكن اليهودية والسامرة تحت سيادة اسرائيل ، هي الضمان لقدرتنا على الدفاع عن انفسنا في حال تعرضنا لهجوم » (دافار ، ٦ـ١ـ٧٧) ·

ونفى بيغن ايضا الادعاءات القائلة بان حركته فشلت ثماني مرات في الانتخابات ولن تحقق اي نجاح هذه المرة ، فقال «على العكس ، هناك زيادة دائمة مقابل هبوط متتابع في المعراخ ، حتى توافر احتمال حقيقي لنقل المعراخ الى المكان الثاني »· (المصدر نفسه) ·

ويبدو ان زعماء كتلة ليكود غيرخائفين على مستقبل حركتهم بعد الانسحابات التي حدثت بها ، خاصة انسحاب اريئيل شارون الذي اسس حركة خاصة به دعيت«شالوم تسيون » ، وانسحاب المركز الحر وعلى رأسه شموئيل تامير وعكيفا نوف وبنيامين هليفي ، وانضمامهم الى الحركة « الديمقراطية للتغيير » ، وهي الحركة الجديدة التي اسسها يغئال يدين · وتبدو العلاقات اليوم داخل كتلة ليكود هادئة للغاية ، حيث بات عضو الكنيست سمحا ارليخ زعيم حزب الاحرار ، شريك حركة حروت في كتلة ليكود ، يشعر انه شريك متساو مع حروت الواقعة في ضائقة مالية صعبة · « ويمتاز حزب الاحرار في الليكود بممثليه في الكنيست وهم من الشباب والنشيطين امثال ابراهام كاتس، يتسحاق مودعي ، يحزكيئيل بلوميين ، جدعون بات ، موشي نيسيم،بيصح جروفر·

ومن المؤكد انه سيضاف اليهم شباب اخرون في الكنيست التاسع ، اذ ان زعماء ليكود يعتقدون ان هناك ٩٠ مقعدا في الكنيست المقبل ستوزع بينهم وبين المعراخ وان كتلتهم ستحظى بالاكثرية ، اي اكثر من ٤٥ مقعدا » (يئايد كوتلر ـ هآرتس ، ١٦ ـ ١٢ ـ ٧٦) ·

ويبدو ان زعماء ليكود واثقون من الفوز هذه المرة ، ففي مقابلة مع زعيم حزب الاحرار سمحا ارليخ (المصدر السابق)، اعلن ان « هناك فرقا بين الليكود حتى الكنيست الخامس ، عندما سار بيغن على رأس حركة حروت التي كانت صغيرة نسبيا واستطاعت الحصول على ١٧ مقعدا في الكنيست كحد اقصى ، وبين الوضع بعد قيام جاحل ، حيث ارتفعنا الى ٢٧ عضوا· وكان للمعراخ انذاك ٥٨ عضوا · وابتداء من الكنيست السادس ، وفي ثلاث دورات من الانتخابات ، تقدمنا نحو احراز توازن مع المعراخ · لذلك فان الحساب ، وكأن بيغن خسر ثماني مرات ، غير صحيح فبين شعب محافظ كشعبنا ، لا يمكن احداث ثورات ، خاصة وان الحكم القائم ينفق طوال الوقت مليارات من الليرات من الخارج ، حتى يشتري الحكم بواسطتها، ويحصن نفسه الى درجة افساد الدولة والجمهور · والان بدأ يظهر كل هذا الفساد » ·

وتحدث ارليخ عن سبب بقاء حزبه داخل الليكود ، وعدم انسحابه واتخاذ مبادرة لتاليف وسط ليبرالي ، يكون بمثابة مؤشر الميزان بدل المفدال (الحزب الديني القومي) فقال انه لا يرى اي اساس فكري مشترك مع الداعين الى تشكيل هذا الوسط مثل الاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن وحركة شينوي · « ان هذه الجماعات لم تواجه بعد الاختبار الشعبي ··· يوجد مكان (في الخارطة السياسية في اسرائيل) لليكود ، للمعراخ ولحزب ديني · ان جميع القوائم الصغيرة هي بمثابة فتات ليس بينها

عامل مشترك لتشكيل قائمة واحدة ··· ان الناخبين يدركون اليوم ان تجمعا سياسيا كبيرا فقط يستطيع تغيير الواقع في الدولة· وهذا ما يقوي من ارادتنا للبقاء داخل الليكود » (المصدر نفسه) ·

الوزير موشي كول يتخلى عن رئاسة قائمة حزب الاحرار المستقلين للانتخابات

افتتح مساء يوم ٢٧-٢-١٩٧٧ مؤتمر حزب الاحرار المستقلين في تل ابيب ، بحضور رئيس الدولة كتسير ورئيس الحكومة رابين ، ووزراء واعضاء كنيست وممثلون ديبلوماسيون · واعلن الوزير موشي كول في حفل الافتتاح ان حزبه قد سعى لاقامة مركز ليبرالي يجمع كل القوى الموجودة في وسط الخارطة السياسية بين المعراخ والليكود · ولكن هذا لم يحدث مما يشكل خسارة للدولة ولمستقبل الحكم الاسرائيلي، وحمل كول « الحركة الديمقراطية من اجل التغيير » مسؤولية عدم اقامة مركز ليبرالي كهذا · واضاف كول ايضا ان حزبه حقق من الانجازات بوجوده في الحكومة، مايفوق كل ما حققته كتلة ليكود المعارضة · (رأ، ٢٧-٢-٧٧) ·

وعلم فيما بعد ان خلافا قد وقع داخل المؤتمر بشأن قضية التناوب في تولي المناصب الحزبية ومن ضمنها تمثيل الحزب في الكنيست ، ولكن مجموعة مهاجري رومانيا داخل المؤتمر والتي يمثلها عضو الكنيست يهودا شعاري وهي مجموعة كبيرة ، اعلنت بشكل انذاري انه اذا اتخذ قرار بشأن التناوب فأنها ستنسحب من الحزب · ونظرا لذلك قال الامين العام للحزب يتسحاق بركائي انه بسبب الاشكالات الداخلية هذه ، سيتخذ قرار بشأن التناوب على ان ينفذ ابتداء من الكنيست العاشرة (رأ ، ٢٨-٢-٧٧) ·

كذلك اعلن الوزير موشي كول امام اعضاء اللجنة المركزية لحزب الاحرار المستقلين انه قرر عدم ترشيح نفسه لرئاسة قائمة حزبه للانتخابات المقبلة · ويعتبر كول احد قادة الحزب منذ قيام اسرائيل واحد مرشحيه للكنيست والوزارة · واعلن فيما بعد انه مستعد في منصبه كرئيس للحزب لمساعدة رئيس القائمة والمرشحين الذين سيتم انتخابهم للكنيست ، بشرط ان يتم انتخابهم بصورة سرية دون اتفاقات مسبقة · ولا ينوي الوزير كول انهاء نشاطه السياسي ولكنه « قلق على مستقبل حزبه » وسيستمر في ترؤسه ، والسبب الرئيسي لتخليه عن رئاسة القائمة هو انه من انصار مبدأ التناوب على حد قوله « وخصوصا في الاحزاب الصغيرة ، حيث ان هذا المبدأ شديد الاهمية » ، ولقد استقال ست مرات من الكنيست لتمكين الاعضاء الاخرين من دخول الكنيست ، الامر الذي لم يفعله اي عضو كنيست آخر ولا حتى اي وزير في حزب اخر ·

وتجدر الاشارة الى ان عضو الكنيست هليل زايدل قد ترك حزب الاحرار المستقلين وانضم الى حزب الاحرار ، معلنا « ان حزب الاحرار المستقلين قد وصل ، بسبب حالة موضوعية ، الى وضع لا يستطيع فيه ان يساعد نفسه · واعتقد بان علينا نحن ايضا ان نتعاون مع اطر اكبر منا·· على اي حال ، لقد قدمت كثيرا للحزب ···ولكن لا يكفي ان يكون للحزب افكار جيدة بل يجب ان يكون قويا واداة مناسبة لتحقيق الافكار » (رأ ، ١-٢-٧٧) ·

استمرار تعزيز حركة يدين

تمثل « الحركة الديمقراطية للتغيير » اهم تطور في الوسط الليبرالي قبل الانتخابات ، وهي مشكلة من اندماج « الحركة الديمقراطية» التي اعلن الجنرال يغئال يدين ، وهو رئيس اركان سابق في الجيش الاسرائيلي ، عن تشكيلها في ٢٢-١١-٧٦ ، وحركة « شينوي » التي يتزعمها استاذ الجامعة امنون روبنشتاين (وتعني حركة التغيير ،و قد ظهرت بعد حرب ١٩٧٣) ، وقد انضم اليهما فيما بعد

المركز الحر ، بزعامة عضوي الكنيست شموئيل تامير وعكيفا نوف ، وذلك بعد تقديم استقالتهم من الكنيست · وقد وقعت اتفاقية الاندماج بين الحركتين في ١٢ـ١ـ٧٧ بحضور بروفيسور يدين وبروفيسورروبنشتاين ورؤساء المركزالحر· وجاء في الاتفاق الموقع ان توحيدالحركتين سيكون حسب صيغة التوحيد التي تمت بين « الحركة الديمقراطية » وبين حركة « شينوي » · ويتم الاندماج بواسطة انضمام اعضاء المركز الحر بصورة شخصية · واعلن عضو الكنيست شموئيل تامير بعد ذلك بقوله : « ان الاندماج بين الحركتين قد وضع على الخارطة قوة مركزية تضم داخلها اعضاء من حركة العمل ، واعضاء من المعسكر القومي الليبرالي ، وآخرين لم يشاركوا في اي حزب في الماضي · ان جميع هؤلاء يتكتلون اليوم في حركة مشتركة برئاسة البروفيسور يغئال يدين » · واضاف تامير انه « للمرة الاولى ، منذ قيام الدولة ، يتوفر احتمال حقيقي ، بأن يؤدي التكتل الحالي الى تغيير وجه الامور في الانتخابات المقبلة» (هآرتس ، ١٤ـ١ـ٧٧) ·

بالاضافة الى انضمام اعضاء المركز الحر ، فان ظاهرة انضمام شخصيات اخرى الى حركة يدين مستمرة ، ومعظم هؤلاء منبين صفوف حزب العمل،واصحاب مناصب رفيعة من قبل الحزب ، على غرار شموئيل طوليدانو مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية ، وقد استقال من منصبه وانضم الى حركة يدين· ومئير عميتمدير شركة « كور » وعضو في حزب العمل،وقد اعلن عقب انضمامه الى حركة يدين انه توصل الى استنتاج بانه لا يمكن احداث تغدير من الداخل (يقصد من داخل حزب العمل) · « فالجهاز مقفل ومتحجر ، وهناك مصالح ومجموعات مصلحية تعمل لحسابها ··· وانطباعي هو ان مجموعة « الحركة الديمقراطية للتغيير» هيمجموعة منفتحة ، شابة ، لا التزامات لها حتى الآن » (رآا ، ٣١ـ١ـ٧٧) · كذلك استقال من حزب العمل دكتور يسرائيل كاتس عالم الاجتماع ومدير مؤسسة الضمانالاجتماعي سابقا ، والمعروف بتوصياته التي قدمها الى الحكومة الاسرائيلية لحل المشاكل الاجتماعية ،بعد انترأسلجنة خاصة لبحث موضوع الشبابفي الضائقة الاجتماعية · وقد انضم كاتس الى حركة يدين ، معلنا انه يئس من الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية بالاسلوب الحالي ، وخاصة من فشلتطبيق التوصيات التي قدمتها لجنته سنة ١٩٧٣ (هآرتس ، ١٩ـ١ـ٧٧) ·

وكان يدين قد انتخب رئيسا « لهيئة الادارة» في «الحركة الديمقراطية للتغيير»، بعد اندماج حركته وحركة شينوي · وقد انتخبت ايضا اربع فرق للعمل : اولا لجنة للتنظيم يترأسها مئير زوريع ، ثانيا لجنة للانظمة الداخلية يترأسها دكتور امنون رفائيل ، لجنة الاموال يتراسها مئير دي شليط ، لجنة الاعلام ويترأسها امنون روبينشتاين ·

بالاضافة الى ذلك تم انتخاب رؤساء لجان في مجالات مختلفة : بروفيسور يدين ـ اللجنة السياسية ، شتيف فيرتهايمر ـ لجنة الاقتصاد، مردخاي الغربلي ـلجنة الانعاش الاجتماعي ، رافي بلومنتال ـ لجنة شؤون الشعب اليهودي ، المحامي موشي بن زئيف (المستشار القضائي للحكومة سابقا) ـ لجنة القانونوالقضاء (دافار ، ٩ـ١٢ـ٧٦) ·

التركيز على القضايا الداخلية

يتضمن البرنامج السياسي « للحركة الديمقراطية » التي اعلنها يدين في ٢٢ـ١١ـ٧٦ ، على بنود تدعو الى تغيير نظام انتخابات الكنيست ، وسن تشريع يضمن البنية الديمقراطية للاحزاب ،وتغيير نظام عمل الحكومة عن طريق توزيع المهام والمسؤوليات بصورة واضحة · هذا فيما

يتعلق بالمجال الداخلي ، اما في المجـــال الخارجي فقد ورد في البرنامج انه « يجب الامتناع في هذه المرحلة عن تقديم برامج نهائية ومفصلة ، لانه في المرحلة الراهنة ليس ثمة برنامج مقبول عمليا من الطرف الآخر » . ولكن البرنامج يتضمن ثلاثــــة مبادىء تشكل في رأيه ، الاساس لاتفاقية سلام في المستقبل :

١) دولة اسرائيل هي دولة اليهـــــود ونظامها ديمقراطي . ويجب ان تكونضمن حدود آمنة وعاصمتها هي القدس الموحدة .

٢ ـ من اجل سلام حقيقي ، والمحافظـة على الطابع اليهودي ـ الديمقراطـي . ستكون الدولة مستعدةللتنازل عن مناطق . جارة اسرائيل من جهة الشرق ستكوندولة عربية واحدة ، عاصمتها وراء نهر الاردن اما اسمها ونظامها وطابعها فذلك منشأن سكانها او حكومتها .

٣) الحد الامني من ناحية الشرق هـو نهر الاردن والمناطق الواقعة الى الغـرب منه والحيوية من اجل السيطرة الامنيـة عليه . ويقوم الاستيطان في هذه المنطقـة على تخصيص كافة الموارد المالية والبشرية الضرورية لتطويره وتعزيزه (هآرتس ، ٢٣ـ١١ـ٧٦) .

ويفسر يادين مبادئه هذه في مقابلــــة اجريت معه في ملحق صحيفـــــة هآرتس (١٧ـ١٢ـ٧٦) فيقول : « استطيع ان اعبر عن آرائي هذه في جملتين : ان دولــــة اسرائيل هذه التي اقيمت كمثل اعلى ، يجب ان تكون الدولة التي احب واكـون سعيدا بها ، عندما اكون واثقا من انهـــا ستكون دولة اليهود ودولة ديمقراطيةعندما يتحقق السلام . اي الاتكون ديمقراطية بدون اغلبية ساحقة يهودية ، ولا تكون غيـــر ديمقراطية ولكن مع طابع يهودي . مـــن جهة اخرى ـ ان دولة اسرائيل ، التيليس لها سابقة ، والتي تعتبر من اهمالاحداث في تاريخ الشعب اليهودي ، يجب الا تصل بسبب عدم المسؤولية، الى وضع لا تستطيع العيش فيه ابدا . ان الشرط الاول فيكل مفاوضات مع العرب هو ، ان نستطيـــع العيش ـ وليس نصف احياء او ربعاحياء . ولكن ما معنى هذا وما هو المطلوب من اجل العيش ـ وهنا ثمة مجال واسع جــــدا للمناورة في المفاوضات . وبما ان الامـر غير متعلق بنا ، لا ارى الآن اية فائدة من رسم خرائط » ..

... واضاف يدين : « علينـــــا الآن (كحركة) ان نركز على المواضيع ، التي نعتبر اسيادا لانفسنا ازاءها ـ المشاكـل الداخلية ، الاجتماعية ، الاقتصاديـــــة والمعيشية . وهنا اصل الى الامــــــور الاساسية : تغيير طريقة الانتخابات ،تغيير بنية الحكومة والنظام ...ينبغي ان نفعل كل شيء من اجل تركيز اهتمام القيـــادة بما يسمى المشاكل الداخلية ، مشاكـــل وحقيقة المعيشة في البلد ونوعيتها. من يمر مثلا ، على محاضر الكنيست ، يتولـــد لديه الانطباع ان هذه الهيئة انتخبـــت للاهتمام بالقضايا الخارجية والامنيـــة والمالية . كذلك اعتدنا وكأنما الحكومـة انتخبتللاهتمام بقضايا الخارجية والامن. لدينا اسلوب خاطىء بالنسبة لادارةالدولة ... ان مسألة وجودنا ليست امنية فقط وانما تتعلق بنوعيتنا ، بالدافع لديناللعيش هنا » (المصدر نفسه) .

يجمع المعلقون السياسيون في اسرائيل على ان قائمة يادين تشكلخطرا كبيرا على حزب العمل ، خاصة في هذا الوقت الذي يزداد فيه تدهور الوضع الاقتصاديسوءا، وتتضاءل الهجرة ، ويزداد الفساد تفشيا، الى درجة بدأ بها المواطن الاسرائيلـــي يشعر برغبة ملحة في تغيير القيادة .ويجب على حزب العمل الاسرائيلي ان يدرك انه تنتظره معركة صعبة جدا ضد قائمة يغئال يدين في هذه الانتخابات . ان كل ما قيل في الماضي حول جاحل وبيغن ، لا يمكن ابدا قوله بالنسبة الى يدين، وليسبالنسبة

الى الاشخاص الذين هم في مجموعتـه · ان الصراع مع يغئال يدين يجب ان يكـون مختلفا في طابعه ودوافعه ، وفي اسلوب النقاش معه » ·

« ان السؤال ليس من سيحصل علـى اصوات اكثر ، « الليكود » ام يدين (وهنا ايضا افضلية الليكود غير واضحة سلفا) وانما اين توجد « اصوات عائمة » اكثر، واقصد بهذه العبارة اولئك الاشخـاص الذين لم يقرروا حتى الآن الى جانب مـن سيصوتوا ··وليست لنا حاجة الـى الاستفتاءات لكي ندرك ان عدد المترددين بين المعراخ وقائمة يدين ، اكبر جدا ، من عدد المترددين بين المعراخ والليكود ، وفي واقع اسرائيل ١٩٧٧ ، ينبغي ان نشمـل في معسكر المترددين اولئك الاشخاص الذين يقولون ، انهم قرروا عدم التصويت مـع المعراخ مهما حدث ، ويدين بالنسبة لهـم منفذ للامل » (مئير برئيلي ـ دافـار ، ٣١ـ١٢ـ٧٦) ·

حركة « شالوم تسيون »

اعلن اللواء (احتياط) اريئيل شارون في ١٦ـ١١ـ٧٦ انسحابه من ليكـود ، وتشكيل حركة جديدة دعيت فيما بعد باسم « شالوم تسيون » · وصـرح شارون ان الهدف من وراء اقامة الحركة هو السعي لانشاء بديل حقيقي للسلطة القائمة · اما بالنسبة لموقفه السياسي فقد اعلن « ان امن اسرائيل في نظري هو العامل الحاسم في كل الاعتبارات · ولا ارى اي مكان للتنازل عن الضفة ، ومقابل ذلك ، لا ارفض أيـة صيغة رسمية تساهم في التقدم نحو الحل السياسي » · وانتقد شارون مشروع آلون وقال انه لا يحافظ على امن اسرائيـل بمقدار ذرة ، بل بالعكس يشكل خطرا من الدرجة الاولى عليه (يديعوت احرونوت ، ١٧ـ١١ـ٧٦) ·

ويجدر الذكر ان شارون كان قد صرح في الماضي انه على استعداد للتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية اذا رشحـت المنظمة لذلك ، لانه يعتبر ان موضـوع المفاوضات اهم من اختيار الاشخاص الذين تجري معهم · واعلن ايضا انه مـن الضروري لاسرائيل التحدث الى وفد عربي موحد يمثل اجماعا عربيا ، وانه لا يمكن عقد محادثات مع كل دولة على حدة لانه يمكن ان يطلب من اسرائيل آنذاك تقديـم تنازلات لكل من هذه الدول ، وفي النهاية دفع تنازل للفلسطينيين ·

وبادر شارون الى التفاوض مع احزاب الوسط الاخرى ، بهدف تشكيل جبهـة عريضة ، وقد فشلت مفاوضاته حتى الآن مع « الحركة الديمقراطية للتغيير » ، حيث لم يتم الاتفاق بينهما على برنامج سياسي موحد · وحدد شارون في محاضرة القاها في جامعة بار ـ ايلان، المهمة الاكثر الحاحا في نظره ، وهي اسقاط الحكومة الحالية، وتغيير النظام السياسي الى نظام رئاسي· واضاف شارون انه بحث عن ممثليـن حقيقيين لحركته من كل طبقات الشعـب (هآرتس ، ١٤ـ١٢ـ٧٦) ·

« الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة »

اعلن عن جبهة جديدة بين راكح وجماعة الفهود السود برئاسة تشارلي بيتـون وكوخافي شيمش ، دعيت « الجبهـة الديمقراطية للسلام والمساواة » · وقـد اعلن عن قيام الجبهة بعد تحقيق اتفـاق وقع بين راكح وجماعة الفهود السـود ، حيث وعدت راكح بموجبه الفهود السود، بوضع مرشحهم وهو شارلي بيتون فـي المكان الثالث في لائحة الانتخابات للكنيست وكما علم اعلنت جماعة اخرى من الفهود السود برئاسة سعدي مارتسيانو عن عزمها الانضمام الى موكيد · واعلن بيتون بعـد توقيع الاتفاق ان الامر يعني « مد اليدالى القطمون والمصرارة (من الاحياء الفقيرة في القدس) في البلدة القديمة ، اي للحي الاسلامي في المدينة القديمة · اننا نشعـر بان المهم هو اقامة لائحة يهودية ـ عربية

في اسرائيل » · واضاف قائلا : «اننا نرى اليوم ما يحدث في الدولة ، وهنـــــاك اضطهاد معين للموقف العربي واضطهاد لموقف العمال ، وقد قررنا العمل على رفع الغبن ··· واود ان اقتبس كلام الرفيـق فيلنر الذي قال اليوم : في النهاية فهـــد حقيقي من سكان الاحياء الفقيرة يدخـــل الكنيست » (رأ ، ٢ـ٣ـ٧٧) ·

وعقد حزب راكح مؤتمره الثامن عشر في نهاية السنة الماضية في حيفا ، حيـــث اعلن في نهايته عن موقفه السياســـــي المتمثل في « الاستجابة فورا الى مبادرة سكرتير عام الامم المتحدة كورت فالدهايم، الذي يعمل من اجل عقد مؤتمر جنيـف واشراك جميع فرقاء النزاع ، خاصـــة منظمة التحرير الفلسطينية · ودعى المؤتمر الى وضع نهاية لاحتلال المناطق ، واقامـة اتحاد بين جميع قوى السلام في اسرائيل من اجل منع الحرب ، ثم اقامة قائمـة « جبهة السلام والديمقراطية » لانتخابات الكنيست المقبلة ، وتصعيد النضال ضـد سياسة التمييزتجاه عرب اسرائيل» (دافار ١٩ـ١٢ـ٧٦) ·

حنه جريس

التركيب الاقتصادي لشرق الأردن
مقدمات التطور المشوه (١٩٢١ - ١٩٥٠)
نشوء الدولة في شرقي الاردن (١٩٢١)

هاني حوراني

القسم الثاني

١ ـ شرقي الاردن بعد سقوط حكومة فيصل

اثر سقوط حكومة فيصل في دمشق مر شرقي الأردن بفترة من الفوضى والغموض وفقدان السلطة ٠ وكانت بريطانيا قد مهدت لاحتلال القوات الفرنسية لسورية ، عن طريق سحب قواتها العسكرية منها ، بما في ذلك شرقي الاردن ٠ ومع سقوط حكومة فيصل امام الاحتلال الفرنسي اتخذ اتفاق التقسيم البريطاني ـ الفرنسي في سان ريمو طريقه الى التنفيذ ٠ اما شرقي الاردن الذي كان من حصة بريطانيا ، فقد كان انذاك خاليا من اية قوات وبلا حكومة أو جيش أو شرطة تحفظ الامن (١) ، واهم من ذلك انه كان يعاني من الفراغ السياسي ٠

رفض فيصل المشاركة في الاختيار الذي قامت به الحركة الوطنية السورية وبعض فلول حكومته وقواته ، حين انتقلت الى شرقي الاردن لاستجماع قواها وتنظيم صفوفها للنضال ضد الاحتلال الفرنسي (٢) ٠ في حين سادت البلبلة القوى المحلية ٠ فقسم من السكان ولا سيما المثقفين وسكان المدن وخاصة في شمال البلاد وجدت مستقبلها في الانخراط في النضال المناهض للاحتلال الفرنسي وفي تحرير سورية ، اما باقي المناطق فقد عانت من افتقاد زعامة وطنية ، وهي التي دانت تقليديا وتاريخيا لمركز او اكثر خارج البلاد ٠ فالزعامات المحلية ، اتسمت بمحدوديتها وطابعها القبلي شبه الاقطاعي ٠ ولم تمتلك اي منها ما يميزها عن غيرها ، وهي غير قادرة على مخاطبة ما يتجاوز مناطقها ٠ ولذلك ، وبحكم الانقسام البنيوي للسلطات الى وحدات اجتماعية ـ اقتصادية محلية ، وبحكم انعدام تكون الطبقات على اساس اقليمي ، فقد حرمت البلاد من فرص تكون زعامة وطنية ٠ فكان لكل منطقة نظامها الاجتماعي المحدد وبناؤها الفوقي الخاص بها ، اي نظام للسيطرة والزعامة لادار ةالشؤون العامة ٠ ولقد احدث التقسيم الفعلي لسورية الطبيعية بين بريطانيا وفرنسا وانهيار حكومة فيصل

(١) راجع المحافظة ، علي : « تاريخ الاردن المعاصر ، عهد الامارة » ، الطبعة الاولى ، عمان ، ١٩٧٣ ، ص ١٦

(٢) راجع دروزة ، محمد عزة ، « حول الحركة العربية الحديثة » (صيدا ، ١٩٥٠) الجزء الاول ، ص ١٣٤

قلقا لدى القمم القبلية شبه الاقطاعية ، وكان هذا القلق منصبا بالاكثر على الاحتفاظ بمواقعها ، اي بسيطرتها على مناطقها ٠

لم يكن الفراغ السياسي في شرقي الاردن موضع قلق سكانها فقط ٠ بل كانت هذه المسألة بالذات تهم الامبرياليتين البريطانية والفرنسية ٠ فالاخيرة كانت معنية بأمن سورية ، وباستقرار سيطرتها عليها ، وتخشى من تحول شرقي الاردن الى قاعدة خلفية لرجال الحركة الوطنية السورية ، الذين اخذوا يشنون هجماتهم فعلا من شرقي الاردن ٠ وكانت بريطانيا معنية باستقرار شرقي الاردن وهدوئه ، بسبب التزاماتها تجاه الفرنسيين في سورية ، ولكي لا تتهدد سياستها في فلسطين ، ان بفعل النشاط المعادي للامبريالية والصهيونية او بفعل الغزو والهجمات البدوية ٠ وكان التركيب الاجتماعي الخاص وغير المستقر في البلاد موضع قلق رجالات الكولونيالية البريطانية في فلسطين (٣) ، فلم يكن ممكناً من الوجهة العملية فصل امن واستقرار شرقي الاردن عن امن واستقرار المحيط ، والعكس بالعكس ٠

لقد اعتبر شرقي الاردن منطقة هامة للمصالح البريطانية من الوجهة الاستراتيجية ٠ فهي وفلسطين كانتا حلقة وصل بين مصر والعراق ، البلدان الواقعان تحت الاحتلال البريطاني ٠ كما ارتبطت اهمية شرقي الاردن في اثره المباشر على مخططات البريطانيين في فلسطين ولهذا كان من المستحيل عمليا ، اتخاذ خطوة او سياسة محددة تجاه شرقي الاردن ، دون الاخذ بالاعتبار نتائج هذه السياسة على المحيط من جهة وعلى المصالح والاهداف البريطانية في المنطقة ولا سيما في فلسطين ، وعلى التزامات البريطانيين تجاه حلفائهم ٠

ورغم تلهف السلطات الكولونيالية البريطانية على تامين الاستقرار في شرقي الاردن ، الا انها لم تكن تستعجل اتخاذ سياسة محددة ونهائية للسبب او للاسباب المذكورة اعلاه ٠ فالامر لا يتعلق بالوضع الداخلي الصرف الا في الحدود الدنيا ٠ وربما لهذه الاسباب ايضا كانت وجهات نظر مختلف رجال الكولونيالية البريطانية متباينة جدا بشأن شرقي الاردن (٤) ٠

(٣) راجع موسى ، سليمان « تأسيس الامارة الاردنية (١٩٢١/١٩٢٥) » ، الطبعة الاولى ، عمان ، ١٩٧١ ، ص ١٩ ، رسالة هربرت صموئيل الى اللورد كرزون وزير المستعمرات مؤرخة ٧ آب ١٩٢٠ ،

(٤) كانت وزارة الخارجية ووزارة الحربية البريطانية تعارض الاحتلال العسكري لشرقي الاردن ٠ واخذ كل من اللورد كرزون وزير المستعمرات وكلايتون ويدوز نفس الاتجاه في معارضة هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين الذي كان يدعو لاحتلال عسكري ولضم شرقي الاردن الى فلسطين مباشرة ٠

على النقيض من وجهات النظر الداعية لضم شرقي الاردن الى فلسطين فورا ، او الى احتلاله عسكريا ، تمثـل الاتجاه الارسخ لدى وزارة المستعمرات البريطانية في الدعوة لفصل شرقي الاردن عن فلسطين ولعدم اللجوء الى زج القوات البريطانية في شرقي الاردن · ومبكرا (آب ١٩٢٠) انصبت توجيهات وزير المستعمرات البريطاني اللورد كرزون الى المندوب السامي في فلسطين على الدعوة الى تشجيع قيام حكومات محلية بمساعدة المستشارين البريطانيين المنتدبين لهذه الغاية في انتظار موقف ثابت ونهائي من طبيعة السلطة ومن مصير شرقي الاردن ·

وبهذا الصدد كتب اللورد كرزون وزير المستعمرات البريطاني الى هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين :

« ان حكومة جلالته ترغب في ان تتفادى الظهور بمظهر استغلال الوضع او تقليد اجراءات الفرنسيين في سورية الشمالية · لذلك فهي تعارض احتلال شرقي الاردن احتلالا عسكريا · وعلى اية حال فان وزارة الحربية ترفض رفضا باتا ان تقدم قوات عسكرية او تتحمل مسؤولية التزامات لاحقة قد يمكن ان تنتج في المستقبل » (٥) ·

وردا على مقترحات صموئيل الرامية لاحتلال شرقي الاردن وضمه الى فلسطين بشكل كامل اضاف يقول :

« في الوقت نفسه تدرك حكومة جلالته ادراكا تاما مدى الخطر الكامن في السماح لشرقي الاردن ان تنتكس وتعود الى غمار الفوضى (···) اننا نخشى ان يؤدي دمج شرقي الاردن تحت الادارة الفلسطينية فورا (···) الى اعطاء المهيجين الوطنيين حجة علينا ، وتكون النتيجة ان تتبدل مشاعر هؤلاء الذين يدعون الى الحصول على مشورتنا ومساعدتنا · وعندئذ سوف نواجه احد احتمالين : اما الانسحاب واما الاحتلال العسكري الذي لا نجد انفسنا على استعداد للبحث فيه » ·

ثم يقدم اللورد كرزون التوجيه التالي الى صموئيل :

« ان الخطوة الاولى يجب ان تبدأ بارسال عدد قليل من الضباط السياسيين

---

(٥) موسى سليمان ، المصدر نفسه ، ص ٢٢ · وكتب السير كريدي ، سكرتير وزارة الحربية الى اللورد هاردنج رسالة بتاريخ ١٨ آب ١٩٢٠ يقول فيها ان رئيس الوزراء اعرب في حديث له مع رئيس الاركان العامة عن معارضته الشديدة لاي اجراء اخر في شرقي الاردن يمكن ان يؤدي الى زيادة الالتزامات العسكرية التي تتطلب قوات بريطانية · المصدر نفسه ، ص ٢٢ ·

ذوي الكفاءة الى اماكن مثل السلط والكرك ، شريطة ان لا تكون هناك ضرورة لوجود حراسة عسكرية لضمان سلامتهم (···) ويجب ان تقتصر واجبات هؤلاء الضباط على تشجيع الحكم الذاتي المحلي واعطاء المشورة التي يطلبها الاهلون ، وعليهم ان يساعدوا في تشكيل هيئات البلديات الادارية في المناطق » وقال ان « مثل هذه الخطوات هي المدخل لاقناع الاهالي بفوائد الارتباط بالحكم البريطاني من خلال ادارة فلسطين » (٦) ·

كان هذا الحل ، اي تشجيع قيام حكومات محلية بمعونة المستشارين البريطانيين ، من شأنه ان يضمن صيغة مؤقتة للاستقرار في شرقي الاردن ، يمكن الكولونيالية البريطانية من الوفاء بما امكن من التزاماتها تجاه الفرنسيين، ويبقي الوضع على حاله ، مما يطمئن الزعامات المحلية على وضعها ، ويكفل مساهمتها في حفظ الامن الداخلي ، ويحول دون تنامي العداء ضد بريطانيا · وفي نهاية الامر يوفر فسحة كبيرة من الزمن لتقرير سياستها تجاه المنطقة، دون ان تضطر الى تكبد نفقات وخسائر مادية وعسكرية كبيرة ·

والواقع ان وزارة الخارجية البريطانية ، ابقت الباب مفتوحا امام سائر الاحتمالات ونبذت كل ما من شأنه ان يلزمها بتحمل تبعات قرار متسرع يصعب الرجوع عنه·فهي اذ نبذت اقتراحات هربرت صموئيل الرامية لضم شرقي الاردن الى فلسطين ، اخذت بعين الاعتبار امكانية ان يكون شرقي الاردن مجالا لتسوية التزامات بريطانياتجاه الاسرة الهاشمية · ولذلك نرى اللورد كرزون يسال صموئيل عن الامير زيد وامكانية قبوله بحكم منطقة شرقي الاردن · (٧)

ومن جهة اخرى كانتبريطانية منهمكة في تثبيت اوضاعها في فلسطين والعراق · ولم تكن وزارة الحربية البريطانية مستعدة لزج قواتها في شرقي الاردن · ولذلك رفضت اي اقتراح يمكن ان يحملها على الاضطرار لمثل هذا العمل (٨) فضلا عن ان الضم او الاحتلال يؤججان نيران المقاومة في البلاد ويوجهانها ضد بريطانيا ·

كان قد بقي في شرقي الاردن عدد من الضباط السياسيين البريطانيين اثر خروج الانجليز من المنطقة ، وقد خرج هؤلاء من عزلتهم بعد معركة ميسلون ،

---

(٦) المصدر نفسه ص ٢٢ ·

(٧) سأل اللورد كرزون في برقيته : « اين الامير زيد الان ؟ هل هناك اي احتمال ان يقبل اميرا على المنطقة الواقعة بين فلسطين والحجاز الى الجنوب من خط سايكس بيكو ؟ اذا كان كذلك ، فيكون من المرغوب فيهان نبحث معه مسألة الحدود وغيرها من المسائل » راجع موسى ، المصدر السابق ، ص ١٧ ·

(٨) راجع : دياب ، هنري ، تأسيس شرق الاردن في العام ١٩٢١ » ، شؤون فلسطينية ، العدد ٥٠ / ٥١ تشرين الاول / تشرين الثاني ١٩٧٥ ، ص ٢٧١

واخذوا يحرضون السكان على طلب المساعدة البريطانية ويقنعونهم بمزايا التعاون مع بريطانيا (٩) · وبناء على توجيهات وزير المستعمرات البريطاني ضاعف هربرت صموئيل من اتصاله مع شيوخ وزعماء شرقي الاردن ، عن طريق المعتمدين او الضباط السياسيين· وكتب صموئيل الى فيصل في ١٦ آب ١٩٢٠ ، اي بعد خروجه من سورية ان زعماء وشيوخ شرقي الاردن قد زاروه ودعوه لاقامة ادارة بريطانية في شرقي الاردن (١٠) · ثم قام صموئيل في ٢١ آب بزيارة الى السلط حيث اجتمع بعدد كبير من وجهاء وشيوخ مناطق الاردن من اجل توضيح سياسة حكومته تجاه البلاد ·

ولخص صموئيل هذه السياسة بالسعي لاقامة ادارة منفردة للمساعدة في حكم البلاد ، معتمدة على عدد قليل من المعتمدين السياسيين ورجال القضاء ، والمساعدة في تكوين قوات خاصة وتنظيم درك محلي ، والعمل على استتباب الظروف للترويج للتجارة وتقديم مساعدات لانشاء المدارس وشق الطرق وتقديم المعاونة الطبية واقامة الصلات التجارية الحرة مع فلسطين وتأسيس مصرف ، وتحسين المواصلات البريدية واقامة جهاز اداري ينتخب من قبل المواطنين · واكد على عدم رغبة حكومته في فرض خدمة عسكرية اجبارية او نزع السلاح من الاهلين ··· الخ (١١) ·

سمحت الدعوة المقدمة من هربرت صموئيل وسياسة تشجيع الحكومات المحلية في الحفاظ على الوضع القائم ، فهي قد مهدت لارساء اسس الاستقرار اكثر من قبل ، وجنبت البريطانيين التورط المباشر باحتلال اراضي شرقي الاردن ، المكلف جدا من الوجهة السياسية ومن الوجهتين المالية والعسكرية· واعطت بريطانيا فرصة ثمانية شهور ، من اجل تقرير سياستها على اسس اكثر ثباتا واستمرارية وباقل التكاليف ·

ومع ذلك فان سياسة بريطانيا تجاه شرقي الاردن كانت موضع شكوك الوجهاء المجتمعين مع هربرت صموئيل · يعكس ذلك بوضوح التساؤل الذي عبر عنه اديب الكايد امام المندوب السامي في فلسطين حين قال : « اننا لا نستطيع ان نفسر السبب الذي يدعو لمنح منطقة شرقي الاردن ، استقلالها الذاتي في الوقت الذي تحرم فيه من ذلك سورية وفلسطين ولبنان ، مع العلم ان سكانها

---

(٩) سعيد ، امين ، « الدولة العربية المتحدة » (القاهرة ، ١٩٣٦) الجزء الاول ، ص ٤٤٤ / ٤٤٥

(١٠) موسى ، سليمان : تأسيس الامارة الاردنية ، مصدر سابق ، ص ٢٧

(١١) الماضي و موسى ، منيب وسليمان · « تاريخ الاردن في القرن العشرين » (عمان ١٩٥٩) ، ص ١٠١ / ١٠٢

اكثر رقيا وتقدما من سكان شرقي الاردن » (١٢) ٠

٢ ـ الحكومات المحلية (آب ١٩٢٠/نيسان ١٩٢١)

عكست الحكومات المحلية الثلاث في كل من الكرك والسلط واربد،والحكومات والادارات المحلية الاخرى المنشقة عن الحكومات المحلية الرئيسية مستوى التطور الاقتصادي الاجتماعي لمناطق البلاد المختلفة ٠ فمن الصحيح ان هذه الحكومات قد قامت بمساعدة من الضباط السياسيين البريطانيين ، لكن اهمية وقيمة هذه الحكومات تكمن جوهريا في طبيعتها الاجتماعية ٠ فالواقع ان مساعدة هؤلاء المستشارين البريطانيين كانت الى حد كبير فنية وقانونية ، بعكس دور الكولونيالية البريطانية المتعاظم مع قيام الادارة المركزية في البلاد في عهد الامارة الهاشمية ٠ فلا يعنينا مثلا واقع ان هذه الحكومات لم تكن تتمتع باعتراف دولي، او كونها تتلقى مساعدة المستشارين البريطانيين ، بل كل ما يهمنا لدى دراسة هذه الحقبة هو دلالة نشوء هذه الحكومات من وجهة نظر التطور الاجتماعي الاقتصادي المحلي ، ومن وجهة نظر تبلور القوى الاجتماعية الحديثة ٠٠

وبالفعل يظهر تركيب هذه الحكومات المحلية ومواقفها ونهجها عددا من السمات البارزة الخاصة بالوضع الاقتصادي الاجتماعي لسكان الاردن آنذاك ٠ فالسمة الابرز ، هي تفاوت درجة التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي ، ومن ثم السياسي في مناطق البلاد تفاوتا واضحا ، الامر الذي يمكن ملاحظته من تركيب هذه الحكومات وسلوك ونهج وافق كل واحدة منها ٠ فتعددية هذه الحكومات تبرز واقع تفاوت التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي لمختلف المناطق ، الامر الذي يبرر تعددية البنى الفوقية ٠ اي وجود جملة من الحكومات وليس حكومة واحدة ٠ فلا يقتصر الامر على انقسام البلاد بين ثلاث حكومات محلية رئيسية ، بل يتعداه الى ان واقع انشقاق العديد من الحكومات والادارات المحلية الاخرى قد عكس الانقسام القبلي وشبه الاقطاعي لمناطق البلاد المختلفة ٠ مما تسبب في قيام حكومات متطابقة مع النفوذ القبلي ـ شبه الاقطاعي الواقعي القائم في كل منطقة ٠ ولذلك وصل عدد الحكومات والادارات المحلية الى ثمان وليس الى ثلاث ٠

ان من شان دراسة فترة الحكومات المحلية في شرقي الاردن ان تساعد على تفسير الوضع التاريخي الذي نشا بعد ذلك ،حيث لعبت الشروط والعوامل الخارجية دورا متعاظما ومقررا في مصير البلاد حتى الحقبة المعاصرة ، اي بكلمات اخرى ان من شان دراسة هذه الفترة ان تساعد على الاجابة على التساؤل التالي : لماذا نجحت كل من الكولونيالية البريطانية والاسرة الهاشمية

---

(١٢) المصدر السابق ، ص ١٢٦ ٠

ممثلة في الامير عبد الله في لعب الدور الرئيسي في نشوء الدولة وفي تقرير وظيفتها السياسية ، ولماذا اكتسبت هذا الدور المتعاظم الذي لعبته في التطور الاقتصادي الاجتماعي لشرقي الاردن ؟

١ ـ حكومة عجلون

لم يحضر شيوخ ووجهاء شمال البلاد الاجتماع الذي عقده المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل في السلط · وقد فسر امتناعهم عن الحضور بالخلافات والنزاعات العشائرية مع اهالي السلط (١٣) لكن تمت مباحثات لاحقة (في ٢ ايلول ١٩٢٠) بين زعامات منطقة الشمال وبين المعتمد البريطاني الميجور سمرست في قرية ام قيس · وانتهت بما عرف بمعاهدة ام قيس ، وهي عبارة عن مطالب اهالي الشمال واجابات الميجور سمرست عليها · وقد تلاها انشاء حكومة عجلون برئاسة على خلقي الشرايري في نفس الشهر ، بعد ان كانت حكومتا السلط والكرك قد تشكلتا في آب ١٩٢٠ ·

نصت مطالب اهالي الشمال الى السلطات البريطانية على قيام حكومة ذات مجلس عام يوحد البلاد ويسن القوانين ويدير الشؤون الداخلية وينظم الميزانية · وان تكون هذه الحكومة تحت قيادة امير عربي ، ومستقلة عن حكومة فلسطين · وان تتمتع بجيش وطني · وان يكون من حق الحكومة فقط تجريد السكان من السلاح · وان تمنح الاسلحة والعتاد اللازم · ونصت معاهدة ام قيس على المطالبة بحرية التجارة مع الحكومات المجاورة وبحق الحكومة بوارداتها من الجمارك واعفاء المجرمين السياسيين من الملاحقة · ومنع الهجرة اليهودية الى البلاد او بيع الاراضي لهم · وطالبت بانتداب بريطانيا على عموم سورية تأمينا لوحدتها ، بالاضافة الى بنود اخرى تتعلق بالحدود وشعار الدولة والتمثيل في الخارج ··· الخ

وافق الميجور سمرست على العديد من هذه المطالب ، فيما عدا بعض المسائل التي اعتبرها من شؤون عصبة الامم ، واهمها مسألة الانتداب البريطاني على عموم سورية · ورهن الاستجابة لعدد من المطالب الاخرى بموافقة حكومتي الكرك والسلط عليها ، وهي المطالب التي تدعو الى قيام حكومة موحدة لشرقي الاردن ، وان تكون ذات جيش وطني وامير عربي (١٤) ·

---

(١٣) راجع رسالة المندوب السامي البريطاني في فلسطين الى اللورد كرزون في ٢٢ آب ١٩٢٠ · موسى سليمان ، تاسيس الامارة الاردنية ص ٢٨/٢٩ ·

(١٤) راجع الماضي ، وموسى ،« تاريخ الاردن في القرن العشرين » ص ١٠٦ / ١٠٩ · النص الكامل لمعاهدة ام قيس ·

ان دراسة معاهدة ام قيس في اطار تلك المرحلة تظهر بوضوح ان نضجها وتطور مطالبها ذات المضمون البرجوازي الديمقراطي ، يعود بالاساس الى ان القائمين على صياغتها هم من بقايا العهد الفيصلي ومن المرتبطين بالحركة الوطنية السورية .مما اعطى الوثيقة طابع الاستنارة الوطنية ولا سيما تلك المطالب الخاصة بالحكومة الموحدة ومهماتها وبالجيش . وهي من جهة ثانية تعكس التطلع لربط البلاد بمجملها بالوطن السوري الام ، كما دفعها الى طرح الشعار التكتيكي الساذج وهو المطالبة بالانتداب البريطاني على عموم سورية، ظنا منها ان مثل هذا الشعار قادر على جذب واغراء السلطات البريطانية . اما المطلب الخاص بامير عربي ، فهو يشير بوضوح الى استمرار ارتباط واضعي المعاهدة بالاسرة الهاشمية واستمرار الرهان على زعامتها للحركة القومية في سورية . وان كان يشير ايضا الى رغبتها في وجود زعيم قادر على البقاء فوق التناقضات المحلية ـ القبلية وشبه الاقطاعية .

وتظهر معاهدة ام قيس وعيا مبكرا للخطر الصهيوني ، هجرة واستيطانا ، وحرصا على حماية الوطنيين السوريين والعراقيين والفلسطينيين الملاحقين من السلطات الكولونيالية . وتبدى الحرص نفسه على الحيلولة دون تجريد السلطات البريطانية ، السكان من السلاح وتجعل هذا الحق للحكومة الوطنية فقط .

ويلفت الانتباه في هذه المعاهدة انها مثلما تعكس الى حد معين مستوى النضج الاجتماعي والسياسي المتقدم في شمال البلاد ، الا انها بالمقابل تعكس تنافرا واضحا مع القوى السائدة والنافذة في الريف الشمالي وفي جبال عجلون،التي لم تلبث ان انشقت عن الحكومة المركزية لشمال البلاد (حكومة علي خلقي في اربد) واسست بضع حكومات محلية منفصلة . فمن الواضح ان معاهدة ام قيس كانت تعكس الى حد كبير مطالب القوى الاجتماعية الجديدة ، ولا سيما في المدن ممثلة بالمثقفين اساسا ، الذين ارتبطوا بالحركة الوطنية السورية وبحكومة فيصل . فالمطالبة بحكومة موحدة وبالارتباط بسورية، وبجيش وطني وجملة المطالب البرجوازية الوطنية الاخرى لم تبرز لدى القوى الاجتماعية في الوسط والجنوب بالوضوح الذي عكسته معاهدة ام قيس . يفسر هذا بتطور الشمال عن باقي البلاد من حيث نضج العلاقات البضاعية والارتباط المباشر بسورية ثقافيا وسياسيا واقتصاديا . لكن انشقاق الشيوخ الاقطاعيين ـ القبليين عن حكومة اربديلقى ظلالا قوية حول قابلية خضوع ، لامناطق الاردن الوسطى والجنوبية فحسب ، بل واجزاءمن شمال البلاد لحكومة موحدة ، تقوم على اساس وحدة السيادة الاقليمية .

تولى علي خلقي الشرايري حكومة قضاء عجلون ، والف شيوخ من القضاء

المجلس الاداري التشريعي الذي كانت مهمته مساعدة الحكومة في اعمالــــها (١٥) ، وكان المجلس منذ ٧ ايلول ١٩٢٠ برئاسة علي خلقي ٠ وقد تضمن الجهاز الوظيفي لهذه الحكومة قائدا للدرك ورئيسا للمحكمة ورئيسا للبلدية وممثلين للادعاء العام ومدراء للمال والمخابرات والمدارس ومفتيــا وعــددا آخر من الموظفين (١٦) ٠ وفي اواخر عـــام ١٩٢٠ اجريت انتخابات عامــة لاختيار اعضاء منتخبين في المجلس التشريعي ، فتالف من ١٦ عضوا عن نواحي الوسطية وبني جهمة والفارات والســـرو وبني عبيد والكورة ، لكن لــم تجر انتخابات في ناحية الكورة بسبب انشقاقها مـــع جزء من ناحية بني عبيــــد عن الحكومة المركزية في اربد ٠ فعين ممثلوها الثلاث تعيينا ٠ الا ان اثنيـــن منهم لم يحضرا اجتماعات المجلس التشريعي ٠ اما ناحية جبل عجلون فلــم تجر الانتخابات فيها ايضا بسبب انشقاقها عن حكومة اربد (١٧) ٠

رفضت حكومة علي خلقي في اربد العلم السوري ذا النجمة على مؤسساتهــا الرسمية ، واستخدمت الاوراق الرسمية الخاصة بهــــا ، واعتمدت القوانيــن العثمانية ٠

رفض زعماء الكورة بزعامة الشيخ كليب الشريدةتبعية ناحيته الــى حكومة اربد منذ البداية واستقلوا في حكومة خاصة بهم تشكلت في ١٥ ايلول ١٩٢٠ وعرفت باسم حكومة دير يوسف ٠ ولم يلبث ان انشق جزء من ناحية بني عبيــد وانضم الى حكومة دير يوسف ، فيما استمر الجزء من بني عبيد على تبعيتــــه لحكومة اربد وعهــــد بادارة الحكومة الى نجيب الشريدة وتالف الـــــــى جانبها مجلس اشتراعي ضم شيوخ وزعماء الناحية وكان على راسهــــــم كليب الشريدة (١٨) ٠

وتميزت حكومة دير يوسف بانتظام امورها ، فكانت ذات اوراق رسميـــــة خاصة ، ذات تحصيل ضريبي منتظم ، وكانت لها قوة صغيرة من الدرك تلبســـ البزات الرسمية (١٩) وكانت الحكومة قادرة على فرض الامن الداخــلي وعلى حماية ناحيتها من الغزو الخارجي ، وكان زعيم الناحية الشيخكليب الشريدة

(١٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ ٠ وقد تضمن هذا المجلس ٧ اعضاء ، كل منهـــم يمثل ناحية من نواحي قضاء عجلون ، فيما عدا الكورة التي انفصلت عن حكومة اربد منـــذ البدايــــة ٠

(١٦) المصدر نفسه ، هامش صفحة ١١٠ ٠

(١٧) المصدر نفسه ٠ ص ١١١

(١٨) المصدر نفسه ، صفحة ١١١ ٠

(١٩) خله ، كامل محمود ، « التطور السياسي للملكة الاردنية ٢١ / ١٩٤٨ » (رسالــــة ماجستير مقدمة لجامعة القاهرة ١٩٦٩/٦٨ ، ص ٤٥/٤٦) ٠

يقود الحملات الرادعة للغزو ولقمع المعتدين على ناحيته (٢٠) ٠

قامت في ناحية **جبل عجلون** حكومة اخـــرى منشقة على حكومة اربد بزعامة الشيخ راشد الخزاعي زعيم عشيرة القريحات ٠ وشكل تحت رئاسته « مجلـــس العشرة » الذي ضم زعماء وشيوخ جبل عجلون من اجل تصديق الميزانية وادارة الناحية ٠ وعهد في ١٣ ايلول ١٩٢٠ بادارة حكومته الى علي نيازي التل ٠ وكان لهذه الحكومة قوة خاصة من الدرك (٢١) ٠

وتبعت ناحية **الوسطية** اسميا لحكومة اربد ، لكن زعيم هذه الناحية الشيخ ناجي العزام كان مديرها الفعلي (٢٢) وفي ناحية الرمثا التي كانت موضع نزاع بين الادارة الفرنسية في سورية والسلطات الكولونيالية البريطانيـــة ، تشكلت ادارة خاصة بزعامـــة فـــواز البركات ثم لـــم تلبث ان فصلت اثـــر مفاوضات فرنسية وبريطانية عن تبعيتها لحوران (٢٣) ٠

وكان قضاء **جرش** هو الاخر تابعا للواء حوران في عهد الحكومة الفيصلية ، وقد بقي مستقلا عن ادارة حكومة اربد ، فشكل زعماء القضاء من آل الكايد حكومة خاصة بهم تولى رئاستها احد موظفي العهد الفيصلي ، وارسلت السلطات البريطانية مفوضا عنها الى جرش للمساعدة في ادارة القضاء وليكـــــون صلة الوصل مع هذه السلطات (٢٤) ٠

ب ـ حكومة السلط

اما في البلقاء (السلط ، عمان ، مأدبا) فقد تألفت حكومة برئاسة المتصـــرف في العهد الفيصلي مظهر رسلان ٠ وكانت هيئة الحكومة تتألف مـــن مجلـــس للشورى الذي ينتخب اعضاؤه من ممثلي السلط (٨ اعضاء) وعمـــان (٣ اعضاء) ومادبا وقبيلة العدوان (عضو لكل منهما) (٢٥) وعلى الرغم من عدم

---

(٢٠) الماضي وموسى ، ص ١١٣

(٢١) الماضي وموسى مصدر سابق ، ص ١١٣

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ١١٣

(٢٣) خلة ، ص ٥١/٥٢ ٠ وقد بقيت ناحية الرمثا تابعة لحوران حتى ١٥ كانون الثاني ١٩٢١ ٠ الماضي وموسى ، ص ١١٤

(٢٤) الماضي وموسى ، ص ١١٣ ٠

(٢٥) ضمت حكومة السلط ممثلي الاسر المسلمة والمسيحية في السلط ، وهم من التجار واصحاب الاراضي ، وكان ممثلي عمان من ملاك الاراضي ولاسيمـــا مـــن الاقليـــة الشركسية ، اما العدوان فقد تمثلت بابن زعيم قبيلة العدوان وباحد ممثلي عشائر مادبا المسيحية ٠ انظر اعضاء المجلس لدى الماضي وموسى ، مصدر سابق ص ١١٥ ٠

وجود برنامج او اية وثيقة معلنة (كمعاهدة ام قيس) لحكومة السلط ، الا ان تركيبها وسياستها كانت تفصح عن ميولها المحلية شأنها في ذلك شان حكـــومة الكرك · فهاتين الحكومتين لم تستجيبا الى دعوة علي خلقي للانضمام الـــى معاهدة ام قيس ، (كانت هذه الدعوة التي وجهت في ٣ تشرين الاول ١٩٢٠) وخاصة فيما يتعلق بقبول امير عربي وانشاء جيش وطني ومجلس عام للبـــلاد (٢٦) · ويبدو ان ميول حكومة السلط المحلية قد استثمرت من قبل السلطـات الكولونيالية البريطانية التي كانت تحرض على عـدم الاستجابـة لمثـل هـــذا المطلب في الآونة الاولى (٢٧) · وفيما بعد اتخذ مظهر رسلان الحاكم الاداري العام للسلط موقفا غاية في السلبية من قدوم الامير عبد الله الى شرقي الاردن اذ كتب له « لقد بلغ الحكومة الوطنية (اي حكومة السلط) عزمكم على زيـارة شرقي الاردن ، فاذا كانت الزيارة لمجرد السياحة فان البلاد ستقابلكم بالترحيب، وان كانت لاغراض سياسية فالحكومة ستتخـــــذ كـــل الاساليـــب المانعـــة لزيارتكم » (٢٨) ·

وعلى الرغم من ان حكومة السلط لم تشهد ظاهرة الانشقاقات المألوفة فـــي البلاد ، الا انها لم تكن تملك سلطة فعلية على القبائل الكبيرة ولاسيما بنـــي صخر والعدوان (٢٩) ، غير ان تحرك الامير عبدالله الى معان وبدء اتصالاته ، خلقت من عمان مركزا مناوئا لحكومة السلط ، ولم يلبث الامير عبد اللـــه ان ارسل احد اعوانه الشريف علي الحارثي ، الذي شكل فيها ادارة منفصلة عـن السلط (٣٠) ·

تمتعت حكومة السلط بجّهاز اداري متطور ضم عددا من قادة الدرك فـــي النواحي والمدن ومحكمة للبداية ومحاسبين ، وكانت الحكومة تجمع الضرائب من اهالي القرى (٣١) ·

جـ ـ حكومة الكرك

تشكلت في ايلول ١٩٢٠ حكومة محلية في الكرك اطلقت على نفسها اســـم

---

(٢٦) موسى ، سليمان ، تأسيس الامارة الاردنية ، ص ٣٢ ، كذلك المصدر السابق ص ١١٤ ·

(٢٧) الزركلي ، مصدر سابق ، ص ٤١ ، ويقول عن مجلس السلط « لم يعرف له عمـل او رأي غير قرار ابرمه بتغيير لقب المتصرف وجعله الحاكم الاداري العام » · مشيرا الى سلطة المفوض البريطاني القوية على الحكومة ·

(٢٨) الماضي وموسى ، مصدر سابق ، ص ١٣٧ ·

(٢٩) المصدر نفسه ص ١١٧ ·

(٣٠) الزركلي ، مصدر سابق ، ص ٤١ ·

(٣١) الماضي والموسى ، مصدر سابق ، ص ١١٧ ، هامش ص ١١٧ ·

« الحكومة العربية المؤابية » ، برئاسة المتصرف رفيفان المجالي ، وتشكل « المجلس العالي » من اعضاء عن الكرك والطفيلة ، كانوا في الواقع يمثلون ابرز عشائر الكرك (الشراقا والغرابا والمسيحية) وعشائر الطفيلة (٣٢) ٠

قامت الحكومة بالغاء التشكيلات الادارية التي كانت قائمة في العهد الفيصلي واستغنت عن الموظفين السابقين واحلت محلهم موظفين محليين في اجهزتها العامة (٣٣) ، وهكذا عبرت عن طابعها المحلي الصرف وطابعها القبلي ـ العشيري الصارخ ٠ فقد تقاسمت الاجهزة العليا العشائر والاسر الكبيرة والمتنفذة ، وتقاسمت دوائرها الاخرى بقية العشائر والاسر ٠ وكانت الوظائف القضائية الفنية بايدي ممثلي الاسر والعشائر المسيحية التي كانت ذات حظ اكبر من التعليم (٣٤) ٠

استمرت الحكومة بعملها ، حتى قدوم الامير عبد الله الى معان في جنوب البلاد٠ وكانت حكومة الحجاز قد ضمت معان اليها وعينت عليها قائمقاما (٣٥)، كما انفصلت الطفيلة عن حكومة الكرك ، وقامت فيها حكومة خاصة بزعامة صالح العوران شيخ مشايخ قضاء الطفيلة ٠ وضمت حكومة الاخير قاضيا ومفتيا ومدراء للبريد والبرق ووزيرا للمالية ووزيرا للصحة العامة (٣٦) ٠ ورغم ان نفوذ الحكومة المؤابية قد انحصر بالكرك نفسها ، ورغم تطابق ادارة الحكومة مع الوزن القبلي السائد فانها لم تنجح في كبح جماح الغزو والقتال العشائري في نواحيها (٣٧) ٠ والواقع ان حكومة الكرك قد فشلت ايضا في جباية الضرائب وفي حل النزاعات الداخلية بين القبائل (٣٨) وكانت سلطات

---

(٣٢) بعد لقاء صموئيل بزعماء شرقي الاردن في السلط ، دعا صموئيل مشايخ عدوان ووجهاء الكرك الى زيارة القدس ، ثم اوفد الميجور كلنفيل الى الكرك ، حيث عمد الى دعوة شيوخ المدينة واختير منهم اعضاء المجلس العالي ٠ راجع القسوس ، عودة ، مذكرات مخطوطة ٠ نهاية القسم الخاص بالحكومة العربية ٠ راجع ايضا ٠ الماضي وموسى ، ص ١١٧ ٠

(٣٣) القسوس ، كذلك الماضي وموسى ص ١١٨ ٠

(٣٤) المصدر نفسه ٠ الماضي وموسى ص ١١٩ (انظر الهامش) ٠

(٣٥) خلة ، مصدر سابق ص ٤٥ ٠

(٣٦) Jravis , C. S. The Arab Command (London 1946) P. 66

(٣٧) يعزى الى ان نزاع بين عشيرة المعايطة وعشيرة الدينبات قد اودى بنفوذ وسمعة الحكومة (راجع القسوس ، كذلك الماضي وموسى) حيث لم تستطع الحكومة ان تفصل بينهما ولا ان تلاحق المعتدين ٠

(٣٨) راجع : Kirkride , A. : Cracle Of Thorns (London , 1956) P. 24

الانتداب في فلسطين تسدد عجز الميزانية ولاسيما رواتب الموظفين منها • وعمدت حكومه الكرك الى وضع لائحة قانونية متناسبة مع الوضع القبلي في البلاد بـدلا من القوانين السابقة (٣٩) •

٣ ـ تقييم فترة الحكومات المحلية

لم تعش الحكومات والادارات المحلية طويلا ، فمنذ آب ١٩٢٠ عندما قامت حكومة السلط ، وايلول ١٩٢٠ عندما قامت حكومتا اربد والكرك ، وحتى نيسان ١٩٢١ حين الف الامير عبد الله اول حكومة مركزية في البلاد • مرت الحكومات المحلية بعمر خاطف لم يتجاوز الثمانية شهور • وكشفت حياة الحكومات المحلية القصيرة والعاصفة عن الطابع التاريخي للبنى الاجتماعية ـ الاقتصادية في تلك الفترة ، واظهرت بالتالي الشكل المناسب للسلطات السياسية ، كما ظهرت في هذه الحكومات والادارات المحلية • ولذلك فان اهمية هذه الفترة من الناحيـة الزمنية لا تقارن بالدلالات العميقة التي كشفت عنها قيام اول حكومة مركزية في شرقي الاردن •

فمن وجهة نظر الشروط المحلية للبلاد يمكن استخلاص جملة من الملاحظات حول تجربة هذه الحكومات المحلية كمقياس لدرجة التطور الاقتصادي ـ الاجتماعـي في البلاد • لاسيما وان موقف البريطانيين في هذه الفترة المعبر عنه في سياسة « انتظر لنر » او « اللاموقف » قد اطلق الى حدود معينة فعـل القوانيـن الموضوعية الداخلية • واتسم سلوك السلطات البريطانية بحد ادنى من التدخل في شؤون الاردن •

اولا : ان ظهور الحكومات المحلية هو بمثابة اعلان عن نضج اجتماعـي ـ سياسي في مختلف مناطق البلاد • ففي سائر المناطق تقريبا جرى الافصاح عن الحاجة الى وجود سلطة او هيئة سياسية • اي بناء فوقي ملائم عكس نفسه في شكل الحكومات المحلية •

واذا كانت مختلف الحكومات المحلية متباينة في درجة تطورها كسلطـة او هيئة سياسية ، فان هذا قد عكس وجود تباين واضح وبين ، بين مستويـات تطور المناطق المختلفة ،اي ان كل حكومة او ادارة محلية كانت الشكل المتناسب مع درجة التطور الفعلي في منطقتها •

لكن بشكل عام ، حتى عند اكثر اشكال السلطة محدودية وتخلفا ، كانـت الحكومات المحلية تظهر بوضوح تفسـخ العـلاقات القبلية ـ العشائريـة

---

(٣٩) راجع القسوس ، كذلك الماضي وموسى ، ص ١٢٠ / ١٢٢ •

وانتقالها الى علاقات شبه اقطاعية ٠

نجد لدى الحكومات المحلية الاقرب الى السلطة الاجتماعية القبلية ، انها كانت سلطة عامة منفصلة عن « شعبها » ، أي قبيلتها ، فضلا عن القبائل الاخرى في منطقتها ٠ فهي مستندة الى الارستوقراطية القبلية ــ شبه الاقطاعية ، اي انها باتت اقرب في تطورها نحو « الدولة » بالمعنى المحدد للكلمة ٠ لكن نموذجها كان اقرب الى الاقطاعية المتحدرة عن الزعامة القبلية ٠

نلاحظ ان الحاجة الى سلطة عامة ، منفصلة ، لم يكن فقط لدى حكومة اربد والسلط ، اللتين جسدتا اكثر من اية حكومة اخرى مبدأ انصراف فئة مكرسة للحكم والادارة والسياسة ، حيث يقوم بهذه المهام موظفون متفرغون ، وانما نجد ان هذا الشرط يتحقق بشكل او بآخر لدى حكومات اصغر واقل شأنا ٠ فلدى حكومة دير يوسف في منطقة الكورة وحكومة ناحية عجلون وحكومة جرش ، وحتى لدى حكومة الطفيلة رغم استنادها الى ارستقراطية قبلية واسر اقطاعية وشبه اقطاعية ، فقد تولى مهمات الادارة وخلافها من اعمال السلطات العامة موظفون او فئة خاصة منفصلة الى حد كبير عن هذه الاسر المتنفذة والمهيمنة ٠هكذا نجد لدى غالبية هذه الحكومات الخاصة جهازا اداريا وعسكريا وقضائيا وقوة قمع نظامية ٠

تعكس الحكومات المحلية بهذا المعنى بروز التمايز الطبقي ، وارتفاع درجة تقسيم العمل الاجتماعي وتبلور ظروف داخلية لنشوء السلطة على اساس المبدأ الاقليمي لخضوع السكان للسلطة ٠ هذه العلامة المميزة للسلطة الحديثة عن السلطة الاجتماعية التي ترتبط بالسكان علىاساس القرابة بالدم او الروابط العشيرية والقبلية ٠

لكن لم تكن كافة الحكومات المحلية تتمتع فعليا بحق السيادة الاقليمية في المناطق التي قامت عليها ٠ كحكومة اربد التي يفترض ان تتمتع بسيادة اقليمية على كافة مناطق الشمال ، وفقا للحدود التي رسمتها المطالب المقدمة الى الميجور سمرست في معاهدة ام قيس ٠ والسبب يكمن في عدم تطابق حقوقها المعلنة مع نفوذها الواقعي ٠ ولذلك فقد اتخذ حق السيادة الاقليمية ، او خضوع السكان للسلطة على اساس المبدأ الاقليمي الى شكله الضروري ، اي قامت في كل منطقة من مناطق الشمال حكومة تمارس حقوق سيادتها الاقليمية في مناطقها ٠

ثانيا : تظهر هذه الفترة واقع انقسام البلاد والسكان الى مناطق ذات وحدات اجتماعية ــ اقتصادية ٠ اي الى مجموعة من « المجتمعات » ، وواقع ان السكان لا يشكلون مجتمعا موحدا ٠ فاذا اخذنا بعين الاعتبار تفاوت مستوى التطور

الاقتصادي ـ الاجتماعي لمختلف المناطق وتعدد الانماط السائدة ، نجد ان البلاد لم تدخل مرحلة تشكل الطبقات على المستوى الاقليمي · فضلا عن ان الروابط القبلية والعشيرية ، كانت تتقاطع مع عملية تشكل الطبقات والفئات الاجتماعية في كل منطقة وتعرقل اكتمالها ونضجها · كما ان القمم القبلية المتحولة نحو الاقطاعية عززت الميول المحلية والانعزال عن بقية المناطق ولم تحمل طبيعة الانتاج الاجتماعية في كل منطقة شروط استكمال وحدة البلاد والسكان تحت لواء حكومة واحدة · فالقمم القبلية الاقطاعية وشبه الاقطاعية كانت اميل الى الانكفاء فيما كان الاقتصاد البضاعي محدود التأثير وهامشيا الى حد كبير ، ولاسيما بين المناطق الداخلية في الاردن · ولم ينشأ بعد سوق محلي ، وانما مجرد اسواق محلية وثغور للمبادلة ·

وكان هذا الوضع التاريخي هو اساس انشقاق مختلف القمم الاقطاعية والقبلية ـ شبه الاقطاعية عن الحكومات الرئيسية ، ولاسيما في شمال البلاد ، وتشكيلها حكومات خاصة · ولهذا رفضت حكومتا السلط والكرك الاستجابة لدعوة حكومة اربد للعمل على تشكيل حكومة وطنية موحدة وجيش واحد تحت زعامة امير عربي · ومع اننا نعتقد ان السلطات الكولونيالية كانت تعارض وتحرض الحكومتين على رفض هذه الدعوة ، بل ربما حرضت على عدد من الانشقاقات عن حكومة اربد · الا ان الطبيعة الاجتماعية لهذه الحكومات المختلفة تظهر اسباب نجاح هذا التحريض · وتفسر الميول المحلية الضيقة لهذه الحكومات ·

لم تكن البلاد تعيش حالة انقسام فحسب ، بل كانت تعيش حالة تنافر وتناحر · فمع تنامي التمايزات الاجتماعية الداخلية في كل منطقة ، بقي الوجه الابرز للعلاقات التناحرية في العلاقات ما بين سكان المناطق المختلفة · التي تنظمها روابط عشيرية وتحالفات عشيرية وقبلية ، وفي المناطق المتطورة كالشمال ، كانت المنافسات والصراعات بين القمم القبلية ـ الاقطاعية ، تؤخر جميع السكان واساسا فلاحي كل منطقة ضد المنطقة الاخرى · ولم تكن النزاعات في شمال البلاد بسبب الغزو البدوي فقط ، بل بسبب الحروب بين القمم الاقطاعية ، وبين القرى المستقرة ·

يفسر هذا الوضع جملة من الاحداث ، اولها ، كيف ان هذا الوضع التاريخي الانتقالي لم يبرز زعامة ترتفع الى مستوى الزعامة الوطنية ، ولماذا بقيت الزعامات المحلية ، محصورة في اطار نفوذها التقليدي · ويفسر هذا الوضع التاريخي ، ثانيا ، كيف ان الاستقطاب القائم بين سائر القوى المحلية قد مكن زعامة وافدة من ان تلعب دورا مقررا في مستقبل البلاد ، وكيف ان هذه الزعامة الوافدة ، في شخص الشريف عبد الله ، قد استفادت بالذات من وضع

الاستقطاب والتوازن العام بين مختلف الكتل الاجتماعية والجماعات والفئات الاجتماعية ، فاتخذت موقف قوة فوق « المجتمع » ، قوة فوق الصراعات المحلية (القبلية والاقطاعية) ٠

٤ ـ انهيار الحكومات المحلية ، والتسوية البريطانية ـ الهاشمية

لم يكن تشجيع قيام حكومات محلية في شرقي الاردن سياسة نهائية بالنسبة للكولونيالية البريطانية ، بقدر ما كان قرارا مؤقتا يستهدف الحفاظ على ما امكن على الوضع القائم ، حتى يمكن البت نهائيا بمصير البلد وشكل السيطرة البريطانية فيه ٠ وقد لعبت جملة من الاعتبارات السياسية والعسكرية والمالية دورما في تجنب تثبيت سياسة محددة تجاه هذا الجزء من المنطقة ٠ فالقرار الخاص بشرقي الاردن لم تحدده الاعتبارات الخاصة بشرقي الاردن بقدر ما كانت تحدده المتطلبات والمصالح الاستراتيجية البريطانية في المنطقة ولا سيما في فلسطين ٠ ولقد كان مؤتمر الشرق الاوسط في القاهرة (اذار ١٩٢١) هو المكان الذي اتخذت فيه السياسات الاكثر ثباتا تجاه المنطقة ومنها شرقي الاردن٠

غير ان سياسة اللاقرار بالنسبة لشرقي الاردن كانت تجابه بتحديات جدية وجديدة قبل ان ينعقد المؤتمر المذكور ٠ فالحكومات المحلية ، فضلا عن تضعضعها لاسباب داخلية ، كانت تتعرض للانهيار تحت تأثير عوامل غير محلية ٠ فلقد ازدادت اعداد الوطنيين السوريين المناهضين للاحتلال في البلاد ، التي باتت اراضيها قواعد اسناد وتنظيم للعمليات المعادية للفرنسيين (٤٠) ٠ ولم يجد هؤلاء الوطنيون دعما وحماية لهم من السكان فقط وانما من بعض الحكومات المحلية ولا سيما حكومة اربد ٠ وهكذا لم تعد الحكومات المحلية وسيلة البريطانيين المفضلة من اجل الحفاظ على الامن والاستقرار في شرقي الاردن ٠ فالدماء الجديدة التي اخذت تنبض في شرقي الاردن باتت تشكل خطرا على مشاريع البريطانيين وخططهم بالنسبة للبلاد ، فضلا عن احراجها للالتزامات البريطانية تجاه امن الانتداب الفرنسي في سورية (٤١) ٠

ومن جهة ثانية ، كان ثمة عامل خارجي جديد هو قدوم عبدالله من الحجاز نحو معان في جنوب الاردن ، الامر الذي لم يلبث ان قوض التفاف السكان حول حكومة الكرك ، ومكانة هذه الحكومة نفسها ٠ ولم يلبث ايضا ان ضعضع نفوذ حكومة السلط ، وانهى سيطرة الاخيرة على عمان ، وزاد من استقلالية

---

(٤٠) راجع موسى ، سليمان ، تأسيس الامارة الاردنية ٠ مصدر سابق ، ص ٤٦ ٠

(٤١) راجع دياب ، هنري ، المصدر سابق ، ص ٢٧٧ ٠

القبائـل النافذة عـن هذه الحكومة (٤٢) ٠

واذا كان البريطانيون لم يروا في شخص عبدالله تجسيدا معاديا لسياستهـم في البلاد ، فان المشكلة قـد نشأت من واقع ان زحف عبدالله نحو معـان ثـم فيما بعـد الى عـمان لم يمكن تبريره ممكنا امام السكان بدون تغطية مناسبة٠ وكانت هذه التغطية من وجهة نظر البريطانيين مزعجة وغـير ملائمة لالتزاماتهم نحو الفرنسيين ٠ فقد تقدم عبدالله تحت شعـار تحرير سورية ودعـى الـى استنهاض الهمم من اجل هذه المهمة ٠ فبغض النظـر عـن مدى جديـة هـذه الدعـوة ، فانها تضمنت دفعـة اقوى للنشاط المعـادي للفرنسيين في البـلاد وزادت من التفاف السكان من حـول الوطنيين السوريين العاملين في شرقـي الاردن (٤٣) ٠ وكان من شأن هذه الخـطوة الدراماتيكية من عبدالله ان حسنت مواقعـه في المساومة مع البريطانيين ، الذين كانوا يتفاوضون مع فيصل على عرش العـراق ، وكانوا حريصين على الوصول الى تسوية مـع حلفائهم الهاشميين في المنطقة ٠ كما ساعـدت حركته هـذه عـلى استقطاب الوطنييـن السوريين من حولـه وعلى تغيير نظرة السكان نحـوه ، فهـو يتقدم تحـت شعـار المحرر ، وليس الغـازي ! (٤٤) ٠

كان تقدم عبدالله نحو معـان في ١١ تشرين الثاني ١٩٢٠ في فترة تاريخية دقيقة بالنسبة الى الكولونيالية البريطانية ، فمع استنزاف سياسة اللاقـرار نفسها ، ومع اتجاهها الى اعـطاء نتائج معاكسة ، حيث ازداد النشاط الوطنـي المعـادي للفرنسيين في سورية ومع ازدياد تآكل الحكومات المحلية ، وتزايـد شكوى الضباط السياسيين من عـدم قدرتهم عـلى ضبط الاوضاع ، اعطـت حركة عبدالله هذه دفعـة كبيرة لحركة انهيـار النفوذ المعـنوي للبريطانيـين

---

(٤٢) راجع ، موسى ، سليمان ، المصدر السابق ص ٥٠ ، تقرير الميجور كامب الضابط البريطاني في السلط (١ تشرين الثاني ١٩٢٠) ، راجع في نفس المصدر تقرير هربـرت صموئيل الى اللـورد كرزون حول لقائه مع عوني عبدالهادي ، وعـن المصاعـب التـي سببها زحف عبدالله نحو شرقي الاردن ، ص ٧٨/٨٩ ٠

(٤٣) ادت حركة عبدالله هذه الى تحرك العناصر الوطنية السورية المطاردة من الفرنسيين علنا في شرقي الاردن ، وقيامهـم بنشاط سياسي واسع ٠

(٤٤) في بيان عبدالله (٦ كانون اول ١٩٢٠) المعنون « الى كافة اخواننا السوريين » شرح اسباب قدومه ، داعيا الى الثـورة عـلى الفرنسيين ٠ وقال : « كيف ترضون بان تكون العاصمة الاموية مستعمرة فرنسية ، فان رضيتم بذلك فالجـزيرة لا ترضـى وستاتيكم غضبى »٠ المهم انه وعـد في نهاية منشوره بالعوده الى الجزيرة بعد تحريـر سورية « يوم نزوح عدوكم عـن بلادكم وعـلى هذا اليمين بالشرف » راجع مذكـرات الملك عبدالله ، (عمان ، ١٩٦٥) ص ١٥٥ ٠

ولسياسة السيطرة غير المباشرة (٤٥) ٠

وخارجيا كان البريطانيون منهمكين في تامين سيطرتهم في وجه المعارضة الوطنية في العراق وفلسطين ٠كما حاءت فرنسا تضغط عليهم من اجل اتخاذ سياسة حازمة في شرقي الاردن ٠ وكنات خطوة عبدالله هذه تعني بالنسبة للسياسة الكولونيالية البريطانية ضرورة اخذ وجود عبدالله في الاردن بالاعتبار، بعد المركز المعنوي الذي بدأ يحتله في ترتيباتهم تجاه المنطقة وفي اثناء تسوية الالتزامات البريطانية تجاه الهاشميين ٠

وفي معان ، المنطقة التي جرى ضمها في وقت سابق الى الحجاز ، بقي الامير عبد الله فترة كافية من الزمن ، تمكن خلالها ، تحت شعار تحرير سورية منجس نبض مختلف القوىالاجتماعية والقبلية ومن نسج تحالفاته الاولية (٤٦)، وتمكن ايضا من تنظيم ضغوط غير مباشرة على البريطانيين ، من خلال اضعاف الحكومات العربية ونفوذها ، ومن خلال تنظيم مظاهر التأييد له ، ولا سيما من بعض القبائل والتجار وبعض ملاكي الاراضي ٠ ومن خلال رسله ورجاله الذين كانوا يؤججون مخاوف البريطانيين بشعاراتهم الديماغوجية (٤٧) ، وانضمت في هذه الاثناء عمان الى مناطق الشمال كقاعدة مناهضة للفرنسيين، وظهر فقدان النفوذ البريطاني اكثر فأكثر ٠٠ ثم تقدم عبدالله في مطلع اذار ١٩٢١ الى عمان ، وكان على مؤتمر الشرق الاوسط في القاهرة ان يأخذ هذه الحقيقة بالاعتبار ٠

على الرغم من ان مؤتمر الشرق الاوسط كان حافلا بالمناقشات المستفيضة لجملة من البدائل السياسية الخاصة بالوضع في شرقي الاردن ومن بينها فكرة الاحتلال العسكري والمواجهة ٠ الا انه كان من الملاحظ ان فكرة التعاون مع عبدالله والاعتماد عليه في حكم شرقي الاردن كانت تراود العديد من رجال وزارة المستعمرات ، حتى بين اكثرهم عداء لعبدالله (٤٨) فقد كان واضحا امام المؤتمر ان سائر تحركات عبدالله قد اظهرت بكل جلاء انها لا تكن اي عداء للسياسة البريطانية ومصالحها ، بل على العكس تكن الود والصداقة تجاهها ٠

---

(٤٥) موسى ، سليمان ، مصدر سابق ص ٥٠ ، ٦١ ، ٧٩ ٠

(٤٦) ارسل عبدالله الشريف علي الحارثي الى عمان وهناك استقطب زعماء البلدة والقبائل ولا سيما بني صخر وكان قبل ذلك قد استقبل من زعماء عشائر الكرك والجنوب ٠ كما كتب الى شيوخ وزعماء المناطق المختلفة داعيا اياهم لمقابلته ٠

(٤٧) كان رسل عبدالله يدعون الاستعداد لاستئناف الزحف الى الشمال ، اي سورية، كما زعموا انهم ينسقون مع مصطفى كمال في تركيا في العمل ضد الفرنسيين ٠راجع موسى ، سليمان ، المصدر نفسه ص ٦١ ٠ كذلك راجع موسى والماضي في تاريخ الاردن في القرن العشرين ، مصدر سابق ص ١٣٩ ٠

(٤٨) راجع دياب ، هنري ، مصدر سابق ص ٢٨٢ ٠

وكان مفهوما ان سائر خطوات عبدالله تستهدف تحسين مواقعه كمرشح قوي للمفاوضة معه على حكم شرقي الاردن · وتستهدف دفع الانجليز للالتقاء به في منتصف الطريق (٤٩) ، ولذلك فقد توصل تشرشل وزير المستعمرات الى اقتراح صيغة للاتفاق مع عبدالله شبيهة بالاتفاق مع فيصل بشأن العراق · وكان تشرشل يرى صلة متبادلة وتأثيرا متبادلا للتسوية مع الهاشميين في البلدين · واشار الى ان المساومة البريطانية الهاشمية بصدد العراق تقدم نموذجا للحلول المنشودة بالنسبة لشرقي الاردن · وقال « وفي الحقيقة لم نجد بديلا لتلك السياسة » (٥٠) ·

والواقع انه قبيل انعقاد المؤتمر كانت دائرة الشرق الاوسط في وزارة المستعمرات قد اعدت مذكرة تتضمن اشارة واضحة الى ان شرقي الاردن هو موضع النظر في التسوية البريطانية مع الهاشميين (٥١) ولقد دخلت مسألة التعاون مع عبدالله لانشاء ادارة في البلاد ، كأحد العناوين الرئيسية في مؤتمر الشرق الاوسط · اما الكيفية التي بحثت فيها مسألة الادارة والتعاون مع عبدالله فقد نظر اليها من زاوية الامن الامبريالي الذي كان مرغوبا فيه لتعزيز الاقتسام البريطاني الفرنسي للمنطقة من جهة ولتأمين عملية الاستيطان في فلسطين من جهة ثانية ·

وكانت هاتان النقطتان من الامور التي يجب ان لا تغيب عن بال رجال وزارة المستعمرات كما قال المندوب السامي في فلسطين · لقد عبر هربرت صموئيل عن ذلك بوضوح وقوة ، فاشار الى ضرورة الحيلولة دون انطلاق حملة عسكرية ضد الفرنسيين من اراضي شرقي الاردن التي هي مركز هذا الهياج والتحريض · كما اشار الى دور شرقي الاردن في « الجدل » المنتظر بصدد الصهيونية في فلسطين والمحتمل استمراره لسنوات · ثم قال « ان قيام ادارة سيئة في شرقي الاردن سوف يترك تأثيرا مباشرا على فلسطين لان تلك الادارة

---

(٤٩) المصدر نفسه ص ٢٨٠/٢٨١ ·

(٥٠) موسى ، سليمان ، المصدر نفسه ص ٩٦ ·

(٥١) تقول مذكرة دائرة الشرق الاوسط ما يلي :

« بما ان نهر الاردن كان يمثل الحدود الغربية لولاية دمشق قبل الحرب ، فان فلسطين وشرقي الاردن ليسا في وضع متماثل ·· » ولما كانت فلسطين موضع عناية بريطانيا لاقامة وطن قومي لليهود فقد كانت شرقي الاردن هي موضع النظر في التسوية البريطانية ــ الهاشمية · لذا تقول المذكرة : « ·· واذا كان هناك قصد للوفاء بالوعود البريطانية ، فان هذا النظام (اي في شرقي الاردن) يجب ان يكون ذا صبغة عربية ، ونعتقد ان من الافضل تركيز ذلك النظام تحت رئاسة حاكم عربي مقبول من لدن الحكومة البريطانية، شريطة ان يعمل في المسائل المهمة بموجب مشورتها ··· » ، راجع المصدر السابق ، ص ٩٥ ·

لن تكون ضمانة ضد حدوث غارات من وراء نهر الاردن (٥٢) ·

ان البحث عن كيفية تلبية المتطلبات التي تمليها المصالح البريطانية الحيوية قد قادت الى اقرار الاتفاق مع عبدالله · ولخص لورنس الموقف القائم انذاك واساس هذا الاتفاق على النحو التالي : «**في الوقت الحاضر لا يملك الشريف عبدالله ولا نملك نحن القوة الكافية للاحتفاظ بشرقي الاردن دون مساعدة الطرف الاخر** » (٥٣) ، وهكذا كان لا بد من قيام تعاون يؤمن للطرفين القوة الكافية لتأمين سيطرتهما معا على البلاد · فمع اقرار سياسة التعاون مع الشريف عبدالله لاقامة حكومة مركزية في شرقي الاردن ، عمل المؤتمر على وضع تدابير وخطط لتأمين سيطرة عسكرية قوامها قوة بريطانية «لمساعدة القوات المحلية في حفظ الامن الداخلي ولاخماد اية حركات معادية للحكومة »، واعداد مطارات تسهل مساندة الطيران لمهمات القوات الارضية ، وتشكيل قوات محلية لحفظ الامن الداخلي (٥٤ ـ أ) ·

لقد ادرك الكولونياليون البريطانيون ، انه حتى مع ضمان التزام عبدالله بالاتفاق معهم ، الا انه كان واقعا تحت ضغط التزاماته المعلنة وتحالفاته مع الوطنيين السوريين · ولذلك كتب تشرشل الى رئيس الوزراء البريطاني يلخص نتائج مؤتمر الشرق الاوسط : « ··· ان عبدالله مهما كانت نياته طيبة لا يستطيع ان يكبح جماح قومه عن العمل لازعاج الفرنسيين ، بل ومحاربتهم ، الا اذا وضعنا هناك قوة عسكرية بريطانية تكون من القوة بحيث تكبح جماحه هو وتعاضده في الوقت نفسه » وتابع « انك تستطيع ان تلاحظ ان هذا الاتجاه السياسي هو جزء لا يتجزأ من سياستنا العامة التي تقوم على الصداقة والتعاون مع الاشراف (الهاشميين) ، وسوف تلاحظ ايضا كيف تتوافق هذه السياسة مع الخطة التي نحاول السير عليها في العراق ·· » (٥٤ ـ ب) ·

بين ٢٨ و ٣٠ اذار ١٩٢١ تم اجتماع تشرشل بعبد الله في القدس وهناك تم وضع الاتفاق التفصيلي مع عبد الله وتحددت مهمات السلطة وطبيعتها · وفي الجلسة الختامية لاجتماعه مع عبد الله ، لخص تشرشل مقترحاته بالطلب من عبد الله البقاء في البلاد لمدة ستة اشهر لاقامة حكم محلي « **يعاونه خلالها ضابط سياسي بريطاني يعمل بصفة رئيس مستشارين له ، ويساعده في توطيد الامن والنظام ··· وينظم ايرادات البلاد على اسس راسخة » كما يقدم لعبد الله قدرا**

---

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ٩٦ ·

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٩٨ ·

(٥٤ أ) المصدر نفسه ، ص ٩٨ ·

(٥٤ ب) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ ·

من التعضيد بالمال والقوى العسكرية في حدود الحاجات الضرورية (٥٥) ومقابل ذلك فانه « سوف يطلب من الامير ان يضمن عدم قيام هياج ضد الفرنسيين وضد الصهيونية في البلاد ، وان يتعاون تعاونا كاملا في توطيد اسباب الهدوء والامن والاستقرار تحت الانتداب البريطاني ، وسيطلب منه ايضا ان يمنح كل مساعدة من اجل شق الطريق الصحراوية شرقا الى العراق ، تلك الطريق التي ستكون ذات فائدة للبريطانيين والعرب على السواء ...» (٥٦) .

اما الامير فقد اجاب بالقبول ، وانه « لا يشترط سوى ان تتوفر عناصر الثقة بين الطرفين » . وكرر استعداده للالتزام بكافة الشروط (٥٧) ، اذ ذاك كان بوسع تشرشل ان يكتب لرئيس الوزراء البريطاني في هذا الصدد : « ان هذا الترتيب افضل ما يمكن التوصل اليه » فهو « لا يكلف سوى نفقات ضئيلة ولا ينطوي على تعقيدات » (٥٨) .

منذ ١١ نيسان ١٩٢١ حينما تشكلت اول حكومة مركزية للبلاد وعلى امتداد بضع سنوات (حتى عام ١٩٢٤) كان يتنازع السلطة في شرقي الاردن اتجاهان رئيسيان ، اولهما سعي الكولونيالية البريطانية الى تنفيذ اتفاق عبد الله تشرشل في القدس . اي تحويل السلطة الى جهاز كولونيالي بغلاف عربي - محلي . والثاني سعي حزب الاستقلال الذي كان اعضاؤه يشكلون الوزارة الاردنية حتى عام ١٩٢٤ والوطنيين الاردنيين الملتفين حوله الى الحفاظ على استقلال السلطة وتمكين البلاد من التحول الى قاعدة لتحرير سورية من الانتداب الفرنسي (٥٩)،

---

(٥٥) المصدر نفسه ، ص ١١٩

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ . لنلاحظ ان هذه الصيغة تتفق مع نهج تشرشل الذي كان يسعى الى تأمين سلام واستقرار رخيص التكلفة بالنسبة لبريطانيا . راجع دياب ،هنري، مصدر سابق ص ٢٨١ . وكان تشرشل قد كتب الى رئيس الوزراء البريطاني بعيد مؤتمر الشرق الاوسط ، ان السياسة الجديدة التي اتبعت في المنطقة سوف تؤدي الى تخفيض النفقات في العراق وفلسطين من ٣٠ مليون جنيه في السنة الى ثمانية ملايين جنيه راجع موسى ، سليمان ، المصدر نفسه ص ١٠٢ .

(٥٩) كان حزب الاستقلال القوة السياسية المنظمة الوحيدة في البلاد . وكان بحكم موقفه المناهض للاحتلال الفرنسي لسورية يحظى بدعم وتعاطف شعبي في شرقي الاردن . لكن نهجه السياسي انتهى الى الاخفاق في شرقي الاردن واضطر في النهاية الى اخلاء مواقعه المتازة في البلاد . كمن الخطأ الجوهري في سياسة حزب الاستقلال في كونه قد بالغ في الثقة في تحالفه مع الامير عبد الله . وفي كونه راهن على حياد البريطانيين او سكوتهم عن نشاطه المناهض للفرنسيين انطلاقا من شرقي الاردن . كما ان هذا الحزب البرجوازي القومي لم يتمكن من اجل انجاز مهماته (بتحرير سورية من الاستعمار) من تبني سياسة تلبي مصالح ←

وكان من الطبيعي ان يتسبب هذان الاتجاهان المتناقضان بالمزيد من الصـــراع والاضطراب وان يسما السلطة بطابع متناقض ٠ اما الامير عبد الله فقد سعى الى وضع نفسه فوق هذا الصراع وبمنأى عنه ٠ سيما وانه لم يملك السلطة الفعليـة لتحديد وجهته ، ولان التحديات المحلية لزعامته كانت تشكل خطرا مباشرا ٠ ففي اواخر نيسان ، اي بعد نحو اسبوعين فقط من تأسيسه اول حكومة له وقع تمرد الكورة بزعامة الشيخ كليب الشريدة واستمر عاما كاملا (٦٠) ، والواقع انـــه فضلا عن التحديات المحلية التي واجهته ، فانه لم يكن واثقا بعد من تثبيت اتفاقه مع تشرشل ، وكان تفريطه بتحالفه مع الاستقلاليين ، يعني قفزة في الفــــراغ بالنسبـــة لــــه ٠

سعى عبد الله منذ البداية لتأمين اساس سيطرته من خلال تخويله حق انشاء قوة مسلحة قوامها ٤٠٠٠ رجل وتوفير بعض الآليات العسكرية وتأمين المساعدة المالية له (٦١)، لكن البريطانيين رفضوا اعطاءه حق تشكيل قوة كبيرة ٠ وارسلوا

الجماهير في شرقي الاردن ولفها من حوله ، وتغافل عن اهمية جذب القوى والزعمـــاء المحليين المناهضين للانجليز ٠ لكن الحزب تعامى عن المهمات المطلوبة محليا ، والتي كان يمكن ان تساعده على الحفاظ على مواقعه في البلاد لمواصلة النضال ضـــد الفرنسيين ٠ وثانيا اتخذ الحزب موقعه الى جانب الامير في وجه الزعامات المحلية ، مما افقده الدعـم الداخلي ٠ وساعد هذا النهج الانجليز والامير فيما بعد على التخلص منه ٠ كما ساعـــدت سياسته على تسهيل بعث نعرة اقليمية ضده ، حين انطلقت من بعض الزعماء المحليين شعارات من نوع رفض التضحية بالاردن في سبيل تحرير سوريـة ٠ وشعـــار « الاردن للاردنيين » ٠٠ ، ومن المفارقة المحزنة ان « يعيد » التاريخ نفسه في شكل اخر ، حيـــن تجاهلت المقاومة الفلسطينية بعد حرب ١٩٦٧ ان للجماهير الاردنية مصالحها ومطالبها الخاصة ومهماتها الوطنية الديموقراطية الداخلية ، واكتفت بالتعامل معها ـ اي مع الجماهيـــر الاردنية ـ ببرنامج وطني فلسطيني ـ يكفل لها في احسن الاحوال التعاطف والتضامن ، والى حين ، وهكذا اضطرت المقاومة الفلسطينية ان تخرج من الاردن ، بعـد ان رفعت الرجعية الاردنية في وجهها شعار رفض مشروع « الوطن البديل » المزعوم ٠ وهكذا فـــي الحالتين استثارت الرجعية المحلية مخاوف وذعر الجماهير على مصالحها من خطر وهمي٠

(٦٠) بدأ عصيان الكورة بحادث قتل احد جنود مفرزة ارسلت للمساعدة على جبايـــة الضرائب وتعداد الاغنام في المنطقة ٠ لكن هذا الحادث العرضي تسبب بالتمرد ، لان الشيخ كليب الشريدة الزعيم المرموق في منطقته اراد الاحتفاظ بمكانة مميزة له وان ترتبط مديرية ناحية الكورة بعمان مباشرة، الامر الذي رفض من قبل الحكومة ٠ فكان المناخ مهيئا للانفجار بين الزعامة الاقطاعية ـ القبلية والسلطة المركزية الحديثة ٠

راجع تفاصيل التمرد لدى الماضي ، وموسى : تاريخ الاردن في القرن العشرين ، مصدر سابق ، ص ١٥٦ ـ ١٦٤ ٠

(٦١) راجع موسى ، سليمان ، تأسيس الامارة الاردنية ، ص ١٣٤ ٠

قوة لحماية بعض الطائرات قرب عمان ، واوكلت الى الكابتن فردريك بيك قيادة القوة السيارة التي لم تكن تزيد عن ١٠٠ جندي وضابط (٦٢) ·

استخدمت الضغوط المالية منذ تشكيل اول حكومة في شرقي الاردن ، واستقالت هذه الاخيرة في ٢٣ حزيران ١٩٢١ بسبب عدم حصولها على حصة البلاد من الجمارك مع فلسطين وعدم تقديم اية مساعدة مالية (٦٣) ، وكانت قد وعدت بمساعدة مالية قوامها ١٨٠ الف جنيه ينفق منها ١٢٠ الف جنيه على القوات المسلحة ، عن طريق الكابتن بيك مباشرة · الامر الذي رفضته الحكومة ، وتسبب بالمزيد من الارباك ، وتقدم تشرشل الى الامير عبد الله بطلب مباشر لعزل رئيس الحكومة المتهم هو وحكومته بدعم النشاط المناوىء للفرنسيين · وطلب تكليف رجل آخر معروف باعتداله · والا فان الحكومة البريطانية تجد نفسها في حل من تعهداتها ومساعداتها (٦٤) ، وفعلا استسلم الامير للضغط وقبل استقالة رشيد طليع · وشكلت حكومة جديدة برئاسة مظهر رسلان الذي وافق على اشراف الكابتن بيك على الانفاق العسكري ، وشكلت قوة عسكرية قوامها ٧٥٠ رجلا (٦٥) ·

في هذه الاثناء كان يتجاذب الادارة الكولونيالية تياران ، احدهما يرمي لتجديد الاتفاق مع عبد الله والاخر كان ميالا الى انهائه والبحث عن حل آخر · وقد توصل لورنس موقد تشرشل الى عمان الى عدد من التوصيات اهمها ،الابقاء على ادارة عبد الله دون الاعلان عن ذلك رسميا · واخراج عدد من السوريين وتخفيض الاعانة الى الامير ونشر بيان يستثنى شرقي الاردن من المواد المتعلقة بالتعهدات البريطانية تجاه الحركة الصهيونية في فلسطين · وتوجيه دعوة للامير لزيارة لندن (٦٦) ، ووافق تشرشل على هذه التوصيات وابلغ المندوب

---

(٦٢) كان لورنس وصموئيل قد اوصيا بتخويل الامير حق انشاء قوة من ٧٥٠ رجلا ووضع اربع سيارات مصفحة في عمان ودفع ٥ الاف جنيه شهريا الى الامير · وقد وافق تشرشل على تشكيل قوة من ٧٥٠ رجلا بالاضافة الى ٥٠٠ شرطي · المصدر السابق ، ص ١٢٤ـ١٢٥ ورفض تشرشل طلبا من عبد الله في ١٤ ايار ١٩٢١ لزيادة قواته ، اي بعد انفجار عصيان الكورة · راجع دياب ، هنري ، مصدر سابق ص ٢٨٥ ·

(٦٣) راجع نص استقالة رشيد طليع من رئاسة مجلس المشاورين لدى الماضي وموسى، مصدر سابق ، ص ١٦٥ ·

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ · راجع ايضا موسى ، سليمان ، تأسيس الامارةالاردنية ص ١٣٥ ـ ١٣٩ ·

(٦٥) راجع الماضي وموسى ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ·

(٦٦) راجع هنري دياب ، مصدر سابق ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ · كان صموئيل ولورنس ممثلا هذين الاتجاهين ، فالاول كان يعارض بقاء الامير على راس حكومة شرقي الاردن والثاني يوصي بذلك مع مزيد من التشديد ازائه لاخضاعه اكثر · راجع تأسيس الامارة الاردنية ص ١٤٠ـ١٤٧ تقارير وتوصيات لورنس وصموئيل بصدد مستقبل الامارة ·

السامي في فلسطين بهذه الموافقة (٦٧) ٠

تمكنت حكومة الامير عبد الله من قمع الاضطرابات في جنوب البلاد ومن السيطرة على منطقة الكورة في تموز ١٩٢٢ ، بمساعدة القوات البريطانية والمحلية (٦٨) ، وتقدمت الحكومة البريطانية بطلب لتعديل صك الانتداب على فلسطين وشرقي الاردن ، واستثنت الاخيرة من احكام تصريح بلفور وصادق مجلس عصبة الامم على هذا الطلب (٦٩) ٠

سعت حكومة الامير عبد الله الى اقرار اتفاق مع بريطانيا لعقد معاهدة بهدف انتزاع الاعتراف بحكمه على البلاد ٠ واعلان بريطانيا عن القبول به كسياسة دائمة ٠ كما سعت لقطع الصلة مع حكومة فلسطين واقامة صلة مباشرة مع الحكومة البريطانية (٧٠) ٠ لكن زيارة عبدالله للندن في هذا الشأن لم تتوصل الى نتيجة فعاد الى عمان ، واستمر رئيس حكومته الركابي في المفاوضة مع ممثلي الحكومة البريطانية ٠ وفيما بعد ابلغ كلايتون الركابي ان الاعتراف باستقلال الاردن ليس واردا الان ، وان المعاهدة بين بريطانيا وشرقي الاردن يمكن ان تعقد على اساس الاعتراف بحكومة نيابية مستقلة في شرقي الاردن مع تخويل الامير عبد الله السلطة التنفيذية المعطاة لبريطانيا بموجب صك الانتداب ، ومع اتاحة المجال لقيام بريطانيا بالتزاماتها كدولة منتدبة (٧١) ٠

في ١٠ ايار ١٩٢٣ ارسلت وزارة الخارجية البريطانية نص تصريح يتعلق بموقفها من شرقي الاردن (٧٢) ، وفي ٢٥ ايار جاء وفد من هربرت صموئيل

---

(٦٧) المصدر نفسه ص ١٤٣ ٠

(٦٨) قاد حملة اخماد عصيان الكورة فردريك بيك قائد القوة السيارة ، وساعدته الطائرات الانجليزية التي القت ١٧٧ قنبلة على قرى المنطقة يومي ٥ و ٧ تموز ١٩٢٢ ٠

راجع الماضي وموسى ، مصدر سابق ص ١٧٩ ـ ١٨٢ ٠ كذلك راجع موسى ، سليمان ، مصدر سابق ، ص ١٤٧ ٠

(٦٩) المصدر السابق ، ص ١٤٨ ٠

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ ـ ١٥٦ (تقرير السير جلبرت كلايتون عن محادثاته مع عبد الله) ٠

(٧١) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ ٠

(٧٢) يقول التصريح الموجه من وزارة الخارجية البريطانية الى معتمدها في جدة : « شريطة موافقة مجلس عصبة الامم ، فان حكومة جلالته البريطانية ، سوف تعترفبوجود حكومة مستقلة في شرقي الاردن تحت حكم سمو الامير عبد الله بن الحسين على ان تكون الحكومة دستورية وان تمكن حكومة جلالته البريطانية من ايفاء التزاماتها الدولية المتعلقة بتلك البلاد ، عن طريق معاهدة تعقد بين الحكومتين » ٠ راجع ، موسى ، سليمان ، مصدر سابق ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ٠

المندوب السامي في فلسطين وجلبرت كلايتون السكرتير العام لحكومة فلسطين الى عمان واعلن الاتفاق الذي تضمن « اعتراف حكومة جلالة الملك بوجود حكومة مستقلة في شرقي الاردن برئاسة سمو الامير عبد الله بن الحسين شرط موافقة جمعية الامم على ذلك · وان تكون حكومة شرقي الاردن دستورية تمكن حكومة جلالة الملك من القيام بتعهداتها الدولية » (٧٣) ·

لم يلبث ان تعرضت الحكومة الى تحد كبير مع تمرد سلطان العدوان وزحفه على رأس قوة كبيرة نحو عمان في اوائل ايلول ١٩٢٣ · وبمساعدة الطائرات الانجليزية والياتها امكن احباط التمرد والزحف نحو عمان (٧٤) ، لكن الحكومة استقالت وحلت اخرى محلها · لقد انتهى قمع التمرد الى تعزيز سلطة الانجليز حيث عين اللواء بيك باشا في ١٠ تشرين الاول ١٩٢٣ قائدا للجيش الاردني · وقام الاخير باجراءات تطهير للقوات المسلحة من العناصر الاستقلالية والوطنية· وكانت هذه خطوة نحو تطهير اشمل لجهاز الحكومة · وهدد بيك بتدخل عسكري بريطاني مباشر اذا لم تنفذ سياسته الرامية الى اخراج الوطنيين السوريين(٧٥)·

وفي نيسان ١٩٢٤ اتخذت السلطات البريطانية خطوة ابعد حين اعلنت عن قطعها الاعانة المالية عن الحكومة بحجة عدم ثقتها بالادارة المالية (٧٦) كما

---

(٧٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ ·

(٧٤) تضمنت حركة العدوان مضمونا اجتماعيا وسياسيا اعمق من تمرد كليب الشريدة فسلطان العدوان زعيم نافذ لمنطقة البلقاء وليس لقبيلته فقط ، وقد اختلط في تمرده وزحفه على عمان عدة اسباب ذاتية وموضوعية ، منها انزعاجه من خطوة شيوخ بني صخر الاعداء التقليديين لدى الامير ، واعفائهم من الضرائب ، الامر الذي يعني ان التحالف بين الامير وبني صخر موجه ضده · ومنها وجود نقمة شعبية تولى رفع مطالبها سلطان العدوان كتشكيل مجلس نيابي واشراك ذوي الكفاءة من الاردنيين في المناصب العامة · وعزل مظهر رسلان الخاضع لارادة الانجليز · وقد سعى الامير الى تجنب مواجهة العدوان بالقوة فدعاه الى عمان ، لكن سلطان العدوان حضر على رأس قوة من الف خيال مشهرين سيوفهم ومنشدين اناشيد حماسية · وبعد ان اختلى الامير الى سلطان وعد بتلبية مطالبه وبزيارة حسبان مقر زعيم العدوان · وفعلا اعيد تشكيل الحكومة واخرج مظهر رسلان وعين علي خلقي الشرايري وهون اهل البلاد ، وتضمن برنامج الحكومة تلبية لمطالب العدوان · وفي الوقت نفسه اعد الامير لمواجهة سلطان فاعرض عن زيارته ، فعاد سلطان العدوان الى الزحف ثانية الى عمان في ٦ ايلول ١٩٢٣ · واسهم في هزيمة الهجوم ، خروج الطائرات البريطانية الى الجو وتحرك سيارة مصفحة بريطانية · وسوء تنظيم الهجوم والفوضى التي اصابت المهاجمين بعد الاشتباك الاول : راجع الماضي وموسى ، مصدر سابق ص ٢١٠ ـ ٢١٨ ·

(٧٥) موسى ، سليمان ، تأسيس الامارة الاردنية ، ص ١٦٨ ·

(٧٦) راجع الكتاب الموجه من ريدر بولارد عن الحكومة البريطانية الى الملك حسين في جده بخصوص الوضع في الاردن ، في تأسيس الامارة الاردنية ، مصدر سابق ، ص ١٧١ ·

اتخذت من عمليات السوريين ضد القوات الفرنسية في آب ١٩٢٤ ، مبررا لفرض اجراءات تحد من الاستقلال الرمزي الذي تتمتع به الحكومة، وقدمت انذارا يتضمن عددا من المطالب اهمها : فرض الرقابة البريطانية على مالية الحكومة بشكل كامل، اخراج المتهمين بالتحريض على مقاومة الفرنسيين من البلاد ، الغاء نيابة العشائر واخضاع القوات المحلية لاشراف قائد القوات البريطاني وتوقيع اتفاقية تسليم المجرمين مع سورية (٧٧) ، وقد قبل الامير هذه المطالب بدون تردد ٠وابلغ المندوب السامي في فلسطين حكومته بان الامير قد قبل بالمطالب وبخروج اعضاء حزب الاستقلال الرئيسيين من البلاد والرقابة المالية وتسليم المجرمين الى حكومة سورية (٧٨) ٠

اما الامير فقد خطب في اركان الحكومة وزعماء البلاد شاجبا اعمال العصابات ضد فرنسا (٧٩) ، نفذت الطلبات المقدمة من بريطانيا بالكامل ، وخرج اعضاء حزب الاستقلال من الاردن ٠ وانفض التحالف المؤقت بينهم وبين الامير لصالح التحالف البريطاني ـ الهاشمي ٠

٥ ـ طبيعة الدولة في الاردن ووظيفتها :

انطلاقا من عرضنا التاريخي ، يمكن استخلاص جملة من الاستنتاجات الاساسية حول ظروف وشروط تشكل الدولة في الاردن ٠ ومن ثم طبيعة الدولة ووظيفتها ، واخيرا اثر ذلك على التركيب الاقتصادي الاجتماعي للبلاد والمكانة التي حظيت بها من حيث اثرها ودورها في الحياة الاقتصادية لشرقي الاردن ٠

---

(٧٧) راجع المطالب البريطانية المقدمة في انذار اب ١٩٢٤ لدى الماضي وموسى ، مصدر سابق ص ٢٤١ ٠

(٧٨) راجع بلاغ الحكومة بصدد ابعاد زعماء حزب الاستقلال الصادر في ٢١ آب ١٩٢٤ ٠ الماضي وموسى ، مصدر سابق ص ٢٤٢ ٠ كذلك راجع تأسيس الامارة الاردنية ، ص ١٧٢ ٠

(٧٩) مما قاله الامير في حلفاء الامس : ـ « ٠٠ ان الامم لا تصل غاياتها الا بالعقل ، والعقل يكون النظام ، والنظام هو الذي يوصل الى الغاية المنشودة اما الذين ينصاعون الى الفوضى ولا يدخلون البيوت من ابوابها فيسلكون غير طريق الحق والنظام ، هؤلاء ليسوا الا خطرا على بلادهم مهما حاولوا تبرير اعمالهم (٠٠٠) اننا لا نريد ان تجني هذه البلاد ذلا بسوء تصرفات اولئك العابثين » وطلب الى السلطان عدم مساعدة الوطنيين السوريين وقال : « ان الذين يشجعون رجال العصابات او يقبلون حمايتهم في هذه المنطقة انما يخونون انفسهم وبلادهم ٠ نحن لا نريد ان نكون خطرا على غيرنا ٠ الدنيا بيت واحد، والامم المتمدنة قد توحدت مصالحها حتى اصبحت كعائلة واحدة ٠ اذا اختل النظام هنا ، اختل هناك » راجع الماضي وموسى ، مصدر سابق ٢٤٢ ـ ٢٤٤ ٠ كذلك راجع بصدد اخراج الاستقلاليين ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨ من المصدر نفسه ٠

ان اولى الاستنتاجات التي نحن بصددها هي محاولة تقديم تفسير علمي لنشوء الدولة في شرقي الاردن وتبيان الخاصية التاريخية الاصيلة نوعا لعملية تشكلها، من حيث هي نتاج وضع تاريخي ومتطلبات ملموسة فرضتها ظروف وشروط محلية وخارجيـــة معـــا ٠

أ ـ الشروط الداخلية واثرها في تشكل الدولة :

لا يمكن تجنب الاستنتاج من مقارنة ظروف شرقي الاردن في مطلع العشرينات مع باقي اقطار المشرق العربي ، ان شرقي الاردن ، كان اقل البلدان استعدادا من حيث درجة نضوج الاساس الموضوعي الداخلي لقيام جهاز الدولة ٠ فهـــــذا الاستنتاج قد ورد بداهة على لسان احد الوجهاء المحليين اثناء اجتماع المندوب السامي بزعماء شرقي الاردن في السلط (في ٢١ آب ١٩٢١) ، وكان بذلك يبحث عن مبرر قيام السلطة او الحكومات المحلية من زاوية مصالح الكولونياليـــة البريطانية ٠ وليس من زاوية درجة التطور الداخلي للبلاد (٨٠) ٠

واذا حاولنا ان نعيد صياغة هذا الاستنتاج بلغة علم التاريخ ـ الاجتماعي ، فاننا نلاحظ انه فيما تبرز الدولة وتتشكل في المجتمعات الطبقية التناحرية وفي ظل انعدام المساواة الاجتماعية وبروز الطبقات الاجتماعية المرتبطة بالملكية ٠ وفيمـا تنشأ الدولة في المجتمع بسبب حاجة الطبقة السائدة اقتصاديا لها كاداة قمع في وجه الطبقات الاضعف ومن اجل كبح جماح الاغلبية ٠ وفيما تظهر الدولة كنتــاج لمجتمع معين عند درجة معينة من تطوره ، وليس كقوة مفروضة على المجتمـع من خارجه ، نجد في حالة الاردن ان الدولة قد تشكلت في ظل غياب الوحـــدة الاجتماعية ، وعدم تشكل السكان في الاردن كمجتمع بعد ٠ حيث تتعدد انمـــاط انتاجه وتنوع علاقات هذا الانتاج ، وحيث لا نجد تشكيلا اجتماعيا ـ اقتصاديا واحـــدا ★ ٠

ومثلما لم يتشكل المجتمع كوحدة داخلية اقليمية للسكان ، لم تتشكل داخلـــه الطبقات على اساس اقليمي ، اي كطبقات موحدة في عموم البلاد ٠ وبالتالي لم يبرز التطور الاجتماعي للدولة كأداة بيد الطبقة السائدة اقتصاديا ، فهذه الطبقة لم تكن ، شانها شان الطبقات المسودة والمظلومة ، قد تشكلت بعد ٠

غاية ما في الامر ان البلاد مثلما عرفت انماطا انتاجية متعددة ، فقد عرفـــت طبقات وفئات مرتبطة بها ، **لكن انعدام سيادة نمط رئيسي بعينه افقد فرص ظهور طبقات رئيسية مرتبطة بنمط الانتاج الرئيسي هذا على اساس اقليمي** ٠ فضلا عن

---

(٨٠) راجع حديث اديب الكايد للمندوب السامي في مطلع هذا الفصل ٠

★ راجع الفصل الاول من هذه الدراسة في شؤون فلسطينية ، العدد ٦٣ـ٦٤ (شباط / اذار) ١٩٧٧ ٠ ولا سيما الجزء المتعلق بالبنى الاجتماعية ٠ ص ١٦٣/١٧٤ ٠

تشابك العلاقات الاجتماعية الحديثة ـ الطبقية ـ مع العلاقات ما قبل الطبقية التي ما زالت تحتفظ بحيوية وتأثير كبيرين ·

ومثلما لا يمكن الحديث عن طابع طبقي للدولة عند قيامها في شرقي الاردن ، فانها قد برزت لا كقوة مفروضة على « المجتمع » من داخله ، بل تحت تأثير قوى وشروط خارجية ·

اي ان الشروط الاجتماعية ـ الاقتصادية الاساسية الداخلية التي تبرز الحاجة الى نشوء وقيام الدولة لم تكن متوفرة في شرقي الاردن آنذاك· فالشروط الداخلية هي الاساس في قيام الدولة ، اية دولة ، وهي بالنسبة لشرقي الاردن لم تحتم (وفقا لقوانينها الداخلية البحتة) تشكل الدولة ، ولم يعكس قيامها فعل الضرورة التاريخية من وجهة النظر الداخلية · فالقوانين الموضوعية الداخلية حين عبرت عن ضرورتها التاريخية من وجهة نظرها، عبرت عنها في شكل حكومات محلية وليس في شكل حكومة واحدة مركزية ، اي في صورة « دول » وليس في صورة دولة واحدة ·

هذا اولا ، لكن المهم هو تفسير قيام الدولة مع ذلك ، فاذا كان الاساس الموضوعي الداخلي لم يسمح بقيام دولة مركزية ، فكيف قامت ولماذا نجحت في فرض نفسها ؟

ان السبب يكمن في ان حالة استقطاب وتوازن القوى المحلية ، وعجز كل منها عن ان يسود ويهيمن خارج بقعته ، قد ساعدت على بروز امكانية واقعية لنشوء مركز جذب وتوازن بين هذه القوى المحلية ولنشوء جهاز للسيطرة من الخارج يلعب دور الحكم المنزه عن التناقضات الداخلية ، دور الكابح والملطف لها ·

لقد وجد وضع تاريخي في شرقي الاردن عجزت فيه القوى المحلية ان تبرز من بين صفوفها زعامة وطنية تجمع بيدها القوة اللازمة لفرض نفسها من جهة وللموازنة بين سائر الكتل والقوى الاجتماعية والعشائرية من جهة ثانية ، ولم تكن اية قوة اجتماعية بقادرة على فرض نفسها وسلطتها على المستوى الاقليمي، فتقدمت الزعامة من الخارج · فمثلما تنشأ الحاجة الى الدولة في المجتمعات الطبقية من اجل تلطيف الصراع بين الطبقات ، تقدمت الزعامة من الخارج كي تقوم بما تعجز عن القيام به القوى المحلية · اي دور الزعامة والحكم الذي يضع نفسه فوق التناقضات بين المناطق وسائر المنظومات الاجتماعية والعشائرية فيها·

هكذا نلاحظ انه في الوقت الذي لم تنشأ فيه الشروط الداخلية المناسبة لتشكل الدولة ، فان حالة استقطاب القوى الداخلية افسحت المجال امام نشوء جهاز مركزي للسلطة من الخارج · ووفرت امكانية لعب العوامل والشروط الخارجية دورا مقررا في شكل وطبيعة السلطة وفي ادائها لوظيفتها ·

ب ـ الشروط والظروف الخارجية من حيث اثرها في تشكيل الدولة ٠

اذا كانت الدولة تتشكل عند مستوى معين من التطور الاجتماعي **الداخلي** لبلد ما ، وتعكس هذا المستوى ، **فان السلطة او جهاز السيطرة الذي تشكل في شرقي الاردن عام ١٩٢١ لم يكن دولة ولم يتمتع بمواصفات الدولة وفق الشروط الكلاسيكية لنشوء الدول ٠ فما هي طبيعة السلطة المركزية التي نشأت ؟**

الدولة في شرقي الاردن تشكلت ، لا كتعبير عن مستوى التطور الداخلي المناسب للمجتمع ، ولا كقوة طبقية ، وانما تحت تأثير الشروط الخارجية ، وهذا ليس استثناء بين البلدان المستعمرة الا في جوانب معينة ٠ فالدولة في المستعمرات واشباه المستعمرات ، (حتى مع الاخذ بالاعتبار تنوع خصائصها الكبير) تتشكل بصورة رئيسية تحت تأثير القوانين الخاصة بالمتروبول او المركز الاستعماري الذي تتبعه ، اكثر مما تعكس فعل القوانين الداخلية للبلد المستعمَر ٠ فهي ـ اي الدولة ـ تقوم تحت تأثير البرجوازية الاستعمارية ، ولذلك فانها ، بحكم طبيعتها وسماتها هذه ، تنفصل عن التركيب الاجتماعي ـ الاقتصادي ، وتسودها قوانين وسمات ليست من الطبيعة الاجتماعية السائدة في البلد المستعمر ٠ ويفسر حمزة علوي هذه العملية بقوله ان البرجوازية الاستعمارية مضطرة من اجل تنفيذ مهمة خاصة بالوضع الكولونيالي الى انشاء جهاز دولة يسمح لها بممارسة سيطرتها على كافة الطبقات الاجتماعية في المستعمرة ٠ ويستطرد ليلاحظ ان البناء الفوقي في المستعمرات « متضخم في نموه » بالمقارنة مع البناء التحتي الاقتصادي ، ذلك ان قاعدته كامنة في الدولة الغربية الاستعمارية (٨١) ٠

ان التمييز بين الدولة في المجتمعات الطبقية والتي حققت ثورتها البرجوازية الديموقراطية واستقلالها ، حيث هي ـ اي الدولة ـ اداة بيد الطبقة السائدة ، وبين الدولة في المجتمعات المستعمرة ، حيث ظهرت بالاكثر لا كأداة بيد طبقة محلية سائدة وانما بوصفها جهازاً اقامه المستعمر او البورجوازية الاستعمارية ، هو الذي يفسر الاختلاف الجوهري بين طابع الدولة بمعناها الكلاسيكي وطابع الدولة في البلدان المستعمرة ، كما يساعد على تفسير الفوارق الموضوعية ـ التاريخية في طبيعة الدولة ودورها بالنسبة لمجموعتين متباينتين من المجتمعات ٠

من هنا يمكن القول ان الدولة في شرقي الاردن قد نشأت وتكونت تحت تأثير الامبريالية البريطانية ، كجهاز كولونيالي ٠ وان طبيعتها لم تتحدد آنذاك بوصفها تعبيرا عن طبقة محلية سائدة ، ولا في كونها اداة طبقية محلية لقمع الطبقات المسودة ٠ وانما بوصفها اداة بيد الكولونيالية البريطانية مفروضة من فوق المجتمع ٠ من الخارج ٠

---

(٨١) راجع حمزة علوي « الدولة في المجتمعات الحديثة الاستقلال » ، ترجمة اسرة « الحرية » ، مجلة الحرية اللبنانية ، العدد ٦٠٢ ، ١٩٧٢/١/١ ٠

لكن هذا التفسير . على صحته في نهاية الامر ، اي تكون الدولة كجهاز كولونيالي ، يتسم بالعمومية ولا يظهر الخصائص الاصيلة للدولة في شرقي الاردن واختلافها عن اي جهاز كولونيالي آخر في المشرق العربي آنذاك او في البلدان المستعمرة عموما . الامر الذي يطمس الفوارق في وظائف هذه الاجهزة وفي سماتها . فالدولة في شرقي الاردن قد ظهرت لا كجهاز كولونيالي مباشر، لا كاداة كولونيالية بحتة . ولم تكن الفئة المكرسة لاعمال الادارة والسياسة في الدولة بريطانية او كولونيالية صرفا . ثم ان طابع الدولة لم يتسم منذ البداية بطابع كولونيالي مطلق ، بل اتسم بذلك فقط اثر صراع مع الفئة المكرسة للادارة التي كانت في غالبيتها من الاستقلاليين او من العناصر الخاضعة لتاثير حزب الاستقلال السوري ، والتي حاولت لسنوات (حتى عام ١٩٢٤) ان تحافظ على درجة معينة من الاستقلالية للدولة عن السيطرة والسياسة البريطانية . وحتى بعد هزيمة الاستقلاليين وخروجهم من البلاد ، كانت الخاصية الاصيلة لطابع الدولة في شرقي الاردن تنبع من ارضية الاتفاق البريطاني ـ الهاشمي ، اي من حاجة الكولونيالية البريطانية الى ادارة البلاد ، بشكل غير مباشر عبر حاكم وحكومة عربية . الامر الذي تطلب من بريطانيا « التنازل » طوعا عن جزء من « حقوقها » ـ كدولة منتدبة على الاردن ـ لصالح الامير وحكومته ، اي افتراضها ضرورة لعب الامير عبد الله وحكومته دورا محددا في اداء الدولة في الاردن لوظيفتها في خدمة المصالح الامبريالية البريطانية . وقد اتخذت الشراكة البريطانية ـ الهاشمية في السنوات الاولى طابع التفويض بجزء من صلاحيات البلد المستعمر في ادارة شؤون شرقي الاردن للامير عبد الله ، الذي كان عليه في الوقت نفسه الالتزام بتعهداته تجاه شركائه البريطانيين والعودة اليهم في المسائل المهمة (٨٢) .

وبكلمات اخرى فان الدولة في شرقي الاردن قد نشأت ليس فقط تحت تاثير كولونيالي مطلق ومباشر ، وانما تحت تاثير معين للدور الذي لعبه الامير عبد الله، وقبل به البريطانيون لانهم كانوا يتجنبون السيطرة المباشرة والاحتلال المباشر للبلاد . ونظرا لحاجتهم المبكرة لحاكم عربي متعاون ، ولان الامير عبد الله هو الذي تقدم ليكون هذا الحاكم ، وبسبب استفادته من ظروف البلاد وانقسامها الاجتماعي ، فقد اخذ البريطانيون هذا الوضع بعين الاعتبار ، الامر الذي يفسر لقاءهم مع الامير في منتصف الطريق. فكما قال لورنس، لا تستطيع بريطانيا ولا الامير السيطرة على البلاد بدون مساعدة الطرف الاخر .

من ناحية اخرى ، فان الحركة الوطنية السورية ، كانت طرفا ثالثا في عملية بناء السلطة في الاردن . فالحركة الوطنية السورية ، وبشكل خاص حزب

(٨٢) التنازل الذي اقدمت عليه بريطانيا تجاه الامير عبد الله شكلي في النهاية . لكن له اثر داخلي لا يمكن اهماله . المهم ان هذا « التنازل » هو بمثابة تكليف له بالاشراف على اعمال الحكومة بالنيابة عنها ، ولكن تحت رقابتها . وبما لا يخل بتعهدات بريطانيا تجاه عصبة الامم. راجع نص التصريح الخاص بذلك الوارد في هذا الفصل تحت هامش رقم (٧٢) .

الاستقلال ، اتخذت من شرقي الاردن قاعدة خلفية في النضال ضد الانتداب الفرنسي ، بوصف البلاد جزءا من البلاد السورية ، واستنادا الى دعم السكان ولا سيما في الشمال من الاردن ، الذين كانوا يرون مستقبلهم مرتبطا بتحرير سورية ووحدتها • ومع دخول عبد الله الى الاردن دخل في تحالف مع الوطنيين السوريين •

فالامير كان بحاجة الى تحالفه مع حزب الاستقلال منذ البداية كورقة ضاغطة في مساومته مع البريطانيين ، كما كان بحاجة اليهم في مواجهة الزعماء المحليين للبلاد ومن اجل كسب قاعدة اجتماعية محلية ملتحقة بالحركة الوطنية السورية في نضالها ضد الفرنسيين • وقد ظل بحاجة لحزب الاستقلال ليس فقط لصعوبة تنصله سريعا من تعهداته المعلنة الخاصة بتحرير سورية ، وانما لان رجالات الحزب كانوا بمثابة الفئة المهيئة لتشكيل جهاز سلطته في البلاد ، فمنها كانت تتشكل فئة السياسيين والاداريين والعسكريين الذين شرعوا في بناء جهاز الدولة والجيش •

وكان حزب الاستقلال لطبيعته البرجوازية يراهن على امكانية استمرار التحالف مع الهاشميين وعلى امكانية تحييد البريطانيين في نضالهم ضد الاحتلال الفرنسي لسورية ، فضلا عن حاجتهم لمركز ممتاز في البلاد عبر جهازي الدولة والجيش اللذين وظفا في خدمة هذا النضال •

اما السلطات البريطانية ، فقد كانت تجد في الوطنيين السوريين الخطر الاكبر على استقرار البلاد وامنها • وبما انها قد نبذت الاحتلال العسكري للبلاد ، فلم يكن امامها سوى الاعتماد على تحالفها مع الامير من اجل اضعاف مركز الوطنيين السوريين ومن ثم طردهم نهائيا • لكنها وهي تدرك صعوبة تحقيق اهدافها هذه بالسرعة المطلوبة ، فقد كانت تستخدم الاسلحة التي بين يديها ، مثل المساعدة المالية ، والتطهير التدريجي للقوات من نفوذ السوريين ، وبناء قوة عسكرية خاضعة لها كليا تكون مؤهلة لضرب السوريين وطردهم من البلاد نهائيا • كما وثق رجال السلطات الكولونيالية صلاتهم مع الزعامات التقليدية ولا سيما مع بني صخر ، وعملوا على تنمية التناقض بين هذه الزعامات المحلية ورجالات حزب الاستقلال (٨٣) •

---

(٨٣) اورد ابرامسون رئيس المعتمدين البريطاني في تقرير له بتاريخ ٩ حزيران ١٩٢١ ما يلي : قبل بضعة ايام عقد مثقال الفايز ورفيفان المجالي وعدد من الزعماء العرب الاخرين اجتماعا في عمان توصلوا فيه الى اتخاذ قرار بايقاف دخول السوريين الى اراضي شرقي الاردن • وقد ذهب مثقال الى سمو الامير بصفته ناطقا باسم اولئك المجتمعين وقال له : انه اذا لم يتخذ رشيد (طليع) والسوريون الاخرون موقفا اكثر رزانة ، واذا لم يوجهوا مزيدا من الاهتمام لتحسين الاوضاع في شرقي الاردن • فان اولئك الزعماء سوف يطلبون من سموه ان ينحيهم عن مناصبهم • اما اذا لم يستجب ، فان الزعماء سيعملون على تنحية السوريين بانفسهم » ولم يقل ابرامسون ان البريطانيين هم وراء التحريض على الوطنيين السوريين • راجع موسى ، سليمان ، مصدر سابق ص ١٦٥ـ١٦٦ •

وعلى الرغم من الاستعداد المعلن للامير (امام البريطانيين) للتخلص من الحركة الوطنية السورية ، الا انه لم يكن قادرا فعليا على انجاز هذه المهمة • فالامير على الرغم من جذبه بعض القوى المحلية حوله ، الا انه لم يثبت اركان سلطته بعد ، ولم يحظ باعتراف الزعامات المحلية للبلاد ، لذلك كان مضطرا للحفاظ على تحالفه مع رجالات حزب الاستقلال الذين كانوا يضمنون له بناء جهاز الدولة والجيش ، ويؤمنون له تغطية وطنية مقبولة محليا • فضلا عن ان نفوذ الحزب وتاثيره شكلتا ضمانة له •

وفعلا لم يستطع الامير ان يتخلص من حلفائه الوطنيين السوريين ، الا بعد ان نجح في قمع عدد من التمردات والانتفاضات المسلحة ضده ، ولا سيما عصيان كليب الشريدة في الكورة ، الذي استمر عاما كاملا ، وتمرد سلطان العدوان الذي زحف بقواته نحو عمان • لقد استخدم الامير قواته العسكرية التي كانت تحت ادارة رجالات حزب الاستقلال ضد هذين التمردين • ونجح في اضعاف نفوذ الحزب ورجالاته لدى القوى المحلية • وبعد ان كان الامير يظهر بمظهر المستقل عن صراع الوطنيين السوريين والسلطات البريطانية اضطر عام ١٩٢٤ الى الانحياز جهارا الى جانب الكولونيالية البريطانية عندما وافق على مطالبها الخاصة باخراج الاستقلاليين من شرقي الاردن • وبعد ذلك اتخذ التحالف البريطاني ـ الهاشمي في شرقي الاردن طابعا متكاملا ومنسجما •

جـ ـ الخلاصة :

اولا : برزت الدولة منذ البداية كنتوء خارجي بالنسبة للتركيب الاجتماعي ـ الاقتصادي المحلي ، وليس كمحصلة للتطور الداخلي • وساعد على قبولها محليا ، ليس كونها اداة بيد قوة اجتماعية ـ محلية سائدة في البلاد ، بل كونها اتت في ظروف تطلبت قوة وسيطة ما بين الجماعات والكتل الاجتماعية والعشائرية في البلاد ، وفي ظروف استقطاب وتوازن القوى المحلية • وساعد الامير وحكومته على لعب هذا الدور في البداية الطابع الوطني للفئة المشكلة للحكومة ودعم حزب الاستقلال والتفاف اقسام هامة من السكان من حول هذا الحزب • ومع ذلك بدا واضحا ان الامير لم يكن قادرا على كسب ولاء الزعامات المحلية منذ البداية • وهو ما يبرزه تمرد كليب الشريدة في الكورة في اواخر نيسان ١٩٢١ • كما ان اخلال الامير بالتوازن الدقيق بين القوى المحلية ، وانحيازه لبني صخر قد تسبب في تمرد قبيلة العدوان عليه وزحفهم نحو عمان • وفيما بعد ، لعب العنف الامبريالي دوره في حماية السلطة •

ثانيا : برزت الدولة منذ البداية كدولة هجين ، متنافرة العناصر ، منعدمة الانسجام ، فهي محصلة لوحدة متناقضة بين الكولونيالية البريطانية والهاشميين ممثلين بالامير عبد الله وحزب الاستقلال السوري ، حيث شكل الاخير الفئة

الرئيسية التي امدت الدولة بالكوادر والموظفين والسياسيين وهي التي بنت جهاز الدولة وقوات القمع . في حين امدت الكولونيالية البريطانية الامير بالمعونات المالية الضرورية لبناء الدولة والجيش . وحتى عام ١٩٢٤ لم تكتسب الدولة صفتها الاكثر اصالة ، اي كجهاز كولونيالي بغلاف عربي ـ محلي . بل بقيت متنافرة العناصر غريبة الطابع .متقلبة ، غير متجانسة ، الى ان استقرت على قاعدة التحالف البريطاني ـ الهاشمي ، ونبذ الطرف غير المؤتلف مع هذه القاعدة، اي حزب الاستقلال ومجموعة الوطنيين السوريين .

ثالثا : ظلت الدولة في الاردن ، الى فترة طويلة مفتقدة الى صلتها بالتركيب الاجتماعي الاقتصادي ، بوصفها اداة في يد الامبريالية وجهازا كولونياليا . لكن تميز هذا الجهاز بهيمنة **فئة مستقلة عن المجتمع** على الدولة وباحتكارها لها . فهي من جهة **فئة غير محلية** وهي من جهة ثانية **غير كولونيالية صرف** . وانما تتشكل من فئة محترفة من السياسيين والموظفين والضباط ، الذين شكلوا نواة البرجوازية البيروقراطية المرتبطة مصلحيا مع الامبريالية البريطانية .

فضلا عن الامير واسرته واقاربه ، كانت الفئة الحاكمة مكونة من عدد محدود من الشخصيات التي تتناوب الحكم بالاعتماد المباشر على دعم الامير وممثلي الكولونيالية البريطانية . ان استقلال عناصر جهاز الدولة عن التركيب الاجتماعي الداخلي وتماسه المباشر مع السيطرة الكولونيالية يلمس من واقع تعاقب ثماني عشرة وزارة بين ١١ـ٤ـ١٩٢١ وحتى ٢٥ـ٥ـ١٩٤٦ ، تولى رئاستها ثمانية اشخاص فقط ، لم يكن من بينهم احد من شرقي الاردن (٨٤) وفي نفس الفترةكان عدد الاشخاص الذين تولوا مناصب وزارية ثمانية واربعين ، كان من بينهم سبعة عشر وزيرا شرق اردني بينما كان الباقون (٣١ وزيرا) من فلسطين ، سورية ، الحجاز ، العراق ، لبنان ، ووزيران من الجنسية البريطانية !! (٨٥) .

وفي فترة السنوات العشر الاولى من تاسيس الامارة (١٩٢٣ / ١٩٣٣) تولى ٣٥ سياسيا محترفا ١٥٥ منصبا حكوميا هاما ، فيما تولى ١٥ شخصا منهم ٩٦ منصبا وزاريا (٨٦) .

ان استقلال الفئة المكرسة للسياسة والادارة والقمع (اي الجهاز البيروقراطي او نواته) عن المجتمع وعن القوى المنتجة المحلية ، وارتباط هذه الفئة بالكولونيالية البريطانية قد حدد سلفا اطار تطورها كجزء من الطبقة الحاكمة ، في

---

(٨٤) راجع المحافظة ، علي ، مصدر سابق ، ص ٩٠ .

(٨٥) المصدر نفسه ، ص ٩٠ ، راجع ايضا « الوزارات الاردنية في خمسين عاما (١٩٢١ / ١٩٧١) . منشورات وزارة الثقافة والاعلام الاردنية (عمان ، كانون الثاني ١٩٧١) ص ٥/٢١ .

(٨٦) راجع : خلة ، كامل محمود ، مصدر سابق ، ص ٢٦٦ .

اطار طفيلي - بيروقراطي يعتاش من خدمة الامبريالية ويحرص على استمرار ارتباط البلاد بالتبعية لها ٠

رابعا : برز التناسب بين مضمون وجوهر الدولة كجهاز كولونيالي ، وشكلها ووظائفها من خلال اعتمادها اساسا على الدعم المالي البريطاني منذ اللحظة الاولى لقيامها وليس على الموارد المالية المحلية ٠ الامر الذي يفسر ويبرر فرض الرقابة والاشراف المالي الكامل على انفاق الدولة ٠

وفق معطيات غير كاملة ارتفعت نسبة التمويل البريطاني من ٧ر٢٧٪ من واردات موازنة الدولة في الاعوام ١٩٢٥/٢٤ - ١٩٣٩/٣٨ الى ٣ر٧٥٪ عام ١٩٤٤/٤٣ ٠ هذا مع العلم ان تمويل الحكومة البريطانية لموازنة شرقي الاردن لم يكن التمويل البريطاني الوحيد ، اذ كان الانفاق البريطاني المباشر على الجيش وعلى عدد آخر من المؤسسات لا يدرج ضمن مساهمة بريطانيا في الموازنة الاردنية (٨٧) ٠

ويفسر ارتفاع الاعتماد على الدعم المالي البريطاني للموازنة ، واقع ان هذا الدعم والموارد المالية الاخرى للدولة موظفة للانفاق على اهداف تخدم المصالح الاستراتيجية والامنية البريطانية ٠فالمعطيات المتوفرة وغير الكاملةعن الانفاقعلى القوات العسكرية في البلاد تشير الى انها كانت توازي ٢٨٪ من نفقات الدولة لعام ١٩٢٤ ، ارتفعت لتصل الى ٣٦٪ عام ١٩٣٧ ثم الى ٧٤٪ من نفقات الدولة لعام ١٩٤٦/٤٥ ٠اما الانفاق على الخدمات الحيوية للسكان كالتعليم والصحة وعلى الزراعة، فلم يتجاوز عشر الموازنة العامة في الفترة بين الحربين العالميتين(٨٨) ٠

ان تعاظم موارد الدولة وتعاظم نفقاتها ، لا يقارن بالنمو الاقتصادي المحدود للقطاعات الانتاجية في البلاد ، الامر الذي يبرر وصف تطور جهاز الدولة ونمو ايراداته ونفقاته بوصفه جهازا كولونياليا ٠ وبوصف الدولة **جهازا ممولا من الخارج** ، عن طريق تصدير رؤوس الاموال الحكومية اليه ، كاستثمار او قطاع « اجنبي » بالنسبة للبلاد ٠

خامسا : لم يكن ممكنا ان تستمر الدولة والفئة الحاكمة في الاعتماد على توازن القوى المحلية وعلى العنف ، ولم يكن ممكنا الابقاء على طابع الدولة طابعا

---

(٨٧) راجع المحافظة ، علي « العلاقات الاردنية - البريطانية » دار النهار - بيروت ١٩٧٣ ، ص ٩٨ ٠ راجع :
Konikoff . A, Trans Jordan , an Economic Survey , Jerusalem , 1946 P. 95 .

(٨٨) راجع كونيكوف ، المصدر نفسه ص ٩٧ ، كذلك راجع : هرشلاغ ، ز ، ي مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، دار الحقيقة (بيروت ١٩٧٣ ، ص ٣٢٢/٣٢١) ٠

كولونياليا ـ خارجيا دون قوة اجتماعية تستند اليهـــا ٠ والا يصبح انفجـــار التناقض بين الدولة والبنى الفوقية المحلية الاخرى محتوما ٠ ولذلك لجـــأت الكولونيالية البريطانية والفئة الحاكمة في السلطة الى جملة من الخطوات التـــي ترمي الى طمس الطابع الخارجي ـ الكولونيالي المباشر للدولة من خلال السعـــي الى تكوين قاعدة اجتماعية لها ٠ وكان ابرز هذه الخطوات ٠

أ ـ لحم البنى الفوقية القبلية والاقطاعية ودمجها في الدولة ٠ وذلك من خـلال شراء ذمم الشيوخ بالاعطيات والرواتب ، وعن طريق اعفائهـم مـن الضرائب ومنحهم اراضي واسعة من املاك الدولة ، ومن خلال تشكيل المجلس التشريعـي الذي تعاقب على عضويته عدد محدود من الاسر والزعامات النافذة ٠ فقد قدمت خمس عشرة اسرة او عشيرة نافذة في البلاد خمسين عضوا للمجالس التشريعية الخمسة ، والتي بلغ عدد اعضائها ثمانين عضوا (٨٩) ٠

ب ـ مسح وفرز وتقسيم الاراضي المشاعية ، اي تحطيم الملكيـة المشاعيـة والاساس المادي للولاء والعصبية القبلية والعشيرية ٠ وتوفير اسس افضل لنمـو الملكية الخاصة ولا سيما ملكية الاراضي الواسعة ، ولنمو العلاقات البضاعية ٠

جـ ـ نظام الضرائب وفتح السوق المحلي على السوق الخارجي ، الامر الـذي مهد لقيام حاجات الاعتماد على السوق والانتاج له وللارتباط بالدولة عن طريق الضرائب (٩٠) ٠

على ان دمج القمم العشائرية والاقطاعية وملاكي الاراضي والتجار بالدولة عن طريق الاجراءات المارة لا يعني انهاء الوضع الاستقطابي الداخلي ، فقد جـرى توزيع حصص ومنافع الارتباط بالسلطة بشكل يحفظ هيمنة السلطة على الجميـع من جهة ويضمن تراتبا في المواقع بين هذه القوى المحلية٠ففي المجالس التشريعية المتعاقبة تمتعت بعض القبائل والاسر والاقليات الاثنية والدينية بحصص ثابتة من

---

(٨٩) راجع ، المحافظة ، علي ، مصدر سابق ، ص ٧٤ ٠

(٩٠) سنأتي على شرح الاساليب الاقتصادية التي اتبعت في تمزيق الاساس الاقتصـادي للولاء العشائري القديم ، وفي لحم البنى القبلية والاقطاعية الفوقية ودمجها مع الدولة في الفصل الثالث الخاص بالتركيب الاقتصادي (قطاع الزراعة) ٠

المقاعد . بغض النظر عن الوزن النسبي لهذه القوى (٩١)، وبفضل هذه الاجراءات تشكلت للدولة قاعدة اجتماعية متنافرة التركيب ، لكنها ذات مصلحة مشتركة في استمرار ارتباط الدولة بالامبريالية ٠

٦ ـ الدولة كاداة كولونيالية في خدمة المصالح الاستراتيجية للامبريالية واثرها على التركيب الاقتصادي ٠

قمنا في الفصل الاول من هذه الدراسة ، بعرض الجوانب المختلفة للتركيب الاقتصادي ـ الاجتماعي لشرقي الاردن في نهاية العهد العثماني وحتى الحرب العالمية الاولى، بهدف ابراز المستوى المتخلف للقوى المنتجة التي كانت عليه البلاد انذاك عشية تطورها الكولونيالي ٠ كما بينا من الزاوية الاقتصادية والاجتماعية ضعف المقدمات الموضوعية القائمة انذاك للتطور والنهوض الوطني ، الامر الذي سهل على الكولونيالية البريطانية تنفيذ سياستها وتوطيد اسس نمط سيطرتها وتطويرها التبعي لاقتصاد شرقي الاردن ٠

كما ان الفصل الثاني من هذه الدراسة ، المكرس لتشكل الدولة في الاردن ، قد تناول هذه المسألة التاريخية الهامة بالنسبة لمستقبل شرقي الاردن والمنطقة ،مفسرا اولا، عبر فترة الحكومات المحلية وثانيا عبر عملية تشكيل الدولة المركزية في الاردن، الدور الخاص الذي لعبته الظروف والشروط الخارجية في تشكيل الدولة ، في ظل ضعف المقدمات الموضوعية الداخلية لقيامها ، وطبيعة الانقسام البنيوي للبلاد اجتماعيا واقتصاديا ٠ ولقد كانت عملية تشكيل الدولة في الاردن ، كجهاز كولونيالي مغلف بغلاف محلي ـ عربي هي العامل الرئيسي الثاني في التمهيد لنمط خاص من التطور التبعي والذي كان عماده الرئيسي الانفاق والمساعدات الخارجية على جهاز الدولة والجيش ٠

وعلى الرغم من اننا سنعود الى دراسة قطاع الدولة (الادارة العامة والدفاع

---

(٩١) من مراجعة تركيب المجالس التشريعية الخمسة التي تعاقبت على البلاد من ١٩٢٩ وحتى عام ١٩٤٧ يمكن ملاحظة وجود نظام حصص ثابتة للعشائر والاقليات الاثنية (الشركس) والمسيحيين ، فضلا عن ثبات تمثيل القمم الاقطاعية ـ القبلية في المناطق الاخرى ، ودخول التجار كممثلين عن عمان بصورة خاصة ٠ ففي هذه المجالس نلاحظ ثبات نسبة تمثيل البدو وبني صخر والحويطات او بدو الشمال والجنوب ، بعضو واحد لكل قبيلة ٠ وتمثيل الشركس بعضوين ، وتمثيل المسيحيين بعضو من عجلون واخر عن السلط وثالث عن الكرك ٠ كما تم الحفاظ على هذه الحصص مع تشكيل المجلس النيابي منذ اواخر عام ١٩٤٧ ٠

راجع : المحافظة ، علي ، مصدر سابق ، الملحق رقم (٤) ، ص ٥ ١٩ ٠ كذلك تقرير صادر عن مجلس الامة الاردني يتضمن قائمة بالمجالس التشريعية ومجالس النواب والاعيان (ستانسل ، غير مؤرخ) ٠

كقطاع اقتصادي في الفصل الرابع من هذه الدراسة ، كما سندرس الجوانـــب المختلفة لتطور الدولة في الفصل الختامي ٠ الا اننا سنفرد بعض الملاحظـــات حول الاثر الاقتصادي العام للدولة كجهاز كولونيالـــي في خدمـــة المصالـــح الاستراتيجية للامبريالية البريطانية ٠

ان فهم اهداف السيطرة الكولونيالية في شرقي الاردن يقود الى فهم شكـــل السيطرةوالى فهم اداتها(الدولة كجهاز كولونيالي مغلف بغلافمحلي وعربي)والى فهم الدور الذي لعبه هذا الجهاز في اعادة تشكيل الاقتصاد الوطني باتجاهاضعاف قطاعاته الانتاجية (قطاعات الانتاج المادي) وتضخيم نمو قطاعاته الخدماتية ، وباتجاه صبغ الاقتصاد الوطني ككل بطابع مفرط في التشوه والتبعية للســوق الراسمالي العالمي ٠ وبالتالي تعميق التبعية للامبريالية وتابيدها ٠

ان الفريد والاصيل في نموذج السيطرة الكولونيالية في شرقـــي الاردن ، ان الامبريالية البريطانية لم تستهدف من سيطرتها الانتفاع من ثروات البلاد وخاماتها الطبيعية ، اي ان غاية هذه السيطرة لم تكن النهب الاستعماري للثروات الطبيعية ولا الاستنزاف والاستثمار التقليدي لها ٠ فهذه كانت غاية ثانوية بالنسبة لهـدف السيطرة الاساسي وهو الانتفاع من مركز البلاد الاستراتيجي لغايات اقتصادية وسياسية وعسكرية خارجها ٠ وبكلمات اخرى كان النمط الخاص من التطـــور التبعي للاقتصاد الاردني حصيلة سيطرة كولونيالية تستفيد من موقـــع الاردن الاستراتيجي اساسا لغايات النهب والسيطرة والنفوذ في خارج الاردن وليس فيه٠ لذا لعبالاردن بالنسبةللكولونيالية البريطانية دور المحطة ورأس الجسر والقاعدة ولم يلعب دور البلد مصدر الخامات للمتروبول البريطاني ، كماهي حالـــــة المستعمرات تقليديـــا ٠

وما دامت حاجة الكولونيالية البريطانية للاردن هي حاجـــة الى موقـــع استراتيجي ، فان الاهتمام الرئيسي به قد انصب على بناء جهاز الدولة والجيش وجملة الاجهزة الكفيلة بتأمين الهدوء والاستقرار لهذه السيطرة ٠ كما طـــورت قطاعات خدماتية رديفة قررتها ايضا حاجات الكولونيالية العسكرية والسياسيـة مثل المواصلات البرية والمواصلات السلكية واللاسلكية والمطـــارات الحربية ، وجزئيا السكك الحديدية ٠

اي ان اتجاه الاهتمام الرئيسي للامبريالية البريطانية كان منصبا على بنـــاء ادوات السيطرة وخاصة جهاز الدولة والجيش ٠ ففي النهاية تميزت خاصيـــة السيطرة البريطانية في البلاد لا في كونها تعتمد علىالقوات البريطانية ، ولا على السيطرة المباشرة ، وانما بالاعتماد على جهاز ذي غلاف محلي ــ عربي وعلـــى قوات محليـــة ٠

ولما كانت وظيفة هذه الاداة (جهاز الدولة والجيش) ليس فقط تامين الاستقرار

الداخلي ، وانما ايضا ضمان الاستقرار والامن لمناطق الاقتسام البريطاني الفرنسي في فلسطين وسورية ، وضمان الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، فقد كانت وتائر نمو هذا الجهاز اكبر مما يمكن ان تقاس بالحاجات المحلية البحتة ٠

وعلى اساس تطور جهاز الدولة والقطاعات المرتبطة به ، المرفوع اكثر فاكثر الى مستوى القطاع الاقتصادي الاول ، نمت قطاعات التجارة والبنوك والتأمين والانشاءات والخدمات الخاصة ، في حين شهدت القطاعات الاقتصادية التقليدية تراجعا كبيرا ، اذ تحطم تقريبا الاقتصاد الرعوي واصبح ثانويا ، كما تراجعت المكانة النسبية للقطاع الزراعي بعد ان كان يشكل القطاع الاقتصادي الاول ٠

اما قطاعات التعدين ـ المناجم فلم تكن تحظى الا باقل اهتمام ٠ وتطورت الصناعة والحرف ببطء شديد وظلت ذات مكانة هامشية ٠

ان احد المؤشرات الابرز على فداحة عواقب هذا النمط الخاص من التطور التبعي هو تعاظم دور ومكانة الدولة كمؤسسة ممولة من الخارج لغايات تعزيز السيطرة الاستراتيجية في المنطقة ولغايات تنفيذ سياستها ٠ ففي اقل من ربع قرن (من ١٩٢٥/٢٤ الى ٤٨ /١٩٤٩) زادت واردات الدولة الحالية نحو ستين مرة ٠ كل ذلك بفضل التمويل البريطاني للانفاق على الدولة والقوات والخدمات الاخرى ، حيث وصلت نسبة التمويل البريطاني منذ منتصف الاربعينات الى ٧٥٪ من واردات الدولة المالية ٠

وبنفس الوتيرة كانت تتصاعد نسبة الانفاق العسكري حتى وصلت حصة هذا الانفاق في منتصف الاربعينات الى قرابة ٧٥٪ من النفقات العامة للدولة ٠

اما المؤشر الثاني على عواقب التطور المشوه الذي ارسته السيطرة البريطانية فهو تنامي التجارة الخارجية ، التي هي تجارة استيراد اساسا ، وارتفاع العجز التجاري مع الخارج الذي كان يوازي قبل الحرب الثانية (وبالذات عام ١٩٣٦) قيمة ثلثي المستوردات الخارجية الى ما يوازي ٨٥٪ عام ١٩٤٨ ٠

والمؤشر الثالث على عواقب التطور المشوه والرث هو في السمة الخدماتية ـ التجارية لتطور القطاعات الحديثة التي نشأت وتطورت في ظل السيطرة الكولونيالية ٠ فمن دراسة طبيعية اعمال الشركات والمنشآت المرخصة في البلاد نجد ان غالبيتها العظمى كانت تتعاطى اعمال التجارة والخدمات في حين تمثل المؤسسات الصناعية والحرفية مكانة هامشية جدا ، ان في عددها او في رؤوس اموالها او في عدد العاملين لديها ٠ يكفي ان نشير هنا الى انه في نهاية المرحلة التي تغطيها الدراسة (١٩٥٠/٢١) كان عدد الشركات التي تتعاطى الاعمال الصناعية لا يزيد عن ١٦٨ شركة من مجموع الشركات المسجلة والبالغة ١٫٨٧٧ شركة ، اي ان نصيب الصناعة من مجموع الشركات المسجلة لم يزد عن ٩٪ تقريبا ٠

اما حصة المحلات والمؤسسات الحرفية والصناعية الالية فلم يتجـــاوز ٢٤٤ مؤسسة من بين ٥٨١٣ مؤسسة ، اي ١ر٤٪ منها٠في حين توزعت بقية الشركات والمؤسسات على اعمال التجارة والخدمات المختلفة ٠

ان السياسة الكولونيالية البريطانية قد ارست نموذجا خاصا من التطــــور التبعي في الاردن ، فاذا كانت اقتصاديات البلدان التابعة قد انتهت ببروز فـرع اقتصادي قائد ومسيطر على الاقتصاد كاستخراج النفط او احد المعـــادن او المحاصيل الزراعية وتصديرها فان بريطانيا قد جعلت من جهاز الدولة والجيـش ما يقوم بمقام القطاع الاقتصادي الرئيسي والمسيطر ، ومن حوله وبفضل تطوره كانت تنهض قطاعات اقتصادية اخرى كالتجارة والخدمات المختلفة ٠ وبسبب هذا النمط من التطور المشوه كانت تتراجع القطاعات الانتاجية التقليدية وبسببه لميكن ثمة فرص لتطور الصناعة او اي قطاع انتاجي حديث في البلاد ٠ اذ ان هـــذه القطاعات كانت ذات اهمية هامشية ، وهي تنمو بضعف شديد وفق حاجـــات هذا الاقتصاد المول من الخارج ، والذي لا يحتاج الى قاعدة انتاجية محلية ٠

كانت السيطرة الكولونيالية وفق النموذج الكولونيالي التقليدي حتى مـــع اعتمادها مبدأ تطور فرع انتاجي واحد تنتهي الى خلق قطاع اقتصادي حديـــث يحيط بهذا الفرع ، الى تطوير معين للقوى المنتجة والى خلق طبقة عاملة حديثـة تعمل فيهذا الفرع الانتاجي وفي القطاعات الحديثة المحيطة به(بعض الصناعات والموانيء والمرافق الحديثة ٠٠ الخ) ، لكن نمط التطور الخاص بالاردن لم يكـن يقود الى هكذا وضع ٠ فالسيطرة الكولونيالية في الاردن لم تكن تحتاج حتىلوجود قوات عسكرية كبيرة في البلاد (كما في العراق او فلسطين مثلا) لان الدولـــة والقوات المحلية كانت تقوم مقامها ٠ وبالتالي لم تكن بحاجة حتى الى ايجـــاد مؤسسات يضطر اليها اي وجود عسكري كبير من ورش التصليـــح والضيانة ، والمشاغل التي تزود القوات بالاحتياجات الضرورية ٠ وهكذا لم تتكون في البلاد طيلة عقود ثلاثة من السيطرة البريطانية ومن نشوء الدولة في الاردن المقومـات المادية للنهوض الاقتصادي وللتحرر الوطني ٠

ان عددا من السمات الخاصة بالتطور الكولونيالي للبلدان المستعمرة كانـت ضعيفة او معدومة في الاردن :

– فالاردن لم يشهد مثلا نمو قطاع اجنبي كبير في مجالي استخراج الخامات المعدنية وغير المعدنية والزراعة ، على الرغم من وجود هذه الخامات ، بينماعملت الشركات الاجنبية اساسا في التعهدات وشق الطرق والتجارة وعلى نطاق ضيـق ومحدود في الصناعة (صناعة التبغ ، استخراج الفوسفات) ٠

– لم يشهـد الاردن تطـورا في القاعـدة الهيكلية الاساسية Infrastructure التي من شأنها ربط البلاد بالشبكة المناسبة من الطرق والمواصلات الداخلية ومـن

استثمار المياه للطاقة والري وحتى الميناء الوحيد للبلاد لم يطور الا بحدود دنيا · ان التطور الذي حصل على القاعدة الهيكلية الاساسية قد تم في مجالات محـدودة كالطرق الاستراتيجية (طريق حيفا - بغداد) ومن انابيب البترول ، والمواصلات السلكية واللاسلكية ·· وقد املته الحاجات العسكرية والاستراتيجية فقط ·

- لم تعرف القوى المنتجة تطورا جديا · فتدمير الاشكال القديمة للانتاج لـم يكن يعمل لمصلحة قطاعات انتاجية حديثة، اجنبية او محلية، وانما املتهاعتبارات سياسية خاصة باخضاع السكان ذوي الروابط الاجتماعية والانتاجية القديـمة · ولذلك فان فائض الايدي العاملة من السكان المدمرين اقتصاديا لم يجد مشاريـع انتاجية بديلة في البلاد بل كان مضطرا للبحث عن عمل في المشاريع المؤقتة في المدن ولدى مشاريع الدولة (شق الطرق ومد الانابيب واعمال البناء) او للهجرة والعمل في البلدان المجاورة ولا سيما في فلسطين . وبالتالي لم تعرف القوى المنتجة تطورا فعليا · ولم تنشأ المقدمات اللازمة لتكون الطبقة العاملة · كما ان ضآلة انفـاق الدولة على الخدمات الضرورية كالتعليم والصحة والري والزراعة لم تساعد على تطوير القوىالمنتجة او على تجديدها واعادة تأهيلها·فظلت الامية منتشرة بنسب عالية ، كما كان عدد المدارس والطلبة محدودا للغاية ، اما الكادرات العاملة فـي الخدمات العامة والاجتماعية (الاطباء ، الصيادلة ، المعلمين ، الموظفين الفنيين) فقد كانت في غالبها من غير الاردنيين ·

وبكلمات اخرى ، اذا كانت الامبريالية من اجل قيامها بالنهب في البلدان التابعة والمستعمرة تضطر - لغايات نهبها للثروات - الى اقامة قاعدة مادية - تقنيـة للانتاج في بعض القطاعات واذا كانت من حيث لا تريد ، تنتهي الى خلق شـروط وظروف مناسبة لتطوير معين للقوى المنتجة ، فان الاردن لم يشهد هذه الظاهرة· لان الدولة هي الاستثمار الرئيسي للامبريالية البريطانية ، ولان تصدير الامـوال الى البلاد كان في شكل تصدير اموال حكومية موظفة بشكل رئيسي في الانفاق على الدولة ·وبهذا المعنى يمكن الحديث عن جهاز الدولة ، الجيش في الاردن كشكل من اشكال الاستثمار الاجنبي ، وهيقطاع مقابل للقطاع الاقتصاديالاجنبي الخاصفي البلدان المستعمرة ،الذي يتحول الى قطاعرئيسي موجة مسيطرعلىبقية القطاعات الاقتصادية · ولقد لعب جهاز الدولة مثل هذا الدور بالنسبة للقطاعات التقليدية والحديثةعلى حدسواء ·وبسبب هذهالخاصية فانالبلاد مثلما عرفتكل العواقب المدمرة للسيطرة الكولونيالية ، فانها لم تشهد ثمار الدور والعاقبـة الاضطرارية للامبريالية في البلدان المستعمرة والتابعة،ونعني مساهمتها منحيث لا تريد في توفير مقدمات تطور القوى المنتجة المحلية · الامر الذي يوضـح الاساس التاريخي - الموضوعي لاستمرار الاردن في وضع التبعية تجاهالامبريالية والسوق الراسمالي العالمي ، والذي يفسر استمرار لعب الفئات الحاكمةوالمهيمنة على جهاز الدولة دورا متناقضا مع حاجات القوى المنتجة - اي الطبقات الوطنية - ويفسر حرصها ، حتى اليوم ، على استمرار الارتباط بالامبريالية ·

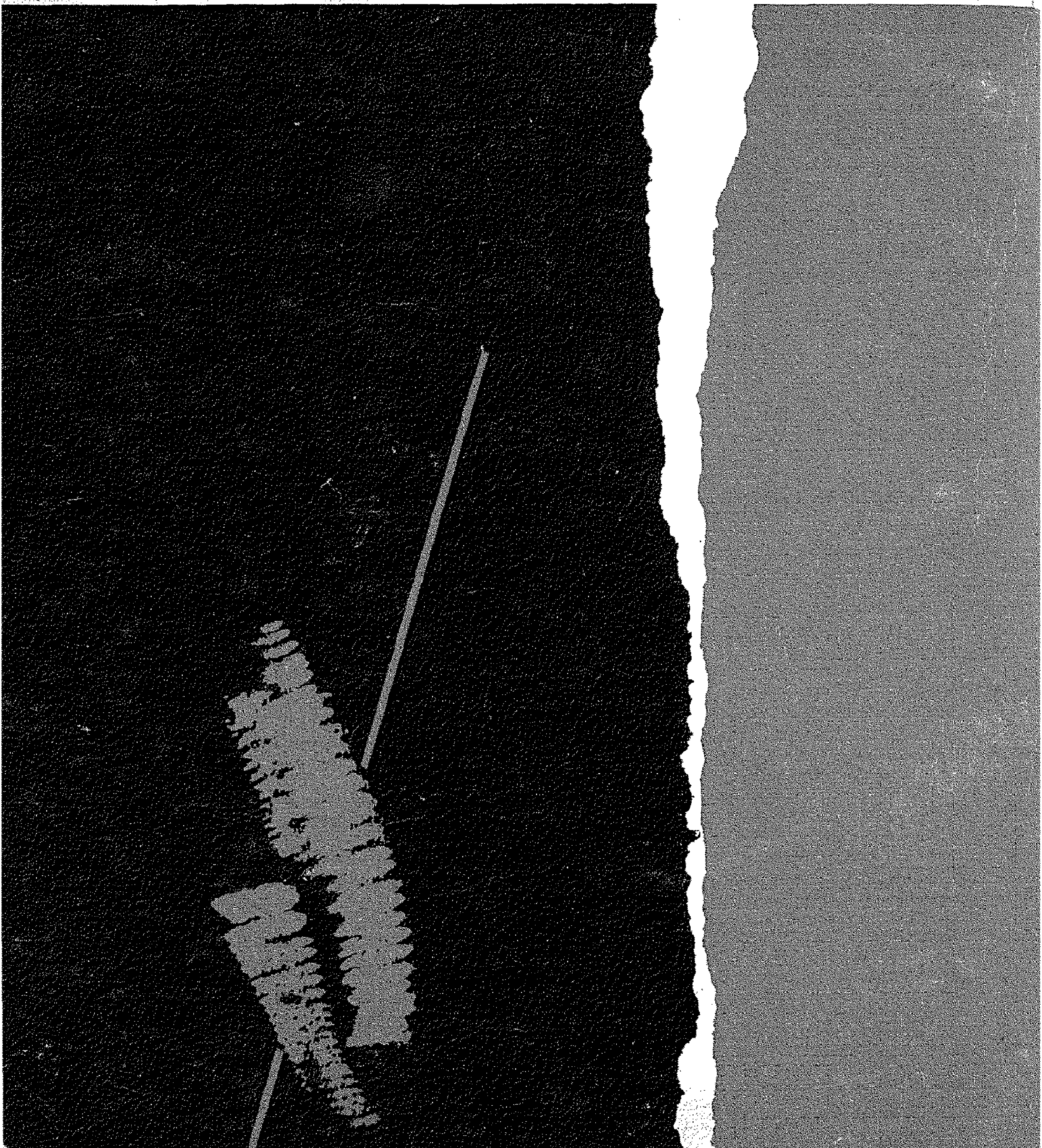
Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٢/١ ٣ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق
٨ دراهم في دولة الامارات العربية
٢/١ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٣٥٠ درهما في ج.ع.ل

شؤون فلسطينية

٦٦ ايار (مايو) ١٩٧٧



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : **محمود درويش**

سكرتير التحرير : **الياس خوري**

رقم ٦٦ — **ايار (مايو) ١٩٧٧**

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ؛ راس بيروت ، بيروت — لبنان ؛ ص.ب ١٦٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

مدير التوزيع : **غازي دانيال**

ثمن العدد : ١/٢ ٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ١/٢ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الأقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة
اميل

المحتويات

شؤون فلسطينية

انيس صايغ الى اللقاء ...

يذهب الدكتور انيس صايغ في مهمة · لا نقول : وداعا · نقول : الى اللقاء، ونلتقي · انه يضع القلم ذاته على الورق ذاته · سيشرف على مراكز البحوث · وفي وسعه الان ، وهو يعبر الفاصلة القصيرة ، ان يرى احدى عشرة سنة من التأسيس والانتشار اضاءت للفلسطيني وسواه،وفتحت للحقيقة الفلسطينية افاقا من الارتياد والاقتحام · وفي وسعه ان يفرح وهو يرى الى محصول الفلاحة في الارض الوعرة ·

خرج جريحا ومنتصرا · هذه جراحه : ثلاث اصابع · ستون بالمائة من النظر · وثمانون بالمائة من السمع · وهذه انتصاراته : انه يواصل البحث ··· ننظر الى الوراء قليلا ، من أجل التحية ، فنرى حقلا من البذور وقد اطلقت ، والعناوين وقد انتشرت · ونرى تراثا لا ينتهي من كفاح الحقيقة الفلسطينية التي حاول الغزو المسلح ، بالنار والحبر ، ان يحجبها عن الضمير وعن التاريخ · ويكون انيس صايغ جندي الصبر والمتابعة في عملية قهر الخرافة الصهيونية التي حاولت ان تغطي الزمن الفلسطيني والارض الاجمل · وننظر الى الامام ، دائما ، من اجل الامل والنصر ، فنرى بوادر التحول الكبير في النظرة والوعي ، ونرى زواج البندقية والمعرفة · فيكون القتال انضج ، وتكون الكتابة أكثر فاعلية ، ولا تكون العلاقة بين السلاح والقلم علاقة منافسة ، بل علاقة دفع واندفاع في مسيرة الثورة ، حيث تتحول المعرفة الى سلاح ·

وحين يذهب انيس صايغ في مهمته التي لا تنفصل عن توحده في مركز الابحاث و« شؤون فلسطينية » ، فانه يستطيع النظر الى الوراء باعتزاز حين يرى جهوده العلمية المعمدة بالدم وقد فعلت · وينظر دائما الى امام ، ويرى خطاه تشتبك بسياج فلسطين ، ويرى نفسه واحدا من الذين انجزوا ، بجدارة ، طريقة امتلاك فلسطين · وهو الان يتابع المهمة ذاتها التي تستغرق العمر كله · وفي كل موقع يبقى انيس صايغ امتدادا خلاقا لمركز الابحاث الذي هو بيته وعائلته · ولا تنفصل المؤسسة عن المؤسس · ويعرف ··· يعرف جيدا ان مهارة الزارع تتجلى في قدرة الغرسة على النمو والحياة خارج اليد التي غرست · وهو لم يشأ لها ان تكون ظلا ، بل اصلا ·

وفاؤنا لانيس صايغ هو ان نمضي في تطوير مركز الابحاث « وشؤون فلسطينية » · كل شيء من أجل فلسطين · وطريق فلسطين هي الثورة ·

محمود درويش

المجلس الوطني الفلسطيني : هزيمة المخاوف والشكوك

بلال الحسن

كل مجلس وطني فلسطيني له دائما قضيته المركزية التي يقف عندها ، يبحثها ويتخذ في شأنها القرار الذي يرتئيه ، وغالبا ما تكون هذه القضية اختيارا فلسطينيا بحتا في مواجهة حدث معين ·

وكل مجلس وطني فلسطيني يجد نفسه دائما في مواجهة ضغوط عربية او دولية تحاول دفعه باتجاه قرار ما ، ينسجم مع مصالح هذه الجهة او تلك ·

ولكن المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة الثالثة عشرة ، كان فريدا من نوعه ، من حيث نمط الضغوط التي كان معرضا لها ، وهو من هذه الناحية يمكن اعتباره ذا اهمية خاصة ·

فقد سبقت المجلس اجواء عربية ودولية وفلسطينية ، لم تكن تستهدف الضغط السياسي فحسب ، انما وصلت الى حدود المس بشرعية القيادة الفلسطينية وزحزحتها عن موقعها ، والى حدود الطلب بتغيير المنطلقات الاساسية للنضال الفلسطيني · وتحديد هذه الاجواء ، والقاء الضوء عليها ، يشكل مفتاح فهم أبعاد دورة المجلس الاخيرة ، ومغزى القرارات التي صدرت عنها ·

عربيا :

فعلى الصعيد العربي ، سبقت انعقاد المجلس حملة تطالب بتغيير قيادة منظمة التحرير الفلسطينية · في مرحلة من المراحل كان هدف الحملة احداث انشقاق فلسطيني وانشاء منظمة تحرير بديلة لمنظمة التحرير بقيادتها الفدائية المعروفة · وفي مرحلة تالية انصبت هذه الحملة على المطالبة بتغيير الرموز القيادية برموز قيادية جديدة · ثم تراجع أصحاب الحملة الى حل وسط طالبوا فيه بابعاد هذا الشخص أو ذاك من موقع القيادة ، داخل منظمة التحرير او داخل التنظيم الذي ينتمي اليه ، كشرط لاستمرار الدعم العربي لمنظمة التحرير ·

وهكذا ··· ولاول مرة منذ العام ١٩٦٨ ، وهو العام الذي تسلمت فيه

فتح والقيادة الفدائية الفلسطينية منظمة التحرير ، وجدت القيادة الفلسطينية نفسها في موقع صعب ، يشكك فيه الحلفاء بشرعيتها ويطالبون بتغييرها ، ويسعون لفرض هذا التغيير من الخارج ٠

ولم تكن المسألة هنا مسألة تنظيمية ، ولا مسألة شخص او أشخاص يسهل وجودهم أو غيابهم عن الساحة قضية التعامل الفلسطيني مع الوضع العربي٠ ففي هذا الاطار تتضاءل أهمية الاشخاص ٠ كانت القضية في جوهرها قضية سياسية ، وخلافا سياسيا بين منظمة التحرير ومجموع الوضع العربي ، خلافا حول مفهوم التسوية السياسية المطروحة لحل أزمة الشرق الاوسط ودور الشعب الفلسطيني فيها ٠

وفي هذا الخلاف ، كانت الاطروحات كثيرة ومتعددة ٠ بعض الاطروحات ، كان يتحدث عن فشل القيادة الفلسطينية المتكرر : فشلها في عمان ١٩٧٠ وفي لبنان ١٩٧٦ ، ويحملها تبعة كل المخططات المضادة التي تعرضت لها ، وينكر عليها حق تسجيل المكتسبات الكبيرة التي توصلت اليها ، ويطالب بالتالي بمحاسبتها وتغريمها وابعادها ٠

أطروحات أخرى ، كانت تحمل القيادة الفلسطينية مسؤولية التصلب السياسي ، والعناد ، وعدم الحسم الداخلي ، الامر الذي ادى الى تغلغل « اليسار » في صفوفها ، وجعل بالتالي ، امكانية الحصول على تأييد دولي (غربي) لمطالبها امرا صعبا ٠ وهي اما أن تحسم هذه المسألة جذريا وتطهر صفوفها من العناصر اليسارية ، أو أن تتنحى لصالح قيادة من نوع اخر تتولى انجاز هذه المهمة ٠

وكان ثمة نوع ثالث من الاطروحات ، اكثر ذكاء وعملية ، يتجنب طرح موضوع القيادة وتبديلها ، ويسعى لاستيعابها سياسيا وتطويعها لمخططه ٠ والمطالب هنا كانت عملية ومحددة :

ـ الاطراف الدولية (الاميركية) لا تريدكم في مؤتمر جنيف ، فلا بد اذن من ذهابكم ضمن وفد عربي موحد ، ولا ضرورة هنا للتمسك بشعار « الممثل الشرعي الوحيد لشعب فلسطين » ، فهذه قضية عربية تحل بين العرب انفسهم ٠

ـ الاطراف الدولية (الاميركية والاسرائيلية) لا توافق على انشاء دولة فلسطينية مستقلة ، فلا بد اذا من صيغة اتفاق قانونية مسبقة بينكم وبين النظام الاردني ، قبل الذهاب الى مؤتمر جنيف ٠ ولا بد بشكل ادق من اقتسام التمثيل للشعب الفلسطيني بينكم وبينه ٠

وأمام هذه الاطروحات ، كان الجواب الفلسطيني مطلوبا بحرارة ٠ كان عليه ان يبين استجابته لهذه الاطروحات او رفضه لها ٠

دوليـــا :

ولم تكن صورة المطالب الدولية عشية انعـقاد المجلس الوطني الفلسطيني اقل تواضعا من المطالب العربية ، فمن الولايات المتحدة الاميركية الى اسرائيـل الى الامم المتحدة ممثلة بفالدهايم كان هناك مطلب يتكرر باستمرار ، يدعـو او يتوقع تعديل الميثاق الوطني الفلسطيني ، وازالة كل ما ورد فيه عـن ازالة الكيـــان الصهيوني والتحرير الكامل لفلسطين • وكانت هذه المطالبة بتعديل الميثـــاق ترد احيانا في تصريحات رسمية لكبار المسؤولين ، وترد في اغـلب الاحيان من خـلال حملة اعلامية منظمة ساهمت فيها كبرى الصحف والمجلات ووكـــالات الانباء ، وهي تتحـدث مرارا وتكرارا عـن التعديل المنتظر للميثاق • واستغلت هذه الحملة في بعـض الاحيان الحديث الفلسطيني عـن دولة في الضفة الغربيـة وقطاع غـزة كشعـار مرحلي ، لتضعـه مقابل شعـــار « دولة فلسطيـــن الديمقراطية » • وشاعـت هذه الحملة الاعـلامية الى حد القول بأن القيـادة الفلسطينية تملك بيدها مفتاح تسهيل او تعقيد المحادثات التي يمكن ان تبـــدأ لحـل أزمة الشرق الاوسط •

وقد نجحت هذه الحملة الاعـلامية بقلب المسألة المطروحة رأسا على عـقب ، فبدلا من الحديث عـن الاحتلال وضرورة ازالتـه ، وبدلا من الحديث عـــن الشعب الفلسطيني وضرورة نيله لحقوقه الوطنية ، أصبح المطروح تنازل الشعب الفلسطيني عـن مطالبه المبدئية ، وضرورة ان يقدم هذا الشعب اعترافا بوجـود دولة اسرائيل ، والا فان التسوية السياسية كلها مهـددة بالخـطر ، بسببه هو ، لا بسبب اعتداءات اسرائيل • وقد زاد من حدة المشكلة ، أن بعض الاطـــراف العربية لم تكن لتجد في هذا المطلب الاميركي ـ الاسرائيلي أية غضاضة ، وتحاول بشكل أو باخـر ان تشجع منظمة التحرير عـلى أن تكون أكثر واقعية في مواجهة المشكلات القائمة !!

وهنا أيضا •• كان الجواب الفلسطيني مطلوبا بحرارة • وكان عـليـه ان يجد مخرجا أمام مطلب تعديل الميثاق او تحمل تبعة تعطيل التسوية !

فلسطينيا :

وعلى الصعيد الفلسطيني ايضا نشأ وضع خاص متميز عن الاوضاع التي كانت تسبق المجالس الوطنية الفلسطينية السابقة • فلاول مرة منذ العام ١٩٦٨ ، بـرز جو مـــن القلـق الشعبي الفلسطيني مـــن امكانيـــة رضـــوخ قيادة المنظمة للضغوط العربية والدوليـــة التـي تتعرض لهـــا • وانتقـل هـــذا القلـق مـــن اوساط الجماهيـر الى اوساط اعضاء المجلس الوطني ، وخاصـة الاعضاء الجدد منهـم •

ويعود هذا القلق في جانب اساسي منه الى الالحاح العربي في مطالبة المنظمة بمواقف سياسية معينة ، والى الحملة الاعلامية الدولية التي شنت على نطـــاق واسع ومتكرر ٠ ولكن الموضوعية تقتضي القول انه كانت هناك مواقف فلسطينية، وتصريحات فلسطينية ، شجعت عـلى بروزه ، امـــا لخـــطأ هـــذه المواقـــف والتصريحات، او لتجاهل القيادة ضرورة شرح الممارسات السياسية لجماهيرها، وكسب التأييد الجماهيري لهذه الممارسات قبل الاقدام عـليها ٠ وقد اوجد غياب هذا الشرح شرخا في العلاقة بين القيادة وجماهيرها كان يهدد بأوخم العواقب ٠

كانت الاوساط العربية تطالب المنظمة باقتسام تمثيل الشعب الفلسطيني مـــع النظام الاردني ، وفي هذا الجو ، بدأت المباحثات الرسمية مع النظـام الاردني ، ولم يكن هناك شرح لاسباب هذه المحادثات ولا للمبادىء التي تقوم عليها ٠

وكانت الاوساط الدولية تطالب بتعديل الميثاق كمقدمة للاعتراف باسرائيل ، وفي ظل هذه الحملة تسربت الانباء عن اجتماعات سرية يعقدها موفدون فلسطينيـــون مع اطراف اسرائيلية ، وجرى الربط بين الطلب والاتصالات في غياب اي شــــرح او تبرير لهذه الاتصالات ٠

وفي الوقت الذي اذاع فيه كرايسكي مستشار النمسا ان مذكرة فلسطينية قدمت اليه تتضمن اعترافا ضمنيا بدولة اسرائيل ، كان هناك من القادة الفلسطينيين من يصـــرح معلنا استعداده لعقد هدنةمع اسرائيل ٠مضيفا الى ذلك اعلان الاستعداد للذهاب الى جنيف ضمن وفد عربي موحد ومعترفا في الوقت نفسه بالاتصـــالات السرية التي تجري مع بعض الاطراف الاسرائيلية ٠

وقد تجمعت هذه الوقائع كلها ، واتخذت لنفسها تركيبا معينا صب في مجـــرى الشك والتخوف ، وكان على المجلس الفلسطيني ان يقدم جوابا على ذلـــك كله ، وكان الجواب مطلوبا بحرارة ، فاما ان يتعزز الشك ، او ان تتعزز اللحمـــــة الوطنية من جديد ، خاصة وان هناك من كان معنيا بالقول ، ان الموقف الفلسطيني على وشك الانقسام العلني الواسع ، وانه بسبب هذه المواقف والخلافات حولها، سينشق المجلس الوطني الفلسطيني على نفسه ، وستعلن جبهة الرفض انسحابها، وربما تشكيل منظمة تحرير بديلة ، وسيكون هناك من الدول العربية من يدعم هذا الانشقاق ويغذيه ٠ وعند ذلك يكون المجال مفتوحا للقول بان منظمة التحريـــر منقسمة على نفسها ، وهي بمواقفها المتعددة ، والمتناقضة لا تمثـــل الشعـــب الفلسطيني ، وان هناك ممثلين اخرين يمكن التعامل معهم ، قد يكونون في الاردن، او في الاراضي المحتلة ٠

المناقشـــات :

هذه هي ابرز الاجواء السياسية التي كانت تحيط بدورة المجلس ٠ والان ٠٠٠ نستطيع القول بجلاء ، ان المجلس تصدى لهذه الاجواء كلها مباشـــرة ودون اي

موارية ، وحدد بصددها اجوبة صلبة وصريحة · وقد حدد اجوبته هذه علـــى مستويين :

حددها اولا من خلال النقاش الذي ركز على الضغوط والشكوك القائمة واعلن رفضه لهـــا ·

وحددها ثانيا من خلال القرارات ، التي لم تكتف باعـلان رفض الضغـوط ، وازالة الشكوك ، بل رسمت بالمقابل خطة عمل تتيح التمسك بالمواقف المبدئيـــة الصلبة ، دون ان تعزل نفسها عن الحركة السياسية العربية والدولية ، حتـى لا يكون هناك مجال لاي تصرف بالقضية الفلسطينية في غياب ممثليها الشرعيين ، او حسب اسس تتناقض مع الاسس التي يتمسك بها هؤلاء الممثلون ·

ومن الضروري ان نشير هنا الى ان الذين بادروا ، سواء من خلال النقاش او القرارات ، الى مواجهة الضغوط وازالة علامات الشك ، كانوا هم انفسهم ، الذين استهدفتهم الحملات الاعلامية العربية والدولية ، ورشحتهم لان يقودوا عمليـــة التراجع المبدئية والسياسية ·

لقد جرت العادة على القول دائما ، بان هناك فريقا معـــتدلا في الساحـــة الفلسطينية ، يخاف من الكشف عن مواقفه المعتدلة ، بسبب وجود فريق آخـــر متصلب ورافض ، وقد حدث في المجلس الوطني الثالث عشر ان نسفت هذه النظرية تماما ، فقد بادر «المعتدلون» في منظمة التحرير الى مواجهة ودحر حملات الضغط والتشكيك ، مؤكدين ان القيادة الفلسطينية هي المحافظ الشرعي والامين علـــى « مبادىء » النضال الفلسطيني ، وان عملية الحفاظ على هذه المبادىء تنطلق من قناعات القيادة نفسها ، دون ان تتأثر بمواقف او ضغوط الفريق المتصلب · وقد كان لهذا الامر تأثيره العملي في النتيجة ، على مواقف اطراف الفريق المتصلب، كما سنرى بعد قليل ·

لقد افتتح المجلس الوطني مساء يوم ١٢ آذار ، وفي ١٣ اذار جرى في جلستين صباحية ومسائية، انتخاب رئيس المجلس واقرار جدول الاعمال، وفي اليوم الثالث تلا فاروق القدومي رئيس الدائرة السياسية ، التقرير السياسي للجنة التنفيذية ·

ان تسجيل هذه الوقائع مهم من أجل التأكيد على ان التقرير الذي حدد كثيرا من المواقف الاساسية والمبدئية والعملية ، قد تم قبل بدء النقاش العلني ، هـــذا النقاش الذي عكس بصراحة ووضوح وجرأة ، كل المخاوف والشكوك التي اشرنا اليهـــا ·

تعديل الميثاق :

لقد كان الهاجس الاساسي الذي يخيم على المجلس هو تعديل الميثاق الوطنـي الفلسطيني ، تعديله كمطلب اميركي · وقد اثار فاروق القدومي في تقريره صراحة

الى ذلك حين قال (ص ٣٢) :

« من خلال تصريحات فانس وزير خارجية الولايات المتحدة خلال زيارته للمنطقة ، والتي طالب فيها بضرورة تغيير الميثاق الوطني الفلسطيني ، نلمس ان العدو يعمل على ان يجعل من العنصر الفلسطيني رقما جديدا مضافا الى بعض الارقام في مسيرة التراجع والتنازل والانهزام ، ظنا منه ان الثورة الفلسطينية اصبحت في وضع لا يؤهلها لمقاومة المشاريع الامبريالية الاميركية ـ الصهيونية».

وخرج فاروق القدومي عن النص ليقول :« ان تعديل الميثاق الوطني الفلسطيني في هذه المرحلة .. خيانة » . ثم حدد (ص ٣٣) اسس العمل السياسي لمنظمة التحرير في المرحلة المقبلة مبتدئا بالقول « العمل على تعزيز الوحدة الوطنية بين فصائل الثورة الفلسطينية ... في اطار منظمة التحرير ، والالتزام بميثاقها ومبادئها وقراراتها » .

وانزاح بذلك هم اساسي كان يسيطر على اجواء المجلس ، وتبدد خوف اساسي نجحت الحملة الاعلامية الاميركية في فرضه « نفسيا » على الكثيرين .

وكانت القيادة الفلسطينية ، هي التي بادرت لتفعل ذلك من تلقاء ذاتها ، وقبل ان يبدأ النقاش الذي حذر من خطورة هذا التعديل المطلوب .

القرار ٢٤٢ :

وكان الهاجس الثاني المسيطر على اجواء المجلس هو الخوف من الموافقة على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، واعلان الاستعداد لحضور مؤتمر جنيف على أساسه ، انطلاقا من التحليل القائل بأن ما تعرضت له الثورة الفلسطينية من ضربات خلال السنتين الماضيتين ، يجعلها عاجزة عن الاستمرار في اعلان معارضتها لهذا القرار . وهنا ايضا حصل العكس تماما ، اذ جدد تقرير اللجنة التنفيذية رفضه لهذا القرار في اكثر من موقع :

في الصفحة الثانية قال التقرير : « ان احد بنود خطة العمل السياسية للمنظمة خلال السنوات الثلاث الماضية كان .. افشال المحاولات التي استهدفت ربط القضية الفلسطينية بمنطوق قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ » .

ثم شرح التقرير مطولا العمل السياسي الفلسطيني الذي استهدف تخطي هذا القرار ، واستصدار قرار آخر يضمن الحقوق الفلسطينية الوطنية الثابتة ، للاستناد اليه في اية معالجة للقضية الفلسطينية في اي محفل دولي .

واوضح التقرير انه تم التوصل الى هذا القرار المطلوب في الدورة الـ ٢٩ للجمعية العامة للامم المتحدة ، وهو القرار (٣٢٣٦) الذي ينص على :

حق الشعب الفلسطيني في فلسطين بما في ذلك :

١ ـ الحق في تقرير المصير ٠

٢ ـ الحق في الاستقلال والسيادة الوطنية ٠

٣ ـ حق الفلسطينيين المشروع في العودة الى ديارهم وممتلكاتهم ٠

٤ ـ حق الشعب الفلسطيني في استعادة حقوقه بجميع الوسائل ـ طبقا لاهداف وميثاق الامم المتحدة ٠

ثم اوضح التقرير (ص ١٨) ان القرار رقم ٢٤٢ قد فقد اهميته الدولية عندما رفض مجلس الامن في يناير ١٩٧٦ تأكيده مرة اخرى ، كما ان قرارات الجمعية العمومية قد تجاوزته ٠

لقد قضت هذه المواقف الواضحة على كل بذور الشك التي سعى الكثيرون لفرضها ، وهنا يصح التساؤل ، هل يمثل هذا لقاء بين المعتدلين والمتصلبين في منظمة التحرير ؟ هل يمثل هذا لقاء بين القابلين والرافضين حسب التسميات الشائعة ؟

حسب الظاهر يمكن ان نقول نعم ٠ اما في الجوهر ، في العمق ، فان نهجين مختلفين لا زالا قائمين في الساحة الفلسطينية ٠

منهج « المتصلبين » و « الرافضين » الذين يتوقفون عند حدود القول بان الظروف الراهنة لا تتيح الفرصة لانجاز تسوية وطنية لصالح شعبنا ، ومنهج « المعتدلين » و « الواقعيين » اي الثوريين ، الذين يتقدمون خطوة الى الامام ، ويضعون خطة عمل لتجاوز الظروف والوقائع « التي لا تتيح الفرصة لانجاز تسوية وطنية لصالح شعبنا » ، خطة يكون مضمونها السعي لانتزاع قرارات لصالح شعبنا تكون بديلا لقرار ٢٤٢ ٠ وقد تم ذلك فعلا بالقرار ٣٢٣٦ ٠ اما الترجمة العملية لذلك فهو ما عبر عنه فاروق القدومي في رده على المناقشات التي تلت تلاوة التقرير حين قال :

« لقد رفضنا جنيف ٢٤٢ بطريقة اخرى ٠ وضعنا شروطا تجعل الاخرين يرفضون ذلك » ٠

وحين اضاف :

« ان موقفنا هو حضور جنيف بشروطنا ، وهي قرارات الامم المتحدة الاخيرة » ٠

رفض شروط الآخرين ٠

او رفض شروط الاخرين والعمل حسب شروطنا ٠

هذان هما المنهجان السياسيان المتصارعان في الساحة الفلسطينية • وقد تصارعا في المجلس الوطني الثالث عشر • وسيستمر صراعهما ، وهو صراع ايجابي ومثمر وبناء ، اذا احسنت ادارته بطريقة تسهم في اغناء الفكر السياسي الفلسطيني ، اي باستمرارهما ، دون توقف عند تخوم الاتهام والاتهام المضاد فحسب •

النظام الاردني :

وكان الهاجس الثالث في المجلس موضوع المفاوضات مع النظام الاردني ، والتخوف من ان تكون هذه المفاوضات رضوخا من قيادة المنظمة للضغط العربي الذي تواجهه ، والذي يستهدف مصادرة حق تمثيل منظمة التحرير للشعب الفلسطيني لصالح النظام الاردني• والذي يستتبع نتيجة لذلك أمرين :

اولا : الموافقة على فكرة الوفد العربي الموحد لمؤتمر جنيف ، اذا عقد هذا المؤتمر •

ثانيا : الموافقة على «مشروع المملكة المتحدة» بديلا عن شعار السلطة الوطنية الذي اقره المجلس الوطني في دورته السابقة •

وقد حسمت هذه القضية بضجة اقل بكثير من الضجة التي احاطت بالقضايا الاخرى التي نوقشت في المجلس • وكان حسمها من خلال التأكيد على ان هذه المفاوضات تتم ، من وجهة نظرنا ، حسب قرارات قمة الرباط ، وتطبيقا لها ، وهي لن تحمل ، من وجهة نظرنا ، اي معنى مخالفا لذلك • وبالنسبة للمخاوف النابعة من هذا التفاوض (الوفد الموحد ، ومشروع المملكة المتحدة) ، فقد جرى توضيح الموقف منهما في القرارات السياسية ، دون اشارة الى موضوع المفاوضات مع الاردن بالذات وحين تجاهلت القرارات التطرق الى موضوع الاردن بالاسم ،كانت تشير بذلك الى ان المفاوضات مع الاردن موضوع سياسي طارىء ، قد ينجح وقد يفشل ، ولكنه لا يرقى الى مستوى تسجيله كبند ملزم من بنود خطة العمل الفلسطيني في المرحلة المقبلة •

وبازالة هذه المخاوف يبقى ان نشير الى حجة اساسية اثيرت ضد مبدأ المفاوضات مع النظام الاردني ، وليس ضد المخاوف المرتبطة بهذه المفاوضات فقط • وكانت هذه الحجة تقول ان التفاوض مع النظام الاردني يشكل خروجا عن قرارات المجلس الوطني السابق ، الذي دعا الى تشكيل جبهة وطنية فلسطينية ـ اردنية تعمل لانشاء نظام وطني ديمقراطي بديلا للنظام الملكي الراهن •

وهذه الحجة صحيحة • كما ان القول بان قيادة منظمة التحرير قد خالفت قرارا من قرارات المجلس ، صحيح ايضا •

ولكن لا بد هنا من توضيح نقطتين :

النقطة الاولى ، ان هذه المخالفة ليست مخالفة مزاجية ، بل هي تعود في جذورها الى مؤتمر القمة العربي في الرباط ، وهو المؤتمر الذي اقر بموافقةالنظام الاردني ان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، وهو المؤتمر الذي وعد ايضا بتقديم كل دعم ومساندة لمنظمة التحرير من اجل تمكينها من أجل بناء كيانها السياسي · وقد شكلت هذه القرارات منذ ان صدرت تخطيا موضوعيا لقضية الصراع الفلسطيني مع النظام الاردني ، من زاوية القضية المركزية التي كان يدور حولها هذا الصراع ، وهو : من يمثل الشعب الفلسطيني، ومن يكون مسؤولا عن اية ارض فلسطينية يتم استرجاعها · وبهذه القرارات استطاعت الدبلوماسية الفلسطينية ان تحل الاشكال الاساسي الذي كان الصراع دائرا بسببه مع النظام الاردني ، وهي عملت منذ ذلك الوقت بما ينسجم مع تلك القرارات دون ان يكون هناك اي صوت فلسطيني معارض لها ·

والنقطة الثانية في هذا السياق ان خروج القيادة الفلسطينية على قرار المجلس الوطني السابق لم يكنموقفا تعسفيا اقدمت عليهدون تمسك بالاصول الديمقراطية، اذ من المعروف ان المجلس المركزي الفلسطيني ، الذي يمثل المجلس الوطني في فترة غيابه ، هو الذي قرر بدء التفاوض مع النظام الاردني ، وهو الذي حدد في حينه شروط هذا التفاوض وثبت انها تسعى لتحقيق اهداف القمة العربية في الرباط ·

لقد جرى العرف على ان يجري التأكيد دائما ، على ضرورة واهمية الالتزام بميثاق وقرارات المجلس الوطني الفلسطيني ، ولكن الهدف من ذلك هو الرغبة الدائمة في التركيز على وحدة الموقف الفلسطيني ، وليس الهدف ابدا ان تصبح القيادة الفلسطينية اسيرة قراراتها السياسية · فالقرارات توضع من اجل خدمة هدف معين ، وفي ظرف سياسي معين ، وهي ليست وثنا يستعصي على التطوير او التغيير ، اذا تغيرت الظروف التي استدعت وجودها ·

الاتصالات :

ونأتي الآن الى الهاجس الرابع الذي سيطر على المجلس الوطني ، وكان اكثر هذه الهواجس اثارة للجدل والنقاش الحاد والمتوتر ، ونعني به قضية الاتصالات السياسية مع المنظمات الصهيونية ·

وقد بدأ نقاش المجلس حول هذه القضية مبكرا ، فمنذ جلسة العضوية طلب « ناصيف عواد » من جبهة التحرير العربية التحفظ على عضوية اثنين من اعضاء المجلس قيل انهما اجريا الاتصالات ·

وبعد تلاوة التقرير السياسي طلب عبد الوهاب الكيالي (ج·ت·ع) توضيحا حول الاتصالات وما اذا كانت قد تمت بعلم القيادة او بتفويض منها ؟

ومع بدء المناقشة العامة طلبت الجبهة الشعبية (تيسير قبعة) بمحاسبة العضوين المذكورين وان يكون المجلس الوطني بمثابة محكمة لهما ٠

وحين تحدثت الصاعقة (محمد خليفة) اعلنت رفضها للاتصالات مع العدو الاسرائيلي مباشرة او غير مباشرة ٠ ومع انها اكدت انها لا تتهم احدا ، الا انها طالبت بمحاسبة من يخطىء ٠

وقد قدم الرد الاساسي محمود عباس (ابو مازن) ، الذي سبق له واعلن قبل انعقاد المجلس معرفته بوجود اتصالات مع هيئات اسرائيلية معادية للصهيونية ٠ وكشف ابو مازن في رده عن خطة فلسطينية هدفها تشجيع اليهود العرب على ترك اسرائيل والعودة الى البلاد العربية التي هاجروا منها ، وبين ان هناك مساع ناجحة مع بعض الحكومات العربية لاستصدار قوانين تحمي هؤلاء اليهود عند عودتهم ، كما بين ان هناك خططا معدة لتوفير ما يلزم من اموال لتغطية نفقات عودة من يرغب من هؤلاء اليهود ، وتمكينهم من الاستقرار والعيش من جديد ٠ واكد ابو مازن ان الهدف من هذا العمل هو السعي لتفتيت المجتمع الاسرائيلي من الداخل ٠ وقد كان ابو مازن في اطار هذا العرض موفقا جدا ومقنعا جدا ٠ الا ان « ابو مازن » ختم حديثه هذا بالقول ، وبايجاز شديد ، ان الاتصالات التي جرت كانت مع منظمات غير صهيونية ، وتمت من اجل انجاح قضية التهجير ، فخلط بذلك بين قضيتين : قضية التهجير ، وقضية الاتصالات السياسية ، وهما قضيتان مختلفتان لا علاقة لاحداهما بالاخرى ٠

وقد تناول هذه النقطة بالرد سامي العطاري (صاعقة) ، فقرأ بنودا من برنامج « حركة السلم الاسرائيلية » وهي الحركة التي تمت الاتصالات الاساسية معها ، محاولا تبيان الطابع الصهيوني الواضح لهذه المنظمة ٠

ثم عاد احمد اليماني (الشعبية) فاعلن رفضه لهذه الاتصالات ، ورفضه كذلك للرد الذي قدمه « أبو مازن » ٠

وفي النهاية ، وفي الرد الموسع على المناقشات الذي قدمه ياسر عرفات ، تطرق مرة اخرى لهذه المسألة ٠ دافع عرفات عن الاتصالات وقال ان الهدف منها هو تشجيع الهجرة الاسرائيلية المضادة ، ودافع عن عصام صرطاوي بالاسم وشرح موضوع الرسالة التي قدمها الى فيلكس بوانييه رئيس ساحل العاج ، وابرز الرسالة في المجلس داعيا من يريد للاطلاع عليها ، مؤكدا انها لا تتضمن اي خروج عن اهداف منظمة التحرير ٠ واوضح عرفات في رده ان الرسالة ليست رسمية لانها كتبت على ورق الفندق الذي كان يقيم فيه عصام صرطاوي ٠ وانها قدمت بمبادرة فردية منه ٠ واشار الى ان الصرطاوي ربما يكون قد اخطأ ، وذهب الى ابعد مما كلف به ٠ وختم حديثه قائلا « لكننا نحن الثوار مثل الملائكة ندخل في الوحل ولا نتلوث » ٠

وكان قد اتضح من خلال المناقشات انه ليس هناك معارضة من حيث المبدأ للاتصالات مع القوى الاسرائيلية الديمقراطية والتقدمية ، وخاصة تلك القوى التي تؤيد الحق الفلسطيني وترفض سياسة التوسع الصهيونية ، وان المعارضة تنصب حول الاتصال بقوى ذات طبيعة صهيونية واضحة . ولذلك ... جرت محاولة لضبط هذه المسألة في البرنامج السياسي الذي اكد على « اهمية العلاقة والتنسيق مع القوى اليهودية الديمقراطية والتقدمية فيداخل الوطن المحتل وخارجه والتي تناضل ضد الصهيونية كعقيدة وممارسة » . ومع ان هذه الصيغة توفر الضوابط الكافية لعدم الخروج بالاتصالات عن الاهداف المرجوة منها ، الا ان هذا لم يكن كافيا لان يلغي قلق الكثيرين من اعضاء المجلس ، خاصة وان هذه القضية كانت القضية الوحيدة التي شعر الاعضاء ان النقاش حولها لم يأخذ مداه حتى النهاية .

برنامج المرحلة :

وبوصول المناقشات الى هذا الحد من الوضوح والتصلب المبدئي تجاه ابرز واهم القضايا التي اثيرت ، شاع جو من الارتياح داخل المجلس اصبح من الممكن معه الانتقال بروية وهدوء الى اعمال اللجان دون ان تكون هناك عقبة قادرة على ان تقف عائقا في وجه الوصول الى توصيات اجماعية . لقد انتفى جو الشك ، وتبددت المخاوف . وكانت القيادة الفلسطينية هي التي بادرت لذلك ، ومن خلال مواقف واضحة مبدئية .

وعلى قاعدة من الوضوح ، والتصلب ، والتمسك بالميثاق ، ورفض الضغوط الدولية والعربية ، تركز العمل على بلورة برنامج سياسي يستطيع ان يندفع خطوة الى الامام ، وان يشكل ردا عمليا على المطالب والضغوط .

لقد اكدت القرارات بوضوح :

- التمسك بالميثاق .
- رفض قرار مجلس الامن ٢٤٢ ورفض التعامل على اساسه عربيا ودوليا .
- رفض جميع اشكال التسويات الاستسلامية الاميركية .
- رفض الصلح والاعتراف بدولة اسرائيل .

وجنبا الى جنب مع هذه القضايا المبدئية ، قرر المجلس :

- تطوير شعار « السلطة الوطنية » الذي جرى اقراره في المجلس الوطني الثاني عشر . الى شعار « الدولة الوطنية المستقلة » ، ردا على كل محاولة تسعى للقفز من فوق هذا المطلب . او استغلال عمومية شعار « السلطة الوطنية » للحديث عن كيان سياسي ما للشعب الفلسطيني يمكن ربطه او احتواؤه داخل اي

كيان عربي آخر ، بدون الارادة الحرة للشعب الفلسطيني ٠

□ تأكيد قضية الوفد الفلسطيني المستقل والمتكافىء مع بقية الوفود ، في جميع المؤتمرات والمحافل الدولية المعنية بقضية فلسطين ، ردا على فكرة الوفد العربي الموحد التي يريد البعض منها مصادرة حق منظمة التحرير في ان تكون الممثل الشرعي الوحيد لشعبها ٠

□ التأكيد على ان قرار الامم المتحدة رقم (٣٢٣٦) الصادر عام ١٩٧٤ هو الذي يعبر عن الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، وهو الذي يحدد حركة منظمة التحرير ، مقابل قرار مجلس الامن رقم (٢٤٢) ٠

□ ربط شعار « الدولة الوطنية المستقلة » بحق العودة لشعبنا الى الاراضي التي انتزعت منه العام ١٩٤٨ ، لتأكيد الربط بين الشعار المرحلي والشعار الاستراتيجي ٠

وبهذه القرارات استطاع المجلس الوطني ان يخرج بمعادلة تلائم بين التمسك الصلب بالمبادىء ، وطرح خطة عمل واقعية تضعه في صلب النضال السياسي العربي والدولي ، ضد كل نظريات العزلة « اليمينية » او « الثورية » ٠

تحالفات جديدة :

وقد انعكست هذه النتائج على اللحمة الداخلية بين فصائل المقاومة الفلسطينية بشكل متميز عن اي مؤتمر سابق منذ بروز « جبهة الرفض الفلسطينية » ٠

فبدلا من ان يكون هناك خلاف سياسي بين القيادة الرسمية لمنظمة التحرير وبين جبهة الرفض ، برز هذه المرة خلاف بين اطراف جبهة الرفض نفسها ، وانحازت ثلاثة فصائل من جبهة الرفض الى جانب القيادة الرسمية ، مقابل فصيل واحد هو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ٠ وقد صوتت هذه الفصائل الثلاثة (جبهة التحرير العربية ـ الجبهة الشعبية القيادة العامة ـ وجبهة النضال الشعبي) مؤيدة القرارات السياسية التي صدرت عن المجلس ، والتي عارضها فقط ١٣ عضوا ، ١١ من الجبهة الشعبية واثنان من المستقلين ٠ كذلك فان هذه الفصائل الثلاثة رفضت فكرة الانسحاب من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ، بينما اصرت الجبهة الشعبية منفردة على موقف الانسحاب ٠

فهل يمكن بناء على ذلك القول بان « جبهة الرفض » قد انتهت من الساحة الفلسطينية ؟

من المبكر الرد على هذا السؤال بالايجاب ، بانتظار فسحة كافية من الزمن نراقب فيها مواقف اطراف جبهة الرفض التي انحازت الى جانب القيادة الفلسطينية لنرى ابعاد هذا الانحياز وطبيعة فهم هذه القوى له ، وهل هو محاولة منها لمنع الانشقاق الفلسطيني ، ام انه يتجاوز ذلك الى حد الموافقة الكاملة على

خطة العمل التي تم التوصل اليها ؟

ولكن مهما كانت النتيجة على ضوء التجربة ، فان تحولا مهما قد طرأ على طبيعة التحالفات داخل منظمة التحرير ، تعززت فيه الوحدة الوطنية اكثر مما كانت عليه في السابق . وقد حدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه الحملة الاعلامية المضادة تصور الوضع الفلسطيني وكأنه يقف على ابواب الانشقاق الواسع ، وتهيء الجو لكي تقطف ثمار هذا الانشقاق .

لقد بدأ المجلس الوطني ، والمحاولات جارية لاسقاط القيادة الفلسطينية ، او اضعافها واحتوائها سياسيا .

وانتهى المجلس الوطني ، وقد تعززت شرعية القيادة ، وشرعية منظمة التحرير كمؤسسة تمثل الشعب الفلسطيني ، وسقطت كل محاولات الاحتواء ، والاحتواء السياسي في مقدمتها .

بل ان المجلس الوطني ذهب الى ابعد من ذلك حين سجل « ان علينا واجبا قوميا تجاه امتنا ، الا وهو ايقاف التراجع العربي امام الامبريالية الاميركية والصهيونية ، وكشف خداعهما وعجزهما عن فرض التسوية الاميركية ـ الاسرائيلية » حسبما ورد في التقرير السياسي (ص ٢٠) .

المجلس الوطني الفلسطيني : نحو دولة فلسطينية مستقلة

صبري جريس

صدر عن المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الثالثة عشرة (دورة الشهيد كمال جنبلاط) ، المنعقدة في القاهرة ، خلال ١٢ــ ٢٠ آذار (مارس) ١٩٧٦ ، برنامج سياسي مؤلف من ١٥ بندا (انظر النص في العدد السابق من «شؤون فلسطينية » ص ٤ــ٦) ، يحدد الاهداف المرحلية للنضال الفلسطيني ، في ضوء الاوضاع الدولية والعربية والفلسطينية الراهنة ، ويرسم خطوط العمل الرئيسية لتحقيقها ·

ان قراءة سريعة للبرنامج السياسي تمكننا من تقسيمه الى جزئين ، اولهما « تقليدي » ــ وهذا العرض لا يقلل ابدا من اهميته ــ وثانيهما جديد · أما « التقليدي » فيتلخص في تأكيد المجلس على « ان قضية فلسطين هي جوهر الصراع العربي ــ الصهيوني وأساسه » ، و« ان النضال في الاراضي المحتلة بكافة اشكاله العسكرية والسياسية والجماهيرية يشكل الحلقة المركزية في برامجه النضالية » ، ثم اشارته الى « اهمية وضرورة الوحدة الوطنية عسكريا وسياسيا بين جميع فصائل الثورة الفلسطينية في أطار منظمة التحرير الفلسطينية » ، والى « ضرورة تقوية الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية وتعميق التلاحم مع جميع القوى الوطنية العربية» ، واخيرا « اهمية تعزيز التعاون والتضامن مع البلدان الاشتراكية والدول غير المنحازة والدول الاسلامية والدول الافريقية ومع جميع حركات التحرر الوطنية في العالم » · كذلك يضم هذا الجزء « رفض المجلس لقرار مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ ··· ورفض التعامل على أساسه عربيا ودوليا » لانه « يتجاهل الشعب الفلسطيني وحقوقه الثابتة في وطنه » ، ثم « رفض جميع أشكال التسويات الاستسلامية الاميركية وكافة المشاريع التصفوية »· أما الجديد في البرنامج السياسي فيتلخص ، دون شك ، في البند الحادي عشر منه ــ ونصه : « يقرر المجلس الوطني الفلسطيني مواصلة النضال من اجل استعادة الحقوق الوطنية لشعبنا وفي مقدمتها حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته الوطنية المستقلة فوق تراب وطنه » ــ والبنود الاخرى المكملة له · وحتى نقف على مغزى هذا التجديد ومداه ، لا بد من العودة قليلا الى الوراء ، عند بداية طرح الحلول الداعية الى اقامة دولة فلسطينية ·

من « دويلة » ... الى دولة

كان اقتراح اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بعد انسحاب القوات الاسرائيلية منهما مع باقي الاراضي العربية المحتلة سنة ١٩٦٧ ، ضمن تسوية شاملة لازمة الشرق الاوسط ، قد طرح في مطلع السبعينات ، اي قبل نحو سبع سنوات . واثار هذا الاقتراح في حينه ردود فعل عنيفة لدى الفلسطينيين ، على اختلاف تنظيماتهم ووجهات نظرهم ، ووصف بأبشع النعوت . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل انبرى بعض الذين نصبوا انفسهم قيمين على ما يسمونه « وطنية » فلسطينية في مراقبة الناس واحصاء سكناتهم عليهم ، خشية من ان « يفلت » أحدهم ويتحدث عن « الدويلة المسخ » او يذهب في « استسلامه » و« تخاذله » الى ابعد من ذلك . ولن نستطيع هنا ، بالطبع ، أثبات كل ما قيل من ذم في ذلك الاقتراح وتشهير به وبمؤيديه ، ولا حتى تلخيص ذلك ـ نظرا لكثرة ما قيل ـ وليس هذا هو المجال او الوقت المناسب للقيام بذلك . ولهذا سنكتفي فقط بما ذكرته بعض المجالس الوطنية السابقة في هذا الصدد . فالدورة السابعة للمجلس الوطني (القاهرة، ١٩٧٠) ، مثلا ، تبنت بيانا ـ اتفاقا ، صادرا في ١٩٧٠/٥/٦ في عمان وموقعا من كافة فصائل المقاومة واللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، جاء فيه « ان شعب فلسطين وحركة تحرره الوطنية يناضل من اجل التحرير الشامل ويرفض كافة الحلول السلمية والتصفوية والاستسلامية بما فيها المؤامرات الرجعية الاستعمارية لاقامة دولة فلسطينية على جزء من الارض الفلسطينية ... » . أما البرنامج السياسي الصادر عن الدورة الثامنة للمجلس (القاهرة ، ١٩٧١) فقد دعا الى « الوقوف بحزم ضد دعاة اقامة دويلة فلسطينية فوق جزء من التراب الفلسطيني ، وعلى اعتبار ان السعي لاقامة مثل تلك الدويلة انما يقع في نطاق تصفية قضية فلسطين ... » . كذلك استنكرت القرارات السياسية الصادرة عن الدورة التاسعة للمجلس (القاهرة ، ١٩٧١) « دعوات اقامة الدويلة الفلسطينية في جزء من ارض الوطن ... » . والشيء نفسه ينطبق أيضا على قرارات الدورتين العاشرة والحادية عشرة للمجلس الوطني (القاهرة، ١٩٧٢ و١٩٧٣)، اذ ادانت كل منهما الدعوات الهادفة الى اقامة « دويلة فلسطينية » (انظر ، لمزيد من التفاصيل ، نص القرارات في كتاب « مقررات المجلس الوطني الفلسطيني ، ١٩٦٤ ـ ١٩٧٤ » ، اعداد راشد حميد ، مركز الابحاث ، بيروت، ١٩٧٥ ، ص ١٦٦ و١٧٧ و١٨٥ و١٩٩ و٢٢٩) .

غير ان تغييرا ملحوظا طرأ على هذه المواقف بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ، أثر الاوضاع الجديدة التي نشأت انذاك . فقد أقرت الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني (القاهرة ، ١٩٧٤) برنامج النقاط العشر ـ وفحواه الموافقة

على « أقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة على كل جزء من الارض الفلسطينية التي يتم تحريرها » ٠ ولكن من الخطأ الاعتقاد ان هذا البرنامج اسفر عن تغيير كبير بالنسبة للمواقف السابقة ، اذ جاء في مقدمته ان هناك « استحالة اقامة سلام دائم وعادل في المنطقة دون استعادة شعبنا الفلسطيني لكامل حقوقه الوطنية وفي مقدمتها حقه في العودة وتقرير مصيره على كامل ترابه الوطني » ـ والتشديد على كلمة «كامل» ٠ كذلك جاء في النقطة الرابعة من البرنامج « إن اية خطوة تحريرية تتم هي لمتابعة تحقيق استراتيجية منظمة التحرير في اقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية المنصوص عليها في قرارات المجالس الوطنية السابقة » ٠ و « الدولة الديمقراطية » ـ بحسب قرارات المجالس السابقة ـ هي تلك التي ينبغي ان تقام في فلسطين بعد « التحرير الشامل والكامل للتراب الفلسطيني من احتلال الصهيونية وقاعدتها اسرائيل » ٠

والواضح من مقارنة بسيطة بين العبارات التي اوردناها وتلك التي ينص عليها البرنامج السياسي الجديد ، ان تغييرا ملموسا وجوهريا طرأ على الموقف الفلسطيني ٠ فالبرنامج الجديد لا يذكر كلمات « دولة ديموقراطية » او « سلطة وطنية » او« دويلة فلسطينية » ، بل يتحدث عن« دولة وطنية مستقلة » ، اي ـ باختصار ـ دولة فلسطينية مستقلة على جزء من ارض فلسطين ٠

ماذا حدث خلال السنوات السبع الماضية حتى تحولت « الدويلة» المستنكرة الى « دولة وطنية » ، رغم عدم وجود فروق كبيرة بين المعطيات الجغرافية والسكانية التي كان من المفروض ان تنشأ « الدويلة » بموجبها وبين تلك التي قد تقوم « الدولة » على أساسها ؟ حدثت ، بالطبع ، أمور كثيرة على اصعدة عدة وجرت تغييرات وتطورات أثرت ، اولا ، على تعميق الواقعية والعقلانية في الساحة الفلسطينية عامة ، وتركت بصماتها على التفكير السياسي الفلسطيني الجماعي ٠ كذلك حدثت أمور أخرى ، محددة للغاية ولكنها ايضا مهمة للغاية ، اذ أفهم الفلسطينيون ـ من قبل اكثر من دولة ، كبيرة او متوسطة او صغيرة ، من بين الدول المؤيدة لهم او المتعاطفة معهم ، ان سقف النضال الفلسطيني في هذه المرحلة ـ وحتى لا نخدع انفسنا ، هذه المرحلة قد تمتد ، على الاقل ، حتى نهاية القرن ـ هو دولة فلسطينية مستقلة على جزء من ارض فلسطين ، وأنه ليست هناك دولة واحدة ذات شأن على استعداد لان تسير معهم الى ابعد من ذلك ٠ كما اوضح العديدون للفلسطينيين انهم اذا ارادوا السير على هواهمفما عليهم الا ان يتحملوا مسؤولية اعمالهم ويواجهوا مصيرهم لوحدهم ٠ ويبدو انه كان لهذه « النصائح » تاثيرها ، خصوصا في ضوء تجربة لبنان ١٩٧٦ ، فجاء البرنامج السياسي هذه المرة واضحا وواقعيا ومعقولا الى ابعد مدى ممكن ٠

قرارات الامم المتحدة

ولا يقلل من وضوح البرنامج السياسي وواقعيته في دعوته الى اقامة دولة فلسطينية مستقلة على جزء من ارض فلسطين ، مطالبة المجلس الوطني « بتحقيق حقوقنا الوطنية غير القابلة للتصرف ، وهي الحقوق التي اقرتها الجمعية العامة للامم المتحدة منذ سنة ١٩٧٤ وخاصة القرار ٣٢٣٦ » ،ثم محاولة البعض تفسير ذلك على انه ينص على اقامة الدولة الفلسطينية في فلسطين بأكملها ـ أذ ليس هناك في قرارات الامم المتحدة ما يؤيد ذلك • ولكن قبل الحديث عن هذه القرارات لا بد من اثبات تساؤل حول الاسباب التي حدت بالمجلس الى حصر استناده على قرارات الامم المتحدة في تلك الصادرة « منذ سنة ١٩٧٤ وخاصة القرار ٣٢٣٦ » • لقد اصدرت الامم المتحدة ، منذ تأسيسها وحتى اليوم ، عددا لا بأس به من القرارات حول قضية فلسطين، ومن ضمنها قرار التقسيم أياه ، الذي يدعو الى اقامة دولة فلسطينية تزيد مساحتها عن مساحة تلك التي يمكن ان تقام حاليا • فلماذا تجاهل هذا القرار ، مثلا ، والقرارات الاخرى الداعية الى عودة اللاجئين الى ديارهم والتعويض على من لا يريد العودة منهم ؟ ثم اذا كنا قد احتكمنا الى قرارات الامم المتحدة « منذ سنة ١٩٧٤ » ، باعتبار ان تلك القرارات صادرة في مرحلة جديدة من تاريخ المنظمة الدولية ، فلماذا التشديد على القرار رقم ٣٢٣٦ فقط ، وتجاهل القرارات الاخرى التي تبعته • ان العرف والعادة يقضيان بأنك اذا احتكمت الى هيئة دولية ، عليك قبول حكمها بكامله ، ولا يمكنك ان تختار منه ما يفيدك وتتغاضى عما لا يروق لك •

غير انه ، من ناحية ثانية ، ليس هناك ما يدعو الى التشديد على القرار رقم ٣٢٣٦ بحد ذاته والاشارة اليه في نص البرنامج السياسي باعتباره وثيقة مهمة مؤيدة للفلسطينيين ـ وهو ليس كذلك • ان فحوى هذا القرار هو الاعتراف بحق تقرير المصير للفلسطينيين ، بما في ذلك حقهم في السيادة والاستقلال الوطني • كذلك يعترف القرار بحق الشعب الفلسطيني في استعادة حقوقه بكل الوسائل ، ويناشد كل الدول والمنظمات الدولية تقديم دعمها للفلسطينيين لاستعادة تلك الحقوق • ولكن ذلك يجب ان يتم بموجب « غايات ومبادىء ميثاق الامم المتحدة » • وميثاق الامم المتحدة لا يسمح بالمس بسيادة دولة عضو فيها ، واسرائيل ـ كما هو معلوم ـ عضو في الامم المتحدة • ومن هنا ، يظهر واضحا ان التشديد على القرار رقم ٣٢٣٦ لم يكن في محله تماما •

ويقتضي التنويه ايضا ، بالاضافة الى ذلك ، ان القرار رقم ٣٢٣٦ ليس القرار المركزي في مجموعة القرارات والتوصيات والوثائق التي صدرت عن الامم المتحدة بشان القضية الفلسطينية « منذ سنة ١٩٧٤ » • ففي الدورة الثلاثين

للجمعية العمومية (١٩٧٥) صدر أيضا قرار اخر ، دعا الى تشكيل لجنة سميت « لجنة تحقيق الحقوق غير القابلة للتصرف للشعب الفلسطيني » (وتعرف أيضا باسم « لجنة العشرين » ، وهي مؤلفة من مندوبين عن عشرين دولة من الدول الاعضاء في الامم المتحدة) ٠ وقد عقدت هذه اللجنة ، خلال النصف الاول من سنة ١٩٧٦ ، نحو ٣٥ اجتماعا ، تنفيذا للمهمة التي اوكلت اليها ، وأصدرت تقريرا ضمنته رأيها حول حقوق الشعب الفلسطيني وطرق تنفيذها ٠ وعرض هذا التقرير على الجمعية العمومية في دورتها الحادية والثلاثين (١٩٧٦) فصوتت الى جانبه ١٢٢ (مائة واثنتان وعشرون) دولة ، وهذا ـ على حد علمنا ـ اكبر عدد من الدول يصوت الى جانب قرار مؤيد للفلسطينيين ٠ أما فحوى تقرير لجنة العشرين فهو الدعوة الى عودة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم ، على ان يتم ذلك على مرحلتين ـ الاولى عودة اللاجئين من المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، والثانية عودة اللاجئين القدامى ، ثم انسحاب اسرائيلي من المناطق المحتلة وتمكين الفلسطينيين من تقرير مصيرهم بأنفسهم ، واقامة « كيان فلسطيني » ٠ ويظهر من قراءة ذلك التقرير بوضوح ان المائة واثنتين وعشرين دولة ، التي صوتت الى جانبه ، تعتبر اسرائيل امرا واقعا ، بل وتطالبها بالانصياع لقرارات الامم المتحدة وتمكين الفلسطينيين من التمتع بحقوقهم ٠ كذلك يستند التقرير بشكل بارز على قرارات الامم المتحدة الصادرة « قبل سنة ١٩٧٤ » ٠ وما نريد ان نقوله ـ باختصار ـ هو ان الاستناد الى قرارات الامم المتحدة منذ سنة ١٩٧٤ كان في غير محله ، وأن الاعتقاد بأن هذه القرارات تعطي الفلسطينيين اكثر من دولة مستقلة على جزء من ارض فلسطين هو اعتقاد لا أساس له ٠ وكان من الاحسن التركيز في البرنامج على المطالبة بأقامة دولة فلسطينية مستقلة ، مع الاشارة الى قرارات الامم المتحدة ، بشكل عابر وبصورة عمومية ، وترك احتمالات المستقبل مفتوحة ٠

« الممثل الشرعي الوحيد »

بالاضافة الى مطالبته الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني « في العودة وتقرير المصير واقامة دولته الوطنية المستقلة فوق ترابه الوطني » ، أكد المجلس الوطني أيضا ، في برنامجه السياسي ، « حرصه على حق منظمة التحرير الفلسطينية بالاشتراك بشكل مستقل ومتكافىء في جميع المؤتمرات والمحافل والمساعي الدولية المعنية بقضية فلسطين وبالصراع العربي ـ الصهيوني ، بغرض تحقيق حقوقنا الوطنية غير القابلة للتصرف » ٠ كذلك اعلن المجلس « ان اي تسوية او اتفاق يمس حقوق شعبنا الفلسطيني في غيابه باطلة من أساسها » ٠ والواضح ان المجلس ، بعد ان تخلى عن طريقة بياناته واعلاناته السابقة، اي تلك الطريقة « التقليدية » التي كانت تكتفي برفض هذا واستنكار ذلك وشجب

ذاك ، دون ان تقول ماذا تريد ، كان لا بد له من استنتاج النتيجة المنطقية المترتبة على موقفه المشار اليه والمطالبة بأن تكون منظمة التحرير الفلسطينية طرفا في اية مساع دولية تتعلق بقضية فلسطين ، بأعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني · والواضح أيضا ان المجلس الوطني احسن صنعا بأعلانه هذا ، فقضى بذلك على البلبلة ، التي كانت سائدة لدى دوائر عدة في العالم ــ والعديد منها من المناصرين للفلسطينيين ــ حول حقيقة الموقف الفلسطيني ، اذ لا بد « للممثل الشرعي الوحيد » من ان يقول كلمته ، علانية ، في مثل هذه الامور · كذلك لم يكن بد من الاعلان ان اي تسوية او اتفاق يمس حقوق الشعب الفلسطيني في غيابه باطلة من اساسها، خصوصا في ضوء المساعي المستمرة التي تبذلها هذه الجهة او تلك للوصول الى حلول للقضية الفلسطينية على هواها ·

الدولة الفلسطينية المستقلة : مناصروها ومعارضوها

ان المطالبة بأقامة دولة فلسطينية مستقلة من ناحية ، والاعلان عن حرص منظمة التحرير الفلسطينية على الاشتراك بشكل مستقل ومتكافيء في جميع المؤتمرات والمساعي الدولية المعنية بقضية فلسطين من ناحية ثانية ، لا يعني ــ بالطبع ــ ان تلك الدولة أصبحت قاب قوسين او ادنى ، او ان الجميع يرحب بأعلان المنظمة عن نيتها بالاشتراك في المساعي الدولية المعنية بالقضية الفلسطينية ، بل قد يكون العكس هو الصحيح · ان الموقف الفلسطيني الجديد هذا ، العقلاني والواقعي ، يحظى بتأييد وتعاطف اغلبية دول وشعوب العالم ، وتكاد تكون الشرعية الدولية التي تواكبه شبه اجماعية ــ وهذه بحد ذاتها عناصر مهمة للغاية ، وقد تكون هي في النهاية التي سترجح كفة الميزان نحو ايجاد حل عادل للقضية الفلسطينية · غير انه ، على الرغم من ذلك ، هناك قوى عديدة ، اجنبية وعربية ، تعارض هذا الاتجاه في العمل الفلسطيني ، او تعارض اي اتجاه فلسطيني واقعي ومعقول، قد يساعد الفلسطينيين للحصول على بعض حقوقهم · بل ان البعض قد يعتبر هذا الاتجاه الجديد دليل ضعف لدى الفلسطينيين · ولذلك علينا ان نأخذ بالحسبان قيام هذه القوى المعادية بتكثيف جهودها وحياكة المؤامرة تلو الاخرى ضد الثورة الفلسطينية · ولا شك ان هذه المؤامرات ستزداد عمقا واتساعا وشراسة ، كلما لاحت في الافق بوادر انتصار فلسطيني ، او بداية تحركات دولية تهدف الى حل ازمة المنطقة · وحتى نكون واضحين لا بد من وضع النقاط على الحروف وتسمية الاشياء بأسمها ، والاشارة الى ان القوى المعادية لاقامة دولة فلسطينية تضم ثلاث فئات رئيسية : المحتل الاسرائيلي ــ الصهيوني ، بعض الانظمة العربية و« فلسطينييها » والامبرياليين الاميركيين · ومصالح هذه الفئات الثلاث ليست متطابقة ومتجانسة دائما ، بالطبع ، ولكن ذلك لا يمنع من التقائها ، عن قصد او غير قصد من حين

الى اخـر ، للعـمل ضد الفلسطينيين ومصالحـهم • ومن المستحسن ان تبقى العين مفتوحـة لمراقبة تصرفات هذه القوى ومخططاتها •

الموقف الاسرائيلي

ان اسرائيل ، كما هو معـلوم ، هي اولى القوى المعارضة لاقامة دولـة فلسطينية مستقلة ، وأشدها شراسة في معارضتها هذه ، وذلك لسبب « بسيط» للغاية : ان دولة فلسطينية مستقلة ، عـلى جزء من ارض فلسطين ، هـي بداية النقيض ــ البديل للكيان الصهيوني في فلسطين •

ان الموقف الاسرائيلي ، عـلى تعقيداته ، ليس مبهما • فاسرائيل تريـد تسوية ــ ولكن بموجب شروطها • وتختلف هذه الشروط بأختـلاف الطـرف الآخـر ، المرشح للاشتراك في التسوية • فبالنسبة لسوريا ومصر ، تطالـب اسرائيل بضم جزء من اراضيهما المحتلة اليها : معـظم اراضي منطقة الجولان، وجزء من سيناء ، عـلى شكل شريط من الارض يمتد بمحـاذاة الحـدود الفلسطينية ــ المصرية ابتداء من العريش حتى خليج العقبة ، ثـم يتجه جنوبـا حتى يصل الى شرم الشيخ • وبالاضافة الى ذلك ، ينبغـي على هاتيـن الدولتين اقامة علاقات سلم طبيعـية مع اسرائيل والاعتراف بها •

أما بالنسبة للفلسطينيين ، فأن المشكلة اكثر تعقيدا • فاسرائيل لا تريد ضـم الضفة الغربية وقطاع غـزة اليها ــ ولو ارادت ذلك لفعلته منذ سنوات ــ خشية من ان يؤثر ازدياد عدد السكان العرب على « نقاوة » الدولـة اليهوديـة ، اذ لا تزال الاسس الصهيونية العنصرية تتحكم في عـقلية حكام اسرائيل • ولكن ، في مقابل ذلك ، ليست هناك نية للانسحاب من تلك المناطق ، بل عـلى العـكس الاحتفاظ في السيطرة عـليها ، عـلى الاقل ، وأيجـاد نوع مـن الحـلول او الترتيبات الدائمة الهادفة الى تأمين المصلحـة الاسرائيلية في تلـك المناطق من ناحية ، وتصدير المشاكل الناجمة عـن ذلك الى طرف اخـر مـن ناحية ثانية • فالتخطيط الاسرائيلي يقضي ، مثـلا ، بالاحتفاظ بالسيطـرة العسكرية على تلك المناطق ، « للحفاظ عـلى الامن » ، وأبقائها مفتوحـة امام الاستيطان اليهودي ، بالاضافة الى تحويلها الى سوق لبضائـع اسرائيل ومستودعـا للقوى البشرية العاملة التي قد يحتاج اليها تطورها الاقتصادي • كذلك يفترض ان تشكل تلك المناطق ، وخصوصا الضفة الغربية ، عـازلا يمنع اي تأثير ضار عـلى اسرائيل ، في حـالة الوصول الى « السلم » الذي تطالـب به ، وقاعـدة للتسلل الاقتصادي الى الدول العربية ، بواسطة الجسور المفتوحة• ولكن هذا التخطيط يحتاج الى طرف ثالث يساعـد على تنفيذه • وهنـا ياتي دور الاردن « المسكين » ، الذي يفترض فيه ان يوافق عـلى تحويل نفسه الـى اداة لتنفيذ هذا المخـطط ، فيتحمـل المشاكل الناجمة عـنه ، لان سكان الضفة الغربية من مواطنيه (واسرائيل عـلى استعـداد للموافقة عـلى اضفاء هـذه

الصفة على سكان قطاع غزة أيضا) ، دون ان يستطيع لعب اي دور مؤثر في تلك المناطق ·

« لا صلح ولا اعتراف »

وليس هذا هو الدور الوحيد المطلوب اسرائيليا من الاردن ان يلعبه ، اذ ان هناك مشكلة التمثيل الفلسطيني أيضا · وكانت هذه المشكلة قد ثارت بشكل حاد في اعقاب حرب تشرين ، عندما اضطر حزب العمل الاسرائيلي الحاكم الى ان يعلن ، في برنامجه الانتاخبي ، انه لا بد من ايجاد حل لمشكلة « الهوية الفلسطينية » ·

ان الاعلان عن النية في ايجاد حل لمشكلة « الهوية الفلسطينية » لا يعني، عمليا ، اي تغيير جوهري في الموقف الاسرائيلي من الفلسطينيين ، وهو الموقف المتجاهل لوجودهم والمتنكر لحقوقهم ، خصوصا وان الاعلان جاء نتيجة لضغوط داخلية وخارجية لم يكن في وسع حكام اسرائيل تجاهلها · ولذلك سرعان ما جاء الشرط الاخر المكمل له : على هذا الحل ان يتم في اطار المفاوضات مع الاردن فقط ، دون الاعتراف بأية جهة اخرى كممثل للفلسطينيين كائنة من كانت ·

وجذور هذا الموقف الاسرائيلي عميقة للغاية وتعتبر من الركائز الاساسية للسياسة الاسرائيلية تجاه الفلسطينيين والعرب · لقد قامت اسرائيل على أساس تجاهل الفلسطينيين وعدم الاعتراف بحقوقهم القومية ، واعتبارهم مجرد « سكان في ارض ـ اسرائيل » ، يفقدون حقوقهم في العيش في فلسطين حال مغادرتها · ولهذا فان الاعتراف بحقوق قومية للفلسطينيين ووجود ممثلين شرعيين لهم ، مهما كانوا « معتدلين » ، يعتبر مسألة خطيرة للغاية من وجهة النظر الاسرائيلية ، اذ قد يؤدي ذلك الى اعادة فتح الدفاتر القديمة واثارة القضية الفلسطينية من جذورها ، اي منذ بداية الغزو الصهيوني لفلسطين · ولذلك فان اسرائيل ليست على استعداد للاعتراف بأية جهة فلسطينية كطرف في المفاوضات معها ، مهما كان تشكيلها ، لانه ليس هناك من ضمان يكفل عدم لجوء ممثلي الفلسطينيين ، بعد الاعتراف بهم بهذه الصفة ، الى طرح القضية من جذورها ، وبشكل يشمل « كامل التراب الفلسطيني » (وربما المياه الاقليمية ايضا) ـ على حد ما جاء في قرارات المجالس الوطنية السابقة · وكان رابين قد علق على مسألة رفض الاعتراف الاسرائيلي بالفلسطينيين بقوله ، بطريقة ابناء الصابرا التصويرية : « ليست هناك سيدة شبه حامل ، اما انها حامل او غير حامل » · واسرائيل « غير حامل » بأي نوع من الاعتراف بالفلسطينيين · ومن هنا التشديد الاسرائيلي على دور الاردن في المفاوضات ، اذ ان الاردن لا يملك ، دوليا ، اية حقوق

في فلسطين ويكاد ، بصعوبة ، يمثل الضفة الغربية التي ضمها اليه بعد حرب ١٩٤٨ ، ولذلك لا يستطيع اثارة اية قضايا اخرى · وما الاقتراحات الاسرائيلية ، التي تقدم من حين الى اخر ، بشأن امكانية ضم عدد من الفلسطينيين الى الوفد الاردني الذي قد يفاوض اسرائيل ، الا نوعا من ذر الرماد في العيون ، اذ لن يكون مثل هؤلاء الفلسطينيين الا مجرد زينة ·

انطلاقا من هذه الاسس والقيود الاسرائيلية ، يمكننا ان نفترض ـ بل ان نكون شبه متأكدين ـ ان اسرائيل لن تعترف بأية هيئة فلسطينية ، بما في ذلك ـ او خصوصا ـ منظمة التحرير الفلسطينية ، ولن تتعامل مع كل من له علاقة رسمية بها ، وهي لذلك لا تريد اي اعتراف فلسطيني بها (بل تسعى الى اعتراف عربي فقط) · فالاعتراف ، كالزواج ، لا يمكن الا ان يكون متبادلا ، ولان اسرائيل غير مستعدة للاعتراف بالفلسطينيين ، فانها لا تريد أيضا اعترافهم بها ، مهما كانت صفتهم او صبغتهم · ويلاحظ ان المسؤولين الاسرائيليين قد توقفوا مؤخرا حتى عن مجرد مطالبة منظمة التحرير الفلسطينية ، في تصريحاتهم ، بالاعتراف باسرائيل ويكتفون بالتأكيد انهم لن يتعاملوا معها · بل ان رابين وألون اخبرا الدكتور كورت فالدهايم ، امين عام الامم المتحدة ، اثناء زيارته للمنطقة ، خلال شهر شباط (فبراير) الماضي ، ان اسرائيل قد اخطأت عندما اعلنت انها تريد اعترافا من المنظمة بها ، وهي حقيقة لا تريد ذلك الاعتراف ولا تسعى اليه ، ولن تعترف بالمنظمة ، في اية حال من الاحوال ، حتى ولو اعترفت الاخيرة بها ·

ان موقف « لا صلح ولا اعتراف » متشابه اذن ، لدى كل من اسرائيل والفلسطينيين · وقد يعني ذلك انعدام امكانية الوصول الى اية تسوية في المنطقة · ولكنه قد يعني أيضا ، من ناحية ثانية ، امكانية قيام دولة فلسطينية مستقلة ، لا تعترف باسرائيل ولا تعترف اسرائيل بها · ولا شك بان هذا بالذات هو ما تخشاه اسرائيل ، وتخشى اي موقف قد يؤدي اليه · والموقف الذي اعلنه المجلس الوطني الفلسطيني اخيرا هو من نوع هذه المواقف ، خصوصا وانه يدعو الى اقامة دولة وطنية مستقلة من ناحية ، ويؤكد حرص منظمة التحرير الفلسطينية على الاشتراك بشكل مستقل ومتكافيء في جميع المؤتمرات والمحافل والمساعي الدولية المعنية بقضية فلسطين وبالصراع العربي ـ الصهيوني من ناحية ثانية · وخطورة هذا الموقف ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، تكمن في مدى التأييد الدولي العارم الذي يحظى به ، مما قد يساعد على تبنيه من قبل قوى متعددة ، وبالتالي تنفيذه · ولا شك بان ما تريده اسرائيل فعلا من الفلسطينيين هو التشبث بالمواقف فوق ـ المتشنجة ، العاطفية والفضفاضة ، التي تساعدها على عرضهم أمام العالم كمجموعة من القتلة المتعطشين للدماء ، وبالتالي كسب عطف العالم عليها من جهة وكرهه وخوفه من الفلسطينيين من جهة ثانية ، لتستمر في تحقيق اهدافها ·

واذا كان الاتجاه نحو اقامة دولة فلسطينية مستقلة يثير هلع اسرائيل ، فينبغي علينا ان نتوقع قيامها بكل ما في وسعها لافشاله بل ـ ربما ـ السعي الى احتواء المطالبين به او القضاء عليهم · ان مثل هذه الخطر الداهم ، الذي قد يؤدي الى مخاطر أشد وأقوى على الوجود الاسرائيلي ، لا يمكن السكوت عليه · وعلى وجه العموم ، لم تتوان اسرائيل في الماضي عن القيام بكل ما وسعها لضرب القوى الفلسطينية المقاتلة او تضييق الخناق عليها بكل الوسائل · وقد اتخذ هذا النشاط الاسرائيلي المعادي اشكالا مختلفة في الماضي ، ابتداء من محاولات ابادة القوة العسكرية الفلسطينية، مهما كان حجمها ، مرورا بقصف مخيمات اللاجئين بواسطة الطائرات وانتهاء بمحاولات التصفية الجسدية للقادة الفلسطينيين· وخلال العامين المنصرمين تجسد هذا النشاط في مؤامرة اسرائيلية ـ امبريالية ـ عربية تهدف الى سحق الثورة الفلسطينية في لبنان والقضاء عليها ، وقد رأينا بأم اعيننا الرصاص يصوب الى صدور الفلسطينيين والصواريخ تنهمر على مخيماتهم بواسطة ايد « عربية » · أما بالنسبة للمستقبل ، فمن المستحسن ان نتوقع تصعيدا في هذه المؤامرات ، بل ان الخطوط الرئيسية لبعضها واضحة للغاية ، وخصوصا تلك الهادفة الى تجزئة الوطن العربي، ابتداء من لبنان ، واقامة دول طائفية فيه · كذلك لا ينبغي ان نستبعد قيام اسرائيل بشن غزوات عسكرية او حروب مفاجئة ، لاحتلال مزيد من الاراضي للمساومة عليها او لضرب القوة العسكرية العربية · وقد تتخذ هذه المؤامرات أيضا طعما « فلسطينيا »، كأن توحي اسرائيل لبعض العرب بأنها على استعداد للاتفاق معهم وتقديم التنازلات لهم ، شرط ان «يتكفلوا» بالفلسطينيين ·

المواقف العربية

ليست اسرائيل وحدها هي التي تعارض قيام دولة فلسطينية مستقلة ، بل ان هناك اكثر من نظام عربي ينتهج السياسة نفسها ويعارض اقامة تلك الدولة ـ وكل لاسبابه الخاصة به ·

ان اي مطلع على تاريخ القضية الفلسطينية ، يدرك دون شك ان هذه القضية كانت منذ مطلع هذا القرن على الاقل ، مشكلة عربية أيضا ـ اي ان النشاط الصهيوني والامبريالي لم يكن لوحده كافيا للسيطرة على فلسطين لطرد أهلها منها ، ثم اقامة اسرائيل واحتلال باقي الاراضي الفلسطينية ، اذ ان بعض الانظمة العربية قد « ساهمت » في ذلك ايضا ،ان تم ذلك بسبب جهلهم وعدم ادراكهم لطبيعة المخططات الامبريالية او من خلال التواطؤ مع واضعي تلك المخططات والمشرفين على تنفيذها · ولسنا

بحاجة هنا الى تقديم عرض تاريخي للقضية الفلسطينية ، لندرك مدى «المساهمة» العربية في خلقها ، ولكن يكفينا ان نتذكر ما حدث خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها ، في مؤتمر الصلح ، مثلا ، ثم ردود الفعل على الثورة العربية الكبرى في فلسطين ، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، وكذلك احداث ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ ، واخيرا ما وقع سنة ١٩٦٧ ، لندرك انه لولا التقصير او التخاذل او الجهل العربي لكنا الان في وضع يختلف كليا عن هذا القائم حاليا ٠

والتباين في المواقف العربية من القضية الفلسطينية لا يزال قائما حتى الان، رغم كل ما يقال عن تأييد للفلسطينيين وتعاطف معهم من ناحية ، او الظهور بمظهر الحلفاء الاستراتيجيين لهم من ناحية ثانية ٠ فهناك اكثر من نظام عربي له مفاهيمه الخاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ، ولذلك يتخذ مواقف لا تتلاءم مع تطلعات اكثرية الفلسطينيين او امانيهم ، وأن كان لا يعلن عن ذلك صراحة لاعتبارات مختلفة ٠ فبعض الانظمة يرى ، مثلا ، ان الفلسطينيين ليسوا الا مجرد تابعين له وعليهم الامتثال لاوامره ، وآخرون يرون فيهم جزءا من امبراطورية كبيرة يحلمون ببنائها ، بينما يعتقد غيرهم أنه ينبغي الاحتفاظ بهم في وضع « ثوري » لخدمة مخططات «التحرر» وغيرها ٠ وتعارض كل هذه الانظمة ـ حتى نكون واضحين ـ قيام اي كيان فلسطيني مستقل ، كما تعارض في الوقت نفسه تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية بتركيبها الحالي ، باعتبارها ممثلة للارادة الفلسطينية الحرة ، للشعب الفلسطيني وان كانت لا تقول ذلك علنا خوفا من الفضيحة ، على الصعيدين الدولي والعربي ٠ والواضح ان مواقف هذه الانظمة تشكل خطرا لا يستهان به على النضال الفلسطيني الساعي الى اقامة اي كيان مستقل للفلسطينيين ، نظرا للطعنات في الظهر التي يمكن ان توجهها له في اللحظات الحاسمة ٠ والواضح ايضا انه لا بد من العمل على تطويق هذه الانظمة ، دوليا وعربيا ، وبشكل محكم اذا اريد للنضال الفلسطيني ان يثمر ٠

الموقف الاميركي

يشكل الموقف الاميركي الضلع الاخير في مثلث رفض الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واقامة دولته المستقلة ٠ ولا تقل خطورة هذا الموقف ، في رفضه للفلسطينيين ، عن خطورة الموقفين السابقين اللذين اشرنا لهما : الموقف الاسرائيلي ـ الصهيوني ومواقف بعض الانظمة العربية ٠

ولسنا بحاجة هنا ، على كل حال ، الى الدخول في تحليل واسع لطبيعة الامبريالية الاميركية ، اطماعها في المنطقة من ناحية ، وللمواقف المعادية التي تنتهجها تجاه الفلسطينيين خاصة والعرب عامة ، منذ فترة طويلة ، من ناحية ثانية ، لنقف على أسس الموقف الاميركي المناهض للفلسطينيين وتطلعاتهم ٠

ويكفينا ان نشير ، في هذا الصدد ، الى ان الولايات المتحدة كانت قد التزمت في احدى الاتفاقيات الاربع التي وقعتها مع اسرائيل ، نتيجة لاتفاق سيناء، « بالتقيد بسياستها الحالية حيال منظمة التحرير الفلسطينية ، أي انها لن تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية او تتفاوض معها ما دامت منظمة التحرير الفلسطينية لا تعترف بحق اسرائيل في الوجود ولا تقبل قراري مجلس الامن ٢٤٢ و٣٣٨ · وستجري حكومة الولايات المتحدة مشاورات كاملة ، وتسعى الى توفيق موقفها واستراتيجيتها حول هذا الموضوع ، في مؤتمر جنيف للسلام ، مع اسرائيل » · وبالاضافة الى ذلك كانت الولايات المتحدة قد تعهدت لاسرائيل ، في تلك الاتفاقيات ، بتقديم مختلف انواع المساعدة العسكرية والسياسية والاقتصادية لها، وبشكل ومدى يشك معهما فيما اذا كانت اسرائيل مضطرة للموافقة على اي اتفاق سلام في المنطقة ، يرضى عنه العرب · والموقف الاميركي هذا ، الذي اشرنا اليه ، لا يزال اساسا على ما كان عليه، رغم كل ما يقال عن ظهور بوادر لتغييره ، اذ يبدو ان هذا التغيير لم يطرأ الا على طريقة اطلاق التصريحات الاميركية ·

ان المصاعب والمعارضة التي اشرنا لها ، الاسرائيلية ـ العربية ـ الاميركية، لاقامة دولة فلسطينية مستقلة ، لا تساعد كثيراً على تحقيق هذا الهدف ، بل وقد تؤدي الى نشوب معارك مختلفة بسببه ، تكون أشد شراسة من معارك الماضي · وقد يقول قائل : اذا كان الوضع على ما هو عليه من الصعوبة، فلماذا تقديم « التنازلات » او « التفريط » في الحقوق ؟ ـ والبعض ، أساسا ، لا عمل لديه الا الحديث عن « التنازلات » و« التفريط » و« الاستسلام » وغيرها من الالفاظ المجوجة · والجواب هو ان برنامجا سياسيا يدعو الى اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، في ضوء الواقع الحالي ، الدولي والعربي والفلسطيني ، لا ينم عن تنازل يذكر · واذا كان هناك من تنازلات ، فقد حدث ذلك في الماضي ، عندما سيطرت على العرب والفلسطينيين اجيال من «الطاهرين الفاشلين » ـ كما سماهم البعض ـ الذين قادونا الى ما نحن عليه حاليا · والذين يتحدثون عن التنازلات اليوم هم الورثة السياسيون لذلك الجيل من « الطاهرين الفاشلين » ـ ويبدو ان مصيرهم السياسي لن يختلف كثيرا عن مصير اسلافهم ·

ان اقامة دولة فلسطينية ليست عملية سهلة ، ولا يتوقع ان تقام بين ليلة وضحاها ، ولا بد من تقديم تضحيات كثيرة في سبيلها · ولكن الدعوة الى اقامتها ، باعتبارها حلا واقعيا ومعقولا ، تحظى بتأييد كبير في المحافل الدولية ـ وهو تأييد من شأنه ، ان احسن استغلاله ، ان يحسم الموقف لصالح ذلك الحل · لقد قال الفلسطينيون كلمتهم في هذا الشأن في آذار (مارس) ١٩٧٧ فقط ، وكان من الافضل والاجدى قول ذلك قبل بضع سنوات ·

آفاق المرحلة
"سلام" يبتعد .. وثورة تقترب

غازي الخليلي

أكد كارتر في لقائه مع السادات ، خلال زيارة الاخير الى الولايات المتحدة ، على ضرورة بذل اقصى الجهود المكنة من أجل السلام خلال العام الحالي ، وقال : « ان الامر سوف يتعذر في العام المقبل والعام الذي يليه » · والسؤال هنا ، هل هذه الاشارة من كارتر تعني ان النصف الثاني من العام الحالي سيشهد البداية في وضع ترتيبات واجراءات عملية لمزيد من الخطوات نحو تسوية الصراع مع العدو الصهيوني ، أم ماذا ؟

يبدو ان الرئيس السادات وعربا اخرين متفائلون بالوصول الى نتيجة ، تختم « تحركهم السلمي » بما يرضي « تطلعاتهم » · ويبرر السادات تفاؤله هذا بوجود علامات مشجعة كثيرة في الموقف الاميركي ، عبر عنها كارتر مؤخرا ، والتي من ابرزها اشارته الى وجوب « ان يكون هناك وطن قومي للاجئين الفلسطينيين الذين عانوا سنوات كثيرة جدا » · وهي الاشارة التي وردت في خطابه الذي القاه في بلدة كلينتون في اذار (مارس) الماضي ·

ولكن ، هل هذه الاشارة الغامضة والمبهمة جدا ، تجعلنا ندفن رؤوسنا في الرمال ولا نرى حقيقة الموقف الاميركي والسلام الذي تريده اميركا ؟

لقد تلقف كثيرون اشارة كارتر هذه ، واتخذوها دليلا على ان « تغييرا ما » طرأ على الموقف الاميركي من المسألة الفلسطينية · وتنبأوا ان يكون لهذا « التغيير » نتائجه الواضحة على مسيرة التسوية خلال الفترة القادمة · وافتوا ، ان ابرز هذه النتائج لن يكون فقط ، تناول المسألة الفلسطينية في خطوات تسووية قادمة بل وايضا ، دخول المسألة الفلسطينية مسار التسوية باعتبارها اساس الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وباعتبارها قضية شعب ووطن ·

وعلى الرغم من ان النتائج التي اسفرت عنها زيارة السادات الى الولايات المتحدة جاءت لتثير الكثير من الشكوك حول تفاؤل وتنبؤات هذا البعض من العرب ، فأن موجة التفاؤل لا تزال تجد من يروج لها ، فالسادات كان حريصا في تصريحاته الصحفية بعد انتهاء زيارته ، على تبديد اي شعور بخيبة الامل من زيارته · واوضح ان محادثاته كانت « مثمرة وايجابية » في حين ان كثيرا من المصادر اشارت الى أن السادات لم يحصل على اي جواب محدد للاسئلة التي

اثارها ، وللطلبات التي تقدم بها • فكارتر كان متشددا في التأكيد على المفهوم الاميركي للسلام ، وهو السلام الذي يقوم على الحدود المفتوحة بين الدول العربية و « اسرائيل » وعلى حدود اسرائيلية يمكن الدفاع عنها • كذلك فقد كان كارتر حريصا جدا على ان يبقي مفهومه للوطن الفلسطيني غامضا ومبهما جدا ، سواء من الناحية الجغرافية ـ اين يكون هذا الوطن ـ او من الناحية السياسية ـ الجهة التي تقرر انشاء هذا الوطن وتعتبر مسؤولة عنه ـ اضافة الى ذلك فان جودي باويل ، الناطق الصحفي باسم البيت الابيض ، كان واضحا في تصريحه الذي ادلى به تعقيبا على تصريحات السادات حول الموقف الاميركي من منظمة التحرير الفلسطينية ، عندما اكد « ان الولايات المتحدة لا تزال ترى انه لا يمكن منظمة التحرير الفلسطينية ان تضطلع بدور بناء في محادثات السلام الخاصة بالشرق الاوسط ما دامت ترفض الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود » وقال « ان وجهة نظر الولايات المتحدة الاميركية من منظمة التحرير الفلسطينية لم تتغير »•

لقد حاول السادات خلال زيارته ان « يبيع » كارتر معادلة فلسطينية ـ اردنية « لتسهيل » مسالة التمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف • بحيث تقوم علاقات خاصة ورسمية بين منظمة التحرير الفلسطينية والنظام الاردني قبل عقد مؤتمر جنيف ، وتكون محصلة هذه العلاقات ، ان لا يجري بحث مسألة الكيان الفلسطيني الا بارتباط هذا الكيان مع النظام الاردني ، جغرافيا وسياسيا • وبهذا يمكن الاقتراب كثيرا من المعادلة الاسرائيلية لحل المسألة الفلسطينية • وفيما يتعلق بطبيعة التسوية ، فقد اوضح السادات استعداد بلاده لاجراء تعديلات طفيفة في الحدود ، ولاقامة علاقات عربية ـ اسرائيلية تنمي احتمالات التعايش المشترك والحدود المفتوحة ، وصولا الى تعايش طبيعي خلال عقد من السنين او اقل •

ولكن على الرغم من كل هذه التنازلات ، فقد عاد السادات من زيارته « بخفي حنين » • عاد دون ان يحصل الا على وعود باحتمال بيع مصر اسلحة اميركية غير متطورة ، ليس لدعم قدراتها العسكرية في مواجهة التفوق العسكري الاسرائيلي بل لمواجهة الوجود السوفياتي في افريقيا • والسؤال الذي يطرح نفسه علينا هنا هو ، لماذا لا تتجاوب اميركا مع مبادرات السادات « السلمية » ؟ لماذا تبدو اميركا واسرائيل متصلبتين كلما بدت مرونة عربية او تراجع عربي ؟ اين يكمن الخلل في هذه المعادلة ؟

قبل الاجابة على هذه الاسئلة لا بد من التأكيد على ان هذه النتيجة لم تكن مفاجأة ، وكان التقدير منذ البداية ، ان المسار العربي نحو التسوية كما وضح بعد حرب تشرين « اوكتوبر » لن يؤدي في النهاية الا الى التسليم بالشروط الاسرائيلية ـ الاميركية للتسوية ، اذا كان لا بد من اتمام هذه التسوية ، لانه مسار افقد العرب الكثير من قدرتهم على المبادرة ، ودفعهم الى المراهنة على عامل وحيد اوحد ، وهو الدور الاميركي ، واسقاط ادوار كل القوى الاخرى الداخلة

في هذه التسوية ، او ذات التأثير فيها ★ · فالتسوية ، اية تسوية، قبل ان تقر وترسم معالمها وحدودها ، هي شكل من اشكال الصراع ، لانها تقوم بين اطراف هي بالاساس متصارعة ، وتهدف اما الى تهدئة هذا الصراع او انهائه ، بحلول مؤقتة او دائمة · وبما ان التسوية شكل من اشكال الصراع ، فأنها لا تكون الا انعكاسا لموازين القوى بين اطراف الصراع · وخلال البحث عن الحلول او اشكال التسوية ، يحاول كل طرف ان يؤثر في موازين القوى السائدة بما يكفل له تسوية أفضل ، ولكن مدى تأثير اي طرف ، لا تتحكم فيه قدرة هذا الطرف او ذاك على المناورة ، بل تتحكم فيه القوى الفعلية ـ المادية ـ التي يمثلها كل طرف على ارض الصراع · ذلك ان ما يحد قدرة اي طرف على المناورة ، هي القوى التي يملكها ويستطيع التأثير بها، وهامش المناورة يضيق او يتسع امام اي طرف، بقدرته على استخدام ما يملكه من قوى · فالاستخدام الفعال والناجع للقوى يعطي مجالا للمناورة اوسع ، في حين ان الاستخدام الخاطىء ، والناجم عن السياسات الخاطئة والتقديرات غير الصحيحة يضيق من مجال المناورة ، لانه يجرد هذه القوى من امكانات فعلها الحقيقية · وعلى ضوء ذلك يمكن ان نفسر لماذا بدأت « استراتيجية السلام » العربية تفقد قدرتها على الفعل ، وتكاد تصبح استسلاما لاستراتيجية الطرف الاخر ، اي العدو ·

« استراتيجية السلام » العربية ·

قامت « استراتيجية التسوية او السلام » العربية بعد حرب حزيران « يونيو » ١٩٦٧ على ركيزتين اساسيتين وهما : انسحاب اسرائيل الكامل من جميع الاراضي العربية المحتلة في العام ١٩٦٧، وعدم التفريط بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني· وعلى الرغم من ان هذه الاستراتجية كانت بمثابة انقلاب على الاستراتيجية العربية في مواجهة العدو الصهيوني ، فانها شكلت مدخلا للتعامل مع النتائج التي اسفرت عنها هزيمة حزيران · وهو مدخل كان يبدو متلائما وامكانات ومواقف القوى الطبقية السائدة عربيا ، على رغم انه كان لا يرضي الطموحات الوطنية للقوى الطبقية خارج السلطة في البلدان العربية ·

وحتى حرب تشرين ، كانت كل المنافذ مغلقة لوضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ ، سلميا ، اي بوسائل سلمية · لقد اصطدم التحرك السلمي العربي ، بالتعنت الاسرائيلي وباللامبالاة الاميركية · فكانت حرب تشرين التي اراد لها منفذوها ان تفتح المنافذ المغلقة امام « استراتيجية السلام » العربية · ولقد افرزت حرب تشرين معطيات جديدة ، جعلت بالامكان اخراج التسوية من الطريق المسدود · فحرب تشرين كانت في احد جوانبها او مظاهرها ، تعبيرا عما للقوة العربية الكامنة من فعل ، في وقت كانت تنظر اليها اسرائيل واميركا ، باعتبارها

★ انظر مقالينا عن المسألة الفلسطينية والتسوية في شؤون فلسطينية، العددين، ٥٦و٦١·

قوة مجمدة وغير قادرة على الفعل ·

ولكن ، يبدو لنا الان ، وبعد مرور ما يزيد عن ثلاث سنوات على حرب تشرين ، ان « استراتيجية السلام » العربية تقف امام المأزق من جديد ، وتواجه احد خيارين : اما مواجهة طريق التسوية المسدود بالبحث عن مخرج بوسائل عسكرية ، اي بالحرب ، أو بالخروج عن المسار العربي للتسوية ، والسير في مسار التسوية الاميركية ــ الاسرائيلية ·

ويبدو لنا ان « عرب التسوية » يحاولون اغماض أعينهم عن رؤية هذا المأزق، ويراهنون على عدم الوقوع في مأزق احد الخيارين بالسير على حديهما، اي المناورة بخيار الحرب لفتح المنافذ المغلقة امام التسوية · ولكن ، كما يبدو لنا ، فأن المناورة بخيار الحرب ، اي باحتمال اللجوء الى الحرب للخروج من « طريق السلام المسدود » ، باتت مناورة مكشوفة جدا ، بعد ان فقد « عرب التسوية » الكثير من اوراقهم الضاغطة ووضعوا كل بيضهم في السلة الاميركية · وما يؤكد استنتاجنا هذا ، اقدام السادات مؤخرا على « تشذيب » الموقف العربي ، وقص أذرعه ، ليكون اقرب الى حجم القالب الاميركي ــ الاسرائيلي ، وذلك لتجنب الوقوع في مأزق خيار اللجوء الى الحرب كأمر لا بد منه ·

غير ان هذا الموقف ــ الساداتي لن يحول دون مواجهة المأزق واللجوء الى احد الخيارين للخروج من الطريق المسدود · لان هذا الموقف قد يعطي لصاحبه مجالا للحركة والمناورة فترة سنة او سنتين على اكثر تقدير ، او يتولد عنه حلول جزئية، ولكن لا يمكن الاستناد اليه كأساس للوصول الى تسوية سياسية شاملة · ولهذا فاننا نقدر أن المأزق الذي يحاول « عرب التسوية » أغماض اعينهم عن رؤيته، سيكون من الوضوح خلال السنتين القادمتين ، بحيث لا يمكنهم تجنب رؤيته ·

نقول ذلك ، على الرغم من كل ما يشاع حولنا من تفاؤل عن قرب الوصول الى تسوية شاملة او شبه شاملة ، لاننا نرى ان البدايات التي انطلق منها العرب منذ حرب تشرين حتى الان ، لوضع استراتيجيتهم السلمية موضع التنفيذ كانت بدايات خاطئة ، وقامت على تقديرات مغلوطة · وهي تقديرات ــ لا نشك لحظة ــ انها تجد اصولها ومدلولاتها في طبيعة القوى الطبقية السائدة عربيا ، اي القوى الطبقية التي في مواقع الحكم والسلطة · فالمقتل في هذه الاستراتجية هي اعتبار العرب ان اميركا تشكل مركز الثقل فيها · لقد بنوا كل استراتيجيتهم على ان اميركا هي « مفتاح السلام » في المنطقة لانها تملك ٩٩٪ من اوراق اللعبة ، وذلك على حد ما يكرر الرئيس السادات دائما · وبالتالي فان « السلام » او عدمه ، مرهونان في النهاية بالموقف الاميركي · فأن شاءت اميركا كان هناك سلام ، وان لم تشأ ، فلن يكون هناك سلام ·

وعلى الرغم مما في هذا القول من سذاجة وتبسيط لا حد له للامور · فاننا نرى انه وليد تفكير قوى طبقية معينة ، وهي القوى الطبقية التي نمت خلال السنوات

العشر الماضية في اكثر من بلد عربي ، واستطاعت ان تتربع على السلطة في هذه البلدان ، دافعة ، من خلال تربعها على السلطة ، حلولها للمسألة الوطنية بما يتلاءم ومصالحها الطبقية الضيقة ٠

فالى ما قبل السبعينات ، كان الصراع مع العدو الصهيوني لا يرى الا مترابطا مع الصراع ضد الامبريالية ، وبشكل خاص الامبريالية الاميركية ٠ وذلك على اساس ان اسرائيل ليست الا امتدادا امبرياليا في الوطن العربي ، وان الترابط بين اسرائيل والامبريالية ، ليس ترابطا في المصالح فقط ، بل هو ترابط عضوي ، باعتبار ان اسرائيل جزء من الامبريالية العالمية ومخفر امامي لها ٠

وفي بداية السبعينات ، طرحت القوى الطبقية السائدة عربيا ، تحليلا للعلاقةبين اسرائيل والامبريالية الاميركية ، ينفي عن الاخيرة صفة العدو ، ويحصر «العداء» بالعدو الصهيوني فقط ٠ وعليه فقد « اجتهدت » هذه القوى للتأثير على العلاقة الوطيدة بين اسرائيل واميركا ، بان يقترب العرب من « الاميركان » ، وان يكونوا هم الحامون لمصالحهم والمدافعون عنها ٠ اي ان يلتف العرب على اسرائيل ، بان يكونوا هم اقرب الى « الاميركان » من اسرائيل نفسها ٠

وكتعبير عن هذه السياسة ، فقد جرت في عدة بلدان عربية ، تغييرات سياسية واقتصادية ، باتجاه الاقتراب من اميركا ٠ ولا شك ان اخر هذه التغييرات او ابرزها ، لن يكون فقط ، التوجه الى اميركا لتكون المزود الرئيسي للسلاح لعدد من الدول العربية ، ومنها دول عربية مواجهة لاسرائيل ، بل ستشمل هذه التغييرات امورا اخرى ، ومنها ما اشيع مؤخرا عن عزم مصر على ارسال جنود الى زائير ، للقتال ضد ما يسمى التغلغل السوفياتي في افريقيا ٠

ان جملة هذه التغييرات التي طرأت على عدد من البلدان العربية ، وبشكل خاص مصر ، كانت تعبيرا عن الاستجابة للمصالح الاقتصادية للقوى الطبقية السائدة في هذه البلدان ٠ فهذه القوى التي نمت في البداية كقوى رأسمالية طفيلية، وغدت الان القوى المهيمنة اقتصاديا وسياسيا ، بفعل ما تراكم لديها من رأسمال، لا تجد تعارضا بينها وبين الامبريالية ، بل تجد ان مصالحها تكمن في قيام علاقات وطيدة معها ٠ ولكن ما يؤثر على قيام هذه العلاقات الوطيدة هو المسألة الوطنية٠ وبدون حل هذه المسألة تبقى علاقاتها مع الامبريالية مهددة ٠ ولذا لا بد من حل هذه المسألة حتى تضمن هيمنتها الكلية والكاملة في الداخل ، وحتى تنمي علاقاتها مع الامبريالية بدون خوف ٠ ومن هنا برزت **المعضلة ـ الازمة** ٠ فهذه القوى لم تعد قادرة على حل المسألة الوطنية بالاندفاع نحو مواجهة العدو الصهيوني ، لان مواجهة كهذه ، تعني في جملة ماتعنيه ، ضرب علاقاتها مع الامبريالية الاميركية، وهو امر لا يتفق مع مصالحها الاقتصادية ومجمل توجهاتها السياسية ٠ وفي نفس الوقت فأن اميركا غير قادرة على ان توفر لها حلا للمسألة الوطنية لا يخدش « كبرياءها » الوطني ٠ وللخروج من هذه الازمة ـ المعضلة ، وضعت هذه القوى

كل ثقتها في اميركا لايجاد حل ، باعتبارها القابضة على ٩٩٪ من اوراق اللعبة ٠ فان فشلت اميركا ، فيكون الفشل لها وليس لهذه القوى ، كما عبر عن ذلك السادات مؤخرا ٠

واميركا التي لا تخفي « اعجابها » بهذه الثقة ، تبدو تواقة وحريصة ، على ايجاد حل لهذه الازمة ـ المعضلة ٠ فهي تبدو مرتاحة لما يجري من تغييرات في البلدان العربية لصالحها ، ولكنها لا تبدو مطمئنة الى ان القوى القابضة على الحكم في هذه البلدان، قادرة على الاستمرار فترة طويلة بما يضمن لها مصالحها، ويجنبها الهزات الاجتماعية التي تلوح نذرها ، والتي كانت الانتفاضة الشعبية في مصر احد التعبيرات الاولية عنها ٠ فما هو المخرج ، وكيف الحل ؟

كارتر : سلام شامل على مراحل

لقد كانت سياسة « الخطوات الصغيرة » التي ابتدعها كيسنجر ، نوعا من « المخدر » الاميركي لتهدئة الصراع العربي ـ الاسرائيلي وتفكيك الالغام الموقوته المزروعة على جنبات وفي قلب هذا الصراع ، كما كانت سياسة استهدفت زرع المزيد من الاوهام حول الدور الاميركي في تحقيق « السلام » ودفعا للمزيد من التغييرات في البلدان العربية باتجاه اميركا ٠ والان وامام استنفاد « الخطوات الصغيرة » اغراضها، لا بد من سياسة تبقي الخيوط في اليد الاميركية ، وتبقي « العربات » العربية مشدودة الى الثور الاميركي ٠

لقد عبر زبغنيو بريجزنسكي ، عن هذه السياسة عندما طرح **سياسة الحل الشامل على مراحل** ، وهي سياسة تختلف من حيث الشكل عن سياسة الخطوات الصغيرة ، **ولكنها لا تختلف** عنها من حيث المضمون والنتائج ٠ وقد تبنى كارتر هذه السياسة وعبر عنها في تصريحاته الاخيرة خلال شهر اذار (مارس) الماضي (تصريحات كارتر عن الحدود الدفاعية والحدود السياسية لاسرائيل، وتصريحاته عن الوطن القومي الفلسطيني) ٠ ★

ومجمل هذه السياسة يقوم على اساس انه ليس بالامكان الوصول الى حل شامل الان ، وخلال فترة قصيرة ، وانه لا بد من مرور عدة سنوات (ثماني سنوات او اكثر) للوصول الى هذا الحل ٠ ولكن لا يمكن انتظار هذه السنوات دون حل، فلا بد اذن من حلول مرحلية ، وهي حلول تختلف عن سياسة الخطوات الصغيرة٠ غير ان ما يعقد الوصول الى مثل هذه الحلول المرحلية هو تخوف اطراف الصراع من طبيعة الحل الشامل ومحتواه ، فكل طرف يخشى ان يخسر في الحل المرحلي

★ انظر نص هذه التصريحات كاملة في جريدة **تشرين** بتاريخ ١٦ـ٣ـ١٩٧٧ ، وفي جريدة **النهار** بتاريخ ١٩ـ٣ـ١٩٧٧ ٠

اوراقا تفقده القدرة على التحكم في الحل الذي يلي · ولمواجهة هذه العقدة · لا بد للاطراف ان تتفاهم او تتفق على صورة الحل الشامل اولا ، ثم تجزىء هذا الحل الى مراحل · العرب يريدون الارض ، واسرائيل تريد السلام · فيجري التقايض بقطعة من الارض مقابل قطعة من السلام · والسلام الشامل او النهائي سيكـون مقابل الارض المحتلة في العام ١٩٦٧ مع تعديلات طفيفة في الحدود · وهــــذه التعديلات كما عبر عنها مصدر اميركي قد تكون بعمق ١٠ـ١٥ كم ؟!

ولقد طرح كارتر تصور اميركا للحل الشامل هذا ، تاركا مرحلة هذا الحـــل واشكاله للتفاوض ، وابرز ما في هذا الحل ان مفهوم اميركا للسلام هو المفهـوم الاسرائيلي نفسه ، اي حدود مفتوحة ، وحدود يمكن الدفاع عنها ، على ان تعود اسرائيل الى حدودها السياسية المتفق عليها تفاوضيا ، عندما يتم الوصول الـى السلام النهائي ، اي عندما تقيم الدول العربية علاقات دبلوماسية واقتصاديــــة وثقافية وسياسية مع اسرائيل · وفيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية ، فقـــد اعلـن كارتر وجوب « ان يكون هناك وطن قومي للاجئين الفلسطينيين » ولم يحدد ايـــن وكيف يقام هذا الوطن ، الا ان الفقرة الملحقة بهذا القول تجعل بالامكان تفسيـره بانه يعني بالوطن الفلسطيني ، ارضا اخرى غير فلسطين ، والارجح انها الاردن، حيث يشير كارتر في كلامه بعد الوطن الفلسطيني الى ان « السبيل الصحيح لحـل المشكلة الفلسطينية ، هو ان تكون المعالجة اولا من قبل الدول العربية · ثم مـن قبل الدول العربية المفاوضة لاسرائيل » اي انه اعتبر المسألة الفلسطينية مسألـة عربية، ونفى عنها كونها الاساس في الصراع العربي ـ الاسرائيلي، كمانفى عنها كونها الاساس في اية تسوية · واسقط عن الشعب الفلسطيني حقه في الانتماء الى ارضه ووطنـــه ·

ونحن لا نرى في هذا المشروع الاميركي الا مشروعا اسرائيليا ـ معدلا بعـــض الشيء ـ وبلافتة اميركية · وهو مشروع لا يرضي حتى الحد الادنى من مطالب « عرب التسوية » · ويسقط كليا الحد الادنى من المطالب الوطنية الفلسطينية ، اي اقامة الدولة الوطنية الفلسطينية على ارض فلسطين · فهل ينجرف « عـــرب التسوية » الى القبول بهذا المشروع كأساس للتسوية ، مدفوعين اليه برغبتهم في الخروج من المأزق الذي بات يحاصرهم ؟

لقد ارتفعت بعض الاصوات العربية لتزيين المشروع الاميركي ، بتجاهـــــل سلبياته والتركيز على « ايجابياته » · وكما قال دبلوماسي مصري ، فلنركز على النقاط « الايجابية » في الموقف الاميركي ، ولنترك السلبيات او ما لا نوافق عليـه الى المفاوضات والاتصالات الثنائية · وواضح جدا ان « اجتهادا » كهذا لا ينـــم الا عن رغبة قوية في التلاقي مع الموقف الاميركي ، ولو على حساب الحد الادنى من مطالب « عرب التسوية » ·

ولكن ، هل التلاقي مع المشروع الاميركي يخرج « عرب التسوية » من مأزقهـم

ويدفع باحتمالات نجاح الوصول الى تسوية سياسية شاملة ؟

لا نرى فيما يسود حولنا من اوضاع ، محليا وعربيا ودوليا ، ما يشجعنا على الاجابة بنعم ، حتى ولا نعم بتحفظ ، بل نرى ان الاوضاع السائدة تبشر بازدياد الصراع وارتفاع حدته خلال السنوات القادمة بشكل يدفع الى الخلف باحتمالات الوصول الى تسوية ، ويدفع الى الامام اكثر باحتمالات الحرب والثورة للخروج من المأزق · واحتمالات الحرب لن تكون وليدة مواقف القوى الطبقية السائدة عربيا ، بل ستكون ــ الى حد كبير ــ وليدة مواقف القوى الطبقية ، من عمال وفلاحين وشغيلة وبورجوازية وطنية ، وهي القوى التي اخذت تتلمس طريقها بقوة اكبر في اكثر من بلد عربي ، للخروج من مأزق « الانظمة » بالثورة ·

ولا نقول ذلك كتمنيات ، بل نراه واقعا نعيشه ، ومؤشرات تطل برأسها على اكثر من صعيد ، وتسقط معها الكثير من الاوهام حول الدور الاميركي الوحيد والاوحد والارتهان الى اميركا « التي تملك ٩٩٪ من اوراق اللعبة » · **فأميركا** ، على الرغم مما حققته من مكاسب خلال السنوات الاربع الماضية في منطقتنا ، ليست هي صاحبة القرار الاول والاخير في المنطقة كما يروج « عرب التسوية » بل نجد على العكس من ذلك ، ان التحرك الاميركي بات يصطدم باكثر من عقبة ، **وهو اصطدام يبشر** بحدوث تغييرات كبيرة في موازين القوى السائدة محليا خلال السنوات القادمة لصالح القوى المناهضة للامبريالية الاميركية · فسياسة الانفتاح الاقتصادي التي راجت مع الانفتاح على اميركا والتلاقي معها ، سقطت وزادت في تفاقم الازمة الاقتصادية ــ الاجتماعية في البلدان العربية التي انتهجت هذه السياسة · **وليس** بمقدور اميركا ــ مهما تنوعت مساعداتها ــ ان تنقذ هذه البلدان من ازمتها · وتفاقم الازمة الاقتصادية ــ الاجتماعية فاقم من حدة التناقضات الطبقية في هذه البلدان ، بشكل ادى الى نمو النضالات الجماهيرية وطنيا واجتماعيا · اضافة الى ذلك ، فان ما يزيد من حدة هذه التناقضات ، ادراك اوسع الجماهير عجز « انظمة التسوية » عن حل المسألة الوطنية · فالمشروع الاميركي الاخير لا يقدم حلا سريعا لهذه المسألة ، اضافة الى انه يطرح **حلا لا وطنيا** لها ، وهو حل يتعارض مع الحد الادنى من المطالب الوطنية للجماهير العربية · وتبرز اهمية هذا التعارض مع التحرك السوفياتي النشط ازاء قضايا التسوية والصراع العربي ــ الاسرائيلي · **فالاتحاد السوفياتي** بات اكثر دعما للموقف الوطني الفلسطيني من اي فترة مضت كما تأكد ذلك بعد زيارة الاخ ابو عمار الاخيرة للاتحاد السوفياتي · كذلك فان الاتحاد السوفياتي يبدي موقفا اكثر تصلبا وتشددا ضد الابتزاز السياسي الاميركي على الصعيد الدولي · ولا شك ان الموقف السوفياتي النشط والمتشدد ، سيجعل من الصعب جدا على الولايات المتحدة ، ان تنفرد باخراج حلول للصراع العربي ــ الاسرائيلي كما تريد وتتمنى ·

واذا اضفنا الى كل ذلك ، المسارات المحتملة للموقف الاسرائيلي خلال الفترة

القادمة ، على ضوء ما يجري من تطورات ، علـى الصعيـد الاسرائيلي وعلـى الصعيدين العربي والدولي ، نخرج بنتيجة مؤداها ، ان التسوية الشاملة بعيدة، وبعيدة جدا ، حتى ولو عقد مؤتمر جنيف خلال النصف الثاني من العام الحالي ·

فاسرائيل لا تبدو مستعدة خلال هذه الفترة **للخروج من اطار سياسـة اللاقرار الى قرار بخطوة كبيرة نحو التسوية** · واذا كان احتمال خروج الموقف الاسرائيلي من اطار سياسة اللاقرار ممكنا قبل استقالة رابين ، فانه ، بتقديرنا ، ليس ممكنـا بعد استقالته وتسلم شمعون بيريز زعامة حزب العمل · ليس لان شمعون بيرس من « الصقور » ورابين من « الحمائم » كما يشاع او يقال ، بل لان الانتخابـات الاسرائيلية القادمة ، سينجم عنها ـ بتقديرنا ـ تغيير ليس بسيطا في خارطةالقوى السياسية داخل اسرائيل ، فقوة حزب العمل ستتأثر ، وسيعود الحزب الـى الكنيست اضعف مما كان سابقا · ولذا فان عودته للحكم سيكون ثمنها الائتلاف مع قوى سياسية اسرائيلية يختلف معها ـوان بحدودـ حول التسوية وشروطها · ولن يقوم ائتلاف كهذا الا على قاعدة « التصلب والتعنت » ازاء الموقف العربي ، وهذا الوضع سيجعل اي حكومة اسرائيلية قادمة عاجزة عن اتخاذ قرار ، ممـا يضطرها الى الاختفاء وراء سياسة اللاقرار لاستمرار الائتلاف واستمرارها فـي الحكم · ونحن **لا نستبعد ان ينتج عن هذا الوضع سلسلة من الازمات الوزارية ، والتي قد تدفع في النهاية اسرائيل الى تصعيد نغمة الحرب والتهديد بها ، وربمـا اللجوء اليها كمخرج من ازمتهـا السياسية** ·

صلابة الموقف الوطني الفلسطيني

على ضوء كل ذلك ، كيف ننظر الى قرارات المجلس الوطني في دورته الثالثة عشرة (دورة الشهيد كمال جنبلاط) التي عقدت مؤخـرا ؟ وأين نحدد موقـع هذه القرارات في مسار الاحداث ·

لقد راجت تكهنات كثيرة قبل انعـقاد المجلس الوطني ، بأن تغييرات كبيـرة ستطرأ عـلى الموقف الفلسطيني ، وأن ابرز هذه التغييرات سيتناول تعديـل الميثاق الوطني الفلسطيني ، بشكل يمهـد للاعتراف باسرائيل والقبول باقتسام الوطن الفلسطيني بين اسرائيل والشعب الفلسطيني · ولقد جاءت قـرارات المجلس الوطني الفلسطيني لتستبعد كليا تكهنات كهذه ، ولتؤكد من جديد علـى الموقف الوطني الفلسطيني عـلى الرغـم من كل الضغوطات التي مورسـت لصدور قرارات « معتدلة » ، تنسجم مع التحرك السياسي العـربي العام ازاء التسوية · والقرارات التي صدرت تتعامل مع الوقائع المحيطة بنا واحتمـالات تطورها خلال الفترة القادمة **بصلابة مرنـة** · فقد أكدت القرارات التـزام الموقف الفلسطيني بالحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني كما جرى التعبير عـنها بقرار الجمعـية العـامة للامم المتحـدة رقم ٣٢٣٦ للعام ١٩٧٤ ، كمـا

اكدت حقه في اقامة دولته الوطنية المستقلة على ترابه الوطني ، من خلال منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثلة الشرعية والوحيدة للشعب الفلسطيني ٠

وهذا الموقف يتعارض ويصطدم مع التحرك السياسي الاميركي ـ الاسرائيلي ، والعربي ـ الى حد ما ـ ازاء المسألة الفلسطينية ٠ فالموقف الاميركي ـ الاسرائيلي يسعى الى تغليب المسار الاردني كأطار لحل المسألة الفلسطينية ،ويلقى هذا الموقف قبولا ـ بحدود ـ من بعض الانظمة العربية ، ولا سيما مصر التي ما فتئت تؤكد على ضرورة وجود ارتباط رسمي ومعلن بين النظام الاردني ومنظمة التحرير الفلسطينية قبلعقد مؤتمر جنيف، بحيث يكون الكيان الفلسطيني الذي يمكن أن يخرج من « رحم » التسوية جزءا من الاردن ، كما أوضح ذلك السادات خلال لقائه مؤخرا مع كارتر ٠ وتقديرنا ، ان هذا الموقف ليس الا مقدمة « لتنفيس » الموقف الوطني الفلسطيني وافراغه من مضمونه الوطني ، لانه يشكل عودة الى مشروع المملكة العربية المتحدة كما طرحت في العام ١٩٧٢ ٠

ونحن لا نعدم وجود بعض الاصوات الفلسطينية ، التي تحاول الاستناد الى « حقائق » الديموغرافيا والجغرافيا لتبرير مثل هذا الارتباط ٠ وهنا لا بد من التأكيد ان هناك فرقا واضحا وبينا ، بين حقائق الديموغرافيا والجغرافيا التي تفرض اعادة وحدة الشعبين ، الفلسطيني والاردني ، على أسس وطنية وديموقرطية ، وبين حقائق الديموغرافيا والجغرافيا التي يستند اليها البعض لتفريغ الموقف الفلسطيني من محتواه الوطني ، وجره الى مواقع الالحاق السياسي ٠ ولا شك بأن هذه النقطة ستشكل أحدى أبرز نقاط التعارض والتصادم بين الموقف الوطني الفلسطيني والتحرك السياسي العربي العام ازاء التسوية ٠ ولا نرى في الوضع السياسي القائم من حولنا ، ما يجعلنا نتهيب خوض الصراع حول هذه النقطة بما يؤكد الموقف الوطني الفلسطيني ٠

ونقاط التصادم الاخرى لن تكون اقل شأنا أو اهمية من هذه النقطة ، فشرعية ووحدانية تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية كما أقرت بذلك قرارات مؤتمر القمة العربي في الرباط في العام ١٩٧٤ ، يحاول بعض العرب الالتفاف عليها وتفريغها من محتواها ، بأدخال « شركاء او وكلاء » عن المنظمة لتمثيل الشعب الفلسطيني ٠ كذلك تجري محاولات لضغط وقسر الوجود الفلسطيني في لبنان تحت مظلة تنفيذ اتفاقية القاهرة ، اضافة الى ما يجري من محاولات لاحداث شروخ في علاقات المنظمة ، كقائدة للشعب الفلسطيني ، مع جماهيرها في الارض المحتلة ، وفي الاردن تحديدا ٠

ان كل هذه المحاولات تجري تحت مظلة « تسهيل التمثيل الفلسطيني » في مؤتمر

جنيف ، حتى لا يتحـول الموقف الفلسطيني الى عقبة في طريق التسوية او فـي عقد مؤتمـر جنيف · ولكـــن التمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف ، لا يمكـن ان يكون عـلى حساب الموقف الوطني الفلسطيني ، بل يجب ان يكون دعـمـا لهذا الموقف وتكريسا لـه ·

ان صراع الارادات حول المسألة الفلسطينية لا يزال هو السمة الابرز فيمـــا يجري من احداث حول قضايا التسوية والصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وسيزداد هذا الصراع حدة خـلال الفترة القادمة ، وهو صراع سيكتسب مضاميـــن اكثر ثورية مع التحركات التي تجري عـلى الارض العربية وبين الجماهير العربية ، لانه صراع يصب في المجرى العام لحركة التاريخ السائرة الى الامام ·

ان السنوات القادمة ستكون قلقة ، لا نشعـر ازاءها بأي خـوف ، لانهـــا سنوات المخاض الذي يبشر بأشراقة قادمة ، اشراقـــة الثورة التـي تقترب ، وسراب السلام الذي يبتعـد ·

تدويل الأزمة اللبنانية : أغراضه وأبعاده واحتمالاته

الدكتور محمّد المجذوب

في السابع من نيسان (ابريل) ١٩٧٧ ، وجهت « الجبهة اللبنانية » الى الملوك والامراء والرؤساء العرب نداء (صيغ بأسلوب ادبي ، وتضمن غمزا من اكثر من قناة) طالبتهم فيه باتخاذ تدبير عاجل لفرض « تنفيذ اتفاق القاهرة بالقوة »، ووضع حد « للتباطؤ والتردد والتمييع » ، لئلا تصبح « مسألة لبنان في حاجة الى معالجة غير هذه المعالجة » (١) ٠

وتساءل البعض عن المقصود بالجملة الاخيرة من النداء ، فأوضحه ، بعديومين اثنان من اقطاب « الجبهة » ٠ لقد سئل السيد كميل شمعون عن الاجراءات التي ستقوم بها « الجبهة » في حال عدم تطبيق اتفاق القاهرة ، فأجاب بان « هذا يتوقف ، الى حد بعيد ، على تصرف المنظمات الفلسطينية المسلحة ٠ اذا تصرفوا وكأنهم قبلوا بنصوص اتفاق القاهرة ، تكون الامور عادت الى نصابها ، والا يصبح الموقف دوليا ، ويصبح من الضروري عندئذ مراجعة الدول المسؤولة في مجلس الامن كي تتخذ التدابير الضرورية للمحافظة على سلامة لبنان وسلامة شعبه » (٢) ٠ وسئل الشيخ بيار الجميل عن الخطوات التي يمكن اتخاذها بعد صدور النداء ، فأجاب : « لقد اردنا ان نضع العرب في مستوى مسؤولياتهم ونلفتهم الى التزاماتهم نحو لبنان ٠٠٠ ونرجو الا نفقد الامل والثقة بقدرة الجامعة العربية لئلا نضطر الى اللجوء الى هيئات عالمية اخرى » (٣) ٠

فالمقصود ، اذن ، بالتحذير الذي ختمت « الجبهة » به نداءها هو التهويل او التهديد من جديد بفكرة التدويل ٠ ونقول « من جديد » ، لانه سبق لاقطاب « الجبهة » أن لجأوا ، اكثر من مرة ، الى هذا الاسلوب خلال الاحداث الدامية واستخدموه كورقة ضغط لتحقيق اغراض معينة ٠

والعودة الى اثارة موضوع التدويل تطرح الاسئلة التالية :

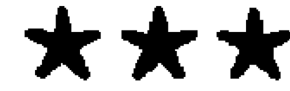
١ ـ ما المقصود باصطلاح التدويل ؟

٢ ـ وما هي الاغراض الكامنة وراء التلويح بالتدويل ؟

٣ ـ وهل يحق للامم المتحدة ان تتدخل في الشؤون الداخلية للدول الاعضاء؟

٤ ـ وما هي السلطات المحلية او الدولية التي يحق لها التقدم بطلب التدويل؟

٥ ـ وهل من السهل بحث الازمة اللبنانية في الامم المتحدة ؟



اولا ـ المقصود بالتدويل.

لاصطلاح « التدويل » ، في القانون الدولي العام ، معنى واضح ومضمون محدد · غير ان هذا الاصطلاح قد استعمل ، خلال الازمة اللبنانية ، للدلالة على مسألة سياسية خاصة · فالتدويل نظام ادارة تشترك فيه عدة دول ، بموجب اتفاقية دولية ، ويطبق على بعض المناطق او الاقاليم التي تكون موضع أطماع من قبل الدول الكبرى · فهذه الدول تعجز احيانا عن ابتلاع احد الاقاليم المتنازع عليها ، او تخشى تألب الدول الاخرى عليها فيما لو احتلت الاقليم بمفردها وضمته الى اراضيها ، فتختار اضمن المكاسب وتغري الدول الطامعة فيه بتقاسم الغنيمة · وبذلك يفصل الاقليم عن دولة الاصل ، وينقذ من مغبة الوقوع بين فكي دولة واحدة ، ويوضع تحت نظام ادارة دولية تشترك فيه عدة دول (٤) ·

وجميع الاقاليم التي خضعت لنظام التدويل في القرن العشرين استعادت اليوم حريتها وعادت الى حظيرة الدول التي سلخت عنها بالقوة · **فمرفأ دانتزج** ، أعيد الى بولونيا بعد الحرب العالمية الثانية · **ومنطقة طنجة** ، أعيدت الى الوطن الام ، في العام ١٩٥٦، بعد نيل المملكة المغربية استقلالها · **ومنطقة تريستا**، قسمت في العام ١٩٥٤ ، بين يوغوسلافيا وايطاليا · **ومقاطعة السار** ، ضمت ، في العام ١٩٥٥ ، الى المانيا الاتحادية ، بعد اجراء استفتاء فيها · **ومقاطعة ايريان المغربية** التي تشكل نصف جزيرة غينيا الجديدة ، اعيدت الى اندونيسيا في العام ١٩٦٩ (٥) ·

والتدويل ، في القانون الدولي العام ، لا يشمل الا جزءا من اقليم الدولة وليس الدولة بكاملها ، فالدولة المستقلة لا تدول ، اي لا تخضع للتدويل · وليس المقصود بالتدويل الذي دعت اليه « جبهة الكفور » سابقا ، و « الجبهة اللبنانية » حاليا ، تدويل الدولة اللبنانية ، اي اخضاع لبنان ، السيد المستقل ، لنظام ادارة دولية باشراف الدول الكبرى ، فمجرد التفكير في هذا الامر (ولو تمناه البعض في لحظة انهيار او ضياع او انحراف) هو ، في رأينا ، خيانة وطنية · ان المقصود بالتدويل هو تدويل الازمة اللبنانية ، اي نقل الازمة الى منظمة الامم المتحدة وعرضها على اجهزتها المختصة ومحاولة انتزاع قرار منهـا لصالح انصار التدويل (٦) ·

ثانيا ـ التدويل تكتيك وتهويل

طرح اليمين اللبناني ، منذ بداية الازمة اللبنانية ، شعار التدويل واخذ يلوح به مهددا ، كلما وجد نفسه في مأزق ، او كلما شعر بهبوب الرياح ضده ٠ ولم تخل التصريحات والبيانات الفردية الصادرة عن زعمائه ، في معظم الاحيان ، من اشارات وتلميحات الى التدويل ٠

وفي اول الصيف الماضي ، تحركت « جبهة الكفور » وهددت بطلب التدويل ، فنددت المنظمات الوطنية بهذا الاسلوب الابتزازي ووصفته بالمؤامرة التي ترمي في النهاية الى فرض التقسيم ٠ وكان الرائد عبد السلام جلود ، رئيس الوزراء الليبي ، يقوم آنذاك بمساع حميدة في بيروت ، فانفعل عندما بلغه حديث التقسيم والتدويل وصرح في أحد مؤتمراته الصحافية « بان هناك ثلاث قضايا نقاتل من أجلها بصورة انتحارية ٠٠٠ هي حماية الثورة الفلسطينية ، ورفض التقسيم ، ورفض التدويل » (٧) ٠

وعبرت حكومة الرئيس رشيد كرامي ، في مناسبات مختلفة ، عن رفضها لفكرة التدويل ٠ ففي النداء الذي وجهه الرئيس كرامي الى رؤساء حكومات السعودية والكويت ومصر وسوريا ، بمناسبة اجتماعهم في الرياض في ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٧٦ ، قال :« اننا نرفض رفضا قاطعا فكرة التدويل التي يلوحون بها ٠٠»(٨)٠ ويبدو ان رئيس الجمهورية (سليمان فرنجية) كان قد صمم ، في تلك الفترة، على التهويل بالتدويل فعهد الى المندوب الدائم للبنان لدى الامم المتحدة (ادوار غرة٠) بالترويج لهذه الفكرة، مما اضطر رئيس الحكومة، بصفته وزيرا للخارجية بالوكالة ، الى الاعتماد على دبلوماسي لبناني آخر (يحيى الحمصاني) لمجابهة الفكرة في المنظمة العالمية وتوضيح موقف الحكومة اللبنانية منها ٠

وعندما عقدت الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم (جناح بدوي ابو ديب) ، في نهاية حزيران (يونيو) ، مؤتمرا في عاصمة الاكوادور ، استغلت « الجبهة » هذه المناسبة وأوحت الى المسؤولين عن المؤتمر بوجوب اصدار توصية بمباركة التدويل ، فصدرت التوصية الاولى وهي تتضمن « ارسال برقية الى رئيس مجلس الامن الدولي وامين عام الامم المتحدة وكل من رؤساء الدول الاميركية يعلن فيها المؤتمر رفضه لقوات سلام اقليمية او فئوية أو ضالعة ٠٠٠ وان الهيئة الوحيدة الصالحة والمحايدة التي في استطاعتها القيام بذلك والحفاظ على سيادة لبنان هي مجلس الامن » (٩) ٠

ولم يدع اركان « الجبهة » مناسبة تتعلق بالامم المتحدة الا وانتهزوها لتوجيه اللوم الى المسؤولين فيها بسبب عدم اكتراثهم بما يجري في لبنان ٠ ففي ٦ تموز (يوليو) ، سئل رئيس حزب الوطنيين الاحرار عن رأيه في العمل الذي ارتكبته اسرائيل في مطار عنتبة الاوغندي ، فسارع الى ابداء استغرابه لتصرفات

مجلس الامن الذي كرس لهذه المسألة عدة جلسات ، كما خصص دورة كاملة للنظر في الخلافات العربية ، دون ان يبدي اي اهتمام حتى الآن بالازمة اللبنانية. واعتبر هذا الموقف دليلا « على فقدان الضمير الدولي وقصر نظر الامين العام للامم المتحدة » (١٠) .

وفي ٦ تموز (يوليو) ، تخلت « جبهة الكفور » عن لغة الرموز وتبنت رسميا ودون مواربة فكرة التدويل واعلنت انها اتخذت قرارها النهائي بتدويل المسألة اللبنانية ، وانها ابلغت قرارها للعقيد السوري محمد الخولي ، وان شخصيات سياسية ودبلوماسية ستنتدب لزيارة عدد من الدول الغربية للترويج لفكرة التدويل ، وانها اضطرت الى اتخاذ هذا الموقف بحجة « فشل المبادرات العربية ، واخرها مبادرة جامعة الدول العربية ، واستمرار التصعيد العسكري » (١١) .

وحاولت « الجبهة » تجنيد بعض الحكومات الصديقة لمناصرة فكرة التدويل ومطالبة الامم المتحدة، عند الاقتضاء ، بمناقشة الازمة اللبنانية، فأجرت اتصالات مكثفة بالحكومتين الفرنسية والاميركية « لحملهما على تأييدها بالنسبة الى طرح الازمة اللبنانية على مجلس الامن ، وذلك في نطاق مشروع تدويل القضية »(١٢). وحاولت الاستعانة ببعض الشخصيات السياسية المسؤولة في الخارج ، فلم يبد اي مسؤول او صديق استعداده لدعم وجهة نظرها ، باستثناء عضو في مجلس الشيوخ الاميركي . ففي ٢٦ تموز (يوليو) ، قدم السيد جورج ماكغفرن طلبا الى الادارة الاميركية دعاها فيه الى ارسال قوة اميركية ودولية الى لبنان ، تعمل تحت راية الامم المتحدة ، اذا فشلت قوات الامن العربية في احلال السلام ووقف القتال (١٣) .

ولوحظ ، في هذه الفترة ، انه لم يكن يمر اسبوع (واحيانا يوم واحد) دون ان تزود المصادر المقربة من « الكفور » الصحافة بخبر يتعلق بموقف الجبهة من التدويل ، او بالنشاط الذي تبذله في هذا السبيل . ففي ١١ تموز (يوليو) ،لخص رئيس حزب الكتائب والاباتي شربل قسيس ، رئيس المؤتمر العام للرهبانيات ، موقف محور « الكفور » من مداولات وزراء الخارجية العرب في القاهرة بعدة نقاط ورد فيها « ان طلب السند الخارجي وارد ان لم تحزم المبادرة السورية امرها وتحسم الموقف نهائيا، لان عدمذلك معناه ان تسير الازمةفي طريق التدويل»(١٤). وكان الدكتور شارل مالك (وهو من أركان الجبهة) قد حاول ، في ٤ تموز (يوليو) ، حشر مسألة التدويل في دوامة التفلسف اللفظي عن طريق ايهام الرأي العام بان تعريب القضية اللبنانية يستتبع حتما تدويلها ، وتدويلها يستتبع حتما تعريبها ، دون ان يبين كنه العلاقة بين الامرين ، ودون أن يشرح كيف ان التعريب، في حال نجاحه، يستتبع التدويل، وكيف ان العكس صحيح كذلك (١٥).

وفي ٢٦ تموز (يوليو) ، برزت ظاهرة جديدة في مجال الدعوة الى التدويل ،

فقد ناشد رئيس الكتائب جامعة الدول العربية اعلان عجزها عن حل الازمة اللبنانية والاسهام في تدويلها ، اي « في وضع القضية بين ايدي الامم المتحدة » (١٦) · وفي ٢٧ منه ، دعا الى الاعتماد على هذه الجامعة وعلى مؤازرتها للاستعانة بالامم المتحدة على اطفاء الحريق ، وشدد على « ان تتم الخطوة بواسطة جامعة الدول العربية وبرضى اللبنانيين الصادقين في دعوتهم الى انقاذ البلاد ·· » (١٧) · وفي اليوم التالي ركز على هذه الناحية وتمنى النجاح للمبادرة العربية ، ولكنه اكد انه « في حال الفشل لا يبقى امامنا غير الامم المتحدة ··· لا يبقى لنا الا هذا الامل الطبيعي تساعدنا على بلوغه جامعة الدول العربية ويوافق الجميع في لبنان على التوجه بالقضية الى المنظمة الدولية ··· » (١٨) · وبررت اوساط حزب الكتائب الدعوة الى التدويل بان « الوضع في لبنان لم يعد يحتمل اختبارات وتجارب جديدة ، لان استمرارالاحداث يقلل يوما بعد يوم من فرص عودة التلاحم بين اللبنانيين ويمكن المتطرفين من تحقيق المعالم التنظيمية والادارية والعسكرية للدويلات المقسمة » (١٩) ·

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه رئيس الكتائب يكثر من أحاديثه عن التدويل ، كان رئيس الجمهورية يجتمع بالقائم بالاعمال الفرنسي والسفير البابوي ويبلغهما قرار « جبهة الكفور » بتدويل الازمة والطلب من دولتيهما دعم هذا الاتجاه في المحافل الدولية (٢٠) · كما كان الاباتي شربل قسيس يقوم بجولة اوروبية يزور فيها حاضرة الفاتيكان ويرفع الى قداسة البابا ، بواسطة مستشاره السياسي ، تقريرا وضعته لجنة الكسليك وتمنت فيه على البابا بذل جهوده الشخصية لنقل الازمة اللبنانية الى الصعيد الدولي « بحيث تضع الامم المتحدة يدها على لبنان ويرسل الكبار قوات اليه تضمن اعادة ترتيب الاوضاع بصورة جذرية بمعزل عن البلبلات الوافدة » (٢١) · وفي هذا الوقت كذلك كانت صحيفة « العمل » الكتائبية تشارك اقطاب « الكفور » في الدعوة الى التدويل ، عبر تشكيكها في قدرة جامعة الدول العربية على حل الازمة (٢٢) ·

وقبل انعقاد قمة الرياض بيومين ، القى المندوب الدائم للبنان لدى الامم المتحدة خطابا امام الجمعية العامة تضمن نقدا عنيفا للفلسطينيين ، فوجه رئيس الحكومة (رشيد كرامي) رسالة الى رئيس الجمعية العامة ، واخرى الى الامين العام للامم المتحدة ، انتقد فيهما موقف المندوب الدائم واكد ان خطابه لا يعكس سياسة الحكومة اللبنانية ، وانه يشوه الوقائع ، ويتغافل عن الاخطاء الكثيرة التي ارتكبها بعض المسؤولين اللبنانيين خلال الاعوام الماضية ، ويستهدف في نهاية الامر فتح الباب امام تدويل الازمة اللبنانية (٢٣) ·

وقبل ايام قليلة من مباشرة قوات الامن العربية لمهمتها الشاملة في لبنان ،ارتفع صوت قطبين في « الجبهة » يهدد ، في حال الفشل ، بامكان اللجوء الى التدويل · فرئيس الكتائب اعرب عن اعتقاده بان قوات الردع العربية هي الوسيلة الوحيدة

الآن لانقاذ لبنان وقال : « اذا فقدت وضاعت الثقة بها فهناك الكارثة ، وآنـذاك يعذرنا الاخرون اذا ما لجأنا الى مقلب ثان من الارض لطرح قضيتنا ٠ وآنـذاك أيضا يكون الذين يعترضون على تدويل الازمة هم أنفسهم الذين حملوها بأيديهم الى ساحة التدويل » (٢٤) ٠ وأدلى النائب ادوار حنين بتصريح قال فيه : « انقوة الردع انشئت خصوصا لردع المعتدين لا المعتدى عليهم ٠ وفي حال فشل الـردع ننتقل الى التدويل ، وهو آخر الطب ، وتكون النهاية نهاية فعلية » (٢٥) ٠

وعندما حصلت بعض الاشتباكات العسكرية الموجهة ضد قوات الردع فيالمناطق الخاضعة لسيطرة « الجبهة » ، تساءل الكثيرون عما اذا كان هناك ترابط بين التصريحات المذكورة والاشتباكات الراهنة ، وعما اذا كانت تلك الاشتباكات مقصودة لاثبات فشل قوات الردع و « رفع الموضوع الى الامم المتحدة وتصويره اعتداء عربيا شاملا على لبنان يستدعي نجدة اجنبية معينة » (٢٦) ٠ بل ان بعض الساسة قد اكد ان قصد الذين يشنون الهجمات على هذه القوات هو اثارة الازمة اللبنانية دوليا ، « اي رفع قضية لبنان الى مجلس الامن ممـا يساعدهم على استقدام قوات دولية يستعيضون بها عن القوات العربية ، وبذلك يكونون قـد خطوا خطوة اخرى نحو التقسيم ونحو قيام الدولة المارونية » (٢٧) ٠ وهنـاك من رأى « في تصعيد الموقف العسكري على الحدود والتلويح باجتياح اسرائيـلي للجنوب ما يهيىء المناخ لبروز دعوات استدعاء القوات الدولية ، اي تنفيذ حلقة التـدويل » (٢٨) ٠

★★★

والخلاصة ان « الجبهة اللبنانية » لم تتوقف ، منذ نشوب الازمة ، عن التلويح بالتدويل تارة والتهديد به طورا ٠ وهي تفسر احجامها حتى الآن عن طلبالتدويل بحرصها على استمرار الصيغة اللبنانية ، ورغبتها في توفير الظروف الملائمة لانجاح المبادرات العربية ، وعلى رأسها المبادرة السورية ، ورفضها المبدئي (الا مكرهة) لفكرة اي تدخل (ولو كان من جانب الامم المتحدة) في الشؤون الداخلية للبنان ٠

واطلاع بسيط على سلوك « الجبهة » في هذا الصدد يثبت ان التلويح بالتدويل، او ابقاء موضوع التدويل قائما ، قد استخدم (حتى الفترة الراهنة على الاقل) كتهويل وتكتيك لتحقيق اغراض معينة ، او بانتظار تحقيقها ٠ واهم هذه الاغراض:

١ ـ اخافة الفريق الوطني من نتائج التدويل والادعاء ، كما قال رئيسالكتائب، انه في حال فشل مبادرة جامعة الدول العربية « لا يعود امام الازمة اللبنانية سوى التدويل ، وهذه في نظرنا مغامرة خطرة » (٢٩) ٠ ولعل الغرض من ذلـك طمس معالم المطالب الاصلاحية الوطنية التي رفعها الفريق الآخر ، والضغط عليهلانتزاع موافقته على معظم الشروط التي ترتئيها « الجبهة » ٠

٢ ـ بث الذعر في قلوب العرب جميعا وايهامهم ، كما فعل رئيس الكتائب ، «بان الخطورة في تدويل القضية اللبنانية تكمن في انها قد لا تقتصر رداتها على لبنان وحده ، بل تتناول منطقة الشرق الاوسط كلها وتجعل المصير مجهولا » (٣٠) ٠

٣ ـ الرغبة في عرقلة اي مسعى يرمي الى تحسين العلاقات او توطيدها بين الحكومة السورية والحركة الفلسطينية والوطنية ٠ وهذه الرغبة تنبع من ارادة انتهاج سياسة مستقلة خوفا من احتمال حدوث اي تغيير في الموقف السوري او العربي ٠

٤ ـ المماطلة والتسويف في الوصول الى حل ممكن للازمة ، كسبا للوقت ، وانتظارا لحل شامل للقضية الفلسطينية ، وطمعا في انتزاع اكبر قدر ممكن من المكاسب والامتيازات ٠

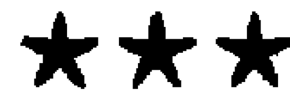
٥ ـ رص الصفوف والتخفيف من حدة الخلافات الداخلية التي بدأت تحتدم بين اطراف « الجبهة » ، وذلك بتوجيه اهتمامها وتجنيد طاقاتها من اجل موضوع خارجي ٠

وبالاضافة الى هذه الاغراض فقد كانت هنالك عوامل من شأنها ان تؤدي الى تلكؤ « الجبهة » او ترددها في الاقدام على تنفيذ الفكرة ، واهمها :

١ ـ ارتباط مسألة التهويل بالتدويل (ولنقل : فورة التدويل) بالوضع السياسي والعسكري « للجبهة » ، ففي الوقت الذي كانت فيه نشوة الانتصارات تلغي او تطمس كل حديث عن التدويل ، كانت الهزائم تطرحه وتؤججه ٠

٢ ـ عدم اتفاق اركان « الجبهة » على المراد او المطلوب من التدويل : مناقشة الازمة فقط ؟ طلب التقسيم ؟ استدعاء قوات دولية ؟ اثارة موضوع وجود الفلسطينيين في لبنان ؟ توجيه تهمة العدوان او التدخل الى بعض الدول ؟

٣ ـ ادراك « الجبهة » سلفا بان نقل الازمة الى الامم المتحدة لن يؤدي ، في الظروف الراهنة للعلاقات والاوضاع المحلية والدولية ، الى اية نتيجة ايجابية ٠



ثالثا ـ الامم المتحدة ومسالة التدخل في لبنان

في اواخر آذار (مارس) ١٩٧٦ ، وجه الامين العام للامم المتحدة كتابا الى رئيس مجلس الامن نبهه فيه الى خطورة الوضع في لبنان وتأثيره المحتمل في السلام العالمي ٠ غير ان بعض رجال السياسة والقانون في لبنان تسلحوا بالفقرة السابعة من المادة الثانية من ميثاق الامم المتحدة ليثبتوا ان الاحداث اللبنانية مسألة داخلية لا يجوز للامم المتحدة ان تتدخل فيها ٠

فهل بامكاننا ، حقا ، الاعتماد على وجهة النظر هذه لننفي امكان تدخل المنظمة العالمية في الازمة اللبنانية ؟ وهل صحيح ان الميثاق الاممي يحرم على المنظمة معالجة اية مسألة تدخل في صميم السلطان الداخلي لدولة ما ؟ وهل بامكاننا الاستنتاج بان المنظمة سترفض مناقشة الازمة اللبنانية ، لدى عرضها عليها ، بمجرد ابداء الاعتراض والتلويح بالفقرة السابعة المذكورة ؟

للاجابة عن هذه التساؤلات علينا ، اولا ، ان نتعرف الى الفقرة السابعة ٠هذه الفقرة تنص على انه « ليس في هذا الميثاق ما يسوغ للامم المتحدة ان تتدخل في الشؤون التي تكون من صميم السلطان الداخلي لدولة ما ، وليس فيه ما يلزم الاعضاء باخضاع مسائل من هذا النوع لاصول تسوية طبقا لاحكام هذا الميثاق٠ ومع ذلك فان هذا المبدأ لا يخل بتطبيق تدابير القمع الواردة في الفصل السابع »٠

وتمثل هذه الفقرة مشكلة معروفة في التنظيم الدولي ، هي مشكلة الاختصاص بين المنظمة والدول الاعضاء ، او مشكلة التمييز بين الاختصاص الداخلي والاختصاص الدولي ٠ وتعرف كذلك بنظرية القطاع المحجوز للدولة ٠ وهي تعني ان الدولة ، عند اشتراكها في تأسيس منظمة دولية ما ، لا تتنازل عن جميع صلاحياتها وانما تحتفظ لنفسها بقدر معين ، او بقطاع معين من الصلاحيات لا يجوز للمنظمة ان تتدخل فيه ٠ والمشكلة هنا شبيهة بمشكلة حقوق الولايات في الدول الاتحادية (الفدرالية) ٠ وهي مشكلة تنشأ بسبب توزيع الصلاحياتبين الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات ٠

وعند انشاء عصبة الامم ، لم تثر هذه المشكلة اية صعوبة ، فقد اتفق المؤسسون على ان يقتصر اختصاص العصبة على الامور التي يعينها الميثاق لها ، كما اتفقوا على ان ترجح كفة سيادة الدولة عند حدوث اي شك او التباس حول توزيع الاختصاصات بين العصبة والدول الاعضاء ٠

ويبدو ان الاميركيين خافوا ، آنذاك ، من قيام حكومة عالمية تتمثل بالعصبة وتتدخل في الشؤون الداخلية للدول الاعضاء ، فحاول صائغو الميثاق تبديد مخاوفهم من اجل تشجيعهم على الانضمام الى العصبة ، فعمدوا الى ادخال فقرة على المادة ١٥ تتعلق بالتسوية السلمية للمنازعات ، وتتضمن شرطا ينص على انه « اذا ادعى احد الاطراف ، وثبت للمجلس ، ان النزاع يتعلق بمسألة يتركها القانون الدولي للاختصاص الداخلي المطلقلهذا الطرف، فان على المجلس ان يثبت ذلك في تقرير ، ولكن دون اتخاذ توصية بأي حل » ٠

وفي اجتماع مؤتمر سان فرنسيسكو (نيسان ـ حزيران / ابريل ـ يونيو ١٩٤٥) الذي انبثقت عنه منظمة الامم المتحدة ، وجد المؤتمرون ان اتجاه العصبة في هذا الصدد لا يتلاءم كليا مع المخطط الدولي الجديد الرامي الىتوسيع النطاق الوظائفي للمنظمة الجديدة ، فصاغوا الشرط الخاص بالاختصاص

الداخلي او الوطني للدول الاعضاء بطريقة تترك لهذه المنظمة اختصاصات اوسع· وجاء تالفقرة السابعة من المادة الثانية تمنع المنظمة من « ان تتدخل في الشؤون التي تكون من صميم السلطان الداخلي لدولة ما » ·

ومن هذا النص نفهم ان الميثاق يحتفظ بقطاع خاص من الصلاحيات للدولة ، ويقيم بالتالي حاجزا في وجه المنظمة العالمية يمنعها من التمتع بصلاحيات مطلقة (٣١) ·

وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف هذا النص (مما ادى الى اختلاف الفقهاء في تفسيره) ، فاننا نلمس ، من اطلاعنا على التصرفات الصادرة عن الامم المتحدة في هذا الصدد ، وجود اتجاه واضح نحو توسيع نطاق الموضوعات التي يحق لهذه المنظمة ان تعالجها ·

ولو اعتمدنا على الميثاق الاممي فقط لعثرنا فيه على اكثر من دليل على تكريس هذا الاتجاه · فلو كانت الامم المتحدة لا ترغب في اناطة مهمة معالجة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية بالمنظمة الاممية ، لما رضيت بانشاء المجلس الاقتصادي والاجتماعي ، ولما جعلت منه فرعا رئيسيا من فروع المنظمة · ولو كانت تعتبر الاستعمار مسألة داخلية لا تعني الا الدول الاستعمارية ، لما وافقت على انشاء مجلس للوصاية ، ولما صدقت على ميثاق يتضمن تصريحا يتعلق بالاقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي · ولو كانت تعتقد ان لكل دولة مطلق السيادة في معاملة رعاياها على اي نحو تريد (حتى وان يكن نحوا تعسفيا) لما قبلت بنصوص الميثاق المتعلقة بحقوق الانسان ، ولما وافقت على الاعلان العالمي لحقوق الانسان·

ان موافقة الامم المتحدة على هذه الالتزامات التي القاها الميثاق على عاتقها برهان ساطع على التزامها بمفهوم واسع وشامل لمهمة المنظمة العالمية ·

ونذكر هنا ان احدى اللجان الفرعية قدمت الى مؤتمر سان فرنسيسكو مذكرة اقرت فيها بان مشكلة حقوق الانسان هي ، بصفة اولية ، مسألة داخلية ، وان كانت قد اكدت انه « اذا تعرضت الحريات الاساسية للافراد لانتهاك مخل بحيث يخلق ذلك ظروفا تهدد السلام ، او تعوق تطبيق نصوص الميثاق ، فعندئذ لا تصبح هذه المسألة من شأن الدولة وحدها » ·

ولقد تذرع بهذا المبدأ كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة · ففي العام ١٩٤٦ ، واثناء مناقشة المسألة الاسبانية ، اكد المندوب السوفياتي بان في وسع مجلس الامن ان يتدخل دون حرج في شؤون اسبانيا على اساس ان الظروف الداخلية لتلك الدولة تشكل تهديدا للسلام والامن الدوليين ·

وعند مناقشة القضية الاندونيسية قال المندوب الاميركي في مجلس الامن انه « عندما تطلق النيران ويقتل الناس ، فللمجلس كامل الحق في ان يأخذ بزمام

المسألة في يده » · واكد في الجمعية العامة ، لدى مناقشة مسألة فورموزا ، في العام ١٩٥٠ ، « ان هذه المسألة ليست من مسائل الاختصاص الداخلي لانها مسألة يمكن ان تفضي الى خلافات بين الدول ، بل ومن الممكن ان تؤدي الى اندلاع الحروب » (٣٢) ·

ومع ذلك فنحن نعترف بان تحديد المسائل التي تدخل في نطاق السلطان الداخلي للدولة يثير ، في أغلب الاحيان ، مناقشات طويلة وتفسيرات متفاوتة · ويحتدم الخلاف بين الفقهاء حول امكان احترام السلطان الداخلي للدولة في الحالات التي يعمد فيها ميثاق المنظمة الى تحديد صلاحيات المنظمة بشكل واسع ، او الى منحها صلاحيات شاملة · اذ كيف يمكننا ، مثلا ، تعيين القطاع المحجوز للدولة ، وبالتالي احترامه ، اذا كانت المنظمة ذات اختصاص في كل ما يتعلق بحقوق الانسان ، او بالتقدم الاقتصادي والاجتماعي ، او بكل ما يهدد السلام العالمي بالخطر ؟

فمما تقدم نستنتج ان الامم المتحدة تتجه ، تارة بحذر وتردد ، وطورا بجرأة واقدام ، نحو توسيع الاختصاص الدولي على حساب الاختصاص الوطني ، ونلاحظ ان الجمعية العامة قد حاولت عدم التقيد بالنص المذكور لتتمكن (وهي قد تمكنت فعلا) من التدخل في جميع الشؤون الدولية والوطنية · فهذه الجمعية تعتبر نفسها برلمانا عالميا من صلاحياته الاهتمام بكل ما يحدث في العالم للحفاظ على السلام العالمي ·

ولعل خلو الميثاق من تعريف واضح للسلطان الداخلي جعل من الصعب تحديد المسائل التي تدخل في صميم هذا السلطان وشجع اجهزة الامم المتحدة على محاولة التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاعضاء ·

ولا بد من الاشارة هنا الى ان الدول (وخصوصا الدول الكبرى) تفسر ، في كثير من الاحيان ، مسألة الاختصاص باسلوب يتناسب مع مصالحها ، فتراها تتسلح بمبدأ الاختصاص الداخلي عندما يخدم هذا المبدأ اغراضها ، وتشهر به حينما يتعارض مع هذه الاغراض ·

★★★

وبعد هذا التوضيح لمعنى الفقرة السابعة من المادة الثانية ، وملابساتها على الصعيد العملي ، نعود الى السؤال المطروح : هل بامكاننا ان نعتد بالفقرةالمذكورة لنحول دون عرض الازمة اللبنانية على الامم المتحدة ؟ وهل يكفينا ان نؤكد بان ما حدث ويحدث في لبنان ليس سوى نزاع داخلي محض حتى نطمئن الى ان الامم المتحدة ستمتنع عن مناقشة الازمة واتخاذ القرارات المناسبة فيها ؟

ان طرح أزمتنا على الامم المتحدة لم يعد رهن ارادتنا · ان وجودنا في المنظمة العالمية يحتم علينا ان نعترف باتساع صلاحياتها وبحقها في مناقشة اية مسألة

ترى فيها خطرا على السلام او الامن الدولي · وينبغي ان نتذكر اننا كنا في طليعة الدول التي طالبت الامم المتحدة مرارا بمناقشة قضايا كانت تعتبر من صميم السلطان الداخلي لبعض الدول · وكنا دائما نبرر موقفنا هذا بفكرة الخطر على الامن او السلام العالمي ، او بفكرة حق تقرير المصير ، او ما شابه ذلك ·

ان في وسع اي عضو في الامم المتحدة ان يرفع الى مجلس الامن او الجمعية العامة اية مسألة ، ويصفها بانها نزاع او وضع من شأنه اثارة الخلافات بين الدول او تعريض السلام العالمي للخطر · واذا استطاع هذا العضو ان يحشد لها الاصوات اللازمة ادرجت المسألة في جدول الاعمال ونوقشت ·

ان تركيب الامم المتحدة يسمح بمناقشة اية قضية وباتخاذ قرارات فيها في كل مرة تتجمع فيها اصوات كافية لبحثها ومعالجتها· وعندما تتوافر الغالبية المطلوبة لذلك فلن يكون للاحتجاجات او المواقف او المبررات القانونية اي وزن يذكر ·

لقد قال الاستاذ الجامعي Clyde Eagleton ان « في وسع اي فرع من فروع الامم المتحدة ان يفعل الآن ما يشاء اذا حصل على الاصوات التي تتيح له ذلك» (٣٣)· وقال زميل له ، هو Inis Claude « ان التطور الدستوري للامم المتحدة قد تمخض ليس فقط عن اتجاه نحو توسيع الاختصاص الدولي على حساب الاختصاص الداخلي ، ولكن ايضا عن اتجاه نحو معركة مريرة حول مسألة توازن الاختصاص بين المنظمة الدولية والدول القومية » (٣٤) ·

والخلاصة ان الامم المتحدة تستطيع ، اذا شاءت ، ان تضع يدها على الازمة اللبنانية وتناقشها وتتخذ فيها القرارات الملائمة · ولكنها لن تفعل ذلك الا بطلب رسمي من احدى السلطات المختصة ، محليا او دوليا · فما هي هذه السلطات التي يمكنها طلب التدويل ؟ وهل يجوز « للجبهة اللبنانية » التي لا تني تهدد بالتدويل ، ان تلجأ بنفسها الى الاجهزة العالمية طالبة منها التدويل ؟



رابعا ــ السلطات المخولة طلب التدويل

ان طلب تدويل الازمة اللبنانية يمكن ان يصدر عن الحكومة اللبنانية ، او عن الامين العام للامم المتحدة ، او عن الجمعية العامة ، او عن احدى الدول الاعضاء في الامم المتحدة ·

١ ــ ان اي طلب يرفع الى الامم المتحدة ، بغرض تدويل الازمة ، يجب انيصدر عن **الحكومة اللبنانية** · والحكومة او السلطة التنفيذية في دولة ما تعرف ، في حقل العلاقات الدولية ، من خلال ثلاث من شخصياتها : رئيس الدولة ، ورئيس الحكومة ، ووزير الخارجية · ومن المتفق عليه دستوريا انه لا يحق لرئيس الدولة، في النظام الديموقراطي البرلماني ، ان ينفرد بممارسة السياسة الخارجية ، او ان

يسمح لنفسه بكتم الامور المتعلقة بهذه السياسة عن اعضاء حكومته ٠

واذا كان رئيس الجمهورية في لبنان يتمتع بصلاحيات واسعة في حقل العلاقات الخارجية ، فان الدستور اللبناني (الذي يستمد احكامه في هذا الصدد من قواعد النظام البرلماني) اشترط عليه وجوب ممارسة هذه الصلاحيات بواسطة الوزارة المختصة بالعلاقات الدولية (أي وزارة الخارجية) وبموافقة مجلس الوزراء كذلك ٠ وقد حاول رئيس الجمهورية السابق (سليمان فرنجية) ، وخصوصا خلال الازمة ، ان يتفرد بالسياسة الخارجية ويروج لفكرة التدويل فلم يوفق في تحريك اي جهاز في الامم المتحدة للاهتمام بما يجري في لبنان ٠ واذا كانت آخر حكومة للعهد المنصرم قد تميزت بالنفور بين رئيسي الدولة والحكومة والتباعد بين اعضائها ، فان الحكومة الحالية للعهد الراهن تتميز بالانسجام والتلاحم والتفاهم ٠ واذا كان بعض الاعضاء في الاولى قد سعوا عبثا الى التدويل ، فان جميع الاعضاء في الثانية لا يسمحون لانفسهم بمجرد التفكير في هذا الامر ٠

ان الحكومة الحالية ، التي آلت على نفسها اعادة الاستقرار الى البلاد ، لن تفكر في التدويل ، لان طلب التدويل لا يمكن ان يفسر الا بانه اعتراف بالاخفاق الذريع المشين : اخفاق الحكومة في تنفيذ ما وعدت به ، واخفاق القوات العربية (ومعها كل الحكومات العربية) في المهمة الامنية التي تصدت لها ٠ والاخفاق هنا لن يكون الا دليل عجز وافلاس للعهد الجديد ، وضربة قاضية لكل محاولات التعريب في المستقبل ، اي لكل حل عربي للازمات والخلافات العربية ٠

فمن المستبعد اذن ، ان لم يكن من المستحيل ، ان تقدم الحكومة اللبنانية ، او احدى الحكومات العربية التي رأت الحل في التعريب ، على ارتكاب عملية انتحارية من هذا النوع ٠ واذا كانت الحكومة ، على الرغم من انقسامها على نفسها ورغبة بعض اعضائها في تحقيق التدويل ، قد عجزت عن بلوغ هذا الهدف ، فمن الطبيعي ان يكون تماسك الحكومة الحالية التي تحظى بتأييد كلي في الداخل والخارج ، درعا واقيا لها ضد اغراءات التدويل وترهاته ٠

٢ ــ غير ان **الامين العام للامم المتحدة** يستطيع ، اذا اراد ، ان يقرع باب التدويل ٠ انه أرفع موظف في المنظمة العالمية ٠ والميثاق الاممي قد اعتبر الامانة العامة جهازا من الاجهزة الرئيسية فيها ، ابرازا لاهمية الدور الذي تقوم به في ميدان العلاقات الدولية ٠ ومن الصلاحيات التي منحها الميثاق للامين العام حق تنبيه مجلس الامن الى اية مسالة يرى انها قد تعرض للخطر حفظ السلام والامن الدوليين (المادة ٩٩) ٠

وفي العام الماضي ، استخدم الدكتور كورت فالدهايم ، كما ذكرنا ، هذا الحق ووجه كتابا الى رئيس مجلس الامن حول الازمة اللبنانية ٠ ولكن الكتاب اكتفى بلفت نظر مجلس الامن الى خطورة الوضع في لبنان دون ان يطلب من الرئيس ،

رسميا ، دعوة اعضاء المجلس الى الاجتماع فورا لمناقشة هذا الوضع واتخاذ الترتيبات او القرارات الملائمة · وقد فسر الجميع هذا السلوك بانه تعبير واضح عن اقتناع الامين العام بان الوضع اللبناني لا يشكل تهديدا للسلام العالمي ، ولا يستوجب بالتالي دعوة مجلس الامن الى الاجتماع وتدويل الازمة · والبرهان على صحة هذا الاستنتاج ان الامين العام لم يعمد ، منذ ذلك التاريخ ، الى توجيه اي كتاب آخر مماثل الى رئاسة مجلس الامن ، ولم يدل بأي تصريح ينم عن رغبته في تكرار المحاولة ·

٣ ــ وتبنت **الجمعية العامة** نفس الموقف الحكيم عندما أمسكت ، لدى عقد دورتيها الاخيرتين (في خريف ١٩٧٥ ، والعام ١٩٧٦) ، عن الخوض في موضوع الازمة اللبنانية ·

٤ ــ ومع ان الميثاق الاممي ، في المادة ٣٥ منه ، يمنح **كل عضو من اعضاء الامم المتحدة** (وحتى كل دولة غير عضو ، اذا وافقت على بعض الشروط والالتزامات) حق تنبيه مجلس الامن او الجمعية العامة الى اي نزاع او وضع قد يؤدي الى اندلاع خلاف او خصومة بين الدول ، فان اي عضو في الاسرة الدولية لم ير في الاحداث اللبنانية نزاعا بين لبنان ودولة او دول اخرى ، ولم يقدم بالتالي على طلب التدويل · ومع ان رئيس الجمهورية السابق واحد وزرائه (الذي عينه وزيرا للخارجية بصورة مخالفة للاعراف الدستورية) قد وجها الى بعض الدول اتهامات صريحة بالتدخل في الشؤون الداخلية للبنان، وتعمدا استعمال تعبير « عدوان » لتحريض الامين العام ، او اي عضو في الامم المتحدة، على الاسراع في طلب التدويل، فان مساعيهما لم تلق آذانا صاغية (٣٥)·

ومما تقدم نستنتج انه لا يحق « للجبهة اللبنانية » ان ترفع بنفسها طلبا بالتدويل الى الامم المتحدة · انها تحتاج ، لتحقيق ذلك ، الى مساعدة الغير · والغير لا يمكن الا ان يكون دولة او مجموعة دول تتبنى وجهة نظر « الجبهة » فتتقدم من الامم المتحدة بطلب التدويل ·

و « الجبهة » قد تقع على دولة او دول مستعدة لتنفيذ هذه المهمة · ومع ان هذا التصرف سيفسر بانه تنكر صريح للعهد وحكومة العهد من قبل « الجبهة » ، وبانه عمل عدائي للشرعية اللبنانية من قبل الدولة او الدول التي ستقدم على هذا العمل ، فعلينا ان نعد انفسنا لامكان تصور حدوثه · ان الاحداث والتجارب والسوابق الدولية علمتنا انتظار كل مستغرب وحدوث كل مستنكر ، فالعلاقات والروابط بين الدول تقوم ، في معظم الاحيان ، على المصلحة والعاطفة اكثر مما تقوم على التجرد والعقل ·

ولكن المهم هنا ليس التقدم بطلب التدويل ، بل امكان بحث الازمة اللبنانية واتخاذ قرار فيها · وسيكون ذلك حتما امرا صعب المنال ·

★★★

خامسا ـ صعوبة بحث الازمة اللبنانية في الامم المتحدة

لو افترضنا ان طلبا بالتدويل رفع الى الامين العام للامم المتحدة ، وان الامين العام اقتنع بان الازمة اللبنانية تهدد السلام والامن الدوليين بالخطر ، فرفع الطلب بدوره الى الجهاز الاممي المختص ، فما هي الاصول التي تتبع عند ذلك لبحث الازمة ، وما هي النتائج المرتقبة ؟

في الامم المتحدة جهازان رئيسيان مخولان النظر في القضايا السياسية ، وخصوصا في قضايا السلام والامن ، هما : مجلس الامن والجمعية العامة ٠

ومجلس الامن مكون من ١٥ عضوا ، خمسة منهم دائمون ، وعشرة غيردائمين تنتخبهم الجمعية العامة لمدة عامين ٠ والدول الخمس الكبرى هي الدائمة في المجلس ٠ والمجلس هو الاداة التنفيذية للامم المتحدة ٠ وهو المسؤول الاول عنحفظ السلام وصيانة الامن في العالم ، وقمع اعمال العدوان ، وانزال العقوبات بالاعضاء المخالفين ٠

اما الجمعية العامة فهي بمثابة برلمان عالمي تتمثل فيه جميع الدول الاعضاء على قدم المساواة ٠ ومن حق الجمعية ان تناقش اية مسألة او أمر يدخل في نطا ق الميثاق الاممي ، أو يتصل بصلاحيات او وظائف اي فرع من فروعها ، وان توصي اعضاء الامم المتحدة او مجلس الامن ، او كليهما ، بما تراه في تلك المسائل والامور ٠

وهذا الحق يضيق مداه في المجال السياسي ويتسع في المجالات الاخرى ٠ ففي الشؤون السياسية تتمتع الجمعية بحرية المناقشة دون ان تستطيع اتخاذ قرارات فاصلة بشأنها ٠ ان صلاحياتها هنا تقتصر على ابداء التوصيات وتنبيه مجلس الامن الى الاوضاع التي تجعل السلام والامن العالميين عرضة للخطر ٠ والمجلس هو الذي يقرر ما يجب اتخاذه ٠

وفي كل مرة تعرض فيها على الجمعية مسألة تقتضي اتخاذ عمل من اعمال المنع أو القمع يجب على الجمعية احالتها على مجلس الامن ٠ وعندما يباشر المجلس، بصدد نزاع أو وضع ما ، الوظائف التي خوله اياها الميثاق ، فليس للجمعية ان تقدم اية توصية بهذا الصدد ، الا اذا طلب المجلس منها ذلك ٠

غير ان الجمعية العامة استطاعت ان تتجاوز نصوص الميثاق وتوسع اختصاصاتها السياسية وتتعدى على اختصاصات مجلس الامن وتتسلح ، في العام ١٩٥٠ ، بقرار معروف باسم « الاتحاد من اجل السلام » ، يرمي الى التغلب على عجز المجلس عن اتخاذ القرارات العاجلة بسبب لجوء الدول الخمس الدائمة فيه الى كثرة استعمال حق النقض ٠

والقرار ينص على انه في حال وجود تهديد للسلام ، او اخلال به ، او حدوث

عمل عدواني ، وفي حال فشل المجلس في القيام بمسؤولياته لحفظ الامن الدولي نظرا لاختلاف الاعضاء الدائمين فيه ، فان للجمعية العامة ان تجتمع فورا (ولو في دورة استثنائية طارئة) وتبحث المسألة لتقدم الى الاعضاء التوصيات اللازمة حول التدابير التي يجب اتخاذها ، ومن ضمنها استعمال القوة المسلحة ، وذلك لاعادة الامن والسلم الى نصابهما ·

وبذلك اصبح بامكان الجمعية ان تحل محل المجلس عند عجزه ، وان تجتمع بناء على طلب الغالبية فيها او بناء على طلب تسعة اعضاء من مجلس الامن · فقرار « الاتحاد من اجل السلام » وضع ، عمليا ، الجمعية والمجلس على قدم المساواة · وقد استخدم هذا القرار ، منذ العام ١٩٥٦ ، في عدة حالات ،اشهرها: ازمة المجر ، والعدوان الثلاثي على مصر ، وازمة الكونغو ، وحرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ···

فطلب تدويل الازمة اللبنانية يجب ان يرفع اولا الى مجلس الامن · ولا يمكن ان يعرض على الجمعية العامة الا بعد فشل المجلس في اتخاذ قرار ·

ولنتصور الان ان الامين العام رفع الطلب الى مجلس الامن ودعاه الى الاجتماع فورا لمناقشة الوضع في لبنان واتخاذ القرار الملائم · ففي هذه الحالة ستعترض الطلب صعوبتان : صعوبة تحديد طبيعة الطلب ، وصعوبة اتخاذ القرار المناسب ·

ان على المجلس ، قبل ان يشرع في مناقشة الطلب ، ان يوافق او يتفق على أن الازمة اللبنانية تشكل نزاعا بين لبنان ودولة اخرى ، او نزاعا داخليا من شأن استمراره تهديد السلام والامن الدوليين · والمطلوب من الاطراف التي رفعت الطلب او زكته ان تثبت ذلك ·

وقد يعترض احد أعضاء المجلس على عرض القضية على المجلس ويرى انها ليست سوى مسألة داخلية لا تعرض السلام العالمي للخطر · وقد يحتدم الجدل بين الاعضاء حول هذه النقطة فينقسمون على انفسهم · وقد يضطر رئيس المجلس الى استعمال صلاحياته وايقاف المناقشة وطرح الامر على التصويت ·

ونعلم ان لكل عضو في المجلس صوتا واحدا ، وان القرارات التي تصدر عن المجلس على نوعين :

١ ـ القرارات الصادرة في مسائل اجرائية ، وهي تصدر بغالبية تسعة اعضاء على الاقل ، دون تفرقة بين اصوات الاعضاء الدائمين واصوات غير الدائمين ·

٢ ـ والقرارات الصادرة في مسائل موضوعية ، وهي تصدر بغالبية تسعة على الاقل بشرط ان يكون من بينها اصوات الاعضاء الدائمين متفقة ·

ومعنى ذلك ان كل عضو دائم في المجلس يملك حق الاعتراض او النقض على

اصدار القرارات الموضوعية ، فاذا اعترض بمفرده ، او اذا اعترض الاعضاء الدائمون مجتمعين ، على مشروع قرار في مسألة موضوعية لم يعد بامكان المجلس اصدار قرار في المسألة ٠ اما العضو غير الدائم فلا يملك هذا الحق بمفرده ، بل بتكتله مع ستة آخرين من الاعضاء غير الدائمين واعلان عدم موافقتهم ٠

ومع ان الميثاق الذي فرق بين المسائل الاجرائية والمسائل الموضوعية لم يضع معيارا لهذه التفرقة ، فان طبيعة الازمة اللبنانية لن تثير اي خلاف ، على ما نظن٠ انها ولا شك مسألة موضوعية ٠ وحتى لو نشأ خلاف حول وصفها او تصنيفها فان التصويت في المجلس لحسم الامر سيجري على اعتبار أن المسألة مسألة موضوعية ، فتتمكن الدول الكبرى بذلك من استعمال حق النقض عند الحاجة ٠

ولو طلب رئيس المجلس من الاعضاء ان يقرروا بالتصويت : (هل الازمة اللبنانية مسألة داخلية لا يحق للمجلس ان يتدخل فيها ، ام انها ازمة تهدد السلام العالمي بالخطر) ، فان اي قرار يجب ان ينال الاكثرية المطلوبة، اي تسعة اصوات على الاقل من الخمسة عشر ، وبشرط الا تستعمل احدى الدول الخمس الدائمة حقها في النقض ٠

وفي رأينا ان اعتبار الازمة اللبنانيةمسألة تعرض السلام العالميللخطر لا يمكن، في الظروف الراهنة ، ان ينال الاكثرية المطلوبة لاسباب عديدة ، اهمها :

١ ـ ان الدول الخمس الدائمة في المجلس ليست على خلاف حول هذا الموضوع، فحتى اليوم لم يصدر عن اي مسؤول في هذه الدول تصريح يعبر عن خشيته من ان يؤدي استمرار الازمة اللبنانية الى تعكير صفو السلام في العالم ٠ ولم تقدم ،حتى اليوم كذلك ، دولة من هذه الدول على تنبيه المجلس او الجمعية الى خطورةالوضع اللبناني ٠ ثم ان هذه الدول قد رحبت بالتعريب واعلنت تأييدها للعهد اللبناني الجديد وابدت استعدادها لتقديم كل مساعدة اليه لتمكينه من التغلب على الصعوبات الناتجة عن الازمة ٠

٢ ـ ان معظم الدول الخمس تمر بازمات سياسية واقتصادية ، بعد ان مرتفي السابق بتجارب استعمارية مريرة ، لا تشجعها على اتخاذ اي قرار قد يؤدي الى تفاقم مسؤولياتها الدولية ، وزيادة اعبائها المالية ، واتساع متاعبها النفسية ٠

٣ ـ ان للدول الخمس مصالح مادية كبيرة في الوطن العربي ليست على استعداد للتضحية بها او تعريضها للخطر بسبب قرار او موقف قد يثير نقمة الانظمة والجماهير العربية ٠

٤ ـ ان الدول العشر غير الدائمة تنتمي اما الى المجموعة الاوروبية ، واما الى كتلة عدم الانحياز ، واما الى معسكر الدول النامية ٠ ولكل منها مصلحة خاصة في عدم اثارة موضوع الازمة اللبنانية في المجلس ٠ فالمجموعة الاوروبية التيقاست

الامرين من انقطاع النفط العربي عنها ، ومن تعرضها ، بسبب مواقفها العدائية او المعادية ، لردود فعل عربية دامية ، تحرص اليوم على عدم استعداء الدول العربية · اما مجموعة الدول النامية او اللا منحازة فتعرف ان موافقتها على التدويل ستفقدها صداقة عشرين دولة عربية وتعرضها لخطر التدويل عند تعرض امنها او نظامها لاقل اهتزاز ·

فمن الصعب اذن ان يوافق مجلس الامن على وصف الازمة اللبنانية بانها خطر يهدد السلام العالمي ، او بانها نتيجة اعتداء خارجي · واذا صوت الاعضاء سلبا، او اذا استعمل احد الكبار حق النقض ، او اذا عجز المجلس عن اتخاذ قرار في الموضوع ، فان رئيس المجلس سيضطر الى اختتام الاجتماع والاكتفاء بما حصل ونفض اليدين من المسألة · وهذا ما فعله المجلس ، مثلا ، في تموز (يوليو) ١٩٧٦ ، عندما فشل في اتخاذ قرار حول الغارة الاسرائيلية على مطار عنتبة الاوغندي ·

وحتى لو افترضنا ان التصويت في المجلس كان ايجابيا، فان المجلس سيضطر، في هذه الحالة ، الى الخوض في مناقشة المسألة اللبنانية من اساسها ومن مختلف جوانبها · وقبل التصويت على اي قرار سيصطدم من جديد بنفس الصعوبات التي اعترضت طريقه في المرحلة السابقة ·

★★★

وبقي احتمال اخير : تحرك الجمعية العامة بموجب قرار « الاتحاد من اجل السلام » ، عند فشل المجلس في اتخاذ قرار ، وحلولها محل المجلس وبحث القضية من جديد · ولكيلا نطيل الحديث عن الصعوبات التي ستنتصب في وجه الجمعية وتعرقل عملها ، سنكتفي بالاشارة الى نظام التصويت فيها ، مستشهدين بأحد الامثلة العملية البارزة ·

ان طريقة التصويت في الجمعية العامة تتميز بانها تتبع ، خلافا لما كان يجري في عصبة الامم ، قاعدة الاغلبية وليس قاعدة الاجماع · والجمعية تصدر قراراتها باغلبية الاعضاء الحاضرين المشتركين في التصويت · ولكن المادة ١٨ من الميثاق تنص على ان قراراتها ، في المسائل المهمة التي تذكرها هذه المادة : التوصيات الخاصة بحفظ السلم والامن الدوليين · وان اتيح للجمعية ، المكونة حاليا من١٤٦ دولة ، ان تعالج الازمة اللبنانية فستدخلها تحت هذا البند · وكل تصويت فيها سيحتاج الى اغلبية الثلثين · والاعتبارات التي اشرنا اليها ، عند حديثنا عن مواقف الدول الاعضاء في مجلس الامن ، يمكن ان تتكرر هنا وتقف حاجزا دون نجاح الجمعية في تأمين الاغلبية المطلوبة ·

اما المثل العملي فيتعلق بمشكلة التصويت في الجمعية العامة على تمثيل الصين · فمنذ عام ١٩٥٠ وحتى العام ١٩٧١ ، كانت هذه المشكلة تثار في كل

دورة من دورات الجمعية ، وكان يطلب من الاعضاء ان يجيبوا بالتصويت عن السؤال التالي : « من يمثل الصين : وفد فورموزا ، ام وفد الصين الشعبية ؟ »٠ وكان الاقتراح يجري في كل عام دون ان ينال مشروع القرار المؤيد لتمثيل الصين الشعبية اغلبية الثلثين ٠ وبعد ٢١ عاما من التصويت تمكنت الاكثرية في الجمعية (٧٦ صوتا ضد ٣٥ وامتناع ١٧) من ان تصدر قرارها التاريخي باعادة كل الحقوق الى جمهورية الصين الشعبية ، وطرد ممثلي فورموزا من اروقة الامم المتحدة ، واعتبار ممثلي حكومة بكين الممثلين الشرعيين والوحيدين للصين لدى الامم المتحدة ٠

وقد اوردنا هذا المثل لنبين ان عملية التصويت في الجمعية على امر ينطوي على ملابسات واعتبارات متعددة ، ويتعلق بمصالح ومواقف متباينة ، ليست بالامر اليسير ٠

ولا يسعنا ، في ختام بحثنا ، الا ان نشير الى اننا ، في حديثنا عن احتمال عرض المسألة اللبنانية على مجلس الامن او الجمعية العامة ، قد اكتفينا باستعراض جزء من الصعوبات الاجرائية ٠ والحقيقة ان هناك صعوبات اخرى ، اهم واعمق ، ستواجه الاعضاء وتؤثر في طريقة تصويتهم عند بحث اسباب الازمة اللبنانية ، او عند مناقشة اوضاعها وملابساتها ، او عند توجيه تهمة التدخل والاثارة الى اية دولة ، او عند تحديد القرار المطلوب من الامم المتحدة ٠٠٠ ولكن مصير هذه الصعوبات سيرتبط في النهاية بكيفية التصويت ونتائجه ٠ ولهذا ركزنا على عملية التصويت في كل من مجلس الامن والجمعية العامة ٠

الحواشي :

١ ـ راجع الصحف اللبنانية الصادرة في ٨ـ٤ـ١٩٧٧ ٠

٢ و ٣ ـ راجع الصحف اللبنانية الصادرة في ٩ـ٤ـ١٩٧٧ ٠

٤ ـ راجع محاضراتنا في **القانون الدولي العام** ، لطلاب الحقوق والعلوم السياسية في الجامعة اللبنانية وجامعة بيروت العربية ٠

٥ ـ Claude - Albert Colliard, Institutions Internationales, Dalloz, Paris 1970 .

٦ ـ راجع مقالنا في **السفير** ، في ١٢ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

٧ ـ **السفير** ، في ٣٠ـ٦ـ١٩٧٦ ٠

٨ ـ راجع الصحف الصادرة في هذا اليوم ٠

٩ ـ **السفير** ، في ١٠ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

١٠ ـ **النهار**، في ٧ـ٧ـ١٩٧٦ ٠ وبعد شهر وجه كميل شمعون عبر الصحافيين « نداء توبيخيا للامين العام للامم المتحدة ولما يسمى الضمير العالمي المفقود » ٠ **النهار**، في ٦ـ٨ـ١٩٧٦ ٠

١١ ـ **السفير والنداء** ، في ٨ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

١٢ ـ **المحرر** ، في ١٢ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

١٣ ـ **السفير** ، في ٢٨ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

١٤ ـ الصحف الصادرة في ١٢ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

١٥ ـ الصحف الصادرة في ٥ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

١٦ ـ **السفير** ، في ٢٧ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

١٧ ـ **النهار** ، في ٢٨ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

١٨ ـ **النهار** ، في ٢٩ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

١٩ ـ نقلا عن **السفير** ، في ٢٧ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

٢٠ ـ **النداء** ، في ٢٩ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

٢١ ـ بيروت ، في ٨ـ٨ـ١٩٧٦ ، **والسفير** ، في ٩ منه ٠

٢٢ ـ كان عدد **العمل** في٢٨ـ٧ـ١٩٧٦، يحمل ، في صفحته الثانية ، تعليقا سياسيا بعنوان « هذه الجامعة ماذا تنتظرون منها ؟ » ٠

٢٣ ـ **السفير** ، في ٩ـ١١ـ١٩٧٦ ٠

٢٤ ـ **السفير** ، في ٧ـ١١ـ١٩٧٦ ٠

٢٥ ـ **النهار** ، في ٧ـ١١ـ١٩٧٦ ٠

٢٦ ـ **السفير** ، في ٩ـ١١ـ١٩٧٦ ٠

٢٧ ـ من تصريح لكمال جنبلاط في **النداء** ، في ١٤ـ١١ـ١٩٧٦ ٠ وفي تصريح اخر له قال : « ان المعركة لم تنته ٠٠٠لان جبهة الكفور ، بما فيها من احزاب ، تطمح الى تدويل القضية اللبنانية ،ولم تسقط من حسابها تحقيق الوطن القومي الماروني الانعزالي ٠٠٠ » ٠ **السفير** في ١٦ـ١١ـ١٩٧٦ ٠

٢٨ ـ من تصريح لابراهيم **قليلات** ، رئيس مجلس قيادة « **المرابطون** » ٠ **النهار** ، في ٢١ـ١١ـ١٩٧٦ ٠

٢٩ ـ **بيروت** ، في ٧ـ٨ـ١٩٧٦ ٠

٣٠ ـ **النهار** ، في ٩ـ٧ـ١٩٧٦ ٠

٣١ ـ راجع محاضراتنا في **المنظمات الدولية والاقليمية** لطلاب الحقوق والعلوم السياسية ٠

٣٢ ـ راجع كتاب : **النظام الدولي والسلام العالمي** ، تأليف اينيس كلود (الابن) ، ترجمة الدكتور عبد اللهالعريان، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ٠

٣٣ ـ راجع الصفحة ٥٩٤ من بحثه المنشور في عدد تموز (يوليو) ١٩٥٣ من مجلة

Foreign Affairs

٣٤ ـ كتاب : **النظام الدولي والسلام العالمي** ، المذكور ، ص ٢٦٠ ٠

٣٥ ـ راجع ، مثلا ، رسائل الرئيس فرنجية الى الامين العام لجامعة الدول العربية في اواخر حزيران (يونيو)١٩٧٦، ورسالته الى رؤساء مصر والسودان والسعودية في ١٩ـ٧ـ١٩٧٦ ، ورسائل الوزير كميل شمعون الى البعثات الدبلوماسية المعتمدة في لبنان ، في ٢ـ٧ـ١٩٧٦ ٠ وكلها تتضمن اتهامات ضد احدى الدول العربية ٠

التطورات العسكرية في جنوب لبنان

٢٤ شباط - ٢٢ نيسان ١٩٧٧

خليل بركات

وصل الوضع المتوتر في الجنوب الى ذروته يوم سقوط قريتي « الطيبة » و « رب الثلاثين » في ايدي التحالف الانعزالي – الصهيوني فجر يوم الاربعاء ٣٠ اذار ١٩٧٧ . ويبدو ان التحالف المذكور كان قد قرر الاستمرار في مخططه في منطقة الجنوب مستفيدا من الوضع السياسي على الصعيد اللبناني ، ومن « الانتصارات » الوهمية التي حققها في الجنوب على الصعيد العسكري ، فحاول الاسراع في تنفيذ مخططه في السيطرة الكاملة على الشريط الحدودي .

فمن الناحية السياسية بدأ تحرك « الجبهة اللبنانية » الانعزالية وكأنه الوحيد المؤثر على ساحة العمل السياسي اللبناني ، في وقت تضاءل فيه تحرك الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية ، وغابت الزعامات التقليدية في الشارع الوطني عن مسرح الاحداث السياسية.

فعلى الرغم من التعاون المكشوف بين الانعزاليين وبين « اسرائيل » في المجالات العسكرية والصحية والتموينية في الجنوب ، وعلى الرغم من ابراز هذا التعاون بواسطة اجهزة اعلام « اسرائيل » من اذاعة وصحافة وتلفزيون ، فان حديث الزعامات التقليدية عن الجنوب ظل يركز على الدور « الاسرائيلي » وحده دون الاشارة الى دور الانعزاليين وتعاونهم الصريح مع العدو الصهيوني .

ومن جهة اخرى كانت الرقابة من خلال منع نشر اخبار الجنوب لفترة طويلة نسبيا سببا في اخفاء حقيقة ما يدور هناك . اذ لم تسمح بنشر اخبار عن الجنوب حتى شهر اذار ثم ما لبثت ان « افرجت » اعلاميا عن الجنوب دون السماح بالحديث عما يجري على ارضه وفي قراه من اشتباكات وتعاون مع « اسرائيل » من جانب الانعزاليين .
كذلك فان « براءات الذمة » التي كانت تعطى للقيادات الانعزالية من قبل بعض المسؤولين ، والاشادة بتعاون هذه القيادات من اجل استتباب الامن في لبنان عامة وفي الجنوب خاصة ، قد افسح المجال امام القيادات الانعزالية للتنصل مما يجري في الجنوب ، والخروج بتصريحات فحواها ان حل قضية الجنوب يتوقف على التعاون بين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي (١) . وهذا يعني مضي الانعزاليين في تنفيذ المخطط بعيدا عن اي ضغط .

لقد اراد الانعزاليون استخدام احداث الجنوب ورقة ضاغطة على الرئيس سركيس ومن ثم على الوضع اللبناني الداخلي وبالتالي على « اللجنة الرباعية » بغية تحقيق الاهداف التالية :

اولا ــ منع الرئيس سركيس من القيام بأية اجراءات على الصعيد الداخلي تتعارض مع سياسة « الجبهة اللبنانية » ٠

ثانيا ــ قطع الطريق على اية مطالبة تتعلق بتطوير الاوضاع السياسية في لبنـــــان باتجاه يتعارض مع سياسة الامتيازات الطائفية السائدة والتهديد بموضوع « اللامركزية » الذي يؤدي عمليا الى ضرب وحدة لبنان ارضا وشعبا ٠

ثالثا ــ دفع « اللجنة الرباعية » العربية الى اتخاذ مواقف من نتائجها التضييق على الثورة الفلسطينية او التصادم معها فيما لو رفضت القبول بهذه المواقف ٠ وفي هذا الاطار كثر الحديث في الفترة الاخيرة عن تطبيق اتفاقية القاهرة بحسب التفسير اللبناني ــ الذي هو تفسير من جانب واحد ــ قبل البحث في موضوع الجنوب وقبل البدء في بناء الجيش اللبناني بحجة ان « الفلسطينيين » هم سبب الداء الذي يعاني منه لبنان ، وانه بدون المعالجة المسبقة لهذا الداء لا يمكن ان تكون عملية بناء الجيش متينة ولا يمكن ان يستقر الوضع في جنوبي لبنان ٠

وبالمقابل شجعت « اسرائيل » التعنت الانعزالي بغية تحقيق اهداف خاصة بها وهي :

اولا ــ تأزيم الوضع مجددا في لبنان ودفعه نحو الانفجار ٠

ثانيا ــ دفع الانعزاليين الى الارتماء اكثر فاكثر في احضانها كي تستطيع ان تحقـق اغراضها باستخدام ستارة لها في الجنوب ٠

ثالثا ــ السيطرة الكاملة على الشريط الحدودي واقامة حاجز امني لها هناك ٠

رابعا ــ فرض سيطرتها السياسية على المنطقة الحدودية بادوات لبنانية متعاونة معها الامر الذي يجنبها احراجات عدة على الصعيد الدولي ٠

اما من الناحية العسكرية ، فقد ظن الانعزاليون ان في مقدورهم استثمار « الانتصارات» التي حققوها منذ مطلع عام ١٩٧٧ بسيطرتهم على قرى « عديسة » و « دير ميماس » و « كفركلا » بالاضافة الى بلدة « الخيام » ، والاستفادة من حالة ضعف معنويات المواطنين في القرى المتاخمة للحدود ، ومعنويات المعسكر الوطني بالقياس الى ما كانت عليه سابقا ، واستغلال موقف الثورة الفلسطينية الداعـي الى عدم تصعيد الوضع العسكري في الجنوب، وتفسيره على انه موقف ضعــف من قبلها ٠

لكل هذه الاسباب السياسية والعسكرية اقدم التحالف الانعزالي ــ الصهيوني علــــى تأزيم الوضع في الجنوب ، حتى وصل الى درجة خطيرة ، باحتلاله قريتي « الطيبة » و « رب الثلاثين » ٠

معركة « بنت جبيل » ٠

في ٢٤ شباط ١٩٧٧ حاول الانعزاليون التقدم باتجاه بلدة « بنت جبيل » ، وتمكنوا من الوصول الى تلة « شلعبون » (٢) عند الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم بعد ان مهدوا لذلك بقصف مدفعي لمدة ثلاث ساعات ، تقدمت بعدها ناقلتا جنود (٣) مع شاحنة عسكرية نحو التلة وسيطرت عليها بعد انسحاب مقاتلي المجموعة الوطنية منها وعددهم سبعــــة تحت ضغط القصف المدفعي ٠

ونظرا لخطورة بقاء التلة في ايدي الانعزاليين على بلدة « بنت جبيل » تحركت القوات المشتركة فورا لاستعادتها قبل ان يتمكن الانعزاليون من تثبيت مواقعهم فيها · ورسمت الخطة على اساس مهاجمة التلة من جهتين بعد التمهيد لذلك بقصف مدفعي :

الاولى : تتقدم مجموعة من ناحية « صف الهوا » باتجاه التلة مباشرة متخذة شكل الهجوم الجبهي ·

والثانية : تتقدم مجموعة ثانية من جهة قرية « الطيري » لمهاجمة مجنبة التلة من الجهة الشمالية ·

وقد نفذت الخطة بنجاح ، واستطاعت القوات المشتركة استرداد التلة عصر ذلك اليوم نفسه بعد معركة مع الانعزاليين المدعمين بقصف مدفعي مساند من قبل « اسرائيل » · وكان من نتائج هذه المعركة تدمير ناقلة جنود انعزالية وسقوط العشرات منهم بين قتيل وجريح بينما خسرت القوات المشتركة شهيدين وسبعة جرحى ·

لقد كانت هذه المعركة المجابهة الفعلية الاولى التي وقعت مع الانعزاليين في الجنوب حتى ذلك التاريخ · اذ ان كل « المعارك » السابقة كانت عبارة عن اشتباكات بالمدفعية والرشاشات الثقيلة الى جانب بعض عمليات الاغارة المحدودة على كمائن الانعزاليين · اما « الانتصارات » التي ادعى الانعزاليون تحقيقها من خلال سيطرتهم على العديد من القرى الحدودية فانها لم تكن في الواقع ناتجة عن معارك حقيقية ، وانما عن انهيارات حصلت في الوضع الداخلي كما جرى في بلدتي « الخيام » و« مرجعيون » ، او بسبب عدم وجود قوات وطنية فيها لوقوعها تحت سيطرة نيران « اسرائيل » كما هو الحال بالنسبة الى قرية « عديسة » ، او بسبب قرار بالانسحاب ناتج عن الاعتقاد بعدم القدرة على الاستمرار في الصمود كما حصل في قرية « كفركلا » التي تعتبر بحق رمز الصمود في الجنوب · لهذا يمكن القول ان معركة « بنت جبيل » كانت بمثابة اول امتحان حقيقي في الجنوب بين القوات المشتركة والانعزاليين المدعمين بالاليات والاسناد المدفعي الاسرائيلي · واسهم هذا الانتصار في رفع معنويات المقاتلين الوطنيين ومعنويات المواطنين المقيمين في المنطقة ، خاصة انه جاء اثر انتشار شائعات عديدة عن سقوط بلدة « بنت جبيل » في ايدي الانعزاليين قبل المعركة بايام · ومنذ ذلك الحين لم تحصل مفاجآت على هذا المحور ، وبقي الوضع على حاله السابق من اشتباكات يومية بالرشاشات الثقيلة والقصف المدفعي ·



منذ الخامس والعشرين من شباط وحتى اواخر اذار ١٩٧٧ كانت الاشتباكات على محاور القتال في « بنت جبيل » و « الطيبة » و « مرجعيون » مقتصرة على القصف المدفعي ورمايات الرشاشات الثقيلة · الا ان الاجواء السياسية كانت تنذر بتصعيد الوضع العسكري من جانب الانعزاليين بغية احداث ضغوطات داخلية تخدم الاهداف السياسية التي سبق الاشارة اليها ·

وما ان اثير موضوع تعيين قائد جديد للجيش بدلا من القائد السابق العماد حنا سعيد، حتى بدأت تهديدات بعض الاطراف الانعزالية باثارة المشاكل لمنع اتخاذ مثل هذا القرار · وقد اعربت هذه الاطراف عن معارضتها العلنية لمثل هذه الخطوة وطالبت بتأجيل البحث في

موضوع الجيش ككل ، كما اعلنت عن عدم اقتناعها بامكانية استقرار الوضع في الجنوب الا بعد تنفيذ اتفاقية القاهرة بالتفسير المعطى لها من جانب واحد · واكدت بان معارضتها لتعيين قائد جديد للجيش لا يعني اعتراضها على شخصية القائد الجديد الذي تربطها به علاقات متينة · وحددت موقفها على اساس انه لا يجوز ابعاد الضباط الذين انحازوا الى جانب « الشرعية » وقاتلوا الى جانبها ضد « الغرباء » عن مراكزهم القيادية مهما كانت الاسباب ، بل يجب مكافأتهم وتقدير الجهود التي قاموا بها من اجل « حماية الوطن من الغرباء » ·

ان هذا الموقف من قبل القيادة الانعزالية يعني عمليا محاولة فرض وصاية على الرئيس سركيس وبالتالي على « اللجنة الرباعية » ، مع الاصرار على ابقاء الوضع متوترا في الجنوب · وقد ظهر موقفها هذا بمظهر المتعنت الذي يحاول ابتزاز المواقف السياسية باستخدام قضية الجنوب ورقة ضاغطة في وجه الرئيس سركيس و « اللجنة الرباعية » وبالتالي تكريس نوع من الهيمنة السياسية الكاملة على البلد ·

وبما ان ضغوطهم لم تفلح في منع اقالة قائد الجيش وتعيين قائد جديد بدلا منه،فقد لجأوا الى تصعيد الوضع العسكري في الجنوب بعد يومين من صدور قرارات الاقالة والتعيين ، واثر فشل الاضراب المفتوح الذي دعا اليه بعض اطراف المعسكر الانعزالي احتجاجا على القرار ، ظنا منهم ان الاوضاع تسمح لهم بتحقيق مكاسب عسكرية جديدة تقوي مركزهم السياسي في الداخل وتدفع الرئيس سركيس و « اللجنة الرباعية » الى استرضائهم وتقديم تنازلات سياسية لهم ، وتشكل في الوقت ذاته ردا قاسيا على قرارات الاقالة والتعيين ، وتحذيرا من المضي في سياسة لا يوافقون عليها ·

معركة الطيبة

اختار الانعزاليون قريتي « الطيبة » و « رب الثلاثين » هدفا لهجومهم العسكري ظنا منهم ان السيطرة على هاتين القريتين تمكنهم من السيطرة على قرى الشريط الحدودي حتى بلدة « بنت جبيل » بحيث يسهل بعدها توجيه ضربة عسكرية الى « بنت جبيل » من جهات ثلاث : عين ابل من الغرب ، ويارون من الجنوب ، وعيترون من الشرق ، تؤدي الى اسقاطها بمساعدة من « اسرائيل » ، فيصبح الشريط الحدودي بكامله من « علما الشعب » وحتى « الخيام » تحت السيطرة الانعزالية ـ الصهيونية ·

بعد دخول الانعزاليين الى قرية « عديسة » بتاريخ ٢٣ ـ ١ ـ ١٩٧٧ اصبحت « الطيبة » تشكل خطا اماميا في مواجهة التحالف الانعزالي ـ الصهيوني · وتقع « الطيبة » خلف « عديسة » وتبعد عنها حوالي اربعة كيلومترات · والى جانبها من الجهة الجنوبية تقع قرية « رب الثلاثين » وفيها تلة حاكمة تسمى « تلة رب الثلاثين » تشرف على محوري « الطيبة » ـ « القنطرة » ، و « عديسة » ـ « مركبا » · ونظرا لموقعها الهام اقام الجيش اللبناني فيها سابقا دشما من الاسمنت المسلح ·

عند فجر يوم الاربعاء ٣٠ اذار ١٩٧٧ تسللت مجموعة من الانعزاليين باتجاه « تلة رب الثلاثين » مستفيدة من الضباب الذي كان يلف المنطقة ، واستطاعت الوصول الى مسافة قريبة من التلة حيث كمنت هناك بينما كانت المدفعية الاسرائيلية تمطر المنطقة بقنابلها مستهدفة قرى « الطيبة » ، « دير سريان » ، « القنطرة » ، « الغندورية » و « رب الثلاثين » بالاضافة الى وادي الحجير وجسر القعقعية · ثم ما لبثت الآليات ان تقدمت

باتجاه التلة تحت ستار من نيران المدفعية ، وقدر عددها بحوالي احدى عشرة آلية ، بينها عدد من الدبابات ٠

وعند اقتراب الآليات تحركت المجموعة الكامنة بالقرب من التلة الى الدشم وهاجمت عناصر « القوات المشتركة » التي كانت متمركزة فيها وعددها احد عشر مقاتلا واستولت على الدشم بعد اشتباك استشهد فيه خمسة من المقاتلين وانسحب الاخرون باتجاه « الطيبة » ٠ في هذه الاثناء حاولت ملالة تابعة لجيش لبنان العربي في « الطيبة » ، نجدة المقاتلين في التلة ، ولكنها ما لبثت ان انسحبت امام كثافة نيران التحالف الانعزالي ـ الاسرائيلي متجهة نحو « دير سريان » ومن ثم « الغندورية » ٠

وكان لجيش لبنان العربي ملالة اخرى في الطيبة ، انسحبت هي ايضا باتجاه الغندورية ناقلة عددا من الجرحى اصيبوا في المعركة ٠

بعد سقوط « تلة رب الثلاثين » سيطر الانعزاليون عمليا على محور الامداد من جهة « القنطرة » ـ « الطيبة » ، فانسحبت القوات المشتركة من « الطيبة » باتجاه « القنطرة » فدخلها الانعزاليون دون قتال فعلي ٠ ولم يكن بامكان الانعزاليين مهاجمة « الطيبة » بواسطة الآليات من جهة « عديسة » لان القوات المشتركة كانت قد نسفت العبارة الواقعة عند منتصف الطريق بين البلدتين اثر احتلال « عديسة » من قبل الانعزاليين ٠ ولذلك فان تقدمهم باتجاه « تلة رب الثلاثين » ومنها النزول الى الطيبة كان امرا مفترضا حصوله ٠ لذا كان على القوات المشتركة ان تعزز وجودها في التلة وفي « رب الثلاثين » ـ القرية ، بشريا وتسليحيا ٠ ومن جهة اخرى لم تكن لدى القوات المشتركة قوات احتياطية جاهزة للتدخل ونجدة المراكز المحتاجة للمساعدة ، هذا بالاضافة الى غياب الاسناد المدفعي من الجانب الوطني ٠

وعلى هذا الاساس يمكن القول ان القوات المشتركة لم تكن مهيأة جديا للدفاع عن البلدة عند تعرضها للهجوم ،مع ان الاجواء السياسية كانت تشير الى ان الانعزاليين كانوا يعدون لتصعيد الوضع العسكري ٠ وبنتيجة المعركة بلغت خسائر القوات المشتركة خمسة شهداء سقطوا في « تلة رب الثلاثين » ، وثلاثة اخرون اصيبوا اصابة مباشرة بقذيفة مدفع وهم يرمون على هاون ٨١ مم من على مرتفع « بيدر الفقعاني » في « الطيبة » ٠

وبسقوط « الطيبة » و« رب الثلاثين » فتحت الطريق امام القوات الانعزالية للسير باتجاه « بنت جبيل » على الطريق المحاذي للشريط الحدودي ٠ فدخلوا على شكل دورية مؤلفة من ثماني آليات ، قرى « مركبا » و « حولا » و « ميس الجبل » و « بليدا » دون مقاومة ٠ ولكنهم عندما اقتربوا من قرية « عيترون » تعرض لهم كمين عند مدخل البلدة وتبادل معهم اطلاق النار فتراجعوا دون ان يكملوا الطريق ، واستشهد مقاتل واحد من افراد الكمين ٠

لقد كان بامكان الوطنيين الاشتباك مع الدورية وانزال خسائر فادحة في صفوفها في قرية « حولا » التي تعتبر معقلا وطنيا له تاريخه الحافل في العمل الوطني ، وهي القرية التي قتل الصهاينة العشرات من شبابها عام ١٩٤٩ ، ولكن هذه المقاومة لم تحصل بسبب الوضع المعنوي المتردي في صفوف ابناء القرية الذين سرعان ما انسحبوا بشكل غير منظم عبر الوادي باتجاه القرى الخلفية ٠

كان لسقوط « الطيبة » و « رب الثلاثين » في ايدي الانعزاليين اثار سيئة من الناحية المعنوية على المواطنين في الجنوب وحتى على المقاتلين في محاور القتال ٠وبدأت الاشاعات

تروج عن اقتراب سقوط بلدة « بنت جبيل » ، خاصة وان الاعلام الانعزالي قد اشار الى سقوط « القنطرة » و « الغندورية » ايضا بالاضافة الى قرى اخرى على الشريط الحدودي، الامر الذي ادى الى تزايد عملية النزوح من القرى القريبة من الخط الامامي للقتال باتجاه القرى الخلفية ، وباتجاه بيروت ايضا ٠

ازاء هذا الوضع كان لا بد من التحرك السريع عسكريا ، خاصة وان الاجواء السياسية باتت ملائمة لتوجيه ضربة عسكرية الى الانعزاليين الذين تمادوا في استفزازاتهم السياسية والعسكرية ، فكان القرار بضرورة استرجاع « الطيبة » و « رب الثلاثين » فورا ٠

وهكذا تم التحضير على عجل لهجوم شنته القوات المشتركة الوطنية يوم الجمعة في الاول من نيسان شاركت فيه خمس ملالات لجيش لبنان العربي مع مجموعة من عناصر المشاة بالاضافة الى الدعم المدفعي ٠ وكانت خطة الهجوم كما يلي :

١ ــ المجموعة الاولى تقدر باكثر من فصيلين من مقاتلي الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية مهمتها الوصول الى منطقة مشروع المياه في الطيبة واحتلاله والنزول منه بالتعاون مع المجموعات الاخرى لتطهير البلدة بكاملها ٠

٢ ــ المجموعة الثانية من مقاتلي الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية وتقدر ايضا باكثر من فصيلين ٠ مهمتها الوصول الى « تلة رب الثلاثين » والسيطرة عليها ٠

٣ ــ المجموعة الثالثة تقدر بفصيل من جيش لبنان العربي ٠ مهمتها احتلال قرية « دير سريان » التي تشكل الجناح الشمالي لبلدة « الطيبة » ٠

وقد دعمت المجموعتان الاولى والثانية بمدفعين م ــ د من عيار١٠٦مم و ٣ مدافع م ــ د من عيار ٧٥ مم بالاضافة الى ملالتين لجيش لبنان العربي ٠ اما المجموعة الثالثة فقد دعمت بثلاث ملالات تابعة لجيش لبنان العربي وسيارة لاندروفر عليها رشاش ٥٠٠ ٠

وفي المقابل كان الانعزاليون يحشدون في « الطيبة » خمس دبابات وعددا من المجنزرات لاسناد عناصر المشاة لديهم ٠

ولكن هذا الهجوم الذي مهد له بقصف مدفعي خفيف فشل بسبب الرمايات غير المحكمة للمدفعية وعدم وجود ارتباط وتنسيق جيدين بين المدفعية وعناصر المشاة المتقدمة من القوات المشتركة ٠ وكان من نتائج ذلك ان المجموعتين الاولى والثانية لم تتمكنا من الوصول الى اهدافهما ، فانسحبتا باتجاه قاعدة الانطلاق في « القنطرة » بينما استطاعت المجموعة الثالثة الوصول الى « ديرسريان » ، ولكنها ما لبثت ان انسحبت بعد انسحاب المجموعتين الاولى والثانية ، واستشهد في الهجوم الفاشل ثماني من مقاتلي القوات المشتركة بالاضافة الى ستة جرحى كانت جراحهم بسيطة ٠ وعلى الرغم من ذلك لم يكن فشل الهجوم مدعاة لليأس ، وانما كان حافزا لمزيد من الاصرار على استرجاع « الطيبة » مع الاستفادة من الاخطاء التي رافقت الهجوم الاول ٠

وعلى هذا الاساس حدد فجر يوم الاثنين ٦ نيسان موعدا للقيام بالهجوم الثاني بعد ان حشد له اكثر من ضعف العدد الذي تم حشده في الهجوم الاول ، واعتمد الحشد كليا على مقاتلي الثورة الفلسطينية بالاضافة الى عدد من مجموعات الاحتياط التي كانت جاهزة للتدخل عند الحاجة ٠ واعتمدت نفس الخطة التي كانت معتمدة في الهجوم الاول ، كما شاركت ملالتان تابعتان لجيش لبنان العربي في الهجوم ٠ وكلفت مدفعية « ارنون » بالرمي المدفعي الكثيف بغية عزل الاهداف التي كلفت مجموعات المشاة بالتوجه اليها ، ومنع وصول امدادات الى الانعزاليين المتركزين فيها ٠

وكانت معنويات المهاجمين عالية ، ورافقها تنفيذ جيد للخطة الموضوعة وتعاون وتنسيق بين المدفعية والمشاة ، بحيث نجح الهجوم في السيطرة على الاهداف بسهولة · ولم يصب في المعركة من القوات المشتركة سوى مقاتل واحد ، كانت جراحه بسيطة · اما الانعزاليون فلم تعرف خسائرهم بالضبط فانسحبوا تاركين وراءهم دبابة مصابة بعطل بسيط من نوع « سوبر شيرمان م ـ ٥٠ » (لا يوجد هذا النوع من الدبابات في الجيش اللبناني ، وانما هو متوفر في « الجيش الاسرائيلي ») بالاضافة الى ناقلة جنود من نوع « م ـ ١١٣ » اصابتها هي الاخرى طفيفة · وعند تمشيط البلدة عثرت القوات المشتركة على جريح من افرادها كان قد اصيب بجراح في الهجوم الفاشل وظل مختبئا في « البلدة » فنقل الى المستشفى · كما عثرت ايضا على مواد غذائية معلبة من صنع « اسرائيل » وحوالي اثني عشر الف طلقة ذخيرة من عيار ٧ر١٢ مم ، وعدد من قذائف ب ـ ٧ و ١٢٠ قذيفة هاون ١٢٠ مم ، ورأس نمر خشبي مع شعار لحزب « الوطنيين الاحرار » نقل الى مدينة صور حيث طاف به المتظاهرون ابتهاجا · واثار الهجوم الناجح ، الذي قامت به القوات المشتركة ، ذعرا في اوساط الانعزاليين الذين قرروا فورا استعادة « الطيبة » و « رب الثلاثين » قبل ان تعزز القوات المشتركة وجودها فيهما · ولذلك قاموا عند الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر اليوم نفسه بهجوم معاكس مهدت له المدفعية الاسرائيلية بقصف عنيف من مستعمرة « مسكفعام » المجاورة لقرية « عديسة » · وشارك في الهجوم ٤ دبابات و ٣ ملالات « م ـ ١١٣ » ،اتجهت لاستعادة تلة « رب الثلاثين » · الا ان القوات المشتركة كانت قد زرعت الغاما مضادة للآليات على الطريق المؤدية الى التلة ، كما عززت وجودها فيها وفي قرية « رب الثلاثين » بالذات · وما ان اقتربت الآليات حتى بدأت الرمايات عليها ، واصطدم بعضها بالالغام فاعطب من جراء ذلك ثلاث دبابات تبين انها من طراز « سوبر شيرمان » ايضا وملالتان تركت جميعها في ارض المعركة (٤) · وهكذا فشل الهجوم الاول المعاكس ، الذي قام به الانعزاليون بعد ان تكبدوا حوالي ١٧ قتيلا و٢٥ جريحا (٥) · وقد التقطت برقية لاسلكية تقول ان « الرائد قتل » ويعتقد بان المقصود هو الرائد سعد حداد قائد القوات الانعزالية في القليعة ، ولكن الانعزاليين نفوا ذلك واعترفوا فقط بانه جريح ، بينما استشهد من جانب القوات المشتركة خمسة من مقاتلي الثورة الفلسطينية والرقيب الاول حسن جابر قائد مجموعة جيش لبنان العربي ·

لم ييأس الانعزاليون من فشل الهجوم المعاكس الذي قاموا به قبل الظهر ، فاتبعوه بهجوم معاكس اخر عند الساعة ٠٠ر١٤ تحت رمايات المدفعية الاسرائيلية الكثيفة (٦) · وشارك في الهجوم اليات لم يعرف عددها بالضبط بسبب الضباب الذي كان مخيما على المنطقة · ولم يتمكن الهجوم الثاني ايضا من تحقيق اغراضه فانسحب الانعزاليون على اثره ·

لقد اتبعت القوات المشتركة في هجومها على « الطيبة » تكتيكا ناجحا كان جزءا من خطة الهجوم · ويقضي التكتيك بالقيام بتحركات واشتباكات في محور مرجعيون رافقه حشد للقوات في هذا المحور العام من اجل تضليل الانعزاليين عن الهدف الحقيقي للهجوم واجبارهم على توزيع قواتهم ·

استرداد الخيام ·

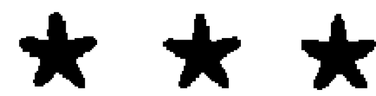
بعد استرداد « الطيبة » و « رب الثلاثين » ساد منطقة الجنوب نوع من الارتياح النفسي على الرغم من كابوس النزوح الذي خيم على المنطقة · وارتفعت معنويات المواطنين

والمقاتلين ارتفاعا كبيرا قابلها خوف وانخفاض في معنويات الانعزاليين الذين باتـــوا يترقبون الضربة التالية في محور مرجعيون ·

وضعت القوات المشتركة الهدف الثاني لها استرداد بلدة « الخيـــام » التـــي كـــان الانعزاليون قد سيطروا عليها في ١٧ شباط ١٩٧٧ ، فنشرت الكمائن بالقرب من البلدة ، من مفرق الحمام شمالا (مفترق طرق يؤدي الى الخيام وحاصبيا ومرجعيون) وحتـــى الثكنة العسكرية في طرف البلدة من ناحية الجنوب · وعند فجر يوم الخميس في ٩ نيسان ١٩٧٧ تقدمت مجموعة من القوات المشتركة باتجاه مبنى المدرسة الثانوية الكائن عند مدخل البلدة من الجهة الشمالية ـ الشرقية حيث كان يستعمل مركزا للحراسة ، وضربوه بعدة قذائف ب ـ ٧ ، وتبادلوا اطلاق النار لفترة وجيزة مع المسلحين المتواجدين فيه ، وعددهم حوالي ثمانية افراد ، ومن ثم تمكنوا من السيطرة على مبنى المدرسة · وبعد ذلك دخلـت المجموعة الى البلدة وتغلغلت في شوارعها كما دخلتها مجموعات اخرى من عدة جهات · كذلك تحركت العناصر الوطنية التي كانت قد دخلت البلدة تسللا في النهار · اما الثكنـــة فلم يكن فيها سوى اثنان من العسكريين هربا منها عند اقتراب مجموعـة من القـــوات المشتركة واطلاق عدة قذائف ب ـ٧ عليها · ولكن على بعد حوالي ٧٥ مترا من الثكنـة كانت تتمركز دبابة وملالة باستلام عسكريين من ابناء « القليعة » على طريـــق « باب الثنية » المؤدي الى « القليعة » فجرى اشتباك معهما ، ولكنهما تمكنتا من الانسحـــاب باتجاه « القليعة » تحت ستار من نيران الرشاشات الثقيلة وقذائف المدفعية ·

اما الذين تعاونوا مع الانعزاليين « والاسرائيليين » من ابناء « الخيام » فان البارزيـن منهم كانوا قد غادروا البلدة قبل يوم واحد من استردادها ، عندما شعروا بقرب نهايتهم، وهرب قسم اخر عند سيطرة القوات المشتركة على البلدة ، واعتقل الباقي للتحقيق معه · ولم تتكبد القوات المشتركة في عملية استرداد « الخيام » اية اصابة · اما الانعزاليـون من عسكريي القليعة فقد قتل منهم واحد وجرح اخر ·

ومن جهة اخـرى تمكنت القوات المشتركة من اعـادة السيطرة على قرية « دبيـــن » ودخلت اول بلدة « مرجعيون » من الجهة الشمالية وتوقفت هناك دون ان تكمل طريقهـــا لاسترداد البلدة بكاملها لان الظروف السياسية لم تعد تسمح بذلك ، علما بان استرداد « مرجعيون » كان امرا سهلا في ظل الظروف العسكرية والمعنوية السائدة في صفـــوف القوات المشتركة ·



لقد ارادت القوى الانعزالية ـ بدعم من « اسرائيل » ـ تصعيد الوضع عسكريا لتحقيق اغراضها السياسية ، الا ان النتائج التي حصدتها من جراء هذا التصعيد كانت سلبية ، فلقد فقدت الروح المعنوية التي كانت تتمتع بها ، وشعرت بانها في وضع خطر على الرغم من الدعم « الاسرائيلي » المقدم لها · وانها بدلا من التمدد عسكريا ، خسرت مواقع كانت بحوزتها ـ الخيام ، ودبين ـ وهي هامة بالنسبة اليها ، كما تكبدت خسائر بالارواح والمعدات اكثر مما تكبدته في كل معاركها السابقة في الجنوب · وبدلا من الانهيار الكامل الذي ارادت حصوله في الجنوب على الصعيد الشعبي ، اذا بالوضع يتماسك مجددا ، وترتفع معنويات جماهير الجنوب ومعها معنويات المقاتلين وتنهار بالمقابل معنويـــات الانعزاليين وتعلو صيحاتهم ، كما تعلو معها تهديدات « اسرائيل » · ولذلـــك بـــدأت التصريحات على لسان القيادات الانعزالية وكلها تعكس حالة الذعر التي وصلت اليها في

الجنوب · واصدرت « الجبهة اللبنانية » الانعزالية مذكرة اذاعتها في مؤتمر صحفي وارسلت نسخا منها الى الرئيس سركيس و « اللجنة الرباعية » وبعض السفارات العربية والاجنبية تتضمن تهديدا واضحا بتدويل القضية اللبنانية اذا لم تذعن الاطراف المحلية والعربية المعنية لشروطها · كما بدات تصريحاتهم تشير الى « الوضع الخطير » في الجنوب بعد ان كانوا يتجاهلون الموضوع قبل ذلك لانه في نظرهم « ليس خطرا كما يدعي البعض » (٧) ·

اما « اسرائيل » فقد اطلقت العنان لتهديداتها ، واعلنت على لسان وزير خارجيتها الون: « ان اسرائيل لن تسكت على الحاقْ الاذي بالقوى الصديقة لها قرب الحدود ، وبالاجراءات المتخذة للتعايش السلمي عن طريق الجدار الطيب » ·

لقد اراد الانعزاليون بان يكون يوم ٣٠ اذار – يوم سقوط « الطيبة » في ايديهم – يوم « التحول التاريخي لانتصاراتهم » على صعيد الجنوب ، فاذا به بداية تراجعهم وانهزامهم ·

الحواشي

١ – تصريح بيار الجميل اليومي – جريدة النهار ١٢–٣–٧٧ ·

٢ – « تلة شلعبون» احدى التلال المطلة على بلدة « بنت جبيل » من ناحية «صف الهوا » ·

٣ – ناقلات الجنود الموجودة في هذا المحور هي من صنع سوفياتي من غنائم « اسرائيل » العسكرية في حرب ١٩٦٧ · اعطت عددا منها الى القوات الانعزالية في الجنوب ·

٤ – الدبابات والملالاتالتي اعطبت يمكن اصلاحها بسهولة ·

٥ – اعترفت « اسرائيل » في نشراتها الاخبارية في اليوم التالي بان عدد الجرحى « اللبنانيين » لديها بلغ ٢٥ جريحا ·

٦ – اعترفت « اسرائيل » في ذلك اليوم بان مدفعيتها قصفت القوات المشتركةزاعمة بان ذلك كان ردا على قصف مستعمرة « مسكفعام » ·

٧ – تصريح كميل شمعون الى مجلة « موندي مورننغ » نشرته جريدة النهار بتاريخ ٢٨–٣–١٩٧٧ ·

٨ – رصد اذاعة اسرائيل : ص ٨٨ ·

هل من جديد في سياسة أمريكا العربيّة والفلسطينية ؟

د. ابرهيم أبو لغد

استعاد الحزب الديمقراطي الحكم في امريكا بعد انتصار جيمي كارتر على منافسة الرئيس الجمهوري السابق جيرالد فورد • ويتوقع الكثيرون امريكيا وعالميا ان ينهج الرئيس الجديد سياسة عالمية تختلف في تفاصيلها عن سياسة سابقه • وقد علق الكثيرون على ان اسناد وزارة الخارجية الى سيرس فانس ، واسناد منصب المستشار لشؤون الامن القومي الى السيد بريزنسكي اللذين حلا مكان هنري كيسينجر سيؤدي بلا شك الى تغييرات معينة في السياسة الامريكية • الا ان معظم المعلقين والمحللين يؤكدون بأن سياسة امريكا الخارجية لها جذور عميقة لا تتغير كثيرا بتغيير القادة ، مركزين على العوامل الموضوعية التي تشكل الاسس الرئيسية التي يبني عليها قادة امريكا سياستها الخارجية • ومما لا شك فيه ان هذه الاسس هي التي توجه السياسة الامريكية الخارجية ، مع العلم بأن فهم هذه الاسس وكيفية ترجمتها الى واقع عملي يتغير ويختلف باختلاف من يشرف على بلورتها الى برامج محددة قابلة للتنفيذ عمليا • ومن هنا يبرز دور الافراد القائمين على الحكم وعلى هوية الحزب الحاكم •

وما يهمنا الان هو سياسة امريكا العربية والفلسطينية على وجه التحديد ، رغم ان هذه السياسة ترتبط ارتباطا وثيقا بسياسة امريكا العالمية ، الا اننا نركز في دراستنا هذه على السياسة المتعلقة بالمنطقة العربية ، فما هي اذن المنطلقات الاساسية لهذه السياسة ؟

المنطقة العربية

تشكل المنطقة العربية الممتدة من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي نقطة اساسية في المجتمع العالمي ، فهي منطقة يقطنها ما يزيد على مائة وخمسين مليون نسمة ، ذات مصادر اولية متنوعة مهمة عالميا وفي مقدمة ذلك النفط • تشكل هذه المنطقة جسرا هاما لكل دولة تطمح في فرض سيطرتها عالميا او في التاثير عالميا • فهي اذن كمنطقة ، بالغة الاهمية اقتصاديا وعسكريا وانسانيا لجميع دول العالم وخاصة الدول العظمى • والتاريخ يشهد بان ما من قائد عالمي الا وكان الطموح في السيطرة على هذه المنطقة من اولوياته السياسية والعسكرية • وما علينا الا ان نذكر بان الاسكندر المقدوني ، والدولة الرومانية

كمثال على هذا في التاريخ القديم ، والحروب الصليبية التي شنتها اوروبا في العصر الوسيط ، ونابليون وحلفائه الفرنسيين وبريطانيا في العصر الحديث ٠ وبعد ان تمكنت الولايات المتحدة من فرض هيمنتها على العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، اتجهت بقواها المختلفة لتمكين وترسيخ هذه الهيمنة في المنطقة العربية الى ان اصبحت اليوم الدولة الموجهة لسياسة المنطقة العربية ٠

اسرائيل

تشكل اسرائيل الركيزة الثانية لسياسة امريكا العربية ، ونحن نعلم بان نشوء اسرائيل في المنطقة العربية لم يكن عفويا او مصادفة ٠فاسرائيل كانت ولا تزال نقطة اساسية في سياسة الاستعمار الغربي لتمكينه من ترسيخ التجزئة العربية ، ولاستخدامها لضرب حركة التحرير الوطني ، بوصفها قاعدة عسكرية تحمي الهيمنة الغربية ٠ من هذه المنطلقات اتجهت سياسة بريطانيا التي مكنت الحركة الصهيونية من السيطرة على فلسطين ، ثم تحالفت الدولتان مع فرنسا في محاولة يائسة لايقاف مد التحرر الوطني في الخمسينات ، الى ان حلت امريكا مكان الاستعمار الغربي السابق في المنطقة العربية ، وتحالفت مع اسرائيل لنفس الاهداف ٠ وكانت حرب حزيران هي ثمن التحالف الامريكي ـ الاسرائيلي الذي ما زال مستمرا ٠ ونشير هنا ، الى انه في اعقاب ازمة الطاقة ، اتجه صانعو الاستراتيجية الامريكية الى التفكير في الاحتلال العسكري لمنطقة الخليج ومصادر النفط ، وكل الخطط التي وضعها مفكرو امريكا اعتمدت تعاون اسرائيل العسكري مع المحاولات الامريكية ، بل اكثر من ذلك ٠ اذ ان خطط الاحتلال العسكري المتواجدة في وزارة الدفاع الامريكية تطلب اولا هجمة عسكرية اسرائيلية تحميها من قواعدها القوات الامريكية في اسرائيل ٠

ان اقرارنا باهمية اسرائيل كقاعدة وكاداة لتحقيق وترسيخ الهيمنة الامريكية في المنطقة العربية لا يعني مطلقا باننا نهمل الاهمية العاطفية و « الاخلاقية » للعلاقات الاسرائيلية ـ الغربية بشكل عام والعلاقات الاسرائيلية ـ الامريكية بشكل خاص ٠ اذ ان تعاطف الحكومات والشعوب الغربية مع اسرائيل هو تعاطف حقيقي له جذور سياسية وتاريخية ٠فشعور الشعوب المسيحية بالاثم نحو اليهود، شعور قوي وحقيقي لعب دورا اساسيا في توجيه سياسة دول اوروبا كما يلعب دورا هاما في توجيه سياسة امريكا انيا ٠ اضافة الى هذا لا بد وان نذكر ان النفوذ السياسي للجاليات اليهودية ، والمنصب الطليعي لهذه الجالية اجتماعيا وحضاريا ينعكس في تقبل شرائح المجتمع الامريكي للاتجاهات السياسية التي تساندها هذه الجاليات نحو اسرائيل ٠ ورغم اننا لا نعتقد بأن الرأي العام له الدور الاساسي في توجيه السياسة الامريكية ، الا ان القوى الرئيسية الضاغطة والتي تؤثر في توجيه السياسة حساسة لهذه المؤثرات العاطفية والاخلاقية ، اضافة الى تحالفها المصلحي مع الفئات اليهودية النشطة ٠ ومن هنا تبرز اهمية

اسرائيل على الصعيد المحلي الامريكي · اذن نخلص من هـذا بـان اسرائيل ليست قاعـدة ضرورية لاستمرار وتمكين الهيمنة الامريكية فحسب ، بل تشكل حلقة هامة في المجتمع الامريكي ذاته ·

الاتحاد السوفياتي

كان احتواء الاتحاد السوفياتي واضعافه سياسيا وعقائديا وتقليص نفـوذه الدولي هدفا رئيسيا للسياسة الامريكية · وكان للانفتاح العربي عـلى الاتحـاد السوفياتي في الخمسينات ومتابعة ذلك في الستينات اثره القوي في مضاعفـة الولايات المتحدة لجهودها للحد من امتداد هذا الانفتاح وافساد العلاقـات العربية السوفيتية · وقد دفع هذا الاتجاه الى زيادة الاعتماد الامريكي عـلى اسرائيل من ناحية وعلى الدول العربية التي كانت وما زالت تتحفظ في علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي من ناحية اخرى · ولا نشك مطلقا بان عنف العلاقـات الامريكية ـ العربية التقدمية كان نتيجة الذعر الاميركي لما يمكن ان ينتج مـن تغيير في موازين القوى العالمية اذا تمكن الاتحاد السوفياتي من ان ينشىء علاقات ايجابية مع جميع دول المنطقة ، وبالتالي من تأييد المنطقة العربية في تطلعاتها للقضاء عـلى النفوذ والهيمنة والاستغلال الامريكي · ورغم ان امريكا تعلم جيدا ان للخطر على المصالح الامريكية في المنطقة العربية نابع اصـلا من حركـات التحرر الوطني العربية التي ترمي الى ايجاد وتوطيد اسس المجتمعات العربية العادلة وانهاء الاستغلال في المنطقة · الا ان السياسة الامريكية تـدرك جيـدا الدور المساعد الذي يؤديه الاتحاد السوفياتي لهذه الحركات · ولهذا كان « طرد » الاتحاد السوفياتي · وهو التعبير الذي استخدمه وزير الخارجية السابق هنري كيسنجر هدفا رئيسيا في المنطقة العربية ، لا لان التعاون السوفياتي ـ العربـي يمكن الدول العربية من مواجهة اسرائيل بنجاح فحسب ، بل لان هذا التعـاون يؤدي في نهاية الامر الى تحرير المنطقة العربية من اثار الاستعمار الغربـي عسكريا ، واقتصاديا وسياسيا ·

العالم الثالث

يشكل العالم الثالث محورا رابعـا للسياسة الامريكية في المنطقة العربية ، اذ ان امريكا تحاول بقدر الامكان ان تمارس سياستها في هذا العالم بناء علـى مبادىء وقوانين العالم الغير متكافىء · وان رغبة امريكا في الاستمرار فـي السيطرة على الموارد الاولية ، وفي السيطرة على اسواق العالم الثالث ، وبقاء العالم الثالث في حالة التبعية للاستعمار الغربي ، ادى الى تبني سياسة أمريكية محددة هدفها الابقاء في الحكم على انظمة رجعية وبالتالي ضرب حركـات

التحرر الوطني فيها ، ثم الحيلولة دون نجاح العالم الثالث فـي ايجاد صيغـة معقولة للتحالف والتعاون الدولي · وقد قام العالم العربي بدور طليعي في ايجاد نوع من التنسيق السياسي والاقتصادي في العالم الثالث بحكم مكانه الجغرافي وبحكم انظمة وطنية سيطرت على اجزاء هامة فيه ، كالناصرية · وكان لنجـاح العالم الثالث في ايجاد صيغ بناءة للتعاون والتحالف اثره الهام في مضاعفـة جهود امريكا لضرب هذه الوحدة ، واعادة التجزئة لهذا العالم ، بهدف الانفراد بكل دولة على حدة · ومن هنا نشأ اهتمام امريكا بضرب حركات التحرر الوطني العربي لاضعاف مساهمة المنطقة العربية في تحرر اسيا وافريقيا بشكل خاص · ولا شك ان امريكا تدرك ادراكا جيدا مساهمة الامة العربية في حركات التحـرر الافريقية ومحاولاتها الناجحة للقضاء على انظمة الاستيطان العنصري · والعالم الافريقي يدرك بان مساهمة العرب وخاصة مصر الناصرية والجزائر كانـت مساهمة اصيلة ولم ترتبط بالمصالح السياسية المباشرة · وكلما ازداد اهتمام الولايات المتحدة بالمحافظة على الانظمة العنصرية كالبرتغال سابقا ، وجنـوب افريقيا وروديسيا حاليا ، شعرت هذه باهمية احتواء حركة التحرر الوطنـي العربي لما يمكن لهذه الحركة ان تؤديه في استعجال القضاء على الانظمـة الاستيطانية الاوروبية في افريقيا ·

اوروبا

تشكل اوروبا الغربية المحور الرئيسي للسياسة الامريكية الخارجية · وربما لا نخطىء اذا قلنا بان اهتمام امريكا الاستراتيجي والعسكري في المنطقة العربية في الخمسينات والستينات كان نتيجة لاهتمام امريكا بالمحافظة على مكانتهـا الرئيسية في اوروبا الغربية · ومن هنا نشأ اهتمام امريكا للحصول على قواعد عسكرية في المنطقة العربية البحر اوسطية · وان التغييرات الجديدة في اوروبا وفي المنطقة العربية والتي نستطيع تلخيصها بانها تغييرات في تطلعات الـدول الغربية من ناحية وتغييرات في الاهمية الاقتصادية للمنطقة العربية كان لهـا انعكاسات هامة في السياسة · اذ ان الجميع يدرك بان دول اوروبا الغربية بشكل عام تحاول جاهدة اضعاف تبعيتها للولايات المتحدة ، وهي تحاول تدريجيـا التخلص من الهيمنة الاقتصادية الامريكية ، والسيطرة الامريكية على الصادرات العسكرية للمنطقة العربية · ولا شك بان فرنسا الديغولية لعبت دورا طليعيـا في حركة الاستقلال السياسي والعسكري الاوروبي الى ان اصبح الاستقـلال الاوروبي عن امريكا مطلبا اوروبيا شاملا · وتشاء الظروف المتغيرة ان يجد هذا المطلب وسيلة للتحقيق بعد حرب تشرين · فالدول العربية التي تنشد التنميـة الاقتصادية تمتلك النفط وهو المصدر الرئيسي للطاقة في اوروبا · اذن اصبح من الممكن لدول اوروبا الغربية ان تنشىء علاقات مستقلة مع الدول العربيةبحيث تسير

اوروبـــا في طريـــق الاستقـلال الاقتصـــادي ، وتتمكـن الـــدول العربيـــة من شراء التكنولوجيا الضرورية من اوروبا٠ ورغم ان تحقيق التحالف السياسي والاقتصادي بين المنطقتين يتطلب الكثير من التطورات النفسية والموضوعية ٠ الا ان الباحثين في السياسة البعيدة المدى يدركون بانه من الممكن لدول البحـر الابيض المتوسط ايجاد صيغ مناسبة للتعاون والتحالف بحيث يمكننا ان نتصور انبثاق تحالف كبير مستقل له مقوماته واسسه الاقتصادية ، يستطيع ان يقف بنجاح ضد امريكا ويضعف هيمنتها في المنطقتين الاوروبية والعربية في آن واحد ٠ واذا تم ذلك مستقبلا يمكننا ان نتصور مركز قوى عالمي جديد محوره غـــرب اوروبا والوطن العربي ٠ ومن هنا ازداد اهتمام امريكا بالمنطقة العربية فـــي محاولة جديدة لاحتواء هذا الاتجاه الاستقلالي ولتكثيف العلاقات الثنائية بيـن الولايات المتحدة وكل دولة عربية على حدة ، في سبيل زيادة ربطها بالعجلة الامريكية ٠ ويلاحظ كل مراقب قلق امريكا المتزايد من اقامة الجسور العربيـــة ــ الاوروبية الغربية ومحاولاتها المتكررة للحيلولة دون ترسيخ هذه الجسور ٠

فلسطين والصراع الفلسطيني ــ الصهيوني

بالرغم من ان فلسطين هي جزء هام من المنطقة العربية ، الا اننا لا بد وان ندرك ونبرز خصوصية سياسة امريكا الفلسطينية وسياستها تجاه الصـــراع الفلسطيني الصهيوني ٠ فاذا نظرنا الى خلفية السياسة الامريكية المعاصـــرة ندرك جيدا بان امريكا لم تعـر الشعـب الفلسطيني اية اهمية او نظرة خاصة ، واقامت سياسة شبيهة بالسياسة البريطانية تجاه الشعب الفلسطيني ٠ فكمـا ان بريطانيا اعتقدت منذ ١٩٢١ بانه من الممكن لها ان تحقق وعد بلفور في فلسطين، وان تتغلب على معارضة ومقاومة الشعب الفلسطيني ان هي حظيت بتأييـد الدول العربية لسياستها ، كذلك اتجهت امريكا نفس الاتجاه ٠ ومن يقـــرأ مراسلات سفراء امريكا في المنطقة العربية في اواخر الاربعينات يدرك ادراكـا جيدا بان اهتمام امريكا « بفلسطين » كان منصبا على الدول العربية ٠

ولهذا كانت امريكا وما تزال في سياستها تحاول ايجاد صيغة معقولة للحـل السياسي العربي ــ الاسرائيلي عبر تجاوز الشعب الفلسطيني ، معتقدة بحزم بان الدول العربية قادرة على اجبار الشعب الفلسطيني على قبول حل للصراع الفلسطيني ــ الصهيوني يضمن وجود الدولة الاستيطانية العنصرية في فلسطين٠ فامريكا اذن كبريطانيا في السابق تعتقد باصالة المطالب الوطنية الفلسطينية ، ولا تقدر اهمية هذه المطالب الوطنية سياسيا ٠ وعبر السنوات الماضية تبنـــت امريكا ثلاثة انواع من السياسات نحو الشعب الفلسطيني ٠

اولا : سياسة الاهمال اللين او سياسة الاغفال ، وهي السياسة التي عكست

انكارا كاملا للوجود الفلسطيني ·

ثانيا : سياسة القبول الانساني الفلسطيني وضرورة ايجاد حل للمشكلة الانسانية باعتبارها مشكلة لاجئين لا بد من توطينهم في الوطن العربي ، اذا ارادت امريكا نوعا من الاستقرار في المنطقة العربية ·

ثالثا : سياسة المواجهة العسكرية ـ السياسية التي تبنتها امريكا بعد حرب حزيران ١٩٦٧ بعد ان تحول الشعب الفلسطيني الى شعب ثائر يطلب التحرر الوطني ، وبعد ان طرح شعار الدولة الديمقراطية العلمانية · عندها ، شعرت امريكا بالخطر الكبير الذي يشكله الشعب الفلسطيني لا لاسرائيل فقط بل للاستقرار في المنطقة العربية · وقد ترجم هذا الموقف عبر عنف المواجهة الامريكية للشعب الفلسطيني الذي تجسد في اغراء اسرائيل وبعض الدول العربية لتصفية المقاومة الفلسطينية ، والحملة الاعلامية العالمية المسعورة التي وجهتها امريكا ضد الشعب الفلسطيني ككل · ومن يعرف السياسة الامريكية يجد في سياستها المواجهة للشعب الفلسطيني امتدادا لسياستها العالمية التي هدفت وما زالت تهدف الى تصفية حركات التحرر الوطني المستندة الى برنامج سياسي ديمقراطي ، والتي تعتبر الثورة المسلحة اساسا لتحقيق هذا البرنامج · فاذا لم يكن هناك دوافع اخرى لسياسة امريكا المعادية في المنطقة العربية ، فالطرح الفلسطيني يكفي لاخراج امريكا الى الساحة للحيلولة دون قيام نظام وطني تحرري في المنطقة ·

هذه اذن هي الاسس الرئيسية للسياسة الامريكية في المنطقة العربية التي لا بد لمن يحكم الولايات المتحدة من الاهتداء بها ، في رسم برامج محددة من شأنها ان تزيد من المحافظة على المصالح الامريكية في المنطقة · الا ان هذا لا يعني مطلقا بان السياسة لا تختلف باختلاف من يحكم ، ولكن الاختلاف هو اختلاف في التفاصيل وليس في الجوهر · ولهذا لا بد لنا من تحديد خلفية الحزب الديمقراطي الحاكم ، حتى نفهم البرامج المعينة التي سيصيغها هذا الحزب من اجل تحقيق مصالح اميركا ·

١ ـ الحزب الديمقراطي ككل : ·

ان سياسة الحزب الديمقراطي المحلية والخارجية هي نتيجة المساومات والصراعات بين مراكز القوى في هذا الحزب · ويمكننا اجمال مراكز القوى التي لها تأثير في السياسة الخارجية وخاصة في المنطقة العربية ـ بما يلي : فئات العمال والجالية اليهودية ومراكز الاعلام والهيئات النشطة في المدن الكبرى كنيويورك ، وشيكاغو ، ولوس انجلوس وفيلادلفيا وبوسطن ، والمثقفون ومركز اخر ظهر حديثا وهو مركز الامريكيين السود · وهذه المراكز كلها من

انشط الفئات الامريكية تأييدا للصهيونية واسرائيل ، وهي معروفة بعدائها العنصري والسياسي للشعوب العربية بشكل عام • وربما يتمكن رئيس ديمقراطي من مقاومة الضغوط التي تمارسها هذه المراكز باستمرار ، الا اننا نعرف جيدا بان ما من رئيس ديمقراطي صمد امام هذه الضغوط • وعلينا ان نذكر بان ترومان وجونسون تبنيا سياسات معادية للشعوب العربية وحركة التحرر الوطني اولا استجابة لهذه الضغوط وثانيا لانتماءاتهما الشخصية والنفسية • وللعدل نذكر بان جون كنيدي حاول دون نجاح ان يتبنى سياسة اكثر اعتدالا الا ان مصرعه حال دون نجاحه في اكتمال معالم السياسة الجديدة ، والتي سرعان ما عادت الى اصولها العدائية •

الا ان هنالك عنصرا اخر له فاعليته في رسم السياسة الامريكية من خلال الحزب الديمقراطي • اذ ان الفئات التي اشرنا اليها تعمل على الساحة الامريكية العامة ، وتترجم قوتها في الضغط على القوى التنفيذية والتشريعية وحملها على تبني وتنفيذ سياسات معادية لامال وتطلعات الشعوب العربية • الا ان الحزب الديمقراطي الحاكم يأتي بافراد للعمل في الوزارات المختلفة وهؤلاء هم الذين يعدون الدراسات العديدة التي يعتمدها الساسة • ومن البديهي ان هؤلاء الافراد التقنوقراطيون ينتمون في ولائهم الى هذه الفئات ، من هنا نجد ان ما يستند اليه النظام الحاكم هو من صنيع التقنوقراطيين المؤيدين لاسرائيل والمعادين للشعوب العربية •

٢ ـ افراد الحزب الحاكم

لا شك ان للافراد الحاكمين اهمية خاصة في ترجمة السياسة الامريكية في المنطقة العربية • وما يهمنا الان هو تحديد اهتمامات الاشخاص الذين تشكل منهم الحكومة الاميركية المعاصرة • اما الرئيس كارتر ، فهو اولا بروتسانتي ـ معمداني وهذا له اهمية اسرائيلية خاصة • اذ انه نشأ وتربى في ظل نظام روحي يؤمن بضرورة وجود اسرائيل مسيحيا ، وتلعب تربيته الدينية دورا نفسيا في تحديد اتجاهاته نحو اسرائيل ، وقد عبر عن هذا الاتجاه مرات عديدة في تصريحاته الانتخابية • ونحن لا نشك بان لهذا العامل اثر هام في التوجه السياسي الامريكي ومن هنا نستطيع ان ندرك بان اسرائيل في وجودها وتوسعها واستغلالها ، ستشكل حلقة مركزية في نظرته العامة الى المنطقة العربية • ثانيا ، وقد ابدى كارتر عداء عجيبا تجاه الدول العربية المصدرة للنفط • وتجاه سياسة المقاطعة العربية لاسرائيل ، واعرب مرارا عن تصميمه على ابطال مفعول هذه المقاطعة والحد من امكانية الدول العربية للتأثير النفطي العالمي • نخرج من هذا بان صانع السياسة الامريكية لا يقل

عداء للشعوب العربية ولسياسة التحرر والاستقلال العربي عن سابقيه الديمقراطيين مثل ترومان وجونسون ٠

يحيط بكارتر افراد اخرون لهم وزنهم السياسي واتجاهاتهم السياسية الخاصة ٠ فبريزنسكي مثلا عرف بتأييده وعطفه على اسرائيل اذ انه نشأ في بيت بولندي في الثلاثينات ، وساهم والده في انقاذ يهود وارسو مما ادى الى نشوء عطف خاص لديه على مطالب اليهود بايجاد وطن لهم في فلسطين ٠ وقد قام باكثر من زيارة الى اسرائيل ٠ ومن المعروف بان اسرائيل اكرمت والده بمنحه وساما تقديرا لخدماته ليهود بولندا في الثلاثينات ٠ كما عرف هذا بعدائه الشوفيني للاتحاد السوفياتي ولكل الحركات اليسارية بما في ذلك الحركات العربية اليسارية ، ولهذا فان ارتباط اية دولة عربية او حركة فلسطينية بالاتحاد السوفياتي يؤدي آليا الى معاداته لهذه الدولة او الحركة ٠ وبريزنسكي كذلك هو من العلماء الذين يؤمنون بسياسة القوة وهو يعتقد بانه من الضروري لامريكا ان تتعامل ايجابيا مع اية دولة او حركة اثبتت قوتها او جدارتها ٠ ومن هنا نشأ احترامه لاسرائيل لانها اثبتت قوتها وجدارتها ، بينما لم تظهر الدول العربية مجتمعة او منفصلة جدارتها كما لم تظهر المقاومة الفلسطينية قوة و « جدارة » تستحقان احترام امريكا ٠ وهو لا يعتقد بان « القوة » العربية المعاصرة بامكانها ان تهدد مصالح امريكا ، اما « القوة » النفطية فهي قوة زائفة بامكان دولة كبرى كامريكا ان تفرغها من محتواها بحلول اجرائية اخرى ٠ اما سيرس فانس فهو بانتماءاته يميل الى سياسة القوة كذلك ٠ فقد عمل سابقا في وزارة الدفاع وهو مقرب من احد كبار اقطاب الحزب الديمقراطي كلارك كليفورد الذي كان وزيرا للدفاع في عهد جونسون وكان له ضلع كبير في حرب حزيران وفي بلورة الحلف العسكري الاسرائيلي ـ الامريكي ٠ ويميل هذا الى سياسة الامن عن طريق العمل الموثوق به ، وهذا الاتجاه يؤدي به الى الاشارة بتبني سياسة امريكية تعتمد اصلا على اسرائيل وعلى دول عربية لا خيار لها الا التعامل مع الولايات المتحدة ٠ كما يعتقد فانس بان الدول العربية منقسمة جذريا على نفسها وان مخاطرها ومخاوفها من بعضها البعض لا يقل عن مخاوفها من اسرائيل ، وهذا يؤدي به الى الاعتقاد بانه من الممكن لامريكا ان لا تتقبل الضغوط العربية لاتباع سياسة اكثر اعتدالا من النزاع العربي ـ الاسرائيلي لان الدول العربية سوف ترضخ للسياسة الامريكية مهما كان نوعها ـ وهي نفس السياسة التي اتبعها الرئيس جونسون ٠

هناك شخصان اخران لا بد من ذكرهما لما لهما من اهمية في الوزارة الامريكية الجديدة ٠ اما الاول فهو وزير الدفاع براون ـ وهو ليس براون الذي عرف بتصريحاته المضادة لاسرائيل ـ وهو عالم طبيعة كان يرأس معهد كاليفورنيا التكنولوجي ومهتم بشكل خاص بتطوير الاسلحة ٠ ويقال بانه ينتمي الى

اسرائيل بشكل او باخر ، ويحترم قدرة علمها وعلمائها خاصة في تطوير السلاح • ولا يعير المنطقة العربية اية اهمية بل على العكس فهو يحتقر شعوب العالم الثالث بشكل عام • واثناء الحرب الفيتنامية كان من انصار تطوير السلاح المناسب للقضاء على النضال الفيتنامي • ويتوقع الكثيرون ان يشير على كارتر بسياسة اكثر تصلبا تجاه المطالب العربية • اما الشخص الاخير فهو جيمس شليزنجر الذي كان وزيرا للدفاع اثناء حرب اكتوبر والذي اقام الجسر العسكري لاسرائيل حينئذ ، والذي اصبح مسؤولا عن امور الطاقة الان • وشليزنجر هذا يعرف بولائه لاسرائيل اولا ، ومعاداته لدول النفط العربية ثانيا وهو من « الصقور » الذين يشيرون بضرورة استخدام القوة والعنف ضد كل من تخول له نفسه اضعاف امريكا او حلفائها ، بما فيهم اسرائيل وجنوب افريقيا ، وكان قد دعا الى التدخل العسكري في انغولا ضد حركة التحرر الوطني هناك •

التصور الامريكي لمستقبل الوضع والعلاقات في المنطقة العربية

يمكننا ان نجزم بان هناك تصورا امريكيا شاملا للمنطقة العربية يفترض اتباع وتنفيذ سياسات امريكية محددة • وان هذا التصور يشمل المحاور الرئيسية للعلاقات العربية ـ الامريكية والتي يمكننا عرضها كما يلي :

١ ـ المحور الاول وهو النزاع العربي ـ الاسرائيلي • ستحاول امريكا جهدها لتجميد الصراع العربي ـ الاسرائيلي الى ان تتم الانتخابات الاسرائيلية والتي ستظهر مدى تصدع الجبهة الاسرائيلية الداخلية • وستستفيد امريكا من موضوع الانتخابات الاسرائيلية بشكل مباشر بحيث انها ستطلب من الدول العربية التريث الى ان ينجلي الموقف الاسرائيلي رغم ان هذا الموقف هو مجرد مناورة لكسب لوقت مما يؤدي الى تردي الجبهة العربية الضاغطة • وستشهد الاشهر القادمة ممارسات ضغط امريكية على الدول العربية بحيث تكثف تمزيق الصف العربي وتزيد من عزلة الدول العربية المتحفظة على سياسة الانفتاح ! وفي الوقت نفسه ، فان امريكا ستواصل مد اسرائيل بالاسلحة • كما وانها ستحاول ان تبيع الاسلحة لبعض الدول العربية لتظهر عدم انحيازها لتغيير قاعدة سلاح المنطقة بحيث تزيد من التبعية العربية لامريكا ، وتضعف بالتالي امكانات العرب الحقيقية للدفاع عن انفسهم•وهذا يعني بان امريكا سوف تبتعد تدريجيا عن ممارسة ضغط حقيقي على اسرائيل لاجبارها على الانسحاب الكلي من سيناء والجولان •

٢ ـ المحور الثاني وهو الصراع الفلسطيني ـ الصهيوني • ان السياسة الامريكية ضد الثورة الفلسطينية لا تزال هي نفسها • السعي الى تصفية

الثورة الفلسطينية فكرا وعملا وواقعا · فكما قامت امريكا بتحريك الاوضاع في المنطقة في اواخر الستينات كي تؤلب الدول العربية على الثورة الفلسطينية، فهي تمارس العمل نفسه اليوم لانهاء الوجود السياسي الفلسطيني · ان الخلافات داخل النظام الامريكي ، حول الصراع العربي الاسرائيلي ، والتي قامت بين فريقين : الفريق الاول ، ينتمي الى الشركات العالمية التي تريد استقرار المنطقة عبر ارضاء محور السعودية ـ مصر وتحقيق المطالب الوطنية الفلسطينية، بتكوين دولة فلسطينية في جزء من الضفة الغربية وغزة (مع نزعها من السلاح) وبين فريق ينتمي الى المؤسسة العسكرية ـ الصناعية والذي يرى ان الاستقرار لا يتحقق الا عن طريق حلفاء ثبت ولاؤهم للحلف الغربي ، وهذا يعني عدم القبول بمبدأ الدولة الفلسطينية التي يمكن ان تشكل عبر ارتباطها التاريخي بحركة التحرر الوطني خطرا مباشرا على استقرار المنطقة ككل · ويظهر أن الفريق الثاني رجحت كفته في الحزب الديمقراطي خاصة وان احداث المنطقة العربية ذاتها ادت في نظرهم الى اضعاف الثورة الفلسطينية والى ابتعاد مصر والسعودية عن فكرة الدولة الفلسطينية · ومن هنا بدأ اهتمام امريكا بمحاولة ايجاد تسوية معقولة بين اسرائيل والاردن تضمن وجودا رمزيا للشعب الفلسطيني ·

٣ ـ المحور الثالث ، العلاقات الثنائية العربية ـ الامريكية · تحاول امريكا جهدها ان لا تثير القلاقل داخل الوطن العربي وتحاول عدم مواجهة اية دولة عربية · اذ انها تعتقد بناء على تطور هذه العلاقات في السنوات الماضية ان المستقبل يبشر خيرا بالنسبة لامريكا · اذ ان الانظمة التقدمية الرافضة للهيمنة الامريكية ـ بدأت باتباع سياسات اكثر اعتدالا على الصعيدين العقائدي والسياسي وابتعدت بالتالي عن مواجهة امريكا ، وسياسة الانفتاح التي بادرت اليها مصر وتبنتها دول عربية اخرى دليل واضح في نظر الساسة الامريكيين بان المنطقة تسير تدريجيا في الاطار الامريكي · واهم من هذا كله تضخم العلاقات الاقتصادية العربية الامريكية ليس بين الدول النفطية وامريكا فقط بل بين جميع الدول العربية بما فيها الدول التقدمية وامريكا · ويعتقد الساسة الامريكيون بان نمط التطور الاقتصادي الذي اختارته الدول العربية جميعا ، والذي يعتمد التصنيع والتكنولوجيا لا بد في نهاية امره من ان يؤدي الى المزيد من التغلغل الاقتصادي الامريكي في جميع انحاء الوطن العربي ·

يمكننا من هذا العرض السريع العاجل ان نستشف الاهداف الامريكية العريضة في المنطقة العربية ككل في المدى المتوسط :

١ـ استقرار المنطقة · ان استقرار المنطقة العربية بما في ذلك استقرار العلاقات العربية ـ الاسرائيلية ، يشكل الهدف الرئيسي الاول للسياسة الامريكية · وهذا الاستقرار لا يعني السلام في المنطقة اذ ان حالة التوتر

المضبوط اكثر فائدة لامريكا من حالة الانفراج الكامل . ولهذا ستعمل امريكا جهدها لوضع العلاقات العربية ـ الاسرائيلية في اطار استقرار على المدى المتوسط ، وسوف تبتعد عن ممارسات ضغوط من شأنها ان تعجل في الانفجار او في الوصول الى سلام دائم .

٢ ـ متابعة خط تصفية الوجود الثوري الفلسطيني ، لان الثورة الفلسطينية وبالتالي اية حركة ثورية عربية سوف تحدث انقسامات في المنطقة تهدد الاستقرار الدائم ولانها تهدد الكيان الاسرائيلي .

٣ ـ متابعة ابعاد الاتحاد السوفياتي عن المنطقة العربية بحيث يعود الاتحاد السوفياتي دولة هامشية في المنطقة العربية .

٤ ـ تكثيف العامل الاقتصادي بين المنطقة العربية وامريكا بحيث تصبح هذه المنطقة تابعة للاقتصاد الامريكي وتترك للشركات الامريكية حرية العمل في المنطقة ، وتبقي توريد الفائض من ارباح النفط الى البنوك الامريكية لاستخدامها في الاستثمارات العالمية . وامريكا تأمل في ان تحافظ على هيمنتها العالمية باستخدامها لاموال النفط العربية وادارتها .

٥ ـ تأمين وصول النفط الى امريكا دون ان يشكل هذا سلاحا في ايدي دول عربية تبغي مصالح سياسية محددة .

٦ ـ دعم وتأمين مركز اسرائيل الدائم في المنطقة ، وسيتخذ هذا الدعم اشكالا متعددة ، اقتصاديا باستمرار تدفق المعونة الامريكية لتقوية اسرائيل وتوسعها ، وعسكريا باستمرار تدفق الاسلحة الحديثة ، وسياسيا بدعمها عالميا . فجميع المؤشرات تؤكد بان امريكا لن تطلب من اسرائيل ازالة مستوطناتها البشرية من الجولان وسيناء بما في ذلك المدينة الجديدة « يميت » شمال العريش او شرم الشيخ . ويمكننا ان نجزم بالرغم من كل الظواهر بان اسرائيل ستبقى دائما الشرطي الامين الذي سينفذ ما تمليه السياسة الامريكية . ولذا سوف ترفض امريكا ان تتبنى سياسة في المنطقة من شأنها ان تضعف الوجود السياسي او العسكري الاسرائيلي .

مما لا شك فيه ان سياسة امريكا العربية لا تختلف في جوهرها عن السياسة التي اتبعها الحزب الجمهوري السابق الا انها تختلف في بعض تفاصيلها وفي اخراجها . ستوجه هذه السياسة ضرباتها بالقطعة بدل ان تكون بالجملة . وفي النهاية ستحاول ان تفرغ المنطقة من مكتسباتها التاريخية باللين والحسن . هذا ما تسعى اليه امريكا وعلى الشعب العربي ان يعد العدة لمتابعة مسيرته التحررية رغم نكسات السنوات القليلة الماضية .

افريقيا ٧٧ .. الحتميات .. والاحتمالات

سمير كرم

السبعينات الافريقية

لم تعرف افريقيا فترة استقرار مستمر طويلة ، ولو نسبيا ، منذ اوائل الخمسينات حتى الان · فمنذ اوائل الخمسينات بدأت حركات التحرر الوطني والحركات الاستقلالية كما كانت تسمى انذاك ، تهز اركان الامبراطوريات الاستعمارية الكبيرة (البريطانية ، الفرنسية ، البلجيكية) · وبدأت هذه الحركات تجني ثمار النضال المسلح وغير المسلح مع اواخر الخمسينات ، واشتد عنفوان حركتها وتصاعدها في اوائل الستينات ، حيث كانت عبارة رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان ـ انذاك ـ « ان رياح التغيير تهب على افريقيا » · ثم اتسمت الستينات الافريقية ـ الى جانب نيل عدد كبير من الدول الافريقية استقلالها الوطني وبقاء جيوب قليلة العدد من المستعمرات ـ بسمتين اساسيتين : اولاهما بدء النضال المسلح في المستعمرات البرتغالية ، التي تأخرت عن باقي المستعمرات في القارة في وصول مضمار النضال المسلح لاسباب موضوعية عديدة · والثانية بدء سلسلة الانقلابات والانقلابات المضادة ، التي تعاقبت على الدول الافريقية الحديثة الاستقلال ، وكانت في جوهرها رد الفعل الامبريالي على « رياح التغيير » الثورية في افريقيا ، والوسيلة الى احلال الامبريالية الاميركية ـ بنمطها الاقتصادي في الاساس ـ محل الامبراطوريات القديمة التي تداعت في اواخر الخمسينات واوائل الستينات : البريطانية والفرنسية والبلجيكية ·

وفي بداية السبعينات ، نستطيع ان نلاحظ الامور التالية :

(١) كانت حروب المستعمرات البرتغالية قد بلغت ذروة خطيرة لم يبلغها النضال المسلح في افريقيا من قبل (باستثناء حرب التحرير الجزائرية) سواء من حيث استمراريتها في الزمن ، او من حيث التضحيات التي بذلها الطرفان فيها ، بشريا وماديا · وبدأت بوادر انهيار الامبراطورية البرتغالية ·

(٢) كانت سلسلة الانقلابات والانقلابات المضادة قد رتبت الاوضاع على نحو معين في عدد كبير من دول القارة يلائم الامبريالية الاميركية واساليبها في الهيمنة الاقتصادية (استثمارات تحكم القبضة على مناجم الثروة الطبيعية وتحدد في الوقت نفسه قنوات التجارة الافريقية ، استيرادا وتصديرا ، من خلال احتكارات محددة) ·

(٣) في الوقت نفسه كانت حركة التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي في دول القارة تأتي بتغييرات تتحدى النظم التي رتبت بوجودها تلك الاوضاع الملائمة للامبريالية ، مفشلة حركة الانفصال في «بيافرا» وتوطدت النظام الوطني في نيجيريا ، وتهاوى النظام الامبراطوري

الاقطاعي التقليدي في اثيوبيا • وصمدت الثورة الاجتماعية في غينيا بزعامة احمد سيكوتوري في وجه كل المحاولات الانقلابية (محاولات الغزو الامبريالي من الخارج ، وتدعمت النظم التحررية في تانزانيا والكونغو برازافيل) •

(٤) نمت قدرة النضال المسلح لدى حركات التحرر الوطني في الجنوب الافريقي (جنوب افريقيا وناميبيا) وفي روديسيا ، وهي الاقاليم الافريقية الثلاثة التي يسيطر فيها استعمار استيطاني ابيض •

وخلال النصف الاول من السبعينات فان ايقاع الاحداث بدأ اسرع كثيرا مما كان طوال الحقبة الماضية منذ اوائل الخمسينات • وبدا ذلك بشكل خاص منذ انهيار النظام الاستعماري في البرتغال تحت وطأة النضال المسلح الذي مارسته حركات التحرر الوطني في غينيا ـ بيساو والرأس الاخضر ، وفي موزمبيق ، وفي انغولا ، على الرغم من كل الدعم الذي قدمه حلف شمال الاطلسي ، عسكريا واقتصاديا لنظام الدكتاتور سالازار والدكتاتور كايتانو من بعده • وهكذا فان وقوع « حركة القوات المسلحة البرتغالية » ـ التي قادها ضباط شبان في اغلبهم ممن خدموا في حروب النظام الدكتاتوري واحتكوا بالثوار الافريقيين وافكارهم ، بقدر ما احتكوا بهم عسكريا ـ في نيسان (ابريل) ١٩٧٤ جاء بمثابة منعطف جديد في تاريخ افريقيا (كما في تاريخ البرتغال) • فبعد استقلال المستعمرات البرتغالية السابقة صار حصار التحرر الوطني مضروبا بصورة لم يسبق لها مثيل حول النظم الاستعمارية الباقية في روديسيا وجنوب افريقيا وناميبيا ، فضلا عن « ارتيريا » • ذلك ان استقلال موزمبيق وغينيا بيساو وجزر الرأس الاخضر ، واخيرا انغولا قد احدث تغييرا هائلا في الخريطة السياسية (والاستراتيجية) لافريقيا • ربما لا يقاس به اي تغيير منذ بداية الخمسينات •

والان ، ونحن نرصد نبض حركة الصراع في افريقيا ، وعلى افريقيا ، نلمس ان ايقاع التطورات يزداد بسرعة في الاشهر الاخيرة بصورة جعلت افريقيا مرة اخرى تعود الى بؤرة الاهتمام العالمي ، حتى لتكاد تستقطب الاهتمام دون كل مناطق التفجر الاخرى • خلال الاشهر الثلاثة الاولى فقط من العام الحالي تفاعلت عوامل عسكرية وسياسية وايديولوجية وطبقية ، وحتى قبلية ، لتصنع سلسلة من الاحداث السريعة المتعاقبة التي تبدو لاول وهلة وفي الظاهر وكأن لا رابط بينها : صراع السلطة داخل المجلس العسكري الحاكم في اثيوبيا واعدام عدد من اعضائه ، واشتداد قبضة رجل الحكم القوي منغستو هيلي ماريام ـ حوادث اوغندا حيث قامت محاولات متلاحقة غامضة لانقلاب ضد رئيسها عيدي امين ، ومصرع رئيس اساقفة اوغندا واثنين من الوزراء ـ فشل محاولة لغزو جمهورية « بينيه » (داهومي) ـ فشل محاولة انقلاب في تشاد ـ اغتيال الرائد ماريان انغوابي رئيس جمهورية الكونغو (برازافيل) واعدام الرئيس الكونغولي السابق الفونسو ماسيمباديبا لادانته بتدبير هذا الاغتيال ـ اضطراب الاوضاع الداخلية في زائير وتجدد النشاط المسلح لقبيلة « لوندا » في اقليم « شابا » (كاتانغا) •

فهل لا توجد ـ بالفعل ـ علاقة بين هذه الاحداث المتلاحقة ؟ واذا كانت ثمة علاقة ، فأيها يمثل المحور الرئيسي ؟ وبعبارة اخرى اين المكمن الرئيسي للصراع في افريقيا الان ، وسط هذه الاحداث المتعددة الجوانب والممتدة على نطاق بالغ الاتساع في القارة الافريقية ، من غربها الى شرقها الى جنوبها ؟ والواقع ان هذا التساؤل يكتسب اهمية في مدى حقيقة اجتذاب افريقيا في الفترة الاخيرة لنشاطات اقليمية ودولية ـ متعددة

الاطراف ايضا ، فيها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، والصين الشعبية وكوبا ، والمغرب ومصر والسودان ٠

ان من قبيل التبسيط الاعتقاد بان بالامكان الاجابة على السؤال عن دلالة ما يجري في افريقيا بالاستناد الى المعطيات المباشرة ـ الظاهرية ـ للاحداث ٠ فلا بد من رؤية ظواهر هذا الصراع على خلفية من التيارات التي يخلق تفاعلها في القارة ذلك الوضع المضطرب ؟ ولا بد من رؤية هذا الصراع من خلال الاطراف المكونة له ، سواء المحلي منها او الدولي ! ولا بد من رؤية هذا الصراع ايضا بهدف تحديد اتجاهه الرئيسي حتى لا يتوه التحليل في الثانويات والفرعيات ، ولا بد اخيرا من ان تؤدي مثل هذه الرؤية ـ لكي تكون لها جدوى عملية ـ الى تصور مستقبلي موضوعي ، او اقرب ما يكون الى الموضوعية في الحدود التي توفرها معطيات الحاضر وتجارب الماضي ٠



يمكننا ان نفصل الاسباب والعوامل المتداخلة وراء احداث القارة الافريقية الراهنة ، والتي تشكل التيارات المتفاعلة فيها ، في النقاط التالية :

اولا ـ المصاعب الاقتصادية الجمة التي تواجهها معظم الدول الافريقية المستقلة ٠

فقد حالت تلك الصعوبات دون تحقيق مستوى كاف من النمو الاقتصادي يحقق الامال والتوقعات التي واكبت الحصول على الاستقلال السياسي ٠ ان معظم الدول الافريقية قد دفع اقتصاديا ثمن الهيمنة الامبريالية على مصادر ثروته وعلى اسواقه من معدل نموه الاقتصادي (اجمالي الانتاج القومي ـ دخل الفرد الواحد ـ توفر المزيد من الوظائف باطراد الايدي العاملة الجديدة التي تدخل سوق العمل سنويا) ٠

ولقد قدرت « اللجنة الاقتصادية لافريقيا » ، التابعة للامم المتحدة انه من الضروري ان يرتفع دخل الفرد في دول القارة بنسبة ٣ في المائة سنويا ـ على الاقل ـ حتى تلبي هذه الدول ـ بصورة متواضعة ـ حاجات سكانها المتزايدين ٠ ولكن الواقع ان اقل من نصف عدد الدول الافريقية نجح في بلوغ هذه النسبة « المتواضعة » ٠ فان عدد الدول التي استطاعت خلال السنوات العشر الماضية بلوغ معدل نمو لدخل الفرد يساوي ٣ في المائة سنويا لم يتجاوز ١٨ دولة تشكل ٢٠ في المائة فقط من مجموع سكان دول القارة ٠ ومن باقي الدول ، فان خمسا تضم ٢٠ في المائة من السكان حققت نموا سنويا في دخل الفرد في حدود ٢ في المائة ٠ بينما بلغ هذا النمو في ٢٣ دولة افريقية تضم ٦٠ في المائة من سكان القارة اقل من ٢ في المائة ٠ واذا بقينا مع الارقام ودلالاتها الاقتصادية فاننا نجد ان معدل نمو اجمالي الانتاج القومي لاجمالي دول القارة بلغ حوالي ١ في المائة فقط سنويا خلال السنوات العشر الماضية ، وكان الوضع افضل خلال السنوات العشر الاسبق ٠

وتشكل البطالة احدى المشكلات المزمنة ، وبالتالي احد عوامل الاضطراب في كثير من الدول الافريقية ٠ ومما يزيد من تعقيدها ان نسبة عالية من العاطلين في دول افريقيا هي من بين الافراد الاوفر حظا من التعليم ، والاكثر تركزا في المدن الكبرى ٠ مع ملاحظة ان الزيادة في تعداد سكان المراكز الحضرية (المدن) في افريقيا هي في معظم الاحيان ضعف الزيادة السكانية العامة ٠ وقد تصل الى اربعة او خمسة امثال تلك الزيادة ٠ وعدا استثناءات قليلة فان الزيادة في تعداد سكان المدن تتركز اساسا في العواصم ٠

ثانيا ـ الاختلال الكبير في توزيع الثروة ٠ فحتى في الدول التي حققت خلال السنوات العشر الماضية معدلا معقولا للنمو الاقتصادي (مثل نيجيريا وزائير وكينيا) كان توزيع

الدخل القومي مختلا بدرجة كبيرة ، حتى انه ادى في حالة زائير الى التاثير سلبيا على معدل النمو الاقتصادي في الفترة الاخيرة ٠

ان معظم حكومات القارة ـ وخاصة تلك التي لا تسير على خطة اقتصادية شاملة ـ تعطي اولوية كبيرة للقطاع الحديث من الاقتصاد ، وهو قطاع ينحصر في المناطق الحضرية، اكثر بكثير مما تعطي للقطاع الزراعي الذي يضم ٨٠ في المائة من السكان ، والذي يأتي منه النصيب الاكبر من رأس المال المحلي ٠ وهذه السياسة لا تحرم القطاع الزراعي من الاستثمارات المطلوبة لتطوير انتاج وتسريع نمو رأس المال المحلي فحسب ، بل انها ـ ايضا ـ تشجع التدفق البشري من المناطق الريفية الى المدن ٠ وقد اصبحت الهوة الفاصلة بين مستوى حياة المناطق الريفية والمناطق الحضرية في دول افريقيا واسعة « الى حد مؤلم » حسب تعبير مراسل غربي تخصص في الشؤون الافريقية هو البريطاني كولين ليغسوم (الاوبزرفر) ـ الذي لاحظ ان الرئيس جوليوس نيريري رئيس جمهورية تانزانيا هو الزعيم الافريقي الوحيد الذي مضى إلى ابعد الاشواط في محاولة الحفاظ على سلم اولويات اقتصادية ملائم يثور على سلم الاولويات التقليدي ٠ وقد ترك اثرا عميقا لدى الشباب الافريقي في معظم بلدان القارة ٠

والتفاوت الكبير في توزيع الثروة ليس قاصرا على ذلك القائم بين القطاع الريفي والقطاع الحضري ، وانما هو يمتد الى داخل كل من القطاعين ، وبصورة خطيرة اثارت وتثير صراعات طبقية حادة في معظم بلدان القارة وان كانت هذه الصراعات تتخذ في بعض الاحيان مظاهر غير طبقية على السطح ٠ (ومثال احداث زائير الاخيرة ـ كما سنرى ـ هو نموذج واضح لانعكاسات التناقضات الطبقية الحادة داخل المجتمع) ٠

ثالثا ـ التفتيت الاقليمي الحاد للقارة ٠ فان افريقيا هي اكثر قارات العالم معاناة من عملية « البلقنة » ، التي تلعب فيها العوامل القبلية والدينية والعنصرية والتاريخية ادوارا متداخلة ومتفاوتة ٠

ان سكان قارة افريقيا البالغ مجموعهم حوالي ٣٥٠ مليون نسمة موزعون بين ٥٤ بلدا (تشمل البلدان المستقلة والتابعة) ٠ ولكن يلاحظ ان اكثر من ثلث هؤلاء السكان يتركز في ثلاث دول كبيرة هي نيجيريا ومصر واثيوبيا ٠ وثلث اخر يتركز في ثماني دول تالية في الحجم لهذه الدول الثلاث (هي زائير ، جنوب افريقيا ، السودان ، الجزائر ، المغرب ، تانزانيا ، كينيا ، وغانا) ٠ اما باقي سكان القارة ـ حوالي ١٠٠ مليون نسمة ـ فانهم موزعون بين ٣٩ بلدا ٠ وبين هذه البلدان فان ١٤ فقط تضم عددا من السكان يتراوح بين ٣ ملايين و ٦ ملايين نسمة ٠ اما باقي بلدان القارة ـ ٢٥ بلدا ـ فان كلا منها لا يتجاوز عدد سكانه المليون نسمة ٠

الحقيقة الاساسية التي تكشفها هذه الارقام هي قصور البنية السياسية لمعظم دول القارة عن المستوى الضروري لتطوير نظام اقتصادي كفوء وتطوير نظام امني فعال ٠ ويزيد من تفاقم هذا الواقع ان معظم سكان القارة منتشرون على مساحات تربو على مساحات عدة دول صناعية مجتمعة ٠ وفي مثل هذا الوضع يسود الفقر ، ويسود عدم الاستقرار ، وبالتالي يسود انعدام الامن ٠

وربما نلاحظ وجود اتجاه ـ منذ وقت ليس بقصير ـ نحو التكامل الاقتصادي الاقليمي ٠ ولكن هذا الاتجاه بدوره ليس خاليا من الصراعات والعداءات القبلية ، فضلا عن خضوعه لاعتبارات الهيمنة الاقتصادية الامبريالية التي لا تتوجه ، بطبيعة الامور ، نحو

تحقيق المصالح الاقتصادية المباشرة للبلدان الافريقية ، وانما نحو تحقيق المصالح الاقتصادية الاجنبية · وبما تنطوي عليه محاولات التكامل الاقتصادي الاقليمية من تناقضات (كما هو الحال بالنسبة للتكامل الاقتصادي بين دول شرق افريقيا : تانزانيا وكينيا واوغندا) فان هذا الاتجاه نفسه ينطوي على احتمالات توتر وصدام بين دول افريقية متجاورة ، وهو ما حدث فعلا ـ على سبيل المثال ـ بين كينيا واوغندا · في هذا المجال تنشأ مشكلات تتعلق بتوزيع مصادر الطاقة (كالمياه) او بتحديد المياه الاقليمية او الحدود (خاصة حيث احتمالات وجود ثروة معدنية كالنفط ـ كما هو الحال في النزاع على تحديد المياه الاقليمية بين ليبيا وتونس) ·

رابعا ـ انهيار وحدة الاحزاب السياسية التي قادت النضال الاستقلالي في المراحل السابقة في عدد كبير من دول القارة ·

ان الاحزاب والقوى السياسية التي برزت على رأس البنى السياسية في الدول الافريقية عند حصولها على استقلالها قد اصيبت بتصدع خطير ـ ربما لاسباب او نتيجة للمؤامرات الخارجية والانقلابات ـ زعزع مكانتها او قضى على دولها في الحياةالسياسية لتلك الدول· الامر الذي اثر على التوجه الوطني التحرري فيها · لقد كانت القوى السياسية التي ناضلت من اجل الاستقلال وتسلمت السلطة في الدول الافريقية لدى استقلالها ـ في معظم الاحوال ـ جبهات متحدة من احزاب وتنظيمات متعددة يجمع بينها في الاساس هدف واحد ، هو هدف تحقيق الاستقلال · الامر الذي ادى الى بزوغ الخلافات الايديولوجية والاجتماعية بينها بعد ان تحقق الهدف الذي كان يجمع بينها قبل الاستقلال · وهكذا طفت على السطح التناقضات والخلافات في المصالح والاماني القبلية والاقليمية والايديولوجية والاقتصادية · وتصاعدت فعليا ـ في بعض البلدان ـ الى حد الصدام الدموي · وهكذا ظهر صراع السلطة كعامل خطير في استقطاب القوى وزيادة حدة انقسامها بين قوى محافظة وقوى « راديكالية » · (وهنا ايضا يبرز نموذج احداث زائير الاخيرة) ·
وفي الحالات التي نشأت فيها عن صراع السلطة توازنات جديدة بين القوى فقدت السلطة الحكومية فاعليتها ، وافضت هذه النتيجة بدورها ـ في عدد من دول القارة الى صعود العسكريين الى السلطة ·

وفي هذا الصدد يلاحظ ايضا ان عددا كبيرا من الدول الافريقية قد اخفق في تحقيق استقرار دستوري مما فجر بصورة حادة مشكلة الديمقراطية في تلك الدول · فان هذه الدول لم تصل الى وضع دستور دائم يكفل وجود مؤسسات تمارس السلطة في اطر محددة ، وفشلت بالتالي في تنظيم العلاقات القبلية والاقليمية والعرقية بما يكبح صراعاتها· وكانت النتيجة بروز مجموعات ضاغطة (مراكز قوة) متنافسة تعتمد على اعتبارات قبلية او اقليمية او دينية · وفي معظم هذه الحالات برزت « مجموعات نخبوية » حققت لنفسها مراكز وامتيازات تثير بدورها صراعات مضاعفة · والاصل في نشأة « المجموعات النخبوية» في معظمه ناشيء عن برامج التحديث غير المدروسة وذات الاولويات الرافضة او غير الملائمة للواقع الموضوعي في المجتمعات الافريقية · وتكاد هذه الظاهرة ان تكون شاملة لجميع بلدان افريقيا ، وان اسفرت عن صراعات حادة ومكشوفة في بعضها فقط ·

خامسا ـ استمرار المشكلات المزمنة الموروثة عن التقسيمات الاقليمية التي صنعتها الامبراطوريات الاستعمارية دون ان يكون لها اساس موضوعي ـ تاريخي او جغرافي والتي تركت « نقاط توتر » في انحاء عديدة من القارة منذ استقلال الدول ·

فمشكلات الحدود بين الصومال وكينيا ، وبين الصومال واثيوبيا ، ومشكلة « ارتيريا » . ومشكلة الصحراء الغربية ، ومشكلة الحدود بين تشاد وليبيا ، ومشكلة « جيبوتي » (عفاروعيس) هي من نوع المشكلات المزمنة التي تضغط على حكومات الدول الافريقية ، وتجبرها في كثير من الاحيان على اتخاذ مواقف وسياسات متناقضة مع مواقع تلك الحكومات التحررية والتقدمية ، ففي مشكلة ارتيريا مثلا نجد حكومة الثورة في اثيوبيا تنتهج ازاءها سياسة استعمارية لا تختلف اطلاقا عن سياسة نظام الامبراطور هيلاسلاسي الساقط ، في حين ترفع السلطة العسكرية الجديدة ـ فيما عدا ذلك ـ شعارات تقدمية ، وتنتهج سياسات معادية للامبريالية ومتطلعة الى التغيير الاجتماعي داخل اثيوبيا ·

سادسا ـ تدهور مستوى المؤسسات ، الناتج بدوره عن عدم الاستقرار الدستوري والسياسي ·

لقد اصاب عددا كبيرا من الدول الافريقية فساد خطير في مؤسساتها واجهزتها جعلها عرضة للانقلابات الناجمة عن السخط على الاوضاع الفاسدة وظهور الفئات المميزة · وتكتسب هذه المشكلة ابعادا اشد خطورة في البلدان الافريقية التي تعاني من وجود نزعات انفصالية ، على اسس قبلية او دينية ··· الخ · فان عجز المؤسسات والاجهزة الناتج عن الفساد الداخلي ينعكس في اخطر صوره على عدم القدرة على مواجهة هذه الانقسامات بسلطة مركزية قادرة ، وفي احوال اخرى تلجأ السلطات الى اسلوب القسر والقمع ، الذي يؤدي بدوره الى تجذير التطرف لدى الحركات الانفصالية او المتحررة حتى وان خمدت ـ تحت الضغط ـ لبعض الوقت · (امثلة : جنوب السودان ، شمال تشاد) ·

سابعا ـ الشعور الافريقي العام بعدم اكتمال الاستقلال الافريقي بمعناه القاري العام ، اي ضغط استمرار وجود النظام العنصري في كل من جنوب افريقيا وناميبيا وروديسيا على « الوعي الافريقي » او « الوعي الاسود » (كما يسميه الكتاب الغربيون !!) ·

وقد ازداد هذا الشعور حدة بعد استقلال المستعمرات البرتغالية الافريقية · اذ اصبح وجود هذه الجيوب الثلاثة للحكم العنصري « الابيض » استثناء صارخا يشعر القارة كلها بنقص الاستقلال ، ونقص التوجه الوحدوي المتمثل في قيام منظمة الوحدة الافريقية ودورها وممارساتها · ان المشاعر التي يثيرها استمرار الحكم العنصري في القسم الجنوبي من القارة يجعل كل نظام قائم في مواجهة تحد كبير لا بد من اتخاذ موقف عملي منه امام شعوب القارة · ان انتصار الثورة المسلحة في المستعمرات البرتغالية قد ولد شعورا بعدم استحالة القضاء على النظم العنصرية في جنوب افريقيا وناميبيا وروديسيا ، ووضع على كاهل كل النظم الافريقية مسؤولية تحقيق هذه الامكانية بالوقوف الى جانب القوى التي تقود النضال المسلح داخل هذه البلدان الافريقية الثلاثة · كما زاد من مسؤولية هذه القوى المحلية نفسها بقدر ما شجعها · وهو موقف جديد تحاول النظم العنصرية الالتفاف من ورائه عن طريق التظاهر الزائف بالاعتدال والاستعداد للتفاوض مع الدول الافريقية المحيطة ، او الاعتدال الشكلي في ممارساتها العنصرية داخل البلدان الواقعة تحت سيطرتها ·

ثامنا ـ تضاعف اعراض انعكاسات الصراعات الدولية الكبرى على الواقع الاستراتيجي والاقتصادي والسياسي لافريقيا ·

ففي الوقت الذي تستمر فيه الامبريالية (الرأسمالية العالمية) ـ بعد نحو عشرين عاما من حركة الاستقلال السياسي الجماعية في افريقيا ـ في فرض هيمنتها الاقتصادية بكافة

الوسائل على بلدان القارة ، وخاصة تلك التي تتمتع بثروات طبيعية كبيرة ، والتي تمثل اسواقا واسعة لمنتجات العالم الرأسمالي ، تجد القوى الثورية في القارة نفسها مضطرة لفك الحصار المضروب عليها في القارة - من قوى رجعية افريقية ومن قوى امبريالية عالمية - عن طريق مد جسور العلاقات مع الكتلة الاشتراكية في المجالات الاقتصادية والسياسية وكذلك الدفاعية . وهو تطور لا يشعر القوى الامبريالية - القديمة والجديدة - بالاطمئنان الى استمرار هيمنتها الاقتصادية على الاقل ، ويدفعها الى المواجهة باساليب الضغط الاقتصادي او الانقلابات العسكرية او اثارة الاشتباكات والصدامات الحدودية ... الخ .

وتشهد الفترة الاخيرة انعكاسا اخر لما يسمى بالصراعات الدولية ، ونعني به اثر النزاع السوفياتي الصيني على السياسات الافريقية ، سواء على مستوى الحركات التحررية (وما تعانيه من انقسامات ايديولوجية) او على مستوى النظم الحاكمة .

تاسعا - تضاعف انعكاسات الصراع العربي - الصهيوني على ساحة القارة الافريقية - سياسيا واقتصاديا في الاساس .

فاكثر من اي وقت مضى سارت تطورات اهتمام افريقيا بالصراع العربي - الصهيوني نحو تصاعد جدي له انعكاسات على مواقف حكومات القارة ، التي اصبحت توائم مواقفها ليس فقط بحساب المصلحة المباشرة باحد طرفي هذا الصراع ، وانما بصورة اعقد بقدر ما تخضع له من ضغوط الاطراف الدولية الابعد الحليفة لاحد الطرفين المباشرين . ويزيد من تعقيد الامر ان الصدامات تزداد حدة في بعض الاحيان بين الاطراف العربية الافريقية فيما بينها (امثلة : ليبيا - مصر ، ليبيا - تونس ، الجزائر - المغرب) او بين اطراف عربية افريقية واطراف افريقية غير عربية (ليبيا - تشاد ، الصومال - اثيوبيا ، السودان - اثيوبيا) الامر الذي لا يعطي في افريقيا انطباعا واضحا بوحدة الموقف العربي ، ويسمح بالتالي بالمناورة على هذه الخلافات فيما يتعلق بالموقف من الكيان الصهيوني (اسرائيل) .

وفي هذا المجال لا تخفى حقيقة التحالفات بين الكيان الصهيوني والنظام العنصري في كل من جنوب افريقيا وروديسيا ، وكذلك دور الكيان الصهيوني في جنوب السودان في السنوات الماضية ، وضد نظام عيدي امين في السنوات الاخيرة . فلم يكن القصد من هذه التحالفات بعيدا عن اعتبارات الصراع العربي - الصهيوني ، ولم يكن بعيدا بالمعنى نفسه عن اعتبارات الصراعات الافريقية .

هذه العوامل منفردة ومجتمعة تعمل تاثيراتها في احوال القارة في اتجاهين متناقضين . فهي تخلق حالة الاضطراب وعدم الاستقرار التي تعيش فيها افريقيا ، وهي في الوقت نفسه تسهم في نمو وازدياد قوة الصفوف الثورية في بلدان القارة . فان هذه العوامل هي التي تشكل التيارات الدينامية لصراعات القوى المختلفة في افريقيا . ولهذا لا تخلو اي منطقة في افريقيا اليوم من نشاط ثوري ، اما يمارس من خلال سلطة ثورية حاكمة . واما يتحدى سلطة مؤسسة بالفعل . وهذه العوامل - مجتمعة - تشكل الخلفية التي تقدم عليها الحركة الثورية في القارة الافريقية ، وبدون رؤية هذه الخلفية لا يكون بالامكان معرفة المسارات التي تسير فيها احداث القارة ، بما فيها احداث الصراعات والثورة .

انغولا .. النقطة المحورية

والتطور الاحدث الذي يبرز فوق هذه الخلفية العريضة المتعددة العناصر والمتباينة الظلال هو التطور المتمثل في استقلال انغولا وانتصار « الجبهة الشعبية لتحرير انغولا » ،

في المعركة الاخيرة على السلطة الواحدة لانغولا المستقلة ـ ويلاحظ ان معظم الصراعات البارزة الدائرة الان في القارة تتقاطع طرقها جميعا عند انغولا من ناحية او اخرى ٠ فالموقف الراهن في زائير وثيق الصلة بمركز انغولا الجغرافي ، والجغرافي السياسي (الجيوبولوتيكي) والسياسي والاقتصادي وكذلك الايديولوجي ٠ ورؤية الاطراف المختلفة المعنية باصوات زائير اتية كلها عبر انغولا وتاثيراتها على تطور تلك الاحداث ٠

كذلك فان اشتداد حدة الصراع ضد النظام العنصري في جنوب افريقيا متصل بموقع انغولا الاستراتيجي والتحرري بحكم متاخمتها لاقليم ناميبيا ، الذي يكاد يجمع المختصون بشؤون الجنوب الافريقي ان المعركة ضد ذلك النظام العنصري ستبدأ بتحريره اولا قبل ان تمتد الى قلب جنوب افريقيا نفسها ٠

وعلى الرغم من انه لا توجد حدود اقليمية مشتركة بين انغولا وروديسيا الا انه من المسلم به ان الدعم الذي يمكن ان تقدمه انغولا الى منظمات النضال المسلح لشعب « زيمبابوي » (روديسيا) تستطيع ان تعبر زامبيا اليها ٠ فضلا عن ان توطد اركان نظام الرئيس الانغولي « اغوستينو بنتو » (الماركسي اللينيني) يدعم نظام الرئيس « سامورا ماستيل » رئيس جمهورية موزمبيق (الماركسي اللينيني ايضا) ٠ وموزمبيق هي قاعدة الانطلاق الاساسية لثوار « زيمبابوي » ضد النظام العنصري بزعامة ايان سميث ٠ كما انه يشكل دعما للنظام الماركسي اللينيني الحاكم في جمهورية الكونغو الشعبية (برازافيل)٠

وانغولا ـ بالاضافة الى هذا وذاك ـ تعني النفط ، الى جانب عدد كبير من الثروات المعدنية الاخرى الهامة ، ومصادر الطاقة ، وطريق العبور الوحيد الى المحيط بالنسبة لعدد من الدول المحيطة (وخاصة زائير) ، وبالنسبة ايضا لعدد من دول الغرب ٠

وانغولا ـ بعد ذلك ـ اصبحت ، في نظر الغرب الامبريالي ، قاعدة لتواجد عسكري شيوعي (كوبي) وتواجد سياسي شيوعي (كوبا والاتحاد السوفياتي) ، الامر الذي جعلها هدفا لخطط الامبريالية ، وخاصة الولايات المتحدة وفرنسا وبلجيكا ، وهما الدولتان اللتان لا تزالان تتمتعان بمصالح وامتيازات اقتصادية ضخمة في عدد من الدول المحيطة التي يشكل النظام الثوري في انغولا في نظرها خطرا وشيكا ٠ وقد بدأ الغرب يتحدث ـ بصوت عال ـ في الفترة الاخيرة عن مخاوفه من انطلاق الدعم الكوبي من انغولا الى دور جديد في معركة قادمة في زائير او في روديسيا ٠

وانغولا ـ نتيجة ـ لكل العوامل السابقة ـ هي محطة الفشل الاميركي الذريع الاول في افريقيا ٠ فقد كانت معركتها الاخيرة ـ بظروف المشاركة النضالية من جانب كوبا فيها ـ اول ميدان وجدت الولايات المتحدة نفسها مدعوة الى التدخل المباشر عسكريا فيه ، ولكنها احجمت٠ فقد كان ذلك «اول اختبار فيفترة ما بعد فيتنام » ، على حد تعبير معلن اميركي John Marcum , Lessons of Angola , Foreign Affairs Vol . 54 , No . 3

لهذه الاسباب لا يمكن التوصل الى فهم متكامل لما يجري الان على الساحة الافريقية ـ ومعظمه كما اوضحنا يتمحور من قريب او بعيد حول انغولا ـ دون ان نعرف : كيف كانت نتائج الصراع الذي دار في انغولا ٠٠ والى اي مواقع انتهت اطرافه عندما حققت « الجبهة الشعبية » انتصارها ؟؟

اولا : بالنسبة للاطراف المحلية ـ اي الاطراف الانغولية البحتة ـ في الصراع :

● **الجبهة الوطنية لتحرير انغولا** (F.N.L.A.) التي يتزعمها هولدن روبرتو ٠ وتتشكل

في الاساس من رجال قبيلة « باكونغو » ، انكمشت الى داخل اراضي زائير في معظمها بعد هزيمتها العسكرية امام قوات « الجبهة الشعبية » ، وبعد ان ضعف نفوذها العسكري حتى في مناطق قبيلة « باكونغو » بسبب عمليات التصفية التي قامت بها قيادتها الحالية ضد المختلفين معها داخل الجبهة وبين مؤيديها ، وبسبب علاقة التبعية التي ربطت تيارات هذه الجبهة بالنظام القائم في « زائير » ، حتى وصفها المعلق الاميركي « جون ماركوم » (المصدر المذكور) بانها « اصبحت مع مرور الوقت ، والى حد كبير — امتدادا او فرعا للسياسة الزائيرية » · وهنا تجدر الاشارة الى « زواج المصلحة » الذي تم بين زعيم هذه الحركة « هولدن روبرتو » وشقيقة زوجة الرئيس الزائيري « موبوتو » · وتجدر الاشارة ايضا الى ان « روبرتو » لم يدخل انغولا على الاطلاق طوال الاعوام الثلاثة عشر التي استغرقها النضال المسلح ضد الاستعمار البرتغالي ، بينما كان « نيتو » واركان حرب قوات « الجبهة الشعبية » يقومون بزيارات عديدة للمناطق المحررة ويقيمون اتصالات مع الشعب الانغولي ، ويمارسون العمل السياسي في صفوفه ، ويشاركون في العمل العسكري بالتخطيط والتنفيذ على الطبيعة ·

كانت عمليات « الجبهة الوطنية » تنطلق منذ سنوات القتال ضد البرتغاليين من « قواعد آمنة في المنفى » ، ولم تهتم باي درجة بمسائل التثقيف السياسي او التنظيم او التخطيط الاستراتيجي · وخلال السنوات ١٩٦٤ الى ١٩٧٠ تعرضت هذه الجبهة لسلسلة عمليات تمرد وهروب من داخل صفوفها ادت الى تركيز تركيبها القبلي في قبيلة « بوكونغو » واضعفت مكانتها « الوطنية » ، مما دفعها أكثر فاكثر للاندماج في النسق السياسي الزائيري · وفي تلك الظروف كان فشلها العسكري امام « الجبهة الشعبية » محصلة طبيعية لواقعها في السنوات الاخيرة · وموقفها الراهن هو محصلة للاثنين معا : الواقع العملي والسياسي مضافا اليه الفشل العسكري ·

● **الاتحاد الوطني للاستقلال التام لانغولا (U.N.I.T.A.) ويتزعمه « يوناس سافيمبي »** · وقد نشأ هذا الاتحاد عن انقسام حدث في العام ١٩٦٤ في صفوف « الجبهة الوطنية » وكان وراء انقسامه عامل اساسي هو العامل القبلي ، اذ ان معظم المنتمين الى « يونيتا » هم من رجال قبيلة « اوفيمبوندو » التي تسكن في منطقة سهل « بنغيلا » في وسط انغولا · وكان « سافيمبي » نفسه قبل الانقسام مساعد « هولدن روبرتو » العسكري ·

فقدت حركة « يونيتا » قاعدة عملياتها الرئيسية في اراضي « زامبيا » في العام ١٩٦٧ بسبب خلافات اقحمت نفسها فيها مع سياسة النظام القائم في زامبيا · واضطرت الى الانتقال الى الداخل عسكريا ، بينما نقلت نشاطها السياسي الى لندن (بواسطة مكتب اعلامي) · وانتهج « سافيمبي » خلال تلك الفترة سياسة « الاعتماد على النفس » ،حتى فيما يتعلق بالتسليح عبر جعل العدو المصدر الرئيسي للسلاح · وكانت تلك تاثيرات واضحة لتأييد صيني لهذه الحركة ، امام تأييد ودعم سوفياتي للجبهة المنافسة ، « الجبهة الشعبية »· الامر الذي اندفع « سافيمبي » معه الى حد شن حملات على « التحريفية الجديدة » ومهاجمة الاتحاد السوفياتي بصورة مباشرة · ومع ذلك فان « يونيتا » وصلت الى حالة من الضعف والعزلة العسكرية والسياسية الى حد انها اضطرت في بعض الظروف للاعتماد على البرتغاليين ، والى حد التواطؤ معهم ضد « الجبهة الشعبية » لحماية نفسها من الابادة الكاملة · (كان قد اصبح لـ « يونيتا » في شرق انغولا ، حيث اهم مواقع الصدام مع البرتغاليين ٨٠٠ مقاتل فقط مقابل ٤٥٠٠ « للجبهة الشعبية » ·

وفور انهيار الحكم الاستعماري البرتغالي في العام ١٩٧٤ تخلت « يونيتا » عن «التطرف

الخطابي » وانتهجت « خطا معتدلا » ضروريا للتكيف مع الظروف الجديدة ، اعتقادا من « سافيمبي » ان هذا يقربه اكثر الى النظام البرتغالي الجديد · في حين ان « حركة القوات المسلحة البرتغالية » ـ التي تسلمت السلطة في اواخر نيسان ١٩٧٤ ـ كانت اكثر تعاطفا والتقاء ـ ايديولوجيا ـ مع اهداف وبرنامج « الجبهة الشعبية » ، وذلك بحكم الميول اليسارية الماركسية بين ضباط الحركة البرتغالية الثورية · وبحكم صلات قديمة استمرت بين « اغوستينو نيتو » زعيم الجبهة الشعبية واليسار البرتغالي الناهض للنظام ·

ونتيجة لهذا « الاعتدال » فان « يونيتا » استطاعت ان تحصل على تأييد الاوروبيين المستوطنين في انغولا اكثر مما حصلت على تأييد من الشعب الانغولي نفسه · وعندما حققت « الجبهة الشعبية » انتصاراتها الحاسمة في القتال ضد « يونيتا » و « الجبهة الوطنية » كان اولئك المستوطنون قد فروا بشكل جماعي ·

وبطبيعة الحال فان الفشل العسكري للجبهة الوطنية وحركة « يونيتا » معا في مواجهة الجبهة الشعبية قد جمع بينهما وحولهما الى حركتين انفصاليتين ، الا ان التناقضات القبلية القائمة بينهما تظل قائمة ، وتظل قائمة ايضا علاقاتهما الخارجية السابقة · ولكن تبقى حقيقة ان « الجبهة الوطنية » اقدر الحركتين من الناحية العسكرية ، وان تكن « يونيتا » اقوى سياسيا بحكم انتمائها لقبيلة « اوفيمبوندو » التي يربو تعدادها داخل انغولا على مليوني نسمة ·

وقد اثار الخلاف بين الحركتين ـ رغم تضامنهما في وجه الحركة المنتصرة ـ تباين مواقف « الاطراف الخارجية » ازاءهما · فمثلا عندما قررت الولايات المتحدة مساعدة « الجبهة الوطنية » ماليا وعسكريا ، على نحو بدا معه على اعضائها انهم ينفقون في « زائير » عن سعة · بينما حجبت الولايات المتحدة مساعدتها عن « يونيتا » · وكان هولدن روبرتو قد تمكن قبل ذلك ـ وبمساعدة اميركية ايضا من شراء اكبر صحيفة يومية في العاصمة الانغولية « لواندا » وهي صحيفة A Provincia de Angola ، واشترى ايضا محطة تليفزيون ، على اساس ان تكون قاعدة لغزو العاصمة اعلاميا · وهو ما لم يصمد في وجه رسوخ التأييد الذي تتمتع به الجبهة الشعبية في « لواندا » بحكم الانتماء القبلي ، ثم بحكم توفر الاسلحة الاقوى في ايدي مقاتليها ، وبحكم تفوق قوة نفوذها في المدن على الحركتين الاخريين ·

ثانيا ـ بالنسبة للاطراف الخارجية

● **زائير** : يمكن القول بانه بعد ان حسم الموقف في انغولا لمصلحة « الجبهة الشعبية » ـ رغم مساعدة « زائير » للحركتين المنافستين لها ، بل وتدخل قوات زائير مباشرة في عمليات عسكرية في اراضي انغولا ضد قوات الجبهة الشعبية ـ كان الرئيس الزائيري « موبوتو سيسي سيكو » اكثر الاطراف الخارجية ادراكا لخطر الاستمرار في صراع مع السلطة الجديدة في انغولا ·

ذلك لان زائير ـ رغم وزنها الكبير الجغرافي والاقتصادي في قلب القارة الافريقية ـ لا تملك مخرجا الى المحيط ، الاعلى خط سكك حديد « بنغيلا » الذي يحمل صادرات وواردات زائير عبر اراضي انغولا الى ميناء « لوبوتو » · واصبحت تلك ضرورة اقتصادية ملحة منذ ان اغلقت حكومة موزامبيق التقدمية حدودها مع روديسيا ، التي كانت البديل الوحيد عن ميناء « لوبيتو » ·

كما ان نظام الرئيس « موبوتو » في حاجة للاتفاق مع النظام الجديد في انغولا بشأن جندرمة « كاتانغا » السابقين المتمردين ضد حكمه ، والذين لجأوا الى اراضي انغولا منذ عهد الاستعمار البرتغالي ، وخدموا ضد حركات التحرر الوطني الانغولية في صفوف البرتغاليين ، ثم حيدهم انتصار « الجبهة الشعبية » في النهاية • كان نظام موبوتو في حاجة الى تعهد انغولي بعدم مساعدة جندرمة كاتانغا في اي عمل ضده •

لهذين السببين الرئيسيين لم يتردد « موبوتو » كثيرا في قبول وساطة الرئيس ماريان انغوابي رئيس جمهورية الكونغو الشعبية (برازافيل) في شهر اذار (مارس) ١٩٧٦ للجلوس الى مائدة المفاوضات مع الرئيس الانغولي اغوستينو نيتو • وتم فعلا التوصل الى اتفاق بينهما على هاتين النقطتين ، وعلى ان تكف « زائير » عن تقديم اي دعم لحركتي « الجبهة الوطنية » و « يونيتا » فينشاط حرب العصابات الذي يمارسانه ضد حكومة انغولا وضد القوات الكوبية • (وربما يثير هذا الامر علامات استفهام عديدة حول الايدي وراء اغتيال الرئيس الكونغولي انغوابي !!) •

والاحداث التي مرت منذ توصل « موبوتو » و « نيتو » الى هذا الاتفاق تحمل دلالات واضحة •

لقد تفاقم الموقف الداخلي في « زائير » لاسباب اقتصادية وسياسية وقبلية يعترف بها الجميع • فبعد ان بلغت الاسعار العالمية للنحاس (المصدر الرئيسي والاكبر لدخل زائير) ذروتها في اوائل العام ١٩٧٤ بصورة انعشت اقتصادها كثيرا ، عادت فانخفضت بصورة ذريعة ، في وقت كانت فيه سياسة « موبوتو » الاقتصادية تبدد دخل البلاد على مشروعات ترفيه تفيد « موبوتو » شخصيا ومجموعة قليلة طفيلية وتجعل من نظام « زائير » ـ على حد تعبير ديفيد لامب مراسل صحيفة « انترناشيونال هيرالدتريبيون » ـ « واحدا من اكثر النظم الحاكمة في افريقيا سفورا في فساده • لقد حول (موبوتو) ما يكفي من ثروة ابناء وطنه الى ارصدة خاصة به ليصبح واحدا من اغنى الرجال في العالم • وخلق طبقة فائقة الثراء Super-rich من التوابع ذوي الاذواق الفجة » •

وخلال السنوات الثلاث الماضية وسفينة الاقتصاد الزائيري تواصل الغرق الى قاع الافلاس ، حيث تطبق عليها ضائقات اقتصادية بلغت معها جملة ديونها الخارجية ، خلال هذه الفترة القصيرة ، اكثر من ثلاثة مليارات دولار • وعلى الرغم من « حقيقة » المساعدات التي يتلقاها نظام « موبوتو » من الغرب فان صحة الاقتصاد الزائيري في تدهور مستمر • فالانتاج اخذ في الانخفاض ، والخدمات الاساسية ذات التأثير الاقتصادي ـ كالنقل والاتصالات ـ في تدهور سريع ، والجماهير الفقيرة تعاني نقصا خطيرا في امدادات الغذاء رغم وفرة الارض الخصبة القابلة للزراعة • وبلغ من تدهور الاحوال الى حد ان « موبوتو » بدأ برنامجا لاعادة الصناعات والمشروعات المؤممة الى اصحابها السابقين البلجيكيين ، وكان هو نفسه الذي امم هذه المشروعات ، ولكنه اهداها الى اصدقائه بعد التأميم •

ووسط هذا المناخ الاقتصادي امتد السخط الى صفوف الجيش الزائيري الذي يعاني ضباطه وجنوده من الفقر الشديد ، بعد ان اكتسح السخط قطاعات عريضة من الشعب الزائيري تحت وطأة الفقر والفساد الحكومي • ويمكن التأكيد بأن هذا المناخ هو الذي اعطى كل انطباع للقوات المناهضة لنظام موبوتو بان الوقت قد اصبح ملائما للتحرك ضده، اذ اصبحت حقيقة اهتزاز هذا النظام شائعة ليس في زائير وحدها ، بل في كل الدول

الافريقية المحيطة ، حتى ان مراسل مجلة « تايم » الاميركية كتب في ١١ نيسان (ابريل) يتساءل : « **هل سيصبح موبوتو سيسي سيكو حاكم زائير الاوتوقراطي عاجلا رئيسا في المنفى ؟** » ويقول المراسل نفسه ان هذا الاحتمال اصبح مدار بحث الدبلوماسيين الغربيين في كينشاسا في الاسبوع الماضي بينما كان الكاتانغيون المنفيون ـ الذين يتراوح عددهم بين الفين وخمسة الاف ـ يغزون اقليم « شابا » (كاتانغا) ويواصلون اكتساب الارض بسهولة ·

ان هؤلاء الغزاة ينتمون اساسا الى قبيلة « لوندا » المنتشرة في وسط افريقيا والتي يعرف رجالها بانهم من اصلب المحاربين منذ زمن بعيد · وقد استقبلوا بترحيب وحماس من سكان قرى « شابا » ، بينما كانت قوات جيش « موبوتو » ـ التي تتحدث لغة «لينغالا » ، اللغة السائدة في منطقة حوض نهر « الكونغو » ولا تفهم لغة السكان المحليين « السواحيلية» ـ خائفة وفاقدة كل حماس ·

ولكن لم يكن رجال « جندرمة كاتانغا » هم وحدهم الذين حركهم اهتزاز مركز موبوتو · ففي الوقت نفسه بدأ مسؤولون فرنسيون يجرون محادثات مع المسؤولين في « **الجبهة الوطنية لتحرير الكونغو** » ، وهي جبهة مناهضة لنظام « موبوتو » تحسبا لاحتمال سقوط هذا النظام · بينما اعلنت هذه الجبهة التي تتخذ في باريس مقرا لها مسؤوليتها عن العمليات العسكرية في اقليم « شابا » · وفي الوقت نفسه اعلن « **انطوان جيزنغا** » رئيس « تجمع القوى الديمقراطية لتحرير الكونغو » ـ ونائب الزعيم الكونغولي الشهير باتريس لومومبا ـ تأييده للحركة ضد نظام « موبوتو » · ويقيم جيزنغا في الوقت الحاضر في جنيف بعد ان عاش سنوات طويلة في موسكو وبراغ ·

● **جنوب افريقيا** ، كان الفرق بين النجاح والفشل في تأدية جنوب افريقيا لدورها عندما تدخلت ضد قوات « الجبهة الشعبية » في انغولا واسعا للغاية · فلو ان نظام جنوب افريقيا العنصري كان قد نجح في كسر شوكة هذه الجبهة لكان ذلك بداية فعلية لتأكيد دور قاري هام لهذا النظام في الاستراتيجية الامبريالية الكلية لما يسمى « التصدي للزحف الشيوعي » · **فقد كان حلم جنوب افريقيا الدائم ان تكون القلعة المتقدمة للغرب في الجنوب الافريقي ضد الشيوعية · اي القيام بدور في القارة مواز للدور الصهيوني في الوطن العربي ضد القومية العربية** · ولكن بقدر ما كان من المفروض ان يكون ثمن النجاح كبيرا ، فان محصلة الفشل هي ايضا كبيرة · لقد ترتبت على انهيار دور جنوب افريقيا في انغولا سلسلة من النتائج السلبية على نظامها في الداخل وعلى ادوارها الاخرى ، في ناميبيا وفي روديسيا ·

بعد ان عبرت قوات من « الجبهة الوطنية لتحرير انغولا » وبصحبتها قوات من جيش زائير الى داخل انغولا في ربيع العام ١٩٧٥ وبدأت مهاجمة قوات الجبهة الشعبية في العاصمة « لواندا » وفي مناطق الشمال ، عبرت من اراضي ناميبيا (التي يفرض نظام جنوب افريقيا سيطرته الاستعمارية الكاملة عليها) قوات من جيش هذا النظام الى الجزء الجنوبي من انغولا · وقد وصفت هذه القوات وقتها في صحف الغرب باسم « الطابور الغامض » · فلم يكن احد يعرف تقدير عدد القوات التي يتألف منها ، ولكنه كان يضم قوات « بيضاء » من جيش جنوب افريقيا ومرتزقة برتغاليين واميركيين وبريطانيين والمان غربيين · وكان هذا « الطابور الغامض » مزودا بمدرعات وطائرات هيليكوبتر هجومية « زوارق طائرة » · وقد تمكن هذا الطابور في الايام الاولى لاندفاعه في جنوب انغولا ـ وبفضل المفاجأة ـ من تحقيق تقدم عسكري سريع ، ولكنه كان مؤقتا للغاية · فلم يلبث

الهجوم المضاد الذي شنته قوات « الجبهة الشعبية » مدعومة من القوات الكوبية ، التي كانت المفاجأة المضادة لمفاجأة جنوب افريقيا ، من دحر « الطابور الغامض » · ووجدالنظام العنصري في بريتوريا نفسه امام احد خيارين · فأما ان يعمق تورطه – في وقت يواجه فيه مشكلات اشتداد الحركة الثورية في الداخل ، وفي « ناميبيا » بوجه خاص – وهو امر يعرض قواته الموجودة في جنوب انغولا لابادة شبه كاملة · واما ان يبتلع الهزيمة ويسحب قواته من الاراضي الانغولية · والعامل المرجح في اتخاذ « بريتوريا » قرار الانسحاب هو العامل الاميركي · فقد وجدت الولايات المتحدة نفسها في حالة ارتباك وتردد ·

وبالفعل بدأت حكومة بريتوريا العنصرية « تبحث في لهفة عن وسيط للتفاوض مع لواندا ·· التي اعلنت سريعا : اننا لن نسمح لموقف شبيه بالوجود الاسرائيلي على ارض مصر بان يتطور في انغولا » · (مجلة Africa عدد نيسان ١٩٧٦) · واشارة بيان حكومة انغولا الى مصر بالذات ترجع الى انها الدولة الافريقية الوحيدة التي تحتل (اسرائيل) جزءا من ارضها ·

وما كانت تعاني منه « زائير » نتيجة انخفاض اسعار النحاس ، تعاني منه « بريتوريا » نتيجة انخفاض اسعار الذهب ، الى حد يهدد بكارثة اقتصادية · وملامح الازمة الاقتصادية في جنوب افريقيا – وان لم تكن معروفة على نطاق واسع في العالم – الا انها لا تقل خطورة عنها في « زائير » : زيادة كبيرة في معدل التضخم ، زيادة كبيرة في عجز ميزان المدفوعات ، انخفاض معدل النمو الاقتصادي الى قرب نقطة الصفر ، ارتفاع مخيف في معدل البطالة وخاصة في المدن · ولم تكن هذه الاعراض غائبة عن اعين المستثمرين الاوروبيين – رغم كل التغطية الدعائية · ولهذا فشلت حكومة جنوب افريقيا في جمع قرض قيمته ١٢٥ مليون راند (العملة النقدية للنظام العنصري وتعادل تقريبا ثلاثة ارباع الدولار) في سوق اوروبا في اوائل العام الماضي ، على الرغم من انها عرضت سعر فائدة اعلى من مستوى الفائدة المعمول به في سوق رأس المال الغربي · ولهذا – يقول مراسل خاص لمجلة Africa – كان التدخل في انغولا بمثابة جرح اصابت به بريتوريا نفسها · وكان خطا من نوع الخطأ الذي ارتكبته هي نفسها عندما ظلت تبني حساباتها على اساس ان اسعار الذهب سترتفع ، ثم فوجئت بها تنخفض سريعا وبشدة · وبالنسبة لانغولا فان جنوب افريقيا بنت حساباتها الاولية على اساس ان الغرب ما دام يؤيد سياستها عن طريق استثماره الضخم في جنوب افريقيا – رغم القرارات الدولية والتنديدات اللفظية بسياسة التمييز العنصري من جانب حكومات الغرب، فان الخير لهذه السياسة ان تمتد لتحمي اجنحتها في جنوب انغولا · وانه لا بد ان الغرب سيؤيد هذا الاتجاه باعتبار ان « الخطر » الماثل في انغولا يهدد استثماراته في جنوب افريقيا وفي ناميبيا – حيث توجد ايضا استثمارات غربية لا يستهان بها · وكما اعتقدت « بريتوريا » – ان ارتفاع سعر الذهب حتمي ، اعتقدت ان ارتفاع اسهم الغرب في التدخل في جنوب افريقيا حتمي ايضا · ولكن هذا المنطق اخطأ في الحالتين · وفي الحالتين فان الخوف الاساسي لجنوب افريقيا الان هو من انكماش الاستثمارات الغربية بسبب المصاعب الاقتصادية الناجمة اساسا عن انخفاض سعر الذهب · وبسبب المصاعب السياسية التي يخلقها وجود نظام ثوري في انغولا ·

وحين ينظر نظام « بريتوريا » الان الى نتائج الفشل الذي مني به تدخله في انغولا فانما يعنيه بالدرجة الاولى « الخطر على ناميبيا » · فانه لا امل في حل مشكلات جنوب افريقيا الاقتصادية اذا استغل الموقف في « ناميبيا » · واذا ادى – وهذا ما يبدو من

الان مسألة وقت فحسب ـ الى استقلال « ناميبيا » فليست « ناميبيا » مجـــرد مصب لاستثمارات النظام العنصري في « بريتوريا » ، بل انها في الحقيقة ـ وهذا هو الاهم ـ مصدر كل مكاسبها الخارجية من صادرات المعادن · وعلى رأس هذه الصادرات «الماس» الذي يشكل ١٥ في المائة من اجمالي صادرات جنوب افريقيا ·

فهل تستطيع «بريتوريا» ان تعتمد على قوتها العسكرية لحل مشكلاتها مع النظام الثوري في انغولا ومع الحركة الثورية في ناميبيا ؟ هنا ايضا جرح اصابت به « بريتوريا » نفسهـا بيدها · لقد ظلت على مدى الاعوام الثلاثين الماضية من حكم «الحزب الوطني » العنصري تعمق في اذهان البيض ايديولوجية « العزل العنصري » وتؤكد اخطار وشرور « الاختلاط » او « التكامل » · ولكنها الان تكتشف انها تحتاج في العام ١٩٨٠ الى ٣ر٨ ملايين عامل ماهر لا يتوفر منهم من البيض عندئذ الا ٨ر١ مليونا · وليس باستطاعة النظام العنصري ان يولي ظهره فجأة لسياساته السابقة وان يتجه الى تدريب العمال السود والى فتـح فرص العمل امامهم في الوظائف التي تحتاج الى مهارات خاصة · هذا اذا لم نضع في الحساب كل الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية والعنصرية التي تضيف الى حســـاب الخسائر اخطار الاضرابات والاضطرابات · وقدكانت سنة التدخل في انغولا هي نفسها سنـة الاضرابات والاضطرابات في « المدن السوداء » · وليس باستطاعة حكومة هذا موقفها الاقتصادي ان تعلن تعبئة عسكرية لتخوض حربا على اتساع جنوب انغولا وعلى اتساع اقليم « ناميبيا » كله وعلى اتساع روديسيا التي تعتبر تحت المظلة العسكرية لنظام بريتوريا ولا يمكنها الا ان تكون عبئا عسكريا واقتصاديا عليه ·

● روديسيا ـ على الرغم من انه لا توجد حدود اقليمية مشتركة بين روديسيا وانغولا فان للمشكلة الروديسية حضورا ثقيلا بالنسبة للوضع في انغولا منذ وقت طويل ، منذ بداية الصراع المسلح ضد الاستعمار البرتغالي ، كما ان لانغولا الحالية بنظامهـــا الثوري وعلاقاتها الافريقية والدولية ـ حضورا ثقيلا بالنسبة للوضع في روديسيا ونظامهـــا العنصري · ومنذ ان توطدت سلطة « الجبهة الشعبية » في انغولا صار الاحساس لدى النظام العنصري الروديسي بأن « دور روديسيا قد جاء » · ويشارك في هذا الاحساس العالم الامبريالي بأكمله ، والنظم التي ترتبط مصالحها بالامبريالية في افريقيـا ·

لقد خلق انهيار النظام الاستعماري البرتغالي في افريقيا ـ وخاصة في انغولا وموزمبيق (التي تملك حدودا مشتركة طويلة مع روديسيا) ـ واقعا جديدا اكثر ملاءمة للنضال المسلح لحركات التحرر الوطني في روديسيا · فان حرية الحركة للعمليات العسكرية لثوار « زيمبابوي » قد اتسعت كثيرا بتولي جبهة تحرير « فريليمو » السلطة في « موزمبيـق » · وفي الوقت نفسه ضاق مجال حرية الحركة امام جنوب افريقيا في دعم النظام العنصري في روديسيا بانشغالها بالواقع الجديد في انغولا · وقد ادى هذا الوضع الى تنبيه «لجنة التحرير » التابعة لمنظمة الوحدة الافريقية الى التركيز في مساعداتها المادية في المرحلة الحالية على دعم ثوار « زيمبابوي » · ووجد نظام ايان سميث نفسه مضطرا لتراجعـــات « تكتيكية » او بالاحرى شكلية ، بهدف كسب الوقت · فوافق على اطلاق سراح بعض الزعماء الوطنيين وعلى الدخول في مفاوضات (مؤتمر جنيف الخاص بروديسيا في اوائل العام الحالي) ولكن هذه المفاوضات سريعا ما كشفت الطبيعة الشكلية لتراجعات نظـام سميث ، فانتهت الى الفشل ·

وعلى غرار الحال في انغولا في مرحلـة ما قبل الاستقلال ، توجـد في روديسيـا ثلاث حركات للتحرير متحالفة ضد نظام سميث العنصري ، وان لم تكن بينها خلافات فـــي

الايديولوجية او في اساليب النضال :

- « **اتحاد زيمبابوي الوطني الافريقي** ZANU بزعامة الاب « **اندابا نينقي سيتولــي** » وهو انشط الجبهات الثلاث من الناحية العسكرية · وكان الاب سيتولي سجينا فــــي روديسيا طوال الفترة من العام ١٩٦٦ الى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ ، وقد تولى قيادة هذه الحركة خلال تلك الفترة « روبرت موغابي » · وتتمتع الجبهة بدعم واضح من تانزانيا من ناحية ، ومن موزمبيق من ناحية اخرى · فهي تنطلق في عملياتهــا العسكرية داخل روديسيا من قواعد داخل اراضيهما · ونجحت في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٤ في اقامة قاعدة عسكرية لها داخل روديسيا ، لاول مرة ، بتأييد من الفلاحين المحليين وتسهيلات قيمة في خطوط النقل والمواصلات تمكنها من نقل مقاتليها واسلحتها الى الداخل · وهذه الجبهة هي الوحيدة بين جبهات « زيمبابوي» الثلاث التي حظيت باعتراف ودعم « لجنة التحرير » الافريقية خلال السنوات الاخيرة ·

- «**اتحاد شعب زيمبابوي الافريقي** » Zapu ويتزعمه « **جو شوانكومو** » الذي كان داخل سجون نظام سميث ايضا من ١٩٦٦ الى ١٩٧٤ · وقد اصيبت هذه الجبهة بمرض الانقسامات خلال السنوات الماضية · وهي تعتمد في الاساس على دعم من زامبيا· وبالفعل فقد انشقت عنها المجموعة التي شكلت الجبهة الثالثة ، كما انشقت عنها مجموعات اخرى اقل اهمية ·

- « **جبهة تحرير زيمبابوي** » Frolizi ، وقد تشكلت في زامبيا في العام ١٩٧١ من مجموعة من المثقفين انضم اليهم فيما بعد اثنان من ابرز ضباط « زابو » كانا بمثابة المساعدين الرئيسيين لانكومو ·

وفيما عدا هذه الجبهات الثلاث التي تعتمد اسلوب النضال المسلح ، يوجد «**المجلس الوطني الافريقي** » بزعامة **المطران** « **موزوريوا** » ، وهو يدعو الى «النضال من اجــل الحقوق السياسية بالوسائل المشروعة داخل روديسيا » ·

على ان الجبهات التحريرية في روديسيا تتميز عن جبهات انغولا بانهــا لم تلتزم باتجاهات ايديولوجية معينة ، وانما تتسم كلها بالنظرة الافريقية الوطنية ، ولا تربطها علاقات قوية بمصادر خارج افريقيا كما هو الحال بالنسبة للجبهات الانغولية · والنشاط العسكري للجبهات الثلاث - وخاصة الاولى «زانو» في تصاعد مستمر - منذ انهيار الحكم الاستعماري البرتغالي بوجه خاص - مما اضطر حكومة « سميث » - في الوقت الذي تعاني فيه من اثار العقوبات الاقتصادية الدولية - الى زيادة ميزانيتها العسكرية باضطراد منذ العام ١٩٧٤ ، فبلغت في العام ١٩٧٥ نسبة ١٥٪ من الميزانية الكلية ، ويقدر انها تبلغ الان قرابة ٢٢٪ منها · وافادت نشاطات الثوار العسكرية من السياسة القمعية التي تنتهجها حكومة « سميث » ضد القبائل المحلية ، مثلما حدث من اخراج اكثر من ١٠٠ الف من القبليين في مناطق شمال شرق روديسيا من مواطنهم ونقلهم الى مناطق اخرى · فقد ادى هذا الى تحويل الفلاحين « السلبيين »او « اللامبالين » الى عناصر نشطة مستعدة للتعاون مع الثوار والانضمام الى جماعاتهم المقاتلة ·

بعد هذا كله فان هناك اطرافا خارجية - من خارج القارة - تلعب ادوارا هامة علــى الساحة الافريقية استراتيجيا واقتصاديا وسياسيا تستحق كل منها ان تلقى الاضواء علــى ادوارها منذ بداية الصراع الداخلي في انغولا ، وحتى نشوب ازمة زائير ··· مرورا بالوضع في روديسيا وجنوب افريقيا وناميبيا ··· ومرورا ايضا بالتطورات الجارية

في اثيوبيا والتناقضات التي تبدو بين الدول الافريقية في هذه المرحلة ·

هذه الاطراف هي على وجه التحديد : **الولايات المتحدة الاميركية ، واوروبا الغربية ، والاتحاد السوفياتي ، وكوبا ·**

ولا تكتمل صورة الصراع الدائر في افريقيا الان دون دراسة مواقف هذه الاطراف وادوارها · كذلك لا يمكن اجراء حساب احتمالات للمستقبل بدونها · وهذا يحتاج لدراسة اخرى ·

السيطرة العربيّة على البحر الأحمر ضرورة استراتيجيّة

محمود عزمي

يمتد البحر الاحمر من « السويس » في اقصى طرفه الشمالي حتى « باب المندب » في اقصى طرفة الجنوبي نحو ٢١٠٠ كلم ، ويبلغ اقصى عرض لـه نحو ٣٠٥ كلم ، ومساحته الاجمالية حوالي ٤٣٨ الف كلم ، واقصى عمق له ٩٥٨٠ قدما ٠ وقد بدأ حوضه الرئيسي في التكون كجزء من الاخدود الافريقي الذي فصل بين شمال شرق افريقيا وشبه الجزيرة العربية في اقصى غرب القارة الاسيوية منذ حوالي ٥٠ مليون سنة ٠ أما خليج السويس الواقع في طرفه الشمالي الشرقي فقد تشكل منذ نحو ٢٥ مليون سنة ، ولذلك تراكمت في قاعه الرسوبات واصبح عمقه يتراوح بين ١٨٠ قدما و٢١٠ اقدام في المتوسط ، على حين أن خليج العقبة تكون في مرحلة جيولوجية احدث كثيرا قبل ثلاثة أو اربعة ملايين سنة ، ولذلك فان قاعه يصل عمقه في بعض النقاط الى ٥٥٠٠ قدم ٠ كذلك كان حال طرفه الجنوبي قرب « باب المندب » ، حيث تكثر الجزر الصخرية التي لا يرتفع معظمها كثيرا فوق سطح الماء ، وحيث كان هناك نشاط بركاني كبير منذ حوالي ١٠ الاف سنة ، بل لا يزال هناك بعض هذا النشاط جنوب جزر « دهلك » وجزيرة جبل « الطير » ٠ ونتيجة لكثرة المقذوفات البركانية تكثر الصخور تحت الماء ، ويقل عرض المجرى الرئيسي للملاحة هناك ويبلغ عمقه ٣٨٠ قدما ٠ وترتفع الارض المحيطة بساحلي البحر الاحمر ، خاصة في القسم الجنوبي منه حيث يصل ارتفاع الجبال القريبة من السهل الساحلي الضيق الى اكثر من ٦٥٦٠ قدما فوق سطح البحر ٠

وتكثر الجزر في الجزء الجنوبي من البحر الاحمر ، خاصة بالقرب من ساحل « اريتريا » عند المنطقة المواجهة لميناء « مصوع » شمالا وجنوبا ، واهمها ارخبيل « دهلك » الذي تتوسطه جزيرة « دهلك » الكبيرة التي تبعد نحو ٥٥ كلم من ميناء « مصوع » وجزيرة « هليب » في اقصى جنوب « اريتريا » في مواجهة ميناء « عصب »، وهناك جزر هامة اخرى بالقرب من ساحل السعودية الجنوبي مثل جزيرة « فارسان » الكبيرة وجزيرتي « حنيش » الكبرى والصغرى بالقرب من ساحل اليمن الشمالية ، ثم جزيرة « بريم » الواقعة في منتصف « باب المندب » بالقرب من ساحل اليمن الجنوبية وساحل « جيبوتي » ٠ويفصل

البحر الاحمر بين كل من مصر والسودان واريتريا على ساحله الغربي والسعودية واليمن الشمالية على ساحله الشرقي ، اما اليمن الجنوبية وجيبوتي فتطلان على مدخله الجنوبي عند باب المندب ، الاولى من الشرق والثانية من الغرب، وتتحكمان فيه من الناحية الجغرافية الاستراتيجية ، وكذلك تطل الصومال على خليج « عدن » لمسافة نحو ١٠٠٠ كلم وهو ايضا موقع استراتيجي متحكم في طرق الملاحة المؤدية الى باب « المندب » . ويمتد الساحل المصري على البحر الاحمر (بما فيه خليج السويس) نحو ٩٠٠ كلم ، وساحل السودان نحو ٧٠٠ كلم ، وساحل اريتريا نحو ٩٠٠ كلم ، وساحل السعودية نحو ١٦٠٠ كلم، وساحل اليمن الشمالية نحو ٤٥٠ كلم ، أما « جيبوتي » فتطل على باب المندب بساحل طوله نحو ١٠٠ كلم من جملة ساحلها البالغ طوله ٣٠٠ والمطل على خليج عدن وهي توصف احيانا بانها « صالة الانتظار » للدخول الى البحر الاحمر ، وتطل اليمن الجنوبية على باب المندب بساحل طوله نحو ٦٠ كلم.

والبحر الاحمر يشكل المنفذ البحري الوحيد لكل من السودان (عبر ميناءي بورسودان وسواكن) ، واثيوبيا (عبر ميناءي مصوع وعصب في اقليم اريتريا)، واليمن الشمالية (عبر ميناء الحديده) ، والاردن (عبر ميناء العقبة) ، كما انه يعتبر منفذ اسرائيل الوحيد نحو المحيط الهندي والخليج العربي عبر ميناء « ايلات » . للسعودية ميناءي « جده » و« ينبع » ، أما مصر فلديها فيه ميناء « السويس » بصفة رئيسية ومرافيء « الغردقة » و« سفاجه » و« القصير » ورأس « بناس » .

التاريخ استراتيجي للبحر الاحمر :

كان للبحر الاحمر اهميته الخاصة كطريق للتجارة الدولية بين اوروبا والهند واندونيسيا والشرق الاقصى عامة منذ القرون الوسطى ، حين كان تجار « البندقية » و« جنوا » وغيرهم من تجار اوروبا ينقلون بضائعهم بين الشرق والغرب عبر البحر الاحمر حتى ميناء السويس ومن هناك تنقل برا الى القاهرة ثم الى الاسكندرية ومنها الى اوروبا عبر البحر الابيض المتوسط طوال عصر دولة المماليك في مصر ، والتي كانت تحصل رسوما جمركية متزايدة على تجارة « الترانزيت » هذه ، بحيث شكلت المصدر الرئيسي لخزينة الدولة ولازدهار الحالة التجارية عامة في مصر . ولكن اكتشاف الملاحين البرتغاليين لطريق « رأس الرجاء الصالح » حول القارة الافريقية الى الهند في عام ١٤٩٨ ادى الى تحول التجارة الدولية الرئيسية وقتئذ الى هذا الطريق الجديد الذي لا تتكبد فيه رسوم « ترانزيت » ، ولذلك ارسل السلطان المملوكي « قنصوه الغوري » اسطولا مشتركا مع سلاطين الهند الغربية (باكستان حاليا) عام

١٥٠٨ لتدمير الاسطول البرتغالي في المياه الهندية ، حيث اتخذ الاخير له عدة محطات بحرية على سواحل الهند الغربية ، واحرز الاسطول المصري ـ الهندي انتصارا محدودا في باديء الامر ولكنه هزم بعد ذلك في معركة « ديو » البحرية في شباط (فبراير) ١٥٠٩ ، وهكذا فقد البحر الاحمر اهميته في التجارة الدولية الى أن شقت قناة السويس عام ١٨٦٩ وتصاعدت اهميتها بسرعة كطريق اقصر واقل نفقة للملاحة الدولية بين اوروبا واميركا من جهة والشرقين الاوسط والاقصى في نهاية القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين. وكانت بريطانيا هي القوة الدولية الاولى التي سارعت الى السيطرة على البحر الاحمر من الناحية الاستراتيجية ، اذ انها كانت قد احتلت ميناء «عدن» في عام ١٨٣٩ وحولته الى محطة تزويد بالفحم لسفنها المتجهة من والى الهند عبر المحيط الهندي حول طريق رأس الرجاء الصالح كما احتلت جزيرة « بريم » عام ١٨٥٩ ، ثم تآمرت على استقلال مصر ، القائم ضمن تبعيتها العامة للامبراطورية العثمانية ، عن طريق تدخلها المتزايد في شئونها الداخلية نتيجة مشكلة الديون الخارجية المتفاقمة في عهد الخديوي اسماعيل ، حتى تمكنت من التدخل العسكري المباشر ضد حكومة « احمد عرابي » الثورية واحتلت مصر عسكريا في عام ١٨٨٢ ، واتبعتها باحتلال السودان وقمع الثورة المهدية فيه عام ١٨٩٨ ، وبهذا اكتملت سيطرتها على النقاط الاستراتيجية الحيوية الهامة في البحر الاحمر والمتمثلة في السيطرة على قناة وخليج السويس وباب المندب وموانيء السودان . وقامت فرنسا هي الاخرى باحتلال ميناء « اوبوك » في « جيبوتي » عسكريا عام ١٨٨٤ ، بعد أن كانت الشركات الفرنسية قد اقامت لها فروعا تجارية فيه عقب افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، ثم استكملت انشاء ما سمي بالصومال الفرنسي وحددت حدوده رسميا عام ١٨٩٦ ، ليكون قاعدة للوجود الفرنسي على المدخل الجنوبي للبحر الاحمر ، حتى لا يترك لبريطانيا الانفراد المطلق بالسيطرة عليه ، خاصة بعد أن انفردت بالسيطرة على مصر والسودان ، وازاحت فرنسا عن مركز نفوذها الممتاز السابق في مصر نتيجة لحصولها على امتياز شركة قناة السويس في عهد الخديوي سعيد والخديوي اسماعيل . ولكن تسوية الخلافات الاستعمارية التي جرت بين البلدين الامبرياليين عام ١٩٠٤ بمقتضى الاتفاقية التي قسمت مناطق النفوذ في القارة الافريقية بين الدولتين ، بحيث اعطيت بريطانيا حرية الحركة في مصر والسودان مقابل موافقتها على اطلاق يد فرنسا في شمال افريقيا ، خففت كثيرا من حدة الصراع بين الدولتين حول البحر الاحمر وتركت بريطانيا عمليا صاحبة السيطرة الفعلية عليه . ولكن ايطاليا هي الاخرى كانت تسعى الى محاولة اقتسام النفوذ مع بريطانيا وفرنسا عند المدخل الجنوبي للبحر الاحمر ، اذ انها احتلت ميناء « عصب » عام ١٨٨٢ وانشأت مستعمرة لها هناك ، ثم وسعتها عام ١٨٨٥ باحتلال ميناء « مصوع » وبهذا سيطرت على ساحل « اريتريا » . ثم حاولت بعد ذلك أن تحتل الحبشة عام ١٨٩٥ لتدعم وجودها

في شرق افريقيا والبحر الاحمر ، ولكنها اضطرت الى التراجع عن هدفها هذا بعد هزيمتها عسكريا امام الجيش الحبشي في معركة « عدوا » التي جرت في اوائل اذار (مارس) ١٨٩٦ ، ومن ثم سلمت باستقلال الحبشة في معاهدة « أديس ابابا » التي عقدت في ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٦ ٠ وكان لهذه الهزيمة بطبيعة الحال اثرها في ضعف نفوذها في البحر الاحمر وعدم محاولتها وقتئذ تحدي السيطرة البريطانية عليه ، وذلك رغم انها كانت تسيطر على الساحل والقسم الشرقي من الصومال ، المطل جزئيا على خليج عدن وعلى المحيط الهندي بصورة رئيسية ، منذ عام ١٨٨٩ والذي عرف بعد ذلك بالصومال الايطالي منذ عام ١٩٢٥ تمييزا له عن الصومال البريطاني المشرف كليا على خليج عدن ٠ والواقع ان ايطاليا قد تمكنت من السيطرة على ساحل « اريتريا » ، وكذلك بريطانيا بالنسبة للصومال البريطاني ، دون مقاومة فعلية نظرا لاضطرار مصر لسحب حامياتها العسكرية من موانىء « هرر » و« زيلع » و« بربرا » عام ١٨٨٤ ، حتى تستطيع تركيز قواها ضد الثورة المهدية في السودان ٠ ولكن طموح ايطاليا في السيطرة على البحر الأحمر تزايد بعد وصول موسوليني الى الحكم وقيامه بغزو واحتلال الحبشة عام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ ، اذ تدعمت عشية نشوب الحرب العالمية الثانية القوة البحرية الايطالية في « اريتريا » ، حيث كان ميناء « مصوع » يمثل قاعدة بحرية رئيسية، وكذلك في الصومال الايطالي في « مقديشو »، كما تركزت قوة جوية كبيرة في «اريتريا» و« الحبشة » و« الصومال » ، ولكن اكبر تركيز لها كان في « اريتريا » حيث كانت توجد عدة قواعد جوية بعضها حفرت ملاجيء طائراتها داخل كهوف صخرية كبيرة ٠ ومن ثم فقد تزعزعت سيطرة بريطانيا على مدخل البحر الاحمر عقب اعلان ايطاليا الحرب عليها في ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ، واحتلالها « الصومال البريطاني » في آب (اغسطس)من العام نفسه ٠ ولكن الطيران البريطاني العامل اساسا من « عدن » بالتعاون مع الاسطول البريطاني القوي والاكثر خبرة ، العامل اساسا في المحيط الهندي وخليج « عدن » تمكنا من شل فاعلية الطيران والبحرية الايطاليين خلال الشهور التالية ، وحتى تمكنت القوات البرية البريطانية من احتلال « اسمره » و« مصوع » في اذار (مارس) ١٩٤١ ، ثم بقية « اريتريا » حتى « عصب » وكذلك الصومال كله في نيسان (ابريل) من العام نفسه ، ومن ثم اعلن البحر الاحمر مفتوحا للملاحة الآمنة مرة اخرى امام سفن الحلفاء ، واصبح يشكل الطريق البحري الرئيسي لامداد القوات البريطانية المقاتلة في مصر وليبيا والشرق الاوسط عامة بالاسلحة والعتاد والمؤن من بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية واستراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقيا ، طوال عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ وحتى اوائل النصف الثاني من عام ١٩٤٣ حيث بدأت القوافل البحرية القادمة من بريطانيا والولايات المتحدة تجتاز البحر الابيض المتوسط عبر مضيق جبل « طارق » ، دون مواجهة مخاطر

جوية أو بحرية كبيرة ، بعد ان استولت قوات الحلفاء على جزيرة « صقلية » الايطالية في تموز (يوليو) ١٩٤٣ ، والجزر الصغيرة الواقعة بينها وبين « تونس » مثل جزيرة « بانتلاريا » ، والتي كانت تشكل قاعدة رئيسية للطيران الالماني ـ الايطالي وكذلك للغواصات والسفن الحربية الايطالية والالمانية ٠ وهكذا تأكدت السيطرة الاستراتيجية البريطانية المطلقة على البحر الاحمر حتى نهاية الحرب ٠ وقد ظلت هذه السيادة الاستراتيجية البريطانية على البحر الاحمر عدة سنوات عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، الى ان بدأت الدول المطلة عليه وعلى خليج « عدن » تستقل بالكامل وتصفي الوجود العسكري البريطاني فيها تباعا ٠ فقد جلت القوات البريطانية عن قواعدها في منطقة قناة السويس تماما في حزيران (يونيو) ١٩٥٦ ، وفشلت في استعادتها مرة اخرى في العدوان الثلاثي الذي تم في تشرين الاول والثاني (اكتوبر ونوفمبر) من العام نفسه ، وكانت هذه هي الضربة الرئيسية الاولى والهامة في تقليص السيطرة الاستراتيجية البريطانية على البحر الاحمر ، التي شكلت الاساس العملي لبداية الوعي والسيطرة الاستراتيجية العربية عليه بعد ذلك ، كما استقلت السودان في بداية عام ١٩٥٦ ايضا ، ثم جاءت الضربة القاضية على السيطرة البريطانية في البحر الاحمر حين استقلت اليمن الجنوبية وانسحبت القوات البريطانية من قاعدة « عدن » في اواخر عام ١٩٦٧ ٠ وقبل ذلك كانت الصومال هي الاخرى قد استقلت منذ عام ١٩٦٠ ، ولم يتبق سوى « جيبوتي » تحت السيطرة الفرنسية حتى عام ١٩٧٧ ٠ اما « اريتريا » فقد ضمت الى الحبشة عام ١٩٥٢ على اساس فيدرالي وانسحبت منها القوات البريطانية، ثم بدأت حركة المقاومة الشعبية المسلحة فيها من اجل استقلالها عن الحبشة في عام ١٩٦٣ وما زالت مستمرة حتى الآن ، اثر الغاء الحبشة للطابع الفيدرالي السابق واعتبار اريتريا جزءاً لا يتجزأ منها عام ١٩٦٢ ٠ ولقد لعب الوجود العسكري المصري في اليمن الشمالية في السنوات ١٩٦٢ ـ ١٩٦٧ دورا هاما في دعم الثورة الوطنية المسلحة في اليمن الجنوبية وتصفية الوجود العسكري البريطاني في « عدن » ، ومن ثم بداية ترسيخ السيطرة الاستراتيجية العربية على البحر الاحمر ومدخله الجنوبي الحيوي عند باب المندب ٠

البحر الاحمر والصراع العربي ـ الاسرائيلي :

خلال الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى عام ١٩٤٨ لم تكن قد برزت بعد اهمية البحر الاحمر في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، بحكم انه لم يكن لاسرائيل بعد اي منفذ بحري عليه خلال هذه الحرب ، اذ ان احتلال اسرائيل لمنطقة « أم الرشراش » ، الواقعة بين ميناء « العقبة » الاردني والحدود المصرية ، لم يتم الا في يوم ١٠ اذار (مارس) ١٩٤٩ اثناء وجود الوفد الاردني في مفاوضات الهدنة بجزيرة « رودس » ، اذ تقدم رتل اسرائيلي رئيسي يضم

مصفحات وعربات جيب ، تحت حماية الطائرات ، يوم ٤٩/٣/٨ عبر وادي «عربة» ورتل ثانوي اخر عند « بير ملهان » ، وقد وصل الرتل الرئيسي بعـد ذلك الى وادي « المليحـة » ، وكانت هناك سرية من المشاة الاردنية يبلغ عددها نحو ١٠٠ جندي تحتل خطا رفيعا من نقاط الانذار بين وادي « عربة » و « بير ابن عودة » تقريبا يبعد نحو ٤٥ ميلا الى الشمال من « العقبة » ، وقد نشب اشتبـاك محدود بين بعض هذه المفارز الاردنية والرتلين الاسرائيليين (قدر غلوب باشا قـوة الرتل الرئيسي بكتيبة) مساء يوم ٤٩/٣/٩ ، ولم يكن في نية القيادة الاسرائيلية التورط في قتال فعـلي مع الجيش الاردني ، وانما كان المقصود القيام بمظاهرة عسكرية تعطي المبرر الدعائي للجانب الاردني كي ينسحب من مواقعه ، ولذلـك فان « غـلوب » رد عـلى برقية قائـد السرية الاردنية ، التي ارسلها اليه مساء اليوم نفسه يسأله فيها ما اذا كان سيقاتل حتى اخر رجل في مواقعـه أم ينسحب ويترك الاسرائيليين يمرون في طريقهم نحو خليج العقبة ، بانه يترك لـه حريـة التصرف بالكامل (١) ! وفهم القائد المحلي ان هذا الرد يعني حرية الانسحـاب وعدم التصدي للقوة الاسرائيلية ٠ وهكذا تم انسحاب المفارز الاردنية دون قتال في الليل ، وقصفت القوة الاسرائيلية المواقع بمدافعها وقنابل الطائرات صبـاح اليوم التالي وفقا لرواية «غلوب» ، وفي مساء اليوم ذاته ٤٩/٣/١٠ وصلـت القوة الاسرائيلية الى مخفر « ام الرشراش » الاردني عـلى شاطيء خليـج العقبة دون مقاومة ، عـلى حين كانت هناك قوة بريطانية ، ارسلت الى «العقبة» لردع القوة الاسرائيلية عن محاولة احتلال المدينة الاردنية وميناءها الحيـوي ، تقف ساكنة تراقب عـملية الاحتلال الاسرائيلي للشريط الارضي الضيق المتـد بين الحدود الاردنية ومخفر « طابا » و« رأس النقب » ، الواقعيـن على الحدود المصرية ، وهو الشريط الذي كان يشكل المنفذ الفلسطيني عـلى البحر الاحمر ٠ وقد برر « غـلوب » هذا التواطؤ الاردني ـ البريطاني ـ الاسرائيلـي ، بأن القوات الاردنية في العقبة ومنطقة « بير ابن عودة » كانت ضعيفة للغاية ولم يكن من الممكن تعزيزها الا بقوات من منطقة القدس التي تبعـد عـنهابنحو ٢٦٠ ميلا بالطريق البري عبر « عـمان » ، وكان وصول هذه التعزيزات يتطلب نحو ثلاثـة ايام نظرا لان الطريق جنوب عمان كان غـير معبد بالاسفلت ، ومن ثـم فان صمود هذه السرية في وجه الرتلين الميكانيكيين الاسرائيليين الى حيـن وصـول التعزيزات كان في حكم المستحيل ، خاصة وأن الطيران الاسرائيلي كان يدعـم الرتلين على حين لم يكن لدى الاردن سلاح جوي ، كما أن القيادة الاسرائيليـة كانت تستطيـع تعزيز قواتها بسرعـة من « بئر السبع » ٠ وفي النتيجة لم يكن هناك بد من تسليم « ام الرشراش » لاسرائيل ! خاصة وأن الوفد الاسرائيلي في محادثات الهدنة الاردنية ـ الاسرائيلية التي كانت تجري في « رودس » قد اوضح

---

١ ـ Glubb , *A Soldier With The Arabs* , Holder and Stoughton , London : 1969 , P. 232 .

ان اسرائيل من حقها احتلال « ام الرشراش» بحكم خريطة تقسيم فلسطين وفقـا لقرار الامم المتحـدة عـام ١٩٤٧ !

وذكر « بنغوريون » في كتابه « اعـوام التحدي » انه اثناء حرب ١٩٤٨ لـم يكن من الممكن بلوغ « ايلات » لانه يقع عـلى رأس مثلث يسيطر عـلى جانبيـه العـدو ، ومن ثم فانه كان بمثابة فـخ للمـوت ، وانه فقط بعـد توقيـع الهدنة مع مصر وتامين احد الجناحين ، أو جانبي المثلث ، اصبح من الممكن دفع القوات الاسرائيلية للوصول الى خليج العقبة · وبالفعـل فان العـملية الاسرائيليـة المذكورة بدأت بعـد نحو اسبوعـين فقط من توقيع اتفاقية الهدنة المصريـة ـ الاسرائيلية في « رودس » ، واثناء بحث وتوقيع اتفاقية الهدنة مع الاردن ! وهذا مثال عـملي يوضح اسلوب الاستراتيجية العـليا الاسرائيلية في الوصول الـى اهدافها تدريجيا وبمزج كامل بين السياسة والقوة العسكرية والحركة السريعـة مع توفير الغـطاء الدعـائي الدولي اللازم ، وفقا للمناورة الاستراتيجية التـي يسميها الجنرال « اندريه بوفر » بمناورة « الخرشوفة » · وقد استند تنفيـذ هذه المناورة الاستراتيجية ، التي لم تكلف الجيش الاسرائيلي « نقطة دم واحدة» عـلى حد تعبير « بن غوريون » ، الى المناخ النفسي العـام الذي سيطر عـلـى القيادات السياسية العربية ، خاصة القيادة المصرية والاردنية ، عـقب وقـف اطلاق النار وعـقد اتفاقيات الهدنة التي انهت حرب ١٩٤٨ ، من حيث الرغبة في تجنب مشكلات تجدد القتال مرة اخرى مع اسرائيل بعد حرب ١٩٤٨ الـتـي ارهقتها ماديا ومعنويا ، ومن ثـم كانت العملية الاسرائيلية مخاطرة عسكريـة صغيرة محسوبة سياسيا بشكل سليم · وقد مرت حادثة « ام الرشراش » بهدوء اعـلامي عربي ، ولم تبحث أو تناقش جديا ابعادها الاستراتيجية من حيث انها ستؤدي ، أو أدت بالفعل ، الى دق اسفين بري اسرائيلي بين مصر والمشـرق العربي عـامة · ومن ثم يتأكد دور اسرائيل كحاجز استعماري غربي بيـن قسمي العـالم العربي بكل ما يترتب عـلى ذلك الواقع الجغرافي من نتائـج استراتيجية هامة في مستقبل الصراع العربي ـ الاسرائيلي · وكذلك من حيـث انها ستؤدي الى انفتاح اسرائيل عـلى البحر الاحـمر والمحيط الهندي فـي المستقبل ، بكل ما يعنيه ذلك من ابعاد اقتصادية وعسكرية بالنسبـة لاسرائيـل ولدول البحر الاحمر العربية · عـقب احتلال « ام الرشراش » بدأت عـلـى الفور عـملية اقامة مستوطنة « ايلات » وبناء ميناء صغـير لها وربطها ببئـر السبع بطريق معـبد رئيسي « اوتوستراد » ، وقد افتتح ميناء « ايـلات » في نيسان (ابريل) ١٩٥١ وكان عـدد سكان المستوطنة وقتئذ ٥٢٩ شخصا فقط ·

وفي ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٥ بدأت مصر تمارس للمرة الاولى « الخنق الاستراتيجي » ضد اسرائيل ، عـندما اعـلنت قوانين تنظيم الملاحة عبر مضائـق « تيران » المؤدية الى خليج العقبة ، والتي اعتبرتها جزءا من المياه الاقليميـة المصرية ، ومن ثـم كان يتحتم عـلى كل سفينة تريد اجتياز المضائق المذكورة ان

تخـطر مسبقا المكتب المصري الاقليمي المكلف بالاشراف على الحصار الاقتصادي على اسرائيل ومقره بالاسكندرية قبل ٩٦ ساعـة من موعـد عبورها للمضائـق على الاقل · وذلك بعـد أن ركزت ابطارية من المدفعية الساحلية فـي « رأس نصراني » المشرفة على اضيق نقطة في المضائق تساندها كتيبة مشاة بطاريـات من المدفعية المضادة للطائرات في كل من « رأس نصراني » و« شرم الشيـخ » ووحدات من سلاح الحدود في جزيرتي « تيران » و« صنافير » ونقاط مراقبـة وانذار عـلى الساحـل السعـودي من خليج العقبة · وترتب عـلى ذلك وقـف مرور السفن الاسرائيلية أو غير الاسرائيلية المتجهة الى « ايلات » أو الخارجـة منها عبر البحر الاحـمر · وكان ذلك يشكل في واقـع الامر بداية الوعـي الاستراتيجي العربي باهمية البحر الاحمر في الصراع العربي ضد اسرائيل · ولكن حجم الوسائل العسكرية المصرية المتاحة للاحتفاظ بموقع « شرم الشيـخ » الاستراتيجي ، المعـزول في اقصى الطرف الجنوبي من شبه جزيرة سيناء والذي لا توجد فيه اي موارد محلية للمياه والمواد الغذائية ، لم يمكن مصر من الاحتفاظ به خلال حرب ١٩٥٦ ، خاصة في ظل التفوق الجوي والبحري الساحق ، الذي عـمل تحت ميزاته لواء المشاة الميكانيكي الاسرائيلي الذي تقدم من « ايـلات » حتى « شرم الشيخ » ، واستولى عـليها بعـد معـركة بطولية يائسة مع كتيبة المشاة المصرية المحـدودة التسليح بالاسلحة م/ط وم/د في اوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ ، وهو التفوق الذي نتج عـن اشتراك بريطانيا وفرنسا فـي الحرب الى جانب اسرائيل وتدمير معـظم السلاح الجوي المصري عـلى الارض، وهو ما زال في بداية مرحلة استيعـاب الطائرات المقاتلة السوفيتية الجديدة مـن طراز « ميغ ١٥ » و« ميغ ١٧ » · وكان ابرز مكسب حققته اسرائيل مـن وراء عدوان ١٩٥٦ الثلاثي ، هو ضمان حرية الملاحة عبر مضائق « تيران » رغـم انسحاب آخر قوة لها من محور « رأس النقب ـ شرم الشيخ » فـي ١٦ اذار (مارس) ١٩٥٧ ، عـن طريق حلول قوات الطوارىء الدولية محل قواتها في هذا المحور وفي جزر « تيران » ، وتعـهد مصر للقوى الدولية الكبرى بعـدم التعرض بالقوة للملاحة الاسرائيلية عبر خليج العقبة ، رغـم عـدم اعلانها أو موافقتهـا الرسمية عـلى اسقاط حقها القانوني في فرض الحصار البحري عـن طريـق اغلاق مضائق « تيران » باعتبارها جزءا من مياهها الاقليمية يحق لهـا منـع دخـول السفن المتعاملة مع دولة معـادية لها من الدخـول فيها وفقا لاحـكام القانون البحري الدولي · وهكذا عبرت اول سفينة اسرائيلية مبحرة مـن « ايلات » عقب انسحاب القوات الاسرائيلية من « شرم الشيخ » مضائـق «تيران» يوم ١٨ اذار (مارس) ١٩٥٧ ، وكانت شاحنة تسمى « ملكة سبـأ »، تحت حماية قوات الطوارىء الدولية (٢) · وظلت موازين القوى الاستراتيجيـة

---

٢ ـ Love , Kenneth , *Suez The Twice Fought War* , Longman , London : 1970 , P. 671 .

هادئة ومستقرة في البحر الاحمر عقب حرب ١٩٥٦ لمدة خمس سنوات تقريبا ، حتى نشبت ثورة وحرب اليمن الشمالية عام ١٩٦٢ وما ترتب عليها من وجود عسكري مصري هناك ، شكل تزايده خطرا كامنا على الملاحة الاسرائيلية في البحر الاحمر والمصالح الاقتصادية الاسرائيلية المترتبة عليها في استيراد النفط من ايران والتبادل التجاري مع شرق وجنوب افريقيا ٠ولكن خطر ممارسة سياسة « الخنق الاستراتيجي » العربية لم يتحول الى واقع عملي مرة اخرى الا في ٢٢ ايار (مايو) ١٩٦٧ ، حين اعادت مصر اغلاق مضائق « تيران» عشية حرب ١٩٦٧ ، وهو العمل الذي اعتبرته اسرائيل بمثابة اعلان للحرب عليها ، وتحركت من اجله الدول الامبريالية وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية مساندة لاسرائيل في حقها بالملاحة عبر مضائق تيران على اساس انها ممرات مائية دولية ، وذهبت بعيدا في دعمها لاسرائيل الى حد البدء في اعداد قوة بحرية وخطة عمليات لاختراق الحصار اطلقت عليها الولايات المتحدة اسم خطة « رغاتا » ، اذا ما رفضت مصر الخضوع للضغوط السياسية والاقتصادية الهادفة الى رفع الحصار عن رئة اسرائيل الجنوبية « ايلات »، ولكن سرعة تلاحق الاحداث وشن اسرائيل لهجومها في ٥ حزيران (يونيو) الذي نجم عنه توجيه ضربة قاضية للطيران المصري وهو جاثم على الارض ، وما تلا ذلك من انسحاب القوات البرية المصرية في سيناء و« شرم الشيخ »، حال دون تورط الدول الامبريالية المباشر في تأمين حرية الملاحة الاسرائيلية عبر مضائق « تيران » والبحر الاحمر ، بعد أن اثبتت القوة العسكرية الاسرائيلية قدرتها على تنفيذ هذه المهمة من خلال شن حرب شاملة ضد مصر ودول المواجهة العربية ، وليس من مجرد التهديد أو الردع المتدرج الناتج عن تنفيذ عملية عسكرية محدودة تقتصر على خليج العقبة جغرافيا فحسب ٠ وكشف احتلال اسرائيل « شرم الشيخ » للمرة الثانية خلال احد عشر عاما عجز القوة العسكرية المصرية حتى ذلك الوقت عن تأمين اهداف الاستراتيجية العليا العربية المتمثلة في ممارسة سياسة « الخنق الاستراتيجي » بنجاح فعال ، وهو عجز ناتج في الاساس عن ضعف المقدرة التنظيمية والقيادية العسكرية وليس عن نقص في التسليح كما أو نوعا ، وهو الامر الذي لم تتحسب له القيادة السياسية المصرية والعربية عامة ، ومن ثم اخطأت في حساباتها الاستراتيجية المبنية على « الردع » المتمثل في التهديد باستخدام القوة الى حد الدخول في حرب شاملة ضد اسرائيل عن طريق حشد ضخم لقواتها في سيناء وسحب قوات الطوارىء الدولية ، اذ ثبت أن الاداة العسكرية المنفذة لم تكن في مستوى استراتيجية « الردع » العليا التي انتهجتها القيادة السياسية ، وهو خطأ كان ولا يزال له اثاره المباشرة وغير المباشرة على مجرى الصراع العربي ـ الاسرائيلي منذ عام ١٩٦٧ ٠

وترتب على سيطرة اسرائيل على شبه جزيرة سيناء ، و« شرم الشيخ » من

ضمنهـا ولا يمكـن تأميـن السيطـرة عليها بدون السيطرة علـى القسم الاكبر من سيناء ، وخاصة القسم والمحـور الجنوبيين فيها ، ترتب عـلى ذلك ان نمت تجارة اسرائيل عبر « ايلات » والبحر الاحمر بمعـدل ١٥ ٪ سنويـا ، وازدهرت « ايلات » ذاتها فبلغ عـدد سكانها اكثر من ١٣ الف نسمة عـام ١٩٧٠ ، خاصة بعـد أن تم انشاء خط انابيب نفط « ايلات ـ عسقلان » في شباط (فبراير) ١٩٧٠ بطاقة بلغـت ٢٥ مليون طن من النفط اغلبه من ايران عام ١٩٧١، وكان من المتوقـع أن تصل طاقته الى ٦٠ مليون طن سنويا عـام ١٩٧٥ ، بعـد الانتهاء من بناء محطات ضخ اضافية بالاضافة الى توسيع مصفاة « حيـفا » ومصفاة « اشدود » القريبة من « عسقلان » ، وبناء مصفاة اخـرى في «ايلات»· وقد بدأت اسرائيل في مد انبوب النفط هذا في تموز (يوليو) ١٩٦٨ لمسافة ١٦٠ ميلا حتى عسقلان الواقعة على البحر الاحمر الى الشمال من « المجدل » ، ويبلـغ قطره ٤٢ بوصة · وقد صمم على اساس قدرته علـى حمـل خمسة انواع مختلفـة مـن الزيـت الخـام تضخ كل منها تلو الاخرى ، وبلغت نفقات انشائه ١١٣ مليون دولار · وفي عام ١٩٧١ تجاوز حجم تجارة « ايـلات » ٦٠٠ الف طن في السنة · (٣) وعـلى هذا الاساس قامت اسرائيل بتوسيـع حجم اسطولها التجاري بصفة عامة ، فقد قامت في عام ٦٩ و٧٠ بشراء ١٣ سفينة، ووضعت مخططا لتطوير حجم اسطولها في اوائل الثمانينات بحيث تصل طاقتـه الى ٤ ملايين طن ، وهي تركز في هذا الصدد على ناقلات البترول العـملاقـة ، التي بنت منها ٣ سفن في احواض « روتردام » الهولندية تسلمت اثنتين منهـا عام ١٩٧١ حمولة كل منهما ٢٣٠ طنا ، وذلك ضمن اسطول ناقـلات بتـرول سيصل الى ١٩ ناقلة · وفي الوقت نفسه اصبحت « ايلات » والبحر الاحـمر هما طريقها لتصدير الاسمدة والمنتجات الزراعية والاسلحـة الى جنوب افريقيـا ودول شرق افريقيا واستراليا والشرق الاقصى عـامة ، وقد مرت عبر « ايلات » ومضائق تيران ٩ ٪ من صادرات اسرائيل و٥ ٪ من وارداتها عـام ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ·

وعندما شنت مصر حرب الاستنزاف عـلى جبهة القناة عـامي ٦٩ـ٧٠ لـم تحاول فرض الحصار البحري على الملاحـة الاسرائيلية عبر البحر الاحمر في أي موقع فيه خشية رد الفعـل الجوي الاسرائيلي عـلى اهدافها الاقتصاديـة الحيوية في العـمق ، وخاصة في الصعـيد حيث يوجد السد العـالي ، نظـرا لعـدم تكامل غـطاء الدفاع الجوي الفعـال في العمق سواء من حيث شبكـة بطاريات الصواريخ أو من حيث استعـادة سلاحـها الجوي قدرته الفعـالـة · واكتفت بشن بعـض اغـارات « الضفادع البشرية » عـلى ميناء « ايلات » ،حيث تم اغـراق بعـض السفن المساندة للعمليات الحربية الاسرائيليـة في خليج

---

٣ ـ ابير ، مردخاي ، السياسة العـالمية في البحر الاحمر ، ترجمة متري رعـد ، المجلة العسكرية السورية ، عدد ١ و٢ ، ١٩٧٣ ، ص ٣٩ ·

السويس وتدمير بعض منشآت الميناء ، وذلك في ايام ١٩٦٩/١١/٨ و١٩٧٠/١/٢٥ و١٩٧٠/٢/٦ ٠

انتقال الصراع الى باب المندب :

ولكن تزايد المصالح النفطية الاسرائيلية بعد تشغيل خط انابيب « ايلات ـ عسقلان » ، وتزايد مصالحها التجارية مع دول شرق افريقيا ، وخاصة الحبشة أو « اثيوبيا » التي اصبح لديها فيها شركات تجارية عدة ، وبالذات في « ارتيريا » ، مثل شركة « انكودا » لتعبئة اللحوم وشركة « اتاجن » الزراعية وشركة « هارون اخوان » ، وهي شركات احتكرت بالكامل تجارة بعض منتجات هذه البلاد الزراعية ٠ بالاضافة الى الدلالة العملية الرمزية التي شكلتها اغارة الفدائيين الفلسطينيين البحرية التي تمت على ناقلة البترول الاسرائيلية « كورال سي » قرب جزيرة « بريم » عند « باب المندب » في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ ، التي تمت بالتعاون مع سلطات اليمن الشعبية الجنوبية المستقلة حديثا وقتئذ ، كل ذلك دفع اسرائيل الى ادراك المخاطر الكامنة في احتمال ممارسة مصر ودول البحر الاحمر العربية مرة اخرى لاسلوب « الخنق الاستراتيجي » لرئة اسرائيل الجنوبية « ايلات» عند « باب المندب » بعيدا عن « شرم الشيخ » وعن التفوق الجوي الاسرائيلي ، خاصة وأن الدول العربية مثل السودان وليبيا وسوريا واليمن الشعبية اخذت تقدم لجبهة تحرير «اريتريا » مساعدات عسكرية ملموسة منذ عام ١٩٦٨ ، مكنتها من تصعيد عملياتها عامي ٦٩ ـ ٧٠ حتى وصلت بها الى ساحل البحر الاحمر وسيطرت على معظم المناطق الشمالية والوسطى وقسم من الساحل في اريتريا ٠ ولذلك اقامت اسرائيل مدرسة عسكرية لتدريب الجنود الاثيوبيين على أساليب الحرب المضادة للعصابات في مدينة « دقي امحري » ، فضلا عن مركز للتجسس في عاصمة اريتريا « اسمرة » ، وتقوم حاليا بتدريب فرقة « نبلبل » الاثيوبية ٠وفي ١٢ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧١ قام الجنرال « حاييم بارليف » ، رئيس الاركان الاسرائيلي وقتئذ ، بزيار سرية الى الحبشة اجرى خلالها محادثات مع قائد القوات البحرية فيها ، ثم طار اثر ذلك الى « اسمرة » ومنها استقل في الليلة ذاتها طائرة هليكوبتر الى ميناء « مصوع » وتفقده ، ثم عاد الى الحبشة مرة اخرى حيث عرض على الحكومة هناك تزويد اسرائيل لها بشبكة رادار تقام على شواطيء اريتريا لمراقبة عمليات تهريب الاسلحة من جمهورية اليمن الشعبية الى ثوار جبهة التحرير الاريترية ، الذين قيل وقتئذ انهم يتدربون على استخدام الاسلحة وحرب العصابات في جزيرة « بريم »٠ كما عرض « بارليف » تزويد البحرية الاثيوبية بعدد من زوارق الدورية والصواريخ سطح ـ سطح ، على أن يقوم ضباط وجنود من البحرية الاسرائيلية بتشغيل محطات الرادار المقترح اقامتها على شواطيء اريتريا والزوارق المذكورة الى حين اتمام تدريب الاثيوبيين

عـليها ٠ واثر ذلك قامت بعثة من الخبراء الاسرائيليين بتفقد جزيرتي «دهلك» و« هليب » ، حيث قاموا برسم خرائط واعداد دراسات مفصلة عـنهمـا تمهيـدا لاقامة مطار وقاعـدة بحرية تستخدمها سفن الصيد الاسرائيلية في جزيرة «هليب» واقامة محطة رادار على جزيرة « دهلك » ، التي كانت توجد فيها شركـات اميركية للتنقيب على البترول لديها نحو الف خبير ، بينهم نحو ١٠٠ اسرائيلي٠ واثر ذلك بلغ عـدد سفن الصيد الاسرائيلية العاملة بين ميناء « مصوع »وجزيرة « دهلك » نحو ٢٥ سفينة ، كانت تقوم بتخزين حصيلة صيدها من الاسماك فـي ثلاجات خاصة بميناء « مصوع » حيث تصل سفينة اسرائيلية كبيرة لتفريغ هذه المخازن ، والقيام اثناء رحلتها هذه باعـمال المراقبة البحرية في المنطقة ، اذ ان هذه السفن كانت مجهزة لاداء مثـل هذه العمليات الى جانب تجهيزها الاصلـي لنقل كميات كبيرة من السمك ٠ هذا وكانت بريطانيا قد سلمت الحبشة جزيرة « ابوعـلي » عـام ١٩٦٧ قبل انسحابها من « عـدن » ، ومن المعتقـد ان قـوة المراقبة الاسرائيلية في جزيرة « دهلك » تشرف عـليها هي وجزيرتي « جبـل الطير » و« جزيل » وكلها قريبة من « باب المندب » ٠ (٤)

ورغم ذلك كله فقد امكن للبحرية المصرية بقوة مشتركـة مـن المدمرات والغواصات ، المستندة الى خدمات وتعاون قواعـد بحرية في اليمن الشعبيـة الجنوبية ، أن تفرض فجأة الحصار البحري على « باب المندب » فـي ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، كجزء من خـطط عمليات الحرب الشاملة التي بدأتها كل من مصر وسوريا على الاحتلال الاسرائيلي لاراضيهما القائم منـذ ١٩٦٧ ٠ وجاء « الخنق الاستراتيجي » هذه المرة مؤقتا ومرتبطا بالهدف السياسي الرئيسي للحرب ، الا وهو اثبات فشل وعجز نظرية الامن الاسرائيلية ، خاصة من حيث اثبات خطأ وقصور مبدأ « الحـدود الآمنة » ٠ جاء الحصار البحري في اقصى الطرف الجنوبي للبحر الاحمر ليثبت لاسرائيل ان « شرم الشيخ » و« مضائـق تيران » ليست حدودا جنوبية آمنة يحق لاسرائيل الاحتفاظ بها لتأمين حريـة ملاحتها عبر البحر الاحـمر عبر « ايلات » وخليج « العقبة » ، كما كانت ومـا زالت تزعم وتبرر احتلال هذا الجزء من شبه جزيرة سيناء ٠ ونجح « الخنـق الاستراتيجي » المؤقت ضمن الهدف السياسي المحدد للحرب ، نظرا لان فاعـلية الدفاع الجوي حالت دون الردع الاسرائيلي الجسيم المضاد ، ولان ظروف الحرب الشاملة على الجبهتين اربكت القوة العسكرية الاسرائيلية الجوية والبحريـة

---

٤ . مجلة الطليعة الكويتية ، عدد ٣٨٥ في ١٩٧٢/٧/٢٩ ، ص ١٩ ٠

واضطرتها لتركيز جهودها بالكامل على جبهات القتال المباشرة · ثم رفع الحصار بعد ذلك كتنازل مشروط بترتيبات ضمان امداد الجيش الثالث في السويس بالمؤن والمياه اثناء محادثات « كيسينغر » التي تلت وقف اطلاق النار · ولذلك عملت اسرائيل بنشاط عقب الحرب على دعم وتطوير قوتها البحرية في البحر الاحمر ، واخذت تنقل الى « ايلات » عددا من زوارق الصواريخ بعيدة المدى من طراز ـ« رشاف » ، التي يصل مدى عملها الى نحو ٢٠٠٠ كلم في حالة سيرها بسرعة ٣٠ عقدة في الساعة ، وكانت اولى هذه العمليات نقل زورقين من هذا الطراز في نيسان (ابريل) ١٩٧٤ الى البحر الاحمر بعد رحلة بحرية طويلة عبر البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسي ثم المحيط الهندي عبر « رأس الرجاء الصالح » ·

ويمكن لمثل هذه الصواريخ أن تعمل بفاعلية قرب « باب المندب » ، خاصة اذا ما امكن اعادة تزويدها بالوقود والمؤن والذخيرة من الجزر الاريترية القريبة من المنطقة ، والتي يقال أن اسرائيل تبني حاليا بصورة جدية قاعدة بحرية في احداها ، وتدعى جزيرة « فاطمة » الواقعة على بعد ٥٠ كلم الى الشمال من «باب المندب» ، حيث ترسل اليها ـ شحنات كبيرةمن المعدات والاسلحة والذخائر · وعقب انتقال هذين الزورقين الى البحر الاحمر كتب العميد احتياط « شلومو اريئيل » ، القائد السابق للبحرية الاسرائيلية ، مقالا في صحيفة معاريف يوم ١٩٧٤/٤/٢٦ اوضح فيه الاهمية الاستراتيجية للبحر الاحمر بالنسبة لاسرائيل فقال « لا مبرر للاسهاب في الحديث عن ضرورة المحافظة على حرية الملاحة في منطقة البحر الاحمر ، التي يمر فيها خط انابيب البترول من الخليج الفارسي الى « ايلات » ، والتي يتوقف عليها تصدير المعادن والاسمدة وتجارتنا الخارجية مع الشرق الاقصى واستراليا وشرق افريقيا ··· وتنطوي التطورات المتوقعة في منطقة البحر الاحمر ، بعد استئناف الملاحة في قناة السويس على مخاطر تصادم مع مصالحنا الحيوية ، ومحاولات زيادة عزلتنا في هذه المنطقة ··· ونحن نملك القدرة التكنولوجية والبشرية كي نكون عنصرا بحريا مسيطرا في منطقة البحر الاحمر الحيوية ، ونأمل ان تكون سفينتا الصواريخ « رشاف » و« كيشيت » المحاولة الاولى نحو مثل هذا التطور ··· ان هذا البحر ، الذي كان في الماضي نقطة ضعف لاسرائيل ، يمكن ان يتحول الى مجال مبادرة اسرائيلية وقت الحرب ، ولخلق تهديد لمؤخرة مصر وطرق ملاحتها ··· ان سيطرة مصر على قناة السويس تضع في يدها ، مفتاحا واحدا فقط في هذا الممر المائي ، اما المفتاح الثاني والاهم ، فبالامكان ان يوجد

في يد اسرائيل ، اذا عـرفت كيف تطور التفوق البحري في منطقة البحر الاحمر وتحافظ عـليه ··· ونظرة الى خريطة تلك المنطقة تشير ، دون الحاجة الـى الدخـول في التفاصيل الى أن مصر مكشوفة ومعرضة للضرب في هذه المنطقـة اكثر من اسرائيل » ·

وخلاصة القول أن البحر الاحـمر اصبح يشكل ضرورة استراتيجية امنيـة عربية ، وهو يحمل امكانات صراع ضخم في المستقبل ، خاصة في ضوء استقلال اريتريا المتوقع واستقلال اقليم « جيبوتي » القريب في ايار (مايو) المقبـل ، والارادة الاستراتيجية العربية الموحدة مطالبة بتأمين متطلبات تأمين السيطـرة الاستراتيجية القوية عـليه عـلى ضوء خبرات الماضي وحقائق الحاضر ، وتلك مسألة في حاجة الى دراسة مفصلة اخرى مستقبلا ·

القيامة والطفل الضائع

أحمد عبد المعطي حجازي

لكأنها الرؤيا !
قيامتُكِ المجيدةُ !
يَنهض النهرُ القديمُ بضفتيه واقفاً ،
حتى نشاهدَ في السماءِ مصبَّهُ ،
نافـورةً خضراءَ ،
والشلاّلُ يصعد من منابعه الخفية راعفـاً ،
متفجرا بحرارة الماء المضفَّر بالمعادنِ ،
حاملاً معــه المدائنَ ، والأهاليَ ، والقرى ،
والطيرَ ، والحيوانَ .

يا أرجوحةَ الميلادِ لا تتوقفي
دوري ، وسوخي في عروق الطينةِ العطشى ،
وعودي للصعودِ ، ورفرفي
ولدي الذي تَعِدينَ من ألفٍ بمولدِه ،.
وشَقيِّ عنــه تُربتكِ العصيَّةَ ،
وانزفـــي !

مَن علّم الطّفلَ اجتيازَ النهرِ ؟
تلك هي القطاراتُ التي كانت تمرّ على قرانا ،
تسلبُ الاحبابَ احباباً ،

وتمضي في الظلامِ مهيبةً ،
لألاءةَ الانوارِ ،
كالأقدارِ ، لا تلوي على شيءٍ
وتتركنا على طرفينِ ،
يزدادان بُعداً واستحالة رجعةٍ ،
متشبثين بذلك الخيط الذي يمتد بين وجوهنا
والأوجهِ الاخرى ،
الى أن نستحيل معا الى بُقعٍ ،
تغـور ، وتختفي

تلك القطاراتُ التي دهمت منازلنا الوديعةَ ،
مَن يقول لها : قفي !
ويعيد لي صمتَ الظهيرةِ ،
والطنينَ اللامعَ المعقودَ من أصداء أصواتِ الحقولِ ،
وما تُغنيِّ كائناتُ الدارِ وهي تهيم في انحائها ،
نشوى ، بما تُلقي عليها الشمسُ من وهجٍ مثيرٍ ،
يستديرُ مشعشعَ الأضلاع كالماسِ المعلقِ ،
والثرى الفواحُ ينبضُ بالاجنَةِ ذاهلاً ،
نعسانَ تحت تموّجِ الآلِ الذي تنحلُّ فيه الشمسُ
أبخرةً ملونةً ،
تشفُّ شفوفُها عن قريةٍ ريّانةِ الاعضاءِ ،
خدرَّها الشذى الوهاجُ ،
فاضطجعت الى تاريخها السريِّ والهةً ،
تبادله النواح العذبَ ·
مَن سيردُّني ؟

وأراك في المدنِ الشقيّةِ ٠
كنت احسَبُ انني وحدي الذي ضيّعت في طرقاتها وجهي ،
وأني سوف اخلع ذاتَ يومٍ نيرَها واعــودُ ،
لكني رأيت النهرَ مثلي ضائعاً فيها ،
مريضاً ، مستجيراً في حوائطها ،
رأيتكِ ، آه يا اماهُ !
كنتِ حمامةً خضراءَ ،
تبكي فوق قافلةٍ من الاسرى تجر صليبها ابداً ،
وتخترق المدينة ،
والرجال مصفدون الى بهائمهم عرايا ،
سادرون ، مخدرون بموتهم ،
يتناسلون جماعةً في طقسه الدينيّ ٠
كنت اراكِ فوق تقاطعُ الطرقاتِ ،
فوق تصالب الليل المنيخ على النهار ،
الَهةً مصلوبةً ،
ياتي الجنود لها بإخوتها ليرجموها ،
ثم ينفلتون خوفاً من ضراعة وجهها المستعطفِ !

واظلُّ أهربُ !
ضائعا بين القطاراتِ التي مدّت على جسدي الحديدَ
ومزقتني في المدائنِ ،
راحلاً في غير عمري ،
ناقلاً في كل يومٍ جذريَ العريانَ ،
من ثلجٍ الى ثلجٍ ،
وحين أمدّ طرْفي مرةً اخرى وراءَكِ

تُقبلينَ ،
أراكِ تختلطينَ بالغيم المسافر راجعا لبلادهِ ،
واذا يدور بيَ القطارُ وراء كلّ مدينةٍ ،
ويلجُّ في الصمتِ النعــيّ
اراكِ مُفردةً ، تشقيّن المدَىٰ

يا نخلةً في وحشةِ الصحراءِ ،
طالعةً من الفردوسِ ،
حاملةً على الرأسِ الجميل بحيرةً ،
تأوي لها السُّفنُ الغريبَةُ ، والطيورُ ،
واذ يمر الانبياءُ مشردينَ بها ،
يُقال لهم : ألا هُزوّا اليكم جذعَها ٠
اني هززت اليّ جذعَك لم تجيبيني !
وضِعتُ ، ولم تردّيني !
وها هو جمرك الوهاج بعد اليأس يُشرقُ
فاغفري ، واسترجعيني من زمان الموتِ ،
ردّيني اليكِ اصرْ هباءً فيكِ ،
ماءً ، زهرةً في رملتيكِ ،
دُويبةً ،
اني اشيخ وأنطفي !

مَن علّم العمالَ ان يتدرّعوا بزنود قتلاهم ،
وان يتقدموا في جسمِ مصرَ المستجيب لهم ،
كما يتقدمُ المحراثُ في الارض الخصيبةِ ؟

انه الفرسُ الآلهيُّ ،
الذي يأتي الينا في الربيع مجنّحاً ،

فيرش خضرته على الوادي ،
ويركض في اتجاه البحر حتى يلتقيهِ امامَه ،
فيشب من فوق اثنتين على الغيوم الزرقِ ،
يضربها بحافره الى أن يقدح الشررَ المطيرَ ،
ويشفيَ الظمأ ألوبيلَ ،
ويشتفي !
متفجرا بحرارة الماء المضفرَّ بالمعادنِ ،
حاملاً معه المدائنَ ، والاهاليَ ، والقرُى ،
والطيرَ، والحيوانَ،
يا أرجوحةَ الميلادِ ! لا تتوقفي
دوري ، وسُوخي في عروق الطينة العطشى ،
وعودي للصعودِ ، ورفرفي
ولدي الذي تَعِدينَ من الفٍ بمولدِه ،
وشقي عنه تربتك العصية ،
وانزفي !

باريس في ٢٠ / ٢ / ١٩٧٧

ساحة الملك
(قصة)

الياس خوري

كنت أسير مسرعا • الدهاليز الرطبة ورائحة المطر المتعفن وثيابي المبللـــة بالماء • ابحث عن الاتجاه الصحيح بين دهاليز لا اعرفها • اشتم واحاول أن لا ابدو مضحكا • فأنا منذ اتيت هــذه المدينة ، أركض من مستشفى الى مستشفى ومن طبيب الى طبيب والجميع : الممرضات والاطباء يهزون رؤوسهم ، يجـرون الفحوص الطبية : لا شيء ، لا نعــلم ربما ، غــدا • اجوبة واجوبة حتى اكـاد أصاب بالهستيريا والقلق الفادح • ومنذ ليلة امس ، وبعد نهار طويل مـــن العــذاب والاستنطاق ، قررت ان انتبه كثيرا : عــلي ان لا ابدو مضحكـــا • اكتشفت هذا اول الامر حين امسكت الممرضة بيدي • يدي ممدودة على بساط بلاستيكي غرست عــليه الاف الابر الحادة • وحولي ثلاث ممرضات • ابتسمت الممرضة ثم بدأت تخيط يدي الى البساط البلاستيكي • سألتني عــن مهنتي فــي محاولة منها لالهائي عن الموضوع • قلت لها انني لا اعــمل شيئا • دنـــت الممرضة الثانية مني وقالت : هل تعــلم كم ستدفع من اجل هذا الفحص الطبي •

ـ لا اعـــلم •

ـ ٣٨٥ فرنكا فرنسيا •

ـ لـــن ادفـــع •

ـ سوف نضعــك في السجن •

هنا انفجرت ضاحكا • كان الجو مشحونا بشيء ما • فانفجر الضحـــك وضحكت الممرضات •

ـ ولكن لماذا تضحك ؟

ـ لان السجون شيء مؤقت ، قلت لها • نحن الغينا السجون • وحتـــى المستشفيات كنا عــلى وشك الغائها لولا بعض الامور المعقدة • طبعــا لم يكــن

هناك وقت لاخبارها كيف هجم الاطفال في حينا على سجن النساء وسرقـــوا سقفه · اخـذوا القرميد · فكوه قطعـة قطعـة · فالجو لم يكن مناسبـــا · والمهم الآن هو يدي · طبعـا ، دفعـت المبلغ كله بـعد ذلك ، ليس خوفا مـــن السجن ولا من الممرضة · ولكن هكذا ، لانني كنت حزينا · اندفـع التيــار الكهربائي داخـل ذراعـي الايسر · شهقت ، كان العصب يضرب بوحشيــة لا متناهيّة · تنفس عميقا ، اصرخ،قالت الممرضة · تنفست ، لكن وجهي كان يتقلص · في تلك اللحـظة اكتشفت البسمة على وجوه الممرضات · لا بـد وأن وجهـــي المتقلــص وسـط بحــر الالــم هـــذا يبـدو مضحـكا · حاولـــت ضبـط اعصابي وايقـاف التقلـص العضلي · توقفـــت عـــن التنفس · لم اكن استطيع · فالالم يمتد الى جميع انحائي · الكهرباء تسحق جسدي · ثم فجأة توقف كل شيء · نهضت عـن الكرسي · مشيت · حاولت ان امشي بسرعـة · سقطت على الارض · لا تنس انك مريض قالـت الممرضة · وعندما دفعت ثمن الفحص الطبي كاملا كانت تبتسم ·

توقفت عـن الركض السريع وسط هـذه الغابة المليئة بالاصوات · علـي ان اكتشف الاتجاه الصحيح · فهي تنتظرني · ولن تنتظر كثيرا · في المرة الماضية اتيت قبل الموعـد بنصف ساعـة · انتظرتها عـلى كرسي في مقهى يضج بالاف الاصوات · لكنها لم تأت · وعـندما اتصلت بهـا في المساء جاوبتني معتذرة· اخذنا موعـدنا اليوم ، ولكنها كانت تهـدد : لا تتأخـر · لن انتظرك اكثـر من خمس دقائق · وها انا احـاول أن لا أتأخـر ; لكن المشكلة انني لا استطيــع إكتشاف مسالك الدرب · فأنا مريض ، ودهاليز المترو معقدة ، ونصف اليافطات التي تشير الى الاتجاهات نزعـت · مشيت بهدوء · توقفت امام بائع الصحـف حين شممت رائحة نبيذ حادة تقترب مني · ثم بدأ يقبلني ويصرخ · كيــف اتيت ؟ متى اتيت ؟ نظرت جيدا وبدات اضحك · اخيرا هذا هو برجيس نهرا ·

ـ اخبرني ، تعال · لماذا لا تأتي لتزورني ؟ ·

اخيرا هذا هو برجيس نهرا ·

ـ لم اكن ، لا اريد ، انا مستعجل ، غـدا ·

لكن برجيس نهرا يمسكني · يشدني من ذراعـي ، تعـال · رجل مربـــوع القامة ، أشقر الشعـر ، سميك الرقبة ، يميل قليلا الى البدانة ، يتكلم عشرين موضوعـا دفعـة واحدة · كان ذلك منذ خمس سنوات · وبرجيس نهرا لا يزال يحن الى قريته · انا ماروني من بدادون · كان ذلك منذ خمس سنوات · كنت فقيرا اكثر من الطلاب الفقراء · وربما كان فقري هو الذي دفعـني الى تلبيـة

دعوته . دخلت بيتا . أخيرا ادخل بيتا واجلس الى مائدة حقيقية . كنت جائعا . اكلت كاني ارى الاكل لاول مرة في حياتي . وشربت وشرب هو . وبقينا نسكر من الثانية عشرة ظهرا حتى المساء . في البداية لم اتكلم . الحديث كان صعبا واريد التفرغ للاكل . وبعد أن سكرنا ، واستمعت طويلا الى ذكرياته عن قريته وعن افلاس والده وعن مغامراته ، بدأ يتحدث في السياسة . دعني من السياسة قلت له . لكنه أصر . بدأ يتحدث عن الفدائيين ومذابح ايلول . وكان يتكلم بلغة عسكرية يتقنها جيدا .

ـ ولكن من اين تعرف كل هذا ؟

انا مقاتل . كنت مقاتلا حقيقيا اجابني .

طبعا ، لم اقبض كلامه . فالكرش الصغير المتدلي ، والمطعم الفخم الذي يملكه ، لا تؤكد ادعاءاته .

ـ ولكن اين ؟

ـ في فييتنام .

مرة ثانية لم اقبض كلامه . تركته يتكلم وانصرفت الى قطرات الكونياك احاورها . كان يتكلم ولم اكن استمع ، حتى بدأ الدوي . اصبح صوته يدوي في الغرفة مثل المدافع . قفزت .

ـ ماذا تقول . الفرقة الاجنبية !

ـ نعم الفرقة الاجنبية .

ـ مرتزق ، حقير ، متوحش .

نهضت ، حملت قنينة الكونياك وهجمت عليه . هرب من امامي . اسمع انت سكران كان يصرخ . يجب أن لا يفقدك النبيذ اصول التعامل مع الناس . اسمع رأيي انا معكم ومعهم ولكن اسمع . لم اكن استطيع . ركض الى غرفة النوم واغلق الباب بالمفتاح . يبدو ان منظري كان مرعبا . فلاستمع. هدأت وجلست على الاريكة بانتظاره . عاد .

ـ اسمع يا اخي جيدا . المسالة معقدة . كنت فقيرا ، ولم اكن املك اجازة اقامة في باريس . اعتقلتني الشرطة وخيروني بين السجن والفرقة الاجنبية . ماذا تريدني ان اختار ؟

ـ العودة الى لبنان .

ـ كان هذا مستحيلا . لبنان لم يكن واردا يومها . السجن أو فييتنام ،

فذهبت الى فييتنام · حاربنا كثيرا ، لكن ليست هذه هي المسالة·المسالة اننا كنا نعرف أن هزيمتنا حتمية · غير أننا بقينا لنحارب · التزمنا الحرب ، اذن يجب تنفيذ التزاماتنا · انا ماروني عنيد لا انسحب · كنت اعرف ان الفرقة الاجنبية وجميع فرق الجيش الفرنسي سوف تهزم · غير اني بقيت معهم وحاربت لاني رجل عنيد · ثم بدا يضحك · لا تصدق قصة العنيد هذه ، اقولها الآن لاني شربت كثيرا · فلقد حاولت الهرب مرارا ، او حتى لا اكذب عليك ، فكرت بالهرب · لكن هذا كان مستحيلا · الحرب شيء منظم بدقة ، ولم يكن من مخرج سوى البقاء · عدا انني احببت هناك إمرأة فيتنامية وتزوجتها · انا لا اكذب · كنت أعود في المساء الى الكوخ المليء بالطين فاجدها في انتظاري هي والبرميل · تضعني في برميل ثم يبدأ الماء ينزلق على جسدي · انهض شبه عار والتهم طعامي مع نبيذ الارز · اسكر وابقى جالسا · انام معها وانا جالس ، فالذي يشرب هذا النبيذ لا يستطيع الوقوف أو الاستلقاء · كانت امرأة جميلة · بقيت جميلة حتى ماتت · اعتقد انها ماتت عندما كانت المدفعية الفرنسية تمشط المناطق الفييتنامية قبل هزيمة ديان بيان فو · ورغم موت زوجتي وموت الآلاف ، كانت الهزيمة حتمية · حملوا المدافع على الدراجات ، تسلقوا بها الجبال على اكتافهم ، وكان لا بد من الاستسلام · لكن افضل شيء هو البرميل · انا علاقتي مع الحرب علاقة مزدوجة ، علاقة مع امراة جميلة وعلاقة مع برميل ·

لم اعد اذكر كثيرا ، فهذا الحوار جرى منذ خمس سنوات ، ومن يومها اصبح برجيس نهرا صديقي · الصداقة تعني بالنسبة لي شيئا محددا ، أن نسكر مرة في الشهر · اما بالنسبة له فكانت مناسبة لطرد زوجته الفرنسية من البيت والتكلم بالعربية · لكن عندما أتيت هذه السنة لم اكن اريد مقابلته · فالحرب الاهلية جرحت جميع العلاقات · ومن المؤكد ان اخبار دخول الفدائيين الى بدادون في احدى ليالي الحرب وصلته · لذلك لا اريد مقابلته · لكنه هنا، يقف امامي صنما من الصدفة العجيبة ·

ـ لماذا لم تأت لزيارتي · تعال فورا ، انا اريد معرفة اخبارك واخبار الحرب في لبنان · كان المستحيل هو اقناعه · انا مشغول الآن يا سيدي برجيس · نلتقي غدا · كما تريد · نتكلم في كل المواضيع · وعندما بدا انه اقتنع بدا يتكلم كانه يهذي ،

ـ انظر الى المترو · انظر الى هذه الدهاليز · هذا يعني ان الحرب الاهلية حتمية · حرب أهلية مع دهاليز المترو ، شيء مخيف واسطوري · تنهار

جميع الحسابات وتدخل الارض في باطنها · شيء مذهل ·

ـ حتى عندما تاتي لزيارتي ، لا بد وان تاتي معي الى المترو · اعرف انك رايت المترو · لكن انظر ، انظر · المدينة التي تخترقها دهاليز المترو تهتز ، سوف تنهار · الحرب الاهلية هنا حتمية ·

ركبت المترو كثيرا ، وزرت الكثير من المدن ، لكني لم اكتشف العلاقة بين المترو والدهاليز ، وبين الدهاليز والحرب الاهلية · فالمدن ، جميع المدن تتشابه· بعضها يخترقها المترو ، وبعضها بدون مترو · لكن لا علاقة بين كل هذا والحرب · في القاهرة هناك مترو، ولكنه فوق الارض · الناس يتراكضون بين عربات المترو والباصات والازقة · يحرقون القطارات او يتوقفون عن حرقها · في بيروت لا يوجد مترو ولا توجد انفاق · في ميلانو ، قلب المتظاهرون حافلات المترو ، عندما اقفل البوليس مداخله لمنع الناس من الالتحاق بالمظاهرات · في دمشق لا وجود لانفاق المترو ، لكن قاسيون يحفر ويهدم لكي يحولوه الى فيلات جميلة أو قبيحة · المسألة هنا · مدن فوق الارض ومدن تحت الارض · بعد ان هدمت بيروت العثمانية بداوا يبحثون عن بيروت الرومانية تحت الانقاض · في الجوهر ، جميع التغيرات جيولوجية ، مثل الزلازل والبراكين· يحفرون احشاء المدن ليقيموا ادوات اتصال ، وادوات اقامة · لكن الادوات باسرها لا تخدم في النهاية سوى هدف واحد ، الحرب والموت ·

كنا وسط دهاليز المترو · صوت برجيس يرتفع ، وانا اقف لا استطيع أن افعل شيئا · هذه هي المسالة يقول · المسالة ان هذه المدينة سوف تتهدم في الحرب الاهلية · كل المدن سوف تتهدم · كنت احاول ان اقول شيئا · المسالة شيء آخر ، لكني بدات اخاف ولم اتكلم · هذه المرة انا وبرجيس وصوت المترو والمترو نفسه نبدو مضحكين · لا يمكن ان افعل شيئا حتى لا ابدو مضحكا · صحيح انا مريض · لكن هذا الرجل لا يتوقف عن الهلوسة ·

ـ ارايت · الحرب الاهلية حتمية · الناس سوف تكسر بعضها كسرا · المدن سوف تنهار · هذا شيء حتمي واراه كما كنت ارى صور الحرب الاتية من بيروت ·

ـ ولكن يا برجيس ··

ـ تخيل معي ، ماذا يمكن ان يحدث بين هذه الدهاليز التي تتشعب الى ما لا نهاية ، وبهذه الاسلحة الحديثة المدمرة · الحرب الاهلية سوف تكون حرب المترو · انت موافق · طبعا موافق ·

لست ادري لماذا بدات اوافق · الكلام غير مقنع · ومنظر برجيس وهو يتكلم عن الحرب بخشية وفرح لم يكن مقنعا · التفاتاته الدائمة نحوي ،

وامساكه بيدي مخافة ان اهرب ليست مقنعة · الحقيقة انني لم اقتنع بنظرية برجيس ، لكني بدات اقتنع · رجل اربعيني تفوح رائحة الخمر من ثيابه · يقف وسط غابة مليئة بالاصوات · الناس يتراكضون وكانهم تاخروا عن مواعيدهم· وانا انظر الى ساعتي خوفا من التاخر · وهو لا يبالي · يتكلم بيديه وصوته وقامته · يتمايل ويبشر بالخراب · هؤلاء الذين يتراكضون سوف يتراكضون ولكن بدوافع اخرى ، لان الحياة لم تعد تستطيع ان تستمر هكذا · الاشياء تنقلب · البنادق والمدافع والحرب · وبرجيس يتكلم ويخاف · وانا احاول للمرة الاخيرة ان لا ابدو مضحكا ·

لكن ليست هذه هي المسالة ·



المسالة كانت هناك · امراة تضيء · امسكتها بيدها وذهبنا الى اصغر غرفة في العالم · وكانت الغرفة حمراء · القرميد الاحمر والخشب الابيض والستائر الصفراء · وهي وسط الغرفة تنحني عارية وتضحك · تنزلق من يدي الى السرير ومن السرير الى الارض ومن الارض الى يدي · امراة تضيء · بيضاء ، عيناها صغيرتان لكنهما تمتدان مثل العيون الصينية · وانا امسكها بشعرها واغرق في نقطة الاوجاع التي تنحدر من كتفيها · امسكها فتسقط ، لكنها لا تنكسر · تنطوي الى نصفين وانا نصفها الثالث وصوتها يرن مثل حديقة متوحشة ·

اقتربت منها · كانت قدماي تزحفان على الارض ، تخدشان خشب الغرفة · اتمايل وانقسم ثم اقترب اكثر · اللون الخمري ينتشر على الارض مثل رائحتها · لا اتكلم ولا اسكت · هذه هي حالة الحزن القصوى · بكت · جلست في طرف الغرفة وهي تمسك بنهديها · تقدمت وانا خائف · كلا لم اكن خائفا · كنت ابحث عن شيء ما ، عن كلمة · لكنها لا تزال في طرف الغرفة· وقفت وتقدمت نحوي · امسكتها من يدها فسقطت على الارض وانكسرت ، وامتلات الغرفة بالشظايا · انحنيت عليها لالملمها ، بدا الدم ينزف وامتلات الحيطان بالوحل والشجر · كنت اصعد الدرج باقدام ثابتة · لم اعد استطيع التقدم · امسكت بها · كانت الاضواء تلون السماء ، وكان الجسد عجينا يتلون كل لحظة · اخذتني · ارتجف جسدي قليلا كانه في حمى ، ثم سقطت · وكانت المسافة طويلة جدا ·

هي كانت المسالة · كنت امسك بها فلا امسك شيئا ·تتركني مذهولا وتركض· اركض خلفها · هكذا اعتقلتني داخل حلم من الصعب الخروج منه · كان ذلك

في الخريف ، وكانت السماء حمراء بالوان الاوراق ، واغصان الشجر المنحنية. وكانت هي الى جانبي تبحث عني حين أضيع وتضيعني حين اجدها . وكانت مذهولة بكل شيء . حين ترى الشجر وقد لبس الاحمر ، تصاب بالدهشة ،وتنظر الى السماء وكانها لم تر سماء من قبل . كل شيء صار جديدا لم نالفه . في البداية ، اعجبت بنمط الحياة الجديد ، ثم بدأت اتضايق . لا يمكن ان نمارس الحياة هكذا دون نقطة ثابتة . لا يمكن ان اعيش هكذا مفتتا في الهواء . غير انها اصرت ، كانت تعيش حياتها كما تعيش الحياة .بدأت اكتشف بها الحياة . رميت نفسي في الدهشة . مرة كنا نركض او نسير في شارع طويل مليء بالاشجار الحمراء . كانت الى جانبي وامامي وورائي . امسكتها من شعرها ومشينا بهدوء . حاولت ان اتكلم معها . لم يكن هذا ممكنا . من الصعب التكلم مع هذه المرأة . عليك ان تبدأ كل شيء من البداية كانك تتعرف عليها هذه اللحظة . لذلك لم نكن نتكلم الا نادرا . اوقفتها وسط الشارع ، وكانت الاوراق الحمراء تنبت على يديها .

هذه هي الثورة قلت . هكذا ، نعيش وسط اكتشاف كل شيء ، وسط فراغ كل شيء . هذه هي الثورة .

ـ انا لا احب السياسة .

ـ وانا لا اتكلم في السياسة ، بل اتكلم عن الثورة .

ـ ولكن الثورة سياسة . اليست الثورة سياسة .

ـ لكنها تبدأ دائما ، رغم السياسة او داخل السياسة . انها الشيء الذي يبدأ دائما . مثل الحب ، مثل الموت ، مثلك .

لم تجاوب . كان جسدها شفافا . لا ليست مرآة . الشفافية الاخرى ، حيث لا ترى نفسك ، بل ترى خلف الاشياء كأنك في حلم .

امسكت بها ورميتها الى الماء . لكنها ليست سمكة ، انها امرأة . لذلك بدأت تغرق . كان الماء ينحدر حول وجهها وبين نهديها . لكنها ليست سمكة . امسكتها وتسلقتها الى النهاية ولم تكن النهاية ممكنة . هذه هي المسألة .

جميع الامور تبدو هكذا غامضة وغير قابلة للاستيعاب . لكنها في النهاية تتداخل وتأتلف في مثلثات . لا يمكنك ان تكتشف الاشياء عارية هكذا . انها جميعها تدخل في المثلثات والمثلث هو البداية او ما يشبهها . والمثلث يدخل في الدائرة . كل مثلث مهما كان شكله ومهما كان حجم زواياه يدخل في

الدائرة ٠ والدائرة لا بـد وان تنفجر ٠ هكذا اكتشفت قصتنا ٠ لم اكن استطيع ان ابدأ من الاحداث ٠ فالاحداث غامضة ومشوهة وغير قابلة للبداية ٠ بدأنـا كمثلث ٠ وكان ذلك في الجامعـة ٠ كنا لا نزال نحمل بضعـة احـلام عـن الجامعة ونناضل من اجل بناء جامعة وطنية ٠ ولم نكن قد اكتشفنا بعـد ان الجامعة هي مجرد حذاء ٠ وان هـذه الاحلام التـي نتبناها سوف تحيلنا الى احذية اذا لم تتحطم الجامعـة ٠ طبعـا تحطمت الجامعـة داخل سياق آخر كما تحطم كل شيء في هـذه المدينة ٠ لكن الكثير من الاشياء تبدأ من هذا المثلث ٠

الضلع الاول : الدكتور حنا ٠ رجل في حوالي الخامسة والاربعين مـن عـمره ٠ طويل القامة ٠ يخترق الشيب رأسه ٠ ظهره ينحني قليلا ٠ يدخـل الى الصف مستعجلا ويخرج مستعجلا كانه على موعـد دائم مع شيء ما ٠ ولم يكن هذا الشيء واضحا ٠ كان من المفترض ان يعـطي دروسا في عـلم النفس٠ لكنه لم يكن يتكلم الا نادرا عـن عـلم النفس هـذا ، او عـن اي شيء له علاقة بالموضوع ٠ يحدثنا دائما عن طفولته ٠ سنوات الفقر حين كان يعـمل شغـيلا في محل لبيع الالبسة الجاهزة في سوق سرسق ٠ وكيف استطاع بعصاميتـه متابعـة دراسته ، ثـم نيـل شهادة الدكتوراه والوصول الى الجامعة ٠ لا اعلم لماذا لم اكن اصدق حكاية العـمل في سوق سرسق هذه ٠ فأنا اجزم انه كـان يعمل شيئا آخر ٠ ربما كان نـدلا في مقهى ٠ فشكله يشبه الغارسون واناقتـه تشبه اناقة الذين يعـملون في مقاهي شارع الحمرا ٠ ليس هذا مهمـا ٠ المهم هو الكتاب ٠ كان يدخـل الى الصف وهو يحمـل في يده كتابا مستطيـلا ، يلوح به في الهـواء ، ثم يضعـه بعـناية داخـل حقيبته ٠ هذا هو انتمائـي ٠ انا انتمي الى الكادحين لذلك احـمل افكارهم وقضيتهم ٠ وكان الكتاب ، عـلى ما اذكر ، يتحـدث عـن عـلاقة الماركسية بالمسيحية او عـن الماركسية الانسانية او ما يشبهها من الخزعبلات التي كانت عـلى الموضة في ذلك الوقت ٠ كنـا نعجب بهـذا الاستاذ وبماركسيته الانسانية وبكتابه المستطيل المكتوب باللغـة الفرنسية التي لم نكن نفهمها جيدا ٠ ونعجب اكثر باخلاصه لطبقته واصـراره العجيب عـلى لوي يده اليمنى وهو يحدثنا عـن الديالكتيك ٠ انا منفتح ٠ لست ماركسيا متعصبا ٠ انا رجل انساني ، افهم واحـب ان افهم وعـلى كامـل الاستعداد لتغيير رأيي اذا اقتنعت بخطئه ٠ هذا هو الديالكتيك ٠ فالديالكتيك هو مفتاح كل شيء ٠ بقي يحدثنا عـن الديالكتيك ثلاث سنوات ٠ وكل سنـة يزداد اعجابنا بهـذا الديالكتيك الجميل ٠ حتى حـدث مرة ودخل البوليس الى الجامعـة بحثا عـن الثوريين المتعصبين الذين لا يؤمنون بالحـوار ويصـرون عـلى رمي البوليس بالحجارة ٠ يومهـا هرب الديالكتيك من الباب الخلفـي وانصرف بكليته الى عـلم النفس ٠

الضلع الثاني : اسمه يعقوب · وكنا نحبه · كان طالبا يشبه الشخصية الفهلوية التي اهلكنا بها صادق العظم بعد هزيمة حزيران ، حتى اصبحنا نعتقد ان وراء كل هزيمة تقع هذه الشخصية السحرية · لكنه لم يكن فهلويا · كان كسولا قليلا · مقبلا على الحياة · يحب الكأس والطعام الجيد والثرثرة والضحك · واهم شيء فيه انه يحب اصدقاءه · وكلنا نحبه · ياتي الى الكافيتيريا حاملا كتاب ارسطو « الميتافيزياء » في يده · فيعقوب اختار الفلسفة · وارسطو هو اساس الفلسفة . بدا الكتاب يهترىء ، وهو موضوع على الطاولة في الكافيتيريا · الغلاف يتآكل · لكن يعقوب نظرا لمشاغله الكثيرة لا يجد الوقت الكافي للقراءة · كان لا يتخلف عن مظاهرة واحدة · يركض في المقدمة · يهتف · يرقص امام خراطيم المياه · يضرب باعقاب البنادق ، ويعود في المساء تعبا ، بالكاد يجد الوقت الكافي ليشرب كأسا من العرق ويغني بعض الزجل وينام · كنا نحبه · ثم عندما ذهبنا الى الفدائيين ذهب معنا واصبح فدائيا · ثم سافر الى اوروبا ليدرس · لم يبق معنا ليكتشف لعبة الموت · ربما لو بقي ، لالتحق برفاقنا الذين ماتوا · وكنا نسينا حكاية ارسطو ، ونحن نذكره ، حاملا بندقيته ، ينحني على قطرات دمه ويموت · لكن اليس من الافضل ان لا نموت ؟ بعد كل هذا اذا لم نمت نستطيع ان نقيم حروبا اخرى ، وربما تكون افضل من هذه الحرب · ويومها يكون يعقوب قد عاد ، وترك ارسطو وراءه وحمل معنا بندقية الفدائيين ·

الضلع الثالث : كان ذلك بعد ٢٣ نيسان ١٩٦٩ مباشرة · كانت بقع الدم التي غطت شوارع بيروت بداية لبحر الدم الذي زلزل المدينة · جاء سالم الى الجامعة · فوجد ان نصف الطلاب دخلوا الصفوف · وقف في باحة الكلية والقى خطابا · لم يكن خطابا · كان مجموعة من الشتائم ضد البوليس والدولة واميركا · ثم اضربت الكلية · وحصلت بعض الاشتباكات بالايدي بين الطلبة · وانصرف الجميع · وفيما كان سالم خارجا من باب الكلية في طريقه الى بيته ، اكتشف سيارة كانت تنتظره وحملته بالقوة الى المخفر · جلست مع عشرات الطلاب في غرفة معتمة حيث كانت تنهال الشتائم على رؤوسنا ·

ـ انا عطشان يا افندي ·

لكن الافندي لا يجاوب ·

ـ الله يخليك يا افندي · اريد ان اشرب ·

جاء الافندي بابريق ماء · وضعه امام القضبان الحديدية ، وطلب منا ان

نقف · لنشرب من خــلال القضبان ·

ـ ولكن يا افندي ما هذا · ولو · نحن لسنا في اسرائيل · ماذا فعلنا ·

اخذ الافندي ابريق الماء ولم يشرب احد · ثم عـاد وحوله ثلاثة افنديـــة قبضايات · فتح الباب وبدأ ياخذنا واحدا واحدا · نضرب بوحشية بالسياط ، ثم يدوسنا بقدميه · نبطح ارضا ويقف على جسدي ويدوس ويدوس حتى يشبـع او حتى ينزف الدم من اذني · ثم جمعونا في طابور ثلاثي · وقف الضابـط والقى خطابا عن لبنان ومحبة لبنان · وطلب من الطلاب الهتاف بحياة لبنان · هتفنا وخرجنا من المخفر · مسحنا آثار الجروح · لكننا لم نكن نعلم ان الحرب بدأت هذه اللحظة · ثم امتدت الى غندور والقتل · ثم اشتعلت وبقيت مشتعلة·

المثلث داخل الدائرة · لكننا لم نكن نعــلم ان الحرب بدأت · كنا نعتقــد ان المسالة سوف تبقى داخــل اطار ترتيب اوضاع المثلث وتعديل شروطه · ولكــن حين انفجر المثلث ، اتسعــت الدماء بغــير حدود · اتسعــت فانهارت الدائــرة باسرها · كل دائرة محكوم عــليها بالانهيار · هذه هي القاعــدة · وعندمـــا تنهار الدائرة تنكسر اضلاع المثلث ·ونجلس تحت المطر بحثا عن مثلثات جديدة·

وحيدا كنت · انا الفارس الوحيد · وحولي الليل وامرأة تقول انها تحبنــي ودائرة تنتظرني ·



ـ ولكن يا برجيس نحن هنا ولسنا في بيروت او برشلونة او مدريد ·وباريس مدينة ثابتة ومستقرة · ولا لزوم للحديث عــن حرب اهلية فيها · بعد بضعــة اشهر سوف تجري انتخابات الجمعية الوطنية ، وليس فوز اليسار مؤكدا · حتى اذا فاز فالاحداث على الطريقة التشيلية ليست حتمية · يستطيـع جيسكـــار ديستان ان يحــل الجمعــية الوطنية ، وتاتي الدولارات من اجل المحافظة عــلى روح مؤتمر هلسنكي وينقسم الاشتراكيون الفرنسيون الذين نصفهم صهاينـــة ونصفهم الآخر عواطفه اطلسية وتتجنب فرنسا الحرب الاهلية · طبعــا باريــس سوف تدمــر ، مثــل جميع المدن ولكن ليس بهذه السرعــة · او ربما ليس عن طريق حرب اهلية · ربما كانت الحــرب العــالمية هي الطريق الوحيد من اجــل الوصول الى هذا الدمار ·

لكن برجيس لا يجاوب · يقف وسط الدهاليز ثم يقودني الى خريطة كبيـــرة

لخطوط المترو معلقة على الحائط · ويبدأ في حديثه الى نفسه · انظر انظر كان يقول ·

ـ ولكن لماذا ؟ هل انت على حافة الافلاس ؟ ·

ـ ابدا · على العكس · الم تر المطعم الجديد · غدا تاتي وتزور المطعم الجديد ·

ـ هل تشعر بضيق نفسي ؟ هل تريد ان تطلق زوجتك ؟

ـ لماذا تسال هذه الاسئلة السخيفة · انا رجل متزن ، متحضر · انا تاجر·

ـ اذن ، لماذا تسعى الى الحروب الاهلية ؟

ـ انا اسعى · لا·لا· انا ضد الحروب الاهلية · لكني اخاف · حين ارى ما جرى في لبنان ، ينتابني شعور غامض بان هذا الخراب سوف يعم العالم · وانا اخاف من الخراب · لقد صنعت حياتي ثلاث مرات انطلاقا من الصفر · المرة الاولى في فيتنام لكنها تهدمت · ثم ذهبت الى الجزائر وفتحت مخزنا لبيع الادوات المنزلية · وصدقت ديغول · قال ديغول باننا لن نغادر الجزائر فصدقته · وسعت تجارتي على اساس اننا باقون · انا لم تكن تهمني كل هذه الحرب · كنت على علاقة طيبة مع الفرنسيين بوصفي فرنسيا · وعلى علاقة طيبة مع رجال جبهة التحرير بوصفي لبنانيا · لكن ديغول ترك الجزائر · هرب ولكن بشكل عقلاني هذه المرة فافقدني عملي وعقلي · تركت المخزن واتيت الى باريس لابدأ من الصفر · ويبدو ان الامور في هذا العصر اللعين لا تقودنا الا الى الصفر ·

ـ واذا حصلت الحرب الاهلية ، الى أي جانب سوف تقف ؟

ـ لن اقف · انا رجل عملي · انا لبناني عنيد · راسي في جيبي · اضع راسي في جيبي واتركه يقودني · اذا نشبت الحرب الاهلية او اذا فاز اليسار سوف يقودني راسي الى مكان آخر · سوف اذهب الى اميركا الجنوبية ·ولكن، هذه المرة ليس مع الصفر ، بل مع ثروتي · لقد جهزت كل شيء ·

مسكين برجيس · يقف امام لوحة المترو ويؤشر بيديه · مثل بوليس السير الذي اصر على مزاولة مهنته في بيروت · جاء المسلحون اخذوا مسدسه · لكنه بقي يلبس بذلته الرسمية ، يقف وسط الشارع ويؤشر للسيارات القليلة التي تجرؤ على المرور · ثم اصبح يؤشر للقذائف · بقي هكذا واقفا وسط شارع فارغ ، يؤشر لاي شيء . حتى اصيب بقذيفة ومات ·

ـ انظر كيف تتداخل المدينة داخل هذا المترو اللعين الى درجة الجنون· هنا تخرج الى احياء العمال الجزائريين · هنا الشانزليزيه · هنا ساحة الكونكورد · ماذا يمنع سكان الاحياء العربية من الوصول الى الكونكورد ؟ الاشياء مفتوحة ومتداخلة ، وتستطيع ان تدمر بعضها في اية لحظة · الم اقل لك · الحرب الاهلية حتمية · اخبرني · اخبرني ، اخبرني كيف بدأت الحرب في لبنان ·

لم اخبره · كنت اقف وهي الى جانبي · نخرج الى ساحة الكونكورد فنرى السماء · نرى ساحة فسيحة وفوقها السماء ·ليست السماء امتدادا ولا الساحة · انها قبة · اقف على الارض فاشعر بقبة فوق راسي · زرقاء او رمادية او بيضاء · والحجارة المرصوفة والمسافات الشاسعة التي بنيت من اجل العربات التي تجرها الخيول · قطعة من السماء وقطعة من الارض وانا بينهما ·

انظر ، قالت · انظر الى الحضارة ·

اما انا فلم اكن ارى الحضارة · كنت ارى مساحات واسعة وعيونا · لست ادري من اين اتت قصة العيون هذه · لكنني لا ارى سوى العيون والمساحات وبقايا السماء ·

انظر ، قالت · انظر الى الحضارة القديمة ·

اما انا فلم اكن ارى لا الحضارة القديمة ولا الحضارة الحديثة · كنت ارى الاشكال وهي تنحني · هنا يوجد كل شيء · الماء والخضراء والوجه الحسن والحجارة البيضاء · كل شيء يرقص بالابيض · هذه علامة المستشفى · لا · هذه مسلة مصرية قديمة · فخلال حملة نابليون على مصر ذهب المؤرخون والكتاب والفلاسفة الى جانب العسكر · العسكر يسرقون والعلماء يبحثون في تاريخ مصر القديمة · ثم اكتشف العلماء انهم يستطيعون ان يصيروا لصوصا · فبدأوا يسرقون التحف الثمينة ومومياءات الفراعنة · وعلى الرغم من اللعنة سرقوا · لم يخافوا · وها هي المسلة البيضاء تقف ناصعة وسط اجمل ساحة في العالم · تقدمنا نحوها كانت تحمل الاف الرسوم والتواقيع · العصافير المصرية ، تطير من ناحية الى اخرى · لوحات لا تحصى · تنظر اليها فترى الرجال والنساء بالمئزر المصري القديم وعلى افواههم تطير الكلمات التي تلتصق بالحجارة · وبين الرجل والرجل تقع المراة وهي تحمل صورة الفرعون ـ الاله · او طفلها الذي ولد لتوه وسيخرج لبناء القبور ·

ـ انظر ، اجمل مسلة في العالم تقف شاهدا على تواصل الحضارات ·

تتراكم · مثل التراب امام مصب الانهار · اعظم حضارة قديمة تقف وسط اعظم حضارة حديثة ·

لم افهم بالضبط معنى هذا الكلام · لكنني اعرف ان الاحذية وضعت على رؤوسنا باسم اشياء تشبهه ·

الم تقرأ الصحف قالت · لقد جلبوا مومياء رمسيس الثاني بالطائرة من مصر · جلبوها كي تداوى في باريس · لقد بدا الفطر ينمو على جبين رمسيس الثاني وبدات الجراثيم تاكل يده اليمنى ·لذلك ادخل هنا الى المختبر المستشفى· يداوى · ثم يعود الى بلاده معززا مكرما ·هذا دليل آخر على تواصل الحضارات ·

لم افهم · تقدمت · نظرت الى المسلة البيضاء فرايت راسها مدببا واسود · وحين هممت ان ابدي دهشتي لهذا الابداع المعماري الذي يمزج تداعيات الالوان، اكتشفت ان اللون الاسود يتحرك · انه ليس مجرد لون · هذا جسم غريب يتحرك وهو معلق على رأس المسلة المصرية · يتحرك يمينا وشمالا وكانه احد اوجه الريح · تقدمت من المسلة · لا فائدة · يجب ان ابتعد حتى ارى · ابتعدت قليلا فرايت جسما صغيرا اسود · جسم رجل يضع على راسه التاجين· يهز راسه ويبتسم للناس الذين يتجمعون حول المسلة ليتفرجوا على هذا الملك ·

ـ ما هذا ! رجل على رأس المسلة ! ·

انا لا ارى شيئا ، قالت · مجرد نقطة سوداء وتسميها رجلا ·

ـ هذا رجل حقيقي · انا متاكد · هذا رجل حقيقي يجلس على رأس المسلة، ويحكم الساحة ·

ربما كان حاكم المدينة الجديد ·

وكان حاكم المدينة رجلا يشبه رمسيس الثاني · ياتي كل صباح من كوخه في المختبر · يحيي الجمهور الذي يصفق له · ثم يضع حبلا على وسطه · يتسلق المسلة ويجلس عليها · هكذا يشعر انه لا يزال ملكا ·

الرجل القصير القامة ، الذي يخرج كل صباح من المستشفى ، يمشي ببطء· فهو رجل مريض ، نحيل الجسم ، ينحني قليلا · رجلاه صغيرتان ·يتمتم كلمات غير مفهومة · ياتي بعضهم ويقبل يده · لكنه يرفض هذا دائما · انه رجل مشغول وعليه ان يحكم بلادا شاسعة · وهو لا يفهم هذه التقاليد الجديدة في الحكم · لكنه يمارسها · عليه ان يتسلق مسلة طويلة كانه احد عمال البناء · ثم عليه ان يجلس على شيء يشبه الخازوق · هناك عدة انواع

من الخازوق يفكر الملك · الخازوق الميت الذي يدخل في الجلد فوق العمود الفقري ويخرج من الرقبة · خازوق التشويه الذي لا معنى له سوى الانتقام· حيث يؤتى بجثة عارية او شبه عارية ويجري اجلاسها على خازوق · وهناك هذا الخازوق الجديد · لا ، هذا ليس خازوقا يفكر الملك · هذا هو العرش الجديد ·

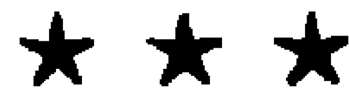
الالم الخفيف الذي يشعر به الملك يذهب تدريجيا امام جمال الساحة · يهبط في المساء عن عرشه ويسير في طريق طويل ومتعرج · يستطيع ان يحيد عنه قليلا ارضاء للجمهور لكن عليه ان يصل في النهاية الى المستشفى ·

يأتي الملك · جلالة الملك بقامته القصيرة وانحناءته التقليدية ولباسه العصري· ينحني مرة ثانية مخافة ان لا يكون الجمهور باسره قد راى انحناءته الاولى، او تاكيدا على تواضعه الديمقراطي ، او لاي سبب اخر نجهله · لكن جلالته لا يجهله · فهو يعلم كل شيء · والناس على دين ملوكهم كما يقول ابي · والملوك هم اسياد القرى حتى اذا افسدوها ·« ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة » ، كما يقول ابو زياد عندما نسأله رأيه في الاوضاع الراهنة · لكن ابو زياد لا يفهم في السياسة · يهتم بدكانه الصغير الذي كنا نأتيه والبنادق على اكتافنا ، نشتري الطعام القليل الذي يبيعه وهو يشكر الله · ثم حين اختفت البنادق واختفى الزبائن ، وجاءه الزبائن الجدد الذين يضربون الارض باحذيتهم القبيحة ، بدا يلعن الزمن والملوك ويردد آيته المفضلة التي عليك ان تسمعها حتى ولو اشتريت بالف ليرة · والا فهو لا يبيع · ينحني الملك ، يتقدم ، يعلو التصفيق ، تضيق الساحة · تضيق حتى تصبح علبة صغيرة · تنبت المسلة ، تعلو حتى تصبح خازوقا · اركض باتجاه الملك ، اريد ان اسأله سؤالا محددا · اريد ان اسأله عن صحة الخبر الذي نشرته الصحف والذي يقول أنه يعالج من الفطر الذي ينمو على جبينه والجراثيم التي تاكل يده·

ـ ما هي القصة الحقيقية يا جلالة الملك ·

لكن جلالته لا يجيب · الهواء بارد والساحة فسيحة وجلالته مستعجل · يريد ان ينهي المراسيم بسرعة كي ينصرف الى عمله · وهي الى جانبي لكنها لا ترى· لماذا هذه المرأة لا ترى وجهي والفطر الذي ينمو عليه ، ويدي التي تاكلها الجراثيم · لماذا لا ترى سوى الحضارات ، وكأن الحضارات أكياس من البطاطا التي اختلطت حتى لم تعد تستطيع تمييز حباتها ، لكنها لا ترى والملك لا يجاوب والهواء يصفق بجسده الصغير الذي يطير مثل القماش الاسود،وكأنه علامة الحداد وسط ساحة تمتليء باللون الابيض · ووسط انحناءات لا تحصى لرجال قدموا من مختلف القارات ·

امسكت بيدها · كانت تطير في الساحة ، وانا احبها · لكن جسدي يؤلمني · والاشياء تنمو او لا تنمو ، لكن المسألة اكثر تعقيدا كما احب ان اؤكـد دائما ، حتى لا اتورط في مواقف لا اريدها ، او حتى اموت مطمئنا الى صورتي المعلقـة على الحائط · انه يشبه الاخطبوط · ملك دون ريش ، وجهه صغير جدا ،اطرافه تنمو وتلتف حول المسلة المصرية كي تمسك برأسي وتسحقه، لكنني اهرب· اركض وسط الساحة ، الساحة محاطة بسور طويل وسميك · لا استطيع ان افعل شيئا· اريد سكينا كي اقطع الاطراف السوداء · انا في الزاوية ويدي تمسك نصـــــلا حادا · والدماء حول رأسي مثل تاج لا اريد ان اخلعه · انا هو الملك الحقيقي قلت لها · لكنها لا تفهم · لماذا هذه المرأة لا تفهم ؟ ولماذا هذا السور ؟ ولمـــاذا هذا الملك الآخـــر ؟·



بدأ المطر الذي يبلل رأسي وثيابي يجف · وهذا الرجل العنيد لا يزال يمسك بيدي ، ولا يسمح لي بالخروج من هذا الدهليز · فبرجيس نهرا رجل عنيد · لذلك تفوح رائحة الخمر من فمه وتدفعني الى حافة اليأس من هذه الحياة · فأنا رغم كل شيء مستعد ان اقتنع · استطيع ان اقتنع بان جميع المدن تتشابه ، وبـــأن الساحات تتشابه ايضا · لكنني لا استطيع ان اقتنع بأن النساء تتشابه ·فالمسألة اكثر تعقيدا وتحتاج الى مراجعة شاملة · ونحن حين كنا نهدم بيروت ، كنـــا نعتقد باننا هدمناها · نركض بين الساحات التي تخربت والبنايات التي انهـارت او التي هي على وشك الانهيار ونقتنع باننا دمرنا المدينة · اخيرا دمرنـــا المدينة لكن حين قالوا بان الحرب انتهت ونشروا صور الدمار الهائل الذي حل ببيروت، اكتشفنا اننا لم ندمرها · احدثنا بعض الفجوات في حائطها لكنها لم تدمر · وان القضية ربما احتاجت الى حروب جديدة · لكن جميع المدن تتشابه وانا مقتنع · غير اني لم اكن اعرف لماذا يقيمون الساحات وسط المدن · من اجل الهواء قال ابي · حتى لا تأكل البيوت بعضها وينبت الفطر على وجوه الاطفال · لكن جمال باشا له رأي آخر · وربما كان على حق · اذكر انه بعـد احداث ١٩٥٨ اعتقلوا رجلا اسمه التكميل والبسوه كل انواع الجرائم التي ارتكبت خلال الحـــرب الاهلية · ثم قالوا له بأن يصطنع الجنون · فنبتت لحيته واصبح يجلس في السجن ويروي انه الله ، ويبعث برسائل الى رئيس الجمهورية مبشرا بدينه الجديـــد ومعلنا براءته من الجرائم التي نسبت اليه · وكان مقنعا · ومـــن الواضح ان المحامي الذي اقنعه بان يصبح مجنونا هو الذي كان يكتب هذه الرسائل التبشيرية الجميلة · لكن الامور لم تسر في الخط المرسوم لها · كان لا بد من اقناع الحبال، والحبال لا تقتنع بسهولة · لذلك شنقوه · امام المشنقة لم يعد التكميل مجنونا· اعترف واستغفر · لست المجرم الوحيد قال · فالمجرم الحقيقي لا يزال في بيتـــه

او في الشارع او في مدينة اخرى · ورغم ان الجلاد بدا يومها مقتنعا · الا انــه لم يكن هناك وقت ، فشنقه · وارتاحت ضمائر رجال البوليس ، وعادوا الـى مزاولة اعمالهم الجميلة كالمعتاد ·

جميع الساحات تتشابه · هناك ساحات بيضـاء ، وساحات خضـراء ، وساحات رمادية انا افضل الساحات البيضاء ، قالت ·

ـ لكنها تشبه المستشفيات · ورائحتها مزيج من الادوية والبلازما ·

ـ لا · انها ساحات الملوك ·

ـ لكني اكره الملوك وافضل الساحات الرمادية · في الساحات الرمادية تجد السجون · وفي السجون قد نجد الراحة · ربما كانت السجون ضرورية في بعض اللحظات ، هناك ارتاح قليلا وانسى همومي · لان السجن يخلق همومه اليومية، وهي هموم مقنعـة ·

وجميع الساحات تتشابه · حتى في الساحات الخضراء ، حيث الماء والعشب والازهار· نجد حبلا يتدلى · او ملكا او خازوقا يشبه الاشياء الفنية المعقدة · نقترب منه فنجده مجرد خازوق عادي جدا ·

كانت الساحة فارغـة · الاصوات هي اصوات بعض الباعة الذين استيقظوا باكرا وحملوا الخضار والفواكه الى الاحياء حتى يبدأ النهار والامور تأخـذ شكلها الطبيعي · هكذا يبقى كل شيء طبيعيا رغم كل شيء · وحتى اكـون دقيقا · كانت هناك اصوات شاحنات النفاية التي تدور بعمالها على الاحيـاء السكنية الراقية ، خوفا من انتشار الاوبئة · الاضواء لا تزال خفيفة وتشبـه اضواء الصباح الباكر · وانا اقف في الساحة وهي تمسك بيدي وامامـي يقـف رجل سمين وقصير · رقبته سميكة كأنه خنزير بري · اصلع قليلا ، يحمل ورقة طويلة عليها كتابات بكل الاحرف · يقف في مواجهتي تماما · ينظر في عيني · والى جانب الرجل هناك حبل طويل يتدلى وكأنه سقط من السماء · يتقدم الرجـل مني ويبدأ في قراءة الورقة التي يحملها · ولم اكن افهم شيئا · نظـرت اليهـا · كان وجهها يتمدد ويصبح اكثر بياضا · يبدو انها تفهم الكلام الرهيب الـذي يقولـه الرجـل ·

ـ ماذا يقـول ؟

ـ ليس مهما الذي يقوله · فالمهم انه سيتحقق ما جاء في الكتب ·

ـ ولكن · ماذا جاء في الكتب ·

ـ كتبوا اشياء كثيرة في الكتب · وستتحقق ·

ونحن لا نحب الكتب ولا نحب قراءتها • ولا يهمنا ما كتب فيها • لاننا نعلم بالضبط ما هو مصير الكتب • واستاذنا يعلم ذلك ايضا • التقيته في الشارع ، وكانت القذائف تطير في سماء المدينة • لم اعرفه في البداية • كان متهدلا ومسحوقا • وفمه يميل قليلا الى اليمين اكثر من اللازم • ثم فهمت انه مرض مما ادى الى التواء فكه الاسفل

ذهبت الى الجامعة قال • فوجدت اشياء لا تصدق لماذا فعلوا هذا • هذا اجرام بحق الاجيال الطالعة • نهبوا الكراسي والطاولات والسجاد والالواح السوداء والطبشور • نهبوا كل شيء • بسيطة،يمكن تعويض هذه الامور • لكن المكتبة • هل تعلم ماذا فعلوا بها • يا ليتهم نهبوها حتى نقول انهم يستفيدون الان من الكتب • دخلتها فوجدت كل شيء في مكانه لكنه ممزق • مليون ليرة من الكتب الثمينة والقديمة مزقوها وداسوها باقدامهم ورموها على الارض وفي الحديقة وعلى النوافذ • المجانين • انا معهم ومع قضيتهم لكن ما هو ذنب الكتب !•

طيبت خاطره وتركته وانصرفت •

ـ سيتحقق ما جاء في الكتب !

كان واثقا من نفسه حد الاختناق ، وانا لا افهم الكلمات التي يتفوه بها • دنا مني • كنت اقف وخلفي حائط سميك لا يمكن اختراقه • دنا فمه من وجهي وبدأ يقرأ بصوت مرتفع • يرتفع الصوت وفمه يدنو من وجهي اكثر حتى احسست انه يكاد يبتلعني • كنت احاول التراجع فلا استطيع • ثم بدأ بصاقه يتناثر •اخذ يسرع في قراءته وبصاقه يسرع في تناثره على وجهي • صرخت به ان يتوقف • لكنه كان يتابع كأنه آلة عمياء • لا تفهم • ثم بدأت ، وتحت هذا المطر الكريه الرائحة افهم ما يقول • يبدو انه يتكلم عن اشياء خطيرة ، واحكام متفاوتة واعدامات ومشانق •

تستطيع ان تشنقني قال الرجل • وهذا حسن • لكن لا يحق لك ان تبصق في وجهي كل هذا الوقت الطويل • الاعدام شيء مشروع وقانوني • ولكن توقف عن هذه اللعبة السخيفة •

لكن الرجل السميك الرقبة كرقبة خنزير بري يتابع وكانه لم يسمع شيئا • او كأنه لا يريد ان يسمع • يبدو ان الجزء الرئيسي من مهنته هو عدم سماع اقوال المتهمين • ففي بعض الاحيان يكون احد هؤلاء مقنعا وهذا يشكل خطرا على وظيفة الرجل السميك الرقبة • فهو رب عائلة كبيرة ويريد ان يعيش ولا يعرف مهنة اخرى تدر ربحا يوازي هذه المهنة • رغم ان جميع الجيران يعتقدون انها مهنة قذرة • لكنه مقتنع بان جميع المهن قذرة ، وجميع المهن تتشابه والافضل ان نشرب من رأس النبع • لذلك يتابع مهنته • لا يتوقف لحظة • يقرأ الورقة محاولا

البقاء عند مخارج الاصوات · فهو لا يهمه مضمون الورقة · الذي يهمه هو العمل فبعد لحظات يجب شنق هذا الرجل · وعملية الشنق لا تاخذ وقتا طويلا · بضع دقائق لسماع خطاب من المشنوق · ثم بضع دقائق اخرى كي ينفذ طلبه الاخير · وهم يطلبون غالبا تدخين سيجارة ويتباطأون في تدخينها · لكن مهمـــا تباطـأ فالسيجارة ، وخاصة اذا كانت اميركية ، تنتهي بسرعة · ثم يبدأ العمل الحقيقي الذي لا يستغرق وقتا طويلا اذا احسن تحضير الحبل · حيث يختتم مهمتـــه بالتسلق بقدمي الرجل وشدهما الى اسفل حتى لا يتعذب كثيرا · انما اكثـــر الاشياء التي يكرهها في هذه المهنة هو قراءة الورقة الطويلة · في الماضي كانوا يجلبون احد القضاة لقراءة الحكم · اما الآن فعليه هو ان يقرأ · وهو يعلم ان هذا ليس قانونيا وان الحكم لم تصدره هيئة قانونية · لكنه لا يكترث فالهيئـــات القانونية تشبه الهيئات غير القانونية · وكل شيء يقود الى نتيجة واحدة هـــي استمراره في العمل ·

تقدم الرجل · كان يلبس الثوب الابيض الكلاسيكي ، وكانت الساحة خضراء والسماء رمادية · لم يطلب شيئا · حتى انه لم يطلب مسح المطر الكريه الرائحة عـــن وجهـــه ·

ـ سيجـارة ؟

لم يجاوب · رفع راسه الى اعلى ·

ـ هل تريـد شيئا ؟

لم يجاوب · رفع راسه الى اعلى ·

ـ ما هي وصيتك ؟·

لم يجاوب · ومرة ثالثة رفع راسه الى اعلى ·

ما هذا الصنف الجديد من الرجال · فكر الرجل السميك الرقبة · لكنهم فـــي النهاية يتساوون امام الحبل · يرتجفون ويبدأون بتلاوة الآيات والتعاويـــذ ويستغفرون ويبكون · تقدم الرجل بثوبه الابيض · لم يكن يرتجف · ربماارتجفت رجله اليمنى قليلا · لكن ليس هذا مهما · تقدم وكان على وجهه اثـــار حـــروق والماء ينزف من اذنيه · لم يقل شيئا صعد الدرج وتدلى على الحبل · كانجسده ينحني · يرتجف قليلا · لكنه كان يصعد باقدام ثابتة · لم يعد يستطيع التقدم· امسك به · كانت الاضواء تلون السماء · كان الجسد عجينا يتلون كل لحظة· لم يسقط · اخذته · ارتجف جسده قليلا كأنه في حمى · ثم سقـــط · وكانت المسافة طويلة جـــدا ·

هذه هي المسألة · المسافة الطويلة والساحة الطويلة والحبل الطويل · لكن الملك كان قصيرا ويرتجف · المسلة كانت طويلة ·

سيتحقق ما جاء في الكتب قالت ·

لكن الكتب بعيدة ، والمسافة طويلة جدا · الحبال اهم من الكتب اجبتها ·

كنا نسير ، يدها في يدي ، والحزن الذي يصفع وجه المدينة يصفع وجهينا · وكان الرجل الذي شنقوه حزينا · في المرة المقبلة يجب ان لا نكتفي بسرقة الحبل بل يجب تمزيقه، في المرة المقبلة يجب ان لا نكتفي باحتلال الساحات والابنية بل يجب تدميرها · الاساسي انه يجب ان تكون هناك مرة مقبلة ·

ـ الم اقل لك · جميع الساحات تتشابه · وجميع المدن التي تخترقها الانفاق ستدمر · بدأ برجيس نهرا يبدو الآن شاحبا · ثم بدأ ينزلق داخل ثيابه ، حتى اصبح مجرد ثياب تتحرك · العرق يتصبب من ثيابه بدأ يفكر بالفرقة الاجنبية · الفرقة الاجنبية مجرد حل مؤقت · لكنه افضل من لا شيء · الثياب تتحرك واشارات اليد لم تعد تعني اشياء كثيرة · الفرقة الاجنبية هي الحل الوحيد · انها افضل من لا شيء · وقد تصبح كل شيء ·

تركته ، وبدأت اركض باتجاه المترو · لم التفت الى الوراء · كنت اركض مسرعا · فربما لا تزال تنتظرني ·

الأدب والسياسة :
علاقة تلاقي أم علاقة اغتصاب ؟

د. فيصل دراج

لن يرضى السياسي عن الفنان ابدا

غرامشي

يحقق الفنان في عمله ما وجده وليس ما بحث عنه

بيكاسو

يحاول البعض وهما تقييد الادب بقواعد أو قوانين ، بانتاج نظرية تطمح لاحتوائه وتأويله وشرحه ، لكن تنظير العمل الادبي لا يساوي انتاجه ، فالممارسة الادبية اوسع من النظرية الادبية · النظرية تتبع النص ولا تنتجه ، ربما تلقي اضاءة ، تترك له انارة وصوى ، لكنها لا تستطيع المساهمة في تحديد البناء الداخلي للعمل الادبي · لذلك **فالنظرية الادبية لا تطابق الممارسة الادبية** ، والاعمال الادبية العظيمة لم تلد من رحم النظريات الادبية العظيمة · العمل الادبي سابق دائما للنظرية ·

الادب والسياسة : « الادب الثوري » ، « الادب المقاتل » ، « الادب الجماهيري » ، « الادب الملتزم » كلمات ـ شعارات شاع استعمالها حتى الصخب، مع أنها معايير سياسية أقحمها الصراع الايدولوجي في حقل الادب ، فاستقرت رغم زيفها ، لترجع الادب الى سياسة أي لتنفي أدبية الادب واستقلاله الذاتي ·

نقول منذ البدء أن بين الادب والسياسة علاقة ، لكن عدم تحديد شكل هذه العلاقة جعلها محكومة **بنقطة عمياء** تعجز عن تمييز مفاصل الادب عن مفاصل السياسة · يرتبط الادب بالسياسة لكونه شكلا من أشكال الوعي الاجتماعي المرتبط بموقع طبقي وموقف سياسي · لكن هذا التحديد حكم واقع لا حكم قيمة ، فلا تنبع قيمة العمل الادبي من موقعه الطبقي أو التزامه السياسي ، فتقييمه يتم بأدوات أدبية متميزة ·

تسمح النقطة العمياء في شكل علاقة الادب بالسياسة لبعض النقاد

بالدخــول الى حقل الادب من بوابة السياسة ، يدخــلون الــى الادب بشكــل مغتصب وتعسفي ليخضعوه الى قوانين كسيحة ، فيرفعون الادب الساقط باســم السياســة ، ويسقطــون وهمــا الادب الحقيقــي باســـم السياســـــة ايضا • ينتج هذا الموقف الهادف الى طمس الحدود بين الادب والسياسة عــن موقف براغماتي ساذج ، براغماتي حتى الارهاب وساذج حتى الجهالة •

براغماتي لانه يحاول فرض أدب معــين (كسيح بالضرورة) باسم السياسة، أي يستعــمل مفهــوما مرهبا ومحرجا لاقرار معايير ونفي اخرى ، اي يكســر المعايير السليمة ويفرض المعايير الهجينة وتسويق أدب بائس •

براغماتي أيضا لانه يحاول جعــل الادب ملحقا ذلولا للسياسة ، يقبل بما هو قائــم ويعــمل عــلى تأييده ، يثبت الحاضر وينسى المستقبل ، يمجد السكون ويحارب الحركة ، يكره النقد ويدعــو للصمت ، أي يدعــو لادب تغطية الثقوب• مع أن الادب كممارسة ابداعــية يقوم عــلى نقد ما هــو راهن ، يبشر بالمستقبل ويدعــو الى الحركة والتحريك والثورة •

ساذج لاعتقاده بامكانية تأطير الذاكرة ، واخضاع الفنان بتميزه وفرديتـــــه وابداعه الى قانون محدد ، لاعتقاده بامكانية تنظيم الخيـــــال الفني وترتيـــب الممارسة الفنية ، ينسى أو يجهل بان الابداع الفني يرفض كل قيد وتقييده يعنــي موته ، فقانون الفنان عفويته ، وتجربته الفنية تتبع فقط قانونها الخاص المستقــل عــن كل قانون • فالابداع ينمو كعــملية تلقائية حرة مطلقة السراح تنمــو وتغتني تبعــا لمنطقها الداخلي •

جاهل لانه لا يعرف التحديد ، يخلط بين الحقول ، لا يعرف مســـار المعرفـــة الانسانية في التاريــخ ، يقفــز أو لا يرى خصوبة الممارسات الانسانية ووظيفة كل منها ، لا يميز بين العــلمي والايدولوجي ، بين الظاهر والجوهر ، بيـــن المقولة والمفهــوم ، بين الادبي والسياسي •

لا تنمو المعــرفة البشرية بشكل احــادي الجانب ، بل تعبر عــن نفسهـــا بأشكال مختلفة ، تعبير شجري في تفرعــه وخصوبته يتجلى في حقول عــديدة من المعرفة أو شبه المعــرفة • فاذا تركنا الحقل العــلمي البحت جانبا وانتقلنا الى الحقل الادبي ـ الفني لوجدنا : الرواية والمسرح والشعر والموسيقـــى والسينما ••••• كل حقل وله دور متميز يتداخــل مع الحقــول الاخــرى ولا يتطابق معــها ، نشأ ونما ليعبر عــن رغبة معينة لا يلبيها حقل غــيــره • أي ان هناك المفهوم التكويني للممارسات الانسانية في تنوعــها وخصوصيتها• يتكون كل حقل ليقوم بوظيفة معينة ، لهذا فهــو يأخــذ خصائصه من بنيانـــه الداخلي وتميزه ولا يمكن ارجاعــه الى أي حقل آخر على الرغــم من ارتباطــه به ، ويتكلم المختصون في الادب والفن الان عــن روائية الرواية وفلمية الفلــم وشعرية العــمل الشعــري ••••

يعـني هذا أن الادب حقل متميز ، له استقلاله الذاتي النسبي ، ولا يمكن أن يقيم الا بواسطة أدوات تنتمي الى حقله لا الى حقل آخر ٠ اذا رجعنا الـى السياسة وجدناها أيضا حقلا خاصا لممارسة متميزة ٠ فأدوات الاديب غـير أدوات السياسي ٠ تتقدم السياسة بمعاييرها ومقولاتها الخاصة :الاستراتيجية والتكتيك ، ميزان القوى ، المناورة ، المبادرة السياسية ٠٠٠ والتي تتلاحـم جميعـا لتعطي الممارسة السياسية بنيتها ، فاذا انتقلنا الى الادب وجدنا لـه نمط تقدمه الخاص به : المستوى اللغوي ، توازن الشكل والمضمون ، وحـدات المعنى التي تحدد البنيان اللغـوي الشكلي للعمل الادبي وأسلوبه ، الصـورة والكناية ٠٠٠ ، أي أن لكل من الادب والسياسة نمط وجوده الخاص ، أدواته، دوره في المجتمع ، وبالتالي **فان سحب حقل الادب الى حقل السياسة الغـاء للاول ومضاعفة للثاني ٠**

ان هذا التميز والتفارق بينهمـا لا ينفـي العـلاقة بينهمـا ، عـلى شرط أن تكون علاقة مبصرة لا علاقـة عمياء ٠ يجب ان نميز هنـا بين الاديـب وعمله، فالاديب انسان أما عمله فنص أو موضوع ابداعي ، الاديب لا يساوي عملـه ٠ يمكن ان نقول انطلاقا من التمييز بين الاديب وعمله :

يقدم الاديب من حيث هو ذات انسانية حـرة موقفا سياسيا من العـالم بينما يقدم عـمله موقفا أدبيا من العـالم لـه أثر سياسي ٠ ولا يتطابق موقـف الاديب مع أثـر موقف عـمله الا عـندما يستطيـع تحقيق التوازن بين مفهومه للعـالم وبنائه الفني ٠

فالاديب كانسان ، كفرد ، يقدم اذن موقفا سياسيا مباشرا في حيـن يقـدم عمله موقفـا لا مباشرا ٠ لهذا **فبين الاديب والسياسة علاقة تداخـل اي علاقـة مباشرة وبين العمل الادبي والسياسة علاقـة تخارج اي علاقة لا مباشرة ٠**

السياسي والاديب :

يرافق الاديب السياسي في مسيرته متميزا عـنه في شكل تعامله مع الواقـع وشكل فعـله في التاريخ ، لكل منهمـا أدواته الخاصة وانتاجه الخـاص وتاثيره الخاص ، بينهمـا افتراق ولقاء ، افتراق في شكل الوصول الى المثال ولقاء في المثال نفسه ٠ لكل شكل ممارسته فالسياسي : يتعاطى مع الزمـن المباشر ، الفيزيائي ، اليومي ، يهتـم باللحظة المباشرة لحل تناقضها وتجاوزها، يحصر نفسه فيما هو راهن ، فزمان السياسي متقطع ، منكسر ، مراوح ،متراجع احيانا ٠

أما الاديب فيعيش في **الديمومة** ٠ له زمن رحب متجانس تنفتح فيه اللحظـات على بعضها ، **زمن دائري** يحدده منطق الابداع ٠

لا يتناول السياسي « الحقيقة » مباشرة علـى الرغـم من نضاله لاجلهـا، يناور ، يبرر ، يقبل بالحقائق الجزئية ، يتجاهل الحقيقة مع ارتباطه بهـا • أما الاديب فهـو لا يجزيء الظواهر ، يتعامل معـها ككل باحثا عـن الحقيقـة والشفافية والصدق ، انه وعـي السياسي في يقظتـه المستمرة ، يقول مـا لا يستطيع أن يقوله الاخير ويقول ما يرفض ان يراه احيانا هـذا الاخير •

يخـلق السياسي وفقا لمنطق عـمله جملة محرمات محاذرا الا تمس •بينما يتمحور عـمل الاديب عـلى كسر المحرمات ، عـلى تحرير الوعـي والانسان بلا حدود • فحقيقة السياسي راهنة ، مجزأة وحقيقة الفنان كليـة منسقـة • لا يعـني هـذا حكم قيمة فلكـل منهمـا شكل عـمله وأصوله ، يلتقيـان ويفترقان في مسار الثـورة المعـقد ، لكل منطقة • لهذا يؤرق الاديـب السياسي ويؤرق السياسي الاديب في ضفاف عملية تاريخية مستمرة تهفو الى المثال •

يعـرف السياسـي المساومـة والبراغماتيـة ، يـدور في فضاء الاحصـاء والحسابات الباردة • أما العـمل الابداعـي فلا يعـرف المساومة وان عـرفها سقط فالعمل الكاذب لا يكون عـظيما •

يهتم السياسي في يوميته بعـملية الربح والخسارة بالواقع المباشر بخشونته ونجاحاته واخفاقه مفترقـا في ذلك عـن الاديب الباحث بدأب عـن الحقيقة في الديمومة • لكل منهمـا شكل اقترابه من الحقيقة والثورة • يعيش كـل منهما زمانه بشكل مختلف •

يتوجه السياسي الى عقل الجمهور مقدما مقـالا سياسيا مرتبطا بواقـع مشخص ومهمـات مشخصة أيضا • في حين يتوجه الفنان الى الاحسـاس والعـاطفة مقدما صورة جمالية تداخـلت فيها الازمنة وترامت فيها الامكنة •

اذا كان السياسي يطمح الى صيغـة سياسية متوازنة يتعامل بها مع المهمات المباشرة المطروحـة عليـه فان الاديب يطمح الى صيغـة فنيـة متوازنـة يعكس بها زمانه ويتعامل معـه • **فالاول يحاول ترويض اللحظة السياسيـة والثاني يجاهد لترويض اللحظة الادبية •**

ان اختلاف السياسي عن الاديب يجرهمـا احيانا أو غالبـا الى الافتـراق والمصادمة ، فيعمل عندها السياسي عـلى خـلق أدبه بنفسه ، يصنع ويفبرك الادباء والفنانين كي يدوروا في فلكه ويناور بالادب والفن • يخـلق السياسي وهو المولع بالادارة والتنظيم أدبا اداريا أو أدبا مؤسساتيا يكون دوره التبريـر والتجميل والتعطير ، يبرر السقوط ، ويجمـل القبيح ، ويقبح الجميل • أي يصبح دور الادب ليس البحث عـن الابداع الادبي بل عـن التبرير الادبـي للمارسات السياسية الخـاطئة أي مشتقا أدبيا للسياسة ، انه أدب تغـطيـة الثقوب •

يستطيع السياسي اذن من خلال أدواته الادارية خلق أدب رسمي وتعميمه وخلق حركة نقدية موازية له وانتاج قارىء مشوه يدور في فضاء الحركة الادبية المشوهة · أي تستحيل الادارة السياسية الى اداة تكبح الوعي وتحارب الابداع وتكرس القيم المتخلفة والزائفة · **تخلق حقلا ثقافيا مشوها** · نستطيع بالاعتماد على ما سبق أن نطرح ما يلي :

ا ـ عندما يسقط الفنان لدى الجمهور فالساقط هو السياسي وليس الفنان· فالمسؤول عن خلق المناخ الثقافي المسيطر بارتفاعه وسقوط هو السياسي أولا ، فامكانياته وقدراته على الحركة والتعبئة والتوعية وهندسة مفهوم العالم تتجاوز بكثير امكانيات الاديب · يتقدم الاديب بعمله ، بانتاجه كأديب، بينما يتقدم السياسي بأجنحته المتعددة الادارية والتنظيمية والجماهيرية · **فخلق الوعي المسيطر بكل اشكاله ممارسة سياسية بالضرورة مناطة بالسياسي قبل الاديب** ·

ب ـ تنتج كل حركة سياسية جماهيرية اطارها الثقافي ، أطرها الادبية والفنية ، ممارسة ثقافية جديدة مرتبطة بممارسة سياسية جديدة · لذلك فان **فشل الحركة الثقافية أو سقوطها فشل للسياسي قبل الاديب والفنان** · واذا كان انتاج العمل الادبي مرتبط بالاديب فان انتاج الحركة الثقافية بأشكالها يعود الى السياسي · فاعطاء الثقافة الجماهيرية الجديدة **ممارسة سياسية** في التحديد الاخير ·

ان تصحيح شكل العلاقة بين الادب والسياسة شرط أساسي لانتاج أدب حقيقي ، وهذا يتطلب نضالا مستمرا يقتضي بالضرورة الدفاع عن الادب ·

الالتزام · كيف ؟

تحمل كل فكرة آثار الشرط التاريخي الذي اوجدها ، فاذا انتهى هذا الشرط كان على هذه الفكرة أن تتجدد أيضا والا تخلفت وتاهت في المراوحة والجمود · و« الالتزام » في الفن والادب كلمة ترتبط بفترة تاريخية سابقة ، نمت في فترة معينة وحملت دلالة قسرية ، أو حملها الشرط التاريخي الذي أوجدها صفات قسرية أي خارجة عنها ·

بقيت هذه الكلمة « الالتزام » قائمة ـ مراوحة حاملة معها تشوهها حتى الان ، واستعملت حتى اغتصبت مقام المفهوم العلمي مع انها ضبابية في محتواها ، مترهلة في حدودها · الالتزام كلمة غامضة ، مرهبة ، مضللة ، زئبقية ، لا محدودة الدلالة · وهي ليست شعارا أدبيا بل أداة لمحاربة الادب باسم السياسة أي حصارا للادب ·

كل أديب ملتـزم بطبقته ، أي ملتـزم أيدولوجيا وسياسيا ، لا يشذ عــن هذا القانون أحـد بما فـي ذلك دعـاة الفن للفن الذين يعبرون في حملتهـم المسعـورة عـلى الالتزام عـن موقف طبقي ، وعـن شكل معـين من الالتـزام يخدم الطبقة البرجوازية والمسيطرة • فالالتزام بكل أشكاله تحصيل حاصـل ، ليس اكتشافا ولا معيارا أدبيا • فكلمة الالتزام اذن زائدة نافلة ، ينبغـي حذفها بشكلها الراهن من معـايير العـمل الادبي • واذا شئنا الاحتفـاظ بها كان عـلينا التخلص من ضبابيتها •

يقال عـادة أن الالتزام هو تناول الاديب أو الفنان للمواضيع السياسيـة والاجتماعـية ، أي تناول حركة المجتمع بكليته المتناقضة • هل يعـني هـذا شيئا ؟ فكل عـمل أدبي مهمـا كان شكله أو موضوعـه يمكن ارجاعـه الـى الوعـي الايدلوجي الذي أنتجه ، ويمكن القيام بقراءة سياسية حتى لروايـات الحب وأصول المطبخ • فالحياة سياسة والسياسة قائمة في كل مكان • واذا التزمنا بمقولة الالتزام لتحديد أدبية الرواية العـربية لوقفنـا أمام جـدار واكتشفنا كسافة الضوء الذي نهتدي به • فكل الروايات العربية تتناول الصراع الاجتماعـي ـ السياسي : غسان كنفاني ، اميل حبيبي ، مولود فرعـون ، صنع الله ابراهيم ••• ، وكذلك حال الشعر العربي : السياب ، الجواهري، محمود درويش ، توفيق زياد ••• هل يعـني هذا شيئا ؟ ان فكرة الالتـزام لا تقدم لنا أية انـارة أدبية • ويمكن بشكل عام أن يتناول أديبين ذات الموضوع فيكون أحدهما فنانا والاخر ناسخا مبتذلا • فكلمة **الالتزام اذن موقف سياسي من الادب لا موقف أدبي منه •**

اذا تركنا الادب العربي والتفتنا الى الادب العالمي لوجدنا مفهوما عائما فـي كل مكان ، ان شرحـه للادب لا يعـني أكثـر ما يعـنيه قولنا ان الاديـب يستعـمل الحبر والورق في عـمله • يقول نورمان ميلر انه ملتزم بقضايـا الانسان ، وسارتر ملتزم بقضايا الحرية ، ومایاكوفسكي بالثورة الشيوعية • ويدخـل في اطار أدعـياء الالتزام الاشتراكي الديمقراطي الالماني جونتر جراس المعـادي للشيوعـية ، والمسيحـي الفرنسي برنانوس ، والامريكي فيليب روت، كما يتكلم غاستون باشلار عـن التزام الروح • فكلمة الالتزام موجودة وجـود الطبقات الاجتماعـية في هـذا العـالم ، لكل مثـاله على طريقته ، وهـي موجودة في كل اللغـات حتى قبل ظهور الثـورة الاشتراكية ، واستعملـت بالفرنسية منذ القرن الثاني عـشر ، كما يظهر انجلز بأن اليوناني ايخيليوس كان ملتزما وكذلك أرستوفان • وشعـرنا العربي بشقيه الجاهلي والاسلامـي ألم يكن ملتـزما بالقبيلة والقصر والخليفة !!

قد يقول البعـض اننا ضد فكرة الالتزام بمعناها الضبابي الواسع ، واننـا ندافـع عـن شكل متميز من الالتزام يخـدم قضايا الفقراء والثورة • لكـن هذا لا يغـير شيئا في طرح المسألة بمنطقها الادبي •

تعـني الدعـوة الى الالتزام الادبي عـند أنصارها خـلق مدرسة أدبيـة تتناول نفس المواضيع بأدوات أدبية متماثلة أو متقاربة للتقدم الى جمهور معين واعـطاء أثر أيديولوجي وجمالي معينين · ان هذا المنطق على الرغـم من نبل أهدافه يتهافت أمام الاعتبارات التالية :

ـ ينبع التزام الكاتب من ذاته لا بصيحـة خارجية عـنه ، فعـمله وحـدة تعبر عـنه أدبيا وسياسيا · ان الدعـوات الالتزامية لا تخـلق ادبا ملتزمـا وقيادة النص من الـخارج لا تنتج أدبا · فالالتزام دعـوة لقيادة النص مـن خارجه وتدخـل في ممارسة الاديب الذي هـو ذات محددة بممارستها وتجربتها وخبرتها ووعـيها ولا يمكن أن تكون الا خلاصة لذلك · لهذا فان ادارة العـمل الادبي من خارجه تحطمه ، وتحولـه الى بنيانين بدلا من بنيان واحد ، بنيان يعبر عـن الاديب وبنيان يخضع للقيادة الخارجية ·

ـ اذا كان الالتزام لا يصدر عـن الاديب كاختيار حر وتلقائي ، فان دعوتـه الى الالتزام لن تؤدي الى شيء ، ويصبح الالتزام موقفا أخلاقيا ـ برجوازيـا مقطوع الصلة بالمفهوم المادي للعـالم ويتعارض مع المفهوم المادي لعـمليـة الكتابة وأثرها السياسي · فالدعـوة للالتزام ترادف الدعـوات الاخـلاقيـة الاخـرى مثـل حب الخير وتجنب الشر أي مرتبطة بمفهوم أخلاقي للعـالم ·

ـ ان خـلق مدرسة أدبية ملتزمة ليس مناطـا بالاديب بل بالحركة السياسيـة التي عـليها أن تناضل لخـلق شروط مادية تسمح بولادة أديب ملتزم يعـطي نصا أدبيا موحد البنيان · واذا كان الانسان بشكل عـام محصلة للعـلاقـات الاجتماعيـة فـان الاديب أيضـا محصلة للعلاقـات الاجتماعيـة ، لذلـك لا يمكن تغييره بقرار · لهذا ينبغـي أن نميز بين المفهوم الارادوي للالتـزام والمفهوم المادي للالتزام · فالاديب يعكس ممارسته ·

ـ تهدف فكرة الالتزام الى تنظيم دور الادب وتنظيم علاقته بالجمهـور ، أي تنطلق من مفهـوم التنظيم والادارة · لذلك تسقط نظريا في المفهوم الآلـي للعالم والمفهوم البيولوجي للمجتمع ، انها موجهة نحو مجتمع ، يسير بدقة الجسم البشري وضبط الآلة ، لكل وظيفة ، طرف يرسل وطرف يتلقـى في وحـدة انسجامية · ينسى هذا المنطق الميكانيكي مفهوم التناقض · فالالـتزام ليس رغبة ذاتية بل مرهون بعـملية التحـول الاجتماعـية المدفوعـة بتناقضاتهـا المتجـددة ·

ان فكرة الالتزام على الرغم من ظاهرها الثوري مثالية فلسفيا وبرجوازيـة سياسيا · فهي تنهض على مفهوم أخلاقي للادب والعالم · هل يعـني هذا ان فكرة الالتزام لا وجود لها في الادب ؟

اذا كانت ممارسة الاديب لها تميزها فان التزامه له تميزه أيضا · ان الالتزام

السياسي للاديب هو الالتزام الادبي للاديب ، فمهما كان موقفه السياسي وموقعه النضالي يتقدم الى العالم أدبيا · **فالالتزام الاساسي للاديب التزامه نحو أدبه** ، وعندها فقط يقدم أعمالا ذات قوة أدبية تساهم في تغيير العالم وتحويله · أما الاعمال المباشرة والخاضعة للالتزام السياسي كالتزام أساسي ووحيد فلا تقدم أكثر من اضافة تحريضية سريعة الزوال ·

يعبر الالتزام الادبي عن نفسه ببحث مستمر عن شكل جديد ومضمون جديد ، بحث عن الجمالي وبحث عن المعرفي ، فالشكل لا يخلق وحيدا بل كتعبير عن مضمون بحث عنه الفنان طويلا · فالمعرفة تهدم الظواهر الزائفة وتظهر بشكل ديالكتيكي امكانية تحويل العالم وتثويره · فالفنان يحاول فهم الظواهر وتأويلها ، يراقبها ويرصد حركتها ، ويولد الشكل لديه كأداة ضرورية لتجسيد هذه المعرفة في موضوع جمالي ·

فالبحث عن الشكل بحث عن المعرفة ·

المثال الفني والمثال الاجتماعي : يتوارى في فضاء العمل الادبي العالم المعاش بمباشرته واقنعته المتعددة ليحل مكانه عام اخر يغايره ولا يماثله على الرغم من ارتباطه به ، عالم له منطقه الخاص وبنيان يتداخل فيه الحلم بالواقع وتنكسر لديه دلالات الزمان والمكان · **فالعالم المعاش لا يساوي صورته الادبية** ·

يتناول الاديب الواقع بأدواته ليعيد انتاجه كامتداد لرؤياه الفنية وطموحه السياسي والاخلاقي · يحاول في اعادة انتاجه للعالم المعاش أدبيا اعادة انتاجه ماديا أيضا ، فرحلته الادبية بحث عن خصوصيته كفنان وبحث عن عالم جديد ، رحلة ثنائية البعد يبحث الفنان عبرها عن شكل جديد وعالم مفقود ، يجاهد لتملك العالم فنيا كي يتملكه فيما بعد سياسيا واجتماعيا · أي يبحث عن عالمه - المثال في لحظة بحثه عن مثاله الفني ·

يشكل العالم المعاش مادة أولية لانتاج العمل الادبي ، فبين العالم وصورته الفنية علاقة ، لكنها **ليست علاقة تماثل بل علاقة نفي** ، فعندما يصيغ الفنان عالمه في عمله ، يخضعه لمفهومه ، فينزع عنه توازنه الظاهري ، يكسره ، يبدد سديمه اللامرئي ، يولده من جديد عاريا شفافا كثيفا · **فالفن تكثيف وانارة للعالم** ·

يضعنا الفنان اذن أمام عالم جدلي الدلالة : الواقع التجريبي المباشر / الواقع المصاغ فنيا · عالمان يولد أحدهما (الثاني) من هدم الاخر · وتبقى وحدتهما وتطابقهما حلما وشوقا ومهمة للثورة ·

يهدم الفنان الواقع ويبنيه في الوقت نفسه ، فيموت في مباشرته ويبعث فنيا ·

لا يعـني هذا المنطق أن الاديب (الفنان) روح خالصة ، مطلق لا يصيبـه التحديد ، فهـو يخضع رغـم تميزه وفرديته الخاصة لمفهوم التحديد ، يعبـر عن موقف سياسي مشروط بموقع أيديولوجـي ، أي لـه باستمـرار مثـال اجتماعـي يسعى اليه ، فـان وجد جاهـد لتثبيته وان لم يوجد عمل عـلى الوصول اليه ، ويتعامل في الحالتين مع العالم فنيا · لكن اذا كان الفن نفيـا للعالم فكيف يستطيـع فنان الطبقة المسيطرة المناهضة للثـورة أن يهدم عـالمه مع أنه يسعـى لتثبيته ؟

يعـمل فنان الطبقة المسيطرة في فنه عـلى نفي وتثبيت عـالمه ، لكنه فـي نفيه يقوم بانتاج عـالمه وهميـا منتجـا صورة وهمية لـه ، أي يثبته بتجميله واضافة صفات اليه ، او بانتاج موقف منـه يهـدف الى ابقائـه لا تحطيمـه (مسرح العبث) · ويبقى مع ذلك موقفه السياسي وموقعـه الطبقي ليـس معـيارا أدبيا أو جماليا ·

نستطيع بعد هذه المحاكمة اقرار الاطروحـة التالية : ينطلق الفنان من الواقع ليعـود اليه اما مثبتا أو باحثا عـن البديل · فالعـمل الفني يتضمن الواقـع والاشارة الى البديل ، البديل في شكله الوهمي أو الحقيقي ·

يحدد الاديب موقفه من العالم عبر بنائه الفني لهذا العالم ، ويتقـدم العـمل الفني من داخـله لا من خارجـه ، فالاديب ينتج موقفا فنيا لا أطروحة سياسية·

يهدم العـمل الادبي الواقـع مرتين أو يطمح لهدمه مرتين : عندما يصيغـه فنيا وعـندما يصيغـه ليبرز ضرورة هدمه · لكن عـملية الهـدم هذه ليسـت متواقتة ، فعملية الهـدم الفنية تتم في زمن انتاج العمـل الفني ، أمـا عمليـة الهـدم المادية والتي هي طموح وأثـر للعـملية الاولى فتتم في زمانهـا · يخـاطب الفنان الحاضر والمستقبل ويتداخـلان لديه كوحـدة زمانية ترشح فـي البناء الداخلي لكل عـمله ·

اذا كان لكل عمل ادبي اثر سياسي فمعنى ذلك ان كل مثال فنـي يشيـر الى مثال اجتماعي ، فما هو شكل العلاقة بين المثالين ؟ وكيف يومىء الفنـي الى الاجتماعي ؟ ما دمنا نتكلم في حقل الادب ونحترم استقلاله النسبـي فان هذه العلاقة واليتها لا تتواجدان الا في حقل الادب او الادبي · لذلـك نستطيـع ان نقول :

يقترب المثال الفني الى مثاله الاجتماعـي محمولا على آلية التاثير الجمالي، يعبر فضاءه التاريخي مدفوعـا بحمولته الجمالية · فالعـمل الفني مساهمة متميزة في الثـورة ومن أجل الثـورة · وكما أن الثـورة صيرورة وسيرورة فكذلك حال آلية التأثير الجمالي ، ففعـلها ليس مباشرا وان كان في جوهـره مباشرا ، لا يفهـم العـمل الادبي دفعـة واحدة بل ينتظر دائما مرحلته لكونه

مشروطا ببنية اقتصادية ووعـي اجتماعـي معينين • فتملك الاثر الجمالـي محكوم بمستوى الوعـي المسيطر •

اذا رجعـنا الى مقولة : المثـال الفني / المثال الاجتماعـي ، نرى ظاهريـا علاقتين جمالية واجتماعـية ، لكن العـلاقة الاجتماعـية تنضوي تحت العلاقة الجمالية وتذوب فيها أي تستحيل بدورها الى عـلاقة جمالية رغم مضمونهـا الاجتماعـي • فالعـمل الادبي اذن :

بنيان معـقد فيه عـنصر مسيطر هو العـلاقة الجمالية • ويعـني هذا ان تقييم العمل الادبي ينهض من العـلاقة الجمالية المميزة له كنشاط ابداعـي مستقل • وتتكشف لنا موضوعـية هذا التقييم عـندما نستعـيد شكل فعـل العـمل الادبي أو آلية التأثير الجمالي التي تحكم المسار من الفنـي الـى الاجتماعـي • فالعـمل الادبي يمارس دوره كموضوع للاستهلاك والانـارة والتحريض بحمولته الجمالية ، أي **يتقدم في التحديد الاخير كعـلاقة جماليـة لا كموقف سياسي** • ويسقط بذلك التقييم السياسي ـ الايدولوجي للادب والفـن ليحل مكانه التقييم الجمالي •

ويدفعـنا هذا الموقف الى اعـادة النظر بمدرسة الواقعـية الاشتراكية ،والتي تصبح عـلى ضوء هذا التحليل موقفـا سياسيا ـ ايدولوجيا من العالـم لا مدرسة أدبية • لذلك فان انتاج ادب الثورة لا يمكن أن يتم دون كسر جميـع الاقانيم والنواميس المحنطة بما فـي ذلك المعـنى السائـد للواقعيـة ـ الاشتراكية •

اذا كان للفنان مثال اجتماعي فذلك يعنـي أنه ملتـزم بالحركة السياسيـة التي تناضل لتحقيق هذا المثـال ، مربوط الى زمان ومكان ، ولعـمله الفنـي زمانيته ومكانيته ، أي مربوط الى طبقة اجتماعـية تتفق معـه سياسيا • تطرح عـلينا مقولة الاديب والزمان والمكان مباشرة **مشكلة التوصيل** •

ليست مسألة التوصيل زائفة أو هجينة فهي قائمة في ديالكتيك الانتـاج والاستهلاك ، الجمهور والفنان ، الصانـع والمستعـمل ، قائمة في ديالكتيـك العـمل الفني وأثره الجمالي • الفنان والجمهور اذن ! نعـم • ولكن كيف ؟

لا بد منالتمييز هنا بين الاديب البرجوازي والاديب المعبر عن تطلعات واشواق الجماهير المضطهدة والثائرة•فبالنسبة للاديب البرجوازيلا تأخذ مشكلة التوصيل حجما معقدا ، فهو يتوجه لطبقة تأكل وتعيش وتقرأ •أما الاديب الملتزم بالثـورة فيكتب لطبقة تأكـل أقل وتعيش اقل ولا تقرأ ، او تقرأ ولا تجـد الامكانيات لذلك ، او تقرأ زمرة منها • فكيف يتقدم الاديب (الفنان) الى جمهوره فـي الحالة الثانية ؟

عملية التقدم هذه معـقدة ، تجريبية ، متعـددة الاشكال ، ولا يمكن ان تأخذ معـناها الحقيقي الا بقبول الحقيقة التالية :

أ ـ الادب والفن ليسا متعة مجانية واستهلاكا بسيطـا · فعمليـة القراءة استهلاك وانتاج في الوقت نفسه · فالقارىء عـندما يحاول فهم العـمل الادبي يستهلكه كموضوع وينتج نفسه كذات ، ويفقد العـمل قيمته ان لم يجبـر القارىء عـلى التفكير والمحاكمة ويتحـول الى استهلاك بسيط مبتذل يكرس تخلف القارىء · فالادب المتخلف ينتج قارئا متخلفا · اذا كان العمل الادبـي انتاجا متميزا فان القراءة أيضا انتاج متميز ايضا ، فالقراءة الواعية اعـادة انتاج للنص وللقارىء · أي ان الكتابة انتاج والقراءة انتاج وكلاهما يحتـاج الى جهـد متميز · في هـذه الشروط فقط يصبح الادب (والفن) اداة انارة وتحريض ، عندما يجبر الفكر على مراجعة مفاهيمه فيدفـع باتجـاه خـلق فكر جديد · أما « الادب السهـل » أو « الادب الجماهيري » فهو ابتـذال للادب ، عـاجز ويدفـع الى العـجز لانه رهين لشكل الوعـي المسيطر ، وليس متمردا عـليه ·

ب ـ ينبغـي أن يكون وصول الاديب الملتزم بالثـورة الى جمهوره عمـليـة ثورية أيضا · واذا كانت الثـورة هدمـا للبنى المسيطرة فان على الادب الملتزم بالثـورة أن يهـدم الاشكال والمضامين المسيطرة أي يصبح ممارسة ثورية : شكل جديد لمضمون جديد والا سقط المضمون ، فأدب الثورة هو ثـورة فـي الادب · لهذا يمكن أن نقول :

ـ يتجلى النضال من أجـل مضمون جديد كنضال من أجـل شكل جديد فـي الوقت نفسه · فالمضمون لوحـده نقطة انطلاق عاجزة والثورة في الادب ثورة في الشكل أولا ·

ـ يعـني أدب الثورة ولادة نمط جديد من الكتابة ونمط جديد من القراءة تقوم عـلى عـملية نفي مستمرة لما هو قائم للوصول الى ذات ايجابية : كاتب ايجابي وقارىء ايجابي ·

ـ الممارسة الادبية عـملية نفي مستمرة لذاتهـا وللعـالم ، نفي يـرادف الايجابي مع أنه النفي بعـينه · فالفنان باحث مستمر لا يعـرف التعـب ، يتجدد من خـلال بحـثه ، يحاول فهـم العـالم وترويضه فنيا ، يكدح للوصول الى شكل جديد · فالعـملية الفنية عـملية في حركة ، توتر مستمر في بحـث لاهث عـن وحدة انسجامية للشكل والمضمون ·

ويمكن أن نقول في النهاية أن الاديب يحاول الوصول الى الجمهور عـن طريق الشكل المتجـدد لا المضمون المبسط ، يرسم العـالم بأشكال متجـددة تجدد نموه الفني عبر « محـاولات » و« تجـارب » و« استعـارات » من ثقافة شعبه وثقافات الشعـوب ·

التركيب الاقتصادي لشرقي الأردن
مقدّمات التطوّر المشوّه (١٩٢١ / ١٩٥٠)
السكان ووضع الاقتصاد التقليدي (الرعي والزراعة)

هاني حوراني

القسم الثالث :

١ ـ التركيب السكاني والتحولات السكانية في شرقي الاردن

أ ـ الاتجاه نحو الاستقرار البدوي

تظهر التحولات السكانية في شرق الاردن ، بعد الحرب العالميـــة الثانية اذا قورنت بفترة تأسيس الامارة الهاشمية عام ١٩٢١ ، تعبيرا مباشرا للتحـــولات الاقتصادية ـ الاجتماعية التي حدثت على التركيب الاقتصادي ـ الاجتماعـــي الاردنـــي ٠

ان اول مظاهر التحول في التركيب السكاني ، هو انخفاض عدد السكان مـــن البدو الرحل في الاربعينات عنه في مطلع العشرينات ، وهو ما سنعمد الى تفسيره فيما بعد ٠ ففي عام ١٩٢٢ كان تقدير عدد سكان شرقي الاردن يشير الى مـــا مجموعه ٣٥٠ر٢٢٥ نسمة ، اقل من نصفهم بقليل من البدو الرحل ، غيرالمستقرين في الارض، اي ما يوازي ١٢٠ر١٠٢ نسمة او ٤٦٪ من السكان٠ والباقي يتوزعهم الريف والمدن (١) ٠ في عام ١٩٤٣ كانت الارقام الرسمية تشير الى ان ٠٠٠ر١٢٠ نسمة ، من مجموع السكان البالغين ٠٠٠ر٣٤٠ نسمة ، قد غدوا بدوا انصـــاف مستقرين ، اي انهم قد حدوا من ترحلهم وانخرطوا في الزراعة ، او في نمط مختلط يجمع ما بين الزراعة والرعي المحدود ٠ في حين ان ٠٠٠ر٤٠ نسمة فقط ، قد بقوا بدوا رحلا (٢) ٠ اي ان توزع السكان بين الحضر والبداوة كان يشيـــر الى ان ٣ر٣٥٪ من السكان هم من انصاف البدو ، ٨ر١١٪ حافظوا على تكوينهم البدوي الصرف ، مقابل ٩ر٥٢٪ من السكان شكلوا القسم المستقر دائما من السكان ٠

---

(١) راجع : سليمان موسى « تأسيس الامارة الاردنية (١٩٢٥/٢١) » ، عمان ، ١٩٧١٠ تقديرات نيابة العشائر (٢٣ أب ١٩٢٢) ص ١٧٧ ـ ١٧٨ ٠

(٢) A. Konikoff ; Transjordan, An Economic Survey. Jerusalem. 1946, P. 17.

تبدو ارقام عام ١٩٤٦ ، متناقضة في بعض معطياتها مع احصاءات عام ١٩٤٣، لكن هذا التناقض يعود الى لبس معنى البداوة عموما وصعوبات تصنيف الانماط الوسيطة بين البداوة والاستقرار · هكذا تشير ارقام ١٩٤٦ الى ان عدد البدو الرحل في شرقي الاردن قد بلغ ٢٦١ر٩٩ نسمة مقابل ٣٩٨ر٣٣٤ نسمة من السكان الحضر (٣) · وبالنسب شكل السكان البدو ٢٣٪ من السكان مقابل ٧٧٪ من الحضر ·

يلاحظ ان المظهر المباشر الاول للتحولات السكانية بين مطلع العشرينات والاربعينات هو وجود اتجاه عام للاستقرار في الارض والاتجاه الى الزراعة والى انماط الانتاج المختلطة ذات الاستقرار النسبي ، او ذات الانتقال المحدود ·

ب ـ اتجاهات الجذب والطرد في الريف الاردني ·

ان المعطيات السابقة تفيد بوجود عوامل جذب للتشكيلات البدوية ونصف البدوية نحو الريف ، وان الاتجاه التاريخي للتحول السكاني يعطي تعبيرا اوليا هو باتجاه الاستقرار ، وتوسيع قاعدة الريف السكانية ، ولكن لاسباب متعلقة بشروط السيطرة الكولونيالية ونمط النمو الاقتصادي المرافق لهذه السيطرة ، فان هذا الاتجاه الجاذب نحو الريف ، او بتعبير آخر ، هذا الاتجاه نحو الحد من التنقل البدوي والدافع نحو الاستقرار الزراعي ، كان يقابله عامل طرد مقابل من الريف باتجاه المدينة او خارج البلاد (وباتجاه فلسطين في الغالب) ·

كان القسم الاعظم من السكان (٣٠٠ الف نسمة) ، او ٩٥٪ منهم يقطنون عام ١٩٤٣ في شريط من البلاد لا تتعدى مساحته ٥٠٠ر١٧ كيلو مترا مربع · فيما كان ٤٠ الف نسمة ، او ٥٪ من السكان يقطنون في البوادي والصحراء التي تشكل القسم الاعظم من مساحة البلاد (٠٠٠ر٧٢ كيلو متر مربع) (٤) ، لكن حتى هذا الشريط ، كما سنلاحظ ، لم يكن صالحا بكامله للزراعة ، ولم تعمل السلطات الكولونيالية والحكومة على تطوير واستصلاح مساحات اضافية منه لاستقبال هذا الضغط السكاني · لذا عكست الكثافة السكانية في بعض المناطق من الاردن، اتجاه السكان الآيلين للزراعة نحو المناطق ذات التربة والمناخ المناسب ونسبة الامطار الكافية للزراعة · ووفقا لارقام ١٩٤٣ كانت منطقة عجلون ذات التقاليد والتاريخ الزراعي القديم تضم ٩ر٥٢٪ من السكان في البلاد ، مقابل ٤ر٢٩٪ كانوا في البلقاء و ٧ر١١٪ في الكرك ، ٨ر٥٪ في معان (٥) ·

---

(٣) راجع : منيب ماضي وسليمان موسى : « تاريخ الاردن في القرن العشرين » ، عمان، ١٩٥٩ ، ص ٤٤٨ ·

(٤) راجع كونيكوف ، المصدر السابق ، ص ١٨ ·

(٥) المصدر نفسه ص ١٨ ·

لذا ، فان قاعدة الريف البشرية ، بلغت ما نسبته ٢ر٦٦٪ من مجموع السكان لعام ١٩٤٣ ، (١٠٥ الاف من الفلاحين المستقرين + ١٢٠ الف نسمة من انصاف البدو ـ انصاف المزراعين) ، لكن قسما كبيرا منهم كان مضطرا لمغادرة الريف والزراعة في شرق الاردن للعمل في المدن او للعمل الموسمي في فلسطين ٠٠فلعوامل عديدة ، منها ازمة الاقتصاد الزراعي ووتائر نموه المحدودة ابـان السيطـرة الكولونيالية البريطانية ، ولاسباب متعلقة بعوامل الجذب المديني ، الناشئة عـن ازدياد الفعالية الاقتصادية للمدن ، فقد شهد الريف الاردني في سنوات الثلاثينات والاربعينات حالة طرد واسعة للقوة العاملة فيه وذلك باتجاه المدن وباتجـاه الخارج (فلسطين) ٠

جـ ـ النمو السكاني المديني (نتائج الطرد الريفي والجذب المديني) ٠

ظل موقع المدن في الاقتصاديات الاردنية التقليدية هامشيا وضعيفا قبـل عـام ١٩٢١ ٠ وفيما عدا السلط ، لم يكن ممكنا الحديث عن مدن اردنية قبـل تأسيس الامارة ٠ فقد كانت اربد ، الكرك مجرد بلدات ذات طبيعة زراعية ـ تجاريـة مختلطة ، اما عمان فقد كانت مجرد قرية زراعية ذات سوق محلي صغير ٠

وفقا لارقام ١٩٢٢ ، كان عدد سكان ١٠ بلدات (مختلطة الانشطة الاقتصادية بين الزراعة والتجارة والخدمات والحرف) يوازي ٩٠٠ر٥١ نسمة ، وكان اكبر هذه البلدات السلط (٠٠٠ر٢٠ نسمة) يليها عمان ٠٠٠ر٦ نسمة ، الرمثا ٥٠٠ر٤ نسمة ٠ وكانت نسبة عد سكان هذه البلدات العشر الى مجموع عدد السكـان لا يتعدى ٢٣٪ (٦) ٠

بين ١٩٢٢ و ١٩٤٦ ارتفع مجموع عدد سكان اربع بلدات ـ مدن رئيسية هـي عمان ، اربد ، السلط ، الكرك نحو ثلاث مرات ٠ اي من ٩٠٠ر٣٢ نسمة عـام ١٩٢٢ الى ٩٢٤ر٩٣ نسمة ٠ لقد وقعت الزيادة الحقيقية في مدينة عمان فقط التـي ارتفععدد سكانها من ٤٠٠ر٦ نسمة عام ١٩٢٢ الى٠٠٠ر٣٠ نسمة عام ١٩٣٧الى ٧٥٤ر٦٥ نسمة عام ١٩٤٦ ٠ في حين ان السلط شهدت انخفاضا في عدد سكانها من ٢٠ الف نسمة الى ٤٧٩ر١٤ بيـن عامـي ٢٢ و١٩٤٦ ٠ وحصل الامر نفسه في اربد والكرك اللاتين بعد ان ارتفع عدد سكان كل منهمـا مـن ٥٠٠ر٣ نسمة و ٠٠٠ر٣ نسمة الى ١٥ الف و ١٢ الف نسمة بين عامي ٢٢و ١٩٣٧ عادتا الـى الانخفاض بقوة عام ١٩٤٦ الى ٦٩٣ر٦ نسمة و ٩٩٨ر٦ نسمة بالترتيب (٧) ٠

وواقع الامر ان المدنفي الاردن قد شهدت نموا سكانيافي فترة العهد الكولونيالي

---

(٦) راجع سليمان موسى : « تأسيس الامارة ٠٠٠ » ، ص ١٧٨ ٠

(٧) ارقام السكان لعام ١٩٣٧ راجع كونيكوف المصدر نفسه ، ص ١٨ ، ولارقـام ١٩٤٦ راجع منيب الماضي وسليمان موسى ، مصدر سابق ، ص ٤٤٨ ٠

الذي تلا تأسيس الامارة ، عن الفترة التي سبقتها، بسبب عوامل متعلقة بالتمركز الاداري ـ الكولونيالي الذي شد البلاد ، وكون لاول مرة دولة مركزية فـــي هذه المنطقة · وبفعل قيام المؤسسات المركزية الادارية ـ الكولونيالية ، مثـــل الدوائر الحكومية والمنشآت والمعسكرات والمطارات ، والخدمات الرديفـــة ، وكنتيجـــة لقيام فرص تكوين سوق محلي وتجارة وخدمات ارتبطت وتاثر نموها بالفعاليـــة الخاصة التي احدثتها الانشطة الكولونيالية في البلاد · وقد ارتبطت وتيرة ازدياد عدد سكان بعض المدن ابان الحرب العالمية الثانية وبعدها ، بازدياد الانفـــاق الامبريالي العسكري والخدماتي (المواصلات ، الطرق) في هذه الفترة ، كمـــا ارتبطت هذه الزيادة المتنامية بالتسهيلات التشريعية والمالية امام التجارة انذاك ، التي خلقت مفاعيل جذب للقوة العاملة من الريف الاردني ·

لقد نشأت مدن ، ونمت بدون اساس مادي ـ تاريخي انتاجي · اذ نشـــأت ونمت بفعل اختيارها مواقع للسيطرة الكولونيالية ، كما هو الحال مـــع المفرق ، الزرقاء ، وكما هو الحال الى حد كبير مع عمان ، فهذه المدن نشأت كمواقـــع لمطارات ومعسكرات بريطانية ، او كمواقع للادارة المركزية · لذا تميزت هـــذه بلا تاريخيتها وبطابعها الخدماتي ـ التجاري ـ الكولونيالي المباشر ، وبـانعـدام صفتها الانتاجية وضعف تكوينها وتقاليدها الحرفية ـ الصناعية · وبالمقابـــل فقدت عدد من المدن التاريخية اهميتها التقليدية وعادت الى ما يشبه القرى والبلدات القديمة وتقهقر عدد سكانها كما هو الحال مع السلط ، الكرك وغيرهما ·

كتعبير احصائي عن ازدياد اهمية المدن وعن التمركز السكاني في المدن ، فقـد بلغ عدد سكان خمس مدن فقط (عامي ٣٧ و ١٩٣٨) ٧٥ر٠٠٠ نسمة او ما نسبته ٢٢٪ من مجموع السكان · وفي عام ١٩٤٤ ، قدر عدد سكان البلدات بنسبة ٣٠ ـ ٣٥٪ من السكان · اما عام ١٩٤٦ ، فقد بلغ عدد سكان ٩ بلدات ـ مدن ، (يزيد سكان كل منها عن ٢٠٠٠ نسمة) ما يوازي ١١٧ر٠٧٧ نسمة او ما نسبته ٣٥ ٪ من مجموع السكان المستقرين (الحضر) ، او ٢٧٪ من مجموع السكان في البلاد الذين كان عددهم ٤٣٣ر٦٥٩ نسمة · والاهم من ذلك هو ان هذه المدن ، قـــد اكتسبت اكثر فاكثر تعبيرا مدينيا بالمعنى الاقتصادي ، فقد تراجعت بقايا سماتها الزراعية ، وتقوت ملامحها التجارية ـ الخدماتية ، كتعبير عن تعزز السمـــات الراسمالية والعلاقات التبادلية ـ النقدية وتكونها كسوق · وبلا ريب ان هـــذا قد حمل نتائج اجتماعية ـ سياسية عبرت عن نفسها بتكون طبقي بدائي ، وبروز فئات اجتماعية متعددة ، وظهور علاقات انتاج راسمالية ، (عمـــل ماجـــور ومستخدمين بأجور ، طبقة تجارية ، نواة بيروقراطية ادارية ، وطبقة اصحـــاب الحرف والدكاكين) ، كما برزت بعض التعابير والمؤسسات الحزبية والنـــوادي السياسية كتعبير عن بروز وعي بالتناقضات الاجتماعية ·

د ـ الهجرة الاقتصادية الى الخارج (كتعبير عن الطرد الريفي وازمة قطاعات الانتاج التقليدية) ٠

كانت الهجرة البشرية للعمل في الخارج ، احد مظاهر التحولات السكانية بين مطلع العشرينات والاربعينات من هذا القرن ، شأنها شأن الهجرة نحو المدن ٠وقد جاءت كتعبير عن ازمة التطور الزراعي في الريف ، وكظاهرة طرد سكانية ٠ كانت الهجرة السكانية نحو الخارج ، تتجه اساسا نحو فلسطين ، بفعل كونها سوق عمل رائجة جدا انذاك ، وكانت هذه الهجرة ذات طابع موسمي ودائم على حد سواء ٠ ففي عام ١٩٣٧ ، كان معظم المواطنين العرب الذين دخلوا فلسطين للعمل فيها وقوامهم ٣٢ الفا ، من الاردن ٠ وقد شكل هؤلاء وفقا لبعض التقديرات اكثر من ثلث القوة العاملة في شرقي الاردن انذاك (٨) ٠ وقد لاحظت دراسة ميدانيةلقرية شرق اردنية في منطقة عجلون ان ٤٩٪ من ارباب العائلات الاردنية كانوا قد عملوا في فلسطين في فترة الانتداب مرة واحدة على الاقل ٠ ولاحظت نفس الدراسة ان اغلب هؤلاء قد زاولوا العمل في فلسطين لفترات مختلفة انذاك (٩) ٠

وقد تبين ابان نكبة ١٩٤٨ ، ان ٠٠٠ر٤٠ مواطن اردني كانوا قد ذهبوا للعمل في فلسطين قبل الحرب ، وقد شكل هؤلاء ما نسبته ٨ر٤٪ من السكان وفقا لاحصاء ١٩٤٧ ، او ٦ر٣٣٪ من مجموع القوة العاملة المقدرة انذاك ٠

تشير هذه المؤشرات السكانية الى بضعة تحولات سكانية لها علاقة بالتطور الاقتصادي ـ الاجتماعي في الاردن منذ فترة تأسيس الامارة وحتى منتصف الاربعينات ٠ ولها علاقة بنمط التحول الاقتصادي في ظل السيطرة الكولونيالية ، من انماط انتاج معيشية ـ اكتفائية ذات هامش تبادل سلعي بسيط الى انماط انتاج مزدوجة ، تقليدية زراعية رعوية دخلت في اطار السوق والتبادل السلعي، وحديثة رأسمالية تعبر عنها التجارة والخدمات العامة والادارة والحرف ٠وهكذا انعكس هذا على التركيب السكاني للاردن ، باتجاه تحول القسم الاعظم من السكان المترحلين (البدو) الى الاستقرار الكلي او الجزئي ، وثم احتلال

---

(٨) راجع جميل هلال : « الضفة الغربية ، التركيب الاجتماعي والاقتصادي (٤٨ـ١٩٧٤)»، ص ٣٠ ، وقد اقتبسها بدوره عن Palestine Blue Book 1937

(٩) جميل هلال ، المصدر نفسه ، ص ٣١ اوردها عن :
R.T. Antoun, Arab Village, London, 1972 , P. 27.

(١٠) R.S. Porter, Economic Survey of Jordan, 1953. P. 15.

اما تقدير نسبة القوة العاملة الاردنية المهاجرة والعاملة في فلسطين ، فهو يستند ، الى تقدير القوة العاملة بما يوازي ٧٥٠ر١١٨ شخصا ، اي ٢٥ ٪ من السكان لعام ١٩٤٧، وهو تقدير الحد الاقصى ، فاذا ما خفضنا نسبة القوة العاملة الى السكان ، فان نسبة القوة العاملة الاردنية في فلسطين ترتفع عن ٦ر٣٣٪ من مجموع القوة العاملة ككل ٠

التشكيلات البدوية الصرفة موقعا اقل اهمية بالنسبة الى مجموعات السكان الحضرية في عام ١٩٤٦ مقارنة مع عام ١٩٢١ ٠ لقد اتجهت الاقسام الاعظم من التشكيلات البدوية للاستقرار والاندماج في الريف والزراعة كليا او جزئيا ، فتوسعت قاعدة الريف السكانية ونسبتهم الى مجموع السكان ٠ لكن ، في الوقت نفسه برزت ظاهرة طرد سكانية من الريف باتجاه المدينة والمرافق المدينية والكولونيالية الحديثة وباتجاه الخارج ٠ وقد عبرت عن ذلك ظاهرة تنامي الكثافة السكانية في عدد من المدن وازدياد طابع التحول الرأسمالي في البلدات والمدن الاخرى مما جذب اليها اعدادا من سكان الريف ٠ كما عبرت عن ذلك ظاهرة تنامي الهجرة الى فلسطين والاقطار الاخرى ، كتعبير عن ازمة الانتاج الزراعي التقليدي عموما في الاردن ، وانسداد افق فرص العمل في المدن ، رغم اتساع المدن ونموها بوتيرة متسارعة ٠

اخيرا تميز الوضع السكاني بحركية دائمة بسبب التنقل البدوي عبر الحدود لفترة من الزمن ، وخاصة في بداية تأسيس الامارة الهاشمية ٠ كما كانت الزيادة السكانية (بين ٤ر١٪ عام ١٩٣٠ و ٣ر٢٪ عام ١٩٤٣) ضعيفة بسبب انعدام العناية الطبية والصحية او ندرتها ٠ وكانت الوفيات بين الاطفال كبيرة ، كما كان معدل الوفيات بين السكان عموما كبيرا ، بسبب انتشار الامراض والاوبئة ٠وكانت هذه تضعف الزيادة السكانية الطبيعية كما يظهر الجدول رقم (١) ، وكما سيأتي بحثه حين نتناول الخدمات الطبية في البلاد ٠

جدول رقم «١»

تقدير السكان ومعدلات الولادة والوفيات ، ووفيات الاطفال المسجلة (١٩٣٠ ـ ١٩٤٣)

السنة	تقدير السكان	الولادات		الوفيات		معدل وفيات الاطفال	نسبة الزيادة السنوية الطبيعية للسكان
		العدد	المعدل	العدد	المعدل		
١٩٣٠	٢٦٢ر٣٦١	١٠ر٣٤٠	٣٩ر٤	٦ر٦٦١	٢٥ر٤	٢٢٢	١ر٤ ٪
١٩٣٥	٢٨٢ر٩٤٤	١١ر٢٨٤	٣٩ر٤	٦ر٨٣٢	٢٤ر٢	٢١١	١ر٥٢ ٪
١٩٣٩	٣٠٩ر٢٩٥	١٣ر٩٦٩	٤٥ر٢	٥ر٢٧٣	١٧ر٦	١٧٣	٢ر٧٦ ٪
١٩٤٣	٣٤٠ر٠٠٠	١٣ر٤٠٦	٣٩ر٤	٥ر٤٦٦	١٦ر١	١٥١	٢ر٣٣ ٪

Konikoff, OP. Cit, Table IV, P. 106

٢ ـ القطاع الاقتصادي التقليدي

اولا : الاقتصاد الرعوي ٠

كنا قد اشرنا الى جملة من الظروف الموضوعية التي نشأت في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع هذا القرن ★ وادت الى تعميق اتجاه الاستقرار في الارض لدى القبائل الرعوية او للحد من تنقلها الواسع ، كما ادت الى اتجاهها نحو الزراعة الى جانب الرعي المحدود ٠ لكن اندلاع الحرب العالمية الاولى ، واعتماد البريطانيين والشريف حسين في حركته المناهضة للعثمانيين على القبائل البدوية في القتال ضد قوات العثمانيين ومراكزهم ، ساعدت ، بل بعثت بقوة ظرفا جديدا لانعاش الشخصية البدوية والاقتصاد البدوي ـ الرعوي ٠ وقد اعاقت هذه الظروف الاتجاه الصاعد نحو الاستقرار الزراعي لدى القبائل الرعوية (١١) ٠

اتاح انخراط عدد من القبائل البدوية ، في الحرب المناهضة للعثمانيين ، لها فرصا جديدة لغزو ولنهب ثروات القبائل الاخرى المنحازة للاتراك ، واتاح بشكل عام للعديد من القبائل فرصة امتلاك ثروة كبيرة من الجمال والمواشي كان عليها ان تحيطها بالعناية والرعاية ، وبذلك ضعفت لديها ميول الاستقرار واخذت تعود الى النمط الرعوي والانتقال بما لديها من جمال ومواشي بحثا عن المراعي ومصادر المياه ، وبحثا عن الطقس الملائم للحفاظ على هذه الثروة الحيوانية ويستشهد عادة بقبيلة الحويطات كمثال على هذا التحول من قبيلة ذات تقاليد زراعية قديمة الى قبيلة رعوية ٠ فالاخيرة ظلت حتى اواخر الثلاثينات منهمكة برعاية مواشيها وابلها ، ثم عادت بعد ذلك الى العناية بفلاحة اراضيها التي تركتها من قبل للمرابعين والفلاحين (١٢) ٠

والواقع ان بني صخر والسرحان ، فضلا عن الحويطات بقيت حتى فترةقصيرة قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية قبائل بدوية ورعوية صرفة (١٣) ، وقد عكس واقع استمرار الغزو والغارات البدوية في البلاد حتى مطلع الثلاثينات استمرار

★ راجع القسم الاول من هذه الدراسة في شؤون فلسطينية ، العدد ٦٣ـ٦٤ (شباط ـ اذار ١٩٧٧) ٠

(١١) راجع E. Epstein, The Bedouin of Transjordan : Their Social and Economic Problems, Royal Central Asian Society Journal. Vol 25 April 1938. P.P. 228-236.

(١٢) ابشتاين ، المصدر نفسه ٠

(١٣) راجع : J.B. Glubb, The Economic Situation of the Trans-Jordan Tribes, Royal Central Asian Society Jonrnal Vol. 25. July 1938, P. 448-459.

انتعاش الشخصية البدوية وصعوبة السيطرة عليها (١٤) · فحتى القبائل ـ العشائر التي انخرطت في النشاط الزراعي ، والتي حدت من تنقلها بعد الحرب الاولى ، ظلت تعاني من مشاكل وعواقب استمرار اعتمادها على الرعي وتربية الحيوانات في ظروف غير مناسبة وقاسية للغاية ·

ان الالتواء الحاصل في فترة الحرب الاولى ، والذي ساعد على عودة الانتعاش البدوي والاقتصاد الرعوي لم يستمر طويلا ، اذ ان نتائج الحرب السياسية ، وما ترتب عليها من ظروف وشروط جديدة قد انتهت الى وضع تحديات ومصاعب قاسية في وجه الاقتصاد الرعوي وفي وجه القبائل التي تعتمد على الرعي وعلى العناية بتربية الحيوانات ·

فقد ادت الحرب الى اقتسام المشرق العربي بين الكولونياليات البريطانية والفرنسية ، واعادت منطقة من هذه المناطق المقتسمة الى نوع من الاستقرار النسبي وقامت فيها اشكال من السلطة المركزية · فالمناطق الصحراوية الممتدة من الجزيرة العربية الى بادية الشام قسمتها حدود ما عرف بشرقي الاردن ، السعودية ، العراق ، سورية · وقد ادى واقع انقسام هذه المناطق الصحراوية بين سيادات اقليمية متعددة واحيانا متنافرة ، الى الحد من حرية القبائل الرعوية في التنقل من منطقة الى اخرى · وعلى سبيل المثال فان قبائل شرقي الاردن الكبيرة التي اعتادت ان تترك كل شتاء منطقة مؤاب الباردة وسهل ايدوم لتهاجر مع مواشيها الى وادي سرحان ، الذي اصبح ـ بعد الحرب العالمية الاولى ـ جزءاً من العربية السعودية ، قد اجبرت الان اما على البقاء في مناطقها او البحث عن حسن الوفادة عند جيرانها الذين يمضون الشتاء في واي الاردن (١٥) ·

فمن المعروف ان الاقتصاد الرعوي يعتمد اساسا على حرية التنقل بحثا عن المرعى والماء والدفء (او الطقس الملائم) · وحاجة هذا الاقتصاد لسهولة التنقل قد جوبهت بتقسيم الحدود وبصعوبة الانتقال والترحل بين اراضي بلدات ذات سيادات متعددة ومتعادية كشرقي الاردن والعربية السعودية انذاك (١٦) ·

والواقع ان البلاد التي عرفت ضيقا واضحا في الاراضي القابلة لرعي المواشي، كانت تدفع القبائل الرعوية الى الصراع والغزو والسطو على ديار الغير

---

(١٤) المصدر السابق ، يشير جلوب الى ان الامن في الصحراء قد استتب منذ عام ١٩٣٢، وهو يعني الفترة التي تلت قدومه من العراق الى شرقي الاردن وتاسيس « قوة البادية » السيارة التي شكلت من البدو لتأمين الامن في الصحراء · وقد منح الكابتن جلوب رتبة زعيم في الجيش الاردني في تموز ١٩٣١ على اثر نجاحه في مهمته هذه · راجع الماضي وموسى، تاريخ الاردن في القرن العشرين (عمان ، ١٩٥٩) . ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ·

(١٥) ابشتاين ، المصدر نفسه ·

(١٦) راجع ابشتاين ، المصدر السابق نفسه · وهو يشير الى فشل الاتفاقيات بين حكومات المنطقة والتي تسمح بقدر معين من تحركات البدو عبر الحدود ·

ومراعيها · لكن ظروف قيام استقرار داخلي نسبي، الذي ضمنته السلطات الكولونيالية في كل منطقة قد ضاعف من صعوبات انتقال القبائل بابلها ومواشيهـــا في اراض عرفت قانونا او عرفا انها ديار لغيرها · ومع صعوبة استمرار الغزو ، كـــان الاقتصاد الرعوي مضطرا الى التراجع والانكفاء ·

لقد كانت مشكلة الاقتصاد الرعوي الصرف ، المعتمد على تربية الجمال ، ان هذا النوع من الحيوانات يحتاج الى تنقل واسع · فاذا كانت القبائـل البدويـة المعتمدة على رعي الجمال ، من ذات النمط الاكتفائي ، فان استمرار طابعهـــا الاكتفائي اصبح مهددا مع صعوبة استمرار تنقلها الواسع ومع صعوبة تكيـيف تربية الجمال بدون هذا التنقل الواسع · ومن جهة ثانية فان القبائل التي تعتمد على رعي الابل لغايات السوق ـ كليا او جزئيا ـ وجدت هذه بعد الحرب ظروفا غير مناسبة لاقتصادها ، مع انكماش الطلب على الجمال لغايات النقل او العمل· كما واجهت منافسة قوية من الجمال السودانية في سوق اللحوم ، ولا سيما فـــي مصر ، وهكذا هبط تصدير الجمال الاردنية الى الخارج بنسبة ٣٠٪ بعد الحرب عن سنوات ما قبل الحرب (١٧) ·

اما تربية الماشية ، فقد تطلبت العناية بها حرصا اكبر مما تحتاجه تربية الابل فهي تتطلب الانتقال بقطعان الماشية من المناطق الباردة الى البادية او الى المناطق الدافئة · فالبرد القارص او سنوات المطر الرديئة والجفاف ، دون توفر فـــرص مناسبة للترحل ، يؤدي الى تقويض اقتصاد قبيلة باسرها ويدفعها فورا الــــى الحضيض ، اذ تفنى ثروتها من الاغنام بالالاف في وقت قصير ·

ويقدر الميجور غلوب في مقالة له ، ان سنة او سنتين من الجفاف كفيلة بالقضاء على الاغنام بنسبة تتراوح بين النصف والثلثين خلال شهور قليلة (١٨) ·

لكل هذه الاسباب فقد تولد ضغط موضوعي على القبائل الرعوية الصرفـــة والقبائل نصف الرعوية من اجل الاستقرار في الارض وتعميق هذا الاستقـــرار بالانخراط في الزراعة والحد بصورة كبيرة من تنقلها · واذا كانت ميول الاستقرار والزراعة للارض قد برزت كاتجاه لا بديل له ولا مناص منه بالنسبة للعديد مـــن العشائر الصغيرة منذ فترة ما قبل الحرب الاولى ، فانه قد تحول الى ميـل واسع لدى العديد من القبائل الكبيرة والصغيرة بعد الحرب · لكن هذا الاندفاع نحـــو الاستقرار في الارض كانت تحده عقبتان ، اولهما ضيق الاراضي القابلة للزراعـة مما ولد التزاحم والصراع عليها (١٩) ، وثانيهما انعدام او ضآلة المساعـــدة

---

(١٧) راجع مقالة جلوب ، المذكورة انفا ، راجع ايضا كونيكوف ، مصدر مذكور انفـا ، ص ٤٨ ·

(١٨) راجع جلوب المصدر السابق نفسه ·

(١٩) راجع القسم الخاص بالزراعة والاقتصاد الزراعي في الصفحات التالية ، لا سيما الفقرة الخاصة بالاراضي الزراعية والاراضي المروية ·

المقدمة للقبائل من اجل تسهيل عملية استيطانها الزراعي للارض واستثمارها لها ٠

لقد كانت المشكلة المزدوجة الجوانب بالنسبة للاقتصاد البدوي والرعوي تتمثل في ان السلطة والادارة الكولونيالية لم تكن معنية بتحسين اوضاع البدو ولم تساعدهم بما فيه الكفاية من اجل استمرار نمطهم الانتاجي السابق ٠ مثلما لم تساعد اولئك البدو الراغبين في الزراعة ، سواء الذين بدأوا بالاستقرار في الارض قبل الحرب ، او بعدها ، او اولئك الذين اخذو بالزراعة بصورة جانبية مع استمرارهم في حياة الترحل والرعي المحدود (٢٠) ٠

لقد تمثلت سياسة السلطات الكولونيالية تجاه البدو في تركهم وشانهم ، اي تركهم يواجهون صعوبات استمرار نمطهم الرعوي بعد الحرب الاولى ، بدون مساعدة تذكر يسهل استيطانهم في الارض ، بل على العكس ، استثمار المصاعب التي يعانون منها بهدف اخضاعهم اكثر فاكثر ، ودفعهم نحو اللجوء الى الدولة من اجل الحصول على المساعدة ٠

فهي اذ لم تقدم ما من شأنه تحويل اقتصادهم الى اقتصاد سلمي ، وتسهيل معيشتهم ، فأنها لم تقدم او هي قدمت مساعدات تافهة جدا ، مالية وفنية ، من اجل تأمين استقرارهم ومساعدتهم على حل مشكلات تطوير الاراضي التي في حوزتهم وزراعتها (٢١) ٠

ان حالة بني حسن في شمال البلاد ، مثال ذو دلالة كبيرة في هذا المجال ٠ فهذه

---

(٢٠) راجع ابشتاين ، المصدر السابق ٠

(٢١) رغم اشارة عدد من التقارير البريطانية السنوية (ولا سيما تقرير عام ١٩٢٩) الى وجود ميل ظاهر ورغبة في الاستيطان في الارض لدى القبائل البدوية في شرقي الاردن ، الا ان الجهود المبذولة من قبل السلطات الكولونيالية كانت محدودة جدا ٠ جلوب تحدث مثلا عن الاستعانة بموظفين لتعليم القبائل طرق الزراعة المختلفة ، وصندوق تنمية المستعمرات قدم مبلغ ٣٠ الف جنيه تصرف على مدى ست سنوات لتوسيع دائرة الاراضي وتوزيع الارض المشاع (تقرير عام ١٩٣٥) ، كما جرى الحديث عن بناء بعض المساكن الثابتة حول العيون وابار المياه وعن تحسين مصادر المياه في مناطق القبائل عن طريق حفر ابار ارتوازية ،وعن توزيع الاراضي على البدو ، وارسال المشرفين الزراعيين وتوزيع البذار مجانا ٠ الا انسائر هذه العمليات كانت محدودة وخصصت لها مبالغ تافهة ٠ فقد اشار كيركبرايد (المعتمد البريطاني في الاردن) ، امام لجنة الانتدابات في دور انعقادها التاسع والعشرين الى عدم وجود نظام خاص لتوطين البدو في شرقي الاردن ٠وتذرع في تبريره الى ضآلة خزانات المياه في مناطق البدو والملحة في اوقات الجفاف ، وبقلة الموارد المالية ٠ واشار التقرير البريطاني السنوي لعام ١٩٣٦ الى الصعوبات التي تعاني منها عملية توطين البدو ٠ واكد كيركبرايد ان المشروع يتقدم ببطء ، وقال امام لجنة الانتدابات في دور انعقادها السادسة والثلاثين ان مشروع توطين البدو وتسوية الاراضي يحتاج لمدة ١٢ سنة ٠ راجع : خلة ، محمود كامل ، « التطور السياسي للمملكة الاردنية ٢١ ــ ١٩٤٨ » ، (رسالة ماجستير مقدمة لكلية الاداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٩) ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ ٠

القبيلة التي كانت تعد ٨٦٠ خيمة وتقطن في اخصب بقاع البلاد في منطقة عجلون ، تعرضت لمحنة كاملة نزلت باقتصادها ٠ اذ انها ـ وهي قبيلة نصف مترحلة ـ تملك ٣٧٢ر٠٠٠ دونما من الاراضي الصالحة للزراعة ٠ لكنها ظلت حتى منتصـــف الثلاثينات تعتمد على رعي مواشيها اساسا ٠ لقد تعرضت قبيلة بني حسن الـــى كارثة قضت على معظم ثروتها من الماشية ٠ ففي عام ١٩٢١ كانت تملك ١٢٨ر٠٠٠ رأس من الماشية ، ولم يعد لديها عام ١٩٣٤ سوى ٢٧ر٠٠٠ رأس اثر بضعسنوات مـــن الجفاف (٢٢) ٠

كما تعرضت القبائل الكبيرة لكوارث مشابهة ، مثل بني صخـــر والحويطات ، والتي تملك هي ايضا مساحات كبيرة من الاراضي الزراعية ٠ فبني صخر كانـــت تملك ٤٢٦ر٠٠٠ دونم تقع عليها ما يوازي ٢٤ قرية ، ومع ذلك فان القمة القبلية فقط كانت معنية باستثمار هذه الاراضي بالاعتماد على الفلاحين والمرابعين ، في حين ظلت بقية القبيلة تمارس رعي المواشي (٢٣) ٠

اما الحويطات التي تملك سهل الشراة وتسيطر على منطقة واسعة بين معـــان والعقبة ٠ فقد ظلت حتى منتصف العشرينات ، تمارس الرعي ، ولم تعد الى زراعة الارض الا جزئيا بعد ذلك ، وكليا بعد كارثة اصابت ثروتها من المواشي في منتصف الثلاثينات (٢٤) ٠

لم تقدم السلطات الكولونيالية لهذه القبائل لا المساعدة المالية والفنيـــة ولا التسهيلات التي من شانها تامين استثمار الاراضي من قبل افراد هـــذه القبائل ٠٠ وفقط بعد مجاعة عام ١٩٣٥ قدمت السلطات الكولونيالية مساعدة مالية ، كانـــت حصة بني صخر منها ٢٥٠ جنيها والحويطات ٩٠٠ جنيه ٠ وقد تبين ان هـــــذه «المساعدات المالية» ليست اكثر من رشاوي قدمتالى زعماء هاتين القبيلتين(٢٥) ٠

لقد اقر الميجور غلوب في مقالة له ، بان مرور سنوات سيئة كسنتي ٣٢ و ١٩٣٣ قد ادت الى موت الاف رؤوس الاغنام ، اذ بعد زيادة متواترة لمدة ٨ ـ ١٠سنوات سابقة ، كان يكفي سنة ، او سنتان من الجفاف حتى يقضي على ثمار السنوات السابقة وحتى تنقص رؤوس الماشية بمقدار يتراوح بين النصف والثلثيـــن ٠ ان غلوب في مقالته ، التي جاءت بمثابة دفاع عن سياسة الكولونيالية البريطانية في الاردن ، لم يجد ما يقدمه لدحض الاتهامات الموجهة الى الادارة الكولونيالية ٠ولم يجد ما يقدمه من منجزات في خدمة الاقتصاد المحلي سوى الحديث عن « اقـــرار الامن والقانون في البلاد » ، اما موت الماشية وتقويض الاقتصاد البدوي فهذاعائد

---

(٢٢) راجع ابشتاين ، المصدر المذكور انفا ٠
(٢٣) ابشتاين ، المصدر نفسه ٠
(٢٤) المصدر نفسه ٠
(٢٥) المصدر السابق ٠ راجع ايضا مقالة جلوب المذكورة انفا ٠

الى « ارادة الله » والى « الجفاف غير المتوقع » ، الذي هو « ظاهـــرة طبيعية في حياة العرب منذ ما قبـل التاريخ » ، وبالتـالي فهـي ظاهـــرة ليست الادارة الكولونيالية معنية بمواجهتها او وضع الحلول لها · وحينما كان لديه علاج ،فهو « حرية التجارة ومساعدة الحكومة (الهزيلة كما رأينا وبعد ان تقع الكارثـــة بالطبع ، وكرشوة لزعماء القبائل) تساعد على تخفيف الالام عن السنوات السيئة مثل ٣٢ و ١٩٣٣ » (٢٦) ·

اعتمادا على ارقام الانتاج الحيواني في البلاد يمكن اظهار التقهقر العام الـذي أصاب اقتصاد القبائل الرعوية الصرف والقبائل نصف الرعوية، الامر الذي يفسر انخراطهـــا الاضطراري في زراعـــة الارض والاستقرار في السنوات التي تلت العشرينـــات ·

١ ـ لقد اصاب التقهقر والانكفاء اقتصاد القبائل الرعوية الصرف اساسا ·وهي القبائل المعتمدة على تربية الجمال · والارقام المتوفرة بين عام ١٩٣٠ و ١٩٤٣ تظهر هذا التدهور المستمر في عدد الجمال ، فهي قد هبطت من ٢٦٫٦٠٠ رأس عام ١٩٣٠ الى ١٥٫٩٠٠ عام ١٩٣٣ · ثم هبطت هبوطا سحيقا في الاعوام الثلاثـــة التالية الى ٤٫٤٠٠ و ٣٫٤٠٠ و ٢٫٣٠٠ ، اي في الاعـــوام ٣٤ ، ٣٥ ، ١٩٣٦ · وعندما ازداد عددها عام ١٩٣٧ الى ١٣٫٩٠٠ كانت قد وصلت الى اعلى رقم لهـــا بين سنوات ١٩٣٤ و ١٩٤٣· ففي العام الاخير كان عددها ٦٫٠٠٠ رأس فقط(٢٧)·

٢ ـ وعلى الرغم من ان تربية الحيوانات الاخرى مثل الماعز والاغنام تشكـــل نشاطا مشتركا بين القبائل الرعوية المحدودة التنقل والمزارعين القبليين والفلاحين الا ان ارقامها تظهر تأثرها بالاوضاع الذي عانت منه اقتصاديات القبائل الرعوية ونصف الرعويـــة ·

فارقام تربية الماعز كانت تشير الى اتجاه صاعد ، اقل تأثرا بالعوامل المناخية (بالمقارنة مع الاغنام) وبالعوامل الاقتصادية الاخرى (بالمقارنة مع تربية الجمال) ففي عام ١٩٣٠ كان عدد رؤوس الماعز في البلاد يوازي ٢٨٩٫٥٠٠ رأس ، ارتفعت الى ٣٥٤٫٤٠٠ عام ١٩٣٣ والى ٤١٧٫٢٠٠ عام ١٩٣٧ ، ثم الى ٥١٢٫٠٠٠ عام ١٩٤١ · تخللتها ارقام هبوط طفيفة ، ثم قوية عامي ٤٢ و ١٩٤٣ الى ٣٠٠٫٠٠٠ رأس والى ٣١٢٫٠٠٠ رأس (٢٨) ·

اما تربية الاغنام فقد ظلت وتيرة ارتفاعها اقل بشكل واضح ، من ٢٢٩٫١٠٠ رأس عام ١٩٣٠ الى ٢٩١٫٨٠٠ في العام التالي · وظل هذا الرقم هو الاعلى بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠ · ثم ارتفع الى ٣٢٨٫٠٠٠ رأس عام ١٩٤١ وعاود الهبـوط الى

---

(٢٦) راجع جلوب ، المصدر نفسه ·
(٢٧) راجع كونيكوف ، مصدر مذكور انفا ، ص ٤٦ و ١٠٩ (الجدول) ·
(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٤٦ و ١٠٩ ·

٢٠٠ر٠٠٠ راس في عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٣ (٢٩) ٠

٣ ـ مع ان انتاج الماشية من اللحوم ومشتقات الالبان كانت تغطي الحاجات المحلية، وتحقق فائضا كان يصدر الى الخارج، كالماشية الحية والجلود والصوف والسمن وغيره من مشتقات الالبان ، الا ان دخول المواد الغذائية المستوردة والتحول الذي طرأ على نموذج الاستهلاك المحلي (ولا سيما في المدن الرئيسية)قد اثر على اسعار المنتجات الحيوانية والالبان ، ودخلت في منافسة مع السلع المستوردة من الخارج ٠ وكان اضطراد اتساع التجارة مع الخارج ، يضغط على الاقتصاد البدوي ـ الرعوي ونصف الرعوي ، ويخضعه اكثر لقوانين السوق ونظام اسعاره غير المواتية لهذا الاقتصاد التقليدي (٣٠) ٠

لقد تلخص وضع الاقتصاد الرعوي في فترة السيطرة الكولونيالية في غياب المساعدة الفعالة من الادارة المحلية والكولونيالية للاقتصاد الرعوي وتركه تحت رحمة الطبيعة من جهة وتحت رحمة الاقتصاد السوقي من جهة ثانية ٠ فهو لم تتوفر له الفرص الطبيعية للاستمرار كاقتصاد رعوي ، وفي الوقت نفسه لم تتح له ظروف مناسبة للانتقال الى اقتصاد زراعي مستقر ٠ ولم تكن هذه مشكلة البدو المفتقدين الى ارض فقط، وانما مشكلة القبائل التي في حوزتها اراض شاسعة للزراعة ، كما مر معنا في حالة بني حسن ٠ وحتى في حالة بني صخر والحويطات٠ فهذه القبائل لم تقدم لها تسهيلات مناسبة لانتقال افرادها الى الزراعة واستثمار الارض ٠ وبقيت رعوية الى فترة متأخرة نسبيا ٠ في حين ان زعامتها تحولت الى مالكة اقطاعية للارض (٣١) ، وحتى عندما انتقلت هذه القبائل وغيرها الى الزراعة ، بقيت ذات اساليب زراعية متأخرة جدا ٠

ولنلاحظ سلوك السلطات الكولونيالية مع بني حسن كنموذج للاهمال الواعي ولترك السكان القبليين يتقوضون دون مساعدة ٠ فكما سبق ان ذكرنا كانت بني حسن تملك ٣٧٢ر٠٠٠ دونم لم تستخدم في الزراعة بل كمراع لممتلكاتها من الماشية ٠ ويقول ابشتاين ان بني حسن قد توجهوا مرات عدة الى الحكومة يسألونها المساعدة في تطوير الاراضي الخصبة التي في حوزتهم ، لان المساعدة في ذلك الوقت المناسب يمكن ان تنقذهم من كارثة المجاعة والدمار الاقتصادي الذين هم معرضين له ايضا ٠ لكن السلطات الكولونيالية لم تفعل سوى تركهم ينتظرون مصيرهم، و «عندما غدا وضع القبيلة مفجعا ـ لانها تعرضت فعليا للمجاعة ،فان

---

(٢٩) المصدر نفسه ، الصفحات نفسها ٠

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٤٧ ، ٤٨ ٠

(٣١) يشير جلوب في هذا الصدد الى ان اول محراث آلي للارض قدم للبلاد ، قد استورد من قبل بني صخر ، اي لصالح شيوخ بني صخر الآيلين الى مالكين اقطاعيين للارض ٠ وقد استورد العديد من هؤلاء الشيوخ وغيرهم الجرارات والمحاريث والحصادات الالية لاستثمار اراضيهم الواسعة ٠

عددا من المسؤولين البريطانيين في شرقي الاردن احدثوا لجنة اعانة اخـذت على عاتقها توزيع الخبز والملابس على الاسر التي تعرضت للمجاعة ٠٠٠» !! (٣٢)٠

ثانيا : الزراعة والاقتصاد الزراعي ٠

١ ـ الاراضي الزراعية والاراضي المرويـة

قدرت مساحة الاراضي الزراعية في شرقي الاردن في اواخر الثلاثينـــات بما يتراوح بين ثمانية وثمانية ملايين ونصف المليون من الدونمات ٠ اي مـــا يوازي ٩ـ ٤ر٩ ٪ من مساحة البلاد الكلية (٣٣) ٠

وعلى الرغم من ضآلة هذه المساحة فان المستغل منهـــا لم يتجاوز ٦ر٤مليون دونم ، او ٥٦ ٪ من مجموع الاراضي القابلة للزراعة (٣٤) ٠ومعظم الاراضي المفلوحــة هي في التــلال والمرتفعات ٠ ويعتبــر الاستغــلال غيــر الكامل للاراضي الزراعية احد اوجه المشكلة الزراعية في ذلك الحين ، وخاصة مــع تزايــد نسبة السكان المنخرطين في الانتاج الزراعي ، وتضاؤل متوســط حصــة الفرد من الحيازة الزراعية ٠

فمن الاراضي المفلوحة في البلاد ومساحتها ٦ر٤ مليون دونم ، كانت الحصــة الاكبر في منطقة اربد وتوازي ٥ر٢٣٪ منها ، تليها الكرك التــي حازت علــى ٩ر١٢ ٪ ، ثم منطقة بني صخر ٢ر٩٪ ، السلط ٠ر٩٪ ، ويليها مناطق بنــي حسن ، عمان ، عجلون (٣٥) :

يلاحظ من الارقام السابقة ان الرقعة الزراعيــة المستغلة لم تتجاوز ١ر٥٪ من مساحة البلاد الكلية ، وان هناك امكانات واقعيـــة لتوسيعهـا ، وبالتالي زيادة الانتاج الزراعي ، وتحسين متوسط حجـم الحيـازة لغايـات اجتماعية ، اقتصادية ٠ الا ان هذا لم يكن في نطاق اهتمامات السلطات الكولونياليـــة البريطانية والادارة في البلاد ٠

كانت معظم الاراضي المفلوحة تعتمد على مياه الامطار وخاضعــة لتقلباتها،

---

(٣٢) راجع ابشتاين ، في مقالته المذكورة انفا ٠

(٣٣) A. Konikoff, Transjordan, an Economic Survey. P. 29

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨ ، ٢٩ ٠

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٢٨ ٠ اما مساحة الاراضي المزروعة وهي ٦ر٤ مليون دونم فقد كانت موزعة بين المناطق كما يلي بالاف الدونمات :

اربـد : ٠٨٠ر١ ، عجلون : ٥ر٣٤٨ ، جرش : ١٦٤ ، بني حسن : ٣٧٢ ، السلط : ٤١٨، عمان : ٣٥٧ ، بني صخر : ٤٢٦ ، مادبا : ١٨٨ ، بني حميدة : ١٦٤ ، الكــرك : ٥٩٥ ، الطفيلة : ٥ر٢٩٧ ، معان : ١٩٠ ٠

وقد اثر هذا على نمط الزراعة وعلى الانتاج الزراعي وعلى نوعية المحاصيل. ورغم وجود ثروة مائية كبيرة في شرقي الاردن ، الا انها لم تستثمر . او ظل استثمارها حكرا على كبار الملاك الزراعيين ، ومصدرا من مصادر الاستغلال الاقتصادي للفلاحين الصغار والمتوسطين وخاصة في الاغوار .

لقد قدرت المياه المتدفقة سنويا من الينابيع والجداول بنحو ٢٨٢ مليون متر مكعب . كانت في غالبيتها مبددة وغير مستغلة في الري ، بالاضافة الى مياه نهري اليرموك والاردن التي تضيف ما مجموعه ١٫٠٢٠ مليون متر مكعب سنويا (٣٦) . ورغم الحاجة القصوى الى مصادر الري هذه ، فقد ظلت الزراعة خاضعة في الغالب لرحمة الطبيعة ، كما بات من الصعب استثمار الاراضي الزراعية الاخرى او استصلاح الاراضي بدون استثمار مصادر المياه الغنية في البلاد .

وهكذا فأنه من مجموع الاراضي المزروعة المقدرة بـ٤٫٦ مليون دونم ، لم تتجاوز الاراضي الزراعية المروية مامساحته ٢٦٠ الف دونم ، او ما نسبته ٥٫٦ ٪ من مجموع الاراضي المزروعة . لقد كانت الحصة العظمى من الاراضي المروية هذه في وادي الاردن ، التي قدرت بـ ٢٠٦ الاف دونم ، او ما نسبته ٧٩٫٢٪ من الاراضي المروية عموما (٣٧) .

شكلت ضآلة الاراضي المزروعة المستغلة الى مجموع الاراضي القابلة للزراعة والاخرى الممكن استصلاحها ، وضآلة الاراضي المروية ، وجها اخر من وجوه المشكلة الزراعية في البلاد واثرت على مستوى المعيشة للفلاحين وعلى الانتاجية الزراعية على حد سواء . وعموما ادى عدم حل هاتين المشكلتين الى تكريس اشكال الانتاج الزراعي القديمة او حال دون تطورها .

ان ضيق الرقعة الزراعية المستغلة وانخراط المزيد من السكان من انصاف البدو في الزراعة بشكل متواتر في غضون السنوات العشرين التالية على تأسيس الادارة في شرقي الاردن ، قد ادى الى اضعاف متوسط حصة الحيازة الزراعية الكافية للاعالة ، وحال دون قيام تطور رأسمالي واسع في الريف ، اي حصول فائض زراعي كبير متجه نحو السوق . وكان من المفترض ان تتم عملية استيعاب البدوي والاستقرار في الارض عن طريق استصلاح متزايد للاراضي القابلة للزراعة ، وتقديم تسهيلات تمكن من استثمار

---

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠ ، كذلك راجع :
M.G. Ionides. Report on the water Resources of Trans-jordan and their Development, London, 1939, P.P. 190, 244.

(٣٧) Annual Report, 1938, P. 307 .

الاراضي الزراعيـــــة بكاملها ، لكن هـــــذه التسهيلات لـم تقـــدم الا فـي اضيق نطاق ٠ ونتج عن ازدياد كثافة السكان في القرى وضعف متوسـط حجـم الحيازة ، نشوب النزاعات الدمويـــة بين القرى بسبب الخلافات عـلى حـدود القرى ، وكانت هذه النزاعات مظهـرا للازمـة الناتجـــة عــــن ضيق الارض والتزاحـم عـليها بصورة متزايدة (٣٨) ٠

ضاعـف من تأزم الوضع في الريف ضآلة الاراضي المروية وتبديد الـثـروة المائية ٠ اذ كان من الممكن ان يساعـد الري والاستخـدام الجيد للثروة المائية عـلى توسيع رقعة الاراضي المستغلة ، بـل واستصلاح اراض غـيرها ، كما كان من الممكن ان يزيد من الانتاجية الزراعـية بالمتوسط للفلاح وتزيد الدخـل المتأتي عـن الزراعــة عموما ، بالاضافة الى رفـع متوسط الحيازة ، وتقليل الكثافــة البشرية في المناطق ذات المعدل الكبير في سقوط الامطار وفي المناطق المروية ٠مما يمكن من زيادة الفائض الزراعـي ويحسن مستوى معيشة الفلاحين ٠

لكن هذا لم يتحقق فالسلطات الكولونيالية البريطانية لم تكن معنيــة لا بتطوير الانتاجية ولا باستغـلال الاراضي الزراعـية ، وبالتالي لم تكن لديها اية حوافز اقتصادية لاصلاح نظام الزراعــة والاستثمار الزراعـــي ٠ بل اكثر من ذلك ابدت السلطات الكولونيالية حرصها عـلى ابقاء الانماط التقليديـــة في الزراعـــة باعتمادها الغالب عـلى زراعــة محاصيل الحبوب ٠ فهي كانت بحاجة الـــى الحبوب من الاردن وفق تقسيم العـمل بين الاردن وفلسطين ٠ ويبـــــدو ان الكولونيالية البريطانية كانت ترى ان من شأن استخـدام الري ومصادر الميـــاه المساعدة على تغييـــر بنى الانتـــاج الزراعـــي ، ويضعف زراعـــــة الحبـوب لصالح محاصيل اخرى ٠ كما ستترتب عليه نتائج اجتمـاعية واقتصاديــة غيـر محبذة ٠

ان السلطات الكولونيالية لم تقم باي اجراء من شأنه انهاء استئثار واحتكار قلة محدودة من كبار الملاكين الزراعيين ، وخاصة فـــي الاغــــوار لمصــــــادر الري ٠ وقد ظل شرقي الاردن البلد الوحيد في الشرق الاوسط الذي لم تسيطر الحكومة عـلى مصادر المياه فيه ٠ وقد تذرعـت السلطات الكولونيالية في تبرير

---

(٣٨) يشير ولبول الى النزاعات الدائمة على حدود القرى التي ابتدأت مع توسع الزراعة التي قاربت بين حدود القرى وتسببت بمقتل الكثيرين في هذه الخلافات ٠ راجع :
G. F. Walpole, Land problems in Transjordan Royal Central Asian Society Journal, Vol. 35. Jan. 1948 .P. 53.

كما ان الفريق الذي قام بتحديد الحدود بين القرى ابان مسحها تعرض الى اطلاق النار عليه ، كما يشير اينويدس (مصدر سابق) ٠ وقد قتل رئيس الفريق ومساحين منمساعديه٠ راجع مسح وادي الاردن ، القسم الخاص بالمسح التاريخي ، (دائرة الاحصاءات العامة ، عمان) (بالانجليزية) ، ص ١٣٦ ٠

هذا الوضع بان كبار الملاكين من الاقطاعيين والعشائريين كانوا يشكلون قوة كبيرة في المجالس التشريعية الاردنية ، وانهم قاوموا اقرار الاصلاحات الحكومية التي حاولت تنظيم توزيع المياه على الاراضي الزراعية (٣٩) ·

ب ـ الحيازة الزراعية وملكية الاراضي

بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣٣ قامت الادارة الكولونيالية بمسح الاراضي الزراعية وتحديد الملكيات الزراعية واراضي الدولة (٤٠) · ضمن هذه العملية جرى تحديد الاراضي العائدة للدولة ، وتقسيم الاراضي المشاع وفرز الملكيات الخاصة · وقد تم توجيهَ ضربة قاسمة لنظام الملكية المشاعية ،وحددت اسس الملكية الزراعية واسس تقدير الضريبة الزراعية · وقد انفق على هذا المسح وعلى عملية تقسيم الاراضي بواسطة مكتب تطوير المستعمرات البريطاني (٤١) ·

وفقا لارقام هذا المسح كانت اراضي الدولة توازي ٠٠٠ر٧٨٦ر١ دونم (٤٢)، لكن الدولة كانت قد « باعت » اراض اخرى قبل ذلك الى المزارعين بهدف « تشجيع الزراعة وتسهيل الاعمار » وقد بلغت ٢٤٣ الف دونم · وقد لاحظ بضعة مراقبين في فترات مختلفة ان نقل ملكية هذه الاراضي من الدولة الى الافراد لم يكن يستهدف تشجيع الزراعة او توطين البدو وتشجيعهم على الاستقرار ، بقدر ما كانت وسيلة لربط زعماء وشيوخ القبائل والعشائر بالدولة والسلطات الكولونيالية ، فمثلا منح زعماء العدوان ارضا في وادي الاردن توازي ١٠٨ الاف دونم ، دفعوا مقابلها كرسوم تسجيل ما لا يزيد عن ٧٧٦ر٢ جنيه فلسطيني عام ١٩٣١ (٤٣) · وتبدو هذه بمثابة رشوة اكثر مما هي « هبة » ذات دافع اعماري · كذلك الحال مع منح اراضي الدولة لقبيلة الغزاوية في الاغوار ، التي انتقدت حتى من قبل بعض رجال السلطة الكولونيالية ، من وجهة نظر تقول انها كانت اكبر من طاقة القبيلة على استثمارها (٤٤) ·

---

(٣٩) راجع : ز· ي· هرشلاغ : «مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط»، دار الحقيقة ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ ·
كذلك راجع ولبول ، المصدر الانف الذكر ، ص ٦٢ ·

(٤٠) راجع ولبول ، المصدر نفسه · ص ٥٤ ـ ٥٦ ·

(٤١) راجع ولبول ، المصدر نفسه · ص ٥٦ · وقد بلغت قيمة تمويل عملية مسح وتقسيم الاراضي ما بين ٣٠ الف و ٥٠ الف جنيه فلسطيني سنويا ·

(٤٢) راجع كونيكوف ، مصدر سابق ، ص ٣٤ · راجع ايضا
Annual Report, 1936, P. 329.

(٤٣) كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ٣٤ ، ٣٥ ·

(٤٤) ولبول ، المصدر السابق ، ص ٦١ ·

الى جانب اراضي الدولة ، كانت الاراضي المفروزة والمقسمة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤٣ قد بلغت ٣٫٨٤٦٫٦٢٣ دونم شملت ٢٣٣ قرية باتت حدودها مستقرة في هذه الفترة (٤٥) ٠

اما حجم متوسط الحيازة الزراعية في البلاد ، فقد اشارت دراسة على عينة من ٢٠ قرية (لعام ١٩٣٦) ان متوسط الحيازة الزراعية الواحدة في المناطق المرتفعة توازي ٤٠ دونما ، ويوازي هذا المتوسط في المناطق المنخفضة ٦٠ دونما ، فيما كان في المناطق المحاذية للصحراء ١١٠ دونمات للحيازة الواحدة (٤٦) ٠

لقد قدر مسجل الاراضي في البلاد ، انه يوجد كمتوسط مالكين اثنين للارض في العائلة الواحدة ، ووفقا لهذا التقدير يكون متوسط حجم الحيازة للعائلة الواحدة : ٨٠ دونما في المرتفعات و١٢٠ دونما في الاراضي المنخفضة ، و٢٢٠ دونما في الاراضي المحاذية للصحراء (٤٧) ٠

واذا اخذنا هذه التقديرات بثقة ، فان هذه الارقام هي دون تقديرات حكومة فلسطين لمساحة الارض الكافية لاعالة المزارع وعائلته ٠ اي ان متوسط الحيازة هو دون مستوى المعيشة العادي ٠

اما تقديرات نهاية عام ١٩٤١ ، فقد اظهرت اتجاها نحو تدني متوسط حجم الحيازة فقد وجد انها توازي ٥٤ دونما للعائلة ، اما في القرى الشرقية فقد كان متوسط الحيازة يوازي ١٠٨ دونمات (٤٩) ، حيث نسبة هطول الامطار ضعيفة وحيث التربة اقل خصوبة ومواتاة للزراعة ٠

كانت حيازة الاراضي (كما يلاحظ هيرشلاغ) متأزمة في شرقي الاردن ، « وعلى وجه خاص في المنطقة الجبلية في الجزء الشمالي من البلاد ، كما يشهد بذلك العدد الكبير من الحيازات الصغيرة ، والضياع الكبيرة التي تملكها قلة » (٥٠) ٠

وتظهر ضرائب الارض بشكل غير مباشر هذا التفاوت الواسع بين الملاكين الصغار والكبار ، فمن مجموع الملاكين الزراعيين (وعددهم ٤١٫٧٣٩ مالك) كان ٧١ ٪ منهم يدفع ضريبة تقل عن جنيه فلسطيني ، فيما ٢٥ ٪ يدفعون ضريبة

---

(٤٥) كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ٣٧ (جدول) ٠
(٤٦) كونيكوف ، المصدر المذكور انفا ص ٣٨ عن Annual Report 1936, P:326.
(٤٧) تقدير كيركبرايد المعتمد البريطاني ، ردده كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ٣٨ ٠
(٤٨) راجع ولبول ٠ المصدر نفسه ، ص ٦٢ـ٦٣ ٠
(٤٩) تقدير ولبول (في غير المصدر السابق) ردده كونيكوف ، المصدر نفسه ص ٣٨ ٠
(٥٠) راجع هرشلاغ ، مصدر مذكور انفا ص ٣٣٢ ـ٣٣٣ ٠

تتراوح بين جنيه واربعــة جنيهات ، في حين ان ٤ ٪ من المالكين يدفعــون اربعة جنيهات فاكثر (٥١) · ومن عــدد المالكين للارض يظهر ان هناك اعــدادا كبيرة من الفلاحين المعــدمين الذين لا يملكون اي قطعــة ارض ·

هـ ـ المحاصيل والانتاجية الزراعــية ·

١ ـ زراعــة الحبوب

كانت زراعــة الحبوب تمثــل المساحــة الغالبة من الاراضي المزروعــة فـــي البلاد ، وتمثــل محاصيل الحبوب المكانة الاولى ، من حيث حصتها الى مجمــوع انتاج المحاصيل الزراعــية الاخرى · وكما كان هذا الوضع قائما في العشرينات، فانه ظل كذلك في سنوات الثلاثينات والاربعينات · وقد زادت المساحة المزروعــة بالحبوب ، كما ازداد الانتاج من الحبوب خــلال سنوات الحرب بقوة مـــع ان هذه الانتاجية اتسمت بالتذبذب بسبب استمرار اعتماد غالبية الاراضي عــلــى الامطار ·

وساهمت في ترسيخ مكانة زراعــة الحبوب هذه ، عــمليات انتقال انصــاف البدو الى فلاحين قبليين ، ثــم الى مستقرين ، وانتقال البدو الى انصـــــاف مترحلين خلال العــقود التي تلت الحرب الاولى · كما اسهم في ذلك تشجيـــع بريطانيه لزراعــة الحبوب في البلاد ، وذلك من اجــل تموين قواتها والمناطـــق التي تديرها بالحبوب ، وهي العــملية التي اصطلحنا على تسميتها كنوع مـــــن « تقسيم العــمل » بين الاردن وفلسطين ، ان الجدول التالي «٢» يظهر تطـــور انتاجية ابرز محاصيل الحبوب في البلاد منذ عــام ١٩٢٧ وحتى عام ١٩٤٣ ·

جدول رقم «٢»

انتاج محاصيل الحبوب بالاطنان (١٩٢٧/١٩٤٤) (٥٢)

السنة	القمح	شعير	الدخن	اخرى
١٩٢٧	٣٥ر٠٠٠	١٢ر٠٠٠	٣ر٢٠٠	٠٠٠
١٩٣٢	٤١ر٧٠٠	١٠ر٠٠٠	٥و٠٠٠	٠٠٠
١٩٣٧	١١٣ر٠٠٠	٥٣ر٠٠٠	١١ر٠٠٠	٣٠٠
١٩٣٨	٨٥ر٠٠٠	٤٥ر٠٠٠	٩ر٠٠٠	٣٢٠
١٩٣٩	١٦٨ر٤٠٠	٩٨ر٠٠٠	٣و٩٠٠	٤٤٠
١٩٤٠	١٧١ر٠٠٠	٥٨ر٠٠٠	٤ر٧٥٠	٢٢٠
١٩٤١	٧١ر٠٠٠	٣١ر٠٠٠	١ر٦٠٠	١١٠
١٩٤٢	١١٣ر٠٠٠	٥١ر٠٠٠	٥ر٣٠٠	٣٠٠
١٩٤٣	١٠٠ر٠٠٠	٥٥ر٠٠٠	٦ر١٠٠	١ر٢٥٠

(٥١) راجع كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ٩٠ (عن ولبول مدير الاراضي والمساحة فــي شرقي الاردن) ·

(٥٢) كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ١٠٧ (جدول رقم ٦)

كانت زراعة المحاصيل الرئيسية من الحبوب تغطي ، عام ١٩٤٤ ، ما مساحته مليوني دونم من الاراضي المزروعة في البلاد ، منها ١ر٤ مليون دونم مزروعة قمحا ، ونصف مليون مزروعة شعيرا ، و٩٥ الف دونم بالدخن و٢ر٥٠٠ دونم بالذرة (٥٣) ٠ وفي السنوات التالية ارتفعت المساحة المزروعة بالقمح الى ١ر٩٣٠ر٠٠٠ دونم لعامي ٤٥ و ١٩٤٦ ٠ ثم هبطت الى نحو مليون ونصف عام ١٩٤٧ والى ١ر١٩٠ر٠٠٠ عام ١٩٤٨ ٠

اما مساحة الاراضي المزروعة بالشعير فقد ازدادت الى ٦٥٠ الف دونم عامي ٤٥ و١٩٤٦ ثم عادت الى الانخفاض الى اقل من نصف مليون دونم عام ١٩٤٧ ثم الى ٣٥٩ الف دونم عام ١٩٤٨ ٠ وانخفضت مساحة الاراضي المزروعة بالدخن الى ٥٥ الف دونم عام ١٩٤٥ ثم الى ٥٠ الف عام ١٩٤٦ والى ٢٦ الف دونم عام ١٩٤٧ ، ثم عادت الى الارتفاع بقوة عام ١٩٤٨ الى ١٠٠ الف دونم ٠ (راجع الجدول رقم «٣») ٠

كانت زراعة الحبوب تحقق فائضا بارزا عن حاجة السكان ، وكان الفائض يصدر الى الخارج ولا سيما الى فلسطين ٠ وكانت صادرات الحبوب تتذبذب من سنة الى اخرى تبعا لتذبذب الانتاج (٥٤) ٠

جدول رقم «٣»

المساحات المزروعة بالحبوب والبقول (١٩٤٥ / ١٩٤٨) بالدونمات (٥٥)

المحصول	١٩٤٥	١٩٤٦	١٩٤٧	١٩٤٨
القمح	١ر٩٣٠ر٠٠٠	١ر٩٣٠ر٠٠٠	١ر٥٣٥ر٠٠٠	١ر١٩٠ر٠٠٠
الشعير	٦٥٠ر٠٠٠	٦٥٠ر٠٠٠	٤٩٨ر٠٠٠	٣٥٩ر٠٠٠
الدخن	٥٥ر٠٠٠	٥٠ر٠٠٠	٢٦ر٠٠٠	١٠٠ر٠٠٠
العدس	٢٢٤ر٠٠٠	٢٤٠ر٠٠٠	١٥٤ر٠٠٠	٧٣ر٠٠٠
الكرسنة	١٦٠ر٠٠٠	١٦٠ر٠٠٠	١٢٥ر٠٠٠	٨٦ر٠٠٠
فول	٧ر٠٠٠	٧ر٠٠٠	١٤ر٠٠٠	٨ر٠٠٠
حمص	٧٥ر٠٠٠	٧٠ر٠٠٠	١٥ر٠٠٠	٨ر٢٦٠
مجموع مساحة الحبوب والبقول	٣ر١٠١ر٠٠٠	٣ر١٠٧ر٠٠٠	٢ر٣٣٩ر٠٠٠	١ر٨٢٤ر٢٦٠

(٥٣) كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ٤٢ ٠

(٥٤) انظر القسم الخاص بالتجارة الخارجية وبصادرات الاردن في فصل لاحق من هذه الدراسة ،

(٥٥) راجع : Commercial Conditions in Transjordan, 1948 , P. 40 .

٢ ــ زراعة البقول

احتلت زراعة البقول المكانة الثانية بعد زراعة الحبوب ، ان من حيث مساحة الارض المزروعة او من حيث الانتاج بالاطنان · وكان العدس والكرسنة يحتلان مكانة بارزة ضمن البقول ، ويأتيان مباشرة بعد القمح والشعير · كانت مساحة الاراضي المزروعة بالعدس في سنوات ٤٥ / ١٩٤٨ بالترتيب ٠٠٠ر٢٢٤ و٠٠٠ر٢٢٤ ، ٠٠٠ر١٥٤ ، ٠٠٠ر٧٣ دونما · اما الكرسنة فكانت تزرع في ١٦٠ الف دونم لعامي ٤٥ و١٩٤٦ و١٢٥ الف دونم لعام ١٩٤٧ ثم في ٨٦ الف دونم لعام ١٩٤٨ (٥٦) · وكما يلاحظ فأن المساحة الخاصة بالمحصولين كانت تتجه نحو الانخفاض سنة بعد اخرى (انظر الجدول السابق) ·

يأتي الحمص والفول في مرتبة تالية ثم الفاصوليا والبازيلا ، وكانت هذه في نهاية العشرينات تحتل مكانة متدنية من حيث المساحة المزروعة ومن حيث كمية الانتاج · ثم صعدت على الحرب الثانية واتجهت في النصف الثاني من الاربعينات الى الانخفاض · يبين الجدول (رقم «٤») انتاج البقول بالاطنان خلال سنوات ٢٧ / ١٩٤٣ :

جدول رقم «٤»

انتاج البقول بالاطنان للسنوات ١٩٢٧ / ١٩٤٣ (٥٧)

السنة	فاصوليا وبازيلا	عدس	كرسنة	بقول اخرى
١٩٢٧	···	٥٠٠ر٣	٠٠٠ر٢	···
١٩٣٢	···	٤٠٠ر٢	٩٥٠ر١	···
١٩٣٧	١٠٠ر٢	٠٠٠ر٥	٠٠٠ر٧	٣٠٠ر١
١٩٣٨	٩٠٠ر١	٦٠٠ر٤	٥٠٠ر٧	٠٠٠ر١
١٩٣٩	٥٠٠ر١	٨٠٠ر٩	٨٠٠ر١٤	٣٠٠ر٣
١٩٤٠	٣٠٠ر٢	٤٠٠ر١٣	١٠٠ر١٢	٢٥٠ر٢
١٩٤١	٧٠٠	٨٠٠ر٥	٣٥٠ر٤	٠٠٠ر١
١٩٤٢	٤٠٠ر١	٤٠٠ر٦	٢٠٠ر٦	٩٠٠ر١
١٩٤٣	٢٥٠ر٢	١٠٠ر١٠	٣٠٠ر٩	٣٠٠ر١

كانت البلاد تصدر كمية صغيرة من العدس والكرسنة · وكانت توازي في الاعوام ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ١٩٤٣ الكميات التالية بالاطنان : ٠٨٧ر٣ ، ٤٦٦ر٦، ٢٢٨ر٥ ، ٠٧٢ر ٠٣ وكان السوق الرئيسي لها ــ كما لباقي المنتجات الزراعية المصدرة ــ في فلسطين (٥٨) ·

(٥٦) المصدر السابق ، ص ٤٠ ·

(٥٧) راجع كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ١٠٨ ، الجدول رقم ٨ ·

(٥٨) كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ١١٢ ، انظر جدول الصادرات ·

٣ ـ زراعة الخضار

نمت زراعة الخضار ببطء · وانحصرت في المناطق المروية والمناطق ذات الامطار الكثيفة نسبيا · ولم تشهد الاتساع الذي شهدته زراعة الحبوب والبقول، اذ ان غياب مشاريع الري ، التي يفترض ان تقوم بها الدولة وتنظمها ، وكذلك انخفاض مستوى التقنية الزراعية لدى معظم الفلاحين ، قد حالا دون زيادة مساحة الخضروات بشكل ملحوظ ، وكذلك حالا دون زيادة الانتاج منها ·

كانت الاغوار وعجلون هي مناطق زراعة الخضروات الرئيسية ، وكانت ابرز المحاصيل في هذه المناطق الملفوف ، الباذنجان ، البندورة والخيار · وبين عامي ١٩٣٧ و ١٩٤٣ ازدادت مساحة الاراضي المزروعة بالخضروات من ٤٠ر٢٠٠ دونم الى ٥٩ر٧٠٠ دونم ، مع شيء من التأرجح صعودا وهبوطا خلال الفترة نفسها · (انظر الجدول التالي «٥») · لقد كانت على رأس الزراعات من الخضروات ، زراعة البطيخ والبندورة التي حظيت بالمساحة الاكبر ، ثم البصل والثوم فالباذنجان والخضروات الاخرى ·

ادى ارتفاع كمية الانتاج من الخضروات الى تأمين الحاجات المحلية نسبيا ، والى تصدير كميات ضئيلة من الفائض الى فلسطين ، اما قبل الثلاثينات فقد كانت البلاد تستورد الخضار من سورية (٥٩) ·

جـدول رقم « ٥ »

مساحة الاراضي المزروعة بالخضروات بالدونمات (١٩٣٧ ـ ١٩٤٣) (٦٠)

	١٩٣٧	١٩٣٨	١٩٣٩	١٩٤١	١٩٤٢	١٩٤٣
ملفوف	٩٠٠	٩٠٠	١ر٠٠٠	٨٥٠	١ر٠٥٠	١ر٨٠٠
باذنجان	٢ر٩٠٠	٤ر٠٠٠	٣ر٩٠٠	٥ر٦٠٠	٧ر٥٠٠	٧ر٣٥٠
بصل وثوم	٥ر٣٠٠	٦ر٠٠٠	٦ر٧٠٠	٤ر٣٠٠	٤ر١٠٠	٦ر٧٥٠
بطيخ	١٣ر٣٠٠	١٦ر٨٠٠	١٣ر٠٠٠	٧ر٧٠٠	١٥ر٤٠٠	٢١ر٠٠٠
بندورة	١٢ر٨٠٠	١٣ر٠٠٠	١٣ر٠٠٠	٩ر٨٥٠	١٣ر٧٠٠	١٥ر٣٠٠
خضروات اخرى	٥ر٥٠٠	٥ر٧٠٠	٦ر٦٠٠	٣ر٨٠٠	٦ر٢٠٠	٧ر٥٠٠
المجموع	٤٠ر٢٠٠	٤٦ر٤٠٠	٤٤ر٢٠٠	٣٢ر١٠٠	٤٧ر٩٥٠	٥٩ر٧٠٠

٤ ـ زراعة الفواكه والثمار

احتلت زراعة الفواكه والثمار مكانة بارزة ، من حيث الانتاج ومن حيث المساحة المزروعة ، وتأتي بعد زراعة الحبوب والبقول · لقد غطت زراعة الكروم بين ٨٠ و ٩٠ الف دونم ، وهي زراعة اساسية لسكان المرتفعات والتلال · كانت غالبية انتاج الكروم تأتي من مناطق جبال عجلون والسلط · ويذهب ١٥٪ من الانتاج المحلي من العنب الى انتاج النبيذ ، ويستهلك الباقي او يجفف ويصدر

(٥٩) المصدر نفسه ، ص ٤٣ و ١١٢ ·

(٦٠) كونيكوف ، ص ٤٤ · في عام ١٩٣٣ ، كانت الاراضي المزروعة بالخضروات لا تتجاوز ١٣ر٠٠٠ دونم مروية ، و ١٠ر٠٠٠ دونم غير مروية ، اي نحو نصف الاراضي المزروعة بالخضروات عام ١٩٤٢ ·

قسم منه الى الخارج · وفي عام ١٩٤٣ وصل انتاج الكروم الى ٢٣٫٩٠٠ طن من العنب و ١٫٨٠٠ طن من الزبيب ، ومن الاخير صدر ٥٠٠ طن (٦١) ·

اما اشجار الزيتون فان بعض التقديرات تذهب الى ان عددها يوازي نصف مليون شجرة ، وهي تغطي المرتفعات الشمالية وتنتشر في مناطق اخرى في البلاد· وتغل اشجار الزيتون في السنة الجيدة ما يزيد على ١٠ الاف طن ويذهب ٩٠٪ من المحصول الى العصر ، فيما يستهلك الباقي كثمار للاكل · كان انتاج الزيتون لعام ١٩٤٣ يوازي ١٢٫٢٠٠ طن ، اما انتاج زيت الزيتون لنفس العام فهو ١٫٦٠٠ طن · يظهر الجدول رقم «٦» حجم انتاج الزيتون والكرمة بين عامي ٣٧ و ١٩٤٣ ·

الى جانب هذه ، كانت اشجار الفواكه مثل الرمان والمشمش واللوز والسفرجل ذات اهمية ضئيلة من حيث المساحة ومن حيث الانتاج · وبدأت في فترة متأخرة زراعة الموز والحمضيات في وادي الاردن ، وكان الانتاج دون الطلب المحلي · ان بعض الكميات من الفواكه قد وجدت لها سوقا في فلسطين ووفقا لارقام ١٩٤٣صدر شرقي الاردن الى السوق الفلسطيني ٥٠٠ طن من الزبيب ، ٢٫٤٢٠ طن من العنب ، ١٫٨٥٠ طنا من فواكه اخرى بينها الموز والليمون والرمان (٦٢) ·

جـدول رقم « ٦ »

انتاج الكرمة والزبيب ، والزيتون وزيت الزيتون بالاطنان في الاعوام ١٩٣٧ ـ ١٩٤٣ (٦٣) ·

السنة	العنب	الزبيب	الزيتون	زيت الزيتون
١٩٣٧	٢٢٫٥٠٠	١٫٠٠٠	١٠٫٥٠٠	١٫٢٠٠
١٩٣٨	٢٠٫٥٠٠	١٫٠٠٠	١٠٫٠٠٠	١٫١٥٠
١٩٣٩	١٩٫٢٠٠	١٫٢٠٠	٢٫١٥٠	٢٠٠
١٩٤٠	٢٦٫٥٠٠	١٫٢٥٠	١٠٫٤٠٠	١٫٢٠٠
١٩٤١	١٥٫٢٠٠	٧٥٠	١٫٥٠٠	١٠٠
١٩٤٢	٢٤٫٧٠٠	٢٫٠٠٠	١٠٫٦٠٠	١٫٢٥٠
١٩٤٣	٢٣٫٩٠٠	١٫٨٠٠	١٤٫٢٠٠	١٫٦٠٠

(٦١) المصدر نفسه ، ص ٤٤ ·

(٦٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ ·

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٤٤ ·

٥ ـ الزراعات الصناعية

عرفت البلاد منذ فترة مبكرة زراعةانواع من التبغ (٦٤) ومنذ عام ١٩٢٦ كانت زراعة التبغ التركي والتنمباك من ابرز المحاصيل الزراعية الصناعية ٠ ان ارقام الانتاج المبكرة تشير الى ان زراعة التبغ غطت ١١٨ طنا عام ١٩٢٩ ٠ الا ان هذه الزراعة واجهت تقلصا في الانتاج في السنوات ٣٠ ـ١٩٣٦ واصبحت تدور حول متوسط قدره ١٢ طنا ٠ ثم عادت الى انتعاشها بعد ذلك ولكن لم تصل الى ارقام عام ١٩٢٩ الا في سنوات متأخرة جدا وبشكل متذبذب ٠ لقد استقرت على انتاجية تراوحت بين ٧٠ و ١٠٠ طن من التبغ التركي ، وكانت ابرز مناطق زراعتـه فـي السلط وعمان (٦٥) ٠

ومن حيث المساحة، غطت زراعة التبغ ١٫٦٥٨ دونما عام ١٩٣٧ ، ثم انخفضت الى اقل من الف دونم عامي ٣٨ و ١٩٣٩ ثم ارتفعت الى ٣٫٢٤٢ دونما عام١٩٤٠ وظلت بين صعود وهبوط في السنوات التالية فان مساحة زراعة التبغ في الاعوام ٤٥ ـ ١٩٤٨ كانت توازي بالترتيب ٣١١٠ ، ٦٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٣٨٥ دونما (٦٦) ٠

وقد عكس هذا التذبذب في المساحة نفسه على الانتاجية ، فكانت توازي فـي نفس الفترة وبالترتيب : ١٢٩٫٨٠٠ ، ٣١٫٠٠٠ ، ١٢٫٧٧٣ ، ١٢٠٫٠٠٠ كيلـو غراما (٦٧) ٠ ويبدو ان هذا التأرجح في مساحة الزراعة والانتاجية يعود الى ان مصنعي التبغ في البلاد كانا يتحكمان في تحديد هذه الانتاجية ، وكانـا يستوردان كميات من التبغ الاجنبي للمزج ، وعلى وجه العموم كانت مستوردات التبـغ الاجنبي الجاهز للاستهلاك تشكل منافسة متزايدة تحد من فرص تغطية الطلـب الداخلي من التبغ المحلي ٠

اما زراعة التنمباك فقد غطت مساحات قليلة متفرقة في وادي الاردن وفـي البلقاء حول مادبا وتوازي ما بين سبعة الاف وثمانية الاف دونم ، وفي مناطـق اخرى من عجلون والكرك ، وكانت تغل بضعة الاف من الاطنان تسهتلك ضمـن السوق المحلي ٠

والى جانب التبغ والتنمباك كانت هناك زراعات صناعية اخرى مثل السمسـم الذي زرع على نطاق ضيق ، وعباد الشمس الذي كان ينتج منه قبل الحـرب

---

(٦٤) تحدث بيركهارت عن مشاهدته زراعة انواع من التبغ في مناطق من الاردن ، حين مر بهـا في مطلع القرن التاسع عشر (١٨١٢) في كتاب « رحلات الى سورية والبلاد المقدسة » المذكور انفا ٠

(٦٥) كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ٤٥ـ٤٦ ٠

(٦٦) Commercial Conditions. op. cit.

(٦٧) المصدر نفسه ٠

الثانية كميات بين ٥٠ و ١٠٠ طن كانت تصدر الى ايطاليا عبر فلسطين (٦٨) ·

د ـ الانتاج الحيواني :

مثل الانتاج الحيواني نشاطا مشتركا للاقتصادين الرعـــوي والفلاحـي ، والمعطيات الاحصائية المتوفرة قلما تعطينا فرصة التمييز بيـن حصص هذيـــن الاقتصادين من الثروة الحيوانية · ويمكن القول ان البلاد ظلت تتمتع بانتـــاج حيواني يفوق الحاجات المحلية · وكانت صادرات الحيوانات الحية تشكل حصة هامة من الصادرات العامة للبلاد ·

وفيما يتعلق بالحيوانات المرتبطة بالاقتصاد الزراعي ، فقد حافظت البلاد على ثبات نسبي في عددها ، وينطبق هذا على الحيوانات المعدة لغايات تربية اللحـوم وانتاج الحليب ومشتقاته ، او الحيوانات لغايات العمل · فقد تراوح عدد الابقار بين ٥٠ و ٧٠ الف رأس بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٤٣ ، اما حيوانات العمل فقـــد تراوح عدد الحمير بين ٥٠٠ر٢٤ و ٣٠ الف لنفس الفترة · كما تراوح عدد البغال بين ٢٠٠ر١ و ٨٠٠ر١ بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٤٣ ، وكان عدد الخيل بين ١٠٠ر٤ و ٢٠٠ر٨ في نفس الفترة ايضا (٦٩) ·

اما الحيوانات الاخرى مثل الجمال والاغنام والماعز فقد تناولنا تطور انتاجهـا اثناء معالجتنا لوضع الاقتصاد الرعوي ·

هـ ـ ملاحظات واستخلاصات في المسألة الزراعية ·

بدأت منذ ٢٩ ـ ١٩٣٣ مرحلة تصفية الملكية المشاعية والنظام الاجتماعـي ـ الاقتصادي المشاعي فيالبلاد· كانت السلطة الكولونيالية تستهدف تصفية الاساس المادي للولاء المحلي ـ العشائري ـ شبه الاقطاعي ـ في البلاد ، وترسيخ سيطرة الادارة المركزية ، وهكذا ادت هذه الخطوة سياسيا ، الى اعادة توزيع الولاء بين الدولة والزعامة المحلية ، عبر ترسيخ نمط الملكية الخاصة للارض المعتمدة على الفلاح المستقل الحائز الذي له صلة مباشرة بالدولة عبر الضريبة ، وله صلـــة مباشرة بالسوق عن طريق الانتاج له ، وكما هو متوقـــع فان بقايا النظـــام الاجتماعي القديم ظلت حية لفترة طويلة ، الا ان السيطرة المركزية قامت ، بعد ان نجحت في تصفية اشكال المعارضة للزعامة المحلية ـ شبه الاقطاعية العشائرية ، وعبر تقسيم الارض وفرزها · وكان الفرز الاجتماعي في الريف يأخذ في الترسخ ، فقد ازدادت الهوة بين المساحات الكبيرة للشيوخ ـ الملاكين الزراعيين الكبار وبين المساحات المفتتة التي تملكها اعداد كبيرة من الفلاحين ·

---

(٦٨) كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ٤٦ ·

(٦٩) المصدر نفسه . جدول الانتاج الحيواني (للسنوات ٢٧ ـ ١٩٤١) ، ص ٤٦ ·

نمت طبقة الملاكين الزراعيين من الشيوخ العشائريين الذيــــن تمتعوا مبكـرا داخل النظام المشاعي بملكيات زراعية كبيرة ، ومع تقسيم الارض (٢٩ـ١٩٣٣) واقطاع الدولة لكبار الشيوخ اراض جديدة ، توطدت سيطرة الشيوخ القدامــى في الريف على اساس الملكية الخاصة وبصورة شبه اقطاعية ٠ وكما سبق اناشرنا فقد منحت الدولة شيوخ العدوان ٠٠٠ر١٠٨ دونم في غور الاردن عــام ١٩٣١ ، مقابل مبلغ تافه ، وتركت مساحة واسعة في وادي الاردن (المملوك للدولة) كما تركت شيوخ بني صخر حائزين على اراضي الدولة التي كانت تملكها سابقا الدولة العثمانيــــة ٠

ونعيد ما قاله هرشلاغ عن مشكلة الملكية الزراعية في شرقي الاردن بين فترتــي الحربين العالميتين « كانت حيازة الارض متأزمة ، وبوجه خاص في المنطقة الجبلية في الجزء الشمالي للبلاد ، كما يشهد علىذلك العدد الكبير من الحيازات الصغيرة، والضياع الكبيرة التي للقلة ٠٠» (٧٠) ٠

ان تفتت الارض وتوزعها بين جمهرة واسعة من الفلاحين الصغار ، واعــــادة اقتسامها بالوراثة ، وتخلف وسائل الانتاج والاعباء الضريبية وغيرها قد عكست نفسها على الانتاجية واورد هرشلاغ مثالا على ذلك فقال : كان على الفــلاح ان يبذر ٨٤٠ كيلو غراما من القمح ليحصد ٢١٠٠ كيلو غرام ، كان عليه ان يدفــــع منها ٣٧١ كيلو غراما على النحو التالي : ٥ر٢١٪ لايجار الارض ، ٥ر١٦٪ كعلف للماشية ، ٤ر١٦٪ للحراث والحصاد، ١ر٨٪ كضريبة والباقي اي ٨ر٣٧٪ كنفقات متفرقة ، (٧١) ، ويمكن ان نستخلص استطرادا ، ان الحصة الصافية من الانتاج بعد خصم البذار والنفقات ، لا تزيد عن ٩٨٩ كيلو غراما فقط ، اي ٠٩ر٤٧٪ من مجموع المحصول الناتج !

ادت مشكلة الملكية الزراعية ، وضيق الاراضي المستثمرة في الزراعة والتي لم تتجاوز ١ر٥١٪ من مساحة البلاد ، الى تنامي التفاوت في حجم الحيازات ، وقاد الى هجرة اعداد هامة من الفلاحين الصغار والمزارعين المعدمين للريف والانتــاج الزراعي نحو المدن ، التي شهدت نموا واسعا في مدى زمني قصيــــر او للعمل في الجيش ، وفي مرافق الدولة ، كما ادى الى الهجرة نحو خارج البلاد وبخاصة الى فلسطين ٠

كانت افضل الاراضي ومصادر الري بيد حفنة من الملاكين الزراعيين شبـــه الاقطاعيين ٠ فيما باقي الاراضي غير كافية لاعالة الحائزين الصغار وعائلاتهم ، ودفعت هؤلاء الى الاعتماد على نظام انتاج نصف اقطاعي كالمحاصصة ٠ وقد حال نظام الانتاج الذي يسيطر عليه كبار الملاكين وشيوخ العشائر شبه الاقطاعيين دون

---

(٧٠) راجع هرشلاغ ، المصدر الانف الذكر ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ ٠

(٧١) المصدر نفسه ، الصفحات نفسها ٠

تنظيم وتوزيع المياه وحالوا دون اصلاح الدولة لتوزيع الثروة المائية او السيطرة عليها ، ويقول هرشلاغ « ان النفوذ الذي كان لكبار الملاك على الحكومة مكنهم من ان يعطلوا حتى عام ١٩٣٨ اصدار قانون تسوية المياه الذي كان لغيرصالحهم، من حيث انه جعل الحكومة مسؤولة عن توزيع المياه » (٧٢) ٠

اما ولبول الذي كان مدير دائرة الاراضي والمساحة في شرقي الاردن فقد ذكر في مقالة له (٧٣) ، انه حتى سنة ١٩٤٦ ، كانت حكومة الاردن هي الدولة الوحيدة في الشرق الاوسط التي لا تشرف على ادارة توزيع المياه ٠٠ » واضاف : « هنالك قانون للمياه في الاردن وضع عام ١٩٣٨ ، لكن جميع المجالس التشريعية المتتالية رفضته » وذكر ان سيطرة كبار الملاكين الزراعيين شبه الاقطاعيين على توزيع المياه ادت الى الفوضى التي استمرت الى حين نجحت الحكومة في اقناع المجلس التشريعي في اقراره عام ١٩٤٧ ٠ وهكذا فقد حالت سيطرة هؤلاء دون توسيع الرقعة الزراعية المروية والى احتكار مصادر المياه التي تقود الى الحيلولة دون تطوير الانتاجية وتنويعها بسبب الحاجة القصوى للمياه ٠

وهناك جانب اخر من سياسة الدولة ــ السلطات الكولونيالية بصدد التوطين الزراعي للسكان ، اضعفت من فرص نمو الريف والانتاج الزراعي ٠ فقد نظرت السلطات الكولونيالية واجهزة الدولة الى التوطين في الارض ، لا من زاوية تأثيره على التطور الاقتصادي الاجتماعي وانما من زاوية الاستقرار السياسي والامن ٠ ففي عدد من الحالات المنظورة من التوطين ، كان منح الاراضي يأخذ طابعالرشوة او طابع ترغيب هذا الشيخ أو عقاب ذاك ٠ كما هو الحال مع بني صخر مثلا في البداية ثم مع شيوخ العدوان فيما بعد ، وكذلك في منح شيوخ قبيلة الغزاويةاراض تفوق قدرتهم على استثمارها ٠

لقد ظلت الاراضي المزروعة فيالبلاد حتى فترة متأخرة، تقل عن نصفالاراضي القابلة للزراعة ، كما تقل هذه الاراضي عن الاراضي القابلة للاستصلاحالزراعي، اما الاراضي المروية فقد كانت تشكل حصة تافهة من مجموع الاراضي الزاعية لا تزيد عن ٦ر٥٪ ٠

لم تقدم الدولة اية خدمات فعالة لتطوير اساليب الزراعة ولتنويع محاصيلها، كانت الاساليب المتبعة عند قسم كبير من المزارعين ، لا تختلف عن وسائلهم منذ عشرات القرون، ان اهمال السيطرة الكولونيالية والنظام الاجتماعي ــالاقتصادي في الريف الذي ظل متأثرا باشكال وعلاقات الانتاج القديمة قد حال دون تطور وسائل الانتاج ودون تطور الانتاجية وتنوعها ٠ وقد شجعت السلطات الكولونيالية البريطانية الابقاء على قسمة العمل مع فلسطين ، التي كانت تعني

---

(٧٢) المصدر نفسه ، الصفحات نفسها ٠

(٧٣) ولبول ، المصدر المذكور انفا ، ص ٦٢ ٠

استمرار زراعات الحبوب مع ما يرتبط بها من نظام انتاج وعلاقات واساليب بدائية ٠

اما من حيث التسهيلات المالية والقروض ، فقد تركت الدولة الفلاحين يواجهون تحديات التحول من الاقتصاد المعيشي الى الاقتصاد البضاعي ، على ارضية غير مواتية ، دون اية مساعدة فعالة ٠ وهكذا لم يعان الريف فقط من حدود التبادل البضاعي غير المتكافئة ، وانما ايضا من كونه ما زال خاضعا لسيطرة الطبيعة واعتماده الغالب على الامطار ٠ وبسبب من تدهور حدود المبادلات ازدادت مصاعب الفلاحين المالية ، وكانت هذه مرتعا خصبا للمرابين والتجار كما ازدادت رهونات الارض ٠ يعلق ولبول في هذا الصدد بقوله : « ان الذين يدينون النقود والتجار ، متحمسون لايجاد منفذ للرأسمال الفائض ، وهناك طريقة بطيئة ، ولكن اكيدة النتائج في نقل ملكية الاراضي الزراعية من الفلاحين المديونين الى التجار والمرابين المدينين ٠٠»

اما نتائج هذه المجابهة غير المتكافئة فيعبر عنها ولبول بالارقام التالية : ارتفعت ديون الفلاحين في بداية الحرب الثانية (١٩٣٩) من ١٩٦ر٠٠٠ جنيه ، الى ٦٨١ر٠٠٠ جنيه بعد الحرب (نهاية ١٩٤٦) ، (٧٤) اي انها زادت بنسبة ٣٤٧ر٤٪ ٠

ويقول ولبول : « ان المصرف الزراعي العائد الى الحكومة يكاد يكون محدود التأثير جدا في هذا المجال ، حيث رأسماله لا يتعدى ١٣٠ر٠٠٠ جنيه ، وهو لا يكفي لمد الفلاحين خلال الازمات العصيبة ، فالكمية الضرورية لا تقل عن نصف مليون جنيه وخاصة في السنوات القاحلة كعامي ٤٦ـ١٩٤٧ » ٠ (٧٥) ٠

وبصدد وضع الفلاحين بعد الحرب الثانية وتراكم ديونهم يعلق ولبول قائلا : « يبدو واضحا ان الفلاحين بازدياد ديونهم لم يتمكنوا من تسديدها كلها ، وعلى رغم كون المعدل القانوني للفائدة يبلغ ٩٪ ، ولكن عندما تؤخذ الرهونات فان القرض يشمل حسومات ثقيلة تتراوح بين ٣٠٪ و ١٠٠٪ وهكذا فما من فلاح يستطيع تسديد قروضه بوجود هذه الاقتطاعات المتفاقمة ٠٠٠» ويشير ولبول بتشاؤم ان المبالغ التي في حوزة بنك الدولة الزراعي غير كافية لايقاف « موجة انتقال الاراضي من الفلاحين الفقراء الى الاغنياء الذين يدينون المال » (٧٦) ٠

لقد ادى التحويل الكولونيالي لاقتصاد البلاد من اقتصاد معيشي الى اقتصاد نقدي ـ سوقي ، الى استثمار التجارة، ازمة الاقتصاد الريفي والرعوي، وشجعت

---

(٧٤) ولبول ، المصدر نفسه ، ص ٥٩ ٠
(٧٥) المصدر نفسه ، ص ٥٩ ٠
(٧٦) المصدر نفسه ، ص ٥٩ ٠

السيطرة الكولونيالية مع اهمالها قطاعات الانتاج المادية القديمة منها والحديثة، تعويض النقص في الانتاج الغذائي والاستهلاكي المحلي عن طريق الاستيراد و « حرية التجارة » ·

بهذا الصدد يشرح جلوب قائد الجيش الاردني العملية التي كان يتم فيها حلول الاستيراد محل الانتاج المحلي مع الانتقال من الاقتصاديات المعيشية الى الاقتصاد النقدي بقوله :

« عن طريق النقد ، تجلب الى البلاد مختلف الضروريات والكماليات غير المعروفة من قبل ، وتصبح متوفرة · يلبس السكان ثيابا افضل ، يتعلمون شرب الشاي ، يشترون الساعات والعطور ، ويسافرون بالعربات الالية بدلا من الجمال ·· » !! (٧٧) ·

و « تعني السهولة التي يمكن بموجبها تصدير المنتجات الغذائية ومقايضتها ببضائع مصنوعة الى ان احتياطي الحبوب لا يبقى في البلاد · وحتى في سنوات المحاصيل الوافرة تباع كل الحبوب ويشتري القرويون الثياب الجديدة والاثاث الجديد والحاجيات اللازمة او الكمالية ،واذا كانت المحاصيل في العام التالي رديئة فلن يكون هناك احتياطي من الحبوب في القرى للتغلب على صعوبة الوضع ·· » ازاء هذه المشكلة يقدم جلوب حلا عزيزا عليه انه « حرية التجارة » فـ « استيراد الارز الهندي والطحين الاسترالي» يؤمن الحل المطلوب (٧٨) ·

نلاحظ ، ان الانتقال من الاقتصاد المعيشي المكتفي ذاتيا الى الاقتصاد السوقي، لم يحمل تطورا في الانتاجية لمواجهة نتائج المبادلة ، التي قاسمها المشترك السلع الاستهلاكية والكمالية ، غير المعروفة من قبل ، ولا تنظيما عقلانيا للتجارة مع الخارج ، وانما دفع حدود المبادلات مع الخارج المتدهورة الى نهاياتها ، اي الى استيراد الطحين في بلد تغطي زراعة الحبوب ما يقارب ٨٠٪ من مساحات اراضيه الزراعية ·

بصدد نتائج اتساع حدود المبادلة في الاطار الكولونيالي ، وفي غياب سياسة تطوير انتاج السلع في البلاد يشكو جلوب باشا من تنكر السكان المحليين لماضيهم المعيشي ، يقول : « ليس هذا فقط ، بل في السنين الجيدة يكون السكان قد اعتادوا على استعمال الكماليات الاجنبية ، فعندما تأتي السنوات العجاف ، لا يستطيعون شراء هذه الكماليات فيشكون من هذا ، رغم انه لسنوات خلت لم تكن تلك الكماليات معروفة لديهم (···) وهكذا نرى انه في بلد تعتمد فيه الزراعة على امطار متقلبة ، لعبت حرية التجارة دورا في ارتفاع استعمال الكماليات ، وتدني

(٧٧) راجع جلوب ، المقالة المذكورة انفا ·
(٧٨) المصدر نفسه ·

احتياطي كميات الاغذية ٠٠ لا بل نتج عن ذلك شعور بارتفاعـات وانخفاضات في السنوات الجيدة والرديئة ٠٠» (٧٩) ٠

ان الحصيلة العامة للتطور الضعيف في القطاع الزراعي وفي القطاع الانتاجـي المادي الحديث والاتجاهات المرضية فيتطور القطاع الخدماتي والحكومي والدفاع، قد جعلا مكانة القطاع الزراعي تتقلص تدريجيا ، وهو الامر الذي عوض عـن طريق التجارة الخارجية ٠ وعكس نفسه في نزف متزايد من الهجرة الريفية ، وفي تزايد التفاوت الاجتماعي في الريف ، وتردي اوضاع فئات واسعة من الفلاحيـن الصغـار والمتوسطين ٠

---

(٧٩) المصدر نفسه ٠

الوصايا العشر من قانون فرسان الملك

صخر

I

في الزمن المحفور على صفحات الارض ، قصص تروى ٠٠ وقصص لا تروى ٠ وحكايا أعجب من أن تدخل في قلب الصفحات ٠

وحكايتنا ليست أعجب ما في هذا الكون ٠ لكن اعادتها تحفر فوق عظام البشر نقوشا لا تمحى ٠ وتذكر كل الاطفال بان الماضي كان الدرس ٠ فليتعلم من يتعلم مجانا ٠ وليدفع من لا يتعلم مجانا ثمن الدرس الذاتي ٠

لا أبغي أن يتكاثر حولي اللف لينتفخ الدوران ٠ لكن الصورة كي تكتمل لتطبع في الاذهان ، لا بد لها من بعض رتوش ٠ والراوي ان كان يقول الرؤيا يتضاءل في شفتيه الحدث حروفا هي أقرب للصدق ٠ والقصة ٠٠ ان كانت بالدم معمدة وبلون الفقراء وطعم الوطن ، فالشمس تؤخر غيبتها كي تكتمل الصورة في أعين من يهوون الفقراء ٠

ولهذا ٠٠ فحكايتنا تنسجها خفة دم الفقراء وبساطتهم ٠ وتعمدها بالدم جراحات الفقراء ٠ وترويها الاعين دون كلام ٠ ترويها الارض المسبية وحوافر خيل الفرسان ٠ يرويها البيدر ، والزعتر والنعناع البري وكل طيور الارض ٠ ترويها العتمة ، يرويها النور ، يرويها السجان ويرويها المسجون ٠

القرية صاحبة القصة كانت نصف محتلة ٠ البيوت والفقر لاصحابها ٠ والارض والمحاصيل لاعدائها ٠ لم يبق لاهل القرية الا اكوام الطين والطوابين والحب الجارف للارض ٠ كانت أعينهم كل صباح تلمح لون القمح الذهبي يعانق رائحة الجوع ٠ واصابعهم كانت تتشقق غيظا وهي ترى المحراث يغوص ببطن الارض ٠ كانت آذانهم تسمع تغريد البلبل ، لا تفهم بعض الكلمات ٠ وكأن البلبل أصبح محتلا ايضا ٠ ولان الجوع يحرك في النفس شعورا يرسم الوان الحق على صدر الدم ٠ تحركت القرية نحو الارض ٠ عبرت أسيجة الخوف وعادت بالمحصول ٠

في اليوم التالي عبر القرية رعب المحتل فدمر اكوام الطين . وعادت أيـــــدي الحصادين تصارع أسيجة الخوف .. وعاد الرعب يصب النار ..
وقتل عزيز ابن المختار .
القرية .. كل القرية وقفت فوق أصابعها هلعـا ..
ـ مات عزيز .. ابن المختار .. قتلوه ..
ـ مـن ؟.
ـ اليهـود ..
ـ أخذوا الارض .. الا يكفيهم .؟!
ـ لن يكفيهم .. لن يكفينا ..
ان لم نقلع أشواك الغزو بايدينا . من يحمينا ؟
وتفرقت القرية ارتالا . بالحقد محملة .. والحب . عبرت جسر الخوف على كف عزيز .. وسكاكين الشرر تلامس اعناق الشوق الكامن في حب الارض .
عبر رجال القرية للمستعمرة الاولى .. للمستعمرة الاخرى .. والاخرى .. والعاشرة .. وعادوا .
كانت زينب تتشح الحزن سوادا . جاءوا بقلادة حقد مرصوصة كالتين الجاف، صنعت من اذان الاعداء المقطوعة .
نظرت زينب باستغراب .
قالـــوا :
ـ هذا من أجل عزيز .
قالت زينب :
ـ ليس عزيز .. باعز من الارض ..
قولوا هذا من اجل الارض .
ـ هذا من أجل الارض .. ومن أجل عزيز ..
قالت زينب :
ـ باسم نساء القرية .. اقول لكم :
من لم يصدق في حب الارض .. لا يصدق في حب الاهل . وامامكم الارض .. وامامكم اللص . من يزرع هذي الارض .. يزرع اطفالا .. ومن لا يزرع فليحصد عقمـــا .
وتوالت موجات القرية ترسم الوان الحق على جبهات المحتلين . وتوالـــى الفعل .. وتوالى رد العقل .. وحكايا .. ووصايا .. وهدايا واخيرا شكوى.. فشكاوى ، عشرين .. وخمسين .. للامم المتحدة .. للجامعة العربية ..العدوان على « اسرائيـل » والارهاب ..
والى القرية جاء الفرسان ..
هل منكم من يعرف معنى ان يأتي الفرسان الى القرية ؟
هل منكم من لا يعرف معنى ان يأتي الفرسان الى القرية .

من يعرف ·· فليخبر من لا يعرف ··
ومن لا يعرف ·· فليصدق من يعرف ··
وليس مهما ان نعرف ·· او لا نعرف ··
ان لم نعرف كيف سنمنع عودة ايام الطاعون ·

II

ابو علي ·

حفار يعمل في سلطة المياه المركزية ·

فلسطيني ·· غادر قريته منذ كبسة الطاعون · تعلم الحفر على يد «العسلية» أهم حفار قبور عرفته منطقة جبل النار ·

عندما حاول أن يحصل على جواز سفر طلبوا منه أن يسمي مهنته ·

قال : عامل ·

سالوه ·· عامل ·· ماذا ؟

لا بد لهذا الامر ·· من توضيح ·· فالعامل حاف ·· يعني عاطل ·· يعني شيوعي ضد الدولة ·

شطب العامل ·· اصبحت المهنة : حفار · والحفار ، هو كل من يضرب وجه الارض ليصل قفاها · واكراما للمهنة تعلم حفر الآبار ·· واصبح مسؤولا عن حفارة دق امريكية في سلطة المياه المركزية ·

في الليل ·· كان ابو علي يعشق لعب الورق مع العمال ·· يسرقهم ·· يكسب · ثم يعيد لهم الاموال ليؤكد سطوته وتفوقه وحنانه ·

كانت حفارته الامريكية تحفر بئرا في قاع الديسي (★) ·

ما ابعد قاع الديسي عن عمان ·· ساعات نقضيها والروفر ينهب وجه الارض ·· ووصلنا ·

كان الماء المتفجر بحرا في قلب الصحراء يفتح بارقة امل ·· لكن من يعمل في الارض لكي تزهر ·· البدو ·· طبعا لا يرضون العمل سوى في الجيش ·· او الحراسات ·

ولاول مرة ·· شاهدت أمامي بدويا يعشق عملا · كان الحارس للحفارة · لا يقضي الوقت في لف التبغ ولعب السيجة كالحراس · كان يمد يديه يساعد عمال الحفارة · يمسك حبل الحفر ·· ويزيح الشفاطة · يعمل بيديه كعامل حفارة ·

من لا يعرف طبع البدو ·· لا يستغرب ·· أما انا ·· اعرف · استغرب ·· وسالت ابا علي : فاجاب : طبعا يختلف عن الباقين ·· هذا نصف فلسطيني ·

★ مكان في جنوب الاردن ·

ـ كيف ؟
ـ زوجته فلسطينية ·
ـ هل تساعـده ؟
ـ طبعا ·· ان لم نفلح في تحطيم قوانين البادية البالية، كيف نفيد من الحفر ، ومن هذا الماء المتدفق ·· هو لا يحتاج كثيرا لمساعدتي هو أصلا يختلف عـن البدو ·· طلق عـادات البادية منذ سنين ، منذ تزوجها ·
ـ تزوج ماذا ؟
هل تقصد عـادات المدن أم عـادات الفلاحين ؟
ـ أقصد شيئا آخر ·· اني أعـرف زطام منذ ثلاث عشرة سنة ·
ـ ماذا !!
ـ منذ ثلاث عشرة سنة ·· هو لا يعرفني الآن ·· وانا لا أبغـي أن يعرفني· لكني أعطيه الفرصة اكراما لشجاعـة موقفه ·· ولها ·
ـ لم افهم شيئا ·
ـ ساوضح لك ·

أخذ أبو علي ·· نفسا من سيجارته واتكا عـلى طرف الكرسي وقال :

ما أقدم قصتنا ·· ترجع للخمسينات ·· لبدايات الخمسينات · كان زطام شابا في العشرين ·· كان فارسا ·· بل كان زينـة الفرسان ·· ناضـر الوجه ·· طلق اللسان يتمختر فوق حصان من نوع نادر ·

جاء الى قريتنا ذات صباح بائس · كانت أصوات الفرسان تدوي تختلـط بضربات للحوافر فتهتز القرية ·

ـ مطلوب أن يتجمع كل الناس على البيدر ·· فورا ·

وانهالت فوق الاجساد سياطهم لا ترحـم احـدا ، لا تعـرف فرقا بيـن الطفل وبين الام ·· ولا تسمع صوتا يرجو أو يسترحـم ·

وعلى البيدر صار رجال القرية كومة بؤس في قلب الدائرة المصنوعـة مـن اجساد الخيل ·

وتقدم شيخ الفرسان وصاح :

قال كلاما مملوءا بالنرفزة وبالعصبية ، فلم يفهم احـد كلمة · وتقدم زطـام ليكمل قال :

يا أهـل القرية ·

جئنا لنعاونكم ·· من يتعاون معنا يسلم ·· فرسان الملك كرام مع من يكرم نفسه ·· نحـن أتينا نقطع دابر كل لصوص القرية ·· كل الخونة ·· كـل المنحرفين · من لا يرعـون لجار حرمة ·

يا أهل القرية ·· أمهلكم عشر دقائق لتقولوا من هـم اوغاد القريـة ·· لصوص القمح ·· والبقر وقاطعـي آذان الجيران · ومن يصمون كرامـة وشهامة أهل القرية ·· أمهلكم عشر دقائق · منذ الآن ·

III

اخـذ الهمس طريقا ٠٠ والوشوشة امتدت تحفر آذان رجال القرية ٠ مـن يخبر فرسان الملك عـن فرسان القرية ؟! عـن فرسان الوطن وعشاق الارض ٠

الشمس احترقت غـيظا وهي تحـاول ان ترتفع الى اعـلى ٠ ومرت عشـر دقائق كالبرق ٠

وتقـدم زطام علـى ظهـر الابجـر ، يتمختـر ، يحجب نـور الشمس ، يلوح بالسوط وقال :

ـ انتهت العشر دقائق ٠٠ فليتقدم نحـوي كل لصوص القرية ٠٠ فورا ٠

لم يتحـرك احـد من أرضه ٠

صال وجال يمينا وشمالا وصرخ :

ـ قلت أمامي فورا كل لصوص القرية ٠

وهوى بالسوط ليدمي وجه الريح ٠

لم يتحـرك احـد ٠

اندفع الشيخ زعل ٠٠ شيخ الفرسان، صرخ ٠٠ وصاح، ارغى ٠٠ أزبد وهوى بالكرباج على أجساد رجال القرية ٠ فتعربشت الايدي تتكوم تتشابك تصنـع جسرا يحمي الرؤوس ٠

لكن الدائرة اكتملت ٠ عشرات الفرسان امتدت أذرعـهم بسياط عطشى للدم٠٠ وجوعـى متخمة بالحقد ٠٠ واختلط صراخ الالم بأنات الجرح وأصوات نساء القرية بزغاريد الفرسان ٠وصهيل الخيل ٠

وتوقف شيخ الفرسان عـن الضرب ٠٠ وصاح :

ـ تمـام ٠

فتوقف كل الصخـب وسيطر فوق الرعـب أنين الالم المختلط ببقايا الاصـوات الاخرى ٠ وتقدم زطام وصاح :

ـ اسمعـوا ٠٠ يا كلاب ٠

ما جئنا كي نلعـب ٠٠ جئنا لننفذ أمرا ٠أما أن تقفوا معـنا فنساعدكـم ، أو نقلب قريتكم سافلها عـاليها ٠ أعطيكم عشر دقائق أخـرى للتفكير ٠

وتمايل زطام عـلى ظهر الابجر ثم صرخ ٠

ـ أين المختار ؟؟

وتعالى رأس الشيخ الخمسيني ، تجاوز حد الكومة ، وقف وكان كواسطـة العـقد ٠

نادى زطام بصوت مبحوح ٠

ـ تعال ٠

فتوجه مختار القرية بوقار ناحية الفارس زطام ٠ وقال له هذا :

ـ يا مختار ٠٠ انت المسؤول ٠٠ تعرف كل لصوص القرية ٠٠ من هم ؟ قل٠

نظر المختار الى زطام بوقار ·· قال :

ـ ليس هنالك أي لصوص في قريتنا ·

وهوى زطام على وجه المختار بسوط حاقد وهو يصيح :

ـ شايب · وعايب ·· وكذاب ·

وقف رجال القرية يهتزون كقطعة غيظ لامسها الحقد ·

واندفعت من قلب نساء القرية قامتها المشوقة كالرمح . القت بالصدر على جسد أبيها المختار وعيناها شررا تطآن ملامح زطام ·

من يد زطام سقط السوط ·· داست زينب فوق السوط ·· وعيناها كالشمس الحارقة على جسد الفارس ·وتراجع زطام ·· تراجع واندفع بعيدا ·

وتقدم شيخ الفرسان يفرقع بالسوط وقال :

ـ اذهب يا مختار ·

جهز للفرسان غداء اليوم ·· لا تبخل ·· خمسين دجاجة ·· وحماما ·· وخروفا محشيا · لا تنسى التتن البحاري ·· والخيل ·· لا تنسى ، خيل الفرسان لا تأكل تبنا بل علفا مخلوطا باللوز وبالسكر ··

خذ معك النسوان ·· واتركنا لنؤدبهم ·

فاليوم يوم الفرسان ·· معكم عشر دقائق أخرى ·· عشر دقائق ·· منذ الآن·

IV

مرت عشر دقائق اخرى ···

لم يتقدم احد ··

قال الشيخ زعل :

ـ وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ··

واتجه الى الفرسان وصاح :

ـ ما دام الكفار لا يبغون الطاعة لاوامر سيدنا واوامر الله ، أصبحت القرية مباحة لكم · اقلبوها ·· سافلها عليها نفذوا فيها الوصايا العشر ·

من بين الجمع ارتفع صراخ لاهث ··

ـ لا·· لا·· أنا أخبركم عن كل لصوص القرية ·

وانصبت كل النظرات على صاحب هذا الصوت المتبرع لخيانة قريته · صرخت كل الاصوات ··

ـ اخرس كذاب ··

وتقدم من بين الجميع ، توجه ناحية الشيخ زعل وقال :

ـ اسمع سيدي ··· انا اسمي عوض ·· انا صاحب دكان القرية · كل المسروقات من المستعمرة تباع الي ··· أنا أعرف كل لصوص القرية ·· أعرف من باعوني ما سرقوه من الغنم ، والبقر ، والمحصول · وسأخبركم عنهم ··· لكن لا تقتربوا من دكاني فأنا معكم ·· ومع الله ·· مع الفرسان انا ··· انا اسمي عوض ·

وتطلع زطام الى عوض محتقرا اياه ، ابتسم بسخرية ·وتوجه للجمع وقال :
ـ هذا يعرفكم · يعرف من منكم يخترق حدود الجيران ويسرقهم او يقتلهم ·· حتى لا نطلب من هذا الرجل الاسماء · نحن نحب الشجعان ·· فليتقدم نحوي من منكم دخــل الارض المحتلة ·· لاي سبب ·· فليتقدم ·· فورا ··
وتحرك كل رجال القرية نحوه ·· التفوا حوله ·· أصبح وسطهم والابجر ، يصهل غيظا ، صاح زطام ·
ـ ما هذا ··كل رجال القرية دخــلوا الارض المحتلة ؟ !
وتداخلت الاصوات مؤكده ان جميع رجال القرية دخــلوا أرض القرية المحتلة·
ـ عدنا للارض ·
ـ قطفنا زيتوننا ··
ـ حصدنا قمحنا ·
ـللمنا الزعتر والنعناع البري ··
ـ لا نعترف بأي حدود ·· الارض لنا ··
ـ عدنا للارض ·· كلنا ·· عدنا للارض ·
وارتفع صراخ عوض ··
ـ لا لا يا سيدي ·· أنا لم أدخــلها أبدا · أقسم بالله ··بالملك وبالفرسان ·· لم أدخلها أبدا ·· كلهم دخلوها ·· الا أنا ··
وفرقع سوط الشيخ زعــل وهوى غيظ فوق رؤوس الجمع · وتحرك أبجــر زطام يدق الارض بحافره · واندفع بعيدا عــن وسط الجمع · وانكمش رجال القرية كومة بؤس تتشابك فيها الايدي كي تحمي الرؤوس ·
صاح الشيخ زعــل ··
ـ اليوم · يوم الجلد ·· يوم الجد يا فرسان ·
اجلدوهم واحدا ·· واحدا ··
وابتدأ العــد العكسي ·

V

ابتدأ الجلــد ··
ابتــدأ العــد ··
وخيول الفرسان تحيط كحلقة جمر · وفريستها تدخل كالريشة تحت سيــاط الخوف تدور · تهرب من أين الى أين ·· كل مسافات الحلقة في مرمى السوط· ينهمر الجلد ولا يتوقف الا والجسد مسجى كالصخــرة مغشيا ·
وينادي الشيخ زعــل ··
ـ غيره ·· كم بقي علينا ؟
يدخــل للحلبة ثلاث رجال ·· اثنان لحمل المجلود المغشي عليه ·· والثالــث كي يجلد ·

وتعـود اللعبة ·· وصهيل الخيل المتمازج مع صرخات الفرسان يطغـى فوق صياح المجلود وفوق انين الجرح الدامي · كان المجلود يدور كديك مذبوح ينتفض ويسقط ·

وتعود اللعبة ··

ـ ضربوا كل رجال القرية ·· الا المختار ··

ـ وانت ··

ـ طبعا ·· ذقت كرابيج الفرسان ·· ما اطيب أن يتذوق كل المظلومين لسعات الظلم ·· قد علمني طعـم كرابيج الفرسان دروسا لن أنساها · وعلى جسـدي ستظل حروفا تقسم باسم فلسطين · باسم الوطن المحتل من الاعداء وباسم الارض المحتلة من قبل الاهل · كان الفرق هو القسوة · المحتل يريدنا بعيدا ·· والملك يريدنا عبيدا ·· والشعـب الفلسطيني كان قد اختار طريق الثورة منذ القسام وقبل القسام ·· دفع قوافل شهـداء وأبطال من أجل الحرية والاستقلال ·

حين تكوم فوقي لسع السوط تصنعـت الاغـماء · ما اباس ان يختار المـرء الغشية · ما اباس من يبتعـد عـن الواقع مختارا · لم يتوقف سيل سيـاط الفرسان · وخرجت من الدائرة المرصوفة بالحقد اكثـر اصرارا علـى عشق الارض ·

وسالت ابا عـلي :

ـ وعوض ·· صاحب دكان القرية ··هل ضربوه ؟

ـ نعم ··ضربوه ·· وادموه ·

كان العد العكسي قد وصل الى الصفر ·· وصاح الشيخ زعـل :

ـ هل بقي أحد ؟

صاح عوض :

ـ لا ·· الكل انجلد ·

وتقدم زطام نحو عوض ·· لف السوط على عنقه ·· ادخله وسط الحلبة ·

ـ هذا كلب القرية ·

وارتفع صراخ عوض ·

ـ في عرض سيدنا ·· في عرض الله ·· في عرض الفرسان ·· انا منكم ·· انـا معكم ·

وتسارع ساعد زطام بلا رحمة حتى انهار عوض ·· وتكور في عرض الارض·

VI

وجاء الليل

جاء القلق المتمازج مع الوان الافكار السوداء ·والخوف يخيم ·· والرعب يخيم لكن الصور المتناطحة مع الاعين كانت كالمخرز · ماذا يجري ·· كل رجـال القرية ربطوا في أرسن خيل الفرسان ·· ذهب الفرسان ·· غابوا ·

ونساء القرية غبن عـن الانظار ٠
أين الفرسان ؟
أين نساء القريـة ؟
وارتفعـت صيحة قلقة مزقت الليل ٠
ـ الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠
وتردد صخب الصيحة في الاجواء ٠٠ كان صدى يتماوج كالرعد الـــهادر ٠
واندفع الفرسان الى حيث رجال القرية ٠
ـ ماذا يجري ؟ !
واختلطت أصوات الرد مع الغيظ ٠

النار ولا العار ٠ ابتعدوا عن نساءنا وارتفع صراخ الشيخ زعل ٠٠ لو انكـم رجال ٠٠ لكان عندكم نساء ٠ وعلا الصوت المتفجر بالغيظ الله اكبر ٠٠ اللهاكبر٠

وتمزقت الارسن ٠٠ هاجت بعض خيول الفرسان مع الصخب ٠٠ وماج الليل مع الشرر المتطاير من صك الاسنان ٠

ارتبك الفرسان ٠

الاحصنة الهائجة انطلقت ٠ وتجرجرت الاجساد المرعوبة واختلـط الحابل بالنابل ٠

ـ النار ولا العـار ٠
ـ الموت ولا المذلة ٠

لم يجد الخوف من الجلد طريقا لاحـد ٠ فالخوف من الصور النكراء اشد٠٠ هل يسكت رجل تغتصب امرأته ؟٠٠ وازداد الصخب وكان صدى الافق يردد :

ـ الله أكبر ٠ ٠الله أكبر ٠
النار ولا العـار ٠
الموت ولا المذلة ٠
وتهادى المختار الى الجمع وتساءل :
ـ ماذا في الامر ٠٠ ؟ ما هذا الهرج وهذا المرج ؟ هل قتل احد ؟
وتعالى صوت من بين الجمع يجيب :

ـ يا مختار ٠٠ هل يرضيك ان نربط مثل حمير النور وتترك كل نساء القريــة في احضان الفرسان ٠٠ النار ولا العار ٠

قال المختار بصوت صاخب :
ـ لا حول ولا قوة الا بالله ٠

كل نساء القرية عندي في البيت ٠٠ في بيتي ٠ مع بنتي ٠٠ مع زينب ٠٠ ما من مكروه مس امرأة في القرية ٠

وتساءل صوت :
ـ والفرسان ٠٠ اين الفرسان ٠؟
ـ ذهبوا للنوم ٠٠ في بيوت عوض وخميس وابو محمود ٠

وارتفع الصوت المتسائل :

ـ والشيخ زعل ·· الم تسمعه يبيح لهم كل القرية ؟·

قال المختــار :

ـ استباحوهــا ·

قلبوا سافلهــا عاليها ·

لن يعرف اي منكم بيته ·

وارتفع سؤال :

ـ وعــوض ·

هل انقذ دكانه ·· بقذارته ·· وخيانته ، هل انقذها ؟·

رد المختـــار :

ـ لم ينقذها لخيانته ·· بل لنؤمن منها الاكل لهم ·

ـ والام سترضى يا مختار بهذا الظلم ؟

ـ صبرا · ستزول الشدة ·· انشاء الله ·· ناموا وعلى الله التدبير ·

وتقدم زطــام وقاطع :

ـ كيف ينامون ·· لا نوم لهم ·· وسنسحلهم · الصبـــح سنسحلهـم اولاد الكلب ·· الخيل انزعجت ·· هاجت من ضجتهم ·

من أجلك يا مختار فقط · سأرجو الشيخ زعل حتى لا يسحلهم ·

رد المختـــار :

ـ العفو من شيخ الكرام ·

وتوجه ناحية القرية وعيون الفارس تتبعه في الظلمة ، فتضيع مع الخطـــوات الآهات المكتومة · كانت صرخات رجال القرية والخوف المتربص في أعينهم قـــد ذابت بعد حديث المختار · والهمس تباعد واختلط ببعض شخير · ظلت صـــورة زينب وهي تدوس على السوط · ويهرب من عينيها زطام تجلل اجفان الصاحين · خافوا ان ينتقم الفارس منها · كانت صورتها وهي تصرخ تتبادل مع صورتهاوهي تقول لهم يوم أتوها بقلادة آذان ·

ليس عزيز بأعز من الارض ·

قولوا هذا من أجل الارض ·

باسم نساء القرية ·· أقول لكم :

من لم يصدق في حب الارض · لا يصدق في حب الاهل وامامكـــم الارض ·· وامامكم اللص·· من يزرع هذي الارض يزرع اطفالا·· ومن لا يزرع·· فليحصد عقمــا ··

لعيونك يا زينب · كل رجال القرية زرعوا الارض ، انجبت الارض ·· وتضاعف عدد القريــة في عــام ·

VII

اقبل فجر اليوم التالي يركض . ما مس النوم جفون القوم . وكانت صيحة زطام الغاضبة تدور على الاعناق . كان الغضب قد انهال على الفارس بعد ان اكتشف اصابات الابجر . ظل يسب ويرغي . يقسم ان يسحل حتى الموت من جرحوا الابجر . وقبل صياح الديك امتلأ سماء القرية والبيدر بصراخ الفرسان.

صاح الشيخ زعل :

ـ من جرحوا الابجر .

من ازعجوا الخيول .

ليحضروا هنا امامي .

اليوم يوم السحل .

كان الفرسان قد ابتدأوا تحضير حبال السحل .

جاء المختار . كان حزينا .. ومكتئبا وهو يشاهد مطر الحقد يصب على اهل القرية . كان العجز يداهم قلبه . ماذا يفعل . اتجه الى حيث نساء القرية .. كانت تقترب من الضجة بعض الفتيات . ورأى زينب كالراية تقترب من الساحة. نظر الى زطام . كل اللعبة بين يديه . هل يرجوه ؟ كان الفارس قد وعد بان لا يسحل احد . ماذا غيره منذ الامس . اقترب ببطء من زطام وساله :

ـ هل ستسحلونهم ؟

ـ الابجر .. جرحوا الابجر يا مختار .

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .. ولكن .. هل يشفى الابجر ان سحلوا.؟ أنسيت الوعد ؟ قلت سترجو الشيخ زعل حتى لا يسحلهم .

كانت زينب قد وصلت قرب ابيها .. سالته :

ـ ماذا يجري ؟

ـ بعض رجال القرية جرحوا الابجر .

ـ كيف ؟.

نظرت كالشمس الى زطام .. كان الوهج قد اختلط مع الفرح على وجه الفارس قال بصوت خافت :

ـ من ضجتهم هاج الابجر في الليل فوقع في حفرة .

نظرت زينب نحو الفرسان وهم ينتظرون اوامر زعل .

سالت :

ـ والآن .. ماذا يجري الآن ؟

رد المختار وعيناه على زطام .

ـ سيسحلونهم .

ـ سيسحلون من جرحوا الابجر .

نظرت زينب بعيون لاهثة يهطل منها الغيظ على الارض .

ـ ماذا ٠٠ هل يسحل انسان من اجل حصان !؟
زطام انتفض وقال :
ـ من اجل الابجر ٠
قالت غاضبة :
ـ الابجر ٠٠ الاخضر ٠٠ كل خيول العالم لا تسوى اصبع انسان ٠
ـ هـذا رايك ٠
ـ هذا رأي القرآن ٠
قال المختار وقد خشي هطول الشر ٠
ـ زطام وعد بأن يرجو الشيخ زعل حتى لا يسحلهم ٠
سقطت نظرة زينب في بؤبؤ زطام ٠٠ كانت عيناه تشعان بفرح الكرم العربـي فقـال :
ـ من اجلك يا مختار ٠٠ لن نسحلهم ٠
ابتسمت زينب ٠
استطرد زطـام ٠
ـ أدعو لي بالتوفيق ٠

واتجه الى حيث الشيخ زعل ٠ كانت كشرة نيرون قد احتلت جبهته والكوفيـة مثل بقايا حقل محصود قد حطت ظل خريف في عينيه ٠ كان الفرسان قد ابتدأوا ربط ضحيتهم احمد موسى ٠ فلاح في العشرين يملك ارضا محتلة وكوخا من طيـن ولـد ولـدان ٠

زطام يميل على الشيخ زعل ٠٠ والشيخ زعل يميل على زطام ٠٠ والهمسـات ارتفعت ٠ واشارات وسياط ترتفع وتهوى ، وعيون تتطلع نحو الفرسان ٠ وزينب تسكب نظراتها بحنـان ٠

احمد موسى ٠٠ ابن القرية ٠٠ فارسها ، يسحل من أجل حصان ! اتجهـت زينب نحوه ٠٠ قالت للفرسان :
ـ فكـوه ٠
الشيخ زعل كان قد انتفض من الغيظ وقد اقنعه زطام بعدم السحل ٠
زطام اتجه الى حيث الفرسان وزينب ٠ قال :
ـ فكـوه ٠
ابتسمت زينب ٠
قـال :
ـ الشيخ زعل سامحكم هذي المرة ٠ لن يسحلكم ٠٠ لكن لا بد من عقابكم ٠٠ من جرحوا الابجر لا بد من جلدهم ٠
واتجه الى الفرسان وقال ٠
ـ جهزوا المحفـل ٠

نظر الى زينب ٠٠ كانت غاضبة ، تبتعد وفي عينها تسكن الام الوطن الشاسع٠
اقتربت من والدهـا ، كان يتمتم :
يا فتـاح يا عليم ٠
قالت :
ـ لا بد من حـل ٠
قـال :
ـ الجلد ولا السحـل ٠
ومضت زينب نحو القرية غاضبة تتبعها النظرات المحترقة ٠
وابتدأ الجلد ٠
وابتـدأ العـد ٠

VIII

امتد الكابوس على القرية اياما ٠٠ كان الشهر الاول قد بدأ يغادر حين انتصر الجوع على القرية ٠ ما عاد بوسع القرية اعداد الاكل الخاص للفرسان ٠ الدكان امتلأت بالمرهونات وعوض ابتدأ يجوي مع القرية ٠
قال الشيخ زعل للمختار :
ـ غدا ٠٠ نريد عجلا مشويا ٠
قال المختـار :
ـ من أين ٠؟
قال زعـل :
ـ من تحت الارض ٠٠ اخلقوه ٠
وخلقـوه ٠
في اليوم التالي كان الفرسان يغوصون بأذرعهم في جسد العجل المشوي ٠٠ لم يسأل احد من أين ٠
قال الشيخ زعـل :
ـ ماذا نأكل غدا ؟
قال المختـار :
ـ أطلب ٠٠ وتمن ٠
قال زعـل :
ـ هل حلت عقدتكم ؟
قال المختـار :
ـ انشاء الله ٠
(واسر لنفسه) وابتدات عقدتكم ٠
وتوالت ايام بدات فيها رائحة الارض تعود ٠ وابتدأ الفرسان يعيشون مع القرية كالاهل ٠ وتمزق قانون الفرسان ٠٠ بدأ الشيخ زعل لا يهتم سوى باللعب مـع المختـار ٠

وزطام يحاول ان يتقرب من اهل القرية · والفرسان ينامون اليوم بطوله ·· والخيل ابتدات تاكل عشبا ، والكسل طغى · والاخبار ابتدات تزحف نحو الامم المتحدة ·· والجامعة العربية ·

موجات عبور الارض المحتلة بدات ترسم ظلا من لون الحق على جبهات المحتلين وتوالي الفعل ·· وتوالي من يسال ··

ـ والفرسان ··؟·· هنالك فرسان في القرية ·

فرسان في قرية ·· لكن قرى اخرى تتحرك ·· من اين سناتي بالفرسان لكل قرى الضفة الغربية · لكل حدود الارض المحتلة ·

فجاة ·· غاب عوض ·

وجدوه قتيلا في الارض المحتلة ·

قال الشيخ زعل :

ـ كل رجال القرية دخلوا الارض المحتلة ·

قال زطام :

ـ أوصاني عوض ان غاب ان اعطي المرهونات لاهل القرية ·

قال المختار :

ـ لقد اعادها بنفسه قبل أن يغيب ·

قال المسؤولون :

ـ عليكم تغيير الفرسان في القرية اسبوعيا · فالفلسطيني كالافيون · من يدمن معاشرته عليه العوض ·

وابتدأ الشيخ زعل يتاهب للرحيل ·

★★★

سالت ابا علي بلهفه :

ـ هل بدلوهم بفصل جديد يقطر حقدا ؟

قال :

ـ لم يكن الوقت لصالحهم·· فلقد فرض القدر عليهم انيتولوا صنع الحلقات·

وتساءلت :

ـ حلقات ·· ماذا ؟·

ـ حلقات الندب ·

البكاء بالاكراه ·

ـ ولماذا ؟

ـ قتل الملك عبد الله ·· كان الليل يغادر ارض الضفة الغربية · وامتلأت وجنات الناس بفرح مغموس بالم · الخائن مات ·· باع الارض ومات ·· ظلم الشعب فمات ·· من يبكي حزنا ·· لا أحد سوى العملاء ·· من يبكي فرحا ·· كل الناس ·· حلقات الندب امتدت في المدن ·· في المخيمات ·· حداد بالاكراه ··

وبكاء بالاكـراه ٠
على الشفاه تمتمات ٠
يا مليكنا يا غالي ٠
يا محقق الامالي ٠
وفي القلوب اغنيات ٠
تسلم ايديك يا عشو ٠
اعرفت كيف تكشو ٠
وسالت :
ـ وهل عادوا بعد ذلك الى القرية ؟
قـال :
ـ زطام عاد ٠٠ كان وحيدا ٠٠ جاء ليخطب زينب ٠
قلت :
ـ طبعـا قبلته ٠
قـال :
ـ كان غريبا ان تقبل ٠٠ لكن السبب عرفناه ٠
فلقد نفذ زطام الوعد ٠٠ زينب قالت :
ـ من لم يصدق في حب الارض لا يصدق في حب الاهل ٠٠ وامامكـم الارض ٠ وامامكم اللص ٠ من يزرع هذي الارض ٠٠ يزرع اطفالا ٠٠ ومن لا يزرع فليحصد عقمـا ٠
وزطام كان يحب الاطفال ٠٠ ويحلم بالاطفال ٠٠ فزرع الارض ٠

IX

كانت شمس الصحراء قد امتصت بعض البرد ٠ وكان البئر المتفجر فـي قاع الديسي قد اعطاني دفعة فرح ٠ كانت عيناي تحاولان ان تتخيلا صورة قريـة يدخلها الفرسان ٠ وامامي رائحة من فارس ٠ قلت لنفسي : سانـام الليلة في الصحراء وساسهر مع زطام ٠
قال ابو علي :
ـ كما تشاء ٠٠ لكن ارجو ان لا يعرف من اين انا ٠٠ هذا سري ٠
ونظرت الى عينيه الحالمتين ٠ كانت صورة زينب تهطل مـن بين رموشه ٠٠ وسالتـه :
ـ هل احببتها ؟
ابتسم وقـال :
ـ كل رجال القرية احبوهـا ٠
ـ وانت ٠٠ الا زلت ؟٠
تأوه ٠٠ قال :

ـ ثلاث عشرة سنة ٠٠ عندي الآن خمسة اطفال ٠
ستنام في تلك الخيمة وسارسل لك زطـام ٠
ـ وانت ٠
ـ اتسلى في لعب الورق كي أتركك وحيدا مع زطام ٠
واتى زطام بركوة قهوة ٠٠ وجلسنا ٠
كان خجولا يتحاشى ان ينظر نحوي ٠ ويخاطبني بتحفظ قلت له :
ـ ان الصحراء بدون الماء كالقبر ٠
فقـــال :
ـ صحيح ٠٠ ولكن الماء بدون زراعة ٠٠ يذهب هدرا او يبقى في جوف الارض ٠٠ ما فائدة الآبار اذا لم تجعل هذي الصحراء تزهر بالخضرة ٠؟
قلت :
ـ هذا يتوقف عليكم ٠٠ انتم لا ترضون العمل سوى في الجيش او الفرسان ٠
ابتسم وقـال :
ـ ها انذا اعمل ٠ واحب الارض ٠٠ أتمنى أن ازرع كل الصحراء ٠
قلت :
ـ انت شواذ ٠٠ أما باقي البدو فلا يرضون العمل ٠٠ قالوا لي انك ترضى ان تعمل لانك نصف فلسطيني ٠
اندهش وردد ٠
ـ نصف فلسطيني !٠٠ ماذا تعني ؟
قلت :
ـ زوجتك فلسطينية ٠٠ هل زرت فلسطين ؟
شرد قليلا ٠٠ كان يفكر ثم سال بحدة ٠
ـ من اخبرك بان امرأتي فلسطينية ؟
غضبت لحدته وسالت بحدة :
ـ وهل هذا عيب ؟
اعتذر بلهفة ٠
ـ هذا شرف ٠٠ لكن ما من احد يعرف ذلك ٠ من أين عرفت ؟
وسرحت قليلا ٠٠ كان ابو علي قد غرق في لعب الورق مع العمال ترك السـر معـي ٠٠ قلت لزطام :
ـ احد الحراس البدو على حفارة ، قلت له ان يعمل مثلك ، اخبرني انـك تختلف عن البدو ٠٠ وانك نصف فلسطيني ٠
امتد على وجنته لون الراحة ٠٠ وانتقل الي شعور الفرح بكتمان السر وسالته:
ـ هل زرت فلسطين ٠٠ أين ذهبت ؟
أطلق زفرة ألم وتأوه ٠
ـ معظم ايامي السوداء مرت في ارض فلسطين ٠

ـ سوداء .. وكيف تزوجت ؟
قــال :
ـ لاصبغ ايامي باللون الابيض .. لم ادخلهـا بعد زواجي .. اقمت هنــاك ثلاث سنين تعذيب .
وتصنعت الاستغراب .
ـ تعذيب .. هل كنت سجينا ؟
ـ بـل سجانا .
ـ أين ؟
ـ في سجن فلسطين .. سجن الضفة الغربية . كل الضفة الغربية كانت سجنا .. غزوناها عذبناها .. نفذنا فيها قانون الفرسان .
ـ هل كنت مع الفرسان ؟
ـ أجل .. كنت ضابطا في فرقة الطاعون .
ـ لماذا كنتم تقسون على اهل الضفة الغربية وهم اخوتكم في الدين وفي القومية؟
ابتسم وقــال :
ـ ما كنا ندرك ذلك .. قالوا انهم كفار .. وزناديق .. وبلشفيك .. وتجار .. باعوا الارض ، وكنا نطبق عليهم الوصايا العشر .
وسألتــه :
ـ وصايا سيدنا موسى ؟
ابتسم .
ـ أي موسى .. وصايا سيدنا الملك . كانت هي ناموس الفرسان . مقدســة كالقرآن .
قلت له ان يذكرها لي .. قال :
ـ نسيتهـا .
وتأوه في حزن واستطرد .
ـ من ذكرنا بالايــام السود ؟
قلت لــه :
ـ نتذكرها حتى نشعر بحلاوة هذه الايام . او لم تعرف ان رسول الله (ص) كان يحث الناس على زيارة القبور . فهنالك بين الاموات يتأكد الزائر انه حي . وحديث الماضي يفتح افاق المستقبل . ووصايا الفرسان مهمـــا كانت قاسيــة فلنتذكرها حتى لا ترجع ناموسا .
ضحك وقـــال :
ـ يبدو ان الايام تعود الى الخلف بسرعة . في الاسبوع الماضي .. ضـــرب الاعداء جنين وطولكرم .. قالوا ان فدائيين فلسطينيين دخلوا الارض المحتلة.. وغدا ستعود الامم المتحدة والجامعة العربية تطلب ان تدخل فرق الطاعون لتطبق قانــون الفرسان .

قلت له :

ـ دورك انت ·· ان تخبر كل معارفك بان القانون غلط ·

ابتسم ومد يده للركوة ·· كانت فارغة · وقف وقال :

ـ لقد نشفت · فنجان الساده اجمل ما يدخل للمخ فيعدله ·

قلت له :

ـ وتعود لتكمل مشوار وصايا الفرسان ·

قـال :

ـ سامحك الله ·· ولاذكرك بسوء ·

قلت :

ـ وتذكروا ·· ان الذكرى تنفع المؤمنين ·

X

تتسارع في ذهني الاحداث ·· ينكشف غطاء الجمـــر · ويتلاشى الرماد · الزوبعة وانفتاح الصحراء يغذان من مسيرة الريح · يرتعد الحاضر هلعا مـــن ذكر الماضي · ها هي كل الايام السود ·· ايام انتزاع الحلم والارض والانسانية من تحت اظافرنا تتكدس ثانية في فنجان القهوة ·· فنجان الساده ·· يصنعـه زطام لينسكب في جوفي فيعيد الى صدر الجمر ثوب الرماد ·· او يطفيء بعـض الجمـر ·

وتخيلته ·· زطام الفارس يدخل ممشوق القامة والسوط يلوح كأفعى فاغـرة فاها · والحقد المترسب في اخمص قدمه ، يشع من دائـــرة المهماز الصفـراء لمشاريه · هذه الهيئة سرقت حلمي ، سرقت طعم النوم من الاعين الفلسطينيـــة جيـلا كامـلا ·

هل ينطفيء الجمر اذا اندلقت فوقه قهوة مرة كأيام الفلسطيني في السجن ·· لقد ابطأ زطام ·· والقهوة لا تحتاج لهذا الوقت ·· ام انني اتآكل في أهـــداب الزمن فتكبر اوقاتي ·· تصبح لحظاتي دهـرا ·

ها هو أقبل ·· الآن اراه ·· يتطاول من جوف الماضي يحمل سوطا وقنـــاع غضب يترجل كالغيمة · يمطر وحلا ·· وذبابا وعذابا ·· يبحث بين مسامـــات الايام عن اسمي عن لوني عن عنواني كي يصنع لي سجنا تحت جدار الخوف ·

ابتسم وناولني القهوة ·

طرد الحلم · سمرني في الواقع ·

ـ القهوة المرة تعدل الدماغ ·· وتنعش الروح ·

قال وهو يشفط فنجانه بصوت واضح ·

قلت :

ـ نعم والذكرى ايضا ، حتى لو كانت مجبولة بالدم وبالآهات ، الا انها تنعش

الروح وتفتح درب المستقبل بمفتاح الماضي ٠
قـال :
ـ ما زلت مصرا يبدو ان تحملني للماضي ٠٠ الماضي كان والحاضر دكـان المستقبل بيد الله ٠
ضحكت ٠٠ وابتسم واردف ٠
ـ الوصايا ، تريد الوصايا ٠٠ لقد تذكرت معظمها مع غليان الماء ٠٠ وحيـن فارت القهوة وانسكبت فوق النار نسيت نفسي ٠٠ واضطررت أن اعيد عمـل القهوة ٠٠ واعيد عملية التذكر ٠
ـ وهـل تذكرت ؟
ـ نعـم ٠
قلت :
ـ هات ما عندك ٠٠ وانقلني للماضي ٠٠ فوق بساط الوصايا العشر من قانون فرسان الملـك ٠
تربع على طرف السرير الضيق وسحب نفسا طويلا من سيجارته المتلاشية ثـم ملأ فنجان القهوة ٠٠ وأتى عليه برشفة واحدة وقال :
والآن نبدأ ٠
كان يا ما كان ، في الزمن الفلسطيني تاريخ مكتوب بالدم على جبين الصغـار وبالكرابيج على ظهور الكبار ٠٠ كانت فلسطين يومهـا مشجوجة الرأس ٠٠ وقد علمنـا الاسياد يومها ان سبب البلاء وخراب الديار هم الفلسطينيون الكفار ٠
وحتى ننقذ ما يمكن انقاذه ٠٠ ونطهر القدس من الرجس ٠ تحرك سيد البـلاد ووضع جيشه للعدو بالمرصاد ٠٠ فحمى الحدود وكسر شوكة العدو اللدود ٠٠ ولكن الفلسطينيين ومعظمهم من الزناديق البلشفيك ، رفضوا ان يخضعوا للملـك بحجة انه من سلالة النبي ٠٠ وانهم لا يريدون ان يرجعوا بالتاريخ الى الوراء ٠٠ فكثر تآمرهم واستفحل امرهم واخذوا يطالبون بالكيان ٠ وبالاستقلال عن بـلاد القرآن ٠ فما كان من سيد البلاد الا ان امر بان يعهد الى كتيبة الفرسان بـاعادة هؤلاء المرتدين الى حظيرة الايمـان ٠
وكان ما كان ٠
والآن ايها الفارس المغوار عليك ان تحفظ الوصايا العشر كما تحفظ الفاتحة ٠٠ وعليك ان تنفذها كالصلاة فهي دليلك الى فعل الخير والله الموفق ٠

الوصية الاولى :

الفلسطيني كالاسفنجة ٠٠ اذا رفعت قدمك عن رأسه شمخ ٠٠ فدس عليه حتى يوم القيامة ٠٠
وقتلتني فظاظة التشبيه فتأففت ٠ نظر زطام الي وقال :
ـ لقد تطورت الامور عند الكثيرين ٠٠ فقائد فصيلنا الشيخ زعل قبل ان يحب

الفلسطينيين كان يحرف الوصية الاولى ويقول :
الفلسطيني كالزنبرك ٠٠ اذا رفعت قدمك عنه قفز وقلع عينيك ٠

الوصية الثانية :

لا تحترم رجال الدين لانهم رأس الفتنة واساس البلاء ٠
وسألت مستغربا :
ـ كيف ؟
قال : وهو يستطرد في تلاوة الوصية ٠
ـ الم تأتكم اخبار الشيوخ الذين باسم الدين غرقوا في السياسة وخدموا الشيطان ٠٠ الشيخ القسام طالب بتقسيم فلسطين ٠ والحاج امين سلم اللد والرملة لليهود حتى لا تظل في ايدي المسلمين ٠
وعلقت قائلا :
ـ الى هذا الحد كانوا يزيفون التاريخ !؟
رد زطام ٠
ـ واكثر ٠٠ اسمع الوصية الثالثة ٠

الوصية الثالثة :

اضرب كبار السن وعلية القوم قبيل ان تضرب العامة ٠
وسألت :
ـ ما الحكمة في ذلك ؟
قال :
ـ حتى لا يحلم احد بالشفاعة ٠
قلت :

والوصية الرابعة :

قال :
ـ أهينوا الرجال أمام نسائهم حتى تحطموا كبرياءهم وصلفهم وغرورهم ٠

والخامسة :

ـ اذا استبحتم قرية فاقلبوا عاليها سافلها ، واخلطوا المتناقضات ٠ الفحم مع الطحين والزيت مع الكاز والسكر مع الملح ٠٠ لانكم اذا خلطم الفحم بالكاز ٠٠ والطحين بالزيت والسكر مع الرز، فانكم بذلك تساعدون العصاة على الطبخ ٠
ابتسمت وقلت :
ـ هذه الوصية مليحة ٠٠ ويطبقونها جيدا ٠

قـال :

الوصية السادسة :

لا تفضلوا انفسكم على خيولكم · فاذا طلبتم لانفسكم الخـراف المحشية والدجاج المحمر ، فان الخيول بحاجة الى الشعير المخلوط باللوز المقشر المطحون مع السكـر ·

الوصية السابعة :

لا تضربوا النساء مهما كان السبب · فاذا اساءت امرأة التصرف فاجلـدوا زوجهـا او أقرب الناس لها ·

قلت معلقـا :

بهذا تستطيع المرأة ان تحكم على زوجها بالجلد متى تشاء ·

قال باسما :

ـ كثيرات عملنها ·· ولكن مصيبتهن تبدأ بعد ان نرحل ·

الوصية الثامنة :

أتلفوا ما استطعتم من متاع الاشقياء ·· وكلوا واشربوا هنيئا مـن زادهم · ولكن لا تأخذوا فوق ذلك قشة واحدة · فالحلال بين والحرام بين ·

الوصية التاسعـة :

الولاء للملك ·· فمن لا يخشى السلطان لا يخشى الله ·

الوصية العاشرة :

انتم طاعون الارض وزلزالها ·· وبكم يبدأ عمر التاريخ · فاذا داهمتم بيتـا ·· او قرية ·· او مدينة ·· فليؤرخ بكم ·

وعدل زطام من جلسته · وهوت عن وجهه لمحات الغضب فابتسم وقال :

ـ ما رأيك ·· هل تذكرتها جيدا ؟

قلت :

ـ لم اكن اعرف نصوصها من قبل ، وان كنت قد رأيتها تطبق في ارض الواقع ·· ويقيني ان هنالك امور كثيرة كانت تجري خارج نطاق ما ذكرته من وصايا ·

ـ قد اكون نسيت اشياء او صيغ ولكن هذا ما تذكرته ·

وطوتني موجات الالم وانا اتفحص عيني زطام وقد فارقها الحقد فاينـع فيها

الحب · وتحول هذا السجان الفار ، هذا الجلاد الى انسان يعشق ·· ويحب · وتذكرت مآسي شعبي ·· وتذكرت التجار ممن قبضوا من الاعداء ثمن رقـــاب الفقراء · فحولوهم الى لاجئين · ثم قبضوا ثمن رقابهم مرة اخرى من الملـــك فحولوهم الى عبيد ·· وتربعوا على الثمن ·

قاطع زطام افكاري المأساوية وهو يردد :

ـ المهم أن لا تعود الايام السوداء ·

قلت :

ـ ومن يضمن ذلك ·· ما دام هنالك ظالم · وهنالك مظلوم · ما دام هنالـك سارق وهنالك مسروق ·

ســـال :

ـ وهل الفقاقيع التي تتفجر على الحدود ستعيد المسروق انها لن تعيد الا قانون الفرســـان ·

شرد ذهني لحظتها وهام في الصحراء ·· وعاد سنوات الى الوراء · وعلـى طاولة مرصوفة بالمنكر تذكرته ·· ذلك المهندس الذي لمح لي ان فلسطين ستولـد من قلب الجرح ·· ومن جوف الالام المكبوتة·· وسخرت·· وشربت ونسيت الالام ·· لكن الفجوة ضاقت ·· والالم المتفجر لم يهدأ بمسكن ·· وخلال سنين طـاف القدر على المنفى ·· غطاه ·· حطم كل كؤوس النسيان وذكـــر كل الفقراء ان اصابعهم تعرف ان تصنع شيئا آخر غير الاكل ·· وغير الكتابة ·

وتبسمت :

قلت لزطـــام :

ـ لن يرجع قانون الفرسان ·

فلقد بعثت فتح الانسان ·

تقريــــران (١)

المؤتمر الثاني لاتحاد الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين

تونس ٤ - ٩ آذار ١٩٧٧

عندما حطت بنا الطائرة في مطـــار تونس ، بعد عذابات روما وليلها المطوق برشاشات البوليس خوفا من الفلسطينيين الذي لم تنتظرهم الطائرة الايطالية ،اصابنا شعور حاد بفرح غامض · فالارض العربية لا تنتهي ، تتسع وتتسع ، القارة العربية تمتد وكأنها لا نهائية في اتساعها وعمقها· بين بيروت وتونس ، وفي مطاري اثينا وروما ، حيث يكثر التفتيش ، وتتشعب اسئلة البوليس مسافة قصيرة هي مسافة اللهجات العربية في انحنائها داخــل الحضارات والقارات والشعوب · ومسافة طويلة تمتد من شجر المانجا في السودان الى اطراف مراكش حيث يختلط البحر والمحيط ، والارض العربية لا تنتهي ·

وسط الانتماء العربي الــى الجذور ، وداخل وعي لمعنى الحقيقي وحتى ولــو اتسع الراهن الزائل ، عقــد الاتحــاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين مؤتمره الثاني في تونس العاصمة ·

اهمية هذا المؤتمر هو كونه مؤشـرا لثلاث حقائق ·

فهو اولا يعقد بعد سنتين من الحرب الاهلية الوطنية الدامية في لبنان · وسط الحرب،ووسط صراعاتها المختلفة واحلامها القادمة والذاهبة، وشهدائها الذين يمتدون في الافق العربي · كان الحصار يقترب ، والدائرة تضيق · وكانت الثورة تقــف والى جانبها الحركة الوطنية على مفترقات دامية · لذلك كان هذا المؤتمر رمــزا لقدرة الشعب الفلسطيني على كسر الحصار، فوسط جو احتفالي ، ووسط تحيات وفود قادمة من العالم باسره · من فنلنـــدا وفرنسا وايطاليا · من فيتنام · مـــن الاتحاد السوفياتي والمانيا الديمقراطيــة وبولندا · ومن حركات التحرر الشقيقة · ومن كتاب وصحفيي الوطن العربي ،افتتح المؤتمر ، ليعلن ان الشعب الفلسطيني ليس وحده ، وان النضال الفلسطيني قادر على كسر العزلة التي يحاولون فرضها عليــه اليوم · فهو لا يزال في طليعة الشعــوب المناضلة ضد الامبريالية · وسيبقى هــو جوهــر ما يسمى « بمشكلة الشـرق الاوسط » ·

وهو ثانيا يعبر عن قـدرة الثـورة واطرافها المختلفة على الحفاظ علـى الوحدة الوطنية · الوحدة ضمن التعدد · والوحدة التي لا تبنى الا داخل ممارسـة ديمقراطية · وقد كان الطابع الديمقراطي هو الغالب على هذا المؤتمر · فهنـاك بقعة من العقل العربي ، ما زالت تستطيع ان تفكر بصوت عال وتقول ما تريـد وتختلف وتناقش وتتوحد ·

وهو ثالثا ياتي قبيل انعقـاد المجلس الوطني الفلسطيني ·ووسط ضغوط لا تنتهي لفرض التراجع على الشعب الفلسطينـي وثورته المسلحة · لذلك كان المؤتمر احـد المؤشرات التي تؤكد ان الخيار لا يـزال ممكنا · وان التمسك بالجوهري هو وحده القادر على تغيير المعادلات ·

منذ اللحظةالاولى لبداية عمل المؤتمر

كان واضحا ان الجو السياسي سوف يطغى على كل شيء . وان مناقشة المسائل النقابية والفكرية لن تحظى سوى باهتمام جانبي. فالعمل النقابي الفلسطيني لا يستطيع الا ان يكون سياسيا في جوهره. لا يمكن اقامة نقابة مشتتة الاعضاء ، افرادها يعملون في شروط عمل متباينة الى حد كبير ، لا يتوحدون في مواجهة شروط العمل ، او في مواجهة ارباب العمل . وحدتهم اساسا هي وحدة سياسية ونموهم مشروط بنمو الحركة الجماهيرية التي ينتمون اليها . لذلك فنقابة الصحفيين لا يمكن ان تكون نقابة . ولا يمكنها انتحل المشاكل المهنية الا في الحدود الدنيا . انها اساسا اطار سياسي . قاعدة من قواعد الثورة . لا قيمة لها اذا لم تنم الثورة ولا تستطيع الوجود خارج الثورة .

على هذه القاعدة ، نفهم كيف يكون الجو العام لاي مؤتمر للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، مليئا بالانتماء السياسي الحاد . فوحدها الصور التي كانت تقف على المنصة ، كانت كافية لتحيل جو المؤتمر الى حلقة يمتزج فيها سر الموت بسر الحياة . الشهادة والقضية . الثورة ومستقبلها . وربما كان اللقاء الذي اقيم في يوم الشهداء هو اجمل لحظات المؤتمر. هناك اختلط الكلام بالاسرار . فبعد نبرة « ابو الصادق » الفلسطينية جاء ملصق معين بسيسو لا يرثي الشهيد ابو خالد جورج، بل ليرسم الوان الموت الفلسطيني. وداخل قصيدة محمود درويش « كان ما سوف يكون » ، لم يكن راشد حسين وحده بل كان هذا الزمن الفلسطيني الذي ننتمي اليه ، نبحث عنه ، ونخرج منه ونموت فيه.

كان الشهداء هم ابطال المؤتمر الحقيقيين . اما البطولات الاخرى ، التي عطلت المؤتمر يومين كاملين وراء الصراع الانتخابي ، فلم تكن اكثر من مسالة عابرة، سويت بشكل عابر ، رغم ان ما تعنيه بالغ الخطورة على المسار العام لاي عمل جماهيري فلسطيني ، فحرية النضال الجماهيري لا يمكن ان تشرط باكثر من الحرية التي تلتزم البندقية . واي شرط آخر يسقط في يومين او اكثر .

ربما عبر المؤتمر في ازمته التنظيمية عن ازمة عامة تجتاح الوضع الفلسطيني. لكنها لا يمكن ان تكون سوى ازمة نمو . فعلى رغم كل شيء استطاعت الثورة ان تحافظ على تماسكها وان تبقى خياراتها حرة . وهذا هو الاهم في هذا الزمن العربي لكن ازمة الخيارات تنتهي في الخيار الوحيد الممكن . استمرار النضال والا لا مجال لاي خيار . لماذا اذن لم يستطع المؤتمر انجاز تقرير سياسي خاص به ؟ وهل يمكن لاية مؤسسة جماهيرية ان تلتزم الصمت السياسي ، في واقع لا وجود لها به الا بوصفها قاعدة نضال سياسية .

الواقع ان المسالة اكثر تعقيدا ، فالخيار الفلسطيني لا يمكن ان يقوم الا وسط جو ديمقراطي . وهو كذلك مستحيل خارج حركة مد جماهيرية . لذلك كان تاجيل اصدار البيان السياسي بالشكل الخطابي الذي تم ، تعبيرا عن لحظة ترجرج في الوعي .او عن عدم قدرة على صياغة افاق مرحلة مليئة بالغموض . لكن الواقع ، ان السبب الحقيقي كان اكثر بساطة . فالصراع على قيادة الاتحاد وهو صراع سياسي كما نفترض ، حجب النقاش السياسي . وهذه ظاهرة فريدة في المؤتمر، لم يستطع ان يغطيها سوى الجو الديمقراطي الفعلي الذي ساد انتخابات الامانة العامة الجديدة ، حيث عبر الاختيار الفلسطيني عن قدرته على الاختيار وظهرت النتيجة لتعلن فوز : يحيي خلف ، ناجي علوش ، محمود درويش ، رشاد ابو شاور ، ماجو ابو شرار ، خالد ابو خالد، معين بسيسو ، سعيد حمود ، هاني مندس ، جميل هلال ، بسام ابو شريف ، علي اسحق ، معن بشور ، حنا مقبل .

ونال زياد عبد الفتاح وبلال الحسن عددا متعادلا من الاصوات ، كما ان التعديل الذي اقرته لجنة النظام الداخلي حول العضوية ، يشير الى نضج سياسي ونقابي يستطيع ان ينقذ الاتحاد من كثير من المزالق .

الثقافة الغائبة

وزع على اعضاء المؤتمر مجموعة من الدراسات الادبية والثقافية : عبد القادر ياسين : الصحافة العربية في فلسطين والحركة الوطنية ، علي الخطيب :الصحافة العربية في ظل الاحتلال الصهيوني . محمد رضا الطويل : الفكرة القومية في شعر كمال ناصر ، يوسف اليوسف : دور الشعر في المعركة . الياس خوري : الموت الجانبي ، قراءة راشد حسين في مجموعاته الثلاث . وبصرف النظر عن المستويات المتفاوتة والمقتربات النظرية المختلفة التي عالجت هذه الموضوعات . فلا يوجد اي شيء يبرر الغياب الشامل لاي نقاش ادبي او ثقافي عن اجواء المؤتمر .

طبعا ، يمكن تبرير اي غياب ، في جو مؤتمر طغت عليه الاعتبارات الانتخابية . لكن اية نظرة على اوضاع الحركة الثقافية الفلسطينية ، تشير الى ان مرحلة جديدة تختبيء خلف محاولات كسر الاطار القديم الذي رسمه الصوت الادبي الفلسطيني في مرحلة الصعود الرومانسي لحركة المقاومة فكيف يمكن لمؤتمر ادبي فلسطيني ان يتحاشى بحث المسألة الادبية. ان هذا الغياب ، يقودنا الى التركيز على مسألة بالغة الاهمية . فلا يزال الادب والفكر والثقافة يعامل كملحق بالواقع السياسي. كمجرد اداة سياسية تستخدم او لا تستخدم وهذا مرهون بالظرف السياسي . ان هذا الفهم التبريري الذي يختبيء خلف مسألة الاولويات ويبرر كل شيء بها ، هو فهم سياسي برجوازي للادب . فالادب هو احد حقول الصراع الطبقي . ولا يمكن تجاهله او اعتباره مجرد ملحق لا يدرس الا لتعبئة فراغات لا بد منها .

ان المرحلة الجديدة ، التي تختبيء خلف محاولات كسر اطارات الادب الفلسطيني، تحتاج الى اكثر من مراجعة جادة .وتحتاج الى تجاوز للقدسية الفولكلورية التي طبعت مرحلة تقديم هذا الادب وتعميمه . وهذا التجاوز لا يكون فقط تجاوزا ابداعيا ، فلا وجود لابداع حقيقي خارج حركة فكرية ونقدية حقيقية .

ربما كانت بعض النشاطات الثقافية والتي جاءت على هامش المؤتمر ، محاولة لتغطية هذا النقص الفادح ، الذي اوقع المؤتمرون وضيوفهم في فراغ كبير.فافتتح معرض لصور الفنان الشهيد هاني جوهرية كما نظم معرض للكتاب الفلسطيني . كما صدرت مجموعة قصصية فلسطينية تضم نخبة من القصص الفلسطينية . كما نظم مهرجان للشعر بقي ضمن اطار المؤتمرين. وبقيت الحياة الثقافية التونسية نفسها خارج المؤتمر دون اي تفاعل حقيقي ما عدا بعض المقابلات الصحفية .

بعد هذا المؤتمر الثاني ، اصبح اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين مطالبا بالحد الادنى ، ثقافيا وسياسيا . فهل تستطيع الامانة الجديدة ان تنتقل بالاتحاد من صعوبات مرحلة التأسيس الى وضوح الدور الثقافي والسياسي ؟ ان جواب الاتحاد سوف يكون تجربة خاصة . فهو احد الاتحادات العربية القليلة التي تتمتع بديمقراطية فعلية . وهو لا يستطيع انيقوم الا بهذه الديمقراطية لذلك تصبح مسؤولياته اكبر . ويصبح دوره اكثر خطورة . ان التحول بالاتحاد منالتأسيس الى الانتاج ، عبر تأسيس دار النشروالمجلة الثقافية (كما قرر المؤتمر) يستطيع انيسد فراغا ثقافيا . ويستطيع ان يتحول من اداة لطباعة الكتب الى حافز ثقافي وابداعي ولو في الحدود الدنيا .

هذا الدور ، هو مبرر وجود . وهو قاعدة نمو . وهو جزء من العملية الثورية الطويلة والمعقدة ، التي يخوضها شعبنا.

(٢)

لجنة حقوق الانسان في دورتها الثالثة والثلاثين

جنيف ٧ شباط - ١١ آذار ١٩٧٧

عقدت لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة دورتها الثالثة والثلاثين في جنيف بحضور اعضائها الاثني والثلاثين ومن بينهم اربع دول عربية (مصر ـ ليبيا ـ الاردن ـ سوريا) وعدد كبير من المراقبين بينهم وفد منظمة التحرير الفلسطينية ٠

كان للدورة هذا العام اهمية خاصة ذلك ان الادارة الاميركية الجديدة قامت بحملة سياسية واعلامية واسعة قبل انعقاد الدورة محاولة اظهار نفسها كبطل لحقوق الانسان في العالم مركزة اكثر ما يكون على انتهاكات حقوق الانسان داخل الاتحاد السوفياتي (قضية المنشقين السوفيات) لغايات سياسية واضحة ٠ وقد تطوعت اجهزة الاعلام الغربية لخدمة هذا الغرض واعطت صورة مكبرة عن اعمال اللجنة لهذه السنة في حين انها في السابق لم تعرها الاهتمام اللازم ، خاصة وان اللجنة كانت تدين اكثر ما تدين دولا تحظى بعطف وتاييد الكتلة الغربية كاسرائيل والنظام العنصري في جنوب افريقيا ٠

وفي اولى جلساتها انتخبت اللجنة مندوب يوغسلافيا (الكسندر بوزوفيتش) رئيسا لها كما انتخبت مندوبي مصر وكوبا وايطاليا نوابا للرئيس ومندوب الباكستان مقررا للجنة ٠ وتجدر الاشارة هنا ان الرئيس بوزوفيتش من خلال مواقفه داخل اللجنة في السنوات الماضية هو من اشد مناصري حقوق شعبنا الفلسطيني ومن اعنف المنددين بممارسات سلطات الاحتلال الاسرائيلي في الاراضي المحتلة ٠

وكان جدول اعمال اللجنة لهذه الدورة يتضمن عدة نقاط ابرزها قضية انتهاكات حقوق الانسان في الاراضي المحتلة كنتيجة للنزاع في الشرق الاوسط ، وقضية انتهاكات حقوق الانسان في افريقيا الجنوبية وناميبيا وزيمبابوي التي تمارسها انظمة الاقلية البيضاء في جنوب القارة الافريقية ، وقضية انتهاكات حقوق الانسان في الشيلي وقبرص ٠

وحيث ان قضية انتهاكات حقوق الانسان في الاراضي المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ كانت تتسم بدرجة عالية من الافضلية (بموجب قرار اللجنة في دورتها الثانية والثلاثين) فقد تقرر ادراج هذه النقطة في البند الاول من جدول اعمال اللجنة لهذه السنة ٠

وقبل بدء اعمال اللجنة عقدت المجموعة العربية داخل اللجنة عدة اجتماعات بحضور مندوب منظمة التحرير الفلسطينية، تقرر فيها تشكيل لجنة من مندوبي مصر وليبيا ومنظمة التحرير كلفت باعداد مشروع القرار الذي سيعرض على لجنة حقوق الانسان للتصويت عليه بعد انتهاء المناقشة العامة الخاصة بهذا البند ٠

وعند بدء المناقشة العامة داخل اللجنة القى مندوب منظمة التحرير كلمته باللغة الفرنسية فشدد على تمسك شعبنا الفلسطيني بالقيم الانسانية التي تعتبر اساسا للاعلان العالمي لحقوق الانسان وعزمه على مواصلة الكفاح من اجل حقه في تقرير المصير واستقلاله · كما ركز على الانتهاكات المتعددة والمتمادية التي تمارسها اسرائيل ليس فقط في الاراضي المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ وانما ايضا في الاراضي العربية المحتلة منذ ١٩٤٨ · وكان نتيجة ذلك الانتفاضة الكبيرة التي قام بها شعبنا في الضفة الغربية وفي قطاع غزة وايضا في الجليل وفي المثلث رافضا الاحتلال ومعلنا تعلقه بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد له · ثم اثار مندوب المنظمة موضوع الاسرى داخل السجون الاسرائيلية ، وبعد ان عرض اوضاعهم داخل السجون وحالات الوفاة التي حصلت بينهم طالب اللجنة وعلى وجه السرعة بارسال برقية الى سلطات الاحتلال الاسرائيلية تعرب فيها عن قلقها لحالة معتقلينا داخل السجون وتطالب سلطات الاحتلال بوضع حد فوري لسوء المعاملة داخل السجون، وباحترام نصوص اتفاقيات جنيف بهذا الخصوص ·

وبعد انتهاء مندوب منظمة التحرير من القاء كلمته طلب عدة مندوبين الكلام بينهم مندوبي سوريا والسنغال وكوبا ومصر والاردن واوغندا فايدوا ما طرحه مندوب المنظمة حول موضوع البرقية وطالبوا اللجنة ان تتخذ قرارا في هذا الموضوع دون ابطاء وقبل متابعة المناقشة العامة ·

وقد عارض مندوبو الدول الغربية وعلى راسهم الولايات المتحدة وكندا مضمون نص البرقية كما اعده مندوب الباكستان وزعموا بان التهم المساقة ضد اسرائيل غير ثابتة وان ذلك يعتبر تدخلا في شؤون اسرائيل الداخلية · كما عارض مندوب الكيان الصهيوني الذي يحضر اعمال اللجنة بصفة مراقب هذا الاجراء وانكر التهم المنسوبة اليه على الرغم من ان الصحافة الغربية وحتى الاسرائيلية كانت تنقل اخبار حركة الاضرابات داخل السجون الاسرائيلية مما يعطي صورة كافية عن سوء المعاملة التي يتعرض لها مناضلونا ·

وبعد انتهاء النقاش حول موضوع البرقية صوتت اللجنة على النص الذي اعده مندوب الباكستان وادخلت عليه بعض التعديلات ففاز باثني وعشرين صوتا بينما عارضه كل من الولايات المتحدة وكندا وكوستاريكا وايطاليا وامتنع عن التصويت كل من المانيا الفدرالية والسويد وبريطانيا والاورغواي والنمسا ·

وبعد ذلك تابعت لجنة حقوق الانسان مناقشتها العامة وكان قد اعد مشروع القرار الذي ساهم في اعداده مندوب منظمة التحرير · فعرض اولا وفي اجتماع خاص على مجموعة دول عدم الانحياز التي اقرته وكلفت مندوب الباكستان بتقديمه امام اللجنة وباسم كل من باكستان وكوبا وقبرص والهند ونيجيريا واوغندا وفولتا العليا ويوغسلافيا ، وهنا ايضا قامت الدول الغربيةبمهاجمة مشروع القرار هذا بعد ان كانت قد شككت في التقرير الذي قدمته اللجنة الخاصة للتحقيق في ممارسات اسرائيل داخل الاراضي المحتلة والتي يرئسها السيد امرانسنغ الرئيس الحالي للجمعية العمومية للامم المتحدة ·

وعند طرح مشروع القرار علىالتصويت طالب مقدمو المشروع فصل الجزء المتعلق بمطالبة اسرائيل بتطبيق اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ · والتصويت عليه على حدة كما طالب مندوب ليزوتو فصل البند ١٢ من مشروع القرار والتصويت على هذا البند على حدة ·

ونتيجة التصويت فاز الجزء الاخير من المشروع المتعلق بتطبيق اتفاقيات جنيف

بالاجماع بينما حصل مشروع القرار (باستثناء البند ١٢) على ٢٣ صوتا · وقد صوت ضد ، كل من الولايات المتحدة وكوستاريكا بينما امتنع كل من النمسا والسويد وكندا والمانيا الفدرالية وبريطانيا وايطاليا والاورغواي ·

اما فيما يختص بالبند ١٢ من مشروع القرار وهذا البند ينص على ادراج « قضية انتهاكات حقوق الانسان في الاراضي العربية المحتلة بما فيها فلسطين» في جدول اعمال الدورة القادمة للجنة وبدرجة عالية من الافضلية فقد حاز على ٢٢ صوتا في حين ان الولايات المتحدة وكوستاريكا وبريطانيا وكندا والمانيا الفدرالية صوتت ضده وامتنع كل من السويد وليزوتو والاورغواي والنمسا وايطاليا ·

ملاحظات حول القرار رقم
E/CN 4/L. 1342
الذي يدين اسرائيل

ان هذا القرار اورد في مقدمته نفس المقاطع التي تضمنتها القرارات السابقة للجنة حقوق الانسان وفيها تذكير بالقرارات ٢٣٧٦ و ٣٢١٤ التي اتخذتها الجمعية العمومية للامم المتحدة والعنصر الجديد الوارد في المقدمة يتعلق بالبيان الصادر عن مجلس الامن بتاريخ ١١ تشرين الثاني ١٩٧٦ ·

اما مضمون القرار فانه يؤكد مرة اخرى ان اللجنة تعتبر الانتهاكات الاسرائيلية « كجرائم حرب واهانة للانسانية » كما وانه يعدد ما سبق ان ادانته اللجنة من انشاء مستعمرات جديدة وضم الاراضي العربية وتدمير المنازل وتدابير الاخلاء والابعاد والطرد المتخذة بحق السكان العرب ومنعهم من حق العودة · كما يدين الاعتقالات الجماعية والتعذيب وسوء معاملة المعتقلين ونهب وسلب المعالم الاثرية والثقافية الخ ···

الجديد في قرار هذا العام انه يطالب اسرائيل بالافراج عن جميع المعتقلين العرب كنتيجة لنضالهم من اجل تقرير مصيرهم وتحرير اراضيهم المحتلة كما يطالب بمنحهم وحتى موعد الافراج عنهم الحماية التي تنص عليها الاتفاقيات المتعلقة بمعاملة اسرى الحرب وتطالب الامين العام للامم المتحدة بجمع كافة المعلومات المتعلقة بعدد المعتقلين ، هويتهم مكان ومدد توقيفهم وبجعل هذه المعلومات في متناول اللجنة في دورتها القادمة (البند رقم ـ ٨ ـ من القرار) ·

اما الجديد الاهم في القرار هذا فوارد في البند الثاني عشر الذي ينص على تعديل تسمية هذا الموضوع من اعمال اللجنة بحيث يصبح كالتالي « قضية انتهاكات حقوق الانسان في الاراضي العربية المحتلة بما فيها فلسطين » · وذلك يعني انه بامكاننا في المستقبل اثارة موضوع الانتهاكات داخل الاراضي المحتلة منذ ١٩٤٨ وانه يترتب على اللجنة الانحناء على هذا الموضوع ومناقشته في حين انها لم تتطرق حتى الان الا للاراضي المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ ·

غير ان ذلك يصطدم بعقبات قانونية واجرائية · فلجنة حقوق الانسان تستند دائما في اعمالها الى التقرير الذي تقدمه كل سنة اللجنة الخاصة للتحقيق بالانتهاكات الاسرائيلية التي يرئسها السيد امراسنغ · وهذه اللجنة الخاصة تلقت تفويضها من الجمعية العمومية للامم المتحدة ومن مجلسها الاقتصادي والاجتماعي اللذان حددا لها مهمتها المقتصرة على التحقيق في الممارسات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة كنتيجة للصراع في الشرق الاوسط والصراع في الشرق الاوسط كما هو مفهوم لدى الهيئات الدولية ينطبق على حرب ١٩٦٧ · ولكي

يشمل البند الثاني عشر من القرار صلاحيات اللجنة الخاصة للتحقيق في الاراضي المحتلة منذ ١٩٤٨ يجب ان تعدل الجمعية العمومية والمجلس الاقتصادي والاجتماعي طبيعة مهمة اللجنة الخاصة وتشير اليها بقرار جديد بضرورة التحقيق ايضا في الانتهاكات الاسرائيلية داخل فلسطين · وهذا يقتضي منذ الان القيام بمساع سريعة مع الدول العربية والدول الصديقة بحيث يحصل هذا التعديل في الدورة القادمة للجمعية العمومية للامم المتحدة والا فقد يبقى مضمون البند الثاني عشر دون اية نتيجة عملية ·

★ ★

ملاحظات عامة :

★ اثناء مناقشة موضوع التفرقة العنصرية فيجنوب القارة الافريقية وموضوع حق تقرير المصير للشعوب الرازحة تحت سيطرة الاستعمار والاحتلال الاجنبي تدخل مندوب المنظمة وسجل تضامن الثورة الفلسطينية ومساندتها لشعوب جنوب افريقيا وناميبيا وزيمبابوى في نضالها ضد النظام العنصري في جنوب افريقيا وروديسيا كما ركز في مداخلته على العلاقات الوثيقة القائمة بين الانظمة العنصرية في افريقيا والكيان الصهيوني ·

★ كما كان متوقعا فقد اثار مندوب الولايات المتحدة قضية المنشقين السوفيات والمعاملة السيئة التي زعم انهم يلقونها على ايدي حكومة موسكو · وقد اخذ هذا الموضوع جانبا كبيرا من مناقشات اللجنة وسلطت عليه الصحافة الغربية اضواءها في حين انها لم تكترث على الاطلاق بمناقشات اللجنة حول الشرق الاوسط او حول موضوع التفرقة العنصرية · غير ان اللجنة لم تلب طلب المندوب الاميركي بارسال برقية حول اوضاع المعتقلين في الاتحاد السوفياتي وكان الموقف العربي بجانب الاتحاد السوفياتي ولم تجن الولايات المتحدة من هذه القضية الا الضجة المصطنعة التي اثيرت حولها في اجهزة الاعلام الغربية وربما كان هدفها مقتصرا على ذلك فقط ·

★ اثارت حملة مندوب الولايات المتحدة على انظمة الحكم في الشيلي واورغواي وبوليفيا والبرازيل والارجنتين الاستغراب· وقد تركزت على انتهاك هذه الدول لحقوق الانسان وقد رد مندوبو هذه الدول بعنف على الولايات المتحدة ·

★ ان موقف الولايات المتحدة بجانب اسرائيل في المؤتمرات الدولية معروف ولم يعد يدهش احد · غير ان وفدنا لاحظ خلال هذه الدورة ان مندوب كندا من خلال كلماته ومداخلاته كان اكثر مندوبي اللجنة عداء لقضية شعبنا وكان يتشاور قبل كل كلمة يلقيها مع وفد العدو الصهيوني وقد تجاوز في احيان كثيرة حدود الاعتدال والمنطق التي يحرص عادة مندوبو الدول الغربية على مراعاتها ·

★ ان القرار الذي صدر عن لجنة حقوق الانسان يشكل انتصارا جديدا لقضيتناﻓ ي مجال العمل الدولي وينبغي منذ الان التهيئة للدورة القادمة للجنة حقوق الانسان وذلك بجمع كافة المعلومات التي ترد حول اوضاع شعبنا في الاراضي المحتلة منذ ١٩٤٩ كي نستطيع في السنة القادمة تطوير هذه القرارات وتصعيد نضالنا الديبلوماسي ضد عدونا ·

شوقي ارملي

اسرائيليات

الانتخابات :
بيريس مرشح حزب العمل لرئاسة الحكومة المقبلة

تعتبر استقالة رئيس الحكومة الاسرائيلية يتسحاق رابين من منصبه ومن رئاسة قائمة حزب العمل للانتخابات المقبلة ، اهم حدث على الصعيد السياسي الداخلي في اسرائيل ، خلال الاسابيع الاخيرة . فقد استقال رابين بعد اقل من شهرين من انتخابه مرشحا لحزب العمل في رئاسة الحكومة المقبلة ، بعد انتصاره على شمعون بيريس وزير الدفاع الاسرائيلي ، بفارق بسيط في الاصوات ، وذلك في الانتخاب الذي جرى داخل مؤتمر حزب العمل . اما السبب الظاهري لاستقالة رابين فهو احتفاظه هو وزوجته بعملة صعبة في حساب مصرفي في الولايات المتحدة ، الامر الذي يعتبر مخالفا للقانون الاسرائيلي . وقد تقرر فيما بعد تقديم زوجته للمحاكمة ، بصفتها صاحبة الحساب ، وتغريم رابين بدفع غرامة مالية .

بعد استقالة رابين ، التي فاجأت الكثيرين داخل حزبه من المؤيدين والمعارضين له ، بدأت المشاورات العاجلة من اجل انتخاب مرشح جديد لرئاسة الحزب ، خاصة وان الوقت ضيق ، والانتخابات اصبحت على الابواب . واتضح فيما بعد ان هناك تأييدا كبيرا داخل مركز الحزب لاختيار شمعون بيريس ، منافس رابين خلال فترة توليه رئاسة الحكومة ، رئيسا لحزب العمل ، حتى بين مؤيدي رابين سابقا . وقد ادى هذا الامر الى تحقيق اتفاق داخل مركز الحزب ، يكون بموجبه بيريس رئيسا للحكومة المقبلة ، ويغئال الون وزيرا للخارجية الحالي ، وزيرا للدفاع ، وابا ايبن وزير الخارجية السابق ، وزيرا للخارجية .

وقد هدد حزب مبام ، شريك حزب العمل في المعراخ ، بالانسحاب من المعراخ وخوض الانتخابات بصورة مستقلة في حال انتخاب بيريس ، الا انه بعد مناقشات طويلة داخل الحزب ، وبعد لقاءات عديدة مع زعماء حزب العمل وعلى رأسهم بيريس والون ، قرر مبام البقاء في المعراخ الامر الذي ادى الى انسحاب العشرات من العاملين بين صفوفه ، ممن يعارضون البقاء في المعراخ على هذا الشكل . وفور انسحابهم عقدوا مؤتمرا صحافيا في تل ابيب « حيث اعلنوا انهم يعتبرون استقلال مبام مساهمة كبرى من اجل السلام ، ومن اجل اعادة رص صفوف الحزب. واذا قرر مبام الظهور بلائحة مستقلة فسوف يعود المنسحبون واحدا تلو الاخر الى مراكزهم الحزبية ، ويتأهبون لمعركة الانتخابات ، من اجل الطريق التاريخي لمبام المستقبل » (رأا ، ١١/٤/٧٧) .

وتعود المعارضة لشمعون بيريس داخل حزب مبام الى ثلاثة اسباب رئيسية ذكرتها عال همشمار(٧٦/١٢/٢٦)على النحو التالي : اولا : الجدل الذي كان قائما بين مبام ورافي بشأن اقامة المعراخ . وكان يتزعم رافي آنذاك

دايان وبيريس · ثانيا : خلافات اساسية بشأن الضفة الغربية ، فبينما ينـادي وزير الدفاع بحل وسط علـى الصعيد السياسي ـ الوظيفي ، فأن مبام يدعـو الى حل اقليمي وسط · ثالثا : هنـاك خلاف بين بيريس ومبام بشأن النظـرة الى حركة « غوش ايمونيم » المتدينـة والمتطرفة ، التي لا يخـفي بيريس تعاطفه مع اهدافها الاستيطانية ·

يعتبر تولي بيريس لرئاسة الحزب ، ولرئاسة الحكومة المقبلة في حال فـوز المعراخ في الانتخابات ، نجاحا لاتجـاه الصقور داخل الحزب ، الذين يدعـون في الاساس الى تقوية الاستيطان فـي المناطق المحتلة · ويدعو بيريس الى حـل وظيفي في المناطق المحتلة بدلا من الحـل الاقليمي ، ويتمثـل هذا الحل فـي بقاء سيطرة اسرائيل على المناطـق المحتلة ، وتقوية الاستيطان اليهـودي داخلها ، مع السماح لسكانها بالانتمـاء سياسيا الى دولة اخـرى ، وهـو نفس رأي دايان ، كما عبر عـنه في مؤتمـر حزب العـمل · ويمكن التعـرف عـلى اراء بيريس من خـلال كلمته امـام اللجنة السياسية لحزب العـمل التـي انعـقدت في تاريخ ٧٧/١/٧ ، حيـث اوضح في بداية كلامه انه يقبل بالمبادىء الاربعـة عشر لحزب العـمل ، ولا يرى ضرورة لتغييرها · واشار الى الاخـطار الكامنة في تحديد الاهداف ورسـم الخرائط منذ الان ، ثم التنفيـذ عـلى مراحل ، مؤكدا ان ذلك سيؤدي الـى مواجهة حادة مع اصدقاء اسرائيـل والولايات المتحدة ايضا ·

وقال بيريس : « ليست الضمانـات الامنية كفيلة بضمان امننا ، واكـد ضرورة الحدود التي يمكن الدفـاع عـنها ، مشيرا الى ان العـودة الـى خـطوط الرابع من حزيران ١٩٦٧ ، لا يمكن ان توفر تلك الحدود » · واضاف : « اذا شكلت خلايا للمخربين في الضفة الغربية ، فلن تستطيـع اية قوة دولية مكافحتهم » · واشار الى مسالـة الاستيطان فطالب بالحفاظ على الاندفـاع الاستيطاني قائلا : « ليس هناك فراغ ، فاذا لم نستوطن نحن فهناك استيطـان عربي هادىء ولكن كثيف » ·

وتطرق بيريس الى مؤتمر جنيـف ، فطالب بالحذر لانه اذا جرى الحديـث عـن حل شامل ، فستتبلور جبهة عربيـة مشتركة مدعـومة بقوة من السوفيـات الامر الذي سيضطر الاميركيين ايضا الى اتخـاذ موقف بالنسبة الى الخارطـة والحدود النهائية · وهذا يعني مواجهـة مع الولايات المتحدة · وقـال بيريس ان المباحثات الشاملة تحمل في طياتها خـط المطالبة باقامة دولة فلسطينية فـورا · وعـاد بيريس واكد ان افضل اسـلوب لمعالجة الوضع هو اسلوب الخـطوة ـ خطوة « لان العـرب لن يقبلوا بأقصـى خارطة معتدلة نقدمها ، ونحن لا نستطيع القبول بأي شيء اقل من السـلام ، وسياسة الخـطوة ـ خطوة تخلق جـوا جديدا في الشرق الاوسط » · واضاف بيريس ان الهدف الرئيسي هو السلام ، وانه لن يعارض حلا اقليميا وسطا فـي اطار اتفاق سلام حقيقي ، اذا كان ذلـك ممكنا ، لكنه اضاف : « اعتقد بأن الحل الوظيفي له احتمالات اكبر من الحـل الاقليمي ، ذلك ان الخلافات تتمحـور في اساسها حـول القدس » (هـآرتس، ٧٧/١/٩) ·

وجدد بيريس ، في مقابلة مع اذاعة اسرائيل عشية اختياره لتولي رئـاسة الحزب ، المبادىء الاساسية لحكومتـه في المستقبل قائلا : « ان حكومة بيريـس تستند عـلى مبادىء المعـراخ التي تقول اولا : اننا نسعـى للسلام الكامـل والحقيقي مع البلدان العربية · ثانيا :

اننا بثمن السلام ، على استعداد للقيام بحلول وسط اقليمية في الجبهات الثلاث، اي المصرية والشرقية والشمالية. ثالثا : عدم عودتنا الى حدود العام ١٩٦٧ ، ذلك انه في حال تحقيق تسوية اقليمية ، فانها يجب ان تؤدي الى حدود قابلة للدفاع وآمنة ومعترف بها » (واي ، ٧٧/٤/١١) .

وتفيد المعلومات ان جماعة بيريس يسيطرون على مركز حزب العمل الجديد الذي يبلغ عدد اعضائه ٨١٦ شخصا (امنون برزيلاي ـ هآرتس ، ٧٧/٣/٦). وتتمثل اهمية مركز حزب العمل في كونه « المؤسسة العليا التي تجتمع بين مؤتمر واخر ، وهو الهيئة المفوضة لانتخاب رئيس للحكومة ، والمرشح لرئاسة الدولة (في المؤتمر الاخير ، تقرر ان يقوم المؤتمر بانتخاب المرشح لرئاسة الحكومة)، والمرشح لرئاسة الكنيست ، وسكرتير الحزب واعضاء الكنيست ، وجميع اصحاب المناصب المنتخبة الاخرى . والمركز الذي كان يجتمع في الماضي مرتين في الشهر ، خصصت له مهام رئيسية ، وخاصة اتخاذ قرارات بشأن القضايا السياسية ـ والامنية (اتفاق وسط ، انسحاب) او المسائل الاقتصادية والاجتماعية . والهدف من هذه القرارات هو توجيه مبعوثي الحزب في الكنيست والحكومة . ان لمركز الحزب الرئيسي في الدولة ، وزنا هاما في الحياة السياسية والاجتماعية » (هآرتس ، ٧٧/٣/١٤) .

الفرصة الاخيرة لكتلة ليكود

تتميز كتلة ليكود بتماسكها وانضباطها قبيل الانتخابات ، بالمقارنة مع الاحزاب والكتل الاخرى ، سواء في المعراخ او بين احزاب الوسط . ويتزعم قائمة مرشحي ليكود للانتخابات المقبلة زعيم حركة حروت مناحيم بيغن ، وزعيم حزب الاحرار سيمحا ارليخ . وكان مجلس ليكود قد صادق في مطلع الشهر الماضي على البرنامج السياسي للكتلة، حيث ورد في بنوده الرئيسية ان « اليهودة والسامرة (اي الضفة الغربية) لن تسلم الى اي حكم اجنبي ، وانه بين البحر وبين الصحراء لا توجد سوى السيادة الاسرائيلية فقط .. وفي المفاوضات مع مصر وسوريا ، التي تهدف الى تحقيق معاهدة سلام ، ستسعى حكومة الليكود الى تحقيق اتفاق يأخذ بالاعتبار مصالح جميع الاطراف » (معاريف ، ٧٧/٣/٢) . اما البرنامج الاقتصادي فيتضمن اربع فقرات رئيسية : (١) تحديد الغلاء الى نسبة ١٥ ٪ سنويا، بهدف الوصول الى نسبة غلاء سنوية لا تفوق العشرة بالمئة ، والحفاظ على وضع العمالة الكاملة ـ وذلك من اجل كبح التضخم المالي . (٢) تجديد الانعاش الاقتصادي وسرعة النمو وتشجيع استثمارات الانتاج للصادرات، والسعي نحو زيادة الانتاج القومي بنسبة ٤٠ ٪ خلال خمس سنين ، الامر الذي يلزم ان يكون معدل نسبة النمو من ٥ـ٨ ٪ سنويا . (٣) تقليص العجز في الحساب الجاري في ميزان المدفوعات حتى ٤٠ ٪ من حجمه الحالي، خلال خمس سنوات . (٤) تحديد تدخل الحكومة في الفعاليات الاقتصادية وسوق المال ، وتشجيع المبادرة الحرة ، من خلال تقليص حجم العيوب في القطاع الاقتصادي حتى الغائها بصورة كاملة . (المصدر نفسه) .

ويعلق زعماء كتلة ليكود امالا كثيرة بالفوز خلال الانتخابات المقبلة، نظرا لما يعانيه من مشاكل ، وما تسبب به من اخطاء خلال السنوات الاخيرة في اسرائيل ، « فرغم التفاؤل البارز في الدعاية الانتخابية يتساءل اشخاص في ليكود مرة اخرى : ماذا يجب ان يحدث بعد ولم يحدث ؟ ففي المجال السياسي لا تستطيع حكومة رابين ان تفتخر بمكاسبها ، او حتى ان تعرض خطة

سياسية واضحة ، كذلك فان مظاهر الفساد في القيادة وآثار جذورها بين شريحة واسعة داخل المؤسسة ، لم تؤد ابدا الى انحطاط في المجتمع كما هو عليه اليوم ، ان اقتصاد الدولة ، خاصة علاقات العمل المتدهورة ، لا سابقة لها ، حتى بالمقارنة مع ايام الانكماش في الستينات ، كذلك فان الخلاف الواضح في قيادة الحزب الحاكم ، كما عبر عنه في مؤتمر حزب العمل ، يفقد الحزب قدرة المناورة ويلقي الشك حول قدرته على المنافسة بصورة فعالة في معركة الانتخابات · ان كل سبب من الاسباب المذكورة اعلاه ، كان يجب ان يضمن افضلية لليكود ، واذا كانت هناك شكوك قوية حول فوزه ــ فلماذا ؟ » (يهوديت فينكلر ٧٧/٣/٢٨) · وتركز كتلة ليكود في دعايتها الانتخابية على المواضيع السياسية ، حيث يبدو أن لا تغيير في مواقفها السابقة منها ، كرفض الانسحاب من المناطق المحتلة بصورة مطلقة خاصة الضفة الغربية وقطاع غزة ، وتحقيق السلام مع العرب بدون اعادة الجولان والقسم الاكبر من سيناء ثم اقامة المستوطنات في جميع انحاء المناطق المحتلة · ولكن زعماء ليكود لا يعلنون كيف يمكنهم تحقيق سلام كهذا · وكما يبدو لهم فان الوضع الداخلي لا يقل شأنا عن الوضع السياسي ·

« لقد بدأوا يشعرون بين صفوف ليكود ، ان القرارات المطلوبة في الاساس يجب ان تكون حول اساليب اقتصادية ، ولضمان طهارة القيادة ، وتحسين نوعية المعيشة ، وتقليص الثغرة الطائفية ــ وحول مسائل كثيرة تتعلق بهذه المواضيع » ·(المصدر نفسه) ·

وتتطرق الكاتبة الى الخلافات في الراي القائمة بين صفوف كتلة ليكود بقولها : « كما ان المعراخ ليس من طينة واحدة ، فان الليكود ، يجمع تحت سقفه اصحاب وجهات نظر متباينة · فبالنسبة للموضوع السياسي ، يوجد في حزب الاحرار اراء تميل نحو الاعتدال · وبالنسبة لموضوع الدين والدولة هناك استياء بين قطاعات واسعة داخل الليكود بسبب عدم توفر احتمال لضمان حرية التصويت لاعضاء الكتلة في الكنيست وبسبب عدم وجود نية لحرمان الاحزاب الدينية من سيطرتها بدون عوائق على المجالس الدينية واستخدامها لاهداف سياسية ·

ومن هنا ، فان الليكود لن يؤدي الى الفصل الذي تنشده اوساط اجتماعية واسعة ، بين الدين وبين الدولة ، ويمنع سن قوانين ترتكز في الاساس على بين الدين وبين الدولة ، ويمنع سن قوانين ترتكز في الاساس على احترام حقوق المواطن · ففي مواضيع الدين ، يوجد لقيادة حركة حروت تأثير غير منازع داخل الليكود ، حيث يعين الموقف من هذا الامر بوحي من مناحم بيغن · ان بيغن يعتبر الدين عمود وسط في الشخصية القومية ، ويعارض كل خطوة من شأنها تقويض هذه المعادلة » · (المصدر نفسه) · وعلى هذا الاساس يتوقع ان تؤيد كتلة ليكود في الانتخابات جماعات دينية متعصبة ممن تؤمن بخطها السياسي امثال « غوش ايمونيم » ·

ان الهدف الاساسي لكتلة ليكود خلال هذه الانتخابات هو الوصول الى الحكم ، وعلى هذا الاساس ، يعتقد المراقبون ان هناك شكا كبيرا في استمرار قيام الليكود في حال فشله في تحقيق هذا الهدف · وقد اعترف رئيس الحكومة اسحاق رابين (في مقابلة مع عال همشمار ، ٧٧/٤/١) ان الخصم الاساسي للمعراخ في معركة الانتخابات هو الليكود · « ففي نهاية الامر هناك مفهومان شاملان لحركة العمل والمعراخ في مركزها ، ولكتلة ليكود وحيروت في

مركزها ، بالنسبة للمجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ... ان الحسم في نهاية الامر يجب ان يكون بين الليكود وبين المعراخ ، هاتان الكتلتان فقط تمثلان مفاهيم كاملة ومتناقضة . لذلك فان كل صوت لا يعطى الى المعراخ بل يعطى الى جهة اخرى ، فانه يعتبر مفقودا في المنافسة الاساسية بين المعراخ وبين الليكود » .

الاحزاب الدينية : انقسامات ونزاعات

ان الشيء المميز للاحزاب الدينية قبل الانتخابات، هو النزاع والانقسام داخلها، خاصة في الحزب الديني القومي (المفدال) حيث تم ابعاد احد زعمائه من قائمة المرشحين وهو عضو الكنيست يتسحاق رفائيل ، وذلك في الانتخابات التي جرت داخل اللجنة التنفيذية للحزب لاختيار المرشحين للانتخابات ، والتي اسفرت عن انتخاب عضو الكنيست دكتور يوسف بورغ للمكان الاول في القائمة ، عضو الكنيست زفولون هامر للمكان الثاني ، عضو الكنيست اهرون ابو حتسيدة ، وهو من كتلة رفائيل للمكان الثالث ، عضو الكنيست ابراهام ملميد للمكان الرابع ، وعضو الكنيست يهودا بن مئير للمكان الخامس . اما دكتور زيرح فيرهفتيج فقد انتخب للمكان الثامن .

ويعتبر ابعاد عضو الكنيست يتسحاق رفائيل انتصارا لنشاط الشباب داخل الحزب ، الذي يهدف منذ فترة الى ابعاد الزعامة التقليدية ، واستبدالها بزعامة جديدة . فقد كان ثلاثة زعماء قدامى في قيادة المفدال خلال السنين الاخيرة ـ عضو الكنيست يوسف بورغ ، عضو الكنيست يتسحاق رفائيل ، وعضو الكنيسة زيرح فيرهفتيج . ان ما حدث لهؤلاء ، عشية الانتخابات في اللجنة التنفيذية للحزب لاختيار قائمة المرشحين للكنيست ، يبرز التغيير الحقيقي داخل المفدال . فدكتور بورغ قوي مركزه ، بعد انتخابه في المكان الاول . اما زيرح فيرهفتيج ، فقد انتخب للمكان الثامن ، في حين ابعد يتسحاق رفائيل بصورة نهائية . « ان هذا يعتبر شبه ثورة قام بها ابناء الجيل الثاني والشباب . وكانت الفكرة في اساسها تتمثل في ابعاد القيادة القديمة كلها . وبعدما اتضح ان محاولة كهذه معرضة للفشل ، تبدل الهدف واصبح يتمثل في ابعاد جزء من القيادة القديمة (اي دكتور رفائيل) ، وخلق اندماج بين جزء اخر (اي دكتور بورغ) وبين الشباب، بهدف نقل السيطرة داخل المفدال ، بصورة منظمة ، من بورغ الى الجيل الثاني مع عضو الكنيست هامر ، خلال الولاية المقبلة . وحقا فان الثنائي الذي يتزعم الان قائمة مرشحي المفدال للكنيست ، وهما عضوا الكنيست بورغ وهامر ، يمثل الدمج بين القدامى وبين الشباب . وواضح انه في الوضع الحاصل الان ، قوي جدا تأثير اوساط الشباب ، وينبغي الافتراض انه قبيل الانتخابات للكنيست العاشر ، سيكون (هامر) المرشح الوحيد لرئاسة « المفدال » . وعمليا باستثناء بورغ وفيرهفتيج ، لا يوجد في قائمة المفدال للكنيست تمثيل للزعامة القديمة ، حيث ان معظم المرشحين الاخرين هم من الشباب » (ابراهام تيروش ـ معاريف، ٧٧/٣/٢٢) . وقد وصف رفائيل عملية ابعاده بأنها مؤامرة ، وانهناك اتفاقا مسبقا لابعاده ، ووضع عضو الكنيست اهرون ابو حتسيده ، وهو من كتلته ، بدلا منه (معاريف ، ٧٧/٣/٢١).

انقسام اخر في « الجبهة التوراتية »

وحدث انقسام اخر في « الجبهة التوراتية » (اغودات يسرائيل مع بوعلي اغودات يسرائيل) التي خاضت

الانتخابات في الكنيست الثامن · ومن المقرر ان يخوض كل من جناحيهما الانتخابات بفرده · ويحلل عضو الكنيست الحاخام يهودا مئير ابرموفيتش سبب الانقسام بقوله : « تبين لنا ان الكثير من اعضاء اغودات يسرائيل لم يصوتوا للقائمة بسبب هذه الشراكة ، كذلك فان عددا من اعضاء بوعلي اغودات يسرائيل لم يصوت لهذا السبب ـ ولذلك خرج المعسكر الديني خاسرا · فقبل الشراكة كان هناك اربعة اعضاء في الكنيست لاغودات يسرائيل ، واثنان لعمال اغودات يسرائيل في الكنيست الثامن ، خسرنا المكان السادس وربحنا الخامس بصعوبة » (في حديثمع ليفي يتسحاق هيروشلمي ـ معاريف ، ٢٧/٣/ ٧٧) ·

وحسب الاحصاء الاخير فان عدد المنظمين في اغودات يسرائيل يبلغ نحو ٢٠ الف عضو ، مركزين في اكثر من ١٠٠ فرع ، اكبرها في القدس حيث يوجد اكثر من خمسة الاف عضو ، وفي بني براك وتل ابيب · ويعرض زعماء اغودات يسرائيل حزبهم ، على انه حزب لا ـ صهيوني · وفي هذا الصدد يقول الحاخام ابرموفيتش (المصدر السابق) : « اننا نرى خطرا على حقيقة وجود شعب اسرائيل في المفهوم القائل ، ان كل من ينتمي الى اطار المنظمة الصهيونية ـ ويكفي انه ينفذ وصية واحدة تتمثل في الهجرة الى ارض اسرائيل والعيش فيها ، حتى اذا كان لا يحافظ على جميع وصايا التوراة ، ولا يتصرف حسب تقاليد اجدادنا ـ فانه يهودي جيد ، ويستطيع الحفاظ على استمرارية الاجيال كيهودي · هذا هو مفهوم خطير لحقيقة وجود الشعب اليهودي » · ويذكر ابرموفيتش ان هناك ثلاثة مواضيع لا تقبل المساومة بالنسبة لاغودات يسرائيل وبوعلي اغودات يسرائيل ، خلافا للمفدال ، وهي معارضة تشريح الموتى ،و معارضة منح تصاريح عمل ايام السبت ، وعدم التنازل في قضية « من هو اليهودي » · وهي القضية التي ثارت خلال السنوات الاخيرة في اسرائيل · وردا على سؤال اذا كانت اغودات يسرائيل تعتبر نفسها شريكة في الائتلاف الحكومي في المستقبل، يرد عضو الكنيست الحاخام لورانس ان « مجلس عظماء التوراة سيقرر ذلك· ونحن حريصون ، ولذلك لم نستجب لجميع الدعوات التي وجهت الينا في الماضي لدخول الحكومة · واذا قبلت الحكومة بموقفنا من القضايا الاساسية ـ « من هو اليهودي ؟ » ، تجنيد الفتيات في الجيش ، تشريح الموتى ، والغاء تصاريح العمل ايام السبت ـ فان الامر يمكن ان يدخل في الحسبان، ولكن القرار هو دائما لمجلس عظماء التوراة· وعندنا ليس هناك سؤال مع من يمكن الائتلاف · فاذا قبل موقفنا ـ نستطيع الائتلاف مع المعراخ او مع الليكود · اننا نسير مع المبدأ ـ وليس مع الاحزاب » (المصدر نفسه) ·

احزاب الوسط : فشل قيام وسط ليبرالي

وبالنسبة لاحزاب الوسط ، فقد فشل قيام وسط ليبرالي يضم حزب الاحرار المستقلين ، وقائمة حقوق الانسان ، والحركة الديمقراطية للتغيير ، وقررت هذه الاحزاب خوض الانتخابات بصورة مستقلة ·

بالنسبة « للحركة الديمقراطية للتغيير » (داش) فقد تم انتخاب مرشحيها للكنيست ، وذلك في انتخابات مباشرة من قبل اعضاء الحركة في الفروع المختلفة · ويترأس قائمة المرشحين زعيم الحركة يجئال يدين وامنون روبينشتاين زعيم حركة التغيير (لشينوي) ومئير عاميت ، وشموئيل تامير من زعماء المركز الحر ، ومئير

زوريـــع · وياتي شموئيل توليدانـــو ، مستشار رئيس الحكومة للشـــؤون العربية سابقا ، في المكان السابع فـــي قائمة المرشحين ، أما « عكيفا نـــوف » من المركز الحر فياتي في المكان الثامن· ويحتل المكانين الثاني عشر والثالث عشر درزيان وهما شفيق اسد وزيـــدان عـطشي « وليس هذا بغريب ، فـــان اكثر من ٣٠٠٠ درزي قد منحـــوا اصواتهم للحركة ، مما مكن توليدانو من الفوز بالمكان السابع » (ر٦١ ، ١٨/٣/٧٧) ، وذلك بفضل نشاطه في القطـاع العربي في هذا المجال ، والعلاقـــات الشخصية التي يملكها مع العـرب ·

وتكثف حركة يدين نشاطها الدعائي قبل الانتخابات ، حيث تقوم بتوزيـــع المنشورات بين الناخبين وعلى الصحف· وظهر من خـلال اعـلاناتها في الصحف ان مبادئها ترتكز عـلى الاسس التالية :
«١ ــ السعي نحو السلام: فالهدف الاساسي للسياسة الاسرائيلية هو السعـي نحـو سلام دائـم في المنطقة ، يضمن وجـــود واستقلال وسيادة اسرائيل » ·

« ٢ ــ الاستعداد للتسوية : ان شعب اسرائيل يملك حقا تاريخيا فـــي ارض اسرائيل ، ولمناطقها اهمية امنيـــة ذات قيمة بالغـة · مع ذلك ، فان السعي نحو السلام ، والحفاظ عـلى الطابع اليهودي ــ الديمقراطي لدولة اسرائيل ، يلـــزم استعدادا للقبول بتسوية اقليمية توفـر الامن ، كجزء غـير منفصل من اتفـــاق سلام،مكتوب وعملي، يؤدي الى توفيرحياة طبيعية في المنطقة · وهذا معنـــاه الغاء المقاطعـة العربية والدعاية المعـاديـــة ، وحرية الملاحـة ، وحدود مفتوحـــة او تبادل السفراء ، وايجاد عـلاقـــات تجارية وسياحية ، وتبادل الخبـــرة والتعاون الاقتصادي الاقليمي ·

«٣ ــ حدود امنة : وفي اتفاق السلام بيننا وبين الدول العربية يتم ضـــمان حدود آمنة لاسرائيل ، حيث يكـون الاردن هو الحـد الامني من الشرق ، مع ضـم مناطق واقعـة الى الغـرب منه ، تكون ضرورية للسيطرة الامنية عـليه · كذلك فاننا نعارض اي انسحـاب فـــي هـــذه المنطقة بدون اتفاق سلام كامل ·

« ٤ ــ القدس الموحدة ــ عاصمة اسرائيل: ان القدس الموحدة هي عاصمة اسرائيل مع ضمان حرية العبادة في الاماكـــن الدينية لجميع الاديان ·

«٥ ــ دولة عربية واحدة ــ شرقي اسرائيل: ان دولة فلسطينية مستقلة ذات سيـــادة غربي الاردن ستشكل خطرا على امـــن اسرائيل ووجودها لذلك نعارض اقامتها· ويجب ان تكون جارة اسرائيل من الشرق دولة عربية واحدة ، عاصمتها في شرقي الاردن · ويقوم مواطنوها بتعييـــــن اسمها ، ونظام حكمها وطابعها السياسي· وفي هذه الدولة ، سيتوفر الحل لمشكلـة الهوية الفلسطينية ، في اطار حق تقريـر المصير لجميع مواطنيها ·

«٦ ــ استيطان امني : ان الاعتبار الامني سيكون الموجه في تعيين الافضليات لاماكن الاستيطان ، والافضلية الاولى في الجهد الاستيطاني ستعطى في قطاع غـــــور الاردن » (دافار ، ٧٧/٣/٣٠) ·

يستدل من هذا الاعـلان ان مبادىء حركة يدين لا تختلف تقريبا عن مبـادىء حزب العـمل الحاكم ، خاصة فيمـــا يتعلق بالمناطق المحتلة ، وحـل القضيـــة الفلسطينية · لذلك فان القضايا الداخلية، وتغيير طريقة الانتخابات هي المواضيـــع الاساسية التي تعتمد عليها حركـــــة « داش » للفوز في الانتخابات المقبلـة · ويجمع المعـلقون ان هذه الحركة تعتبـر خـطرا عـلى المعـراخ والليكود فـــي ان واحد ، حيث تضم اشخاصا عديدين مـن هذين المعسكرين ، وهذا يجعـلها قـــوة اساسية في الخريطة السياسية بعـــد

الانتخابات ، حيث يحتمل ان يتوقف تشكيل الحكومة القادمة على قرارها النهائي بشأن من ستأتلف معه · ويمكن القول، باختصار ، ان حركة يدين تراهن على ضيق الاسرائيليين من حكم المعراخ ، « فالجمهور تعب من التقصيرات ، والفشل والفضائح ، وبات ينشد التغيير ـ هذا ما يقوله احد اعلاناتها » (يونيل ماركوس ـ هارتس ، ٧٧/٣/٢٥) ·

الموقف من القضية الفلسطينية سبب الخلاف داخل الاحرار المستقلين

عقد حزب الاحرار المستقلين مؤتمره العاشر وسط اجواء مشحونةبالخلافات ووجهات النظر المتباينة · وقد حاولت مجموعة واسعة داخل الحزب ، ايجاد مخرج للازمة داخله ، عن طريق تبديل القيادة في الكنيست وفي الحكومة· « الا انه اتضح في المؤتمر ان مشكلة الحزب الاساسية لا تتمثل في تبديل القيادة القائمة ، وانما في عدم وجود بديل حقيقي لها · فحتى اذا انسحب الوزير موشي كول من قائمة المرشحين للكنيست ، فأنه سيبقى زعيم الحزب غير المنازع ، تماما كمثير يعري في مبام او بن غوريون في حركة العمل» (يهوديت فينكلر ـ هارتس ، ٧٧/٣/٢)· وقد ادت الانتخابات داخل الحزب ، لاختيار مرشحيه للكنيست ، الى ابعاد عضو الكنيست يهودا شعاري الذي يترأس وسط يهود رومانيا داخل الحزب، وانتخاب الاعضاء جدعون هاوزنر ونسيم اليعاد وابراهام حسون وتسفي نير · ويبدو ان الخلاف داخل الحزب قد بدأ قبل مدة مع بدء الحوار في مركز الحزب حول القضية الفلسطينية · فقد ذكر المحامي يتسحاق نانر ، رئيس ادارة حزب الاحرار المستقلين المستقيل ، في حديث مع يهوشواع بيشور (معاريف ، ٧٧/٣/٢٢) ، ان الخلاف قد « بدأ قبل سنة تقريبا ، عندما جرى في مركز الحزب نقاش صاخب حول المشكلة الفلسطينية · وتركز الصراع بين اولئك الذين اعتبروا حزب الاحرار المستقلين حزبا وسطا بين الحمائم والصقور ، ذا اعتدال متزن ، يقترب في سياسته تقريبا من مواقف التيار المركزي في حزب العمل ، وبين نشيطين كثيرين من جيل الشباب ، الذين حاولوا بكل قوتهم جذب الحزب نحو التيار الحمائمي المتطرف ، كما هو مقبول عندنا في الاساس لدى معسكر اليسار المتطرف· ويؤيد هؤلاء بصورة مبدئية العودة الى حدود ١٩٦٧ (مع تغييرات طفيفة حسب صيغ روجرز وكارتر ···) ومنح حق تقرير المصير للفلسطينيين ، الامر الذي يعني عمليا ، الموافقة على اقامة دولة ثالثة ، فلسطينية ، بين اسرائيل وبين الاردن » · ويذكر المتحدث انه خلال التصويت الذي جرى حول رجهتي النظر ، فازت المجموعة الثانية، اي جماعة الشباب ، على المجموعة الاولى التي كانت تمثل الخط التقليدي للحزب ، والمتمثل في السياسة المقبولة لدى الاكثرية داخل الحكومة ، « وبموجبه ينبغي الموافقة على تنازلات اقليمية في اليهودة والسامرة ايضا ، بشرط انيكون الاردن الحد الامني ، وان يكون شرقي اسرائيل دولة واحدة فقط ، اردنية ـ فلسطينية » · ويذكر المتحدث ان عضو الكنيست يهودا شعاري رئيس كتلة الاحرار المستقلين في الكنيست وكان يتزعم جماعة الشباب ، حيث اعرب في كل نقاش سياسي داخل الكنيست عن مواقف حمائمية متطرفة ، وكان يعمل على تنظيم مجموعة تترأس قائمة المرشحين للكنيست ، وتكون اراؤها مماثلة لاراء مجموعته · وقد نجح في ذلك الى حد بعيد ، حيث جهز قائمة متفق عليها داخل الحزب ، تضمه هو وكل من الوزير جدعون هاوزنر ، وابراهام حسون ممثل الاحرار

المستقلين في اللجنـــة التنفيذيــــة في الهستدروت ، والمسؤول عن تنظيم الشباب تسفي نير • الا ان معارضة عضوالكنيست نسيم اليعاد ، الذي يعتبر رجل الطوائـف الشرقية داخل الحزب ، قد اثمرت ، حيث نجح في ابعاد يهودا شعاري والحلـــول مكانه •إلا ان هذاالامر يعتبر صراعا على المقاعد أكثر من كونه هزيمة لشعاريداخل الحزب ، رغم ان البرنامج السياسي الذي تبناه المؤتمر ، يعتبر برنامج خيــــارات مفتوحة لجميع الاتجاهات • « فالاحـــرار المستقلون يؤيدون التسوية الاقليمية علـى جميع الجبهات ، ويؤيدون الاستيطان مـن على جانبي الخط الاخضر بموجب قرارات الحكومة ومتطلبات الدولة السياسيـــــة والامنية • كذلك يؤيد الحزب الذهـــاب الى مؤتمر جنيف ، والمفاوضات مـــــع الفلسطينيين بشرط ان يعترف هؤلاء بدولة اسرائيل ، ويعربوا عن استعدادهم لاقامـة علاقات سلام معهـا ••• وعلى اساس هذا البرنامج يستطيع الاحـــرار المستقلون ان يشاركوا حتى في ائتلاف مع الليكود ،حيث ان كل شيء يتعلق بالتفسير الذي يعطى لهذه البنود » (يهوديت فينكلر ـ هآرتس ، ٢ـ٣ـ٧٧) •

حركة « شـــالوم تسيون » تخـــوض الانتخابات بمفردها •

فشلت المفاوضات بين اللواء (احتياط) اريئيل شارون زعيم حركة « شالوم تسيون» وبين الليكود بشأن الاندماج بينهما ، وقرر شارون في اللحظة الاخيــــرة خـــوض الانتخابات بمفرده ، متهما اعضاء ليكود، خاصة زعيم الاحرار سيمحـــــا ارليخ ، « بمحاولة التلاعب عليه ، من اجل اضاعة الوقت وعدم تمكينه من تقديم لائحتــــــه المستقلـــة الى الانتخابـــــات » (ر٦١ ، ١٣ـ٤ـ٧٧) • ولكن شارون عاد واكد انه سيحاول تشكيل جبهة مع الليكود بعــــد الانتخابات • ويقول ان اكثر من ٢٠ الـف نشيط يعملون مع حركته •

وفي مقابلة مع معاريف (اجراها دوف غولوشتاين ـ معاريـــف ، ٢٥ـ٣ـ٧٧) تحدث شارون عن مبادئه والاسس التـــي تقوم عليها حركته فقال : « في نظري ، فأن كل ارض اسرائيل ، بما في ذلك شرقـــي الاردن ، هي وطن الشعب اليهودي ، ولـم يكن ولن يكون هناك اي تحفظ حول ذلك•• ان هذه الارض تتحـــــدث الي بالعبرية ، وبالعبرية فقط ••• ولو كنت مقتنعا ان كل يهودي ، في هذه الارض وفي العالميسمع هذه العبرية ـ لمـــا قلقت ابدا ، لا مـن التصريحات ولا من كارتر ولا من قرارات المجلس الوطني الفلسطيني في القاهـرة • ولكنني قلق ، قلق جدا • ان جذورنا ليست عميقة كفاية ، باستثناء الجمهور المتدين • ان الشكوك تنتشر بين اليهود ، وشعورهم نحو الوطن غير كامل • ان ارضاسرائيل تتحدث اليهم ، تصرخ اليهم ـ ولكنهـــم لا يسمعون ، شبه اصماء » • ويضيفشارون قائلا انه مستعد للتحدث الى الفلسطينيين حول مستقبل عمان اكثر من كونه مستعدا للتحدث مع حسين حول مستقبل نابلـــس والخليل • ان شارون يؤيد فكرة الحـــل الفلسطينيداخل الاردن،وباعتقاده ان هناك سببين يدفعانه الى ذلك : « (١) نظريـــا تستطيع اسرائيل الوصول الى اتفاقـــات سلام مع جميع الدول العربية ، ولكن اذا لم تجد حلا للمشكلة الفلسطينية فسيعـود الوضع كما هو عليه بعد مضي وقـــت قصيـــر ، ففـــي نهايـــة الاربعينـــات ومطلع الخمسينات ، وصلت اسرائيـــل الى شبه علاقات قريبة مع الدول العربية• ولكن العامل الذي ادى الى تدهور الوضع هو الفلسطينيون ، بسبب اعمال الارهـاب القاسية ، وردود الفعل والحروب ـ وهذا هو الوضع حتى اليوم ••• « لذلك محظور علينا التقليل من وزن المشكلة الفلسطينيـة والتوهم بأنه يمكن فصلها عن قضيةالسلام مع الدول العربية » ••• والسبب الثاني، هو نصف مليون عربي اسرائيلي • انهـــم

فلسطينيون ولا يؤدون في هذا البلدواجبات المواطنين · انهم لا يدفعون ضرائب تقريبا، ولا يخدمون في الجيش · ولكنهم نشيطون بصورة كاملة في الحياة السياسية في اسرائيل ولهم تاثير عليها · انني اقول لعرب اسرائيل صراحة : ان اسرائيل ستضطر الى وضعهم امام الحقيقة : اما ان تكونوا مواطنين كاملين ، وتؤدوا جميع الواجبات بما في ذلك الخدمة في الجيش ـ وتحصلوا على جميع الحقوق ، او ان تفضلوا كونكم معفيين من اداء الواجبات ـ وعندئذ تكونون قاطنين في اسرائيل ، حيث يعيش هنا ٨٠ الف يهودي بهذه الصفة ، لا ينتخبون للكنيست ولا ينتخبون (نتوري كارتا) · بدلا من ذلك ، تكونون انتم عرب اسرائيل ، مواطني دولة اخرى، ومن الطبيعي ان تكونوا مواطني دولةفلسطينية لانكم فلسطينيون » ·

ويؤيد شارون المفاوضات مع وفد عربي مشترك يضم الفلسطينيين ، وذلك تجنبا للتنازلات التي ستقدمها اسرائيل لكل دولة على حدة ، في حال التفاوض مع وفود مستقلة · وبالنسبة له فان المسألة لاتتعلق بما سيحصل عليه العرب ، وانما ماذا تستطيع اسرائيل ان تمنحهم ، « وهي التي لا تستطيع ان تعطي شيئا يمس بامنها ويشكل خطرا على وجودها » · فالبنسبة لهضبة الجولان لا تستطيع اسرائيل ، باعتقاده ، ان تنسحب ابدا، وكل ماتستطيع الموافقة عليه هو تجريد الجولان من السلاح ، اي خروج القوات العسكرية الاسرائيلية ، ولكن بشرط ان تبقى الهضبة مع اسرائيل · والدافع الاول لذلك هو المياه ، التي تعتبر مسألة حياة او موت، حيث ان اكثر من ربع كمية المياه في اسرائيل مصدرها من منابع الاردن ·ان الحرب في الجولان لم تبدأ في ١٩٦٧ وانما في نوفمبر ١٩٦٤ عندما حاول العرب تحويل مجرى نهر الاردن · والسبب الثاني هو العمق الاستراتيجي ··· والسبب الثالث هو سيطرة سوريا على لبنان ··· من ينتبه في هذه اللحظة الى الحقيقة بان ميناء حيفا موجود تحت مرمى المدفعية السورية ؟··· »

كذلك يعارض الانسحاب ابدا من الضفة الغربية « لان جميع المراكز السكنية في اسرائيل موجودة تحت مرمى المدفعية من اليهودة والسامرة ··· كذلك فاذا اخرجت اسرائيل قواتها من الضفة الغربية ستتجدد اعمال الارهاب هناك خلال ٤٨ ساعة » · كذلك فهناك مشكلة المياه بالنسبة له «فثلث كمية المياه عندنا ، مصدرها مصادر جوفية في اليهودة والسامرة » · وبالنسبة للحرب ضد الفدائيين يقول شارون ان هذا هو « شعار فارغ ليس له مضمون ، فهو يؤيد التفاوض مع منظمة التحرير ، في آن واحد مع « حرب مخططة ضد الارهاب ، باستمرار وبحزم · ان اسرائيل شنتحربا مخططة ضد الارهاب في فترتين فقط :خلال عمليات الانتقام في الخمسينات واثناء القضاء على الارهاب في قطاع غزة في سنة ١٩٧١ » (كان شارون مسؤولا عن هذه الحرب خلال الفترتين) · ويتابع شارون قوله : « اليوم لا يستطيع اييهودي ان يدخل نابلس : ولا يستطيع جندي يهودي الدخول الى حي « القصبة » في نابلس ، بدون عملية عسكرية كاملة ـ وهذا هو استمرار لسياسة الحكومة ، التي ادت الى كوارث سنوات الخمسين والسبعين وما زلنا جميعا ندفع ثمنها ··· لا استطيع ان افهم كيف تستطيع حكومة اسرائيلمعارضة سفر بضعة عشرات من النشيطين العرب الى اجتماع المجلس الفلسطيني فيالقاهرة ـ ولكنها تتجاهل انهيار الوضع الامني في اليهودة والسامرة ، ان الحكومة تمنع زعماء الطائفة الدرزية من السفر اليلبنان لتعزية عائلة جنبلاط ··· ولكنها تتجاهل الحقيقة بان اليهود لا يدخلون اليوم في الجليل الى قرى عرابة وسخنين ودير حنا، منذ احداث يوم الارض · يوجد هنا تقصير سياسي وامني من جانب حكومة اسرائيل » ·

كتلة يسارية جديدة ـ « شلي »

اسفرت الاتصالات التي تجري منذ فترة طويلة بين موكيد ولوبا الياف (الاشتراكيون المستقلون) ودوائر وشخصيات حمائمية اخرى مثل اوري افنيري ، متتياهو بيلد ، ويعكوف ارنون ، عن ولادة جبهة يسارية جديدة اطلق عليها اسم « شلي » ـ جبهة السلام والمساواة ٠ وعلم ان المرشحين الاربعة الاوائل في قائمة الجبهة هم لوبا الياف ، مئير بعيل ، اوري افنيري ، وسعاديا مرتسيانو عن الفهود السود ٠ واعلن اوري افنيري في مقال له في مجلته (هعولام هازيه ـ ٢٢ـ٣ـ٧٧) ، انه لا شك ان هناك خلافات كبيرة في الراي بين حركته وبين موكيد والقوى الاخرى التي انضمت الى المعسكر٠ « ولكننا متحدون اليوم في امر يتعلق بالحياة وبالموت : الطريق نحو السلام ٠ فاذا كان السلام هاما لنا ، واذا كنا مؤمنين حقيقة انه اهم من اي شيء آخر في حياة الدولة ـ فكيف يمكننا ان نترك امورا اقل اهمية ان تؤدي الى انقسام بيننا في هذه الانتخابات المصيرية ؟ كذلك توحد هذه القوى ، الرغبة العميقة في العدل الاجتماعي ، والمساواة الكبرى ، وحكم اكثر انسانية » ٠ وفي مقابلة مع زعيم الحركة لوبا الياف (في معاريف ، ٢٥ـ٣ـ٧٧) اعلن انه هو ورفاقه لم ينشئوا حزبا ، وانما معسكرا يوحده عاملان مشتركان : الطريق نحو السلام والمساواة الاجتماعية » ٠« اننا على يقين كبير بان الهوة الاجتماعية في اسرائيل هي على اساس طائفي ، وكل حل يجب ان يعترف بخطورة المشكلة الطائفية ،التي تتطابق مع مشكلة الهوة الاجتماعية » ٠ ويقول الياف ان قائمته ستفوز باربعةنواب وما فوق ٠

تاييد اقامة دولة فلسطينية

تعتبر مبادىء الحركة الجديدة « شلي » مطابقة لمبادىء مجلس السلم الاسرائيلي ـ الفلسطيني ٠ ومن اهمها « (١) ان ارض اسرائيل هي وطن للشعبين ـ لشعب اسرائيل وللشعب العربي ـ الفلسطيني٠ ثانيا : ان لب النزاع بين اليهود والعرب هو المواجهة التاريخية بين الشعبين في هذا البلد ، العزيز عليهم ٠ ثالثا ، ان الطريق الوحيد للسلامهو التعايش بين دولتين ذات سيادة ، تكون لكل واحدة منهما هوية قومية محددة : دولة اسرائيل للشعب اليهودي ، ودولة الشعب العربيالفلسطيني كتعبير عن حقه في تقرير مصيره ، في اي اطار سياسي يرتئيه ٠ رابعا ، ان انشاء الدولة العربية الفلسطينية الى جانب دولة اسرائيل ، يكون ثمرة مفاوضات بين حكومة اسرائيل ، وبين هيئة معترف بها ومفوضة للشعب العربي الفلسطيني ،وذلك بدون رفض المفاوضات مع م٠ت٠ف على اساس الاعتراف المتبادل ٠ خامسا ، ان ترتكز الحدود بين دولة اسرائيل والدولة العربية الفلسطينية على خطوط الهدنة ، كما كانت قبل حرب حزيران ١٩٦٧ ، مع تغييرات يتفق عليها بين الاطراف ، وبعد تسوية مشكلة القدس ، سادسا ، ان القدس هي عاصمة اسرائيل الازلية ، ولكونهما مقدسة لثلاثة اديان ، وسكانها من ابناء الشعبين ، فانها تستحق مركزا خاصا ٠ يجب ان تبقى كاملة كوحدة رئيسية بلدية مشتركة ، ومفتوحة امام ابناء جميع الشعوب والاديان ٠ تستمر القدس فيكونها عاصمة دولة اسرائيل ، ويكون جزؤها العربي ، بعد تحقيق السلام ، عاصمة الدولة العربية الفسطينية ٠ وتدار الاماكن المقدسة لكل من الاديان الثلاثة ، بصورة مستقلة من قبل مؤسساتها ٠ سابعا ، ان تكون الحدود بين اسرائيل وبين الدولة العربية الفلسطينية مفتوحة امام تنقل المواطنين والبضائع في انحاء البلد كلها٠ ولا يستوطن عرب فلسطينيون في اسرائيل، ولا اسرائيليون في الدولة العربية الفلسطينية الا بموافقة الحكومتين٠ ثامنا ، ان تساهم اقامة الدولة العربية

الفلسطينية بشكل حاسم في حل المشكلة القومية والانسانية للاجئين ، بحيثتساعد اسرائيل في هذا الحل · تاسعا ، تلـزم المراحل الاولى من التعايش الاسرائيلي ـ الفلسطيني ، ترتيبات امن يتفق عليها بصورة متبادلة · ويتم الاتفاق على عدم دخول قوات عسكرية اجنبية الى اي من مناطق الدولتين · عاشرا ، ان تكون الدولتان ذات سيادة في جميع المجالات ، خاصة في مجالات الهجرة · وتحافظ دولة اسرائيل على ارتباطها الكامل بالصهيونية وبالشعب اليهودي في انحاء العالم ، وتحافظ الدولة الفلسطينية على ارتباطها بالشعب العربي · (١١) تعمل الدولتان على اجراء حوار دائم بينهما لتعميق العلاقات بينهما من اجل حل مشاكل مشتركة بروح التعاون ولمصلحة الشعبين· (١٢) ان مصلحة جميع شعوب المنطقة تلزم تعاونا اقليميا بينها ، تشارك به دولة اسرائيل والدولة العربية الفلسطينية » (معاريف ، ٢٤ـ٢ـ١٩٧٦)·

« الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة» تختار مرشحيها ·

اعلنت « الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة » (حداش) بقيادة راكح (انظر شؤون فلسطينية ـ العدد السابق ص١٨٢) اسماء مرشحيها للانتخابات المقبلة ·واعلن عضو الكنيست مئير فيلنر في مؤتمر صحافي في تل ابيب انه يشترك في جبهة « حداش » ، راكح ، الفهود السود ،رؤساء مجالس محلية عربية ، الجبهة الديمقراطية لمدينة الناصرة ، لجنة المبادرة الدرزية ، و « الجبهة اليسارية » · وانه منحت اربعة مقاعد في المقاعد العشرة الاولى في قائمة المرشحين للكنيست لاشخاص غير منتمين لراكح وهم : تشارلي بيتون من الفهود السود في المكان الثالث ، حنا مويس رئيس لجنة المجالس المحلية العربيةورئيس مجلس محلي قرية الرامة ، في المكان الخامس ، حسان بشارة مدرس ثانوي في قرية الطيرة في المكان السابع ، والشاعر سميح القاسم في المكان التاسع ، والمرشحون الاخرون هم اعضاء راكح وهم: عضو الكنيست مئير فيلنر في المكان الاول ، توفيق طوبي في المكان الثاني ، رئيس بلدية الناصرة توفيق زياد في المكان الرابع ، عضو الكنيست ليفنبراونفي المكان السادس ، تمار جوزنسكي في المكان الثامن ودافيد حينين في المكان العاشر (دافار ، ١ـ٤ـ٧٧) · ويتوقع المراقبون فوزا كبيرا للجبهة الجديدة « حداش » خاصة ان راكح استطاعت بواسطة ضم الفهود السود كسر العزلة حولها في الوسط اليهودي · كذلك فان مؤيديها بين العرب يزدادون يوما بعد يوم ، خاصة بعد احداث يوم الارض ،ومصادرةالاراضي العربية وموقف اسرائيل المعادي من الفلسطينيين ·

وقد تنبه حزب العمل لهذه الظاهرة،فقام بدمج القائمتين العربيتين ـ قائمة التقدم والانعاش والقائمة البدوية ـ في قائمة واحدة يترأسها عضو الكنيست سيف الدين الزعبي وهو من اكبر عملاء السلطة في الداخل وصاحب الماضي « العريق » في هذا المجال ، والعميل المعروف وعضو الكنيست الشيخ جبر المعدي ، ومحمد حسن الغدير ، وقد تم دمج القائمتين بواسطة القسم العربي في حزب العمل ·

كذلك ينشط حزب مبام بين العرب في الداخل ، حيث اقام مركز انتخابات مستقلا للوسط العربي ، ووضع المدعو ابراهيم شباط من الناصرة في المكان الخامس بين مرشحيه ·

وعلم ايضا ان حركة يدين ، تحاول كسب اصوات بين العرب ، خاصة بين الدروز ، وذلك بواسطة العلاقات التي تربط المستشار السابق للشؤون العربية شموئيل تولبرانو مع بعض العرب ، الا ان الانتخابات المقبلة ستظهر مدى صحة هذه الاخبار ·

حنة شاهين

(٢)

خلاف أميركي - اسرائيلي حول التسوية ؟

تشير كافة التعليقات والتصريحات التي تناقلتها وسائل الاعلام الاسرائيلية ، الى وجود خلاف بين ادارة الرئيس الاميركي كارتر وبين اسرائيل حول التسوية وخاصة فيما يتعلق بالحدود الامنية . وقد ظهرت بوادر هذا الخلاف اثناء الزيارة التي قام بها وزير الخارجية الاميركيةفانس الى اسرائيل واتسع الخلاف وظهر بصورة واضحة خلال الزيارة التي قام بها ، يتسحاق رابين الى واشنطن . كما تشير التعليقات الاسرائيلية الى وجود قلق لدى بعض الاوساط الاسرائيلية ، من احتمال قيام العرب بشن حرب جديدة ، اذا ما تماطلت عملية التسوية ، وفيما يلي اهم ما اوردته التعليقات الاسرائيلية الصحفيةحول ذلك .

صرح رئيس الحكومة، يتسحاق رابين : « انه لا يتجاهل الحقيقة ، ففي مسألة الحدود لا يزال هناك اختلاف في مواقف اسرائيل والولايات المتحدة ، ولكنه طرأ تحسن ملحوظ على الموقف الاميركي ، سواء فيما يتعلق بموضوع ماهية السلام او فيما يتعلق بحاجيات اسرائيل الامنية في تحديد مختلف الخطوط في اطار اتفاقية سلام مكتوبة » (هآرتس ١٣-٣-١٩٧٧) . وقد ذكر الصحافي دان مرغليت ، « بان رابين يشعر بان هناك استقطابا كبيرا في موقف الادارة الجديدة ، وتأزما في وجهة نظرها حول طابع الحدود النهائية مقابل التقدم الايجابي المهم في موضوع ماهية السلام » (المصدر نفسه . واعترف رابين خلال عرضة نتائج زيارته الى واشنطن امام الحكومة ، « بان هناك خلافات اساسية في الرأي بين اسرائيل وبين الولايات المتحدة حول الموضوع الاقليمي » (معاريف ١٥-٣-٧٧) .

كما تطرق المعلق يوسف حاريف ، الى قضية الخلاف ومحادثات رابين في واشنطن فذكر ان هناك خلافا في الرأي بين اسرائيل واميركا ، حول بعض القضايا وخاصة الحدود والقضية الفلسطينية . فقد تحدث الرئيس كارتر عن « تعديلات في الحدود» وذلك في اطار ٢٥ كلم . واعتمدت المصادر الاسرائيلية على مصدر موثوق . ولكن لم يمر وقت طويل حتى نفى ذلك المتحدث باسم مجلس الامن القومي . وقال انه ليس صحيحا ان الولايات المتحدة - اي الرئيس كارتر - قد حددت ماهية التغييرات الاقليمية التي ستحصل عليها اسرائيل في اطار « تعديلات الحدود » (معاريف ٢٥-٣-٧٧) . وكانت المصادر الاسرائيلية قد هللت للخبر القائل بان الادارة الاميركية قد ابلغت السفير الاسرائيلي ، بأنها تفهم الحدود القابلة للدفاع ، على انها بين ٢٠ - ٥٠ كلم . كما هللت لذلك اوساط الحكم الاسرائيلية ووسائل الاعلام ، واعتبرته بداية لمرحلة جديدة في العلاقات الاميركية - الاسرائيلية. ولكن عندما سئل المتحدث باسم مجلس الامن القومي عن ذلك قال : انه ليس مستعدا لان يرد على « محادثات شخصية » ، واضاف : ان الولايات المتحدة لم تحدد ما هو عمق « التعديل » (المصدر نفسه) .

وتناقلت الصحف الاسرائيلية هـذا الخلاف الاميركي ـ الاسرائيلي ، فذكـرت صحيفة هارتس (١٤ـ٣ـ٧٧) ، على لسان احد معلقيها ، عاموس حداد ، انه لـدى عودة رابين ، الى اسرائيل ، واثناء تحدثه الى الصحافيين في المطار ، لوحظ انلهجته كانت تعبر عن عدم الرضا ، وخاصة فيما يتعلق بتصريحـات الرئيس الاميركي حول الحدود · وعندما سئل رابين عـن مسألة الحدود قـال : لا شك ، اننـي كاسرائيلي ، كنت ارغب في الاستماع الى تعريفات اخرى من قبل الولايات المتحدة · ولكنني اسمح لنفسي بابداء ملاحظتين : فهذه هي المرة الاولى التي نسمع فيهـا رئيسا اميركيا ، يبرز مسألة الحدود القابلة للدفاع ويشير الى امكانية الفصل بيـن الحدود السياسية والحدود الامنية · انني اعتقد بان لهذا المبدأ اهمية بالنسبة لامـن اسرائيل في المستقبل في اطار المفاوضات·

وتطرق رابين الى النقاط التي وجـدت تفهما لدى الولايات المتحدة فقال :

● النقطة الاولى والرئيسية في نظري هي ان الادارة الاميركية تريد وتسعى الـى ان تساهم بكل طاقتها للاسراع فيالاجراءات التي تحقق السلام في المنطقة ، والتي تؤدي الى المفاوضات بين الاطراف للوصول الـى سـلام ·

● والمبدأ الثاني البالغ الاهمية هـو التفاهم الذي تم بين الولايات المتحـدة واسرائيل ، بانه لا يوجد حل مفـروض، حتى في حال وجود هذا الرأي او سـواه للولايات المتحدة · وان الرئيس الاميركـي يعترف ، بان مسؤولية القرار النهائي هـو في ايدي اطراف النزاع · واضاف رابين ، ان هذا المبدأ هو مبدأ اساسي يضمنالتفاهم الاميركي ـ الاسرائيلي ·

● المبدأ الثالث هو ان الولاياتالمتحدة لا ترى ان مسألة اسرائيل قوية ، هي فقط مسألة اسرائيلية ، وانما هي امر ضروري للاسراع في اجراءات السلام · وقد تـم اعطاء الوعد بتقديم كافة المساعدات مـن اجل ضمان اسرائيل قوية من الناحيـة العسكرية والاقتصادية ·

● والمبدأ الرابع ، اننا لم نسمع فـي اية مرة من رئيس اميركي ـ منذ حـرب الايام الستة ـ تعريفا بعيد المدى لماهيـة السلام ، كما حصل في المحادثات مـع الرئيس كارتر · وانني ارى في هذا التغير في موقف الولايات المتحدة ، امرا جوهريا ذا اهمية من الدرجة الاولى · » وانننـي اعود واؤكد انه لم يحدد حتى الان تعريف اميركي قريب الى الموقف الاسرائيلي ، كما رسمه الرئيس كارتر » ·

وعلى الرغم من تحفظات رابين بهـذا الصدد وابرازه للامور الايجابية فقط ،فقد ذكر احد الدبلوماسيين الاسرائيليين فـي واشنطن : « ان هناك « انهيارا مخيفا »وانه لمن المشكوك فيه هل سيكون بالامكان اصلاح هذا الضرر » · (معاريف ٢٤ـ٣ـ٧٧) ·

توتر بين دينيتس وبريزنسكي

هناك من يعزي أساس التوتر الـى المعلومات التي ادلى بها مسؤول الامـن القومي ، بريزنسكي الى دينتس في حديث خاص بينهما ، والتي ذكر فيهـا ، ان الولايات المتحدة تفهم الحدود القابلـة للدفاع والتعديلات الطفيفة المقترحة وخاصة في سيناء ما بين ٢٠ ـ ٥٠ كلم · وقد تـم الاتفاق على عدم ذكر اسم بريزنسكي بـل يذكر « موظف كبير » · ولكن قبل ان تتمكن غالبية الصحف من تسجيل القصة ، خالف، مراسل « الاذاعة الاسرائيلية » ايلي نيسان هذا الاتفاق واذاع اسم بريزنسكي مما ادى الى اصدار نفي عنيف من قبل البيتالابيض (معاريف ٢٤ـ٣ـ٧٧) · فبعد مرور يومين رأى الرئيس كارتر ان يوضـح كافـة الملابسات ، واتضح انه لم يطرأ اي اقتراب من المفهوم الاسرائيلي ، فبالنسبة لماهيـة السلام ، كرر كارتر عدة اسس كان قـد

طرحها في بداية حملته الانتخابية في نيوجرسي · فقد تحدث في اجتماع يهودي عن معنى السلام قائلا انه حدود مفتوحة وانتقال حر للبضائع والاشخاص ،وعلاقات سياحية وتجارية وثقافية الخ · وتحدثفي تلك المناسبة للمرة الاولى عن « صيغة بريزنسكي » ، مستشار الرئيس للامن القومي ـ الذي قال خلال زيارته لاسرائيل وتجوله في طائرة هليكوبتر في منطقة الخط الاخضر ، ورأى المسافة بين قلقيلية وتل ابيب ، انه يوجد شيء ما في الادعاء الاسرائيلي حول « الخطوط القابلة للدفاع»، ولكنه اكد على ان الحدود الامنية ليس معناها مصادرة السيادة من الطرف الثاني وانما ترتيبات امنية من خلال الاتفاق المتبادل ، وربما تصل الى حد وجود عسكري اسرائيلي معين وراء الخط الاخضر · (معاريف ١١ـ٣ـ٧٧) ·

وهناك من اتهم السفير الاسرائيلي في واشنطن ، سمحا دنيتس بالتقصير وحمله نتائج هذا التوتر ونتائج عدم نجاح زيارة رابين · فقد اشار ماتي غولان ، المعلق في « هارتس » ، الى ان دينتس حقق نجاحا كبيرا في دعوة رابين الى واشنطن قبل الزعماء العرب ، وخاصة قبل اجراء الانتخابات في اسرائيل · وبعد ان اثنى على دنيتس لتحقيقه هذا النجاح ، حمله نتائج فشل الزيارة · فقد ذكر ان رجال رابين يحملونه المسؤولية ، وانه اهمل القيام بواجبه وخاصة في الحصول على المعلومات والاتجاهات التي تدور في واشنطن · حيث كان عليه ان يعرف ما هي اراء الرئيس كارتر حول القضايا المختلفة قبل الزيارة ، « وانعدم معرفة دينتس قد افشلرئيس الحكومة» (هارتس٢٥ـ٢ـ٧٧)·

وثيقة بروكينكز ومخاوف اسرائيل ··

كان معهد بروكينكز للابحاث في الولايات المتحدة ، قد اصدر عدة دراسات وتوصيات حول الشرق الاوسط ، قبل فترة، وقد رأت السلطات الاسرائيلية ، ان اهم النقاط الرئيسية في كافة الكلمات التي القاها الرئيس كارتر ، ماخوذة حرفيا من هذه الدراسات ، والتي اسمتها « بوثيقة بروكينكز » · ومن بين اعضاء هذا المعهد ، بريزنسكي ، وسايروس فانس ، وتشارلز يوست (صاحب فكرة الحل المفروض) ودين راسك وجورج بول ·هذا وترتكز اسس الحل حسب هذه الوثيقة على اربعة مبادىء :

● التعهد العربي بالسلام الكامل ·

● الانسحاب الاسرائيلي من المناطق التي احتلت عام ١٩٦٧ ، واجراء تعديلات خفيفة على الحدود ، والتي يتم الاتفاق عليها بين الاطراف ·

● القدس : بالنسبة للوضع السياسي هناك ثلاث امكانيات : سلطة اسرائيلية ، توزيع السلطة بين اسرائيل وبين بلدعربي، او سلطة دولية في منطقة معينة ولكن يجب ان تبقى المدينة موحدة ·

● بالنسبة للمسالة الفلسطينية ـ يجب تطبيق مبدأ الحكم الذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربية وذلك باحدى طريقتين :كيان مستقل او وجود ارتباط بالاردن · ولكنه لا يمكن ان تتم تسوية دائمة ، حسب رأيهم، دون الاتفاق حول حق غالبية السكان الذين يعيشون اليوم في الضفة الغربية بتقرير مصيرهم · (يوسف حاريف ـ معاريف ٢٥ـ٣ـ٧٧) ·

واما بالنسبة لمفهوم كارتر فيما يتعلق بالتسوية فيعتمد على اربعة اسس ، كما نقلتها (معاريف ١١ـ٣ـ٧٧) ، والتي كان قد طرحها في بداية حملته الانتخابية كما ذكرنا :

★ تنفيذ خطة شاملة على مراحل ·

★ انسحاب اسرائيل الى حدود ١٩٦٧ واجراء تعديلات طفيفة على الحدود ·

★ ترتيبات دفاعية وراء الخطوط الجغرافية ·

★ لن يكون السلام مفروضا وسيشمل الحدود المفتوحة بين اسرائيل وجاراتها ، واعتراف الدول العربية باسرائيل ،وعلاقات دبلوماسية بين اسرائيل وجاراتها ·

ان اهم ما يقلق اسرائيل من هذه الوثيقة هو ما جاء فيها حول دور اميركا في الحل، والذي يقصد به الحل المفروض · فقد جاء في البند المتعلق بدور الولايات المتحدة في عملية السلام : ان على الحكومات المتصلة مباشرة بالنزاع ، تقع مسؤولية المفاوضات لتحقيق اتفاقية ، ولكنه من غير المقبول انها ستنجح في الوصول الى اتفاقية بقواها الذاتية · وان المبادرة والتشجيع يجب ان يأتي من الخارج · والولايات المتحدة تتمتع بقسط وافر من ثقة الاطراف، وهي تملك امكانية مساعدتهم اقتصاديا وعسكريا · والمساعدة الفعلية يجب ان تتعدى تهيئة اطار المفاوضات بل تقديم المقترحات · وعلى الولايات المتحدة انتكون جاهزة لاتخاذ خطوات بناءة اخرى · وقد فسرت الاوساط الاسرائيلية هذا الكلام بأنه « حل مفروض » · وترى هذه الاوساط ان الرئيس كارتر قد تبنى هذه الوثيقة كأساس لسياسته في الشرق الاوسط · ولوحظ ان هناك استياء اسرائيليا من بريزنسكي حيث يحملونه مسالة تبني كارتر لهذه الوثيقة باعتباره احد الذين ساهموا في كتابتها · وابدى الاسرائيليون مخاوفهم من فرض التسوية من قبل اميركا · فقد ذكرت هذه الاوساط : « حيث ان امكانية الوصول الى اتفاقية من انتاج محلي ضعيفة ، فان اسرائيل ستواجه بعد الانتخابات الخيار الصعب : الموافقة على تسوية شاملة على غرار بروكينكز (وروجرز) او الاستعداد لاوقات صعبة » (ماتي غولان ـ هارتس ٢٢ـ٣ـ٧٧) ·

وخلاف مع بعض اعضاء الكونغرس

اكد شموئيل سيغف ، انه لوحظ لدى زيارة رئيس الحكومة لواشنطن تحول كبير في مواقف ادارة كارتر في كل ما يتعلق بالحدود وفي حل المشكلة الفلسطينية فقد ذكر رابين خلال مقابلة له مع احدى الصحف الاسرائيلية ، انه وجه اليه ضغط من قبل عدد من اعضاء الكونغرس فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني ، وقد ذكراسم رئيس مجلس النواب ، توماس افنيلي ، الذي يعتبر صديقا حميما لاسرائيل ، حيث ابدى تأييده العلني لاشراك الفلسطينيين في مؤتمر جنيف · كما ذكر زعيم الاغلبية الديمقراطية في الكونغرس ، حقيقة ان الولايات المتحدة قد اجرت مفاوضات في باريس مع « الفيتكونغ » ، بالرغم من انها لم تعترف بهذه المنظمة « كطرف » في المفاوضات بالنسبة لمستقبل فيتنام · وذكر ان رابين استمع الى هذا الكلام بغضب وقال له : « ماذا عن الميثاق الفلسطينيهل قرأته » ؟ وعندها تدخل كارتر في النقاش لينقذ رابين فقال لرئيس مجلس النواب ، انه خلال محادثاته التي اجراها مع رابين « كان مسرورا لان يسمع » ان اسرائيل لا تنوي ان تضم الضفةالغربية، وانها تحتفظ بالمناطق « كورقة مساومة » للمفاوضات حول السلام مع الدول العربية · (معاريف ٢٥ـ٣ـ٧٧) ·

مشروع كارتر

اكد رابين ، عند زيارته لواشنطن ، على عدم ابراز توقعات مبالغ بها من هذه الزيارة · فقد بنى رحلته وسياسته من اجل التنسيق الاستراتيجي مع الرئيس كارتر استعدادا لتجديد النشاط السياسي في النصف الثاني من هذه السنة ·واعطى اوامره للسفير سيمحا دينتس للعمل من اجل الحصول على دعوته المبكرة للزيارة من اجل هدف واحد ووحيد : الوصول الى تنسيق استراتيجي مع الرئيس كارتر ،قبيل تجديد النشاط السياسي في اشهر الخريف ولكنه من الواضح حسب اقوال الرئيس كارتر خلال المؤتمر الصحفي ، « ان هذا الهدف الوحيد لم يتحقق وان رئيسالحكومة عاد الى البلاد بدون اتفاق حول التنسيق

الاستراتيجي مع الولايات المتحدة » ٠ (شموئيل سيغف ـ معاريف ١٣ـ٣ـ٧٧) ٠

ويضيف سيغف ان رابين قد ذهب الى واشنطن املا في ان ينجح في اقناع الرئيس كارتر بالعودة الى اساليب التسوية على مراحل ٠ ولكنه عاد الى اسرائيل « مقتنعا » بضرورة الذهاب الى جنيف ٠ وان رابين قد ذهب الى هناك من اجل الحيلولة دون رسم اهداف اميركية للتسوية ومن اجل التمهيد للمفاوضات المباشرة بين الاطراف ولكنه عاد الى اسرائيل وهو يحمل معه « مشروع روجرز » بصيغة منقحة من قبل الرئيس كارتر والتي سماها المعلق الاسرائيلي « بمشروع كارتر » ٠ ويرى المعلق نفسه « انه من ناحية اسرائيل ، فقد عاد رابين من [واشنطن] وهو في وضع اصعب مما كان عليه قبل سفره ٠ فقد عاد وهو يحمل اقوال التقدير والثناء الشخصية العارمة ، ولكن الرئيس كارتر ادخل الى جيبه «مشروع روجرز» ٠(المصدر نفسه) ٠

مشروع الون وتصريحات كارتر

هناك من يرى ان التصريحات الاخيرة التي ادلى بها كارتر حول الشرق الاوسط، تحتوي على مبدأين اساسيين من مشروع الون ٠ حيث ان اهم مبدأين في مشروع الون هما اولا ، ايجاد حل سياسي ـ امني للنزاع في منطقتنا ، من خلال اجراء تسوية اقليمية وايجاد حدود آمنة لاسرائيل ، عن طريق احتفاظ اسرائيل بمرتكزات عسكرية على امتداد الخطوط الشرقية ، وهي نهر الاردن ٠ والثاني ،حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين وسكان الضفة الغربية وقطاع غزة عن طريق اقامة قطر مستقل في الضفة الغربية له علاقات فيدرالية او كونفدرالية مع اسرائيل او الاردن ٠هذا ونرى الرئيس كارتر يميز بين الحدود السياسية والحدود الامنية ٠ فالحدود السياسية كما يراها كارتر هي حدود١٩٦٧ مع تعديلات طفيفة ، واما الحدود الامنية فمختلفة عن الحدود السياسية ٠ وهكذا فقد تبنى كارتر الرأي الاسرائيلي بالنسبة للحدود (ابراهام برير ـ دافار ٢٨ـ٣ـ٧٧) ٠

واما بالنسبة لتصريح كارتر حول حق الفلسطيني بوطن ، وان هذا الوطن يجب ان يقوم في اطار علاقات مع الاردن او في اطار آخر ٠ فاذا ما قورن ذلك بمشروع الون ، «فانه لا يوجد تناقض بين المشروع الاميركي والاسرائيلي ، فالون وكارتر ، يريان تخصيص منطقة محددة تستعمل « كوطن » للفلسطينيين ٠ وكلاهما يعتبر الضفة الغربية كمنطقة طبيعية لهذا الغرض » (المصدر نفسه) ٠

« الضربة الفلسطينية »

وصل القلق في اسرائيل من التصريح الذي ادلى به الرئيس كارتر حول حل مشكلة الفلسطينيين وضرورة انشاء « وطن » لهم ، الى حد اعتبره بعض الاسرائيليين بمثابة « ضربة » لاسرائيل ٠ فقد علق ماتي غولان على ذلك بقوله : « تم انزال الضربة الفلسطينية عندما عاد رابين الى اسرائيل » ٠ وقد حدث انزعاج كبير في اسرائيل فأخذ الناس يتساءلون : ماذا حدث ؟ لماذا لم يقل كارتر ذلك لرابين عندما كان في واشنطن ، وما هو سبب هذه الركلة ولماذا ؟ (هارتس ٢٥ـ٣ـ٧٧)٠

هذا ويرى الاسرائيليون انه بالنسبة لاشراك الفلسطينيين في المفاوضات وفي مؤتمر جنيف ، فان هناك خلافا بين اسرائيل وواشنطن ، حيث ان السياسة الاميركية مستعدة للقبول باشتراك الفلسطينيين ،على شرط اعترافهم باسرائيل والاعتراف بقرارات مجلس الامن بالنسبة للشرق الاوسط ، ولكن رابين ابدى تشددا في هذا المجال ٠ (المصدر نفسه ١٣ـ٣ـ٧٧) ٠ ويعتقد الرئيس كارتر ، ان الموضوع الفلسطيني يجب ان يبحث في البداية بين الفلسطينيين وبين الدول العربية ، وبعد ذلك بين الدول

العربية واسرائيل · ولكن بالرغم من ذلك، كما يقول يوسف حاريف ، يشعرون في الحكومة ان الهوة بين مواقف اسرائيل والولايات المتحدة لا تزال كبيرة في موضوعين اساسيين : في مسألة الحدود القابلة للدفاع وكذلك بالنسبة للمسألة الفلسطينية حتى بعد التوضيح المسكن من قبل البيت الابيض بالنسبة لهذه المسألة (معاريف ٢١-٣-٧٧) ·

هذا وقد حاولت الحكومة الاسرائيلية من جانبها القيام بنشاط معاكس لتغطية النتائج السلبية لزيارة رابين الى واشنطن وما تركته من اثر سلبي · فقد اقترت الحكومة البدء بحملة اعلامية كبيرة في الولايات المتحدة حول موضوع الحدود القابلة للدفاع وكذلك الكيان الفلسطيني · كما ذكرت بعض الاوساط الاسرائيلية ، ان رابين قد أجرى حديثا مع وزير الدفاع شمعون بيرس ، بعد ثلاثة ايام من عودته من واشنطن ، اقترح عليه السفر الى واشنطن لاجراء محادثات مع وزير الدفاع الاميركي ، هارولد براون ، وبهذه المناسبة اجراء محادثات مع الادارة الاميركية حول القضايا الرئيسية - ماهية السلام ، والحدود الامنة والمسألة الفلسطينية ،ولكن بيرس تردد في القيام بذلك · (معاريف ٢٥-٣-٧٧) ·

العرب يستعدون للحرب ؟

تحدثت بعض الجهات الاسرائيليةمؤخرا عن احتمال قيام العرب بشن حرب على اسرائيل خلالهذا الصيف او خلال الخريف القادم · وكان على رأس هؤلاء الجنرال « احتياط » اريئيل شارون ، وقد ايده في ذلك المعلق العسكري لصحيفة هارتس ، زئيف شيف وكذلك الدكتور امنون سيلع· وقد كتب شيف ، مقالا تحت عنوان «العرب يستعدون للحرب » ، ذكر فيه ان العرب وفي مقدمتهم المصريون مستعدون للتوصل الى تسوية تستجاب فيها كافة مطاليبهم بمساعدة الولايات المتحدة · ولكن بموازاة ذلك ، فان العرب يستعدون بكامل الجدية لحرب أخرى يبادرون اليها في اللحظة المناسبة لهم ·

ويضيف شيف ، انه يؤمن باقوال السادات المتكررة بأنه سيبدأ الحرب اذا لم يحصل على التسوية التي يريدها · وان السادات والجيش المصري يستعدون لذلك علانية ، وذلك لاضفاء الشرعية الدوليةعلى عمل عسكري عربيضد اسرائيل ·ويضيف، بان « من المهم التأكيد للجمهور الاسرائيلي بان لدى الجيوش العربية القدرة الكاملة للبدء بعمليات عدوانية في اية لحظة ·وانه باستطاعتهم ان يفعلوا ذلك حتى خلال المحادثات معنا ، او خلال الانتظار المستمر لمحادثات جنيف » ·

وحذر شيف من الرأي القائل ، بان العرب لن يخرجوا الى الحرب الا اذا تأكدوا من فشل المحادثات ، او ضمان اشتراك الاردن او تجميع سوريا لوحداتها في لبنان ، او تأمين قطع الغيار للجيش المصري ، وان محطات الانذار الاميركية في سيناء ستمنع الحرب ، وان التمسك بهذه التبريرات يمكن ان يضللنا كما حدث قبل ١٩٧٣ · ويتوقع شيف ، ان تكون الحرب التي سيشنها العرب ، حربا محدودة ذات اهداف محددة ، حربا هدفها توجيه ضغط دولي على اسرائيل واحداث هزة داخلية فيها · وان ذلك يمكن ان يبدأ باغلاق الملاحة في البحر الاحمر وادخال قوات كبيرة الى سيناء دون اطلاق النيران ، او بالهجوم على اهداف مختارة دون تحريك القوات ، او محاولة السيطرة على مناطق معينة مثل خليج السويس وشرم الشيخ ، وكذلك الهجوم الشامل على كافة الجبهات· وان مجرد بدء المعركة ، حتى ولو لم يحققوا شيئا ودفعوا بخسائر كثيرة ،فانهم (العرب) يستطيعون ان يروا في ذلك عملية تنطوي على فرص سياسية » (هارتس ٢٥-٣-٧٧) ·

ودعا الدكتور امنون سيلع اسرائيل الى شن هجوم على الدول العربية قبل انتقوم هي بذلك ، فقال : تستطيع حكومة اسرائيل ان تقرر ، ان الوقت الحالي هو الملائـــم للقيام بهجوم وذلك لمنع العربمن انيخلقوا لانفسهم ظروفا مريحة للهجوم في المستقبل. (وعلق على موضوع وجـــود الجيـش السوري في لبنان فقال : لو كان الخيار بايدي اسرائيل فمن المؤكد انها كانـــت تفضل لبنان الصغير كما كان قبل الحـرب الاهلية ، وبالرغم من النشاط التخريبـــي المستمر على الحدود الشمالية) . (دافار ١ـ٤ـ٧٧) .

حمدان بدر

(٣)

سلطات الاحتلال الاسرائيلية ماضية في تغيير معالم القدس وتهويدها

رغم كل الاحتجاجات والقرارات الدولية التي تندد بسياسة تهويد القدس وتغيير معالمها ، ورغم كل التظاهرات الشعبية وموجات السخط التي اثارتها وتثيرها سياسة التهويد في القدس وتهجير السكان الفلسطينيين وهدم بيوتهم ، لا تزال سلطات الاحتلال الاسرائيلية ماضية في تنفيذ مخططها ، والذي شرعت في تنفيذه بعد الاحتلال مباشرة ، بتهجير اهالي حي المغاربة وهدمه ، وتحويله الى ساحة عامة امام حائط المبكى ، حيث عمدت بعد ذلك الى تهجير سكان الحي اليهودي وهدم بيوتهم الواقعة ضمن دائرة الـ ـ ١١٦ دونما ، صادرتها الحكومة في نيسان عام ١٩٦٨ بقرار من وزير الاقتصاد ، بحجة ترميم الحي اليهودي وتطويره ·

وقد هجرت سلطات الاحتلال في السنوات الاخيرة من المنطقة المصادرة « حوالي ٦٥٠٠ عربي ، ولم يبق فيها الان سوى ٢٠ ـ ٢٥ عائلة عربية فقط » (هآرتس ، ٧ـ١ـ٧٧) ·

وكان البروفيسور عوزي اورنان عضو لجنة الاديان التي تضم اعضاء من اليهود والمسيحيين والمسلمين والذي يعمل في السنوات الاخيرة ضد تهجير العائلات العربية من المنطقة المصادرة ، قد كتب الى رئيس بلدية القدس ، تيري كولاك في بداية العام ١٩٧٥ ، كتابا يقول فيه « ··· وقبل سبع سنوات ، في ابريل عام ١٩٦٨ ، نشر في مجموعة النشرات الرسمية ، اعلان وزير الاقتصاد في ذلك الوقت ، بشأن مصادرة مساحة من الاراضي الموجودة في البلدة القديمة من القدس ··· واتضح ان الذي امر بمصادرة هذه المساحة من الارض بين اسوار البلدة القديمة ، قد ضم ارضا وبيوتا لم تكن في يوم من الايام جزءا من الحي اليهودي ، ويقطنها اناس غير يهود ، ومثال على ذلك اذكر ـ حي المغاربة ـ فقط ، والذي كان ماهولا بالسكان المسلمية ، من هاجر آباء آبائهم الى القدس منذ ٦٠٠ عام تقريبا وسكنوه ··· » (هآرتس ، ٧ـ١ـ٧٧) ·

وفي سياق كتابه ، طالب البروفيسور اورنان ، بوقف تهجير العائلات ، والغاء اوامر المصادرة بالنسبة اليهم او لغيرهم ، وان تضم هذه العائلات الى قائمة اصحاب الحق في الحصول على بيت في الحي ·

الا ان طلب البروفيسور عوزي اورنان وجماعته في « لجنة الاديان » لم يحظ بأي رد حتى الآن ، بينما استمرت « لجنة ترميم وتطوير الحي اليهودي » مدعومة بقوات الشرطة ، في تهجير العائلات العربية ، سواء كان ذلك داخل الحي اليهودي ، او من المباني المجاورة له ، والواقعة خارج نطاقه ·

ففي تاريخ ٢٨ـ١٢ـ٧٦ داهم موظفوا الشركة وقوات الشرطة ، ثلاثة بيوت بالقرب من الحي اليهودي ، وشرعوا في اخراج وتهجير العائلات الثلاث التي تسكنها بالقوة ، وفي عملية بوليسية مخططة ·حيث

سارع عمال البناء التابعين للشركة الى هدم البيوت ومسحها ، في نفس الوقت الذي كانت « اللجنة لشؤون القدس » تواصل فيه مباحثاتها في عمان ، باشتراك ممثلين عن ١٢ دولة اسلامية وم٠ت٠ف ٠

وقد كتب مراسل صحيفة عل همشمار، جبريئيل شترن ، في صحيفته الصادرة في ٢٩ـ١٢ـ٧٦ ، يصف عملية التهجير بقوله « ٠٠٠ وقد وصلت حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر بيت الامين على الوقف المغربي، محمد ابراهيم عبد الحق في شارع حباد ، والذي كان يعج بعدد كبير من رجال الشرطة باللباس الرسمي والمدني، وبموظفي الشركة وغيرهم ٠ وردا على سؤال احد الضباط عما ابحث اجبت : اريد ان اتحدث مع الحق ٠ وكان جواب الضابط : هذا غير ممكن ، لانه موجود عندنا » ٠ (عل همشمار ٢٩ـ١٢ـ٧٦) ٠

واضاف جبريئيل شترن : « ٠٠٠ وتبين ان صاحب البيت كان قد اعتقل في الساعة العاشرة صباحا ، ولم يطلق سراحه الا بعد الساعة الخامسة من بعد الظهر ، بعد الانتهاء من عملية التهجير ، ولم يبق في البيت سوى زوجته والاولاد وجدة عجوز ، وبعض ابناء العائلة وجيران ذاهلين وعاجزين عن فعل اي شيء » ٠ (المصدر نفسه) ٠

وحين رفض الصحافي جبريئيل شترن الابتعاد عن المكان حسب اوامر الضابط مخرجا بطاقته الصحفية ، اعتقلته الشرطة، وابعدته بالقوة حيث راح يشاهد « تلك المسرحية الفظيعة من بعيد » (المصدر نفسه) ٠

ويستطرد الصحافي جبريئيل واصفا عملية التهجير « ٠٠٠ وقد صودر الاثاث ونقل الى مخزن الشركة المحاذي مع اثاث المهجرين الاخرين ، عمر المغربي والارملة نعمت المغربي وابنتها عائشة ٠٠٠ اما الحاجات الشخصية التي تحتوي على كتب الاولاد ولعب الاطفال ، وبعض الفواكه والغذاء ، فقد حملتها النساء والاولاد بانفسهم الى الشارع الضيق ، وعندما خيم الظلام ، راحوا يبحثون بها عن ملجأ مؤقت عند اقربائهم في البلدة القديمة » (المصدر نفسه) ٠

وكان عدد من الاسرائيليين التقدميين قد وصلوا الى المكان ، من بينهم البروفيسور عوزي اورنان ودانيال عميت ، حيث اعربوا عن شجبهم « لهذا العمل المتوحش » وعن تضامنهم مع ضحاياه ، كما كان من بين شهود العيان بعض المراقبين الاجانب من منظمات الشؤون الاجتماعية العالمية ، ممن توجهت هذه العائلات اليهم كي يقفوا الى جانبها ضد عملية التهجير ، وبعض السواح الامريكيين الذين مروا بالمكان صدفة ، فتسمروا في مكانهم مصعوقين لهذا المشهد الهمجي ، وحين شرع احدهم بتصوير ما يجري ، امر الضابط المسؤول رجاله « بمصادرة الالة المصورة وكسرها ، وهكذا حصل » (عل همشمار ٢٩ـ١٢ـ٧٦) ٠

وكان مختار حي المغاربة محمد ابراهيم عبد الحق ، قد توجه في عام ١٩٧٦ بطلب الى محكمة العدل العليا ، لاصدار قرار مع وقف التنفيذ ، ضد وزير الاقتصاد ،لتغيير قراره ، الا ان القضاة ي٠ كوهين وشرشفسكي ومريم فورات ، رفضوا النظر في هذا الطلب قبل اسبوع من عملية التهجير فقط ، بحجة انه كان على المشتكي ان « يبكر في شكواه ولا ينام على حقوقه» (عل همشمار ٢٩ـ١٢ـ٧٦) ٠

واضافت المحكمة انه « من المعروف ان تدخل المحكمة في القرار الذي اصدره وزير الاقتصاد في ابريل عام ١٩٦٨ ، حسب قانون الاراضي بالمصادرة لصالح الجمهور، هي محدودة جدا » (المصدر نفسه) ٠

وقد اثارت عملية التهجير هذه موجة من السخط والمظاهرات في القدس الشرقية والضفة الغربية ، لا سيما وانه في الوقت

نفسه الذي كانت تتم فيه عملية التهجير وهدم البيوت كانت « لجنة شؤون القدس» تواصل البحث في جدول اعمالها في عمان باشتراك ممثلين عن ١٢ دولة اسلامية و م·ت·ف ، حيث هاجم المؤتمرون هذا العمل الهمجي ·

اما على صعيد القوى التقدمية الاسرائيلية في الارض المحتلة ، فقد ابرق عضو الكنيست مئير باعيل (موكيد) ، الى وزيري الشرطة والعدل ، والى رئيس بلدية القدس طالبا اليهم ، وقف عملية تهجير العائلات الثلاث ، ذاكرا ان هذا العمل يشكل « وصمة عار في جبين دولة اسرائيل» · (عل همشمار ، ٢٩ـ١٢ـ٧٦)·

كما واصدرت مجموعة من الشخصيات التقدمية واساتذة الجامعات والكتاب والصحافيين والفنانين التقدميين ، بيانا، يندون فيه بعنف اعمال التهجير ضد العائلات العربية من البلدة القديمة ، وهدم بيوتهم ، مطالبين سلطات الاحتلال بالتخلي عن سياستها العدوانية واللا انسانية هذه·

وقد خرجت الضجة التي اعقبت هذا التهجير النطاق المحلي ، حيث غطت صحيفة « التايمز » اللندية اخبار عمليات التهجير هذه ، ونشرت رسالة عنيفة جدا موجهة الى رئاسة التحرير ، وبتوقيع عدد من رجال الدين الانجيليين البارزين في القدس ، يصفون فيها عمليات التهجير وهدم البيوت هذه بانها « اعمال لاسامية » (عل همشمار ١٠ـ١ـ٧٧) ·

وفي ٩ـ١ـ١٩٧٧ عقدت « لجنة السلام العادل بين اسرائيل والدول العربية » مؤتمرا صحفيا للعائلات الثلاث التي هجرت وغيرها من العائلات المهددة بالتهجير وهدم بيوتها ، حيث تكلم افرادها شارحين للصحافيين ما تعرضت له عائلاتهم من وحشية وظلم في مسلسل التهجير ، وكان من بين الذين تكلموا مختار حي المغاربة محمد ابراهيم عبد الحق ، شارحا كيف انه قد هجر وهدم بيته للمرة الثالثة ، اذ كانت المرة الاولى عام ١٩٤٨ حين احتلت القوات الصهيونية قريته بير ـ معين بالقرب من اللطرون ، والمرة الثانية عام ١٩٦٧ بعد احتلال القدس وتهجير وهدم معظم البيوت في حي المغاربة لاقامة ساحة امام الجدار الغربي ، وها هو يرحل ويهدم بيته للمرة الثالثة ·

اما الشيخ العجوز عبد الغفور مسواده فقال : « ··· ومنذ ان طردت من بيتي في حي الجاعوني في البلدة القديمة ، على ايدي الشرطة الاسرائيلية في شهر اب ١٩٧٢، لا يزال بيتي خاليا ، بينما تسكن عائلتي المؤلفة من ١٣ شخصا في مسجد صغير ·· انني اصر على حقي في بيتي ، وغير مستعد لقبول اية تعويضات» (عل همشمار، ١٠ـ١ـ٧٧) ·

كما وتكلم محمد سعيد بركان الذي كان من المفروض ان يتم تهجيره وهدم بيته في ٧ـ١ـ٧٧ ، الا انه استطاع بواسطة محاميه د·ن· شغر ان يؤجل ذلك لمدة عشرة أيام ، وشرح للصحافيين كيف ان الشرطة استدعته في ٦ـ١ـ٧٧ بعد اصراره على عدم اخلاء بيته وبحضور السكرتير العام للجنة الاديان يوسف عمانوئيل الذي رافقه ، وطلبت اليه مهددة ، ان « يعد بعدم اثارة المشاكل ، وان تتم عملية تهجيره بهدوء وصمت » (عل همشمار ٩ـ١٠ـ١ـ٧٧)·

اما البروفيسور ـ دانيال عميت ، ود· يسرائيل لاف ، عضوي اللجنة ، فقد نددا بنوايا التهجير الاضافية والتي خرجت عن اطار الحي اليهودي واعربا عن رأيهما في انه بغض النظر عن المسالة الانسانية والاجحاف الاجتماعي فان في ذلك « معنى سياسيا لهذا التهجير ، حيث يزيدون من حالة التوتر في المنطقة ، ويعرقلون فرص السلام التي بدأت تظهر في الافق » (المصدر نفسه) ·

كما وتوجهت جماعة اخرى من رجال المجتمع والثقافة البعيدين عن النشاطات السياسية ، برسائل الى رئيس الحكومة،

والى وزير الاسكان بالوكالة ، والى وزيري العدل والاديان ، والى رئيس بلدية القدس، يطالبونهم فيها بوقف عمليات التهجيـــر وهدم البيوت الموجهة ضد العائلات المسلمة المتبقية في اطراف الحي اليهودي فـــي القدس القديمة ، لا سيما وان المنطقـــة التي تشغلها هذه العائلات « لا تقع في اطار الحي اليهودي اصلا » (عل همشمـــار ١٧ـ١ـ٧٧) ٠

وقد رد رئيس بلدية القدس تيدي كولاك على هذه الضجة والاحتجاجات بقوله ان « عملية التهجير للعائلات العربية الثلاث من الحي اليهودي في البلدة القديمة ، قـد نفذت لان عملية البناء والتطوير كانـت مستحيلة من غير تهجيرهم ٠٠٠ ولا ينبغي النظر الى هذه القضية على انها قضيـة سياسية » (عل همشمـــار ٢٩ـ١٢ـ٧٦ ، هآرتس ٧ـ١ـ٧٧) ٠

وبعكس ما قاله رئيس البلدية تيدي كولاك فقد اجاب أحد المسؤولين الكبار في «شركة ترميم وتطوير القدس » على سؤال وجهـه اليه مراسل صحيفة هآرتس يهودا ليطاني، بأن « المسألة بسيطة جدا ، فالحي اليهودي مخصص لليهود فقط ، وقد قدمت للمهجرين العرب اقتراحات معقولة ، فاذا كانـــوا يرفضونها فهذه مشكلتهم » ٠ (هآرتـس ٧ـ١ـ٧٧) ٠

واضاف الموظف المسؤول « ٠٠٠ اسأل اي ساكن يهودي في الحي ، وسيرد عليـك بان السكن مع هؤلاء العرب ليس متعـــة كبيرة » (المصدر نفسه) ٠

اما « الشركة لترميم وتطويـــر الحـي اليهودي » فقد تابعـت عـمليات التهجيـر بالقوة مدعومة بقوات الشرطـــة ، حيث داهمت في ١٩ـ١ـ٧٧ بيت محمد سعيــد بركان ، الواقع في حوش الشاي ، بعد ان ظل مصرا على عدم اخلاء بيته وقبول اية تعويضات عنه ، وقذفت به وبوالديـــه العجوزين واخويه المتزوجين واولادهمـــا

الاثني عشر الى الشارع ، وقد غطـــى الصحافي المبامي جبريئيل شترن عمليـة التهجير هذه ، في ملحق صحيفته عـل ـ همشمار ، كشف فيه النقاب عن الاساليـب الوحشية والهمجية التي رافقتها ، وعـن سياسة التضليل والخداع واشاعة الشائعات حول المهجرين ، بانهم كانوا قـد منحـوا بيوتا غير بيوتهم او انهم تسلموا من الشركة المذكورة تعويضات عنها ٠ وجاء في تقرير شترن أن عملية التهجير « ٠٠٠ تمت هـذه المرة في الظهيرة تماما ، كفعل السارقين في الليل ، ودون شاهد عيان من الخـــارج تقريبا ، وبنفس الطريقة التي تم فيها سلب وتهجير وتهديم بيوت العائلات الثلاث من قبل ٠٠ وحتى السيدة نويمان الامريكـية ، احدى رؤساء جماعة الكويكريين فقد ابعدت عن البيت بسرعة وبفظاظة همجية ، حيـن لم تفهم ما معنى الامر الذي وجه اليهـا: انصرفي من هنا» (عل همشمار ٢١ـ١ـ٧٧)٠

واضاف الصحافي جبريئيل شترن ان « عائلة بركان لا تريد تعويضات ولا ترغب في سكن بديل حتى ولو كان هذا السكـن (الفيلا !) المقترحة عليهـــا ، او التـي (سلمت !) لها وفقا لتلك الاكاذيب التـي باعها مدير الشركة الكولونيل شنيؤر بيلغ، للسيدة الامريكية وللصحافة ٠٠ تماما كما اشاعوا حول عبد الحق الشائعات الكاذبة عن النقود التي تسلمها منهم حسب زعمهم. واذا لم ياخذ بعد ، فلا بد وانه سيأخذهـا قريبا ، واذا لم يحدث هذا ايضا ، اذن ، فانه قومي سيء ، ويعمل بدوافع سياسية» (المصدر نفسه) ٠

وهنا يتساءل الصحافي « ٠٠٠ اليس كل موضوع ترميم الحي اليهودي وتطويره نابعا من حسابات قومية وسياسية وحتى دينيـة أيضا ؟ فلماذا يجوز لنا ذلك ، مع انه يتعدى حدود الاخرين ، ومحرم على غيرنا !؟ » (المصدر نفسه) ٠

ويضيف شترن « ٠٠٠ وكان محمد عبـد

الحق وجميع افراد عائلته يقفون امـــام بيتهم في حوش الشاي ، بائسين وخالـــي الوفاض ، الا انهم كانوا فخورين وصلبين بروحهم ومعنوياتهم ·· وكان ابنه هانـــي البالغ من العمر ١١ سنة ، يتشبث بكـرة حمراء ، وهو الشيء الوحيد الذي لـــم تستولي عليه الشركة ، من بين كل الاشياء، التي وضعتها في مخازنها ، قصاصا للعائلة على رفضها التوقيع على الاوراق التـــي قدمت اليها ···

وكان هاني ينظر ويصغي للحديـث ولا يعقب · ماذا كان يدور في خلد وقلـــوب هؤلاء الاولاد والفتيات ؟ لا ادري ، ولكنني تذكرت ما قاله المربي اليهودي المعـــروف البروفيسور ع·ن· سيمون عن هذه القضية المخزية في هآرتس ٩ـ١ـ٧٧ انه حقيقة لـم يكن ثمة ضرب او جراح في الجسم ، الا انها تركت جراحا نفسية ، وخاصة عنـــد هؤلاء الاطفال من المهجرين ، وان ليسـت هذه هي الطريقة ابدا لتثقيفهم وتثقيفنـــا على علاقات حسن الجوار في المنطقــة ، وتهيئة الاجواء في قلوبنا جميعا للسلام الذي لا بد وان يأتي في المستقبل القريب ، هذا اذا كنا نرغب في الحياة فعلا ؟ » (المصدر نفسه) ·

وقد عقب جبريئيل شترن « لا بد وان نشعر كذلك ، بمدى القذارة والاجحـــاف في ادعاء الناطقين باسم الشركة ، بأن كل المشاكل جاءت من دعم بعض المؤسســات اليهودية ، ومن بعض الصحف التي تساند المهجرين ·· انها ذهنية استيطانية قديمة، تخرج من حناجر الجنرالات والكولونيلات الذين يقودون مجتمعنا · فعندما جرنـــي الشرطي بالقوة من بيت عبد الحق قبـــل هدمه ، كان لدي شعور غريب بانني اسدد دينا ، لاولئك الالمان القلائل جدا ، ممـــن تجرؤا على تخطي يافطات المقاطعة ، التي علقها النازيون على باب متجر والـــدي في البلدة الالمانية في ١ـ٤ـ١٩٣٣ ··· انها مقارنة جارحة ؟ نعم جارحة ، ولكننا اذا لم نثبت الان القليل من الجرأة الادبية المطلوبة في مجتمعنا الديموقراطي في اصله، فلا بد وان نصل الى ظواهر اكثر تجريحا» (المصدر نفسه) ·

وقد انهى جبريئيل شترن تقريره الصحفي مدافعا عن ملكية العرب في الحي اليهودي، ومفندا ادعاءات سلطات الاحتلال ،والشركة لترميم وتطوير الحي اليهودي ، بملكيـــة اليهود فيه تحت عنوان : الحي ــ ليس غيتو قائلا ، « الموضوع يتعلق بممتلكات عربيـــة منذ القدم ، والحقيقة ان قسما كبيرا ، بل الجزء الاكبر من البيوت في الحي اليهودي، كان ملكا لعائلات اسلامية عريقة ، الا انه كان لبعض اليهود حقا في مساكن داخـل هذه البيوت الكبيرة ، علاقات اشبه مـــا تكون بالعلاقات الاقطاعية ، اذ ان العائلات الاسلامية منحت اولئك اليهود الذين كانوا يعيشون بينهم حمايتها ، ودافعت عنهم لدى السلطات التركية ··· ولم يكن الحـــي اليهودي كما يدعون غيتو مغلقا في حينه، او كما يبغي له مرمموه الان ان يكون ·بل كان العرب واليهود يعيشون في اطار جوار متداخل في الحي ، كما كانوا يعيشون في اماكن متفرقة بين العرب من القدس الشرقية والقدس الغربية على السواء » · (عـــل همشمار ــ ملحق ٢١ـ١ـ٧٧) ·

توفيق فياض

جدول بالعمليات العسكرية لقوات

الرقم	تاريخ العملية اليوم	تاريخ العملية الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل
١	١/١٣	١ر٣٠	قبعات مريخاي ـ القدس	هجـوم	سكين
٢	١/١٣	١٥ر٠٠	شارع بن يهودا ـ تل ابيب	تفجير	عبوات حارقة موقوتة
٣	١/٢٣	١٨ر١٥	رامات جان	تفجير	عبوات ناسفة
٤	١/٢٠	٧ر٠٠	نابلس	اطلاق صاروخ	كاتيوشا
٥	٢/ ٧	١٨ر٠٠	تل ابيب ـ مصنع تجميع اجهـزة الاتصالات التابع للجيش	تفجير	عبوات ناسفة مشركة
٦	٢/١١	٧ر٤٥	« مفرائس » شمالي مدينة حيفا	تفجير	عبوات حارقة موقوتة
٧	٢/١٢	١٨ر٤٥	القدس ـ محطة الباصات المجاورة لمتحف روكفلر	القاء قنبلة على سيارة عسكرية	قنبلة حارقة
٨	٢/١٢	٢٠ر٥	بئر السبع ـ الطابق الاول لمنـزل ضابط مؤلف من ثلاثة طوابق	تفجير	عبوات ناسفة شديدة الانفجار
٩	٢/١٤	١٤ر٤٥	الخليل ـ محل تجاري صهيونـي حول الحرم الابراهيمي الشريف	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة
١٠	٢/١٤	٩ر١٥	تل ابيب ـ مصنـع « تيمهار » للزيوت	تفجير	عبوات ناسفة حارقة
١١	٢/٢٢	١٥ر٠٠	كريات برنتساك ـ جنوب حيفا ـ منزل احد ضباط المخابرات لجيش العدو	تفجير	عبوات ناسفة حارقة
١٢	٢/٢٣	١٣ر٠٠	الطريق بين مستوطنـة نـوت هكيكار والبحر الميت .	تفجير	الغام مزروعة

الثورة الفلسطينية من ١/١ - ١٩٧٧/٣/٣١

خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر البلاغ العسكري: رقم	المصدر البلاغ العسكري: تاريخ
-	١	الاستيلاء على سلاح فردي	-	-	-	٧٧/ ١	١/١٤
-	غير محدد	١ ـ احراق فندق ديبورا والمكون من ١٣ طابقا .	-	-	-	٧٧/ ٢	١/٢٤
-	٢	١ ـ تدمير سيارة لضابط صهيوني ٢ ـ اصابة عدد من السيارات ٣ ـ تحطيم معظم زجاج الابنية	-	-	-	٧٧/ ٣	١/٢٤
-	غير محدد	١ ـ اصابة دائرة الحاكم العسكري باضرار . ٢ ـ تحطم عدد كبير من السيارات	-	-	-	٧٧/ ٤	١/٣١
-	غير محدد	١ ـ تدمير جميع محتويات المستودع . ٢ ـ تصدع احد جدران المستودع ٣ ـ تحطم معظم زجاج المصنع	-	-	-	٧٧/ ٥	٢/ ٩
غير محدد	غير محدد	١ ـ تدمير واحراق مصنع البتروكيماويات الرئيسي ٢ ـ احراق المواد البتروكيماوية ٣ ـ خسائر بملايين الليرات .	-	-	-	٧٧/ ٦	٢/١٤
-	غير محدد	اندلاع النار داخل السيارة	-	-	-	٧٧/ ٧	٢/١٤
غير محدد	غير محدد	١ ـ تدمير معظم محتويات الطابق الاول ٢ ـ اصابة عدد من السيارات المتواجدة داخل المبنى	-	-	-	٧٧/ ٨	٢/١٤
-	غير محدد	١ ـ تدمير معظم محتويات المحل واتلافها ٢ ـ تحطيم زجاج وبعض اثاث المحلات المجاورة .	-	-	-	٧٧/ ٩	٢/١٥
-	-	١ ـ خسائر اولية بمقدار عشرة ملايين ليرة ٢ ـ اندلاع النيران داخل الاهداف المحددة وامتدادها الى الاقسام الاخرى في المصنع .	-	-	-	٧٧/١٠	٢/١٥
-	-	١ ـ اندلاع النار في انحاء المنزل. ٢ ـ تصدع احد الجدران من شدة الانفجار ٣ ـ اصابة سيارة قرب المنزل	-	-	-	٧٧/١١	٢/٢٣
٣	غير محدد	انفجار في سيارتين	-	-	-	٧٧/١٢	٢/٢٤

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل
١٣	٢/٢٥	٨ر١٥	نابلس ـ شارع فيصل	هجـوم	قنابل يدوية
١٤	٢/٢٥	٦ر٤٥	نابلس ـ مكتب العمل الصهيوني	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة
١٥	٢/٢٢	٢١ر٠٠	حيفا ـ احـد المحـلات التجاريـة الصهيونية	تفجير	عبوات ناسفة
١٦	٢/٢٣	١٩ر١٥	تل ابيب ـ مبنى البلدية	تفجير	عبوات مشركة
١٧	٢/٢٧	١ر١٥	بتاح تكفا ـ مقهى هيبل ـ شارع الهستدروت	تفجير	عبوات ناسفة
١٨	٢/٢٨	٧ر١٥	جنوب النقب ـ الطريق الترابـي الواصل بين فيتسانا وراس الرمان	تفجير	الغام مضادة للاليات
١٩	٣/ ١	٨ر١٥	الطريق من ديمونا الى القدس	تفجير	عبوات ناسفة مشركة
٢٠	٣/ ٢	١٨ر٤٥	القدس ـ تجمع لجنود العدو فـي محطة باصات « ايجـد »	هجـوم	قنبلة يدوية
٢١	٣/ ٢	١٩ر١٥	رامات جان ـ محطة الباصـات المركزية لشركة دان	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة
٢٢	٣/ ٢	٢١ر٢٥	تل ابيب ـ النادي الليلي الصهيوني شارع برتسمن	تفجير	عبوات ناسفة حارقة
٢٣	٣/ ٣	١٠ر٢٥	بتاح تكفا	تفجير	عبوة لاصقةفي سيارة جيب
٢٤	٣/ ٦	١٧ر٠٠	معسكر جيش العدو الواقع جنـوب مدينة العريش ومحطـة الباصات الخاصة بالجنود في المدينة	تفجير	لغم ارضي للاليات
٢٥	٣/ ٧	١٣ر٠٠	نابلس ـ الشارع الرئيسي	هجـوم	قنابل يدوية
٢٦	٣/١٠	١٩ر٠٠	القدس ـ تجمع لجنود العدو فـي محطة باصات « ايجد »	هجـوم	قنابل يدوية
٢٧	٣/١٢	١ر٣٠	تل ابيب ـ مصنع صناعة الذخيـرة التابعـة لجيش العـدو .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة
٢٨	٣/١٣	١٩ر٣٠	نابلس ـ شارع فيصل	هجـوم	قنابل يدوية
٢٩	٣/١٨	١٧ر٠٠	القدس ـ متحف روكفلر	هجـوم	قنابل يدوية
٣٠	٣/٢٥	٢٠ر١٥	تل ابيب ـ مركز الشرطة الصهيوني	تفجير	عبوات حارقة موقوتة
٣١	٣/٢٥	١٧ر٣٠	تل ابيب ـ شارع هيئل	تفجير	عبوات حارقة موقوتة
٣٢	٣/٢٦	١٤ر١٥	نابلس ـ الساحة الرئيسية	تفجير	عبوات ناسفة حارقة
٣٣	٣/٢١	٢ر٠٠	تل ابيب ـ منزل احد ضباط جيش العـدو	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة

خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر البلاغ العسكري رقم	تاريخ
غير محدد	غير محدد	ـ تدمير سيارة وقتل وجرح	ـ	ـ	ـ	٧٧/١٣	٢/٢٧
ـ	١	جميع من فيها من جنود العدو .	ـ	ـ	ـ	٧٧/١٤	٢/٢٧
ـ	ـ	ـ تدمير مكتب العمل الصهيوني واتلاف محتوياته . ١ ـ اصابة المحل باضرار بالغة ٢ ـ اتلاف معظم محتوياته ٣ ـ تحطم واجهات بعض المحلات	ـ	ـ	ـ	٧٧/١٥	٢/٢٨
ـ	ـ	ـ ـ ـ	ـ	ـ	ـ	٧٧/١٦	٢/٢٨
غير محدد	غير محدد	اصابة المقهى باضرار				٧٧/١٧	٢/٢٨
٢	١	انفجار سيارة عسكرية تحمل العقيد يوسي يافي وسائقه وقد قتل يافي وسائقه كما جرح معاونه .	ـ	ـ	ـ	٧٧/١٨	٣/ ١
ـ	ـ	انفجار باص وتدمير جزء كبير منه	ـ	ـ	ـ	٧٧/١٩	٣/١
غير محدد	غير محدد	ـ	ـ	ـ	ـ	٧٧/٢٠	٣/ ٤
ـ	ـ	١ ـ انفجار باص واشتعال النار داخله وتدميره كاملا . ٢ ـ تضررت عدة باصات مجاورة .	ـ	ـ	ـ	٧٧/٢١	٣/ ٤
غير محدد	غير محدد	١ ـ اندلاع النار داخل المبنى في النادي . ٢ ـ تقدر خسائر العدو بانها كبيرة جدا .	ـ	ـ	ـ	٧٧/٢٢	٣/ ٤
٢	ـ	تفجير السيارة وتدمير جزء كبير منها	ـ	ـ	ـ	٧٧/٢٣	٣/ ٥
غير محدد	غير محدد	تدمير السيارة تدميرا كاملا	ـ	ـ	ـ	٧٧/٢٤	٣/ ٨
غير محدد	غير محدد	اصابة سيارة باضرار بالغة	ـ	ـ	ـ	٧٧/٢٥	٣/ ٨
غير محدد	غير محدد	ـ ـ ـ	ـ	ـ	ـ	٧٧/٢٦	٣/١١
غير محدد	غير محدد	تدمير جزء كبير من المصنع واتلاف عدد من الالات لصنع الذخائر .	ـ	ـ	ـ	٧٧/٢٧	٣/١٣
غير محدد	غير محدد	اصابة سيارة وتدميرها وقتل وجرح جميع من فيها من افراد العدو .	ـ	ـ	ـ	٧٧/٢٨	٣/١٤
غير محدد	٤	اصابة سيارة عسكرية .	ـ	ـ	ـ	٧٧/٢٩	٣/١٩
غير محدد	غير محدد	اندلاع النيران داخل المركز .	ـ	ـ	ـ	٧٧/٣٠	٣/٢٦
١	ـ	١ ـ تدمير السيارة واحراقها . ٢ ـ اصابة السيارات المجاورة باضرار .	ـ	ـ	ـ	٧٧/٣١	٣/٢٦
ـ	ـ	تدمير السيارة تدميرا تاما واحراقها	ـ	ـ	ـ	٧٧/٣٢	٣/٢٧
ـ	ـ	١ ـ اصابة المبنى باضرار بالغة ٢ ـ تحطيم محتويات الدور الاول . ٣ ـ تحطم زجاج الابنية المجاورة لمكان الانفجار .	ـ	ـ	ـ	٧٧/٣٣	٣/٣١

جدول بالتوزيع الجغرافي للعمليات (من ١ـ١ ـ ٣١ـ٣ـ١٩٧٧)

المواقع	عدد العمليات	المواقع	عدد العمليات
تل ابيب	٩	القدس	٦
رامات جان	٢	الخليل	١
بتاح تكفا	٢	نابلس	٦
مفراتس ـ شمالي حيفا	١	البحر الميت	١
كريات برتساك ـ جنوبي	١	بئر السبع	١
حيفا		العريش	١
حيفا	١	جنوب النقب	١

جدول بعدد العمليات والسلاح المستخدم (من ١/١ ـ ١٩٧٧/٣/٣١)

الشهر	عدد العمليات	عبوات حارقة	عبوات ناسفة	عبوات مشركة	صواريخ	الغام	قنابل	اسلحة فردية	عبوة لاصقة
كانون ثاني	٤	١	١		١			١	
شباط	١٤	٣	٥	٢		٢	٢		
اذار	١٥	٤	٣	١		١	٥		١

مروان حميد

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Mahmoud Darwish; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria LL 50, other Arab countries LL 60 or equivalent, Africa and Europe LL 80, elsewhere LL 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World LL 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351261; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق
٨ دراهم في دولة الامارات العربية
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٣٥٠ درهما في ج.ع.ل.

شؤون فلسطينية

٦٧ حزيران (يونيو) ١٩٧٧



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : **محمود درويش**

سكرتير التحرير : **الياس خوري**

رقم ٦٧ **حزيران (يونيو) ١٩٧٧**

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ؛ راس بيروت ، بيروت — لبنان ؛ ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

مدير التوزيع : **غازي دانيال**

ثمن العدد : ٢ ١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٢ ١/٢ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الأقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة
سيتا. مونوكيان

المحتويات

لا شيء يثير الدهشة

☐ جاء حزيران العاشر · الشهر الذي كادت ارادة القتال العربية تحوله الى ذكرى ، يشهر الان وجهه القديم · يمد لسانه الاسود ساخرا من اللحظة العربية الراثجة · يشعل الضوء الاحمر · يتشبث بالوطن الفلسطيني كله وباطراف من الارض العربية · ويعلن : لن ارحل عن هذا الزمان ·

لا شيء يثير الدهشة ·

ولكن كل شيء يدعو الى اليقظة ·

لقد اختار الاسرائيليون مصيرهم · اختاروا زنزانة العمر · وقرروا المضي في الدائرة الضيقة ذاتها : لن يرفعوا رؤوسهم عن حائط المبكى · تلك مأساتهم ؟ صحيح · ولكنها تحدينا الكبير ، يتجدد ويعاند ·

مساديون ·· يائسون · لهم حرية واحدة : اختيار الطريقة التي تضمن لهم الوصول الى الانتحار · ولكنهم ليسوا حائرين · احتاروا مرة واحدة ، حين ذهب العرب الى تشرين فهزوا اعمدة الهيكل ، وسموا مسادة باسمها · وعندما فرط العرب بمقدمات النصر ، بشكل فذ ، وجلسوا في انتظار الغيرة الامريكية على الحق العربي ، وفي انتظار التحولات الاسرائيلية ، خرج الاسرائيليون من حيرتهم ، وازدادوا تعلقا بروح حزيران ·

من المفيد ان نتريث قليلا في ترسيخ الانطباع الاول الذي تقدمه لنا نتائج الانتخابات الاسرائيلية التي اتخذ انتظارها – على الرصيف العربي – طابع تحديد المصير ، دون ان يخجل الكثيرون من المنتظرين العرب مما يحمله هذا الانتظار « الديمقراطي » من ايحاءات تحرجهم ، وايحاءات تعلق على التجمع المعادي آمال الاختيار السلمي المتحرر من الباب التاريخي المسدود ·

من المفيد ان نتريث ولكن من المفيد ان نعرف ان حزب العمل الاسرائيلي لم يسقط وحده في الانتخابات · بل سقطت معه ، وقبله ، طريقة العمل التي انتهجها بعض المسؤولين العرب في ادارة الصراع ، والتي جندت الطاقات والوقت لشن حرب السلام على حزب العمل ، ولمحاصرة قلعة الاغتصاب الصهيوني بالتسامح والتنازلات من ناحية · وشنت الحرب المسلحة على الجياع العرب حينما طالبوا برغيف خبز وحذاء من ناحية اخرى · وهكذا ·· هكذا اشتركوا في اعادة الروح الى حزيران ·

☐ نجمع الان على القول ان انقلابا قد وقع داخل السلطة الاسرائيلية فعلا · ولكن لا يقول الكثيرون منا ان هذا الانقلاب قد سبقه ، ومهد له موضوعيا ، هـــذا الانقلاب الكبير الذي وقع داخل العلاقات العربية ، على مستوى المسألة الاجتماعية وعلى مستوى المسألة الوطنية ، جعل الاسرائيليين اكثر اندفاعا نحو التطرف لانه جعلهم اكثر استهتارا بقدرة هذا الخط العربي السائد على تهديد امنهم ، ودفعهم الى منطقة المأزق الذي لا خروج منه الا بالرضوخ لبعض المطالب العربية ·

لا شيء يثير الدهشة

فالانقلاب الاسرائيلي الداخلي ما زال بعيدا عن ان يحدث تحولا على المستوى الخارجي ، على مستوى قانون الحرب او السلم ، وعلى مستوى طبيعة الدور الذي تؤديه الدولة الصهيونية في منطقة الشرق الاوسط · وان كانت الاجتهادات القائمة على فهم تركيب عقلية ليكود ، وعلى قابلية بعض العرب للتنازل مما يوقظ شهية المزيد من التصلب ، تستنتج ان التحديات التي يطرحها الانقلاب الاسرائيلي الداخلي على العرب ستزداد عنفا ، وستقتضي من العرب التراجع عن الانقلاب الذي وقع في عقليتهم وفي طريقة ادارتهم للصراع ·

ان تعثر « مسيرة التسوية » الذي يفجع البعض ليس ناشئا عـــن تغير الادارة الاسرائيلية ، كما ستعلن واشنطن لزائريها بأسف ، فالادارة السابقة هي التي خلقت حقائق العدوان طيلة ثلاثين عاما ، وهي التي رفضت التعامل مع الحد الادنى من شروط السلم العربي : الانسحاب والدولة الفلسطينية · ان وضوح لغة ليكود ستكون انعكاسا واقعيا لوضوح الامر الواقع الذي بناه السلاح الاسرائيلي ، بقيادة العمل ، على الارض العربية · وسيقال كلام كثير ، واقعي وخيالي ، عن دور الولايات المتحدة في صياغة الانقلاب الاسرائيلي الداخلي · وسيكون الانسياق وراء تفاصيل مثل هذه الاسئلة ضياعا للوقت · لان المسألة الاكثر وضوحا وجوهرية هي ان التلاحم الاميركي ـ الاسرائيلي هو الذي يحدد حجم اسرائيل في تحولاتهـــا التدريجية من « دولة عادية » الى « دولة كبرى » ، ومن حارسة نفط الى مانعـــة صواعق في الشرق الاوسط ·

فهل سيجد الجالسون على محطة القطار الاميركي الذي سياتي بالسلام ويعود بالنفط والسكينة ذريعة جديدة لاعفاء اميركا من مسؤولية استمرار اسرائيل في مواقعها ومواقفها وفي ذهابها نحو المزيد من التصلب ؟

ان السؤال كله مطروح على العرب ويمكن صياغته بطريقة اكثر ايجازا : هل

النفط للعرب ام ان العرب للنفط ؟ ان تحديد طبيعة هذه العلاقة بين العرب وبين مصادر قوتهم هو الذي يحدد ، فيما يحدد ، قدرتهم على فرض شروطهم ·

وعاد حزيران · الصقور تحتل الافق · وتشرين ينزلق من اليد العربية · وموجة البرد التي اجتاحت واشنطن في الشتاء الماضي قد تنسي صاحب الابتسامة المدروسة جيدا في البيت الابيض وعودا كثيرة قدمها لزائريه · وماذا بعد ؟ عاد حزيران · ونسي الاسرائيليون ، قليلا او كثيرا ، عبرة تشرين بعدما اسقطوا في اواخر الربيع القيادة المسؤولة عن انتهاك حرمة يوم الغفران وخرافة الامن الابدي، والمسؤولة عن ارتفاع سعر الخبز والحليب والسرقة وضياع القيم · واختاروا اعلانا اوضح عن حقيقة مطالبهم · ان بطاقة بيغن الشخصية تعبير مكثف عن سجل تاريخ الارهاب الصهيوني على ارض فلسطين « انا احارب،اذن انا موجود »·

الاسرائيليون الان في اوج الرفض الناتج عن وعيهم ، الباطني والعلني ، لدور هذا الخط في تاسيس كيانهم ، والناتج عن مازق الخيارات ، والمعبر عن عجزهم عن التكيف مع احتمالات ·· مجرد احتمالات انذرتهم بان للوجود البشري مكونات اخرى غير العنف والعنصرية والعزلة · لم يعتادوا التفكير بمثل هذا الاختيار · لم يلامسوا مثل هذا الحلم ! فهل يستطيع الحزب الحاكم ان ينقذهم من هذا العناد الانتحاري ومن هذا الحصار التاريخي الناشيء من الذات ومن الخارج ؟ ان الاجابة عن هذه الاسئلة لا تاتي من قرار بيغن ، او سلفه وخلفه ، بل تاتي من القرار العربي ، من الرد العربي ·

جاء حزيران العاشر · يرفع المواطن العربي سؤاله عن حريته وعن وطنه : هل يستطيع حزيران الاسرائيلي ان ينتصر مرة اخرى ؟ · والاجابة عن هذا السؤال لا تاتي من بيغن ، او سلفه وخلفه ، بل تاتي من القرار العربي ، من الرد العربي ·

جاء حزيران العاشر · الذاكرة الان طازجة ومثقلة بالرمال التي التهمت جيلا صاغه الوعد · احترق وهو يشهر الحلم الخصب في وجه المستقبل · ما اصعب – وما اجمل – ان نتذكر الإمتلاء بالحماسة وتناسل البدايات · خرجنا من الهزيمة لنذهب توا الى صياغة النصر بالثورة · الفداء الفلسطيني يتقدم الجنازات لتتحول الى اعراس ، ويعيد الروح الى الفارس · وعلى امتداد الوطن العربي تصيح الحناجر والجراح : كلا ·

وفي حزيران العاشر ، ندرك من جديد ان مازق العدو ابدي · وان مازقنا لحظة زائلة ·

محمود درويش

نتائج الانتخابات الاسرائيلية : المأزق والتحدّي

صبري جريس

اسفرت الانتخابات للكنيست التاسع ، التي جرت في اسرائيل يوم ١٧ ايار (مايو) ١٩٧٧ ،عن مفاجأة غير متوقعة ـ حتى من قبل معظم رؤساء الاحزاب المشتركة فيها ، او المشرفين على ادارة حملاتها الانتخابية ـ اذ رفعت التكتل اليميني (ليكود) الى مرتبة الحزب الاول داخل النظام الاسرائيلي ، بعد ان فاز بـ ٤٣ (من ١٢٠) مقعدا ، وذلك لاول مرة منذ قيام اسرائيل سنة ١٩٤٨ · وفي الوقت نفسه ، دفعت نتائج الانتخابات هذا التجمع العمالي الى مقاعد المعارضة، وذلك لاول مرة ايضا منذ سنة ١٩٣٥ ، عندما استطاع العمال ، في المؤتمر الصهيوني التاسع عشر المنعقد يومذاك ، السيطرة على المنظمة الصهيونية العالمية ، وانتخب دافيد بن ـ غوريون رئيسا للوكالة اليهودية ، وهي مركز القوة الصهيوني الرئيسي انذاك · وبقي العمال يتمتعون بمركز الصدارة هذا ، داخل النظام الصهيوني ، منذ ذلك اليوم ـ بصورة او باخرى ـ الى ان هزموا في الانتخابات الاخيرة ·

ان نظرة سريعة الى نتائج الانتخابات تظهر بوضوح استمرار تصاعد المد اليميني داخل اسرائيل ، وان تم ذلك ضمن حدود معينة · وهذا الاتجاه نحو اليمين ، على كل حال ، ليس مفاجئا ولا جديدا ، اذ ان زعماء الجناح العمالي الصهيوني قد شعروا به منذ منتصف الستينات على الاقل · وقد كان ذلك واحدا من الاسباب الرئيسية التي دفعت حزبي مباي واحدوت هعفوداه ، في حينه ، الى اقامة « تجمع » (معراخ) فيما بينهما ، لخوض انتخابات سنة

١٩٦٥ بقائمة موحدة ، مما دفع حزبي حيروت والاحرار ، في مقابل ذلك ، الى اقامة تحالف انتخابي مضاد ، اطلقوا عليه اسم غاحال · ومنذ ذلك الوقت لا يزال هذان المعسكران القوتين الحزبيتين الرئيسيتين داخل النظام الاسرائيلي، خصوصا بعد ان راح كل منهما يعمل على تدعيم قوته وتوسيع صفوفه ، من خلال محاولة جذب فئات اخرى قريبة منه ، نظريا او عمليا ، وحملها على الالتحاق به · وكان من ابرز التطورات التي حدثت على هذا الصعيد ، اندماج حزبي مباي واحدوت هعفوداه مع جزء من رافي (التي كانت قد انشقت عن مباي ، سنة ١٩٦٥ ، بزعامة بن ـ غوريون) في اطار حزب العمل الاسرائيلي، سنة ١٩٦٨ ، الذي اقام بدوره تحالفا انتخابيا (تجمعا) جديدا مع حزب العمال الموحد ، مبام · اما غاحال فقد حافظ على التحالف بين شطريه الرئيسيين ، حيروت والاحرار ، ثم استطاع جذب عدد من الفئات الاستيطانية التوسعية ، التي ظهرت في اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ ، واقام تكتل ليكود · كما وقعت في الوقت نفسه ، على كل حال ، انشقاقات داخل المعسكرين الكبيرين ، وان تم ذلك على نطاق ضيق ·

ولا بد من الاشارة هنا الى انه على الرغم مما يظهر من ازدياد في قوة اليمين في اسرائيل ، من الخطأ الاعتقاد ان هذه الزيادة كبيرة بالمدى الذي تبدو فيه كأنها كذلك · فنتائج الانتخابات لا تدل ، عمليا ، على زيادة كبيرة وحقيقية في قوة ليكود ، بقدر ما تدل على هزيمة منكرة لحقت بحزب العمل · فلقد حصل ليكود على ٤٣ مقعدا في الانتخابات الحالية ، بدلا من ٣٩ في الانتخابات السابقة ، التي جرت في اواخر سنة ١٩٧٣ ، اي بزيادة اربعة مقاعد فقط (من بين ١٢٠) ، وهذه ليست زيادة جوهرية · ولكن في مقابل ذلك انخفض عدد مقاعد التجمع العمالي بـ ١٩ مقعدا ، من ٥١ في الانتخابات السابقة الى ٣٢ حاليا ـ وهذا هو مغزى الانتخابات الرئيسي ـ مما جعل ليكود الحزب الاول ، من حيث عدد المقاعد التي حاز عليها · اما المقاعد التي خسرها التجمع العمالي فقد كانت ، باكثريتها ، من نصيب الحركة الديموقراطية للتغيير ، بزعامة الجنرال ـ البروفيسور يغئال يادين ، وهي حركة جديدة حصلت على ١٥ مقعدا · والحركة الديموقراطية للتغيير هي عبارة عن حزب اصلاحي ، يطالب بتغيير الجهاز الحكومي في اسرائيل ، وكذلك تغيير طريقة الانتخابات بهدف القضاء على الاحزاب الصغيرة ، ويمكن النظر اليها كأنها نوع من احزاب المركز ، تقف في الوسط بين حزب العمل من ناحية وليكود من ناحية اخرى · اما بالنسبة لموقفها من التسوية السياسية لازمة المنطقة ، فان الحركة تقر « مبدأ » التنازل الاقليمي ، ويبدو انها تقبل ، بشكل او بآخر ، بمشروع الون ، مع تعديلات طفيفة ·

واستنادا الى طبيعة تكوين الحركة الديموقراطية للتغيير وطلباتها على صعيد

القضايا الداخلية من ناحية ، ثم الى انتقال عدد كبير من الاصوات التي كان حزب العمل يحصل عليها الى الحركة من ناحية ثانية ، يمكننا ان نستنتج ان نجاح هذه الجماعة في الانتخابات كان ، عمليا ، عبارة عن عقوبة فرضها الناخب الاسرائيلي على حزب العمل · ولا شك ان الكثيرين من الاسرائيليين قد ضاقوا ذرعا ، تدريجيا ، بهذا الحزب ، ولم يكن لديهم مانع من استبداله ، وما ان وجدوا امامهم امكانية لذلك حتى استغلوها · اما الاسباب التي ادت الى فقدان حزب العمل لرونقه فهي كثيرة ، وكانت قد تراكمت مع مرور الزمن · فهناك اولا عامل فقدان الحزب لمعظم قياداته التاريخية ، ابتداء من شاريت ، مرورا ببن – غوريون واشكول ، وانتهاء بمئير وحلول مجموعة من « الصبية » محلهم ، من امثال رابين وبيريس والون · ثم هناك التعفن الذي طرأ على اجهزة الحزب ، اثر سيطرته على الحركة الصهيونية العالمية ثم اسرائيل لمدة تزيد على ٤٠ سنة ، دون انقطاع ، مما ادى الى تورط عدد من زعمائه البارزين او المحسوبين عليه في فضائح مالية عديدة · وهناك ايضا الاتجاه الذي قوي داخل الحزب ، تدريجيا ، ودفعه عمليا نحو انتهاج سياسة يمينية متصلبة – وان اصر على اعتبار نفسه دائما حزبا « عماليا » – مما دفع بالعديدين ، في نهاية الامر ، الى تفضيل حزب يميني « أصيل » على يمينيين هواة · ولا شك كذلك ان المشاكل الداخلية الاسرائيلية ، الاقتصادية والاجتماعية ، التي تفاقمت بعد حرب تشرين – وكان الحزب قد حمل مسؤولية «التقصير» الاسرائيلي فيها ، الى حد كبير – والتي لم يستطع ان يجد حلولا ناجعة لها ، ساهمت أيضا في افول نجمه ، ودفع اعداد لا بأس بها من الناخبين الى « معاقبته » · ويبدو ان اتجاه عدد من الناخبين الاسرائيليين الى « معاقبة » المسؤولين الحاكمين لم يقتصر على حزب العمل وحده ، اذ ان حزب الاحرار المستقلين ، الذي تصرف منذ نشوئه بمثابة تابع لحزب العمل ، لقي المصير نفسه ، اذ انخفض عدد مقاعده من ٤ في الكنيست السابق الى مقعد واحد في الكنيست الحالي · كما حظيت قائمة حقوق المواطن ، بزعامة شولاميت الدني ، التي دخلت الانتخابات السابقة على اساس برنامج اصلاحي ثم غرقت في « الحرتقات » الحزبية ، بالمعاملة ذاتها ، اذ انخفض عدد مقاعدها من ٣ سابقا الى مقعد واحد حاليا · كما اصاب القائمة العربية الموحدة ، التي تضم « عرب الحكومة » (سابقا) والمرتبطة بحزب العمل ، ما اصاب الحزب نفسه ، فانخفض عدد مقاعدها من ٣ في الكنيست السابق الى مقعد واحد في الكنيست الحالي ·

اما بالنسبة للاحزاب الاخرى التي اشتركت في الانتخابات ، فقد ارتفع عدد مقاعد الحزب الديني القومي (مفدال) من ١٠ الى ١٢ مقعدا ، بينما حافظت اغودات يسرائيل وعمال اغودات يسرائيل على قوتهما (٥ مقاعد) ، اي ان تمثيل المعسكر المتدين ارتفع ،في نهاية الامر ،من ١٥ مقعدا سابقا الى ١٧ حاليا ·

اما راكاح وحلفاؤها فقد حصلوا على ٥ مقاعد (بدلا من ٤ سابقا) ، وكان من المتوقع ان يكون نصيبهم نحو ٧ـ٨ مقاعد • ويبدو ان لقاء راكاح العلني مع ممثلين عن منظمة التحرير الفلسطينية في براغ مؤخرا لم ينفعها كثيرا بين العرب ، الذين كانت اكثرية اصواتهم مؤمنة لها اساسا ، بقدر ما سبب لها الضرر بين اليهود • كما حصلت حركة السلام والمساواة (شلي) التي يتزعمها الياف ، والتي « تاجرت » هي الاخرى بلقاءات عقدتها مع ممثلين عن منظمة التحرير الفلسطينية ، على مقعدين بدلا من مقعد واحد سابقا • وحصلت قائمة الجنرال اريتيل شارون على مقعدين ايضا ، كما حصل شارون اخر ـ وهو يهودي فرنسي تطلب بلاده تسليمه اليها بتهمة التهرب من دفع الضرائب ـ على مقعدين كذلك ، رغم انه هو المرشح الوحيد ، مما قد يؤدي الى منح المقعد الثاني الى ليكود او حزب العمل ، بناء على نسبة فائض الاصوات التي ستكون لكل منهما (نتائج الانتخابات هذه مؤقتة ، وقد تتغير عند احصاء الاصوات كاملا) •

ان توزيع مقاعد الكنيست الحالي ، الذي اشرنا اليه ، بحسب الانتماءات الحزبية والكتلوية يضعنا امام خريطة سياسية اسرائيلية جديدة للغاية ، لم نعهدها من قبل ، بل انه لم تكن هناك حتى اية امكانية لرسمها • والجديد .والمهم في هذه الخريطة ، هو ان تكتل ليكود اليميني يستطيع ـ لاول مرة في تاريخ اسرائيل ـ ان يشكل حكومة اسرائيلية برئاسته • وتظهر نظرة سريعة الى نتائج الانتخابات ان ليكود يستطيع ، دون صعوبات كبيرة ، اقامة مثل هذه الحكومة بالتحالف مع المتدينين ، بكافة فئاتهم ، و «الشارونين» الاسرائيلي والفرنسي ، والتي ستتمتع عندئذ بتأييد اكثر من نصف اعضاء الكنيست (٦١ـ ٦٢ نائبا) ، اذ ليس هناك خلافات جوهرية ، على صعيدي السياسة الخارجية او الداخلية ، تمنع هذه الفئات من التحالف فيما بينها • وفي مثل هذه الحالة ، يمكن دفع كل من حزب العمل والقائمة الديموقراطية للتغيير الى صفوف المعارضة والاستغناء عن خدماتهما • وكان حزب العمل قد حكم اسرائيل ، بعد انتخابات سنة ١٩٧٣ ، لمدة بضعة اشهر ، بواسطة حكومة تتمتع باكثرية ٦١ صوتا فقط• ومثل هذا التطور على صعيد تغيير نظام الحكم الاسرائيلي يطرح ، بالطبع ، اسئلة مهمة ، منها ـ وليس كلها ، كما هو مفهوم ـ ما هو تأثير تشكيل حكومة ليكودية على مساعي التسوية السلمية في المنطقة حاليا من ناحية ، والصراع العربي ـ الاسرائيلي مستقبلا من ناحية ثانية ، ثم ما هو تأثيرهما على الاوضاع الاسرائيلية الداخلية والمجتمع الصهيوني ونقاط ضعفه وقوته او ، بلغة اخرى ، ما هوتأثيرها على مستقبل اسرائيل ؟

ليس من السهل ، بالطبع ، تقديم اجوبة واضحة وقاطعة على هذه الاسئلة او اي منها ، اذ ان المعطيات المتوفرة لدينا لا تسمح لنا الا بمحاولة تقديم مسودات

اجوبة · فبالنسبة للسؤال الاول ، يمكننا ان نقول ـ بشيء من الحذر ـ انه لا يتوقع ان تطرأ تغييرات جوهرية على مساعي التسوية السلمية لازمة الشرق الاوسط ، نتيجة للتغيير في تشكيل الحكومة الاسرائيلية فقط · صحيح ان ليكود والفئات التى قد تشكل الائتلاف الحكومي معه متطرفون للغاية ، ويرفضون عموما الانسحاب من اي شبر من المناطق المحتلة ، وخصوصا في الضفة الغربية، ولكن صحيح كذلك ، من ناحية ثانية ، ان حزب العمل ايضا لم يكن على استعداد للانسحاب من المناطق المحتلة كلها · والموقف العربي الموحد يطالب على الاقل ، في نطاق ما يسمى « تسوية عادلة » لازمة المنطقة بانسحاب اسرائيلي من كافة المناطق المحتلة والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة · ولذلك فان العرب مضطرون ، كائنة من كانت الحكومة الاسرائيلية، اذا ارادوا فرض شروطهم للتسوية ـ وليس هناك من مبرر يسمح لهم بالتنازل عن هذه الشروط ـ ان يلجأوا في كل الحالات الى استخدام كل ما لديهم من الوسائل الكفيلة بتحقيق اهدافهم ، مهما كانت صيغة الحكومة الاسرائيلية التي تواجههم · وفي هذا الصدد لا تبدو ، اذن ، اية فروق مهمة بين نظام تسيطر فيه حكومة ليكودية او ثان تتزعمه اخرى عمالية ·

كذلك لا يبدو ان هناك فروقا جوهرية ، بالنسبة للعرب او لغيرهم ، من حيث الاسلوب الذي يقال ان ليكود قد يلجأ لاستعماله لفرض شروط اسرائيل او حل مشاكلها ، وهو التهديد باستعمال القوة واللجوء الى الحرب · صحيح ان اسرائيل لجأت اكثر من مرة الى الحرب لحل مشاكلها او للتخفيف من الضغوط العربية ، واحيانا الدولية ، عليها ، ولكن هذا الوضع تغير ، بشكل ملحوظ ، منذ حرب تشرين · ان الشرط الاسرائيلي المسبق للمبادرة الى شن حرب ضد العرب يقضي بضمان انتصار اسرائيلي ساحق ماحق فيها ، تكون نتيجته ، على الاقل، تحطيم قوة العرب العسكرية وشل قدرتهم على القيام بعمليات حربية فعالة لسنوات عدة في المستقبل ، مع ضمان اقل مدى ممكن من الخسائر ، البشرية والاقتصادية ، من الناحية الاسرائيلية · وبعكس ذلك ، تكون الحرب بالنسبة لاسرائيل بمثابة سيف قد يرتد الى نحر صاحبه · وقد اثبتت حربا حزيران وتشرين ذلك بما لا يدع مجالا للشك · فبعد حرب حزيران ، انتعش الاقتصاد الاسرائيلي ، وقوي مركز اسرائيل الدولي ، وازدادت اوضاعها السياسية الداخلية مناعة · اما حرب تشرين ، نتيجة للخسائر التي لحقت اسرائيل خلالها ، فقد ادت الى عكس ذلك تماما فقد تدهور الاقتصاد الاسرائيلي بشكل لم يسبق له مثيل ، وتفككت الجبهة الداخلية بصورة واضحة ، وتضعضع مركز اسرائيل الدولي ـ وكانت هذه النتائج بالذات هي التي « طيرت » حزب العمل من السلطة · ولذلك فأن حربا اخرى ، بحجم حرب تشرين وبابعادها ، وحتى بنفس نتائجها ـ ولا يبدو ان هناك امكانية لحرب من « طراز » اكبر في المنطقة، في

ضوء توازن القوى فيها والاوضاع الدوليةعموما ـ قد تجر نتائج وخيمة للغاية على اسرائيل ، يمكن ان تشكل مقدمة لانهيار « المملكة الثالثة » · بل يبدو . في ضوء هذه المعطيات ، انالحرب تتحول تدريجيا الى خيار عربي ـ ان شاء العرب اللجوء اليها ـ اكثر من كونها خيارا اسرائيليا · ولا شك ان العرب لو شاؤوا اللجوء الى حرب تعد جيدا كحرب تشرين ، ومهما كانت محدودة ، لتمكنوا من الحاق خسائر مؤلمة باسرائيل ، قد تكون بداية لمضاعفات خطيرة داخل الكيان الصهيوني · ان بيت القصيد هنا هو ان اسرائيل لا تستطيع ان تتحمل الخسائر البشرية او المادية التي يستطيع العرب تحملها ، وكذلك لا تستطيع ان تعوض عن تلك الخسائر بنفس قدرة العرب في التعويض عنها · كما ان اسرائيل هي الخاسرة ، على المدى الطويل ، في اي حرب مع العرب ، حتى ولو تعادلت نتائجها · ولهذا يمكننا القول ان حكومة ليكودية لن تكون اشد اندفاعا من حكومة عمالية في خوض الحرب ، مهما كانت مشاعر الارهابي السابق مناحم بيغن ، زعيم ليكود ، من هذه الناحية · ولا ينبغي ان ننسى ايضا ان ليكود . مثل غيره ، يدرك جيدا ان نتائج حرب تشرين كانت . في نهاية الامر . سببا رئيسيا في الاطاحة بحزب العمل · ولا شك انه لا يريد ان يلاقيالمصير نفسه·

على ماذا قد يراهن ليكود وبيغن اذن ؟

ليس من الممكن الاجابة على هذا السؤال الا في حدود التكهن فقط ، اذ ان كلا من ليكود او بيغن لم يجدا نفسيهما مرة في وضع شبيه بوضعهما الحالي ، وبالتاليلا نستطيع الاستناد الى اسس مواقفها في الماضي كركيزة لمحاولة سبر اغوار سياستهما في المستقبل · ولكن على الرغم من ذلك ، تقدم لنا مواقف ليكود في المعارضة معظم الملامح الاساسية للسياسة التي قد ينتهجها هذا الحزب · وفي هذا الصدد ، لا بد من الاشارة اولا الى انه لا توجد عمليا على صعيد السياسة الخارجية ، خلافات جذرية مبدئية بين ليكود من ناحية او حزب العمل من ناحية ثانية ، كما ينطبق الشيء نفسه على بيغن من جهة او رابين او بيريس او دايان من جهة اخرى · والشيء نفسه صحيح ايضا بالنسبة لاجداد واباء هذين المعسكرين الصهيونيين ، اذ لم تكن هناك خلافات بالنسبة للسياسة الصهيونية الخارجية بين جابوتينسكي وبن ـ غوريون ، مثلا · لقد ادرك كل واحد من هذين المعسكرين الصهيونيين ، او زعمائهما ، عندما رأت الصهيونية نفسها مضطرة الى اتخاذ مواقف معينة او انتهاج سياسة عملية محددة ـ وذلك منذ فرض الانتداب البريطاني على فلسطين في مطلع العشرينات والاعلان على النية في اقامة « وطن قومي يهودي » في البلد ـ انه لا بد للمشروع الصهيوني ، لكي يكتب له النجاح ، من دولة امبريالية ، لها مصالحها في الشرق العربي ، تتبناه وتدعمه ، على ان يصبح الصهيونيون ، في مقابل ذلك ، بمثابة « زلم » لتلك الدولة ، لمساعدتها على الحفاظ على مصالحها ـ وحتى

وان ادى ذلك الى تحويل المؤسسة الصهيونية الى نـوع من كلب الحراسة للمصالح الامبريالية · وخلال نصف القرن الاخير ، اي منذ مطلع العشرينات وحتى اليوم ، لم يطرأ اي تغيير جوهري على اسس السياسة الصهيونية العالمية هذه ، عدا عن اضطرار الصهيونيين ـ نتيجة لاوضاع عالمية متغيرة ـ الى استبدال دولة امبريالية باخرى ، فانتقلوا ، مثلا ، من بريطانيا خلال فترة الانتداب ، الى فرنسا في منتصف الخمسينات ، واخيرا حطوا رحالهم في الولايات المتحدة ـ منذ منتصف الستينات على الاقل · والدولة التي يراهن الصهيونيون ، بمختلف فئاتهم ، على مواقفها الان هي الولايات المتحدة الاميركية ·

غير انه على الرغم من عدم وجود خلافات جوهرية ، في هذه المواقف ، بين ليكود وحزب العمل (او اجدادهما) ، فقد كانت هناك ـ دائما وابدا ـ خلافات تكتيكية ، شكلت محور « الحرتقات » والخلافات الحزبية داخل الكيان الصهيوني منذ امد طويل · لقد درج ليكود ، واجداده من قبله ، على اتهام الجناح العمالي دائما « بعدم مقدرته » على اقناع هذه الدولة الامبريالية او تلك بحقيقة «المصالح المشتركة » بينها وبين اسرائيل ، مشيرا الى انه هو الاكثر « شطارة » او « كفاءة » للقيام بذلك ، بل انه لن يفشل ابدا في تحقيق هذه المهمة ، وسيعرف كيف يجند « اصدقاء اسرائيل » ، في المراكز الحساسة ، لذلك · كما درج ليكود ايضا على الدعوة الى تقوية الكيان الصهيوني ، خصوصا في المجالين العسكري والاقتصادي ، مما قد يحسن من مركز اسرائيل الدولي · غير انه ، من هذه الناحية ، هناك شك فيما اذا كان باستطاعة ليكود ـ لو كان هو الحزب الحاكم ـ انجاز اكثر مما انجزه حزب العمل في هذا المجال ، وادعاءاته هذه ليست الا نوعا من التفاخر والتناحر الحزبيين ·

وهنا يطرح السؤال نفسه ، هل ما اشرنا اليه من « خلافات » في وجهات النظر بين ليكود وحزب العمل،بالنسبة للسياسة الدولية التي ينبغي على اسرائيل انتهاجها ، هي محور « التغيير » الرئيسي الذي قد يطرأ على السياسة الاسرائيلية بزعامة ليكود ؟ الجواب ـ رغم ما في الامر من غرابة ـ ايجابي · وليس امام ليكود ، عمليا ، الا القيام بمحاولة لتقديم شرح افضل « للمصالح المشتركة » بين اسرائيل والامبريالية ، علّه يتمكن بواسطة ذلك من تأمين مصالح اسرائيل ، كما يفهمها ، وتدعيم زعامته ·

انطلاقا من هذه النتيجة ، ينبغي ان نتوقع في المستقبل القريب ، نشاطا محموما من قبل الحكومة الاسرائيلية الليكودية في الولايات المتحدة ، بهدف تكتيل اصدقاء اسرائيل ومؤيديها هناك ، لحمل الحكومة الاميركية على ابداء « تفهم» اكبر للمواقف الاسرائيلية والكف عن مساعيها في سبيل تسوية سياسية في المنطقة ، او على الاقل تأجيلها · غير ان مهمة ليكود هذه ليست سهلة ، وذلك

لاسباب عديدة · ان سياسة ليكود ، اولا، واضحة ومتصلبة للغاية ، وهو ليس على استعداد للانسحاب من اي شبر من المناطق الفلسطينية المحتلة · وهـذا قد يؤدي ، لاول وهلة ، الى نوع من الصدام مع الولايات المتحدة ، التي رغم انحيازها الى اسرائيل ، لا ينبغي ان ننسى انها لم تؤيد مرة طلبات الكيان الصهيوني في ضم كل المناطق العربية المحتلة اليه · بل لا يبدو ان الولايات المتحدة تستطيع اتخاذ مثل هذا الموقف في المستقبل ، مهما بلغت حدة الضغوط الاسرائيلية عليها ، نظرا لتصاعد قوة العرب من ناحية ، وارتباط مصالح اميركا وحلفائها بدول المنطقة من ناحية ثانية · كذلك يمكن ان نتوقع ، ان صح هذا التشخيص ، وقوع شرخ في المعسكر الصهيوني واليهودي في الولايات المتحدة، اذ لا يقبل كل الصهيونيين واليهود هناك ، لاسباب مختلفة ، ان يضعوا انفسهم في حالة من الصدام المباشر مع حكومة بلدهم وفئات اخرى من الشعب الاميركي· كما انه من الصعب ان يتوقع المرء نجاحا لليكود في محاولاته لاقناع الاميركيين ان اسرائيل هي الحليف الوحيد والقوي للولايات المتحدة ، الذي يستطيع المحافظة على مصالحها في المنطقة· ان مثل هذا الامر لا يتعلق بالتفكير الرغائبي لمناحم بيغن فقط ، بل يستند الى معطيات موضوعية للغاية · لقد استطاعت اسرائيل اقناع الولايات المتحدة بوجهة نظرها هذه ، اثر انتصارها في حرب حزيران ١٩٦٧ ؛ ولكن هذا الوضع تغير ، بشكل ملموس ، بعد حرب تشرين ، التي حولت اسرائيل الى تابع للولايات المتحدة ، له اعباؤه ، بدلا من حليف ، يمكن الاعتماد عليه · وباستطاعة العرب ، ان شاؤوا ، وبقليل من الجهد ، الحاق اكثر من هزيمة تشرينية اخرى باسرائيل · كذلك يصعب ان نرى الولايات المتحدة منحازة الى اسرائيل ، بالمفهوم الليكودي ، في ضوء علاقاتها المتحسنة مع اكثر من نظام عربي وازدياد نفوذها في العالم العربي عموما ·

غير ان كل ما اوردناه لا يمنع من ان تؤدي ضغوط ليكود والصهيونيين في اميركا ، على الاقل ، الى حمل الولايات المتحدة على اتباع سياسة « حياد» في المنطقة ، كتلك التي انتهجتها قبل حرب تشرين ، بحيث ينشأ وضع تتوقف الولايات المتحدة معه عن توجيه اية « ضغوط » الى اسرائيل من ناحية ، وتستمر في تقديم المساعدات لها ، على اختلاف انواعها ، من ناحية ثانية ـ مما يسمح لاسرائيل بالاحتفاظ بالمناطق المحتلة باسرها او ، ربما ، ضمها اليها · ولعل هذا هو ما يصبو ليكود اليه · او ، من ناحية ثانية ، ربما تفشل هذه الضغوط وتؤدي الى ظهور شرخ علني بين اسرائيل والولايات المتحدة ، لن يكون في صالح الكيان الصهيوني ، مهما كانت اسبابه او مداه ·

ان الموقف الاميركي حاسم ، اذن ، على صعيد التطورات المتوقعة في المنطقة، وذلك بغض النظر عن الحكم الذي يسيطر على الكيان الصهيوني · ان القول بان سقف التحرك الاسرائيلي هو الموقف الاميركي صحيح تماما· ولا ينبغي

ان ننسى ابدا انه لولا المساعدات الاميركية لاسرائيل ، عسكريا واقتصاديا وسياسيا ، لكان النظام الصهيوني على وشك الانهيار، بل ان هذه المساعدات لو توقفت لمدة شهر واحد فقط ، لما وجد القط الاسرائيلي لديه ما يسد قوته ٠ ومن هنا فان القول بان اسرائيل مجبرة على تنفيذ اى قرار اميركي ـ في حال اتخاذ مثل هذا القرار ـ كائنا من كان رئيس حكومتها ، ولا فرق في ذلك بين بيغن او بيريس ، صحيح ايضا ٠ ولعله من المفيد ان نذكر ، في هذا الصدد، انه عندما اتخذ قرار اميركي بالانسحاب من الاراضي المصرية المحتلة، اثر فشل الغزوة الامبريالية الثلاثية ، الفرنسية ـ الانكليزية ـ الاسرائيلية ، ضد مصر سنة ١٩٥٦ ، لم تضطر اسرائيل فقط الى الانسحاب ، بل قامت بذلك بريطانيا وفرنسا ايضا ٠ والواضح انه ما دامت اميركا تتمتع بنفط العرب وبالتجارة معهم ، بينما تصر في الوقت نفسه على الاحتفاظ بما تسميه « علاقات خاصة » مع اسرائيل ، دون ان تتعرض لاية ضغوط ،في هذا المجال ، فأنه سيكون باستطاعة بيغن تحقيق جزء كبير من اهدافه ٠

ولكن ، من ناحية ثانية ، بقدر ما تزداد اهمية الموقف الاميركي ، تزداد ايضا ـ وربما بمدى اكبر ـ اهمية الموقف العربي ٠ ولعل هذه هي العبرة الرئيسية المترتبة على تغيير الحزب الحاكم في اسرائيل ٠ بل لعل هذا التغيير هو المحك الذي سيدفع الى بلورة الموقف العربي ، بشكل حازم وواضح ٠ ان الصراع الدائر في المنطقة يتركز ، اساسا ، حول ضرورة تأمين امدادات النفط للدول الصناعية الكبرى في العالم الغربي ،ومعظمها من حلفاء الولايات المتحدة٠ ووجود النفط في حوزة العرب هو الورقة الرئيسية الضاغطة والرابحة ـ ان احسن استعمالها ـ في اية معادلة لاعادة ترتيب اوضاع المنطقة ٠ وهناك واحد من خيارين فقط ـ يبدو ان الصراع السياسي او العسكري في المنطقة سيدور حولهما بعنف في المستقبل القريب : اما ان يثبت العرب ، من دول النفط وغيرها، ان باستطاعتهم حماية نفطهم وباقي ثرواتهم الطبيعية ، واستعمالها كورقة سياسية لصالحهم ، وبالتالي وضع الكيان الصهيوني في الحجم المناسب له ، واما ان تتولى اسرائيل ليكود القيام بذلك !

قد تبدو هذه النتيجة التي توصلنا اليها حادة للغاية ، ولكن نظرة الى مواقف ليكود وحلفائه من المتدينين والفاشيين والعنصريين والتوسعيين لا تترك خيارا اخر ٠ ان اتجاهات ليكود تختلف عن مواقف حزب العمل البرغماتية المرنة ـ التي انقذت الكيان الصهيوني ، في الماضي ، من ورطات عدة ـ في كونه يدعو الى اتخاذ اجراءات « حازمة » لحل مشاكل اسرائيل وتأمين وجودها ، وبالتالي لن يسمح للعرب بانتهاج سياسة مهادنة او متخاذلة ٠ ان ما يطالب به ليكود هو حمل العرب على توقيع اتفاق سلم مع اسرائيل ، دون ذكر الفلسطينيين على اساس الامر الواقع واعترافهم بتسليم المناطق العربية المحتلة للكيان

الصهيوني ، ثم الكف عن التفكير بقدرة نفطهم السياسية والاستسلام للمشاريع الامبريالية الغربية (« هكذا فقط ! » ـ على وزن شعار حيروت) ، على ان تصبح اسرائيل عميل اميركا الاول والمسيطر في المنطقة · ويدرك ليكود جيدا ان اسرائيل تواجه مشاكل مصيرية ، داخليا وخارجيا ، ويعتقد ـ ويبدو بجدية ـ انه لا يمكن ايجاد حل لتلك المشاكل الا بواسطة حمل العرب على التوقيع على اتفاق سلام معه ·

غير ان ليكود يدرك ايضا ، من ناحية ثانية ، انه لا يستطيع ان ينتظر طويلا لتقديم حلول لمشاكل اسرائيل المتفاقمة ، والا أطاحت به ، كما اطاحت بحزب العمل من قبله · ولذلك يمكن ان يرى العرب انفسهم ، في المستقبل القريب للغاية ، في مواجهة تحد اسرائيلي جدي ، لا يستطيعون تجاهله ولا بد من الرد عليه · ولا شك ان العرب يملكون من الوسائل المادية والبشرية والعسكرية ما يمكنهم ـ ان شاؤوا ـ من الرد على اي تحد من قبل اسرائيل ليكود او كبار مؤيديها بين الدوائر الامبريالية العالمية ، وخصوصا في ضوء ازمتي الطاقة والتضخم المالي ، المتفاقمتين في العالم الصناعي الغربي · ويبدو انه ليس لدى العرب من طريق لمواجهة الوضع الجديد ـ وحتى لو تم ذلك من قبيل « مكره اخاك لا بطل » على الاقل ـ سوى العودة الى استراتيجية تشرين وتكتيكه ، وتوجيه الضغوط الى الغرب اولا . وقبل اسرائيل ، بجعل مصالحه في المنطقة خاضعة للرضى العربي السياسي · وينبغي ، في هذا الصدد ، الكف عن الحديث حول ضرورة الاهتمام « بالاستقرار العالمي » و « رخاء الانسانية » . او حتى «عدم تصور» امكانية خلاف مع اميركا ، كما يقول البعض ، من ناحية، والتوقف عن الانغماس في الحملة الصليبية غير المقدسة المعادية للشيوعية التي تشارك بها بعض الانظمة العربية بحماس وشغف ، وعلى الصعيد العالمي ايضا، لكونها حملة في غير صالح العرب من ناحية ثانية · وبعكس ذلك ، فالخيار الوحيد المفتوح امام العرب هو الخضوع ، ليس فقط لشروط الامبرياليين وحدهم ، بل للشروط الاسرائيلية الخاصة ايضا · وقد يكون من بين هذه الشروط ، اذا اردنا الاغراق في التشاؤم ـ وذلك بالاضافة الى التخلي عن اي امل باسترداد المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ وتوقيع معاهدة صلح مع اسرائيل على هذه الاسس ـ المطالبة مثلا ، باقامة انظمة حكم « معتدلة » في العالم العربي ، وفتح حدوده امام اسرائيل ، والقضاء على العناصر « المخربة » فيه ، واخيرا ··· دفع جزء من عائدات النفط ـ وعلنا ـ الى مناحم بيغن نفسه !

ومن هذه الناحية بالذات ، ليس لدينا ، على المدى الطويل ، ما يدعو الى الاسف بسبب استلام ليكود دفة الحكم في اسرائيل · « فالعرس » في منطقة الشرق الاوسط سيزداد « حلاوة » و « حماوة » ، والتحدي بحاجة الى رد ـ

وليس لنا الا ان نامل خيرا : ومرة اخرى ، حتى لو تم ذلك من قبيل « مكـــره اخاك لا بطل » ٠

غير انه بالاضافة الى ما ذكرناه ، وفي محاولة لعرض النواحي الرئيسيـــة التى قد تؤثر على سياسة ليكود ، تجدر الاشارة ايضا الى مواقفه بالنسبـــة للمشاكل الاسرائيلية الداخلية والاطلاع على الحلول التي يقترحها ، او تلـك التي قد يلجأ اليها ، لمجابهة تلك المشاكل ، مما قد يؤثر بدوره على سياستـــه الخارجية من ناحية ، او قدرته على الاستمرار في الحكم من ناحية ثانية ٠ ان ليكود ، في جوهره ، ليس الا حزبا يمينيا كلاسيكيا ، يؤيد الحلول اليمينيـــة المعروفة للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، ويطالب بالاعتماد على المبـــادرة الحرة ، مثلا ، ومنح حرية العمل لرأس المال الخاص ، وما شابه ذلك ٠ وفي هذا الصدد ، واذا حاول ليكود انتهاج سياسة مستمدة من عقيدته هذه ، لايتوقع ان تكون الطريق امامه مفروشة بالرياحين ، وذلك بسبب طبيعة تركيب المجتمع الصهيوني ٠ ان جوهر مشاكل اسرائيل الاقتصادية والاجتماعية كامـن ، اذا لجأنا الى اتباع طريقة التبسيط الشديد ، في كونها دولة تصرف اكثر مما تنتج ، وهي بالتالي بحاجة دائما الى مساعدات من الخارج ٠ وقد درج حزب العمـل ، في الماضي القريب والبعيد ، على اتباع سياسة فرض المراقبة الدائمة ، بشكل او باخر ، على تلك المساعدات من ناحية والنمو الاقتصادي الداخلي من ناحيـة ثانية ، وتوجيههما ـ قدر الامكان ـ لخدمة كافة فئات الشعب ٠ كما لجأ حزب العمل ايضا ـ الحاكم دائماـ الى اتباع سياسة تقديم المساعدات الحكومية المالية لدعم هذا المشروع او ذاك او لتحسين اوضاع هذه الفئة من السكان او تلك ، في محاولات دائمة لتقوية الاوضاع الاسرائيلية الداخلية من ناحية ومنـــــع التناقضات الحادة بين فئات المجتمع الاسرائيلي المختلفة من ناحية ثانية ٠ وقد كانت هذه بالذات هي السياسة التي ادت الى نشوء تعفن داخل الجهاز العمالي، اطاح به في نهاية الامر ، ولكنها ادت ـ بالاضافة الى ذلك ـ الى خلق نمط من الحياة ليس من السهل تغييره ٠ ولهذا لا يمكننا ان نتوقع ترحيبا كبيرا ، من قبل فئات واسعة من الاسرائيليين ، بسياسة شد الاحزمة التي يدعو ليكود الى انتهاجها ، كما لا يمكننا ان نتوقع نجاحا كبيرا لهذه السياسة ، حتى اذا اقرت، اذ ان مشاكل اسرائيل الاجتماعية والاقتصادية (والسياسية بالطبع) اكبـر من ليكود او حزب العمل ، او كليهما ٠ ثم اذا كان حزب العمل ، صاحب البراغماتية المعروفة والخبرة الطويلة قد فشل في حل تلك المشاكل ، فهل سيستطيع ليكود، ضيق الافق وعديم الخبرة، القيام بذلك ؟

وبالاضافة الى ذلك ، لا ينبغي ان ننسى ايضـــــا ان انتصار ليكود فـي الانتخابات ، او نجاحه في تشكيل حكومة ائتلافية برئاسته ، تتمتع بالاكثريـــة العددية في الكنيست ، لا يعني سيطرة على كافة مراكز القوى في اسرائيل ، ولا

يمنح حكومة ليكودية حرية التصرف على هواها · وسبب ذلك ايضا كامن في طبيعة النظام الاسرائيلي · لقد كان الجناح العمالي ، في نهاية الامر ، هو الذي اقام ، عمليا ، الكيان الصهيوني في فلسطين ، الذي نشأت اسرائيل كامتداد له · وفي غمرة هذا النشاط ، ومممرور الزمن ، بنى العمال لانفسهم مراكز قوى لا يستهان بها · ولعل من اكبر هذه المراكز وابرزها ما يسمى « الاستيطان العامل » ، اي المزارع التعاونية من كيبوتسات وموشافيم وغيرها ، التي تسيطر على كافة الموارد الزراعية والحيوانية في اسرائيل · ويعتبر « الاستيطان العامل » ، قانونيا على الاقل ، « ملكا » لاجهزة يتمتع العمال بسيطرة شبه مطلقة عليها · اما مركز القوة الثاني ، فهو الهستدروت ، النقابة العامة للعمال ،التي تعتبر بمثابة « قلعة » للجناح العمالي الصهيوني ، الذيلا يزال يسيطر عليها · والهستدروت ليست ــ بسبب طبيعة النظام الصهيوني ، مرة اخرى ايضا ــ مجرد نقابة عمال فقط ، اذ انها ايضا مؤسسة اقتصادية ضخمة للغاية ، تملك حتى صناعات مختلفة ، خفيفة وثقيلة ، وتتمتع بالتالي بنفوذ لا يمكن تجاهله على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في اسرائيل · وفي هذين القطاعين الرئيسيين ، المستوطنات الزراعية والهستدروت ، تتركز الفئات العمالية « الاشتراكية » ، التي تعتبر ان مجرد وجود اليمين ، ناهيك عن صعوده الى الحكم ، كارثة بالنسبة للمشروع الصهيوني ، ولا تستطيع السكوت عليه ، اذ ان ذلك يشكل تهديدا لمجرد وجودها · وهذه الفئات كانت ، في اكثر من مناسبة ، تعلن عدم رضاها حتى عن سياسة زعامة حزبها العمالي ، ولعل الاضرابات التي كثرت في اسرائيل خلال السنوات الاخيرة ، خير دليل على ذلك · ولهذا لن يكون من السهل على ليكود ان يدخل في صراع مع هذا القطاع العمالي القوي ، والمنظم جيدا ، بل يشك فيما اذا كان باستطاعته ان يمس بمصالحه الحيوية ، مهما اراد التغيير في اجهزة الحكم الاسرائيلية ــ اذ يكفي ، مثلا ، ان توعز الهستدروت الى تنظيم اضراب ما ، او تتغاضى عنه عند وقوعه ، في هذا القطاع الاقتصادي او ذاك ، لكي تشله ، وتربك الحكومة ــ اية حكومة ــ بأسرها ·

ويبدو لنا ان الامر لن يتوقف عند هذا الحد ، بل على العكس من ذلك ، يمكننا ان نتوقع لجوء الجناح العمالي ــ اذا اراد العمل من اجل استرداد السلطة ــ الى تحويل مركزي القوى هذين الى نقاط وثوب له ، لتحطيم سيطرة ليكود · واذا لجأ العمال الى سلوك هذا الطريق ــ ولا يبدو ان امامهم خيارا اخر ــ نستطيع ان نتوقع حدوث هزات اجتماعية وسياسية عنيفة ، ومتواصلة ، داخل اسرائيل في المستقبل القريب · وعلى كل حال ، ومهما يكن من امر الوسائل التي قد يلجأ العمال الى استعمالها ، من الواضح ان الحياة ، بالنسبة لليكود ، ستكون مريرة للغاية في وجه معارضة عمالية ، لها ما لها من مراكز قوى ·ومن

هذه الناحية الداخلية ايضا ، ليس هناك ما يدعو للاسف نتيجة لصعود ليكود الى الحكم ، اذ يبدو ان ذلك لن يساهم كثيرا في تقوية اوضاع اسرائيل الداخلية ، وقد تكون له نتائجه السلبية على مجمل قوتها ٠

ان هذا العرض السريع الذي قدمناه لامكانات تغيير المواقف الاسرائيلية ، الخارجية والداخلية ، نتيجة لاستلام ليكود دفة الحكم في اسرائيل ، لا يبدو مشجعا بالنسبة الى الاسرائيليين ، ولا ينبغي ان يحمل العرب على « الهلع » منه ، اذ لا ينبغي ان يكون بالضرورة في غير صالحهم ، على المدى الطويل ٠ ولكن لا بد هنا من طرح السؤال : هل يعتبر صعود ليكود الى الحكم ، بالنسبة لاسرائيل ، سيئا حقيقة الى الحد الذي يبدو فيه كأنه كذلك ؟ ــ ربما ٠ لقد اختار المجتمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين اللجوء الى التطرف ، ردا على اعتدال عربي (متمثل في القبول بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢) وفلسطيني (متمثل في الاستعداد لاقامة دولة فلسطينية مستقلة على جزء من ارض فلسطين) ، فدفع الى رئاسة حكومته ارهابيا سابقا سيء الصيت ، لا يتصف بحنكته السياسية او مرونته ، خصوصا بعد ان توقف عقله عن العمل مع حل منظمته (الارغون) في ايار (مايو) ١٩٤٨ ، ولا يزال يجتر منذ ذلك الوقت الاراء التي توصل اليها حتى تلك الفترة ٠ ان صعود بيغن الى الحكم لا يضع اسرائيل في مواجهة حادة مع العالم العربي فقط ، بل يعرضها ــ وهذا هو الاهم ــ الى صدام ، بشكل او باخر ، مع كافة دول العالم بأسره ، اذ لا توجد هناك ولو دولة واحدة توافق على سياسة بيغن التوسعية وتؤيد طلباته لضم المناطق المحتلة الى اسرائيل ٠ وليس من الصعب على العرب ، بواسطة قواهم البشرية وموقعهم ونفطهم واموالهم واسواقهم ، العمل على تطوير تلك المواقف الكامنة وتحويلها الى سياسات فعلية ، لن تكون في صالح اسرائيل ٠ وفي حال اتخاذ قرارات معينة ، لا تملك اسرائيل الا الانصياع ، ان تم التنفيذ ضمن اطار مؤتمر جنيف او بأية طريقة اخرى ٠ ان التطرف الاسرائيلي ، المتمثل في نتائج الانتخابات ، لا يدل على قوة وحنكة سياسية كبيرتين ، بقدر ما يدل على حراجة المأزق التاريخي الذي يواجهه المشروع الصهيوني في فلسطين ٠ ولقد علق اربيه الياف ، رئيس قائمة السلام والمساواة على نتائج الانتخابات في مقابلة مع التلفزيون الاسرائيلي ، وذلك بعد ان علم بنبأ صعود ليكود الى الحكم بقوله : لقد ارتكب الاسرائيليون ، بعملهم هذا ، الخطأ نفسه الذي وقع فيه الالمان عندما انتخبوا هتلر ، في مطلع الثلاثينات ٠ وقد تدفع اسرائيل ثمن هذا الخطأ غاليا ــ وربما كان الرجل على حق ٠ والامر يتوقف ، الى حد بعيد ، على العرب ، خصوصا دول المواجهة والدعم ــ وهم ، ان شاؤوا ، قادرون ٠

استقالة رابين :

نهايـة اللعب عـلى الحبـال

د. الياس شوفاني

لدى اعلان رابين نيته التنحي عن منصبه ، كان واضحـــــا ان قرار رئيس حكومة العدو هذا ، لم يكن نتيجة لكشف الفضيحة المالية التي كان متورطـــا بها ، بقدر ما ترتب على زيارته الفاشلة الى واشنطن · ولا شك ان الفضيحة، على تفاهتها ، كانت عاملا رئيسيا في اتخاذ رابين قراره ذلك ، خاصة وانهـــا جاءت وهو يلملم جميع اوراقه لخوض معركة انتخابية صعبة ، فكانت بمثابـة القشة التي قصمت ظهر البعير · هذا ويبدو ، ان ما ناء رابين بحمله هـــو عجزه عن التوفيق بين التوجهات السياسية للادارة الاميركية الجديدة والتطلعات المستقبلية لبعض القوى الفاعلة في المؤسسة الصهيونية الحاكمة · ولجؤ رابين الى مثل هذا ، « الحل الشمشوني » ليس مستغربا منه ، لما عرف عنه من عصبيــة المزاج وضيق النفس في مواجهة الازمات · وكأنه بذلك ، وانتقاما لنفسه مــــن اولياء نعمته في واشنطن ، يرمي ادارة كارتر باخيه العاق ، شمعون بيرس · والواقع ان الملفت للنظر هو صمود رابين في منصبه مدة ثلاث سنوات تقريبا ، رغم ثبوت عجزه عن فرض قيادته على حزبه الحاكم · فكان ان انبرى ، ولـــو متأخرا ، وزير دفاعه ، بيرس ، لمنافسته على رئاسة الحكومة ، مسجلا بذلـــك سابقة فريدة ، بقدر ما هي خطيرة ، في اللعبة الديمقراطية المصطلـح عليها في الكيـــان ·

والمعروف ان رابين كان « مستر اميركا » في الحكم الاسرائيلي ، وقد بنـــى لنفسه هذا الموقع ، بجده واجتهاده في التنسيق بين سياسة حكومته ، برئاسة

غولدة مئير ، وسياسة الادارة الاميركية برئاسة نيكسون ، عندما شغل هو نفسه منصب سفير اسرائيل في واشنطن · واتاحت له حرب تشرين فرصة القفز من السفارة الاولى الى رئاسة الحكومة ، حيث راح يسند كرسيه في الحكم بدعائم اميركية ، في حين وفر له فورد وكيسنجر ذلك ، فاغدقا عليه عن سعة ، مما اعانه على البقاء في منصبه · وقد اخطأ رابين الحساب عندما عمل لصالح فورد في الانتخابات الاميركية الاخيرة · ولم يغفر له كارتر ، كما يبدو ، زلته تلك · وعلى الرغم من سقوط فورد ، فان رصيد رابين الاميركي بقي درعه الواقي في مواجهة سهام بيرس السامة ، اثناء المعركة على اختيار مرشح حزب العمل لقيادته في الانتخابات العامة ، ففاز على منافسه بهامش ضئيل · ولكن ذلك، مع ما كان له من انعكاسات على مركز رابين داخل النخبة الصهيونية الحاكمة، لم يفت في ساعده ، بل حفزه على المزيد من التعلق باهداب واشنطن · فكان ان قام برحلته المشؤومة الى هناك ، والتي عاد منها كسير الجناحين ــ ناهيك عن افتضاح امر حسابه في البنك الاميركي وبالعملة الاجنبية ، خلافا للقانون الاسرائيلي في هذا الشأن · فكانه بذلك قد قفز من المقلاة الى النار ·

وواضح من تحركات رابين السياسية ، خاصة في الاشهر القليلة الاخيرة، ان الرجل لم يكن عائفا للسلطة ولا متبرما بالحكم · والعكس هو الاقرب الى الصواب · فقد بذل رابين كل ما اوتي من جهد وما وهب من قدرة على المبادرة في سبيل الحفاظ على زعامته للحزب ، وبالتالي رئاسته للحكومة : ففاجأ مراقبيه السياسيين بحل الكنيست والدعوة الى انتخابات عامة مبكرة ، مؤملا في حسم الصراع الداخلي على السلطة لصالحه ، مما اعتقد انه يضمن له البقاء على رأس الحكومة لاربع سنوات قادمة على الاقل · ولم يدخر رابين وسعا في حشر حزبه بين مطرقة جولة وزير الخارجية الاميركي ، سايروس فانس ، في المنطقة ، وبين سندان زيارته هو الى واشنطن ، طمعا منه بالفوز على منافسه بيرس كمرشح لقيادة حزب العمل في المعركة الانتخابية · فكان له ذلك ، علما بان فوزه لم يقض على طموح بيرس في مواصلة الصراع معه على الزعامة · وخرج بيرس من المعركة اقوى مما دخلها ، في حين ذهب رابين الى واشنطن وهو اضعف مما كان يتمنى عندما اقدم على مساره الانتخابي في بداية السنة · وفي هذا الاثناء ، كان رابين قد امن عن طريق مساعي سفيره سمحا دينيتس ، موعداً لزيارة واشنطن ، يكون الانسب لخدمة اغراضه الانتخابية · فكان من فرط حماس دينيتس ان شاط الطبخة ، بعدم قدرته على الملاءمة بين نار رابين الحامية وقدر كارتر الضاغطة ·

ولم يترك رابين ، وهو يتأهب للاندفاع نحو واشنطن ، بابا ينفذ منه كارتر اليه · فكان في زيارته ، اول رئيس حكومة لاسرائيل ، يجري محادثات في العاصمة الاميركية وليس في جعبته قائمة طويلة من طلبات المعونة الاقتصادية

والعسكرية ، اذ كان هدفه الوحيد المعلن التوصل مع ادارة كارتر الى اتفاق سياسي حول تنسيق خطوات الطرفين في المبادرات السياسية المقبلة في اطار التسوية · واتفاق كهذا ، لو قدر له ان يتم ، يضع في يد رابين اوراقا جديدة تصلح من حاله في الحزب وفي الانتخابات على حد سواء · ومن اجل تمهيد طريقه الى ذلك الهدف ، اغفل رابين الضغوط التي مورست عليه في اسرائيل ، بشأن صفقة طائرات كفير الاسرائيلية مع الاكوادور ، وكذلك في مسألة التنقيب عن النفط في سيناء وخليج السويس ، بالاضافة الى عقدة القنابل الارتجاجية، والتي وصفها رابين جميعها بالامور الهامشية اثناء محادثاته مع فانس ، وكذلك عشية سفره الى واشنطن · الا ان كل ذلك لم يجده فتيلا ، ولم يعنه على التقاط ضالته في البيت الابيض الاميركي ، فلم يبق امامه الا التنحي عن الموقع الاول في الحزب والحكومة ، فكانت الفضيحة المالية هي ذريعته · وكانما حكمت عليه واشنطن بالاعدام ، وقدمت اليه حبل الشنق هدية ·

وفي واشنطن ظهر رابين على حقيقته ، عاجزا عن تلبية ادارة كارتر في توجهاتها السياسية ازاء الازمة في المنطقة ، كما اثبت عجزه عن اقناع الادارة الاميركية بتلبية تطلعات قوى فاعلة في المؤسسة الحاكمة في اسرائيل · ففقد بذلك مبرر وجوده على رأس الحكومة هناك · ويبدو ان ادارة كارتر تريد القيام بمبادرة جديدة في اطار التسوية السياسية للصراع في المنطقة ، وكانت تتوقع من رابين ان يحمل اليها مقترحات جديدة تعينها على تحركها هذا · ولكن رابين، بكل مشاكله الانتخابية ، لم يكن يحمل معه مشاريع جديدة ، واثيرت قبل سفره مسألة ما اذا كان لديه التفويض لاجراء مثل هذه المحادثات ، وهو على عتبة انتخابات لا تعرف نتائجها · اما هو ، فقد ارادها زيارة مراسيمية ، يلتقي فيها بالادارة الجديدة ، ويتبادل الآراء بشكل عام ، دون الالتزام بشيء محدد، على ان يؤكد البيان المشترك وثوق العلاقة بين الطرفين ، والتزام الادارة الجديدة بتعهدات سابقاتها في ضمان امن اسرائيل وتقديم الدعم المادي والسياسي لها · ولقاء عدم تقدمه بطلبات جديدة من السلاح والمال ، اراد رابين من ادارة كارتر الا تحرجه في المجال السياسي ، وتطلب منه تقديم مقترحات جديدة ، تكون اساسا لمبادرة اميركية تكسر الجمود الذي لف مسار التسوية، منذ اتفاقية سيناء · ولكن كارتر ، كما يبدو ، لم يقايض رابين هذه الصفقة ·

وكون استقالة رابين جاءت في اعقاب زيارته الى واشنطن ، وبالاساس نتيجة لها ، لا يلغي عامل الفضيحة المالية ضمن الاسباب التي دفعته الى الاقدام على هذه الخطوة · وتجدر هنا الاشارة الى استشراء الفساد في الكيان الصهيوني منذ عام ١٩٦٧ ، والى ان احد وزراء حكومة رابين ، ابراهام عوفر ، قد وضع حدا لحياته بعد فضيحة مالية ، مساوية في تفاهتها تلك التي تورط فيها رابين نفسه · وكان رابين قد رشح آشر يدلين ، الذي ارتبط اسمه بفضائح

مالية اثناء ادارة « كوبات حوليم » (صندوق المرضى) ، التابع للهستدروت، لمنصب حاكم بنك اسرائيل المركزي · وبرز كذلك اسم ايبان في قضية مماثلة ، لم تنته بعد · والقائمة كما يبدو طويلة · وعلى اي حـــال ، لا يستبعد قط ان يكون ما كشف عن تورط رابين لا يعدو كونه قمة جبل الثلج العائم ، فالكـــلام الى الآن عن حساب صغير باسم زوجته · وربما كان هناك ما هو اكثر من ذلك ، خاصة بعد ما كشفته وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية عن الرشاوي التـــي دفعت لرؤساء دول حليفه للولايات المتحدة · ومعلوم ان رابين كان يتقاضى اجرا وفيرا لقاء كلامه في ندوات ومناسبات ، يوم كان سفيرا في واشنطن · ولعلـه احس بما يدبر له عشية الانتخابات على الصعيد الشخصي ، بعـــد ان قضـى كارتر على اماله السياسية من الزيارة ، فارتـأى اختصار المحنـة واختفى عن المسرح ·

وظاهرة الفساد في اسرائيل ، تفاقمت بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، ووجـدت لها مرتعا خصبا في الصناعة العسكرية ، وما يرتبط بالجيش من صفقات فـــي مجالات التسليح والتموين والمنشآت · هذا الى جانب تكالب امراء الحرب فــي الجيش الاسرائيلي واعوانهم ، على نهب المناطق المحتلة · ولم تستطع حــرب تشرين ، بكل ما تمخضت عنه من هزات في الكيان الصهيوني ، ايقاف هـــذا المد ، اذ انه بطبيعة الحال ، ظاهرة مرافقة لنمو مثل هذا الرأسمال الطفيلي · وسرى الداء الى قطاعات اخرى من التجمع الصهيوني الاستيطاني ، وخاصة الى شريحة التكنوقراط في مؤسسات القطاع العام · ولعبت النخبة السياسيـة في الاحزاب دورا بارزا في دفع عجلة هذا الفساد ، والتستر على خفاياه ، اذ جعلت منه مصدرا اساسيا لتمويل اجهزتها الانتخابية ونشاطاتها السياسية ·

عثرات الزيـــارة :

قبل ان يستقل طائرته الى واشنطن ، بدأ رابين يتعثر في طريقه الى السقوط· وما ان اعلن عن قبول الدعوة لزيارة واشنطن ، حتى بدأت التساؤلات تثـــار حول هدف الزيارة وجدواها · ولم تكن تلك تساؤلات المعارضة فحسب ، وانمـا ايضا من اطراف في حزب العمل ، ترمي الى الغمز من تحركات رابين ، واضفاء طابع الانتهازية السياسية عليها · والواضح انها لم تأت عن عفوية ولا عـــن حسن نية · اما المعارضة ، فقد اثارت مسألة اهلية رابين لاجراء محادثات من هذا القبيل ، في حين يستعد لخوض معركة انتخابية ، ليس اكيدا انه سيجتازها بنجاح ويحتفظ بموقعه من صنع القرار السياسي المترتب على ما قد يتم مـــن اتفاقات مع الادارة الاميركية الجديدة ، وخاصة ما يتعلق منها بمسار التسوية السياسية · والمعلوم ان رابين كان يرأس حكومة انتقالية وهو يقوم بمناورته هذه ، كما كان يواجه منافسة قوية داخل حزبه على منصب القيادة فيه · ولهذا

كثر الطعن في الزيارة وزاد اللغط حولها ، مما انتقص من جديتها ، رغم الخطورة التي كانت تنطوي عليها ، كونها اللقاء الاول بين رئيس حكومة اسرائيـــل والادارة الاميركية الجديدة ، التي منذ تسلمها زمام الحكم ، راحت تؤكد اختلاف اسلوب عملها عن سابقتهـــا ٠

وطار رابين الى واشنطن وهو بين نارين ٠ فقد تعهد لحكومته ، وخاصـــة لمنافسة شمعون بيريس ، بالالتزام بالمواقف الرسمية للحكومة ، اثناء المفاوضات مع كارتر ٠ وهذا يعني حصر تفويضه بالكلام عن مبادرات سياسية جديدة ، في نطاق القرارات القديمة لحكومة اسرائيل ، والتي كانت اساسا ، السبب في جمود مسار التسوية ٠ اما من الطرف الاخر ، فقد سبقت وصول رابين الى العاصمة الاميركية ، تصريحات ذات مغزى واضح بالنسبة الى المحادثـــات في البيت الابيض : لا يجوز للزيارة ان تكون مراسيمية فحسب ٠ وعلى هـــذا الصعيـــد وفيما يتعلق بتوجهات ادارة كارتر ، يبدو ان السفير الاسرائيلي ، سمحـــا دنيتس ، قد اخطأ التقدير في مدلولاتها ، ونقل الى حكومته صورة مشوهـــة بعض الشيء عما ينتظر رابين في البيت الابيض الاميركي ٠ وهكذا وصل رابين الى واشنطن ، وهو مقيد ببرنامج حزبه الانتخابي ، والذي لا يختلـف كثيرا ، في مسألة التسوية ، عن البرنامج السابق الذي وضع عام ١٩٧٤ ٠ ولم يحمـل رابين الى واشنطن ، لا خرائط جديدة ولا مشاريع مستحدثة ، في حين ، يبـدو ان كارتر كان يتوقع مثل ذلك ٠ وعليه ، فما لبثت ابتسامات الانخاب في الجولة الاولى من اللقاءات تنتهي ، حتى ساد الوجوم الوفد الاسرائيلي وبرزت بوادر التقطب وخيبة الامل ٠

ولكن الامر لم ينته عند هذا الحد ، اذ ان كارتر ظل يلاحق رابين ، حتى بعد عودة هذا الاخير الى تل ابيب ٠ وتتالت تصريحات كارتر العلنية عن ماهيـة السلام الذي يراه ، وشروطه ، وما يتعلق منها بالفلسطينيين ، وكلها قـبل ان يتمالك رابين نفسه بعد الهزة في واشنطن ، ويلتقط انفاسه في مواجهة اعدائه في الداخل ، وفي تدبر امر فضيحة حسابه في البنك الاميركي ٠ فتهاوى الرجـل المعروف بضعف شخصيته امام هذا السيل من المآزق ، ولم يبق امامه من مخـرج سوى التنحي عن القيادة ، فاستقال ٠ ولعله بالامكان تصنيف نقاط الخلاف مع الادارة الاميركية الجديدة في بابين رئيسيين : اولها في مجال العلاقات الثنائية والثاني يتعلق بالتسوية السياسية ٠ فعلى صعيد العلاقات الثنائية ، كانت ازمة طائرات الكفير ، وكذلك مسألة قنابل الارتجاج والسماح لاسرائيل بانتـــاج طائرات ف ـ ١٦ ، والمساعدات المادية الخ ٠ وفي مجال التسوية برز الخلاف حول مفهوم الحدود الامنة ، وكذلك بالنسبة الى ما يراه كل طرف كحل للقضية الفلسطينية ٠

ازمة طائـرات الكفير :

وتتلخص هذه المشكلة في رفض الحكومة الاميركية السماح لاسرائيل ببيع اربع وعشرين طائرة ، من طراز كفير ، تم تركيبهـــا في المصانع الاسرائيلية التابعة للصناعة العسكرية ، الى الاكوادور • وكانت اسرائيل قد تعاقـدت مع تلك الدولة على صفقة الطائرات ، التي تبلغ قيمتها مائة وخمسين مليون دولار، دون أن تحصل على اذن مسبق من الولايات المتحدة ، طبقا للاتفاق بين الطرفين ، والذي على أساسه تقوم الشراكة في بناء هذه الطائرات • وتذرعت واشنطن بان انجاز مثل هذه الصفقة مخالف للقيود التي وضعتها هي على تزويد دول اميركا اللاتينية بالاسلحة • وتعويضا لاسرائيل عما قد يلحقها من ضرر مادي، نتيجة لعرقلة الصفقة ، قدمت اميركا مبلغ مائتين وخمسة وثمانين مليون دولار زيادة في دعمها الاقتصادي ، اي مايقارب ضعف قيمة الصفقة ، ولكنها أصرت على عدم السماح بانجازها • وعلى رغم ذلك ، أقام القرار الاميركي الدنيـا وأقعدها في اسرائيل ، علما بأن لواشنطن ، وحسب الاتفاق ، كامل الحق في اتخاذه ازاء الصفقة • وهذا الحق يقوم على ان الولايات المتحدة تزود تلــك الصناعة في اسرائيل بالمال والمعرفة والقطع الاساسية اللازمة لانتاج الطائرات• ولكن يبقى سؤال لماذا تصرفت الولايات المتحدة على هذا النحو ، ويبقى كذلك السؤال عن مصير هذه الصناعة العسكرية •

حتى عام ١٩٦٨ ظلت الصناعة العسكرية في اسرائيل خفيفـة ومحدودة ، لاتعدو كونها مجموعة من الورش ، تقوم أساسا بسد بعض احتياجات الجيش الاسرائيلي من العتاد الخفيف وقطع الغيار الهامشية • وبعـــد الحظر الذي فرضته فرنسا على تصدير الاسلحة الى اسرائيل ، تحولت الانظـــار فيها الى اتجاهين ، في ان معا • فمع التوجه الى امتلاك السلاح الاميركي مباشرة ، راحت اسرائيل تنمي صناعتها العسكرية بوتيرة متسارعـــة • الا ان الطفرة الحقيقية في تلك الصناعة ، جاءت بعد حرب تشرين ، واثناء المفاوضات علـــى التسوية السياسية • وقد استطاع كيسنجر اقناع اطراف التسويـــة بضرورة الاغداق على اسرائيل بالدعم ، المادي والعسكري ، كي يمكنها السير في ركاب تلك التسوية • فكان أن تطورت تلك الصناعة الى حد لايمكن معه الاستهانة بها قط • والان تحركت واشنطن لتقطع الطريق على الباكورة الفعلية لتلك الصناعة الى سوق السلاح الدولية ، اذ أن هذه هي الصفقة الاولى من طائرات الكفير ، مع أن الولايات المتحدة كانت تعلم جيدا أن اسرائيل تعرض طائراتها للبيع في السوق الدولية ، وانها اشتركت في عدد من المعارض الدوليـــة المقامـة لهذا الغرض ، ولم تعترض ، كما يبدو على هذه التوجيهات، مما شجع اسرائيل على الاقدام على عقد الصفقة مع الاكوادر •

وفي كلامهم العلني عن الصفقة ، يعترف قادة الكيان الصهيوني ، بمن فيهم رابين‌نفسه ، بان الصفقة مع الاكوادور تخالف الاتفاق المبدئي مع الولايـــات المتحدة ، والذى كان ، كما يبدو ، محدد الاهداف · ولكنهم يدعون ايضا بـان ظروفا جديدة قد خلقت ، تحتم على اسرائيل التوجه الى تصدير انتاج الصناعة العسكرية · فهل كان حظر التصدير جزءا من الاتفاق ، ام ان الولايات المتحدة، في حينه ، ارادت ان تحتفظ بزمام الامر في يدها ، سواء فيما يتعلق بمستقبـل تلك الصناعة ، او في عنوان التصدير · والاكيد ان واشنطن لم تكن تفكر بامكان ان تسد اسرائيل احتياجاتها الذاتية من الاسلحة المتطورة بانتاجهـــا المحلي ، بواقع ضخامة المبلغ المخصص من الدعم المادي الذي تقدمه الى اسرائيل لتسديد ثمن الاسلحة الحديثة التي تتزود بهـا من الولايات المتحـــدة · فلماذا اذن مساعدتها على تطوير تلك الصناعة ، اذا كانت لا تنوي السماح لها بالتصدير ؟ ان الاقرب الى المعقول هو ان واشنطن ، ايام كيسنجر ، وعندما تـــم الاتفـاق على مساعدة اسرائيل في بناء تلك الصناعة ، بتقديم العون المالي والتكنولوجي، وكذلك الجزء الاساسي والاهم من القطع ، كانت تريد ان تستعمل اسرائيـــل كغطاء لتسريب الاسلحة الى بعض الانظمة الفاشية والعنصرية ، التي تؤيدهـا الولايات المتحدة ، ولكنها تجد نفسها محرجة في تقديم السلاح لها ، لما لذلـك من انعكاسات على مجمل علاقاتها الخارجية ·

ويبدو ان اسرائيل ، على اساس هذا التفاهم مع ادارة فورد ، راحت تبنـي صناعتها العسكرية ، ليس بهدف سد احتياجاتها من السلاح ، اذ ان ذلـــك توفره الولايات المتحدة ، وانما كمشروع رأسمالي مشترك مع شركات اميركية، يخدم اهدافا سياسية امبريالية ، وخاصة في العالم الثالث · وتطورت تلـك الصناعة ، واستوردت لها معدات حديثة ، واتبعت فيها اساليب انتاج متقدمـة ومحكمة · ويشير تقرير عن تلك الصناعة الى وجود حوالي اربعين مجمعـــا ميكانيكيا ، تجري ادارتها بالكمبيوتر · وفيها حوالي الف الة لصقل المعادن ، ومئات المكابس ، التي تعمل بضغط الماء او الهواء ، واكثر من خمسماية فـرن للصهر ، منها حوالي التسعين تعمل بالضغط ومئات الماكينات الاوتوماتيكيـــة لاعداد الرقائق المعدنية ، وعشرات الاف المخارط (هارتس ٧ـ٣ـ٧٧) · وكذلك فقد استطاعت تلك الصناعة ان توفر لنفسها الطاقة البشرية المهنية اللازمة ، من مهندسين وفنيين وعمال مهرة · هذا وبقيت تكاليف الانتاج فيها ، خاصـــة الاجور ، اقل منها في البلاد الصناعية الاخرى ، مما يجعلهـا صناعة مربحة ، اذا توفرت لها سبل البقاء ·

وبطبيعة الحال ، فقد ارتبط بنمو هذه الصناعة العسكرية ، وما تفرع عنهـا من صناعات معدنية والكترونية اخرى ، تطور رأسمالي محلي ، منه ما هو في القطاع العام ، وتتحكم به شريحة من التكنوقراط ، وما هو في القطاع الخاص،

وتمتلك جزءا منه برجوازية اسرائيلية ، بالاشتراك مع رؤوس اموال خارجية، وبالاساس اميركية · والممثل الابرز لهذه الرأسمالية ، والذي ارتبط اسمه بهذه الصناعة منذ بدايتها ، هو شمعون بيريس ، وزير الدفاع الاسرائيلي ، الـذى خلف رابين في قيادة الحزب ، والمرشح الاول لتأليف الحكومة بعد الانتخابات· وهذا دليل على فاعلية هذه الشريحة في السياسة الاسرائيلية · وقد ثارت هذه الشريحة على رابين عندما وصف ازمة صفقة الطائرات بانها مسألة هامشيـــة في شبكة العلاقات مع الولايات المتحدة ، والزمته على التراجع العلني عن كلامــه هذا · والاكيد ان فشل رابين في تلبية هذه الشريحة ، كان عاملا هاما في ازاحته عن الحكم · ويظهر انها تنوي مواصلة الصراع مع واشنطن لشق طريقهـــــا الى سوق السلاح الدولية ·

واذا اصرت الولايات المتحدة على قطع طريق الدخول الىسوق السلاح الدولية امام هذه الصناعة ، فان ذلك سيؤدي حتما الى تحطيمها ، وبالتالي الىالقضاء على النمو الرأسمالي المرتبط بها · وهي ليس بمقدورها ان تتحول الى انتـــاج السلع الاستهلاكية ، لانها لا تستطيع الصمود في المنافسة الدولية في هذا المجال· فتكون الولايات المتحدة قد انزلت بالفعل ضربة قاسمة بالاقتصاد الاسرائيلي ، لا يتوقف اثرها عند بطالة الاف العمال فحسب ، وانما يتعداه الى تعطيـــل المصانع الحديثة التي اقيمت خصيصا لهذه الصناعـــــة ، والى توقف البحث العلمي والتكنولوجي في مضمارها · واذا كانت هناك ثمة تطلعات لدى هـــذه الرأسمالية بالعمل على توسيع هامش استقلاليتها عن الاقتصاد الام ، ممـــا سينعكس طبعا على القرار السياسي ايضا ، فقد تنوء هذه الشريحة الاسرائيلية الصاعدة بحل تبعات مثل تلك التطلعات· ولعل الولايات المتحدة تقصد ذلــك بالذات · اذ لا يستبعد قط ان تكون الامبريالية الاميركية ، في عهد كارتر ، قد عدلت عن مشروعها ، وتريد الابقاء على اسرائيل اداة في يدها ، وتمنعها مـــن التحول الى شريك ، ولو صغير · واذا صح ما يتناقل من انباء عن نية واشنطن عقد حلف دفاعي مع اسرائيل ، وهو ما كان السناتور فولبرايت قـد اقترحــه قبل سنوات ، فان في ذلك دليلا على تبني التوجه الى حصر الكيان الصهيوني في اطار البقاء قلعة عسكرية ، تتمتع بحماية اميركا من جهة ، وتتحرك لتنفيذ سياستها الامبريالية في المنطقة ، متى شاءت ،والى اقتلاع ما قد يخامر تفكيـــر بعض قطاعات الرأسمالية الصهيونية في اسرائيل من تطلعات لتوسيع هامش حريتها ، الاقتصادية والسياسية ، منذ البداية ·

وبالفعل ، فقد مارس ممثلو هذه الشريحة ضغوطا كبيرة على رابين ، قبل سفره الى واشنطن ، لالزامه باثارة موضوع تصدير الطائرات في محادثاتــــــه مع الادارة الاميركية · ويبدو انهم عرضوا المسألة عليـــــه بكامل ابعادهـــا ، الاقتصادية والسياسية ، خاصة الداخلية منها · وحرك اصحاب الشركات ذات

المصلحة عمالهم للتظاهر امام السفارة الاميركية في تل ابيب ، مطالبين برفع الحظر عن الصفقة · وتحدث نفر منهم الى الصحافة ، واتهم شركات اميركية، تحتكر بيع السلاح الى اميركا اللاتينية ، بممارسة الضغط على ادارة كارتر لايقاف تنفيذ الصفقة · واشار هؤلاء الى خوف الشركات الاميركية من المنافسة الاسرائيلية والى قلقهم من سحب هذا القرار ، الذي وجد له غطاء في قوانين اميركية تتعلق ببيع السلاح الى دول اميركا اللاتينية ، على مناطق اخرى من العالم ، بحجة او باخرى ، وبالتالي الى منع اسرائيل من التصدير الى اية جهة كانت · والجدير بالذكر ان قيمة صادرات هذه الصناعة قد بلغت حوالي اربعمائة وخمسين مليون دولار في العام الماضي ·

التنقيب عن النفط :

منذ حرب حزيران ، ١٩٦٧ ، وحتى اتفاقية سيناء ، عام ١٩٧٥ ، ظلت اسرائيل تضخ من سيناء نفطا يفي بالقسم الاكبر من احتياجاتها · ولدى انسحابها من القطاع الغربي من شبه جزيرة سيناء ، عادت ابار النفط في ابو رديس وحقل البلاعيم الى الايدي المصرية · وفي اتفاقية سيناء ، حصلت اسرائيل من الولايات المتحدة على تعهد بتعويضها عن خسارتها من جراء ذلك · ولكنها ، كما يبدو ، ظلت تعتبر نفسها صاحبة حق في التنقيب عن النفط في كل سيناء ، وفي خليج السويس ايضا ، كونها لا تزال تحتل قطاعا من ساحل سيناء ، يطل على الخليج · وبالفعل ، فقد قامت بعمليات التنقيب عن النفط في منطقة الطور البرية ، وفي الخليج ، على حد سواء · ولكن الحكومة المصرية كانت قد منحت امتيازا لشركة اموكو الاميركية ، التابعة للشركة الام ، ستاندرد اويل اوف انديانا ، يخولها حق التنقيب عن النفط في خليج السويس ، الذي هو مياه مصرية اقليمية · واصطدمت اعمال الشركة الاميركية بالموقف الاسرائيلي ، الذي يدعي الحق في تقرير الامر بالنسبة الى النصف الشرقي من الخليج · ونشب الخلاف حول المسألة ، وانتقل الى واشنطن ، بعد ان صادرت اسرائيل احدى الحفارات التابعة للشركة ، كانت تعمل شرقي الخط الذي تعتبره اسرائيل حد احتلالها · ويبدو ان الامر قد فض بتراجع اسرائيل ، كما اراد رابين ، وخلافا لرأي بيرس في الموضوع · واستغل بيرس الحادث لصالحه في معركة الترشيح لرئاسة الحكومة ، وخرج على الملأ ، ينادي بوجوب الا تخضع اسرائيل للاملاءات ، حتى وان كانت اميركية ·

والظاهر ان واشنطن قد سئمت الابتزاز الاسرائيلي الرخيص · فبعد ان عوضت الكيان الصهيوني عن توقيف نهبه للنفط المصري ، بدا وكأنها اعطت بذلك سابقة ، فتحت شهية اسرائيل للمزيد · واصبح واضحا ، حتى لواشنطن ، ان اسرائيل ، التي تفاوض على التسوية ، مما يستوجب بطبيعة الحال انسحابا ،

انما تقوم باعمال التنقيب عن النفط في سيناء طمعا في اقتصاص ثمن لذلك عند الحديث عن خطوة اخرى في التسوية · فكان موقف الادارة الاميركية حاسما هذه المرة ، وارغمت اسرائيل على التراجع ، لصالح شركة اموكو ·

السلاح :

كانت ادارة فورد ، بقيادة كيسنجر ، وتحت غطاء القول بضرورة تقوية اسرائيل ، لتشجيعها على التقدم في مسار التسوية ، وعدت اسرائيل بتسليمها صفقة من قنابل الارتجاج · كما وعدتها بالنظر في مسألة السماح لها بالمشاركة في انتاج طائرات ف ـ ١٦ ، والتي طلبت اسرائيل تزويدها بحوالي ٢٥٠ منها ، وتمت الموافقة على ذلك · والظاهر من الكلام عن زيارة رابين ، ان واشنطن قد تراجعت عن الوعد بتسليم القنابل المذكورة ، وتذرع كارتر بالمثل الاخلاقية في نقضه لوعد سلفه · ولكن لا يستثنى تأثير الضغط العربي على واشنطن في هذا المجال ، اذ بتزويدها اسرائيل بمثل هذه القنابل ، تضع اميركا علامة استفهام كبيرة حول مفهوم التسوية السلمية التي لا تنفك تتحدث عنها، وحتى في نظر الاطراف الراغبة فيها · فبتلك القنابل قد يطفح الكيل · وبقيت الولايات المتحدة على عهدها لاسرائيل من ناحية التزويد باحدث انواع الطائرات التي تنتجها ، مع ابقاء القرار بالنسبة لانتاج مشترك لهذه الطائرات معلقا ·

التسوية السياسية :

كل مبادرة جديدة في اطار التسوية السياسية تكشف بصورة اكثر وضوحا، ان اسرائيل لم تكن بالفعل ترغب في انجازها ، وإنما كانت تحاول كسب الوقت، والمناورة لالقاء تبعة الرفض على الطرف العربي · وبرنامج حزب العمل الانتخابي والذي تتقيد به حكومة اسرائيل ، قد صيغ من هذا المنطلق ، والواقع ان المؤسسة الحاكمة في اسرائيل عاجزة عن اتخاذ قرار التسوية · ذلك ان هذا الكيان ، الذي قام في ظل ظروف سياسية معينة ، وضمن موازين قوى محددة ، مطلوب منه الان ، من اجل انجاز التسوية ، تحديد حدوده الجغرافية والبشرية والسياسية في ان معا ، وكل ذلك ، قبل ان يجسد مشروعه الصهيوني ويحقق ذاته على ارض الواقع ، وفي ظل ظروف سياسية وموازين قوى مختلفة عن تلك التي سادت لدى قيامه · والكيان اليوم ، تنقصه المرونة اللازمة لتحمل تبعات القرار الحاسم بشأن تقرير مصيره ، دون ان ينكسر ·ومن هنا ، ونظرا الى الفارق الكبير بين قوته العسكرية وفاعليته السياسية ، كان الاسهل عليه اتخاذ قرار الحرب · ولكن الظرف الدولي لم يكن يسمح بذلك بعد

حرب تشرين ، فبقي امامه خيار المراوغة وكسب الوقت ، تحينا للفرصة المواتية لازالة اثار حرب تشرين ٠

وعلى طريق كسب الوقت ، التقى قادة الكيان مع كيسنجر ، الذي جمع الاطراف المعنية ، على مسار الخطوة ـ خطوة ، مما هو بالاساس طرح اسرائيلي ، صدر في البداية عن ديان بالذات ٠ ومسار الخطوة ـ خطوة ، يوفر لاسرائيل المدى الزمني الذي تحتاجه للخروج من مأزق نتائج حرب تشرين ،كما يفسح امام واشنطن المجال لاخراج الاتحاد السوفياتي من اللعبة ، ومن ثم الانفراد بانجاز تسوية على هواها ٠ ولكن هذا المسار وصل الى طريق مسدود٠ وبذهاب كيسنجر عن المسرح ، كان لا بد لخلفه من متابعة التحرك في الخط الذي ارتأته واشنطن لنفسها ـ التسوية السياسية ٠ والظاهر من اقوال كارتر ، انه ينوي التقدم نحو التسوية باسلوب مغاير بعض الشيء ٠ فهو ، كما يبدو ، يريد التوصل الى اتفاق مبدئي حول ماهية السلام وشروطه ومتطلباته ، ومن ثم تنفيذه على مراحل ، خطوة ـ خطوة ٠ ولكن ، حتى هذا التغيير الشكلي كشف عجز القيادة الاسرائيلية عن التعامل معه ٠

ومهما تكن النوايا الحقيقية لادارة كارتر ، فالظاهر من ردود الفعل الاسرائيلية ، خاصة بعد زيارة رابين واستقالته ، ان ثمة خلافا في وجهات النظر بين الطرفين بالنسبة الى التسوية وشروطها ٠ وتقول المصادر الاسرائيلية بان كارتر جاد في نيته التحرك نحو حل شامل ٠ وهذا يختلف عن خط واشنطن السابق ، ويتناقض مع التوجه الاسرائيلي ، الذي يفضل التسويات المرحلية٠ وتفيد تلك المصادر ايضا بان رابين قبل وجهة النظر الاميركية اثناء محادثاته في واشنطن ، ظنا منه بان الدول العربية غير مستعدة لهذا النوع من السلام ، الذي يتحدث كارتر عنه ٠ والظاهر ان رضوخ رابين للاملاء الاميركي ، حتى وان كان تكتيكيا ، جعله اضعف من ان يخوض المعركة الانتخابية ، على خلفية التعبئة السياسية التي شحنت حكومته الجمهور الاسرائيلي بها ، خلال السنوات الثلاث الماضية ٠ وجاءت تصريحات كارتر المتتالية عن ماهية السلام وشروطه، وكذلك عن رأيه في حل المسألة الفلسطينية ، لتساعد خصومه السياسيين في هجومهم عليه ٠

واذا صح ما يدور من كلام عن توجهات واشنطن الجديدة ، فمعنى ذلك انه لا مكان لاصحاب المواقف الوسطية ، من امثال رابين ، على رأس الحكم في اسرائيل ، بينما رصيدهم الاساسي هو الدعم الاميركي ٠ اي ان رابين لم يعد يقدر على حمل البطيختين في آن معا ، فاستقال ، واخذ مكانه ممثل التيار الاقوى في اسرائيل ، شمعون بيرس ٠ وهو التيار المناوىء للاتجاهات الاميركية ، في حين ان الاقرب اليها ، هو تيار الون ـ ايبان ، المعروفين بمواقفهما « الحمائمية » ٠ وتعبيرا عن ضعف هذا التيار الاخير ، وجد ايبان نفسه ينضم الى معسكر بيرس

في بداية معركة الترشيح لرئاسة الحزب ، في حين لم يجرؤ الون على التصدي لبيرس بعد استقالة رابين ، رغم كونه نائب رئيس الحكومة · وهذا لا يعكس موازين القوى في حزب العمل فحسب ، وانما وعلى نطاق اوسع ، في الجمهور الاسرائيلي عامة ·

واذا جاز الكلام الآن عن تبلور تيارات سياسية داخل الكيان الصهيوني حول مسألة التسوية ، وبالامكان تصنيفها في تيارين ، لا يزالان غير واضحى المعالم ، ولكنهما آخذان بالبروز · اما الاول ، فهو صهيوني تقليدي ، وله جناحان · احدهما يميني والاخر ليبرالي · ويذهب اليمين الى القول بوحدة الشعب وتكامل الارض ، في حين يكتفي الجناح الليبرالي بوحدة الشعب · وكلاهما يريد الحفاظ على الطابع اليهودي للدولة · الا ان الاول يريد ذلك عن طريق اجلاء السكان العرب من المناطق المحتلة ، في حين يريده الثاني عن طريق التنازل عن المناطق المأهولة بهؤلاء العرب · وممثل الجناح اليميني الابرز هو حزب ليكود ، وتسير في ركابه الاحزاب الدينية عامة · في حين تمثل الجناح الثاني القوى التي تقف وراء ايبان والون وحزب مبام · اما التيار الثاني فهو الذي يدفع باتجاه تحويل اسرائيل الى دولة استيطانية على غرار جنوب افريقيا او روديسيا ، وهو لا يعطي ليهودية الدولة نفس الاهمية التي يؤكد عليها التيار الاول · وابرزممثلي هذا التيار هو شمعون بيرس ، وموشيه ديان ، وكلاهما من تلاميذ بن غوريون ، ومن رفاقه في حزب رافي · ويلتقي التيار الثاني ، في كثير من مواقفه السياسية ، الداخلية والخارجية ، مع الجناح اليميني من التيار الاول · ومن هنا كان جنوحهما الى تشكيل حكومة « ائتلاف قومي » ، ومن هنا ايضا سهولة تأرجح ديان بين حزب العمل وليكود · وعلى صعيد التسوية السياسية ، يكاد الاثنان يتفقان على شروطها ، خاصة ما يتعلق منها بالموقف من القضية الفلسطينية ، والانسحاب من الضفة الغربية · والفارق ، كما يطرحه بيرس ، هو بين الاعلان عن ضم الضفة ، كما يقول ليكود ، وتحمل تبعة ذلك ، وبين التستر والمناورة ، والقاء التبعة على العرب · اما الجناح الليبرالي فمواقفه اقرب الى الحل المطروح اميركيا · واذا صح الكلام عن « صقور » و « حمائم » على هذا الاساس ، فان رابين كان صقرا في اسرائيل ، وحمامة في واشنطن · ولكنه عجز عن اتقان اللعب على الحبلين ، خاصة عندما شدا الى درجة عالية من التوتر ، فسقط ·

ماذا بعد رابين ؟

ان الانتخابات الراهنة لن تقود اسرائيل الى استقرار سياسي · فاما ائتلاف ضعيف لا يستطيع التعامل مع المبادرات الجديدة في اطار التسوية ،واما حكومة « تجمع قومي » ، تقطع الطريق عليها ، وتصطدم بواشنطن · وكلا

الخيارين يحتم اجراء انتخابات اخرى في موعد مبكر · واذا جرت انتخابات اخرى ، فستتبلور فيها المواقف وفقا للحلول المطروحة للتسوية ، وستتغير فيها التحالفات طبقا لذلك · والمتوقع ان تدور المعركة بين اتجاهين : ١) اتجاه اسرائيل اليهودية الاستيطانية ، بغض النظر عن « تكامل الارض » ، وهو الاقرب الى النظرة الاميركية الحالية · ٢) اتجاه اسرائيل ، على غرار جنوب افريقيا وروديسيا ، بغض النظر عن يهودية الدولة · والواضح ان الاتجاه الثاني هو الاقوى اليوم · ولذا فلا بد لواشنطن من تحطيمه ان هي ارادت ان تتجاوب اسرائيل مع ما تعلنه من توجهات ·

حوار مع فاروق قدّومي :

احتمالات الحَرب أكبر من احتمالات السلام

قضايا الساعة الفلسطينية ـ كان العنوان العريض لهذا الحوار الطويل ، بين الاخ فاروق قدومي [ابو اللطف] رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية ، وبين هيئة تحرير « شؤون فلسطينية » ، تم فيه تناول كافة الاسئلة المطروحة على الفكر السياسي الفلسطيني في مواجهة المرحلة المقبلة ·

□ ونود ، في البداية ، ان يضيء لنا الاخ ابو اللطف قانون العلاقات الفلسطينية مع الاطراف الدولية ، الذي يقود عمل الدبلوماسية الفلسطينية · ما هي مفاهيمها الرئيسية ، وكيف تصوغ معادلة الممارسة النضالية في الحقل الدبلوماسي ؟·

● للثورة ثلاثة اساليب : العمل المسلح ، العمل السياسي ، العمل الدبلوماسي · ولا شك في ان العمل المسلح هو القاعدة الاساسية التي يقوم عليها العمل الدبلوماسي · كما اننا في علاقاتنا على المستويين العربي والدولي، نلتزم الميثاق الوطني لمنظمة التحرير الفلسطينية ، برامج العمل السياسي المرحلي وقرارات المجلس الوطني · هذه هي الاسس الثلاثة التي تقوم عليها الدبلوماسية الفلسطينية · اما اهداف تحركنا السياسي والدبلوماسي على المستوى الدولي فهي تحقيق الاعتراف الدولي بحقوقنا الوطنية ، ثم الاعتراف

بعدالة وشرعية نضالنا على كافة المستويات ، وحقنا في استخـــدام كافـــة الاساليب في هذا النضال • واخيرا ان يتجسد هذا الاعتراف في وجود ممثلين لنا في كافة البلدان التي نتصل بها • ونحن نعرف منذ البداية ان لنا اصدقاء ، بدءا بدول عدم الانحياز ثم الدول الافريقية والآسيوية والعالم الثالث ، ودول المجموعة الاشتراكية • ونحن نحاول دائما تطوير مواقف هذه الـــدول مـــن قضيتنا • فمواقف بعضها ، كان في البداية يتوقف عنـد حدود دعـم مسألــة اللاجئين ، ثم تطور هذا الدعم الى طرح مسألة الحقوق المشروعة ، ثـــم الـــى الحقوق الوطنية ومنها حق اقامة دولة فلسطينية مستقلة • هكذا تطورت القضية الفلسطينية الى قضية سياسية فهي مسألة شعب له حقوق •

حددنا منذ البداية اهدافنا : لنا اهداف مبدئية ولنا اهداف مرحلية • مـــن المفترض ان تتبنى الامة العربية اهدافنا المبدئية ، ولا شك في ان الامــة العربية في معظمها قد تبنت ضرورة تحرير الاراضي الفلسطينية ، ولكن بعد حرب ١٩٦٧ اصبح هناك تحديد مرحلي للاهداف العربية في مؤتمر القمة السادس الـذي قرر ان الاهداف المرحلية للامة العربية هي : اولا ، تحرير الاراضي التي احتلت عام ٦٧ ، ثانيا ، تحرير القدس وعدم القبول بأي وضع يمس عروبتها ، اي منع التدويل ، ثالثا ، استعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني كما تحددهـــا منظمة التحرير • نحن ، بعد عام ١٩٦٧ كنا نطالب بهدف عام ، فكان علينـــا مرحلة هذا الهدف العام ، ثم اعلنا في المجلس الوطني اهدافنا المرحلية ، فـــي اننا على استعداد ان نقيم سلطة وطنية على كل شبر من الارض المحررة • وجاء مؤتمر الرباط فأقر ذلك • وكان الخلاف في الفترة السابقة يقوم بيننا وبيـــن الاردن على تحديد هوية الممثل الشرعي الوحيد ، لان الاردن كان يقاسمنـــا ذلك ، فعندما استطعنا في المجال العربي ان نحدد ذلك كان علينا ان ننتقل الى المجال الدولي • وهنا حددنا مرحلية هذه الاهداف • وبدأت لجنة العشرين التي اصدرت قرارها في العام الماضي في تبني ما نقوله بشكل كبير في مرحلية هـذا النضال ، اي اقامة دولة فلسطينية على جزء من اراضينا • واقرت الامم المتحدة توصيات لجنة العشرين •

اذن نحن نعمل على ثلاثة مستويات ، المستوى الوطني ، والمستوى العربي ، والمستوى الدولي • **المستوى الوطني** : انتقال من الاهداف العامة الى الاهداف المرحلية • وكذلك **عربيا** : انتقال من الاهداف العامة الى تحديـد الاهـــداف المرحلية • ثم نأتي الى **الوسط الدولي** من اجل ان يتبنى ما وضعناه في الواقـــع الوطني • بالاضافة الى ذلك قلنا انه من المفروض ان يصار الى تبني اهدافنـــا عالميا ، ليس فقط شرعية نضالنا ، ليس فقط انتقال قضيتنا من قضية لاجئين الى قضية سياسية وقضية شعب ، وانما بلورة ذلك في اقامة دولة فلسطينية علـــى

جزء من اراضينا • ولا بد ان يكون الاعتراف الدولي هنا في الاساس هـو اعتراف بحقنا في اقامة هذه الدولة • وقد تبنت الاوساط الصديقة ، بما فيها الدول الاشتراكية ، ودول عدم الانحياز والدول الافريقية هذا الهدف المرحلي • فنحن ، **بدأنا عملية خلق الكيان الفلسطيني في المنفى ، قبل ان ننتقل الى الارض** • وهذا عامل اساسي • **فلا بد ان تكون للشعب الفلسطيني كينونة سياسية** • فقد استطعنا الانتقال من قضية لاجئين الى قضية سياسية • ثم طورنا مسألة الاعتراف بحقوقنا من الحقوق المشروعة ، الى الحقوق الوطنية ، الى اقامة دولة فلسطينية •

كما بدأنا التعامل مع الواقع الاوروبي • نعرف ان الدول الغربية لا توافق اساسا على جميع اهدافنا • فاعترفت اولا بمصالحنا المشروعة • ثم اعترفت دول المجموعة الاوروبية التسع اي دول السوق المشتركة ، بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني • هكذا تحقق الانتقال من الحقوق المشروعة الى الحقوق الوطنية • وهذا هام جدا بالنسبة لنا • ولا شك في ان فرنسا لعبت دورا مهما في هذا التحول • هكذا استطعنا ان نطور مواقف فرنسا وايطاليا والسويد ، ثم تبعتها بلجيكا والنمسا • طبعا هناك دول اكثر تقدما في مواقفها كاليونان واسبانيا • تبقى اذن دولتان ، بريطانيا والمانيا الغربية ، لا تعترفان بالحقوق الوطنية لشعبنا • فالمندوب البريطاني في الامم المتحدة يقول بضرورة وجود قطعة ارض للفلسطينيين ، لكنه لا يشير الى ضرورة ان تكون لهذه الارض سيادة • اي انه لا يزال ضمن مشاريع المملكة المتحدة •

لقد استطعنا خلال عملنا الدبلوماسي ان نصل الى انجازين رئيسيين :

١) تطوير اعتراف العالم بحقوقنا • ٢) اقامة وجود تمثيلي لنا في بلدان العالم •

لقد استطعنا ان نقطع في عملنا الدبلوماسي اشواطا كبيرة وواضحة •

واصبح العالم في معظمه يتبنى قضية الاعتراف بنا • بل وصلنا ، في بعض الدول الاوروبية الى اكتساب شبه اعتراف دبلوماسي بنا • حيث لنا ، هناك ، حقوق وامتيازات دبلوماسية • كما لنا في دول اخرى مجرد مكاتب دعاية كما في بريطانيا والولايات المتحدة وكندا •

لقد نجحنا بالفعل كما اشرت في تطوير الاعتراف بحقنا في النضال بكافة الاساليب • والنضال من اجل حقوق وطنية محددة ، معترف بها من قبل الدول الافريقية والآسيوية ودول عدم الانحياز ، ثم انتقلنا بعد ذلك الى بناء عضويتنا الكاملة في الامم المتحدة انطلاقا من اعضاء مراقبين في الوكالات المختصة الى الوصول الى العضوية الكاملة في مجموعة الدول غير المنحازة • ثم انتقلنا

الى العضوية الكاملة في جامعة الدول العربية ، حيث كانت الجامعة هي التي تحدد في السابق مندوب فلسطين • طبعا ، هذه المحاولات كان يتخللها الكثير من المؤامرات والمشاريع المضادة ، كمشروع المملكة المتحدة • او مشاريع الكونفدرالية مع اسرائيل ، التي كانت تطرح لتعيق عملنا ومسيرتنا السياسية والدبلوماسية •

❑ حول مواقف الدول الاوروبية ، نلاحظ ان الكثير من هذه الدول الاوروبية تعتبر تغيير مواقفها ، بانه اتى انسجاما مع القرار ٢٤٢ • فكيف نفهم ردنا على هذا القرار واقتراب الدول الاوروبية من الفهم الفلسطيني له ؟

● في اتصالاتنا مع الدول الاوروبية ، كان لنا هدف اساسي ، فما دمنا نرفض القرار ٢٤٢ ، فقد توجهنا الى التشكيك بهذا القرار لدى الاوساط التي دعمته •

ونلاحظ اليوم ، ان الكثير من الدول الاوروبية بدأت تعتقد ان القرار ٢٤٢ قد جمد • فالكثير من هذه الدول ، بدءا من السويد ووصولا الى بريطانيا ، بدأت تقول بان هذا القرار غير كاف •

من هنا فان بيان دول المجموعة الاوروبية الصادر في ٦ نوفمبر يتجاوز القرار ، لانه يشير الى الحقوق الوطنية التي لم تذكر في القرار ٢٤٢ • ثم جاءت محاولة الدول غير المنحازة لتعديل القرار ٢٤٢ في مجلس الامن كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ • وقد حظي مشروع التعديل بموافقة جميع الاعضاء ، ما عدا الولايات المتحدة ، التي استعملت حق الفيتو ، لمنع المجلس من اقراره ، وذلك التزاما منها بالبروتوكولات الملحقة باتفاقية سيناء ، والتي تنص احداها على ان الولايات المتحدة سوف تعارض في مجلس الامن اي تعديل للقرار المذكور •

نحن نعلم ان قضية فلسطين كانت تعامل في الامم المتحدة ، ابتداء من عام ١٩٥٢ كقضية لاجئين • فعندما قبلت الامم المتحدة ان تعالج ابتداء من عام ١٩٧٤ قضية فلسطين ، اي قضية البلاد الفلسطينية ، تكون المنظمة الدولية ، قد تجاوزت الواقع الذي فرض منذ عام ١٩٥٢ ، اي الواقع الاسرائيلي • فهي نظريا لا تعترف بهذا الواقع اعترافا كاملا • فهذا الواقع متنازع عليه • **فعندما تعود قضية فلسطين الى البحث ، تصبح اسرائيل ايضا تحت البحث •**

قلنا ان جوهر ازمة الشرق الاوسط هي قضية فلسطين • فكان لا بد من صياغة قرار نؤكد فيه حق الشعب الفلسطيني في وطنه نتجاوز فيه حتى قرار

التقسيم ٠ فكان القرار ٣٢٣٦ الذي نص على الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني في فلسطين ٠ اي اننا ، نكون بذلك قد تركنا للاجيال القادمة حرية التحرك السياسي على المستوى الدولي من اجل اكمال المسيرة الثورية ، بما في ذلك حق تقرير المصير والاستقلال الوطني وحق العودة ٠ وهذا يختلف عن القرار ١٩٤ الذي يخير بين العودة والتعويض ٠ ثم يأتي بعد ذلك حق استخدام كافة الاساليب من اجل استرداد الوطن ٠ ففي هذا القرار تجاوز كبير للقرار ٢٤٢ الذي ينطلق من فرضية وجود صراع بين الدول العربية المجاورة لارضنا المحتلة وبين العدو ، لكنه لا يعالج المسألة الاساسية ، مسألة الشعب الفلسطيني ٠

اعود الى القول ، انه كان علينا ان نمرحل هذا النضال ٠ ثم قامت لجنة العشرين وقسمت هذه الحقوق الى حقين : **حق العودة** وحق **تقرير المصير والاستقلال الوطني والسيادة** ٠ وقالت بعودتين : عودة النازحين عام ٦٧ وعودة لاجئي ١٩٤٨ ٠ اما حق تقرير المصير فلا يمكن ان ينفذ الا على اساس العودة الاولى ٠ من هنا جاءت توصيات اللجنة التي اقرتها الجمعية العامة للامم المتحدة ، وهي : (١) على مجلس الامن اتخاذ الترتيبات العاجلة من اجل انسحاب القوات الاسرائيلية من الضفة الغربية وقطاع غزة في موعد اقصاه ١ حزيران (يونيو) ١٩٧٧ ٠ ويضع جدولا زمنيا لهذا الانسحاب ، حيث تحل قوات دولية مكان قوات الاحتلال ٠ (٢) تتولى الامم المتحدة كافة المنشآت في الضفة والقطاع ٠ (٣) تتعاون الامم المتحدة والجامعة العربية من اجل تسليم الضفة والقطاع الى م ٠ ت ٠ ف ٠ بصفتها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ٠ (٤) بعد قيام الكيان الفلسطيني ، تقوم الامم المتحدة بالتعاون مع ممثلي هذا الكيان ومع الاطراف المعنية في ازمة الشرق الاوسط ، بتنفيذ ما تبقى من حقوق الشعب الفلسطيني ، ومن اجل اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط ٠

ان هذا القرار ، قريب من المرحلية ٠ وهو يتجاوز فعلا القرار ٢٤٢ ٠ يؤكد هذا القرار على ان الضفة الغربية وقطاع غزة تعطى لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد انسحاب الاسرائيليين منها ٠ هكذا تجاوزنا القرار ٢٤٢ ، وكرسنا هذا التجاوز في القرارات الاخرى التي تقول ان منظمة التحرير الفلسطينية هي طرف اساسي في النزاع ، ولا بد من مشاركتها في كافة المساعي والمؤتمرات التي تبحث قضية فلسطين ، او مسألة النزاع العربي الاسرائيلي في منطقة الشرق الاوسط ٠

□ هل يمكن اذن تجاوز الهيئة التي انبثقت عن القرار ٢٤٢ ، اي مؤتمر جنيف ؟

● لا بد ان اشير هنا ، الى ان مؤتمر جنيف هو اختيار عربي من اجل حل ازمة الشرق الاوسط · نحن كـ م · ت · ف · طرحنا اختيارا اخر : الامم المتحدة · جنيف لم تكن اختيارنا · انها اختيار عربي · نحن نختار الامم المتحدة ، فهناك نجد ان جميع اطراف النزاع متواجدة · ونحن لسنا على استعداد لحضور مؤتمر جنيف على اساس القرار ٢٤٢ · كما ورد في النقاط العشر ·وضع العرب اختيارهم ، ووضعنا نحن اختيارنا · ونحن ، انطلاقا من قناعتنا بصعوبة تغيير اساس مؤتمر جنيف ، قلنا بالاختيار الاخر : الامم المتحدة ومجلس الامن · ونحن لسنا على استعداد لحضور مؤتمر جنيف على اساس القرار ٢٤٢ ·

□ هل يمكن في رأيكم ان يوافق الاتحاد السوفياتي على هذا الاختيار ؟

● في رأيي ، انه ما دامت اسرائيل والولايات المتحدة ، ترفض الاعتراف بـ م · ت · ف ·وترفض مشاركتها في مؤتمر جنيف ، فلا بد اذن من هذا الاختيار· والا ، فعلى هذه الدول ان تجد اختيارا ثالثا وهو فرض الحل ، اذا كانت· تستطيع ·

□ عودة الى نقطة الدبلوماسية الفلسطينية · اذا اردنا ان نعمم الكلام الذي قيل ، نستطيع ان نقول ، ان دبلوماسية الثورة ، هي محاولة لترجمة الحقائق الثورية الى حقائق سياسية · نلاحظ ، ان انتصارات الثورة الدبلوماسية ، كانت دائما نتيجة تحولات لمصلحتنا على ارض الصراع · الان ، وفي الوضع الراهن ، وامام الحواجز التي تضعها الامبريالية الاميركية ، في وجه الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني · كيف نرى علاقة تحركنا الدبلوماسي بالواقع الموضوعي في المنطقة ؟

● منذ البداية ، اتخذت الدبلوماسية الفلسطينية خطا واضحا ، ومنهجا يكاد يكون مستقلا عن الدول العربية · فالدبلوماسية كانت تنفذ الى الواقع الدولي من خلال الدول العربية · لكننا استطعنا تجاوز هذا الواقع الدولي ، مع الدول الصديقة وغيرها · لقد بدأنا هذا التجاوز عمليا ، وبصراحة ، بعد عام ١٩٧٠ · لكننا نصر ، وباستمرار ، على ضرورة وجود استراتيجية عربية موحدة ، نكون ، نحن ، كـ م · ت · ف · جزءا منها · لكن واقع الخلافات العربية ، وواقع وجود خلاف بيننا وبين بعض الانظمة ، وقد ادت هذه الخلافات الى صدامات مسلحة في بعض الاحيان · فنحن نختلف في كثير من الامور مع بعض الدول العربية ، بسبب نظرة بعضها الى م · ت · ف · باعتبارها غير

ناضجة لتولي مسؤولية العمل السياسي والدبلوماسي الفلسطيني ·

بالاضافة الى قضايا لا تزال عالقة كقضية الضفة الغربية مع الاردن ، وقضية شعبنا في الاردن ، ثم قضية تواجدنا في لبنان · ثم قضية عدم تدخل الانظمة في شؤوننا الداخلية ، من خلال منظمات او ضغوط · وكذلك ، وفي المقدمة قضية تحركنا العسكري من الحدود العربية ·

هذه مشاكل ، لا تزال قائمة · ونحن نعالجها من خلال الحوار المستمر ·

نحن نحاول ما امكن ، ان نكون حصيلة ايجابية للموقف العربي السياسي والعسكري ونحاول ان نجمع القوى العربية في مواجهة العدو المركزي والاساسي الذي هو اسرائيل ·

لكن تبقى خلافات ناتجة اساسا من المصالح الاقليمية والقطرية الضيقة · كقضية مؤتمر جنيف · فهناك بعض الدول العربية التي قبلت مؤتمر جنيف ، والاساس الذي يقوم عليه هذا المؤتمر · نحن نرفض هذا الاساس ، فهو غير صالح لحل القضية الفلسطينية · لكننا نرى ، ان يبقى خلافنا مع الدول العربية حول هذه النقطة ، خلافا تكتيكيا ، لا يؤثر على الهدف العربي في تحرير الارض المحتلة عام ١٩٦٧ كهدف مرحلي ، ولا على هدفنا في اقامة دولة مستقلة · هناك مسألة اخرى · من يمثل الشعب الفلسطيني ؟ لقد استطعنا حل هذه المسألة نظريا والى حد كبير في مؤتمر الرباط · فـ م · ت · ف · هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، وهي التي تنطق باسمه · فلا يوجد حق لاي كان ، لا الاردن ولا غير الاردن ، في التكلم باسم شعبنا · نقطة الخلاف هذه التي استطعنا حلها نظريا في مؤتمر الرباط ، نريد ان نحلها عمليا · وبما انها تتعلق بالاردن ، لذلك جاء الحوار بيننا وبين النظام الاردني ·

هناك نقطة اخرى بالغة الاهمية · فنحن نريد تحركا سياسيا فلسطينيا مستقلا، لكنه ينسق مع الدول العربية · لذلك ، نحن نسعى كي يكون تحركنا السياسي مقبولا من معظم الانظمة المؤثرة سياسيا وعسكريا · وهذا يفرض علينا علاقات ديمقراطية بين مختلف التنظيمات داخل م · ت · ف ·

ان المنجزات الثورية والحقائق التي نؤكدها ، يأتي العمل الدبلوماسي لينقلها الى الواقع الدولي · لكن الخلافات العربية تحدث اثارا سلبية على تحركنا السياسي · ثم نأتي الى الهدف العربي وكيفية تحقيقه · فهناك من يرى ان الاختيار العسكري لا يزال قائما · بينما هناك من يعتقد ان الحل السياسي هو الاختيار المتاح · نحن نرى ان الاختيار العسكري لا يزال قائما · لان الغزوة الصهيونية جاءت عن طريق العنف والقوة · غير اننا لا نسقط الاختيار السياسي والدبلوماسي ، لانه رديف · فموازين القوى هي التي تفرض احد الاختيارين ·

☐ لكن هناك تناقضات كبيرة بين الحل الاسرائيلي والحل العربي ٠ فلا العرب قادرون على القبول بشروط السلم الاسرائيلي في حده الادنى ، ولا الاسرائيليون يقبلون السلم العربي في حده الادنى ٠

● نحن نرى ان هناك حلا او سلاما مرحليا ، وحلا وسلاما دائمين ٠ لا يقوم الحل الدائم ، الا عبر بناء دولة فلسطينية ديمقراطية يتعايش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود على قدم المساواة ٠ السلم الدائم هو بناء هذه الدولة الديمقراطية ٠ وهذا هدف بعيد المدى ٠ اما السلم المرحلي فهو في اقامة دولة فلسطينية على جزء من ارضنا ٠ ولن يتم في المنطقة الا احد هذين السلمين ٠ لكن السلطات الاسرائيلية تحاول ان تنسي العرب اراضي ما قبل حرب ١٩٦٧ ٠ وتحاول اظهار حرب ١٩٦٧ وكأنها بداية الصراع ٠ نحن نرفض هذه النظرية من الاساس ٠ ونقول ان المسألة مطروحة من يافا الى نهر الشريعة ٠ فهذه الاراضي كلها محتلة ٠ تل ابيب متنازع عليها ، ويافا متنازع عليها ٠

نظريتنا في مسألة السلام هي هذه : سلم مرحلي يقوم على الانسحاب وبناء دولة مستقلة ، وسلم دائم يقوم على بناء دولة فلسطين الديمقراطية ٠
طبعا ، هناك نظريات كثيرة حول هذه المسألة ٠ هناك **اولا** الحدود التي يمكن الدفاع عنها ٠ **ثانيا** الحدود الشرعية ٠ **ثالثا** الانسحاب من اراض عربية ٠ وتشترط اسرائيل الى جانب هذا اقامة علاقات دبلوماسية وتجارية وثقافية مع الدول العربية ٠ العرب لا يوافقون ٠ يطرحون امكانية ايقاف حالة العداء واقامة حالة من السلام ، شرط انسحاب اسرائيل الى حدود ١٩٦٧ ، وتحقيق الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ٠ وبعضهم لا يحدد معنى هذه الحقوق ، بالاضافة طبعا الى ما ورد في اتفاقية سيناء من حق المرور في السويس وغيرها ٠ نحن نرى ، انه اذا كان لا بد من مرحلة نحو السلام ، فلا بد من انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي المحتلة ، من سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة عندها يكون هناك سلم مرحلي ٠ وتبدأ الاطراف العربية نقاشا وديا مع الفلسطينيين حول مسألة الحل الدائم او السلم الدائم ٠

اذ ان العديد من القضايا الاساسية تكون قد بقيت دون حل ٠ **قضية اللاجئين، وقضية الاراضي الفلسطينية التي ما زالت تحت الاحتلال ، وقضية العلاقة بين الفلسطينيين داخل الكيان الصهيوني والفلسطينيين داخل الكيان الفلسطيني ٠**

نحن نقول ، ان مؤتمر جنيف ، اذا عقد ، فلن يخرج باكثر من سلم مرحلي ٠ اما السلم الدائم ، فهو يتجاوز سقف هذا المؤتمر ٠ ونحن حين انطلقنا عام ١٩٦٥ ، انطلقنا من الضفة والقطاع ٠

☐ هل يعني هذا ان ثمة امكانية لتحقيق سلم مرحلي في ظل سقف مؤتمر جنيف ؟

● لقد اعلنا ان حضورنا لمؤتمر جنيف يقوم على الاسس التالية :

١) ان توجه الدعوة الى م · ت · ف · ٢) ان تحضر م · ت · ف · مؤتمر جنيف منذ البداية · ٣) ان تشترك م · ت · ف · في كافة اعماله · ٤) ان يكون بند فلسطين ، بندا مستقلا على جدول الاعمال · ٥) اذا قبلنا الدعوة فلن نقبلها على اساس القرار ٢٤٢ او القرار ٣٣٨ ·

نقبلها فقط على اساس القرار ٣٢٣٦ · اي اننا نرفض حدودا آمنة معترفا بها لاسرائيل · ٦) نرفض حضور جنيف كشهود زور لتسوية عربية – اسرائيلية · ٧) ان اسرائيل والولايات المتحدة غير جادتين في اقامة سلام دائم وعادل في المنطقة ·

هذا هو موقفنا الواضح من مؤتمر جنيف ، وقد ابلغناه لفالدهايم · كما ان ثقة العالم بالقرار ٢٤٢ قد اهتزت · فمجلس الامن رفض في شهر كانون الثاني (يناير) طرح المندوب البريطاني لاعادة الثقة بالقرار ·

☐ ما هو تقديركم للاحتمالات الفعلية للحرب والسلام ؟

● نحن في م · ت · ف · لا نرى القواعد السياسية والمرتكزات الصالحة لوجود تفاؤل عربي في التسوية السياسية · فنحن نرى : (١) ان موازين القوى العسكرية ليست لصالح الدول العربية بل هي لصالح اسرائيل · وهذا عامل اساسي في تقرير ما يمكن الحصول عليه من حقوقنا القومية · (٢) ان التضامن العربي الذي لعب دورا اساسيا في حرب تشرين ١٩٧٣ ، لم يعد قائما ، وهناك خلافات وصراعات بين الانظمة العربية · (٣) عامل الضغط الاقتصادي على اوروبا والولايات المتحدة ، اي النفط · فليس هناك ما يشير الى ان الدول البترولية ، ستستخدم هذا العامل بشكل كبير ، كما في حرب تشرين · (٤) ان علاقات بعض الدول العربية ، مع الدول الكبرى الصديقة ، اي مع الاتحاد السوفياتي هي علاقة غير جيدة · ان الاتحاد السوفياتي الذي سيحضر مؤتمر جنيف ، من المفترض ان ينسق عمله مع مصر وسوريا · وهو الان ، على علاقة غير حسنة مع مصر ·

هذه العوامل ، التي كان من المفترض ، ان تكون عوامل قوة في الجانب العربي ، اصبحت عوامل ضعف · فكيف يمكن ان تكون هناك تسوية سياسية مقبولة من الدول العربية ؟·

اما في الجانب الاخر · فاننا نرى ان السياسة الاميركية بدأت تتجه لخلق

ظروف حرب باردة جديدة · اذن ، فاحتمالات الحرب في المنطقة سوف تزداد ، لان الصراع في الشرق الاوسط ليس معزولا عن الصراع الدولي بين قوى التحرر والتقدم وبين قوى التخلف والامبريالية ··

لذلك فنحن لا نرى في الافق امكانية حل ، حتى ولو عقد مؤتمر جنيف · وحتى اذا عقد فلن يكون اكثر من عملية «كموفلاج» من اجل امتصاص جزء من التوتر ·

كما ان الولايات المتحدة تعاني من عدة مشاكل : ١) المشاكل المحلية الداخلية · ٢) قضية الاسلحة الستراتيجية ، في علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي · ٣) الامن الاوروبي · ٤) الحرب في افريقيا · ٥) مشكلة الشرق الاوسط ·

اذن ، فان احتمالات الحرب الباردة تزداد · وهناك مؤشرات على ذلك · زيارة غانس الفاشلة الى موسكو ، حيث برزت خلافات · اتفاقية الحد من الاسلحة الستراتيجية ، حقوق الانسان التي يعتبرها الاتحاد السوفياتي تدخلا في شؤونه الداخلية ، وهناك قضية التجارة الدولية ، هل يكون الاتحاد السوفياتي الدولة الاكثر رعاية ·

هكذا نرى ، فيما يتعلق بمنطقتنا ان **احتمالات الحرب اكبر من احتمالات السلام** وليس هناك توجه اسرائيلي واضح لقبول الحقوق الوطنية لشعبنا او للقبول بدولة فلسطينية مستقلة ·

كما لا توجد مؤشرات ايجابية اميركية · فالتصريحات الاميركية لا تزال تتجاهل القضية الفلسطينية وتعتبرها قضية لاجئين على الدول العربية المجاورة للارض المحتلة حلها ·

☐ ما هو موقف م · ت · ف · من تصريحات كارتر ، حول « الحدود القابلة للدفاع عنها » · وحول الوطن للاجئين ؟

● هذه التصريحات تحتاج الى تفسير · فنحن نخشى ان تعني كلمة Homeland مجرد مأوى للاجئين الفلسطينيين ، وفي هذا عودة الى مشاريع التوطين · واذا كان هذا الموقف يعتبر خطوة ايجابية ، فلا بد من اضافة كلمات قليلة كي يعطي تصريح كارتر وجهه الايجابي · لا بد من ان نقول عوض Homeland عبارة National Homeland اي وطن قومي · ان تستخدم عبارة الشعب الفلسطيني بدل عبارة اللاجئين الفلسطينيين ، بدل ان يقول ان الدول العربية تتولى هذه المسالة ، يجب ان يقال في فلسطين او في مناطقهم ·

اذا اضيفت هذه الامور الى التصريح ، عندها يمكننا اعتباره تصريحا

ايجابيا · ويخشى ان تكون عبارة مأوى للاجئين هي خطوة الى الخلف ، فوثيقة ساندروز اشارت الى استحالة الحل في الشرق الاوسط بدون الفلسطينيين · ساندروز قال بالمصالح المشروعة للشعب الفلسطيني ، اي انه اعترف بوجود شعب فلسطيني · والان نلاحظ ارتدادا الى الوراء ، الى مقولة اللاجئين ·

□ هناك في الواقع ، ثلاثة مواقف داخل الساحة الفلسطينية ، فيما يتعلق باستراتيجيتنا السياسية : ١) التفاهم المباشر مع اميركا · ٢) التحالف مع اصدقائنا الدوليين وخاصة الاتحاد السوفياتي · ٣) التحالف الفلسطيني ـ العربي · فما هو تقييمكم لهذه الاراء والمواقف ؟

● الواقع ان هذه القضايا متشابكة · والدبلوماسية الفلسطينية ، تأخذ هذه المسائل بأسرها ، في تشابكها ، وتطرحها ، من اجل خدمة اهداف محددة ·

هناك ايضا من يطالب برفض مؤتمر جنيف سلفا · ونحن نقول ، ان الدبلوماسية الفلسطينية لا تستطيع ان تتخذ موقفا يخالف الميثاق الوطني او قرارات المجالس الوطنية · وعلى ضوء الميثاق والقرارات التي تشكل هاديا لعملنا الدبلوماسي والسياسي نستطيع ان نشير الى الامور التالية :

هناك قرارات تدعو الى تعزيز التضامن العربي · كما ان هناك قرارات تدعو الى تعزيز التضامن مع دول عدم الانحياز والدول الاشتراكية والدول الاسلامية· وهناك قرارات تدعو الى تطوير الحوار العربي ـ الاوروبي ، والى تنمية علاقاتنا مع المنظمات الدولية ·

نحن نريد ان يعترف العالم بحقوقنا الوطنية ونحن على استعداد للتعامل مع كافة الانظمة او الدول بغض النظر عن انظمتها الاجتماعية ·

وليس هذا مستغربا ، فقد سبقتنا فيتنام اليه · لان المهم ، هو دعم حقوقنا الوطنية وتبنيها ، والعمل في سبيلها · نحن مع جبهة عربية وعلى اوسع نطاق ، لاننا نريد تضامنا عربيا في خدمة القضية العربية ·

اما عن الاتصال بالولايات المتحدة ، فنحن في الدائرة السياسية كممثلين للدبلوماسية الفلسطينية ، نؤكد على ان هذا الاتصال يجب أن يكون على مستوى رفيع · ولا شك في ان اعتراف الولايات المتحدة بحقوقنا المرحلية هي خطوة الى الامام · وهذا لن يغير موقفنا المبدئي الثابت المعادي للامبريالية · لقد اعلنت فيتنام استعدادها لاقامة علاقات دبلوماسية وسياسية وثقافية مع جميع البلدان بغض النظر عن انظمتها الاجتماعية بما فيها الولايات المتحدة · دون ان يعني هذا تحولا في موقفها المعادي للامبريالية ، الذي يدين الولايات المتحدة في كافة ممارساتها ·

عندما اتجهنا لاقامة علاقات مع الدول الاوروبية ، كنا نعلم ، ان فرنسا كانت تزود اسرائيل بطائرات الميراج · ولا شك ، ان تغير الموقف الفرنسي بالغ الاهمية بالنسبة لنا · فعلينا ان نعمل على تحويل العوامل الايجابية الى جانب العدو الى عوامل سلبية · اي ، لا بد من تحييد اصدقاء اعدائنا في المرحلة الاولى ثم كسبهم كاصدقاء في مرحلة لاحقة ·

ولكن ، هل يمكن للسياسة الاميركية ان تتغير وتصبح مؤيدة لاهدافنا الوطنية ؟ نحن نقول ، ان هذا غير ممكن الان على الاقل · لذلك يجب عزل السياسة الاميركية عن المجموعة الدولية ، كي نضعها في موقف لا تستطيع معه سوى الرضوخ لقرارات ومواقف المجموعة الدولية المؤيدة لحقوقنا ·

العزل الكامل لاسرائيل ، وعزل السياسة الاميركية · هذه هي اهدافنا · اما القول باتصالات فنحن لم نأخذ تعليمات لا من المجلس الوطني ، ولا من اللجنة التنفيذية لاقامة هذه الاتصالات · وفي مثل هذه الحالات يجب ان تكون التعليمات واضحة وصريحة ·

□ هناك من يحاول الفصل بين اسرائيل والولايات المتحدة · فهل يشكل هذا الفصل اساسا لفهمنا للتراجع الاميركي المطلوب ·

● نحن نهدف الى احداث تراجع في موقف الولايات المتحدة ، في الشرق الاوسط · اما القول بامكانية الفصل بين اسرائيل والولايات المتحدة ، فهذا مستحيل · نحن كمنظمة التحرير لا نرى امكانية فصل بين اسرائيل والولايات المتحدة · لان الولايات المتحدة تشترك وعلى كافة المستويات في ايجاد اسرائيل ودعمها · من الرغيف حتى الفانتوم · واسرائيل ، هي ضرورة استراتيجية للولايات المتحدة ، من اجل اعاقة حركة التحرر العربي ، واستنزاف موارد الامة العربية ، في حروب وصراعات وانشغال مستمر يعيق التنمية الاقتصادية· لكننا نريد احداث تراجع اميركي في الشرق الاوسط ، كما حدث هذا التراجع في فيتنام · ونحن نوافق العرب على ان يكون تراجعا مرحليا ، الى حدود ١٩٦٧ على الاقل · اما التغييرات في السياسة الاميركية فنحن نأخذها بعين الاعتبار ·

ونحن في المقابل ، ننسق مع القوى التقدمية والتحررية التي تؤيدنا ، من اجل دعم التيار التحرري في العالم الثالث · لذلك سعينا مع الدول العربية البترولية لزيادة دعمها الاقتصادي للبلدان الافريقية · لان استقلال هذه الدول امر هام · وكذلك ندعو الى دعم ومساندة القوى المواجهة للدول العنصرية في افريقيا وخاصة تانزانيا وموزامبيق وزامبيا · لان انهيار الانظمة العنصرية في افريقيا امر بالغ الدلالة والاهمية بالنسبة لنا · من هنا ندعو الدول العربية الى

دعم قوى المواجهة في افريقيا وعدم الانشغال في مشاكل اخرى تافهة ٠ فنحن نرى ان الصراع الحقيقي في افريقيا هو بين الانظمة الوطنية والانظمة العنصرية ٠

كذلك ، يجب ان نفهم ان العلاقات الدولية تقوم على تبادل المصالح ٠ فهناك قضية البترول ، التي يمكن استخدامها كورقة ضغط على اوروبا الغربية ومن خلالها على اميركا ٠ ونحن نرى كيف عطل الضغط الاميركي على اوروبا ، امكانية ان تصدر الدول التسع ورقة اكثر تقدما من ورقة ٦ نوفمبر ٠ فالبترول ورقة بالغة الاهمية ، يمكن استخدامها في الضغط على اوروبا الغربية ، لان معنى استخدامه بشكل فعال يقود الى بداية انهيار الامن الاوروبي وهذا ما تخشاه الولايات المتحدة وتسعى الى عدم حصوله ، لانه يهددها بشكل مباشر ٠ وهناك مثل اليابان ، التي تعتمد صناعاتها على البترول العربي ٠ فعلاقاتنا مع اليابان اصبحت جيدة ، وافتتحنا هناك مكتبا ، واليابان مستعدة للسير معنا ، افضل بكثير من الدول الغربية المرتبطة بالولايات المتحدة ٠

اما بشأن علاقاتنا مع الولايات المتحدة ، فنحن لا نقوم باتصالاتنا مباشرة ٠ نعتمد على الدول العربية البترولية التي لها علاقات حسنة مع الولايات المتحدة للقيام بالضغط ٠ نعتمد على السعودية والكويت وابو ظبي ٠ كما اننا نعتمد على الدول العربية التقدمية كالجزائر وليبيا والعراق وسوريا ، من اجل العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ٠ ولا شك ان البيان السوري السوفياتي دليل واضح على اهمية العلاقة السورية ـ السوفياتية في دعم الاهداف الفلسطينية والقومية في آن واحد ٠

□ هناك اتصالات فلسطينية اردنية ، فما هي المعاني السياسية لهذه الاتصالات في المرحلة الراهنة ؟

● لا بد في البداية من توضيح نقطة بالغة الاهمية ٠ فمنظمة التحرير قد انجزت الكثير في مجال الوصول الى استقلال القرار الفلسطيني ٠ طبعا ، هذا لا يعني اننا لا نتأثر بالعوامل المختلفة ٠ لكن القرار الفلسطيني هو في النهاية قرار مستقل ٠ ونحن نراعي الظروف العربية ، والتطورات العربية والدولية ، والتطورات داخل الساحة الفلسطينية ٠ على هذا الاساس تبنى السياسة الفلسطينية في الواقع الوطني والعربي والدولي ٠

العلاقات مع الاردن هي مسألة بالغة الاهمية ولا بد من بحثها بشيء من التفصيل ٠ من وجهة نظر سياسية ، نحن نقول لا بد من وجود علاقات مع الاردن ، ومن تعزيز هذه العلاقات ٠ لان الاردن هو شعبنا ٠ ونحن مع الوحدة

كشعار وكحقيقة · ولا يمكن ان نكون الا مع الاتجاه الوحدوي · ان شعبنا في الاردن سواء كان فلسطينيا او اردنيا هو شعب واحد ، ولا يمكن فصله ، بل على العكس ، سنعمل على تعزيز وحدته · لكن هدفنا اقامة دولة فلسطينية على جزء من ارضنا ، هو جزء من استراتيجية معروفة · كي تبقى الهوية الفلسطينية · فاذا لم نستطع في هذه المرحلة انجاز كامل اهدافنا ، فعلينا ان نترك الراية الفلسطينية التي تؤيدها الشرعية الدولية في ايدي الاجيال القادمة من اجل تحرير ما تبقى من ارضنا · يجب ان تستمر هذه القضية في الواقع العربي والدولي · فهناك فلسطينيون داخل الارض المحتلة يجب ان لا يندمجوا في الواقع الاسرائيلي · ولهم حق تقرير المصير ، لذلك يجب ان تبقى الراية الفلسطينية لتشدهم الى شعبهم · والدولة الفلسطينية سوف تحدد مواقعها من جميع الكيانات المجاورة ·

ولا شك في ان العلاقة الجيدة والممتازة مع الاردن ضرورية ، لانه هو عمقنا الستراتيجي ، ولا يمكن ان نقيم دولة فلسطينية مستقلة دون ان تكون هناك علاقة جيدة بيننا وبين الاردن ·

ثم هناك قضية نضالية · فشعبنا في الداخل يطالبنا بان نكون اكثر قربا من مواقعه · كل ثورة لا تكون لها قاعدة ارتكاز مجاورة لارض العمليات هي ثورة في المنفى وسوف تزول مع الزمن · فكلما اقتربنا من منطقة العمليات وبنينا قواعد سياسية ثم عسكرية ، نقترب اكثر الى حقيقتنا الثورية · فالثورة يجب ان تنمو بين الجماهير ، والغالبية العظمى من جماهيرنا موجودة في الاردن · ويجب ان نقضي على كل التيارات الاقليمية داخل الاردن · فشعبنا الذي استطاع من خلال قمة الرباط ، ان يؤكد حقوقه المكتسبة في فلسطين والاردن حقق انجازا فعليا · وقد وافق عليه الاردن · وهذه نقطة ايجابية · ويجب ان نقول ، ان الاردني سوف يتمتع في المستقبل بنفس الحقوق المكتسبة ، ومن حقه ان يحمل جوازا فلسطينيا وجوازا اردنيا في الوقت نفسه · فشعبنا واحد ·

هناك نقطة اخرى · فتنفيذ قرارات الرباط هو امر يتعلق بالاردن · ونحن بحاجة الى التنفيذ العملي المادي لهذه القرارات ·

اما تحديد العلاقة ، وشكلها وصيغتها قبل ان تتحرر الضفة الغربية فنحن متفقون مع الاردن ، وبحثناها شخصيا مع الملك حسين ، في انها مبكرة جدا · لا بد اولا من ان نأخذ الارض ، وبعد ذلك نحدد الصيغة · لاننا لا نريد ان نسمح لاسرائيل والولايات المتحدة بان تخلق نزاعات بين العرب ·

فمستقبل الارض هو شان عربي خاص بنا · ونحن نصر على العلاقة · مليون فلسطيني يقيمون في الاردن · هذه علاقة · ولا يمكن ان نقطعها · وبالنسبة للدولة الفلسطينية لا بد من قيام علاقة مع الاردن ، رغم انه يمكن ان تختلف مع

السياسة الاردنية الرسمية • ونحن بصراحة نختلف مع الكثير من الانظمة العربية • لكن يجب حل الخلافات عبر اشكال الحوار المتعددة •

□ ولكن هناك مصلحة للنظام الاردني في علاقته مع م • ت • ف • ونلاحظ تاريخيا ، ان هذه العلاقة كانت علاقة صدامية • ولا يمكن ان تكون الا كذلك ، نتيجة خلاف استراتيجي بيننا وبين هذا النظام ؟

● لنتحدث اولا في المبادىء ، ثم نأتي الى التجارب • لا بد اذا من صياغة المبادىء التي تحمي مسيرتنا • ثم نصل الى الممارسة • هناك مبادىء يجب استخلاصها من تجارب الشعوب ، من التجربة الفيتنامية • او من تمييز الرئيس ماوتسي تونغ في احدى مراحل نضاله بين الامبريالية الاميركية والبريطانية وبين الامبريالية اليابانية ، كذلك يجب ان نستفيد من تجربة الثورة الجزائرية في علاقاتها مع الدول المجاورة •

مبدئيا ، هناك تناقضات رئيسية وتناقضات ثانوية • التناقض الرئيسي هو بيننا وبين الصهيونية واسرائيل والامبريالية • وهناك تناقضات ثانوية مع انظمة متعددة • ولا يوجد نظام عربي لم نختلف معه ولم نتصارع معه ، ووصل الامر الى الصدام العسكري في بعض الاحيان ونحن لا نستطيع خوض معركتين في وقت واحد • وهذا مبدأ عام وصحيح •

ثم نأتي الى التجارب • هناك الكثير من المتغيرات الدولية • كل شيء يتحرك في هذا العالم بشكل جدي • كذلك ، يجب ان نأخذ في اعتبارنا الوجود الفدائي في لبنان واحتمالات المستقبل • ونحن ، نسير دائما في حركة دائرية حول الارض المحتلة • لا نستطيع الخروج من هذه الحركة ، لان معنى ذلك هو الابتعاد عن الارض المحتلة • والا تكون الثورة قد ابتعدت عن اهدافها • لذلك نحن داخل هذه الحركة الدائرية حول الارض المحتلة : لبنان ، سوريا ، الاردن ، مصر • لا استطيع الذهاب الى العراق او ليبيا • لا شك انهم اصدقاء ويساندون مسيرتنا• لكن قواعد ارتكازنا يجب ان تبقى هنا ، بين جماهيرنا •

تحتاج قاعدة الارتكاز لشروط معينة : ١) ان يكون لنا ارض صديقة • ٢) ان تكون الجماهير هناك مؤيدة لنا • ٣) ان نملك قوة سياسية وعسكرية تحمي وجودنا • ٤) ان تكون هناك قوى اقتصادية تسمح لنا بالاستمرار •

هذه الشروط يجب ان تتوفر • يمكن ان تتوفر بنسب معينة • الناحية الايجابية هي الاقتراب من جماهيرنا في الداخل • هدفنا المرحلي هو اقامة دولة فلسطينية

في الضفة والقطاع · لذلك يجب ان نقترب من الارض ، وهذا مـا تريـده الجماهير ·

هنا تقع الخلافات بيننا وبين الرفض المثالي · رفض التسوية السياسية · فالرفض الذي يتحقق في الواقع لا فائدة منه · اذا اردت ان تغير واقعا فلا بد من التماس المباشر به · وعندما اكون في تماس من اجل التغيير عندها اكـون ثوريا ·

لقد ساعدتنا الظروف على اقامة هذا الحوار مع الاردن · وربما ، سـوف يكون بطيئا ، ونتائجه بطيئة ، لان عوامل الثقة لا تزال غير متوفـرة · نحـن ننطلق في هذه العلاقة من قرارات الرباط ، التي تؤكـد حقنـا في اقامة دولـة فلسطينية ، وتؤكد على حقوق الفلسطينيين في الاردن ·

على الثورة ، كما اعتقد ، ان تبنى سياسيا وعسكريا وثقافيا واقتصاديا · ويجب ربط مصالح الجماهير بهذه الثورة · فالناس لا تأكل الافكار · او كمـا قال نابليون : إلجيوش تزحف على بطونها · غدا سوف نخرج جوازات سفر ، لانها تخدم الجماهير · وربما سيخرج غدا بعضهم ، ليقول : انظروا هـؤلاء يريدون اقامة دولة · المهم هو خدمة هدفنا المرحلي ومعرفة مصالح الجماهير · الجماهير في الاردن تطالب بعودتنا ، ومن هنا ، قرر المجلس المركزي اقامة هذا الحوار · لا يوجد في العالم عداوات دائمة او صداقات دائمة ، هنالك مصالـح دائمة · كما ان التغيير لا يتم الا عبر التماس مع الواقع المادي والاجتماعي ·

☐ كيف تقيم زيارة الاخ ياسر عرفات الاخيرة الى موسكو · وما هـو الجديد في الصداقة بين الثورة الفلسطينية والاتحاد السوفياتي ؟

● في الحقيقة ، نستطيع ان نسجل النقاط التالية حول زيارة موسكو :

اولا : لقد جاءت الزيارة ، بعد احداث لبنان الدامية · وهي تأكيد على قوة الثورة الفلسطينية ، وعلى متانة العلاقات التي تربطها بالمنظومة الاشتراكية ، كقوى صديقة ، تدعم الثورة الفلسطينية وتدعم الاهداف الفلسطينية ·

ثانيا : انها ، زيارة لاول زعيم عربي لموسكو ، بعد احداث لبنان ، وبعد كل ما قيل ويقال حول وجود قطيعة بين بعض العرب وموسكو · فكانت تمهيـدا فعليا لزيارات عربية اخرى · وهذا امر بالغ الاهمية ، لانه يدعم الجبهـة التقدمية والوطنية والعربية ضد اسرائيل ·

ثالثا : لقد عومل الوفد بشكل رسمي · واستقبل الاخ ياسر عرفات كرئيـس دولة · وعقد لقاءات مع الرفيق بريجنيف تناولت كافة الشؤون ، كما ركزت على تعزيز العلاقات السوفياتية الفلسطينية ، وعلى الدعم السوفياتي لمسيرتنـا ،

واستعدادهم لتقديم المساعدات والدعم على المستوى الدولي ، في سبيل اشتراكنا في جميع المؤتمرات الدولية التي تبحث القضية الفلسطينية · كما تناول البحث العلاقات العربية السوفياتية ·

لقد كانت هذه الزيارة ، تحمل طابعا سياسيا خاصا ، ومستوى رفيعا من العلاقات السوفياتية ـ الفلسطينية ·

□ ما هو الدور الفلسطيني في اصلاح العلاقات المصرية السوفياتية · ثم هل هناك تصور سوفياتي جديد للحل في المنطقة ؟

● لقد كانت م · ت · ف · مهتمة دائما بموضوع تحسين العلاقات العربية ـ السوفياتية ، وخاصة العلاقات المصرية ـ السوفياتية ، التي اصابها الفتور في الآونة الاخيرة · لاننا نعلم ان العلاقات العربية ـ السوفياتية ، يجب ان تكون جيدة وذلك للاسباب التالية :

١) لانه يساعدنا على التزود بالسلاح · فالاتحاد السوفياتي هو المصدر الرئيسي لسلاحنا · اذ لا يمكن ان نحصل على سلاح باثمان رخيصة ، وبالنوعية المطلوبة ، من اي مصدر اخر ·

٢) ان الاتحاد السوفياتي ادان ويدين الموقف الاسرائيلي والاميركي ، ويقف الى جانب العرب في هدفهم العلني : ازالة اثار العدوان ·

٣) لان الاتحاد السوفياتي ، دولة صديقة ، تقف الى جانبنا ضد التحركات الامبريالية · وهي عضو في مؤتمر جنيف ، تقف الى جانب الحق العربي ·

هذه هي الاسباب التي تدفعنا للعمل على تحسين العلاقات المصرية ـ السوفياتية ، فتحسن هذه العلاقات ، سوف يقلب موازين القوى سياسيا لمصلحتنا ·

في موسكو . اجريت محادثات مع الرفيق غروميكو حول هذا الموضوع ، وابدى الاتحاد السوفياتي استعدادا كاملا من اجل تحسين العلاقة ، شريطة ان يكون هناك تهيئة من الجانب العربي · كما التقينا في نيويورك ، وبحثنا نفس المسألة · هكذا ، توقفت الحملات الاعلامية وبدأت العلاقات في التحسن · كذلك ، عندما قابلنا الرئيس السادات بعد انتخاب اللجنة التنفيذية الجديدة ابدى السادات استعدادا لتحسين هذه العلاقات · وبحث مع الاخ ياسر عرفات من اجل العمل في هذا الاتجاه ·

لكننا نشعر ، انه خلال عملنا لتحسين العلاقات ، يحصل دائما شيء جديد · فتبدأ الحملات الاعلامية · وكأن هناك مخططا لافشال هذه المحاولات ·

ان قضية النقد والحوار بين السوفيات ومصر ، هي مسالة ضرورية · لكن يجب ان لا تجري على صفحات الصحف · ولا شك ان اعلانا مصريا بالرغبة في تحسين العلاقات سوف يؤدي الى خطوات ايجابية · وعلى كل حال ، لا نزال نبذل الكثير من الجهد من اجل تحسين هذه العلاقات ·

اما مسالة وجود تصور سوفياتي جديد لمسالة حل الازمة · فالواقع انه لم تطرح علينا اشياء جديدة ، سوى مؤتمر جنيف ، واصرار السوفيات على المشاركة الفلسطينية في المؤتمر منذ البداية ، وعلى اساس اقامة دولة فلسطينية مستقلة ولن يرضى الاتحاد السوفياتي بشيء يرفضه الفلسطينيون ·

□ كيف نقيم انعكاس الحرب الباردة ، على ازمة الشرق الاوسط ؟

● في الواقع ، هناك الكثير من المؤشرات على وجود توتر دولي · تصريحات الرئيس كارتر حول حقوق الانسان في المنظومة الاشتراكية ، والتي يعتبرها الاتحاد السوفياتي تدخلا في شؤونه الداخلية · ثم هناك قضية الانظمة العنصرية في افريقيا ، واستمرار ايان سميث بالتشبث بموقف عدم اعطاء الغالبية السوداء حقها · بالاضافة الى وجود تحركات اميركية في افريقيا يعتبرها الاتحاد السوفياتي معادية له · ثم هناك مسالة عدم ابرام اتفاقية سالت ٢ · وهناك طبعا ، الموقف السوفياتي بدعم الشعوب العربية في مواجهة العدوان الاسرائيلي ·

في افريقيا عدة مشاكل · ١ ـ الانظمة العنصرية · ٢ ـ مسألة زائير · ٣ ـ مسألة اريتريا ومسألة البحر الاحمر ·

ونحن نعتقد ان الاتحاد السوفياتي سيتخذ سياسة اكثر حزما في مواجهة الانظمة العنصرية ، ولدعم تانزانيا وزامبيا وموزامبيق ·

ثم هناك مشكلة اريتريا · وهي قضية افريقية وعربية في آن معا · فمنظمة الوحدة الافريقية ترى انها قضية داخلية · ونحن كعرب ، نرى انها حركة وطنية تحررية تريد الاستقلال · ولكن ، وتفاديا لتوتر العلاقات بين المجموعتين العربية والافريقية ، يجب حل المسألة الارتيرية ، عبر التفاهم اذا امكن مع اثيوبيا ومنظمة الوحدة الافريقية · والا ، فاننا نخشى ان يتصدع التنسيق والتضامن العربي الافريقي ، وهذا ما تسعى اليه اسرائيل ، فعوامل الاستقطاب الدولي والعربي في المسألة الارتيرية قد تقود الى نتائج سلبية جدا · ونحن ، عندما بحثنا الامر مع الرفاق اليوغسلاف ، قلنا لهم ، انه يجب اقناع الاثيوبيين بضرورة حل مسألة اريتريا ، وعليهم ان يعلنوا موقفا يساعد القوى التقدمية العربية التي تدعم الثورة الاريترية ، على اتخاذ موقف ·

ان هذا الخلاف ، سوف يشكل مدخلا للتدخل الاسرائيلي في سبيل شق الصف العربي الافريقي · وهي قضية بالغة الحساسية ، لان هناك اتفاقا اسرائيليا اميركيا ، على « حق » اسرائيل في الطيران فوق البحر الاحمر ، والمرور في جبل طارق وباب المندب · فاسرائيل والولايات المتحدة تريدان من هذا الصراع تنفيذ هذه الاهداف التي اعلنتها البروتوكولات السرية الملحقة باتفاقية سيناء · ونحن نخشى ، ان يقودنا الوضع الافريقي الى تاجيل ازمة الشرق الاوسط · انهم يريدون للدول العربية وخاصة مصر والسودان ان تتوجه بقواها الى هذه المعركة في افريقيا · والتي يمكن تجاوزها بوعي ·

□ ما الجديد ، في موضوع تطبيق اتفاقية القاهرة في لبنان · بعد الهدوء النسبي للوضع في لبنان ، وخاصة في الجنوب ؟

● نحن ملتزمون بتنفيذ اتفاقية القاهرة نصا وروحا · والحديث عن تنفيذ الاتفاقية من جانب واحد هو مبالغة في حد ذاتها · لقد نفذنا نسبة كبيرة من الاتفاقية ، ولم يبق الا الجانب الذي يمنعنا الطرف الاخر من تنفيذه ، عبر عملياته في الجنوب ·

كما ان ما تبقى من تنفيذ اتفاقية القاهرة ، يحتاج الى وجود جيش لبناني من اجل التنسيق معه ، لان الاتفاقية ، تنص على التنسيق مع الجيش · ولا شك ان تشكيل الجيش اللبناني بامرة الرئيس سركيس سوف يساعد على حل النقاط الروتينية المتبقية لتنفيذ الاتفاقية · في مؤتمر الرياض ، قلت انا شخصيا للرئيس سركيس ، اننا لا نقبل بتفسير من جانب واحد · لذلك اقترح الرئيس السادات ايجاد اللجنة الرباعية من اجل هذه المسائل ·

لقد ابدينا الاستعداد لتنفيذ الاتفاقية نظريا ونفذناها عمليا · ايقاف الاذاعات، سحب الاسلحة الثقيلة ، انهاء المظاهر العسكرية · وابدينا كامل الاستعداد للتعاون مع الرئيس سركيس · هناك مبالغة في الجانب الاخر ، لانه لم ينفذ شيئا بحسب اتفاقية الرياض ومقررات مؤتمر القاهرة ·

ونحن ، سعينا الى حوارات مع الجبهة اللبنانية من اجل ازالة كافة الشكوك والمخاوف ، لان هدفنا هو ان يكون لبنان مستقلا ، وسيادته كاملة على اراضيه · ونحن نريد ان نكون عنصر استقرار وامن · لان هذا يساعدنا من اجل توجيه كل جهودنا الى الارض المحتلة ·

ان م · ت · ف · تبذل كل الجهد الممكن من اجل ان يكون هناك لبنان المستقل الآمن في اسرع وقت · ومن اجل اعادة بناء جيش لبنان ، لان هذا يساعدنا على تنفيذ ما تبقى من اجراءات روتينية في اتفاقية القاهرة · كما ان

المصالحة الوطنية ، سوف تكون عنصرا اساسيا يضع لبنان على طريق الاستقرار والامن ، من اجل عودة الحياة الطبيعية اليه ·

☐ ما هو تأثير الواقع الداخلي الفلسطيني ، على تحرك م · ت · ف · الدولي ؟

● لا شك ان الواقع الداخلي الفلسطيني يؤثر على الاتصالات التي نقيمها مع الواقع الدولي · هناك نواح ايجابية واخرى سلبية ·

فوجود معارضة فلسطينية ، هو بحد ذاته نقطة ايجابية · اذ تشير الى وجود روح ديمقراطية لدى الفلسطينيين · وهناك حرية تعبير حقيقية · فهذا المجتمع ، هو مجتمع ديمقراطي مسؤول يحترم حرية الانسان · لكن هناك ناحية سلبية · فعندما تأخذ المعارضة شكل الاتهام والتشكيك والشتائم ، فانها تأخذ شكــــلا انقساميا · وهذا يضعف موقفنا ·

هناك مسألة اخرى بالغة الاهمية · **فوحدة القوى العسكرية للثورة بالغــة الاهمية ·**

ان وحدة موقفنا السياسي ، في الضفة الغربية ، هي التي افشلت مخطـط اذابة الفلسطينيين · فموقف شعبنا في الداخل ، ونتائج الانتخابات البلدية ، كانت ذات اثر بالغ على الرأي العام العالمي · وجعلته اكثر تفهما ومسانـــدة لموقف م · ت · ف ·

كما ان المجلس الوطني الفلسطيني ، في دورته الاخيرة ، قد ساده جـــو ديمقراطي حقيقي · رغم جو الضغوط ، فلم يمس الميثاق الوطني لجهة الاعتراف باسرائيل · كما احبط الضغوط التي كانت تدعو لتغيير القيادة الحاليـــــة ، واعطاها ثقة كاملة ·

كذلك لم تبرز معارضة كبيرة · وجبهة الرفض لم تتخذ مواقف كجبهة رفض · اذ دخلت اللجنة التنفيذية ثلاث منظمات رفض من اصل اربع منظمات · فهناك معارضة فلسطينية ، وليس هناك رفض فلسطيني ·

لقد اكد المجلس الوطني مجموعة حقائق: ١) احترام الديمقراطية الفلسطينية· ٢) ان الموقف الفلسطيني واحد · وان م · ت · ف · خرجت من الاحـــداث الدامية ، اكثر تمثيلية للشعب الفلسطيني · وهي الجهة الوحيدة التي تمثـــل

الشعب الفلسطيني دون منازع ٠ ٣) لا بد ، من الوصول الى الوحدة العسكرية الكاملة ٠ وتأكيد ان الخلافات ، اذا حصلت ، هي خلافات سياسية ٠ وهذا يزيد من احترام الشعوب والقوى الاخرى لنا ٠

واخيرا ، فالمطلوب ، هو تنقية الاجواء العربية من الصراعات والخلافات الثانوية ٠ والتأكيد على ان توجه الامة العربية الرئيسي يجب ان يكون في اتجاه المعركة الاساسية ضد اسرائيل والعدوان الصهيوني وضد التخلف ٠

دور البحريّة العربيّة في البحر الأحمر

محمود عزمي

كشف حرب ١٩٧٣ اهمية الدور الاستراتيجي الذي يمكن ان تلعبه القوة البحرية العربية في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، كأداة لممارسة « الخنق الاستراتيجي » الفعال ضد رئة اسرائيل الجنوبية « ايلات » ، ليس بصورة مباشرة عند مضائق « تيران » كما حدث عشية حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وانما بصورة غير مباشرة في عمق البحر الاحمر عند « باب المندب » ·

وكشف هذا الدور للبحرية العربية ، في الوقت ذاته ، الاهمية الاستراتيجية للبحر الاحمر بالنسبة للعرب هجوميا ودفاعيا في صراعهم ضد عدوهم الرئيسي، وهو الكيان الصهيوني الاستعماري في فلسطين · فضلا عن اهميته في تأمين المناطق الداخلية من الارض العربية البعيدة نسبيا عن المحيط الهندي والبحر الابيض المتوسط ، والتي تحتوي على ثرواتهم البترولية والاقتصادية الرئيسية ، كما تشكل في الوقت نفسه عمقها الدفاعي الاستراتيجي · ففي البحر الاحمر تستطيع البحرية العربية ان تفرض حصارا اقتصاديا خطير النتائج على اسرائيل ، الامر الذي يشكل اداة ردع قوية كافية ، يمكن ان تصبح ورقة ضغط ومساومة في ايدي العرب في صراع الارادات الاستراتيجي بينهم وبين اسرائيل ، اذا ما توفرت لها ظروف الممارسة السليمة ضمن استراتيجية عربية عليا مدروسة جيدا · وفي البحر الاحمر تستطيع البحرية العربية تأمين عمق مصر والسودان والسعودية ضد اي ضربات اسرائيلية استراتيجية محتملة في المستقبل ، خاصة عندما يدخل « الردع النووي » المنطقة بشكل متبادل بينهم

وبين اسرائيل ، وتنشأ اهمية الاحتفاظ بالقدرة على توجيه ضربة ثانية بواسطة صواريخ تطلق من غواصات او زوارق او سفن تطوف في البحر الاحمر ضد الاهداف العربية الحيوية في العمق المصري او السعودي مثلا · وكذلك ضد الضربات الثأرية الاقل خطورة التي تستخدم رؤوسا حربية تقليدية ، او العمليات الفدائية الرادعة التي قد تقوم بها وحدات اغارة من « الكوماندوس » البحري الاسرائيلي ·

وفي البحر الاحمر تستطيع البحرية العربية ، ضمن ظروف وشروط قوة معينة ، ان تؤمن حرية الملاحة للسفن ناقلة البترول العربي من ميناء « ينبع » الذي سيمتد اليه مستقبلا خط انابيب من مناطق انتاج النفط في وسط شبه الجزيرة العربية ، والتي ستعبر به قناة السويس او تفرغه في خط الانابيب المصري عند « السخنة » على الشاطىء الغربي لخليج السويس ، الذي ينقل النفط الى شاطىء البحر الابيض المتوسط قرب الاسكندرية كوسيلة داعمة ، واحتياطية في الوقت ذاته ، لقناة السويس كطريق رئيسي لنقل النفط ·

لكل هذه الاسباب ، التي تناولنا العديد من تفاصيلها في دراسة سابقة عن « الضرورة الاستراتيجية للسيطرة العربية على البحر الاحمر » (١) ، يجب ان يتوفر للارادة الاستراتيجية القومية العربية متطلبات القوة البحرية القادرة على تامين هذه الاهداف الاستراتيجية الهجومية والدفاعية ·

الاطار الاستراتيجي للقوة البحرية العربية :

ومن المتطلبات الحيوية لنجاح تشكيل واستخدام القوة العسكرية بصفة عامة والقوة البحرية بصفة خاصة ، باعتبار انها مجال بحثنا هذا ، ليس فقط البحث في نوعية وحجم تسليح هذه القوة وكيفية تنظيم استخدامها من حيث توزيعها وقيادتها واسلوب عملياتها وتكتيكاتها القتالية الخ · وانما ايضا ، وفي الاساس ، ضرورة تحديد ومعرفة الاوضاع والظروف والشروط الاستراتيجية الملائمة واللازمة لنجاح استخدام هذه القوة ، والتي على ضوئها يتحدد في واقع الامر (او هكذا يجب ان يكون) نوعية التسليح والتنظيم واسلوب العمليات · وذلك بحكم ان الاستراتيجية العسكرية السليمة انما تنبع في خدمة الاستراتيجية العليا الصحيحة التي تعمل في اطارها ، وان ادارة العمليات والتكتيك يتبع الاستراتيجية العسكرية وليس

---

١ ـ راجع مقال « السيطرة العربية على البحر الاحمر ضرورة استراتيجية » ، شؤون فلسطينية العدد ٦٦ ، ايار (مايو) ١٩٧٧ ، صفحات ٩٦ ـ ١٠٩ ·

العكس • ولقد كان احد الاسباب الرئيسية للفشل العسكري العربي المتكرر من قبل ، في حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، عدم وجود استراتيجية عليا عربية واضحة الاهداف ، ومن ثم عدم وجود استراتيجية عسكرية محددة بدقـــة ، وبالتالي كانت القوة العسكرية العربية عفوية في تسليحها وتنظيمها واسلـوب استخدامها ، في واقع الحال ، او لم تحكمها خطة استراتيجية عامة محددة بدقة وعلى اسس موضوعية سليمة في معظم الاحوال • وكان ذلك احد العوامـــل الرئيسية التي ادت الى اختلال ميزان القوى العسكري العربي ـ الاسرائيلـي من الناحية العلمية ، الى جانب العوامل الاخرى المتمثلة في عدم الحشد الكامل للقوى العسكرية العربية في المكان والزمان المناسبين ، وفي ضعف المقـــدرة التنظيمية والقيادية الذي افقد الوسائل العسكرية العربية الكثير من امكاناتها الحقيقية الكامنة ، وذلك على الرغم من تفوق ، او تقارب ، كثير من العناصـر المادية المكونة لميزان القوى العسكري بين الطرفين كميا ونوعيا •

ولذلك فان تشكيل واستخدام القوة البحرية العربية في البحر الاحمر يجــب ان يتم ضمن فهم واقعي سليم للحقائق والمعطيات الاستراتيجية المحيطـــة بـــه وبالصراع العربي ـ الاسرائيلي ، على كلا المستويين المحلي والدولي ، وعلـــى ضوء الخبرات التاريخية التي افرزها واقع مجرى الصراع منذ نهاية حــــرب ١٩٤٨ • ويمكن ان نجمل هذه المعطيات والحقائق الاستراتيجية في النقـــاط التالية :

١ ـ ان البحر الاحمر كمسرح لممارسة « الردع » او « العنف المسلح المباشر » ضد اسرائيل ، باعتبارها العدو الرئيسي للامة العربية في المنطقة ، لا ينفصل عن بقية المسارح الجغرافية ـ الاستراتيجية للصراع • ومن ثم فانـــــه يخضـــع للحسابات الاستراتيجية ذاتها المتصلة بمواقف القوى الدولية من قضايا هذا الصراع في المراحل المختلفة التي يجتازها ، ولا بد من اجراء تقييم مسبق لاي عملية فيه على اساس التوقعات الخاصة بمختلف المواقف الدولية ، في ظل تحديد سليم ودقيق للقوى الصديقة والقوى المعادية والقوى المحايدة ، او التي يمكـن تحييدها • وفي الوقت نفسه يتم تحديد الموقف من القوى المحلية غير العربيـــة في المنطقة (مثل اثيوبيا) ، على ضوء المعيار ذاته المستخدم في تصنيف موقف القوى الدولية ، وهو الموقف من اسرائيل وعدالة القضية العربيـــــة عامـــة والفلسطينية خاصة في الصراع ضدها •

٢ ـ أن اي مواجهة عربية لاسرائيل تجري في البحر الاحمر ، سواء اتخذت شكل « الردع » (مثل فرض الحصار عند « باب المندب » مثلا) ، او سلكـــت سبيل مواجهة مسلحة محدودة المكان والزمان ، يجب ان تتم ضمن تحسب كامل واع من حيث التخطيط الاستراتيجي والعملياتي واعداد وسائل القوة المستخدمة

والاحتياطية ، لاحتمال تحول المواجهة المذكورة الى مواجهة شاملة مع القـوة الاسرائيلية ، في مسرح اخر للعمليات مثل سيناء ، او البحر الابيض المتوسط او الاثنين معا · ففي عام ١٩٥٦ لم تبدأ العمليات العسكرية الاسرائيلية لرفـع الحصار البحري عن مضائق « تيران » على محور « ايلات ـ شرم الشيخ » ، وانما بدأت بهجوم ثانوي مخادع على ممر « متلا » ومحور « الكونتلا ـ نخـل ـ متلا » الجنوبي ، اعقبه هجوم رئيسي على « ابو عجيلة » موقع الدفاع الاساسي على المحور الاوسط الممتد من « ابو عجيلة » حتـى قنـاة السويـس عنـد « الاسماعيلية » مرورا بجبل « لبنى » و « بيرجفجافة » ، ثم هجوم اخر علـى « رفح » وقطاع « غزة » و « العريش » على المحور الشمالى حتى « رمانـة » ومشارف « القنطرة شرق » · ثم جاءت عملية اللواء الميكانيكي التاسع الزاحف من « ايلات » نحو « رأس نصراني » و « شرم الشيخ » عبر « رأس النقب » و « نويبع » و « دهب » كعملية ثانوية تكميلية · وفي عام ١٩٦٧ شكلت عمليـة اخلاء قوات الطوارىء الدولية من « شرم الشيخ » و « راس نصراني » واعادة فرض « الخنق الاستراتيجي » على مضائق « تيران » ضد اسرائيل ، الشـرارة الرئيسية للحرب العربية ـ الاسرائيلية الثالثة . واعتبرت الغطاء الاعلامـي والتبرير الدعائي الاساسي للمناورة الخارجية الاسرائيلية اللازمة لتغطيـة المناورة الداخلية ، المتمثلة في العدوان الاسرائيلي الشامل على كل من مصـر وسوريا والاردن ، ورغم ذلك لم تباشر القيادة العسكرية الاسرائيلية اي نشـاط هجومي بري او محمول جوا ضد منطقة « رأس نصراني ـ شرم الشيخ » او حتى المحور الجنوبي كله خلال المرحلة الرئيسية الاولى من الهجوم الاسرائيلي علـى سيناء · وذلك على خلاف توقعات القيادة العسكرية العليا المصرية ، التي كانت تتوقع طوال المرحلة الاخيرة السابقة لنشوب القتال وقوع هجوم رئيسي فـي منطقة خليج « العقبة » والمحور الجنوبي يستهدف اعادة فتح الملاحـة فـي مضائق « تيران » ضمن اطار عملية عسكرية محدودة نسبيا تتم على هذا الجزء من مسرح العمليات في سيناء · ولذلك حشدت معظم التشكيـلات المدرعـة والميكانيكية على المحور الجنوبي ، حتى تستطيع توجيه ضربة مضادة من منطقة « الكونتلا » والمناطق القريبة منها تستهدف الالتفاف حول مؤخرة القـوات الاسرائيلية المتقدمة على طول خليج « العقبة » نحو « شرم الشيخ » وقطع طريق « ايلات ـ بئر السبع » تمهيدا لاحتلال « ايلات » نفسها بعد ذلك والقضاء على قاعدة عمليات هذه القوات · وقد ساعدت اجراءات الخداع الاستراتيجـي الاسرائيلية على خلق هذه القناعة لدى القيادة المصرية وتدعيمها بقوة في الايام السابقة مباشرة لعدوان ٥ حزيران (يونيو) ٦٧ ، بما تضمنته من حشود هيكلية في المنطقة وتكثيف لطلعات طائرات الاستطلاع فوق خليج العقبـة و «شـرم الشيخ » · ثم جاء الهجوم الرئيسي على المحور الشمالي عبر « خان يونس ـ

رفح » نحو « العريش » ، يسانده هجوم اخر على « ابو عجيلة » والمنطقة الممتدة بينها وبين « العريش » ، واثر نجاح اختراق خط الدفاع الاول اندفعت الارتال المدرعة الرئيسية نحو مؤخرة المحور الجنوبي عند «نخل» و «بيرتمادة» المتجمعة « متلا » و « الجدي » في حركة اقتراب غير مباشر ضد القوات الرئيسية المتجمعة في اجزائه الامامية ، ادت الى قلب توازنها الاستراتيجي وقطع طرق مواصلاتها وسبل انسحابها وضرب قواعدها الادارية ومراكزها القيادية ضمن ظروف سيادة جوية شبه كاملة ، وفرتها الضربة الجوية الاولى المفاجئة ، ومن ثم قضي على الجزء الرئيسي من هذه القوات ، وتم احتلال « شرم الشيخ » بعملية انـــــزال بحرى بسيطة فى نهاية العمليات بعد انسحاب القوات المصرية منها !

وهكذا تؤكد لنا الخبرة التاريخية المستفادة من حربي ٥٦ و ٦٧ ان الرد الاسرائيلي على « الخنق الاستراتيجي » العربي في البحر الاحمر ، كان يتـــم دائما في صورة حرب شاملة لا تتخذ بالضرورة من الموقع الجغرافي لمســـرح العمليات الذي يحدث فيه « الخنق الاستراتيجي » مجالا مباشرا او رئيسيـــا للعمليات العسكرية المضادة . اما في حرب ١٩٧٣ ، فقد جاء حصار « بـــاب المندب » ضمن الاطار العام لاخذ المبادرة الاستراتيجية من جانب العرب ، وعملت البحرية الاسرائيلية على الرد عليه بصورة غير مباشرة في صورة هجمات تكتيكية متوالية منذ اليوم الاول للحرب في البحر الابيض المتوسط ضد القطـع البحرية المصرية من « بورسعيد » حتى مشارف « الاسكندرية » عند « ابو قير »، فضلا عن استخدام حالة تطويق جزء من الجيش الثالث في السويس والقطاع الجنوبي من جبهة القناة كورقة مساومة من اجل السماح بمرور المؤن اليه مقابل تخفيف ورفع الحصار عن « باب المندب » . وبطبيعة الحال لو لم تحدث هـــذه الحالة المترتبة على ثغرة « الدفرسوار » وتطويرها ضمن ظروف وقف اطــــلاق النار ، لكان من الممكن للقيادة المصرية ان تحصل مقابل رفع حصار « بـــــاب المندب » على تنازلات اسرائيلية افضل . وفي النتيجة الاخيرة يتضـــح لنا ان الاستفادة الفعالة من ممارسة « الخنق الاستراتيجي » في البحر الاحمر ، المترتب على السيطرة العربية البحرية القوية فيه ، تتطلب توفر عناصر القوة والـــردع العربيين بصورة متكاملة الاركان والقدرة على التصدي لاعمال الرد الاسرائيلي المباشر وغير المباشر ، الجزئية أو الشاملة ، حتى لا تتحول محاولة ممارســـة « الخنق الاستراتيجي » المطلوب الى شبه مغامرة استراتيجية تعتمد على مجرد « ضربة الحظ » كسبيل الى نجاحها ، وذلك ضمن ميزان القوى القائم حاليا ، وفي المستقبل المنظور ، بين العرب واسرائيل في مجال القوة العسكرية .

٣ ــ يقول الكاتب الاستراتيجي الاميركي ، المتخصص في شؤون الحـــرب البحرية ، « برنارد برودي » في مجال تعريفه لهدف الاستراتيجية البحرية « ان الهدف الذي نرمي اليه من كل العمليات البحرية ، اذا استثنينا ضرب الاهـداف

الارضية من البحر بغلالات نيران مدفعية السفن الحربية من البحر (وهذا ليس من الواجبات الرئيسية للقوات البحرية ، ولكنه واجب ثانوي يطلب منها احيانا في ظروف خاصة) ، هو تمكين سفن الشحن التي تحمل معظم احتياجات الجنود من حرية الملاحة وتأمين تحركاتها عبر البحار » ٠ (٢)

أي أن الهدف الرئيسي من الاستراتيجية البحرية هو قطع طرق مواصلات وامداد العدو البحرية وتأمين طرق المواصلات البحرية الصديقة ، فضلا عن القيام باغارات بحرية على الاهداف الارضية او انزال برمائي صغير او كبير يخدم المخطط العام للعمليات البرية التي تحسم الصراع المسلح ٠ وهذا يعني ان العمليات البحرية لا تحقق تأثيرا ملموسا على النشاطات الحربية لكلا الطرفين الا في فترة زمنية طويلة نسبيا ، وذلك حتى يبدأ نقص الموارد الاقتصادية والعسكرية اللازمة لادارة العمليات الحربية المختلفة يؤتي ثماره ، خاصة وان وسائل النقل والامداد الجوي الحديثة يمكن ان تسد النقص الجزئي لهذه المتطلبات في المدى القصير نسبيا ، ما دام الخصم لا يزال يملك قدرا معقولا من حرية استخدام وسائل النقل الجوي في ظل عدم سيطرة الطيران المعادي على اجوائه ٠٠

ولما كانت فترات الصراع المسلح الشامل بين العرب واسرائيل لا تستمر لفترة طويلة ، تسمح للحرب البحرية ان تؤتي ثمارها الاستراتيجية بصورة فعالة مباشرة على مجرى الصراع ، وذلك للظروف الدولية والمحلية الخاصة التي تحيط بالحروب العربية ـ الاسرائيلية ، خاصة وان معظم الامداد البحري بالنسبة لكلا الطرفين ، يتم بسفن تابعة للقوى الدولية الكبرى التي لا يمكن التعرض لها عسكريا بدون تحسب العواقب الدولية المترتبة على ذلك ، (باستثناء حرب ١٩٤٨ التي لم تكن تسمح بحسم في فترة قصيرة مثل حربي ٥٦ و ٦٧ ، والتي كان العرب لا يملكون فيها وسائل كافية لممارسة استراتيجية بحرية فعالة) ، ولذلك كانت العمليات البحرية في حروب ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ محدودة وقليلة التأثير الى حد كبير على مجرى العمليات الحربية بالنسبة لكلا الطرفين (٣) ٠ وفي حرب ١٩٧٣ اتاح استمرار الحرب فترة اطول نسبيا من حربي ٥٦ و ٦٧ فرصة افضل لاستخدام القوى البحرية من كلا الجانبين (على مستوى استراتيجي من جانب البحرية المصرية ومستوى تكتيكي من قبل البحرية

---

٢ ـ برودي ، برنارد ٠ الاستراتيجية البحرية ، ترجمة سعد الدين صبور ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، صفحة ٥ ٠

٣ ـ راجع مقالنا عن « البحرية الاسرائيلية قبل وبعد حرب ١٩٧٣ » ، شؤون فلسطينية عدد ٦٥ ، صفحات ١٠٣ ـ ١٠٩ ٠

الاسرائيلية) ، ولكن وقف اطلاق النار وبدء ترتيبات اتفاقيــة الفصل الاول للقوات على الجبهة المصرية ، حال دون الاستفادة الفعالة مـن الامكانـات الاستراتيجية للحرب البحرية العربية ، وجعل من عملية حصار « باب المنـدب » عملا ذا مغزى رمزي يشير الى بطلان مبدأ « الحدود الآمنة » ، الذي يشكل ركنا رئيسيا من اركان نظرية الامن الاسرائيلية ، الامر الذي يدخله في الواقع ضمن مجال استراتيجية الحرب العليا العربية ، اكثر مما يجعله عملا يدخل ضمـن نطاق الاستراتيجية العسكرية للحرب ذات النتائج المؤثرة بصورة مباشرة علـى المجهود الحربي الاسرائيلي خلال فترة الصراع المسلح الشامل المعنيـة ، اي الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة • وهذا يوضح ان فاعليـة استخـدام القوة البحرية العربية ، خاصة على مستوى « الخنق الاستراتيجي » ، الذي يمكن ممارسته عمليا حتى الآن في البحر الاحمر اساسا (بسبب ميزان القوى الجوية الذي يتيح امكانية العمل بحرية افضل في البحر المذكور لاسباب سنعرضهـا تفصيلا فيما بعد) ، لا تؤتي ثمارها الاستراتيجية الا ضمن توفر ظروف حـرب طويلة الامد نسبيا على الاقل ، او في ظل وجود قوة ردع عربية تكفل ممارسـة هذه الوسيلة الاستراتيجية البطيئة التأثير من أجل الضغط على اسرائيل لتحقيق تنازلات حيوية مثلا ، دون التعرض لمخاطر حرب شاملة قصيرة الاجل نسبيا ، يفسد ، او يقلل ، توقفها السريع من فاعلية هذه الوسيلة • وهذا يعني ضـرورة استمرار الاستراتيجية العربية العليا على طريق امتلاك وسائل قوة عسكريـة رادعة وميزان قوى يميل لصالحهم دائما •

٤ ـ وعلى ضوء المقولة السابقة ، يتضح لنا ان ايضا ان ممارسة استراتيجية بحرية عربية متكاملة الاهداف ، على كلا المستويين الهجومي والدفاعي ، اي ممارسة قطع طرق المواصلات البحرية الخاصة بالعدو وتأمين طـرق المواصلات العربية ، تعني في مسرح عمليات البحر الاحمر اعاقة او تعطيـل الملاحـة الاسرائيلية الى حد كبير ، مع توفر القدرة في الوقت ذاته على استمرار القـدر الرئيسي من الملاحة العربية والدولية الصديقة عبر البحر الاحمر وخليج قنـاة السويس ، تحقيقا لمصالح تجارة النفط العربي وعائدات قناة السويس ، والا اصبح الضرر الاقتصادي متبادلا بالدرجة نفسها بين الطرفين (وخاصة بالنسبة لمصر) ، ومن ثم يفقد الخنق الاستراتيجي جزءا كبيرا من فاعليته • وهذا يتطلب ضرورة استعادة سيطرة مصر على الشاطىء الشرقي لخليج السويس . وكذلك على « شرم الشيخ » للحيلولة بين البحرية الاسرائيلية وبين التصدي (مهما كان حجمه وفاعليته) لحركة الملاحة في البحر الاحمر وخليج السويس • ولحرمان الطيران الاسرائيلي من مطاري « شرم الشيخ » و « الطور » في جنوب سيناء ، ومن ثم اضعاف فاعليته نسبيا بسبب اضطراره للعمل من قواعد في فلسطيـن نفسها ، الامر الذي سيترتب عليه اطالة مدى الطيران ، او على الاقل حرمانه

من تسهيلات الهبوط للتزود بالوقود في هذه المطارات اثناء رحلة العودة الى اراضي الهبوط ، وبالتالي ستزداد القيود التقنية بالنسبة لعمليات الطيران الاسرائيلي فوق الاجزاء الاكثر جنوبا في البحر الاحمر · هذا في الوقت الذي ستتمتع فيه الطائرات العربية بميزة استخدام المطارات واراضي الهبوط الواقعة على طول الساحل الغربي للبحر الاحمر وخليج السويس ، او في العمق القريب منه · وهذا يعني توفر قدرة اكبر للطيران العربي على القيام بعدد اكبر من الطلعات الجوية بالقياس لقدرة الطيران الاسرائيلي في مثل هذه الظروف ، اي انه يستطيع ان يكثف من نشاطه الجوي فوق مسرح العمليات المذكور بصورة اكبر من الطيران الاسرائيلي ، حتى لو كان يستخدم عددا اقل نسبيا من الطائرات ·

وبطبيعة الحال فان تأمين استمرار حركة الملاحة في قناة السويس ، الذي يشكل هدفا رئيسيا من اهداف العمليات البحرية والجوية العربية الاستراتيجية المتكاملة ، يتطلب توفر « حزام امن » ذي عمق ملائم لابعاد نار المعارك البرية عن الضفة الشرقية للقناة ، بحيث تدور هذه المعارك في عمق سيناء فيما وراء الممرات شرقا ، وذلك حتى يضمن للدفاع الجوي على الاقل توفير قدر ملائم من الحماية للملاحة في القناة ·

ميزان القوى البحري في البحر الاحمر :

وعلى ضوء ما اوضحناه آنفا من اعتبارات وحقائق وضرورات استراتيجية عامة متصلة باطار استخدام القوة البحرية العربية في البحر الاحمر بهدف احراز السيطرة الفعالة عليه هجوميا ودفاعيا ، وجعله احدى الوسائل الاستراتيجية القوية العربية المستخدمة في « حوار الارادات » الاستراتيجي الدائر بين العرب واسرائيل ، ننتقل الآن الى بحث الخطوط العريضة لوسائل وامكانات الاستراتيجية العسكرية المباشرة وفي ادارة العمليات ومتطلبات نجاحهما بالنسبة للبحرية العربية في البحر الاحمر ، واول ما يصادفنا في مجال بحثنا هذا هو التعرف على ميزان القوى البحرية بين الطرفين عامة ، وفي البحر الاحمر خاصة ، من حيث الحجم والنوعية وامكانات الحشد والظروف الجغرافية ـ الاستراتيجية المحيطة بهذه القوى والتسهيلات الادارية والفنية اللازمة لاستخدامها بفاعلية · تشكل البحرية المصرية القوة البحرية الرئيسية في كلا البحرين الاحمر والابيض المتوسط ، سواء بالنسبة للدول العربية الاخرى أو بالنسبة الى اسرائيل · وهي تضم نحو ١٧٥٠٠ ضابط وجندي ، فضلا عن نحو ١٥ الف جندي في الاحتياطي · وتتألف اسلحتها البحرية من الوحدات

التالية (٤) : ٥ مدمرات (destroyers) ، اربع منها سوفييتية الصنع من فئة « سكوري » وواحدة بريطانية الصنع من فئة « ز » ٠ والمدمرات من فئة « سكوري » تسمى « الناصر » و « الظافر » (وقد تسلمتهما البحرية المصرية في حزيران ـ يونيو ـ ١٩٥٦) و « دمياط » و « السويس » (وقد تسلمتهما البحرية المصرية في كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٦٢) وجميعها انزلت الى البحر عام ١٩٥١،وتم استبدال مدمرتين منهما باخريين من الفئة ذاتها ادخلت عليهما بعض التطويرات الاكثر حداثة بالنسبة للتسليح الثانوي والاسلحة المضادة للغواصات ، وذلك في نيسان (ابريل) ١٩٦٧ ٠ ويبلغ الوزن القياسي لكل من المدمرات الاربع المذكورة نحو ٢٦٠٠ طن ووزنها في حالة التحميل الكامل ٣٥٠٠ طن ، وطول الواحدة منها ٥ر١٢٠ مترا واكبر عرض لها ٨ر١١ مترا وغاطسها ٦ر٤ مترا ٠ وكل منها مسلحة بتسليح رئيسي يضم ٤ مدافع عيار ١٣٠ مم ، اما بالنسبة للتسليح الثانوي المزدوج المهمة ، اي مضاد لكل من السفن والطائرات ، فالمدمرتان القديمتان مسلحتان بمدفعين عيار ٨٨ مم و ٨ مدافع عيار ٣٧ مم ، والمدمرتان الاحدث مسلحتان باربعة مدافع ذات اربع سبطانات عيار ٥٧ مم و ٤ مدافع ثنائية السبطانات من عيار ٣٧ مم ٠

وبالنسبة للتسليح المضاد للغواصات فان المدمرتين القديمتين مسلحتان باربعة اجهزة اطلاق قنابل اعماق ، والمدمرتين الاحدث مسلحتان بقاذفي اطلاق قذائف صاروخية ضد الغواصات لكل منهما ١٢ سبطانة ٠ كما ان المدمرتين القديمتين مسلحتان بعشرة قواذف طوربيد مضاد للسفن عيار ٥٣٣ مم ، والمدمرتين الاحدث مسلحتان بخمسة قواذف فقط للطوربيد ٠ ويمكن لكل مدمرة ان تحمل ٨٠ لغما بحريا ، وكل منها مجهز بثلاثة مراجل (غلايات) ، ومحركاتها توربينية ذات اجهزة ناقلة للحركة ذات عمودي ادارة ، قوتها ٦٠ الف حصان ٠ وتصل سرعتها القصوى الى ٣٥ عقدة في الساعة ، ويبلغ مدى عملها ٤٠٠٠ ميل بسرعة ١٥ عقدة ، ويتألف طاقمها من ٢٦٠ ضابطا وبحارا ٠ وكل منهما مزودة بجهاز رادار بعيد المدى واخر تكتيكي وثالث لادارة نيران المدفعية ٠ (٥)

اما المدمرة الخامسة البريطانية الصنع من فئة « ز » والمسماة « الفاتح » ، فقد انزلت في حزيران (يونيو) ١٩٤٤ واشترتها مصر عام ١٩٥٥ ، حيث اجريت بها تجديدات قبل ان تتسلمها البحرية المصرية في تموز (يوليو) عام ١٩٥٦ ، ثم اعيد تحديثها في بريطانيا وتسلمتها البحرية المصرية مرة اخرى في تموز (يوليو) ١٩٦٤ ٠ ويبلغ الوزن القياسي لهذه المدمرة ١٧٣٠ طنا ، ووزنها

---

٤ ـ IISS , The Military Balance , 1976 - 1977 , p. 33

٥ ـ Jane's Fighting Ships , 1974 - 75 , p. 100

في حالة التحميل الكامل ٢٥٧٥ طنا ، وطولها ٨ر١٠٦ مترا وعرضها ٩ر١٠ مترا وغاطسها ٢ر٥ مترا ٠ وتسليحها الرئيسي ٤ مدافع عيار ١١٥ مم تستخدم ضد السفن أو الطائرات ، وتسليحها ٦ مدافع م/ط عيار ٤٠ مم ، ولديهـا ٤ قواذف قنابل اعماق ، وهي مجهزة بمرجلين ومحركاتها التوربينيـة ذات عمودي حركة وقوتهما ٤٠ الف حصان ، وسرعتها القصوى ٢٥ر٣١ عقدة ، ومدى عملها ٢٨٠٠ ميل بسرعة ٢٠ عقدة ، ويتألف طاقمها من ٢٥٠ ضابطا وبحارا ، وهي مزودة بثلاثة اجهزة رادار مثل سابقاتها ٠

وبالاضافة الى هذه المدمرات الخمسة تمتلك البحرية المصرية ٣ فرقاطـات بريطانية الصنع (Frigates) ، الاولى اسمها « طارق » ، انزلت الـى البحر في آب (اغسطس) ١٩٤٢ ، وبيعت لمصر عام ١٩٤٩ ٠ ويبلغ وزنهـا القياسي ١٤٩٠ طنا ، ووزنها بالحمولة الكاملة ١٩٢٥ طنا ، وطولها ٣ر٨٦ مترا وعرضها ٧ر١١ وغاطسها ٣ر٤ مترا ٠ وهي مسلحـة باربعة مدافع عيار ١٠٢ مم و ٤ مدافع م / ط عيار ٤٠ مم ومدفعين م / ط ٢٠ مم ، و ٤ قواذف قنابـل اعماق ، وسرعتها القصوى ١٨ عقدة ، ومدى عملها ٤٥٠٠ ميل بسرعة ١٢ عقدة ، وطاقمها ١٨٠ رجلا والثانية اسمها « رشيد » ، انزلت الى البحر فـي كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤١ ، ومواصفاتها مماثلة للفرقاطـة « طـارق » باستثناء وزنها بالحمولة الكاملة الذي يبلغ ٢٢١٦ طنا ، ومدى عملها يصل الى ٧٧٠٠ ميل بسرعة ١٢ عقدة ٠

والفرقاطة الثالثة اسمها « بورسعيد » ، انزلت الى البحر فـي ايلـول (سبتمبر) ١٩٤٠ ، وبيعت الى مصر في تموز (يوليو) ١٩٥٠ ، واجريت لها اصلاحات وتجديدات في نيسان (ابريل) ١٩٥١ ، ويبلغ وزنها القياسي ١٠٠٠ طن ووزنها بالحمولة الكاملة ١٤٩٠ طنا ، وطولها ٢ر٨٣مترا وعرضهـا ٨ر٨ مترا وغاطسها ٣ر٤ مترا ، وهي مسلحة باربعة مدافع ١٠٣ مم ، ومدفعين م/ط ٣٧ مم ، وقاذفي قنابل اعماق ، وتبلغ سرعتها القصوى ٢٥ عقدة ، ومـدى عملها ٢٠٠٠ ميل بسرعة ١٢ عقدة ، وطاقمها ١٤٦ رجلا ٠

ولدى البحرية المصرية ١٢ غواصة سوفييتية الصنع ، ستة منها مـن الفئة « ر » وستة من الفئة « دبليو » ٠ والنوع الاول يبلغ وزنه على سطح الماء ١١٠٠ طن وتحت سطح الماء ١٦٠٠ طن ، وطول الغواصة ٧٥ مترا وعرضها ٣ر٧ مترا وغاطسها ٤ر٤ مترا ٠ وقد بنيت الغواصات التي من هذه الفئة جميعا في الفترة من ١٩٥٨ الى ١٩٦١ ، وتسلمتها مصر في الفترة من ١٩٦٦ حتى ١٩٦٩ ٠ وهي مسلحة بستة انابيب طوربيد عيار ٥٣٣ مم في المقدمة ، ومجهزة بمحركي ديزل قوتهما ٤٠٠٠ حصان ومحركين كهربائيين قوتهما ٢٥٠٠ حصان ، وسرعتهـا

القصوى ١٧ عقدة فوق سطح الماء و ١٤ عقدة تحت سطح الماء ، ومدى عملها ١٣ الف ميل بسرعة ٨ عقدة فوق سطح الماء ،ويتألف طاقمها من ٦٥ ضابطا وبحارا ٠ وتتميز عن الفئة « دبليو » بانها احدث منها وذات برج قيادة اكثر تطورا ، وكذلك جهاز تسمع « سونار » اكثر حداثة ٠

والفئة « دبليو » تعد اقل حداثة من الفئة « ر » ، وقد بنيت منها في الاتحاد السوفييتي نحو ٢٤٠ غواصة في الفترة ما بين عام ١٩٥١ حتى عام ١٩٥٨ ، وقد تسلمت البحرية المصرية منها ٤ غواصات في حزيران (يونيو) ١٩٥٧ وثلاث اخرى في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨ ، وواحدة اخرى في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٢ ، ثم استبدلت اثنتان منها بغواصتين من الفئة « ر » في شباط (فبراير) ١٩٦٦ ٠ ويبلغ وزن هذه الفئة من الغواصات فوق سطح الماء ١٠٣٠ طنا وتحت الماء ١١٨٠ طنا ، وطولها ، ٢ر٧٣ مترا وعرضها ٧ر٦ مترا وغاطسها ٦ر٤ مترا ٠ وهيمسلحة بستة انابيب طوربيد عيار٥٣٣ مم، اربعة منها في المقدمة واثنين في المؤخرة ، وتستطيع ان تحمل ١٨ طوربيدا او ٤٠ لغما بحريا ، ولها الخصائص ذاتها بالنسبة للمحركات والمدى والسرعة ويتألف طاقمها من ٦٠ رجلا ٠ وبالاضافة للغواصات يوجد لدى البحرية المصرية ١٢ « كورفيت » (Corvettes) مضادة للغواصات يطلق عليها اسم « قناصات الغواصات » من فئة « س و ــ ١ » وقد بني نحو ٨٠ سفينة من هذا النوع منذ عام ١٩٥٧ ، وبدأت البحرية المصرية تتسلمها منذ عام ١٩٦٢ ، ويبلغ الوزن القياسي لها ٢١٥ طنا ووزنها بالحمولة الكاملة ٢٥٠ طنا ، وطولها ٣ر٤٢ مترا وعرضها ١ر٦ مترا وغاطسها ٨ر٢ مترا ٠ وهي مسلحة باربعة قواذف تطلق قذائف صاروخية مضادة للغواصات وبكل قاذف خمس سبطانات ، فضلا عن ٤ مدافع م/ط عيار ٢٥ مم ، ومجهزة بثلاثة محركات ديزل قوتها ٦٠٠٠ حصان وسرعتها القصوى ٢٩ عقدة ، ومدى عملها ١١٠٠ ميل بسرعة ١٣ عقدة ، ويتألف طاقمها من ٣٠ رجلا ٠

ويوجد لدى البحرية المصرية ١٣ زورق صواريخ سطح ــ سطح سوفييتية الصنع ، من نوعي « اوسا » و « كومار » ٠ والنوع الاول بدأ انتاجه عام ١٩٥٩، ولدى البحرية المصرية منه ٨ زوارق بدأت تسلمها عام ١٩٦٦ ، وهو اكثر قوة من النوع الثاني ، الذي بدأت البحرية تسلمه عام ١٩٦٢٠ ويبلغ الوزن القياسي لزوارق « اوسا » ١٦٥ طنا وفي حالة التحميل الكامل ٢٠٠ طن ، وطولها ٣ر٣٩ مترا وعرضها ٧ر٧ مترا وغاطسها ٨ر١ مترا ، وهي مسلحة باربعة صواريخ سطح ــ سطح طراز « ستيكس » الذي يصل مداه الى ٤٥ كلم تقريبا ، بالاضافة لاربعة مدافع م/ط عيار ٣٠ مم ، وهي مجهزة بثلاثة محركات ديزل قوتها ١٣ الف حصان ، وسرعتها القصوى ٣٢ عقدة ، ومدى

عملها ٨٠٠ ميل بسرعة ٢٥ عقدة ، ويتالف طاقمها من ٢٥ رجلا ٠ اما زوارق « كومار » ، فقد بدأت البحرية المصرية تتسلمها عام ١٩٦٢ ، ويبلغ وزنها القياسي ٧٠ طنا وفي حالة التحميل الكامل ٨٠ طنا ، وطولها ٥ر٢٥ مترا وعرضها ٦ امتار وغاطسها ٨ر١ مترا ، وهي مسلحة بصاروخين سطح ـ سطح « ستيكس » ، بالاضافة لمدفعين م / ط عيار ٢٥ مم ٠ وهي مجهزة باربعة محركات ديزل وسرعتها القصوى ٤٠ عقدة ، ومدى عملها ٤٠٠ ميل بسرعة ٣٠ عقدة ٠

وتمتلك البحرية المصرية ٣٦ زورق طوربيد ، ٢٤ منها سوفييتي الصنع من فئة « بي ٦ » ، بدأت تسلمها منذ عام ١٩٥٦ ، ويبلغ الوزن القياسي لها ٦٦ طنا وعند التحميل الكامل ٧٥ طنا ، وطولها ٧ر٢٥ مترا وعرضها ١ر٦ مترا وغاطسها ٨ر١ مترا ، وهي مسلحة بقاذفي طوربيد عيار ٥٣٣ مم ، فضلا عن ٤ مدافع م / ط عيار ٢٥ مم ، وتبلغ سرعتها القصوى ٤٣ عقدة ، ومدى عملها ٤٥٠ ميلا بسرعة ٣٠ عقدة ، وطاقمها ٢٥ رجلا ٠ و ٦ زوارق منها من فئة « شيرشين » السوفييتية الصنع ، بدأت البحرية المصرية تتسلمها في ١٩٦٧ ، ويبلغ الوزن القياسي لها ١٥٠ طنا وعند التحميل الكامل ١٦٠ طنا ، وطولها ٢ر٣٥ مترا وعرضها ١ر٧ مترا وغاطسها ٥ر١ مترا ، وهي مسلحة باربعة قواذف فردية للطوربيد ، و ٤ مدافع م/ط عيار ٣٠ مم و ١٢ قنبلة اعماق ضد الغواصات ، وقوة محركاتها ١٣ الف حصان ، وسرعتها القصوى ٤١ عقدة ، وطاقمها ١٦ رجلا ٠ وهناك ٦ زوارق طوربيد يوغسلافية الصنع ، تسلمتها البحرية المصرية عام ١٩٥٦ ، ويبلغ وزنها القياسي ٥٥ طنا وعند التحميل الكامل ٦٠ طنا ، وطولها ٨ر٢٣ مترا وعرضها ٥ر٦ امتار وغاطسها ٤ر٢ مترا ، وهي مسلحة بقاذفي طوربيد وبمدفع م / ط عيار ٤٠ مم ، وسرعتها القصوى ٣٦ عقدة ، وطاقمها ١٤ رجلا ٠ وقد سلحت البحرية المصرية بعض زوارق الطوربيد الصغيرة الحجم بقاذف صاروخي ذي ٨ سبطانات في مقدمتها ٠

وبالاضافة الى ذلك يوجد لدى البحرية المصرية ١٠ كاسحات الغام للعمل في اعالي البحار، واثنتان ساحليتان، والنوع الاول توجد منه ست كاسحات من فئة « ت ٤٣ » (جميع الكاسحات سوفييتية الصنع) ، وقد بدأت البحرية المصرية في تسلمها منذ عام ١٩٥٦ ، ويبلغ الوزن القياسي لها ٥٠٠ طن وعند التحميل الكامل ٦١٠ طن ، وطولها ٥٨ مترا وعرضها ٨ر٦ امتار وغاطسها ١ر٢ مترا ، وهي مسلحة باربعة مدافع م/ط ٣٧ مم واربعة اخرى ٢٥ مم، وسرعتها ١٧ عقدة ومدى عملها ١٦٠٠ ميل بسرعة ١٠ عقدة ، وطاقمها ٤٠ رجلا ٠

و ٤ كاسحات اخرى من فئة « يوركا » ذات الهيكل الفولاذي ، وقد تسلمتها مصر في عامي ١٩٧٠ و ١٩٧١ ، ووزنها القياسي ٥٠٠ طن وعند التحميل

الكامل ٥٥٠ طنا ، وطولها ٥ر٥٢ مترا وعرضها ٥ر٩ امتار وغاطسها ٧ر٢ مترا، وهي مسلحة باربعة مدافع ٣٠ مم وسرعتها القصوى ١٨ عقدة ٠

اما كاسحتا الالغام الساحليتان فمن فئة « ت ٣٠١ » ، وسلمت لمصر عام ١٩٦٢ ، ويبلغ وزنها القياسي ١٣٠ طنا وعند التحميل الكامل ١٨٠ طنا ، وطولها ٣٩ مترا ، وعرضها ٥ر٥ امتار وغاطسها ٥ر١ مترا ، وهي مسلحة بمدفعين ٣٧ مم ورشاشين ، وسرعتها ١٧ عقدة ، ومدى عملها ٢٢٠٠ ميل بسرعة ١٠ عقدة ، وطاقمها ٣٠ رجلا ٠ ولدى البحرية المصرية ايضا ١٦ سفينة انزال ، ١٠ منها من فئة « فيدرا » التي يبلغ الوزن القياسي لها ٣٠٠ طن وعند التحميل الكامل ٥٠٠ طن ويبلغ طولها ٤٧ مترا وعرضها ٢٥ر٧ مترا وغاطسها ١ر٢ مترا ، وسرعتها ١٥ عقدة ٠

و ٤ منها من فئة « م بي ـ س م ب ـ ١ » التي يبلغ الوزن القياسي لها ٢٠٠ طن وعند التحميل الكامل ٤٢٠ طنا ، ويبلغ طولها ٤٧ مترا وعرضها ٣٠ر٦ مترا وغاطسها نحو مترين ، وسرعتها ١١ عقدة ، وهي سفن انزال دبابات وتستطيع ان تحمل معدات وزنها ١٥٠ طنا أو ٤ دبابات وتنزلها على الشواطىء الصالحة للعمليات البرمائية ٠ وسفينتان من فئة « بولنوكني » التي يبلغ الوزن القياسي لها ٧٨٠ طنا وعند التحميل الكامل ١٠٠ طن ، وطولها ٨٠ر٧٣ مترا وعرضها ١٠ امتار وغاطسها ٣ امتار تقريبا ٠ وهي مسلحة بمدفعين م / ط عيار ٣٠ مم وقاذفي صواريخ مضادة للغواصات بكل منها ١٨ سبطانة ، وتبلغ سرعتها ١٨ عقدة ، وهي تعتبر سفينة انزال متوسطة تستطيع ان تنزل معدات وزنها ٣٥٠ طنا او ٦ دبابات ٠ اي ان اجمالي طاقة سفن انزال الدبابات الست المذكورة تصل الى ٢٨ دبابة متوسطة ، اي حوالي كتيبة دبابات « ت ٥٤ » أو « ت ٥٥ » مثلا، او معدات وزنها ١٣٠٠ طن ، فضلا عن حمولة سفن « فيدرا » العشر التي لا تقل عن ٢٥٠٠ طن اخرى ٠

وبالاضافة الى هذه الوحدات البحرية العاملة ، هناك كاسحة الغام قديمة بريطانية الصنع تسمى « ناصر » و « كورفيت » قديمة ، بريطانية الصنع ايضا ، تسمى « السودان » وزنها القياسي ١٠٦٠ طنا وعند التحميل الكامل ١٢٤٠ طنا ، مسلحة بمدفع ١٠٢ مم ومدفعين ٢٠ مم وسرعتها ١٦ عقدة تستخدم حاليا في التدريب ٠ كما أن هناك ٣ مركبات « هوفر كرافت » من فئة « س ر ن ـ ٦ » تحت الطلب ، بدأت البحرية المصرية في تسلمها خلال ايار (مايو) ١٩٧٧ ٠ وترددت انباء في بعض المجلات البحرية الدولية خلال الشهور الاخيرة بأن الترسانة البحرية المصرية في الاسكندرية تبني حاليا عدة زوارق صواريخ ستجهز بمحركات المانية غربية وصواريخ سطح ـ سطح فرنسية الصنع ٠

متطلبات تطوير البحرية المصرية :

والواقع ان البحرية المصرية تتكون من قوة كبيرة نسبيا ، بالقياس للقوى البحرية في دول العالم الثالث وخاصة في منطقة الشرق الاوسط ، وان هذه القوة تضم تشكيلة متوازنة متعددة المهام والقدرات الهجومية والدفاعية والبرمائية ، اذ انها تضم عددا لا بأس به من المدمرات والغواصات وزوارق الصواريخ وقناصات وكاسحات الالغام وسفن الانزال ، فضلا عن زوارق الطوربيد وفرقاطات الحراسة ٠ وتشكل المدمرات والغواصات وزوارق الصواريخ القوة الضاربة الرئيسية في البحرية المصرية ولكن هذه القوة تحتاج حاليا الى تطوير نوعي كبير في تسليحها وقوة نيرانها ومعداتها الالكترونية ووسائل القيادة والسيطرة والاتصالات ، تتفق والتطور الحديث في الاسلحة والسفن واساليب الحرب البحرية الحديثة عامة ، والتطويرات التي لحقت بالبحرية الاسرائيلية وكشفت عنها عمليات حرب ١٩٧٣ ، وتلك التي يتوقع لها ان تلحق بها حاليا وفي المستقبل المنظور ٠ فالمدمرات الاربعة من طراز «سكوري» ، التي تشكل القوة الرئيسية في سفن السطح الكبيرة بالبحرية المصرية ، اصبحت في حاجة ماسة لتطوير تسليحها ، اذ ان تسليحها الرئيسي المكون من ٤ مدافع تقليدية من عيار ١٣٠ / ٥٠ مم (موزعة على برجين يزن الواحد منهما ٣٠ طنا ، احدهما في المقدمة والآخر في المؤخرة) ادخلت الى الخدمة في البحرية السوفييتية عشية الحرب العالمية الثانية ، اصبحت غير كافية ومحدودة الفاعلية في القتال البحري الحديث ، خاصة في مواجهة زوارق الصواريخ الاسرائيلية المسلحة بصواريخ « غابرئيل » التي يصل مداها الى ٢٢ كلم (وهناك طراز مطور منها يقال ان مداه يصل الى ٤٠ كلم) ، رغم ان مدى هذه المدافع يصل في حده الاقصى الى ٢٥ كلم ، ذلك لان المدى الفعال عمليا اقل من المدى المذكور بنحو ثلث المسافة ، كما أن دقة وسرعة معدل النيران (المعدل ١٠ قذائف في الدقيقة) لن يسمح للمدمرة ان تصيب الزورق السريع والصغير الحجم نسبيا من مدى خارج مدى صواريخه ، ولذلك فانه يجب تسليح هذه المدمرات بقاذفي صواريخ « سطح ـ سطح » على الاقل ، او اربعة قواذف (اثنين على كل جانب مثل المدمرات السوفييتية من فئة « كيلدين » على سبيل المثال) ، وهو الافضل بطبيعة الحال ، وعلى ان تحمل معها صلية اخرى على الاقل من الصواريخ . حتى لا تقل قوتها الصاروخية المذكورة عن قوة زوارق الصواريخ الاسرائيلية التي يتراوح تسليحها بين ٦ و ٨ صواريخ للزورق الواحد ٠ وعلى أن لا يقل مدى هذه الصواريخ عن ٤٠ ـ ٤٥ كلم ، وان تكون نوعية اجهزة توجيهها الالكترونية اكثر تطورا من وسائل الاعاقة والتشويش الالكترونية المزودة بها زوارق الصواريخ الاسرائيلية ، وذلك مثل الانواع المطورة من صواريخ

« ستيكس » السوفييتية من طراز « س س ـ ن ـ ١٠ » او « س س ـ ن ١١ » (وكلاهما يصل مداه الى نحو ٥٥ كلم والاخير ذو قـدرة علـى الطيـران المنخفض) او صاروخ « اوتومات » الفرنسي الطراز الذي يصل مداه الى ٦٠ ـ ٨٠ كلم الخ ٠ وكذلك فان التسليح م / ط بهذه المدمرات في حاجة الى تطويـر (خاصة بالنسبة للمدمرتين اللتين لم يتم تحديثهما) ، وذلك باضافة قاذف أو قاذفين (مفرد او ثنائي وفقا لامكانات التنفيذ التقني العملي) لصواريخ سطـح ـ جو من طراز « سام ٣ » مثلا ضد الطائرات على ارتفاعات متوسطة ، فضلا عن الغاء المدافع القديمة من عيار ٨٨ مم و ٥٧ مم المزدوجة المهمة (اي المضادة لكل من الطائرات والسفن) بمدافع احدث من عيار ٧٦ مم الآلية (التي يبلـغ معدل نيرانها ٦٠ قذيفة في الدقيقة ويصل مداها ضد الطائرات الى ١٠ آلاف متر وضد السفن الى ١٥ الف متر) ومدافع ثنائية من عيار ٣٠ مم او رباعية مـن عيار ٢٣ مم م / ط الموجهة بالرادار ٠ وبذلك يتوفر للمدمرات دفاع ذاتي فعـال ضد الطائرات يجمع بين الصواريخ والمدافع الآلية والرشاشـات الموجهـة بالرادار ، ويمكن في الوقت ذاته الاستفادة من المدافع ٧٦ مم الآلية في التعامل السريع الفعال ضد زوارق الصواريخ عندما تقترب الى مسافة ١٠ كلم ٠ كمـا انه يحسن استبدال المدافع ١٣٠ / ٥٠ مم بالنـوع الاحـدث ١٣٠ / ٦٠ مم (سوفييتي الصنع) المزود بجهاز المحافظة على التوازن ، الذى يحقق دقـة كبيرة في التصويب والضبط الآلي (٦) للنيران ، وذلك لرفع كفاءة التسليـح الرئيسي للمدمرات بالمدافع المذكورة في الاشتباك مع الزوارق وسفـن السطح ، وكذلك في قصف الاهداف الارضية الهامة او التمهيد بالنيران لعمليات الانـزال البرمائي ، حيث لا تستخدم عادة الصواريخ « سطح ـ سطح » الموجهة ، نظرا لقلة عددها لدى المدمرة من جهة وارتفاع تكلفتها بالقياس لتكلفة قذائف المدفعية المتوسطة من جهة اخرى ، اذ تقدر كلفة الصاروخ بنحو ١٥٠ الـف جنيـه استرليني ، على حين تقدر كلفة قذيفة المدافع المذكورة بنحو ٥٠ جنيها فقـط ٠ كما انه يحسن اعادة تسليح زوارق « اوسا » الصاروخية بمدفع مزدوج المهمة عيار ٧٦ مم الآلي بدلا من احد مدفعية الثنائيين عيار ٣٠ مم حتى يكـون ذو قدرة فعالة في الاشتباك بالمدافع مع الزوارق والاهداف الارضية ٠ ولزيـادة فاعلية الدفاع المضاد للطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة ، ولطائـرات الهليكوبتر المسلحة المعادية ، فانه يجب تسليح المدمرات وسفن السطح الاخرى عموما وزوارق الصواريخ بصواريخ م / ط قصيرة المدى مثل « سام ٩ » او « سلام » البريطانية الحديثة ، التي تصلح للاستخدام من فوق برج قيـادة الغواصات ايضا ٠ ونتيجة لما كشفت عنه خبرة معارك حرب ١٩٧٣ البحرية من

---

٦ ـ Interonair Aviation and Marine , February 1974 , p. 42

حيث تجهيز زوارق الصواريخ الاسرائيلية بمعدات ووسائل اعاقة الكترونية بالخداع كانت تظهر للزوارق العربية اهدافا وهمية او مخادعة تجتذب اليها صواريخها « ستيكس » فضلا عن معدات الاعاقة السلبية ، ومعدات الاعاقة اللاسلكية ذات الذبذبات العالية للغاية المضادة لشبكات الاتصال والسيطرة على الزوارق ، فانه يجب تطوير معدات ووسائل الحرب الالكترونية ومعدات الاتصال والسيطرة الموجودة في المدمرات وسفن السطح وزوارق الصواريخ لدى البحرية المصرية • وذلك حتى تستطيع زوارق الصواريخ ، والمدمرات حال تسليحها بالصواريخ ، ان تستخدم صواريخها المتفوقة في بعد المدى وقوة الراس المتفجر بفاعلية مثلما كان الامر عند اغراق المدمرة « ايلات » عام ١٩٦٧ •

وبالنسبة للغواصات فانه يجب تطوير معداتها الالكترونية واللاسلكية وتزويدها بمعدات ووسائل اعاقة ضد الصواريخ واجهزة الرادار الباحثة عنها ، كما يحسن ان تزود بالصواريخ م / ط الصغيرة والقصيرة المدى لتواجه طائرات الهليكوبتر المضادة للغواصات • ويجدر البحث في الامكانات التقنية العلمية الكفيلة بتطوير بعض الغواصات من فئة « دبليو » بحيث تكون قادرة على التسلح بصاروخين « سطح ـ سطح » من نوع « ستيكس » او « اوتومات » المضاد للسفن ، او من نوع « س س ـ ن ـ ٣ » المعروف باسم « شادوك » السوفييتي الصنع المضاد للسفن او الاهداف الارضية الحيوية لمدى يزيد عن ٢٠٠ كلم ، وذلك على ضوء الخبرة السوفييتية في تطوير هذا النوع من الغواصات على النحو المذكور ، والتي اسفرت عن وجود نوعين من غواصات فئة « دبليو » المطورة احدهما تطلق عليه المراجع الغربية اسم (W - twin cylinder) وهو يحمل صاروخين « شادوك » في مؤخرة سطح الغواصة ، والثاني مزود باربعة انابيب اطلاق لهذه الصواريخ في وسط جسم الغواصة تطلق عليه المراجع الغربية اسم « W - Long Bin » •

وبطبيعة الحال فانه من المفروض ، بل من الضروري ، ان تتزود البحرية المصرية بمدمرة او مدمرتين (او فرقاطتين) حديثتين مزودة بصواريخ « سطح ـ سطح » و « سطح ـ جو » الى جانب مختلف انواع المدافع الآلية الحديثة والمعدات الالكترونية المتطورة وطائرات هليكوبتر مضادة للغواصات ، وكذلك بغواصة او اكثر من نوع حديث وزوارق صواريخ بعيدة المدى ، وذلك اما من الاتحاد السوفييتي اذا ما تحسنت العلاقات المصرية ـ السوفييتية في المستقبل القريب ، او من بريطانيا وفرنسا اذا ما سمحت العلاقات معهما بشراء مثل هذه الاسلحة البحرية المتطورة • ولكن يبقى تطوير الاسلحة الموجودة حاليا هو الشيء الاكثر اهمية وواقعية وسهولة نسبية ، نظرا لانه لا يمكن عمليا استبدال كل هذا العدد من السفن والزوارق والغواصات بغيرها اكثر حداثة في زمن

قصير نسبيا ، حتى لو كانت العلاقات والاعتبارات السياسية والاستراتيجية مع الاتحاد السوفييتي او الدول الغربية تسمح بالحصول على هذه الاسلحة والمعدات الحديثة دون اي عقبات ٠

واخيرا ، بل ربما كان الاصح أن نقول قبل كل شيء ، فان البحرية المصرية في حاجة الى تخصيص قوة جوية متوازنة التشكيل ، تعمل معها بتعاون وثيق وتحت قيادتها المباشرة في الاعداد والتدريب والعمليات ٠ تضم طائرات للدورية البحرية بعيدة المدى ، ويمكن أن تقوم بعض القاذفات « ت يو ــ ١٦ » بهذه المهمة ، خاصة وان هذه الطائرات مصممة اصلا لهذه المهمة ، مهمتها الاستطلاع وتوجيه القوة البحرية نحو اهدافها ، وكذلك مهاجمة السفن الكبيرة بصواريخها المضادة للسفن من نوعي « كيتل » و « كيلت » ، وتجهز بعضها بصواريخ اخرى صالحة للاستخدام ضد زوارق الصواريخ ٠ فضلا عن بعض اسراب القاذفات المقاتلة من طراز « سوخوي ــ ٧ » بعد تجهيزها بصواريخ جو ــ سطح ، وبعض اسراب المقاتلات « ميغ ٢١ » بعيدة المدى ، وطائرات هليكوبتر مضادة للغواصات والزوارق قادرة على العمل ليلا مثل طائرات « سي كنغ » ، التي يوجد منها حاليا لدى الاسطول المصري نحو ٦ طائرات ، خاصة وأن خبرة استخدام طائرات الهليكوبتر مع الزوارق الصاروخية الاسرائيلية خلال المعارك البحرية التي جرت اثناء حرب ١٩٧٣ ، قد اثبتت مدى فاعلية هذه الطائرات في عمليات الاستطلاع البحري وتوجيه الزوارق الاسرائيلية نحو اهدافها البحرية والقيام باعمال الاعاقة الالكترونية ، مما ساعد على رفع كفاءة صواريخ « غابرئيل » الاقصر مدى من صواريخ « ستيكس » ، هذا فضلا عن فاعلية هذه الطائرات في مهاجمة الزوارق بالصواريخ الموجهة « جو ــ سطح » ٠

تلك هي باختصار الخطوط العريضة لمتطلبات تطوير البحرية المصرية اللازمة للاستفادة الفعالة من تفوقها الكمي والمتوازن في الاسلحة البحرية المختلفة ٠ وسوف نتابع في الحلقة الثانية ، والاخيرة ، من دراستنا هذه بقية ميزان القوى البحري العربي ــ الاسرائيلي ومتطلبات استخدام القوة البحرية العربية بكفاءة وفاعلية في البحر الاحمر خاصة ، وكذلك في البحر الابيض المتوسط في ضوء احتمال تحول المواجهة في البحر الاحمر الى مواجهة شاملة في مختلف مسارح العمليات البحرية ٠

قضايا تنظيمية في الطريق الى الوحدة

محجوب عمر

لعبت عوامل عديدة وتلعب دورها في تباين أوضاع الاقطار والمناطق المختلفة في الوطن العربي ·

فتجزيئية العصور الوسطى (المختلفة عن تلك المعروفة في اوروبا) والتطور غير المتكافىء لقوى وعلاقات الانتاج في العصر الحديث ، والنشاط الاستعماري المقصود لتقسيم بلادنا العربية الى مناطق سيطرة ونفوذ في عصر الاستعمار القديم ، والاحتفاظ بها مقسمة في عصر الاستعمار الجديد ، واقامة الكيان الصهيوني ، وغير ذلك من العوامل التاريخية والجغرافية، أدى الى ظهور عشرين كيان سياسي قطري عربي حتى الان في داخل الوطن العربي ·

وعكس هذا الوضع المفتت ، ومايزال يعكس ، تفتتا في كافة اشكال النشاط السياسي والاقتصادي ، تعداهما الى اشكال النشاط الثقافي ، وان بدرجة اقل·

في مواجهة هذا الواقع ، بل قبل أن يحتل المستعمرون بلادنا ، كانت حركات التوحيد العربية هي الوجه المشرق لكل التاريخ العربي ، وبعد الاحتلال وتقسيم الوطن بين قوى أستعمارية مختلفة ، استمرت حركات التوحيد العربية في تحديها لواقع التقسيم الجديد الذي فرضه الاستعمار · وبرغم التجريبية والعفوية التي سادت كل أشكال النضال حتى الان، الا أن حركة التوحيد القومية تتقدم وتنمو ولو بشكل متعرج ·

وكلما حققت حركة النضال القومي العربي نصرا على الاستعمار في قطر

من الاقطار، ازدادت بروزا ضرورة القضاء على واقع التجزئة، أي ضرورةتحقيق الوحدة السياسية للامة العربية ·

وهكذا نجد أن شعاري التحرير والوحدة اصبحا متلازمين تماما علـى طول صفحة النضال العربي في نصف القرن الاخير ·



وعبرت هذه الضرورة عن نفسها في عشـــرات بل مئـــات من التنظيمات السياسية العربية ، سواء منها القطري او العام · وكلها ربطت بشكل او بآخر بين شعارات التحرير والوحدة ، ورفعت هذه الشعارات وجعلتها أول اهدافها ·

واتخذت هذه التنظيمات أشكالا متعددة ومتنوعة · بعضهـا استمر طويـلا وما يزال ، وبعضها لم فترة ثم انتهى · بعضها اخذ شكل المؤتمرات العامة التي تجمع قوى وأطرافا عربية مختلفة ، وبعضها اتخذ شكل التنظيمات السرية التي تعتمد العنف أسلوبا للتغيير والنضال · بعضها اكتفى بشعار الوحدة العربية، وبعضها ربط بينه، سببا او نتيجة، وبين شعار التحرير، او جعلهما مترابطين ، والبعض ألحق بهذين الشعارين شعارات «طبقية» · والبعض اشترط لكي تكون «وحدة» او يكون «تحرير» أن يتحقق برنامـج اجتماعي معين · وبعض هـــذه التنظيمات استطاع الوصول الى حكم أقطاره ، وبعضها فشل حتى الان وما يزال يحاول · والبعض شارك في حرب تحرير وطنية وتوقف عند حد حصوله على الاستقلال السياسي ، والبعض اعتمد اسلوب الانقلابات لتحقيق اهدافه ·

وهكذا تجمع لنا في نصف القرن الاخير حصيلة ضخمة غنية من التجـارب السياسية التنظيمية ، تمت كلها تحت شعار الوحدة العربية وتحريـــر الوطـن العربـي ·

ويدلنا تنوع الاشكال وتعددها، بل وتعارضها، على ازدياد نضج وغنى حركة الوحدة العربية موضوعيا ، أي على ظاهرة الوحدة العربيـــة وتعمق جذورها وترسخها في وعي قطاعات أوسع فأوسع من الجماهير العربية علـى اختلاف مواقعهـا الطبقيـة ·

كما يدلنا ازدياد الاشكال التنظيمية ، وازدياد حدة الصراع بين اطرافها ، على تخطي حركة الوحدة العربية مرحلة الانفعال ، او ما يسمى بالوعي العـام ، الى مرحلة أرقى هي مرحلة الوعي بالمصلحة الطبقية للطبقات والفئات المختلفة وكيف أنها ترتبط ارتباطا عضويا بحركة الوحدة العربية ، لكون جوهر هـــذه الاخيرة هو التحرير الوطني · وهكذا تأصل الحس القومي العـــام بالجذور الاجتماعية الطبقية فتبلور ويتبلور في أشكال تنظيمية مختلفة البرامج · لـذا

تزداد حدة الصراع حول الطريق الى الوحدة العربية ، وذلك بسبب توضح الفوارق بين مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية المتصارعة على قيادة هذه الحركة التاريخية ، وايضا بسبب ازدياد الصراع المحلي بين هذه الفئات والطبقات ٠

ومع هذا الغنى العظيم والرصيد الضخم من الخبرة التنظيمية السياسية في النضال من اجل الوحدة العربية، فان تنوع وتعدد وتعارض الاشكال التنظيمية يدلنا أيضا على أنه لم تتشكل بعد خبرة عامة متفق عليها ، نظرية ٠٠ حول طبيعة «التنظيم» السياسي الذي يرفع شعاري التحرير والوحدة ٠ أهو تنظيم واحد عام يناضل على كل الساحة العربية، ام هي تنظيمات قطرية تتبنى نظرية واحدة وتجمعها قيادة مركزية، ام هي مركزية ذات فروع قطرية، ام هي تنظيمات قطرية يجمع فيما بينها التقاؤها حول أهداف قومية واحدة ويعمل كل منها على ساحته القطرية ؟؟ أم أن هناك أشكالا اخرى لاتزال في الطريق الطويل ؟؟

واضح أنه من الممكن تلخيص الخبرة المتوافرة والاسئلة المطروحة الى مجموعتين او الى سؤالين : هل تتطلب الضرورات النضالية من أجل تحقيق الوحدة العربية « تنظيما واحدا » لكل الساحة العربية ، ام تنظيمات قطرية ذات برامج قومية واحدة ؟؟

ربما يعترضنا سؤال آخر قبل أن نمضي الى محاولة الاجابة ٠ عن اي تنظيم سنتحدث ؟ أو بالدقة عن تنظيم أي طبقة او فئة سيدور الحوار ؟

والحق أن كافة التنظيمات السياسية التي تقدم نفسها « قيادة » أو أداة تنظيمية لتحقيق الوحدة العربية ، كافة هذه التنظيمات تعلن أنها تمثل الجماهير « الكادحة » وأن ازدادوا تفصيلا فالطبقة العاملة وفقراء الفلاحين ، فان أرادوا تعميما « فالجماهير العربية » عامة ٠٠ وعلى أي حال فان محاولة الاجابة لن تعتمد الاحتكام الى نصوص نظرية معينة ، ولا عقيدة تقاس بها الوقائع ، بل ستعتمد المناقشة الواقعية للعوامل المادية والظروف الموضوعية التي مر ويمر بها النضال العربي ، تجنبا للاختلاف على تفسير النصوص والكلمات والاحتكام الى ما ليس واقعا موضوعيا ٠

مع تأكيد مالايحتاج الى تأكيد ، ان الجماهير الكادحة هي الاولى بين القوى الاجتماعية صاحبة المصلحة في تحقيق الاستقلال والوحدة العربية ، وهي التي لايعوقها عائق أو تناقض في صفوفها عن السعي والتضحية بثبات من أجل التحرير والوحدة ، وحدة قومية ديمقراطية لاتمييز فيها ولا امتيازات ٠



بداية ، نلاحظ أن حركة التنظيمات السياسية « القومية » (أي التي تلتزم

بالنضال من أجل التحرير والوحدة) اتخذت مسارين في واقع النضال العربي · فتلك التي بدأت كتنظيم عربي شامل عام واحد انتهت بعد سنوات اما الى الانقسام الى تنظيمات قطرية يعمل كل منها في حدود قطر واحد ، او الى تبني فكرة التنظيم القطري الذي يعمل ضمن حدود قطرية مع الاحتفاظ بـ « قيادة قومية » فوق هذه الفروع · ويكون ماتبقى من هيكل التنظيم الاول هو قيادته فقط بعد أن أضطر في الممارسة الى التفرعفروعا لايخفى الاختلاف بينها في كثير من الاحيان ، كما لايخفى الاختلاف بين كل فرع منها وبين القيادة المركزية او القومية · بل ان هذه الاخيرة غالبا ما تنحصر اهتماماتها واتصالاتها بنشاط فرع واحد ، أو هي أضعف من هذا الفرع اذا ماكان على رأس الحكم في القطر المعين · ثم أنها من ناحية التشكيل العضوي ليست قومية فعلا بمعنى أنها لاتضم مندوبين عن تنظيمات قطرية فتكون بذلك مجلسا أعلى لها ·

في الوقت نفسه فان بعض التنظيمات التي بدأت قطرية مع طموحات أو اهداف قومية ، بمعنى انها بدأت بالممارسة في حدود قطر واحد مع تبني برامج قومية شاملة ، انتهى بعضها الى تبني فكرة التنظيم العربي الواحد الشامل ، معلنا تنظيمه القطري تنظيما شاملا بحجج مختلفة لعل أهمها « انه لايمكن تحقيق اي انجاز قطري ، وانه لذلك لا بد من ثورة عربية شاملة» · وذلك دون اي اعتبار لظروف الاقطار الاخرى وبالذات ظروف حركة النضال فيها ، ولا الاقرار بان الفشل على ساحة قطرية أدعى لاعادة النظر في دواعي واسباب هذا الفشل ، بدلا من الاعلان عن تحمل مسؤوليات جديدة هي أضعاف اضعاف المسؤوليات التي فشلوا في تحملها ·

وهكذا انتهى اصحاب التجربة الثانية الى حيث بدأ اصحاب التجربة الاولى، مع الفارق في الظروف وفي الدوافع ، محاولين فرض قيادة للنضال العربي كله ، ومن أعلى ، ودون أي تقييم صحيح للتجارب الماضية ، ولا حتى لتجربتهم هم ·



ان المناداة **بالتنظيم العربي الثوري الواحد** باعتباره الحل الامثل للمشاكل التي يواجهها الثوار اليوم ، انما هي نوع من القفز عن الواقع · فلا شك ان المستقبل يحمل للامة العربية وحدتها القومية السياسية ، اي دولتها الواحدة الكبرى · كذلك يشير المستقبل الى ضرورة توحد التنظيمات الثورية العربية القطرية المختلفة في تنظيم ثوري عربي واحد · ولكن الدعوة الى هذا التنظيم الثوري العربي الواحد اليوم قبل قيام الدولة العربية الواحدة هو بمثابة

طلب آلة ضخمة حديثة ، ومحاولة استخدامها لانتاج بضائع متنوعة على مستوى صغيـــر ٠

فالتنظيم اداة ، وليس هدفا في ذاته ، لذلك فطبيعة الهدف والمرحلة تحـــدد ايضا طبيعة وشكل واسلوب التنظيم ٠

لا احد يعترض ابدا على استعمال الماكينات في الزراعة ، ولكن هل يمكـــن استخدام جرار الي كبير لحراثة قطع ارض زراعية صغيـــرة ومفتتة وتـــزرع محاصيل مختلفة بعضها يحتاج لحراثة عميقة والبعض يحتاج لتسوية الارض والبعض ما زال في انتظار حفر بئر مياه قبل الزراعة ؟ طبعا لا يمكن استخـدام الجرار الآلي الا اذا كانت رقعة الارض المطلوب زراعتها كبيرة المساحة، وستزرع صنفا واحدا فقط وفي وقت واحد ٠

كذلك فان الحديث عن بناء تنظيم ثوري عربي واحد يكون خطأ اذا كـــان الواقع العربي مفتتا او متغير الاهداف المرحلية ، بل وتتعارض بعض هـــذه الاهداف احيانا ٠

يفترض ان « التنظيم الثوري العربي الواحد » سيعمل على القضاء علـــى « الرجعية العربية » ، و «التحرر من كل العلاقات مع الامبريالية» ٠ و «بالتصدي لكل اطراف المخطط الامبريالي الصهيوني الرجعي » ، وذلك كما جاء فـــي النشرات التي تدعو لمثل هذا التنظيم ٠ فهل صحيح ان مـــن مهام الثـــورة الفلسطينية الآن مثلا التصدي « لكل الرجعية العربية » ٠ وهـــل يمكن مطالبـة الشعب العربي الفلسطيني الان ان يوجه ولو جزءا من قواه ، مهمـا كـــان صغيرا ، الى اي مهمة خارج اطار استعادة وطنه المغتصب ؟

ان حركة « فتح » على صواب بلا شك عندما طالبت الملوك والرؤساء العرب في ١٩٦٥ باعتبار قضية فلسطين فوق الخلافات العربية ، والخلافات العربيـــة حتى ولو كانت خلافات بين الانظمة هي انعكاس بلا شك لخـــلاف في المصالح ، وتؤثر حتما على حركة الجماهير داخل الاقطار التي يختلف حكامها بعضهم مع بعض ٠ وعندما تحرص « فتح » على الا تبدي رأيها في هذه الخلافات ــ وهو أمر واجب على « التنظيم الثوري العربي الواحد » !! ــ فأنها تحرص على عـــدم حرف اتجاه نضالها عن عدوها الاول الا وهو الكيان الصهيوني ، كما تحرص في الوقت نفسه على ضمان حد ادنى من وحدة وتضامـــن القوى العربيـــة الجماهيرية والنظامية في هذا الاتجاه ، وتحرص ايضا على عدم كسب عداء اي قوة ، او بالدقة خسارة اي قوة ولو كانت محايدة ٠

الموقف نفسه بالنسبة للثورة الجزائرية ، اذ كان استقلال الجزائـــر فـــوق الخلافات العربية النظامية منها او الجماهيرية ٠ كذلك الامر بالنسبـة لثـــورة

اليمن الجنوبية ، وهكذا · ولم تكن هذه المواقف تضعف بأي شكل مواقف النضال الجماهيري في الاقطار العربية الاخرى كما يظن البعض ، بل على العكس ، كانت المعارك ضد الاستعمار وما تزال ، حتى وان كانت على ساحة قطرية واحدة ، تفتح ابوابا واسعة للنشاط الجماهيري ، وللقوى الثورية للعمل والتنظيم · كما ان الانتصارات والانجازات التحريرية على الساحات القطرية تدفع الى الامام باستمرار بالنضالات الاجتماعية وتهيء لها ظروفا افضل · ولم يحدث في اي حال ان طلب احد من التنظيم القطري الذي يقود النضال على ساحته ان يتخلى عن هويته القطرية ليصبح تنظيما عربيا واحدا شاملا · كما يحدث الان من البعض بالمطالبة بان تتحول حركة « فتح » او تتصرف كأنها هذا « التنظيم العربي الواحد الشامل » ·

ان واقع التجزئة ، واختلاف مستويات التطور الاجتماعي في الاقطار العربية ، واختلاف الاعداء المباشرين والمهام المباشرة في كل قطر عربي ، الى غير ذلك من عوامل ، يفرض تنوعا كبيرا في البرامج النضالية وفي القوى الاجتماعية المشاركة في النضال في كل قطر على حدة · فضلا عن تنوع وخصوصية الاهداف الانتقالية التي يجب تحقيقها قطريا كخطوات ضرورية على طريق الدولة المركزية القومية الواحدة ·

وتكشف كل دعوة تغفل هذا الواقع افكارا مغامرة ، اذ هي تتعجل الصدام مع قوى ما تزال تحمل ولو القليل من امكانيات التغيير فتسوي بينها وبين الاعداء المباشرين الذين حان وقت هزيمتهم ، فتفلت فرصة هزيمتهم · وهي – اي هذه الافكار المغامرة – توسع دائما جبهة الاعداء ، وتضيق جبهة الاصدقاء ، وتستعدي من ليس عدوا الآن ، وتبدد الجهد في معارك جانبية معزولة عن الجماهير واهتماماتها المباشرة ، وينتهي بها الامر الى **عدم محاربة الاستعمار والصهيونية** بحجة محاربة الاعداء الذين يطعنوننا من الخلف · وينسى اصحاب هذه الافكار ان محاربة الاستعمار والصهيونية هي المهمة الاولى التي لا تتوقف، وهي في الوقت نفسه السبيل لتعبئة الجماهير حول الثوار للدفاع عنهم ضد اي طعنات من الخلف ، وهي الوسيلة الوحيدة العملية لفضح وجوه تلك القوى التي تطعن هذا النضال القومي او تضع في طريقه العراقيل · اما التوقف عن الحرب ضد الاستعمار والصهيونية مهما كان المبرر فانه يفقد الوجه والجوهر القومي للقوى التي تدعيه ، ايا كان « اسمها » او « لون اللافتة التي ترفعها » ·

ولن تؤدي مثل هذه الدعوة الا الى تجمع افراد عجزوا عن تحقيق اي تقدم في اقطارهم فالقوا بالمسؤولية على غيرهم او على واقع التجزئة · وجزموا انه لا يمكن تحقيق اي تقدم قطري ما لم تعبأ كل الجماهير الكادحة في معركة ضد « كل اطراف المؤامرة » حسبما جاء في احدى النشرات التي ترفع هذه الدعوة·

ثم هم بعد تجمعهم سيكتشفون حتما ان المهمة التي تصدوا لها اضخم بكثير جدا من جهودهم المعزولة عن واقع اقطارهم فيكتفون بالانتظار والترقب وربما يوسعون مجال « حربهم » لتشمل الامبريالية في العالم كله · وليس هذا من قبيل السخرية ، ولا التقليل من اخلاص دوافع القائلين بهذا الشعار ، ولكنه اتعاظ بخبرة الذين قطعوا ذات يوم انه لا يمكن للثورة أن تنجح في بلد واحد وما زالوا ينتظرون ثورة كل العالم مرة واحدة · والثورة تنجح في اكثر من بلد ولا تنتظرهم ·

★★★

هل معنى ذلك ان يقتصر النضال على برامج قطرية فقط ؟

كلا بالطبع ·· فالاقطار العربية تشكل أمة واحدة ومستقبلها دولة عربية واحدة ·· وهي وان تكن اليوم مجزأة بحدود سياسية خلفتها مخططات المستعمرين والصهاينة ، الا انها لا بد سائرة الى الغاء هذه الحدود فيما بينها· ولكن ذلك لن يتم بين يوم وليلة ، ولا بقرار من مجموعة او حاكم ، ولا مرة واحدة بين كل الاقطار · كما انه من المؤكد ان هذه الوحدة السياسية الكبرى لن تتم وقطعة من ارض العرب مغتصبة او محتلة ·

ان محاولة رسم طريق محدد ستسلكها الاقطار العربية نحو الوحدة السياسية امر صعب ان لم يكن مستحيلا · ولكن الالتزام بالتوجه دائما نحو هذا الهدف بغض النظر عن القطر او موقع الحدث او المعركة كفيل بضمان قومية كل الاجراءات والخطوات القطرية · وليس الامر صعبا بالنسبة لنا نحن العرب ، لانه لما كانت الوحدة السياسية القومية ستقوم على انقاض واقع التجزئة الذي يفرضه المستعمرون ، لذا فان كل اجراء موجه ضد الاستعمار وعلى وجه الخصوص ضد العدو الصهيوني ، هو اجراء قومي من شأنه تقريب الهدف الا وهو الوحدة السياسية العربية الكبرى · كذلك فان اخضاع الاجراءات الاجتماعية القطرية على اختلافها لشرط ان تكون في خدمة المعركة ضد الاستعمار هو ايضا ضروري ولازم لكي يمكن ضمان قومية هذا الاجراء او ذاك·

بذلك نفرق بين الممارسة القطرية الاقليمية وبين الممارسة القطرية القومية · الاولى لا تكون ـ بوعي او بدون وعي ـ ضمن مسار التقدم نحو الوحدة العربية، والثانية تتجه بالضرورة نحو هذه الوحدة · بل انه من الممكن القطع بان كل اجراء او نشاط قطري من شأنه ان يبعد بين هذا القطر وبين بقية الاقطار ويوسع الشقة بينه وبينها ، هو ضار قطريا مهما بدا مفيدا او « تقدميا » في لحظة اتخاذه ·

ان السبيل الوحيد لتحقيق تغيير اجتماعي جذري في العلاقات داخل قطر

عربي معين هو ان يتم هذا التغيير في ظل الصدام ضد الاستعمار والعدو الصهيوني وبهدف تعبئة كل الطاقات ضد هذا العدو ، سواء منها السياسية او العسكرية او البشرية او الانتاجية ، اي ان التغيير هو بهدف اقامة قاعدة محررة تواصل حرب التحرير ، لا بلد يحاول حل مشاكله الاجتماعية ، مع تجميد الصدام ضد الاستعمار والصهيونية · وفي هذه الحالة يسمى اقتصاد هذه القاعدة المحررة ، او القطر المحرر ، اقتصاد حرب ، لانه من المفترض انه سيظل في حالة حرب ضد الاستعمار حتى تتحرر الامة العربية كلها ·

لقد سادت في مرحلة سابقة أفكار تقول بضرورة تحقيق تغيير اجتماعي جذري، او بناء مجتمع اشتراكي لكي يمكن ان تتحقق وحدة تقدمية هي **شرط الانتصار** على **الاستعمار** والصهيونية · ولقد حاولت بعض الانظمة اتخاذ اجراءات سمتها في حينها « **التحول الاشتراكي** » او « التغيير الاشتراكي » وحتى سمتها « الثورة الاشتراكية » · ولا شك ان الطابع العام لهذه الاجراءات كان طابعاً اصلاحيا، وبعضها بلا شك اتخذ مظهرا « تقدميا » · ولكن الى اين انتهت هذه الاجراءات الآن ؟ وهل يمكن فعلا احداث تقدم **اجتماعي جوهري** قبل التحرير والوحدة ؟ هل يمكن **بناء الاشتراكية** في وطن محتل ؟؟ هل يمكن الغاء الاستغلال الراسمالي في وطن محتل ؟ اوليست الدعوة للتغيير الاجتماعي الجذري في قطر عربي ، بينما قطر عربي اخر محتل ، هي دعوة **اقليمية** ، حتى ولو غلفها اصحابها بشعارات **قومية** او نادى بها « حزب ثوري عربي واحد » !

ان النضالات القطرية الصحيحة هي النضالات القطرية ذات التوجه القومي، وهي كالروافد تصب جميعها في نهر واحد هو مجرى الوحدة القومية الكبرى· وهي قد لا تصب جميعها عند نقطة واحدة في هذا النهر التاريخي ، وقد تتعرج في مسارها اليه ولكنها تتوجه نحوه دائما والا ضاعت ، وجفت دون فائدة ···

لذا لا بد ان تكون النضالات القطرية محكومة بتوجه قومي واحد ·· برؤية قومية واحدة · ان كل نضال قطري لا بد سيبنى على الظروف المحلية للقطر المعين ، وفي نفس الوقت على الظرف العام الذي تمر به الامة العربية وفي خدمة الهدف العام للامة العربية وهو التحرير والوحدة ·

ان الصراع الاجتماعي لا يفتعل ، ولا يستطيع احد ان يتجاهله او يجمده · ومهمة القوى الثورية الواعية هي دفعه في اتجاه الاحتدام والصدام ، موجهة ضرباتها الى الحلقة الرئيسية للنضال في كل مرحلة · والحلقة الرئيسية في هذه المرحلة هي الصدام مع الاستعمار (الذي هو مصدر التخلف الاجتماعي للامة العربية) والكيان الصهيوني (الذي قصد باقامته ضمان مصالح الاستعمار في المنطقة سواء في ابقاء الوطن العربي مقسما او متخلفا) · لذا فان الحرب

ضد هذا العدو هي التي من شأنها احداث اعمق تغيير اجتماعي في بلادنا العربية ، وهي التي من شأنها ربط اي محاولة للتغيير الاجتماعي القطري بالعمق القومي ، بل وضمان استمرار هذا التغيير ·

ولقد لخصت حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » هذه الخبرة والفكرة في شعار بسيط عميق، عندما حددت ان الثورة الفلسطينية هي **فلسطينية المنطلق، عربية العمق ، عالمية الاطار** ، اي هي **قطرية المنطلق** ، **قومية العمق** ، **اممية الاطار** ·

ولا شك ان هذه الخبرة تصلح للتطبيق في الاقطار العربية الاخرى ، وتعني **قطرية المنطلق** الالتزام بخوض النضال في الواقع القطري مباشرة وبأدواته المعبرة عنه النابعة منه ، كما تعني **قومية العمق** الالتزام بأن يكون هذا النضال القطري متسقا مع مجرى النضال القومي العربي العام، وجزءا منه موضوعيا ، ويخدم اهدافه في النتائج · وحين ننجح في تحقيق هذين الشرطين فان نضالنا عندئذ سيكون بلا شك جزءا من النضال العالمي لحركة التحرر الوطني العالمية ضد الاستعمار ، وستصب نتائجنا في الاتجاه التاريخي العام لانتصار الشعوب·

المطلوب اذن هو تنظيمات قطرية ذات التزام قومي · وهذه التنظيمات القطرية لا بد ان تنشأ من واقعها ، ولا يمكن زرعها من خارج هذا الواقع · يمكن تقديم العون لها ، ولكن من المستحيل فرضها على الواقع · فان اكثر الثوار خبرة ووعيا وتدريبا لا يمكن ان ينجح في غير مجاله الذي نشأ منه وفيه « وما يحرث الارض الا عجولها » ·



كيف اذن تكون العلاقة بين هذه التنظيمات القطرية ذات الالتزام القومي الواحد ؟ ·· هل يمضي كل منها في ساحته القطرية لا شأن له بالساحات الاخرى؟ واذا تم الاتصال فكيف تنظم خطوات التنسيق وتبادل الخبرة والعون فيما بينها؟

هناك قاعدة نضالية اثبتتها خبرة الشعوب تؤكد ان النضال الصحيح المستمر هو الذي يقوم على **مبدأ الاعتماد على الذات ، ومبدأ الاعتماد على الذات هو الوجه الآخر لمبدأ الاستقلالية التنظيمية** · وتكاد هذه القاعدة تحكم كافة الاشكال **التنظيمية** للنضال ، وفي اي مكان ، صغيرا كان ام كبيرا ، قطريا كان ام شاملا·

ولا علاقة للاستقلالية النضالية ، بالانفصالية او الانشقاقية او الاقليمية المتعصبة ، والفرق يكمن في ان هذا المبدأ لا يضمن الاستقلالية في **تقرير الامور قاعديا ومحليا** فقط ، اي على الواقع المباشر ، وانما يحتم ايضا **عدم فرض الوصاية** على التنظيمات الاخرى التي تعمل على ساحاتها · اي ان الاستقلالية **تعني رفض التبعية من الطرفين معا** ، او من الاطراف المشتركة كلها فيما بينها·

ذلك معناه ان القاعدة التي تحكم العلاقات الصحيحة بين التنظيمات القطرية ذات الالتزام القومي الواحد هي قاعدة الاستقلالية الملتزمة بهذه الرؤية القومية ٠

والاعتماد على الذات يعني عدم القاء المسؤولية في قطر من الاقطار او ساحة من ساحات النضال على اي قوة قطرية اخرى ضمن هذا الالتزام القومي ٠ ويعني ذلك ايضا عدم الزام اي قوة قطرية قومية خارج القطر المعين باتخاذ نفس الموقف السياسي الذي يحدده تنظيم هذا القطر من قضاياه المحلية ٠ فمثلا، لا يمكن مطالبة قوى الثورة الفلسطينية بان تتبع في مواقفها وعلاقاتها واتصالاتها العربية موقف تنظيم قطري قومي معين في هذا البلد او ذاك سواء في التحالف او في العداء ٠٠ لان ذلك سيؤدي الى توريط قوى الثورة الفلسطينية في تعرجات قطرية غير فلسطينية هي في غنى عنها ٠٠

ان البعض لا يفهم احيانا لماذا تقيم قوى الثورة الفلسطينية علاقات مع قوى عربية معينة او انظمة عربية معينة ، ناسيا انه طالما تتم هذه الاتصالات لصالح الثورة الفلسطينية ، فهي اذن صحيحة ، وان من يقرر الصالح من الضار هو وحده التنظيم القطري المعني دون اي تدخل او وصاية ٠

كما تعني الاستقلالية التنظيمية ، والاعتماد على الذات عدم التدخل في شؤون التنظيمات القطرية للساحات النضاليه الاخرى ٠ فلئن كانت النظم تلتزم فيما بينها علنا على الاقل بمبدأ احترام « السيادة » (!!!) فان التنظيمات تلتزم دون قانون مكتوب احترام آراء التنظيمات القطرية الثورية على ساحاتها وعدم التدخل في شؤونها التنظيمية وعلاقاتها مع الجماهير في قطرها لا لاسباب قانونية او تتعلق « بالسيادة » ، وانما لانه من الخطأ ان يطرح تنظيم من التنظيمات في قطر معين نفسه بديلا عن التنظيم الثوري في قطر آخر ٠٠ سيكون ذلك بمثابة محاولة فرض وصاية ، ولن تؤدي مهما بلغت درجة صدق النوايا الا الى الفشل والمشاكل والانشقاقات ٠ ٠

★★★

وبتطبيق مبدا الاستقلالية التنظيمية والاعتماد على الذات تكون قاعدة العلاقة بين التنظيمات القطرية ذات الرؤية القومية الواحدة هي قاعدة الندية الاخوية اي المساواة الكاملة بين كل هذه التنظيمات دون تمييز على اساس امكانيات هذا التنظيم او قطره المعين ، وذلك عند مناقشة القضايا القومية العامة المشتركة ٠

اما في مجال تبادل الخبرة والعون ، وهو أمر ممكن وواجب ، فان ما يقدم يقدم بشكل اخوي ودون اي شروط او تدخل ، وبالذات في مجال تحديد المواقف

السياسية والتنظيمية ٠ لان الالتزام القومي الصحيح يعني ان الامكانات المادية التي تتوفر لاي تنظيم قطري انما هي في خدمة النضال القومي كله ، وهي ملك لهـــذا النضال ٠

كذلك فان من الضروري بذل الجهود المستمرة والمخلصة للقاء كل القوى ذات الرؤية القومية الواحدة للتشاور وتبادل الراي وتقدير المواقف المختلفة ، وذلك لتطوير وتعميق رؤية قومية واحدة فيما بين مختلف التنظيمات القطرية القومية٠

وفي ظروفنا الحالية ، حيث تحتل قضية فلسطين موقع المحور المركزي فـــي المعركة العربية ضد الاستعمار والصهيونية ، وحيث الثورة الفلسطينية المسلحة تمضي قدما من اجل تحرير فلسطين ، فان من واجب كافة التنظيمات القوميـة في كل الاقطار ان تساهم في هذه الحرب القومية الشعبية العادلة ٠ ولا يعنـــي ذلك ان تتخلى عن واجباتها القطرية المحلية ، وانما يعني ان تربط بينها وبين الهدف الاول، الا وهو تحرير فلسطين ، الى جانب مساهماتها قدر امكانياتها في عملية التحرير مباشرة ٠

وفي كل الاحوال فان لقاء التنظيمات القطرية القومية على ساحات النضـــال الفعلية ضد الاستعمار والصهيونية ، من شأنه التقريب بين ارائها ومواقفهـــا السياسية، وتعميق رؤيتها القومية المشتركة، وهي خطوات ضرورية سابقة على اي عملية توحيد تنظيمية « شكلية » او « انتقائية » أو « شللية حلقية » ٠

ومن المؤكد ان الانتصار على الاستعمار والصهيونية من شأنه ازالة اكبـــر العقبات في وجه الوحدة العربية ٠ كما ان استكمال تحرير الوطن العربي مـــن شأنه الاسراع بالقضاء على الحدود السياسية الدولية المفروضة على اقطـــار هذا الوطن ٠ وعندئذ ، عندما تزول هذه الحدود والتقسيمات ، تكون ظـروف تحقيق وحدة التنظيمات القومية في تنظيم عربي واحد قد تهيأت ٠٠

وبيننا وبين هذه الظروف نضال شاق ، وجهود بناءة صبورة، وانكار ذات ٠٠ والتزام قومي بالتوجه دوما للتحرير والوحدة ٠

الأطماع الاستعمارية البريطانية في فلسطين

علي حسين خلف

يكتسب البحث عن جذور الاطماع الاستعمارية البريطانية في فلسطين اهمية خاصة. لان حصر المناقشة في مرحلة الحرب العالمية الاولى ، تقود الى نتائج مضللة ، وخادعة . فهي من جهة ، تساعد النظرة اليمينية ، نظرا لكثافة النشاط الصهيوني في هذه المرحلة . على الادعاء ، بان النشاط الصهيوني هو الذي اوجد الاطماع الاستعمارية البريطانية في فلسطين ، كغطاء لمشروعه الخاص ، المشروع الاستعماري الاستيطاني . بدلا من القول بان المشروع الصهيوني في فلسطين ، كمعبر عن امال البرجوازية (اليهودية) الصاعدة ، يكتسب ملامحه وسماته بارتباطه ، كملحق بالمشروع الاستعماري البريطاني وأداة له .

ومن جهة اخرى ، لان نتائج التحليل ، لا تتوقف عند حدود البحث النظري والاستقصاء التاريخي ، وانما تتحول الى مهمات نضالية ، فقد عمدت القيادة المسيطرة الى قلب اولويات النضال ، بتجريد الاطماع الاستعمارية البريطانية من جذورها في القرن التاسع عشر ، ومركزة الصراع ضد اليهود الصهاينة فقط .

وهذه النتيجة تتوافق مع المصالح الطبقية للقيادة الفلسطينية آنذاك ، والمعبرة عن مصالح الارستقراطية العائلية والدينية . ومصالح كبار الملاك .

ويفسر لنا هذا لماذا وضعت هذه القيادة ، الصهيونية الناشئة ، بدلا من الاحتلال البريطاني ، على رأس اعدائها . حيث يعفيها هذا الاستنتاج من النضال ضد العدو الرئيسي والمباشر، والاخطر من ذلك،انها وضعت عدوها الرئيسي والمباشر في موقع الحكم او الحياد، في الصراع الثنائي الفلسطيني ـ الصهيوني . ثم انتقلت خطوة خطيرة ثالثة ، عندما جعلت الصراع الثنائي دينيا وطائفيا . ان الاسس التي حاكمت بها القيادة المسيطرة

مسالة الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية ، تتعاكس تماما مع نضالات الجماهير التي استطاعت بعفويتها وايديولوجيتها البسيطة فهم جوهر الصراع · لكن افتقاد هذاالفهم لاداته التنظيمية اجهض نضال الجماهير وجعلها تقبل قيادة سياسية ساقطة تاريخيا·

كان الصراع الاساسي مع الاستعمار البريطاني الذي جعل من الصهيونية اداة لمشروعه ، تحالف يخدم الطرفين تكون فيها بريطانيا قائدا وموجها · هذا لا ينفي بالطبع الدور الكبير الذي قامت به الحركة الصهيونية والدوائر الامبريالية والسلطنة العثمانية لدفع قضيتها الى الامام ·

لم تظهر الاطماع البريطانية في فلسطين خلال فترة الحرب العالمية الاولى ، فهي تعود بجذورها الى القرن التاسع عشر ، وكانت تنمو وتتقدم بثبات حسب خصائص كل فترة تاريخية ، مزاملة ايضا تعاظم الدور الامبريالي لبريطانيا في العالم · ضمن هذا الاطار ووفقا لمنطقه التاريخي لم يكن بمقدور الحركة الصهيونية، وهي الحركة الوليدة حديثا ، ان تلعب دور المنافس للدول الاوروبية الباحثة عن التوسع والنهب · وكان عليها ان تلعب دور التابع والاداة · لذلك يسقط مفهوم الشراكة بين الطرفين · فعلاقة الصهيونية بالامبريالية البريطانية كانت علاقة قائد وتابع لا علاقة تماثل ، وارجاع العلاقة الى علاقة تماثل وهم ساذج ، كما ان اعطاء الصهيونية دور القائد المستقل ذاتيا ترويج رجعي يحاول تبرير مفهوم العمالة لبريطانيا ·

استند التحالف البريطاني ـ الصهيوني الى مفهوم النهب والاستيطان الكولونيالي، والتحكم بـ« البلدان المتخلفة » استراتيجيا ·
ونظرا لطول الفترة الزمنية من١٨٣١ ـ ١٩٢١ التي مرت بها مراحل الاطماع الاستعمارية البريطانية في فلسطين يمكن تقسيمها الى ثلاث مراحل اساسية :

١ـ المرحلة الاولى ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ · وهي مرحلة اصطدام الاطماع الاستعمارية البريطانية باطماع محمد علي الكبير ·

٢ـ المرحلة الثانية ١٨٤٠ ـ ١٨٩٧ ، مرحلة التبشير بالمشروع الصهيوني على يد بريطانيا ، بعد ان ثبتت وجودها الاستعماري في المنطقة ·

٣ـ المرحلة الثالثة ١٨٩٧ ـ ١٩٢١ ، انتقال الاطماع الاستعمارية البريطانية من التخطيط الى التحقيق ·

المرحلة الاولى ١٨٣١ ـ ١٨٤٠

اصطدام الاطماع الاستعمارية البريطانية بخطط محمد علي · انتفاضات فلسطينية ضد ابراهيم باشا

رغم المظهر الاصلاحي الذي حاولت حملة ابراهيم باشا ان تتقنع به ، فان تاريخ الاحتلال المصري لفلسطين (١٨٣١ـ ١٨٤٠ م) اظهر الادعاء بان الاقطاعية « الوحدوية» استندت اساسا على قاعدة التقرب الى بعض اجنحة الاقطاع من اجل ضرب الاجنحة الاخرى ، مثلما حدث في نابلس ، عندما تبنى ابراهيم باشا دعم ال العبد الهادي على حساب ال طوقان ·

وبلجوء ابراهيم باشا الى نظام السخرة والتجنيد الاجباري على نطاق واسع ، نال نقمة

وسخط معظم فئات الشعب الفلسطيني · اذ فرض على سكان عكا زراعة سبع وثلاثين الف شجرة زيتون ، واباح البيوت والدوابلسكن وتنقلات الجنـــود ، وحدد نوعيـــة الحاصلات الزراعية ، مما ادى الى تخريب الزراعة ، والى ارتفاع في الاسعار ، وصـــل الى « اكثر من مئتين في المئــة » (١)

وهربا من التجنيد الاجباري ، اخذ الشباب يغادرون البلاد ، كما اخذ بعضهم «يشوهون انفسهم فسملوا اعينهم واقتطعوا سباباتهم » · (٢) وتمكنت انتفاضة نابلس التي قادهـا الشيخ كاظم احمد ، من ارغام ابراهيم باشا ، على التراجع عن فرض التجنيد الاجباري والتخفيف من الضرائب المفروضة على الفلاحين ، والغاء تحديد الحاصلات الزراعية·(٣)

ومن اجل التخلص من الاحتلال المصري قاد ابراهيم ابو غوش عشرة الاف ثائـــر ، معظمهم من الفلاحين ، في جبال القدس ، بدعم ومساندة من الالحسيني ، الاســـرة الاقطاعية المسيطرة على الوقف الاسلامي · ورأى اميل الغوري ، ان الثورة التي بـــدأت عام ١٨٣٤ م ، امتدت الى نابلس والخليل وصفد ويافـا وغـــزة ، وانهـــا طالبـــت « باستقلال البلاد وانشاء دولة عربية فيها » وانها (عاودت الظهور عام١٨٣٨) ·(٤)

روصف لوتسكي هذه الانتفاضة قائـــلا :

«··· وفي عام ١٨٣٤ · كانت قد قامت اول انتفاضة فلاحية كبيرة ضد التجنيـــد، شملت فلسطين كلها تقريبا ، وابيدت انئذ الحملة المصرية التنكيلية المرسلة الى جبـــال اليهودية (القدس) · وحاصر الثوار ابراهيم نفسه في القدس · وجاءت لمعونته امدادات من مصر بقيادة محمد علي الـــذي خاض بنفسه الحملة للتنكيل بالساهمين فـــــي الانتفاضة ··(٥)

نتيجة ذلك تنكر محمد علي للاتفاقية التي عقدها ابنه ابراهيم باشا مـع الشيخ كاظـم احمد في نابلس ، وتمكن من قتله و« زيادة الضرائب على اهل نابلس ، ومن التعـدي عليهم بصورة خاصة ، مما ساعد في اتساع دائرة الانحطاط الزراعي وخراب الارضـــ الزراعية القليلة في فلسطين » · (٦)

ان الانتفاضة الشاملة وصمودها في وجه محمد علي وابنه ابراهيم ، وتجددها فـــي عام ١٨٣٨ ، تثبت زيف الادعاء ان حركة ابراهيم باشا في فلسطين حركة اصلاحيـــة، وتؤكد القول ان هذه الحركة دمرت اساس الاقتصاد الفلاحي الفلسطيني ، ومهـــدت لخراب وتدمير القرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر · خاصة عندمـــا اقدم ابراهيم باشا عام ١٨٣٨ على الغاء نظام الاستئجار في الاراضي الاميرية ، التي اعتاد الفلاحون الفلسطينيون العمل بها ، مما يفسر اسباب الانتفاضة الفلاحية الثانية·

الخطة البريطانية : طرد محمد علي وتقليم اظافر النفوذ الروسي·

كانت بريطانيا حينئذ ، خاصة بعد معركة قونية (٢١ـ ١٢ ـ ١٨٣٢) ، تخشى خطريـــن اساسيين :

الاول نمو وتوسيع دولة محمد علي وتكوين امبرطورية عربية تحمل في ثيابها النفوذ الفرنســـي ·

الثاني نمو وتعاظم النفوذ الروسي داخل ما تبقى من الامبراطورية العثمانية ·

هذان الخطران اذا ما تحققا ، يغلقان امام بريطانيا امكانية السيطرة على شرق البحر المتوسط . ويجعلان تجارتها مع جنوب شرق اسيا والهند تحت رحمة المحطة الوسيطة (الامبراطورية الجديدة) · ومما عزز الخوف من الخطر الروسي ، اقدام الامبراطورية القيصرية على انزال فيلقين (حوالي ٤٠ الف جندي) على الشاطىء الاسيوي للبوسفور ، والشاطىء التركي للدانوب ، استجابة لطلب السلطان العثماني بعد هزيمته امام ابراهيم باشا في معركة كوتاهية (٢شباط ١٨٣٣) · هذا التدخل « افزع انجلترا وفرنسا فهرعتا لمصالحة محمد علي مع السلطان ، من اجل ان تحرم روسيا من حجة تتذرع بها لابقاء قواتها في البوسفور » (٧) ودفعتا محمد علي ، لقبول فرمان السلطان العثماني الذي سمي صلح كوتاهية (٤ـ٥ـ١٨٣٣) ، حيث ثبت السلطان حقوق محمد علي (في مصر والجزيرة العربية والسودان وكرية) وعينه حاكما على (فلسطين وسوريا وكيليكيا)·(٨)

هذه الخطوة التي بدت ظاهرا انها تدعم نفوذ محمد علي على حساب الامبراطورية التركية ، كانت في حقيقة الامر سعيا لضرب الطرفين معا ، مبتدئين بضرب النفوذ الروسي والماني الجديد من خلال الغاء معاهدة هنكار اسكلس واتفاقية مونخن غراتز ·

شواهد التوجه البريطاني نحو فلسطين :

يمكن رصد الخطوات البريطانية باتجاه فلسطين في السنوات اللاحقة بالاتي :

عقدت بريطانيا مع تركيا معاهدة تجارية سنة ١٨٣٨ ضمنت امكانية (دخول بضائع بريطانيا والدول الرأسمالية الاخرى الى اسواق الاقطار العربية) · (٩) فبدأت الزراعة الفلسطينية تحت هذا التأثير ، تأخذ سمة الانتاج البضاعي حين بدأت تختص منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر في انتاج المحاصيل السلعية ، كالقطن ، والحبوب والصوف · (١٠)

ـ طلبت بريطانيا من مونتفيوري مقابلة محمد علي باشا عام ١٨٣٨ والاتفاق معهعلى تاجير اليهود مائتي قرية عربية بهدف الزراعة « مقابل عشرين في المائة من المحصول»· حيث « تعهد محمد على بالترخيص لليهود في شراء اية مساحة يستطيعون ان يجدوها في ربوع سوريا » · (١١)

ـ عام ١٨٣٨ تأسست القنصلية البريطانية في القدس ، ووجهت جهودها الرئيسية « لحماية اليهود وتحسين اوضاعهم ، عندما كان لا يزيد عددهم في فلسطين عن ٩٧٠٠ نسمة حسب تقرير نائب القنصل البريطاني » · (١٢) وتصف المؤرخة باربره توخمان تقييم اللورد شافتسبوري لاهمية تعيين اول قنصل بريطاني في القدس بقولها :« ان تربة فلسطين ومناخها ملائمان على نحو فريد لنمو محاصيل تلبي حاجات بريطانيا العظمى·· والمطلوب هو راس المالوالمهارات لاكثر ·· ستوفرها بريطانيا ··بعد ان اصبحت فلسطين تتمتع بوجود موظف بريطاني فيها ، وبالامن المتزايد الذي يضفيه وجوده على الملكية (بضمالميم) · ما الذي يمنع العالم اذن من مشاهدةعودة اليهود اخيرا (الى فلسطين) » الذين لن يعمدوا الى الزراعة في اية ارض اخرى ، والذين سيصبحون زارعي اليهودية والجليل مرة اخرى بعد ان وجدوا في القنصل البريطاني وسيطا بين الباشا وبين شعبهم » · (١٣)

ـ استباقا لاطماع محمد علي التي امتدت الى نجد والخليج ، ومن اجل ايجـــاد محطة ثابتة على الطريق التجارية بين الهند وبريطانيا ، عبر المتوسط ، احتلت بريطانيا عدن في ١٩ـ١ـ١٩٣٩م٠ ثم بدأت تمارس ضغوطها على محمد علي من اجـــل فتـح قناة السويس ٠

ـ ان المفاوضات التي اعقبت مذكرة الدول المؤيدة لتركيا (روسيا ـ النمسا ـ بروسيا ـ انكلترا ـ فرنسا) وافقت باغلبيتها ـ لاحقا ـ على اعطاء محمد علي حكما وراثيا في مصر وسوريا لقاء تنازله عن باقي المناطق اما بريطانيا فقد طالبت بالتخلي عن سوريا ايضا ٠ وفي ايار ١٨٤٠ ، وبنتيجة الوساطة الفرنسية ، عقد اتفاق بين تركيا ومصر (منـــح السلطان بموجب هذه الاتفاقية محمد علي ملكا وراثيا في مصر وسوريا) ٠(١٤)

ـ في ١٥ تموز ١٨٤٠ وقعت تركيا مع اربع دول اوروبية اتفاقية لندن التي كانــت نصرا كبيرا للدبلوماسية الانجليزية » ٠ (١٥) وفي ١٩ اب اذيعت مطالب الـــدول المشاركة بعقد الاتفاقية ، والتي اعطت محمد علي حكما وراثيا في مصر واناطت ادارة فلسطين(ولاية عكا) به كملك عليها مدى الحياة !

وعندما رفض محمد علي هذه الشروط شبت الحرب ٠ ولوحظ ان القوات البريطانية، بمساعدة من الثوار المحليين ، هي التي سيطرت على فلسطين ولبنان ، حتى دفعته الـى الاستسلام في ٢٧ـ١١ـ١٨٤٠ عندمـا كان جيشهـا يحاصـر الاسكندرية ، ونتيجة ذلك اصبحت مصر عمليا تحت النفوذ البريطاني ، رغم قرار الحكم الوراثي لمحمد عليفيها٠

ـ وجه اللورد شافتسبوري رسالة الى وزير الخارجية البريطانية بالمرستون فـــي ٢٥ ايلول ١٨٤٠ قال فيها « ان سوريا ومن ضمنها فلسطين ينبغي ان تحول الى دومنيون انجليزي » (١٦) كما اقترح « استيطان اليهود في فلسطين » (١٧) كما وجه بالمرستون رسالة الى نائب القنصل الانجليزي في القدس يأمره فيها « كن حاميا لليهـــود بصـــورة عامة » وارسل رسالة اخـــرى الى سفير بريطانيا في اسطنبول يطلب منه ان يبادر « الى مفاتحة الحاكم التركي بضرورة عودة اليهود الى فلسطين » (٢٨) كما « ارســـل سلسلة من التعليمات الى ممثلي حكومته في انحاء الدولة العثمانية حول اليهود والمشروع الصهيوني ، يمكن اعتبارها بداية التدخل البريطاني الرسمي لصالح « الامة اليهوديـــة واعادة توطينها في فلسطين » ٠(١٩) يؤكد ذلك جانسن عندما يقول «يبدو ان الصلة السياسية البريطانية الرسمية الاولى باليهود ترجـــع الى عام ١٨٣٩ عندما طلـــب بالمرستون من القناصل البريطانيين تقديم الحماية لليهود ، ولم يتم بعد ذلك اي عمـــل بريطاني رسمي قبل لقاء تشمبرلين بهرتزل » (٢٠)

وبالنتيجة فان بريطانية في فلسطين ، ومصر ، هي اساس الصراع البريطاني لاقصاء محمد علي عن سوريا الطبيعية وسجنه داخل مصر بالحكم الوراثي ٠ مما يسهل لهـــا تنفيذ مشروعها ، على حلقات ، في فلسطين ، وتهيئة مصر ، عبر اضعاف واذلال محمـد علي ، لاستقبال النفوذ الانجليزي الطامع في السيطرة على قناة السويس ، وبالنتيجـة، السيطرة على مصر ٠

المرحلة الثانية ١٨٤٠ ـ١٨٩٧ بريطانيا تبشر بالمشروع الصهيوني

درجت الدبلوماسية البريطانية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، في سياق التعبير عن اطماعها في المنطقة العربية ، وفق قاعدة واحدة باداتين اثنتيـــن ٠ اداة

بريطانية ظاهرة ومكشوفة واداة احتياطية هي ، الحركة الصهيونية · ففي جميع تصريحات واتصالات سفراء بريطانيا في القدس ودمشق وبيروت والاستانة ، والمدعومة من وزير الخارجية بالمرستون ، يصعب الحصول على تصريح واحد يخفي عطفه على (الشعب) اليهودي ·

واستنادا الى الاتفاقية التجارية البريطانية ـ التركية ، عززت بريطانيا نفوذها المالي والاقتصادي في الامبراطورية العثمانية ، حتى غدت قوة منافسةلكل من النفوذالفرنسي والالماني والروسي · واستثمرت نتائج استسلام محمد علي لتطوير نفوذها في امبراطورية الحكم الوراثي (مصر والسودان) وصولا الى احتلالهما ، بالتتابع ، وبذلك اقتربت من فلسطين حتى ملاصقة الحدود ·
وفي الوقت نفسه استخدمت مستعمرة عدن ، كمخفر استطلاع امامي لاطماعها في اليمن والجزيرة والخليج · وغدت الطريق بينها وبين الهند ، مرورا بالمتوسط ، وعبر عدن والسويس ، تحت هيمنتها المباشرة ·

المخطط البريطاني الاستعماري في خلق الحلم الصهيوني كأداة :

قبل ان يخرج ابراهيم باشا نهائيا من سوريا ، وبينما القوات البريطانية تحاصر بيروت وتحتل عكا ، كتب اللورد شافتسبوري متغنيا بـ« البسالة المقدامة لابناء وطننا» ، وداعيا الى (التحالف مع الشعب القديم وحمايته) · كما كتب بالمرستون ـ وزير الخارجية ـ رسالة الى السفير البريطاني في الاستانة ، طالبا منه مفاتحة السلطان التركي في امر تشجيع اليهود على العودة والاستيطان في فلسطين ، حتى يشكلوا « كابحا لاية مخططات شريرة يعدها محمد علي او خليفته في المستقبل » (٢١) هذه الحجة الواهية ، الخوف من محمد علي ، لم تتذرع بها جريدة التايمز اللندنية (١٧ـ٩ ـ ١٨٤٠) ، حين دعت الى مناقشة جدية لاقتراح اسكان اليهود ، فيما اسمته « وطن ابائهم » · بينما وقع ادوارد روبنسون في ما هو اكثر سذاجة، حين استعرض علاقة فرنسا بالكاثوليك وروسيا بالارثوذكس ليسأل « في شخص من تستطيع انجلترا ان تجد لها حلفاء في هذا الجزء ، وذلك من الامبراطورية التركية ؟··» (٢٢) · قاصدا الاشارة الى « اليهود » ·

حقا ان هو لنفورت عبر عن الموقف البريطاني بدقة ، حين ربط بين اقامة دولة يهودية في فلسطين ، وبين الضرورة السياسية (لبريطانيا) في تأمين الطريق الرئيسي الى الهند عبر اسيا الصغرى ، في كتابه « ملاحظات حول ظروف اليهود الحاضرة في فلسطين » والصادر عام ١٨٥٢ · بينما غرق الكولونيل جولر ، حاكم جنوب استراليا، في مسوح الرهبان ، وهو يدعو في البرلمان البريطاني (٢٥ ـ ١ ـ ١٨٥٢) ، الى ان تقوم بريطانيا باصلاح سوريا ، بهمة من اسماهم « بناة اسرائيل » وذلك استجابة لدعوة (القدر) (٢٣)

هذا الفهم الكنسي يسقط فيه اميل الغوري حين عزا ما اسماه «نجاح اليهودية العالمية» في التقرب من البريطانيين واكتساب (مودتهم) الى خروج انجلترا على الكنيسة الكاثوليكية واتخاذها البروتستانتية دينا رسميا لها (٢٤) فعدا عن بؤس هذا الفكر اليميني ، فان الغوري اكثر حياء من لورنس اوليفانت ، الذي ربط ـ وبشكل صحيح ـ بين فكرة الاستيطان اليهودي وبين الحاجة الى تأمين « التغلغل البريطاني

سياسيا واقتصاديا في فلسطين » (٢٥) وكل شواهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تؤكد ذلك ·

ففي عام ١٨٦٥ تأسس في لندن صندوق استكشاف فلسطين برئاسة اللورد شافتسبوري ، **والذي قال بمناسبة تعيينه رئيسا للصندوق « دعونا لانتأخر في ارسال افضل العملاء ·· لتنقيب طول فلسطين وعرضها · واعدادها من اجل عودة مالكيها القدماء » (٢٦) كما اسس القنصل البريطاني في القدس ، واحد اتباع اللورد شافتسبوري ، « جمعية** تشجيع العمل الزراعي اليهودي في الاراضي المقدسة » (٢٧) كذلك اسس القنصل الامريكي **واردور كريسون في العام نفسه مستعمرة زراعية يهودية معتبرا اياها « البداية الاولى لفلسطين الجديدة » (٢٨)**

الاستشراق في خدمة الخطة الاستعمارية :

في بريطانيا الراسمالية ، اندمجت حركة الاستشراق ، بالمخططات البريطانية لاستعمارية · حيث جرى استخدام العلماء والباحثين في مهمات تجسسية وحربية · **وبذلك شكلوا وحدات استطلاع ميدانية ، لمسح البلد المرشح لعضوية التاج البريطاني ·**

ان خطورة الاستشراق التجسسي الحربي ليس فقط في كونه رأس جسر **للاستعمار ، وانما ايضا ، في عملية نهب وسرقة وشراء المخطوطات والاثار الوطنية·** وهكذا يأخذون تراثنا الوطني الى متاحفهم ومكتباتهم المختصة وعمليا استطاع نابليون الثالث ارسال ٣٢٠ **مخطوطة من مصر الى « مكتبة باريس الوطنية » · (٢٩)**

قبل الفرنسيين والروس ، شكل الالمان الجبهة الاوروبية الرئيسية التي نافست ، وفاقت، حركة الاستشراق البريطانية فيما يتعلق بفلسطين · والفرق بينهما ، ان الاطماع الاستعمارية الالمانية ، لم تكن تحمل الورقة الصهيونية كتذكرة عبور الى فلسطين ،وانلم تهملها ، بينما حافظت الاطماع الاستعمارية البريطانية على التبشير بالحركة **الصهيونية وتنميتها ، في الميدان السياسي والاقتصادي ، وفي ميدان الاستشراق ايضا ·**

طمس الهوية الوطنية :

ابتدأت السياسة البريطانية ، وفيما بعد البريطانية ــ **الصهيونية ، بطمس الهوية** الوطنية للشعب الفلسطيني منذ القرن التاسع عشر ، وتحديدا في النصف الثاني منه ، باستخدام عبارة (العرب) (المسلمين والمسيحيين) كبديل عن الاعتراف **بالشعب الفلسطيني ·**

ان اعتماد عبارة (العرب) في القاموس البريطاني الصهيوني ، لم يكن اعترافا بالطابع العربي لفلسطين ، وانما من اجل الادعاء بحداثة هذا الطابع ، وربطه بالفتح **الاسلامي · في مقابل استعمال كلمة « الشعب » (وارض الاجداد) و (الوطن القديم) في كل موقع يذكر فيه (اليهود) · كل ذلك بهدف الوصول الى نتيجة زائفة مؤداها** ان اليهود (شعب ذو اصالة تاريخية) ، وان للفلسطينيين امتدادات عربية وافدة **من المناطق المجاورة ، ويمكن اعادتهم اليها · والملفت للنظر حقا هو تسمية الفلسطينيين بـ« العرب » ، بينما تجري تسمية كل الشعوب العربية الاخرى باسماء اقطارها ·**

اي استناد الى الفتوحات الاسلامية لتاكيد الحق التاريخي ، هو استناد واه ، والا تساوت اسبانيا بفلسطين · وهنا تتوجب العودة الى اساس اخر ، وهو تعريب المنطقة السابق للغزو الموسوي لفلسطين ، وبذا تعطى فلسطين حق ملكية تراث خمسة واربعين قرنا ، بدلا عن ثلاثة عشر قرنا مع وضع الفتوحات الاسلامية في حساب الزيادة هذه · وقد وقعت قيادة الحركة الوطنية انذاك وما زال العديد من الكتاب المعاصرين ايضا يقعون ، في نفس الحدود ـ المصيدة التي رسمتها بريطانيا والصهيونية، عند الدفاع عن عروبة فلسطين ·

اما اللفظ الثاني (الطائفي) ، فهو تشويه يوضع فيه الطرف الفلسطيني في خانة الهزيمة من حيث الاقدمية ، اذ ان الدين اليهودي ـ تاريخيا ـ هو اقدم بكثير من الاسلام ·

وعلى هامش هذين الادعائين ، ثابر البريطانيون والصهاينة على تصوير اطماعهما في فلسطين بانها محاولة انقاذها من الخراب والعزلة والتخلف ، وانهما سياتيان (بشعب) مزارع يحيلها الى جنات غناء ! هنا يفشل القياس العنصري ، الذي يجعل التخلف سمة ملازمة لشعب من الشعوب ، والتقدم سمة ملازمة (لشعب) اخر يجري خلقه ، ووضعه كوكيل فرعي للمصالح الاستعمارية · انه القياس الذي يجرد الشعب الفلسطيني من واقع تطوره الاجتماعي والاقتصادي ، ويراه ، بعيدا عن وقائع الحياة وقوانين التطور، اداة معرقلة للتحديث ·

المرحلة الثالثة

١٨٩٧ ـ ١٩٢١ م

الاطماع البريطانية من التخطيط الى التحقيق

دللت وقائع النشاط البريطاني منذ ١٨٣٨ الى ١٨٩٧ ، على اعطاء الافضلية لفلسطين، خلال فترة احياء الحلم الصهيوني الاستعماري · وبالتالي فان موقف هرتزل في المؤتمر الصهيوني الاول ، في رفض اوغندا والاصرار على فلسطين ، كان يتجاوب مع المخطط البريطاني وليس نقيضا له ·

كما اصبح من الثابت ان ترشيح اراضي عدة شعوب اخرى في اوغندا ، قبرص ، الارجنتين ، انجولا، شبه جزيرة سيناء ، الخليج العربي لم يكن على حساب استمرار القول بافضلية فلسطين ، وفق المسعى الانجليزي · فمثل هذه الافضلية تتفق مع الاطماع الصهيونية ، ومع النشاط الاستعماري البريطاني السابق ·

وبتبلور الحركة الصهيونية ، كقوة سياسية منظمة ، منذ مؤتمر بال بسويسرا عام١٨٩٧، اصبح بمقدور بريطانيا استثمار هذه الاداة المتبلورة بما يخدم اطماعها الاستعمارية على النطاق الدولي ·

وفيما قبل الحرب العالمية الاولى وخلالها ، انحصر النشاط الصهيوني في التركيز على فلسطين تحت الاشراف البريطاني ، والسعي لكسب اعتراف الدول الاستعمارية الاخرى ، مقابل الاستعداد لتأدية بعض الخدمات · كل ذلك بهدف الايحاء « ان اليهود هم الذين اعطوا المادة والحقيقة لفكرة المحمية البريطانية على فلسطين والتي اتخذت فيما بعد شكل الانتداب ···» كما ادعى وايزمن في مذكراته (٣٠)

ان الضجيج الصهيوني في هذه المرحلة حقيقة واقعة ، وهو على كثافته ، يحاول اظهار القدرة على اداء الدور الـذي رسمته له بريطانيا في مرحلة اسبق· ويرغب ــ ومن منظور خاص ــ في الوصول الى نفس النتيجة التي ذكرها وايزمن في مذكراته · اي ان النشاط الصهيوني هو اساس التوجه البريطاني نحو استعمار فلسطين وليس العكس !

ومن اجل ذلك اخذت الكتابات الصهيونية تطرح مشروعها في ظل الحماية البريطانية « المطلوبة » فحتى قبل دخول تركيا الحرب في تشرين الاول عام ١٩١٤ كتب هرتزل « ستقع فلسطين داخل منطقة النفوذ البريطاني » ، و« سنتمكن بسهولة من نقل مليون يهودي اليها خلال الخمسين او الستين سنة التالية · وسيكون لبريطانيا حاجزا فعالا على قناة السويس يحميها من القوى المعادية التي يحتمل ان تأتي من الشمال · وسيكون لنا بلد بلجيكه اسيوية » ! (٣١) وفي شباط ١٩١٥ ، اكد هربرت صموئيل للوزير البريطاني السير ادوار غراي : « خطر ان تملك فلسطين اية دولة غير انجلترا » · (٣٢) وفي اذار من نفس العام ، كتب وايزمن رسالة الى سي · ب · سكوت ، رئيس تحرير جريدة « المانشستر غارديان » قال فيها :

« ان وجود جماعة يهودية قوية على تخوم مصر يشكل مانعا فعالا في وجه اي خطر قد يأتي من الشمال » · (٣٣)

نلاحظ من اقوال وايزمن وهرتزل انهما يعرضان المشروع الصهيوني في ضوء المصالح البريطانية ، وخاصة مواجهة ما يسمى « الخطر » الاتي (من الشمال) و(حراسة) قناة السويس ! وهذا يتفق مع مضمون (الخطر) الذي يشير اليه هربرت صموئيل ·

وتجدر الاشارة الى قلة التصريحات البريطانية المؤيدة للمشروع الصهيوني في هذه الفترة ، والتي ترجع اساسا الى بدء الاتصالات البريطانية ــ العربية ، حتى لا تؤدي (التصريحات) الى ردات فعل عربية من شانها احباط التعاون لطرد الاتراك · وتعود بدايتها الى ١٩١٢ ، عندما اتصل الامير عبد الله بن حسين بالسير رونالد ستورس سكرتير اللورد كتشنر ، وعرض عليه « ان تقدم انجلترا مساعدة سياسية للعرب في حال قيامهم بثورة ضد الاتراك » · (٣٤) فرفض البريطانيون مقترحات الامير ، و« عندما نشبت الحرب بادر اللورد كتشنر ، وكان قد اصبح وزير الحربية في لندن ، فأوعز الى ستورس باستئناف المباحثات مع الشريف » · (٣٥) وفي ٣١ تشرين الاول ١٩٢٤ ارسل اللورد كتشنر برقية الى الشريف حسين قال فيها :

« اذا اتت الامة العربية بمساعدة لانكلترا في هذه الحرب فانكلترا تتعهد بان لا يحصل اي تدخل اجنبي في بلاد العرب، وتساعد العرب ضد كل اعتداء خارجي » · (٣٦)

وبعد تبني الشريف حسين للاسس التي حددتها الجمعيات السرية بدمشق للتحالف العربي ــ البريطاني ، ضمنها رسالته الموجهة الى السير هنري مكماهون ، المفوض السامي البريطاني في القاهرة يوم ١٤ تموز ١٩١٥ · وبمراجعة الرسائل الخمس المتبادلة بينهما ، يتضح ان بريطانيا اعترفت بعروبة فلسطين ضمنا ، كونها تقع في المنطقة التي اعترفت باستقلالها وبحق اقامة حكم عربي فيها · وهو نوع من التكتيك البريطاني لضمان استمرار مساندة العرب للحلفاء ابان الحرب العالمية الاولى ·

ان اعترافات الجنرال بريمون ــ قائد القوة الفرنسية التي ساهمت باحتلال سوريا

عام ١٩١٧ ــ في مذكراته ، تصور ، وعلى لسان مارك سايكس ، التكتيك البريطاني بشكل دقيق ، حين يقول :

«٠٠ ان السير مارك سايكس كان يبشر بضرورة خلق الاوهام في اذهان العرب عن طريق وعدهم بالاستقلال لضمان ولائهم واستمرار مساهمتهم السياسية والعسكرية في الحرب ٠٠٠ في الوقت الحاضر ، علينا واجب واحد ، وهو ان نقهر الالمان حيثما وجدوا وسيتسع لنا الوقت فيما بعد لاقتسام الاراضي بعد الحرب ٠ » (٣٧)

والغريب ان الكاتب الفلسطيني نجيب صدقه ، الذي حاول حشد عشرات الفقرات، المنسوبة الى المسؤولين البريطانيين ، والمعبرة عن خططهم للاستيلاء على فلسطين ، في كتابه « قضية فلسطين » ، يقع سريعا في الشرك عندما يناقش وعد بلفور الذي اعتبره ٠٠ « دليلا صارخا على قوة المنظمات الصهيونية ومدى نفوذها وضغطها على السياسة البريطانية » ٠ (٣٨)

وفي رصد النشاط البريطاني الذي سبق وعد بلفور ، بالتنسيق مع فرنسا(اتفاقية سايكس- بيكو) ، تظهر الخطة البريطانية في استثمار الحركة الصهيونية ، ليس فقط كاداة لاستعمار فلسطين ، وانما لاستثمارها ايضا ، في عمل رجعي استعماري على النطاق الدولي ، يستهدف تعطيل الدور الثوري للبروليتاريا اليهودية ، ولاجل ذلك ارسل العميل البريطاني غولدبرج الى روسيا ، وطلبت الحكومة البريطانية من الزعيم الصهيوني سوكولوف ان يعود ايضا ، بهدف تعطيل اسهام الجماهير البروليتارية (اليهودية) في الحركة الثورية لعموم روسيا ، وخاصة في الحزب البلشفي ، ابان عهد حكومة كيرنسكي ٠

وفي ٢٤ نيسان ١٩١٧ ، بعث مكتب العلاقات الخارجية البريطانية رسالة من لندن الى السفير البريطاني بوكانان في بتروغراد ورد فيها :

« ثمة نصائح تقول لنا ان افضل وسيلة للرد على الدعاية اليهودية السلمية والاشتراكية في روسيا هو ان نتقدم بتشجيع محدد للاماني القومية اليهودية في فلسطين٠ مسألة الصهيونية مليئة بالتعقيدات ، ولكن سأكون شاكرا لو علمت رايكم عما اذا كان اصدار اعلان من الحلفاء يعطف على الاماني القومية اليهودية سيساعد فيما يتعلق بالحالة الداخلية والخارجية في روسيا » ٠ (٣٩)

وفي ٢٣ حزيران ١٩١٧ ، اصدر رونالد غراهام احد اعيان مكتب الشؤون الخارجية البريطانية مذكرة قال فيها :

« يجب علينا تأمين كافة الفوائد السياسية التي يمكن احرازها من علاقتنا بالصهيونية ولا شك ان هذه الفوائد ستكون ضخمة وخاصة في روسيا حيث الطريقة الوحيدة للوصول الى البروليتاريين اليهود هي من خلال الصهيونية » ٠ (٤٠)

وخلال تأدية هذا الدور الرجعي في روسيا ، لم تتوقف الحركة الصهيونية عن ممارسة نشاطها تجاه استعمار فلسطين ٠ ففي ١٧ شباط ١٩١٧ ، عقد مؤتمر رسمي بين مارك سايكس وخمسة من زعماء الحركة الصهيونية كمؤشر « لاعتراف بريطانيا بالحركة الصهيونية » (٤١) وفي ١٧ اذار ١٩١٧ ، واثناء زيارة وايزمن لوزارة الخارجية البريطانية ابدى اللورد بلفور « تخوفه من الاخبار التي بلغته عن عقد معاهدة سرية بين الحلفاء تعطى فرنسابموجبها قطعة من الجليل مع مدينة طبريا ، وطلب ان توضع

فلسطين تحت الحماية البريطانية » ٠ (٤٢)

ومنذ ذلك التاريخ والحركة الصهيونية تضغط باتجاه استصدار وعد رسمي بريطاني بذلك ، بينما كانت الحكومة البريطانية تتابع خطوات استعمار فلسطين ، بما يتلاءم ومصالحها في المنطقة ٠ وجرى اعداد مسودة وعد بلفور في ١٨ تموز ١٩١٧ ، وعدلت في ١٨ ايلول ٠ وبعد موافقة الرئيس الامريكي ويلسون على الوعد (١٣ تشرين الاول ١٩١٧) اقرت صيغته النهائية في ٣١ تشرين الاول ، واذيع في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧ ٠ بعد ذلك صادقت عليه كل من فرنسا (٩شباط ١٩١٨) وايطاليا (٩ ايار١٩١٨) وامريكا (٣١ اب ١٩١٨) ٠ (٤٣) وتضمنه صك الانتداب البريطاني على فلسطين الذي اعلن كمشروع من قبل عصبة الامم في تموز ١٩٢١ وصودق عليه في ٢٤تموز ١٩٢٢ونفذ في ٢٩ ايلول ١٩٢٣ ٠ لقد عبر بلفور عن حقيقة مغزى الوعد بقوله (عام ١٩١٩) :

« ان الدول الاربع الكبرى ملتزمة بالصهيونية ، سواء اكانت على حق ام على خطأ، جيدة ام سيئة متأصلة في التقاليد السرمدية والحاجات الحاضرة وامال المستقبل ، التي هي ذات معنى اعمق من رغبات واجحاف ال٧٠٠ الف عربي الذين يقيمون الان في تلك الارض القديمة » ٠ (٤٤)

وبالمعنى نفسه قال الصحفي البريطاني هربرت سايد بوتام ، المراسل العسكري لصحيفة (المانشسترغارديان) ، في كتابه المسمى « انجلترا وفلسطين » والصادر عام ١٩١٨ :

« ان اليهود وحدهم هم الذين يمكنهم ان يستعمروا فلسطين ، ويستطيعوا ان يبنوا في المتوسط دومنيون جديدا يرتبط منذ البداية بالعمل الامبريالي ويكون في الوقت نفسه ،وقاء في وجه الشرق الغريب ووسيطا بينه وبيننا » ٠ (٤٥)

ولاستكمال المؤامرة الاستعمارية ، سعت بريطانيا الى خلق ماسمي امارة شرق الاردن، وحددت لها وظيفة خاصة « كارض احتياطية لاستيعاب المواطنين الفلسطينيين المرحلين من فلسطين بعد تنفيذ وعد بلفور » ٠ (٤٦)

المراجع

(١) سوريا ولبنان في القرن التاسع عشر : عمر ابو النصر ـ١٩٢٦ـ ص٤١٠

(٢) نفس المصدر ص٤٢ ٠

(٣) تاريخ سوريا الاقتصادي : علي عبد العزيز الحسني ـ مطبعة بدائع الفنون ـ دمشق ـ ١٩٢٢ ـص١٦٣ ٠

(٤) فلسطين : اميل الغوري ـاصدار مديرية الفنون والثقافة الشعبية بوزارة الارشاد ـ مصر ـ ١٩٦٢ ـ ص٣٤ ٠

(٥) تاريخ الاقطار العربية الحديث: لوتسكي ـ ص١٢٥ ٠

(٦) علي عبد العزيز الحسني ص١٦٤٠

(٧) لوتسكي ص١٢٩ ٠

(٨) لوتسكي ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ٠

(٩) لوتسكي ص١٣٧ ٠(المعاهدة بتاريخ ١اب ١٨٣٨) ٠

(١٠) نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية ١٩١٨ ـ١٩٤٨ :محمد حافظ يعقوب ـ دار الطليعة ـ ايلول ١٩٧٣ ـص٤١ ٠

(١١) العرب واليهود في التاريخ: الدكتور احمد سوسة ـ ص٣٥٣ ٠

(١٢) نفس المصدر ·

(١٣) باربره توخمان ـ ص ١٢٤ · الصهيونية والصراع الطبقي : الدكتور صادق جلال العظم ـ دار العودة ـ بيروت ـ الطبعة الاولى ١/ ٢/ ١٩٧٥ ـ ص٦٠·

(١٤) لونسكي ـ ص١٤٠ ·

(١٥) نفس المصدر ص١٤١ ·

(١٦) العرب واليهود في التاريخ ـ ص٣٥٥ ·

(١٧) نفس المصدر والصفحة ·

(١٨) نفس المصدر · ايضا تاريخ فلسطين الحديث ـ د· الكيالي ص ٢٧ ·

(١٩) الصهيونية والصراع الطبقي ـ ص ٦٠ ـ ٦١ ·

(٢٠) الصهيونية واسرائيل واسيا ـ ج· هـ· جانسن ـ ترجمة راشد حميد ـ مركز الابحاث ـ ايلول ١٩٧٢ ـ ص٨٧

(٢١) توخمان ص١١٣ ـ ١٢٨ ·عن (الصهيونية ، الصراع الطبقي ـ ص٦٢ ـ ٦٣) ·ايضا تاريخ فلسطين الحديث ص٢٧·

(٢٢) احذروا الصهيونية ـ يوري ايفانوف ـ ص ٣٣ ·

(٢٣) للتدقيق والتوسع راجع جانسن ص٨٧ · والصهيونية والسياسة العالمية ـ كالين ص٤٩ · وجذور القضية الفلسطينية ـ اميل توما · ويوري ايفانوف ص٣٢ ـ ٣٥ ·

(٢٤) المؤامرة الكبرى ـ الغوري ـ ص١٦ ·

(٢٥) عن جانسن ص٨٧ ·

(٢٦) د · صادق العظم ص ٥٥ ـ نفس المصدر ·

(٢٧) كوبلر ص٨٠ · العظم ص٥٥ (مرجع سابق) ·

(٢٨) العظم ص٥٦ (مرجع سابق)·

(٢٩) للمعلومات التفصيلية ـ راجع المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ ـ من ص٤٣٢ ـ٥٧٢ والمختصة بالاستشراق البريطاني وفي نفس الجزء (٦٧٩ ـ ٨١٤) هناك عرض للاستشراق الالماني · اما الاستشراق الفرنسي فيمكن مراجعته في الجزء الثالث منص ١٠٤٤ ـ١٠٨٠ ، وفيما يتعلق بحملة نابليون يمكن مراجعة الجزء الاول ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ·

(٣٠) ج· هـ· جانسن ص٩٥ ·

(٣١) شتاين ص١٢٦ ـ١٢٧ · راجع جانسن ص ٨٨ ·

(٣٢) هربرت صمونيل ـ المذكرات ـ لندن ١٩٤٥ ـ ص ١٤٠ـ١٤٥ · جانسن ص ٨٩ ·

(٣٣) جانسن ص ٩٠ ·

(٣٤) قضية فلسطين : نجيب صدقه ـ الطبعة الاولى ـ اب ١٩٤٦ ـ ص٩ ·

(٣٥) نفس المصدر والصفحة ·

(٣٦) نفس المصدر ص١٠ ·

(٣٧) نفس المصدر ص٤٧ ·

(٣٨) نفس المصدر ص١٧·

(٣٩) الريف الفلسطيني قبل الحرب العالمية الاولى ـ نبيل بدران · شؤون فلسطينية ـ اذار ١٩٧٢ ـ ص ١١٨ ·

(٤٠) نفس المصدر ص٣١·

(٤١) جانسن ص٨٩· يرى نجيب صدقه (ص٢٣) ان الاجتماع عقد يوم ٧ شباط بمنزل الدكتور وايزمن وحضره

ملكولم ، مارك سايكس ، اللورد روتشيلد نعيم سوكولوف ، هربرت صموئيـــــل،

(٤٢) نجيب صدقه ص٢٤ ٠

(٤٣) بين امريكا وفلسطين ـ فرانـك مانويل ـ ترجمة يوسف حنا ٠ وكفاح الشعب الفلسطيني قبـــل العام ٤٨ ـ عبد القادر ياسين ـ ص٥٢ ٠

(٤٤) جانسن ص٧٢ ـ ٧٣ ٠

(٤٥) جانسن ص٥٢ ٠

(٤٦) النظام الهاشمي والحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ـ عصام احمـــــــد الفايز ـ الطبعة الاولى ـ تموز ١٩٧٤ ـ دار ابن خلـــــدون ـ ص١٠ ٠

ضاحكاً جاء الموت إلى تل الزعتر

الطاهر بنجلون

ترجمها عن الفرنسية : محمد برادة

فاجأتك ريح الصباح
كأنك بقايا جسم مقفر
تفتح عينيك على أرض
حيث لا تستبين الاحجار ولا الايدي
مرج من مرايـا
وحده الصوت
صوت الام
خال من التجاعيد
يشيع السعادة
يولج النهار الى جسدك
لكن المـوت
قرر انهاء التيهان
داخل هذا الجسد
حتى الغياب انطفأ
وعلى جبينك قسط من ارض
ومرارة هذا الحشد المهجر .
هذه هي الارض
احببها فهي قدرك
اترك القناع ينزلق فوق الصور

انصت
هذه بلاد مسلوخة الروح ٠
لم يعد التاريخ يخجل من انقاضه
فوق الحجر
فوق الرمـاد
جسد مفجـر
يبعث رسالة عن « التعلق المتين »
الى الموت ، الى الشمس ٠

اكتب اليكم من صباح
اكتب اليكم من قرن آت
كلمات صانها الجنون
شعب اصيب بجروح
في جسده
في تاريخـه
هذا الشعب الذي انا منه
معطوب الروح ٠

لست جنديا
لست محاربـا
شجرة مصعوقة انا
في ليال ساقطة
والسماء كانت زرقاء كما في الحكايات
انا شاهدة قبر
مسلة للريح المنحدرة الى الرابية
جسم مفرغ
انا الكوكب الذي لامس المياه
ورقص على الامواج
الكوكب الذي اضاع مراياه
وفقد الدموع البلورية المعلقة على جبين فلاحة شابة
منذ ذلك الوقت
سكن الموت النهـار
وغطى المساء بالشمع والعسل
الموت الابيض
فوق اجساد صغيرة

لاوراق الشجر المرتعشة حنانا وحياء
منذ ذلك الوقت
يصنع الموت خبزا في الخلوات
لست جنديـا
لست محاربا
صندوق انا من ورق مقوى
حيث اودعوا طفلا
لم توضع فوقه اية يد
حتى ولا كفن
نظرة محقونة من الدم
طعم الخبز كان له مذاق الارض المغتالة
ذهب الرجل يبحث عن الماء
ارتمت المرأة فوق قنبلة
اصابها الدوار
لكنها ضحكت
لتشابه نجمة الغسق
ارتدى جبـة
كانت الشجرة مصانة
والصلبان من حديد
اشعل الكوكب النار في البحر
فوق الرمال
رماد ، كرسي وكلب
راح الرجل للحراسة
حملت الريح الرماد
انفتحت الاجساد على الريح
تكدست في الساحة
وعندهـا
صف الموت الهادىء الاشجار
على سطوح المقاهي
الغابة اضطجعت
وابتلع الجبل الاطفال العزل
ذهب باحثا عن الفطائر والزيتون
لكن النساء كن يحملن شواهد قبور
فوق الصدور
جندي شاب رؤوف

اطلق النار على القبور
انتصب الامــوات
فقدموا صوب البحر
تمرغ رجل فوق العشب
ملء فمه تراب وديدان
تفسخ الجبل
اخترقت الهاوية المخيمات

يا شعبا تائها
ماذا فعلت بتوحدك ؟
يا شعبا معزولا
ماذا صنعت بالكواكب والضحكة
اين اضعت النهار ؟
ليــل الرمال
وسواد الخيام
لم يعودا كفنا
في اخاديد الالم
الموت عــال
مفتوح بالعشب المجنون المنبثق من ذاكر

نصبت احدى الحكومات المقاصل
لشنق الغزلان
والمرج السكران
تخترقه الضحكات
ترفع راقصة بطنهــا
الحشد زاخر بالوجوه المتماوجة
والرجــال ...
اي رجــال ؟
« الاخوة السمر العراة »
والآخــرون
اطفال عصور العنف في النظرات

يقصفون الرابية
تسقط الحياة في قدح بخور
الاطفال يزينون وجوه الموتى

يطلقون الرصاص على الفجر
وفي الليل يحلمون باللازوردي
داخل مغارات الامل الضيقة
الأمهـات المبقورات
يعانين سكرة الزمن والنوم
من اجل ضحكة اولئك الذين يحلمون
والقتـــل
من اجل جمال الاشياء ٠

وسقطت الاقنعة
ـ يقولـون ـ
وراء الاقنعــة
لم تعد هناك وجوه ولا رؤوس
بل طريق من الرماد يصعد صوب المسبيات العاريات
في الرمــال
الازقة الضيقة
كانت تجللها شواهد قبور ووجوه راضية
اليد الممسكة باحدى الصخور
كانت تسمي النهار الغائب
الاجساد الكلمات المهشمة
مزق لحم ملصقة بالسماء
لكن الصرخات
اليد والكلمات
المقلبة في الحفرة المشتركة
كانت تحرسها النجوم
امتزجت الوقاحة بالشمس
ولم يعد الرجال بحاجة الى اقنعة ٠

سنرفع العنف المشروع
الى اعتاب ارض توحدنا الراشدة
سنحمل اليها حمى تيهاننا المرتفعة.
والموت المزروع
في قاصيات شواطئنا
نحن هنود مرج يتقدم
نحو الليل نتقدم بصحبة اطفالنا المسلحين

فلسطينيون نحن
شموس نحن
تكسر الانسجام المكلل بالحقد
المنسوج من شبح الدول الشقيقة
النهار المنتشي بتحليق الطيور
يؤيد حقنا
المكفنون بالطين والهاوية
الذين اعدمهم الصمت
يعودون
النجوم تغادر السماء
وتحكي عن تل الزعتر :
انسانية ...
اية انسانية ستهرم في هذا المارستان
على ضفة الهزيمـــة
على سد الكلمات المتلاشية في الخطب ؟
اي شيء لم تكنه يا شعب ؟
يا حشدا معرضا للرصاص في كل حين
تلملم اشلاءك السحب المتعبة
يتكلم المخمورون والشحاذون باسمك
ايها الحشد الذي اصبح سيلا كاسحا في مسالك الحلم
بعيدا في الجزر
مكدسا في المساجد
مرتديا اسمال التاريخ
تجر ابناءك نحو المحيط
حطامات
بدون ربت او حنان
كل دولة مارستان
والرؤساء يقتاتون القطط الميتة
محصن ضد التصدع هو الزمان
والضوء ينزلق دون دموع
فوق هذه الحجارة
المرارة والزهو المتواري لاحد الانتصارات
عند الفجــر
اجساد كثيرة منفجرة
كواكب عمياء

ملجمة
ظلال ساهرة
الحائط الكبير
الليل
وقبيلة من الزمن لا تكاد تبين
متروكة للعشب
حيث الموتى ـ الحجاج
يطردون السحب
الدخيلة على وليمة التاريخ ٠

لكن اين هي الشعوب العربية ؟ ليس لدينا الا اصداء الجرائم الرسمية ٠ سماء من الجنون سقطت فوق تل الزعتر بطيورها الميتة وسحبها المجروحة ٠ صرخة او اغنية ام تقتات الرمل ٠ تشد شعرها وتفرغ ذاكرتها :

قيل لي ان قضيتنا كانت مقدسة وان اطفالي كانوا شهداء ٠ قيل لي اننا شعب يتيم لكنه فخور ٠ قيل لي ان لنا ارضا ، مرعى ، اشجار زيتون وانهارا٠ قيل لي انتظري هناك في الخيمة وسط المخيمات ٠ اطفالي رحلوا عند الفجر ٠ كانوا يحملون في حقائبهم خبزا ، اسلحة ، زيتونا وصلوات ليوم النصر ٠الموتى لا يبكون ٠ الكلمات تمطر فتحدث ثقوبا في القماش الاسود ٠ قضيتنا عادلة مقدسة ٠ تاريخنا منسوجا من الامل كان ٠ آه ! الحلم ٠ الحلم الفلسطيني يمزق الليالي والسماء ويهبنا النشوة كان ٠ كنت اعرف الخيانة ، الارض المباعة ٠ البلاد المغتصبة ٠ كان التاريخ يطردنا فاصبحنا ذاكرة تائهة ٠ الخجل المتعثر ٠ الانكسار ٠ فصلونا عن النهار ٠ وعدونا بالحياة ٠ ملجما كان شعب الاردن ٠ في شهر ايلول ذاك فقدت الاطفال والعقل ٠ تجمعت دماؤهم في الرماد ٠ يقال لي : هذه خيانة ٠

اقول : لم يعد في جلدنا متسع لخيانات اخرى ٠

لكن ، في النهاية ، لماذا نتحدث عن الخيانة ؟

العــــدو لا يخــون !

ديسمبر ١٩٧٦

نورمــا ورجـــل الـثـلج
(قـصّــة)

يحيى يخلف

أصبحت النبطية وراءهم · وبدأت سيارة الادارة العسكرية تصعد المرتفع ·· الشارع المسفلت الضيق الذي يصعد عاليا عبر اشجار الزيتون والصنوبر ·

ـ تلك القمة البيضاء احدى قمم جبل الشيخ · قال السائق، فهز المتطوع رأسه وكاد يقول انه رآها قبل سنوات من الناحية الاخرى ، ولكنه لم يتكلم · مرقت السيارة عبر احدى القرى ، لم يتمكن من قراءة اللافتة ، وكان الشباب في المقاعد الخلفية يدخنون ويدخنون ، ولا يكفون عن التدخين ·

قال لنفسه ، تشبه قريتنا بورين ·· البيوت والناس ، واشجار الصبار، ولحم العجول الذي يتدلى من الكلاليب ، وحتى الكوع والانحدار والحفر العديدة في الشارع ·

وانتهى شريط البيوت ، وظهرت سلسلة من التلال ، وطائر في الجو يسبح في السماء الزرقاء · وفي العمق ·· كانت توغل رائحة البحر ·

أدغال من اشجار الصنوبر على اليمين ، وثمة بعض الخيـــام الصفراء · توقفت السيارة ، وانزلت اثنين من المجازين · لوح الرجلان للسائق · قـــال احدهما يخاطبه : ـ نأمل ان نراك ايها الاخ المتطوع ·

مشت السيارة ، ومشى معها دغل الصنوبر ·

هذه الشجرة وارفة ، وتلك ساقها رفيعة وعارية ، وتتكوم على قمتها الاوراق

الابرية ، وتبدو مثل الشعر الذي يعلو رأس انجيلا ديفيس ٠
ـ انت ايها الاخ طالب جامعي ٠٠ اليس كذلك ؟ قال السائق ، وقدم له في الوقت نفسه سيجارة ٠ تناول السيجارة واشعلها بصعوبة :

ـ اجل ٠٠ كنت في كلية الهندسة ، لم تعجبني ٠ ثم انتقلت الى الطب ولم اكمل السنة الاعدادية ، وبعدها تحولت الى الادب ، والان ، اقلعت عن هـــذه العادة ، وقررت ان اتطوع ٠

ابتسم السائق وقال ضاحكا : ـ اذن حذار ان تنتقل من منظمة الى اخـــرى مثلما كنت تنتقل من كلية الى اخرى ٠

عبر الزجاج الذي تكاثف عليه الغبار ، كانت السماء لا تزال زرقاء ، فأضاف المتطوع وهو يستمر في الضحك : ـ وفي العام القادم احلم بقضاء صيف افريقي في أنغـــولا ٠

خفف السائق من سرعته ، ثم توقف : ـ تنزل هنا ايها الاخ ، وهناك عنـد الحاجز سيقودونك الى مقر قيادة الكتيبة ٠

مد المتطوع يده ، فحك السائق ذقنه ، ومد يده الاخرى وسلم ٠
ـ اتمنى لك التوفيق ، سنراك دائما ٠

فتح المتطوع الباب ، وقفز ٠ لوح السائق وانطلق بسيارته ٠ دق المتطـــوع الارض بقدميه ، وعلق حقيبته الصغيرة على كتفه ، ومضى هابطا الطريقباتجاه دغل الاشجار ٠ قدم اوراقه ، فرافقه احد عناصر الحراسة عبر الطريق الضيقة٠ وتوقف عند خيمة صغيرة يجلس امامها شاب بالملابس العسكرية ٠

قدم اوراقه ، فقال له الشاب : ـ سنرسل معك مرافقا ليرشدك الى موقـــع المجموعة التي ستنضم اليها ، ويمكنك العودة بعد ايـــام لاستكمال بعـــض الاجراءات ٠

اشار المرافق قائلا : ـ الموقع هناك ، عند تلك الصخور ٠

كان المتطوع يلهث ، ويشعر بالعطش ، وبتورم في قدميه ، وكان وجهه داكنا ومكدودا ٠

ـ هل استطيع الجلوس قليلا ٠ فأجابه الشاب المرافق : ـ لا نستطيع ، هناك عملية عسكرية هامة هذه الليلة ، وعلينا ان نصل الموقع قبل ان يشتد القصف ٠

مشى صامتا ، ومشى المرافق الذي كان يبدو اكثر نشاطا ٠ سقطت قذيفـــة في مكان ما ٠ ردد بطن الوادي الصدى ٠ سقطت قذيفة اخرى ٠٠ فقال المرافق:
ـ انهم يقصفون قلعة أرنون ٠

ـ قلعة ماذا ؟
فاجاب الشاب : ـ قلعة أرنون ، انها واحدة من القلاع التي بناها صلاح الدين اثناء حروبه مع الصليبيين · لقد كانت قاعدة امداد لجيوشه الزاحفة الى فلسطين من هذا المحور ·

وعلى غصن قريب ، كان طير من فصيلة الشنار يقف دون ان يذعره صوت القصف ، وكان يبدو كما لو انه اعتاد على ذلك · اشار الشاب : ـ القلعة هناك عند اعلى قمة يدركها البصر ··

كانت البراري المكسوة بالاعشاب توغل في العمق ، ورائحة الارض النفاذة توقظ الاشياء · ومن بعيد اطلت الخيمة من وراء الصخور ، فقال المرافق : ـ قد وصلنا ، وها هم افراد المجموعة ينظرون الينا ·



كانوا يتحدثون عن تطبيق اتفاق القاهرة ، والاشتباكات التي تندلع قرب مخيم صبرا ·

ابو سراج الذي اصيب في معركة كفرشوبا وطحنت الشظايا مرفقيه ، وذهب الى هنغاريا وركب مفاصل من البلاتين ، اعلن ان ما يجري له علاقة بزيارة المبعوث الاميركي ·

وعلي البدوي ، السبعاوي الذي يلبس فروة من جلد الخروف فوق ملابسه ، والمتخصص في الرماية على الهاون ، قال :

ـ ما فائدة ان نحمي الطيبة ورب الثلاثين اذا سقط مخيم صبرا ؟
وابو اروى الذي يحب الموت فجأة ، ولا يحب ان يصبح مشوه حرب ،والذي يتذكر اولاده الثلاثة وزوجته في مخيم اليرموك ، ويحزن لانه لا يستطيع زيارتهم قال : ـ كل الطرق مغلقة ·

ويوسف ، الفتى الذي يحمل الار · بي · جي ، ويتقن العمل على جهاز اللاسلكي ، ادخل شعبان برمضان ، وقال انهم رفضوا في المالية اعطاءه سلفة لان القيادة اصدرت امرا بمنع السلف · جلس المتطوع بينهم · قدموا له الشاي ، وقدموا انفسهم ببساطة ·

هنا الاشياء تبدو مقروءة · حدث المتطوع نفسه · وحدق بالبراري التي تمتد الى اخر المدى · البراري قصيدة في ملامحه ·· في عيونه ·· في رؤوس اصابعه وحركات يديه · هنا يلتقي المرهف بالمتفجر · يلتقي الشعر بالدم · لا

الكافتيريا ولا الجامعـة ولا لابسات البلوجينز ، ولا حلقات الجدل والدردشة والثرثرة والتبشير السياسي ٠

شرب شايهم الاسود الغامق ٠ واكل السردين والتطلي والبلابيف في وجبة الافطار ٠ وفي الظهيرة كان يشاركهم في اعداد الغداء كما لو انه موجود معهم منذ سنوات ٠٠ وفي اليوم الثاني ٠ كان يعرف ان هذا علي الذياب البدوي الذي يحب الصخور والوعر ويتسلقها مثلما تتسلقها الماعز ٠

وان ذلك ابو سراج الذي يرمي على الجرينوف رغم ان مفاصل مرفقيه مـن البلاتين ٠ وان الثالث هو يوسف الذي يغتسل كل يوم بالماء البارد ويترك شعره الطويل يغطي رقبته ٠ والرابع ابو اروى الذي لم يشاهد زوجته واطفاله فـي مخيم اليرموك منذ اكثر من سنة لانه لا يملك وثيقة سفر ، والحدود مـا زالت مغلقـة ٠

كانوا يتحدثون ، ويتناوبون على الحراسة ، ويختلفون قليلا ، ويحلمـون باجازة في بيروت او السباحة على شاطيء صور ، او لعب الورق في مقاهـي صبرا ٠٠

قال المتطوع : احلامهم صغيرة ومشروعة هؤلاء الشباب الذين ينزرعون فـي البراري ولا يسمع بهم احد الا عند الاستشهاد ٠

عندها ، سأله يوسف : هل ستبقى طويلا بيننا ايها الاخ ٠ سبق ان جاءنا بعض المتطوعين لمدة شهر او شهرين ٠ ثم عادوا الى جامعاتهم ٠

حدق المتطوع بوجه يوسف الطفولي ، وتذكر حديثه هذا الصباح عـن فيلم الكاراتيه الذي شاهده ذات يوم بسينما سلوى ، ولذلك اخذ انطباعا بأن وجـه يوسف يشبه وجه بروس لي ٠

ابتسم ، وقال : ربما ابقى طويلا ٠

سأله يوسف مرة اخرى : ـ هل كنت تدرس في بلد اجنبي ؟

ـ اجل ٠ قال المتطوع ،واضاف : ـ في ايطاليا ٠

ـ وهل يستطيع الفدائيون ان يزوروا ايطاليا ؟

ـ اذا عرف البوليس في المطار انك فدائي فانه يعتقلك ويفتش ثيابك ويعيدك على اول طائرة ٠ اما اذا وصلت روما فانك ستجد اصدقاءنا من اليساريين في استقبالك ، بل وحمايتك ٠

ـ وكم تكلف زيارة روما ؟

هل تتوق ايها الفتى الى السفر ، والتعرف ، والتزود باشيـــاء جديـــدة ٠ احلامك ايضا مشروعة ٠ فلتحلم في هذه البراري ذات الصدر الواسع الذي لا تحده حدود ٠ واذ ذاك تدخل ابو اروى وقال : ـ يريد زيـــارة روما ونحن لا نستطيع زيارة مخيم اليرموك ٠٠ من منكم ايها الشباب يحمل هوية ؟

قال ابو سراج مازحا : ـ هويتي بندقيتي ٠

تساءل علي الذياب :

ـ لماذا غيرنا يحملون جوازات السفر ويمرون عبر الحـــدود العربيـــة ولا يوقفهم احد ، بينما نمنع نحن ويلقى علينا القبض ونسجن في الاقبية ؟

ـ انت متطرف ٠٠ اجابه ابو سراج ، وفي الوقت نفسه جاء صوت الدوشكا من هناك ٠ من قمة التلة المكسوة بالثلوج ٠ فطار يوسف فرحا وقفز في الهواء٠
ـ انه سعيد ٠٠ لقد فتح عليهم الدوشكا وفاجاهم ٠ صمت المتطوع ٠ ظـــل الدوشكا يملأ البراري بصوته الرزين الهادر ٠

ـ سعيد ٠٠ ومن يكون سعيد ؟

ـ فاتنا ان نحدثك عنه ٠٠ انه سعيد ابو جابر قائد موقع الدوشكا هناك ٠

هناك ٠٠ فوق تلك القمة ٠ بين الثلوج نصب سعيد ابو جابر الدوشكا ٠ تلك القمة التي تشبه فوهة بركان خامدة ظلت الثلوج تحط فوقها وتقتل الدفء في اعماقها ، مثلما يقتل طبيب الاسنان اعصاب اللثة ٠

كان يحفر بصعوبة، ويشق طرقا خلال الشهرين الماضيين في غابة الثلـــج المتماسكة ٠ الان ـ قال ابو سراج ـ وبعد تلك الاسابيع المضنية يسيطر سعيـد ومجموعته على التلة ويكبح جماحها ، وتبدو الاشياء تحته خاضعة ومكشوفـة ومسيطر عليهـــا ٠

منذ ذلك اليوم اصبح لسعيد حضوره في احاديثهم ٠ ظل الدوشكا يعمل بـلا توقف ٠ كانوا يتحدثون عنه كل مساء ٠

ـ سعيد لم يذق طعم النوم منذ ثلاثة ايام ٠

ـ قذائفهم لا تطال سعيد ولا تستطيع الوصول اليه ٠

ـ سعيد يحتاج الى اغطية وجرزات صوفية ٠

حاول المتطوع ان يرسم في ذهنه صورة لسعيد ٠ تخيله مثل (تراس بولبا) يلف على وسطه حزاما عريضا ، ويستطيع ان يضع في عبه عددا من قذائـــف الهاون ، ولكن حول راسه تتكون هالة فضية كالقديسين ٠

ـ الا ينزل رجل الثلج صاحبنا عن تلك القمة بتاتا ؟ سأل المتطوع . فأجابه علي البدوي : ـ انه ينزل مرة في الشهر . يأخذ اجازة قصيرة لكنه لا يسمح لساعديه بالنزول لاحضار التموين والذخيرة . ولعل يوسف قال بما يشبه الهمس : وانه يحب فتاة اسمها نورما .

★ ★ ★

نورما .. .

قالوا عنها : طويلة ونحيلة . ليس لصدرها اكتناز ، ولا لعجزها استدارة . يتناثر النمش على وجهها ورقبتها ، ولكنها تملك عينين زرقاوين .. وقالوا : نورما بائعة عصير . تملك كوخا من الصفيح والتنك على الطريق العام بين صيدا وصور . تعصر البرتقال ، وتغسل اكواب الزجاج ، وتعاني من الدوار ، ومن تشقق في باطن الكفين ، ومن شحوب في الوجه ، ولكنها .. عندما تكون في كامل عافيتها .. تتألق .. وتضيء منها العينان ، وتصبح بدون ان تصنع كحلا . او تتزين بالحلى ، فتاة يمكن ان تحب ، او ان يصطحبها حبيبها الى حفلة للرقص . وعن ابو سراج ، عن ضابط ادارة الكتيبة ، ان علاقة حميمة تربط سعيد بنورما ، وانه اوقف سيارته مرة امام كوخها وطلب منها كوبا من العصير . وفي المرة الثانية تحدث معها برقة . وفي المرة الثالثة تلطفت ، فأدام اليها النظر بحنان . وفي رواية اخرى ـ حكاها علي البدوي ـ ان سعيد ابو جابر يعرف نورما قبل الحرب ، منذ ان كانت تعمل في مصنع غندور . قابلها اثناء الاضراب الذي قام به العمال . كان يمر بسيارته العسكرية على الطريق العام . وكانت تقف وتحاول ايقاف واحدة من تلك السيارات العديدة التي تمر من الشارع .

عندما اشارت له توقف . ابلغته ان احد زملائها العمال اصيب اثناء قمع الاضراب . فحمله بسيارته الى مستوصف قريب . ويضيف البدوي : ان سعيد ابو جابر عندما توقف بعد انتهاء القتال اثناء مروره على طريق صيدا ـ صور امام كوخها فوجيء بها . فطلب كوبا من العصير ، وعندما كان يشرب ، تذكرته فأعادت له النقود . وحلف .. وحلفت . واخيرا استعاد النقود على ان تأخذ في المرة القادمة . في المرة الثانية حكى لها عن اخباره . وحكت له عن اخبارها . وربما قالت له انها اصبحت من مهجري حارة الدكوانة ، وان امها العجوز تعيش في اكواخ المهجرين بالاوزاعي .. وانها تعمل الان بائعة عصير ، وتعاني من فقر الدم ، ومن مضايقات سائقي السيارات الشاحنة . في المرة الثالثة نظر اليها في ود ، ونظرت اليه بالفة . لم يقل لها شيئا . وهي بدورها لم تقل شيئا . لكن سعيد ابو جابر اصبح في اجازته الشهرية فيما بعد يزورها ويشرب كوبا من عصيرها . ويحكي لها عن الثلج الجارح ، والصقيع الذي لا ينتهي . وتحكي له عن همومها الكبيرة ، اي تلك التي بحجم الجبال .

« البراري · وديان ، وسهول ، اعشاب ، زهور ، طيور ، اعشاش · فصاء· مساء · ضباب · للبراري قاموسها ومفرداتها وحروفها الهجائية · وقلعة ارنون شامخة وعالية ، ومن خلال الضباب تبدو عابقة بالتاريخ والاسرار · هل حقا بناها صلاح الدين · وهل مر رجاله عبر هذه البراري · اكاد في الليالي التي يتوقف فيها القصف اسمع صهيل جيادهم · وعندما تهب الرياح الشرسة ، اشم رائحة ذكرياتهم التي زرعوها في هذه البقاع مثلما كانوا يزرعون الورود في شعر حبيباتهم ، والكلمات في تفاعيل قصائدهم » ·

وخارج نوبته ، يبدأ المتطوع في تنظيف سلاحه ، ثم يضع حبة في بيت النار ويصوب في الفراغ· يطير رف من العصافير ، وتخرج سلحفاة تحمل على الظهر صدفتها، وتمشي ببطء· تغيب الشمس فجأة خلف غيوم رقيقة· تبدأ رحلة الضباب· يطفح الوادي بالبخار المتحرك· يتساقط الرذاذ· تخفي السلحفاة رأسها، ويسكن الجسد ، وتبقى الصدفة عارية · يفتح المتطوع علبة سردين ويأكل على عجل ، يلقي بالعلبة الفارغة · يقول يوسف الذي يحلم بركوب الطائرات ورؤية روما ··

ـ لماذا يخافون منا في المطارات ايها المتطوع ؟

ـ لاننا نخطف الطائرات ·

ـ هل انت ضد خطف الطائرات ؟

ـ اجل ·

ـ لماذا ؟

ـ لانني ضد الارهاب والعمليات الخارجية ·

ـ ماذا يعني ضد الارهاب والعمليات الخارجية !

بدأ المتطوع يشرح · ويشير بأصابعه ويديه · وينفعل ، وتتغير تقاطيع وجهه ·· وعند اشجار الصنوبر كان ابو اروى يجمع الحطب الجاف · وعلي الذياب ، يحمل البارودة على كتفه ، ويذهب الى عين الماء التي تبعد كيلومترين ليغتسل ويغسل ثيابه · توقف المتطوع عن الحديث فجأة ·

ونظر يوسف بدهشة الى الطريق · وقال : ـ ها هو سعيد · قد جاء اخيرا · سعيد ·· سعيد ابو جابر ·

كان يمشي متمهلا · يلف نفسه بفروة من الصوف ، ويحمل عصا يتوكأ عليها · لحيته كثة · يشبه حارس الغابات الذي يعيش في الخلاء ··

يحمل على ذراعيه وفوق صدره عضلات مفتولة · ويبدو للوهلة الاولى رجلا بقوة ثمانين حصانا ·

اقبل ابو سراج وابو اروى ··· ومن بعيد اطلق علي الذياب طلقتين في الهواء تحية ·
سلم عليهم بحرارة · وفي الخيمة دارت اكواب الشاي ، وقدموا له المتطوع ، وتبادلوا الاحاديث ، والنكات ، واخر الاخبار · وقصص الثلج والصقيع · ودارت اكواب الشاي مرة اخرى ، وفي الخارج بدا الثلج يتساقط · اخرج صندوق سجائره ، وقدم واحدة لكل منهم ، ثم اشعل واحدة ·· ثم ثانية ·· ثم ثالثة ·· فقال ابو سراج :

ــ سعيد انت تدخن بلا توقف ولو اننا اجرينا قياسا لطول السجائر التي دخنتها في حياتك فانها ستصنع دائرة حول البحر المتوسط ·

وعندما جاءت نوبة حراسته ، قام المتطوع · استأذن ، وحمل بندقيته ، وخرج ··· توقفت الثلوج عن التساقط بعد ان كونت طبقة رقيقة بدأت تذوب وتشكل شلالات صغيرة تنحدر الى سفح الوادي · سمع خربشة بين الحشائش· اقترب ، ورفع كومة من الاشواك المبللة · اطلت عينان مذعورتان وجسد فزع· انه ارنب ابيض ، مثل قطعة من القطن · اقترب منه · الاذنان تنتصبان · الانف يرتجف · انحنى ، وحمل الارنب من اذنيه ، فقاوم بضعف ، ثم هدأ · مشى ، كانت بعض القذائف تتساقط بعيدا ، والضباب يتكاثف والصقيع ينفذ الى العظام · دخل الخيمة · وكان ابو سراج يشعل كومة من الحطب ·

رفع الارنب من اذنيه امامهم · وقال : ــ وجدته بين الاشواك يكاد يموت من البرد ومن شدة الصقيع ·

مد سعيد يده وتناول الارنب البري ووضعه امامه قرب كومة الحطب المشتعل· ظل الارنب ساكنا ، يعلو بطنه ويهبط ببطء ، ويتنفس مثلما الاطفال · كان ساكنا الا من عينين بنفسجيتين يسكنهما تعبير حاد بالالم ·

خرج المتطوع · كان المساء يقترب · وبعيدا بعيدا اضاءت الفضاء اشارة تنوير اخذت تنزل رويدا رويدا كأنها قنديل يهبط من السماء · وظلت الاشجار صامتة واغصانها ساكنة · وكفت الضفادع عن النقيق ·

اخيرا ، خرج سعيد ابو جابر بفروته ولحيته الكثة وعضلاته وعصاه ·وقال: ايها الصديق ان الدفء يتسلل الى عظام ارنبك · وبعد قليل يتعافى · ثم ابتسم ·· واضاف : ــ انني ذاهب الى صيدا ·· هل تريد شيئا ؟

سأله المتطوع بدهشة : ــ هل تذهب في مثل هذا الطقس ؟

فعاود الابتسام وقال : ـ لا تهتم يا صديقي · سيارتي قوية · وما زلت اتمتع بصحة جيدة · فالى اللقاء ·

كان البخار يخرج من فمه ومن فتحتي انفه · ثم مشى بثقة كما لو كأن اربعة رجال في رجل واحد · صعد الى سيارته التي اوقفهـــا عند نهاية الطريق · ومشى ··

ـ ذهب سعيد الى نورما ··

ـ لكن الضباب كثيف والطريق محفوفة بالمخاطر ·

ـ اذا لم يشاهد نورما فان آلهة الحرب جميعها لا تستطيع ان تجعله يصمد في جبل الثلج ·

ـ ما الذي يعجبه في تلك الفتاة الضعيفة الشاحبة التي ليس لصدرها بروز ، والتي تملك عرقوبا مثل عرقوب اللقلق ؟

ـ العبرة ليست بالشكل ·· انها جميلة جدا من الداخل ·· انها مفعمـــة برائحة الانسان في اعماقها ·

ـ ها هو سعيد يقترب ، ومخيم اليرموك يبتعد · يبتعد ·

ـ سعيد يسافر الى حبيبته ·· ويواصل السفر ·

ـ والارنب قرب الحطب المشتعل بدأ يصحو أو يغفو ··

ـ المزيد من اشارات التنوير تضيء ، انهم يخشون من هجوم مفاجـــىء تشنه قواتنا في القاطع الاخر ·

جاء علي الذياب بعد غيبة طويلة ، لقد اغتسل بالماء البارد ، وغسل ثيابه الداخلية · ورغم اعتداده بنفسه ، فقد عاد يرتجف ، وتصطك اسنانه · فهجم الى الخيمة ، ومد ذراعيه الى وهج النار · كان الارنب يستسلم للدفء ، ويبدو مثل قط صغير اليف ·

دارت اكواب الشاي الساخن · وبدأ يوسف يعمل على جهاز اللاسلكـــي الصغير ·

الان ·· الان ـ حدث المتطوع نفسه ـ يصل سعيد كوخ الصفيح ، تخـــرج نورما لاستقباله · نورما ذات الجسد النحيف · والوجه الذي يتناثر عليـــه النمش ، والعينين الزرقاوين · تتلقف كفه الكبيرة كفها الصغيرة الخشنة التي تفوح منها رائحة قشور البرتقال · توقظ عيناها في داخله اشواق الارض الى المطر ··· والتحام النسغ بالجذور ·

سرى الدفء في اصابع علي الذياب ، وذراعيه ٠ وبدأ ابو سراج وابو اروى يستعدان للنوم٠ واخذ علي الذياب يربت على ظهر الارنب، ويمسح باطن كفهبفروته البيضاء الناصعة٠ وعاد المتطوع يحدث نفسه، عالمهؤلاء الرجالمفعم برائحةالانسان، اعماقهمغنيةبالطيبةو التجربة٠وقال لنفسه ايضا :ما زلتعلى هامش التجربة ، وعندما امتلك تجربة كبيرة يمكنني ان امتطي صهوة الجبال التي يكسوها الثلج ، واحلم مثلما يحلم الرجل البرى الذى تقدر قوته بثمانين حصانا ٠ وتذكر السائق الذي نقله من الادارة العسكرية في النبطية الى الموقع ٠ وقال ايضا : لو قابلته فسوف يقول : كل شيء في البداية يبدو غير مألوف ، ولكن بمرور الايام سوف تفقد الاحساس بالدهشة ٠٠ اليس كذلك ايها المتطوع ٠ سيصبح المتطوع هو اسمي الحركي ، ربما لن يسأل احد عن اسمي الحقيقي ، وربما لن يعرف اسم قريتي ، ولكنني لو جرحت في معركة فسوف يستشهد ثلاثة منهم من اجل انقاذي ٠٠

كان ابو سراج يغط في نوم عميق ٠ وابو اروى ينام صامتا ٠ يتنفس بهدوء ٠٠ ربما يحلم باطفاله الثلاثة في مخيم اليرموك ، فتولد على وجهه دفقة من الفرح ٠ وظل خرير الماء في الخارج يجعل لهذا الصمت مهابة ٠ اغلق يوسف جهاز اللاسلكي ٠ وبدأ يستعد للنوم ٠

★ ★ ★

كان الصباح مشمسا ٠ ذابت طبقة الثلوج ، وصارت المياه تشح وتشح ثم نضبت ٠ دبت الحياة بالارنب الابيض ، وتنقل في اطراف الخيمة ٠ تكونت على وجه المتطوع دفقة من الفرح ، فحمل الارنب الذي كانت انفاسه تخرج ساخنة ٠ حمله بين ذراعيه ، وايقظ الرفاق ، فتحلقوا حوله يحدقون بالارنب ويداعبونه ٠ ثم انصرفوا يعدون وجبة الافطار ٠ وعاد جهاز اللاسلكي الى العمل ٠ وملأت العصافير الجو ٠ ولم يأبه احد لطائرات الاستطلاع التي تحلق عاليا ٠ وظل الارنب صامتا بين يدي المتطوع ، يحدق بعينين بنفسجيتين دون ان يرتجف ٠

★ ★ ★

عصر اليوم التالي عاد سعيد ٠ مرة اخرى اقبل بفروته ، ولحيته الكثة وعصاه ، وكان يلبس على رأسه طاقية صوفية ٠ اقبل يبتسم ، ويحمل بين يديه علبة حلوى اعطاها ليوسف وقال : لك وللاخوان ٠

ـ كانت زيارة ناجحة ٠ قال علي الذياب ٠

فضحك سعيد ابو جابر ، وقال بعفوية ودفعة واحدة : ـ في المرة القادمة

ستأتي معي وتتطوع · ستصبح متطوعة ايضا ونظر الى المتطوع الذي ابتسم · وتخيل تلك المرأة بائعة العصير النحيلة ذات العينين الزرقاوين · وحاول ان يجد لها مهمة بينهم ، ولم يستطع ان يتخيلها الا عاملة على جهاز اللاسلكي ·

وانتبه سعيد الى الارنب بين ذراعي المتطوع · فقال : ـ كيف ارنبك ايهـا المتطوع ·

ـ انه تعافى ·· لقد اصبح على ما يرام ·

كان الرجل ، ذو العضلات المفتولة ، الذي تقدر قوته بثمانين حصانا ، يبدو مرحا ·· وخفيفا · ويصبح رقيقا ومرهفا ، وشفافا ·· دارت اكواب الشاي · فاعتذر سعيد ، وقال : ـ يجب ان اعود الى موقعي هناك · وقبل ان يقاطعوه، قدم لهم السجائر ، واشعل واحدة ·

ـ لا استطيع ان اتأخر ايها الرفاق ·· خليتكم بعافية · قال ذلك ، ومد لهم ذراعه ·· وقبل ان يستدير · نظر الى الارنب بين ذراعي والمتطوع وقال : ـ ايها الصديق لا تذبحوا الارنب ··

نظر المتطوع الى الارنب الذي يبدو متحفزا والى عينيه وبريقهما العذب ،فقال علي الذياب : ـ هل نطلق سراحه ؟·

هز سعيد ابو جابر رأسه · انحنى المتطوع ووضـع الارنب على الارض · حدق الارنب بالبراري لحظات قليلة ، ثم قفز ·· وانحدر يقفز بين الحشائش قفزات واسعة ··· وغاب بين اشجار الصنوبر · ابتسم سعيد ·· ثم ابتسم·· ثم عاود الابتسام ·· ولوح لهم بذراعه · واستدار · ثم ركب سيارته العسكرية، وانطلق صاعدا الطريق الوعرة ·

هناك ·· كانت القمة مكسوة بالثلوج ·· هناك عاليا ·· عاليا ··

وفوق قمة التلة ، كانت غيمة بيضاء كبيرة تمرق مسرعة ·

قال المتطوع : غيمة بيضاء مثل الارانب البرية ·

وقال يوسف : وانها تسافر ولا تتوقف عن السفر ·

وقال ابو اروى : وانها ستحلق فوق سماء المخيم ·

وقال سعيد ابو جابر : غيمة بيضاء وناصعة ، مثل فستان زفاف لامـرأة طويلة ونحيلة ، وذات عينين زرقاوين ، ووجه مملوء بالنمش ·

راشد حسين : النار والمرآة

كمال بلاطة

ان يحترق فلسطيني بين النار والنوار امر مألوف ، وراشد ما احترق البارحة اول مرة ٠

اما ان نستنشق الهواء العربي دون الاختناق ، فهذه حيلة رئوية تعلمناها ٠ وراشد ما كان يحسنها مؤخرا ٠٠

كان همه . كما قال . ان يحول « كل ثلج الارض نارا »٠

ونحن من مآوينا شاهدنا كيف يتوحد الفلسطيني باللهب ولم نع ٠

رأينا راشد يحترق قبل ان يحترق ٠ وما كان بوسعنا ان نقدم له المياه الرقراقة، فقد كنا نار راشد ٠

«انا تعبان يا عرب» صاح فينا ، من حشيشة قلبه جبل لنا تلا من زعتر الجليل، ودعانا الى الريف في قلب نيويورك ، فتناسينا جوعنا وما اكلنا من يديه ٠

عقلنا راشد البري بين مكتب ومزبلة ، وطالبناه بالاعقال ، قال :

« اصبح الصبر تعب

اغضبوني واغضبوني

واغضبوا

تشتهي الثورة لحظات غضب » ·

لان القضية في انتصاراتها ، وفي هزائمها ، كانت بالنسبة له امرا شخصيا · اصبحت حياته الشخصية الامر العام · وتاه راشد يبحث بيننا عن راشد له،وكنا له حديقة مرايا ، وسميناه ضائعا « بدون جواز سفر » ·

كان اكبر منا ، سامحنا راشد المدمن على فلسطينية الالم وما سامحناه ، لاننا اردنا له ان يكون خبز كلماته ، ان يكون هو الثائر الغاضب الناقم المعربد ، وفاجأنا هو بوداعته السخية ، وحزن مواويل امهاتنا لم يبرح عينيه ·

راشد « عربي اتعبته المذلة » ، قالها علنا في وجهنا ، تحاشيناه ، صوته كان الصدى العربي فينا ، وما شئنا ان نؤنب ·

اعطانا ما لم يكن بامكاننا ان نعطيه اياه ، وقد اعطيناه ما رفضنا ان نستلمه منــــه ·

فى حضوره،كان راشد جسد قصيدته ،كما كان جسده قصيدة في الارض التي احب · شاء ان « يحرق النحو والصرف واغلال القواعد » قال :

« التهم الفرن جميع ما

املكــه مــن تـــراب

لم يبق من ارضي سوى انا »

وكاليراعة احترقت « اناه » وما اهتز حرف عربي ·

منطق العالم وفق اكتئابه ثم سافر

يتيما بين الشرارة والرماد كالايقاع ـ

النجم ـ الضوء في الشريان الفلسطيني ·

وظل بسيطا كالرغيف

أخضـــــر كالعنــــاق

طفــلا جليليــا مــا تعــب

مــن بحثــه عــن مريــم ·

فى حياته كما في مماته ، كان راشد خير انعكاس للواقع العربي المهترىء في عزيمته المبددة ، فكيف لا يقيم هذا المستكين المتلهف لتجسيد الصوت، كيف لا يقيم هدنة بين الموت وبينه ؟ اولم نر في عينيه احتضار الحاضر العربي ؟

أولم نعتبره نحن في عداد الموتى قبل ان يعلن بوليس نيويورك نبأ وفاته ؟

كيف يمكن ان نرفض وجه راشد في مرايانا ، وهو الذي قضى عمره ينظـــم الايقاع لوجودنا ؟

صاح راشد ذات مرة :

« صـــدق

تعبـت مـن الرثـاء

ماذا تريد

اتريد ان ارثي

الخيـــــول

ام الشـــــياه

ام الرثــــاء »

وانا لست هنا لارثي الصديق – غيابه اليوم ، الرثاء لكافة الاحياء والمحتضرين العرب ، اما هو فقد حن الى الارض اكثر مني ومنكم ، فنعس بطريقته الخاصة . ويافا التي ارضعته « حليب البرتقال » قال . والتي فطمته قبل اوانه فقضى عمرا يناديها – اليوم يافا وصلت شاطىء راشد .

فهنيئا لراشد .

واليوم يافا ولدت في جناح راشد . ها هو يقترب بجثته من حلمه بقدر ما نقترب نحن الباقين من الكابوس الذي خلفه لنا .

فلندع الله ان تبل مياه يافا زهرة رأيناها تورق في جنب راشد الغائب فينا . الحاضر هناك ، على اطفالنا تشهد « للفجر » الذي اعده راشد .

ملاحظات حول الإنتفاضة في الأرض المحتلة خلال العام ١٩٧٦

هشام هواري

الانتفاضات داخل الارض المحتلة ، تتلاحق ، وتعبر عن واقع حقيقي : وحدة شعبنا الفلسطيني ، الذي يتوحد اليوم ، بالقتال الشعبي · فشعبنا الذي يعاني من الاضطهاد القومي الذي تمارسه الصهيونية والامبريالية الاميركية ، الذي مزقت قواعد وجوده المادية ، عبر التهجير والمنافي ، يتوحد في النضال ، ويلغي الحدود بين عرب الداخل وعرب الخارج · فالحدود الفلسطينية التي اصبحت حزاما قتاليا ، تصبح في الداخل المحتل ثورة وانتفاضات · وفي الواقع العربي حقيقة تغيير ثورية ووحدة ثورية ·

ان الانتفاضات داخل الارض المحتلة ، اصبحت تشكل اليوم احدى العلامات المميزة للنضال الفلسطيني من اجل دحر الاحتلال الاستيطاني نهائيا ، واقامة فلسطين الديمقراطية ·

لقد حظيت انتفاضات الجماهير الفلسطينية في الداخل باهتمام الكثير من الكتاب والباحثين · وما ستحاوله دراستنا ، هو قراءة الانتفاضة كممارسة · اي دراسة الممارسة الجماهيرية ، عبر تسجيل الاسباب والمكان والفئات المشاركة وادوات النضال ·

ومن الواضح ان الشكل الاحصائي الذي ياخذه هذا التسجيل يقنن النضال الجماهيري ، ولا يعطي عنه الا صورة عامة ، والواقع اننا نحتاج هذه الصورة العامة ، من اجل ان تركز دراسات الانتفاضات الشعبية ، على العامل الاساسي

والحاسم في كل نضال ، على الممارسة واساليب وشكل النضال ، بوصفها المؤشر الرئيسي للحركة الجماهيرية ·

مناطق الانتفاضة

بلغ مجموع الايام التي شهدت تظاهرات سلمية ، او اعتصامات جزئية ، او مظاهرات واشتباكات مع العدو ، مائة وسبعة وعشرين يوما خلال العام ١٩٧٦اي ما يعادل يوما واحدا من كل ثلاثة ايام ، وكانت موزعة حسب المناطق كما يلي :

- ١٩ يوما في الاراضي المحتلة منذ العام ١٩٤٨ ·
- ٤٢ يوما في القدس الشرقية ·
- ١١٢ يوما في مناطق مختلفة من الضفة الغربية ·
- ١٦ يوما في قطاع غزة ·

فاذا اعتبرنا كل منطقة على حدة ، فالمجموع (١٨٦ يوما) · لكننا نجد اياما كثيرة كانت الانتفاضة فيها شاملة لمنطقتين او ثلاث ، وقد شملت الانتفاضة كافة المناطق في الايام :

١ الى ١٩٧٦/٣/٥ اسباب دينية ومصادرة اراضي ·

٣٠ / ٣ / ١٩٧٦ يوم الارض ·

١٩٧٦/٥/١٥ يوم النضال ·

٢٨ / ٩ / ١٩٧٦ بسبب وثيقة يسرائيل كنيغ ·

كما شملت ثلاث مناطق في الايام :

١٩٧٦/٣/٢٢ ردا على اجراءات تعسفية وتحديا للاحتلال ·

٢٦ _ ١٩٧٦/٣/٢٩ استعدادا ليوم الارض ·

٧ _ ١٤ / ٥ / ١٩٧٦ استعدادا ليوم النضال ·

١٩٧٦/٩/٣ رفضا للاستيطان وتأييدا للثورة ·

٢٩/١١/١٩٧٦ ذكرى التقسيم ·

---

* اعتمدنا في دراستنا التسجيلية هذه على الصحف اللبنانية ، وصحف منظمة التحرير، ووكالة الانباء الفلسطينية (وفا) . ونشرة رصد اذاعة اسرائيل الصادرة عن مركز الابحاث ·

وشملت منطقتين معا في خمسة وستين يوما ٠

الفئات المشاركة

شارك المواطنون عموما في هذه النضالات ، وبملاحظة الجدول رقم «١» نجد الطلاب في الطليعة ٠

الجدول رقم (١)

طلاب	تجار	نساء	مصلون	مجلس بلدية	فلاحون	عموم المواطنين
٧٣	٣٤	١٧	١٤	١٠	٦	٩١

ونلاحظ ان هناك عدة فئات كانت تشترك في كل مرة ٠ وقد كانت المشاركة عامة غالبا ، وهذا دليل قاطع على عمق تفاعل الجماهير ومشاركتها ،مؤكدة بذلك على الطابع السياسي لنضالاتها ٠

الاســـباب

بملاحظة الجدول رقم «٢» نجد واحدا وعشرين سببا مباشرا ، وخمسة عشر سببا معلنا ٠ ويمكن رد كافة هذه الاسباب الى سبب رئيسبي واحد هو الاحتلال ، كما يمكن حصر الاسباب المباشرة في العناوين التالية :

١ ـ اجراءات تعسفية تتمثل في : حصار المناطق ، اقفال او اقتحام المدارس ، رفع الضرائب ، اصابة عدد من المتظاهرين بجراح او استشهادهم ، الاعتقالات ، تفتيش المنازل ونسفها ٠

٢ ـ اسباب دينية : الصلاة في الحرم الابراهيمي ، ذكرى حرق المسجد الاقصى ، تقسيم الحرم الابراهيمي ٠

٣ ـ التصدي للاستيطان : مصادرة الاراضي ، اقامة مستوطنات جديدة ، يوم الارض ، مشاريع جديدة ، وثيقة يسرائيل كنيغ ٠

٤ ـ اسباب سياسية : قرارات دولية ، مناقشات مجلس الامن ، ذكرى التقسيم، ذكرى ١٥ ايار ، ذكرى معركة الكرامة ، ذكرى حرب اكتوبر (تشرين الاول) ، ذكرى خطاب رئيس منظمة التحرير في الامم المتحدة ٠

ه ـ اسباب خارجية : احداث لبنان ، ذكرى احداث ايلول ، التدخل في لبنان٠

اما الاسباب المعلنة فتاتي تحت العناوين التالية :

١ ـ رفض الاحتلال : التصدي للاستيطان ، رفض الاجراءات التعسفية ، رفض دفع الضرائب ، المطالبة بالافراج عن المعتقلين ٠

٢ ـ تأييد الثورة : رفض الاجراءات الاردنية ، رفض التدخل في احداث لبنان، مناقشات وقرارات مجلس الامن ٠

٣ ـ تدنيس الاماكن المقدسة ٠

جدول رقم (٢)

الاسباب

مباشرة :		معلنة :	
حصار مناطق	٢	سوء معاملة المعتقلين	١
ردا على يوم الغفران	١	استنكار الصمت العربي	١
التدخل السوري	١	احداث لبنان	١٠
وثيقة يسرائيل كنيغ	١	قرارات دولية	٥
ذكرى ايلول	٤	اجراءات اردنية	٤
الاسيتطان	١١	رفض الضرائب	٩
احتلال مدارس	١	اجراءات تعسفية	١٧
مناقشات مجلس الامن	٧	تحدي الاحتلال	١٩
الضرائب	٩	تأييد الثورة	٢٢
ذكرى معارك الثورة	٤	رفض الاحتلال	٢٤
تضامنا مع المناطق	٥	رفض التدخل في لبنان	٥
انتخابات بلدية	٢	تدنيس اماكن مقدسة	٩
اضراب المعتقلين	٢	مطالبة بالافراج عن المعتقلين	٣
ردا على اعتقالات	٨	التصدي للاستيطان	٢٠
حرب اكتوبر	١		
تشييع شهداء	٦		
احداث لبنان	٦		
اجراءات تعسفية	٣٠		
اسباب دينية	٢٠		
مصادرة اراضي	٩		

اساليب المواجهة :

يتبع شعبنا في الارض المحتلة كافة الاساليب النضالية التي اتبعتها الشعوب المكافحة لنيل حريتها ، بل ويبتكر ويطور اساليبه النضالية باستمرار ، ويلاحظ هذا الامر بسهولة من مراجعة اساليب المواجهة التي اتبعتها جماهير الارض المحتلة ، بدءا بالاحتجاجات الصامتة ، وانتهاء بمهاجمة دوريات ومراكز العدو . واستخدام الاسلحة النارية رغم عدم توفرها ، والمطاردة الدقيقة التي يتعرض لها من يشتبه بأنه قد يحصل على سلاح ·

وقد سجل خلال هذا العام ١٩٧٦ حوالي « ٢٧ » اسلوبا ابرزها المظاهرات الصاخبة (٧٠ مرة) .والمظاهرات العادية (٤٥ مرة) ، ثم اعتصامات جزئية في المدارس والمساجد وبعض الادارات (٣٨ مرة) ، اضرابات جزئية (٢٢ مرة) · اغلاق محلات تجارية (١٦ مرة) مسيرات سلمية (١٥ مرة) رفع العلم الفلسطيني (١٣ مرة) توزيع منشورات (١١مرة) اضراب شامل (١٠ مرات) اضراب معتقلين (١٠ مرات) تشييع شهداء (٦ مرات) ·

اما اشكال المواجهة فأبرزها رمي الحجارة (انظر الجدول ٣) ، واقامة المتاريس،والاشتباك مع العدو ، ومن الاشكال الجديدة سكب الزيت على الطرقات

جدول رقم (٣)

رمي حجارة	اقامة متاريس	زجاجات ملتوف	سكب زيت	اسلحة نارية	اشتباك بالايدي	مهاجمة دوريات وحواجز	اشتباك مع مستوطنين
٧٣	٥٠	٧	٣	٢	١٩	١٢	٥

وتنظيم المظاهرات الصاخبة بحيث تقف النساء في نقاط مراقبة يستطعن منها توجيه المتظاهرين لمطاردة قوات القمع او التملص منها ، كما كانت هناك بادرة تدل على عمق تضامن الجماهير مع الثورة،حيث ظهر الفدائيون بكامل اسلحتهم فيصفوف المتظاهرين واختفوا بعد قليل دون ان تتمكن سلطات العدو من ايجاد اي دليل يساعدها على اكتشافهم . وذلك يوم ١٧/٥/١٩٧٦ في مدينة نابلس · والجدير بالملاحظة ان هذا التواجد يأتي بعد تسمية يوم ١٥ ايار (انشاء الكيان الصهيوني) باسم يوم النضال،حيث بلغت الانتفاضة ذروتها وشملت كافة المناطق وشارك فيها عموم المواطنين ، وادت الى ردود فعل ايجابية تمثلت في الذعر الذي اصاب الكيان الصهيوني على كافة المستويات ، واهتمام الصحافة العالمية وانعقاد مجلس الامن لمناقشة الموقف في الارض المحتلة · اضافة الى رضوخ العدو واضطراره

الى ازالة البوابات الحديدية التي اقامها للفصل بين مناطق نابلس ، وايضا لجوء العدو الى سحب وحدات من خطوط المواجهة والاستعانة بها في قمع المظاهرات ٠

اشـــكال القمـــع :

استخدم العدو الصهيوني كل اشكال القمع المعروفة ، بدءا بتوجيه الانذارات والتهديدات وانتهاء باطلاق النار وقصف القرى واستخدام الطائرات العامودية في اساليب جديدة لالقاء القنابل المسيلة للدموع تحاشيا للخسائر التي قد تقع فـي صفوف قواته ومحاولة للحفاظ على معنوياتها ٠

ومن اكثر الاشكال القمعية نجد الاعتقالات الواسعة ، واطلاق النار (انظـر الجدول رقم ٤) وحظر التجول الجزئي ، واستخدام القنابل المسيلة للدمـوع . والهراوات ، والاستعانة بالآليات ومرتين بالطائرات ، اضافة الى اجـــراءات ارهابية تتضمن زيادة الحشودات ، وحصار المناطق . وتهديدات اقتصاديـــة وغرامات مالية كبيرة ٠

جدول رقم (٤)

اجراءات تعسفية	اعتقالات	أطلاق نار	قنابل مسيلة للدموع	آليات	اجراءات اقتصادية غرامات	هراوات	طائرات
١٠٠	٦٩	٥٥	٣٢	١٩	١٧	٢٤	٢

خسائر الجماهير :

دفعت جماهيرنا في الارض المحتلة ثمنا غاليا خلال مسيرتها في العام الماضي ولم ترهبها اجراءات القمع الوحشية . بل ان اصرارها على النضال دفع عناصر من حكومة العدو الصهيوني الى المطالبة بتخفيف الضغط وبالابتعاد عن العنف وهذا . اداراكا منها بأن هذه الاساليب العنيفة ستزيد من غضب الجماهير وتبلور حقدها على شكل تنظيم اكثر وعيا واصرارا على خوض النضال ٠ وفعلا بـدأت سلطات العدو تخفف من اجراءاتها القمعية كأسلوب جديد من اساليب القمع غير المباشرة ٠

وقد قدمت جماهيرنا على مر العام الماضي ٤٥ شهيدا و ٩٣٧ جريحا و ٣٥٨٢ معتقلا لفترات محدودة وطويلة نسبيا . وتدل هذه الارقام على جرأة جماهيرنا

واصرارها على خوض النضال مدركة ان ما تقدمه جزء من ثمن حريتها ، ونلاحظ هنا ان هذه الارقام والتي اعترف بها العدو الصهيوني اقل بكثير من العدد الـذي قدمه شعبنا في الداخل للاسباب التالية :

١ ـ ان العدو لا يعلن عن عدد المعتقلين · وقد شن حملات اعتقالات واسـعة بلغ عددها (٦٩ مرة)،والرقم السابق يدل على عدد المعتقلين في (٣٧ مرة)فقط، مما يدل على ان عدد المعتقلين اكبر من هذا الرقم بكثير ، وقد يبلغ ضعفه ، وكذلك ما يتعلق بالجرحى والشهداء (انظر الجدول ٥) ·

جدول رقم (٥)

	قتلى	جرحى	معتقلين
عدد المرات المعلن عنها المتضمنة للاعداد	٢٧	٤٣	٣٧
عدد المرات المعلن عنها دون معرفة الاعداد	٢	٢٢	٣٢

٢ ـ منع المراسلين الصحفيين من التوجه الى اماكن المظاهرات والاشتباكات ومصادرة الافلام والتقارير الصحفية واخضاعها لمراقبة دقيقة ·

٣ ـ ادراك العدو ان خروج مثل هذه المعلومات يكشف حقيقته لدى الرأي العام العالمي . ولهذا السبب كان وما يزال يعمل على طمس الحقائق ويشوهها بكافـة الطرق ·

خسائر العدو

تمكنت جماهيرنا العزلاء من ايقاع خسائر هامة في صفوف العدو تمثلت في قتل (٢٠) فردا من قوات الجيش والشرطة . واصابة (١٧١) بجراح مختلفة ، وتدمير (١٦) الية (انظر الجدول رقم ٦) · لكن هذه الارقام ليست نهائية لانها تمثل الاعداد التي اعترف بها العدو ، علما بأن المرات التي اعترف بها العـــدو بوقوع خسائر مختلفة تدل على عدم صحة هذه الارقام ·

تمثلت ردود الفعل المؤيدة في عدة نقاط هامة منها :

جدول رقم (٦)

	قتلى	جرحى	اليات
المرات المعلن عنها والمتضمنة للاعداد	٧	٣٢	٥
المرات المعلن عنها بدون اعداد	ـ	١٦	٦

ردود الفعل المؤيدة :

تمثلت ردود الفعل المؤيدة في عدة نقاط منها :

١ ـ ردود فعل جماهير الارض المحتلة ، وقد عبرت عن نفسها في مظاهرات واضرابات جزئية تضامنا مع المناطق ٠ اذ كانت مظاهرات الخليل مدعومة بمظاهرات في نابلس او البيرة او غيرها من المناطق ، وكذلك مظاهرات الجليل مدعومة بمظاهرات الضفة الغربية والقطاع مما يدل على تضامن المناطق عامة ضد عدوها الرئيسي ٠

٢ ـ على مستوى الصحافة ووسائل الاعلام المختلفة حظيت الانتفاضة باهتمام وكالات الانباء العربية والعالمية ، وقد تجاوزت بعض الصحف الامريكية مواقفها السابقة لتهاجم العدو الصهيوني بسبب منع مراسليها من الوصول الى اماكن الاضطرابات ، وكذلك حجز افلامها التلفزيونية واتلافها ٠

٣ ـ على مستوى الحكومات العربية والصديقة فقد طالبت مصر بعقد جلسة طارئة لمجلس الامن لمناقشة الاوضاع داخل الارض المحتلة ، وكذلك صدرت تصريحات رسمية وغير رسمية عن الكثيرين من مسؤولي الدول العربية والصديقة، كما نظمت مسيرات ومظاهرات تأييد في بعض هذه الدول (الباكستان) ٠

٤ ـ اما بالنسبة للثورة الفلسطينية ، فقد تمثل رد فعلها بتصعيد وزيادة عدد العمليات العسكرية داخل الارض المحتلة (رغم احداث لبنان) وايضا تصريحات ومذكرات ورسائل الى المسؤولين العرب ، والمسؤولين في الدول الصديقة،وايضا الى هيئة الامم المتحدة ٠

ردود الفعل المعادية :

اضافة الى ردود الفعل الفورية (القمع والارهاب) التي مارسها العدو الصهيوني . فقد كانت هناك ردود فعل اخرى تمثلت في تصاريح وتهديدات كبار

المسؤولين الصهاينة ، وخاصة (شمعون بيريز) ، وايضا عقد مجلس الوزراء مرتين لمناقشة الاوضاع ، ثم الاصرار على الاستيطان في كفر قدوم وغض النظر عن مسيرة غوش ايمونيم ٠ وعرض مشروع تقسيم الحرم الابراهيمي والسماح للمستوطنين بمهاجمة ممتلكات وسيارات اهالي الضفة الغربية ، عدا عن منع مراسلي الصحف من الوصول الى مناطق الاشتباكات واتلاف افلامهم ٠

ومن ردود الفعل المعادية ايضا رد الفعل السيء الذي صدر عن الجعبري ، الامر الذي ادى الى اتهامه بالخيانة والتشهير به داخل الضفة الغربية ، وايضا الاجراءات الاقتصادية التي اتخذتها الاردن وذلك بمنع انتاج الضفة الغربية من التصدير خارج الاردن ٠

الدروس المستفادة :

١ ـ لعل اهم الدروس المستخلصة هي ان الجماهير المناضلة داخل الوطن المحتل قد بدأت بشق طريقها الصحيح بهدف نيل حريتها ، مؤكدة بانتفاضاتها المستمرة ان النصر كان وما يزال مرهونا بارادة النصر لدى الجماهير ٠

٢ ـ تؤكد هذه النضالات ان ما حصل في العام ١٩٧٤ وما بعده ، لم يكن مجرد طفرة جماهيرية ، بل كان نقطة تحول حاسمة بالاتجاه الى اشكال النضال العليا املا بالوصول الى الانتفاضة المسلحة العامة مقرونة بالكفاح المسلح الذي تخوضه القوات المسلحة للثورة الفلسطينية ، والذي سيترك آثارا بعيدة المدى على الوضع في المنطقة ٠

٣ ـ ان نضالات الجماهير في الداخل قد تجاوزت فترة النضالات الجزئية المحدودة واخذت تنتقل الى نضالات واسعة ذات طابع جماهيري رافضة بذلك اي شكل من اشكال الوصاية ، ومؤكدة باستمرار ارتباطها بالثورة الفلسطينية ٠

يوم الأرض : الذكرى الأولى

توفيق فياض

في الثلاثين من آذار الماضي ، احيا العرب الفلسطينيون في فلسطين المحتلة ، الذكرى الاولى لانتفاضة « يوم الارض » ، باحتفالات تأبينية عمت جميع مدن وقرى الارض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، وباضراب عام ، شمل كل مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية وقطاع غزة ، وبمسيرات شعبية في بعض المدن والقرى ، رافقتها صدامات دامية واعتقالات ٠

وكانت « اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي العربية » في الارض المحتلة ، قد قررت في المؤتمر الذي عقدته في ١٩٧٧/٢/٥ في الناصرة ، اقامة احتفالات يوم الارض ، تحت شعار « وقف مصادرة اراضي المواطنين الفلسطينيين ، وتكريم ذكرى الشهداء » ، على ان تعقد هذه الاحتفالات التأبينية في المدن والقرى الفلسطينية وفقا لما تقرره المجالس المحلية فيها ، ويكون الاحتفال الرئيسي للقرى الثلاث ، سخنين ودير حنا وعرابة ، في بلدة عرابة في ٣٠ اذار الساعة الخامسة عشرة والنصف ٠

كما عقدت اللجنة مؤتمرا صحافيا في « بيت سوكولوف » ، في تل ابيب ، في ٧٧/٣/٢٥ شرحت فيه موقفها من سياسة المصادرة ، مجددة مطالبتها باقامة لجنة تحقيق في احداث يوم الارض السابق ، والتي راح ضحيتها ستة شهداء من ابناء سخنين وعرابة وكفركنا ، ومخيم نور شمس في الضفة الغربية ، و٦٩٠ جريحا ، والغاء اوامر المصادرة والاستيطان ٠

وقد وزعت اللجنة بيانا على الصحافيين جاء فيه : ان يوم الارض اصبح رمزا للمواطنين العرب للدفاع عن الارض ، وعن حقوقهم القومية ، وعن اصرارهم على المضي في النضال حتى يتم الغاء اوامر مصادرة الاراضي ٠

وتطرق البيان الى القرارات التي اتخذها مؤتمر الناصرة في شهر شباط الماضي ، بشأن

احياء ذكرى يوم الارض » بهدوء واحترام اكراما للارض الباقية ولذكرى الشهداء الراحلين » ٠٠ كما وحذرت فيه من محاولات الاستفزاز ، ودعت الى التصدي لها ٠ وردا على اسئلة الصحافيين ، اعلن المتحدث في المؤتمر الصحافي ، ان « اللجنة القطرية للدفاع عن الارض » قررت « عدم اعلان الاضراب في هذه الذكرى . بل تنظيم اجتماعات احتجاجية مطلبية » ، وجاء على لسان اللجنة « لسنا طلاب اضرابات ، ولكن من حقنا الدفاع عن مصالحنا بجميع الطرق المشروعة »٠

كما وزعت لجان التضامن اليهودية العربية بيانا باللغة العبرية ، دعت فيه جميع القوى التقدمية والديموقراطية للمشاركة في هذه الذكرى ٠

وكانت الاستعدادات ، قد بدأت ، ومنذ ٧٧/٣/١٥ ، تتخذ طابعا علنيا وواسعا في كافة ارجاء الارض المحتلة ، فبالاضافة الى المناشير والدعوات العلنية ، التي تحث على الاضراب والتظاهر ، في مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية وقطاع غزة ، للمشاركة في هذه الذكرى القومية ، تضامنا مع « اخواننا في الارض المحتلة منذ ١٩٤٨ » و « تأكيدا لوحدة الشعب الفلسطيني ووحدة نضاله » (معاريف ٧٧/٣/٢٥) ، فقد اقيمت احتفالات تأبينية محلية مسبقة لذكرى شهداء « يوم الارض » ، في عدد من قرى ومدن الجليل والمثلث ، مما حدا بسلطات الاحتلال الصهيونية ، الى اتخاذ اجراءات أمنية مشددة لمواجهة الاضراب والمسيرات الشعبية الكبيرة ، دافعة بأجهزة اعلامها ، الى حملة مضادة،للتعتيم على ما يجري ،وطمس الحقائق ،بل وتزويرها وتشويشها ، للتقليل من شأن « يوم الارض » والتشكيك بمنظميه ، وبأصحاب الاراضي المصادرة لضرب تضامنهم وشق صفوفهم ، ولتبرير ما تبيته للاهالي من عمليات انتقامية في يوم الارض ، ضامنة بذلك خنق اخبار نضال شعبنا في الارض المحتلة وتصديه الرائع للاحتلال وممارساته العنصرية الوحشية ٠

وكانت صحيفة معاريف سباقة في هذه الحملة ، حيث كتبت في عددها الصادر يوم ٧٧/٣/١٥ انه « بعد اسبوعين تماما ، في ٣٠ آذار، ستحيي القرى العربية في اسرائيل ذكرى احداث يوم الارض – وهو اليوم الذي كان يوم اضراب شامل هادىء لعرب اسرائيل ، احتجاجا على مصادرة الاراضي التي يملكونها ، وتحول الى يوم دام »٠

وهنا يعمد مناحم راهط كاتب المقال ، بعد ان يروي على لسان رئيس المجلس المحلي في سخنين انه « لن تكون هذه المرة أية اضرابات ، أو أي نشاط اخر قد يؤدي الى حد الصدام » ، الى الايحاء وكأن ما حصل في « يوم الارض » الماضي من اضرابات ومظاهرات ، لم يكن نتيجة لمعارضة الاهالي لمصادرة الاراضي ، بقدر ماكان احتجاجا على حجم التعويضات عن هذه الاراضي ، مستشهدا بما يورده على لسان احد الذين صودرت أراضيهم بالقرب من مستوطنة كرمئيل ، ودون ان يسميه ، «اقول لك الحقيقة، اننا قد خرجنا للحرب ايضا ، من اجل الذكريات الرهيبة التي خلفتها المصادرات القديمة ، ومن اجل هذا النغم الجارح للاذن لكلمة مصادرة ، اذ لهذه الكلمة نغم جارح لكل اذن عربية ، تماما وكأنهم يأخذون منك ارضك بقوة الذراع ، ونحن لا نزال نذكر المصادرات في عام ١٩٦١ ، التي تمت من اجل اقامة مستوطنة كرمئيل »٠٠

وهنا يضيف راهط على لسان نفس الشخص ، مزيفا اقواله ، للتدليل على صحة نظريته الدعائية : « ٠٠ وقد اقترحوا علينا في حينه مبالغ زهيدة ٠ اما هذه المرة ، فانني اعترف ، ان مديرية اراضي اسرائيل كانت اكثر عدلا ، وعندما تأكدنا من ذلك – ولكن

بعد الثلاثين من آذار في السنة الماضية ـ غيرنا رأينا بالنسبة للمصادرات ٠٠ ولذلك فاننا مستعدون الآن للدخول معها في مفاوضات » (معاريف ٧٧/٣/١٥) ٠

وكانت سلطات الاحتلال قد « صادرت عام ١٩٦١ ما مساحته ٥١٠٠ ـ ٥٥٠٠ دونم من الاراضي التابعة لقرى دير الاسد والبعنة ونحف ومجدلكروم ، الواقعة في مركز الجليل لاقامة مدينة كرمئيل اليهودية عليها » (العرب في اسرائيل ص ١٨٣ ، معاريف ٧٧/٣/١٥) وكانت تلك المصادرة قد جوبهت بمعارضة شديدة من اصحابها ، وهي معارضة قل ان صادفت السلطات الاسرائيلية مثيلا لها ، وعرض الامر في حينه على الكنيست ، كما ودعا اهالي القرى التي صودرت ارضها الى « عقد مؤتمر احتجاج ضد مصادرة اراضيهم في اواخر آذار ١٩٦٢ ، الا ان الحاكم العسكري في الجليل اعلن القرى الاربع منطقة مغلقة يومها ، وبهذا منع دخول اي انسان اليها ، مما ادى الى الغاء عقد المؤتمر المذكور ٠ ثم عاد الحاكم العسكري وتصرف بالطريقة نفسها ، واحبط عقد مؤتمر احتجاج آخر كان من المقرر عقده في منتصف كانون الثاني ١٩٦٤ ٠ اما السكان فقد توجهوا بالشكوى ضد اوامر المصادرة الى المحكمة العليا التي اصدرت امرا تمهيديا بهذا الشأن في منتصف شباط ١٩٦٣ ، الا انه عند اجراء المحاكمة النهائية ، وبعد ان رفض قاضيان ، من قضاة المحكمة الثلاثة ، النظر في القضية ، لان السكان اعلنوا انهم « لا يثقون بهما » ، طلب الاهالي ابطال شكواهم وعدم البت فيها » (العرب في اسرائيل ص ١٨٤ ـ ١٨٥)٠

الا ان مناحم راهط يتجاهل في مقاله كل هذه الحقائق ، ويشير الى ان السلطات الاسرائيلية ، كانت قد اقترحت على اصحاب هذه الاراضي مبلغا يتراوح بين « ١٥٠ ـ ٤٥٠ ليرة اسرائيلية للدونم الواحد ، الا انهم رفضوا ذلك ، ولا زالوا يرفضون حتى الآن رغم انهم اقترحوا عليهم في المدة الاخيرة مبلغ ٢٥٠٠ ل٠إ٠ للدونم الواحد » ثم يعزز صدق ما ذهب اليه بأقوال اصحاب الاراضي على حد زعمه ، بقوله :« أليس ذلك مهزلة ، ان نعوض عن دونم البناء السكني ، بمبالغ زهيدة كهذه ؟ » (معاريف ٧٧/٣/١٥) ٠

وهنا ينتقل مناحم راهط الى ما يسميه بالتوجه الجديد لمديرية اراضي اسرائيل ، في تعاملها مع اصحاب الارض المصادرة بأن تدفع لهم ، وفقا للقيمة الاستغلالية التي ستكون للارض في المستقبل ، وليس وفقا لسعرها واستعمالها يوم المصادرة ٠ اي ، وكأن الارض صودرت بعد ان اقيمت عليها اعمال البناء والتطوير ، الامر الذي يزيد من قيمتها ، وهكذا فان مديرية اراضي اسرائيل « تقترح هذه الايام لاصحاب الاراضي المصادرة في العام الماضي مبالغ حدها الاقصى ٢٠ الف ليرة اسرائيلية للدونم الواحد » ٠ (المصدر نفسه)٠

وعلى حد قول احد موظفي المديرية « ونحن نقترح التعويضات الآن وفقا للائحة اسعار جديدة ، تعتمد على قيمة الارض في المستقبل ، بعد اعمال التطوير وقبل البدء في البناء عليها واستغلالها استغلالا كاملا ، وليس ذلك وحسب ، وانما قررت مديرية اراضي اسرائيل ان تمكن كل من لا يريد تعويضاته الآن ، من الحصول عليها في المستقبل وفقا لقائمة التعويضات المقترحة الآن ، ولكن باسناد كامل لسلم غلاء المعيشة ٠٠ واننا في هذه الحالة لسنا أقل جودة ، من اي بنك تجاري »٠ (المصدر نفسه)

ومرة اخرى يتجاهل كاتب المقال ومعه الموظف في مديرية اراضي اسرائيل ، ان القضية لم تكن بتاتا قضية تعويضات ملائمة او غير ملائمة ، وانه في البحث الذي جرى في الكنيست الاسرائيلي في تاريخ ٧٥/١٠/٢٧ ، حول مشروع قانون يتعلق بالتعويضات عن

الارض المصادرة ، واقر تحويله الى اللجنة المختصة ، والذي لا يتعرض الى كمية التعويض الاساسي نفسه ، بل ينص هو الاخر على أنه اذا تأخر دفع التعويض لصاحب ارض مصادرة مدة من الزمن ، فيجب الاخذ بعين الاعتبار عند الدفع غلاء المعيشة ، الذي يحصل خلال فترة تأخير الدفع ٠ وقد رد في حينه عضو الكنيست توفيق زياد الذي شارك في النقاش ان « القضية ليست في كمية التعويضات ، وانما في المصادرة نفسها ٠٠ فالسكان العرب يرفضون بتاتا كل اقتراح بالتعويض مهما كان ، انهم يرفضون مصادرة اراضيهم ، فالارض بالنسبة لهم ، ليست مصدر رزق فقط ، انها وطن ايها السادة ، انها مستقبل شعب » ٠٠ (الاتحاد ٧٥/١٠/٣١)

ويضيف مناحم راهط ، انه بالاضافة الى ما اسماه بالتوجه الليبيرالي لمديرية اراضي اسرائيل ، تجاه المواطنين العرب لاقتلاع جذور الشك في نواياها ، فانها قد اتخذت اجراءات اضافية بحيث « تنتهج الآن سياسة اليد الممدودة لكل مواطن عربي يطلب امتلاك قطعة ارض للبناء الفردي في اطار قريته ، في حال ان هذه الارض تتبع في ملكيتها للمديرية ، او تعويضه عن ارضه المصادرة بأرض للبناء كهذه » (معاريف ٧٧/٣/١٥) ، « وبناء على ذلك فان المديرية خصصت حتى الان ما مساحته ٣٠٠٠ دونم ، لهذا الغرض ، بالاضافة الى قطع البناء التي تمنحها للمجالس المحلية العربية للابنية العامة كالمدارس والمصانع والمؤسسات العامة » (المصدر نفسه)

والارض التي تملكها مديرية اراضي اسرائيل في هذه الحالة ، والتي تساوم عليها ، هي اراضي المشاع القروي المحيطة بالقرى العربية والتي تعود ملكيتها اصلا لاهالي هذه القرى ، ولكنها كانت مسجلة باسم المندوب السامي في عهد الانتداب كوصي عليها في غياب سلطة محلية تمثلها ، الا ان شهية الاستيلاء على الاراضي العربية من قبل سلطات الاحتلال ، وجدت في هذا التسجيل منفذا للاستيلاء على اراضي المشاع القروي ، وسلخها، ثم ضمها الى ملكية الدولة ، مستندة في تنفيذ مخططها هذا إلى قانون املاك الدولة لسنة ١٩٥٣ حيث نص هذا القانون على ان « كل ارض مسجلة باسم المندوب السامي تكون ملكيتها تابعة لدولة اسرائيل » (الاتحاد ٧٥/١٠/١٠) ٠

ثم ينتقل مناحم راهط ، الى النتائج التي وصلت اليها هذه السياسة الجديدة التي تنتهجها المديرية العامة لاراضي اسرائيل ، بانها اثبتت للعرب ان المصادرة كانت في النهاية لصالحهم ، وانها قد توصلت ـ بعد ان انتشر خبر « الاسعار الخيالية التي تدفعها مديرية اراضي اسرائيل في قرى الجليل » ـ « الى اتفاق للتعويضات على اصحاب ٢٠٠٠ دونم تقريبا من بين ٦٠٠٠ دونم صودرت في ٧٧/٣/٣٠ » (معاريف ٧٧/٣/١٥) ٠ كما وان « الكثيرين من اصحاب الاراضي المصادرة الاخرى ، قد حضروا بأنفسهم الى مكاتب المديرية في الناصرة ، وتل ابيب والقدس ، كي يفاوضوها على اعطائهم التعويضات » وان « ملايين الليرات قد سكبت على ايديهم حتى الان ، ومنهم من فضل ان يعوض عن ارضه بقطع ارض للبناء الفردي في حدود قراهم » ولكنه يستدرك انه « مع ذلك فان اصحاب ٤٠٠٠ دونم ما زالوا يرفضون حتى الآن الدخول في مفاوضات مع المديرية لتعويضهم لاسباب عقائدية » (المصدر نفسه)٠

الا ان المديرية تأمل بأن « السياسة الجديدة سوف تعمق الوعي عند اصحاب الاراضي المصادرة ، بأن المديرية لا تهدف الى سلبهم اراضيهم ، وانما ، تقصد تركيز اراضيهم من

اجل التطوير الشامل ، حتى ولو كان عن طريق المصادرة ، وهي طريقة مشروعة لتركيز الاراضي من اجل التطوير في كل دولة متطورة » (المصدر نفسه) · واثباتا لذلك ، فان الاراضي المصادرة ليست ـ على حد زعمه ـ مخصصة لتطوير القطاع اليهودي فقط ، وانما للقطاع العربي ايضا ، ومثله في ذلك ما يجري في قرية المكر « حيث صودر ٢٠٠٠ دونم ، خصصت جميعها لبناء قرية الفلل الجديدة ، المخصصة للسكان العرب ، ولايواء عرب من عكا وقرى المنطقة الذين يقيمون في ظروف سكنية سيئة » (المصدر نفسه) · ودون ان يذكر طبعا ان عرب عكا وقرى المنطقة هؤلاء ، هم الذين ترحلهم سلطات الاحتلال من عكا القديمة وقرى الضواحي لتفريغها من سكانها العرب لصالح المستوطنين اليهود ، كما ولم يذكر ان هذا « التطوير » الذي يتحدث عنه ، كان قد رفضه المؤتمر القطري الشعبي الممثل لكافة الاتجاهات بين الجماهير العربية ، المنعقد في ٧٦/١٠/١٨ ، والذي يهدف الى « تجريد الفلاحين العرب من اراضيهم وتحويل الشعب العربي في اسرائيل الى شعب بلا وطن بحجة « التطوير » و « التصنيع » و « الاسكان » (معاريف ٧٦/١٠/٢١)

ولكي يقنعنا مناحم راهط بصحة اقواله ، وبأن ما قاله ليس بدعة او اشاعة ، كان لا بد له من أن يورد ذلك على لسان « الكثيرين ممن صودرت اراضيهم » ، والذين لا يعترفون بشرعية تمثيل اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي ، لهم ، والذين اجابوا على اسئلته وبضمير المتكلم « ·· لقد كنا نغلي في السنة الماضية ، وكانت المصادرات موضوع الساعة ، ولكن بعد مرور سنة كاملة ، استطعنا خلالها ان نهدأ ، لقد تحققنا ان المصادرات ليست عملا يوميا ، بل وبعضها (٢٠٠٠ دونم بالقرب من قرية المكر) كانت فعلا لمساعدة العرب ، كما وان سياسة مديرية اراضي اسرائيل بالنسبة للعرب ساهمت في تهدئة الخواطر ، والمديرية التي وافقت على ان تعوض اصحاب الارض ليس فقط بمبالغ طائلة ووفقا لقيمة الارض في المستقبل ، بل ووافقت على ان تخصص اراض بديلة لكل من يرغب في ذلك ، مما ساهم مساهمة كبيرة في تهدئة الخواطر في القرى التي صودرت اراضيها » (معاريف ٧٧/٣/٣٠)

واكثر من ذلك ، فان المجلس المحلي في ام الفحم قد عقد جلسة خاصة « للبحث في التطورات التي طرأت بشأن الاراضي ، والتي تدعي القرية ملكيتها لها » و « قد تقرر في نهاية الجلسة وقف الاضراب العام الذي كان مقررا ليوم ٣٠آذار، بعد التسوية التي توصل اليها المجلس مع مديرية اراضي اسرائيل » وذلك « لبناء مساكن شعبية ، ومساكن للازواج الشباب ، والمدارس والمصالح العامة » (معاريف ٧٧/٣/٢٥)

وحقيقة الامر ، ان السلطات الاسرائيلية ، بعد ان صادرت ما يقارب الـ « ١٤٠ الف دونم من اراضي ام الفحم منذ عام ١٩٤٨ ، ولم يبق لها سوى ٢٤ الف دونم ، عادت وصادرت منها ١٢ الف دونم محرش ·· ثم عادت قبل عام وصادرت مرة اخرى مما تبقى ٤٠٠٠ دونم بأمر من وزير الداخلية ، وضمتها الى مجلس منشي اليهودي » (الاتحاد ٧٦/١٠/٢١) وكان المجلس المحلي « قد رفع قضية بشأنها ضد مديرية اراضي اسرائيل ، لمحكمة العدل العليا ، التي اجلت النظر بها الى ٧٧/٣/١٥ » (الاتحاد ٧٧/٢/٢٥) ·وكانت هذه الارض « مسجلة باسم المندوب السامي البريطاني ، ثم نقلت على اسم مديرية اراضي اسرائيل ، وعندما وصلت المباحثات بشأنها الى طريق مسدود ، قرر المجلس المحلي اقامة اضراب شامل في بداية شهر اذار ، وكذلك في ٣٠ آذار ·· هذا التاريخ الطافح بالمعاني ، « يوم الارض » كي يشكل وسيلة للضغط على اوساط مختلفة » (معاريف ٧٧/٣/٢٥)

من الواضح ، ان مناحم راهط ، مراسل صحيفة معاريف ، جند للقيام بهذه الحملة الدعائية ، التي تركز على السياسة الجديدة لمديرية اراضي اسرائيل ، بهدف طمس الحقائق · ومن اجل شق صفوف المجالس المحلية ، لمنعها من اتخاذ موقف موحد في مواجهة مصادرة الاراضي ، وتحويل « يوم الارض » من ذكرى قومية الى مجرد احتفالات تأبينية ·

ثم يضيف ، ان جميع العمال والتجار بل وكل الاهالي ، في قرى الجليل يطالبون السلطات بأن لا يجعلوا « من يوم الارض مشكلة » وخاصة من القرى الثلاث « التي كانت محورا للاحداث في « يوم الارض » في العام الماضي ، سخنين وعرابة ودير حنا ، وانه خلافا للتوتر الذي ساد قرى الجليل بشكل عام ، وقرى المثلث الجليلي الصغير ، بشكل خاص مساء ٣٠ آذار في العام الماضي ، فهذه السنة لم يلمس اي نشاط استعدادا لهذا اليوم » ، ولكنه لا ينسى طبعا « عدا نشاط المتطرفين الذي لم يحظ باستجابة كبيرة في اوساط الجماهير الواسعة » ، اذ لا بد في هذه الحالة من تصنيف العرب في الارض المحتلة الى متطرفين وغير متطرفين ، والمتطرفون هم القلة دائما ، ليكونوا الورقة التي تبرر استخدام العنف والعمليات الانتقامية ضد الاهالي ، ولذلك فان « زيارة واحدة في شوارع سخنين مثلا ـ والتي قتل ثلاثة شبان من سكانها في ٣٠ آذار الماضي في الاصطدامات التي حصلت مع قوى الامن ـ يترك انطباعا واضحا ، بأن القرية لن ترمي نفسها في وضع مشابه » وانه في الحوانيت والمقاهي والبيوت والمؤسسات العامة ، يؤكد الاهالي ، ان « هذه المرة سيكون كل شيء على ما يرام ، واننا سنحافظ على هدوئنا ولن نخضع للتحريض ·· ففي العام الماضي كنا ثائرين وغاضبين ، لاننا لم نعرف ماذا كان ينتظرنا ، واليوم ، والحمد لله ، تحققنا ان الامر ليس بالغ السوء ، وانه بالطبع لا يشبه ذلك الذي صورته لنا تحريضات المتطرفين » (المصدر نفسه) ·

اما الخط الاعلامي الثاني ، الذي انتهجته سلطات الاحتلال في مواجهة « يوم الارض » ، فكان التشكيك بقيادة « اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي » وقيادة حزب راكاح ، لخلق البلبلة والغموض بين الاهالي ، بالنسبة للاضراب في الضفة الغربية وقطاع غزة واحتفالات الذكرى التابينية التي قررتها « اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي » في الارض المحتلة منذ ١٩٤٨ ، والوصول بهم في النهاية الى عدم المشاركة الفعلية في احياء ذكرى يوم الارض ·

وقد ورد في صحيفة معاريف الصادرة في ٧٧/٣/٢٩ ان « معظم رؤساء اللجان المحلية في القرى العربية في الشمال ، ناشدوا مواطنيهم ان لا ينجروا خلف تحريض المتطرفين غدا » ، الا ان الصحيفة تستدرك مناقضة نفسها بأن هذه المناشدة لم تكن مناشدة منظمة من جانب « لجنة رؤساء المجالس المحلية العربية » ويعني لجنة الدفاع عن الاراضي ، ثم تعود الصحيفة لتبرر هذا التناقض والخلط بأنه « من المعروف ان معظم رؤساء المجالس المحلية يعارضون النشاط الفعال في القطاع العربي غدا ، ويفضلون ان يشترك المواطنون العرب في احتفالات هادئة لاحياء ذكرى الضحايا » (المصدر نفسه) ·

ومن المعروف ان اجهزة اعلام سلطات الاحتلال ، كانت قد انتهجت هذا الخط في تزوير الحقائق بالنسبة لموقف « لجنة الدفاع عن الاراضي » ورؤساء المجالس المحلية في العام الماضي ، حيث زورت قرارات مؤتمر رؤساء المجالس المحلية الذي عقد في شفا عمرو في ١٩٧٦/٣/٢٦ ، والذي خرج بقرار الاضراب باكثرية ٤٨ صوتا ضد ٦ ، الا ان اجهزة

الاعلام قلبت الحقائق ، مما دعا لجنة الدفاع عن الاراضي للقيام بحملة مضادة لكشف هذا التزوير ٠

وبالنسبة للتشكيك في موقف حزب راكاح من احياء ذكرى « يوم الارض » والداعي الى عدم اعلان الاضراب الشامل والاكتفاء باحياء احتفالات تابينية فقط ، تقول الصحيفة ، ان « ثمة تفسيرات تشير الى تاثير الانتخابات القريبة على خطواته » وهنا تستشهد الصحيفة باقوال احد ابناء ام الفحم ودون تسميته ان « حزب راكاح لا يريد الوصول الى مجابهات وصدامات مع السلطة ، اذ قد يؤثر عليه ذلك في الانتخابات القريبة ، وهو بالتالي يتصرف كأي حزب سياسي آخر لعرب اسرائيل » (المصدر نفسه)٠

ومجرد المقارنة هنا بين حزب راكاح الشيوعي والمعارض لسياسة الحكومة بشكل عـام ، ولسياسة مصادرة الاراضي ، وهو موضوع الساعة بشكل خاص ، بسائر الاحزاب التـي ينضوي تحتها بعض العرب الموالين للحكومة في الارض المحتلة ، كحزب العمل الصهيوني ، او حزب حيروت او غيرهما من الاحزاب الصهيونية اليمينية يكفي للتدليل على عنف حملة التشكيك هذه ٠

وتضيف الصحيفة ان « ثمة غاضبين على هذا القرار ، ولكنهم يسلمون بالامر الواقع للاخيار » ومن هؤلاء الغاضبين « تلاميذ المدارس الثانوية والذين يعتبرون معقلا لليسار » ـ وهذا تبرير مسبق لما قد تنتهجه السلطات من اعمال انتقامية ضد التلاميذ ـ وكذلك رجال قائمة « ابناء البلد » المحلية المتطرفة في ام الفحم ، والتي يتزعمها محمد كيوان ، ان كيوان ورفاقه في القائمة « كانوا يريدون تنفيذ الاضراب ، وبما ان لجنة الدفاع عن الاراضي ، بما فيهم اعضاء حزب راكاح ، قررت ما قررته ، فانه يسلم بالامر الواقع » (المصـــدر نفسه) ٠ كما وانه « ثمة من خاب امله من مسلك حزب راكاح ، ويعتقدون ان هذا الحزب لم يعد بالنفع على القرية العربية ، ولم يجد حلا لمشاكلها »٠

وتدلل الصحيفة على صدق استنتاجها هذا بتعقيبها « أليست خيبة الامل من مسلك حزب راكاح هي التي حدت بعدد من رؤساء المجالس المحلية والشخصيات العربية المعروفـــة ، لاقامة حزب عربي جديد ، ليكون بديلا عنه ، وينافسه في الانتخابات للكنيست المقبلة ؟ » (معاريف ٧٧/٣/٣٠) وكشأنها في تثبيت اقوالها دائما ، تستشهد هذه المرة برئيـــس المجلس المحلي في كفرقرع ، المحامي محمد مصاروة ، الذي يجيب على السؤال الـــذي طرحته بالايجاب ٠ والذي « كان مشغولا في العام الماضي بالدعوة الى اضراب شامل فـي ٣٠ اذار ٠٠ اما السنة فهو مشغول بتشكيل قائمة جديدة ، تمثل الاكثرية الصامتة بيـــن عرب اسرائيل » (المصدر نفسه) ٠

اما صحيفة دافار ، فتشير في عددها الصادر يوم ٧٧/٣/٣٠ ، الى تبني راكاح لمبـــدأ ترسيخ يوم الارض في ذاكرة الجماهير ، بهدف تعميق وضع الحزب كقوة رائدة في الشارع العربي ٠ وتضيف الصحيفة :« غير ان راكاح ، اتخذ منذ البداية موقفا حازما ضد خلـق اجواء صدامية ٠ فهو في تصريحات قادته وفي ندواته الجماهيرية يؤكد على هذا الموقف »٠

ثم تشير الصحيفة الى وقوع خلاف بين من اسمتهم « بالمعتدلين » ـ راكاح ولجنـــة الدفاع عن الاراضي ـ من جهة ، وبين المتطرفين من الجماعات الصغيرة الملقبة « بأبنــــاء البلد » وعلى رأس هؤلاء محمد كيوان ، احد اعضاء « حركة الارض » سابقا ٠ وان كيوان

واعضاء راكاح ، يعترفون بهذا الخلاف · ففي احدى المناسبات ، دعا كيوان الى صدامات دموية ، مما حدا برئيس مجلس سخنين المحلي جمال طربيه ، الى اجابته غاضبا : « نحن في سخنين يكفينا ما اصابنا في العام الماضي ، فاذا كنت تريد صدامات ، نظمها انت في ام الفحم »·

وتضيف الصحيفة :« من الواضح ان راكاح ، يخشى نتيجة حدوث اصطدامات دموية ، على رصيده الانتخابي ، وذلك لانه يحاول الحصول على الشرعية في الشارع اليهودي في اطار الجبهة الديمقراطية ، والتي تضعه الى جانب « الفهود السود » وحركتي شاسي وآكي·

ومن اجل تصعيد حملة التشكيك واثارة البلبلة ، لمحت دافار ، الى وجود خلاف داخل « راكاح » نفسه · فتوفيق زياد ، رئيس بلدية الناصرة ، دعا في الخطاب الذي القاه في كفركنا في ٧٧/٣/٢٩ ، الى الاضراب الشامل في يوم الارض · « يجب ان لا نكتفي بالقرارات التي اتخذت : احتفالات ذكرى ، الوقوف دقيقة صمت حدادا على الشهداء ، قرع الاجراس في الكنائس ، ورفع الاذان في المساجد » ·

ثم تتساءل الصحيفة اذا لم يكن زياد قد خرج على خط حزبه وحلفائه (دافار ، يديعوت احرونوت ٧٧/٣/٣٠)·

تشير هذه الحملة التشكيكية على حزب راكاح ومواقفه من يوم الارض الى نهج اعلامي وسياسي تتبناه سلطات الاحتلال ، ويهدف بالاضافة الى اضعاف وضع راكاح الانتخابي في الشارع العربي ، الى تمييع وبلبلة مواقف الجماهير العربية في يوم الارض ، فالسلطات تعرف ، ان راكاح ، يستمد قوته الاساسية من الشارع العربي ، نتيجة مواقفه الصلبة في مواجهة سياسة الاضطهاد القومي والاجتماعي للجماهير العربية ·

والجدير بالذكر ، ان هذا الخط الذي انتهجته سلطات الاحتلال ، ازاء حزب راكاح في يوم الارض لهذه السنة ، يختلف تمام الاختلاف عن الخط الذي انتهجته في يوم الارض للعام الماضي ، حيث حملت جميعها ، وبدون استثناء على حزب راكاح وقيادته « كان هو المسؤول الوحيد عن اثارة الجماهير ، ويقوم بحملة تحريضية ضد الدولة » ، وبالتالي فانه « المسؤول الوحيد عن الاصطدامات الدموية التي حصلت مع قوى الامن والتي راح ضحيتها ٦ قتلى و ٩٠ جريحا » (وزير الشرطة هليل ، دافار ، هآرتس ، معاريف ، يديعوت احرونوت ٧٦/٣/٣١)

اما الخط الاعلامي الثالث الذي انتهجته وسائل الاعلام الصهيونية في مواجهة يوم الارض فهو التظاهر باتباع سياسة متسامحة ، وصدر واسع تجاه الاحتفالات التأبينية التي أقرت ليوم الارض ، اذ انه قد « نشأ ما يشبه الاتفاق غير المكتوب ، بين السلطات ، وبين منظمي احتفالات الذكرى السنوية ، دون اتصالات منظمة او اية اتفاقية » وانه « ثمة تفاهم صامت معهم ان لا يدعوا اللجام يفلت من ايديهم » وان الشرطة قد « اعطت التصاريح الملائمة لاحياء هذه الاحتفالات التأبينية » (دافار،معاريف ، يديعوت احرونوت ٧٧/٣/٣٠)·

ولذلك فان وزير الداخلية والشرطة شلومو هليل ، والقائم بأعمال مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية بنيامين غور ـ اديبه ، وبقية الجهات المعنية بالامر توصلوا الى النتيجة بأن « ثمة احتمالات جيدة للمحافظة على الهدوء والنظام » وانهم يعتقدون بأن « يوم الارض هذه المرة سيمر دون احداث غير عادية » وان تقديراتهم هذه تعتمد على مجمل الحقائق التالية :

١ ـ يعترف الاهالي وزعماؤهم ، بأن اهوال السنة الماضية ، تدفعهم الى الامتناع عن السقوط في هوة مماثلة هذه السنة ٠

٢ ـ يخاف الكثير من المستخدمين ، من شبح طردهم من العمل ، في حال تجاوبهم مع دعوات الاضراب ، نظرا للحالة الاقتصادية المتردية ٠

٣ ـ تخصيص مساحات واسعة من الارض التابعة لمديرية اراضي اسرائيل ، لاغراض البناء الشخصي في القرى ، والمباني العامة بأسعار معقولة ، ومبادرة المديرية الى اقامة ضاحيات صناعية في عشرات القرى ٠

٤ ـ استعداد اسرائيل للسماح للعرب بالقيام بزيارات عائلية في الاردن ٠

٥ ـ « ان زيارات العرب الاسرائيليين لاقاربهم في لبنان ، جعلتهم يلمسون بانفسهم ما يعانيه اقاربهم من وضع قاس ،بالمقارنة لاوضاع العرب المريحة ،واستمرار الاعمال الانسانية عند « الجدار الطيب » ٠ »

٦ ـ اعلان ليونيد بريجنيف عن حق اسرائيل في الوجود ، ودعوة انور السادات للسلام مع اسرائيل ، مما ادى الى تخفيف التوتر لدى الجمهور العربي في اسرائيل ٠ (دافار ، معاريف ٣٠ /٧٧/٣) ٠

ووفقا لهذه التقديرات ، فقد « تقرر اتخاذ الخطوات التالية ، والتي شرع في تنفيذها منذ ٧٧/٣/٢٩ وهي :

١ ـ تركيز قوات احتياطية من الشرطة وحرس الحدود في حالة وقوع اعمال عنف واغلاق الطرق ، او مهاجمة المكاتب والاشخاص ، ولكن لن تكون ثمة مظاهرة قوة مكشوفة لا لزوم لها ٠

٢ ـ لن يكون هناك تدخل بوليسي داخل القرى ، حتى وان كانت ثمة مظاهرات في داخلها ، او احتفالات ، حتى لا يخلق ذلك اية استفزازات ٠

٣ ـ في حالة حصول ما يوجب التدخل ـ اعطيت التعليمات لقوى الامن باستخدام القنابل المسيلة للدموع ، ووسائل اخرى لتفريق المتظاهرين ، كي لا يحتاجوا الى السلاح الحي ، كما حدث في العام الماضي ٠

٤ ـ عدم توجيه انذارات للعمال والموظفين مماثلة للانذارات التي وجهت في « يوم الارض » السابق ، بفصل المضربين من عملهم ، او اية انذارات اخرى » ٠ (المصدر نفسه)٠

فالخط الثالث الذي انتهجته سلطات الاحتلال ووسائل اعلامها الصهيونية ، يحمل في داخله تهديدا سافرا باستعمال القوة ٠

ونظرة واحدة على الخطوات « المتسامحة » التي قرر شلومو هليل والسلطات اتخاذها ، تكفي لان تكشف النقاب عما انطوت عليه الاجراءات الفعلية من التهديد ، واستعراض العضلات ، عن النية المبيتة في قمع اي اضراب او تظاهرة ، سواء كانا هادئين او غير هادئين ٠

كتبت صحيفة هارتس الصادرة في ٧٧/٣/٢٧ ، ان « قوى الامن تستعد لقمع الاضطرابات

في الضفة الغربية واحتمالات زيادة التوتر بتحريض من م·ت·ف » وان « اوساطا امنية في اسرائيل تعتقد ان محرضي م·ت·ف ، سيسعون الى تنظيم مظاهراتهم في اواخر هـــذا الشهر وشهر نيسان ، في ٣٠ آذار ، اليوم الذي عينه العرب في اسرائيل كيـوم للارض · وفي هذا اليوم ، سيحاول العرب في الضفة الغربية ، ان يؤكدوا تضامنهم وتلاحمهم مـع عرب اسرائيل » ·

ولا تنسى الصحيفة هنا التنويه بأن « ما قد يجري في يوم الارض ليس له علاقة بمصادرة الاراضي او الاحتجاج عليها » ، بقدر ما هو « تحريض م·ت·ف التي تنوي اشعال نـــار الاضطرابات في المناطق ، كي تخلق الانطباع ان ثمة انتفاضة شاملة » وان « ثمة قرارا في ذلك تضمنته النقاط الـ ١٥ التي اقرها المجلس الوطني الفلسطيني الاخير في القاهـرة » (هارتس ٧٧/٣/٢٧)

كما وتربط الصحيفة ما قد يحدث في يوم الارض باضراب السجناء العرب الشامل في السجون الاسرائيلية عن الطعام ، وبمناسبة « محادثات الصليـب الاحمـر في جنيـف ، للمطالبة باعتبار السجناء الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية ، اسرى حرب » (المصدر نفسه) ·

اما صحيفة معاريف فقد كتبت في عددها الصادر يوم ٧٧/٣/٢٩ ، عن «حالة الطوارىء التي اعلنت لمواجهة يوم ٣٠ آذار » وعن « قوى الامن التي تتأهب لمواجهة احتمالات عرقلة النظام غدا ، في عدة اماكن من القطاع العربي في اسرائيل بمناسبة يوم ٣٠ آذار » وعلى الرغم من انه « لا توجد أية دلائل على النية في عرقلة النظام والاخلال بالامن » ، الا ان السلطات « لا تسقط من حسابها ان يحاول بعض المتهورين اثارة اعمال الشغب » ، اذ ان « اوساطا متطرفة في قرى مختلفة تدعو الى نشاط مكثف في هذا اليـــــوم ، وتطالـــب التجار والعمال بالاضراب في ٣٠ آذار » ولذلك فان السلطات ستتدخل « لحماية الاكثريـة الصامتة في معظم القرى المعارضة لذلك » (معاريف ، دافار ٢٩ ـ ٧٧/٣/٣٠)·

ولكي تبرر السلطات دفع اعداد هائلة من قوى الامن والجيش وحرس الحدود ، لقمـع اضطرابات او مظاهرات في فلسطين المحتلة ، فقد عمدت الى التهويل بأن « ثمة اعمــالا تخريبية سيكون مصدرها من خارج الحدود »· ولذا فان « حالة الطوارىء قد اعلنت فـي معسكرات الجيش ومراكز الشرطة وحرس الحدود ·· وثمة قوات كبيرة من الجيش وضعت في حالة استنفار شامل ، كما « واقيمت حواجز مشتركة من قوات الشرطة وحرس الحدود والجيش ، في جميع مفارق الطرق الرئيسية في الجليل » (المصدر نفسه) ·

كذلك « استدعى الحكام العسكريون وعناصر الامن في ٧٧/٣/٢٩ رؤساء المجالـس المحلية والبلديات ، ورؤساء الغرف التجارية والمربين ، كي يحذروهم من استغلال يـــوم الارض للتحريض على اسرائيل» · كما «واصدرت وزارة التربية والتعليم أوامرهــا في ٧٧/٣/٢٩ للمعلمين في المدارس العربية في الجليل وسائر اجزاء البلاد ، ان يقيموا يوم دراسة عادي » (معاريف ، يديعوت احرونوت ، دافار ٢٩ ـ ٧٧/٣/٣٠) ·

اما بالنسبة للعمال ، فلم تشر الصحف الى انذارات طرد وجهت اليهم · لكنها ألمحت الى ذلك عبر تصريح شلومو هليل : بأن الكثير من المستخدمين يخافون من امكانية طردهم من العمل ، اذا انضموا الى اضراب وطني الدوافع · (معاريف ٧٧/٣/٣٠)· او كما اوردت

معاريف الصادرة في ٧٧/٣/٢٥ على لسان عامل البناء من سخنين سعيد بركات الذي اجاب على سؤال وجه اليه « بالطبع سأذهب الى عملي ·· ففي هذه الايام من الخطر ان يتحدى الانسان مصيره ·· ولا اريد ان افقد مكان عملي »· وهذا ما يدل دلالة واضحة ، ان ثمة انذارات وجهت للعمال بطردهم من العمل ، وكذلك الموظفين ، رغم ادعاء الصحف بأن أحد القرارات التي اتخذها وزير الداخلية والشرطة شلومو هليل كان عدم توجيه انذارات للعمال والموظفين ، مماثلة للانذارت التي وجهت اليهم في يوم الارض السابق ، بفصل المضربين من اعمالهم ، أو أية انذارات اخرى » (دافار ، معاريف ٧٧/٣/٣٠) ·

ومن ناحية اخرى ، فقد نشطت المحاكم في محاكمة معتقلي يوم الارض الماضي قبيل يوم الارض هذه السنة ، لكي تشكل تهديدا غير مباشر للاهالي ، وتخلق جوا ارهابيا · اذ « حكمت محكمة كفار ـ سابا في اواسط شهر شباط ، على كل من عبد القادر عبد الرحيم ظاهر ، وحسام حسني ، وماهر حسني ، ومحمد زنديق ، وعبد الحفيظ فايز ، وعمر محمود ابو عيطة من رجال اليوم الخالد بألفي ليرة غرامة وحسن سلوك لثلاث سنوات ·· وستجري محاكمة فؤاد عبد الحميد حاج يحيى في ٧٧/٣/١٣ ، وفي ٧٧/٣/٣٠ ستجري محاكمة دفعة اخرى » (الاتحاد ٧٧/٢/٢٥) ·

واذا ما عدنا الى احداث يوم الارض في العام الماضي ، وجملة الاجراءات التي اتخذتها سلطات الاحتلال لمواجهة يوم الارض ، ورغم كل ما حاولت تضلل الرأي العام به ، من اكاذيب وتسويف ، فاننا نرى انها نفس الخطوات تماما ، وان لم يكن ثمه تصريح واحد لشخصية رسمية بالنسبة لهذه الخطوات والاجراءات · (انظر ، دافار ، معاريف ، يديعوت احرونوت ، هآرتس ٢٩ ـ ١٩٧٦/٣/٣٠) ·

★★★

وهكذا اذن ، فقد اجمعت جميع الصحف الاسرائيلية الصادرة حتى يوم ٧٧/٣/٣٠ على ان « ثمة امكانية جديدة للحفاظ على الهدوء » وانه اصبح واضحا ان « جميع الاطراف تعمل كل ما في وسعها لمنع الاصطدامات ويأملون النجاح في ذلك » وان « الاهالي في قرى الجليل يؤكدون ان هذه المرة سيكون كل شيء على ما يرام » وان « يوم الارض هذه المرة سيمر بهدوء ودون احداث غير عادية » ، والى آخر هذه العناوين المطمئنة ··

ولكـن ···

« كان هذا الوجه الاول للعملة ، اما الوجه الآخر فيشير الى ان الوطنيين المتطرفين ، قد زادوا من نشاطهم في الايام الاخيرة في محاولة منهم لاثارة الاهالي ، واستنفار غضب الجماهير ، وتعميق احساسها بالقهر والاضطهاد ·· وخاصة لدى طلاب الجامعات العرب الذين يميلون لابراز ميولهم القومية المتطرفة ، والذين يتوعدون بأن يرفعوا الشعارات الوطنية والقومية كشعار « بالروح بالدم » وان يهتفوا بها في الاحتفال الشعبي والمسيرة الاساسية لذكرى ٣٠ آذار التي ستقام بعد الظهر في قرية عرابة القريبة من سخنين » · (معاريف ٧٧/٣/٣٠) ، وانه من المحتمل ان تؤدي أية شرارة صغيرة ، الى اشتعال شامل كما حصل في الماضي ، لا سيما وأن المتطرفين في القرى يحاولون اثارة الاهالي ويناشدونهم للتصدي لقوى الامن بالمظاهرات ، واقامة الحواجز ، واغلاق الطرق ، وما شابه ذلك » (المصدر نفسه) ·

كما وانه « ليس من المستبعد ان تحاول عناصر متطرفة تنظيم المظاهرات في هذا اليوم ، وقد يجرون الاهالي لصدامات دموية مع قوى الامن ، اذ انه منذ الآن توزع ، وفي عدة قرى ، مناشير مجهولة الهوية ، وموقعة بأسماء عامة مثل « اللجنة التحضيرية » او « اللجنة الشعبية » والتي تناشد عرب القرى ان يخرجوا للشوارع في ٣٠ آذار » ، (معاريف ٧٧/٣/١٥) ، والتي تصف يوم ٣٠ آذار بـ « يوم الذكرى لارضنا الحبيبة كي نعبر بهذه الطريقة عن تشبثنا بها ، غير القابل للانتزاع ، ولنتوحد مع ذكرى الشهداء الذين سقطوا قبل عام على مذبح النضال من اجل الاراضي العربية الحبيبة » (المصدر نفسه) ٠

وفي الناصرة وجهت « الجبهة الديمقراطية » المنبثقة عن حزب راكاح الشيوعي ، وخريجي الجامعات ، نداء الى اهالي الناصرة تدعوهم فيه لان « يقفوا دقيقة صمت ، حدادا على شهداء الثلاثين من آذار ، في الساعة الثانية عشرة ظهرا ٠٠ كما دعت رؤساء الكنائس والمؤذنين ان يرفعوا الاذان في هذه الساعة ، وان يقرعوا الاجراس في الكنائس » (معاريف ٧٧/٣/٣٠) ٠ كما ودعا النداء ، اهالي الناصرة الى المشاركة الجماهيرية الواسعة من العمال والشبيبة والتلاميذ والجامعيين والتجار واصحاب المهن الحرة بل « وجميع ابناء شعبنا في المظاهرة الجبارة التي ستقام في عرابة ٠٠ ومواصلة النضال ضد السياسة التي لا تعرف الشبع في مصادرة الاراضي والاضطهاد ٠٠ وضد اخضاع شعبنا البطل ، ومواصلة المعركة للدفاع عن ارض وطنه » (المصدر نفسه) ٠

اما في الضفة الغربية وقطاع غزة ٠٠

« فثمة حملة تحريض تتشكل منذ ايام للقيام باضراب شامل ، ومظاهرات في ٣٠ آذار ، وثمة اخبار بأن محرضين من حزب راكاح زاروا عدة اماكن في الضفة الغربية وغزة وحرضوا على القيام باضراب شامل في هذا اليوم » (معاريف ٧٧/٣/٢٩) ٠

كما تم توزيع منشورات كتبت بأيدي تلاميذ المدارس تدعو جميع الاهالي ، الى « شل حركة التجارة في المنطقة ، ولا شك ان العناصر المتطرفة في الضفة الغربية والذين يستغلون كل مناسبة ضد اسرائيل ، للقيام باضرابات ومظاهرات ، تعمل الآن كل ما في وسعها لعرقلة الحياة غدا » (المصدر نفسه) ٠

وكانت سلطات الاحتلال قد قامت بحملة اعتقالات وقائية واسعة في جميع مدن الضفة الغربية ، ومعظمهم « من الشبان الصغار وتلاميذ المدارس المشبوهين بالتحريض وتوزيع المنشورات التي تدعو الاهالي الى الاضراب العام والمظاهرات ، والى دحر الاحتلال الصهيوني ، كما وزعت منشورات اخرى تدعو الى الاضراب موقعة باسم « فتح » ، و « التنظيم الفلسطيني الشيوعي » ، كما و « رجم الشبان في مخيم بلاطة سيارة عسكرية بالحجارة فأطلق الجنود عليهم النار لتفريقهم» (دافار ، معاريف ٧٧/٣/٣٠) ٠

اما ايهود يعاري مراسل صحيفة دافار للشؤون العربية ، فقد كتب يقول صبيحة يوم الارض ٣٠ آذار « ٠٠ واثناء تجوالي في قرى الشمال والمثلث ، قبل اسبوع ، قيل لي في كل مكان ، انهم سيحيون ذكرى يوم الارض في آذار ، بالحجارة والاطارات المشتعلة »٠

وهنا يخترق ايهود يعاري جدار الصمت والتعتيم ، الذي مارسته جميع الصحف ووسائل الاعلام الاسرائيلية ، عما يجري في احتفالات الذكرى ، التي كانت قد أقرتها « اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي » في القرى والمدن العربية في فلسطين المحتلة ، ويكشف لنا في معرض حديثه ، عن بعض الحقيقة ، انه « قد تم اعتقال عشرات الشباب

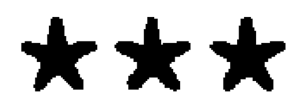
في قرية جت في المثلث قبل ٣ ايام (٧٧/٣/٢٦) ، الذين استعدوا لاعمال العنف في يوم الارض ، فسارع رفاقهم الى اعلان الاضراب ، وفي الحال نشأ المصدر الاول للتوتر والمواجهة » ، وانه « وفي نفس المساء (٧٧/٣/٢٦) ، اضرمت النار في باص في قرية الطيبة مما ساهم في زيادة التوتر » (دافار ٧٧/٣/٣٠) ٠

ويضيف ايهود يعاري كاشفا الستار لاول مرة ايضا عن انه قد « اقيمت في ٧٧/٣/٢٦ يوم السبت ، الاحتفالات السنوية ليوم الارض في شفا عمرو وكفر كنا » وانها قد تمت دون أية احداث ، وبأعداد ضئيلة نسبيا ، اذ شارك فيها ما « يقارب ٤٠٠ شخص في شفا عمرو ، و ٨٠٠ شخص في كفر كنا » وانه « تم احتفال مشابه في ٧٧/٣/٢٩ ، في قرية الطيبة في المثلث دون اية احداث » كما كان « احتفال آخر في أم الفحم » (المصدر نفسه)٠

وينتهي ايهود يعاري الى تلخيص مجمل الاوضاع والاجواء السائدة لما سيحدث في يوم الارض ٣٠ آذار ، بأن « النية الطيبة لقوى الامن وللقائمين على تنظيم يوم الارض للحفاظ على النظام ومنع الصدامات ، تقف في الامتحان نتيجة لنشاط المتهورين والطائشين ، مما يتطلب الحذر والمراقبة الدائمين » وكذلك الامر بالنسبة « للضفة الغربية وقطاع غزة ٠٠ حيث تنوي قوى الامن اتباع خط مشابه للخط في الجليل والمثلث » ويلخص يعاري هذا الخط بأنه « ضبط النفس ، والامتناع عن الاستفزازات ، وفي حالة الاستعداد لاعمال العنف ، فليكن تدخلا سريعا وحاسما » ولذلك فان « وزير الشرطة شلومو هليل سيشرف على الوضع بنفسه من غرفة العمليات الخاصة في الناصرة ، كي يمنع التدهور في حال نشوب صدامات » (دافار ٣٠ـ٣ـ١٩٧٧) ٠

ومن الجدير بالذكر ان وزير الشرطة شلومو هليل قد اتبع نفس الطريقة في يوم الارض السابق ، حيث « وصل في ٢٩ ـ ٣ ـ ٧٦ الى مدينة الناصرة كي يترأس بنفسه غرفة العمليات الخاصة التي ستتولى تنسيق عمليات قوات الشرطة والجيش » (دافار ٣٠ـ٣ـ ١٩٧٦) ، وقد اشرف بنفسه على الأحداث الدامية التي ميزت يوم الارض الماضي ٠

ثم ينهي ايهود يعاري تحليله للوضع عشية يوم الارض بأن « هذه هي الصورة الصحيحة حتى الامس ٢٩ ـ ٣ ـ ٧٧» ثم يتساءل « فهل تكون صحيحة لهذا اليوم ، الثلاثين من آذار » (دافار ـ ٣٠ـ٣ـ٧٧) ٠



وفي يوم الارض ٣٠ آذار

اذا كانت الصحف الاسرائيلية ووسائل الاعلام قد عمدت ، وقبل شهر من يوم الارض ، الى تزييف الحقائق ، واسدال ستار كثيف على حقيقة ما يجري من استعدادات ليوم الارض ، مشاركة في حملة التضليل التي اعتمدتها سلطات الاحتلال ، التي منعت هذه المرة ، كما تقول وكالة رويتر ، المصورين ورجال الصحافة التقدمية والعالمية ، من الاقتراب من القرى والمدن الفلسطينية العربية ، الى حد اقامة الرقابة الشديدة على الصحف والاخبار المرسلة الى الخارج ، بل واغلاق بعض الصحف العربية الصادرة في الارض المحتلة ، التي نشرت اخبار الاحتفالات التأبينية التي اقيمت في بعض المدن والقرى

الفلسطينية طيلة الاسبوع السابق ليوم الارض ، في سبيل انتهاج سياسة طمس كاملة لما سيجري يوم الارض من احتفالات قد ترافقها صدامات مع رجال الشرطة والجيش وحرس الحدود ، ومن اعمال عنف في كافة انحاء فلسطين المحتلة · وخاصة الاحتفال التأبيني الرئيسي ، الذي اقرته « اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي » في المثلث والجليل ، عرابة وسخنين ودير حنا في ٣٠ اذار ، والتي كانت مسرحا للاحداث الدامية في يوم الارض في العام الماضي ·

فلا عجب اذن ، ان تطالعنا اذاعة اسرائيل ــ والتي التزمت طيلة اسبوع الارض دون ان تذكر خبرا واحدا عما جرى في ام الفحم والطيبة وكفر كنا وغيرها من المدن والقرى العربية في فلسطين المحتلة ــ في برنامجها العبري « شخصيات واحداث في الاخبار » صبيحة الثلاثين من اذار بأن « التقارير الاولية تفيد بأن الحياة في القطاع العربي تسير حتى هذه الساعة بشكل تقليدي » ، وان « جميع العمال توجهوا الى اعمالهم » ، وحتى الساعة السادسة صباحا لم يسجل سوى « حادث واحد شاذ وطفيف في قرية طمرة في الجليل الغربي » اذ « اضرم مجهولون النار باطارات السيارات في ساحة القرية في الساعة الرابعة من فجر اليوم » وتضيف انه « لم يعتقل اي شخص حتى الان ولم يعرف الفاعل » (ر٦٠١٠ ١٩٧٧/٣/٣٠) ·

وفي برنامج الظهيرة اذاعت انه « كان اليوم ·· يوم الذكرى السنوية الاولى « ليوم الارض » ، وقد مر هادئا في المناطق العربية في شمال البلاد وفي المثلث ، وان شيئا لم يحدث حتى ساعات الظهيرة ، ولكن جرت بعض المحاولات لسد الطرق امام السيارات المؤدية الى بعض القرى العربية ، وذلك باحراق الاطارات على الشارع ، وقد حدث ذلك في قرية طمرة في الجليل وقرية جت في المثلث » (ر٦٠١٠ ٧٧/٣/٢٩) ·

وكذلك الامر في نشرتها المسائية ، حيث اوردت ان « الذكرى السنوية الاولى ليوم الارض قد مرت بهدوء ، وفي بعض القرى ، في الجليل والمثلث » ، واضافت انه « لم تحدث اية اصطدامات او اضطرابات » (المصدر نفسه) ·

ولقد لخص مراسل الاذاعة يوئيل دار احداث يوم الارض بانها « جرت بهدوء تقريبا ، فالحياة في القطاع العربي سارت كعادتها ، ودقيقة الصمت التي اعلنت عنها لجنة الدفاع عن الاراضي العربية لم تحترم في الناصرة على الاقل » وان مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية بالوكالة بنيامين غور ــ ارييه ، « كان راضيا تماما لان الامور لم تصل الى حد المواجهة والصدام ، وكذلك اعرب قائد اللواء الشمالي في شرطة اسرائيل المفوض مردخاي رون عن ارتياحه » (المصدر نفسه) ·

وكان المفوض رون ، قد صرح بأن يوم الارض كان « كما توقعنا » · وان كان الشعار « يجب ان تكون الاعمال كالمعتاد ، وبالفعل ، ففي كل مكان خرجوا الى العمل كالمعتاد ، والدراسة في جميع المدارس في القطاع العربي سارت كالمعتاد » (المصدر نفسه) ·

وهذا ما اوردته جميع الصحف المسائية التي كتبت على صفحاتها الاولى وبعناوين كبيرة « هذا الصباح ساد الهدوء في الجليل ومعظم العمال العرب خرجوا الى مواقع عملهم ··· وحركة السير في طرق الجليل كانت كالمعتاد البارحة واليوم · وهذا الصباح خرج مئات العمال من قراهم الى اماكن عملهم ، ودون اعتداء من جانب المتطرفين عليهم ··· وكذلك في الضفة الغربية ، خرج جميع العمال للعمل ، والمواصلات العامة تسير

بانتظام » (معاريف ، يديعوت احرونوت ٧٧/٣/٣٠) ٠

اما معلق اذاعة اسرائيل فيلخص يوم الارض بأنه « لم يترك اثاره على الشباب ، وقد امضى ١٥ الف شاب وشابة يومهم في نزهات في جبال الجليل والجـــولان (ر٠١٠٦ ٣٠ معاريف ٧٧/٣/٣١) ٠

ولكي نقف على مدى التنسيق بين هذه الصحف واجهزة الاعلام الاخرى ، وسلطات الاحتلال الصهيونية ، على تزوير الحقائق والتعتيم عليها ، وعلى تشويه حقيقة احـــداث يوم الارض في فلسطين المحتلة ، ولكي نلتقط ولو صورة النضال الرائعة لشعبنا في هذا اليوم ، فلا بد وان نستعرض ما حدث في مدن وقرى فلسطين المحتلة في يوم الارض ، من خلال ما وقعت فيه هذه الصحف ، رغم تنسيقها ، من ارتباك وتناقض فيما نقلته ٠

ففي الناصرة

نقل مراسل الاذاعة الاسرائيلية يوئيل دار ، وصفا حيا لما يجري قائـــلا : « وقفـــت مجموعات من الشباب ، كما وقفنا نحن ، ولكن حبا للاستطلاع فقط ، وهكذا فاننا لم نشاهد اي شخص يقف مستعدا في الساعة الثانية عشرة ظهرا كما كان مخططا ٠٠٠ كما ان اجراس الكنائس لم تقرع ٠ دقة حزن واحدة قرعتها كنيسة الروم الارثوذكس ، قبل دقائق من اجل موت احد افراد الطائفة ، وليس من اجل يوم الارض ، والصلاة اقيمت في مسجد السلام قبل الموعد المحدد بربع ساعة » (ر٠١٠٦ ٣٠ ٧٧/٣/٣٠) ٠

الا ان صحيفة يديعوت احرونوت تقول « وفي الناصرة اصدرت البلدية بيانا تقول فيه انه « في هذا اليوم تجسدت وحدة الشعب العربي وارادته القوية والحاسمة ، في متابعة النضال من أجل حقوقه المشروعة على أرضه ووطنه » (يديعوت احرونوت ٧٧/٣/٣٠)٠

وتعقب الصحيفة على ان «هذه هي المرة الاولى التي تتحدث فيها جهة عربية اسرائيلية عن حقوق في الوطن ، مما اثار ردود فعل عنيفة لدى الاوساط اليهودية » (المصدر نفسه)٠

وتنفي الصحيفة هنا ان تكون الاجراس قد قرعت ، « فالاجراس لم تقرع في المدينة بالمرة » حتى ولو دقة حزن على أحد الاموات كما ذكر يوئيل دار كما لم تذكـر ما اذا كان المؤذنون قد نادوا للصلاة ، وسواء كان ذلك قبل الوقت او في الوقت ، ولكنها تحدثت عن « رواد المقاهي الذين لم يقف منهم احد » وعن « حديث الساعة في هذه المقاهـــي عـن الاحداث التي لم تقع » ولكنها لم تذكر بتاتا ما هي الاحداث التي لم تقع في الناصرة ، والتي راح رواد المقاهي يختلقونها ٠ لتاتي صحيفة معاريف بعدها وتؤكد هي الاخرى ان « الكنائس لم تقرع اجراسها » ولتؤكد ، وخلافا للتقرير الاذاعي ، ولما جاء في صحيفة يديعوت ان « المؤذنين اذنوا » ولكنها استدركت « لصلاة الظهر كالمعتاد فقط » (معاريف ٧٧/٣/٣١) ٠ ولكن صحيفة دافار الرسمية والصادرة صبيحة اليوم التالي ليوم الارض ٧٧/٣/٣١ لم تذكر شيئا عن الناصرة ٠

قرية طمرة ٠

وعما دار في قرية طمرة افادت الاذاعة انه « حتى الساعة السادسة صباحا لم يسجل سوى حادث واحد وطفيف » اذ اضرم مجهولون النار باطارات السيارات في ساحة القرية

وانه لم يعتقل أي شخص » (ر٠٦٠١ ٣٠ ٧٧/٣/٣٠) ٠ الا أن صحيفة معاريف تقول أن حاجز الاطارات المشتعلة كان في « مدخل القرية » بينما تقول يديعوت احرونوت انه كان في « مدخل الشارع المؤدي الى القرية » (معاريف يديعوت احرونوت ٧٧/٣/٣٠) ٠ وفي اليوم التالي ذكرت الصحيفتان ان الحدثين الوحيدين في الجليل كانا في « قرية طمرة وقرية كابول » ، وليس في قرية طمرة وحدها كما ذكرتا قبل يوم ٠ ثم تأتي صحيفة دافار فتكتفي بذكر ان كل ما حدث في الجليل هو « فقط في مدخل قرية طمرة ، اكتشفت الشرطة حاجزا فازالته » (دافار ٧٧/٣/٣١) ، ولم تذكر حتى اي نوع من الحواجز كان ٠

الاحتفال الرئيسي في عرابة وسخنين ودير حنا ٠

وبالنسبة للاحتفال الرئيسي ، في قرية عرابة ، صرح آمر لواء الشمال المفوض رون في رده على سؤال وجهه له مراسل الاذاعة الاسرائيلية « اما في عرابة ، فقد جرى الاحتفال الشعبي كما خطط له ، وبموجب ترخيص ٠ وكانت المشاركة أقل بكثير من تقديرنا ٠ وحسب تعدادنا كان هناك ما بين ٢٠٠٠ ـ ٢٢٠٠ رجل ، وفي الوقت نفسه رأينا اشخاصا آخرين يعملون في الحقول المحاذية للاجتماع نفسه » (ر٠٦٠١ ٣٠ ٧٧/٣/٣٠) ٠

ويقول يوئيل دار مراسل الاذاعة في تقريره الصوتي ، ان هذه المقابلة اجراها مع المفوض رون ، في الساعة الخامسة بعد الظهر ، وانه كان قبل ذلك في قرية عرابة ، حيث جرى الاحتفال الرئيسي ، وان « المشاركين في الاحتفال جاؤوا مشيا على الاقدام ، وبالسيارات وبينهم بعض المجموعات اليهودية » وان الجماهير كانت تهتف « بالروح بالدم نفديك ياجليل » و « بالروح بالدم حنكمل المشوار » ، ويضيف دار ان هذه الجماهير كانت تهتف وهي « تلوح بشارة الانتصار عندما مرت طائرة عمودية من فوق رؤوسها » (ر٠٦٠١ ٣٠ ٧٧/٣/٣٠) ٠ وكان رئيس المجلس المحلي في عرابة محمود نعامنه قد اتهم السلطات في الخطاب الذي ألقاه ، انها « دفعت اجهزة الاعلام لتشوه صورة موقفنا وعدالة قضيتنا ، لكي تبرر التصرف ضدنا » ، واضاف « لقد رفعنا اصواتنا ٠٠ فقالوا : متطرف يعمل ضد القانون والدولة ٠٠ ان كل هدفنا هو الحيلولة دون مصادرة الاراضي ، لان الارض هي مصدر بقائنا » ٠ اما الخطباء الاخرون فقد « تحدثوا بنفس اللهجة » (المصدر نفسه)٠

اما صحيفة معاريف الصادرة في ٧٧/٣/٣١ ، فتقول ان الاحتفال الرئيسي الذي اقيم في ساحة مدرسة عرابة اشترك فيه ٣٠٠٠ رجل تقريبا وان المنظمين لهذا الاحتفال قد عبروا « عن خيبة املهم لهذا العدد القليل » وتضيف الصحيفة واصفة ان « سيارات المشتركين في الاحتفال تحركت على الطرق بشكل تظاهري ، وباضواء عالية ، وابواق متواصلة » وان المشاركين تجمعوا في البداية « في ساحة القرية حيث وضعوا اكاليل الزهور على النصب التذكاري الذي اقيم لذكرى شهداء يوم الارض الستة » ومن هناك واصلوا طريقهم بانتظام ، في قافلة طويلة في ازقة القرية ، وهم « يزأرون بشعار بالروح بالدم نفديك يا جليل » ولم تذكر الصحيفة من خطاب رئيس المجلس سوى انه قال « يجب الاسف على كل ما حدث في هذا اليوم من العام الماضي » وان « كل اهدافنا كانت منع مصادرة الاراضي التي هي مصدر عيشنا » اما عن الخطباء الاخرين فتقول ان بعضهم « دعوا الى التعايش بين الشعبين ، والبعض الاخر تكلم عن قدسية الارض العربية » (معاريف ٧٧/٣/٣١) ٠

وتقول يديعوت احرونوت انه « بين الالاف التي تدفقت الى القرية ، منهم من جاء بالسيارات ومنهم من جاء ماشيا ، وفي ايديهم اكاليل زهر ويافطات ، ونصب لذكرى

شهداء يوم الارض في السنة الماضية ، وانه قد «برز عدة عشرات من اليهود اليساريين» وأثناء **المظاهرة** تعالت الهتافات « بالروح بالدم نفديك ياجليل » « وكلنا فدائيون ·· كلنا ثوار » و « فلسطين عربية » (يديعوت احرونوت ٧٧/٣/٣١) · وتضيف الصحيفة معلقة « ولكن رغم هذا النغم المعادي جدا ، الذي اتبعه الخطباء في الحفل التأبيني ، تفرق المشتركون بهدوء ، ودون ان يضطروا قوى الامن التي كانت تضرب طوقا حول القرية ، للتدخل » (المصدر نفسه) ·

ثم تأتي صحيفة دافار الرسمية لتذكر ان عدد المشاركين في الاحتفال الرئيسي كان « ١٠ **الاف شخص** » وان الخطباء كانوا « رئيس المجلس المحلي في سخنين ، ورئيس المجلس المحلي في عرابة . ورئيس بلدية الناصرة توفيق زياد وخطباء اخرون » وانهم تكلموا ضد مصادرة الاراضي » وانه قد « سمعت في الاحتفال شعارات ضد مصادرة الاراضي وضد اقامة المستوطنات اليهودية عليها » · وانه الى جانب المنصة « وضعت اكاليل الزهور لذكرى الضحايا الستة قبل عام » ودون ان تذكر شيئا عن النصب التذكاري ·

اما بالنسبة لقريتي دير حنا وسخنين ، فلم تذكر وسائل الاعلام عنهما شيئا ·

الطيرة والطيبة وجلجولية وكفرقاسم وقلنسوة

وفي هذه القرى العربية « مر يوم الارض بهدوء وبدون احداث خاصة ، مما يبرر تدخل قوات الشرطة وحرس الحدود ، باستثناء بعض الحواجز الصغيرة من الحجارة التي اقيمت البارحة على ايدي شبان صغار في طريق كفرقاسم – مسحه ، وطريق الطيبة – قلنسوة · وقد ازيلت هذه الحواجز **على ايدي الاهالي انفسهم** » (معاريف ٧٧/٣/٣١) ·

اما صحيفة دافار الصادرة في ٧٧/٣/٣١ فتقول ، ان « ثمة اطارات اشعلت بالقرب من الطيبة في ساعات الصباح ، بعد ان اقام حزب راكاح احتفالا مساء الثلاثاء مخصصا ليوم الارض ، وشارك فيه مواطنون من خارج القرية بما فيهم يهود من راكاح » وتضيف الصحيفة ان رئيس المجلس المحلي في الطيبة ، عبد الحميد ابو عيطة قد « القى خطابا هاجم فيه الدولة » وانه قال « نحن لن نحرق الاطارات وحسب ، وانما سنحرق **الطائرات** ايضا » وانه «هدد في ان يتعرض لاحد رجالات الدولة بالاذى ، ودعا الى التظاهر والاضراب في يوم الارض » (دافار ٧٧/٣/٣١) · ولكن الصحيفة لم تذكر لماذا هذه اللهجة العنيفة في خطاب رئيس المجلس المحلي في الطيبة ، ولماذا ستنتقل المجابهة من حرق الاطارات الى حرق الطائرات : هل لان سلطات الاحتلال استعملت الطائرات في قمع المظاهرات كما تقول رواية رويتر ، ام لانها كانت تحلق فوق الاحتفال استعدادا لقمع اية مظاهرة كما حلقت فوق الاحتفال في عرابة للارهاب · بل لم تذكر الصحيفة كيف يمكن لرئيس مجلس محلي ان يهدد علنا وباحتفال شعبي باغتيال احد رجالات الدولة ، فهل كان ثمة تهديد من سلطات الاحتلال بالتعرض لحياته ، ام كان ذلك تمهيدا لاعتقاله واتهامه بالتهديد بالاغتيال ، ومن ثم محاكمته !؟ وهذا ما لم تتطرق اليه الصحيفة ، ولكنه كان واضحا ·

اما في كفرقاسم فتقول الصحيفة « وفي كفرقاسم في المثلث ، اضرب معظم التلاميذ عن الدراسة ، وقد اشعل التلاميذ المضربون الاطارات في مداخل القرية ، ومنعوا الوصول

اليها ، كما واضرب التجار ايضا » (المصدر نفسه) ٠

اما في الطيرة والقرى المجاورة لها فقد « حرض اليساريون الاهالي وذكروهم بمذبحة تشرين ١٩٥٦ (مذبحة كفرقاسم) » وانه في ساعات الصباح ، عندما وصلت الباصات لنقل التلاميذ الى المدرسة الثانوية في الطيرة ، واجهوها بالحجارة والاطارات المشتعلة ٠ ولم يذهب التلاميذ الى المدارس ، والعمال لم يخرجوا » الا ان « قوى الامن التي كانت في المكان لم تتدخل » (المصدر نفسه) ٠

باقة ـ الغربية وجت

واخيرا ورغم حملة التعتيم وتشويه الحقائق لما جرى من احداث في يوم الارض ، حتى في الصحف الصادرة بعد يوم الارض ، ورغم كل ما اتخذته سلطات الاحتلال من اجراءات لمنع تسرب الاخبار عن عملياتها الانتقامية وما رافقها من صدامات دامية ، ضد المواطنين العرب في الارض المحتلة ، كان لا بد لها وان تتكشف . فللدم لون لا يخفى ، وللغضب صوت يخترق كل الحواجز ، وان كانت من حديد ونار ٠

ففي الوقت الذي كانت قرية باقة الغربية كلها ساحة معركة ، وكذلك قرية جت ، بين قوات الشرطة والجيش وحرس الحدود . ومنذ الساعة العاشرة من صباح ٣٠ اذار يوم الارض ، كانت اذاعة اسرائيل تذيع في برنامج الظهيرة ان « بعض الشبان الصغار في باقة الغربية ، حاولوا سد الطريق المؤدية الى المدرسة هناك ، ولكن رئيس المجلس طلب من الشرطة المحلية ان تعالج الموضوع ، دون اي تدخل من الخارج » ٠ اما في قرية جت « فقد قدم رئيس المجلس شكوى بسبب قطع اسلاك الهاتف في القرية ، وبشكل اجمالي لم يحدث أي شيء ، حيث ذهب العمال الى أعمالهم ، وكذلك المزارعون الى حقولهم » (ر١٠٠١ ٧٧/٣/٣٠) ٠

ثم عادت الاذاعة ونقلت في المساء تقريرا صوتيا لمراسلها يوئيل دار ، ولا بد لنا من نقل ما جاء في التقرير كما ورد بالنسبة لهاتين القريتين :

« المذيع روعيه ـ مرت الذكرى السنوية الاولى ليوم الارض بهدوء ، وفي بعض القرى، في الجليل والمثلث ، جرت عدة محاولات لسد الطرق ، واحرقت الاطارات ، ولكن كما قلنا لم تحدث اصطدامات ولا اضطرابات ٠ يوئيل دار يلخص احداث اليوم : »

«يوئيل دار ـ مرت احداث هذا اليوم بهدوء تقريبا ، فالحياة في القطاع العربي سارت كعادتها ٠٠٠ وكان مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية بالوكالة بنيامين غور ـ اربيه راضيا تماما ، لان الامور لم تصل الى حد المواجهة والصدام ٠ وكذلك اعرب آمر اللواء الشمالي في شرطة اسرائيل المفوض مردخاي رون عن ارتياحه بقوله :

« المفوض مردخاي رون ـ تماما وكما توقعنا ، فقد كان شعارنا « يجب ان تكون الاعمال كالمعتاد » ، وبالفعل ففي كل مكان خرجوا الى العمل كالمعتاد ، والدراسة في جميع مدارس القطاع العربي سارت كالمعتاد ٠ لقد عقدت تجمعات هنا وهناك ، ووقع بعض اعمال خرق للنظام من جانب بعض الشباب او الفتية الطائشين ٠٠٠ **وجرى بعض اعمال الشغب في باقة الغربية وجت ٠»**

« يوئيل دار ـ ما الذي حدث في هاتين القريتين ؟ »

«المفوض مردخاي رون ـ قام الاولاد هناك ، وخلافا لراي الكبار ، بمحاولة لسد الطرق الداخلية ، واشدد على كلمة داخلية ، حيث انه لم يسد اي طريق رئيسي في دولة اسرائيل· وبسبب ذلك تدخلت قوات الشرطة لفتح هذه الطرقات » ·

« يوئيل دار ـ هناك شائعة تقول ان افراد الشرطة استخدموا القوة في قرية باقة ـ الغربية ، فما الذي حدث هناك في الحقيقة ؟ »

« المفوض مردخاي رون ـ قام هناك عدد من الفتيان بمحاولة لسد طريق داخلي في القرية ، ومن ناحية اخرى طلب الكبار مساعدة الشرطة لفتح الطريق · وهكذا دخلت قوات الشرطة وفرقتهم كما يقضي القانون ·· ومن الواضح ان كل من يحاول رجم الشرطة بالحجارة يعرض نفسه للخطر » · (ر١٠١٠ ٣٠/٣/٧٧) ·

اما صحيفة معاريف المسائية الصادرة في ٣٠ آذار يوم الارض ، فلم تذكر عما حصل في قريتي جت وباقة سوى انه « في قرية جت اعتقل البارحة احد المحرضين » ، بينما لم تذكر صحيفة يديعوت احرونوت الصادرة في نفس اليوم عن ذلك شيئا ، مما يشير الى الارتباك الذي وقعت فيه هاتان الصحيفتان لعنف ما حصل فعلا ، الا انهما عادتا وذكرتا في اليوم التالي ليوم الارض ان « بؤرة التوتر كانت في قريتي باقة الغربية ، وجت في المثلث ··· اذ اقام التلاميذ في قرية جت ، حواجز من الاطارات المشتعلة والحجارة على طريق طول كرم باقة الغربية ، واشعلوا الاطارات داخل القرية ، وقطعوا خطوط الهاتف ، وقد وصل رجال الشرطة وحرس الحدود الى المكان ، وفرقوا تجمعات الطلبة التي كانت في قرية جت » (معاريف ، يديعوت احرونوت ٣١/٣/٧٧) · وتضيف الصحيفتان ممعنتين في تزوير الحقائق واختلاق الاكاذيب لتبرير مهاجمة قوات الشرطة والجيش للقرية ، بأن « وجهاء واعضاء المجلس المحلي في باقة الغربية ، عجلوا على تهدئة الخواطر في القرية، ولكن دون فائدة » ، وان « عضو المجلس المحلي منصور عتامنه جاء بنفسه الى تجمع قوى الامن حيث كان آمر لواء الشارون حاضرا وطلب اليه عدم دخول القرية بقواته ، وان يترك الامر للوجهاء والمحليين لازالة الحواجز وتهدئة الخواطر » وان الفرصة « قد اعطيت للوجهاء ولعضو المجلس مرتين » وان « حرس الحدود ابعد من المكان » الا ان عضو المجلس منصور عتامنه « عاد في النهاية واعلن بانه فشل في جهوده لتفريق المتظاهرين » ولذلك « اعطيت عندها الاوامر لمهاجمة المتظاهرين ، واندفع رجال الشرطة يتقدمهم جرار ثقيل لتسوية الشارع أمامهم ، بينما راح المتظاهرون يمطرونهم بوابل منالحجارة » (المصدر نفسه) · وتضيف الصحيفتان منهيتين وصف ما حدث ، بانه « خلال هذا الصدام جرح عدة متظاهرين ، ونقلوا الى مستشفى هليل يافيه في الخضيرة » وان التوتر قد استمر حيث حدث اخلال بالنظام عدة مرات ، الا انها كانت حوادث فردية » (المصدر نفسه) · ثم تعلق يديعوت احرونوت ان « تصرف الشرطة العنيف هو الذي منع اعمال الشغب في القرى الاخرى » (يديعوت احرونوت ٣١/٣/٧٧) ·

ولكن صحيفة دافار الرسمية علقت تقول « في جت اغلق صباح أمس مدخل الشارع المؤدي الى القرية ، الا ان الشرطة ازالت الحواجز وفرقت المتظاهرين » واضافت «وبالقرب من محطة البنزين في باقة الغربية اشعلت عدة اطارات الا ان هذا الحادث صفي ايضا وعادت الحياة الى طبيعتها » (دافار ٣١/٣/٧٧) ·

الا ان هعولام هازيه كتبت في عددها الصادر في ٧٧/٤/٦ تحت عنوان « ما الذي حدث في باقة الغربية » تقول (بعد ان فندت أكاذيب الصحف الاخرى والناطقين باسم الشرطة عن الهدوء الذي ساد يوم الارض والاعمال التي جرت كالمعتاد) : « ··· خلافا لكل التقارير الرسمية ، ففي الساعة التاسعة اقتحم القرية ما يزيد على ٥٠٠ من افراد الشرطة والجيش وحرس الحدود » · واضافت الصحيفة « ·· وقد اقتحم الجنود مقهى ابراهيم فارس ابو منح الذي كان يعج بالزبائن ، وراحوا يحطمون كل ما في طريقهم ، كما واقتحموا مطعم « شراغ باقة » ، وسرعان ما القي في الشارع سبعة جرحى ، ينزفون دما ، نقلوا بعدها الى المستشفى حالا » وتضيف المجلة واصفة « ··· لقد كان المشهد رهيبا : دماء تسيل ، واطفال جرحى ملقون في عرض الشارع ، وولولات امهات فزعات » وان « معظم الجرحى كانوا من تلاميذ المدرسة ، وكذلك المعتقلون » (هعولام هازيه ٧٧/٤/٦) ·

وتضيف المجلة ان « الاهالي المذعورين سارعوا للاختباء في بيوتهم ، والقرية بدت كلها وكانها مدينة اشباح » الا ان هذا الهدوء الذي خيم على القرية « لم يخفف من شهية الجنود وحرس الحدود للانتقام ، فقد استمروا في الاندفاع في ازقة القرية ، وهم يقذفون القنابل المسيلة للدموع ، وقنابل الدخان داخل البيوت » ، لم يتركوا القرية الا « في الساعة السابعة مساء » (المصدر نفسه) ·

ثم علقت المجلة بقولها «··· وفي اليوم التالي ليوم الارض ، بدأت حملة الدعاية الكاذبة في الصحف ووسائل الاعلام » وكانت احدى هذه الاكاذيب التي نشرتها الصحف تقول « ان احد اعضاء المجلس في القرية منصور عتامنه ، تفاوض مع الاهالي لتهدئة الخواطر باسم الشرطة ، وانه بعد ان اعلن عن فشله في وساطته ، اقتحم الجنود القرية وفرقوا المتظاهرين » الا ان « هذا الخبر الذى سارع الناطقون باسم الشرطة لتزويد الصحف به ، كان مجرد خبر خيالي ، اذ ان منصور عتامنه لم يكن في ذلك الصباح في باقة الغربية مطلقا » (المصدر نفسه) ·

كما وكتبت الصحفية يوئيلا هار ـ شفي في نفس المجلة في عددها الصادر يوم ٦/١٣/٧٧ ، رسالة مفتوحة الى رئيس المجلس المحلي في باقة الغربية جاء فيها « ··· اخي جلال، لم اعرف لان احدا لم ينقل الي ذلك ، لا في الصحف ، ولا في الراديو ولا في التلفزيون · اعرف انك تعرف ذلك ، لكني لا اعرف كيف كان ذلك ممكنا ، في باقة الغربية التي لا تبعد عن نتانيا سوى بضعة كيلومترات تهبط طائرة عمودية في ساحة المدرسة اثناء الدراسة ، والجنود وحرس الحدود يهاجمونها بالقنابل المسيلة للدموع · كيف استطيع ان اشرح ولو لنفسي ، ان ٢٠٠٠ طالب يندفعون من غرف صفوفهم ذاهلين ويتراكضون في اتجاه القرية ، والجنود يطاردونهم ـ ومواطنو اسرائيل لا يعرفون ·· لا يسمعون الصراخ ، ولا يرون المشهد ! » واضافت « اعرف انه لم يكن لديك الوقت لترى الصحف ، ولكن جميعها قالت ان المواطنين العرب خيبوا آمال المتطرفين ولم ينجروا خلف تحريضاتهم ، ولكنني لم اكن اعرف انه في اللحظة التي نشر هذا الخبر فيها ، عن هدوء عرب اسرائيل ، كان الجنود وحرس الحدود يقبرون فيها المدرسة الثانوية في باقة الغربية » (المصدر نفسه) ·

وتنهي يوئيلا هار ـ شفي رسالتها بقولها « اخي جلال ·· اعترف انني خائفة · خائفة كما لم اخف في اية مرة · لا في عام ١٩٤٨ ، ولا في يوم الغفران ، حتى ولا في ايام الانتظار التي سبقت حرب الايام الستة » (المصدر نفسه) ·

اما مراسل صحيفة عل همشمار قاسم زيد ، والذي زار القرية في اليوم التالي ليوم الارض ، فقد كتب في ملحق عمل همشمار الصادر يوم ٧٧/٤/٨ ان « قوات كبيرة من الشرطة وحرس الحدود ، ترافقها المصفحات البرمائية وعشرات الآليات اقتحمت القرية » وانه في الاتصال الذي تم بين رئيس المجلس المحلي جلال ابو طعمه ، والذي كان خارج القرية ، وليس كما ادعى آمر لواء الشمال في حديثه في الاذاعة ، امر أبو طعمه نائبه مراد قعدان ان « يغلق مكاتب المجلس حالا ، اذا لم تخل الشرطة القرية » .

الا ان « قوات الشرطة تمركزت الى جانب المدرسة حيث يدرس ٢٠٠٠ تلميذ ، كانوا منهمكين تلك الساعة في دروسهم النظامية ، وفجأة حطت طائرة عمودية في ساحة المدرسة. واقتحمت قوات حرس الحدود المبنى وهي تلقي القنابل المسيلة للدموع ، مما اذهل التلاميذ، وكل توسلات مدير المدرسة ومعلميها امام قادة « العملية » ، ان يكفوا عن مهاجمتهم ، ذهبت ادراج الرياح » ... وبعد الساعة الثانية عشر ظهرا ، اقتحمت قوات اضافية القرية ، وهاجمت الحوانيت المفتوحة وبيوت السكن ، وراح الجنود يقذفون البيوت والمارة من نساء واطفال وعجائز بالحجارة ... مستعملين كل وسائل التحقير والاذلال ، موجهين كل الشتائم القذرة للنساء والاطفال ، ولم يتركوا بيتا واحدا في القرية المنتشرة على مساحة واسعة الا ودخلوه » وهذه القوات « بقيت حتى ساعات المساء مكررة نفس العملية بعد الظهر ، حيث كان الهدف هذه المرة ، العمال العائدين من اعمالهم ، حيث كمنوا لهم في المحطات ، وانهالوا عليهم ضربا حين نزلوا من السيارات » ولم تكتف قوات الشرطة بكل ما فعلته بل اقتحمت القرية مرة اخرى ، وراحت تقذف جميع البيوت بالغاز المسيل للدموع ، وطاردت الاهالي بالمجنزرات البرمائية ، وسيارات الشرطة وخراطيم المياه الملونة » .

ويضيف الصحافي العربي قاسم زيد ان « الجنود اقتحموا بيت الارملة عائشة بيادسة ـ والتي كان المجلس المحلي قد منحها جائزة الام المثالية لهذه السنة ـ وانهالوا على ولديها ابراهيم وجلال عبد الرازق بيادسة اللذين كانا يتناولان طعامهما ، بالضرب المبرح امام عيني والدتهما ، ثم جروهما الى الخارج واوثقوهما الى مؤخرة سيارة الجيب العسكرية، التي راحت تطوف بهما شوارع القرية ، بينما كان قائد الجيب يعطي اوامره للسائق بالدوس على الفرامل بشكل مفاجيء ، كلما استطاع الاخوان التعلق بمؤخرة السيارة ، بينما كانت والدتهما تجري خلفهما وتتوسل الى الشرطة ان تطلق سراح ولديها ، الا ان جواب رجال الشرطة الوحيد على توسلاتها كان الشتائم الاباحية القذرة » (عل همشمار ٧٧/٤/٨) وكانت قوات الشرطة تعتقل الشبان ومن بينهم الجرحى وتنقلهم ، بعد ان توسعهم ضربا ، الى « مكان تركيز الاسرى » .

وقد روى قاسم زيد الكثير من القصص التي حدثت ولكنه يقول ان ذلك كان « جزءا صغيرا فقط من عشرات القصص التي حدثت » ويضيف ان « كل اولئك الذين حققوا بدوافع الهجوم ، اكدوا على انه كان مبيتا ومخططا له سلفا ، وان بقاء قوات الشرطة وحرس الحدود في القريتين باقة الغربية وجت ، حتى المساء ، يكفي دليلا على انها كانت عملية انتقامية من جميع الاهالي ، وليست قصاصا لمجموعة من الزعران والطائشين الذين اغلقوا الشارع كما تدعي السلطات » (المصدر نفسه) .

وفي اليوم التالي عقد رئيس المجلس في باقة الغربية وجت مؤتمرا صحفيا ، وفي البيان الذي اصدره المجلس المحلي روى رئيس المجلس في باقة الغربية ، تفاصيل عملية اقتحام

قوات الشرطة والجيش ، وحرس الحدود للقرية ، ومهاجمة المدرسة الثانوية التي يتعلم فيها اكثر من ٢٠٠٠ ، بعد هبوط الطائرة العمودية في ساحتها ، متهما السلطات بأنها كانت « قد اعدت لهذه العملية سلفا وانها كانت عملية انتقامية مبيتة » (عل همشمار ٧٧/٤/٨) . كما وعرض على الصحافيين « بعض الجرحى القادرين على الحركة » ، وبعد المؤتمر الصحافي «زار الصحافيون الجرحى الاخرين في بيوتهم حيث تكشفت لاعينهم صور مفزعة » (المصدر نفسه) ٠

وقد اثارت هذه العملية الانتقامية في قريتي باقة الغربية وجت ، موجة من السخط والاحتجاجات لدى الجماهير العربية في الارض المحتلة ، واعلن رئيسا المجلسين المحليين في القريتين يوم ٧٧/٤/٤ اضرابا عاما احتجاجا على « الهجوم الوحشي الذي شنته قوات الشرطة وحرس الحدود على الاهالي » (معاريف ٧٧/٤/٥) ، كما وتقدما بطلب الى السلطات « بتشكيل لجنة تحقيق برلمانية لتقصي الحقائق بالنسبة لما حدث في ٣٠ آذار » (المصدر نفسه) ٠

وبالفعل ، فقد « عم الاضراب باقة الغربية وجت في ٧٧/٤/٤ » ، وتوافدت على القريتين « عشرات الوفود من قرى الجليل والمثلث » وقد اعلن اعضاء هذه الوفود ، انهم « سيبحثون امكانية الاعلان عن اضراب شامل في قرى الجليل والمثلث اذا لم تستجب السلطات الى الطلب الذي تقدم به وجهاء القريتين لتشكيل لجنة برلمانية للتحقيق » (المصدر نفسه) « وان الاضراب قد نفذ « بانضباطية مثالية ، ومحافظة متناهية على تعليمات الوجهاء والشخصيات المعروفة ، ان لا ينجرفوا خلف استفزازات السلطات واعمال العنف » (المصدر نفسه) ٠

وكانت احداث يوم الارض قد اثرت على بناء المجلسين المحليين فى باقة الغربية وجت ، ففي باقة الغربية « اعلن المجلس المحلي عن قيام ائتلاف مجلسي كامل » وفي جت « اقيل رئيس المجلس المحلي اثر اتهامه بالعجز عن مواجهة الاحداث » (المصدر نفسه) ٠

الضفة الغربية

اما عن كيفية مرور هذا اليوم في الضفة الغربية ، فيقول مراسل الاذاعة في تقريره الصوتي ، وبنفس اللهجة التي تقلل من شأن ما حدث ، ان « الظاهرة البارزة في احداث الذكرى السنوية الاولى ليوم الارض في الضفة الغربية ، كانت الاضراب التجاري العام في المدن الكبرى من جنين في الشمال وحتى اريحا في الجنوب » وان « الحوانيت في هذه المدن لم تفتح على الاطلاق صباح اليوم ٠ وفي المدارس جرت عرقلات كبيرة وكثيرة للتدريس » (ر٠١٠٠٩ ٣٠/٣/٧٧) ٠

ويستطرد مراسل الاذاعة اربيه جوس ، انه « على الرغم من التحريض الشديد من الدول العربية ، ومن داخل الضفة ، فان الجمهور لم يخرج الى الشوارع في تظاهرات » وان « الشعارات التي كتبت على الجدران والمنشورات التي وزعت اكدت على التضامن مع عرب اسرائيل ، والنضال ضد الاحتلال » ٠ ولكنه يستدرك بأن الهدف الاساسي ، وهو « تحريض الضفة الغربية كلها واشعالها لم يتحقق » لان « معظم العمال توجهوا الى العمل في اسرائيل ، واولئك الذين لم يتوجهوا اعتبروا ذلك يوم عطلة » ، وان السيارات الاسرائيلية قد مرت في الضفة الغربية « دون اية مضايقة » واكتفى السكان العرب

بالنظر « الى ما يجري في الشوارع الخالية » (المصدر نفسه) ٠

ويضيف المراسل ، ان الحياة في القدس الشرقية «سارت كالمعتاد » ، باستثناء «حادث واحد » قام به بعض الجنود » باطلاق النيران في مداخل المدينة بعد ان رجموا بالحجارة »٠ وان السياح قد « تجولوا في شوارع المدينة القديمة دون مضايقة ٠ وجميع الحوانيت كانت مفتوحة » ٠ (المصدر نفسه) ٠

ثم يستثني المراسل اربيه جوس ، بعض المدن التي قام الشبان فيها « باحراق الاطارات وسد الطرق » ، الا ان قوى الامن « فرقتهم بسرعة » ، و« اعمال الشغب » هذه حدثت في « الخليل ورام الله ونابلس ، حيث قذف الفتية رجال الامن بالحجارة داخل ازقة القصبة » (ر١٠٦٠ ٣٠/٣/٧٧) ٠

وقد لخصت الصحف الصادرة في ٣١-٣-٧٧ ما حدث في « يوم الارض » في الضفة الغربية كالتالي :

في القدس

« لم يظهر اي دليل للاضراب في التجارة والمدارس » وان حادثة واحدة سجلت فقط ، عندما « قام تلاميذ برجم سيارة عسكرية بالحجارة ٠٠ وقد اطلق الجنود النار عليهم » (دافار – معاريف ٣١/٣/٧٧) ٠

في الخليل

وفي الخليل « ساد اضراب تجاري شامل ولكن ما يقارب ٦٠٪ من العمال قد خرجوا الى اعمالهم » ، وكان حوالي ٥٠٠ تلميذ قد تظاهروا بأنهم ذاهبون الى المدرسة في الصباح، ولكنهم « سرعان ماانتظموا وانطلقوا في مسيرة من ثانوية الحسين ، وقد استطاعوا الوصول الى مستديرة الشرطة في قلب المدينة وبدأوا يشاغبون » ، وحين طلبت قوى الامن اليهم « ان يتفرقوا اجابوها بوابل من الحجارة » فسارعت قوى الامن الى « مهاجمتهم بالقنابل المسيلة للدموع وفرقتهم بالقوة واعتقلت عددا من المحرضين » (دافار ، يديعوت احرونوت – معاريف ٣١/٣/٧٧) ٠

كما وذكرت هذه الصحف ان عبوة ناسفة ، كانت قد « انفجرت في مدخل مطعم المستوطنين بالقرب من مغارة المكفيليه ، وتسببت باضرار جسيمة » (المصدر نفسه) ٠

رام الله

وفي رام الله « تجمع عشرات الشباب في المقبرة الواقعة جنوب المدينة ، وحاولوا تنظيم مظاهرة من هناك ، ولكنهم فرقوا ، واعتقل عدد منهم » (المصدر نفسه) ٠

قرى ينما وبتونيا والخضر

جرت فيها « عدة محاولات لاقامة الحواجز في الشوارع واغلاق الشارع الرئيسي

المؤدي الى الخليل ، الا ان قوى الامن ازالت هذه الحواجز · وفرقت المتظاهرين » (المصدر نفسه) ·

طولكرم

كان ثمة « اضراب ومظاهرات ، ورجم المتظاهرون باصات شركة دان بالحجارة » (المصدر نفسه) ·

قلقيلية وجنين

في قلقيلية وجنين ساد « اضراب هادىء » · (المصدر نفسه) ··

قريتا هيلار ، وعزون

في هاتين القريتين « اقيمت حواجز من الاطارات المشتعلة ، ورجمت سيارة باص تابعة لشركة دان بالحجارة » كما « ورجمت سيارة شحن اسرائيلية ، واعتقل بعض الشباب » (المصدر نفسه) ·

نابلس

اما في نابلس ، فقد جرت « محاولة للتجمع من ٢٠٠ شخص ، حاولوا التظاهر » الا ان « طريقهم سدت والمظاهرة فرقت ·· ولكنهم فروا الى ازقة المدينة القديمة ـ القصبة ـ وتمركزوا في مداخل القصبة وراحوا يمطرون الحجارة في كل اتجاه بعد ان اغلقوا مداخل القصبة بالسيارات المحلية » ·

وتضيف الصحف ان الاهالي في نابلس قد « فرضوا على انفسهم حظر تجول طوعي » وان الشوارع « كانت خالية » ·

كما « واغلقت جميع المدارس . وانهمك التلاميذ الثائرون في رجم قوات الامن بالحجارة· وخاصة التلاميذ الذين خرجوا بمظاهرة من مدرسة قدري طوقان » ، وان « كل المحاولات لاشعال الاطارات قمعت حالا » (معاريف ، يديعوت احرونوت ، دافار ٧٧/٣/٣١) ·

غـــزة

وفي غزة « لم يكن من احداث سوى اغلاق شارع مخيم الشاطيء » (المصدر نفسه) ·

المستعمرات الاسرائيلية في الضفة الغربية

د. نافذ يوسف نزال *

يهدف هذا البحث الى وصف نمو المستعمرات الاسرائيلية التي اقيمت في الضفة الغربية منذ حزيران عام ١٩٦٧ ، كما يهدف الى تحليل الاستراتيجية العامة لهذه المستعمرات ٠

تضخيم القدس :

التضخيم Fattening, up اصطلاح كثر استعماله في الصحف الاسرائيلية لوصف المستعمرات التي تنوي اسرائيل انشاءها في الضفة الغربية بالقرب من القدس ٠ ويستعمل هذا الاصطلاح لهذه المستعمرات مع ما يسمى بالقدس الموحدة « القدس الكبرى » ، التي من المفروض ان تقسم الضفة الغربية الى مقاطعتين شمالية وجنوبية دون اي خطوط جغرافية فاصلة ٠

بالرغم من السياسة المنظمة لضم القدس والمحاولات المستمرة لوضع القدس العربية في اطار اقتصادي طبيعي ، الا ان اهم اسلوب تتبعه اسرائيل لتأمين وحدة القدس بما فيها السكان العرب هو اقامة مناطق سكنية لليهود في شمال وجنوب المدينة ٠٠

ان فكرة الاستيطان بدأت بعد الاحتلال مباشرة وذلك بتعمير منطقة جبل سكوبس التي تقام عليها الجامعة العبرية ومستشفى هداسا ٠ استمرت حركة الاستيطان هذه خلال الفترة ما بين ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ بالاستيلاء على ٣٥٠٠ دونم من الاراضي العربية الممتدة من منطقة

* استاذ التاريخ والعلوم السياسية ورئيس دائرة دراسات الشرق الاوسط في جامعة بيرزيت ـ الضفة الغربية ٠

جبل سكوبس مارة بمنطقة الشيخ جراح حتى منطقة سنهدريا التي كانت ضمن الحدود الاسرائيلية قبل حزيران ١٩٦٧ · لقد صمم لهذه المنطقة انشاء بنايات سكنية لاستيعاب ٠٠٠ر١٠٠ يهودي · ومع العلم بأن الاراضي ما بين جبل سكوبس والشيخ جراح كانت خالية من السكان قبل حزيران ١٩٦٧ لان معظمها كان ضمن منطقة الحرام · الا انها ممتلكة من قبل ثلاث جهات :

ثلث للعرب ، وثلث آخر لليهود، والبتية اراض حكومية عربية ولمؤسسات خاصة · وخلال شهر سبتمبر ١٩٦٩ استقرت اول موجة يهودية على هذه الاراضي وشملت ٢٠٠ عائلة يهودية حلت بمنطقة رامات اشكول التي امتدت فيما بعد حتى وصلت مستعمرة جفات هامفتار والتل الفرنسي ·

لقد تسارع نمو هذه المستعمرات عام ١٩٧٠ خوفا من تنفيذ مشروع روجرز والذي كان سيؤدي الى استعادة القدس العربية · اكتسحت هذه المشاريع طريق القدس ـ رام اللهوبهذا فصلت منطقة القدس العربية عن ضواحيها الشمالية : شعفاط ، عناتا ، بيت حنينا ·· الخ · ونتيجة اتصال هذه المستعمرات المذكورة مع منطقة جبل سكوبس تكون حزام في شمال القدس من المستعمرات اليهودية ·

هناك عدة مستعمرات في شمال القدس منها : راموت (النبي صموئيل) ، رامات اشكول ، التل الفرنسي والنبي يعقوب· لقد اعيد بناء منطقة النبي يعقوب (حيث ان هذه المنطقة كانت مركزا عسكريا للجيش الاردني قبل حزيران ١٩٦٧ وكان معظمها خاليا من السكان) ببنايات سكنية · ومنطقة النبي يعقوب اكبر مستعمرة تبعد عن القدس حوالي ١١ كلم · وفي خلال عام ١٩٧٣ تم بناء ٤٠٠٠ وحدة سكنية· وهناك مخطط لتوسيع مستعمرة النبي يعقوب لربطها بمستعمرة التل الفرنسي التي أسست عام ١٩٦٩ والتي تبعد عنها حوالي٣ كلم الىالجنوب· ان هذا المشروع يتضمن بناء ٠٠٠ر١٠ وحدة سكنية خلال خمس سنوات لاستيعاب ٠٠٠ر١٦٠ يهودي ·

ومستعمرة النبي يعقوب محمية بمخيم عسكري اسمه « متسودات كفير » (قلعة الشبل ، وهو المركز الرئيسي للمنطقة المتوسطة التي تسيطر عليها اسرائيل (٢) ·

ان هذه البناية التي تشبه القلعة يمكن رؤيتها من بيوت العرب المجاورة ، وحوالي الساعة الخامسة مساء يمكن رؤية عدد كبير من اليهود بزي مدني وعسكري مغادرين البناية لبيوتهم في مستعمرة النبي يعقوب ·

تقع مستعمرة النبي يعقوب في واد محاط من ثلاث جهات بالقرى العربية : عناتا ، جبع ، وحزما ، وبمنطقتي بيت حنينا وشعفاط من الجهة الغربية · وهذه المستعمرة تتكون من صفوف من البنايات كل بناية تتراوح بين ٤ ـ ٦ طوابق مبنية على شكل قلاع فيها شبابيك صغيرة وقريبة على بعضها البعض · كثير من الناس الذين يزورون هذه المستعمرة يشكون من اجوائها المكتومة لان داخلها يبدو كأنه سجن مترف محاط بصفوف من الجدران ·

والشقق فيمستعمرة النبييعقوبليستمرتفعةالثمنولذلك فاليهودالجددفياسرائيليفضلون

---

(٢) المنطقة المتوسطة تمتد من البحر الابيض المتوسط الى نهر الاردن ومن منطقة الجليل في الشمال الى منطقة بئر السبع في الجنوب ·

السكن فيها · ولكن ليس كل يهودي يستطيع ان يسكن في هذه المستعمرة لانه يتم اختيار المستوطنين من قبل وزارة الاسكان الاسرائيلية حسب الجدول التالي : ٤٥٪ يهود اسرائيليون من الدول المتطورة ، ٤٥٪ يهود اسرائيليون من دول اكثر تطورا (اشكنازيم – اي يهود من الدول الاوروبية) ثم الـ ١٠٪ الباقية يهود من جميع انحاء العالم ·

ان هذه المعادلة صممت لكي لا تعطي فرصة لكثير من اليهود الشرقيين ان يحصلوا على بيوت جيدة ورخيصة · ويجب الانتباه الى المصطلح المستعمل « الدول المتطورة » ، انه مصطلح مصمم على نفس هذا المجرى او الخط · فمثلا ، المدن الكبيرة في الاتحاد السوفيتي التي يعيش فيها اليهود (الاشكنازي) تعتبر متحضرة او متطورة · لكن يهود منطقتي جورجيا وبخارى ايضا في الاتحاد السوفيتي الذين يشبهون اليهود الشرقيين بعاداتهم يعتبرون غير متطورين · ومؤخرا في اغسطس عام ١٩٧٦ قامت مظاهرة في المستعمرة احتجاجا على سياسة الحكومة لانها تريد نقل اليهود الشرقيين من الاحياء الفقيرة في القدس الى مستعمرة النبي يعقوب · وبسبب هذه السياسة يلجأ بعض المستوطنين من اليهود الاوروبيين الى ترك بيوتهم وتأجيرها لتكون مصدر دخل شهري لهم · هذه العملية (عملية تأجير البيوت) مع انها ممنوعة قانونيا الا انها شائعة كثيرا · فمثلا ، كثير من الامريكان الذين يصلون الى اسرائيل بزي « المهاجرين الجدد » يحصلون على ملكية مغرية كهذه الشقق ويعودون الى امريكا حيث يؤجرون هذه الشقق ليهود فقراء او طلاب بمعدل ٨٠٠ – ٨٥٠ ليرة اسرائيلية (٨٠ – ٨٥ دولارا) شهريا لشقة من غرفتي نوم وصالون الخ (يشمل ايجار الشقة المصاريف الاخرى كالتدفئة المركزية) مع العلم ان نفس الشقة في القدس العربية او الاسرائيلية لا تؤجر بأقل من ١٥٠٠ – ٢٠٠٠ ليرة شهريا دون المصاريف الاخرى المذكورة ·

وفي عام ١٩٧٢ تم بناء مستعمرة راموت (النبي صموئيل) شمال غرب القدس ، وهناك مخطط لربط هذه المستعمرة بمستوطنة رامات اشكول التي أسست عام ١٩٦٨ الى الجنوب من النبي صموئيل ·

اما في جنوب القدس فقد بدأ مشروع بناء مستعمرة جيلو عام ١٩٧٣·وتقعهذهالمستعمرة تحت قرية بيت صفافا بالقرب من مدينة بيت لحم · وعندما ينتهي بناء هذه المستعمرة سيكون هناك حوالي ١٠٫٠٠٠ وحدة سكنية ·

ان منطقة جفات همسوآه الحديثة ستربط جيلو بمنطقة كريات هايوفال · وبهذا يكون هناك مجال لقيام مستعمرات اخرى في الجهة الجنوبية من القدس · كذلك هناك مخطط لجنوب شرقي القدس وهو بناء فنادق فخمة ومنتزهات وفيلات فخمة لكن تنفيذ هذا المشروع توقف لانه تبين ان المنطقة المذكورة جبل Evil Counsel هي ملك هيئة الامم · كذلك هناك مخطط لمد منطقة الطالبية ومنطقة ابو طور شرقي القدس وربطها بمنطقة جبل Evil Counsel

ويجري حاليا العمل في مشروع لتوسيع مستعمرة جيلو باتجاه القدس · ولقد عبد طريق جديد ليصل هذه المستعمرة بالقدس مباشرة ليحل محل الطريق الفرعي بيت لحم – القدس · هذا المشروع واجه بعض العوائق · فهناك بيت لاحد السكان العرب واسمه داوود عليان ، يقع في منتصف الطريق الجديد ، ولكن الحكومة ما زالت مصممة على بناء الطريق حول هذا البيت ، وأي شخص يزور المنطقة يرى بوضوح كيف ان الطريق يحوط هذا البيت (٣) ·

---

(٣) يقال ان الحكومة الاسرائيلية عرضت على السيد عليان ٤ ملايين ليرة اسرائيلية مقابل ترك البيت لكنه رفض وما زال بيته في منتصف الطريق ·

مستوى البنايات في مستعمرة جيلو عال جدا ، والشقق جذابة جدا وغير غالية بالمقارنة مع ما هو معروض في القدس للعرب ولليهود · لهذا قبل كثير من اليهود السكن هناك مع العلم انهم يعرفون ان جيلو تقع وراء الخط الاخضر اي خارج اسرائيل ·

وفي اقصى جنوب مدينة القدس بجوار مدينة الخليل المنطقة التي تسمى (يهودا) تم انشاء سبع مستعمرات منذ حزيران ١٩٦٧ اربع منها هي الون شفوت ، العازار ، كفار عتسيون ، وروش تسوريم تؤلف المنطقة المعروفة « ببلك عتسيون » · لقد تم بناء مستعمرة الون شفوت في عام ١٩٦٩ لتكون مركزا لدراسة الديانة اليهودية · وفي الوقت الحاضر يذهب اليها طلاب اسرائيليون في المرحلة الثانوية لقضاء عدة اسابيع لدراسة الديانة اليهودية · كذلك يوجد هناك قسم خاص للطلاب الامريكيين المختصين بدراسة الديانة اليهودية · وفي مارس عام ١٩٧٧ تم افتتاح كنيس على شرف رئيس دولة اسرائيل افرايم كتسير ·

اما مستعمرة العازار فقد أسست في اكتوبر عام ١٩٧٥ وهي الآن مركز للابحاث العلمية خصوصا في مادتي الفيزياء والكيمياء · اما المستعمرتان الاخريان في « بلوك عتسيون » فقد خطط لهما ان تكونا مناطق زراعية ·

وبالنسبة للمستعمرات الاخرى فهي كريات اربع ، متسفيه شاليم ، وناحال تيكوع ، وتطل مستعمرة كريات اربع على مدينة الخليل ويقطنها يهود متدينون · ان وزارة الاسكان الاسرائيلي تنفق اموالا طائلة على هذه المستعمرة وذلك لقوة نفوذ رجال الدين الاسرائيليين على الحكومة · ومن الجدير بالذكر ان وحدات السكن في مستعمرة كريات اربع افضل بكثير مما هو الحال في اي مستعمرة في الضفة الغربية · وبالنسبة لمستعمرة متسفيه شاليم فتقع على شاطىء البحر الميت ويسكنها ايضا متدينون وهي منطقة زراعية · واخيرا هناك مخطط لبناء طريق يبدأ من مستعمرة كريات اربع مارا بمستعمرة ناحال تيكوع الزراعية الواقعة شرقي « عتسيون » لتصل الى المنطقة الصناعية ميشور ادوميم على طريق القدس أريحا ·

ان الهدف من بناء هذه المستعمرات السبع هو ملء الفراغ في منطقة يهودا Judea الصغيرة المساحة والسيطرة عليها ·

وفي شرقي القدس بدأت اسرائيل في عام ١٩٧٥ ببناء منطقة صناعية في الخان الاحمر في منتصف طريق القدس ـ اريحا واسمها معاليه ادوميم · وفي شهر فبراير ١٩٧٧ تغير اسمها واصبح ميشور أدوميم · ان الاستعدادات لهذه المنطقة الصناعية ضخمة جدا ، فلقد تمت تسوية الاراضي ، ووصل جهاز ري وكهرباء وخطوط هاتف بالاضافة الى عمل طرق فرعية داخلها · وفي شهر مارس ١٩٧٧ تمت اقامة ثماني بنايات للمصانع التي ستقوم في المنطقة · وهناك ايضا مخطط لبناء وحدات سكنية للعمال ، كذلك هناك منطقتان عسكريتان كبيرتان شرقي وغربي المنطقة الصناعية المذكورة على التلال المجاورة والمطلة على المنطقة · بالاضافة الى كل هذا هناك مخطط لبناء طريق وخط حديد بين تل ابيب ـ القدس ابتداء من اللد مارا شرقا نحو مدينة الرملة الى رام الله حيث يصل الى طريق رام الله القدس الحالي مقابل مستعمرة النبي يعقوب · وسيتم بناء طريق فرعية من هذا الخط ليصل الى المنطقة الصناعية ميشور أدوميم ·

اما في البلدة القديمة لمدينة القدس فتقوم السلطات الاسرائيلية بتجديد وتطوير الحي

اليهودي • ففي ١١ حزيران ١٩٦٧ هدمت السلطات ١٣٥ بيتا كان يسكنها ٦٥٠ عربيا تقـع بالقرب من الحائط الغربي للبراق حتى تصبح المنطقة ملائمة لاقامة الصلوات اليهودية علمـا بأن هذه البيوت ملك للاوقاف الاسلامية • وفي ١٤ حزيران هدمت السلطات ٢٤ بناية اخرى في نفس المنطقة لانشاء ساحة امام حائط المبكى • كذلك في اغسطس عام ١٩٦٧ شرعـت اسرائيل باقامة مؤسسات يهودية في الحي اليهودي مثل محكمة دينية • وهناك مخطط لاعادة الحي اليهودي الى الحجم الذي كان عليه عام ١٩٠٠ (وهو ضعف الحجم الذي كان عليه الحي عام ١٩٤٨) • ولهذا صادرت اسرائيل في ابريل عام ١٩٦٨ حوالي ٦٠٠ بناية عربية في الحي اليهودي تشمل مسجدين ومقرين اسلاميين واربع مدارس و ٤٠٠ مخزن وبيوت لستة الاف عربي • ومن الجدير بالذكر ان هذه المنطقة المصادرة تعادل حوالي ٢٠٪ من مجموع مساحة القدس القديمة • وفي هذه المنطقة تخطط اسرائيل لاستيعاب ٦٠٠ عائلة يهودية بمن في ذلك ١٠٠٠ طالب من الطلاب المتدينين • وتعود ملكية المنطقة المذكورة لاهلها العرب الـى عدة قرون وان العديد من السكان العرب في هذا الحي يقطنونه قبل عام ١٩٤٨ ومنذ مـدة طويلـة •

حاول بعض السكان العرب مقاومة مصادرة الاراضي لكن معظمهم اضطر للخضوع نتيجة لضغط السلطات كالحرمان من الماء والكهرباء ومن ثم هدم اقسام من بيوتهم مما اضطرهم الى قبول تعويضات او مساكن بديلة في مناطق اخرى او النزوح دون قبول اية تعويضات •

وبدأ الحي اليهودي يضايق ويكتسح الحي الارمني المجاور له في الجهة الغربية والحـي الاسلامي في الجهة الشمالية حيث تهدد الحفريات الاسرائيلية القائمة حتى الآن العديد مـن الابنية بالانهيار بما في ذلك ابنية لمؤسسات اسلامية •

مستعمرات غور الاردن تصعد الجبال :

يوجد في غور الاردن ومنطقة السامرة ٢٧ مستعمرة يهودية • منها ست وعشرون شرعية او قانونية من وجهة نظر الدولة ومستعمرة واحدة غير قانونية تدعى كفر قدوم (٤) •

ان اغلبية المستعمرات في غور الاردن لا تقع في الوادي ولكن على الجبال التي تطل عـلى

---

(٤)ان جميع المستعمرات الشرعية وغير الشرعية مدعومة ماديا من قبل الحكومة • يبلـغ عدد سكان مستعمرة كفر قدوم حوالي ٢٠٠ شخص معظمهم ينتقلون يوميا الى اعمالهم في مدينة تل ابيب واماكن اخرى • اما باقي السكان فيعملون في المصانع الصغيرة التـي انشئت هناك كمصنع الادوات الدينية Mezuzah التي تباع محليا وخارج البلاد تحت اشراف جيش الدفاع الاسرائيلي • في بداية الامر قيل للمستوطنين ان يقيموا في المناطق العربية التي صودرت شرقي نابلس ، لكنهم رفضوا ذلك واصروا على البقاء في كفر قدوم• ذكرت جريدة معاريف الاسرائيلية في شهر اغسطس عام ١٩٧٦ ما يلي :« ان الطرق في كفر قدوم قد عبدت، لقد مدت الكهرباء وانتهى بناء مجاري المياه كذلك ازهرت البساتين حول المنطقة • ان المؤسسات العامة كمركز الصحة والتعليم والمكتبة قد بدأ العمل فيهـا كذلك بدأ العمل في مصنع الحديد ومصانع اخرى صغيرة لصنع الثياب واشياء اخرى •• كل ذلك يكون القاعدة الاقتصادية لمنطقة كفر قدوم •

الوادي · وفي الحقيقة يمكن للفرد ان يميز ثلاثة خطوط من المستعمرات من الشمال الى الجنـــوب ·

الخط الاول يقع في منطقة وادي غور الاردن ويتكون من المستعمرات الثلاث عشـــرة الآتية:محولة ،ناحال روعيه،(بقاعوتب)، ارجمان،مسؤه،بتسائيل، تومر،جلجال،نتيف‌هجدود، مفتسيم ، ناحال نعران (يطاف) (٥) ، الموج ، قليه ، متسفيه شاليم ·

اما الخط الثاني فهو مبني على الجبال العالية حول طريق خاص اسس حديثا ويسمى « بالطريق الاوسط » (٦) (كفيش هبينايم) ، ويتكون من المستعمرات الاحدى عشرة التالية: بقاعوت ، حمره ، مخورا ، جتيت ، معاله افرايم ، جفعات ادوما (مفوشيلو) ، كوخاف هشاحر ، ريمونيم (ملتقى طريق الون : القدس – اريحا) ، مشور ادونيم ، قليه ب ، وناحال تيكوع ·

اما الخط الثالث فما زال غير كامل مع العلم انه تم مصادرة ارض لهذا الخط في جبل الطويل جنوب شرقي رام الله – البيرة وفي مناطق شرقي مدينة نابلس وشرقي مدينـــة طوباس · ويمتد هذا الخط بمحاذاة طريق رام الله – نابلس وسيضم المناطق والمستعمرات التالية : عفره ، ناحال ملكيشوع · وحديثا صودرت اراضي قرية مسحة لهذا الهدف (٧) ·

لقد اثبت الاستقصاء الشخصي لهذه المناطق أن اغلبية المستعمرات لها مميزات عديدة مشتركة · كل واحدة منها بما فيها المستعمرات المدنية محاطة بسياج ضخم الحجم وقـرب كل مستعمرة هناك أبراج مراقبة ومخيم جيش مرتبط بطريق فرعي مع الطريق العمومـــي لتلك المستعمرات ·

والمستعمرات صغيرة نوعا ما وتتكون عادة من ٢٠ – ١٠٠ بيت ولكن الاموال التـــي انفقت عليها كبيرة جدا · فمثلا ، كل بيت يحتوي مكيف هواء والبيوت المبنية في وادي الاردن مزودة بجهاز قوي خصوصي للتكيف مع حرارة المنطقة · ان لكل بيت واحيانـــا لكل بيتين ملجأ يحتوي على مكيف هواء مثبت بالارض وموصل بواسطة طريق معبد الـــى ساحة كل بيت · هناك ايضا صفوف من الاضواء الكهربائية داخل المستعمرة وحول سياجها يفتخر المستوطنون بأنها تظل مضاءة طوال الليل · أما داخل المستعمرة فهناك في وسطها

---

(٥) منذ شهر ديسمبر ١٩٧٦ أصبحت المستعمرة للسكان المدنيين ولهذا تغير اسمها الـــى يطـــاف ·

(٦) قام وزير خارجية اسرائيل مؤخرا بجولة في الطريق الاوسط واعلن انه يوجد مخـطط لانشاء مدينتين في منطقة غور الاردن ، وقال : « النهر ، الوادي ، التلال ، والجبـــال جميعها تكون استراتيجية عظيمة »· ومنذ ذلك الوقت سميت منطقة الطريق الاوســـط « بطريق الون » · جريدة عل همشمار الاسرائيلية · ديسمبر ١٩٧٦/٢٩ ·

(٧) تقع قرية مسحة على بعد ٣٤ كلم جنوب غربي مدينة نابلس وتحيط بها اراضي قرى بديا وسينرية والزاوية · تبلغ مساحة القرية حوالي ٨٢٦٣ دونما منها اربعة دونمات للطرق والوديان· يزرع فيها بعض الحبوب لكن حوالي ١٣٤٥ دونما من اراضيها مغروســة بأشجار الزيتون و ٢٥٠ دونما مغروسة بأشجار الفواكه واكثرها من التين واللوز · جريدة القدس ، عدد ٣ مارس ١٩٧٧ ·

أرض مغطاة بالحشيش الاخضر وبسبب الطقس شبه الصحراوي تستخدم كمية كبيرة من الماء وقدرا كبيرا من العمل المتواصل لابقاء الحشيش اخضر · ان أول عمل يقوم به المستوطنون هو عرض هذه المنطقة للزوار بافتخار ·

الخدمات الاجتماعية في المستعمرات كالمطابخ والنوادي وغرف الجلوس والطعام كلها مزودة بمكيفات هواء واشياء ترفيهية وممتعة موجودة في كل مستعمرة مهما كانت صغيرة · ان قاعة الطعام مثلا في مستعمرة جتيت تتسع لـ ٣٠٠ عائلة · ان عدد سكان معظم المستعمرات صغير لان معظم المستوطنين يتركون المستعمرات بعد وقت قصير من مجيئهم · لكن الحكومة الاسرائيلية تعد مستوطني هذه المستعمرات بزيادة عدد سكانها ·

جميع المستعمرات موصولة بالشارع الرئيسي بشوارع معبدة حديثا وتصل فقط الى هذه المستعمرات · ان أغلبية المستوطنين يظهرون أغنياء بالمقارنة مع المستوى الاسرائيلي · وعند البحث عن مصدر معيشة المستوطنين سألنا بعضهم وأعطينا عدة اجابات : في مستعمرة « نتيف هجدود » البالغ عدد سكانها حوالي ١٧ عائلة يهودية مثلا ، قيل لنا بفخر ان الحكومة اعطت كل عائلة في المستعمرة ٣٠ دونما من أراضي غور الاردن العربية على شرط ان يبقوا هناك وكثير من المستعمرات أعطيت هذه الاراضي بهذه الطريقة ·

وقد ذكر لي احد المستوطنين ان القلائل منهم الذين يضحون ويستقرون في هذه المستوطنات حاليا على ثقة من ان الاقبال على سكن هذه المستوطنات سيزداد خلال السنوات الخمس القادمة وان ذلك سيؤدي الى ارتفاع اسعار الاراضي ، وانه هو وربما غيره ايضا من المستوطنين الاوائل سيبيع أرضه في المستوطنة آنذاك ويعود ليستقر في احدى المدن الاسرائيلية ·

من الجدير بالذكر انه يمكن الملاحظة بأن القوى العاملة في بعض هذه المستوطنات هي من العمال الفلسطينيين العرب الذين أحضروا من جهات بعيدة لهذه الغاية · والمستوطنون اليهود لقلة عددهم يعملون فقط كمراقبين أو يعملون لتشغيل الالات الميكانيكية الثقيلة أو كحراس · ولكن وبدون شك لا يوجد لدى المستوطنين القدرة لحماية مستعمراتهم · ولذا يوجد في كل مستعمرة تقريبا قوة من جيش الاحتياط الاسرائيلي (ومعظمهم اكبر سنا من المستوطنين الذين تتراوح أعمارهم عادة بين ٢٠ ـ ٣٥ سنة) تقوم بمساعدة المستوطنين في حراسة مستعمراتهم ·

ويوجد لدى بعض المستعمرات مصانع تكون في معظم الاحيان مرتبطة بوزارة الامن · فمثلا يوجد في مستعمرة « مخورا » المبنية على الجبال مصنع لتصدير الاقفال لوزارة الامن · كذلك يصنع في مستعمرة «عفرة» العاب للاولاد الصغار ويافطات وبلوزات للسواح الاجانب مكتوب عليها « السامرة في قلب اسرائيل ، وعفرة مستوطنة عاملة في السامرة »· ان هناك التزاما من قبل الحكومة الاسرائيلية لتوفير الشروط المريحة لجميع المستعمرات الشرعية أو غير الشرعية بغض النظر عن الربح الاقتصادي الناتج عن صناعات هذه المستعمرات ·

يمكن تلخيص الوضع في الضفة الغربية كما يلي : نشرت الحكومة الاسرائيلية خريطة للضفة الغربية بحدودها قبل حزيران ١٩٦٧ في الجريدة الاسرائيلية يديعوت أحرونوت ١٢/ ٥ / ١٩٧٦ والخريطة تظهر ان الضفة الغربية مقسومة الى جزيرتين · المنطقة الشمالية

يحدها خط من المستعمرات يوازي خط طريق رام الله / البيرة ـ نابلس ـ طوباس ـ جنين . كذلك يحد هذه المنطقة منالجنوب خط شرقي ـ غربي من المستعمرات يمر من جنوب رام الله / البيرة تقريبا . وأخيرا يحدها من الاتجاه الآخر الخط الاخضر (اسرائيل) .

هذه المنطقة تسمى حاليا من قبل الحكومة بالسامرة samarie وهي محاطة كليـا بمستعمرات يهودية أسست على أراض عربية منذ حزيران عام ١٩٦٧ ، ومحاطة باسرائيل من جهة الغرب . وهذا هو الوضع تماما بالنسبة للمنطقة الجنوبية للضفة الغربية التـي تسمى رسميا يهودا .

هاتان المنطقتان الشمالية والجنوبية مفصولتان حاليا بما يسمى منطقـة « القدس الكبرى » التي هي ايضا محاطة بحزام من المستعمرات اليهودية .

ان كل هذه العمليات الاستيطانية ، وبناء الطرق المختلفة وكذلك استثمار الامـوال الطائلة في هذه المستعمرات لهي ظاهرة بأن الاستيطان الاسرائيلي دائم . فاسرائيل ماضية في سياستها المعروفة والتي تتلخص في خلق واقع جديد لصالحها لوضع العرب والعالـم امام الامر الواقع .

المستوطنات المستقبلية المحتملة :

أ ـ **وادي الاردن** : يوجد في الوقت الحاضر ، حوالي ٩٠٠ مستوطن يهودي في الوادي مقابل ١٨٫٠٠٠ عربي في منطقة اريحا وحوالي ٢٫٠٠٠ عربي على طول الطريق بالقرب من نهر الاردن (معظمهم في العوجا) ومع ذلك فان حوالي ٧٠ـ٨٠٪ من اراضي الوادي في العوجا شمالا مرورا ببردلا تعتبر مصادرة لاقامة مستوطنات اسرائيلية عليها ، ومعظـم هذه الاراضي هي من اراضي الحكومة الاردنية سابقا او في املاك الغائبين . وقد وافقت لجنة الاستيطان الوزارية ، في حزيران ١٩٧٦ ، على اقامة مستوطنة جديدة قرب كاليا (رقم ١٨) ومستوطنتين جديدتين قرب كوخاف مشاحر (رقم ١٧) على طريق « حدود الاستيطان » . وسوف تكون هذه المستوطنات بمثابة مستوطنات حراسة (ناحال) بشكل رئيسـي .

ب ـ **مجمع اتزيون** : مستوطنة خامسة (مغداد ١٫٠) هي قيد الانشاء وهناك مستوطنة سادسة (افرات) في مرحلة التخطيط .

جـ ـ **بيت جالا ـ هارجيلو** : اقترحت وزارة الاسكان اقامة هذه المستوطنة لاستيعـاب ٢٠٠ ـ ٥٠٠ عائلة في هارجيلو بالقرب من مدرسة تدريب اسرائيلية على الجانب الغربي من بيت جالا . ولقد تمت مصادرة ٨٠٠ دونم في تشرين الاول ١٩٧٥ وتم « اغلاق » ٤٠٠ دونم اخرى في ايلول ١٩٧٦ . وسوف تمر بالقرب من هارجيلو الطريق الشمالية ـ الغربية التي تصل القدس ـ جيلو بمجمع اتزيون والتي هي قيد البحث الان .

د ـ المنطقة التي تربط اللطرون ومدعين من جهة وجيب ـ حيفون والبيرة من جهةاخرى:
اقرت وزارة الاسكان وادارة الاراضي الاسرائيلية والمنظمة الصهيونية العالمية وسلطـات القدس . خططا مختلفة لاقامة مجمع مستوطنات على طول الشريط الشمالي للقدس القديمة (ما قبل ١٩٦٧) . والبلدة المحتملة ستكون في (جيب) جيفون او الى الغرب اكثر في منطقة بيت حورون (جبل المقطم) ، على بعد كيلو مترين شمالا من « الخط الاخضر » .

وبالنسبة لهذه المنطقة تدرس الان امكانية الاوتستراد وخط سكة الحديد الجديد الذي سيصل القدس بالساحـــل ·

تم (اغلاق) ارض جبل الطويل على الطرف الشرقي للبيرة في ايلول ١٩٧٦ حيثقررت وزارة الاسكان انشاء مستوطنة · وكذلك قررت الوزارة اقامة مستوطنة جديدة على المنحدر الشمالي للنبي صموئيل (قرب راموت ، رقم ٣٤) ، اما ادارة الاراضي الاسرائيليـــة فانها تود اقامة مناطق سكنية في المنطقة الفاصلة بين نعني يعقوب وفرينش هيل ، خطــة استيطان خماسية تشمل مستوطنة شمال شرق مدعين ·

هـ ـ السامرة : خطة استيطان خماسية (تشرين الاول ١٩٧٦) تشمل اقامة مستوطنة قرب جنين ومستوطنة اخرى شرق طولكرم . ومن المحتمل اقامة مستوطنة (ناحال) فـي شيلوه حيث تم « اغلاق » مساحة ٤٠٠ دونم من جانب القيادة العسكرية ايلول ١٩٧٦·

و ـ سامو (اشتاموا) : لتعزيز مجمع بئر السبع ـ ديمونـسا ـ اراد ، قررت ادارة الاراضي الاسرائيلية في اذار ١٩٧٦ اقامة مدينة في اشتاموا على بعد ٥ كيلو متـــرات شمال « الخط الاخضر » في مرتفعات يهودا الجنوبية ·

المستوطنات الاسرائيلية في الضفة الغربيه :

١ ـ أ ـ ناحال مالكي يشوع

١ ـ ب ـ ميمولا

٢ ـ ناحال روعيه (قيد الانشاء) ·

٣ ـ بيقيعوت

٤ ـ حمدة

٥ ـ ميخوراه

٦ ـ ارجمـــان

٧ ـ حقل للطيران (قيد الانشاء)

٨ ـ متسـوآه

٩ ـ جيتيت ·

١٠ ـ معاليه افرايم (مركز اقليمي) ·

١١ ـ فتسائيـــل

١٢ ـ تومـر (قيد الانشاء) ·

١٣ ـ جلجـــال

١٤ ـ ناتيف هاجدود (قيد الانشاء) ·

١٥ ـ ميغانسيم (مزمع انشاؤها) ٠
١٦ ـ ناحال نعاران (تبدل الاسم حديثا فاصبح يطاف) ٠
١٧ ـ كوخاف هشاحر
١٨ ـ كاليا وكاليا «ب» ٠
١٩ ـ معالي ادوميم ، ميشور ادوميم (القطاع الصناعي) ٠
٢٠ ـ عوفرا (« معسكر عمل ») ٠
٢١ ـ بيت ايل (قيادة عسكرية حكومية وليست مستوطنة) ٠
٢٢ ـ مفو ـ حورون (مستوطنة « غير شرعية ») ٠
٢٣ ـ ميفو هورون ٠
٢٤ ـ كندا بارك (منتزه وطني) ٠
٢٥ ـ متسفين شاليسم
٢٦ ـ ناحال تكوع
٢٧ ـ اليعازر
٢٨ ـ روش تسوريم
٢٩ ـ الون شفوت
٣٠ ـ كفار عبتسيون

(٢٧–٣٠) غوش اتزيون : المستوطنة الخامسة ، مغداد أ٠ر٠ قيد الانشاء ٠ المستوطنة السادسة ، افرات ، قيد التخطيط ٠

٣١ ـ كريات اربع
٣٢ ـ عطاروت (القطاع الصناعي) ٠
٣٣ ـ نفيه يعقوب
٣٤ ـ رامـوت
٣٥ ـ رامات ايشكول
٣٦ ـ فرينش هيل
٣٧ ـ غيلو

(٣٣–٣٧) « ضواحي » حول القدس ٠

٣٨ ـ تلفيوت الشرقية
٣٩ ـ الحي اليهودي (المدينة القديمة) ٠
٤٠ ـ الموج
٤١ ـ جفعاه ادوماه ـ مفو شيلو
٤٢ ـ ريمونيـم ٠
٤٣ ـ فشـا ٠

اسم المستوطنة	تاريخ انشائها	موقعها	تصنيفها	القاعدة الاقتصادية	اصحاب الارض الاصليون
١ – أ – ناحال مالكي يشوع	كانون الثاني ١٩٧٦	جنوب جبل جلبوا : على الطريق القادم من بيت شيمان	ناحال	(غير محدد)	—
١ – ب – ميحولا	شباط ١٩٦٨ (انشئت أساساً على الهضبة)	الطرف الشمالي لوادي الأردن تغطي الطريق إلى طوباس	ناحال حتى تشرين الثاني ١٩٦٩ ثم تحولت إلى موشاف ن.ر.ب. (هابويل ها مزراحي)	ثمار مختلفة ، عنب ، مزارع ديوك رومية ، معمل للمعادن ؛ فيها ٨٠ – ٩٠ شخصاً من شمال أفريقيا	١٥٠٠ دونم من بردالا بالإضافة إلى أرض من تل البيضا ؛ ويذكر أن آبار ميحولا تستهلك مياه القريتين المذكورتين بكاملها .
٢ – ناحال دوعيه	آذار ١٩٧٤	الطرف الشمالي لطريق « حدود الاستيطان »	ناحال كانت تدعى في السابق بيقيعوت « ب »	—	—
٣ – بقيمون	تموز ١٩٧٢	الطرف الشمالي لطريق « حدود الاستيطان »	موشاف (أحود)	دواجن ، خضار حمضيات خضار ، أزهار .	–
٤ – حمره	أيار ١٩٧١	طريق « حدود الاستيطان » طريق جسر دامية – نابلس	موشاف (أحود)	دواجن ، حمضيات وهناك معمل للمعادن ، يقطنها ٨٠ – ٩٠ شخصاً	واقعة في وادي لوش : الأرض من قرية اب النقب

اسم المستوطنة	تاريخ انشائها	موقعها	تصنيفها	القاعدة الاقتصادية	اصحاب الارض الاصليون
٥ – ميخوراه	آذار ١٩٧٣	«حدود الاستيطان» جنوب همراه	ناحال حتى تموز ١٩٧٦ثم تحولت إلى موشاف (احود تشتمل على ١٧ – ١٨ وحدة سكنية ثنائية).	٢٠٠ دونم من الخضار، وفاكهة في الوادي	الأرض من باب النقب، بيت دجن، بيت فوريك وقد تم تشييد مصنع أقفال فيها .
٦ – ارجمان	تشرين الثاني ١٩٦٨	طريق الوادي بالقرب من نهاية طريق دامية – نابلس	ناحال حتى أيار ١٩٧١ ثم تحولت إلى موشاف (حيروت)	خضار، فاكهة، وهناك ٤٠٠ دونم تم استصلاحها لزراعة أشجار الفاكهة .	الأرض من مرج النجا (١٠٠٠ دونم ؟) .
٧ – حقل للطيران	١٩٧٦ (قيد الانشاء)	تجاه جفتلك في وادي الأردن .	———	———	———
٨ – ميسوآه	كانون الثاني ١٩٧٠	تجاه جفتلك على طريق الوادي .	ناحال حتى أيار ١٩٧٤ ثم تحولت إلى كيبوتز ليبرالي مستقل .	خضار، بركة سمك. يقطنها ٦٠ – ٨٠ شخصاً من شمال افريقيا	

٩ – جيتيت	آب ١٩٧٢	طريق (حدود الاستيطان) بالقرب من طريق وادي عقربة	ناحال حتّى كانون الاول ١٩٧٥ ثم تحولت إلى موشاف (حيروت)	خضار ، ثمار مختلفة ، يقطنها ١٠٠ مستوطن	الأرض من عقربة ، ٥٠٠ دونم مقفلة ومرشوشة بمبيدات عام ١٩٧٢ .
١٠ – معاليه افرايم	تموز ١٩٧٢	طريق (حدود الا ستيطان) بالقرب من طريق وادي عقربة .	عاش مستوطنو فتسائيل هناك حتّى منتصف عام ١٩٧٥ ثم أصبح هناك فريق صيانة مؤقت حتّى عام ١٩٧٦ يعمل على إنشاء المركز الا قليمي ، حيث تشمل المرحلة الأولى منه على بناء ١٥٠ وحدة سكنية والمرحلة الثانية ٥٠ وحدة سكنية تكتمل في أواخر عام ١٩٧٧		—
١١ – فتسائيل	كانون الأول ١٩٧٠	طريق الوادي ، تغطي الطريق من عقربة .	موشاف ؛ كانوا سابقاً في معالي افرايم حتّى نيسان ١٩٧٥	خضار شتوية للتصدير ، ثلاثة آبار ، سعة كل منها ٦٠٠ متر مكعب . تقيم فيها ١٠٠ عائلة	جزء من الأرض من فتسائيل .
١٢ – تومر	١٩٧٦ (قيد الا نشاء)	طريق الوادي ، بين فتسائيل وجلجال .	—	—	—
١٣ – جلجال	كانون الثاني ١٩٧٠	طريق الوادي .	ناحال حتّى أيار ١٩٧٣ ثم تحولت إلى كيبوتز .	خضار ، حمضيات ، دواجن ، وثمار	—

اسم المستوطنة	تاريخ انشائها	موقعها	تصنيفها	القاعدة الاقتصادية	اصحاب الارض الاصليون
				مختلفة ، ٣٣٠ دونماً ، ٣٠ مبنى ، ١٢ – ١٥ منهم للسكن اعتمادهم على الماء من وادي الأردن .	
١٤–ناتيف هاجدود	١٩٧٦ (قيد الانشاء)	طريق الوادي إلى الجنوب من جلجال .	ناحال ومن المنتظر أن تصبح موشاف .	٣٠ وحدة سكنية (قيد الانشاء) لتصبح موشاف	—
١٥ – ميفا تسيم	١٩٧٦ (تقرر انشاؤها)	طريق الوادي بالقرب من العوجا التحتا .	—	—	—
١٦ – ناحال نعاران أو يحطاف	كانون الأول ١٩٧٠	إلى الغرب من الوادي بالقرب من العوجا الفوقا .	ناحال حتى تشرين الأول ١٩٧٦ ثم تحولت إلى كيبوتز	خضار ، وثمار مختلفة في الوادي	الأرض من العوجا الفوقا والعوجا التحتا ١٢ وحدة سكنية ثنائية
١٧ – كوخاف هشاحر	١٩٧٥	طريق « حدود الاستيطان » ، شمال شرقي رام الله .	موقع عسكري سيصبح ناحال وبالتالي كيبوتز	المياه من عين سامية التي تشكل المصدر الوحيد لمياه رام الله .	الأرض من دير جرير ومن كفر مالك .

١٨ – كاليا وتدعى أيضاً الموج	شباط ١٩٦٨ ثاني مستوطنة في الوادي	شمال غرب شاطيء البحرث الميت (نقلت غرباً في أيار ١٩٧٥). برك سمك في عين فشكا، ٧ كيلومترات إلى الجنوب. المياه من وادي كيلت إلى الغرب من أريحا.	ناحال ثم أصبحت كيبوتز في عام ١٩٧٥	خضار، زراعة الأشجار، ديوك رومية، مزارع الدواجن، كروم العنب.	مستوطنة يهودية ١٩٣٦ – ١٩٤٨ ثم أصبحت معسكراً للجيش الأردني.
١٩ – معالي أدوميم	تشرين الثاني ١٩٧٤ (بموافقة الحكومة)	طريق القدس – أريحا الطرف الجنوبي لطريق «حدود الاستيطان».	مركز صناعي؛ يقطنها ٥٠ مستوطناً من جويش أمونيوم، وهناك قاعدة عسكرية ومخطط اسكان لاستيعاب ٢٥٠٠ عامل.	هناك حوالي ٦٠ مستوطناً قدموا في أواخر عام ١٩٧٥	«أغلق» صندوق التنمية الاسرائيلي مساحة – ٧٠,٠٠٠ دونم. في تشرين الأول ١٩٧٢ كانت الأرض بمعظمها حكومية. تمت مصادرات جديدة في نيسان وتموز ١٩٧٥ وذلك من أملاك أبو ديس وعزاريا.
٢٠ – عوفرا (وتدعى أيضاً بمال حتسور)	أيار ١٩٧٥	طريق رام الله – أريحا	«معسكر عمل»: المستوطنون من جوش أمونيوم	مشاغل؛ كان يقطنها ١٠٠ شخص في أيار ١٩٧٦	قاعدة عسكرية أردنية. من أراضي عين يبرود؛ ٥٠ دونماً من الأراضي الزراعية.

اسم المستوطنة	تاريخ انشائها	موقعهـا	تصنيفها	القاعدة الاقتصادية	اصحاب الارض الاصليون
٢١ – بيت – إيل	١٩٦٧	على طريق نابلس – رام الله ، إلى الشمال من رام الله .	قيادة عسكرية حكومية	–	مجمع طبي حكومي أردني
٢٢ – قدوم (ايلون موريه)	كانون الأول ١٩٧٥	بين نابلس وقلقيلية : في « قلب » السامرة .	مستوطنة غير شرعية أقامتها جوش أمونيم	مشغل عسكري كان يقطنها ١٢٠ شخصاً في نيسان ١٩٧٦ .	قاعدة عسكرية أردنية : من أراضي كفر قدوم
٢٣ – مفو – حورون	كانون الثاني ١٩٧٠	قلعة اللطرون .	موشاف دينية (حركة أزرا) يقطنها حوالي ٨٠ شخصاً أو أكثر	ثمار مختلفة ، وأشجار فاكهة .	يالو ، عمواس ، بيت نوجا ؛ وهي القرى التي دمرها الجيش الاسرائيلي بعد حرب حزيران ١٩٦٧ .
٢٤ – كندا بارك	نيسان ١٩٦٧ (الافتتاح الرسمي)	قلعة اللطرون .	منتزه الصندوق القومي اليهودي	٤٢٠٠ دونم (بما فيها ١٥٠٠ دونم من أشجار الفاكهة) من يالو ، عمواس وبيت نوجا .	
٢٥ – متسفيه شاليم	كانون الأول ١٩٧٠	الشاطىء الغربي للبحر الميت .	كيبوتز ناحال	أشجار نخيل ، خضار	الأرض الزراعية بمحاذاة البحر الميت .
٢٦ – تكوع	حزيران ١٩٧٥	جنوب شرق بيت لحم	ناحال دينية	القاعدة الاقتصادية غير محددة السكان بأكلهم يرتدون زيا موحداً .	أرض مصادرة .

٢٧ – اليعازر	تشرين الأول ١٩٧٥	شمالية – معظم الاستيطان في جوش .	موشاف دينية (بني أكيفا)	مختبر كيماوي مصنع للالعاب (قيد التخطيط) كان يقطنها في أيار ١٩٧٦، ٢٠ عائلة(٩٠ شخصاً) من الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا .	٣٥٠ دونماً من الأراضي المزروعة بالكروم مصادرة من قرية حضر عـــام ١٩٧٣
٢٨ – روش تسوريم	تموز ١٩٦٩	مجمع اتزيون	كيبوتز ديني : يقطنها ١١٠ أشخاص	مزرعة ديوك رومية	كانت مستوطنة يهودية قبل عام ١٩٤٨ : عين تزوريم .
٢٩ – الون شفوت	تموز ١٩٦٩	مجمع اتزيون	مركز اقليمي ، ديني . يقطنها ٢٢٥ طالباً و ١٠٠ عائلة .	لا قاعـــدة اقتصادية ، افتتحت في أواخر عام ١٩٧٢	١٢٠٠ دونم مصادرة عام ١٩٦٩ .
٣٠ – كفار عتسيون	أيلول ١٩٦٧	مجمع أتزيون	كيبوتز ديني	مزرعةديوك رومية ،مصنع . كان يقطنها ٢٠٠ شخص في ربيع عام	مستوطنة يهودية ١٩٤٣ – ١٩٤٨ ثم تحولت إلى قاعدة عسكرية أردنية .

اسم المستوطنة	تاريخ انشائها	موقعهـا	تصنيفها	القاعدة الاقتصادية	اصحاب الارض الاصليون
				١٩٧٥ (١٠٠٠ شخص في المجمع ككل بما فيهم ٢٢٠) طالباً في مدرسة دينية .	
٣١ – كريات أربع	١٩٧٠ (مستوطنة غير شرعية منذ نيسان ١٩٦٨) .	الخليل	دينية ، مدينة	مصانع تتعامل تجارياً مع القدس ؛ كان يقطنها في أيلول ١٩٧٦، ١٥٠٠ شخص، كذلك أنجز بناء ٤٠١ وحدة سكنية منها ٨٩ وحدة خالية .	قرب المركز اليهودي الذي كان قائماً قبل عام ١٩٤٨ ؛ الأرض مصادرة من مواطنين عرب من الخليل وحلحول.
٣٢ – عطاروت	–	شمال القدس ؛ بالقرب من اقارات ، مطار قلندية .	قطاع صناعي	٢٠ مصنعاً . أثاث ، حقائب اسمنت . سوف تمتد غرباً حيث ستتضاعف مساحتها.	الأرض مباعة أو مصادرة.

٣٣ – نفيه يعقوب	١٩٧٣	شمال القدس ، بالقرب من شعفاط .	منطقة سكنية : كان يقطنها في آب ١٩٧٦ ، ٨٠٠٠ نسمة .	—	كانت مستوطنة يهودية قبل عام ١٩٤٨ .
٣٤ – راموت	١٩٧٣	شمال غرب القدس قرب النبي صموئيل .	منطقة سكنية . مخطط لانشاء ٨٠٠٠ وحدة سكنية تم انجاز ٤٣٦ وحدة منها في تموز ١٩٧٦	٧٥٠ عائلة في عام ١٩٧٦	الأرض مباعة أو مصادرة
٣٥ – رامات أيشكول	١٩٦٨	شمال القدس .	منطقة سكنية . مخطط لانشاء ٢٤٠٠ وحدة سكنية ، تم انجاز ١٨٠٠ وحدة منها في تموز ١٩٧٥ ووصل العدد إلى ٢١٠٠ في تموز ١٩٧٦ .	–	مصادرة بكاملها
٣٦ – فرينش هيل	١٩٦٩	شمال القدس ، على الطريق إلى رام الله ، تتصل بجبل المكبر .	منطقة سكنية	–	الأرض مصادرة (عام ١٩٦٨ – ١٩٦٩ تمت مصادرة ٣٥٠٠ دونم لرامات ايشكول وفرينش هيل : الثلث أراض عربية . الثلث أراض يهودية . الثلث من أراضي الحكومة الأردنية أو أراضي

اسم المستوطنة	تاريخ انشائها	موقعهــا	تصنيفها	القاعدة الاقتصادية	اصحاب الارض الأصليون
					مؤسسات خاصة . كذلك تمت مصادرة ١١،٦٨٠ دونماً في آب ١٩٧٠ وذلك « للضواحي » في شمال وجنوب القدس .
٣٧ – غيلو	١٩٧٣	جنوب القدس ، بين بيت صفافا وبيت جالا	منطقة سكنية ؛ مخطط لانشاء ١٠،٠٠٠ وحدة سكنية	تم انجاز ٧٧٩ وحدة سكنية في تموز ١٩٧٥ وصل العدد إلى ١٠٠٠ وحدة . من المتوقع افتتاح نزل للمهاجرين	—
٣٨ – تلبيوت مزراح	١٩٧٣	القدس الشرقية ، المنحدر الجنوبي للمرتفع الحكومي بالقرب من أبو طور وسورباهر	منطقة سكنية ؛ مخطط لانشاء ٣،٠٠٠ وحدة سكنية ، تم انجاز ٦٣٧ وحدة منها في تموز ١٩٧٥ ووصل العدد إلى ١،٠٠٠ وحدة في تموز ١٩٧٦ .	—	—

٣٩ – الحي اليهودي (المدينة القديمة)	١٩٦٧	مدينة القدس القديمة	منطقة سكنية ويشيفوت ؛ كانت تقطنها في نيسان ١٩٧٦ ، مئتي عائلة .	–	الوقف الإسلامي ، الوقف العربي الخاص ، أراضي عربية ويهودية خاصة . تم تدمير ١٦٠ منزلا في حزيران ١٩٦٧ . تمت مصادرة ٦٠٠ مبنى في نيسان ١٩٦٨ ، تم تهجير ٢,٠٠٠ عربي حوالي عام ٧١ .
٤٠ – الموج	١٩٧٧	بالقرب من وادي الأردن .	كيبوتز	زراعية	–
٤١ – جفعاه – أدو ماه	١٩٧٧	واقعة على طريق الون بين جيتيت وكوهاف هاشاهار .	مدنية	–	–
٤٢ – ريمونيم	١٩٧٧	جنوب كوهاف هاشاهار على طريق الون حيث تتقاطع مع طريق رام الله – اريحا .	عسكرية	–	–
٤٣ – قسا	١٩٧٧	٣٤ كيلومتراً جنوب غرب نابلس .	زراعية	–	سكان القرية العرب .

مـراجعـات

تحليل نفساني لتاريخ الصهيونية

Jay Y. Conen, **A Psycho History of Zionism,**
(A Meridian Book : New American Library, U.S.A. 1975)

بعد التأويل اللاهوتي للصهيونية ، ظهر التأويل القومي لها كحركة من حركـــات التحرر في العالم ، تلاه بعد ذلك التأويل الفلسفي معتمدة تارة علـــى الفلسفـــة الوجودية وتارة اخرى علىفلسفة الظواهر، واخيرا وليس اخرا طلع علينا التأويـــل النفسي للصهيونية واسرائيل ·

وكما نرى فان المنظريـن الصهاينـــة يستعينون باخر الادوات العلمية لايقـــاف النظرية الصهيونية على قدميهـــا ، اي يستعملون كل ما هو جديد لتجميل وجـــه قديم ، وبذلك تتحول كـــل التأويـــلات الصهيونية الى عمل براجماتي هادف فـي خدمة الصهيونية، وتصبح النظريةمهما كانت جدتها وجديتها مجرد اداة لتبرير السياسة الصهيونية وتاريخها ، وتشوه النظريـــة وتحرف وتجهض كي تصبح موائمة لخدمة سياسة باطلة ، فبطلان السياسة يعكـس نفسه على النظرية فتصبح باطلة ·

من هذا المنطلق طلع علينا جاي غونين بكتابه «تحليل نفساني لتاريخ الصهيونية»·

ولد غونين في حيفا عام ١٩٣٤ ثم هاجـــر الى امريكا وحصل على الجنسية الامريكية واصبح مدرسا في احدى الجامعات هناك ·

وقد تكون هجرة غونين من اسرائيـــل الى الولايات المتحدة احد الاسباب التـي دعته الى تاليف كتابه ، فشرح الصهيونيـة وتأويلها ضروري خارج اسرائيل لا داخلها ·

وينطلق غونين في دراسته من مقولـــة تميز اليهودي في التاريخ ومكانه وســـط التيارات الثقافية والحضارية التي عاش فيها وتركت فيه اثرا معينا اي ركزتـــه كيهودي ، وانتجته كذات معينة ذات سلوك معين وبنيان نفسي معين ·

يستعرض غونين تاريخ اليهود منذ البدء ثم يسهب في شرح اسباب نشوء الحركة الصهيونية في اوربا ، فيحللها من الناحيـة النفسية والثقافية والسياسية ، الى ان يصل الى تاسيس دولة اسرائيل في فلسطين فيبحث في المشاكل الاساسية التي تواجهها اسرائيل كدولة ، والنتائج التي قد تتأتـى

من اهمال السياسة الاسرائيلية لكثير من الامور الهامة التي يمكن ان تعطي نتائج مدمرة لاسرائيل والصهيونية ·

يحلل غونين نفسية اليهود طبقا لنظريات فرويد في التحليل النفسي·فاليهود بالنسبة لغونين مصابون بعقدة اوديب التي تكمن في المزاحمة والتنافس ما بين الاب والابن على الام · فالصبي يريد ان يستأثر بالام وحده دون الاب · ويحب الام بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ·اي ان الابن بالنسبة لفرويد يكن لامه الحنان ويحبها ايضا جنسيا وحسيا ،لكن خوفه من الاب الذي قد يقتله اذا احب امه جنسيا او اظهر هذا الحب يقمع في الطفل الشعور الجنسي تجاه امه ويخبئه في لاوعيه ويظل القسم الاخر اي الحنان ظاهرا ومعترفا به ·

وبعد تحليله لنفسية اليهود يجد غونين ان مجتمعهم مبني على الركيزة الابوية (Patriarchy) ، فالاب هو المسيطر على العائلة ، وخوف الاولاد من الاب جعل هذا المجتمع اليهودي ينقل صورة الاب الى اله · فرب اليهود قوي للغاية ، محب ولكنه ايضا ينتقم من اولاده ، اي اليهود ، ان هم اساءوا اليه ، ولهذا شعر اليهود بان عليهم تقديم الضحايا الى يهوه كي يظل راضيا عنهم ان هم ارتكبوا خطأ مع الام · ورمز الام هو الارض او ارض اسرائيل ·

اذا عقدة اوديب التي تظهر جليا في المجتمعات الابوية هي ذاتها في المجتمع اليهودي الذي امن باله هو الاب الروحي وهو المنقذ وهو الذي اختار شعبه · ولكن اليهود (اي الاولاد) غالبا ما يتخلون عن الاب ويمالئونه بتقديم الضحايا · وهناك ادلة كثيرة تؤيد هذه النظرية · ومثال ذلك قصة ابراهيم في التوراة وكيف حاول ارضاء يهوه بتقديم ابنه قربانا على المذبح· وكذلك علاقة الختان بالدين اليهودي · فغونين يميل الى الاعتقاد بأن الختان ليس الا استبدالا للقتل او الخصي ·

وكما ان يهوه هو رمز الاب المضخم ، فرمز الام هو اسرائيل ، فاسرائيل بمثابة البيت ـ الوطن ، وكل ما هو دافيء ، آمن ومحب · اذا ، التقاليد العائلية لدى اليهود اتخذتطابعا دينيا ذا ابعاد خطيرة· فايمان اليهود بانهم شعب الله المختار ، وبأن هناك عهودا وعقودا لا تفصم ما بينهما ، ادى بالتالي الى اعتقادهم الراسخ بانهم سيعودون الى ارضهم ، واصبح هذا الاعتقاد خلال فترة « التشرد » حلمهم الدائم · والحلم كما هو معروف مغاير للواقع ، ولكنه في الوقت ذاته غير مقيد بزمان ومكان ،ولذلك استطاع اليهود البقاء كيهود مشتتين لانهم تعلقوا بالحلم ـ حلم عودتهم الى ما كانوا عليه قبل التشرد وهذا مما ساعد الصهيونية فيما بعد ، اذ ان الحلم بعث جديدا تحت مضامين ومفاهيم عصرية · وبنيت جسور حديثة امتدت الى الماضي البعيد ·

وكما ساعد الحلم في ترسيخ الصهيونية ، كانت له كذلك نتائج سلبية · فايمان اليهود بانهم شعب واحد من جهة ، ووجودهم في اوروبا مشتتين ، متناثرين من جهة اخرى ادى بهم الى حالة انفصام في الشخصية · ويصور لنا غونين حالة اليهود النفسية إبان التشرد بانها نفسية مضعضعة،مريضة· فاليهوديعتقدونبان لهم تراثا غنيا خلاقا وفريدا يميزهمعن غيرهم· وفي الوقت نفسه فهم لا يملكون اية قوة سياسية يستطيعون من خلالها ان يوجهوا دفة مصيرهم · وبما ان القوة الفعلية كانت في ايدي امم اخرى في اوروبا ،فلقد حاول الكثيرون من اليهود مجاراة المسيحيين ، اما بالتزلف اليهم واما بمسايرتهم والتطبع بعاداتهم الى درجة كره فيها اليهودي يهوديته وحاول التخلص منها ، وتمسكن وتذلل ليبقى على قيد الحياة · وحدا شعور اليهود بالاضطهاد

الى الاعتقاد بان اية حادثة تاريخية في العالم ، او اي تغيير او اية ثورة لا علاقة لها اساسا بالشعب اليهودي ومصيره ، سلبا كان ام ايجابا • ويرجع غونين هذا الشعور بالاضطهاد الى نفسية اليهودي الذي يحس بقلق عميق ازاء مصيره،وخوفه الشديد مما يخبئه له المستقبل ، وعدم ثقته بنفسه • وينتج عن ذلك ردة فعل قوية لدى اليهودي تتمثل بالكراهية والعداوة والانتقام وحب المنافسة والغلبة• وهكذا نجد عند اليهود عامة عاطفتين متناقضتين تتنازعان : كراهية يقابلها خضوع وخنوع ، وحب انتقام يقابله شعور بالنقص ، ومحاولة للوصول الى مبتغاهم يقابله عدم الثقة بالنفس •

وهناك شخصيتان لليهودي ابان تشرده: اليهودي خارج بيته وكيفية مواجهته للمجتمع الذي يعيش فيه ، واليهودي داخل بيته وفي بيئته المعينة • والشخصيتان غير منسجمتين بل متناقضتين وهذا مما ادى الى انفصام فى شخصية اليهودى • وازاء هذه الحالة وبعد اضطهاد اليهود في عديد من المرات في اوروبا كما يقول غونين ، احسوا انهم اذا لم يحركوا ساكنا ولم يحاولوا تغيير مصيرهم فانهم لا بد مندثرون ، وكان الحل نشوء الصهيونية• وبالرغم من ان الصهيونية هي حل سياسي بحت الا ان ركائزها دينية • لكنها في الوقت ذاته واجهت معاندة وتصلبا من رجال الدين اليهود الذين يؤمنون بان عليهم ان ينتظروا الحل من يهوه والا يتدخلوا في تقرير مصيرهم •

ويمعن غونين في تحليل نفسية مؤسس الصهيونية : تيودور هرتسل ، فيؤكد على نزعتين عند هرتزل • اولاهما انه كان يحب امه حبا جما لكنه لا يستطيع ان يحبها حسيا ، فعوض عن ذلك بحبه اللامتناهي لاسرائيل • وثانيهما ان هرتزل كان مقامرا من الدرجة الاولى ، انغمس في لعب الميسر كتعويض عن المشاكل العاطفية التي جابهته ، ومقامرته الكبرى كانت فكرة الصهيونية وتاسيس دولة اسرائيل •

الا ان غونين يتحيز ويتطرف حين يهاجم اعتراضات اليسار الذي يؤمن بان الصهيونية حركة استعمارية ورجعية • فغونين يعتبر الصهيونية « حركة ثورية » بنيت على ركائز ديمقراطية ، لا بل هي « الحركة الثورية الوحيدة التي نجحت في العالم » ! (انظر ص ٥٩ ـ ٦١) •

اذا ، ليست الصهيونية بالنسبة لغونين حركة سياسية بحتة بل هي ثورة • ومدلول الثورة كما نعرفه هو قلب جذري لبنى المجتمع وللمفاهيم السائدة وتحقيق العدالة الاجتماعية واحترام الفرد مهما كان وضيعا وتأمين مستوى ادنى من المعيشة للجميع• والمفاهيم الثورية عادة تتخطى قوميات معينة وتستطيع تطبيقها في اي بلد من البلدان ، فاين هي هذه المفاهيم الثورية التي قدمتها الصهيونية للعالم ؟ وان كان غونين يعتبر ان تغيير مصير اليهود وايجاد وطن لهم في فلسطين ثورة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ، فالرد واضح :

اولا ، كيف ننعت حركة غريبة احتلت وطنا بالقوة وهجرت اهله ؟ الا يسمى ذلك استعمارا ؟

ثانيا ، هل كانت معاملة الصهيونيين للفلسطينيين معاملة ثورية ؟ الم يشرد الفلسطيني ؟ الم يعامل من بقي منهم معاملة من هم ادنى من اليهودي ؟ الا تسمى تلك عنصرية ؟

ثالثا ، الم يستعمل الصهيوني على ارض فلسطين نفس الاساليب التي استعملت ضده في الغرب والتي كان اليهود يشكون منها وينبذونها ؟

رابعا ، ما مصير اليهود انفسهم في اسرائيل ؟هل يعاملون كلهم بنفس

السوية ؟ اوليس هناك تفرقة فاضحة ما بين اليهودي القادم من الغرب واليهودي ـ الشرقي ؟ وغونين لم يتطرق الى هذه المشكلة البتة وكأنها غير موجودة ·

ويندد المؤلف بالاساليب التي تستعملها اسرائيل ضد العرب عامة والفلسطينيين خاصة اذ انه يخاف ان ياتي يوم يستعمل فيه الاسرائيليون الاساليب نفسها ضد اليهود !

ويرى غونين ان الحركة الصهيونية تواجه مشاكل عديدة داخلية اهمها :

اولا ، كيفية التوفيق ما بين اسرائيل التي تريدها الصهيونية دولة عصرية ، مدنية من جهة والتراث الديني اليهودي من جهة اخرى ·

ثانيا ، بما ان اسرائيل لم تتخذ موقفا واضحا ازاء ما تعتبره حدود اسرائيل وما هو خارج اسرائيل ، يظل السؤال حول القبول بحدود اسرائيل كما كانت قبل عام ١٩٦٧ او المبالغة في المشاريع التوسعية التي قد تمتد من النيل الى الفرات قائما ·

ثالثا ، ما هي سياسة اسرائيل تجاه العرب ؟ وكيف تعامل الفلسطينيين ؟

رابعا ، الى اي مدى تأثرت النفسية اليهودية بالحملة النازية ؟

يشدد الكاتب على فكرة ان ما يجمع اليهود ويشدهم بعضهم الى البعض هو التراث الديني اليهودي الذي برزت منه فكرة الامة اليهودية او اسرائيل · وهناك تياران يتصارعان في اسرائيل وقد يؤديان الى « ثورة ثقافية » : فمن جهة نشأ في اسرائيل جيل جديد ، جيل « الصبرا » الذي لا يؤمن كثيرا بالدين اليهودي ، ويرفض تراث اليهود طوال فترة التشرد · فالجيل الناشىء لا يريد ان يعتبر تاريخ اليهود في اوروبا جزءا منه اذ ان هذا التاريخ يعطي صورة سلبية للغاية عن نفسية اليهودي فهو مشرد ، مسكين ، منبوذ وذليل · فالاسرائيلي الذي ولد وترعرع في اسرائيل لديه شعور بالقوة والسيطرة وهذا الشعور كان مفقودا ما بين يهود العالم · وغالبا ما يتساءل الشباب الاسرائيليون ، لماذا لم يتحدى الشعب اليهودي النازية في المانيا ؟ ولماذا استسلم دون ان يقاوم ؟ ولماذا ذهب الى الموت وكأنها مشيئة الهية ؟ واذ ذاك يرفض الصبرا الاعتراف بأن هناك صلة حميمة ما بين الماضي والحاضر · ومن جهة اخرى، تيار ديني محافظ يعتبر ان الصهيونية تابعة لليهودية وليس العكس ·

ولقد تصدى المفكر آحد هاعام لهذه المشكلة في كتاباته العديدة وحاول ان يصور ما قد تنتهي اليه اسرائيل ان هي تخلت عن تراثها وحضارتها اليهوديتين · ويعتقد هاعام بانه اذا طغت النزعة الصهيونية السياسية البحتة دون الاهتمام بالنواحي الروحية والثقافية فان مستقبل اسرائيل مظلم للغاية ·

ويخلص غونين الى القول بأن على الاسرائيليين ان يقبلوا بتراثهم الديني كله والا يرفضوا قسما ويرضوا بالاخر ·

فالكثيرون منهم يتعصبون مثلا للغة العبرية ويرفضون ان يسموا يهودا ويستبدلون ذلك بكلمة عبرانيين ومنهم من بالغ في ذلك مثال « حركة الكنعانيين » التي تؤمن بأنه لم يكن هناك امة يهودية بل امة عبرية تمتد من النيل الى الفرات وتشمل كل من تكلم العبرية انذاك · فمفهوم الامة بالنسبة لهم يرتكز على ارض ولغة مشتركتين والدين ليس من مقومات الامة ولهذا ترفض الحركة الدين اليهودي وكذلك الصهيونية لان هذه الاخيرة بنيت على افكار دينية ·

ولا يتساءل غونين على اي اساس

تطالب هذه الحركة الكنعانية بما يسمى « اسرائيل الكبرى » اذ انه لم تكن هناك في يوم من الايام امة عربية تمتد من النيل الى الفرات بل ان مفهوم الامة لم ينشأ ويتبلور الا مؤخرا ٠ ولكن الكاتب ينوه الى ان ظهور افكار متطرفة كهذه قد تؤدي الى عواقب وخيمة وانفصام خطير في الشخصية الاسرائيلية يتبعه انفصام داخل المجتمع الاسرائيلي ما بين رافضي الدين اليهودي والمتدينين ويبين التناقض ما بين موقف اليهودي الذي يطالب اينما حل في العالم بفصل الدين عن الدولة الا في اسرائيل حيث يكرس الدين الدولة ٠

ويطالب الكاتب الاسرائيليين ان يكونوا معتدلين في تعاملهم مع العرب وان يكونوا واقعيين تجاه الفلسطينين ويكفوا عن التكلم وكأن لا وجود للفلسطينيين وكأنه لم تكن هناك ارض اسمها فلسطين ٠ ولكنه يعترف بأن الاسرائيليين غير مهيئين نفسيا للتفاوض بعد المصائب التي حلت بهم في اوروبا وخاصة ايام النازية وبعد تاريخ طويل من القهر ادى باليهودي الى اتخاذ موقف مشابه لموقف شمشون الذي هدم المعبد عليه وعلى اعدائه فانتصر بالموت ، او فضل الانتحار كما حدث في « مسادا » كي لا يفاوض ٠

والاهم من ذلك ان المفاوضة ستجبر الاسرائيليين على اعلان خططهم فيما يتعلق بحدود اسرائيل وهذا ما يحاولون التهرب منه ٠ فهناك تواطؤا ما بين رجال الدين والصهيونيين داخل اسرائيل يستغله الصهيونيون للامعان في مشاريعهم التوسعية التي لا تفسر الا على اسس دينية بالنسبة الى ارض الميعاد وايضا لاستدرار عطف يهود العالم عليهم وحثهم على العودة الى الوطن الوحيد الذي يستطيعون فيه ان يكونوا احرارا كيهود ٠

ويطالب الكاتب كذلك الفلسطينيين بان يكونوا واقعيين وان يتنازلوا قليلا عن حقوقهم ويرى ان بتنازل كل طرف عن بعض حقوقه نصل الى السلم ٠ الا ان غونين ينسى ان بتنازل الفلسطيني عن وطنه يتنازل عن هويته وعن حقه في الوجود ٠

ان غونين يحاول ان يكون موضوعيا ، لكن موضوعيته تبقى زائفة مبتسرة ، ناقصة ، وهو لا يقدم في نهاية الامر الا تثبيتا للصهيونية وموقفا اخلاقيا بالنسبة للفلسطينيين ، موقف غير قادر على اعطاء اي حل او شبه حل مشخص ٠

د٠ صفية سعادة

كاريكاتور ناجي العلي

(كتاب السفير ، بيروت ، اذار ١٩٧٦)

الفصول العشرة في كتاب « كاريكاتور ناجي العلي » ، تحمل في عناوينها صيغة النداء ، لكنها في جوهرها ، خطوطهـا وكلماتها ، تحمل حدة السكين ، وبهجـة البسمة ، وحرقة الحزن ٠

والرحلة في داخل الكتاب تأخذ شكـل الدائرة ، نقطة البدء فيها فلسطين ، ونقطة النهاية هي فلسطين ٠ وتظل فلسطين ، ارضا وقضية ، هما يحمله الفنان ويلازمه في رحلته ، ويتغلغل في مسامات رؤيتـه لقضايا العالم كله، الاجتماعية والسياسية٠

ينأى ناجي العلي في كاريكاتيره عـن تضخيم الاشياء الموصل الى الاضحاك ، فان كانت الكثير من رسوماته تنتزع منك الضحكة ، فان الكثير منها ايضا يعكس حزنا جمعيا ينبع من واقع موضوعـي وظروف تاريخية محددة ٠٠ يجمع هـذا الحزن بصعوبة وباحساس عميق ومعاناة ، ثم يعيد اختزاله بيسر وسهولة عبر خطوط واشكال ٠.

وعندما يجتمع الحزن مع البسمة داخل عمل واحد ، صورة واحدة ، تظهر بدقـة قدرة الفنان على الامساك بالقطبين الموجب والسالب، وفي لقاء القطبين يحدث التفجير الذي اراده الفنان ان يكون تحريضا علنيا ضد الاعـداء الصهاينة والامبرياليين والانظمة الرجعية والبورجوازيات العربيـة المستسلمة والطبقـات المستغلة والقوى الانعزالية ٠

نظرة الفنان الثاقبة تتقمص شخصيـة طفل نراه في اكثر المواقع مراقبا ، يمنحنا ظهره الذي يبسط في نهايتـه ساعدين مسترخيين، كأنما الدهشة غائبة عن ملامح الوجه الطفل الذي غالبا ما لا نراه ٠

طفل ناجي الذي يبدو لوهلة محايدا ، هو على النقيض من ذلك ـ تماما كمـا الفنان ذاته ـ ، فهو عين الفنان ورؤيته الثاقبة ، وهو ، اضافة الى ذلك ، يمثل الحس الشعبي العام الذي استطاع الفنان ان يلتقطه بقدرة فائقة ليختزله بالخطوط والكلمات المقتضبة ، فيحولـه الى وعي يتوجه به الى جماهير الشعب ذاتها التـي يعبر عنها وعن همومهـا ٠

ظاهريا ، لا يبدو الطفل كقوة ايجابية فاعلة في الغالب ، اذا ما قفزنا عن فعله الدائم في التعرية، تلك التي تظهر اكتشافه لموقع الجرح من خلال انتقائه عنـوان صحيفة ، او من خلال نظرة لفعل امامـه من المفترض موضوعيا ان يثير الدهشـة . فلا يدهشه ٠ لكن هذا الطفل ، عندما يفعل، فانه يتفجر كالقذيفة ، ينتقم بلا رأفة مـن اعدائه ، يشتم بلا خجل ، يحاور من موقع الاقوى ، ويستعيد صوت الشاعر الشعبي ليلعب دور المعبىء والمحرض ٠

واذا كان الطفل هنا يمثل الحس الشعبي العام ، فان ذلك لا ينفي ان للطفل ذاتـه خصوصية فلسطينية مميزة ، تماما ، كمـا الفنان ناجي العلي ذاته ، يظل ممثلا للحس الشعبي العام دون ان يجهز ذلك علـى خصوصيته الفلسطينية او ينقص منها ٠

ففلسطين بالنسبة لهـذا الفنان هـي المحـور ، وهي كل شـيء · انهـا الذاكرة ، والمخيم ، والمقاتل ، والامل · فرغم الحواجز المصنوعة من اسلاك شائكة، فان مفاتيح البيوت المتروكة منذ الخروج الاول ما زالت تحتفظ لديه بوهج الحـلم المستقبلي ·

وحول فلسطين تلتف مخاوف الفنان وهواجسه وشكوكه ، فمع كل حدث يتنسم فيه رائحة المؤامرة ، تستيقظ المخاوف · واحيانا تتضخم تلك المخاوف بشكل ورمي، بحيثيثيرها الانتصار كما تثيرها المؤامرة، ويسيطر الهاجس في ان يتحول الانتصار الى هزيمة (قبول منظمـة التحريـر الفلسطينية عضوا مراقبا في الامم المتحدة مثلا) ·

وتتخذ المخاوف احيانا شكل الكابوس ، بحيث تنعكس على صورة تشويهات بدنية رهيبة · فالثورة تبدو كساعـد مقطـوع نازف بالدماء يقدمه عـرب اميركا الى الاعداء على طبق ، وتنازلات الانظمـة المستسلمة تتمثل في شكل غابة من اجساد الجنود الموؤودين في رمـل الصحراء ، والسكين في طبق التسوية تنغرس فـي ذراعي جندي مقطعة · وتنثال الصـور الكابوسية، ويظل بطلها المغدور هو الجندي المقاتل الذي يظهر مقطع الاطراف او الرأس بينما الانصال الحادة تنغرس في جسده ، كما يظهر الفدائي المبتور القدمين والمسلوب شارته المتمثلة في ثياب مموهة ·

ورغم المؤامرات الكابوسية التي تضغط على صدره ، فان ناجي العلي يظل قادرا على الحلم ، وعارفا للطريق الموصل الـى تحقيق الحـلم (فلسطين ذات القرط ـ القنبلة) ·

ويزاوج ناجيالقضية السياسية بالقضية الاجتماعية من منظور الصراع الطبقي ، فالفلسطيني الفقير والمعدم يحمـل سمات الفدائي في كفاحه من اجل لقمة العيش ، فلا ينفصل لديه الصراع السياسي عـن الصراع الاجتماعي ·

تتجلى هذه المزاوجة في رؤية الفنان للاحداث اللبنانية التي اكسبته معايشتها تبلورا في رؤيته الطبقية ، فهو ينفي طائفية الصراع ويؤكد مضمونه الطبقي ، كما يؤكد على لقاء مصالح البورجوازية المسلمـة والبورجوازية المسيحية في النهاية ، ورغبة هؤلاء في تحويل الصراع الى صراع طائفي اداته الطبقة المسحوقة التي ستكون هـي الخاسر الوحيد في اي صراع طائفي (فقير مسلم وفقير مسيحي معلقان على صليب واحد · بورجوازيان يشربان نخباً علـى طاولة فوقها ساعدين مقطوعين ومتصافحين يمثلان فقراء المسلمين وفقراء المسيحيين· الكتائب تركب صليبا يحمله فقير مسيحـي ·· وغيرها)·

حول هذا المحور، السياسي والاجتماعي، تلتف هموم الفنان ، وعلى موقعه هـذا ، ينصب متراسا يشن منه حربه عـلى المستسلمين والرجعية العربية والطائفييـن والصهاينة والامبرياليين وقوى الاستغـلال الطبقي ·

وفي حربه ، يتوسـل ناجي ادوات تعبيرية ، تشكيلية ولغوية مبسطة ، تساعده في عملية التواصل · ولعل اهم ادواته هي التحويرات الشكلية · فهو يطمح ، مـن خلال تحويراته لاشكال معروفة ، الى جعل الخطوط لغة للتواصل ، ليصل بذلك الـى ارقى درجة تعبيرية لفن الكاريكاتير ، حيث تتحرك الخطوط والاشكال وحدها ، ودون تدخلات لغوية ، لتعبر عن الفكرة التـي ارادها الفنان ، بحيث يمكن فهمها كونيا ·

وتبدو قدرة ناجي العلي الفائقة فـي اعطائه تحويرات متعددة لشكل واحد ، اذ يبقى الشكل محتفظا بدلالته الاصلية مـع

اكتسابه دلالة جديدة نابعة مـن الشكل الجديد المحور ·

فالعلم الاميركي مثـلا ، يتحور في رسومات متعددة ليصبح بحـرا تارة ، وحجاب امرأة تارة اخرى · وتتعـدد الاشكال المحورة عن العلم الاميركي : شعر رجل ، خطوط ترسمها الاظافر على الوجه، اثار على الارض لدبابات العدو ، سجادة لصلاة المستسلمين ·· الخ ·

وتدخل تحويرات على الصليب ، ليتحول مرة الى خنجر ، ومرة الى متاهة ، ومرة الى مصيدة ، واخرى الى شارة علـى الطريق ·

ويستفيد ناجي من ملابس الفدائي المموهة في تحويرات متعددة · مثلا ، ملابس الفقير المرقعة تأخذ شكل ملابس الفدائي المموهة ، وتمويه ملابس الجائع الذي يخرج شاهرا سلاحه يتخذ اشكال الاطعمة ·

وتمتد التحويرات الى اشكال كثيرة : قبة الصخرة تتحول كأسا ، والعيون الى عيدان كبريت ، والحذاء الى قذيفة ، والهرم الى شجرة ارز ·

كل ذلك يتم من خلال التقاط الفنـان لاوجه التشابه بين شكلين مختلفين ، فيعيد صياغة الشكلين في شكل واحد تندمـج فيه مزايا الشكلين معا ، لكن الشكل الجديد يأتي حاملا من الدلالات ما يتجاوز دلالة كل شكل على حدة · ثم يأتي الفعل او الحركة ليضيف الى الصورة دلالات اخرى جديدة· كما يلعب التعليق اللغوي مثل هذا الدور ، وهنا تحتل التحويرات اللغويـة مكانـة هامة ·

فعلى الرغم من ان طموح ناجي العلي يكمن في الوصول الى شكل دون تعليق ، الا ان هذا الهدف لم يتحقق له حتى الان الا جزئيا ، فما زالت اللغة المنطوقة تحتـل مكانا في رسوماته ·

واللغة لا تكون مستوية لديه دائما ، فقدرته على ادخال تحويرات على اللغة لا تقل عن قدرته على ادخال تحويرات على الشكل ·

وكما في الشكل ، يلتقط ناجي العلـي اوجه التشابـه في نطق كلمتين رغـم مضمونهما المختلف والمتناقض احيانـا ، ويستبدل كلمة باخرى بحيث توفي بوظيفة الساخر والتحريضي · او انه يشق الكلمة الى كلمتين لتبدو بمضمون جديـد ، او يلتقط كلمة مزدوجة المعنى ، بحيث يفهم كل معنى منفردا او يفهم المعنيين معا· واحيانا يستفيد من قول متداول او اسم شائع ، فيحوره ليكسبه معنى اخر ·

الامثلة على كل ذلك متعددة :

– الكلمة مزدوجة المعنى : نجد ذلك فـي صورة الام المثالية ··· « كان عندهـا اربع شباب كلهم نالوا الشهادة » ، مـع التأكيد هنا على كلمة « الشهادة » التي قد تعني شهادة جامعية ، لكنها هنا تعنـي الاستشهاد ·

– تحوير كلمات او اقوال شائعة بتغيير ترتيب الحروف او استبدال بعضها: فشعار « ثورة حتى النصر » يتحور على لسان الرجعية العربية الى « ثروة حتى النصر » ، وعبارة « كثر الضغط يولـد الانفجار » تتحور فيها الكلمة الاخيرة الى « الانفراج » و « بورسعيد » بعد تحويلها الى منطقة حرة يصبح اسمها « بار سعيد » ·

– تقطيع الكلمة : فعبارة « شعب الله المختار » تتحول مع صورة اسرائيلي مرتبك الى « شعب الله الخ ·· طار » و « لبنان الاخضر » الى « لبنـان الاخ ·· ضر » و « بارليف » الى « بار ·· ليف » ·

– التعبير عن الكلمة بشـكل له نفس التسمية ومعنى مغاير : نرى ذلك في صورة شربل قسيس يتعبد للتقسيم وقـد انزل

الصليب ووضع مكانه اشارة القسمة (÷)، والى جانبه كلمة « التقسيم » ·

وتتجلى القدرة اللغوية لدى الفنان في حوارياته الشعرية الشعبيـــة والمواويـــل التحريضية ، واغاني الاطفال المحورة لغاية التحريض · ورغم التحوير ، فان هـــذه الاشعار تظل محتفظة بروحها الشعبية ، ويظل اللحن الشعبي الخفي يشع من خـــلال الكلمات ·

في حوارية شعرية يتصاعد فيهـــا التحريض مع كل مقطع وتتم بين شربـل قسيس والطفل ، يغني الطفل :

فطومة غنت موال

ردت حنه قرادي

وانا ما عندي حصيره

وشربل عنده سجاده

فيرد شربل :

انا عندي سجاده

للصلاة والعباده

ابعد عني يا مسخوط

وبعطيك ياها شحاده

ويرد الطفل :

شحاده مش بالعاده

بالقوة بحصل عمرادي

وان جد الجد وراسي احتد

بعمل هالكرش وسادة

ويستمر الحوار محرضا ومعريا اعداء الفنان واعداء الشعب ·

يستفيد ناجي العلي من مطلع القصيدة الشعبية الشائعة او من اللحن الشعبي ، فيمســـك باطراف الخيط الـــذي يصله بالجماهير التي يتوجه اليها ، ثم يقـــود هذه الجماهير في تظاهرة تحريضية ·

هكذا طوع الفنان الفولكلور الشعبـي لخدمة اغراض سياسية فتحولت « طاولة الزهر » في يده الى اداة تحريض ، والعاب الاطفال الى ادوات اخرى ، ومثلها تحول « صندوق الدنيا » ···

شوف اتفرج على عنتر

عنتر من تل الزعتر

جوعان وعميتمرمر

وبوقت الشدة لا يقهر

واذا كان الشعر الشعبي اداة اتصال مضمونة النتائج مع الجماهير ، فماذا يفعل فنان حرفته اصلا الخطوط لا الكلمات ؟

نستشعر بالمعضلة التي تواجه ناجـي العلي في بحثه الدائم عن سبل تجديـــد خطوط التواصل بينه وبين جمهوره ، دون التعالي عن هـــذا الجمهور او الانصياع برومانسية لمستوى الوعي الشعبي السائد ، فهو يهدف في النهاية الى الارتقاء بالوعي السياسي والاجتماعي لجمهوره من خـــلال الادوات الفنية التي يمتلكها ·

وتجنبا للسقوط في المباشرة وفجاجـة التحريض ، يلجأ ناجي الى الرمز الايحائي المبسط الذي لا ينأى عن ثقافة الجمهور ، متجنبا في ذلك التسطيح والتعقيد معا · فالصليب ، والعلم ، والحـذاء ، وملابس الفدائي المرقطة ، وبئر النفط ، والهرم ، هي مثال للرموز المستخدمة بوفرة لديه ، وتكرار استخدامها في رسومات متعـددة يساعد المطلع العادي على فهم دلالاتهـــا ضمن السياق الذي تجيء فيه ·

ففي استخدامه للرمز ، لا يقطع ناجي صلته بالحس الشعبي العام ، وابرز مثال على ذلك عندما نراه يرمز لـ « فورد » بسيارة · فكلمة « فورد » قبل ان تعني لنا اسما للرئيس الاميركي ، كانت تعني نوعا

من انواع السيارات ، وحال توارد الكلمة الى اسماعنا تستجلب من اللاشعور الجمعي صورة مترسبة لسيارة من هذا الطراز · وحتى عندما ينحصر الحديث في الرئيس الاميركي « فورد » ، تظل الصورة القديمة هي المرشحة للتداعي · هكذا يتمثل « فورد » في رسومات ناجي كنوع من انواع السيارات ، تماما كما الكلمة تعني في اللاشعور الشعبي الجمعي ·

يعبر ناجي عن الصعوبة التي يواجهها في الجمع بين التبسيط والعمل الفني ، فرغم تعمده اللجوء الى الرموز المبسطة ، الا انه يكون احيانا مضطرا الى اللجوء لرمز صعب نسبيا لاغراض تعليمية بحتة · يقول: «ان بعض الرموز الصعبة التي استخدمها قد تكون ذات فائدة تعليمية للجماهير · مثلا عندما اضع العقال العربي فوق رأس المسيح بدل الهالة العادية ، اقدم لجمهور واسع من الفقراء المسلمين العرب فكرة جديدة ·· انه رمز تعليمي (حديث مع ناجي العلي – مجلة « الحرية » اللبنانية – ١٩–٤–١٩٧٦) ·

والملاحظ لدى ناجي انه يحاول تحطيم دلالات بعض الرموز الشائعة وتحميلها دلالات جديدة مناقضة ، نابعة من رؤية الفنان لامتهان الدلالة الاصلية للرمز ·

ابرز الامثلة على ذلك رؤية ناجي لرمز الحمامة وغصن الزيتون الذي يحمل دلالة شائعة تعبر عن السلام · فهذا الرمز في رسومات ناجي يحمل دلالة مناقضة ، اذ يعبر فيه عن الاستسلام · فمرة نرى الحمامة التي تحمل في منقارها غصن الزيتون راقدة فوق عانة امرأة تمثل اسرائيل ،ومرة اخرى نرى شعارا مرسوما على « باص التسوية » الذي يقوده كيسنجر · اما غصن الزيتون فنراه ينبت كذيل في مؤخرة مستسلم ، وفي صورة اخرى يؤدي نمو غصن الزيتون الى تحطيم خوذات الجنود · كما يطل غصن الزيتون ، في وضع آخر، من رقبة جندي ازيل رأسه ·

ذلك هو ناجي العلي ، الشقي بوعيه ، والعنيد بشكوكه ومخاوفه ، برفضه وحدته، بصمته وصخبه · اولئك هم اعداؤه ، وتلك هي حربه ·

قد نختلف معه احيانا ، عندما يرى اكثر واعمق مما يجب لكننا لا نملك الا ان نعجب به ، وان نعشق طفله المشاغب ·

ان القيمة اليومية والآنية لرسومات ناجي العلي تكمن في ممارستها لفعل التحريض والتوعية · واذ تتجمع هذه الرسوم بين دفتي كتاب ، فانها تكتسب قيمة مستقبلية ، حيث تشكل وثيقة سياسية وتاريخية مصاغة بلغة الفن ، تسجل لمرحلة تاريخية ما زلنا نعيشها حتى اللحظة ·

فاروق وادي

من الأجنحة

Sir Alec Kirkbride, From the wings, (Frank Cass, London: 1976)

السير اليك كيركبرايد ، هو احد الشقيقين « كيركبرايد » ـ الن واليك ـ اللذين عملا كموظفين في وزارتي المستعمرات والخارجية البريطانية خلال العهد الكولونيالي الذهبي للبريطانيين في الشرق الاوسط ، كلاهما خدم لفترة طويلة وهامة في شرق الاردن ٠

والسيد اليك كيركبرايد جاء الى المنطقة بالاساس كواحد من مجموعة ضباط الاستخبارات ، برتبة ميجور ، كانت الحكومة البريطانية قد اوفدتهم الى المنطقة مع نهاية الحرب العالمية الاولى لتمهيد الطريق لاستعمارها ٠ في اثناء تلك الفترة القصيرة للحكم الفيصلي خلف الميجور كيركبرايد الميجور كلنفتك في رئاسة ما سمي بـ « المجلس العالي في الحكومة المؤابية » التي تكونت في الكرك كواحدةمن الحكومات المحلية التي قامت في المنطقة اثناء وبعد سقوط الحكم الفيصلي سنة ١٩٢٠ وذلككنتيجة لغياب السلطة المركزية، وقد سجل كيركبرايد مذكراته عن تلك الفترة في كتاب سابق اسماه « خشخشة الاشواك » . (Crackle of Thorn)

بعد تأسيس امارة شرق الاردن عمل كيركبرايد معتمدا لبلاده في شرق الاردن ثم وزيرا مفوضا بعد الاستقلال وذلك حتىترك الاردن عام ١٩٥١ ، ويكون بذلك قد عمل في المنطقة حوالي ٣٤ سنة وهي اطول مدة يمكن ان يكون قد قضاها بعد ـ جونباجت كلوب ـ احد ذلك « الطاقم » من الموظفين الذين عملوا بجد ليس في تنفيذ السياسة البريطانية في المنطقة فحسب ، بل ساهموا في وضع اللمسات العملية والنهائية لها ٠

الكتاب الجديد لكيركبرايد هو من كتب المذكرات (Memoire) ، كسابقه حيث يسجل هنا مذكراته في عمان بين اعوام ١٩٤٧ ـ ١٩٥١ ، وهي فترة هامة في حياة القضية الفلسطينية وتلقي مزيدا منالضوء حول السياسة البريطانية في تلك الاثناء وكذلك حول الدور الذي قدر للنظام الاردني القيام به ضمن تلك السياسة ٠ لعل الميزة المشتركة لتلك الكتب العديدة التي نشرها « طاقم » الموظفين البريطانيين الذين خدموا في المنطقة ـ بما فيها كتابكيركبرايد موضع البحث ـ هو تحاشيها الحديث عن حقيقة واتجاهات السياسة البريطانية التياشرفوا على تنفيذها تجاه القضية الفلسطينيةوهم يجهدون على الدوام في محاولة اظهار تلك السياسة وكانها من صنع عملائهم في المنطقة ـ الملك عبد الله هنا ـ ، ثم ينبرون للدفاع عنها باعتبار انها تمثل « المواقف الاكثر اعتدالا وتعقلا » (ص ٣) ، مقابل الاتجاهات « الراديكالية ، الغير مجدية »٠ ضمن هذا السياق يمكن فهم الاعتبارات التي حدت بالحكومة البريطانية الى عدم الافراج عن الوثائق الخاصة بالقضية الفلسطينية والمحفوظة في مركز الوثائق

البريطانية رغم انقضاء المدة المقررة عادة ـ ٥٠ عاما ـ اذ لا زالت دوافع الاحتفاظ بسرية تلك المعلومات قائمة في تقدير الحكومة البريطانية !

ان كيركبرايد عندما يستعرض بعض الاحداث والمواقف « الخاصة بالملك عبد الله، ويدافع عنها : كسعيه للتفاهم مع قادة الحركة الصهيونيةولقاءاته معهم، ثم موقفه من دخول الجيوش العربية الى فلسطين ومعارضته لها ، ثم سعيه الى بناء ما يسمى بـ « مملكة سوريا الكبرى » بعد ضم الجزء المتبقى من فلسطين اليها ،انما يؤكد حقائق معروفة ٠ الا ان الصياغة الحذرة التي انتهجها في محاولة اخفاء اتجاهات السياسة البريطانية لم تمنع من ورود اشارات واضحة في الكتاب من شأنها ان تلقي بعض الضوء على تلك السياسة٠ فهو يذكر مثلا ان سعي عبد الله للتفاهم مع الحركة الصهيونية كان قائما منذ سنة ١٩٢١ (ص ٣)بمعنى انه كان ملازما للموافقة البريطانية على انشاء الامارةالتي وضعت لمساتها في مؤتمر القاهرة ثم فيلقاء عبد الله ـ تشرشل في القدس في نفس العام ٠ وهنا يبدو جليا سقم ذلك التفسير من ان عبد الله قد عجل على انقاذ ما يمكن انقاذه بالحاقه الجزء المتبقي من فلسطين خلال لقاءاته مع شاريت وجولدا مايرسون عام ٤٧ ، ليس اكثر منه سقما سوى ترديده في كتب « طاقم » الموظفين البريطانيين في مناسبات سابقة ٠ ان تبني السياسة البريطانية ومباركتها للصفقة الهاشمية ـ الصهيونية في التخلي عناكثر فلسطين مقابل الحاق الجزء المتبقي منها في « مملكة سوريا الكبرى » تجد اشارات كافية للتدليل عليها في كتاب كيركبرايد (انظر ص ٥٧) ٠

ان المنطق الاستعماريyحدو بالكاتب الى تجاهل الحديث عن الفلسطينيين كوحدة قومية وشعب له حقوقه وهو في الوقت الذي يعترف فيه بان اكثرية الفلسطينيين كانت تحبذ اقامة دولة مستقلة لها في الجزء المتبقي من فلسطين الا انه يجهد نفسه على مدار ثلاث صفحات (٦٦ـ٦٩) باقناع القارىء ان ذلك الاتجاه غير عملي وقد يكون من المفارقة ان يورد في التدليل على رأيه بعض الحجج التي تطرح اليوم حول غياب المقومات الاقتصادية لتلك الدولة ! ان اطراف المؤامرة الاستعمارية في فلسطين يدركون ان الشعب الفلسطيني هو عدوهم الرئيسي المشترك ٠ وكيركبرايد يلخص المسألة ببساطة شديدة عندما يذكر أن نقطة اللقاء الاولى في اجتماعات عبد الله ـ بالقادة الصهاينة كان اعتبارهم للحاج أمين الحسيني عدوهم المشترك (ص ٤) ٠ ويذكر ايضا أنه كان لا بد من تجريد فرق « الجهاد المقدس » من سلاحها ـ في الوقت التي لا زالت فيها المعركة قائمة مع العدو الصهيوني ـ « خوفا من طعن الجيش الاردني من الخلف » (ص ٥٩) !

اضافة الى ذلك ففي عرض الكاتب وحديثه عن الفلسطينيين ما يستوقف اي قارىء موضوعي ، هو ذلك النفس المعادي المزوج بالاحتقار والسخرية فهو يستنكر عليهم ادعائهم الثقة بالنفس مثلا (ص ٣٧) وهو حانق ايضا لان الانظمة العربية وتناقضاتها فيما بينها كان يعط الفلسطينيين فرصة الاستفادة من تلك التناقضات (ص ٤٧) ، وعندما يقوم بعض افراد الجيش الاردني بدفن احد القتلى من اليهود لا يفوت هذه الفرصة بتذكير القارىء « بان الفلسطينيين لا يحترمون القتلى ولا يقومون بالشيء نفسه» (ص ٧٦) ٠

ان ذلك النفس المعادي حكم أيضا موقفه تجاه حركة التحرر العربية عموميا، كتقييمه لجيش الانقاذ وقائده فوزي القاوقجي (ص ١٧) حديثه عن الجيشين السوري والمصري (ص ٦١ـ٦٢)

والمساهمة الشعبية المتواضعة للشرق اردنيين غير مساهمتهم في حرب فلسطين (ص ٢٩) ٠

يبقى ، انه من المفيد للقارىء أن يعقد المقارنة بين الظروف التي تمت فيها اتفاقيات الهدنة مع اسرائيل والدول العربية في رودس وبين الظروف التي تعيشها المنطقة العربية اليوم حيث يذكر الكاتب « ان كل دولة عربية كانت تنظر الى مصالحها الخاصة ، لم تكن هناك قضية مشتركة بينها ، وان العراق سحب جيشه وقرر عدم توقيع اي اتفاق وذلك بسبب عوامل داخلية وبغية تسجيل موقف » (ص ٩١) ٠ لقد مكن ذلك عبدالله من المساومة مع الصهاينة على منطقة المثلث التي فرغت بانسحاب الجيش العراقي ٠ وجرى التنازل عن مناطق واسعة من اراضي المثلث لاسرائيل !

ان اليك كيركبرايد يمثل مرحلة اللورد ايفون (انطوني ايدن) ، من جيل الكولونياليين البريطانيين الذين دخلوا متحف التاريخ الان لكنهم لا زالوا يشعرون بالاسى في اخلاء الساحة للسيطرة على العالم امام الامبريالية الاميركية ، ولم يخف كيركبرايد ملاحظته على ذلك في التهكم من جهل الاميركيين خلال الحفلة التي اقيمت على شرفه في اسرائيل قبيل مغادرته للمنطقة سنة ١٩٥١ في نهاية كتابه ٠ أجل لقد جاءت بداية الخمسينات لتشهد انحسار السيطرة البريطانية وبدء مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة ، وهو ما يرفض أن يستوعبه كيركبرايد ٠

عباس مراد

تقارير

يوم جنبلاط اللبناني - العربي - العالمي

في الاول من ايار ، بين سواعد الفقراء المرتفعة والدماء التي تغطي الانهار . كانت المناديل البيضاء والاعلام الحمراء والسوداء ترتفع بين الاهازيج والهتاف . وكانت صور الشهيد القائد كمال جنبلاط ترتفع في الايدي الى جانب صور عبد الناصر . وكان الحداد الجنائزي يختلط بالهتافات السياسية ليعلن ان راية الفقراء ستبقى مرتفعة ، وان الايدي التي تقبض على السلاح ، تقبض على العناد الوطني ولا تنحني الا امام الموت .

يوم الطبقة العاملة العالمية ، كان في بيروت يوما للشهداء . لكل الذين صنعوا خلال سنتين من القتال ، ملحمة الوحدة الشعبية اللبنانية الفلسطينية . يوما لوحدة الدم، حيث يقف كمال جنبلاط قائدا وشهيدا الى جانب كمال ناصر وكمال عدوان وابو يوسف النجار . وحيث ينتصب ابو علي اياد ، وحوله جميع الذين ولدوا في مدرسة الكفاح الشعبي المسلح ، معلنين بصوت الجماهير ان الثورة مستمرة . فالفقراء حين يمسكون موتهم بايديهم فانهم يمسكون الحياة .

عيد الطبقة العاملة ، كان هذا العام عيدا لجميع الوطنيين على امتداد هذا الوطن المليء بالاحلام الشاسعة والخيبات المتتالية. عيد الخيار الجماهيري العربي، الذي لا ينتظر ، بل يصنع من انتفاضاته تراثا دمويا سوف يغرق فيه جميع الذين تلوثت ايديهم بدماء الوطن .

من قاعة الاونيسكو في بيروت ، الى جميع قرى لبنان ، كان ايار يمتد . وجاءت الجراح لتلتقي بالجراح ، والبحر الجماهيري الذي فاق جميع التوقعات جاء ممتلئا بدمه . شعارات الحركة الوطنية وشعارات الثورة الفلسطينية كانت شعارا واحدا ، يمتد من النبعة الى تل الزعتر ومن الشوف الى صنين . من الدم الى الدم . و « العهد هو العهد» و «الميثاق هو الميثاق » والنصر لا يكون سوى النصر .

هتافات ، مظاهرات ، اهازيج ، البسة

كاكية ، والبسة سوداء · اعلام ، بكاء ورقص ، مناديل بيضاء ترتفع في الافق كانها التحدي · وصفوف من المناضلين الوطنيين بلباس القتال ، هم التحدي · وكشافة وفرق موسيقية · ونساء من مختلف الاعمار · ورجال جاؤوا ووجوههم تشبه الارض بانحناءاتها وقسوتها · وايدي لا تسقط ولن تنكسر · شوارع مليئة بالناس ، واصحاب البطاقات يدخلون القاعة الكبيرة التي امتلأت شرفاتها ، وارتفع فيها كمال جنبلاط رمزا لهذا الامتداد اللبناني الى داخل العروبة المقاتلة · ووفود شقيقة وصديقة من كل مكان في الارض · تحول الحشد من مجرد احتفال تكريمي ، الى اكبر مظاهرة قوة شعبية في تاريخ لبنان السياسي قبل الحرب الاهلية الوطنية وبعدها · من قلب افريقيا الى فرنسا · ومن الاتحاد السوفياتي الى مصر · كلهم وقفوا امام هذه الجماهير التي نزفت خلال سنتين تاريخ العرب الحديث بأسره ، لكنها لم تسقط · وقفت بكل الكبرياء الذي يحتقر الهزيمة ، لانه يعرف ان الراهن زائل ، وان الشعب هو وحده الذي يصنع تاريخه · كانت الجماهير وهي تودع كمال جنبلاط تودع معه لبنان الذي مات · وتستعد لاستقبال الفجر الذي ظهرت بداياته على فوهات بنادق الفقراء ، وسيأتي ، لان بنادق الفقراء لم تسقط· هكذا تحول اغتيال كمال جنبلاط من نهاية ، كما اراد القتلة ، الى بداية جديدة ·

النضال العربي والنضال اللبناني

حدد محسن ابراهيم في كلمة المجلس السياسي المركزي للاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية اللبنانية ، النقاط الرئيسية للتحرك السياسي الوطني في المرحلة الحالية :

١ ـ الاصرار على متابعة النضال من اجل الاهداف الوطنية التي سقط جنبلاط في سبيلها ، الغاء الطائفية السياسية ، والنضال من اجل عروبة لبنان ·

٢ـ التشديدعلى الخطر الذييشكلهالجيب الفاشي الصهيوني في الجنوب ، ليس على لبنان فحسب ، بل على الامة العربية ، « واذا استمر اصحاب المشروع التقسيمي الطائفي العنصري المرتبط بالخطط الصهيونية حيال لبنان والمنطقة العربية ، فلن يكون امامنا سوى القتال دفاعا عن عروبة الجنوب وعروبة لبنان ·

٣ ـ الدعوة الى حل متوازن ، عبر الدعوة الى جبهة واسعة تضم جميع المعادين للمشاريع التقسيمية · « لسنا طلاب استمرار لهذا الصراع الطاحن الذي يدفع شعبنا ثمنه والذي يفتح في خاصرة الوضع العربي نزيفا ، يريد له التحالف الامبريالي الصهيوني ان يستمر ، من اجل اضعاف قوى المقاومة والتصدي في امتنا وفرض الحلول الاستسلامية على شعبنا»·

هذا التحديد اللبناني الدقيق ، لظروف المرحلة ، وللشعارات التي يجب ان ترفع مركزة على وحدة لبنان الادارية والسياسية وعروبته ، لا تأخذ معناها الفعلي الا عند وضعها في اطاريها الاخرين ، عربيا وفلسطينيا ·

وجاءت كلمة لطفي الخولي ، باسم الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية ، لتضع استشهاد كمال جنبلاط في اطاره التاريخي الفعلي ، بوصفه وجها للهجوم اليائس الذي تشنه الامبريالية ، ثم يضع النضال الوطني اللبناني ـ الفلسطيني ، في موقعه كجزء لا يتجزأ من النضال العام الذي تخوضه الجماهير العربية « واذ نلتزم بالرجل المقياس ، كما جسده حيا وشهيدا كمال جنبلاط · تعلن الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية ، انها معكم ، شعبا وحركة

وطنية وتقدمية وثورة فلسطينية وحزبا تقدميا اشتراكيا ، رفاق خندق واحد ومصير واحد · فلم يعد ممكنا في عصر التحول الكيفي التاريخي في عالمنا ، ان يتجزأ النضال العربي الديمقراطي التقدمي الوحدوي في مواجهة الهجوم اليائس الاخير للامبريالية والصهيونية والرجعية»·

ثم اتى التجسيد الفعلي للوحدة الشعبية اللبنانية الفلسطينية ، عندما عانق الاخ ابو عمار وليد جنبلاط ، ثم القى كلمة الثورة الفلسطينية · ووسط الجماهير اللبنانية الفلسطينية الواحدة ، ليعلن : « ومثلما بكى كمال جنبلاط ، جبل صنين والشوف وجبل عامل · فان جبل النار في نابلس ووادي القف وجبل الزيتون في القدس ، بكوا القائد والمعلم كمال جنبلاط»·

« وانني اقول لاخي وليد جنبلاط ولرفاقه في الحركة الوطنية اللبنانية ، واقول لكل الشرفاء والاحرار في هذه الارض اللبنانية ان العهد هو العهد والقسم هو القسم · فاليد ستظل مشدودة الى اليد بكل قوة وصلابة حتى تحقيق الاهداف التي استشهد من اجلها كمال جنبلاط » ·

الرهان الخاسر

كانت الرصاصات التي وجهت الى كمال جنبلاط ، تعتقد انها باغتياله ، تستطيع ان تحقق هدفين رئيسيين دفعة واحدة :

١ ـ شق صفوف الحركة الوطنية اللبنانية ، وبلبلتها تمهيدا للاجهاز على التحالف اللبناني ـ الفلسطيني · وهذا يعني عمليا . اجهازا كاملا عليها كطرف وطني لبناني ·

٢ـ اخراج القوى الدرزية الوطنية التي يمثلها كمال جنبلاط من معركة النضال الوطني اللبناني الفلسطيني · وهذا يعني ازالة العقبة الرئيسية التي تقف في وجه التقسيم · هكذا يحقق العملاء . ما عجزت القوى الضاربة التي حشدت في وجه الثورة والحركة الوطنية عن تحقيقه · فبرصاصات قليلة، اعتقدوا انهم يستطيعون القضاء على تراث نضالي طويل ·

لكن الرهان كان خاسرا سلفا · فالجماهير اللبنانية ـ الفلسطينية ، تعلم ان تحالفها لا يمكن ان ينفصل · فهذا التحالف، هو وحده طريق كسر المؤامرات· وهو ، عبر قتال طويل ، قد اثبت ان الوحدة العربية الحقيقية لا تصنع الا بالنضال الواحد ، ضد العدو الواحد · لذلك لم تكن هذه الرصاصات ، سوى بداية جديدة، لترسيخ التحالف اللبناني الفلسطيني ، وترسيخ وحدة الحركة الوطنية ، في وجه التقسيم ودعوات التقسيم ، والعمل من اجل التقسيم الذي يرعاه العدوالصهيوني·

فحين وقف وليد جنبلاط ، وسط الجراح، ليلقي كلمته · كان واضحا ان هناك خيارا واحدا : الاستمرار في النضال· واستمرار الحزب التقدمي الاشتراكي على رأس الحركة الوطنية اللبنانية ، وترسيخ التحالف اللبناني ـ الفلسطيني · وسط دموع الحزن الذي يمتزج بالحقد والفرح الاتي ، اكد وليد جنبلاط على النقطتين المركزيتين التي على جميع الوطنيين اللبنانيين والفلسطينيين افشالهما · «ان برنامج الحركة الوطنية يشكل المدخل الصحيح والرؤيا الصحيحة للبنان الواحد، لبنان الغد · فلا يوجد فكر سياسي متناسق وواضح خارج برنامج الحركة الوطنية» · « لقد استشهد الكثيرون من اجل الارض المقدسة، وطريق الصليب الى القدس طويل، وما كمال جنبلاط الا شهيد انار متعرجات هذا الطريق · وسيبقى التنكر للثورة الفلسطينية وطموحاتها الوطنية مستودعا للعنف والاضطراب في هذه البقعة من العالم » ·

لم يكن مهرجان التكريم الذي اقيم وفاء لذكرى كمال جنبلاط، مهرجانا ووفاء لرجل

غاب · كان مهرجانا نضاليا ، اثبتت فيه الجماهير ، انها هي وحدها من يقرر شكل المستقبل ·

كمـا اثبت التحـالف اللبنـاني ـ الفلسطينية ، الا تأكيد جديد ، على ان فالقضية الوطنية ، هـي التـي توحـد الجماهير · والنضال الوطني هو النضـال الفعلي الذي يفرض العدل العربي فرضا · وما الوفود الشقيقة والصديقة ، التـي جاءت من كل مكان ، لتعلن وقوفها مـع الشعب اللبناني المناضل ، ومـع الثورة الفلسطينية ، الا تأكيد جديد ، عـلى ان النضال الوطني العربي ، لا يزال في طليعة نضال شعوب العالم الثالث من اجـل الاستقلال الوطني ، وطرد الامبرياليين ، وازالة الكيانات العنصرية الطائفية ·

في الاول من ايار ، احتفلت الطبقـة العاملة العربية على طريقتها ، احتفلت بالنضال الوطني ، لانها هي ، الطبقـة القائدة للنضال الوطني الجذري· وتعانقت الاعلام الفلسطينية والوطنية اللبنانيـة ، معلنة ان الوحدة الجماهيرية بدأت · وان القتال الشعبي هو الطريق الوحيد الـى النصر الحاسم · واثبتت جماهير لبنان ، ان اي حل سياسي للازمة اللبنانية ، لا يأخذ الوزن الفعلي للحركة الوطنية فـي اعتباره هو تعقيد للازمة وليس حلا لها ·

انور خالد

السجون الاسرائيلية : واقع ونضالات

تشكل السجون الاسرائيليـة واقعـا ماديا ملموسا تجري فوقه مختلف اشكال القمع والاضطهاد والتمييز العنصري · واذا كانت السجون تعكـس الصـورة الحقيقية لعنصرية الكيـان الصهيونـي واساليبـه القمعية والفاشية ضد الوجود العربي الفلسطيني ، فان نضال السجناء والمعتقلين العرب يؤكد من جهة اخـرى ارادة الشعب الفلسطيني في الصمـود والتصدي للاحتلال الصهيوني في اطـار الكفاح المشروع التي تخوضه جماهيـر الوطن المحتل لنيل حقوقها الوطنية ·

سنعرض في هذا التقرير صورة عامـة عن السجون الاسرائيلية كما سنتنـاول اوضاع السجناء والمعتقليـن العـرب ومختلف الصعوبات التي تواجههـم · كما سنلقي الضوء على النضالات التـي يقومون بها ضد سياسات العدو القمعية والعنصرية وابعاد هذه النضالات محليـا وعربيا ودوليا ·

السجون الاسرائيلية (١)

وصل عدد السجون التي خصصتهـا سلطات الاحتلال الصهيوني للسجناء الى ثلاثين سجنا معظمها من مخلفات سلطات الانتداب البريطاني في فلسطيـن ، حيث قامت سلطات الاحتلال ببعض الترميمات

والتوسيعات عليها · وفيما يلي عرض موجز لاهم السجون ·

● **سجن عسقلان :** يقع جنوب فلسطين، ويعتبر من اخطر السجون في نظر سلطات الاحتلال ، وهو مخصص للمحكوميين بالمؤبد · يحيط بالسجن سور حجري مرتفع اضافة الى سور اخر من الاسلاك الشائكة يبلغ عرضه ستة امتار مزروع بالالغام ، كما تقوم قوة كبيرة من الجنود على حراسة السجن · ولا يستوعب السجن اكثر من ١٠٠ معتقل لصغر حجمه وضيق مساحته · الا انه يستوعب حاليا اكثر من ٤٠٠ سجين عربي بعد ان ازداد عدد المعتقلين الفلسطينيين الذين صدرت بحقهم احكام مدى الحياة · الامر الذي جعل الحياة داخل السجن لا تطاق بسبب شدة الازدحام · ويعيش السجناء في زنزانات ضيقة يحشر فيها ما بين ١٠ ـ ٣٠ معتقلا، بحيث يفسح للمعتقل الواحد مساحة لا تتجاوز المتر او مترين مربعين يعيش وينام فيها · (٢)

● **سجن ومعتقل صرفند :** وهو من اخطر السجون الاسرائيلية فهو مخصص للسجناء العرب والموقوفين الاداريين ، الذين يخضعون للتحقيق قبل تقديمهم للمحاكمة ، وتمارس في هذا السجن كافة اشكال التعذيب التي نسمع عنها ، كما انه مجهز باحدث اجهزة التعذيب الوحشية · والجدير بالذكر ان سلطات الاحتلال ما زالت تنفي امام المحاكم الاسرائيلية وجود هذا السجن الذي يعيش بين جدرانه ما لا يقل عن الفي عربي وعربية تحت التحقيق ·

● **سجن المسكوبية :** يقع في مدينة القدس ، وهو سجن كبير من مخلفات سلطات الانتداب البريطاني ، وتقع بجواره مكاتب المخابرات الاسرائيلية « الشين بيت » كما يوجد فيه غرف خاصة للتعذيب · ويضم السجن الموقوفين والذين يقضون فترة احكام قصيرة · صممت زنزانات هذا السجن بطول ١٥٠ سم طولا و ٨٠ سم عرضا وعلى ارتفاع ٤ امتار منها شباك حديدي (متر × ٨٠ سم) مفتوح صيفا شتاء ، ويظل الضوء الكهربائي ساطعا داخل هذه الزنازين ليلا نهارا ·

● **سجن الخليل :** بني في عهد الانتداب البريطاني ويقع على قمة جبل مرتفع وهو مجاور لمبنى يسمى « العماره »، حولته سلطات الاحتلال بعد ١٩٦٧ الى مركز شرطة · وقد وصلت عدد زنزاناته الى مئة بعدما شيد العدو طابقا جديدا فوقه · يقسم السجن الى قسمين ، الاول للرجال والثاني للنساء ، ويعتبر اكثر السجون الاسرائيلية ازدحاما وبشكل فاق الازدحام الحاصل في سجن عسقلان ، حيث « لا يتمتع المعتقل في سجن الخليل الا بمساحة قدرها متر مربع واحد فقط » · (٣)

● **سجن بئر السبع :** بني هذا السجن في عهد سلطات الاحتلال وسط صحراء قاحلة منعزلة على الطريق الى ميناء ايلات ، وقد بني على ايدي السجناء العرب المحكومين بالاشغال الشاقة المؤبدة ومعظمهم من سجن عسقلان · ويحيط بالسجن سور عال له اربعة ابراج مراقبة حجم كل برج ٤ × ٤ متر ، ومحاط باسلاك شائكة من الخارج ، وفيه ساحة رملية واسعة يعمل فيها السجناء العرب في عدة ورش ومشاغل للخياطة والنجارة والحدادة · ويقدر عدد السجناء العرب في هذا السجن ب ٧٠٠ معتقل يصل في بعض الاحيان الى ١٠٠٠ معتقل يعمل معظمهم في صنع صناديق الفواكه والخضار ·

● **سجن نابلس :** بني في عهد الانتداب البريطاني ، وقامت سلطات الاحتلال ببناء عدد من الزنازين حوله ·

ويضم السجن ما لايقل عن ٥٠٠ معتقل وسجين عربي لا تزيد مدة محكوميتهم عن خمس سنوات • وبالاضافة الى ما يعانيه السجن من شدة الازدحام فهو مشهود باوساخه وحشراته وجرذانه •

● **سجن الرملة :** وهو ايضا من مخلفات الانتداب البريطاني وهو سجن واسع مؤلف من طابقين ويضم بين جدرانه ثلاثة الاف سجين ومعتقل يهودي وعربي ، وقسم السجن الى اربعة اقسام حسب الاحكام الصادرة بحق السجناء •

● **سجن نفي ترتستا :** ويقع على بعد ٢ كيلومتر تقريبا من سجن الرملة ، وقد بني حديثا في عهد الاحتلال ، وهذا السجن مخصص للنساء فقط، وتسجن فيه المناضلات العربيات الى جانب المومسات الاسرائيليات والمصابات بامراض معدية ، وكثيرا ما تحدث فيه معارك وصدامات بين الفتيات العربيات والاسرائيليات • ويوجد في السجن قسم خاص للتعذيب • وفيه نحو ١٠٠ زنزانة •

● **سجن التلمون (كفاريونا) :** يقع بالقرب من سجن بيت ليد وقد شيدته سلطات الاحتلال خصيصا للاحداث من الفتيان العرب واليهود • ويقسم الى قسمين ، قسم للاحداث الذكور والاخر للاحداث الاناث • وفيه ما لا يقل عن ٥٠٠ فتى عربي الى جانب ٣٠٠ فتى يهودي •

● **السجون الاخرى :** وهي : سجن بيت شمشي ، سجن البصة ، سجن النبي صالح ، سجن طولكرم ، سجن رام الله ، سجن جنين ، سجن كفاريونا ، سجن الجلمة ، سجن معسلياهو ، سجن الدامون ، سجن ابو كبير ، سجن شطا سجن العفولة ، سجن روش بينا ، سجن صفد ، سجن عكا ، سجن الناصرة ، سجن حيفا ، سجن غزة ، سجن رفح ، سجن خان يونس ، سجن عتليت• اضافة الى هذه السجون «الرسمية» هناك معتقلات عديدة اينما وجدت معسكرات جنود الاحتلال • (٤)

سياسات العدو الصهيوني ازاء السجناء والمعتقلين العرب

ينظر العدو الى المعتقلين الفلسطينيين على انهم مجرد « ارهابيين » او « مخربين » تعتبر جرائمهم افظع من الجرائم العادية • وينطلق العدو في تعامله مع السجناء العرب من الزاويا التالية :

الاولى : عنصرية ، ويتجسد ذلك من خلال سياسة التمييز بين السجناء العرب واليهود • والمعاملة •••

الثانية : سياسية ، وهي رفض اي اتجاهات تحاول اضفاء صفة اسرى الحرب على المعتقلين الفلسطينيين • وقد عبرت صحيفة الهيرالدتربيون الامريكية عن هذه الناحية فقالت « ان مسألة اطلاق صفة اسرى حرب على المعتقلين الفلسطينيين امر غير وارد بالنسبة لاسرائيل ، اذ ان منحهم هذه الصفة يعني اعتراف اسرائيل بشرعية الكفاح المسلح وبشرعية « منظمة التحرير الفلسطينية » التي ينتمون اليها » (٥) •

الثالثة : امنية • وتتعلق بالاجراءات المشددة التي يفرضها العدو على السجون، من خلال تقوية الحراسات واحاطتها باسوار شائكة وحقول الغام واستخدام الكلاب المتوحشة •• الخ من جهة وفرض قيود مشددة على الزيارات تحت ضغط الخوف من امكانية اتصال السجناء بالخارج من جهة اخرى • ومن الجدير بالذكر ان نسبة هروب السجناء والمعتقلين العرب من السجون الاسرائيلية تكاد تكون معدومة ، وهذا يعتبر ظاهرة غريبة بالنسبة

الى بقية السجون في العالم · وقد عبر عن ذلك مدير السجون الاسرائيلية عندما قال « ان نسبة الهروب من السجون الاسرائيلية هي اقل نسبة في العالم حيث بلغت (نصف في المائة سنويا) · (٦)

وفيما يلي عرض اهم مظاهر السياسة الصهيونية المتعلقة بالسجون والمعتقلين العرب ·

١ ـ الازدحام

اعترف مدير عام السجون الاسرائيلية حاييم ليفي بأن « عدد النزلاء في السجون الاسرائيلية بلغ حدودا لا يمكن السكوت عليها » وحسب تقديره فقد « بلغ عدد المعتقلين العرب ب ٥٨٥٢ سجينا منهم ٢٢٢٧ متهما بالاضرار بأمن الدولة (فدائيون فلسطينيون) اي بزيادة قدرها ٢١٠٢ سجين عن العام السابق (١٩٧٦) » · * (٧)

وعن قضية الازدحام اشار مديرالسجون الاسرائيلية الى « ان المساحة المتاحة لكل نزيل هي ٢ر٢ مترا مربعا في المتوسط على حين انها ٩ر٩ مترا مربعا في المتوسط في، سجون معظم الدول الاخرى ، و ١١ مترا مربعا في هولندا ، ٢ر١١ مترا مربعا في الولايات المتحدة » · وقال المسؤول الصهيوني ان هذا المتوسط « لا يعكس حقيقة الاشياء تماما لان المساحة المتاحة لكل نزيل في سجن الخليل اقل من متر مربع واحد » (٨) ·

ويمكن تصور مدى تاثير هذا الازدحام على المعتقلين الفلسطينيين خاصة وانهم يحشرون في غرف صغيرة موصدة في وجه الضوء والهواء طيلة « ٢٢ ساعة في اليوم » (٩) ·

٢ ـ سوء التغذية

يشكو المعتقلون العرب من النقص الكبير في كميات الطعام المخصصة لهم اضافة الى فقدانها المواد الضرورية واللازمة لتغذية الجسم · ومن المعروف ان الطعام الذي يقدم للسجناء العرب هو غير الطعام الذي يقدم للسجناء اليهود سواء من ناحية الكم او النوع · وقد اشار تقرير للصليب الاحمر الدولي نشر في اوائل العام الحالي الى هذه المسألة عندما قال ان سلطات الاحتلال لم تلب مطالب السجناء في توفير « الطعام الصحي » (١٠) وقد سبب ذلك في تفشي العديد من الامراض داخل صفوف المعتقلين العرب ، مثل فقر الدم وضعف النظر وبعض الامراض الجلدية · وبهذا الصدد نشرت صحيفة هآرتس الاسرائيلية مقالا عن اوضاع السجون اعترفت فيه بأن « نسبة كبيرة من بين السجناء من المناطق (المحتلة) يعانون من امراض خطيرة منها مرض السل » · (١١)

٣ـ سوء العلاج الطبي

تضع سلطات الاحتلال ، العديد من القيود ، لمنع تقديم العلاج الطبي اللازم لمعالجة حالات المرض المختلفة التي يعانيها معظم السجناء العرب · ولقد لاقى الكثير من السجناء مصرعهم نتيجة الاهمال

---

* يقدر عدد السجناء والمعتقلين العرب باضعاف الاحصاءات الرسمية الصهيونية· والتقديرات تشير ان عدد المعتقلين العرب بلغ نحو ١١ الف معتقل ويزيد هذا الرقم اذا اخذنا ازدياد عدد المعتقلين المحكومين اداريا ·

الطبي * · كما ان مئات منهم مهـددون بالموت بسبب حاجتهم الـى العـلاج الضروري · وبهذا الخصوص اشـارت صحيفة «الاتحاد» الى سوء العلاج الطبي « حيث يصبح الاسبريـن دواء لكـل علاج » (١٢) وطالما شكا المعتقلون من عدم كفاءة الاطباء الاسرائيليين المشرفين علـى حالاتهم الصحية · الامر الـذي دفـع بالمعتقلين العرب الى المطالبة بتخصيص اطباء من الضفة الغربية للاشراف علـى معالجتهم · ويطالب المعتقلـون العـرب « بعنايـة صحية تكفـل لهـم الفحص المستمر والتي تتوجب تعيين اطباء اكفـاء مع تقديم الاطعمة المناسبة لكل مريض كمـا يطالبون بسرعة نقل من يستدعي نقلـه الى المستشفيات » · (١٣)

٤ ـ صعوبة الحياة داخـل السجـون الاسرائيلية

لا يتمتع السجناء العرب بالمزايا التـي يتمتع بها المجرمون العاديون سـواء بالنسبة الى ظـروف الاقامـة او مـن النواحي الثقافية والتعليمية وبعـض الامور الاخرى ·

فمن ناحية الاقامـة ، يعطى السجين العربي فراشا من المطاط لا تتعدى سماكته سنتيمترا واحدا ، في حين يعطى للسجين اليهودي سريرا للنوم · وفي حين يتناول السجناء العرب طعامهم على الارض من « سطول » مخصصة لذلك توضع داخـل الزنازين ، نجد ان للمجرم العادي مائدة للطعام · وفي تبريرهم لذلك قال مسؤولو السجون « انهم لم يخصصوا اسـرة لسجناء « الامن » لانهم قد يحطموها او يستعملوها كاسلحة !! » واشـار بعضهم ان السبب الحقيقي في ذلك يعود الـى « عـدم وجـود فراغ للاسرة فـي الزنزانات » (١٤) ·

ومن ناحية العمل ، فان السجنـاء العرب يجبرون على العمل الاجباري في الورش التابعة لسلطات الاحتلال مقابـل اجور شكلية لا قيمة لها ابتداء مـن ٦ ـ ١٠ سجاير يوميا (ومن النـوع الرديء) وتتلخص مجالات العمـل فـي الحقول القريبة من السجون وفي صناعة شباك التمويه للدبابات والدروع والمدافع الاسرائيلية ، وبعد ان قوبل هذا العمـل بنضال عنيد من قبل المعتقلين العرب ،فقد تركز عملهم على صناعـة صناديـق البرتقال والفاكهة وبناء سجون ومنشآت وغيرها ، اضافة الى اجراء ترميمـات ودهانات داخل السجون تحت الضـرب والحراسة المسلحة (١٥) ·

ومن ناحية الثقافة والتعليم فقد عمدت سلطات الاحتلال الى استخدام سياسـة التجهيل لالاف من السجناء العرب وذلك عن طريق منعهم من القراءة والكتابة ومن سماع الاذاعات ونشرات الاخبار ،اضافة الى حرمانهم من الصحف والمجـلات والكتب الثقافية · ويستخدم العدو هذه المسألة عادة وذلك في محاولة اخضـاع المعتقلين العرب او اكراههم على قبـول سياساته وكوسيلة من وسائل العقاب · وفي هذا الصدد ذكرت صحيفة القـدس « ان سلطات الاحتلال تعتزم حرمـان الطلاب الفلسطينيين ممن اعتقلوا فـي الضفة الغربية المحتلة من التقـدم لامتحانات الشهادة الثانوية لهذا العـام، وذكرت ان قرار الحرمان سينفذ بحـق

---

* يقدر عدد الذين استشهـدوا فـي السجون الاسرائيليـة ب ٤٧ معتقـلا وسجينا ·

الطلبة الفلسطينيين الذين اعتقلوا مؤخرا اثناء المظاهرات والذين ستصدر بحقهم احكام بالسجن بتهمة التظاهر » (١٦) ٠

واذا كانت سلطات الاحتلال قد سمحت في بعض الاحيان بدخول بعض الكتب الى السجون فان هذه الكتب تكون خاضعة لمراقبة مسبقة ومنتقاة بعناية بحيث تهدف الى توجيه السجناء وفــق ما ترتئيه سلطات الاحتلال ٠ كما انها تسمح عادة بسماع الاخبار عن طريق الاذاعة الاسرائيلية فقط ٠ ان هذه القيود مفروضة فقط على السجناء العرب ،حيث نجد ان السجناء اليهود يتمتعون بامتيازات تكفل لهم حق المطالعة والحصول على الصحف والمجلات اضافة الى مشاهدة « التلفزيون والافلام السينمائية » (١٧) ، كما يحق لهم ارتياد المكتبة والاطلاع على ما يشاؤون من مطبوعات وهو امر محرم على سجناء « الامن » (١٨) ٠

ومن ناحية الزيارات ، فقد فرضت سلطات الاحتلال قيودا على الزيارةبحيث « لا يسمح بزيارة الاهل للسجناء العرب الا مرة واحدة كل شهر ، ولمدة نصف ساعة فقط » (١٩) في حين انها بالنسبة للسجناء اليهود « مرتان كل شهر وفي وقت مفتوح نسبيا » (٢٠) ٠

وتتم زيارة المعتقلين العرب عبر شبكة حديدية لا تمكن الواحد منهم من تبين ملامح ذويه وغالبا ما تتم تلك الزيارات بمصاحبة حراس السجن ٠ وفي معظم الاحيان تحرم سلطات الاحتلال السجناء العرب من هدايا واطعمة ذويهم ، حيث يجبر ذووهم على شراء ما يرغبون تقديمه لابنائهم من متاجر ملحقة بالسجون وباسعار مضاعفة (٢١) ٠

من جهة اخرى اعترف مدير السجون الصهيوني بأن هناك مزايا اخرى يتمتع بها السجناء اليهود عن السجناء العرب منها « ان السجناء العرب غير مؤهلين لتخفيض فترة سجنهم لسبب سلوكهم الحسن ، كما لا يسمح لهم باستخدام اطلاق السراح المؤقت بعد انقضاء ثلث فترة سجنهم كما يسمح بذلك للمجرمين العاديين » ٠ (٢٢)

من هم اسرى الحرب بنظر سلطات الاحتلال ؟!

يفرق العدو بين السجناء « الامنيين » من المناطق المحتلة ، وبين السجناء « الامنيين » من الخارج ، والمقصود بعبارة « من الخارج » السجناء الذين ينتمون الى الدول العربية والاجنبية ، فهؤلاء يخضعون لرعاية الصليب الاحمر الدولي باعتبارهم اسرى حرب ، وعادة ما يحصل الصليب الاحمر على تسهيلات من جانب سلطات الاحتلال لزيارتهم بصورة دائمة ويجتمعون مع كل سجين يطلب اجراء مقابلة ٠ ويحق للسجين « الامني » من الخارج ان يكتب ست رسائل شهريا ، كما يحق له ان يتلقى عددا مماثلا من ذويه في الخارج ، و « يوزع الصليب الاحمر على هؤلاء السجناء ، الذين تقطن عائلاتهم خارج اسرائيل رزم هدايا مرة كل شهر » ٠ (٢٣)

اما السجناء من المناطق المحتلة فهم يعاملون باعتبارهم مواطنين‌عربا يخضعون للقوانين والاجراءات الصهيونية الخاصة بمعاملة جماهير الوطن المحتل ٠ ولهذا فان سلطات الاحتلال تمنع على الصليب الاحمر زيارتهم الا ضمن حالات استثنائية وتحت اشراف سلطات السجون ، ولغرض دعائي بحت ٠ والجدير بالذكر ان سلطات الاحتلال مستمرة في رفض اي طلب من الهيئات الدولية والحقوقية لزيارة السجناء والمعتقلين العرب والاطلاع على اوضاعهم ٠ فقد رفضت سلطات الاحتلال السماح لوفد من رابطة الحقوق الدولية

بزيارة الاراضي المحتلة للاطـــلاع علـــى اوضاع المعتقلين فيها ٠ (٢٤)

ومنعت مرارا تنفيذ قرارات مجلـــس السلم العالمي واللجنة الدوليـــة لحقــوق الانسان فيما يتعلق بالاطلاع على اوضاع المعتقلين العرب ٠ واشار اخر تقريـــر للصليب الاحمر الدولي (نشر في اوائـــل العام الحالي) الى ان سلطات الاحتـــلال « منعت الصليب الاحمر من التدخل فـــي اضراب عسقلان » ٠ (٢٥)

نضالات السجناء والمعتقلين العرب فـي السجون الصهيونية

اعترف المسؤولون الصهاينـــة ـ فـي مناسبات عديدة ـ بفشل سياساتهم التـي تهدف الى طمس القضيـــة السياسيـــة للمعتقلين العرب وخصوصا من ناحيـــة انتمائهم القومي والوطني ٠ وقد تناول هذه المسالة المعلق الصهيوني المعروف دانـــي روبنشتاين عندما قال « ٠٠ في مجتمـع عادي ينتمي كل واقع المعتقل والسجيـــن الى هامش المجتمع ، الى مجموعة صغيرة من العالم السفلي ٠٠ انه غير ذلك فـــي الضفة الغربية والقدس الشرقية وفي قطاع غزة والى حد ما بين عـــرب اسرائيـــل ايضـــا ٠٠٠ ان السجنـــاء والمعتقليـــن الامنيين وما شابههم لا ياتون من طبقـــة هامشية معينة من المجتمع العربي ، بل هم ابناء اغنياء ، مثقفون ، تلامذة ثانويون وفلاحون وابناء عمال ايضا ٠ وباختصار فان جميع جوانب المجتمع ممثلة فـــي السجون ٠٠ انهم ليسوا مجموعة غريبـة وبعيدة لفظها المجتمع العربي من داخلـه ، وانما قطعة من لحم الشعب العربي الذي يعيش في البلد ، ويصطلح على تسميتهـم بشكل عام « معتقلون سياسيـــون » ولا يعتبرهم الشارع العربي [illegible]رمين » ٠ (٢٦)

ومما لاشك فيه ان ع[illegible] الانتمـــاء الفلسطينية هو الذي حول السجون الـى حلبة صراع قوي بين السجناء العرب من جهة وسلطات الاحتلال الصهيوني من جهة اخرى ٠ فالصمود داخل السجون هو شكل اخر من اشكال النضال ، له صفاتـــه ومميزاته وخصائصه ٠ فالسجناء العرب هم ابناء تنظيمات ثورية مسلحة ، وهـــم بالتالي ينظمون انفسهـــم عبـــر خلايـــا وحلقات تناقش الاوضاع السياسية وتطرح قضايا التثقيـــف والتنظيـــم وتبـــادل الخبرات ٠٠ لذا فان السجون تحولت الـى مدرسة نضالية ٠ كما ان المعتقليـن ينظمون انفسهم ويستخدمون كافـــة الوسائـــل للارتقاء بمستوى نضالاتهم ٠ كما ان لهم وسائل اتصال خاصة مع السجون الاخرى وايضا مع الخارج (الارض المحتلة) ٠ ويحاول العدو استخدام مختلف الوسائـل لمراقبة اوضاع المعتقلين عن طريـــق دس عملائه وجواسيسه ٠ كما انه يلجأ الـــى نقل المعتقلين العرب الى سجون اخـــرى بهدف تفتيت الروابط التنظيمية التي تنشأ فيما بينهم ٠ وقد شهدت السجون تصفيـة عملاء للعدو الصهيوني ٠ كما اكتشفـت اكثر من مرة محاولات يقوم بها المعتقلون للهرب من السجن ٠ كان اخرها محاولـة اربعة من المعتقلين العرب للهرب من سجن شطا ٠ (٢٧)

ومن اجل تاكيد شخصيتهم السياسيـــة قام السجناء العرب بمقاومـة محـــاولات العدو الصهيوني وضعهم فـــي سجـــون مشتركة مع المجرمين الصهاينة ٠ ولا زالت بعض السجون تشهد حالات عنيفة مـــن التصادم بين المعتقلين العرب والمجرميـن الصهيونيين ٠ حيث يرفع المعتقلون العرب مطالب وضعهم في سجون خاصة بهم ، مؤكدين هويتهم السياسيـــة والوطنيـــة باعتبارهم مناضلين واصحـــاب قضيـــة سياسية ٠

من جهة اخرى يتعرض مئـــات مـــن

المعتقلين الفلسطينيين لضغوط مختلفة من قبل سلطات الاحتلال تهدف الى ابعادهم عن ارض الوطن المحتل ٠ كما يحاول العدو مساومة بعض المعتقلين لقبول مغادرتهم ارض الوطن مقابل الافراج عنهم ٠ وفي الاونة الاخيرة ذكرت انباء من الوطن المحتل « ان ١٨ فلسطينيا في سجون العدو الصهيوني رفضوا منذ اكثر من ٣٣ شهرا عرضا من سلطات الاحتلال باطلاق سراحهم شرط مغادرتهم الوطن ٠ ونظرا لصمود هؤلاء المعتقلين قررت سلطات الاحتلال تمديد مدة اعتقالهم ستة اشهر اخرى » ٠ (٢٨)

ثمة اشكال مختلفة لنضالات المعتقلين العرب في السجون الاسرائيلية منها رفض استقبال الزوار ورفض الخروج الى مزاولة العمل ، والبقاء في السجون وامتناعهم من التمتع بفرص الخروج ، والقيام باضراب جزئي ، واحيانا يعبرون عن نضالهم بعدم حلاقة ذقونهم ورفض تغيير ملابسهم ، وباضراب جزئي عن الطعام ٠٠٠

انتفاضة السجون ٠ اضراب السجناء والمعتقلين العرب عن الطعام

منذ اكثر من ستة اشهر واخبار اضراب السجناء والمعتقلين الفلسطينيين عن الطعام تتفاقم وتنقل لنا وللعالم مأساة ما يعانيه هؤلاء من تعذيب واضطهاد ٠ بدأ الاضراب الاول في سجن عسقلان في شهر تشرين الثاني ١٩٧٦ وبلغ ذروته في ١٠ / ١٢ / ١٩٧٦ عندما شمل الاضراب ما يزيد عن ٤٥٠ سجينا ومعتقلا فلسطينيا في سجن عسقلان ٠٠ وقد امتد الاضراب ٤٧ يوما وانتهى في ٢٥ / ١ / ١٩٧٧ بعد ان وافق مدير سلطة السجون الاسرائيلية على الاجتماع بممثلي المضربين « للبحث الجدي »في مطالبهم ، وقد تبع ذلك السماح بزيارات الاهل لهم ٠ وقال ناطق باسم المعتقلين « اننا ننتظر ان يبر مدير السجون بوعده ، نحن لا نطالب باخلاء سبيلنا ، ولا حتى باعتبارنا اسرى حرب ، ان كل ما نطلبه هو معاملة معقولة كتلك التي يتمتع بها اي سجين يهودي ، اي تحسين الطعام والسماح بالزيارات وتلقي العلاج الطبي اللازم ، وادخال الكتب والصحف والفسحة اليومية واعطاءنا اسرة نوم ٠٠ فنحن ادميون ونطالب بمعاملة انسانية ولن نقبل باقل من ذلك » ٠ (٢٩)

الا ان سلطات الاحتلال الصهيوني نكثت بوعودها التي لم تكن سوى وسيلة لتطويق الاضراب وانهائه ، خاصة بعد ان اكتسبت قضية المعتقلين ابعادا سياسية محلية وعربية ودولية ٠ وقد ادت مماطلة العدو الى دفع السجناء والمعتقلين الفلسطينيين الى استئناف اضرابهم بعد شهر واحد من الاضراب الاول ٠

بدأ الاضراب الثاني يوم ٢٦ / ٢ / ٧٧، حين اعلن سجناء عسقلان اضرابهم عن الطعام مرة اخرى احتجاجا على عدم وفاء السلطات الاسرائيلية بوعودها .ولم تكد اخبار استئناف الاضراب تنتشر حتى تجاوب معهم المعتقلون في السجون الاخرى ٠

قابل العدو هذا الاضراب كغيره من الاضرابات السابقة باللامبالاة وتشديد الاجراءات القمعية ضد المضربين وبالتعتيم على اخبارهم ٠ وفي محاولة لانهاء الاضراب قام العدو بتوزيع معتقلي سجن عسقلان على السجون الاخرى ، والقيام باجبار المعتقلين المضربين على تناول طعامهم بالقوة ، ومن خلال التغذية الصناعية بواسطة انابيب مطاطية ، وقال سجناء لوفد من الصحفيين الاسرائيليين الذين سمح لهم بزيارة المعتقلين العرب « انهم يبتلعون انابيب التغذية هذه لانهم يشعرون بانهم جعلوا وجهة نظرهم معروفة

عن طريق رفض تناول الطعام بصـورة عادية » . (٣٠)

وقد ادت اجراءات سلطات الاحتلال هذه الى الحاق عاهات دائمة بعدد من المضربين وبموت عدد اخر منهم وباختفاء اخرين . وكان من بين المصابين بعاهات دائمة كل من : محمود منهلي ـ الذي اصبح ضريرا وعبد اللطيف الدويده ـ بعد ان اصبح مصابا بالشلل وقرحة في المعدة . ويوسف احمد الخطيب ـ الذي اصبح مهددا بالعمى الكامل ، وعبد القادر عبد ربه الذي اصبح مصابا بقواه العقلية ، وعبد القادر مقين ـ الذي اصبح مصابا بعموده الفقري وبالتورم . (٣١) ومنذر ملحس وسليم فريتح الذان اصيبا بالهزال والاعياء الشديدين . (٣٢)

كما ان من بين الذين استشهدوا متأثرين مما لحق بهم من قلة العناية الطبية كل من : عمر شلبي ، وعدنان ابو حية . وكان من بين الذين اختفت اثارهم كل من السجينين جبر عمار وعبد العزيز شاهين . (٣٣)

صدى الاضراب في الاوساط الصهيونية

اثار الاضراب غضب وقلق المسؤولين الصهاينة خاصة وان اجراءاتهم القمعية ومحاولاتهم كسر الاضراب باءت بالفشل من جهة ، وساعدت على انتشار الاضراب الى السجون الاخرى في نابلس والرملة وجنين ورام الله وبئر السبع .واشار وزير الشرطة الصهيوني شلومو هليل الى خطر هذا الاضراب حيث قال « ان اضراب المعتقلين يلفت نظر الرأي العام ويضر بسمعة اسرائيل » . (٣٤) وبمناسبة اخرى قال وزير الشرطة « ان السجناء الذين حاولوا المس بالكيان الصهيوني بواسطة القنابل الى درجة القتل والتدمير يحاولون المس باسرائيل بواسطة قنابل اعلامية » . (٣٥)

صدى الاضراب في الاوساط المحلية والعربية والعالمية

على الصعيد المحلي ، قام اقارب واهالي المعتقلين والسجناء العرب بالدرجة الاولى بسلسلة اعتصامات وتقديم مذكرات احتجاج والقيام بمظاهرات متعددة في مختلف مدن وقرى الوطن المحتل ،احتجاجا على المعاملة الوحشية التي يتعرض لها السجناء العرب ، وطلبوا من كافة الهيئات الوطنية والبلديات ورجال الدين التدخل لنصرة قضايا المعتقلين في السجون الاسرائيلية .

من جهة اخرى فقد ساند الاضراب رجال الدين والبلديات والهيئات الحقوقية والنقابات المهنية والجمعيات الخيرية والنسائية في جميع مدن وقرى فلسطين المحتلة بدون استثناء ، عبر توجيه مذكرات وبرقيات الى سلطات الاحتلال ، وقناصل الدول الاجنبية بالقدس ، وللسكرتير العام لهيئة الامم المتحدة وللصليب الاحمر الدولي ، والى لجنة حقوق الانسان ، يشرحون فيها مأساة الاضراب وحياة السجناء المهددة بالمرض والموت ، وطلب الاسراع بالتدخل من اجل تلبية مطالبهم العادلة .

وقد عمت مظاهرات صاخبة مدن الضفة الغربية وخاصة نابلس ورام الله وجنين وطولكرم احتجاجا على سياسة القمع التي تمارسها سلطات الاحتلال ضد المعتقلين العرب ، واعرابا عن تضامن الجماهير الفلسطينية مع المعتقلين المضربين .

وقد ذكرت وكالات الانباء ٢٨ / ٢ / ٧٧ ان ما يزيد عن خمسين طالبا عربيا يدرسون في الجامعة العبرية بالقدس نظموا اضرابا عاما عن الطعام لمدة ثلاثة ايام تأييدا للسجناء العرب المضربين عن الطعام في سجن عسقلان ، وقال الطلاب

« انهم سيمتنعون عـن تنـاول الطعـام ويعتصمون في فناء الجامعة لكي يلفتـوا الانظـار الـى الظـروف السيئـة للسجناء » · (٣٦)

وعلى الصعيد المحلي ايضا فقد تضامن المحامون العرب في المناطق المحتلة عـام ١٩٤٨ مع رابطة الحقوقيين الديمقراطيين وقاموا بزيارة المضربين في سجن عسقلان كما عقدوا ندوات صحفية في كل مـن الناصرة وتل ابيب واصـدروا بيانـات اوضحوا فيها قضية المعتقلين ومطالبهـم وكشفوا عن اوضاع المعتقلين والسجنـاء العرب داخل السجون الاسرائيلية ·

وعلى **الصعيد العربي** ، سارعت الهيئات النسائية والدينية والخيرية والنقابية فـي الاردن (٣٧) وايضا في باقـي الـدول العربية الى ارسال برقيـات ومذكـرات احتجاج ضد سياسة العـدو العنصرية واساليبه القمعية ضد المعتقلين العـرب ، معلنين تضامنهم مع نضالات السجنـاء في سجون العدو · كما سارع السفـراء العرب في الامم المتحدة من جهة اخـرى بارسال مذكـرات وبرقيـات احتجـاج واستنكار لكل من السكرتير العام لهيئـة الامم المتحدة وللجنة حقـوق الانسـان ولهيئة الصليب الاحمر الدولي وللعديـد من الهيئات الدولية الاخرى ، ناشدوهـم فيها التدخل لدى السلطات الاسرائيليـة لتحسين احوال المضربين وتأمين سلامتهـم وفق المبادىء الانسانية والمواثيق الدولية ·

وعلى **الصعيد العالمي** ، طالبت جميـع الهيئات الدولية والانسانية بالتدخل لتأمين الحقـوق الانسانيـة للمضربيـن وانقاذهم · (٣٨) من جهة اخـرى فقـد تدخلت منظمة « أمنستي الدولية » ومركزها لندن ،فارسلت برقية الـى المستشـار القضائي الاسرائيلي اعربت فيهـا عـن اهتمامها بما يجـري فـي السجـون الاسرائيلية ، وخاصة الاضـراب عـن الطعام في عدد من السجون ، كما اشارت الى وفاة احد المعتقلين وطلبت العمل على تلافي حوادث الموت ، والعمل على تحسين ظروف السجون الاسرائيلية · (٣٩)

يوم السجين

أعلنت الثورة الفلسطينية ان يوم ١٧ نيسان هو يوم السجيـن الفلسطينـي ، ودعت جماهير الارض المحتلة والجماهيـر العربية الى القيام بحملة اعلامية واسعة تضامنا مع المعتقلين والسجناء العـرب في سجون الاحتلال الصهيوني · وتضامنا مع يوم السجين شهد الوطـن المحتـل اضرابا شاملا ومسيرات جماهيرية بهـذه المناسبة ، كما « اعلن جميع المعتقليـن العرب في سجون الاحتلال الاضراب عـن الطعام حتى تتحقق مطالبهم التي تتلخص باعتبارهم اسرى حرب ، وتحسين اوضاع السجون وادخال الصحف والكتب الـى السجناء ، والافـراج عـن المعتقليـن الاداريين ، وتشكيل لجان فرعية وحقوقية عالمية لزيارة السجون والافـراج عـن المعتقلين الذين يتهددهم الموت » · (٤٠) وبهذه المناسبة بعث رؤساء البلديات فـي الضفة الغربية المحتلة مذكرة الى هيئـة الصليب الاحمر الدولي ناشدوه فيهـا التدخل لوقـف المعاملـة الوحشيـة واللاانسانيـة والاساليـب القمعيـة الارهابية التي تمارسها سلطات الاحتلال ضد المعتقلين الفلسطينيين ، كما طالبوا في المذكرة بالعمل على تطبيق اتفاقيـة جنيف على المعتقلين الفلسطينييـن فـي السجون الاسرائيلية · (٤١) ومن جهـة ثانية فقد خصصت الصحف الصادرة في الارض المحتلة مقالاتها الافتتاحية لاحداث يوم السجين ·

وتضامنا مع يوم السجيـن اصـدرت « لجنة انقاذ القدس » بيانا بهذه المناسبة جاء فيه « ان لجنة انقاذ القدس درسـت احوال هؤلاء الاخوان ، وهي اذ تعلـن

تضامنها مع السجناء والمعتقلين العرب في مطاليهم العادلة وتضامنا مع سائر الاخوان العرب في المناطق المحتلة ، تحيي صمودهم وبطولاتهم وصبرهم وجلدهم » ، كما ناشدت اللجنة السكرتير العام للامم المتحدة وجميع الهيئات الدولية للعمل على حمل السلطات الاسرائيلية على مراعاة حقوق الانسان العربي وفقا للمواثيق والاعراف الدولية والقضاء على التمييز العنصري (٤٢) . وفي يوم السجين وجه اسقف الطائفة اللاتينية في الاردن المونسنيور سمعان نداء الى الامم المتحدة طالب فيه « العمل على رفع الظلم الواقع على المواطنين الفلسطينيين في الارض المحتلة ، ومعاملة المعتقلين الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية كاسرى حرب » (٤٣) كما دعا الاتحاد العام لعمال الاردن كافة المنظمات العمالية العربية والدولية لاظهار الدعم للمناضلين المعتقلين .

وبهذه المناسبة ادلى ناطق باسم اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير بتصريح جاء فيه « ان يوم التضامن مع السجين الفلسطيني يأتي ليؤكد ادانة عالمية ودولية للنظام العنصري الصهيوني في الوطن المحتل .. » .

قرار جديد وهام للصليب الاحمر الدولي

في المؤتمر الاخير لهيئة الصليب الاحمر الدولي الذي عقد في جنيف تم الموافقة على تمديد فاعلية الاتفاقية الدولية لعام ١٩٤٩ المتعلقة باسرى الحرب . كما وافق الاعضاء على اضافة مادة جديدة تقضي باضفاء صفة اسرى الحرب على «المحاربين الذين ليسوا في مصاف الجنود النظاميين والذين لا يخضعون لقيادة وطنية » . وقد صوت لصالح المادة الجديدة ٦٦ وفدا من بينهم وفد منظمة التحرير وعارضت هذه المادة : اسرائيل والبرازيل فقط . وقد وصف مندوب الكيان الصهيوني هذا القرار بأنه « وضع نهاية للقانون الانساني ! » وادعى ان المادة الجديدة « سوف تمد نطاق حماية الصليب الاحمر ومنزلة اسرى الحرب الى اي ارهابي في اي دولة » . من جهة اخرى اشارت وكالات الانباء الى ان مصادر اسرائيلية عبرت عن موقف العدو من هذا القرار بالقول « ان اسرائيل لن تلتزم بهذه المادة الجديدة التي اضيفت الى اتفاقية جنيف » . (٤٤)

ونرى أن قرار هيئة الصليب الاحمر الدولي يشمل المعتقلين السياسيين ضمن اتفاقية جنيف عام ١٩٤٩ ، ورفض الكيان الصهيوني لهذا القرار يؤكد حقيقتين اساسيتين :

الاولى ، ازدياد التأييد العالمي لقضايا المعتقلين والسجناء العرب في السجون الصهيونية باعتبارهم مناضلين سياسيين واصحاب حقوق مشروعة .

الثانية ، ادانة الكيان الصهيوني وسياساته القمعية ووضعه في مصاف الدول العنصرية وتاكيد هذه الصفة من خلال امعان العدو في فرض سياساته القمعية ورفضه كافة القرارات الدولية المتعلقة بالحقوق الشرعية والانسانية للشعب الفلسطيني بشكل عام ، وللمعتقلين والسجناء العرب داخل السجون الصهيونية بشكل خاص .

صبحي طه



هوامش :

١ ــ انظر : دراسة عامة عن السجون الاسرائيلية ، صحيفة تشرين السورية ٣ / ٤ / ١٩٧٧ .

٢ ـ الدستور الاردنية، ٥ / ٢ /١٩٧٧ ·

٣ ـ النـــداء اللبنانيـــة ١٠ / ٢ / ١٩٧٧ ·

٤ ـ صحيفة تشرين السورية ٣ / ٤ / ٧٧ ·

٥ ـ مجلة فلسطين المحتلة العدد : ٨٣ ، ٢٠ / ٤ / ١٩٧٧ ·

٦ ـ النداء اللبنانية ٥ / ٢ / ٧٧ ·

٧ ـ الدستور الاردنية ٥ / ٢ / ٧٧ ·

٨ ـ النداء اللبنانية ٥ / ٢ / ٧٧ ·

٩ ـ الاتحاد ـ ١٨ / ١ / ١٩٧٧ ·

١٠ ـ فلسطين المحتلة العدد : ٨٣ ، ٢٠ / ٤ / ٧٧ نقلا عن صحيفة الهيرالد تريبيون الاميركية ·

١١ ـ هآرتس ١٧ / ١٠ / ١٩٧٤ ·

١٢ ـ الاتحاد ٢٥ / ١ / ١٩٧٧ ·

١٣ ـ الدستور الاردنيـــة ٢٨ / ١ / ١٩٧٧ ·

١٤ ـ الثورة السورية ٣١ / ٣ / ٧٧ ·

١٥ ـ صحيفة تشرين السورية ٣ / ٤ / ٧٧ ·

١٦ ـ مجلة فلسطين المحتلة العدد : ٨١ ، ٦ / ٤ / ١٩٧٧ ·

١٧ ـ هآرتس ١٧ / ١٠ / ٧٤ ·

١٨ ـ الثورة السورية ٣١ / ٣ / ٧٧ ·

١٩ ـ الاتحاد ٢٥ / ١ / ١٩٧٧ ·

٢٠ ـ مجلة فلسطين المحتلة العدد : ٨٣ ، ٢ / ٤ / ١٩٧٧ ·

٢١ ـ صحيفة تشرين السورية ٣ / ٤ / ١٩٧٧ ·

٢٢ ـ الثورة السورية ٣١ / ٣ / ٧٧ ·

٢٣ ـ هآرتس ١٧ / ١٠ / ١٩٧٤ ·

٢٤ ـ النداء اللبنانيـــة ١٨ / ١ / ١٩٧٦ ·

٢٥ ـ صحيفة الشعب المقدسية ١٣ / ١ / ١٩٧٧ ·

٢٦ ـ دافار ٢٥ / ٧ / ٧٥ ·

٢٧ ـ المحرر ٢٤ / ٢ / ٧٧ نقلا عـن اذاعة اسرائيل ·

٢٨ ـ المحـرر اللبنانيـــة ١٧ / ٢ / ١٩٧٧ ·

٢٩ ـ الاتحاد ١ / ٢ / ١٩٧٧ ·

٣٠ ـ الانوار اللبنانيـــة ١٠ / ٢ / ١٩٧٧ ·

٣١ ـ الدستور الاردنيـــة ٢٨ / ١ / ١٩٧٧ ·

٣٢ ـ الاتحاد ١٨ / ١ / ١٩٧٧ ·

٣٣ ـ الاتحاد ، العددان ٢٥ ، ٢٨ / ١ / ١٩٧٧ ·

٣٤ ـ السفير اللبنانيـــة ٢٠ / ٣ / ١٩٧٧ ·

٣٥ ـ مجلة فلسطين المحتلة العدد ٨١ ، ٦ / ٤ / ٧٧ نقلا عن صحيفة عل همشمار·

٣٦ ـ المحرر اللبنانية ١ / ٣ / ١٩٧٧ ·

٣٧ ـ الدستور ٢٨ / ١ / ١٩٧٧ ·

٣٨ ـ الاتحاد ١٨ / ١ / ١٩٧٧ ·

٣٩ ـ الدستور ٤ / ٢ / ٧٧ ·

٤٠ ـ فلسطين المحتلة العدد ٨٤ ، ٢٧ / ٤ / ١٩٧٧ ·

٤١ ـ المصدر السابق ـ

٤٢ ـ المصدر السابق ـ
٤٣ ـ المصدر السابق ـ
٤٤ ـ فلسطين الثــــورة ٢٥ / ٤ / ١٩٧٧ ٠

مؤتمرات الطيران المدني العربي
باشراف
مجلس الطيران المدني للدول العربية

لما كانت دول العالم وبدون استثنـــاء الغني منها والفقير ، المتطورة والمتخلفة قد اولت قطاع الطيران المدني الاهمية الكبرى المرجوة في مجالاته المختلفة لتسهيل عملية ربط البلدان بعضها ببعض لتنشيط التعاون فيما بينها وتشجيع تبادل الزيارات وعلـى كافة الاصعدة وفي شتى المجالات لارســاء قواعد ثابتة من التعاون والتفاهم فيمـــا بينها ٠ ولما كانت البلاد العربية قد قطعـت مراحل متقدمة في مجالي تضامنها ووحدتها لتعزيز امنها وتقدمها وازدهارها في كافـة الميادين الاجتماعية والسياسية والزراعية والاقتصادية ، قام مجلس الطيران المدنـي للدول العربية
(Civil Aviation Council of Arab States) (C.A.C.A.S)
الذي اتخذ القاهرة مقرا له والذي تــم تشكيله بتاريخ ١١ ـ١١ـ١٩٦٧بموجبقرار صادر عن مجلس جامعة الدول العربيـــة بعد ان صادقت على اتفاقيتـه اربـع دول عربية هي مصر والاردن والعراق وسوريا

وكان الهدف من انشاءه ، تحقيق اقصــى ما يمكن من التعاون بين الاقطار العربيـة في حقل الطيران المدني وتعزيز وسائـــط النقل الجوي بينها ضمانا لمستقبلها ودعما لسمعتها ومكانتها بين الامم في العالم ٠

ومنذ تأسيسه لم يأل مجلس الطيـــران المدني للدول العربية جهدا الا ووضعه في خدمة هذا المرفق الهام ، ان كان ذلك في شكل الدعوة لعقد المؤتمرات البناءة ، او الاعداد للدراسات في كافة مجالات هـــذا الحقل الهام ، او في اعداد الملاحــــق والاتفاقات اللازمة ٠ وقد ساعدالمجلسعلى ارساء وتقوية العلاقات بين العاملين فـــي حقل الطيران المدني في الدول العربيـــة توخيا لبلوغ الاهداف والمصالح العربيـــة المشتركة في هذا الميدان ٠ ويقوم المجلـس اليوم ببذل الجهود لمواجهة التحديــــات والمشكلات والتبعات التي فرضتهاالمتغيرات الدولية في المجالات الاقتصادية والفنيـــة التي تنعكس باثارها على صناعة النقـــل الجوي المدنـي ٠

والذي يساعد المجلس في تحركه الناجح التزامه بمبادىء اساسية تنسجم مع نشاطاته ومشاريعه ، طبقا لاولويات الخطة الموضوعة ٠

ان تعديل اتفاقية المجلس الذي تم باغلبية ثلثي الاعضاء استنادا الى المادة (١١) من اتفاقية المجلس تضمن الفصل بين رئاسة السلطتين التشريعية والتنفيذية وتشكيل الهيكل التنظيمي لجمعية عمومية يجري انتخاب رئيسها بصفة دورية من الاقطار العربية ، ومكتب يتكون من رئيس المجلس واربعة اشخاص من مختلف الاقطار العربية ، وامانة دائمة يشرف عليها الامين العام ٠ ان ذلك لا شك سيقود المجلس الى الارتفاع الى المستوى المنشود ويسهل عملية ممارسته لاختصاصاته ومسؤولياته بالمرونة التي تقتضيها المرحلة الراهنة لوضع اسس تطوير صناعة هذا المرفق الهام ٠

ومما لا شك فيه ان المجلس قد نجح في المجالين الدولي والعربي الاقليمي ومن الامور التي حققها المجلس في هذين المجالين يمكن تلخيصها بالاتي :

المجال الدولي :

١ ـ اصبحت اللغة العربية احدى اللغات المستخدمة في اجتماعات المنظمة الدولية للطيران المدني
(International Civil Aviation Organization) (I.C.A.O.)
والمنظمة الافريقية للطيران المدني (افكاك)
(African Civil Aviation Commission) (AF. C.A.C)

٢ ـ تمت الموافقة على اعداد قاعة عربية بالمبنى الجديد للمنظمة الدولية للطيران المدني بمونتريال تبلغ مساحتها (٢٥ × ٥٠) مترا وسيتم زخرفتها وتاثيثها على نمط الفن المعماري العربي الاصيل ٠

٣ ـ تم قبول منظمة التحرير الفلسطينية كمراقب في اجتماعات الجمعية العمومية للمنظمة الدولية للطيران المدني التي مقرها مونتريال ـ كندا ٠

٤ ـ صدور قرار من منظمة الطيران المدني الدولي (I. C.A.O) يمنع اسرائيل من استخدام مطار القدس العربي ٠ فقد كانت اسرائيل تنوي استخدامه كمطار دولي تستقبل فيه طائرات شركات النقل الاجنبية، بحيث تهبط مباشرة فيه ، لما فيه من مضاعفات خطيرة على عروبة المطار (سياسيا) والتاثيرات المضرة بالحقلين السياحي والاقتصادي والمعنوي (عربيا)٠

٥ ـ حصول الدول العربية على ثلاثة مقاعد في مجلس المنظمة الدولية علاوة على تسلم عربي لرئاسة مجلس المنظمة ٠

المستوى العربي (الاقليمي)

١ ـ ساعد المجلس على اصدار اتفاقية التعاون بين الدول العربية في مجال البحث والانقاذ وهو عامل مهم جدا بالنسبة لسلامة الركاب والمسافرين العرب والاجانب ويعطي ثقة اكبر في هذا المرفق عربيا ودوليا ٠

٢ ـ تم اعداد تشريعات الطيران المدني الموحدة والتي تقوم الدول العربية باصدار قوانينها الوطنية الخاصة التي تحدد مجالات تحرك مديريات الطيران المدني فيها ٠

٣ ـ تم اعداد المشروع النموذجي لرسوم المطارات والخدمات الملاحية واصدار نسخا مترجمة بالعربية عن معاهدات الطيران المدني الدولية وملاحقها ٠

٤ ـ صدور (اعلان مراكش) لاطلاق الحريات الجوية بين البلاد العربية الذي ساعد في ربط المشرق العربي بالمغرب العربي بخطوط جوية عربية مباشرة ٠ بعد ان كان المسافر العربي يضطر للسفر من المشرق الى المغرب وبالعكس عن طريق القارة الاوروبية وبوسائط نقل جوية اجنبية ٠

٥ ـ قرار المجلس بانشاء الاكاديمية العربية للطيران المدني التي ستكون بمستوى جامعة تخصص في حقل الطيران المدني ٠

مؤتمرات الطيران المدني

عقد مجلس الطيران المدني للدول العربية ستة عشرة دورة لحد الان منذ تأسيسه ٠ وكانت الدورة الثانية عشر التي عقدت بمدينة مراكش في المملكة المغربية هي الدورة الاولى التي دعي لحضورها وفد من منظمة التحرير الفلسطينية ٠ وكان جدول الاعمال حافلا بالمواضيع والقضايا ذات العلاقة بصناعة الطيران المدني ٠ وقد تم في هذه الدورة صدور (اعلان مراكش) لاطلاق الحريات الجوية بين البلاد العربية، انطلاقا من ايمان الجميع بضرورة ارساء قواعد اساسية وثابتة للتعاون بين الاقطار العربية في حقل النقل الجوي لاتاحة الفرصة امام مؤسسات وشركات النقل الجوي العربي لربط البلاد بشبكة قوية من الخطوط الجوية المنتظمة دون قيود او عراقيل ٠ان ابرز ما تضمنه الاعلان من بنود هو اطلاق الحريات الثالثة والرابعة والخامسة ٠ وتدعيم شبكة الخطوط الجوية العربية داخل المنطقة العربية عن طريق ربط جناحي الوطن العربي مشرقه ومغربه بخطوط جوية مباشرة ٠ كما اوصى المجلس في دورته الثانية عشر انشاء صندوق برأس مال عربي لتمويل شراء الطائرات والمعدات الارضية واجهزة المساعدات الملاحية للمطارات العربية ٠ ومن جهة اخرى استعرض موضوع الحوار العربي الاوروبي ذي الطابع الفني في حقل الطيران وما احرزته المباحثات الجارية بين الطرفين العربي والاوروبي من تقدم ٠ كما تم عرض مواضيع مختلفة تتعلق بحقل الطيران تمت الموافقة على بعضها في حين ارجىء النظر في البعض الاخر وتمت الموافقة على احالتها للدراسة في الدورة اللاحقة ٠

وعلى صعيد النشاط الفلسطيني في المجلس اقر المجلس ورقتي العمل اللتين تقدم بهما وفد فلسطين حيث تمت الموافقة عليهما بالاجماع ٠ وجاء بالقرارين :

اولا : القرار رقم (د ١٢ ـ بند رقم « ٤٤ » ـ **ورقة العمل رقم «٤٤»**) مجلس الطيران المدني للدول العربية ٠

بما ان هيئات ومصالح الطيران المدني العربية تقاطع مطارات العدو وتمنع الطائرات التي تهبط في اراضيها من التوجه مباشرة من مطاراتها الى الاراضي الفلسطينية المحتلة ٠

ونظرا لقيام بعض الشركات بايصال السواح الى اراضي بعض الدول العربية ثم ينقلون عبر الحدود العربية الى الارض الفلسطينية المحتلة ٠

ونظرا لما يشكله ذلك من تشجيع للسياحة لدى العدو ويعزز بالتالي امكانياته الاقتصادية ، قرر المجلس :

١ ـ يكلف المكتب الدائم بعرض موضوع عبور السياح المسافرين الاجانب من والى فلسطين المحتلة على مجلس جامعة الدول العربية لاتخاذ الاجراءات اللازمة لتنفيذ قرار منع هذا الانتقال وذلك عملا باحكام قانون مقاطعة اسرائيل ٠

٢ ـ تلتزم كافة مؤسسات الطيران العربية بعدم نقل السواح المسافرين الاجانب الراغبين في اجتياز حدود الدول العربية من والى الاراضي الفلسطينية المحتلة ٠

ثانيا : القرار رقم (د ١٢ ـ **بند «٤٥» ـ ورقة العمل رقم «٤٥»**) مجلس الطيران المدني للدول العربية ٠

نظرا لان شركة العال ـ مثلها مثل كثير من المؤسسات الاسرائيلية ـ تعتبر مؤسسة عسكرية ، ذلك لان طياريها عسكريون مسجلون في قوائم الاحتياط العسكري ، كما ان الطائرات التابعة لها

تقوم بنقل السلاح والعتاد الغربـــــي والمتطوعين ، كما حصل في حرب اكتوبر ١٩٧٣ كما ان ورش الصيانة التي تملكهـا هذه الشركة تقوم باصلاح وصيانــــــة الطائرات الحربية بالاضافة الى اعمـــال القرصنة الجوية التي تمارسها دولةالكيان الصهيوني مما يعرض سلامة وامن الطيران المدني الدولي في المنطقة للخطر ٠

لكل هذه الاعتبارات ولان هذه الشركة مؤسسة من مؤسسات دولة الكيـــــان الصهيوني في فلسطين المحتلة ولانطابعها العسكري عدواني يتنافى مع عضويتها فـي المنظمة الدولية للطيران المدني ويعرض امن وسلامة المسافرين للخطر ، قرر المجلس :

١ ــ يقوم المكتب الدائم ، واعتبارا من تاريخه بمراجعة مؤسسات الطيران المدني العالمية لاطلاعها على وضع وطبيعة هــذه المؤسسة وارتباطها بالاجهزة العسكرية في فلسطين المحتلة ٠

٢ ــ تقوم الدول الاعضــاء في المجلس بالتعاون مع مؤسسات الطيران المدنــي الصديقة بتبني طرد اسرائيل من عضويـة الجمعية العمومية في المنظمة الدوليــة للطيران المدني في دورة انعقادها القادمة٠

٣ ــ يكلف المكتب الدائم برفع توصيـة لجامعة الدول العربية ، تقضي باتخـــاذ قرار بمقاطعة شركات الطيران التي تتعامل مع مؤسسة « العال » او مع المطارات فـي فلسطين المحتلة ٠

وفي العام ١٩٧٥ حضرت منظمة التحرير الفلسطينية الدورة الرابعة عشـر لمجلس الطيران المدني للدول العربية التيعقــدت بمدينة طرابلس في ليبيا ٠

وكان من اهم المسائل التي اقرهـــا المجلس انتخاب رئيس جديد له بعدانتهاء مدة رئاسة السيد المهندس محمد سليمـان الحكيم التي دامت (٨) سنوات ٠

وبعد الاقتراع فاز مرشح سوريـــا السيد ناهض ضاني برئاسة المجلــس للسنوات الاربع القادمة وهي المدة المقررة٠ ثم انتقل المجلس الى بحث مشروع موازنة المكتب الدائم المقترحة للسنة المالية ١٩٧٧ البالغة (٦٥٠ر٣٣١) دولارا فاقرها باجماع الاصوات ٠ وكان للمجلس دور في انتقاء (يوم الطيران المدني العربي) للاحتفـال به في كافة انحاء الوطن العربي ٠ وبعـد المناقشة وافق الجميع على اختيار مناسبة مولد الرائد العربي عباس بن فرناس لتكون يوما للطيران تحتفل به كافة الاقطــــار العربية في آن واحد ٠

وفي الدورة الرابعة عشر وافق المجلس على مشروع تعريب افلام الطيران التــي تنتجها المنظمات الدولية والاقليميةوعرضها فيمحطات تلفزيونات الدول العربية البالغ عددها (١٧) محطة وذلك بالتعاون معاتحاد اذاعات الدول العربية الذي ابدى موافقـة على ذلك ٠

ومن جهة اخرى اكد المجلس في هــذه الدورة على القرارات السابقة التياصدرها بشأن نشر وعي الطيران بين الشبـــاب العربي لما يعود به من فوائد على الشباب وعلى هذه الصناعة في مختلف ارجـــاء الوطن العربي ٠ وكان المجلس قد اقر فـي دورته السادسة زيادة امكانيات نـــوادي الطيران لتتمكن من تحقيق الاتي :

(١) انشاء معاهد للطيران الشراعــي وتشغيلها ورعايتها (٢) نشر هواية نماذج الطائرات في المدارس (٣) نشر فرق الكشافة الجوية في المدارس (٤) نشر الكتيباتوعقد المسابقات (٥) الاشتراك في الاجتماعـات والمسابقات الدولية ٠ وفي دورته الرابعة عشر اقر توصيات اخرى تتعلق بالموضوع نفسه تطالب المكتب الدائم بتحقيق الاتي : (١) تجميع ما صدرمن كتيبات وكتبتساعد على نشر وعي الطيران وتعميمها علىباقي الدول العربية (٢) البدء في اعداد وطبـع

وتعميم كتيبات في فروع الطيران بغرض نشر الوعي الجوي وذلك في حدود موازنته السنوية ٠

كان من ضمن سلسلة القرارات التي اصدرها المجلس في دورته الرابعة عشر ثلاث قرارات قدمها الوفد الفلسطيني تم اقرارها بالاجماع ٠

وهذه القرارات الثلاث هي :

اولا : القرار رقم (د ١٤ ـ ٤٨) ٠

اوضح رئيس وفد فلسطين (منظمة التحرير الفلسطينية) انه بمناسبة انشاء القاعة العربية في المقر الجديد للمنظمة الدولية في مونتريال وقيام الدول العربية بتزويد هذه القاعة بقطع اثرية اسلامية وعربية فان وفد منظمة التحرير الفلسطينية يسره ان يعلن استعداد المنظمة تزويد هذه القاعة بقطع اثرية عربية فلسطينية من انواع لها قيمة سياحيةواثرية كبيرة، كما يرجو ان يتكرم المجلس بالموافقة على ادراج اسم (فلسطين) ضمن لائحة اسماء الدول العربية التي ستشارك فيهذه القاعة والتي ستدرج اسماؤها في اللائحة المذكور ٠ وقد وافق المجلس على ذلك بالاجماع ٠

ثانيا القرار رقم (د ١٤ ـ ٤٩) ٠

استعرض رئيس وفد منظمة التحرير الفلسطينية (فلسطين) ورقة العمل رقم ٤٨ في شأن دعوة منظمة التحرير الفلسطينية الى مهرجانات الثقافة الجوية التي يدعو اليها مجلس الطيران المدني بالاشتراك مع الدول العربية وذلكمشاركة من المنظمة في مثل هذه المهرجانات التي تهدف الى نشر الوعي الجوي وقد وافق المجلس على ذلك بالاجماع ٠

ثالثا ـ شرح رئيس وفد فلسطين (منظمة التحرير الفلسطينية) ورقة العمل المقدمة منه في شأن توفير فرص التدريب والمعونة الفنية للمنظمة مشيرا الى ان المجلس الموقر سبق وان اقر في دورته العاشرة بالدوحة عام ١٩٧٢ تخصيص ميزانية لصندوق المعونة الفنية ٠ وانه بالنظر الى ان منظمة التحرير الفلسطينية تقوم باعداد الكوادر الفنية وغيرها اللازمة في كافة المجالات ومن بينها الطيران المدني، فانها ترجو اعتبار منظمة التحرير من بين الجهات التي يحق لها الاستفادة من هذه المعونة ومن معاهد ومؤسسات التدريب التابعة للدول العربية ، فضلا عن ان العناصر التي سيجري تدريبها في مثل هذا المرفق الحيوي سوف تحتاج الى ممارسة العمل بشكل مستمر للمحافظة على الاهلية واكتساب الخبرة الضروريةوبالتالي اهمية اتاحةفرص الاستخدام لهذه العناصر الفلسطينية المؤهلة بالبلاد العربية ٠

وبعد المناقشة وافق المجلس على اصدار القرار الاتي :ـ

قرار رقم (د ١٤ ـ ٥٠) ٠

(١) الموافقة على الرغبة التي ابدتها منظمة التحرير الفلسطينية الاستفادة من المعونة الفنية لمجلس الطيران المدني للدول العربية في تأمين المنح لتدريب عناصر فلسطينية مرشحة من قبلها في مجال الطيران المدني ٠

(٢) حث الدول الاعضاء على افساح المجال لتدريب عناصر فلسطينية مرشحةمن قبل المنظمة في مجالات الطيران المختلفة في المعاهد ومؤسسات التدريب المتوفرة لديها مع تأمين ما يمكن من معونة في هذا المجال ٠

(٣) حث الدول الاعضاء على توفير فرص الاستخدام لهذه العناصر بعدتخرجها في المؤسسات والشركات والادارات التي تراها مناسبة بغية محافظة هذه العناصر على كفاءتها واهليتها الفنية ٠

الدورة الخامسة عشر لمجلس الطيران المدني للدول العربية ٠

عقدت في القاهرة في الفترة ما بين ١١ـ١٦ـ١٢ـ١٩٧٦و تغيب وفد فلسطين (منظمة التحرير الفلسطينية) عن حضور جلساتها ٠

الدورة السادسة عشر لمجلس الطيران المدني للدول العربية ٠

عقدت في مدينة الدار البيضاء في المملكة المغربية وكانت عبارة عن اجتماعين ٠

الاجتماع الاول خصص لدراسة **مشروع اتفاقية الاكاديمية العربية للطيران المدني** وامتد من ١٩ـ٢١ـ اذار (مارس) ١٩٧٧٠ حضرته وفود عن (٧) دول عربيةبالاضافة الى الوفد الفلسطيني ٠ وقد تم في هذه الاجتماعات اقرار الشكل النهائي لبنود الاتفاقية وجرى التوقيع عليها بالاحرف الاولى من قبل رؤساء الوفود ٠ وجرى تسليم كل وفد نسخة عن الاتفاقية على ان تحفظ نسخة اخرى في المكتب الدائم ٠ وتتكون الاتفاقية من (٢٦) مادة ، نصت الاولى على تسمية الاكاديمية بـ **(الاكاديمية العربية للطيران المدني)**
(ARAB CIVIL AVIATION ACADEMY)

اما اهدافها فهي العمل على تحقيق رسالتها العلمية في تدعيم وتطوير صناعة الطيران المدني والنقل الجوي في الدول العربية الاعضاء في المجلس ٠

اما الاجتماع الثاني فقد امتدت اجتماعاته من ٢٢ ـ ٢٤ اذار (مارس) ١٩٧٧ ، وضم وفودا عن (١٣) دولة عربية بما في ذلك وفد منظمة التحرير الفلسطينية، ووفود (١٢) شركة ومؤسسة طيران عربية من الشركات الاعضاء في الاتحاد العربي للنقل الجوي ٠ فقد تناول المجتمعون في مناقشاتهم البندين الرئيسيين في جدول الاعمال ، حيث بحثوا في الاول موضوع **« الخطوط الجوية العربية العالمية » التي دعا الى تاسيسها مجلس الوحدةالاقتصادية للدول العربية في العام ١٩٧١ ٠**

والجدير بالذكر فان تاريخ الموافقة على فكرة تكتيل جهود الدول العربية في مجال النقل الجوي ترجع الى العام ١٩٤٦ حيث وافقت الدول العربية على هذا المبدأ في مؤتمر عاليه بلبنان ، وفي ايار (مايو) ١٩٥٧ كلفت جامعة الدول العربية (المجلس الاقتصادي) باعداد مشروع انشاء « شركة عربية للنقل الجوي » ٠ واعدت الدراسة على اساس المقارنة بين انشاء اتحاد شركات الطيران العربية على نمط (كونسورتيوم) (Consortium) الدول الاسكندنافية واخر لانشاء مؤسسة الخطوط الجوية العربية العالمية ٠ وفي اجتماع بغداد عام ١٩٦١ استقر الرأيعلى تفضيل مشروع مؤسسة الخطوط العالمية ٠ وفي ١٧ـ٤ـ١٩٦١ وافق المجلس الاقتصادي لجامعة الدول العربية على المشروع ٠ وفي ٢١ـ٣ـ١٩٦٥ وافق مجلس جامعة الدول العربية على الفكرة ٠ وفي العام ١٩٦٧بعد تشكيل مجلس الطيران المدنيللدول العربية احيل المشروع اليه لانجازه وابداء الرأي فيه من وجهة النظر الفنية ٠ وفي الجلسة الاخيرة التي عقدت في الدار البيضاء في الفترة بين ٢٢ـ٢٤ اذار (مارس) ١٩٧٧ تقرر بالاجماع تجميد مشروع الخطوط الجوية العربية العالمية واعتماد مبدأ التشغيل المشترك بين شركات الطيران العربية ٠ كما تقرر في الاجتماع المشترك اتخاذ ثلاثة خطوط عالمية للتسيير المشترك بين شركات الطيران العربية بشكلمرحلي٠ **الخط الاول** عمان ـ دمشق ـ نيويورك وبالعكس وستعمل على هذا الخط طائرات شركتي عاليه والسورية بشكل مشترك ٠ **الخط الثاني** الدار البيضاء ـ ريو دي جانيرو وتعمل حاليا علىهذا الخط طائرات الخطوط الجوية المغربية الخط الثالث القاهرة ـ طوكيو وتعمل عليه حالياطائرات

شركة مصر للطيران · وكانت من اهـــم الرسائل التي تليت في الاجتماع رسالة الملك حسين حيث تقدم فيها بمطار عمان الدولي بكامل منشاآته ومدارجه واجهزته ليكــون مقرا للاكاديمية العربية للطيران المدني ·

وسيقوم المكتب الدائم بالاتصال بالجانب الاردني لبحث الموضوع وتقرير ما هـــو مناسب · ومن جهة اخرى وزع الجانـب الاردني دعوة للوفود المشتركة لحضــور مؤتمر للطيران تقرر عقده في عمان فـــي الفترة بين ١٥ـ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٧ سيخصص لبحث سلامة وازدهـــار عمليات الطيران المدني في الشرق الاوسط·

اما البند الثاني من محضر الجلســة فقد شمل موادا تتعلق بمؤتمر منظمة الطيران الدولية المقرر عقده في مونتريال بكندا في الفترة بيـــن ١٣ـ٢٦ ـ نيسان (ابريل) ١٩٧٧ · وقد دارت المناقشات في الاجتماع لتنسيق جهود الوفود العربية المشتركــة بالمؤتمر الدولي وتوحيد ارائها ووجهـــات نظرها فيما يتعلق ببعض قضايا الطيـــران المدني والنقل الجوي المطروحة على بساط البحث في المؤتمر المذكور

الرائـد الطيار

حسين عويضة

رسائل

رسالة بودابست :
علامة على طريق طويل

حين يدور الحديث عن النضال الجاري على النطاق العالمي تضامنا مع الشعب العربي الفلسطيني تمر في خاطري ذكرى شخصية متواضعة · لقد أقمنا قبل فترة غير بعيدة في أحد بيوت الثقافة الجديدة في حي كوبانيا العمالي ذي التقاليد الثورية العريقة معرضا للصور عن كفاح الشعب العربي الفلسطيني تحت شعار « شعب يبحث عن وطن » · وقد سنحت لي فرصة المشاركة في افتتاح المعرض الذي زرته بعد ذلك اكثر من مرة · وخلال تلك الزيارات حصلت على الانطباع العميق والكبير فقد كنت شاهدا على مشاعر التضامن النابعة من سويداء القلب التي يكنها شعبنا ·

وطبيعي ان هذا التفهم النشيط والفعال لا ولن يقتصر على معرض واحد او على الاثر الذي يتركه مثل هذا المعرض · ففي جمهورية المجر الشعبية تصدر بشكل منتظم كتب ودراسات ومقالات تحث على اقرار الحقوق الوطنية الفلسطينية دون تأخير باعتبار ذلك الحل الممكن الوحيد العادل للمشكلة الفلسطينية التي تعتبر قطب الرحى في أزمة الشرق الاوسط · كما قام مراسلو الصحف المجرية مؤخرا وبشكل منتظم بنشر أنباء اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة والتعريف بالقرارات الصادرة عنه على نطاق واسع · وتتردد على شاشة التلفزيون المجري بشكل منتظم ايضا تصريحات القادة الفلسطينيين البارزين ، والتصريحات الهامة التي ادلى بها ياسر عرفات في اكثر من مناسبة كانت مصدر سعادة خاصة بالنسبة لنا · وعلاوة على ذلك فهناك برنامج شهري يبثه التلفزيون المجري تحت عنوان « المنبر » تكمن شعبيته في حقيقة ان المشاهد يمكنه ان يطرح اسئلته من خلال الهاتف على الخبراء في الشؤون الخارجية الموجودين في الاستوديو لهذا الغرض ·· ويمكن قياس مدى اهتمام المواطن المجري في هذا الميدان من خلال عدد الاسئلة المطروحة · وقد قدم المئات حتى الان خلال هذا

البرنامج اسئلة تتعلق بتفصيلات مختلفة تدور حول التعرف على كفاح الفلسطينيين العرب ·

ومن جهة اخرى فحين تناقش اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي المجري ومجلس رئاسة جمهورية المجر الشعبية ومجلس الوزراء والجمعية الوطنية بشكل منتظم قضية الشرق الاوسط وتعرض وجهات نظرها ، فهي تفعل كل ذلك استنادا الى اوسع قاعدة من المساندة والمشاركة الشعبية معبرة بذلك عن رأي وارادة شعبنا · وعلى غرار ما يتصل بالقضايا الاخرى فان وجهات نظر ومواقف جماهير الشعب المجرى والاجهزة القائدة له تلتقي في وحدة لا يمكن ان تنفصم ·

وفي هذا المجال اود ان اقتطف بعض ما جاء في البيان الصادر عن اجتماع اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي المجري في الثالث عشر من نيسان المنصرم بصدد الوضع في الشرق الاوسط : « ان اللجنة المركزية لتؤكد مجددا ان الوضع في الشرق الاوسط ما يزال معقدا وخطيرا اذ لم تتحقق بعد اية خطوة جدية لحل الازمة ·· فالدوائر الاستعمارية والرجعية بدأت بشن حملة واسعة ضد القوى التقدمية العربية ·· وتسعى هذه الدوائر لتفسيخ وضرب القوى الاجتماعية التقدمية في بلدان الشرق الاوسط ولتصفية منظمة التحرير الفلسطينية · ان اللجنة المركزية لتؤكد مجددا بأن تسوية أزمة الشرق الاوسط يجب ان تتم بالطرق السلمية وبشكل شامل ومن خلال اشتراك جميع الفرقاء المعنيين · وان شروط التوصل لذلك تكمن في انسحاب القوات الاسرائيلية من جميع الاراضي العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ ، وفي ضمان الحقوق الوطنية الشرعية للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وتقديم الضمانات بصدد استقلال وأمن جميع دول المنطقة · ان اللجنة المركزية لتقدر بالغ التقدير المقترحات الاخيرة للاتحاد السوفيتي التي تخدم بشكل جيد قضية التوصل لتسوية سياسية » ·

وبروح السياسة السلمية المبدئية الدؤوبة هذه وقف وفد جمهورية المجر الشعبية في جميع المناسبات خلال مناقشات منظمة الامم المتحدة داعما ومؤيدا جميع القرارات التي اتخذت في اطار الدفاع عن مصالح الشعب العربي الفلسطيني ولترسيخ الجبهة المعادية للاستعمار · ويعبر ممثلو ومندوبو وطننا عن هذا الرأي نفسه في جميع المحادثات التي يشاركون بها سواء اكانت ثنائية ام متعددة الجوانب مع مختلف الاطراف وعلى جميع المستويات ·

ومن الطبيعي انه لكي تصبح الصورة واضحة متكاملة فانهم يقومون بعرض موقف المجر في جميع المحافل الدبلوماسية ذات الصفة الشعبية التي تزداد اهميتها في عصرنا الراهن · ونحن نعتبر مثل هذه المحافل عنصرا جوهريا من مثل النشاطات الواسعة المدى لحركة السلام العالمية وحركات التضامن الدولية واجتماعات منظمة شعوب آسيا وافريقيا حيث تبرز المساندة للشعب العربي الفلسطيني بشكل متزايد اكثر قوة وحزما ووضوحا ·

ترى ما هو السبب في كون الشعب المجري بملايينه العشرة والنصف وبرقعة بلاده الصغيرة نسبيا في وسط اوروبا يكن مثل هذه المشاعر العميقة تجاه قضية عرب فلسطين ؟ انه لمن الواضح لنا جميعا أن قضية السلام والامن والانفراج الدولي كل لا يتجزأ ، فعناصرها المتعددة ترتبط بعضها بعضا بشكل لا ينفصم ··

والامر الذي اثار السرور والرضا فينا انه على اثر الجهود التي استمرت سنين طويلة نجحت البلدان الاشتراكية من خلال سلسلة من المبادرات بجعل الوثيقة الختامية لمؤتمر الامن الاوروبي امرا مقبولا · ان ما تقدم يشير الى ان الوقائع القائمة في القارة الاوروبية تاخذ مجراها عمليا وحتى ولو لم يتم ذلك دون تعكير او تراجعات كما تحدث موازين القوى الفعلية فيها اتجاها جوهريا للانفراج ·

ومع ذلك فان اوروبا ليست قارة معزولة او قائمة بذاتها اذ يمكن الحديث فقط عن أمن أوروبي حقيقي راسخ وثابت اذا اما اكتمل الانفراج السياسي بأنفراج عسكري ايضا واذا ما تم الحفاظ على قواعد التعايش السلمي في كل مكان ووضع حد لبؤر الازمة التي تنذر بالخطر في كوكبنا · ويكفي ان نلقي نظرة على الخارطة لنرى ان الشرق الاوسط هو أقرب بؤرة للازمة بالنسبة لاوروبا ، وهذه المنطقة تقع على ملتقى القارات الثلاث وذات أهمية بالغة من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية· وتخيم على هذه المنطقة منذ عقود حالة خطرة مستعصية بسبب العدوان الاستعماري وحيث يجري انكار حق شعب ذي تاريخ عريق في وطنه المستقل ·

اننا ندرك جيدا ان غشاء سميكا من الاحكام المسبقة والتناقضات الثانوية يغطي نزاع الشرق الاوسط ·الا ان الجبهة الرئيسية هنا هي كذلك بين الاستعمار والقوى المعادية للاستعمار · ومهما كانت صعوبة حل التناقضات القومية والدينية وغيرها الا انها ممكنة الحل واقعيا من خلال دحر الاستعمار وابعاده وعزله سياسيا · ولذا فنحن نعتبر الكفاح من اجل التسوية في الشرق الاوسط وفي سبيل الحل السلمي العادل جزءا لا يتجزأ من الكفاح الشامل المعادي للاستعمار على نطاق العالم بأسره ·

ونحن في هذا الموقع الكفاحي نناضل كتفا لكتف مع جميع الشعوب وبينها جماهير الشعب المجري العامل والشعب العربي الفلسطيني · اننا متضامنون مع بعضنا بعضا وهو امر يجب ابرازه وتاكيده بمنتهى القوة اذ ان التضامن ليس طريقا وحيد الاتجاه فهو في افضل معانيه يمثل مصالح متبادلة بل ويمكن القول انه يخدم مصالح ذاتية · فنحن حين نساند المطامح المشروعة للشعب العربى الفلسطينى فأننا بذلك ندعم أنفسنا ونسير بخطوات الى امام على طريق اهدافنا المشتركة · اننا لا نخدم بالتضامن اصدقاءنا فحسب بل وانفسنا ايضا ·

انني أعتقد أن العالم الشعوري للشعب المجري الشغيل يتغذى ويترعرع من نسغ تجارب تاريخية ايضا فقد كافح وطننا طيلة قرون اربعة في سبيل الاستقلال والحرية ·· اذ أنه منذ القرن السادس عشر جرى تمزيق وطننا اكثر من مرة واستولى الغزاة الاتراك والمحتلون النمساويون على اجمل مقاطعاتنا واخصب أراضينا وعانت ألوف المدن والقرى المجرية من أحذية الغزاة الاجانب · ولم يتورع هؤلاء عن تسعير الخلافات والنزاعات الداخلية وكان نصيبنا التأخر والعبودية · وخلال القرون الطويلة كثيرا ما انفجرت ثوراتنا وانتفاضاتنا الوطنية في سبيل استعادة الاستقلال ، ولكن الرجعية الخارجية والداخلية كانت تسحقها ابدا نظرا لكونها كانت تتمتع بقوة طاغية · ولم تطل شمس الحرية على وطننا الا في منتصف هذا القرن حين انجزت رسالة الاتحاد السوفيتي التحريرية والكفاح المتفاني المليء بالتضحيات لخيرة الوطنيين المجريين في الرابع من شهر نيسان عام ١٩٤٥ صفحة جديدة مشرقة في تاريخنا · ولقد أصبح بأمكاننا منذ

ذلك التاريخ أن نصعد نحو النور حيث اختار الشعب المجري الكادح بقيادة حزب العمال الاشتراكي المجري الطريق الرائع لبناء الاشتراكية • وهكذا نكون قد تحررنا مرتين مرة من القهر الاجنبي الخارجي واخرى من القهر الطبقي والاستغلال والفسق الرجعي • ترى هل يمكننا ان ننسى المساعدة التي حصلنا عليها خلال نضالنا من اجل الحرية وفي ساعات تحررنا الاولى وحين سرنا على طريق بناء الاشتراكية من اصدقائنا ومن العالم التقدمي ؟• وهل يمكننا ان نتناسى التزاماتنا الاممية النبيلة التي تستوجب ان نساهم بكل قوانا بمساندة كل شعب يكافح من اجل حريته واستقلاله لتحقيق اهدافه باسرع ما يمكن وفقا لامكانياتنا وطاقاتنا ووسائلنا ؟• وعلاوة على ذلك فأن التجارب التاريخية قد علمتنا بأن هناك شروطا خارجية وداخلية لا غنى عنها لكل نضال ظافر • فلقد حاق الفشل بنضالنا اكثر من مرة وما كانت التضحيات والدم المسفوك ليكفي لو لم تقدم موازين القوى الدولية والوحدة الوطنية التقدمية الخلفية الملائمة لذلك الكفاح • فلقد تكلل نضالنا بالظفر حين تغيرت موازين القوى لصالح قوى التقدم الاجتماعي والسلام على صعيد السياسة العالمية وحين هب الشعب المجري الشغيل متحدا مطالبا بالتقدم • وحين نصوغ هذه الحقائق لا نفعل ذلك على اساس المواد المسجلة في كتب التاريخ بل استنادا الى تجاربنا المرة منها والحلوة ونحن نعتقد انها تلتقي وتنسجم مع مصالح جميع الشعوب الاخرى •

وفيما يتعلق بالمبادىء التي يجب ان تقوم عليها التسوية في الشرق الاوسط فقد التزمنا وما نزال بحقيقة ان على اسرائيل ان تنسحب من جميع الاراضي العربية المحتلة وبضرورة تأمين حق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه وحقه في اقامة دولته المستقلة • اننا لمقتنعون بان عقد مؤتمر جنيف للسلام يقدم الاطار المناسب لمناقشة جميع هذه القضايا بشكل عملي شامل •• الا ان مؤتمر جنيف يمكن ان يكون ناجحا فقط في حالة مشاركة ممثلي العرب الفلسطينيين في أعماله منذ البداية وبالتحديد وفد منظمة التحرير الفلسطينية • ولقد قدمنا مع الرأي العام العالمي التقدمي كل مساندة لهذا الغرض ولن نبخل بجهودنا في المستقبل ايضا •

وهناك قضايا جوهرية اخرى يجب الحديث عنها خاصة وان عناصر جديدة خطرة تنذر بعواقب وخيمة قد برزت على مسرح الاحداث في الشرق الاوسط خلال السنوات الاخيرة • فالاستعمار الذي حاول من قبل عن طريق العدوان المكشوف صرف البلدان العربية عن السبيل الذي اختارته لنفسها غالبا ما يلبس في الوقت الراهن بزة صديق الشعوب العربية ويسعى بمختلف المناورات والاساليب لتخدير يقظة البلدان العربية المعادية للاستعمار • وقد كتبت صحيفة النيويورك تايمز صراحة تقول ان سياسة واشنطن تسعى الى تسوية سلمية امريكية تخدم في جوهرها مصالح الولايات المتحدة • وفي اطار مثل هذه التسوية تواصل دون ادنى تغيير تقديم المساعدات الاقتصادية وصفقات السلاح لاسرائيل التي غزت الارض العربية وما تزال تحتل مساحات عربية شاسعة •• وجنبا الى جنب مع ما تقدم تستغل الاتجاهات اليمينية التي ذر قرنها في العالم العربي وتسعى من خلال الوعود والضغط حمل القوى الاخرى على الانصياع لهذه التسوية •

لقد انتظر الجميع باهتمام بالغ مسالة فيما اذا كانت الادارة الامريكية الجديدة التي تسلمت مقاليد السلطة رسميا

قادرة ـ والى اي مدى على قطع علاقاتها بالماضي ، وفيما اذا كانت تستطيع وترغب في اتخاذ موقف متعقل . ولم نسمع حتى الان فيما عدا الكلمات المعسولة العامة التي لا تلزم بشيء سوى ان جيمي كارتر يريد تأمين « حدود يمكن الدفاع عنها لاسرائيل » وكونه يعتبر « الوطن الفلسطيني » امرا ممكنا .. ومما لا شك فيه ان التعديل الذي جرى على صياغة المواقف الامريكية يعكس في المقام الاول التغيرات التي حدثت على ميزان القوى والوقائع القائمة وان كان ذلك بصورة مشوهة احيانا .. ولكن ترى لم يتحدث الرئيس الامريكي عن « حدود يمكن الدفاع عنها » في حين أن مختلف القرارات والوثائق الدولية تنص على ان الحدود لا يمكن ان تكون موضوع مساومة وان على اسرائيل ان تنسحب من جميع الاراضي العربية المحتلة . فالحدود التي يمكن الدفاع عنها حقيقة هي الحدود السلمية اذ ان الاحتلال والسلام لا يمكن تصورهما معا في آن واحد . ولم يتحدث الرئيس الامريكي عن « وطن للفلسطينيين » بصورة غائمة ضبابية ؟. مع ان عليه ان يعلن بوضوح بوجوب اقامة دولة فلسطينية مستقلة بقيادة حركة التحرير الفلسطينية تماما كما تتفق على ذلك الى ابعد مدى الغالبية الساحقة من الدول الاعضاء في الامم المتحدة ومؤتمرات القمة العربية والمجلس الوطني الفلسطيني .

وهكذا يمكننا ان نطرح السؤال التالي: ترى هل وصلت المؤامرة ضد شعوب الشرق الاوسط الى نهايتها ام انها ـ وهو الارجح والواقع ـ تستمر بأشكال اخرى اكثر تعقيدا وتلونا ؟. ان ماحدث حتى الان سواء اكان اتفاقية سيناء العجيبة والحرب الاهلية في لبنان والضربات التي كيلت لحركة التحرير الفلسطينية كل ذلك يحملنا على الاستنتاج بأن التدخل الاستعماري مستمر لم يتغير ولم يفقد شيئا من خطورته . اننا نقيم الوضع القائم على انه هجمة استعمارية موجهة اولا وقبل كل شيء ضد البلدان العربية التقدمية وضد حركة التحرير الفلسطينية في نهاية المطاف . ولهذا السبب فأن على العالم كله أن يبرز ويقدر وزن الشعب العربي الفلسطيني واهمية كفاحه ودوره ومسؤوليته البارزين ، وفي الوقت نفسه يحفزه على تقديم المساندة والتضامن بشكل اكمل وبأشكال اكثر تنوعا وتشعبا .

أما بصدد علاقاتنا العملية ـ وهي العلاقات التي تعيشها حركة التضامن ـ فقد تطورت بشكل خاص خلال السنوات الخمس الاخيرة وغدت اكثر غنى واكبر محتوى . وتاريخ الثاني عشر من شهر حزيران عام ١٩٧٢ تاريخ هام حسب رأيي حين قام ممثلو اتحاد المعلمين الفسلطينيين بتخويل من منظمة التحرير الفلسطينية بزيارة لجنتنا حيث اجريت معهم شخصيا محادثات شاملة . وخلال العام التالي وجهنا رسالة الى ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية لزيارة المجر . وهكذا ففي الثاني والعشرين من شهر شباط عام ١٩٧٣ اقتصرت علاقتنا المباشرة على لقاء قصير معه في مطار بودابست . اما في شهر تشرين اول عام ١٩٧٤ فقد قام وفد فلسطيني برئاسة ياسر عرفات بزيارة رسمية لبودابست استمرت ثلاثة ايام حيث اجرى محادثات مع بيلا بيسكو سكرتير اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي المجري ومع قيادة الحزب والدولة ومع شخصيات عديدة مسؤولة في وزارة الخارجية ولجنة التضامن . وبروح من الصداقة والتفهم المتبادل تمت المشاورات وجرى التوصل الى اتفاق بصدد افتتاح مكتب دائم لمنظمة التحرير الفلسطينية في

عاصمة وطننا بهدف تطوير العلاقـــات في المستقبل . وكانت منظمات فلسطينيـــة متعددة اخرى قد أجرت مفاوضات فـــي بودابست حول افتتاح المكتب كمـــا زار فاروق القدومي وطننا مرتين .

وفي السابع والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٧٥ تسلمت أوراق اعتماد عبـد الرحيم أبوجياب كرئيس لمكتب منظمـــة التحرير الفلسطينية في بودابست وهكذا بدأت البعثة الفلسطينية عملها على غـرار الممثليات الاجنبية الاخرى المعتمدة فـــي بودابست . وفي تلك المناسبة التقينـــا بالسيد خالد الفاهوم بصفتـــه رئيســا للمجلس الوطني الفلسطيني حيث كان قد أجرى من قبل محادثات مــــع القادة المجريين في أكثر من مناسبة .

وفيما يتعلق بنشاط التضامن الـــذي نقوم به علي ان اقدم بعض الامثلـــة عنها . فوطننا المجر تمشيا مع قدراتـه وامكانياته قد قدم من المساعدات الماديـة خلال ثلاث سنوات ما قيمته سبعة ملايين فورينت . وعـلاوة على ذلك يدرس فـــي المعاهد المتوسطة والعليا المجرية ثمانيـة عشر شابا فلسطينيا كحاملي منح مـــن المجر . ومن جهة أخرى فنحن ندرك أن الكثيرين يصابون بجراح خطيرة خـلال النضال والقتال ولذا فنحن نستقبل في كل عام مجموعة من الجرحى المناضليـــن الفلسطينيين بشكل منتظم بهدف توفيـر العلاج لهم .. ولا شك ان كـــل تلـــك الخطوات والاجراءات هي مجرد علامـــة على طريق المرحلة الطويلة اذ يمكـــن لاصدقائنا العرب الفلسطينيين ان يحسبوا حساب مساندتنا طبقا لما يقوله المثـــل المجري الصديق عند الضيق . انني لاشعر بشرف المهمة التي اوكلت الي حين اعبر باسم لجنة التضامن والشعب المجـــري العامل بأسره عن وجهة نظرنا وأستعرض بايجاز المجهودات والخطوات العملية التي نقوم بها .. ومن الطبيعي أنه لا يمكـــن لاية مقالة مهما بلغ حجمها ان تتنـاول جميع التفاصيل . فنحن أولا وقبل كـــل شيء نعيش مشاعر الصداقـة والاخـــوة والتضامن ونطبقها في الواقـــع العملي خلال عملنا اليومي . ولهذا فلن اختـم مقالتي هذه بكلمـــات وداع نظـــرا لان تضامننا مستمر يتعمق ويترعرع .. وكما تعودنا ان نلتقي في الماضي سنلتقـــي في المستقبل ايضا في موقـــع النضـــال المشترك وفي جبهة الكفاح ضد الاستعمار .

شاندور هارماتي

نقلها الى العربية اسد محمد قاسم

رسالة واشنطن :
الحملة الصهيونية على المجلس الوطني

فور انتهاء المجلس الوطني الفلسطيني، قامت الصحافة الصهيونية والاسرائيلية بحملة اعلامية واسعة لتشويه الموقف الفلسطيني والقاء اللوم على منظمة التحرير في عرقلة جهود السلام · وظهرت هذه الحملة بشكل واسع في امريكا ، خاصة في الصحف الصهيونية والاسرائيلية ·

واصدرت السفارة الاسرائيلية بتاريخ ٢٨ـ٤ـ٧٧ دراسة تحليلية لقرارات المجلس ، وتهدف النشرة الى اظهار الموقف الفلسطيني على انه يريد القضاء على اسرائيل والشعب اليهودي، واختارت النشرة مقاطع معينة من الاعلان السياسي للمجلس · وركزت على فقرات معينة منها «التمسك بالميثاق» و«الكفاح المسلح» ، و«رفض قرار ٢٤٢» و«رفض الاعتراف باسرائيل واقامة سلام معها» وذلك لتظهر الموقف الفلسطيني بانه متطرف ومسؤول عن استمرار القتال والمواجهة ·

كما ركزت النشرة على فقرات من ميثاق المنظمة في محاولة لاظهار هدف المنظمة بانه القضاء على اليهود في فلسطين ، كما استشهدت بتصريح لجورج حبش (نشر في جريدة واشنطن بوست بتاريخ ٧ ـ٤ـ ٧٧) لتؤكد بان الفلسطينيين ماركسيون ارهابيون يريدون الاستمرار في الحرب·

كما نشر (هركابي) رئيس المخابرات الاسرائيلية السابق مقالا في جريدة معاريف بتاريخ ٢٥ـ٤ـ٧٧ ركز فيه على ان منظمة التحرير وقراراتها الاخيرة «متطرفة» وليس معتدلة وبانها مصممة على تحرير كامل فلسطين ·

كما نشرت المجلة الصهيونية New East Report والتي توزع على اعضاء الكونجرس الامريكي مقالا بتاريخ ٣٠ـ٤ـ٧٧ عرضت فيه نقاط الاعلان السياسي وعلقت عليها وذلك للاهداف التالية :

١ ـ اظهار المنظمة بانها ارهابية مستمرة في اعمال العنف ·
٢ ـ بان الدولة الفلسطينية ستكون قاعدة لاستمرار القتال ·

٣ ـ بان المنظمة اصبحت ضعيفة الان بسبب الصراعات الداخلية ·
٤ ـ بان المنظمة لاتزال تصر على خرق سيادة لبنان والدول العربية الاخرى ·

٥ ـ بان القيادة الفلسطينية تحاول الخروج من العزلة الحالية وذلك عن طريق مخاطبة الاصدقاء واليهود التقدميين ·

ورددت الصحف الامريكية الكبرى ، ومنها واشنطن بوست ونيويورك تايمز ، بعض هذه الاطروحات الصهيونية ولكن ليس بهذا العنف · فاشارت الواشنطن بوست في افتتاحياتها بان المنظمة لم تعدل الميثاق ولم تصدر بيانا يعترف بحق اسرائيل وبذلك لم تتقدم نحو السلام ، وهاجم جورج ويل ، المعلق الصحفي الامريكي ، منظمة التحرير وعرفات واتهمهم بالاستمرار في سياسة

الارهاب ومحاولة القضاء على اسرائيل ٠

كما ظهر من تصريحات المسؤولين الامريكيين ، خاصة خلال زيارة السادات . بان الحكومة الامريكية كانت ترغب في تعديل الميثاق والاعتراف بحق اسرائيل ، وان عدم حدوث هذا في المجلس الوطني معناه ان المنظمة وقيادتها لاتزال متصلبة٠

من الواضح ان هدف الحملة هو القاء اللوم على المنظمة والفلسطينيين ، في حين ان اسرائيل تستمر يوميا في اعمال معادية للسلام وتخالف حقوق الانسان وتقاتل في جنوب لبنان ، لذلك لابد من حملة اعلامية مضادة تركز على التالي :

١ ــ شرح حقائق السياسة الاسرائيلية الحالية ، والتدخل العسكري الاسرائيلي في الجنوب ، والتسلح الاسرائيلي ، ومخالفات اسرائيل لحقوق الانسان والارهاب والقمع في الاراضي المحتلة ٠

٢ ــ التركيز على رغبة شعب فلسطين ومنظمة التحرير وقياداتها في احلال السلام والتركيز على مقررات المجلس التي تظهر هذا الاتجاه ، وتوضيح مفهوم السلام المبني على العدل والمساواة وعلى انهاء الاحتلال الاسرائيلي والعنصرية الصهيونية وبناء مجتمع تقدمي عادل يتساوى فيه اليهود مع المسلمين والمسيحيين ٠

ولقد بدأت حاليا حملات اعلامية في امريكا على هذه الاسس ، منها حملة للدفاع عن حقوق الانسان في الارض المحتلة ويشارك فيها تحالف يضم الجمعيات الامريكية الدينية ومنظمات السلام والجمعيات اليهودية الانسانية بالاضافة الى لجان التضامن مع فلسطين . وستقوم بحملة اعلامية واسعة خلال الاشهر القادمة ٠ كما قامت المنظمات والجمعيات العربية والصديقة بحملات اعلامية خلال يوم الارض (شهر ابريل) وخلال شهر مايو (يوم فلسطين) القادم بحملات اعلامية واسعة لشرح شرعية منظمة التحرير ودورها نحو السلام وحق شعب فلسطين في العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة ٠

من جهة اخرى تحاول بعض الجهات احضار وفود فلسطينية (محمود ابوشلباية حاليا يحاضر بدعوة من معهد الدراسات العالية بجامعة هارفرد) لطرح موقف فلسطيني مغاير لمنظمة التحرير يدعو للاعتراف باسرائيل والتفاوض عن طريق الاردن ، كما ان بعض الجهات الامريكية تشجع هذا الاتجاه كبديل لمنظمة التحرير، ولكنه اتجاه ضعيف ومعزول ولا يجد تجاوبا ٠

من ناحية اخرى ، هناك استعداد امريكي شعبي لسماع وجهة نظر منظمة التحرير ، ولم تعد كلمة «منظمة التحرير» تخيف احدا ، كما ان المجال اصبح مفتوحا للتحرك الاعلامي لشرح اهداف المنظمة ودورها السياسي والانساني والاجتماعي الراهن ، وهذا يتطلب تصعيد العمل الاعلامي الفلسطيني حاليا وكسب هذه الفرصة السانحة ٠ ومع ان الحكومة الامريكية لاتزال تفرض قيودا على ممثلي منظمة التحرير ، الا انه يمكن الاعتماد على الشباب الفلسطيني المحلي للتحدث باسم المنظمة وعنها والمساهمة الفعالة في هذه الحملة الاعلامية ٠

لذلك لابد من تصعيد الاعلام الايجابي لمنظمة التحرير ومحاولة تثقيف الجالية العربية والفلسطينية واعلامها عن المكاسب التي حققتها المنظمة وخلق روح الوحدة والتضامن من اجل التوجه نحو العدو المشترك ٠

واشنطن ٢٠ـ٤ـ٧٧

نبيل حاتم

منـاقشات

ردّ على ردّ

خلال الحرب اللبنانية عـزت اعداد « شؤون فلسطينية » في مصر ، لدرجة لم يعد قراؤها في القاهرة يلتقون بهـا الا مصادفة واختلاسا . اذ انقطع وصولهـا الى مصر منذ تشرين الاول (اكتوبـر) ١٩٧٥ ، ولم تعد تصل الا مع بعضـ المسافرين . وشحت اعدادها ، بما يشبه الانقطاع ، اثناء اشتداد القتال في لبنان ، فيما بين حزيران (يونيو) وتشريـن الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦ .

وأمس فقط اقتنصت نسخة من عـدد حزيران (يونيو) ١٩٧٦ . فقرأت فيها ردا من الاخ موسى خليل البديري على تقرير لي كانت شؤون فلسطينية قد نشرته فـي العدد ٥٣ / ٥٤ ، حول « وفاة اول اميـن عربي للحزب الشيوعي الفلسطيني » .

وابدأ بشكر الاخ موسى على اهتمامه بما اكتب ، كما أرجو أن يتسع صـدره لملاحظاتي التالية على رده :

● بالنسبة الى والتر لاكير ، فما من مهتم بالحركة الشيوعية في الوطن العربي الا ويعلم ارتباطاته وميوله السياسيـة . وامره مكشوف لهؤلاء منذ امد طويل . ومن هنا فكتبه غير موضوعية في اغلب استنتاجاتها وتقييماتها . وما من باحـث موضوعي ، الا ويتعامل مـع هـذه الاستنتاجات والتقييمات في منتهى الحذر والشك . أما اذا قال لاكير ان مؤتمـر الحزب الشيوعي الفلسطيني السادسـ انعقد عام ١٩٢٤ ، فهذه معلومة وليست استنتاجا أو تقييما ، وبالتالي فلا يمكـن أن تخفي غرضا خبيثا مـن أغراضـ الصهيونية والمخابرات المركزية الامريكية !

وبالمناسبة ، فانني لم استـق أيـة معلومة عن المرحوم رضوان الحلو مـن لاكير ، بل من رفاق الحلـو الذيـن عاصروه أو عملوا معه .

● شعار التعريب لم تكن اغلبيـة قيادة الحزب جادة في سلوكه أو تطبيقـه طوال العشرينات .

● في سنوات العشرينات الاربع الاخيرة ، ارسل الحزب حوالي ثلاثين عربيا فلسطينيا الى موسكو ، لتلقي أسس الماركسية اللينينية في جامعة كادحي الشرق (حصلت على هذه المعلومات من الاخوة : محمود الاطرش ، محمد دويدار ، ومن كتابي لاكير عن « الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط » وعن « الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط » · ويمكن الرجوع الى الدراسة التي كتبتها عن « الحزب الشيوعي الفلسطيني والحركة الوطنية » ، ونشرت على ثلاث حلقات في مجلة « الكاتب » المصرية ، أعداد آذار ونيسان وحزيران ١٩٧١) ·

أما تأكيد المرحوم رضوان الحلو لكم بان « الحزب كان مهتما بايجاد عناصر بروليتارية لايفادها الى موسكو ، ولم يكن يبحث عن عناصر مغامرة من أبناء ملاكي الاراضي والبرجوازية الناشئة » · فهو تأكيد مبالغ في حسن نوايا صاحبه ، استنادا الى ما قاله لي كل من الاخوين دويدار والاطرش (وكانا ضمن الدارسين العرب في موسكو آنذاك) ، وقد حكى لي الاخ دويدار أن أبوزيان – سكرتير عام الحزب آنذاك – حضر الى جامعة كادحي الشرق ، وعندما أحس باشتداد الحملة المطالبة بضرورة التعجيل بتعريب الحزب الشيوعي الفلسطيني ، استدعى دويدار ، وأخذ يقنعه بعدم اهلية عرب فلسطين لاستلام زمام قيادة الحزب ، ولكي يؤكد له هذه الفرية ، نادى أبو زيان على عربي فلسطين من الدارسين وناوله خطابا في مظروف عليه طابع بريد ، وطلب اليه أن يلقيه في الصندوق ، فما كان من ابراهيم – وهذا هو اسم الدارس – الا أن القى الخطاب في صندوق قمامة المكتب ! وهكذا توهم « الرفيق » أبو زيان انه دلل على صحة زعمه · في حين أن هذه الحادثة اكدت ما ذهبت اليه انا – اعتمادا على جلساتي مع الشيوعيين المعاصرين للحلو والذين درسوا في جامعة كادحي الشرق – من أن العناصر الصهيونية ، التي نجحت في الوصول الى مراكز القيادة في الحزب ، عملت على ارسال عناصر غير كفؤة الى جامعة كادحي الشرق ، اغلبها من خدم بيوت هؤلاء « القادة » ومن العتالين وماسحي الاحذية ، أي من عناصر البروليتارية الرثة ، غير الصالحة للعمل الحزبي الثوري · ولم يكن يمت بصلة الى البروليتاريا من بين هؤلاء « الدارسين » سوى شخص واحد ، يعمل خبازا ، اضافة الى بعض المثقفين ، الذين سرعان ما انقلب اغلبهم على الحزب بمجرد تخرجهم من « جامعة كادحي الشرق » ، فتعاون احدهم مع الشرطة البريطانية في فلسطين ضد الحزب (حسن صدقي) ، وانضم آخر الى النازية (عبد الغني الكرمي) ، في حين ساهم ثالث في الدعاية المعادية للشيوعية في وطننا العربي ولا زال (نجاتي صدقي) !

والقصص التي تؤكد الميول الصهيونية لبعض قادة الحزب ذوي الديانة اليهودية كثيرة ، ويمكنك الرجوع الى دراستي في الكاتب والى الاخوين دويدار والاطرش ·

وفي دراستي المشار اليها اثنيت على بعض القادة اليهود في الحزب ، لانني لست متعصبا ضد اليهودية ، بل اعتبر الشيوعيين ذوي الديانة اليهودية في مستوى الانبياء ، اخلاصا وتضحية ·

وتشبيه اتهاماتي ، المعتمدة على اساس موضوعي ، باتهام ستالين لتروتسكي وزينوفيف وتوخانشوفسكي بالخيانة ، فأمر يدعو للدهشة ، ولا أجد له ما يبرره ·

● اما هبة البراق (آب ١٩٢٩) ، فان جوزيف بيرجر الذي كتب عنها كان ضمن ذوي الميول الصهيونية في قيادة

الحزب الشيوعي الفلسطيني ، ومقالــه الذي نشره في مجلة انترناشونال برســـ كورسبندنس (١٩ / ١٠ / ١٩٢٨) يثبت ذلك ، فهو يتحدث عن « التعطيل الوحشي » لاحتفالات المستوطنين اليهـــود بعيــد الغفران ، صيف ١٩٢٨ ، واعاد «الرفيق» بيرجر الى الاذهان كون « فلسطين هـــي البلد التي اكدت بريطانيا العظمى وعدهـا بايجاد وطن قومي لليهود فيها » ٠ ووصف تصدي الشرطة البريطانية للمحتفليـــن اليهود بالبوجروم الصغير (المذابح التـي اقيمت في روسيا القيصرية لليهود فـــي ثمانينات القرن الماضي) ! أي أن بيرجـر متمسك بوعد بلفور !

● وبالنسبة لنصيحتك للباحثين بعـدم الرجوع الى «المجلات السوفياتية الصادرة في تلك الحقبة » فأمرها محير ، اذ بهـــذه الطريقة تحصر مراجعنا في « الرفيـــق » جوزيف بيرجر ، أطال الله عمره ! وان كنت معك في ضرورة مراعاة ميل هـــذه المجلات الى الاسراف في توجيه التهم ، وهو أمر لا بد وأن يأخذه الباحث فـــي الاعتبار ، دون أن ينأى بنفسه عن مثـــل هذه المجلات ٠

● على أنني أقدر للاخ موسى هـــذا الاهتمام الاكاديمي الجاد ، وهذه الدوافع الاخلاقية النبيلة التي دفعته للدفاع عـــن المرحوم رضوان الحلو ، صديق والـــده ، الشخصية الوطنية الديمقراطية الفلسطينية المعروفة : خليل البديري ٠

ولم أكن بصدد تعداد أخطاء الحـزب الشيوعي الفلسطيني ، بل كنت معنيـــا بتقديم عرض مقتضب لحياة المرحوم الحلو من خلال عرض المعالم الرئيسية لتطـــور الحزب الشيوعي الفلسطيني ٠ أما تقييمي للمرحوم الحلو ودوره ، فهو أمر أتحمـل مسؤوليته وحدي ٠

● وقد غضب الاخ البديـري لمجـــرد وصفي موقف المرحوم الحلو بالعجز عـــن اتخاذ موقف حاسم ومحدد حيال الخلاف المستفحل داخل الحزب أواخر ثورة ٣٦ - ١٩٣٩ الوطنية الفلسطينية ، والذي انتهـى بخروج الشيوعيين العرب من الحـــزب ، مكونين حزبهم الخاص : « عصبة التحرر الوطني » ٠ ويؤسس الاخ البديري غضبه على كون الحلو رفض قيام تنظيم شيوعي عربي ٠ وما قيمة رفض الحلو مـــا دام دفعه الى اعتزال العمـــــل السياســـي والانسحاب الى المنزل ، بعد أن لم تعـد الامور في الحزب تروق له ٠ وهذه سلبية لا تليق بقائد شيوعي ، الا اذا كان محدود القدرات الفكرية والعملية ، كما سبـــق وأشرت في تقريري سالف الذكر ٠

أما مؤتمر الحزب (١٩٤٠) ، فقـــد عرف باسم المؤتمر الثامن ، بالرغم مـــن عدم شرعيته ، لعدم شموله كل منظمـــات الحزب ، ولكونه انعقد بدون دعوة اللجنة المركزية أو نصف اعضاء المؤتمر كمـــا ينص نظام الحزب الداخلي ٠ أما مؤتمـر ١٩٤٤ فقد انعقد عقب خروج الشيوعييـن العرب في خريف ١٩٤٣ ٠

وعندما وقعت النكبة (١٩٤٨) لم يكن في الضفة الغربية كلها سوى ثمانية مـــن اعضاء العصبة ، ولم يكن المرحوم الحلو منهم ٠ كما لم ينضم اليهم ولا للحـــزب الشيوعي الاردني ، الذي تشكل في أيـار ١٩٥١ ، نتيجة اندماج العصبة في الضفة الغربية مع الحلقات الماركسية في الضفـة الشرقية للاردن ٠

القاهرة ــ عبد القادر ياسين

شهريّات

(١) المقاومة الفلسطينية

يواجه الوضع الفلسطيني بعد توقف الحرب اللبنانية مشكلات عديدة نابعة من اثار تلك الحرب وذيولها · وتمتد هذه المشاكل من العلاقات الداخلية ، الى العلاقات مع قوات الردع ، مرورا بالعلاقات مع السلطة اللبنانية والاطراف الاخرى في الازمة اللبنانية ·

فعلى صعيد العلاقات الداخلية تجري عملية اعادة نظر في هذه العلاقات على ضوء المواقف السياسية التي مورست اثناء فترة القتال ، ترافقها احيانا حالات من التوتر التي تحتاج الى رؤيا عميقة واعية من اجل تجاوزها بما يحفظ اواصر الوحدة الوطنية الفلسطينية ·

وعلى صعيد العلاقات مع قوات الردع فان بقاء بعض القضايا الاساسية التي تحتاج الى اتفاق ، وبروز العديد من التفاصيل التي لا يمكن ضبطها او التنبؤ بها سلفا ، وكذلك وجود بعض الخلافات، يخلق سلسلة من الاشكالات التي لا يمكن تخطيها بترو الا على قاعدة من النوايا الحسنة لدى الطرفين يكون مضمونها التوافق في وجهات النظر ، وهو ما لا يتوفر في بعض الاحيان ، كما ان توفره يقود الى مواقفايجابية كما حصل بالنسبة للوضع العسكري في الجنوب ·

أما على صعيد العلاقات مع السلطة اللبنانية فان نوع الامور المختلف عليها

يتسم بالحساسية ، اضافة الى ان بعض الاطراف اللبنانية لها مواقف معادية من مبدأ وجود المقاومة في لبنان ، وهو ما يشكل حالة ابتزاز مستمرة للمقاومة في مفاوضاتها مع السلطة ، حيث المفاوضات هنا لها ابعادها العربية ، وبأوزان لا يستهان بها ·

وما نقدمه هنا هو محاولة استخلاص لابرز اتجاهات الحوار والجدل الدائرين باتجاه ايجاد قاعدة للتفاهم داخل اطار شبكة العلاقات اللبنانية والعربية والفلسطينية المعقدة · وهي اتجاهات محصورة في اطار زمني يمتد من ٢٠ نيسان الى ٢٠ ايار ·

الوضع الفلسطيني الداخلي

شهد الوضع الفلسطيني الداخلي في هذه الفترة بعض الانفراجات كما شهد بعض الازمات ، وكان هناك في الحالتين جهد قيادي دؤوب لحل الاشكالات من خلال التفاهم ، تجنبا لاي توتر قد يؤدي الى اضعاف التلاحم الداخلي ، او زعزعة الصلابة الفلسطينية في التعامل مع الاوضاع العربية ·

والانفراج الاول الذي يمكن تسجيله هنا هو لقاء المقاومة لاول مرة مع « الجبهة القومية » ، وهي الجبهة التي تضم مجموعة الاحزاب التي ايدت الموقف السوري في فترة الخلافات ، وتتزعمها بشكل رئيسي منظمة حزب البعث العربي الاشتراكي · عقد الاجتماع يوم ٢٣ ـ ٤ وحضره ممثلون عن فتح (ابو عمار ـ ابو اياد) والصاعقة (زهير محسن ـ العقيد مصطفى سعد الدين) والجبهة القومية (عاصم قانصوه ـ عصام المحايري ·· واخرون) : وهو اجتماع يهدف الى عودة التعامل بين كافة الاطراف الوطنية بما يؤدي الى تخطي حساسيات مرحلة الصدام السابقة ·

والانفراج الثاني كان نجاح المقاومة بايجاد حل ديمقراطي لخلافات (الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة) الداخلية · ففي اليوم نفسه عقدت قيادة المقاومة برئاسة عرفات اجتماعا بحثت فيه خلافات الجبهة واعلنت انها « اتخذت القرارات المناسبة بهذا الصدد » ، ثم عقدت المقاومة برئاسة عرفات اجتماعا ثانيا يوم ٢٦ ـ ٤ ، واعلنت انه على ضوء توصيات المجلس الوطني وبوجود طرفي الجبهة ، تم بموافقتهما التوصل الى الاتفاق التالي :

١ ـ انهاء الخلافات بين الطرفين على اساس احتفاظ التنظيم الذي يمثله احمد جبريل باسم « الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة » ، ويعمل الطرف الاخر في الجبهة الذي يمثله ابو العباس تحت اسم « جبهة التحرير الفلسطينية » ·

٢ ـ اطلاق سراح المحتجزين لدى الطرفين ، ووقف كل الاعمال الاستفزازية·

٣ ـ الحرص من الجانبين على علاقة التضامن ···· ومنع كل ما يعوق وحدة الثورة الفلسطينية ·

وكان هذا الخلاف بين طرفي الجبهة قد بدأ في العام الماضي وتطور الى حد الصدام المسلح بسبب الخلاف على الموقف السياسي الذي يتناول علاقات المقاومة مع سوريا ·

وقد اعلنت « جبهة الرفض الفلسطينية » في بيان اذيع يوم ١٤ ـ ٥ فصل « الجبهة

الشعبية ـ القيادة العامة » من عضوية جبهة الرفض . واوضحت جبهة الرفض في بيانها انها تعتبر « جبهة التحرير الفلسطينية عضوا كامل العضوية ، حيث ان ممثليها يحتفظون بمناصبهم في الهيئات الفلسطينية مثلما كان الوضع ساريا قبل تغيير اسم الجبهة » .

وقد تخلل هذه الاحداث صدام مسلح بين المقاومة وقوات الردع في منطقة محاذية لكورنيش المزرعة في بيروت ، كان لفريق ابو العباس داخل الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة دور فيها ، قبل توصل المقاومة الى صيغة لحل هذا الخلاف بينهما ، وقد استمرت هذه الاشتباكات من ٢٢ ـ ٤ حتى ٢٦ ـ ٤ ، ثم انتهت بالتفاهم وبتوقف قوات الردع عند الامكنة التي وصلت اليها قريبا من مستشفى المقاصد . وبعد مضي يومين على الاشتباكات (٢٤ ـ ٤) اصدرت قيادة قوات الردع بيانين حول الحادث . قال البيان الاول انه في ٢٢ ـ ٤ وفي منطقة الشياح ، قام ٤ عناصر من تنظيم منشق (ابو العباس) باستدراج اثنين من جنود الردع وقتلهما . وقد تحركت القوات وسدت المنافذ على القتلة واشتبكت معهم وتمكنت في الساعة الثالثة من صباح الاحد ٢٤ ـ ٤ من القبض على القتلة الاربعة . وتابعت قوات الردع محاصرة المنطقة التي كان يختبىء فيها القتلة في حي السبيل الكائن جنوب كورنيش المزرعة وتمشيطه بحثا عن الذين ساندوهم في أثناء الاشتباكات ، ولا تزال عملية التمشيط مستمرة . وقال البيان الثاني انه في ٢٤ ـ ٤ تعرضت في كورنيش المزرعة مفرزة سعودية لرمايات من حي السبيل حيث توجدْ عناصر تابعة لتنظيم عصام العرب (تنظيم لبناني موال لاتجاهات الرفض) ، وجرح ٣ من جنود المفرزة . وقد حوصر المكان ، ولوحق مطلقو النار داخل الحي حتى السادسة مساء ، واسفرت عملية التمشيط عن توقيف عدد من الاشخاص ، ومصادرة بعض الاسلحة المختلفة ، وجرح ٣ عسكريين ، ووقوع اصابات بين المسلحين، وكذلك بعض المواطنين .

وبعد وقت قصير اصدرت قيادة المقاومة بيانا اوضحت فيه موقفها من تفاصيل الحادث الذي ادى الى الاشتباك . قال بيان المقاومة انه في ٢٢ ـ ٤ وفي الشياح ، ارتكب عنصران جريمة الاعتداء على اثنين من الجنود السوريين ولاذوا بالفرار ، وقد اجتمعت قيادة المقاومة وصدر قرار بالبحث عن الفاعلين ، وبعد ظهر يوم ٢٢ ـ ٤ اعتقل الكفاح المسلح احد الفاعلين وسلم الى قوات الردع ، وفي ٢٣ ـ ٤ اعتقل الثاني وسلم . وقد شاركت قيادة التنظيم الذي ينتمي اليه الفاعلان في الملاحقة والاعتقال ، بينما كان عنصران اخران محتجزين منذ ليلة الحادث عند الردع بسبب مرافقتهما للفاعلين عند ارتكاب الجريمة ، واعتبرت المراجع المختصة ان الحادث اصبح منتهيا بعد اعتقال الفاعلين .

وبعد سرد هذه الوقائع ، ذكر بيان المقاومة ان القيادة فوجئت ببيان قوات الردع الذي يتحدث عن عملية عسكرية باسم البحث عن الفاعلين ومن ساندوهم، علما ان الحادث وقع في الشياح، والعملية العسكرية في منطقة مستشفى المقاصد .

وختم بيان المقاومة قائلا : ان قيادة الثورة تتابع اتخاذ الاجراءات للسيطرة على الموقف وعدم تدهوره بالتعاون

مع الجهات المسؤولة ٠

وبعد صدور هذه البيانات ، ومن خلال استمرار الصدام ، كانت الاتصالات مستمرة لايجاد حل ، وكانت الاجراءات العملية تتخذ لوقف الاشتباكات : ففي ٢٥ ـ ٤ اعلنت قيادة المقاومة انها تدارست اسس الوضع الذي ادى الى الاشتباكات مع الردع واتخذت اجراءات السيطرة على الموقف ، وتم وضع نقاط ثابتة من الكفاح المسلح في كافة المناطق الساخنة ، واكدت القيادة على ضبط النفس ، ثم اصدرت القيادة بيانا يطلب من كافة المسلحين الانسحاب من الشوارع ومن أسطح البنايات ، وكلف الكفاح المسلح مدعوما بالقوة المشتركة (من المنظمات) بتنفيذ ذلك ٠ ويبدو ان هذا البيان كان نتيجته الوصول الى اتفاق على وقف الاشتباك الاساسي ، ولكن ذيول هذا الاشتباك استمرت في اليوم التالي فأصدرت قيادة المقاومة بيانا اخر (٢٦ ـ ٤) قالت فيه ان مجموعات غير منضبطة قامت بافتعال اشتباكات حول مخيماتنا ٠٠٠٠ وتمكنت قيادة الثورة من السيطرة على الموقف بتوزيع مفارز الكفاح المسلح ٠ وفي اليوم نفسه اعلنت قيادة قوات الردع ان العملية العسكرية في بيروت قد انتهت ، واعلن وزير الداخلية صلاح سلمان ان الحالة الامنية عادت الى وضعها الطبيعي ٠

وقد انفردت منظمة الصاعقة باصدار بيان خاص بها عن الاحداث (٢٤ ـ ٤) ، روت فيه ان الحادث بدأ في الشياح ، وامتد الى منطقة المقاصد ٠ واعلن البيان « انه لا بد من التاكيد ان تواجد الرفض في مناطق حمد والمقاصد والكورنيش والسبيل انما هو تواجد مسخر فقط للاخلال بالامن ٠٠٠٠ » ٠

وان اجتثاثه ضرورة وطنية ٠

وردا على هذا البيان صرح مصدر اعلامي (٢٧ ـ ٤) بان وكالات الانباء تناقلت ان اشتباكات حدثت بين قوات الردع العربية وجبهة الرفض الفلسطينية٠

ونود ان نوضح انه لم تحصل اشتباكات مع اي جبهة فلسطينية ، وان المشكلة التي حدثت في اليومين الماضيين كانت مع قوات الردع وعناصر لا علاقة لها بالثورة الفلسطينية ٠ واسدل بذلك الستار على هذا الحادث ٠

لقاء براغ

□ وبعيدا عن هذه الاجواء ، وفي اطار النشاط السياسي لمنظمة التحرير ، جاء حدث حظي باهتمام فلسطيني وعربي واسع ، وذلك حين اعلن لاول مرة عن لقاء رسمي بين وفدين من منظمة التحرير الفلسطينية ووفد من الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) ٠ وقد جاءت بوادر التمهيد لهذا اللقاء في خبر عابر نشرته وفا (٢٩ ـ ٤) قال : ان ناطقا رسميا باسم راكاح اكد ان الحزب يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي لشعب فلسطين ، كما يعترف بحق الشعب الفلسطيني باقامة دولته المستقلة ، ويعتبر قرارات المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الثالثة عشرة ، هي القرارات السياسية المعتمدة ٠ وبعد ايام من نشر هذا التصريح ، وفي يوم ٣ ـ ٥ تم هذا اللقاء بين الوفدين رسميا في براغ واستمر لمدة يومين ، وحضره عن الجانب الفلسطيني ماجد ابو شرار رئيسا ، وعزمي عواد وعبد الله حوراني وعصام عبد اللطيف ، وعن راكاح اميل توما عضو المكتب السياسي رئيسا وعوزي بورنشتاين وعلي عاشور وولف

ابريليـــــخ . وقالـــــت وفـــا (٥ ٥) ان اللقاء تم « بهدف تنسيق العلاقــات من اجل اشكال العمل المشتــرك ضــد الصهيونيـــة العنصريـــة واطماعهــا التوسعية » . ووجهت الصحف السورية في اليوم التالي مباشرة (٦ ـ ٥) نقدا شديدا لهذه الاتصالات ، وضع في صيغة التساؤل عن جدوى اللقاءات بين منظمـة التحرير وراكاح ، وعن السر في توقيتهـا الان : وذكرت « المراقبون يعربون عــن الدهشة الممزوجة بالاستغراب حيال هذا الامر » . وقد اوضح محمود عباس (ابو مازن) في حديث لصحيفة الاتحاد في ابو ظبي ان محادثات براغ تمت بناء علــى قرار المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الـ ١٣ ، مشيرا بذلك الى البند الرابع عشر في توصيات المجلس والذي يقـول « يؤكد المجلس الوطني الفلسطيني علـى أهمية العلاقة والتنسيق مع القوى اليهودية الديمقراطية والتقدمية في داخل الوطـن المحتل وخارجه ، التي تناضـــل ضــد الصهيونية كعقيدة وممارسة .... » .

اما على الصعيد التنظيمي الداخلـي لمنظمة التحرير ، فقد اجتمعت اللجنـــة التنفيذية في دمشق (٣٠ ـ ٤) وشكلـت المجلس المركزي الفلسطيني ، ورفعت عدد اعضائه من ٤٤ عضوا الى ٥٥ عضوا . وجرى توزيع مقاعد المجلس علـى الشكل التالي : ١٤ للمنظمات الفدائيـــة ، ١٣ للمستقلين ، ٤ للاتحادات الشعبية ، ٨ لفلسطينيي الاردن ولبنـــان ومصـــر ، بالاضافة الى اعضاء اللجنة التنفيذيـــة الـ ١٥ ، يضاف اليهم رئيس المجلـــس الوطني . وفي ١٥ ـ ٥ اجتمع المجلـس المركزي في دمشق ايضا وقرر لاول مرة اقرار نظام عمل داخلي له ، وتشكيــل لجان دائمة له ، وكلف رئيس اللجنـــة التنفيذية ورئيس المجلس الوطني باختيار رؤساء هذه اللجان .

لبنان واتفاق القاهرة

الجدل الدائر في لبنان حول اتفــاق القاهرة هو جدل فريد من نوعه . فبينمـا تنطلق السلطة الشرعية اللبنانية من مبـدأ التمسك بالاتفاق والاستعداد لتطبيقه حسب تفسير وضعه الرئيس الياس سركيس لهذه الغاية ، تنطلق « الجبهة اللبنانية » مـن جملة من المبادىء المتناقضة التي تلتقـي على قاعدة رفض هذا الاتفاق والسعـي لالغائه دون الاعلان عن ذلك رسميا بشكل دائم . فبعض مواقف الجبهـــة يدعـــو لالغائه ، والبعض الاخر يدعو لتطبيقـــه بشكل منضبط ، او حســـب التفسيـــر اللبناني ، او بدون وجود مسلح ، الـــى اخر ما قد يتفتق عنه الذهن من حجج . وكان من نتيجة ذلك ان الصحف اللبنانية تنشر يوميا عددا هائلا من التصريحـات حول اتفاق القاهرة ، تصـــوره وكأنـــه كارثة الكوارث التي حلت بلبنان والتـــي لا خلاص الا بالغائها : حيـــث لا مجـال لرد هذا القدر القاهر .

واللجنة العربية الرباعية التي تشكلت بعد مؤتمري الرياض والقاهرة ، هـــي المكلفة رسميا بالتعاون مـــع الرئيـــس سركيس للاشراف على تطبيق الاتفاق ، وقد اضطرت بسبب الحملـــة العنيفـــة واليومية ضد الاتفاق ، ان توسع دائـــرة عملها وان تعقد لقاءات عديدة وكثيفة مع مختلف اطراف « الجبهة اللبنانية » ومع السفراء الاجانب في لبنان ، وان تعـود في بعض الاحيان الى حكوماتها للتـداول والتشاور .

اما بالنسبة للمقاومة الفلسطينية ، فهي تلتقي مع الرئيس سركيس حول مبـــدأ تطبيق الاتفاق ، ولكنها تطلب ان يكون تفسير الاتفاق تفسيرا مشتركا ومتفقـــا عليه . وعمليا ... كان هامش الخلاف بين تفسيرها وبين التفسير اللبناني ضيقا

بحيث يمكن التغلب عليه بالحوار ، وهو ما استنكرته « الجبهة اللبنانية » بشدة ، وكادت ان تخلق باستنكارها هذا جوا متوترا يصعب معه الوصول الى حل ٠

وقد كان موقف « الجبهة اللبنانية » هذا مدعوما بموقف عسكري في جنوب لبنان ، اعتبرته المدخل للوصول الىهدفها بالغاء اتفاق القاهرة ، والغاء الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان ، ومنعه من ممارسة نشاطه ضد الكيان الصهيوني ٠ وقد قامت قوات « الجبهة اللبنانية » بمساندة ودعم اسرائيل باحتلال محاور الطرق هناك واحتلال بعض القرى ذات الموقع الاستراتيجي وصولا الى هدفها هذا ، وبما ان ميزان القوى كان يميل لصالحها في الجنوب ، فان تشددها في المطالبة بتطبيق الاتفاق في المدن والمخيمات كان يعني بالنسبة لها الوصول الى الغاء واقعي كامل لاتفاق القاهرة ٠ (شؤون فلسطينية العدد ٦٦ ص ٦٠) ٠

وفي مواجهة هذا المخطط ، كانت المقاومة الفلسطينية تصر على أن تطبيق اتفاق القاهرة يحتاج الى امرين : اولا ايقاف القتال في الجنوب ، ثانيا الاتفاق على تطبيق الاتفاق في كافة الاراضي اللبنانية ٠

وبسبب هذه الصورة المعقدة طال الحوار حول تطبيق الاتفاق وتعقد ، وهو لم يمض عمليا نحو الحل الا بعد ان تم تجميد الوضع العسكري في جنوب لبنان اثر عملية عسكرية مضادة ساهمت فيها قوات المقاومة الفلسطينية وقوات الحركة الوطنية بمساندة قوات الردع السورية وموافقتها ٠وفيما يلي ابرز مراحل الحوار حول هذه القضية :

الحوار مع سركيس : ينطلق الرئيس سركيس في سعيه لتطبيق اتفاق القاهرة من الاقرار بمبدأ الاعتراف بالاتفاق واعلان الاستعداد لتنفيذه ،وهو وضع لهذه الغاية تفسيرا « لبنانيا » للاتفاق لم تعلن بنوده ٠ ويمكن الاستنتاج مما اعلن فقط ان تفسيره يدعو لان يحدد عدد رجال الميليشيا الفلسطينيين داخل المخيمات وبالتالي عدد قطع السلاح التي بحوزتهم بنسبة ٧ بالالف ، وهي النسبة التي يقول التفسير اللبناني أنها نسبة عالية لعدد رجال الشرطة الى عدد السكان ، باعتبار ان مهمة رجال الميليشيا هي حماية المخيمات ٠ وقد عارضت المقاومة الفلسطينية هذه النقطة بالذات ، وحولها دار الجزء الاكبر من حوار الخلاف بين المقاومة والسلطة اللبنانية ، وكان رأي المقاومة يتلخص بما يلي :

١ ــ ان نسبة الـ ٧ بالالف هي نسبة الاوضاع الطبيعية لحفظ الامن ٠ اما الشعب الفلسطيني فهو في حالة ثورة ، ويحتاج الى تعبئة شعبية كاملة لاداء مهمات الثورة ، وهي تعبئة تصل الى حدود ٣٠ بالالف واحيانا ٤٠ بالالف في حالات التعبئة العامة ٠

٢ ــ ان تكثيف تسليح المخيمات سواء برجال الميليشيا او بالاسلحة الثقيلة (مدفعية وصواريخ) لم يأت عفوا بل كانت له ظروفه التاريخية ٠ فهو جاء اساسا كرد على الغارات الجوية الاسرائيلية على المخيمات (مخيم النبطية) ، وكرد على بعض الهجمات الجوية (مخيم صبرا) ٠ كذلك فان جو عدم الثقة الذي كان سائدا بين المقاومة والسلطة اللبنانية في العهد السابق لعب دورا بارزا في تسليح المخيمات بهدف حماية النفس ٠ وقد تدخلت اللجنة الرباعية في محاولة ايجاد حل لهذا التضارب في وجهات النظر ، كما أن بعض السياسيين اللبنانيين مثل الرئيس رشيد

كرامي كان لهم دور في السعي للوصول الى حل ٠

وهنا طرح على اللجنة الرباعية سؤال هام : هل مهمة اللجنة : الاجتهاد ، وبالتالي التفسير ، ام ان مهمتها فقط هي تطبيق اتفاق موضوع ؟ وقد اقتضى هذا السؤال من السفير الكويتي عبد الحميد البعيجان ان يعود الى حكومته للتشاور ، حيث اجتمع هناك مع مسؤولين كويتيين ، ثم مع مسؤولين فلسطينيين في محاولة للوصول الى جواب وحين عاد من الكويت (١٩ـ٤) روت مصادر مطلعة (النهار) ان الكويت تعتبر تفسير (ملكارت) الذي وضع عام ٧٣ بين المقاومة والسلطة اللبنانية هو التفسير الصالح لاتفاق القاهرة ٠ والبعيجان نفسه قال بعد الاجتماع مع الشيخ بيار الجميل في اليوم نفسه ان اللجنة الرباعية لا علاقة لها بالاجتهاد « فنحن نطبق ما يتفق عليه الطرفان » ، ان عمل اللجنة هو تطبيق الاتفاق وليس الاجتهاد ٠ فكان لا بد اذن من وصول المقاومة والسلطة اللبنانية الى اتفاق فيما بينهما حتى تستطيع اللجنة الرباعية ان تمضي في عملها بتفاهم وانسجام ٠

وقد تمت المحاولة الاولى عبر الرئيس رشيد كرامي الذي زار القصر الجمهوري (٢١ ـ ٤) وخرج بعد ذلك بموقف علني احدث اهتماما واسعا اذ قال « ان ما نفذ من اتفاق القاهرة يصل الى حدود ٩٠ بالمئة ، فلماذا هذه الاجواء الصاخبة حول تنفيذه ٠ ان اتفاق القاهرة هو ممارسه يومية ، فكل يوم مطلوب تنفيذ اتفاق القاهرة ، ولا يصح ان تقف الحياة في لبنان بحجة الوصول الى تنفيذ هذا الاتفاق دفعة واحدة وشاملة ، هذا غير منطقي وغير عملي » ٠ وفي اليوم التالي (٢٢ ـ ٤) اجتمع عرفات مع كرامي ، حيث ابلغه كرامي نتائج اتصالاته مع سركيس ، وعلم أن جهود كرامي تستهدف تجميد نقطة الخلاف بالنسبة لتفسير الاتفاق ، اي نسبة المسلحين الذين سيتواجدون داخل المخيمات ، ثم التوصل الى اتفاق بوقف حملة التضخيم الاعلامية ، ووضع ترتيبات لعقد لقاء لبناني ـ فلسطيني ٠ وفي ٢٩ ـ ٤ نجحت وساطة كرامي وتم اللقاء في القصر الجمهوري بين الرئيس سركيس وياسر عرفات وبمشاركة صلاح خلف (ابو اياد) ، وجرى الاتفاق على صيغة مزدوجة لحل نقطة الخلاف : قبول فلسطيني بصيغة الـ ٧ بالالف ، وربط ذلك بضرورة وضع خطة مشتركة لبنانية ـ فلسطينية للدفاع عن المخيمات ٠ وبالنسبة للقضايا الاخرى فقد تم الاتفاق حسب المعلومات الصحفية على :

١ ـ الموافقة على نقل المهجرين الفلسطينيين المقيمين في الدامور الى منطقة البيسارية قرب صيدا ٠

٢ ـ السعي لاحياء اللجنة العسكرية اللبنانية ـ الفلسطينية المشتركة ٠

٣ ـ تنفيذ اتفاق القاهرة في منطقة الجنوب بهدوء وعلى مراحل ، واعتبار التنفيذ في بيروت وضواحيها هو المرحلة الاولى ٠

وجرى استكمال هذه المحادثات التي اجراها عرفات بلقاء اخر بين الرئيس سركيس وصلاح خلف (١٤ ـ ٥) ، ثم عاد عرفات واجتمع (١٦ ـ ٥) مع اعضاء اللجنة الرباعية للغرض نفسه واعلن سفير الكويت بعد لقائه مع سركيس « ان اتفاق القاهرة ليس مجمدا وهناك عمل يهيأ لحل المشاكل » ٠ وقال السفير السعودي علي الشاعر (١٩ ـ ٥) « بفضل النوايا الحسنة من جميع الاطراف تتجه الامور نحو الحلول المرضية والانفراج التام » ٠ وفي ٢١ ـ ٥ اجتمعت

اللجنة الرباعية برئاسة سركيس وسط اجواء تشير الى نجاح الجهود التمهيدية التي بذلتها ، حيث سيبقى التفسير اللبناني قائما وتضاف اليه بنود تتعلق بخطة حماية المخيمات ·

مواقف « الجبهة اللبنانية » : لقد كانت مواقف « الجبهة اللبنانية » من الكثرة بحيث يصعب احصاؤها · ولذلك سنختار نماذج منها فقط توضح اهدافها ·

الشيخ بيار الجميل يقول باسم « الكتائب » بعد لقاء مع السفير الكويتي (١٩ ـ ٤) ان « اتفاقية القاهرة لا يمكن ان تنفذ الا من البند الذي ينص على سيادة لبنان ···· هذه السيادة هي التي تملي التفسيرات ، ومنها التفسير اللبناني، الذي يرفض بعض اعضاء اللجنة الرباعية الاخذ به · اللجنة مطلوب منها ان تشرف على تنفيذ هذا التفسير ، ولا يحق لها ان تعترض عليه او تتحفظ والا فقدت مبرر وجودها · ولا يحق للجنة ان تسعى الى حل اي حل يرضي جميع الاطراف » ·

اما بشير الجميل فهو ينتقل من النقد الى التهديد فيقول (٢٦ ـ ٤) ان « الجبهة اللبنانية حددت مهلة معينة، واذا لم تنفذ اتفاقية القاهرة ضمنها فالامر يعود عند ذلك لقرار سياسي » وردا على سؤال حول موقف كرامي الذي يقول بان ٩٠ بالمائة من الاتفاقية قد طبق يجيب بشير الجميل ان « بعض الزعماء لم يتعلموا شيئا من الاحداث » ·

ومرة اخرى يعود بيار الجميل ليقف ضد الاتفاقية من اساسها (٢٦ ـ ٤) فيقول « ما هي الفائدة من هذه الاتفاقية للفلسطينيين ، وهل هي مفيدة للبنان والعرب ؟ انا اجيب قائلا لا » ·

وينتقل دوري شمعون باسم « الاحرار » للمطالبة بالغاء الوجود المسلح للفلسطينيين فيقول لاذاعة مونت كارلو (٣ ـ ٥) ان « الذين يحبون لبنان ويؤمنون بالقضية الفلسطينية بالفعل عليهم ان يتحركوا بسرعة اكبر وبايجابية اكبر لاقناع الفلسطينيين بأن لبنان غير قادر على ان يتحمل وجودهم المسلح فيه » ·

ويشارك في الحملة الآباتي شربل قسيس (٤ ـ ٥) فيقول « انا لا ارى ان اتفاقية القاهرة طبقت ولو بنسبة ١ بالمائة · البند الرئيسي الذي ترتكز عليه الاتفاقية هو السيادة اللبنانية ، فهل يستطيع الذين يدعون أن اتفاقية القاهرة طبقت ان يقولوا لنا كيف طبقت في الجنوب والمخيمات » ·

وتهدد جريدة « العمل » بالتدويل اذا لم يطبق اتفاق القاهرة فتقول (٦ ـ ٥) ان بيان « الجبهة اللبنانية » بعد اجتماعها الاخير لم يتطرق لذكر الاتفاق لانه تقرر اعتماد اسلوب جديد « قد يتخطى النطاق الاقليمي » وربما ترتب على ذلك دخول القضية اللبنانية ··· محافل دولية ·

اما الرئيس شارل حلو الذي وقعت الاتفاقية في عهده فانه يطرح تفسيرا غريبا لقانونية الاتفاق (٧ ـ ٥) اذ يقول ان « اتفاق القاهرة لم يلزم الا الحكومة الكرامية التي طلبت الثقة على اساسه ···· وهناك اكثر من سبب يؤدي الى اعتبار اتفاق القاهرة لاغيا » ·

وحين يصل الحوار بين السلطة والمقاومة الى حل ما مثل تشكيل لجنة التنسيق يقول بيار الجميل (٨ ـ ٥) ان « هذه الاقتراحات من جملة العمليات التي يقصد بها الالهاء » ·

ولا تتناقض هذه المواقف المعبرة عن اطراف الجبهة اللبنانية مع مواقف السلطة اللبنانية فحسب ، بل هي تتناقض ايضا مع مواقف مسؤولين لبنانيين اخرين ·

فالمرئيس صائب سلام يقول بعد اجتماع له مع السفير الكويتي (٢٠ ـ ٤) ان « اتفاق القاهرة ليس نصا وحرفا مجردا ٠٠٠٠ انه يقوم على النيات الحسنة المتوافرة عند فريقين ٠ الاتفاق ينفذه الفريقان ، وفيه المحافظة على اخواننا الفلسطينيين ، كما فيه المحافظة على السيادة اللبنانية» ٠ وفي (٢٣ـ٤) قال سلام بعد اجتماعه مع السفير السعودي ان « الضجيج حول اتفاق القاهرة يسيء الى مسيرة السلام » ، وفي ٣ ـ ٥ يعلن كرامي ان « القصة لا تحتاج الى كل هذه الضجة لو لم تكن هناك مأرب اخرى » ، وفي (٤ـ٥) يعلن الامام موسى الصدر ان « هناك نقاطا جد قليلة باقية ربما لا تتجاوز كلمة او كلمتين بالنسبة لتفسير اتفاق القاهرة » ، وعاد الرئيس سلام مرة اخرى ليقول (١٤ ـ ٥) بعد لقاء مع الرئيس سركيس « فلنكف عن المتاجرة باتفاقية القاهرة » ٠

واللجنة الرباعية نفسها كانت تعيش اجواء مشابهة فالسفير الكويتي يقول (١٩ ـ ٤) « اظن انه يمكن تنفيذ اتفاق القاهرة في كل لبنان اذا تجاوزنا بعض الاشياء البسيطة ٠٠٠٠ هناك اختلاف تافه » ، والعقيد محمد الخولي ممثل سوريا في اللجنةالرباعية يقول ان « سوريا مع ضرورة تنفيذ اتفاق القاهرة على مراحل ، بعد تجميد الوضع في الجنوب » ٠

الدامور ومخيم البيسارية

في نطاق البحث عن حل لقضية المهجرين ، طلبت السلطة اللبنانية من المقاومة الفلسطينية اخلاء بلدة الدامور من مهجري تل الزعتر الفلسطينيين ، على ان ينقلوا الى مخيم جديد يجري بناؤه في منطقة البيسارية قرب صيدا ٠ وقد ذكرت جريدة « العمل » في ٢٢ ـ ٤ ان الرئيس سركيس استقبل السفير السعودي واستفسر منه عن وعد السعودية في تمويل انشاء مركز سكني للاجئين الفلسطينيين لاخلاء الدامور ٠ وفي اليوم نفسه بحث سركيس الموضوع نفسه مع زهير محسن ٠ وفي ٢٣ ـ ٤ عقد رئيس الحكومة الرئيس سليم الحص اجتماعا مع وزير الداخلية صلاح سلمان وبحث معه موضوع مخيم البيسارية ، وقال سلمان « نحن بصدد هذا الموضوع منذ شهر ونصف ، مسؤولية الدولة هي تقديم الارض ، ومسؤولية الاونروا الاهتمام بما يلزم » ، واضاف سلمان ان اقامة المخيمات هي مسؤولية مشتركة بين الاونروا والمنظمة والحكومة ، ويمكن ان نعتبر ان المشروع قد بدأ تنفيذه ٠

وفي ٢٨ ـ ٤ اعلن الرئيس الحص انه تفاهم مع عرفات « على كل الخطوات اللازمة من أجل اجلاء مهجري تل الزعتر عن الدامور الى الارض التي خصصت لهم في البيسارية ، كي يعود اهالي الدامور الى بلدتهم » ٠ وكان قد عقد قبل ذلك (٢٧ ـ ٤) اجتماع ضم السفير السعودي وعرفات وقادة فلسطينيين اخرين وتمت فيه الموافقة نهائيا على اخلاء الدامور ، وحمل السفير السعودي هذه الموافقة الى سركيس ، كذلك استعداد السعودية والكويت لتقديم عون مالي لانشاء مخيم البيسارية ٠ وفي ٢٩ ـ ٤ عقد صلاح سلمان اجتماعا مع توفيق الصفدي رئيس اللجنة السياسية العليا لشؤون الفلسطينيين في لبنان وبحث معه تفاصيل قضية الانتقال ، ثم جرى التوسع في بحث هذه التفاصيل بين الصفدي وعمر مسيكة امين عام مجلس الوزراء ٠ واعلن كميل شمعون (٣٠ ـ٤) ان عملية اخلاء الدامور ستتم في شهر

حزيران بعد انجاز بنـــاء البيـــوت . وللاسراع في انجاز العملية ، خصصــت الحكومة (٦ ـ ٥) ١٠ ملايين ليـــرة كسلفة تقدم للاونروا للانفاق على انشـاء منازل البيسارية ، وقال صلاح سلمـــان ان لجنة مؤلفة من مديريـــة اللاجئيـــن الفلسطينيين والاونروا ومنظمة التحريـــر ستشرف على انشاء المخيم .

بلال الحسن

(٢) المناطق المحتلة

يتعاظم النضال الوطني والديمقراطـــي الذي تخوضه جماهير الارض المحتلة فـــي وجه الكيان الصهيونـــــي ، ومحاولاتـــه المستمرة لفرض الاحتلال كأمر واقـــع ، وتوسيع الاستيطان ، عبر الاستيلاء علـــى الاراضي العربية في الضفة والقطاع . من هنا ، وحول الارض وحرية الارض ، يزداد النضال الوطني والديمقراطي اتساعـــا وشمولا ، ويخترق ، الحصار الشامل الذي تتعرض له القوى الشعبية والديمقراطيـــة داخل الارض المحتلة وخارجها ، ويلتقـــي نضالات القوى الديمقراطية في اسرائيل ، من اجل مواجهة سياســـة الاستيطـــان العنصرية ، وتأكيد حق شعبنا في تقريـــر مصيره واقامة دولته المستقلة . وهذا مـا لاحظه بسام الشكعة ، رئيس بلدية نابلس ، من ان « قيام الجبهة الديمقراطية للسلام ، هو دعم قضية تحرير الارض الفلسطينيـة المحتلة واعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني داخل الارض المحتلة وخارجها وخاصـــة اقامة الدولة الفلسطينية » . وهـــو الشيء الذي اكده كريم خلف ، رئيس بلديـــة رام‌الله ، وبشارة داوود ، رئيس بلدية بيت جالا ، الذي يعتقد « ان وجود قوى داخـل اسرائيل تؤيد حقنا لهو امر مساعد لنـا ويشكل نوعا من القوى الضاغطة علـــى الحكومة الاسرائيلية ، وقيام الجبهة خطوة الى الامام لتوسيع دائرة مؤيدينـــا مـــن اليهود » ..

يضاف الى هذا ان القيادة الفلسطينية المحلية في الضفة الغربية المحتلـــة تحاول كذلك ان تمثل استطرادا لسياسة الخروج الفلسطيني العام من سياسة المصـــادرة العربية لمشاريع العمل الفلسطيني الثورية والشعبية داخل الوطن وفي المهجر . ومن اجل تحقيق هذا الخروج توجه بعضـــ رؤساء البلديات في الضفة الغربية الـى الخليج العربي ، حيث تضعف حدة الابتزاز السياسي ، من اجل الحصول على قروض مالية لدعم اوضاعها وتمويل مشاريـــع الاسكان الشعبية وبناء المدارس ومحطـات السيارات الكبيرة . ولقد تحملت الصحافة

الوطنية في الضفة الغربية المحتلة دورها في تعميق هذا التوجه ووضع اطره وتحديدها · كما جاء في مقالة صحيفة « الفجر » المقدسية التي دعت الى تآخي المدن العربية مع المدن الفلسطينية · وتأخذ « الفجر » البلديات كمثل للمؤسسات الشعبية الوطنية بصفتها الاكبر والاوسع تمثيلا والاكثر ارتباطا بالمواطنين ·وتلاحظ الصحيفة بكثير من الدلالة ان القضايا التي تعاني منها البلديات تزعزع ثقة المواطنين بمجالسهم البلدية في الوقت الذي تحتاج مرحلة النضال الشعبي في الوطن المحتل ضد سياسات الاستيطان الصهيونية وسياسات التركيع التي تمارسها السلطات الاردنية ، عن طريق الامتناع عن الالتزام بتعهداتها المالية نحو البلديات والموظفين ، المحافظة ودعم هذه المجالس البلدية واستمرارها بمواقعها وضمان حصولها على الثقة الشعبية في الدورة المقبلة ·

ان اتساع وشمول حركة الجماهير الفلسطينية المعادية لمشاريع الاستيطان الاسرائيلية في المناطق المحتلة تشكل وعيا سياسيا جذريا لهدف اسرائيل الرئيسي في بناء هذه المستعمرات ومصادرة الاراضي ، فالجماهير الفلسطينية باتت مقتنعة بأن هدف اسرائيل ليس فقط تحسين الدفاع العسكري عن سلامتها بل خلق سياسة من شأنها ان تجعل قيام دولة فلسطينية مستقلة وقابلة للحياة امرا صعبا · لما ستسببه هذه المستعمرات من مواقع استفزاز وقمع دائميين لحركة الجماهير · وكذلك للدور الكولونيالي الذي ستلعبه في استغلال قوة العمل الفلسطينية وايضا في منافسة المنتوجات الفلسطينية الزراعية والصناعية لاجل تهجير العمال العرب واضعاف نضالاتهم ·

ان الجماهير الفلسطينية وهي تسترشد بهذا الوعي لسياسة الاستيطان الاسرائيلي ومصادرة الاراضي ، قامت باضراب شامل يوم ١٧ نيسان (ابريل) لدعم المعتقلين العرب ووقعت اشتباكات في نابلس بين القوات الاسرائيلية وطلاب المدارس العليا· كما وقعت مشادة عنيفة بين رجال الحرس التابعين لبلدية نابلس والحاخام اليهودي مئير كهانا ، رئيس رابطة الدفاع اليهودية ، واربعة من مؤيديه المسلحين الذين حاولوا دخول مكتب بسام الشكعة ، لمحاورته من اجل وضع حجر الاساس للمدينة اليهودية الجديدة · وقد تجددت التظاهرات في اليوم التالي في الوقت الذي قررت فيه السلطات الاسرائيلية اقامة مستوطنة جديدة في مسحة ، جنوبي بلدة قلقيلية ، وفي مواجهة قرية كفر قاسم العربية · ذلك ان اللجنة الوزارية الاسرائيلية للاستيطان التي يرأسها اسرائيل جليلي ،وزير الدولة، قررت يوم ١٨ نيسان (ابريل) خلال اجتماع رسمي في القدس انشاء هذه المستعمرة ، وتشكلها نواتان اولاهما شباب نحال والاخرى اعضاء جوش امونيم · ولقد ادعت القيادة العسكرية الاسرائيلية في بيان لها ان وحدة عسكرية توجهت الى مكان مهجور للشرطة قرب قلقيلية لاقامة مستوطنة لها · واوضح البيان ان المستوطنة ستكون عسكرية يقوم الجنود فيها بمهامهم بالاضافة الى زراعة الارض · لكن الحكومة خصصت مليون ليرة اسرائيلية لتحويل المستعمرة الى مدينة فيما بعد · ولقد لاحظت وكالة اليونايتدبرس ان قرار اقامة هذه المستوطنة جاء عقب استلام شمعون بيرز ، منصب رئيس الوزراء بالنيابة · ويوم ٢١ نيسان (ابريل) تجددت التظاهرات وعمت مدن رام الله ونابلس ومخيم قلندية · ونقلت وكالات الانباء عن شهود عيان ان البوليس استخدم القنابل المسيلة للدموع لتفريق المتظاهرين من الطلاب الذين تخلفوا عن صفوفهم وقاموا باشعال النار في دواليب السيارات

في الشوارع كما رشقوا رجال البوليس الاسرائيلي بالحجارة ٠ وقد ردد الطلاب شعارات ضد قرار الحكومة بشان اقامة مستوطنة في قرية مسحة العربية ٠ وانضم تجار ومحلات نابلس الى الاضراب يوم ٢٦ نيسان (ابريل) احتجاجا على استفزاز جديد حاول الحاخام مئير كهانا القيام به عقب اعلانه عن رغبته دخول المدينة ٠ولقد فرضت السلطات الاسرائيلية حظر التجول على المدينة ٠ وفي اليوم التالي اقام الطلاب المتاريس واحرقوا اطارات السيارات في الشوارع كما تصدوا للسيارات الاسرائيلية بالحجارة ٠ وقدم بسام الشكعة احتجاجا على معاملة القوات الاسرائيلية الوحشية للمتظاهرين الى شمعون بيرز ٠ واشار راديو اسرائيل (رأأ) يوم الثلاثاء في ٢٦ نيسان (ابريل) « انه وعلى الرغم من وضع حواجز على مداخل نابلس ، وعلى الرغم من انه قد اوضح لرئيس البلدية بسام الشكعة انه لن يسمح للحاخام كهانا بالقيام بأعماله الاستفزازية ، فالخواطر لم تهدأ ، بل بالعكس قامت قوات الامن بهدم مخزنين وغرفة في بيت شخص متهم بالانضمام الى م ٠ ت ٠ ف ٠ مما ادى الى زيادة التوتر ٠ والمنظمات المختلفة في المدينة ، التي تسمى بالمنظمات الوطنية ، مثل البلدية وغرفة التجارة ومنظمات النساء والمنظمات العمالية ، بدأت باعداد مذكرة احتجاج ضد الاستيطان ، وضد مصادرة الاراضي ، وضد الحاخام كهانا ٠ » وأورد الراديو ان بسام الشكعة قد اتخذ موقفا وطنيا شجاعا بأن رفض مقابلة الحاكم العسكري الاسرائيلي عندما استدعاه لمقابلته كموقف واضح رد فيه على رفض الحاكم العسكري استقبال وفد البلدية ٠

ان الدلالات السياسية لمشاريع الاستيطان ومصادرة الاراضي والتي ترمي الى خلق ظروف سياسية من شأنها ان تجعل قيام دولة فلسطينية مستقلة وقابلة للحياة امرا صعبا لما ستسببه من استفزاز واستغلال ومنافسة على الاصعدة الامنية والاجتماعية والاقتصادية قد برزت في مدينة الخليل عندما قام المواطنون الفلسطينيون بتقديم احتجاج شديد للسلطات الاسرائيلية على التصرفات اللاانسانية التي يقوم بها مستوطنو مستعمرة كريات اربع وذلك باستمرارهم برمي النفايات في المنطقة الرئيسية من المدينة ، كما نقلت وكالات الانباء يوم ٢٠ نيسان (ابريل) ٠ كما ان بيان القيادة العسكرية الاسرائيلية بشأن اقامة مستوطنة مسحة ، التي ستكون عسكرية يقوم الجنود فيها بمهامهم بالاضافة الى زراعة الارض يوضح دلالات الاستيطان الاسرائيلي الذي يرمي الى اهداف اخرى تتجاوز تحسين الدفاع العسكري ٠

وصعدت الحركة الشعبية الفلسطينية نضالها ضد سياسات الاستيطان الاسرائيلي وسياسات الاستفزاز العنصري التي يقوم بها متطرفو رابطة الدفاع اليهودية بتظاهرات وحواجز كبيرة من الحجارة اقيمت في بلدة قباطية ، قضاء جنين ، حيث قام عشرات الشبان العرب بقذف السيارات الاسرائيلية ورجال البوليس بالحجارة ٠ ولقد رد الجنود الاسرائيليون بوحشية واطلقوا النيران على الشبان العرب مما ادى الى استشهاد الشاب بلال حسن ابو الرب يوم الثلاثاء في الثالث من ايار (مايو) ٠ وعم البلدة هياج بعد ان اعيدت جثة بلال من المستشفى ٠ وفي ساعات بعد الظهر ، عندما تم الدفن ، هوجمت سيارات عسكرية اسرائيلية بالحجارة ٠ فعاود الجنود وحشيتهم واطلقوا النار واصيب ثلاثة من السكان بجراح ٠ ما لبثت فاطمة حمدي ، ان استشهدت ٠ ولقد اخبر خالد عوض الهوني ، رئيس بلدية قباطية ، راديو اسرائيل (رأأ) في مكالمة هاتفية ان البلدية

اعدت عرائض سترسلها الى الهيئات الدولية والى الادارة العسكرية تحتج فيها على عملية القتل · ولقد اكد الراديو ان اسباب التظاهرة في قباطية هي محاولات الاستيطان والاحتلال ، وانه في الآونة الاخيرة انتشرت شائعات حول محاولات استيطانية ستجري في سهل دوثان قرب جنين · وفي اليوم التالي وعقب وصول جثة فاطمة حمدي ابتدأت التظاهرات في مدن جنين ونابلس ورام الله · واعلن منع التجول في نابلس منذ الصباح · وفي جنين عاد طلبة المدارس الى بيوتهم واقفلت الدكاكين واطلقت شعارات وطنية ضد الاستيطان ومؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية ولدولة مستقلة · وقد ابلغ احمد شوقي ، رئيس بلدية جنين ، راديو اسرائيل (ر٦١) مدى معارضة السكان العرب للاستيطان · وقال شوقي « انه بالنسبة لنا لا فرق بين مسحة التي تم الاستيطان فيها وبين وادي دوثان التي ينوون الاستيطان فيها » وفي رام الله قامت طالبات دار المعلمات بتظاهرة في شوارع المدينة ونادين بشعارات وطنية ·

ولقد ابدت الشخصيات والهيئات الرسمية والشعبية في الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزة تأييدا عظيما لحركة الجماهير في نابلس ورام الله وجنين وقباطية من خلال برقيات التأييدالتي وردت الى بلدية نابلس · وجاءت هذه البرقيات من رئيس واعضاء بلدية بيت جالا ، نائب رئيس بلدية البيرة ، رئيس بلدية سلفيت ، قلقيلية ، توفيق زياد ، رئيس بلدية الناصرة ، نائب رئيس بلدية الخليل ، رئيس بلدية البيرة ، رئيس بلدية سلقيت ، رئيس واعضاء بلدية بيت ساحور ، نقابة عمال المؤسسات العامة في طولكرم ، رئيس بلدية دورا ، رئيس واعضاء المجلس البلدي لطوباس وبعض اعضاء الكنيست الشيوعيين والتقدميين ·

لكن هذه الحملة الشعبية والرسمية المؤيدة لنضالات الجماهير في نابلس والمدن الفلسطينية الاخرى لم تمنع القوات الاسرائيلية من الاقدام على عمل بربري · فقد هاجمت هذه القوات يوم ٨ ايار (مايو) مدرسة جنين العليا ، اثر تظاهرات مناوئة لسياسة الاستيطان العنصرية ، حيث انهالت بالضرب على طلاب المدرسة واساتذتها مما ادى الى جرح العديد منهم من بينهم مدير المدرسة الذي نقل مع احد المدرسين الى المستشفى بعد اصابته بجروح في رأسه · وقدم احمد شوقي احتجاجا عنيفا الى الحاكم العسكري الاسرائيلي وطالبه باطلاق سراح الطلاب الذين اعتقلوا خلال التظاهرات · ويوم العاشر من ايار (مايو) تظاهر العشرات من اهالي قرية دير ابو مشعل قرب رام الله احتجاجا على محاولة اسرائيلية للاستيطان في قريتهم · واوردت صحيفة هآرتس الاسرائيلية ان السلطات قد اعتقلت اثنين من المتظاهرين وان سكان القرية اوضحوا ان مجموعة كبيرة من الاسرائيليين دأبت منذ عدة اسابيع على التسلل كل ليلة الى دير ابو مشعل لتلحق بها خسائر جسيمة فتحطم النوافذ وتنتزع الاسلاك الكهربائية وتطلق الرصاص في الهواء · وذكر ان بعض افراد المجموعة يرتدون الزي العسكري ويحملون السلاح· وقال الاهالي ان المجموعة تسعى الى الاستيطان في القرية بعد طردهم منها ·

تشير مشاريع الاستيطان الاسرائيلية، الى الطابع الكولونيالي العنصري للسياسة الاسرائيلية في اجهاض حركة تطور الجماهير الفلسطينية وفي استخدام قوة العمل الفلسطينية من اجل تنمية الاقتصاد الاسرائيلي وعرقلة النمو الصناعي والزراعي في الضفة الغربية وقطاع غزة · كما ان الروح العدوانية والعنصرية التي تسود في هذه المستعمرات ، وهي التي

تقتصر في معظمها على المتطرفين ، ستعيق الى حد كبير فرص النضال المشترك بين القوى الديمقراطية المعادية للايديولوجية الصهيونية وممارساتها في اسرائيل وخارجها ٠ بحيث تصبح هذه المستعمرات العدوانية والعنصرية مواقع ابتزاز للتحريض ضد العرب ، كعدو مشترك يجمع كل الطبقات و « القوميات الاسرائيلية » ٠

ان مهمة القوى الاسرائيلية الديمقراطية العاملة من اجل سلام قائم على حق الشعب الفلسطيني في انجاز مشروعه الوطني في اقامة سلطته المستقلة ، تصبح اكثر دقة وصعوبة في مواجهة السياسة الصهيونية الحالية القائمة على التوسع عبر المستوطنات وعلى القمع بواسطة « شباب نحال » هذه المستعمرات ٠ ان صعوبة موقف هذه القوى الديمقراطية الاسرائيلية يفسر الدعم الذي تسعى الى تقديمه القيادة الفلسطينيةعشية الانتخابات الاسرائيلية العامة ، لوضع اضاليل الصهيونية عن عنصرية وعدوانية النضال الفلسطيني في هامش الدعايات القذرة ٠ وهي مرحلة نضال ديمقراطي عظيمة تخوضها المقاومة الفلسطينية ٠

ناشي طه

اسرائيليّات

(أ) الاسرائيليّون يضخّمون الاستعدادات العربيّة للحرب !

كثرت في اسرائيل خلال الفترة الاخيرة التعليقات والتصريحات حول الاستعدادات العربية المكثفة والمركزة ، لشن حرب اخرى ضد اسرائيل ٠ وقد وصلت هذه التصريحات الاسرائيلية الى درجة كبيرة من التضخيم ، خاصة فيما يتعلق بالقوة العربية التي تفوق القوة الاسرائيلية ٠ والسؤال الذي لا بد من طرحه هنا ، ما هو المقصود من وراء هذه الحملة ؟ خاصة وان بعض القادة الاسرائيليين قد صرحوا قبل مدة ، بان لدى اسرائيل من القوة ما تستطيع بواسطتها تحطيم الجيوش العربية خلال وقت قصير ، وكان على راس الذين صرحوا بذلك ، مردخاي غور ، رئيس اركان الجيش الاسرائيلي، ولكنه تراجع عن ذلكبعد فترة واخذ يضخم الاستعدادات والقوة العربية ٠

ان المقصود من وراء حملة التضخيم هذه في رأينا ، هو ان اسرائيل تواجه كما هو معلوم ازمات اقتصادية واجتماعية ، وفضائح على كافة المستويات ابتداء من رئيس الوزراء والوزراء

والجيش ، وانتهاء بالمؤسسات الحكومية الكبرى هناك ، وذلك ما يجعل المواطـــن الاسرائيلي في دوامة امام ما يحصـــل خاصة وان اسرائيل على عتبة الانتخابات البرلمانية ، ولهذا كله، قد يحصل ما حصل في الماضي ، حين التجات اسرائيل خلال مواجهتها .مثل هـــذه الازمــات ، الــى تسخين الجو السياسي ، وافتعـــــال الاحداث مع احدى الدول العربية ، وتحذير المواطنين الاسرائيليين من خطر هجـــوم عربي وشيك ، او القيام بحملة انتقاميـة اسرائيلية ضد احـدى الدول العربيـة ، وذلك لتصرف الانظار عن الازمـــــات الداخلية ٠ وفي اعتقادنا ان الحملـــــة الجارية لا تخرج عن هذا الاطار ٠

كان من بين الذين ادلوا بدلوهـــم حول هذا الموضـوع ، مردخـــاي غور ، رئيس الاركان الاسرائيلي ، عندما سئـل عن تصريحات الزعماء العرب الاخيـرة ، من انهم سيتجهون نحو الخيار العسكري اذا ما فشلت الجهود السياسية ، فأجاب : حسب تقديري ، فان التهديد فعلي ، وان اسرائيل والولايات المتحدة سترتكبان خطأ فادحا اذا ما نظرت الى ذلك بشك ٠ انني اعتقد ان الدول العربية اذا ما شعـرت في مرحلة ما انه لا يوجد طريق اخـــر لتحقيق امانيها الوطنية ،فانها (الـــدول العربية) ستمسك من جديد بسلاح المعركة٠

وقبل حرب يوم الغفران كانت هنـــاك اراء مختلفة بالنسبة لقدرة الدول العربية العسكرية ، واما اليوم فلا توجد اختلافات في الرأي حول ذلك ٠ حيث ان العـــرب يستطيعون ان يقرروا كل يوم اذا كانـــت هناك ضرورة للخروج الى المعركة ، وانهم يملكون القدرة على ذلك ، ولهذا يجـــب النظر الى هذا الخيار بكامل الجدية ٠ واضاف رئيس الاركان ، ان احد دروس حرب يوم الغفران هو ان الحرب بالنسبة للعرب هي في اساسها سياسية ، وليست هناك ضرورة للوصول الى نصر عسكري كامل ، فيكفي مثلا ، ان يعبر المصريون الى المنطقة العازلة ويسيطروا على بضعة كيلومترات هناك من اجل خلق حالة من الحرب تخلق بالنهاية تحركا سياسيا ٠ وباستطاعتهم ان يفعلوا ذلك اليوم ، ولهذا فان التهديد حقيقي (مقابلةمع رئيـــس الاركان ، دافار٢٢ـ٤ـ١٩٧٧) ٠

وتحدث الجنرال(احتياط) اريئيـــل شارون ، رئيس حركة شلوم تسيون ، عن نفس الموضوع فقال ، ان العربيحضرون لحرب محدودة ضد اسرائيل في عدد من الجبهات ٠ وهذا ، حسب رأيه ، ليـــس بديلا لفشل محادثات السلام في جنيف ، وانما جزء من استراتيجية شاملة ضـــد اسرائيل ٠ وتحدث شارون ، امـــــام المراسلين الاجانب فقال : سيحاول العرب في المستقبل القريب جر اسرائيل الىحرب في المناطق التي لا تستطيع ان تحقق فيها نصرا حاسما ٠ وهذه الاستراتيجية هي احد دروس العرب من حرب يوم الغفران، حيث تبين لهم ، ان هدم اسرائيل لا يحتاج الى حسم عسكري ، وان افضل الطـــرق بالنسبة لهم هي جر اسرائيل الى حرب لا تستطيع الانتصار فيها ٠

وتطـــــرق شارون الى التطــــورات العسكرية الاخيرة ، واحتمالات قيــــام العرب بعمل عسكري فقال : للمــــرة الاولى يوجد في لبنان قوات سوريةتشمل ٥٠٠ دبابة ، على مسافة قصيرة مـــــن حدوداسرائيل ، تؤمن سيطرة المدفعيـــة على خليج حيفا ٠ وعلى جبهة البحـــــر الاحمر ، يقوم العرب بكافة الاستعدادات من اجل جعله بحرا عربيا واغلاقـــــه امام اسرائيل بواسطةاليمن الشماليواليمن الجنوبي والسعودية والسودان ، بدعـــم من دولعربية اخرى ٠ وبهذهالصورةيمكن ان يجروا اسرائيل الى حرب في جبهـــة يستطيعون ان يحققـــوا فيها انتصـــارات تكتيكية وليس نصرا حاسما في الحرب٠ (يديعوت احرونوت ٤ـ٤ـ٧٧) ٠

وتحدث شارون عن الاحتمالات في كل من جبهة سيناء والجبهة الشرقية فذكر انه يمكن ان يتم توقيت عملية اغلاق البحر الاحمر معتحريك الجيوشمن قبل مصر الى ما وراء القناة · « اعود فاقول ان المصريين يحتفظون بجيش يكبر بثلاثة اضعاف وربما اربعة ، ما هو متفق عليه مع اسرائيل على الجانب الشرقي من القناة » · وبالنسبة للاردن ، فقد ادعى شارون ،بان اسرائيل لا تقدر بصورة صحيحة عدم تدخل الاردن في الحرب الاخيرة ، واشار الى انه يجب عدم النسيان ان وحدات اردنية قد اشتركت في الحرب ضد اسرائيل في سوريا ·واكد شارون ، ان الوحدات الاميركية في محطات الانذار لن تمكن اسرائيل من القيام بعمل سريع ، اذا اقتضى الامر · فستضطر الى اجراء اتصالات مع واشنطن بالنسبة لاجلاء الوحدات وسيتطلب ذلك وقتا ثمينا · وحسب رأيه ، فان محطات انذار اخرى في شرم الشيخ والجولان واماكن اخرى على خط المواجهة ، يمكن فقط ان تزيد هذه المخاطر · وحذر شارون من انه يسود العالم الغربي والولايات المتحدة الانطباع ، بأنه توجد في اسرائيل حكومة ضعيفة ، وانه اذا لم تتشكل بعد الانتخابات حكومة قوية ذات سياسة واضحة ، وتعلن عن حالة طوارىء شاملة اجتماعيا وعسكريا ، فان هناك احتمالا « لفتنمة اسرائيل » (المصدر نفسه) ·

في القاهرة يتحدثون عن السلام وفي سيناء عن الحرب ··

تشكو اسرائيل خلال الفترة الاخيرة من خرق المصريين للاتفاقية المعقودة مع اسرائيل ، وادخال قوات اكثر مما هو مسموحبه الى المنطقة الكائنة شرقي القناة · ويتحدث الاسرائيليون عن وجود ١٤ـ١٨ كتيبة عسكرية مصرية شرقي القناة ، في حين تسمح الاتفاقية فقط بوجود ثماني كتائب · وحسب رأي الاسرائيليين ان اكبر خرق قام به المصريون ، هو التجهيزات وعمليات التحصين التي يقومون بها في هذه المنطقة حيث انهم يبنون تحصينات وتجهيزات لاستقبال فرق عسكرية · وقد تم بحث هذا الموضوع خلال الاجتماعات التي عقدها الضباط الاسرائيليون والمصريون في سيناء ، كما بحثها شمعون بيرس مع قائد قوات الطوارىء الدولية · وحذر المراسل العسكري لصحيفة معاريف ، من التصريحات الخادعة حول السلام الذي يتحدث عنه العرب ، وذلك من اجل ابعاد الانظار عن الاستعدادات العسكرية والحربية في سيناء (معاريف ٥ـ١ـ١٩٧٧) ·

وحذر بعض المعلقين العسكريين في اسرائيل ، من الانشغال بالانتخابات وبالمشكلات الداخلية ، وترك العرب يفعلون ما يشاءون ،وقد ذكر احدهم بان الجيوش العربية تستعد للحرب وان عملية التدريب واعداد الخطط الحربية قائمة على قدم وساق · كما توثقت العلاقات بين مصر وسوريا والاردن ، وكذلك وجود احتياطي لوسائل القتال في كل من السعودية وليبيا · وهناك من يدعي في اسرائيل ان سبب الاستعدادات العربية ، ناجم عن سياسة « الفم المفتوح » للرئيس كارتر ، التي سببت احباطا معينا لدى العرب ، حيث ان في نيتهم ان يثبتوا للادارة الجديدة في واشنطن ، « انه بالرغم من وعده بان اسرائيل ستعيش الف سنة ، فان عليه الا يتجاهل القوة العربية » · (يعقوب ايرز ، معاريف ٢٥ـ٣ـ٧٧) ·

وتحدث المعلق نفسه عن الاراء السائدة الان لدى بعض الاوساط الاسرائيلية ، والتي حسب رأيه ،.تشابه الى حد كبير ، ما حدث خلال الاشهر والاسابيع

الاخيرة التي سبقت حرب يوم الغفران · حيث ان النغمة نفسها تسود الاوساط الحاكمة الاسرائيلية ، من ان قوة اسرائيل قد تعاظمت، ولهذا فان الدول العربية لن تجرؤ على القيام بحرب · فذكر المعلق ، بانه سادت نفس الظاهرة قبل حرب يوم الغفران · وتحدث هذا المعلق ، عن عدة تقديرات واحتمالات تسود اسرائيل حول هذا الموضوع · فالتقدير المتطرف يقول ، ان في نية العرب الاستعداد للحرب ، والقيام باستعدادات فعلية ، وتوجيه ضربة وقائية لاسرائيل · وتقدير اخر يقول ، ان العرب سيحاولوا ان يوضحوا للاميركيين بأن الخيار العسكري لا يزال موجودا بايديهم · وذلك من اجل الضغط بصورة غير مباشرةعلى الولايات المتحدة من اجل الاسراع بالعملية السياسية في الشرق الاوسط · واما التقدير الثالث فيقول ، ان الدول العربية ترغب في « تسخين »الحدود ، والمبادرة الى القيام بعمليات عسكرية محدودة مناجل مرافقة الحملة السياسية بالنار · (المصدر نفسه) ·

حرب محدودة لاهداف محدودة

وساهم المعلق العسكري لصحيفة هارتس بدوره في ابراز الاستعدادات العربية للحرب ، فذكر ان موعد بدء الحرب متعلق بالظروف المتغيرة ، واما بالنسبة للعرب وعلى رأسهم المصريون ، فمستعدون للتوصل الى تسوية تستجاب فيها مطاليبهم بمساعدة الولايات المتحدة· ومع هذا ،لا يوجد ادنى شك ، انه بموازاة ذلك ، فان العرب يستعدون بجدية كاملة لحرب اخرى يبادرونإليها في اللحظة المناسبة لهم · واشار الى الخطورة في تبني المفهوم القائل بان العربسيخرجون للحرب فقط ، اذا كان واضحا لهم بان محادثات التسوية في الشرق الاوسط قد فشلت ، او عندما يتضح لهم بان شروطهم للتسوية عديمة النجاح وان مؤتمر جنيف قد وصل الى طريق مسدود، واشار الى ان العرب يمكن ان يشنوا حربا محدودة ، هدفها توجيه ضغط دولي على اسرائيل والتسبب بهزة داخلية فيها · ولمثل هذا النوع من الحرب التي لا يخطط فيها العرب لاحتلال اسرائيل ، ستكون لديهم قوات واسلحة كثيرة (هارتس ٢٥-٣-٧٧) ·

الاستعدادات السورية

تحدث المعلق العسكري ، لصحيفة معاريف ، عن النشاط السوري والاستعداد* للحرب فأشار الى انه خلافا للنشاط السوري في لبنان ، وبالذات في المناطق المجاورة للحدود مع اسرائيل ، فان السوريين يقومون منذ سنتين بنشاط متواصل وموسع شرقي هضبة الجولان · فقد اخذوا مؤخرا اعادة قواتهم بحجم فرقة ، الى خط الجبهة بعد نقلها من الحدود العراقية · وحسب رأي المعلق، فان تحصينات الجيش السوري قد بدأت بعد حزيران ١٩٧٤ ، وتتألف هذه التحصينات من حواجز ترابية ، ومواقع على شكل هلال ، وهذا سيتطلب من الجيش الاسرائيلي تدمير هذه التحصينات القوية · واشار الى ان السوريين يقومون الان بحملة تعبئة وتدريب ، وذلك للتعويض عن القوات السورية الموجودة في لبنان · كما اشار الى شراء سوريا للاسلحة منذ حرب يوم الغفران ، وذلك من فرنسا وبريطانيا ، والسعي الىشراء اسلحة من الولايات المتحدة · وكذلك شراء صواريخ « سكاد » وطائرات « ميغ ٢٣ » وصواريخ « سام ٩ » ووصول الف دبابة سوفياتية وصواريخ ارض -جو وسفن صاروخية (معاريف ٢٦-١-١٩٧٧)·

الجبهة الشرقية

يطلق بعض الاسرائيليين على هذه

الجبهة اسم « الجبهة النائمة » . ولكن يحذرون من الخطر الكامن في ذلك · لانه تجري وراء هذه الحدود الاستعدادات العسكرية التي يمكن خلال حالة الطوارىء او الحرب ان تهدد اطول حدود برية اسرائيلية · واشارت صحيفة معاريف (٢-٢-٧٧) الى انه تم خلال السنوات الثلاث الاخيرة اقامة جيش اردني حديث ، وذلك على التلال المشرفة على الغور ، والقريبة من الحدود · ويعتبر بعض الخبراء العسكريين في اسرائيل ، ان القوة العسكرية الاردنية تعتبر جدية للغاية ، وانه يجب اعطاء اهمية كبرى لهذا الجيش ، وان اهميته لا تكمن في حجمه ، وانما في تدريبه وفي اسلحته المتطورة · ويكمن الخطر الاردني بالنسبة الى اسرائيل ، بسبب قرب المواقع العسكرية من المراكز السكانية ، وكذلك في امكانية ارسال قوات تضطر الجيش الاسرائيلي لتوزيع مجهوده خلال الحرب · وكذلك هناك امكانية ، وبسبب المسافات القصيرة ، من احتلال الجيش الاردني لبعض المحاور الاستراتيجية ،مثل محور اريحا - الخان الاحمر - القدس· وكذلك هناك عامل مهم بالنسبة للخوف الاسرائيلي ، وهو توثيق العلاقات العسكرية السورية - الاردنية ·

الجبهة السعودية

اخذت بعض الاوساط الاسرائيلية تعطي اهمية ما للجبهة السعودية، واخذت تعتبرها احدى جبهات المواجهة · فقد ذكر احد المعلقين العسكريين الاسرائيليين انه في حال حدوث اي توتر عسكري ، او وجود حالة طوارىء على امتداد الحدود فان اسرائيل لا يمكنها ان تتجاهل دولة المواجهة الجديدة : العربية السعودية · وان ازدياد تسلحها الكبير منذ حرب يوم الغفران وتأثيرها السياسي على الدول العربية ،وقربها الجغرافي من اماكن ذات اهمية استراتيجية بالنسبة لاسرائيل، مثل ايلات وشرم الشيخ - كل ذلك جعل منها عدوا محتملا ، يجب اخذه بالحسبان لدى تقدير الوضع وتخصيص القوات من اجل محاربته · (معاريف ١٦-٢-١٩٧٧)

وكان رئيس الاركان الاسرائيلي مردخاي غور ، قد اعلن قبل اكثر من شهرين ،بان السعودية تعتبر « دولة مواجهة بكل معنى الكلمة » · وتحدث غور في حينه عن الاحتمالات التي يمكن ان تقوم بها السعودية :

- الوصول بسرعة بواسطة الدبابات الى ايلات ·
- ارسال الطائرات الى انحاء واسعة من اسرائيل خلال دقائق ·
- قصف شرم الشيخ وضواحيها بواسطة المدفعية ، وحتى المدفعية المتوسطة المدى ·

وذكر ايضا ان السعودية تقوم الان ببناء مدينة عسكرية واسعة ومتشعبة ، على مسافة ليست ببعيدة عن خليج ايلات· حيث ان المدينة المسماة تبوك تشكل قاعدة لوجستية رئيسية للقوة السعودية ، التي ستكون مسؤولة عن الجبهة الاسرائيلية · كما اشارت المصادر الاسرائيلية ، الى انه ينظر بجدية تامة في اسرائيل الى الاستعدادات العسكرية السعودية ·وتمت الاشارة ايضا الى مشاركة السعودية في حرب الاستنزاف التي جرت بعد حرب اكتوبر في منطقة الجولان · « وتعتبر السعودية في هذه المرحلة حسب رأي الخبراء الاسرائيليين ، اكبر مستودع للطوارىء بالنسبة لمصر ، وذلك نظرا لكميات الاسلحة الكبيرة التي تشتريها من الولايات المتحدة وفرنسا ودول غربية اخرى » (المصدر نفسه) ·

البحر الاحمر

تراقب الاوساط الاسرائيلية بحذر ما

يحدث في منطقة البحر الاحمر ، وخاصة في اعقاب تزايد الاهتمام العربي بهـــذه المنطقة ، والمؤتمرات التي عقدت بهـــذا الشأن ٠ وقد اوردت هذه الاوســـاط مصلحة كل دولة عربية على حدة في هذا البحر وهذه المنطقة ، وخلصت الـــى القول ، انه مهما كانت دوافع النشـــاط والاستعداد العربي في منطقة البحـــر الاحمر ، فأنه يوجد بالنسبة لاسرائيل ، وعلى المدى الطويل ، خطر كبير ٠ فحتى الفترة الاخيرة كانت مصر العدو الوحيد لاسرائيل في هذه المنطقة ٠ ولكن هـــذا الوضـــع يمكن ان يتغيـــر بسرعـــة وباستطاعة القاهرة ان تعتمد على ســـت دول عربية تقع على شواطىء البحـــر الاحمر ٠ فعلى ضوء ازدياد حجم الاسطول السعودي وبقية امارات البترول ، فأنـــه لم يعد الردع الاسرائيلي كافيا ضد مصر وضد اية محاولة لفرض حصـــار بحري٠ وانه ينبغي على اسرائيل ان تدرس اهدافا اخرى غير التي عرفناها في الماضـــي (يهوشوع تدمور- دافار ١٤-٢-٧٧) ٠

ضربة وقائيـــة

يعتقد رئيس الاركان ، مردخاي غور، « ان حرب يوم الغفران لم تسلب مـــن اسرائيل الخيار بانزال ضربة وقائية ،وان استعمال ضربة وقائية يمكن ان يحقـــق لاسرائيل مكاسب سياسية وعسكرية على السواء » ٠ وتحدث غور الى اذاعـــة الجيش الاسرائيلي فقال : « كلما زادت قوة الجيش الاسرائيلي ، كلمـــا زادت حرية العمل السياسي لدينا ، بما في ذلك القدرة على توجيه الضربة الاولى ٠ واذا ما فعلنا كل شيء من اجل منع الحرب، وبالرغم من ذلك ، فان الدول العربيـــة ترغب فيه ، والعالم سيتقبل عملنا اذا كنا البادئين في توجيه الضربة ، وستنتهـــي الحرب بمكاسب سياسية وعسكرية على الســـواء » (يديعـــوت احرونـــوت ١٧-١-١٩٧٧) ٠

وحسب اعتقاد رئيس الاركان ، انه لا يوجد اي ضمان لمنع الدول العربية عـــن مفاجأة اسرائيل ثانية ، ودعا اسرائيـــل ان تأخذ في حسابها ، انه بالرغم مـــن استعداد الجيش الاسرائيلي ، فـــان باستطاعة الدول العربية ان تفاجيء بفتح حرب شاملة ،كما حدث في مفاجأة حرب يوم الغفران ٠ وتطرق غور الى امكانية الحرب فقال : « انه لمن الخطأ الاعتقـــاد بان الدول العربية بحاجة الـــى وقت او لسلاح اخر من اجل الخروج الى الحرب٠ ونحن نأخذ بالحسبان انه في كل حـــرب ضدنا ستشارك فيها كافة دول المواجهة، التي هي السعودية والاردن والعـــراق وسوريا ومصر ، وكذلك هناك احتمال بان يصبح لبنان دولة مواجهة » (المصـــدر نفسه) ٠ وكشف غور ، عن نقل الالاف من الجيش الاسرائيلي من مهمات في الجبهة الخلفية والخدمات الى مواقع هجومية ٠

وطالبت صحيفة دافـــار (١-٤-٧٧) اسرائيل بشن حرب وقائية ضد الـــدول العربية ٠ ودعت الى عدم تأجيل هـــذه الحرب ، للحيلولة دون تمكين العرب من تدبير امورهم ٠ واشارت على حكومـــة اسرائيل بان هذا هـــو الوقت المناســـب للقيام بهذا الهجوم ٠ وترى هذه الصحيفة ان مثل هذه الحرب يمكـــن ان تكلـــف اسرائيل ثمنا سياسيا باهظا ، ولكنهـــا من ناحية اخرى تؤكد النصر العسكري، حيث اثبت حرب اكتـــوبر ١٩٧٣ ، ان اسرائيل قد خسرت من الناحية السياسية حتى عندما كانت الدول العربية هـــي البادئة بالعمليات العدوانية ٠

(ب) الانتخابات الاسرائيلية : انتصار لليمين

اسفرت النتائـــج الاوليـة للانتخابات الاسرائيلية التي جرت يوم ١٧ـ٥ـ١٩٧٧ ، للكنيست والسلطات المحلية ، عن فوز كتلة ليكود اليمينيـــة باكثرية المقاعـــد فـي الكنيست ، حيث حصلت على ٤١ مقعدا من بين ١٢٠ مقعدا ، بينما لم يحصل حـــزب العمل الا على ٣٢ مقعدا ، وهذا يعني انه خسر قيادة الحكم في اسرائيل التي تولاها منذ قيامها · وقد توزعت النتائج الاولية على النحو التالي :

	انتخابات ١٩٧٧	انتخابات ١٩٧٣
كتلة ليكود	٤٣	٣٩
كتلة المعراخ	٣٢	٥١
الحزب الديني القومي	١٢	١٠
الحركة الديمقراطية للتغيير (حركة يدين)	١٥	–
اغودات يسرائيل*	٤	٥
بوعلي اغودات يسرائيل	١	
راكح	٥	٤
حركة حقوق المواطن	١	٣
القوائم العربية المرتبطة بالمعراخ	١	٣
حركة السلام والمساواة* (شلي)	٢	١
حركة شالوم تسيون	٢	–
قائمة بلاطو شارون	٢	–
الاحرار المستقلون	١	٤

* في انتخابات ١٩٧٣ خاضت اغودات يسرائيل وبوعلي اغودات يسرائيل الانتخابات في قائمة واحدة ·

* في انتخابات ١٩٧٣ خاضت موكيد الانتخابات بمفردها ، حيث فازت بمقعد واحد كأن يشغله النائب مئير بعيل · الان انضمت الى حركة شلي ، وقد فاز بعيل بصفته المرشح الثاني في القائمة · اما المرشح الاول فهو الياف · بينما خسر اوري افنيري باعتباره المرشح الثالث ·

يستدل من النتائج الاوليـــة المذكورة اعلاه ان الاحزاب العمالية في اسرائيل هي الخاسرة الاولى فيالانتخابات التي برهنت ان لدى الاسرائيليين اتجاها قويا نحـو احزاب اليمين بقيادة كتلة ليكود · ولاول مرة منذ قيام اسرائيل سيتخلى حزب العمل عن قيادة الحكم ، الذي ستتولاه كتلة ليكود بقيادة زعيمها مناحم بيغن ·

لا يعتبر فشل حزب العمل في الانتخابات مفاجأة كبيرة ، اذ ان جميع التوقعـــات واستفتاءات الرأي العام قد اشارت الـــى ذلك قبل الانتخابات · وقد عدد شمعـــون بيريس في مقابلة تلفزيونية عشية اعـــلان النتائج الاولية انه « ما من شك اننـــا تلقينا ضربة قاسية · ومع ذلك فان حزب العمل كبير ويستطيع ان يستيقظ من جديد· انني لم اتوقع نتيجة كهذه ، ولكن كان واضحا ان الحركة الديمقراطية للتغييـــر ستأخذ اصواتها من المعراخ · وقد اصيب المعراخ كذلك بهزات قاسية · كذلك فقـد اثرت بعض الازمات العالمية مثل التضخم المالي العالمي الذي حل باسرائيل ايضا ، هـــذا بالاضافة الـى تغيير الادارة فـي الولايات المتحدة · وفي النهاية لا اوجـه اللوم الى احد » ·

اما يتسحاق بن اهرون سكرتير عـــام الهستدروت سابقا ، واحد زعماء حـــزب العمل فقد وصف نتائج الانتخابات بأنهـــا عقاب لحزبه · واضاف قائلا : « هـــل الجمهور يرغب في تغيير في السياسـة الاساسية · لقد كانت هناك خطة سارت الدولة بموجبها ، وبدايتها في السياسـة الخارجيـــــة والسياســــة الاجتماعيـة والاقتصادية والاستيطانية · هل الجمهور لم يتقبل هذه الخطة ام انه لم يقبـــل بالطريقة التي عرضت بها · انني اميز بين نتائج الانتخابات وبين رغبـات الجمهور الحقيقية واستنتاجي هو ان المعراخ يجب الا يتنازل عن اهدافه وطريقه · عليه ان يعود لنفسه من اجل احداث تجديد داخلي في تركيبه ، ومفهومه الاجتماعي » ·

وعلق اهرون ياريف احد اعضاء حزب العمل سابقا ، الـــذي انسحب والتحـق بحركة يدين فيما بعد : « اعتقد ان المشكلة لا تتعلق بالاهداف التي عرضها المعراخ وانما بالطريقة · توجد هنا معارضـــة للطريقة وليس للاهداف · فالمعراخ لـــم يكن في طريقه مثالا يحتذى به كذلك لم يحرص على قيم العمل · وكان التمسك بالحكم هو القيمة الاساسية في نظره » ·

اما شموئيل تمير احد زعماء الحركـة الديمقراطية للتغيير فقد علق على فشـل المعراخ بقوله : « لقد كان الفشل نتيجة الطريق السلبي الذي انتهجه المعراخ في ادارة شؤون الدولة · فقد وصل الـــى طريق مسدود والجمهور قام بمعاقبته · انني اؤيد حرص حركتي (داش) على الخط الذي رسمته لنفسها ، واعتقد انـه بدونها لا يمكن الان تشكيل حكومة قوية » ·

وفي مقابلة مع جدعون هاوزنر زعيـم حزب الاحرار المستقلين الذي لاقى هـــو ايضا فشلا ذريعا في الانتخابات (من ٤ مقاعد في انتخابات ١٩٧٣ الى مقعد واحد في انتخابات ١٩٧٧) اعلن ان ما حدث لحزبه كان نتيجة لائتلافه مع المعراخ في الماضي « فالجمهور اعرب عن احتجاجه ضد كل من اشترك في الحكومة الاخيرة · بالاضافة الى ذلك فقد غزت حركة « داش » جمهور ناخبينا » (جميع هذه الاقتباسات من التلفزيون الاسرائيلي عشية اعـــلان النتائج الاولية للانتخابات) ·

تعتقد جميع الاوساط السياسية فـــي اسرائيل ان فشل حزب العمل يعود فـــي الاساس الى ظهور حركة يدين وذلك في وقت رغب به الجمهور في التغيير بسبب

الفضائح المالية التي انتشرت في اسرائيل حتى وصلت الى قيادة الحزب الحاكم ·

امكانات تشكيل الحكومة المقبلة

وعشية اعلان النتائج الاولية ، اعلن مناحم بيغن زعيم كتلة ليكود الذي سيكلف بتشكيل الحكومة المقبلة ، ان فوز حركته يعتبر نقطة تحول في تاريخ الشعب اليهودي والحركة الصهيونية · وبعدما شكر جميع الذين ساعدوه على الفوز بالانتخابات ، خاصة اعضاء منظمته الارهابية « الارغون » سابقا ، اعلن انه يقترح التوجه الى جميع الاحزاب الصهيونية لتشكيل حكومة تكتل وطني · الا ان هناك احتمالا ضئيلا بأن يحظى هذا الاقتراح برد فعل سلبي من جانب المعراخ ·

الاحتمال الاخر هو ائتلاف ليكود مع الاحزاب الدينية ومع حركة شالوم تسيون ومع بلاطو شارون · ويبدو ان هذا الائتلاف حتى اذا نجح سيكون ضعيفا ، لذلك فقد بدأ الحديث عن ائتلاف مع حركة يدين · الا ان يدين اعلن ان هناك سبعة شروط يجب ان تتوفر لكي يوافق على الدخول في اي ائتلاف وهي: تغيير تركيب الحكومة ، تغيير طريقة الانتخابات، وضع خطة اجتماعية ، وضع خطة اقتصادية ، اصلاح علاقات العمل ، وضع سياسة واضحة تتعلق بالخارجية والامن ، وضع خطة سياسية واضحة تتعلق بقضية المفاوضات مع العرب ومصير الضفة الغربية · واعلن يدين انه لن يدخل في اي ائتلاف يعارض شروطه هذه · اما اهرون ياريف احد المنضمين لحركة يدين فقد اعلن ان موضوع الضفة الغربية سيمنع الائتلاف بين حركته وبين الليكود· الا ان احد زعماء ليكود رد عليه قائلا انه عندما ستصل الامور الى مسالة الانسحاب من الضفة فيمكن عندئذ اجراء استفتاء شعبي حول ذلك ·

٢٢ قائمة اشتركت في الانتخابات

اشتركت في الانتخابات الاسرائيلية للكنيست التاسع ، التي جرت يوم ١٧ـ٥ـ١٩٧٧ ، ٢٢ قائمة انتخابية تمثل مختلف الاحزاب والكتل السياسية في اسرائيل ، منها من خاض الانتخابات لاول مرة،ومنها من خاضها في انتخابات سابقة · ويمكن ذكر هذه القوائم على النحو التالي : قائمة المعراخ (حزب العمل مع حزب مبام) ويترأسها شمعون بيريس ويغال الون وابا ايبن ، وقد ورد اسم يتسحاق رابين رئيس الحكومة المستقيل في المكان العشرين في القائمة · قائمة الليكود (حركة حروت مع حزب الاحرار) ويتزعمها مناحم بيغن وسيمحا ارليخ ويغال هورفيتش وعيزر ويزمان ، قائمة الحزب الديني القومي (المفدال) ويترأسها دكتور يوسف بورغ ، الحاخام حاييم دروكمان وزفولون هامر ، قائمة الاحرار المستقلين ويتزعمها جدعون هاوزنار ، ابراهام حسون ، نسيم اليعاد وتسفي نير ، قائمة حقوق المواطن برئاسة شولميت الوني وبوعاز موئاف ، قائمة اغودات يسرائيل برئاسة الحاخميين يهودا ابراموفيتش ومناحم بروش وشلومو لورانس ، قائمة عمال اغودات يسرائيل والمعسكر التوراتي برئاسة لكمان مجين ، ابراهام فيرديجر ، حاييم كاهن ودافيد ملخا ، قائمة السلام والمساواة الاجتماعية (شلي) بزعامة اريه الياف ، مئير بعيل ، اوري افنيري وسعاديا مرتسيانو ، قائمة الحركة الديمقراطية للتغيير (داش) برئاسة يغال يدين ،

امنون روبينشتاين ، مئير عميت، شموئيل تامير ومئير زوريـــع . قائمة الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة ـ الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكح) برئاسة مئيـر فيلنر ، توفيق طوبي ، تشـارلي بيتون ، توفيق زياد ، حنا مويس وابراهام ليفنبراون ، قائمة شالوم تسيون وتضم ٣٥ مرشحا برئاسة اريئيل شارون ، قائمة الفهود الصهيونيين وعمال الانتاج برئاسة فيكتور تيار وميخائيل غولدشتاين ، قائمة الحرية ـ جبهة العمال والفهـود السود بزعامة شالوم كوهين ويهوشع بيريتس ، قائمة التجـدد الصهيوني ـ الاجتماعـي برئاسة مردخاي بن بورات وشموئيـــل ياغــــل ، قائمة ارض اسرائيل الكاملة (كاخ) بزعامة مئير كاهانا ، قائمـة الجيل الجديد ـ حركة شبان اسرائيـل برئاسة تسفي ساعــر وجدعون زينجر ، قائمة اتحاد مهاجري اليمين برئاسة يميني بن ـ حور وحاييم ليفي ، قائمة حزب النســاء برئاسة شوشنة اليفانس وتميـا بات اوران ، قائمة بلاتو شارون وتضم اسمه فقط ، ثلاث قوائم عـربية وهي . القائمة العربية الموحدة برئاسة سيف‌الدين الزعبي ، وشيخ حمد ابو ربيعة وجبـر معدي ومحمد حسين غدير ، قائمة حركة الاصلاح العربية ويترأسها محمود عباسي وفرحان سعيد ، حركة التعايش والعـدل ويترأسها شوكت مصاروة وعبـد الرحيم جبارة وصبحي سمارة · والجدير بالذكر ان هذه القوائم الثلاث مرتبطة بالمعراخ · ان تسعا من هذه القوائم قد خسرت في الانتخابات ·

وقد سبق اجراء الانتخابات نشـــاط حــزبي كثيف لاختيار المرشحين وبلورة البرامج المختلفة التي ستخوض الاحزاب الانتخابات بموجبها · وتمثل هذا النشاط بعقد المؤتمرات والاجتماعات الحزبيـــة الكثيرة ، خاصة في الفترة الاخيرة قبـل موعد الانتخابات · وقد تميزت هـــذه الاجتماعات بالصراعات الداخلية خاصة داخل الاحزاب الكبيرة ، حول اختيـار المرشحين للقوائم ، حيث اسفرت في كثير من الاحيان الى ابعاد شخصيات كثيرة وبارزة ، كان لها دور في الحياة السياسية داخل اسرائيل ، ثم الى ابراز وجوه غير معروفة حتى الان ، خاصة من بين جيـل الشباب داخل الاحزاب المختلفة · فمثـلا تعتبر قائمة مرشحي حزب العمل داخـل المعراخ ، نتيجة حتمية للصراع القائـم داخل الحزب بين جماعة بيريس ، وبين جماعة رابين التي تزعمها الون فيما بعد· كذلك اثر على تركيب هذه القائمة قانون التناوب الذي اقره المؤتمر الاخير للحزب، وبموجبه لا يحق لاي عضو كنيست مـن حزب العمل خدم فترتين متتاليتين او اكثر في الكنيست ، ان يكون مرشحا في قائمة الحزب للانتخابات الا اذا طرح ترشيحه للانتخابات داخل مركز الحزب ونـــال موافقة اكثر من ٦٠٪ من الاعضاء · ومن ابرز الاعضاء الذين تغيبت اسماؤهم عن قائمة المرشحين الحقيقيين داخل الحـزب نتيجة قرار التناوب هذا الوزير يسرائيـل جليلي مستشار غولدا مائير ســابقا ، ورئيس الكنيست يسرائيل يشعياهو وهـو يهودي يمني ، ورئيس كتلة المعراخ داخل الكنيست موشي فيرتمان · بالاضافة الـى هؤلاء فقد غاب عن قائمة حزب العمـل وبالتالي قائمة المعراخ ، غولدا مائيـر رئيسة الحكومة السابقة التي استقالت من الكنيست عشية تخليها عـن رئاســة الحكومة · وكذلك هناك اثنان انسحبـا من الحزب فيما مضى وهما ارييه الياف (رئيس قائمة السلام والمساواة ـ شلي) ومردخاي بن بورات (رئيس قائمة التجدد الصهيوني ـ الاجتماعي) · هذا بالاضافة الى اربعـة اعضاء قدامى توفوا خـلال توليهم المنصب وهـم تسفي جرشوني ،

عوزي بيافرمان بنحاس سابير وابراهام عوفر . كذلك هناك عدد من اعضاء حزب العمل داخل الكنيست قرروا الاستقالة بينهم : يسرائيل كرجمان ، ابراهام زيلبربرغ ، يتسحاق بن اهرون ، يوسف الموغي ، عدي يفة ، اهرون يريف، موشي برعام، متيلدا غاز وسنتا يوسبتل.

لقد اثرت هذه التطورات جميعها على تركيب قائمة مرشحي حزب العمل داخل المعراخ في الانتخابات الاخيرة ، فاذا قارنا بين قائمة الحزب لانتخابات الكنيست الثامن وبين القائمة الحالية نجد ان ٥٠٪ من اعضاء حزب العمل قد تبدلوا ، حيث ان هناك ٢٥ اسما في القائمة الماضية لم ترد في القائمة الحالية . ويعتقد الكاتب امنون برزيلاي (هآرتس ، ١٤ـ٤ـ٧٧) « ان قائمة حزب العمل للكنيست تعكس على الارجح فترة الانحطاط داخله . فقد اختفت منها جميع الشخصيات المعروفة تقريبا ، كما اختفى الذين بلوروا خلال قرن طابع الحزب وصورته كحزب اشتراكي . ومع ان القائمة الحالية هي الاكثر فتوة بين القوائم الماضية ، فان هذا الامر لا يمكن ان يكون ، كما يبدو ، مصدر اعتزاز ... لقد احتل مكان اعضاء الكنيست البالغين في السن مرشحون شباب (في الاربعينات من عمرهم) ، ولكن سنهم الفتي هذا لا يمكن في اي حال من الاحوال ان يكون ضمانا لمدى كفاءتهم او قدرتهم البرلمانية . فقد نشأ معظمهم من داخل الجهاز الحزبي ـ التنظيمي على غرار سكرتيري تل ابيب والقدس الياهو شفايزر وعوزي برعام ، واعضاء لجنة التنسيق في الهستدروت خلال الاثنتي عشرة سنة الاخيرة يهودا حشاي او شؤول بن سمحون ... لقد احتل الاماكن الاولى في قائمة مرشحي حزب العمل الوزراء ، كذلك لم توضع اية شخصية اكاديمية في مكان حقيقي . وينطبق هذا الامر ايضا على الاشخاص الذين وصلوا الى مراكزهم نتيجة صراعات عامة او كفاءات شخصية. وخلافا لجميع الاحزاب الاخرى تقريبا ، خاصة الليكود وقائمة يدين ، لم يوضع في قائمة حزب العمل خبراء في القانون والاقتصاد والاجتماع . لقد احتل الناشطون في الحزب جميع الاماكن الاولى. بعد ان توصلت اللجنة التحضيرية (التي اشرفت على تركيب قائمة المرشحين) برئاسة شمعون بيريس ، الى صيغة ترضي مراكز القوى وجماعات الضغط داخل الحزب ... » والجدير بالذكر ان موشي دايان وزير الدفاع السابق قد احتل المكان السادس في قائمة المرشحين للحزب ، ووضع الوزيرين يادلين ويهوشواع رابينوفيتش في المكانين العاشر والثاني عشر . اما يتسحاق نافون فقد وضع في المكان الثامن والوزير موشي هيلل في المكان الرابع .

اما بالنسبة لقائمة حزب مبام ، شريك العمل في المعراخ ، فقد تأثرت ايضا بالانتخابات السرية للمرشحين في مركز الحزب والتي اسفرت عن ظهور اربعة وجوه جديدة في الاماكن السبعة الاولى بين مرشحي مبام لقائمة المعراخ . فمن بين اعضاء الكنيست الستة التابعين لحزب مبام في كتلة المعراخ ، الذين تمثلوا في الكنيست الثامن (العضو السابع هو عبد العزيز الزعبي الذي توفي خلال توليه المنصب) ، اعيد انتخاب ثلاثة فقط وهم اعضاء الكنيست مئير تلمي ، حايكة جروسمان ودوف زاخين . وبالنسبة لعضو الكنيست اهرون افرات فلم يعرض ترشيحه من جديد ، ويبدو انه سيكون وزيرا في الحكومة المقبلة من قبل مبام ، اذا شكلت هذه الحكومة من قبل المعراخ. اما الوجوه الاربعة الجديدة فهي : السكرتير السياسي للحزب نفتالي فيدر ، المحامي موشي عمار من الطوائف الشرقية ، اماري رون

وابراهيم شياط كاتب وصحفي منالناصرة، وكان محرر صحيفة حزب مبام باللغـة العربية ، المرصاد ، ويعمل اليوم سكرتير فرع مبام في الناصرة (موشي مايزلس ـ معاريف ، ٤ـ٤ـ٧٧) ٠

« ثورة هادئة داخل الليكود »

وبالنسبة لكتلة ليكود ، ذات « الطابع المحافظ » ، فقد حدث ايضا مـا يشبه الثورة الهادئة في تركيب قائمة مرشحي الكتلة للكنيست التاسع ، « ليس بواسطة ضم وجوه جديدة ، وانماعن طريق تقدم اعضاء كنيست من الصفوف الخلفية الـى الاماكن الاولى ٠ لقد غيرت قيادة الليكود وجهها تماما ، بعـد غياب شخصيات تاريخية تقريبا في حركة حروت وحـزب الاحرار من الصف الاول ، سواء عن رغبة منهم ، او نتيجة الانتخابات داخل الحزبين او نتيجة لهذين العاملين في أن واحد » (يهوديت فينكلر ـ هآرتس ، ٤ـ٤ـ٧٧)٠

بالنسبة لحركة حروت حدث اجراءان متوازيان : اولهما انحلال الهيئة الموجهـة التي كانت تعمل من حول مناحم بيغن بعد اعتزال دكتور يوحنان بدر ، الثاني فـي قائمة حروت في انتخابات ١٩٧٣ ، الحياة السياسية ، وعدم قيام حاييم لاندو بترشيح نفسه ، ثم فشل يوسف كرمرمان وهـو المرشح الخامس من قبل حروت فـي انتخابات ١٩٧٣ ـ ومركز القوة التنظيمي في حركة حروت حتى قبل سنة ـ فـي الانتخابات المسبقة لاختيار المرشحين ، ثم انسحاب دكتور بنيامين هليفي ـ الـذي وضع في المكان الثالث في قائمة حروت سنة ١٩٧٣ ـ من الليكود ، وانضمامه الى حركة يدين ٠ والتطور الثاني البارز داخل حركة حروت هو ظهور اعضاء « الارغون » سابقا (منظمة ارهابية بقيادة بيغن كانت تعمل في فلسطين قبل قيام اسرائيل) ، الذين انضموا الى النشاط الفعال داخـل الحركة خلال السنين الاخيرة ٠ فعضـو الكنيست يتسحاق شامير انتخب للمكـان الثاني عشر فيقائمة حروت في انتخابات ١٩٧٣ ، والان يعتبر من قيادة الحركة حيث اصبح في المكان الثالث ٠ اما عضـوة الكنيست جؤولة كوهن فقد ارتقت من المكان السادس عشر الى المكان السابع ٠ ونتيجة للانتخابات داخل حروت اصبح عيـزر وايزمان يحتل المكان الثاني في القائمة ، وبروفيسور موشي ارناس احتـل المكان الرابع ، بعد ان سيطر هو ورجاله على فرع الحزب في تل ابيب ٠ وقد كان يحتل المكان الرابع عشر في انتخابات ١٩٧٣ ٠ اما دافيد ليفي من كبار ممثلي حروت في الهستدروت فقد انتخب للمكان الخامس بعد ان كان يشغل المكان العاشر في انتخابات ١٩٧٣ ٠ وابرز الفاشلين في الانتخابات الداخلية في الحركة هو يوسف كرمرمان رئيس فرع تل ابيب سابقا والمرشح الخامس في انتخابات ١٩٧٣ ٠

كذلك حدثت تغييرات كثيرة داخـل قائمة حزب الاحرار الشريك في كتلـة ليكود ، فقد اختفى من قائمة الحزب هذه المرة كل من دكتور اليميلخ ريملط الذي اعتزل رغبة منه ، واريئيل شارون الـذي خاض الانتخابات بقائمة مستقلة (شالوم تسيون) ؛ ويوسف تمير الذي وضع فـي المكان الرابع عشر بعد ان كان في المكان الرابـع في انتخابات ١٩٧٣ ، وعضو الكنيست ابرموف الذي لم يرشح نفسه ٠ وكان من نتيجة الانتخابات ان احتل عضو الكنيست موشـي نسيم وجدعون بـات ويحزكيئيل بلومين وبيصح جروفار اماكن الزعماء التقليديين : فبعد سيمحا ارليـخ زعيم الاحرار ظهر عضو الكنيست موشي نسيم في المكان الثاني في الحزب ٠ وارتفع سكرتير الحزب ، ابراهام شرير ، الـى

المكان الخامس (المصدر السابق) (بالنسبة للقوائم الاخرى يرجى العودة الى العدد السابق من شؤون فلسطينية) ·

المواضيع الاساسية التي اثرت على نتائج الانتخابات

ان كل من يتتبع فترة ما قبل الانتخابات يرى ان الاحزاب ركزت في دعايتها الانتخابية على مواضيع اساسية تتعلق اساسا اما بالوضع الداخلي او بالسياسة الخارجية ومسألة المفاوضات مع العرب والموقف من القضية الفلسطينية · فبالنسبة للوضع الداخلي كانت اهم المواضيع التي طرحت هي تلك المتعلقة بالحالة الاقتصادية السيئة في اسرائيل التي تفاقمت مع اقتراب موعد الانتخابات نظرا للاضرابات العمالية في اكبر المرافق الاقتصادية في البلد ، كالموانيء مثلا ، ثم التضخم المالي السريع وعبء الضرائب الذي يزداد ارتفاعا سنة بعد اخرى، ثم موقف الحكومة من هذه الامور وافتقارها الى الحلول الملائمة خاصة قبل الانتخابات لئلا يؤدي الامر الى غليان بين الجمهور يعود بالضرر على الحزب الحاكم·كذلك طرحت المواضيع المتعلقة بالوضع الاجتماعي واهمها انتشار الفساد حتى على صعيد الحكم والادارة (قضية رابين وزوجته وقبلها قضية يدلين وقضية وزير الاسكان ابراهام عوفر الذي انتحر بسببها)، ثم تفاقم الهوة الاجتماعية بين الطوائف اليهودية المختلفة وما تعانيه الطوائف الشرقية نتيجة لذلك ·

لقد استغلت هذه القضايا جميعها استغلالا حسنا خلال فترة الدعاية الانتخابية من قبل جميع الاحزاب المناوئة للمعراخ ، خاصة كتلة ليكود ، التي حاولت اظهار عيوب الحكم وفشله من خلال التطرق الى هذه المواضيع · وقد اظهر استفتاء للرأي العام اجراه الخبير الاحصائي حانوخ سميث (معاريف ، ٢٨-٣-٧٧) ان التضخم المالي يحظى باكبر نسبة من اهتمام المستفتين (٣٤٪) ، ومستوى المعيشة في الدرجة الثالثة (٢٦٪) ، والفساد في الحكم في الدرجة الرابعة (٢٥٪) ، وعبء الضرائب في الدرجة الخامسة (٢٣٪) · اما الهوة الاقتصادية فقد حظيت باهتمام ١٧٪ والاضرابات بـ ١٤٪ والهوة الاجتماعية بـ ١٢٪ ·

كذلك ركزت قائمة يدين (داش) على الوضع الداخلي حاملة شعار « التغيير » كأساس لدعايتها الانتخابية ، ولا يعني « التغيير » بالنسبة لها شيئا يتعلق بالسياسة الخارجية والموقف من العرب ، كما ظهر في البرنامج الانتخابي للحركة ، الذي لا يختلف شيئا عن موقف الحزب الحاكم وان كان في بعض النواحي اكثر تصلبا ، وانما التغيير الذي تنشده يتعلق اساسا بالوضع الداخلي سواء بالنسبة الى القضاء على الفساد وتقليص الهوة الاجتماعية ، او تغيير طريقة الانتخابات ·

الموقف من القضية الفلسطينية كما برز قبل الانتخابات

لقد برز الموقف من القضية الفلسطينية ومستقبل العلاقات مع العرب ثم مصير المناطق المحتلة ، بصورته الكاملة خلال الفترة التي سبقت الانتخابات · فلم يبق حزب او كتلة سياسية الا واعربت عن رأيها الكامل في هذا الموضوع ابتداء من الحزب الحاكم ثم احزاب الوسط وانتهاء بالاحزاب اليمينية المتطرفة · ويمكن تقسيم وجهات النظر حول هذا الموضوع الى النقاط الاتية :

اولا : رفض الانسحاب من المناطق المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزه رفضا مطلقا ، وعدم الاعتراف ، بأية

مساهمة اسرائيلية مهما كانت في ايجاد حل للمشكلة الفلسطينية ، على اعتبار أن الدول العربية هي الملزمة على ايجاد حل لهذه المشكلة ضمن مناطقها · وانطلاقا من ذلك عدم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ورفض التفاوض معها ، باستثناء زعيم حركة شالوم تسيون ارئيل شارون ، الذي يؤيد التفاوض مع اية جهة فلسطينية حتى ولو كانت منظمة التحرير ، ولكن بشرط ان يكون الحل الذي يمكن التوصل اليه ضمن هذه المفاوضات خارج الضفة الغربية وقطاع غزه ، حيث يعارض شارون الانسحاب منها · وابرز المعتنقين لهذا الرأي ، أي عدم الانسحاب كليا وعدم التفاوض كليا ، هي كتلة ليكود اليمينية والحزب الديني القومي (المعذال) ·

ثانيا : الاستعداد للقبول بتسوية سياسية في الضفة الغربية وقطاع غزة، مع الانسحاب من بعض مناطقها فقط ، على أن يكون الاردن الحد الامني لاسرائيل، وأن تكون «القدس الموحدة» عاصمتها · ويرفض أصحاب هذا الرأي مبدأ اقامة دولة فلسطينية في المناطق التي ستنسحب منها اسرائيل ، لانها ستشكل حسب رأيهم خطرا أمنيا على وجود اسرائيل لقربها من المراكز السكنية خاصة في منطقة تل ابيب · ويؤيد هؤلاء ايجاد حل للمشكلة الفلسطينية في اطار اتحاد مع الاردن ، على أن يتم التفاوض بشأن هذا الحل مع السلطة الاردنية وبعض الممثلين الفلسطينيين من الضفة الغربية ، ثم معارضة اي نوع من المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية «لانها لاتعترف باسرائيل» · وابرز الاحزاب التي تبنت هذا الرأي ، حزب العمل واحزاب الوسط مثل الاحرار المستقلين وحركة يدين ·

ثالثا : تأييد الانسحاب كليا من المناطق التي احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧ ، والتفاوض بشأن اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزه تعترف باسرائيل واسرائيل تعترف بها ، مع اية جهة فلسطينية حتى لو كانت منظمة التحرير الفلسطينية · واصحاب هذا الراي هم اعضاء مجلس السلم الاسرائيلي ـ الفلسطيني ، الذين أسسوا حركة « شلي » بزعامة لوبا الياف ومئير بعيل واوري افنيري وغيرهم · وتؤيد راكاح هذا الرأي مع الاصرار على مفاوضة منظمة التحرير الفلسطينية ·

ولخص يشياهو بن بوررات (يديعوت احرونوت ٨ـ٤ـ٧٧) ومواقف اهم الاحزاب الاسرائيلية على مختلف انتماءاتها على النحو التالي :

حزب العمل : « ستستمر الجهود السياسية لايجاد سلام مع مصر والاردن وسوريا في حدود قابلة للدفاع ، ومن خلال الاستعداد لتسوية اقليمية مع كل من هذه البلدان ، ومع لبنان في الحدود القائمة » ويعتقد الكاتب في بداية المقال ان حزب العمل ابدى تحولا سياسيا في استعداده للقبول بتسوية اقليمية مع الاردن ، وهذا يعني انسحابا جزئيا من الضفة الغربية وقطاع غزة · وعلى هذا الاساس تبرز هنا المشكلة التي اثارها وزير الدفاع السابق موشي دايان الذي اعتبر ان هذا الامر معناه منح حرية التصرف للحكومة المقبلة للانسحاب من الضفة الغربية ، وطالب بالتزام علني باجراء انتخابات قبل اي انسحاب كما التزمت في السابق حكومتي غولدا مائير ويتسحاق رابين · وقد هدد دايان بالانسحاب من حزب العمل والانضمام الى كتلة ليكود في حال عدم التقيد بطلبه هذا · الا أنه تراجع فيما بعد بعدما تسلم رسالة خطية من رئيس الحكومة المستقيل يتسحاق رابين يعلن بها انه «لايعارض، مبدئيا ذلك البند الذي يفوض الحكومة

باجراء مفاوضات مع الاردن واتخاذ قرارات في كل مرحلة من مراحل المفاوضات · ولكن لن يتم تحقيق اتفاق سلام مع الاردن ينص على تنازل اقليمي عن مناطق في اليهودية والسامرة قبل التوجه الى الشعب في انتخابات جديدة ، اذا كان هذا مطلب احدى الكتل الشريكة في الائتلاف الحكومي»(معاريف ٤ـ٤ـ٧٧)

الاحرار المستقلون : يشابه موقفهم موقف حزب العمل، حيث ورد في برنامجهم الانتخابي مايلي : «من اجل تحقيق سلام والحفاظ على طابع دولتنا اليهودي ، توافق اسرائيل على تسوية اقليمية على جميع الجبهات · ان سياسة اسرائيل هذه تلزم قيام دولة يمكن الدفاع عنها ،وتجريد المناطق التي سينسحب منها جيش اسرائيل من السلاح » ·

حركة يدين : تبدي حركة يدين (داش) تصلبا اكبر في هذا الموضوع · فقد ورد في برنامجها الانتخابي ان « لشعب اسرائيل حق تاريخي في ارض اسرائيل، ولمناطقها اهمية امنية ذات قيمة كبيرة · رغم ذلك يلزم السعي نحو السلام والحفاظ على الطابع اليهودي ـ الديمقراطي للدولة ، استعدادا للقبول بتسوية اقليمية من خلال ضمان شروط الامن كجزء غير منفصل من اتفاق سلام تعاقدي وحقيقي يؤدي الى خلق اجواء طبيعية في المنطقة ·· وفي اتفاق السلام يتم توفير حدود امنة ، حيث يكون الاردن الحد الامني من الشرق ، مع ضم مناطق واقعة الى الغرب منه ، تكون ضرورية للسيطرة الامنية عليه · وينبغي معارضة اي انسحاب في الجبهة الشرقية ، سالم يكن مرفقا باتفاق سلام كامل» ·

الليكود : «ان حق الشعب اليهودي في ارض اسرائيل هو حق ابدي ، غير قابل للطعن ، وهو متماثل مع الحق في الامن والسلام · لذلك فان اليهودية والسامرة لن تسلم الى أي حكم اجنبي · وبين البحر وبين الاردن ستكون السيادة الاسرائيلية فقط · ان كل مشروع يتضمن تنازلا عن اجزاء في ارض اسرائيل الغربية ، يطعن في حقنا في هذه الارض ، ويؤدي بصورة غير مستبعدة الى اقامة دولة فلسطينية ، تشكل خطرا على أمن السكان المدنيين وعلى وجود اسرائيل ، وتحبط كل امكانية للسلام» ·

هذا يعني ان ليكود يدعو علنا الى ضم الضفة الغربية الى اسرائيل ·

حركة شارون (شالوم تسيون) : «ينبغي ان يعيش اليهود في جميع اجزاء ارض اسرائيل ، بموجب حقنا التاريخي غير القابل للطعن في ارض اسرائيل · وكما يعيش العرب اليوم في جميع اجزاء ارض اسرائيل ، هكذا سيعيش فيها اليهود» ·

الحزب الديني القومي : «يعارض الحزب كل مشروع يتضمن تنازلا على اجزاء من ارض اسرائيل التاريخية ارض اجدادنا ، ولن يسلم بمشروع كهذا ، ان ممثلي المفدال لا يمكنهم ان يكونوا شركاء في اي مشروع تقدمه اسرائيل ، ولايشتمل على بقاء اليهودية والسامرة» ·

راكح : «يجب ان تنسحب اسرائيل من جميع المناطق التي احتلتها في حزيران ١٩٦٧ · يجب ان تكون حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ الحدود المعترف بها والامنة · يجب الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، واقامةدولة مستقلة الى جانب دولة اسرائيل ذات السيادة» ·

حركة « شلي » « ان انشاء دولةعربية ـ فلسطينية الى جانب دولة اسرائيل يكون ثمرة مفاوضات بين حكومة اسرائيل وبين هيئة معترف بها ومفوضة للعرب الفلسطينيين ، وذلك بدون رفض المفاوضات مع م · ت · ف على اساس

الاعتراف المتبادل · ويرتكز خط الحدود بين اسرائيل والدولة الفلسطينية على خطوط الهدنة كما كانت قبل حرب حزيران ١٩٦٧ ، مع تغييرات يتفق عليها بين الاطراف ، وبعد تسوية مشكلة القدس · وتحافظ اسرائيل على ارتباطها بالصهيونية وبالشعب اليهودي في المهجر ، بينما تحافظ الدولة الفلسطينية على ارتباطها بالعالم العربي» ·

مبام (شريك حزب العمل في المعراخ) : «تعلن اسرائيل عن استعدادها لاخلاء المناطق التي تحتفظ بها في سيناء ، الضفة الغربية والجولان ، وعن استعدادها لانسحاب بعيد المدى ، مع تعديلات ضرورية في الحدود ، تلزمها متطلبات امنها ورغبتها في السلام ، وفي حدود امنة ومعترف بها ومتفق عليها · وتلزم اسرائيل حلا سياسيا يرتكز على قيام دولتين مستقلتين تتمتعان بالسيادة : اسرائيل ودولة عربية اردنية ـ فلسطينية ، يتجسد فيها حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني» ·

الاتجاه المتصلب هو المسيطر

من المتوقع ان يزيد فوز الليكود في الانتخابات الاخيرة الاتجاه المتصلب من القضية الفلسطينية في المستقبل · فالاحزاب اليمينية المتطرفة تعلن صراحة عن رغبتها في ضم المناطق في الضفة الغربية وقطاع غزه الى اسرائيل · «في حال فشل المفاوضات مع العرب حول السلام» · وربما سيقوم الحكم الجديد بالخطوة الاولى في اتجاه الضم بعد اعلان الحكومة ، وذلك **بفرض القانون الاسرائيلي على الضفة الغربية وقطاع غزة** · هذا ما اعلنه زعماء ليكود حتى قبل الانتخابات والامر الثاني هو توسيع الاستيطان في جميع انحاء المناطق المحتلة بدون اي رادع ، خاصة ان اعضاء الحركات الاستيطانية الدينية المتطرفة ، امثال غوش ايمونيم هم من انصار ليكود ·

حنه شاهين

(ع) مناحيم بيغن من الارهاب الى السلطة

ولد مناحيم بيغن يوم ١٦ـ٨ـ١٩١٣ في بريسك ببولونيا · وكان والده صهيونيا وسكرتيرا للجالية اليهودية هناك · وقد انهى بيغن دراسة القانون في جامعة وارسو · وانضم في سن مبكرة الى منظمة بيتار (حركة الشبيبة التابعة للصهيونيين الاصلاحيين اليمينيين) وتأثر الى حد كبير بشخصية وافكار جابوتنسكي · وفي عام ١٩٣١ انضم الى مفوضية بيتار في بولونيا · ولدى بلوغه سن الثالثة والعشرين اصبح ممثل بيتار في تشيكوسلوفاكيا ، وبعد سنتين تسلم مفوضية بيتار في بولونيا · وفي تلك الفترة تم اختياره للمركز العالمي التابع

للمنظمة الصهيونية الجديدة (الاصلاحية) · ويعتبر بيغن من الجناح المتطرف للحزب · وعندما اندلعت ثورة ١٩٣٦ في فلسطين قام بيغن بتنظيم المظاهرات امام القنصلية البريطانية في وارسو ، وتم اعتقاله لفترة قصيرة ·

وعندما احتل النازيون بولونيا ، هرب الى فيلنا · وفي سبتمبر من عام ١٩٤٠ اعتقله البوليس السري الروسي ، وحكم عليه بالسجن ثماني سنوات مع الاشغال الشاقة ونقل الى شمال شرقي روسيا · ولكنه لم يمكث هناك سوى سنة واحدة حيث اطلق سراحه بعد اتفاقية ستالين ـ شيكورسكي · وفي شهر نيسان ١٩٤٢ وصل بيغن الى فلسطين ، كجندي في الجيش البولوني قادما من روسيا ، وكانت منظمة الاتسل تعاني من الازمات والانشقاقات، فرأى البعض في قدومه خلاصا من هذه الازمات · لهذا طلبت منه المنظمة الانضمام الى صفوفها ، حيث اخذ اجازة من الجيش البولوني ، وعين للعمل في قيادة الاتسل ، ولكن الجيش البولوني استدعاه للخدمة مرة اخرى ، فترك المنظمة وعاد الى الجيش · وبتاريخ ١ـ١٢ـ١٩٤٣ ، نجح حزب الاصلاحيين في اقناع السلطات البولونية بتسريحه من الجيش ، ومن يومها تسلم قيادة منظمة « الاتسل » واطلق عليه اسم حركي « بن دافيد » ، وقد تسلم القيادة بصورة رسمية يوم ٢٦ـ١ـ١٩٤٤ ، وبقي قائدا لهذه المنظمة حتى عام ١٩٤٨ ·

لا يؤمن بيغن بشيء اكثر من الحرب ، ويؤمن انه يمكن بواسطتها تحقيق كل شيء ، وهو من الذين اطلقوا فلسفة « نحن نحارب ، فنحن اذن نكون » · وبهذا المبدأ حارب بيغن هو ورجال منظمته كل من وقف في طريق تحقيق اهدافهم في اقامة دولة يهودية على ارض فلسطين · فحاربوا الانكليز وحاربوا العرب كما حاربوا اتباع وايزمن وبن غوريون ـ لاعتقادهم بأن سياسة الدبلوماسية التي استنها وايزمن ما هي الا تمييع لقضية الصهيونية واهدافها ·وكانوا في كل مناسبة يحثون الوكالة اليهودية على اتباع سياسة العنف . ويصف نفسه ، بأنه « رجل حرب » ، يثق بأن اسرائيل تستطيع ان تهزم الدول العربية شرقا وغربا وفي نفس الوقت · ويؤمن باسرائيل الكبرى التي تمتد من الصحراء الى البحر ، ويعتبر ان شرقي الاردن هي جزء من الدولة اليهودية كما يؤمن بأنه لن يكون هناك سلام لا للعرب ولا لليهود ، طالما لم تتحقق اسرائيل الكبرى ·

وقد نفذت منظمته الاتسل وتحت قيادته العديد من اعمال القتل والسلب الجماعية ، ضد الابرياء من ابناء الشعب الفلسطيني ، وكان اهمها مجزرة دير ياسين التي ذهب ضحيتها، كما اعترفت به منظمة « الهاغاناه » اكثر من ٢٥٠ شخصا ، وكان من بينهم الاطفال والنساء والشيوخ دون اي تمييز او رادع · وقد قام بيغن ومنظمته بذلك ، « لتنظيف » العرب واقتلاعهم من فلسطين ، وقد اعترف بيغن نفسه ، بان عملية دير ياسين ، قد افادتنا اكثر من مائة معركة ، حيث ارادوا ان يوضحوا للسكان العرب ، ان البقاء في قراهم ومساكنهم ، معناه انه ينتظرهم نفس المصير · وكذلك نسف فندق الملك داود وغيرها من الاعمال الاجرامية البشعة ·

وكان بيغن قد وعد ممثلي المجلس الصهيوني العام ، بالانصهار في الجيش الاسرائيلي عند قيام الدولة ·وفيحزيران١٩٤٨ تعهد مرة اخرى فيانضواء « الارغون » تحت لواء ما يسمى جيش الدفاع الاسرائيلي ، وان تتوقف عن العمل كوحدة عسكرية مستقلة وان تنهي نشاطها المستقل للحصول على السلاح · غير ان هذا التعهد لم ينفذ بكامله ، فكان ان لجأت الحكومة الاسرائيلية الى القوة لفرض سلطانها · ولكن الارغون استمرت

في القدس على انفصالها بحجة ان المدينة لم تكن ضمن حدود « الدولة » ، فوجه لهـا انذار نهائي في ٢٠ ايلول ١٩٤٨ لم تملك المنظمة الا الانصياع له والانصهار في الجيش الاسرائيلي ·

بعد الحرب ترك المدنيون من الاصلاحيين « المنظمة الصهيونية الجديدة » وعادوا الى المنظمة الصهيونية العالمية ، غير ان بيغن وجماعته رفضوا تلك الخطوة ، وكونوا عام ١٩٤٨ حزبا صهيونيا سمي « حزب حيروت » ، وانتخب بيغن الارهابي المعروف ، رئيسا له ، وبقي في هذا المنصب حتى هذه الساعة ·

وقبيل انتخابات الكنيست عام ١٩٦٥ ، اتحد حزب حيروت وحزب الاحرار وشكلا كتلة جديدة سميت بكتلة « جاحل » وبقي بيغن رئيسا لها ، وتم قبيل انتخابات ١٩٧٣ ، تشكيل كتلة جديدة من مجموعة من الاحزاب ، حيروت ، والاحرار والقائمة الرسمية والمركز الحر ، اطلق عليها اسم الليكود « التكتل » وانتخب بيغن رئيسا لها · وهذه الكتلة « الليكود » هي التي حققت انتصارا في الانتخابات الحالية ، على التجمع « المعراخ » ·

ح·ب·

جَدول بالعمليّات العَسكرية
لقوات الثورة الفلسطينية
في ١/٤ - ١٩٧٧/٤/٣٠

الرقم	تاريخ العملية		موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو	
	اليوم	الساعة				قتيل	
١	٤/٤	١١,٤٥	البقعة – القدس المحطة الرئيسية للقطارات	تفجير	عبوات ناسفة وموقوتة	غير محدد	
٢	٣ / ٤	١٨,٠٠	ميدان باب العامود القدس	هجوم	قنابل يدوية		
٣	٤ / ٤	١٨,١٥	ميدان باب العامود القدس	هجوم	قنابل يدوية	غير محدد	
٤	٣ /٤	٢,٠٠	بيت الشباب الصهيوني شارع كيوم – حيفا	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	
٥	٣٠ / ٣	٢١,٠٠	مستوطنة كفار عصيون	قصف مدفعي	مدفع عيار ٨٢	غير محدد	
٦	٧ / ٤	٢٠,١٥	مكتب العمل الصهيوني في بلدة دورا – قضاء الخليل	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	—	
٧	١٣ / ٤	٢٢,٣٠	منزل ضابط التحقيق في مستوطنة باب يام جنوب تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	—	
٨	١٥ / ٤	١٨,١٥	مصنع ماسكيت لصناعة السجاد المنطقة الجنوبية لقرية أم الفحم	تفجير	عبوات حارقة موقوتة		
٩	١٨ / ٤	١,٠٠	أحد المقاهي الصهيونية شارع ها عتسيل – حي تكفا تل أبيب ومحطة الباصات القريبة من المقهى	هجوم	أسلحة رشاشة وقنبلة يدوية	غير محدد	
١٠	٢٢ / ٤	٥,١٥	بنك لئومي الصهيوني قلقيلية	تفجير	عبوات حارقة موقوتة	— —	
١١*	٢٤ / ٤	٧,٢٠	أحد الباصات التابعة لشركة ايجود قرب مركز ابن شموئيل على بعد ١٠ كلم من كريات جات	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	

*اعترف راديو العدو بالعملية وقال في نشرته باللغة العبرية الساعة العاشرة من صباح ٢٤/٤/٧٧ ان ناسفة داخل الباص اثناء توجههم من كريات جات الى بئر السبع وان قوات الامن الصهيونية لم تعتقل اصيبوا داخل الباص بلغ ٢٧ مستوطنا وان قوات الامن اعتقلت ٦٠ مواطنا فلسطينيا .

البشرية	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة			المصدر البلاغ العسكري	
جريح		شهيد	جريح	مفقود	رقم	تاريخ
غير محدد	إصابة عربة القطار بأضرار وتحطم معظم محتوياتها	–	–	–	٣٥ / ٧٧	٤ / ٤
٣	إصابة السيارة العسكرية بأضرار بالغة	–	–	–	٣٦ / ٧٧	٥ / ٤
غير محدد	–	–	–	–	٣٧ / ٧٧	٥ / ٤
غير محدد	١ – اتلاف معظم محتويات البيت من أثاث ٢ – تصدع أحد جدران	–	–	–	٣٨ / ٧٧	٨ / ٤
غير محدد	١ – اصابة مبنى حرس الحدود ٢ – اصابة الوسط التجاري ٣ – خسائر في الممتلكات	–	–	–	٣٩ / ٧٧	١٠ / ٤
١	١ – تدمير جميع محتويات المكتب من أثاث وملفات ٢ – إصابة الحارس المكلف بحراسة المكتب	–	–	–	٤٠ / ٧٧	١٠ / ٤
غير محدد	١ – تدمير واتلاف معظم محتويات المنزل ٢ – تحطم معظم زجاج المبنى والمباني المجاورة	–	–	–	٤١ / ٧٧	١٤ / ٤
–	اندلاع النيران داخل مخزن الصوف وغرف الآلات وأتت على محتوياتها بالكامل	–	–	–	٤٢ / ٧٧	١٨ / ٤
غير محدد	–	–	–	–	٤٣ / ٧٧	١٨ / ٤
	١ – اندلاع النار داخل البنك ٢ – تدمير الأثاث والمحتويات في داخله	–	–	–	٤٤ / ٧٧	٢٤ / ٤
غير محدد	١ – تدمير الباص تدميراً كاملا وتدهوره ٢ – إصابة وقتل جميع الركاب .	–	–	–	٤٥ / ٧٧	٢٥ / ٤

٢٠ مستوطنا اصيبوا بجروح نتيجة انفجار عبوات
احدا · ثم عاد راديو العدو ليقول ان عدد الذيـن

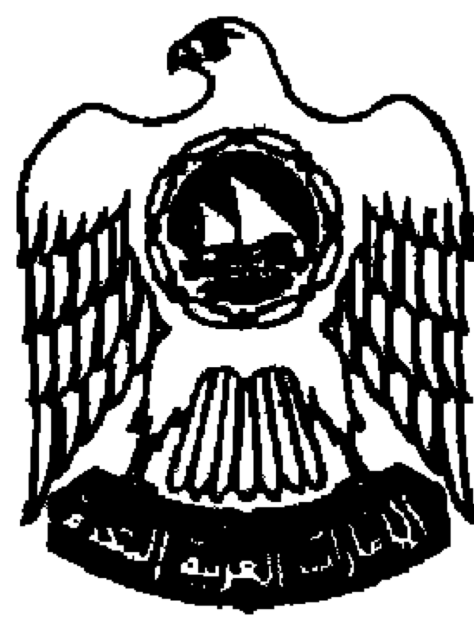
مروان حميد

شركة عصام للمقاولات العامة

Essam Co. For General Contracting

Abu Dhabi - U.A.E. ابوظبي-الامارات العربية المتحدة

Cable : " ESSAMCO " برقياً : عصامكو
Tel. : 61639 تلفون : ٦١٦٣٩
P. O. Box 4121 ص.ب : ٤١٢١



شركة عصام للمقاولات العامة
ابوظبي - شارع الخالدية
ص.ب ٤١٢١
دولة الامارات العربية المتحدة

شركة المقاولات العربيّة

عدنان درباس

ابوظبي - شارع الشيخ زايد الثاني

ص. ب : ٢٣٨

هاتف : ٢٢٦٦٨

٢٢٧٤١

تلكس : ٢٥٥٨

دولة الامارات العربيّة المتحدة

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Mahmoud Darwish ; *Annual Subscription* (airmail) : Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351261; Cables: MARABHATH.

السعر ١/٢ ٣ ل٠ل٠ في لبنان
٤ ل٠س٠ في سوريا
٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق
٨ دراهم في دولة الامارات العربية
١/٢ ٤ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية
٣٥٠ درهما في ج٠ع٠ل٠